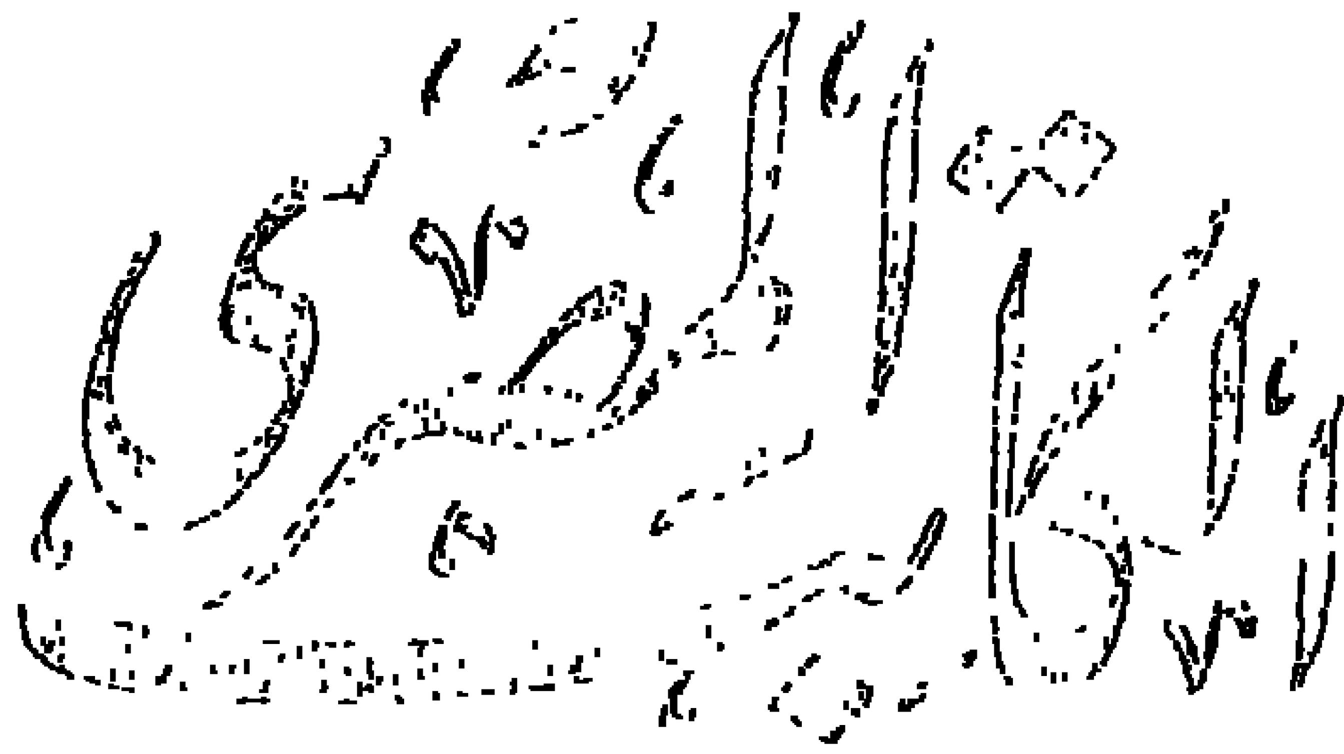
مجلد ٤ — عدد ١٣

أكتوبر ١٩٤٦



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

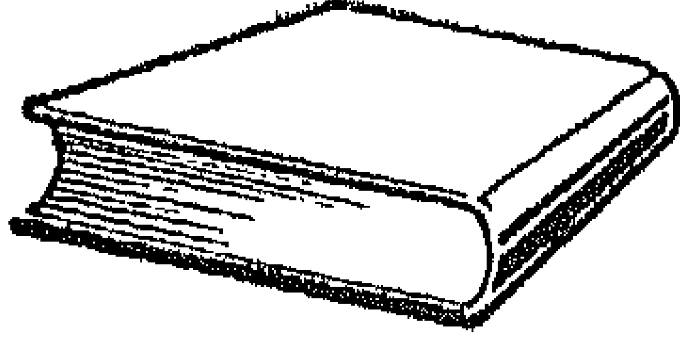
فهرس

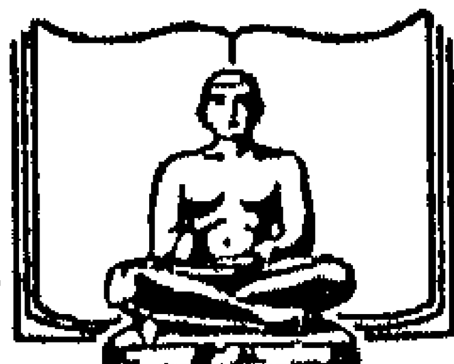


تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

القاهرة





رجل الأقدار

في هذا الكتاب الفذ، لمؤلفه الفذ، يبدو نابليون عظيما في رفعته، عظيما في محنته، يثير الاهتمام اليوم، كما أثاره قبل اليوم، ويثيره بعد اليوم: شخصية ضخمة يتعدل فيها الرأي كل يوم.

فنابليون السائس، ونابليون القائد، ونابليون المفكر، قد كان إلى ذلك رباً من أرباب القلم، ومالكا قديراً لناصية الكلام.

في هذا الكتاب يحدثنا نابليون عن نفسه، ويعايش في حاضرنا كما عاش في حاضره، ويعرض صور عصره حية متحركة.

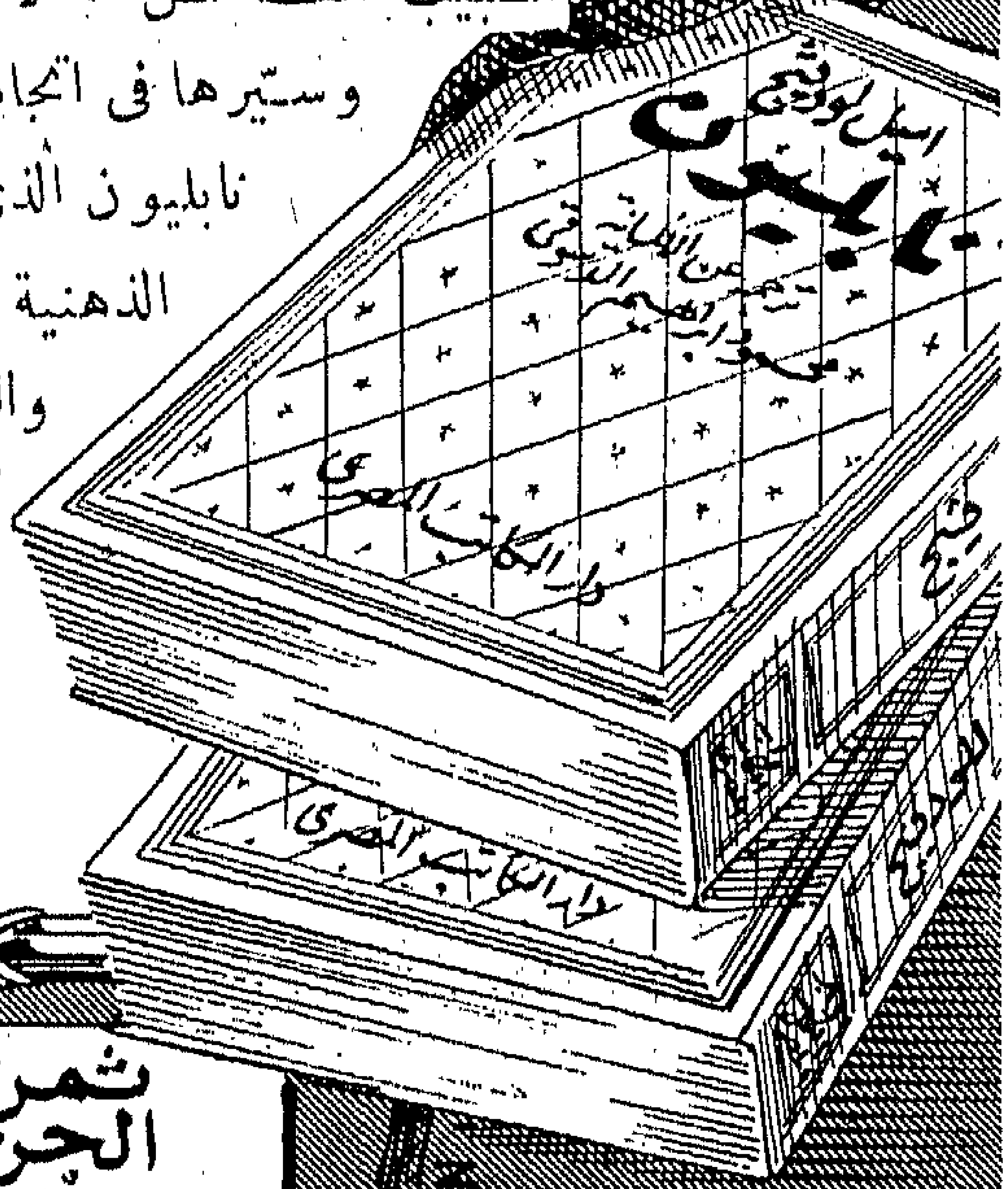
نابليون الواسع العلم، المحدق بالعالم، المحيط بتاريخه، وهو ما يزال غض الإهاب، في شرخ الشباب.

نابليون الذي وضع أذنه دائماً على قلب الجماهير شأن الطبيب الفاحص، لا المحب الواله، فعرف اتجاهها، وسيرها في اتجاهه.

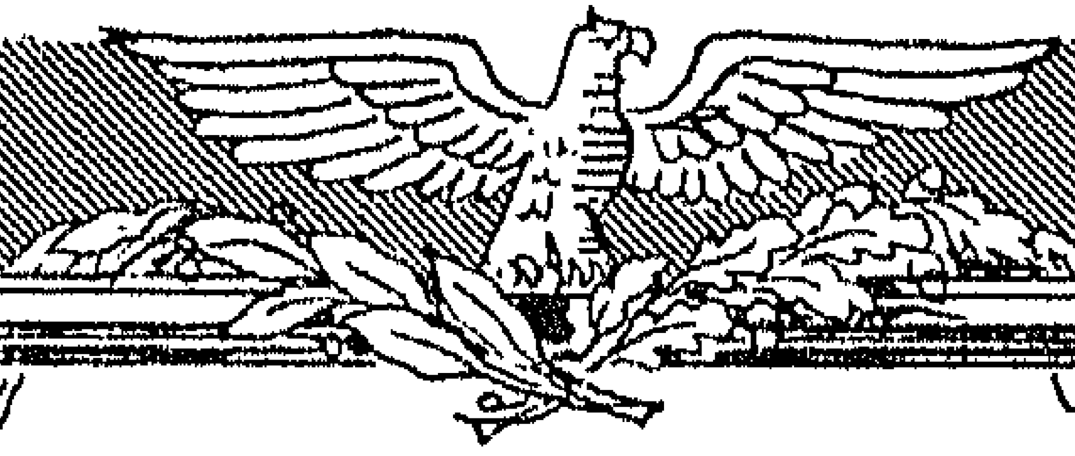
نابليون الذي تفوق في أعماله الحربية بصفاته الذهنية، وكان سلاحه النظر، والحساب، والتصميم، والفصاحة، ومعرفة الناس.

نابليون الذي اعتز بلقب عضو المعهد أكثر مما اعتز بلقب الفاتح.

هل كان رجل جلاد، مبيداً للعباد، عاملا لشخصه، بانيا لمجده؟



ثمن الجزء ٤٥ والبريد ٣٦ مليما



ستري في هذا الكتاب كيف جلا لودفيج شخصيته ، ومجّد إنسانيته ، وقدم صورة منوعة بديعة لعبقريته .

ستقرأ قصة حقيقية لقاهر الثورة ، وماحي الفوضى ، وزعيم التاريخ الحديث ، ورمز العبقرية العالمية ، وتلمس من المؤلف تصويراً شعرياً ، ودقة تاريخية .

ستدرس رجل الأقدار مما كتب لودفيج عنه ، وذكره هو عن نفسه ، في ترجمة مشرقة تبرز ملامح الأصل الألماني ، وعبارة رصينة توائم أسلوب المؤلف الألمعي ، بقلم مترجم إيفيچينيا وإجمنت والصراط وأقاصيص أندرسن : لجوته ، وسودرمان ، وهانس أندرسن .



نابليون

لإميل لودفيج

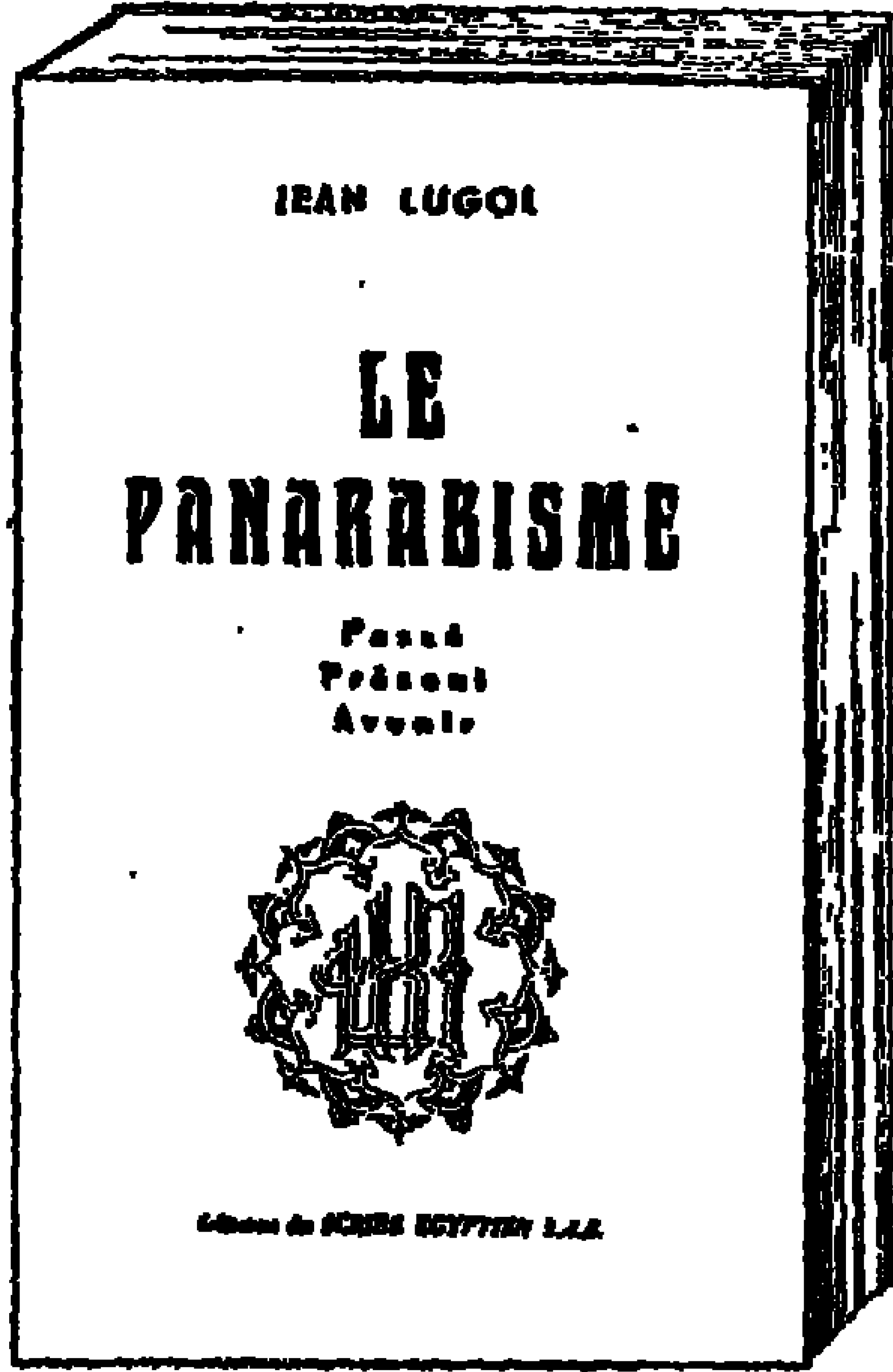
ترجمه عن الألمانية

محمود ابراهيم الدسوقي



طبعة فاخرة مزينة بالصور في جزءين

الى قراء اللغة الفرنسية



إن نهضة العالم العربي التي تعد من أهم حوادث الحرب العالمية الثانية تمتد إلى الف سنة من تاريخ الشرق . فهي تلىء بنظام سياسي جديد للمستقبل . ولا يستطيع أحد أن يتجاهل هذه المشكلة التي تعد — في وقت واحد — مشكلة دينية وأخلاقية وسياسية واجتماعية واقتصادية والتي ما فتئت — منذ أبعد الأزمان حتى أيامنا هذه — تشغل اذهان الناس .

ومسيو جان ليجول — الموظف في عصبة الأمم سابقاً والصحفي الذي استوطن مصر منذ زمن بعيد ، مؤلف عدة كتب عن مذهب التوحيد والحضارة وعن مصر والحرب العالمية الثانية الخ — قد رسم صورة عظيمة للحضارة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وإنه لمن الضروري لكل شخص أن يقرأ هذا الكتاب الذي يقوم على وثائق صحيحة والذي كتب في روح سمحة .

كتاب ضخم يقع في ٣٠٠ صفحة

طبعة مزينة بعدة صور وخرائط



الثمن ٨٠ قرشاً
البريد ٣٦ مليما

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
***Editor-in-chief :* Taha Hussein**

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير

طه حسين

مجلد ٤



القاهرة ١٩٤٦

الكاتب المصري

ذو القعدة ١٣٦٥  أكتوبر ١٩٤٦

السنة الثانية مجلد ٤ — عدد ١٣

من أبطال الأساطير اليونانية (١)

اوديب — ثيسيوس

١

كان لايوس Laius منذ ارتقى إلى عرش ثيبا يحيا حياة سعيدة راضية مع زوجه جوكاست Jocaste . ولم يكن يكدّر صفو هذه السعادة إلا شيء واحد وهو أن الزوجين لم يرزقا الولد . فخطر للملك أن يستشير ابولون Apollon فى محنته هذه لعله أن يجد له منها مخرجاً ، وأن يتم عليه نعمة الملك السعيد المجيد الذى لا يقتصر على شخص صاحب العرش ، وإنما ينتقل منه إلى ذريته التى تتوارثه أجيالها إلى آخر الدهر . فلم يكن لايوس قصير الأمل ، ولا محدود الأمد . لم يكن يريد أن يملك ليس غير ، وإنما كان يريد أن ينشئ أسرة مالكة . ولكن أبولون لم يكن سمحاً ، ولا مواتياً ، فأظهر للملك فى شئ من الإلغاز ما خبأه له القضاء : أعلن إليه أنه إن رزق الولد فسيقتله ابنه . وقد عاد لايوس من معبد أبولون مهموماً ، شديد الحزن ، موزّع النفس بين الحرص على الحياة والرغبة فى الولد الذى يرث الملك ، ويخلد الذكر . وقد شك طويلا أو قصيراً بين هاتين العاطفتين ، ولكنه آثر الحياة آخر الأمر على الولد ، فرضى العُقْم بل رغب فيه وحرص عليه . غير أن

---

(١) مقدمة كتاب أوديب — ثيسيوس تأليف أندريه جيد ، وترجمة طه حسين . من مطبوعات دار الكاتب المصرى يظهر فى شهر أكتوبر .

القضاء ماض إلى غايته دائماً ، فما هي إلا أن يرزق لايوس من زوجه جوكاست هذا الغلام الذى أنذره أبولون بأنه سيذيقه الموت . هنالك استأثر الحرص على الحياة بنفس الملك ، فأزمع أن يقتل ابنه قبل أن يقتله هذا الابن ، وأسلم الطفل إلى راع من رعاته ، وكلفه أن يلقيه على الجبل نهباً للسباع . ولكن الراعى لم يكن قاسى القلب ولا غليظ الطبع ، فلم يلق الطفل على الجبل ولم يقتله ، وإنما أسلمه إلى راع آخر لملك كورنت فى بعض الروايات ، أو علقه إلى شجرة من أشجار الجبل من رجليه اللتين شقهما ، وجمع بينهما بحبل متين . ومهما يكن من اختلاف الروايات ، فإن الصبى لم يمت نهباً للسباع ، ولا نهباً للجوع والبرد والجراح ، وإنما تلقاه راعى كورنت فعطف عليه ورفق به . وكان ملك كورنت بوليب Polybe شقيًّا بعقم امرأته ميروب Mérope ، فيدفع الراعى إليه هذا الصبى ويتبناه الملك وينشئه تنشئة أبناء الملوك . وقد شب الصبى قوى الجسم والنفس جميعاً ، ماضى العزم ، صارم الإرادة ، معتدا بنفسه ، جاهلا لأصله ، بعيد الأمل مع هذا كله عظيم الأطماع . ولكنه يرى من لداته وأترابه ما يريبه ، فهم يلمحون له بأنه ليس ابن الملك . وهو يضيق بهذه الريبة ويريد أن يعرف جلية أمره ، فيذهب إلى معبد أبولون ليتبين حقيقة الأمر فى وحى الإله . والقضاء صارم حازم قاس لا يعرف رفقاً ولا ليناً ، وإذا أبولون لا ينبئ الفتى بأصله ، ولا يزيل من نفسه الريبة ، وإنما يضيف شكًّا إلى شك وخوفاً إلى خوف ، فينبئ الفتى بأنه سيقتل أباه ، وسيتزوج من أمه ، وسيقترف هاتين الخطيئتين المنكرتين .

وكان لايوس قد أراد أن يقاوم القضاء فيخلص من هذا الصبى الذى سيذيقه الموت ، فانتصر القضاء على إرادة لايوس ، وعاش الصبى ونما حتى أصبح قادراً على اصطناع السلاح . وهذا الفتى ينبئه أبولون بأنه سيقتل أباه ويقترن بأمه ، فيريد أن يقاوم القضاء ، وهو لا يعرف لنفسه أباً غير بوليب ملك كورنت ، ولا أمًّا غير ميروب ملكتها . فليجتنب إذن كورنت ، وليأخذ طريقه إلى أى بلد آخر بعيد عن هذه المدينة حتى لا يُغْرَى بقتل أبيه أو اتخاذ أمه لنفسه زوجاً . وإنه لفى بعض الطريق عند مكان شديد الضيق ، وإذا عربة تعترضه وتأخذ عليه سبيله ، فيكون الخصام باللسان ، ثم يكون الاقتتال ، وإذا الفتى يقتل صاحب العربة ، وقد تفرق من كان معه من خدم وأنصار . ويمضى الفتى لوجهه راضياً عن نفسه ، مطمئنا لحسن بلائه ، غير مقدر أنه قد أنفذ بعض ما كتب القضاء

عليه ، فقتل أباه ، واقترف أحد الإثمين اللذين أنذره بهما أبولون . وهو يمضي في طريقه حتى يدنو من مدينة ثيبا ، فيسمع بأن المدينة مروعة بخطر داهم ونكر مبين . فهذا كائن غريب قد هبط عليها من السماء أو نجم لها من الأرض ، جاءها من حيث لا تعلم على كل حال ، واستقر غير بعيد من المدينة على صخرة مرتفعة يرصد من يمر به من الناس ، فيلقي عليهم لغزه الغريب : ما كائن له صوت واحد يمشي على أربع إذا أصبح ، وعلى اثنتين إذا زالت الشمس ، وعلى ثلاث إذا أقبل المساء ؟ وهذا الكائن الغريب الذي اتخذ جسم الأسد ، ورأس المرأة ، ووصل بجسمه جناحين ، والذي يسميه اليونان سفنكس ، ويسميه المصريون القدماء بوالهول ، أو أبا الهول ، لا يعفي أحداً من الإجابة على هذا السؤال وحل هذا اللغز . والناس جميعاً يعجزون عن الإجابة ولا يجدون حلاً لهذا اللغز ، وهو يعاقبهم بالموت على هذا العجز والإخفاق . وقد عظم الكرب ، وعم البلاء ، وامتلأت قلوب أهل المدينة خوفاً ورعباً ، حتى اضطر كريون Créon أخو الملكة جوكاست والناهض بأعباء الملك بعد قتل لايوس أن يذيع في أقطار الأرض أن من أراح المدينة من هذه المحنة فله تاجها وله الملكة زوجا .

وقد سمع الفتى بأنباء هذا الكائن الخطر ، وبهذا الوعد الرائع الذي يبذل لمن ينقذ منه هذه المدينة البائسة ، وهو قوي الجسم والنفس ، ذكي القلب ، حديد الفؤاد ، بعيد الأمل ، شديد الطموح ، فيقبل على أبي الهول يجرب ذكاءه وقوته ، ويغامر بحياته في سبيل المجد والملك . وأبو الهول يلقي عليه السؤال فيجيبه الفتى بأن الإنسان هو الذي يمشي على أربع إذا أصبح لأنه يحبو في الطفولة ، ويمشي على اثنتين إذا انتصف النهار لأن قامته تعتدل وتستقيم إذا شب ، ويمشي على ثلاث إذا أقبل المساء لأنه ينحني على العصا إذا أدركته الشيخوخة ، وقد أخزي أبو الهول وألقى بنفسه من أعلى الصخرة فمات . وظفر الفتى بعرش ثيبا ، واتخذ الملكة له زوجا ، واطمأن إلى أنه قد أفلت مما تنبأ له به وحي أبولون ، فلم يقتل أباه ، وأين هو من عابر السبيل ذاك الذي قتله ! ولم يقترن بأمه ، وأين هو من ملكة ثيبا هذه التي تزوج منها ! لقد ترك أبويه في كورنت وأسس لنفسه ملكا جديداً ، وقد رضي عن رعيته ورضيت عنه رعيته ورزق الولد . فله ابنان اثيوكل Etéocle وپولينيس Polynice ، وله ابنتان أنتيجون Antigone وإسمين Ismène . وهو يرى نفسه سعيداً موفوراً راضي النفس رضي البال .

ولكن المدينة تمتحن ذات عام بوباء يفسد عليها أمرها كله فساداً عظيما ؛ فقد هلك الزرع وجف الضرع وأسرف الموت فى كل حى ؛ فالطير تتساقط من السماء ، والحيوانات تخر إلى جنوبها ، والناس يستبقون إلى القبور حتى تضيق بهم وحتى يعجز بعضهم عن دفن بعض ، وقد عم البلاء وعظم الكرب واشتدت المحنة حتى بلغت أقصاها . وأهل المدينة يستعطفون الآلهة بالضحايا والقرابين ويتوسلون إليهم بالصلاة والدعاء ، فلا يغنى عنهم هذا كله شيئاً . وهم قد هرعوا إلى ملكهم يفزعون إليه ويستعينونه ، فيرسل الملك إلى معبد أبولون من يؤامر الإله ويستشيره فى هذا البلاء العظيم . ويعود رسول الملك إليه يحمل جواب الإله واضحاً غامضاً ومُعَمًّى صريحاً ، كما تعوّد أبولون أن يجيب دائماً . أجاب أبولون بأن الآلهة لن يكشفوا الضر عن هذه المدينة إلا إذا ثأرت للايوس من قاتله .

ولم يكد الملك يتلقى هذا الجواب حتى أعلن فى حزم وصرامة أنه باحث عن هذا القاتل ومنزل به أشد العقاب ، وأنه يطلب إلى أهل المدينة أن يعاونوه على ذلك فى غير تردد ولا ضعف مهما يكن هذا القاتل . ثم هو لا يكتفى بذلك بل يستنزل اللعنات وغضب الآلهة على هذا المجرم الذى قتل ملكا وعرّض المدينة لشر عظيم .

ولكن الملك لا يكاد يبحث عن هذا المجرم حتى تتبين له الحقيقة منكرة بشعة ، فهو المجرم الذى قتل لايوس هناك فى ذلك المكان الضيق . وهو الآثم الذى اتخذ أمه له زوجا وعاش معها فى هذا القصر وأولدها أبناءه الأربعة .

ليس فى ذلك شك ، واسمه نفسه يدله على ذلك دلالة قاطعة ، فهو أوديب Œdipe ذو الرجل المتورمة ، ورجله متورمة حقًّا من أثر ذلك الثقب الذى علق به إلى الشجرة فى طفولته الأولى على الجبل . يعرف ذلك من الراعى الذى كلف قتله ، ويعرف ذلك من الراعى الذى أنقذه من الموت وأسلمه إلى ملك كورنت . هنالك يتبين أوديب وتتبين چوكاست أن لا مردّ لما كتب القضاء . فلم يغن عن لايوس تخلصه من الصبى ، فقد عاش الصبى حتى قتله . ولم يغن عن چوكاست تخلصها من الصبى فقد عاش الصبى حتى اقترن بها . ولم يغن عن أوديب فراره من قصر كورنت وتجنبه ملكها وملكتها هرباً من الإثم ، فلم يكن من هذين الزوجين فى شىء . وإنما هو ابن لايوس وقد قتل لايوس ، وابن چوكاست وقد تزوج من چوكاست . والمهم أنه قد عرف القاتل الذى يجب أن يثأر منه لتتخلص المدينة من هذا البلاء ، فيجب أن يثأر من نفسه إذن ، فإن لم يفعل فستثأر منه المدينة

التى لم تكن ترى فيه ملكا فحسب ، وإنما كانت ترى فيه شيئاً يشبه الإله .
فأما جوكاست فلم تكد تظهر على الحقيقة البشعة حتى خنقت نفسها . وأما أوديب ففقأ عينيه بيديه حتى لا يرى الضوء .

وتختلف الروايات بعد ذلك أو قل تختلف الروايات قبل ذلك ، ويزيد فى اختلافها فن شعراء الممثلين الذين اتخذوا هذه القصة موضوعاً للتمثيل ؛ فقوم يرون أن جوكاست لم تقتل نفسها ، وإنما عاشت حتى رأت اختلاف ابنيها على العرش وتساقيهما الموت ، ولم تقتل نفسها إلا بعد أن رأتهما صريعين . وقوم يرون أن أوديب قد نفى نفسه من الأرض بعد أن فقأ عينيه وهام غريباً تقوده ابنته أنتيجون حتى انتهى آخر الأمر إلى ضاحية من ضواحى أثينا فمات فيها . وآخرون يرون أنه لم ينف نفسه ، وإنما نفاه ابناه بعد أن وليا الملك . وآخرون يرون أن ابنيه قد امسكاه فى القصر ولم ينفياه ، وإنما نفاه كريون بعد أن مات ابناه ، فلجأ إلى الضاحية الأثينية ومات فيها .

هذه هى القصة التى روتها الأساطير اليونانية منذ أبعد العصور ؛ فقد تحدثت بها الأودِسّة فى نشيدها الحادى عشر ، كما تحدثت بها أقاصيص ثيبا نفسها بعد ذلك .

٢

والشعراء الممثلون من اليونان يعتمدون فى تمثيلهم بحكم الفن نفسه وبحكم الدين أيضاً على الأساطير . فالأبطال القدماء هم موضوع المأساة اليونانية التى تصور حياتهم أو تصور ما تمتاز به حياتهم من المحن والخطوب . وتصوير هذه المحن التى ألمت بالأبطال وعرضها على النظارة فى ملاعب التمثيل شئ كان الأثينيون يرونه فنّا ويرونه ديناً . فيه الجمال الأدبى الذى يعظ النفس ويذكى القلب ويثير العاطفة وينمى الفضيلة ويرفع الإنسان عن صغائر الحياة إلى جلائل الأمور ، وفيه تقديس الآلهة وتمجيد الأبطال والإشادة بالقديم وما فيه من مآثر كتب لها الخلود . وقد كان اليونان قبل أن ينشأ فن التمثيل وقبل أن ينشأ فن الغناء نفسه يتقربون إلى آلهتهم بإنشاد الشعر القصصى والاستماع له . ثم نشأ الغناء فتقربوا به إلى الآلهة ، يتغنون حياة الأبطال وحياة الآلهة وما عرض لهم فيها من خير وشر . ثم نشأ فن التمثيل فتقربوا به إلى الآلهة كما كانوا

يتقربون بالقصص والغناء . ومن أجل هذا كله تغيرت صور الفن الشعرى عند اليونان ولم يتغير موضوعه . فالأبطال والآلهة هم موضوع القصص فى الإلياذة والأودسة ، وهم الموضوع الأساسى لغناء المغنين ، وهم الموضوع الأساسى لتمثيل الممثلين أيضاً . ومع ذلك فتغير الصورة له خطره العظيم وإن بقى الموضوع ثابتاً مستقرًّا ، ذلك أن الصورة لم تتغير إلا لأن النفس اليونانية قد تغيرت بحكم ما أحاط بالشعب اليونانى من الظروف . فقد كان القصص اليونانى صورة لحياة الجماعة لا يكاد يظهر فيها من الأفراد إلا شخصية الآلهة والأبطال ، بل لا تظهر فيها شخصية الشاعر نفسه . فلما ارتقت الحضارة وذكت القلوب وقويت شخصية الفرد ، تغيرت صورة الشعر ، فظهر شخص الشاعر أولا وأصبح الشعر لا يضاف إلى شاعر مجهول يسمى هوميروس مهما يكن موضوعه ، وإنما يضاف إلى شعراء معروفين يراهم الناس ويتحدثون إليهم ويتحدثون عنهم ، وأصبح الشعر لا يصور الآلهة والأبطال الممتازين وحدهم ، وإنما يصور شخصية الشاعر نفسه ، ويصور معها شخصية كثير من الأفراد ، وما يجدون من لذة وألم ومن حب وبغض ومن عاطفة وشعور بوجه عام ، ثم أصبح الشعر لا ينشد إنشاداً يسيراً تسنده بين حين وحين نغمات ساذجة توقع على أداة ساذجة من أدوات الموسيقا ، وإنما ينشد إنشاداً معقداً يتشكل فيه الصوت بالأشكال المختلفة التى يقتضيها الغناء ، وتسنده وتريح منه أحياناً أدوات موسيقية كثيرة مختلفة ، ويسنده الرقص أيضاً بحيث يوشك أن يشبه الأوبرا فى عصرنا الحديث لولا أنه كان يخلو من حركة التمثيل . ثم تتقدم الحضارة ، ويرقى العقل ، وتقوى الشخصية ، وتظفر الشعوب فى المدن بحقوقها السياسية ، فتتغير صورة الشعر . وإذا الحوادث التى كانت تقص فى الشعر القصصى ، وتغنى فى الشعر الغنائى ، قد أصبحت تعرض على النظارة فى ملعب التمثيل يجريها الشاعر على أيدى أشخاص يمثلون الأبطال والآلهة أنفسهم . وهذا التمثيل نفسه لا يخلو من الغناء والرقص توقعهما الجوقة وقد يشارك فيهما كليهما أو أحدهما الممثلون . وقد أصبح جمهور النظارة ذا شأن خطير ، فهو يشارك فى حفلات التمثيل لا بشهود التمثيل فحسب ، ولكن كذلك بالقضاء بين المستبقين من الشعراء الممثلين . وقد كان الشعراء يشاركون بأنفسهم فى التمثيل أول الأمر ، ثم نشأت طائفة الممثلين المحترفين ، وجعل الشعراء يكتفون بإنشاء الشعر وإرشاد الممثلين وأعضاء الجوقة .

كذلك كانت الحال فى القرن الخامس قبل المسيح حين عرض الشعراء الثلاثة الممتازون : إيسكولوس Eschyle وسوفوكل Sophocle وأوريبيد Euripide لحياة الأبطال والآلهة فعرضوها فى الملاعب على النظارة من الأثينيين .

وكان من نتيجة هذا كله أن هؤلاء الشعراء وغيرهم من الشعراء الممثلين كانوا يرون من الطبيعى والمألوف أن يعرضوا للموضوعات التى سبقهم إليها القصاص والمغنون ، فينشئوا فيها قصصهم التمثيلى ، بل كان من الطبيعى والمألوف أن يعرض المتأخر منهم لما عرض له المتقدم ، لايجدون فى ذلك حرجا ، بل يجدون فيه سبيلا إلى الإجادة والإتقان . فقصة أوديب مثلا قد عرض لها إيسكولوس ثم عرض لها بعده سوفوكل ، ثم عرض لها بعدهما أوريبيد ، ثم عرض لها شعراء آخرون من اليونان لم يجد أحد فى ذلك حرجا . وهذه السنة التى سنها اليونان قد انتقلت منهم إلى غيرهم من الأمم ؛ فالرومان فى العصر القديم حين حاولوا التمثيل اتخذوا أكثر الموضوعات لقصصهم من التمثيل اليونانى نفسه . فقصة أوديب مثلا عرض لهامنهم غير شاعر . وامتازت قصة سينيك Sénèque من هذه القصص التى وضعها الشعراء اللاتينيون . وجرى الأمر على ذلك بعد النهضة الأوربية فى العصر الحديث ، فاستعار شعراء التمثيل من الإنجليز والألمان والإيطاليين والفرنسيين خاصة موضوعات شعرهم التمثيلى من تمثيل اليونان والرومان . وقد وضع الشاعر الإنجليزى دريدن فى القرن السابع عشر قصة أوديب ، كما وضع الشاعر الإيطالى ألفييرى فى القرن الثامن عشر قصة أوديب أيضاً . أما الفرنسيون فقد فتن شعراؤهم وكتابهم بقصة أوديب منذ أواخر القرن السادس عشر إلى الآن . ولست أحصى شعراءهم الذين عرضوا لهذه القصة ، وإنما أذكر أن كورنى قد وضع قصة تمثيلية لأوديب فتن بها معاصروه ، وأن ڤولتير قد وضع فى أول القرن الثامن عشر قصة لأوديب كثر حولها الحديث والنقد ، وأن شاعرين فرنسيين هما دى سيس وشنييه وضعا قصتين لأوديب فى آخر القرن الثامن عشر وأول القرن التاسع عشر . أما فى هذا القرن العشرين فقد عنى بأوديب الكاتب الفرنسى العظيم أندريه جيد فى القصة التى نترجمها فى هذا السفر ، كما عنى به الكاتب الشاعر المعروف جان كوكتو فى قصته المشهورة « أداة الجحيم » .

فأنت ترى أن السنّة اليونانية التى أتاحت للشعراء ألا ينفروا مما سُبقوا إليه قد أصبحت سُنّة أدبية إنسانية شائعة على اختلاف العصور . وأنت ترى كذلك

أن قصة أوديب وحدها قد شغلت شعراء كثيرين فى الأمم المختلفة على اختلاف العصور ، وما زالت تشغل الشعراء والكتاب إلى الآن . وأكبر الظن أنها ستشغلهم دائماً .

٣

ولا أكاد أذكر من القصص اليونانى القديم الذى شغل به المحدثون شيئاً تجاوز القرن السابع عشر والثامن عشر إلا قصة « أفجينى فى توريس » *Iphigénie en Tauride* التى عنى بها جوت ، وقصصاً قليلة أخرى طغت فى القرن العشرين ، أعظمها خطراً قصة « أوديب » هذه وقصة « الكتر » *Electre* و « أمفتريون » وقد جددهما چان چيرودو ، وقصة أنتيجون وقد جددها چان كوكتو بين الحربين ثم جددها چان أنوى فى هذه الأعوام الأخيرة . وهناك قصص تمثيلية معاصرة جددت أو حاولت أن تجدد بعض القصص التمثيلى اليونانى القديم ، ولكنها لم تبلغ الملعب أو لم تظفر فيه بفوز باهر ونجح عظيم .

ولعل المحدثين المعاصرين يؤثرون أن يشهدوا القصص اليونانى يعرض عليهم كما تركه أصحابه مع قليل أو كثير من التغيير ، إلا أن يوجد الكاتب الممتاز الذى يستطيع أن يدل بالقصة اليونانية على أكثر مما وصل إليه الشاعر اليونانى القديم ، أو أن يعرضها فى شكل أشد ملاءمة لروح العصر الحديث .

وهذا هو الذى فعله چيرودو حين اتخذ إلكتر رمزاً لا للانتقام وحده كما فعل القدماء بل للعدل أيضاً . للعدل الذى يجب أن تبلغه الإنسانية وأن تضحى فيه بكل شئ مهما تكن التضحية قاسية ومهما تكن الضحية غالية ، والذى لا يحفل بانثلال العروش وانهيار النظم وإزهاق النفوس وسفك الدماء وصب الدمار على المدن ، بل يرى فى ذلك كله إيذاناً بطلوع فجر جديد . وكما فعل چان پول سارتر فى قصة « الذباب » حين أراد أن يجدد مأساة إلكتر فجعل أخاها هو البطل . ولم يكتف بفكرة الانتقام من الأم التى خانت زوجها وقتلته ولا بفكرة العدل التى قصد إليها ووقف عندها چيرودو ، ولكنه عنى بالحرية الإنسانية التى وقفت أورست موقف الثائر على ذوس Zeus المعارض له ، والتى تقف الإنسان الحديث موقف الثائر على كل شئ المزدرى لكل شئ إلا حريته التى

تجعله إنسانا يوجد ليعمل مايشاء أن يعمل وليقول مايشاء أن يقول ، غير حائل إلا بنفسه ولا واقف إلا عند نفسه .

إلى شئ من هذا التجديد الأساسي الخطير قصد أندريه جيد حين وضع قصته التمثيلية « أوديب » مجددا هذه القصة كما تركها سوفوكل غير واقف عند ما انتهى إليه سوفوكل ولا حافل بما بلغه كورنى أو فولتير أو غيرهما من الشعراء والكتاب المحدثين . وقد يحسن أن نتبين قبل كل شئ إلام أراد سوفوكل حين وضع قصته هذه التى صور فيها مأساة أوديب ؟ وقد أضاعت الأيام ما ترك إيسكولوس وأوريبيد وغيرهما من الشعراء القدماء حول هذا الموضوع بحيث أصبحت قصة سوفوكل هى النموذج القديم الوحيد الذى ألهم المحدثين من الأوربيين . وواضح أن سوفوكل إنما قصد فى هذه القصة كما قصد فى أكثر قصصه الأخرى إلى ما يصور لنا صرامة القضاء من جهة وحرية الإنسان من جهة أخرى ، وإلى أن يلائم بين هذين الضدين المختصمين على نحو ما . فالقضاء صارم قاس بالقياس إلى أوديب وإلى أبويه فى هذه القصة ، وهو صارم قاس بالقياس إلى أبنائه فى قصة أخرى هى قصة أنتيجون .

القضاء صارم قاس لأنه قد كتب فى غير حكمة بينة للإنسان على لايوس أن يموت مقتولا بيد ابنه ، وكتب على جوكاست أن تقتل نفسها بعد أن تتورط فى إثمها ذاك البشع الشنيع ، وكتب على أوديب أن يكون قاتلا لأبيه متزوجا لأمه مسببا لموتها فاقئا عينيه بيده . ومن البين أن أحدا من هؤلاء الأبطال لم يكن حاضرا حين كتب القضاء ما كتب ، ولم يقترف قبل وجوده إثما يغرى به القضاء ويسلط عليه قسوة الأقدار . فهناك إذن علة خفية لا يدركها الإنسان تدفع القضاء إلى أن يدبر أمر الناس والآلهة كما يشاء . ومن يدرى ! لعل هذه العلة الخفية لا وجود لها ، ولعل القضاء يمضى كما يريد لا يخضع لقانون ولكنه على كل حال صارم قاس بالقياس إلى الآلهة والناس جميعا . غير أن الإنسان ليس خاضعا خضوعا كاملا شاملا مستسلما لهذا القضاء ، وإنما هو مستمتع بشئ من الحرية قد يكون قليلا وقد يكون ضئيل الأثر وقد لايكون له أثر ما ، ولكنه موجود على كل حال . وآية ذلك أولا أن الإنسان يريد أن يعرف ما أضمر له القضاء يعمل فى ذلك عقله ويستنبئ عن ذلك وحى الآلهة ؛ فهو إذن لا يخضع لأحكام القضاء غير عالم بها أو غير مفترض لوجودها كما يخضع لها الحيوان وكما تخضع لها

الكائنات الأخرى التى نألف منها الطبيعة . وليس قليلا أن يتلقى الإنسان ما كتب له من خير وما قضى عليه من شر وهو عالم به وعالم بالمصدر الذى يسوقه إليه أو يسلطه عليه .

وهناك آية ثانية على حرية الإنسان أمام القضاء ؛ فهو لا يطمئن إلى العلم بما كتبت الأقدار عليه ، وإنما يحاول أن يخلص مما قضى عليه من الشر . وليس المهم أن ينجح أو يخفق فى هذه المحاولة وإنما المهم أن يحاول . فلايوس وچوكاست يعلمان أن ابنهما سيقتل أباه ويتزوج أمه ، فيحاولان التخلص من هذا الشر بقتل الصبى قبل أن ينمو ويقترف هذه الآثام ، ولا عليهما بعد ذلك أن يفلت الصبى مما دبرا له من الموت . وأوديب يعلم بما دبر القضاء له ، فيفر من قصر الملك فى كورنت محاولا أن يتجنب ، ولا عليه بعد ذلك أن يقتل لايوس ، فلو قد عرف أنه أبوه لما قتله ، ولا عليه أن يتزوج چوكاست فلو قد عرف أنها أمه لما اقترن بها .

وهناك آية أخرى على حرية الإنسان أمام القضاء ، وهى أعظم من هاتين الآيتين خطراً وهى التى يصورها لنا سوفوكل فى قصة « أوديب ملكا » ، ولكنه يصورها تصويراً أعظم روعة وأكثر جلاء فى قصته الأخرى « أوديب فى كولونا » ، وهى أن الإنسان حين يعجز عن رد القضاء لا يرى نفسه منهزماً ولا يرى نفسه مسئولا عما تورط فيه من الإثم . فهو يؤمن بأن التبعة يجب أن تكون نتيجة للحرية وأن يكون حظ الإنسان من هذه التبعة ملائماً لحظه من الحرية ، فأوديب تدفعه الغريزة الإنسانية الأولى كما تدفعه التقاليد الموروثة إلى أن يعاقب نفسه حين يستكشف الإثم المروع الذى تورط فيه ، ولكنه بعد شىء من التفكير يستطيع أن يثبت للقضاء وأن يقف من الآلهة موقف المدافع عن نفسه المحتج لها ، لأنه لم يرد قتل أبيه ، ولم يقتله وهو يعلم أنه أبوه ، ولم يرد الزواج من أمه ولم يتزوج منها وهو يعلم أنها أمه . فإن كان فى هذا كله إثم فليس هو المسئول عن هذا الإثم ، وإنما يسأل عنه القضاء الذى دبره والآلهة الذين ضللوا أوديب حتى تورط فيه على كثرة ما حاول تجنبه والتخلص منه . هو إذن برىء أمام نفسه ، ولا عليه أن يراه الناس بريئاً أو أن يتهموه ويحكموا عليه . على أن أوديب لا يكتفى بذلك وإنما يريد أن يقنع القضاء والآلهة أنفسهم ببراءته ، وهو يبلغ من ذلك ما يريد فقد رضى الآلهة عنه آخر الأمر فآووه إلى هذه الضاحية من ضواحى أثينا ، وألقوا عليه السكينة ، وأشاعوا فى نفسه الطمأنينة والأمن ، وجعلوا جثته مصدر بركة للبلد

الذى تدفن فيه . وهم قد عاقبوا مدينة ثيبا فأثاروا فيها الفتنة بين الأخوين الملكين ، وحرموها هذه البركة المتصلة بشخص أوديب حين قضوا ان يموت غريباً وأن يدفن فى بلد غريب .

وإذن فقد انتهت حرية الإنسان إلى شيء من الفوز. لم تستطع أن تجنب صاحبها المحنة ولا أن تنقذه من الشر فى هذه الحياة ، ولكنها قد صفّت نفسه وطهرت قلبه واستخلصته من الآثام كما يستخاص المعدن النقى مما يحيط به من الخبث . فليست هذه المحنة إذن إلا تجربة لحرية الإنسان ، ووسيلة إلى تصفية نفسه وتنقية جوهره إن استطاع أن يثبت للآلام وينفذ من الخطوب .

إلى هذا كله أراد سوفوكل حين كتب قصتيه اللتين صوّر فى إحداهما محنة أوديب ملكا ، وفى أخراهما نجاة أوديب منفيًّا بائساً طريداً . ويجب أن نعترف بأن الذين أرادوا أن يقلدوا سوفوكل لم يبلغوا مما أرادوا شيئاً ذا خطر ، لا أستثنى منهم إلا المعاصرين من الكتّاب الفرنسيين .

فالكاتب الشاعر الفيلسوف سينيك لم يضف إلى ما ابتكر سوفوكل شيئاً ، ولعله أضاع منه أشياء . وإذا كان لقصته شيء من جمال فأكبر الظن أنه إنما يأتيها من روعة الفصاحة اللاتينية ومن بعض الخواطر الفلسفية العابرة .

أما كورنى فقد كان مفتونًا بقصته ، ويظهر أن معاصريه منحوا قصته هذه غير قليل من الرضا والإعجاب ؛ ولكن كورنى فيما أعتقد قد أفسد قصة أوديب إفساداً عظيما . رأى أن يلائم بين القصة وبين ذوق البيئة التى كان يكتب لها ، وقد لاحظ أن تلك البيئة لم تكن تتصور قصة تمثيلية تخلو من الحب ومن الحب الذى يكون له فى المأساة نفسها أثر خطير . وليس فى قصة سوفوكل حب أو شيء يشبه الحب ، فاضطر كورنى إلى أن يحدث حبًّا ذا خطر ، واضطر من أجل ذلك إلى أن ينشئ للايوس بنتا تكبر أوديب سنًّا ، وأن ينشئ بين هذه الفتاة وبين ثيسيوس Thésée ملك أثينا حبًّا ، وأن ينشئ بين هذه الفتاة وبين أوديب خصومة حول هذا الحب من جهة وحول العرش من جهة أخرى ؛ فلم تكن الفتاة تعرف أن أوديب أخوها ، وهى من أجل ذلك كانت تراه غاصباً لعرش أبيها . ولم يكن أوديب يعرف أن الفتاة أخته فكان يؤثر أن يزوج ملك أثينا من إحدى ابنتيه . وكانت جوكاست حائرة بين بناتها الثلاث وبين زوجها . والغريب أن كل هذه الخصومات حول الحب والغيرة كانت تشغل الملك والملكة والحاشية والقصر

كله فى نفس الوقت الذى كان الوباء يعصف فيه بالمدينة عصفاً شديداً ، ولا نشغل بالقصة نفسها إلا حين توشك الفصول أن تنتهى ، هنالك تثار العقدة ويعلم الملك ومن حوله أن الآلهة غضاب ، وأن هناك مجرماً يجب أن ينزل به العقاب، ثم يستبين للملك أنه هو المجرم فلا يفقد صوابه ولا يأخذه الهول ، وإنما يتحدث إلى أخته فى حبها للملك أثينا وفى زواجها من هذا الملك ، ثم يعصف الندم بنفسه آخر الأمر حين تموت جوكاست فيفقأ عينيه . وقد لاحظ كورنى كذلك أن البيئة التى كان يكتب لها كانت من الترف ورقة الشعور بحيث كان يسوءها أن يظهر أمامها أوديب دامى الوجه بعد أن فقأ عينيه ، فلم يُظهر الملك أمام النظارة وإنما قص آخرته وآخرة الملكة عليهم فى شعر قد يكون جميلا رائعاً ، ولكنه لا يغنى عن الصورة الماثلة أمام النظارة شيئاً .

وقصة كورنى بعد ذلك لا تضيف فكرة جديدة إلى القصة اليونانية . ولست أدرى أمن الحق أن تسمى أوديب ، أم من الحق أن تسمى درسيه وهو اسم الفتاة التى اخترعها كورنى والتى تدور عليها القصة وعلى حبها أكثر مما تدور على أوديب وعلى محنته . وقد نقد ڤولتير قصة سوفوكل نقداً مفصلا مسرف التفصيل. قاسه بمقياس العصر الذى كان يعيش فيه ، فأظهر القصة اليونانية منحلة متهالكة لا قوام لها من منطق ولا من دقة ، ولا تكاد تظفر بحظ من إتقان . ثم عطف على قصة كورنى ، فلم يعفها من النقد اللاذع الشديد . ثم أذاع قصته هو ، فإذا هى شر من قصة كورنى ، لم تضف إلى القصة اليونانية جديداً ، ولم تظفر من الجمال اللفظى بما ظفرت به قصة كورنى العظيم . ويكفى أن نلاحظ أن ڤولتير قد وقع فى نفس التخليط الذى وقع فيه كورنى ، أراد أن ينشئ حبًّا فى هذه المأساة ؛ لأن البيئة الفرنسية التى كان الأدباء يكتبون لها كانت تريد الحب فى التمثيل . أراد أن ينشئ حبًّا إذن ، فلم يجعل للايوس بنتاً كما فعل كورنى ، ولكنه استكشف لجوكاست عاشقاً قديماً هو فيلوكتيت Philoctète ، وقد عاد فيلوكتيت إلى ثيبا ليعيش قريباً من عشيقته ، ولكنه يعلم أن زوجها قد قتل فيستأنف حبه القديم ثورة جامحة، إلى آخر هذا العبث الذى لا يزن شيئاً بالقياس إلى جد الشاعر اليونانى العظيم . على أن من الحق أن نعتذر عن ڤولتير؛ فقد كان فى التاسعة عشرة من عمره حين أنشأ هذه القصة . والشيء المحقق أن الشاعرين الفرنسيين قد عنيا بالبيئة أكثر مما عنيا بالموضوع ، فأرضيا قوما كانوا يحبون

أن يلهوا ، ويكرهون أن يشقّوا على أنفسهم بالتأمل والتفكير فضلا عن أن يشقّوا على أنفسهم بالنظر إلى المناظر التي تؤذي شعور الغانيات المترفات .

ولأدع ما حاول الشعراء والكتاب بعد ڤولتير من تجديد قصة أوديب لأصل إلى هذه المحاولة الأخيرة التي أقدم عليها أندريه چيد وچان كوكتو بين الحربين . وهما قد أقدما على هذه المحاولة في وقت واحد ، لم يسبق أحدهما صاحبه ، ولم يعلم أحدهما بمحاولة صاحبه إلا بعد أن أظهر كل منهما قصته . والفرق عظيم جدًّا بين القصتين . فأما چان كوكتو فيسرف في التجديد والابتكار إسرافاً شديداً لا يدعوه إليه تعمق الفكرة التي تدور القصة حولها، وهي فكرة الصراع بين سلطان القضاء وحرية الإنسان ، وإنما يدعوه إليه الفن نفسه ، الفن الخالص الذي يروع النظارة ويبهرهم ويحرص على أن يسحر أعينهم وآذانهم وعقولهم أكثر مما يحرص على أن يدعوهم إلى التأمل والتعمق والتفكير . فچان كوكتو ليس متهالكا على الجد ولا ممعنا فيه ، ولعله يبغض التقيد بأصول الفن المقررة ، فأحرى أن يبغض التقيد بقصة الشاعر اليوناني القديم . وهو من أجل ذلك يبتكر بطلا جديدا هو أوديب ، ويحيطه بظروف توشك ألا تستبقي من اليونانية إلا الأسماء دون الحقائق ، وهو يعقّد قصته تعقيدا ويخالف فيها بين المناظر والفصول ، لا يتقيد بوحدة في الزمان ولا في المكان ولا في الحركة ، وإنما يكتفي بوحدة الموضوع . فقصته تبدأ منذ قتل لايوس ، وتنتهي بعد أن يفقأ أوديب عينيه . وإذن فهي تستغرق نحو عشرين سنة . تبدأ القصة حين تعرف المدينة مصرع الملك من جهة وحين يمتحنها أبو الهول بلُغْزه من جهة أخرى . ونحن نرى في الفصل الأول ظل الملك القتيل يظهر لبعض الجند يريد أن يرى الملكة والكاهن ليحذرهما من خطر عظيم . ونحن نرى الملكة والكاهن يصعدان إلى حيث كان يظهر ظل الملك القتيل ، فنرى ملكة شابة حلوة الدعابة خفيفة الروح ، خائفة من ظل زوجها ، خائفة من الأحداث التي يمكن أن تلم بها ، محبة مع هذا كله للحياة ولذاتها ، لا تكره أن تداعب الكاهن الذي يداعبها أيضاً ؛ ولا تكره أن تلاعب الجندي الشاب الذي رأى ظل الملك القتيل ، وتظهر ميلا شديدا إليه .

ونحن نرى في فصل آخر ما يكون من الصراع بين أوديب الفتى المغامر وبين أبي الهول . ثم ما يكون من انتصار الفتى . ونحن نرى في فصل ثالث زفاف

جوكاست إلى الملك الشاب ونشهد أول الشر ؛ فالكاهن محنق على أوديب مشفق منه، وليس كريون أقل منه حنقا ولا إشفاقاً. ثم نرى نحن آخر الأمر ظهور الحقيقة ومصرع جوكاست، ونرى أوديب وقد فقأ عينيه ونفى نفسه من الأرض وهمّ أن يخرج من القصر تقوده ابنته أنتيجون، وإذا ظل أمه وزوجه جوكاست يظهر، فيراه أوديب الضرير ولا يراه المبصرون من حوله، ويتحدث فيسمعه أوديب ولا يسمعه الآخرون من حوله، وإذا جوكاست تنبئ ابنها بأن الموت قد طهرها من الزوجية الآثمة ولم يبق لها إلا الأمومة البرة، وهى قد أقبلت لتقود ابنها إلى منفاه وتعينه على احتمال الغربة.

فالقصة كما ترى رائعة بما فيها من اختلاف المناظر وبراعة الاختراع وحسن التحدث إلى الحس والشعور. ويظهر أن هذا كله يرضى الجمهور الضخم من النظارة الباريسيين. فأما التحدث إلى العقل وأما مواجهة المشكلات العليا وأما الصراع بين الدين والحرية فأشياء لم يكن يحفل بها جان كوكتو، ولم يكد يحفل بغيرها أندريه جيد ؛ فأندريه جيد متتبع لسوفوكل فى مجرى قصته لا يخرج عن الخطة التى رسمها الشاعر القديم منذ خمسة وعشرين قرنا. ولكن أوديب الذى ينشئه أندريه جيد رجل قد تم نضجه الفلسفى بأرقى معانى هذه الكلمة فى القرن العشرين. يظهر فى أول القصة مستجمعا شخصيته كلها، مستكملا قوته كلها، متحديا للناس متحديا للآلهة، لا يؤمن إلا بنفسه، يعلن إلى النظارة أنه رجل سعيد، قد عمر أربعين سنة وملك عشرين عاماً، واكتسب سعادته اكتسابا لم يرثها عن أحد. ويوشك هذا الاعتداد بالنفس أن يدفعه إلى الغرور، وهو من أجل ذلك يخادع نفسه ويزعم لها غير مخاص أن الآلهة قد أعانوه، لا يريد بهذا الخداع إلا أن يتجنب الغرور الذى كثيرا ما ورط الناس فى الشقاء.

فالفكرة الأساسية فى قصة أندريه جيد هى اعتداد الإنسان بنفسه وثقته بحريته واعتماده على قدرته التى تمكنه من إقتحام المصاعب وتذليل العقاب. وهذا الاعتداد بالنفس يسوء الناس جميعاً ؛ فالجوقة التى تمثل الشعب ضيقة بهذا الغرور مشفقة منه على مصير المدينة، ويدفعها إلى الإشفاق والخوف هذا الوباء الذى يصب على المدينة بلاء عظيما. وقد أخذ الشعب الذى كان مفتونا بالملك يتطير به ويهم فى أن يكيد له بعض الكيد ليصرف إليه وحده غضب

الآلهة من دون المدينة . والكاهن ساخط على الملك لأنه لا يخلص دينه للإله بل لا يؤمن بالإله . وأبناء أوديب قد اختلفت أهواؤهم : فأما الشابان فقد تأثرا بأبيهما ، فهما لا يؤمنان بشيء ولا يرجوان لشيء وقاراً ، ولا يكرهان أن يصبوا إلى أختيهما وأن يتحدثا إليهما كما يتحدثان فيما بينهما بهذه الصبوة الآثمة. أما أنتيجون وجوكاست فتتأثران بالكاهن إلى أبعد حد ، حتى إن الفتاة لتوشك أن تهب نفسها للإله . وأما كريون فناعم بالحياة فى هذا القصر لا يحب أحداً ولا يكره أحداً ، وإنما يحب نفسه ويحب الحياة ويستمتع بما يتاح له من لذاتها ، ويحافظ على التقاليد ما وسعته المحافظة . وعقدة القصة كلها هى الاختلاف بين أوديب الذى يعتد بنفسه حتى يبلغ الغرور وحتى يجحد الآلهة ، والكاهن الذى يريد أن يبسط سلطان الدين وأن يسيطر من طريق هذا السلطان على كل شيء وعلى كل إنسان وعلى نفس الملك خاصة . وليس الوباء الذى ألمّ بالمدينة وليس البحث عن مصدر هذا الوباء وليست استشارة الآلهة لتعرف هذا المصدر وليس استكشاف الجرم الذى قتل أباه وتزوج أمه — ليس هذا كله إلا مظاهر لهذا الصراع بين حرية الإنسان واعتداده بنفسه حتى يبلغ الغرور ، وبين سلطان الإله وتفوقه على غرور الإنسان .

فإذا تبينت الحقيقة وعرف أوديب أن سعادته لم تكن إلا غروراً ، وأن انتصاره على أبى الهول لم يكن إلا سرابا ، وأن ملكه الذى أسسه ونعم به لم يكن إلا امتحانا — إذا عرف أوديب هذا كله ورأى امرأته وأمه قد قتلت نفسها ورأى نفسه قد فقأ عينيه بيديه ، ظن الكاهن تيرزياس أن الإله قد انتصر على غرور الإنسان ، وأن أوديب قد ثاب إلى رشده ، وأذعن لسلطان الدين . ولكن أوديب لم يخرج عن كبريائه ، ولم يستسلم للمحنة ، ولم يعترف بالهزيمة ، وإنما ثبت للخطب ، بل هو لم يفقأ عينيه إلا تحديا لنفسه وللناس وللألم ، ومحاولة لبناء مجد جديد من طراز آخر معنوى غير هذا المجد الزائل الذى كسبه حين قهر أبا الهول وأسس الملك . وهو حين ينفى نفسه من الأرض لا يفارق المدينة منهزما ولا مخذولا ، وإنما يفارقها يائساً . لم يقهر اليأس نفسه ، وإنما رفعها فوق الناس وفوق أعراض الحياة . وهو ينصرف ساخراً من الشعب الذى أحبه ثم كرهه ثم أخذ يتملقه حين عرف أن بركة الآلهة متصلة بشخصه ، وينصرف ساخراً من كريون المحافظ الذى يرى الملك كل شيء ، وينصرف ساخراً من ابنيه اللذين

لا يفكران فى الحياة إلا على أنها وسيلة إلى المتاع ، وينصرف ساخراً من الكاهن الذى يعظه ويريد أن يحمله على الندم ؛ فهو لا يرى أنه قد فعل شيئاً يمكن أن يندم عليه .

هذه هى القصة التى وضعها أندريه جيد ، وهى كما ترى قريبة جداً من القصة اليونانية فى موضوعها وفى غايتها ، بعيدة جداً من القصة فى صورتها من ناحية وإن احتفظت بالجوقة وفى إتقانها للتفكير وتجنبها للتكلف الشعرى الغنائى الذى قد يروق ويعجب ، ولكنه لا يغنى عن التفكير العقلى شيئاً .

ولست أدرى أمخطئ أنا أم مصيب ، ولكنى أعتقد أن هاتين القصتين : قصة سوفوكل وقصة أندريه جيد هما وحدهما اللتان تشهدان بأن محنة أوديب خليقة حقاً بأن تكون موضوعاً للتفكير الذى يغذو العقل ، والفن الذى يغذو القلب ، وبأن تكون من أجل ذلك صالحة لتفكير الفلاسفة وابتكار الأدباء على مر العصور واختلاف الأجيال .

وقد يكون مما تمتاز به قصة أندريه جيد من القصص الأخرى التى حاولت تجديد القصة اليونانية أنها لم تقف عند قصة أوديب ملكا ولكنها ألمت من قريب جداً بالقصة الثانية التى وضعها سوفوكل وهى قصة أوديب فى كولونا .

وكان إلمامها بهذه القصة رائعاً حقاً ، لا أكاد أعرف شيئاً يشبهه فى جمال الإيجاز ودقته وكفايته بحيث يستطيع قارئ هذه القصة أن يستوعب أمر أوديب كله فى غير مشقة ولا جهد .

فقصة أوديب تنتهى حين تموت جوكاست ويعاقب أوديب نفسه ويعلن أنه سيهاجر من وطنه . وقد رضى كريون عن هذه الهجرة ، وابتهج بها الشعب ، وسكت عنها ابنا أوديب الطامعان فى الملك اللذان اتفقا قبل أن يمتحن أبوهما على أن يكون الملك دولةً بينهما ، وأزمعت أنتيجون أن تصحب أباها فى منفاه ، وقررت إسمين أن تلحق بهما بعد قليل . ولكن الكاهن يعلن فجاءة أن الآلهة قد أوحوا إليه أنهم يصلون البركة بشخص أوديب ويكتبونها للأرض التى يدفن فيها بعد موته ، وإذا كل شىء يتغير إلا رأى أوديب ، فكريون يطلب إليه البقاء ملحاً فى طلبه ، والشعب يطلب إليه البقاء متملقاً مترضياً ، ولكن أوديب يسخر من إلحاح كريون وتملق الشعب وتوسل الكاهن ، ويمضى إلى منفاه ساخراً من هؤلاء جميعاً .

وفى هذا الحوار القصير اليسير يوجز أندريه جيد خير ما فى القصة اليونانية الثانية بحيث يخرج القارىء من قصة أندريه جيد وقد عرف من أمر أوديب كل شىء : عرف بدء القصة وخاتمتها ، وعرف مكر الآلهة وغرور أوديب ، وعرف المحنة والمقاومة ، ثم عرف عفو الآلهة وانتصار الإنسان .

٤

والظاهر أن أندريه جيد قد فكر فى قصة أوديب قبل أن يحاول إنشاءها بوقت طويل ؛ فهو معنى بأساطير اليونان يطيل التفكير فيها والحديث عنها ، ويلفته إليها بنوع خاص أنها مهما تكثر فيها الأعاجيب وخوارق العادات ومخالفة المألوف من قوانين الطبيعة تنتهى دائماً إلى شىء من المنطق يردها إلى العقل وإلى ما يحمل العقل على التروية والتفكير فيما يفسر حياة الإنسان أو يتصل بمصيره أو بموقفه من القضاء .

نراه يكتب فى ذلك بعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ .

ثم نراه ينشىء قصة أوديب نحو سنة ١٩٣٠ ، فإذا كانت الحرب العالمية الثانية وهاجر إلى إفريقية الشمالية نراه ينشىء قصته الثانية التى نترجمها مع قصة أوديب وهى قصة ثيسيوس . وهو ينبئنا فى إهداء هذه القصة بأنه كان يفكر فى كتابتها منذ زمن طويل . والواقع أنه يتحدث عن ثيسيوس وأسطورته فى مقاله الذى أشرت إليه آنفاً والذى كتب سنة ١٩١٩ ، فهو إذن يفكر فى هذه القصة الثانية قبل أن يكتبها بأكثر من عشرين سنة . والتفكير فى هذا البطل الأثينى لا يستقيم عند أندريه جيد كما أنه لا يستقيم عند سوفوكل دون التفكير فى أوديب . وحسبك أن تذكر أن أمر أوديب قد انتهى فى القصة الثانية من قصتى سوفوكل بالتجاء البطل الممتحن إلى أتيكا والتماسه الأمن والجوار عند الملك الأثينى ؛ فقد كان الشاعر اليونانى إذن يقرن أحد البطلين إلى صاحبه . وكذلك صنع أندريه جيد ، فسترى فى آخر قصة ثيسيوس حديثاً بين البطلين حين التقيا يدور كله حول مصيرهما . والواقع أن هذين المصيرين يختلفان أشد الاختلاف ، ولكن كلا منهما يدعو على ذلك إلى التفكير فى الآخر . فقد أتيح الفوز للبطل الأثينى منذ نشأته الأولى ، وأتيح له على نحو متصل حتى كانت حياته كلها فوزاً لم يعرف فيها الشقاء

إلا قليلا ، على حين بدأت حياة أوديب شقية مملوءة بالمحن ، ولم يكن ما أتيح له من السعادة إلا غروراً .

على أن آخرة الرجلين تختلف أشد الاختلاف : فأما أعظمهما حظًّا من الشقاء وهو أوديب ، فقد مات راضياً عن نفسه وعن الآلهة ، مطمئنًّا إلى هذه السكينة التى أنزلت على قلبه . وأما أعظمهما حظاً من السعادة وهو ثيسيوس فقد أنفق آخر أيامه منفيًّا طريداً ، نفته الثورة عن وطنه ، ولم يجد عند الملك الذى استجار به مثل ما وجد عنده أوديب من الثقة والأمن ، وإنما وجد عنده المكر والغدر والموت . فلا غرابة إذن فى أن يفكر أندريه جيد كما فكر سوفوكل فى الرجلين معاً . ولا غرابة إذن فى أن نجمع ترجمة القصتين فى سفر واحد ، وإن لم يفعل ذلك أندريه جيد ؛ لأنه قد أنفق عشر سنين بين إنشائه لهاتين القصتين .

على أنى حين تحدثت إليه فى الجمع بينهما فى سفر واحد رضى عن ذلك كل الرضا . وقد عرفت منه فى باريس أنه أشار على مترجمه الأمريكى بأن يصنع نفس هذا الصنيع ؛ لأن القصتين تصدران عن تفكير واحد وعن موقف واحد أمام مشكلات الحياة . ومع ذلك فبين القصتين اختلاف عظيم فى الصورة الفنية : إحداهما تمثيلية كتبت للمسرح ، على حين أن الثانية نوع من المذكرات يقص فيها البطل الأثينى علينا حياته التى ملأتها المغامرة فى ألوان من الدعابة الحلوة أحياناً والحب المر أحياناً أخرى .

ولا يشك قارئ القصتين فى أن أولاهما قد كتبت حين كان أندريه جيد قويًّا سعيداً موفوراً مستكملا شخصيته كأحسن ما يستكمل الكاتب شخصيته ، كان فى الستين من عمره ، أو لم يكن قد جاوز الستين إلا قليلا ، كان سعيداً بين أهله وأصدقائه ، راضياً عن نفسه وراضياً حتى عن مكر الناس به وكيدهم له وانتقاض بعضهم عليه . أما القصة الثانية فقد كتبها بعد أن جاوز السبعين ، بعد أن فقد زوجه وكثيراً من أصدقائه وبعد أن خضع لألوان من الأزمات النفسية ، وبعد أن ذاق وطنه الهزيمة ، وذاقها هو أشد ما يكون ذوقها مرارة ، وكتبها منفيًّا عن وطنه لا يعرف متى يعود إليه ، بل لا يعرف أيتاح له أن يعود إليه . فهو مجاهد معاند متحد للأحداث والخطوب حين يكتب قصة أوديب ، وهو هادئ مطمئن حزين باسم مع ذلك للأحداث والخطوب ساخر منها ، مؤمن بنفسه واثق بوطنه ذائق حلاوة الصداقة حين يكتب قصة ثيسيوس .

ولذلك نرى أوديب يفرض نفسه على الأيام ويتحدى الآلهة ويعاند القضاء، ويخرج من المحنة ظافراً يريد أن ينسى الماضى وألا يفكر إلا فى المستقبل، ونرى ثيسيوس قانعاً راضياً مطمئنا لا يفكر إلا فى الماضى يستحضر منه اليسير والخطير، ويجد اللذة فى استحضار ما يستحضر يتحدث به إلينا أو إلى نفسه، مستمتعاً بهذا الحديث قبل أن نستمتع به نحن، لا يفكر فى المستقبل ولا يريد أن يفكر فيه؛ فهو لا ينتظر مستقبلا لأن حياته قد أشرفت على غايتها. وأنت تجد هذا الحزن المطمئن فى الأسطر الأولى من القصة حين ينبئك بأنه كان يريد أن يقص حياته ليجد فيها ابنه موعظة وعبرة وتعليما، ولكن ابنه قد مات، وهو يقص حياته مع ذلك؛ لمن يقصها؟ لنفسه أولاً، ولمن شاء أن يقرأها من الناس بعد ذلك. فهو قد تقدمت به السن، وسبقه أكثر أصدقائه وأحبائه إلى الموت، فأصبح عشير نفسه، لايستطيع إن أراد أن يسرّى عنها إلا أن يقص عليها ما كان له فى صباه وشبابه وكهولته من الأحداث، وما مر به من الخطوب وما تعرّض له من المغامرات، يحيا فى وقت قصير حياته الطويلة، ويجدد بالذكرى ما اختلف على نفسه من لذة وألم، ومن أمن وخوف، ومن أمل ويأس.

وهو ينتهى آخر الأمر بالموازنة بين حياته وحياة صديقه أوديب، فيرى بعد التفكير الطويل أنه كان أسعد من صديقه حياة وأحسن حظًّا؛ لأن أوديب قد انتهى إلى الزهد فى الحياة والنفور منها والفزع إلى هذا العالم الداخلى يجد فيه الأمن والرضا على حين لقى هو الحياة كما عرضت على الأحياء، ولعب بالأوراق التى أتاح القضاء للناس أن يلعبوا بها. يئس أوديب من الناس واستيقن آخر الأمر أنه لن يجد عندهم خيراً ولن يقدّم إليهم خيراً، ووثق هو بالناس واستيقن آخر الأمر أن الحياة النافعة القيمة هى التى لاتنتهى إلى الجدب، وإنما تنتهى وقد تركت من ورائها آثاراً يدوم انتفاع الناس بها وذكرهم لها وثناؤهم على صاحبها.

وقد امتازت هذه القصة بما سترى فيها من هذه الدعابة الحلوة والسخرية الهادئة؛ فالبطل الأثينى يعرف الناس كما ينبغى أن يعرفوا: يعرف قوتهم ويعرف ضعفهم، ويعرف أن هذه القوة كثيراً ماتقوم على الضعف نفسه. قيل له إنه ابن الملك وتحدّث الناس بأنه ابن إله البحر، فهو يعتز بهذين النسبين: يعتز بنسبه إلى أبيه ليملك أثينا، ويعتز بنسبه إلى الآلهة ليملك قلوب الناس ويسحر عقولهم. وهو فيما بينه وبين نفسه يكاد يقطع بأنه ليس ابن هذا ولا ذاك، وبأن أباه غير

معروف ؛ فقد يحدثنا بلوتارك بأن كثيراً من هؤلاء الأبطال كانوا يولدون لغير أب معروف فينتسبون إلى الآلهة ، ولا ينكر الناس من نسبهم شيئاً لحسن بلائهم ولما يحققون من عظائم الأمور .

ويحدثنا ثيسيوس بأنه قتل رجلا كان يظن به السوء وقطع الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أنه كان رجلا خيرا نفاعاً للناس ، فكاد يندم على قتله ؛ ولكن الشعب حين عرف أنه هو قاتله ، لم يتردد فى أن يقرر أنه كان مجرما أثيما . وكذلك تذعن الشعوب لملوكها وتسبق إلى التماس المعاذير لهم حين يخطئون .

وما أكثر ماترى فى هذه القصة أخلاق أندريه جيد نفسه ، فأبغض شىء إلى ثيسيوس أن يقيد نفسه بما يمنعه من العمل ومن التقدم إلى أمام ؛ فهو يحب ولكن بشرط الا يمسكه الحب عند خليلة بعينها ، وهو يصادق ولكن بشرط ألا تقفه الصداقة عن أن يمضى لما يريد ، وهو من أجل ذلك يتخلص من أريان Ariane بعد أن نجته من اللابيرانت ويؤثر عليها أختها ، كما أنه لا يحفل بمشورة صديقه بيرتيوس ولا يقف عند رأيه ، وإنما يمضى لما أراد غير حافل بفقدان الصديق الذى أوشك أن يعوقه عما يرى فيه خيراً .

كل شىء فى هذه القصة يصور حرص الملك على أن يحقق نفسه ويعتمد عليها ، ولا يعتمد إلا عليها ، ينفع الناس ولكن لايعنيه أن يرضى الناس عنه أو يسخطوا ، بل هو لايكره أن ينفعهم على رغمهم . وإذا كانت قصة أوديب تصور الشخصية القوية المجاهدة المعاندة التى لاتؤمن بشىء كما تؤمن بالحرية ، ولاتحرص على شىء كما تحرص على الحرية ، ولا تعرف الهزيمة ولا تذعن للخطوب ، فقصة ثيسيوس تصور الشخصية القوية التى جاهدت وعاندت وانتصرت على الأحداث والخطوب حتى إذا بلغت آخر الشوط نظرت إلى وراء بعد أن لم تكن تنظر إلا إلى أمام ، فرضيت عن نفسها وحمدت بلاءها ، وانتظرت الموت آمنة مطمئنة .

والقصتان تنتهيان إلى غاية واحدة ، ولكنها فى الوقت نفسه مختلفة : فقد مات أوديب راضياً ومات ثيسيوس راضياً أيضاً ، ولكن أحدهما وجد الرضا فى العالم الداخلى الفلسفى ، على حين وجد الآخر هذا الرضا فى العالم الخارجى الإنسانى . وما أعظم الفرق بين رضا مصدره اليأس من الناس ورضا مصدره الثقة بالناس !

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

اليونان بين الملكية والجمهورية

ورث الإغريق المحدثون فيما ورثوه عن أسلافهم القدماء ولوعاً بالحرية والاستقلال، وإيماناً قوياً بالذاتية الفردية التى تجعل للفرد أو للمدينة كياناً مستقلا خاصا لا يحتمل ضما أو إدماجا فى وحدة أو وحدات أكبر وأوسع نفوذاً. ولقد كان لهذه الصفة الأخيرة أبلغ الأثر فى تكييف تاريخ هذه الأمة العريقة. فبينما نرى المصريين والفرس والرومان قد جمعوا شتات أقوامهم ووحدوا شمل بلدانهم وأنشأوا لهم فى التاريخ القديم دولا موحدة مترامية الأطراف كان الشأن الأول فيها للحكومة المركزية، إذا بتاريخ الإغريق القدماء يزخر ويزدهر بقيام دول شتى تلمع فيها عبقرية الأفراد ويعظم شأن المدن المستقلة، فينافس الجميع بعضهم بعضا فى إقامة أحسن النظم وأدناها إلى سعادة الإنسان وشحذ فكره وترقية ذوقه. ولم يكن الإغريق القدماء ليرضوا بديلا عن تلك الذاتية الفردية إلا إذا دهمهم من الخارج أو الداخل خطر يعرّض كيانهم أو حرياتهم للضياع، كما حدث عندما هاجمتهم جحافل الفرس وأساطيلهم فى القرن الخامس قبل الميلاد، وحينئذ تتضافر جهودهم ويتناسون أحقادهم ويقفون جميعاً فى وجه المعتدى، كلهم للمجموع وأرض هيلاس للجميع. ولقد وحّد المقدونيون البلاد فترة فى عهد الإسكندر الأكبر، وأصبحت لهم دولة ترامت أطرافها إلى الهند وحدود الصين، ولكن سرعان ما استحالت إثر موت الإسكندر إلى دويلات مستقلة طوعا لطبيعة البلاد والناس.

وقد دعاهم حرصهم على ذاتيتهم وشدة تمسكهم باستقلالهم الفردى أن يشن بعضهم على بعض حروبا أهلية، عرفت أكبرها فى التاريخ القديم بحرب بيلوبونيز، وظلت مستعرة بينهم قرابة سبعة وعشرين عاما، لا لسبب سوى أنهم آنسوا من أثينا ميلا للطغيان وبسط نفوذها على سائر المدن الإغريقية المستقلة، وحرمانها تلك الذاتية الفردية التى قدّسها الإغريق قديماً، وكانت

فى تاريخهم الحديث مصدر شقاوتهم واضطراب أحوالهم إلى الآن .

ولقد كان يظن أن رزوح اليونانيين تحت نير الأتراك زهاء أربعة قرون منذ فتحها العثمانيون فى القرن الخامس عشر إلى قرب منتصف القرن التاسع عشر ، قد غيّر من طبائع هذا الشعب وبدّلهم بحب الحرية والذاتية الفردية خضوعا للغاصب واستسلاما لطبائع الاستبداد ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ فإن الأتراك العثمانيين لم يكونوا يوما مستعمرين متسلطين ، بل كانوا رغم تفوقهم العسكرى قوما كسالى ، لا همّ لهم إلا جمع القوت والمال لإشباع بطونهم وبطون رؤسائهم فى القسطنطينية ، فتركوا أهل اليونان أحراراً يوزعون الضرائب بينهم ، أحراراً فى كنائسهم وفى مدارسهم ، لهم رؤساؤهم الروحيون والمدنيون ، والكثرة الغالبة منهم يعيشون عيشة الفاقة والقناعة على ما تنتجه بلادهم المجدبة التى تكتنفها سلاسل الجبال الشاهقة ، فتجعل الزراعة والمواصلات والسعى إلى كسب الرزق عملا بالغاً منتهى الشدة والمشقة .

ولما كان الأتراك يزاولون سلطاتهم عادة فى المدن بسند من عساكرهم وحامياتهم ، وجد اليونانيون الأحرار ملاذاً لحريتهم بين مسالك الجبال ومفاوزها ، واتخذوا من كهوفها ووهادها مراكز لعصاباتهم تحصنوا فيها ، وكانت لهم أوكار يكرون منها ويفرون ، ومنها ينقضون ليلا على الأتراك وعلى أهل المدن والسهول من الموسرين الموالين للحكام ، يسلبونهم متاعهم وينكلون بهم ويقتلونهم خفية ، ثم يعودون من غزواتهم غانمين آمنين ؛ فلا الأتراك بمستطيعين أن يصلوا إلى مراكز هذه العصابات ، ولا اليونانيون قادرون على إفشاء سر إخوانهم أو مخالفة أوامرهم . وشبيه برجال العصابات أهل الجزر المنتشرة فى بحر إيجه ؛ فقد كان لتركيا أساطيل وقواد بحريون ، ولكنهم كانوا لا حول لهم ولا قوة أمام ملاحى اليونان وقرصانهم من أهل الجزر الذين سيطروا على حركة الملاحة والتجارة ، فبنوا السفن والأساطيل وسلحوها خفية ومخروا بها عباب البحار إلى مختلف ممالك أوربا . وقد أفادوا كثيراً من الحصر البحرى الذى أعلنه نابليون على الجزر البريطانية وأعلنته انجلترا على قارة أوربا . ومثل أولئك وهؤلاء كان القساوسة والرهبان من رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين اتخذوا من امتيازاتهم الدينية ستاراً أسدلوه على نشاطهم الاجتماعى والسياسى ، فكانوا يجوبون الهضاب والقفار والأودية ويطوفون على القرى ومراكز العصابات

يواسون الفقراء ويضمدون جراح المرضى والمساكين ، ويذكرون الناس جميعاً بمجد الدولة البيزنطية القديمة ، ويبشرونهم باقتراب يوم الخلاص والنشور !

وعلى أكتاف هذه العناصر الثلاثة قامت الثورة ضد الأتراك فى سنة ١٨٢١ ، واشتعلت حرب استقلال اليونان واستمرت زهاء عشر سنوات بين مد وجزر ونصر وخذلان ، حتى تدخلت الدول ، وتقدمت روسيا تحارب تركيا فى سبيلهم وتقف أمام القسطنطينية تخيّر الأتراك بين تحرير اليونان أو ضرب العاصمة . فلم يسع تركيا سوى الإذعان للقوة ، وأقرت الدول فى سنة ١٨٣٠ استقلال اليونان وانسلاخها عن تركيا .

وكأنّ خروج اليونانيين بعد أربعة قرون قضوها فى ظلمات الاستبداد والاحتلال الأجنبى إلى نور الحرية والاستقلال قد غشّى أبصارهم فجعلهم يتعثرون ويتخبطون فى مزالق السياسة ، فما كادوا يتمتعون باستقلالهم حتى ظهرت عليهم أعراض الذاتية الفردية وطغت بينهم الأحقاد ، واتسعت هوة الخلف بين أهل الجبل وأهل السهل ، فعمت الفوضى ، وراحوا يزجون فى السجون زعماءهم ويقتلون كابو دستريا أول رئيس لجمهوريتهم التى أعلنوها سنة ١٨٢٧ . وكان كابو وزيراً لخارجية روسيا واختاره اليونانيون رئيساً لهم ؛ فلم تمض إلا سنوات ثلاث حتى قتلوه لأرستقراطيته وجوره . وعند ذلك قررت انجلترا وفرنسا وروسيا أولياء أمر اليونان أن يوضع حد للمنازعات الداخلية بإعلان الملكية ، واختاروا لتاجها الأمير أتّو بن ملك بفاريا ، فسار على غير هوى اليونانيين ولم يكن له عقب ، فأقالوه سنة ١٨٦٢ واختاروا بدله الأمير جورج الدنمركى . وقد مهدت بريطانيا الطريق أمام الملك الجديد بأن نزلت لليونان عن جزر الأيونيان . وكانت هذه الجزر تتمتع منذ سنة ١٨١٥ بحكم ذاتى تحت سيادة بريطانيا ، فانجذب الشعب اليونانى نحو الملك الجديد وتوطد مركز الملكية بفضل ارتباطها بأواصر النسب مع أكبر تيجان أوربا إذ ذاك ؛ فقد كان الملك جورج الأول متزوجاً بأميرة روسية ، وكانت شقيقته زوجة ولى عهد انجلترا وهو الذى اعتلى العرش بعد والدته الملكة فيكتوريا باسم الملك إدورد السابع ، وقد تزوج ابنه وولى عهده قسطنطين من أميرة ألمانية كانت شقيقة إمبراطور ألمانيا وليم الثانى .

وفى ١٨ مارس سنة ١٩١٣ قتل الملك جورج الأول فى سلانيك ، قتله إغريقى

فوضوى . وكان چورج حاكما معتدلا ، زادت فى عهده رقعة البلاد وترامت حدودها ، فضمت جزيرة كريد سنة ١٩٠٩ . ولما قامت الحرب البلقانية ضد تركيا ١٩١٢ — ١٩١٣ وانتهت بهزيمة تركيا ، امتدت حدود اليونان شمالاً إلى مقدونيا وشرقاً إلى تراقيا وغرباً إلى أبيروس جنوبى ألبانيا ، وبذلك تضاعفت مساحة البلاد ، وزاد عدد سكانها بمقدار مليونى نفس تقريباً . على أن طريق الملكية فى اليونان لم يكن سهلا معبداً ، بل على العكس ظلت البلاد تعانى بسبب فقر الشعب وانقساماته وتقلباته متاعب وأزمات كثيراً ما عصفت بالحكومات وكادت تذهب بآثار الملكية إلى غير رجعة . ولم يكن فى هذا كله أمر يدعو إلى الدهش والغرابة إذا أدركنا أنه ، رغم انقضاء أكثر من مائة عام على تمتع اليونان الحديثة باستقلالها ، لاتزال شؤون البلاد الداخلية : دستورها ونظام الحكم فيها مثار خلافات بل حروب أهلية إلى الآن . ففى أثناء هذا القرن اغتال اليونانيون رؤساءهم وملوكهم وشردوهم أكثر من مرة ، وأنشأوا حكما جمهوريًا ، وأقاموا دكتاتوريات عسكرية مرة تلو أخرى . وما كانت هذه التغيرات لتتم عادة إلا مصحوبة بحركات ثورية أو تمردية وحروب أهلية تراق فيها الدماء ، وتطاح فيها رؤوس القادة والوزراء ، ويصاب فيها الأهلون أخيراً بأفدح المظالم والمغارم .

وكان أفدح ما منيت به اليونان الحديثة من خلاف داخلى فى أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ إذ كان الملك قسطنطين مواليا لصهره إمبراطور ألمانيا ، وكان رئيس حكومته الزعيم الشعبى ڤينزيلوس يناصر الحلفاء . فلما قرر الحلفاء إرسال حملة غاليبولى لمحاولة اقتحام المضايق والاتصال بروسيا عن طريق البحر الأسود ، كان مما يساعد على نجاح الحملة أن تقف اليونان إلى جانب الحلفاء ، فلما تعذر إقناع قسطنطين ترك ڤينزيلوس الوزارة وأعلن على الملأ تأييده لقضية الحلفاء ، ودعا اليونانيين إلى الالتفاف حوله فى سياسته ، فاستجاب جانب كبير من الشعب لندائه ، وأقام فى سلانيك حكومة وطنية ما لبث الحلفاء أن اعترفوا بها . وعلى ذلك بدت اليونان أمام العالم كله أمة منقسمة على نفسها ، يحكمها من أثينا ملك محايد يميل إلى دول الوسط ، ومن سلانيك رئيس متمرد على الملك يناصره الحلفاء ويناصرهم بقواته التى جمعها من بين أفراد الشعب التعس . وأخيرا لم ير الحلفاء

بدءا من إقصاء الملك المعارض ، فقرروا إقالته سنة ١٩١٧ ، فغادر البلاد ومعه ابنه الأكبر جورج ؛ إذ كان الابن كأبيه متأثرا بالثقافة الألمانية ومؤيدا لسياستها ، وأقاموا على عرش اليونان الابن الأصغر باسم الملك إسكندر ، وأصبح فينزيلوس رئيسا للحكومة ، فدخلت اليونان الحرب وساهمت فى النصر إلى جانب الحلفاء بما يقرب من ربع مليون جندى . ومات الملك الشاب فى سنة ١٩٢٠ إثر عضة من قرد .

وعلى الرغم من أن فينزيلوس قد مثل اليونان فى مؤتمر الصلح فى باريس وكسب لنفسه ولأمته مزايا ومنزلة قصرت عن إدراكها دول كانت أعظم من اليونان شأنا وأكثر مالا وأعز نفرا ، فإن اليونانيين ما لبثوا أن انقلبوا على زعيمهم الذى استسلم للحلفاء وجعل بلاده لهم مطية ذلولا استخدموها فى تحقيق مآربهم ، فلما استفتى الشعب قرر عودة الملك قسطنطين . وكانت اليونان إذ ذاك تحاول هضم اللقمة الدسمة التى سخا مؤتمر الصلح فى سيفر باقتطاعها لها ، فكان نصيبها منطقة أزمير وتراقيا الشرقية وجزر بحر إيجه ما عدا الدوديكانيز .
وكانت قد ظهرت فى ذلك الوقت حركة النهضة التركية الكمالية ، فلم يكن بد من اصطدام قوات الشعبين ، فوقفت الحكومة الإنجليزية من وراء اليونان تؤيدها ، ووقفت فرنسا وإيطاليا تؤيدان الكماليين سرا وعلانية . وأخيرا تولى قسطنطين قيادة جيشه ، فدحر اليونانيون فى معركة سقاريا الحاسمة وباءوا بخزى عظيم ، فقد طاردهم الأتراك حتى قذفوا بهم إلى البحر . ونزل قسطنطين عن عرشه وفر إلى إيطاليا ، وما لبث أن مات سنة ١٩٢٣ وخلفه ابنه الملك جورج الثانى . ولكن الهزيمة التى منيت بها اليونان على يد الأتراك فى الأناضول كانت قاصمة الظهر وبالغة الخطر ، فزيادة على ما أصاب اليونانيين من خسائر مادية وأدبية رأى الأتراك أن الفرصة سانحة للقضاء على مشكلة أقلية الأروام فى بلادهم ، فقرروا انتزاعهم من جذورهم وترحيلهم بقضهم وقضيضهم إلى بلادهم الأصلية مقابل نقل الأتراك المسلمين الذين كانوا يعيشون فى تراقيا والمورة إلى تركيا . ومعنى ذلك أن اليونانيين المنهزمين الذين لا يرزقون أقواتهم إلا بشق الأنفس كان عليهم أن يقبلوا بين ظهرانيهم مليونا ونصف مليون من المهاجرين الأروام الذين نسوا بلادهم وعاشوا قرونا طويلة فى الأناضول وتركيا . وإذا عرفنا أن سكان اليونان آنئذ لم يكونوا ليزيدوا على ستة ملايين إلا قليلا أدركنا فداحة المصيبة التى منيت بها البلاد من الوجهة الاقتصادية . أما الأتراك الذين هاجروا من اليونان

فلم يزيدوا على نصف مليون نفس. ولكن هذا التبادل فى الأقليات بين تركيا واليونان رغم ما صحبه فى التنفيذ من آلام وشدائد، كان أوفق حل لمشكلة الأقليات، وقد انتهت بأن أقامت بين الدولتين روابط صداقة وحسن جوار كانت عاملا قويافى إعلان ميثاق البلقان سنة ١٩٣٤، وربط الشعبين المتجاورين التركى واليونانى بأقوى الصلات وأوثقها فى العصر الحديث.

ولقد كان من جراء هزيمة اليونانيين بقيادة الملك قسطنطين أن ضعف شأن الملكية فى اليونان وضؤل خطرها، فأعدموا ستة من الوزراء والقواد الملكيين، وأثاروا بفعلتهم هذه النكراء سخط العالم المتمدن فى جميع أنحاء العالم. ولم يمض عام على اعتلاء الملك جورج الثانى عرش اليونان بعد وفاة أبيه حتى اتهموه بتدبير ثورة ضد النظام القائم، وأرغموه على النزول عن العرش، وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٢٤ وظل الزعيم الشعبى ڤينزيلوس رئيسا للحكومة يعمل جهده لرأب الصدع وإعادة الثقة بالدولة بعد أن خفت موازينها إثر اندحارها أمام الأتراك وانحدارها إلى مستوى الوحشية لإعدامها ستة من وزرائها وقوادها رميا بالرصاص. وكان ڤينزيلوس يقضى معظم أيامه بعيدا عن بلاده فى فرنسا أو متنقلا، بين العواصم لقضاء مهمات دولية، فترك أنصاره يسيئون الحكم فى البلاد حتى إذا كانت سنة ١٩٢٦ انقلب الرأى العام ضد ڤينزيلوس وقامت فى البلاد دكتاتورية عسكرية برياسة بنجالوس فغادر ڤينزيلوس البلاد إلى فرنسا، وظل بها حتى دفعه غروره وحبه للمخاطرة إلى إشعال فتنة حربية بحرية فى سلانيك سنة ١٩٣٥، فانبرى لهم الجنرال كنديلس، وقضى على الفتنة قبل أن تستفحل، وأقام دكتاتورية عسكرية مالبثت أن مهدت الطريق لعودة الملكية سنة ١٩٣٦. وقد مات كنديلس وڤينزيلوس وتسالداريس وهم أكبر زعماء اليونان، وبذلك صفا الجو لجورج الثانى.

ولما عاد الملك جورج الثانى إلى عرشه أعلن أنه إنما يعود استجابة لصوت الشعب كله، وسار فى حكمه سيراً معتدلا حكيما راسماً طريقه وسطاً بين الملكيين ومعارضيهم، فاستقرت الحال نوعاً داخل البلاد. ولكن لسوء حظه مات رئيس حكومته وخلفه وكيله الجنرال متكساس، وكان متأثراً بالثقافة الألمانية موالياً للألمان نازعاً فى حكمه منزع الدكتاتوريين. رأى متكساس أنه لا أمل فى إصلاح حال البلاد واستقرار أمورها، مادامت الخلافات الحزبية تملك على الناس مشاعرهم

ونشاطهم ، فقرر إقامة حكمه وفق الأصول الدكتاتورية المعروفة فى ذلك الوقت ، ووجد متكساس من الملك سنداً ونصيراً له ، فألغى الأحزاب ، وكم الصحافة ، وقيد الحريات ، ونفى وشرد أعداءه ومناهضيه ، وجعل نفسه رئيساً للوزارة مدى الحياة ، وبذلك رفعت الفاشية فى اليونان رأسها ، وأصبح نظامها فى نظر الشعب مقترناً باسم الملك جورج الثانى .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ أعلنت اليونان حيدتها ، وبرهن متكساس رئيس وزرائها على أنه سياسى وطنى مصلح ؛ إذ سار قدماً فى إصلاحاته الحربية والاقتصادية . حتى إذا ما تشجع موسولينى عقب اندحار فرنسا ، وأعلن الحرب على اليونان فى أكتوبر سنة ١٩٤٠ ، وجد من اليونانيين شعباً صعب المراس متحداً مدرباً على حرب العصابات خبيرا بدروب الجبال ومسالكها ، وسرعان ما استرعى العالم انتصار هذا الشعب الصغير الفقير على جحافل موسولينى الذى طالما تشدق بجيوشه ولمعان أسنته التى قال عنها : إنها متى ارتفعت حجبت شعاع الشمس عن أعين البشر !

ومات متكساس فجأة سنة ١٩٤١ وهو مزهو بانتصار بلاده فى أول الأمر ، ولكن هتلر لم يصبر طويلا على أذية صاحبه ، فسرعان ما تحركت كتائبه وعدده وطائراته ، وجاءت على عجل بعد أن اكتسحت يوغسلافيا ، واخترقت بلغاريا . ووصل المدد إلى اليونان من بريطانيا ، وهى فى محنتها بمفردها أمام الخطر النازى . ومع ذلك لم يثبت اليونانيون إلا أياماً معدودة ، فهاجر الملك وحلفاؤه إلى كريت ، ثم أفاق العالم صباح يوم فرأى الألمان قد احتلوا كريت بعد هجوم جوى خاطف لم يسبق له مثيل ، ففر الملك جورج وحكومته من الجزيرة سراً بعناء ومشقة إلى مصر . وبذلك بدأ الملك منفاه لثالث مرة .

ولما احتل الألمان البلاد تألفت بها سراً ، كما تألفت فى سائر البلاد التى احتلها العدو عنوة ، جماعات للمقاومة ، كان فى مقدمتها عناصر شيوعية استطاعت أن تنمو وتقوى سراً فى عهد متكساس ، وأصبحت فى عهد الاحتلال مأوى لجميع العناصر المناوئة للألمان . وأخذت مراكز المقاومة تقوى وتكبر تدريجاً متخذة كهوف الجبال ووهادها مراكز لنشاطها وتدريبها . ولم تكن هذه الفئات فى أول أمرها شيوعية خالصة ، كما أنه لم تكن لها صلة البتة بالشيوعيين الدوليين ، ولكن

ما كادت ألمانيا تعلن الحرب على روسيا حتى زاد نشاط هذه الفئات ، وجعلت تعمل بهمة على إحباط مساعى الألمان ، وإثارة الشعب بين العمال فى المصانع والمعامل لإلحاق الضرر بالألمان وجنودهم الحربية . وبلغ عدد المنضوين تحت لواء جماعة المقاومة من الشيوعيين ما يقرب من ربع سكان البلاد .

وإلى جانب العناصر الشيوعية ظهرت جماعات أخرى للمقاومة ، وأهمها الهيئة التى كان يرأسها الكولنيل زرفاس . وكانت هذه الهيئة تلقى المعونة من الحلفاء ومن الحكومة المنفية ، وكان الخلاف بين جماعات المقاومة المختلفة بالغا منتهاه ، مما اضطر الحلفاء أن يتدخلوا فى الأمر . وكان من واجب الحلفاء طبعاً أن يتصلوا سراً بهذه العناصر جميعاً للاتفاق معها على خطط المقاومة وطرق تنفيذها. وسرعان مابدا للحلفاء أن الهيئة الشيوعية قد أخذت تتفوق على غيرها وتسيطر على الحالة الداخلية ، فعملوا سراً على مساعدة الجماعات المعتدلة ، وأعلنوا فى الوقت نفسه أنه يهمهم أن يتفق الجميع ضد العدو ما دامت الحرب مستعرة ، ثم ينظر بعد ذلك فى تسوية الخلافات بينهم .

والهيئة الشيوعية هى التى أصبحت تعرف بجماعة إيام .E.A.M أو جبهة التحرير الوطنية ، وكانت أقوى جماعات المقاومة وأدقها تنظيماً ؛ إذ كان لكل شعبة رئيس من الضباط السابقين ، ومستشار سياسى بيده زمام الشعبة ، وكان غالباً من الشيوعيين .

وقد أصابت هذه الهيئة غنما كبيرا منذ أن استسلمت إيطاليا فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ ؛ إذ وقعت أسلحتها وذخيرتها غنيمة فى يد هذه الجماعة . ومن سوء حظ الملك جورج الثانى أنه وأعضاء حكومته لم يتصلوا فى أثناء الاحتلال بهذه العناصر ولم يحاولوا استمالتهم إلى جانبهم ، كما أنهم لم يستنكروا نظام متكساس الفاشى أو يبرئوا أنفسهم من أدرانه فى نظر الشعب ، بل إنهم تركوا بعض أنصارهم فى اليونان ينخرطون فى سلك الاحتلال الأجنبى ويتعاونون مع الغاصبين . وقد نجح المحتلون فى استغلال هذا الموقف ، فدقوا إسفينا عميقاً بين طبقات الشعب المختلفة ، فصوروا أنصار المقاومة شيوعيين يعملون لصالح حكومة السوفيت ، فكان طبيعيا أن ينحاز أعداء الشيوعية إلى جانب المحتلين الذين يقاتلون الشيوعية ، وضاع بذلك شرف الكفاح فى سبيل تحرير الوطن .

ولما استفحل الخلاف بين جماعات المقاومة بعضها وبعض ، وبين هيئة إيام

وحكومة المنفى حتى وصلت الحال إلى تمرد بعض القوات البحرية والحربية ضد ضباط من الملكيين ، خشى الحلفاء مغبة ذلك الانقسام ، فنظموا مؤتمرا فى لبنان جمع ممثلى الهيئات المختلفة ، واتفق الجميع على تكوين جبهة متحدة وحكومة ائتلافية ، تألفت أخيرا وكان من بينها ستة وزراء من هيئة إيام . وهذه الحكومة برياسة باباندريو هى التى تسلمت زمام الحكم فى اليونان بعد ارتحال الألمان منها فى سبتمبر ١٩٤٤ . وقد اتفق الرأى نهائيا على أن يستفتى الشعب فى عودة الملك بعد أن كان الملك ومن ورائه الحكومة البريطانية يعارض فى ذلك أشد المعارضة . وسارت الأمور فى أول الأمر سيرا حسنا إلى أن قررت الحكومة تسريح جميع هيئات المقاومة . وفطن جماعة إيام أنهم المقصودون بذلك ، فعارضوا وطالبوا بأن تسرح أيضا جميع القوات التى ناصرت حكومة الملك فى الداخل ومن الخارج . ثم استقال الوزراء الشيوعيون وبدأ الشغب . وسرعان ما قامت الحرب الأهلية فى ديسمبر سنة ١٩٤٤ بين جماعة إيام والعناصر الحكومية الملكية ، وعادت إلى البلاد ذكريات الكفاح بين « الجبل » و « السهل » فى أوائل عهد الاستقلال ، وظلت الحرب خمسة أسابيع عانى فيها اليونانيون أهوالا من القسوة والفظاعة لا عهد لهم بها ؛ إذ كان الجانبان مجهزين بأحدث أنواع الأسلحة والذخيرة التى تخلفت عن الحرب الأخيرة . ولو لم تتدخل الجنود البريطانية التى صاحبت الحكومة عقب خروج الألمان لمساعدتها فى تأييد النظام وتوزيع الغذاء لانتهت الحرب سريعا بانتصار هيئة إيام لأنها كانت الهيئة المسلحة القوية فى البلاد . ولكن معاونة انجلترا كانت فى الواقع كسبا لعناصر النظام والاستقرار . ولو ترك الأمر لهيئة إيام لتقوض النظام من أساسه .

ولما اشتد النكير على الحكومة الإنجليزية فى البرلمان وفى الصحف لمسلكها إزاء الثورة فى اليونان ، طار إلى أثينا مستر تشرشل ومعه وزير خارجيته مستر إيدن واجتمعا وسط دوى المدافع مع ممثلى الهيئات المختلفة وقرروا إسقاط الحكومة وإقامة نائب للملك ، واختير لذلك المطران دامسكينوس ، كما تقرر استفتاء الشعب بشأن عودة الملك جورج الثانى إلى عرشه بعد ثلاث سنوات أى فى سنة ١٩٤٨ . وقد دلت الانتخابات التى أجريت بعد ذلك على ميل الشعب نحو الملكية ، ووليت الأعمال حكومة موالية للملكية ، تقررت إجراء

الاستفتاء فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ . وقد جاءت النتيجة مؤيدة لعودة الملك جورج الثانى بأغلبية بلغت نحو ٧٥ ٪ من مجموع الناخبين .

ولا تزال القوات الإنجليزية تحتل البلاد رغم الشكوى التى تقدمت بها روسيا وحلفاؤها إلى مجلس الأمن فى العام الماضى ؛ فقد انتهت المناقشة بأن البريطانيين باقون فى البلاد بموافقة الحكومات التى تعاقبت على الحكم بعد انتهاء الاحتلال الألمانى ، وأنهم باقون إلى أن يستقر النظام فى البلاد بعد إجراء الانتخابات واستفتاء الشعب بشأن عودة الملك جورج . وقد تم هذا فى سبتمبر الحالى ، وسيعود الملك قريبا إلى عاصمة ملكه ، وحينئذ لا بد أن تجلو القوات الإنجليزية عن البلاد .

ومع أن انتهاء الحرب الأهلية بانتصار العناصر الحكومية قد أضعف من شأن هيئة إيام وقلل من خطرها ، فإن الانشقاق القديم الذى فرق بين السهل والجبل ، وبين الحقل والمصنع ، أو بين اليمين واليسار ، لا يزال باقيا ، وسيبقى ما دامت طبيعة الأرض والبشر فى اليونان على حالها . ولا خطر من هذا الانشقاق إذا سارت الملكية على منهاج قومى لا تميل فيه إلى اليمين كل الميل ولا إلى اليسار دائما ، بل تأخذ بين هذا وذاك سبيلا . ومن الحصافة أن يجعل ملوك الدول الديمقراطية الحكم مناوبة بين اليمين واليسار مهما تباينت الأمزجة واختلفت المبادئ ، حتى لا تطغى كفة على أخرى ، وحتى لا ينزل التاج إلى درك المنافسات الحزبية .

وتواجه اليونان بعد الاحتلال الأجنبى الذى دام أكثر من ثلاث سنوات مشاكل عدة على جانب عظيم من الأهمية ؛ ففضلا عن المسائل الاقتصادية هناك المشاكل الخاصة بجارتيها بلغاريا وألبانيا ، وكل منهما يسير على نهج اشتراكى موافق رغبات حكومة السوفيت الروسية . والأولى تريد تحقيق حلمها القديم بإيجاد منفذ لها على بحر إيجه تطلع منه على مياه البحر الأبيض المتوسط . ولا سبيل إلى الحصول على هذا المنفذ إلا إذا نزلت لها اليونان عن أحد موانيها على بحر إيجه . وتطمع بلغاريا فى أخذ ميناء دده غاج إذا امتنعت عليها سالانيك . أما ألبانيا فتطالب بضم الجزء الجنوبى من أبيروس . وجميع هذه المسائل معروضة أمام مؤتمر الصلح المنعقد الآن فى قصر لكسمبورج بباريس .

وقد تقرر أخيراً إتمام الوحدة الإغريقية بضم جزر الدوديكانيز بما فيها

جزيرة رودس ، وكانت جميعها بيد إيطاليا منذ قيام حرب طرابلس سنة ١٩١١ . وقد حاولت روسيا احتلالها جميعها أو احتلال بعض منها لاتخاذه قاعدة لها فى شرق البحر الأبيض المتوسط فلم توفق . وعلى ذلك لايبقى خارج الحظيرة اليونانية سوى جزيرة قبرص ، وهى بيد انجلترا منذ سنة ١٨٧٨ . ولا يبعد أن تتخلى عنها بريطانيا لليونان متى توطدت أركان السلام فى العالم ، واضطلع مجلس الأمن فعلا بمهام أعماله .

وهناك غير المشاكل الإقليمية الحالة الفكرية أو الإيديولوجية ؛ إذ تسود بلاد البلقان الآن موجة شيوعية قوية قدغطت وجه شبه الجزيرة ، وذلك بسبب تفوق روسيا الحربى ، ولشيوع الفقر والجهل والبطالة بين جميع الشعوب التى تسكن هذه الأرجاء . ومما له دلالة واضحة على تطور الحالة الفكرية تخلص يوغسلافيا وألبانيا وبلغاريا على التوالى من حكوماتها الملكية وإقامة النظم الجمهورية الاشتراكية بدلها . وليس فى البلقان الآن حكم ملكى إلا فى رومانيا ، وحكومتها إلى الآن موالية لروسيا . أما تركيا فهى كحليفتها اليونان تقف إلى جانب الحلفاء وتناصر المبادئ الديمقراطية ، وهى كاليونان أيضاً تخشى على استقلالها وحرياتها من تدخل السوفيت أو توابعها .

ومركز بلاد اليونان من الوجهة الدولية شبيه تماما بمركز تركيا ، فكلتاهما تحتكم فى نقط استراتيجية غاية فى الأهمية بالقياس إلى شرق البحر المتوسط وسلامة أراضيه . وقد برهنت الحرب الأخيرة على أن فى الشرق الأوسط نقطة التحول بين الهزيمة والنصر ، فمن كان بيده مفاتيح هذه المنطقة تدانت له أسباب الفوز والنصر . لذلك كان هذا التنافس الشديد الذى نلحظه الآن بين الدول الكبرى بشأن الشرق الأوسط . واليونان رأس الرمح بالنسبة إلى الجانبين المتنافسين المتراشقين . فإذا لم تجد حكومة اليونان الملكية حلولا عاجلة لمشاكلها الاقتصادية والاجتماعية ، فإن الشيوعية ستبيض وتفرخ فى أوكارها بين كهوف الجبال ووهادها ، وهناك تستنيم فترة إلى أن تحين ساعة يعود فيها الكفاح من جديد بين السهل والجبل — بين الملكية والجمهورية .

محمد رفعت

أنظمة الحكم

ومذاهب الاجتماع

راج الخلط فى هذا العهد بين التعبيرات المتصلة بأنظمة الحكم ومذاهب الاجتماع ، بل بين تعبيرات بعض أنظمة الحكم وتعبيرات بعض أنظمته الأخرى ، وتعبيرات بعض مذاهب الاجتماع وتعبيرات بعض مذاهبه الأخرى . ونشأ هذا الخلط حتى عم الآخذين بمبادئ المعرفة الأولى والبالغين درجة من الثقافة معدودة ، وحتى غمر البيئات البادئة فى ميادين الاتجاهات الاجتماعية الحديثة والضاربة فى هذه الميادين بسهم ، وسواء منها القائم فى هذه الناحية الشرقية من العالم والقائم فى تلك الناحية الغربية منه . بل إن ذلك الخلط الراجع إلى غير قليل من الجهل قد طغى على بعض الصيغ التشريعية التى تختص عادة بميزة الدقة فى التعبير والوضوح فى الأداء . فالشيوعية يرد استعمالها مرادفة « البلشفية » ، « والديمقراطية » تترادف بعض الأحايين مع « الاشتراكية » أو تتقابل ، ويتراوح وصل « الدكتاتورية » بين الشيوعية والحكم المطلق .

ووجه الخلط عندنا هو أن المستعملين لا يميزون بين أنظمة الحكم ومذاهب الاجتماع من ناحية ، ولا يحددون أنواع كل من تلك الأنظمة وهذه المذاهب من ناحية أخرى .

وأنظمة الحكم متصلة بسياسة الدولة ، ومذاهب الاجتماع متصلة بهناء الفرد فى معاشه . والشأن فى تحديد أنواع أنظمة الحكم راجع إلى الاختيار بين اتجاهين أساسيين اثنين : اتجاه الاستئثار ، واتجاه المساهمة . والشأن فى تحديد أنواع المذاهب الاجتماعية راجع إلى الاختيار بين اتجاهين أساسيين اثنين كذلك : اتجاه الانفراد ، واتجاه المشاركة . وإذا تعددت بعد ذلك أنظمة الحكم وتعددت مذاهب الاجتماع ، فإنما يستند تعددها جميعا إلى الاقتراب قليلا أو الابتعاد قليلا عن الاتجاهين المتصلين بالحكم والاجتماع .

وليس فى الحكم غير توزيع بين الأوتوقراطية والديموقراطية . وليس فى الاجتماع غير توزيع بين الانفرادية والاشتراكية . تريد الأوتوقراطية أن تستأثر بالسلطان لواحد ، وتريد الديموقراطية أن تجعل السلطان للأمة مجتمعة . وتريد الانفرادية أن تسند نظام العيش فى الجماعة إلى حرية تصرف كل فرد ، وتريد الاشتراكية أن تحقق ذلك النظام باشتراك الجماعة . وتلجأ الأوتوقراطية إلى وسيلة الطغيان والدكتاتورية ، وتلجأ الديموقراطية إلى وسيلة الشورى . ويتراوح الطغيان بين تولى الفرد « الأحد » سلطات الدولة جميعها يرجع إليه فى أمور التشريع وأمور القضاء وأمور التنفيذ ، واستعانته بهيئات « استشارية » يطلب رأيها ولا يتقيد به . وتتراوح الشورى بين الرجوع إلى أفراد الشعب عن طريق الاستفتاء ، والرجوع إلى هيئة ممثلة لإرادات هؤلاء الأفراد وهى البرلمانات والمجالس النيابية . ومن هنا قامت الحكومات الأوتوقراطية المطلقة كما كان فى عهد هتلر والحكومات الأوتوقراطية المقيدة كما هو الآن فى أسبانيا فى عهد فرانكو . وقامت الحكومات الديموقراطية المطلقة كما هو الحال فى سويسرا ، وقامت الحكومات الديموقراطية المقيدة كما هو الحال فى الولايات المتحدة وانجلترا . على أن الدكتاتورية ، وسيلة الأوتوقراطية ، لا تعنى الرجعية دائما ، والشورى ، وسيلة الديموقراطية ، لا تعنى الحرية دائما ، فبعض الأوتوقراطيات قد تميزت بطابع التسامح وإن ندر ، وبعض الديموقراطيات قد تنزع بها الأهواء منازع الرجعية ؛ اذ تهب عليها أعاصير الاستئثار وتطغى على بيئتها اعتبارات الكبت والاستبداد . وفى التاريخ القديم والتاريخ الحديث أمثلة عدة ناطقة بأن الأوتوقراطيات ليست كلها رجعية ، وبأن الديموقراطيات ليست كلها تقدمية ، بل إن غير واحدة من ديموقراطيات هذه الأيام لتميل إلى الرجعية وإلى استعمال وسيلة الطغيان والدكتاتورية لفرض اتجاهاته الراجعة إلى الوراء .

وأما مذاهب الاجتماع فيقف التقابل فى مضمارها بين الفردية والاشتراكية . وتستند الفردية إلى إطلاق العنان للخصوص . وتستند الاشتراكية إلى الاستمساك بأهداب العموم . تريد الفردية الملكية الخاصة ، وحرية تصرف الفرد فيما يملك كما يشاء ويهوى ، وفى تحمله تبعة تصرفه هل ينتج أو لا ينتج ، هل يعيش عيشة البذخ أو ينزل إلى حضيض الفاقة . وتريد الاشتراكية نشراً

للعدالة الاجتماعية بين الأفراد جميعاً ، فلا تميز بين المالكين والمحرومين ، فتجعل الملكية العامة هى القاعدة ، وتفرض الإنتاج على الجميع بتهيئة الفرص للجميع ، وتسعى إلى سد حاجات الجميع .

وتتراوح الانفرادية — تراوح الأوتوقراطية — بين الإطلاق والتقييد ، فتنطوى على الرأسمالية ، التى تقدم عنصر المال على كل عنصر سواه ، كما تذهب إلى التعاونية التى تؤلف بين عنصرى المال والعمل . وكذلك تتراوح الاشتراكية بين الإصلاحية التدرجية المستندة إلى نقابات العمال وتنظيم حركتها ، وبين الشيوعية الحالمة بالمساواة المطلقة بين الأفراد من حيث «الأخذ من كل بقدر طاقته» و«إعطاء كل بقــدر حاجته» تتوسطهما الجماعية الآخذة من «كل بقدر طاقته» ، لكن المعطية «كلا بقدر عمله» . فكانت الاشتراكية المتولية الحكم الآن فى انجلترا هى الإصلاحية النقابية ، وكانت الاشتراكية المتولية الحكم الآن فى الاتحاد السوفيتى هى الجماعية لأنها تعطى كلا بقــدر عمله ، ولم تكن هناك شيوعية متولية الحكم ؛ لأنه ليس اليوم فى أية ناحية من نواحى العالم نظام يعطى أحداً « بقــدر حاجته » ، وهى الخاصية التى يتميز بها المذهب الشيوعى . وليس هناك نظام يمنع الملكية الخاصة منعاً باتاً ، أو يقضى على الحاجة لاستعمال المال والنقد قضاء . وقد حاولت الثورة الروسية أن تحقق ذلك النظام الشيوعى فى إطلاقه ، لكن محاولتها لم تدم أكثر من أسابيع ، تراجعت بعدها إلى النظام الجماعى واقتنعت بأن النظام الشيوعى لا يمكن أن يتحقق فى ظروف البشرية الحاضرة ، وأنه ينبغى أن تنقضى أجيال وأجيال وهو فى عداد المثل العليا التى تعتبر فى عداد النظريات التى يحلم أصحابها بتحققها فى عهد من العهود .

فإذا لم تكن هناك لذلك أنظمة شيوعية مطبقة اليوم فى بلد من البلاد ، فإن فى عديد منها أحزابا شيوعية أو حركات شيوعية يحملون لواء تعاليم النظرية أو المثل الأعلى فى رأيهم . ومن هذه الأحزاب ما يساهم زعماؤه وأعضاؤه فى أدوات الحكم فى بلادهم ، فيقاسمون الجماعيين والإصلاحيين ، بل يقاسمون أحزاب الوسط بعض الأحايين . لكن الخلاف قائم بينهم وبين النوعين الآخرين من الاشتراكيين على طبيعة العلاقة بينهم وبين الاشتراكية المتولية الحكم فى روسيا ، وهم متهمون بأنهم إنما يخضعون لتعاليم موسكو ، فيؤثرون اتجاهاتها على اتجاهات بلادهم القومية . وهكذا قال حزب العمال فى انجلترا عندما تقدم

إليه الحزب الشيوعى يطلب الاندماج فيه والانخراط فى سلكه ، فرفض الطلب مسنداً رفضه إلى اعتبار الإذعان لموسكو وإيثار المصالح الروسية على المصالح البريتانية . وهكذا قال أخيراً مسيو بلوم رئيس الحزب الاشتراكى الفرنسى — وأمن على قوله المؤتمر الاشتراكى الفرنسى العام المنعقد فى شهر أغسطس الماضى — إنه يأخذ على الحزب الشيوعى الفرنسى انضواءه تحت لواء موسكو ، وعدم أخذه فى تسيير أموره الداخلية بالوسائل الديموقراطية .

على أن الشيوعيين يردون على الاتهام بأن نظام الدولية الشيوعية قد ألغى منذ سنوات ، فليس هناك وسيلة للتبعية لموسكو ، ويضيف الشيوعيون الفرنسيون إلى هذا الاعتبار العام اعتباراً خاصا فى دفع التهمة عن أنفسهم هو أنهم قد وقفوا أخيراً من قضية الرور موقفاً قوميًّا ، هو موقف التضامن مع الاشتراكيين والمسيحيين الديموقراطيين ، وهو موقف مناقض ومناهض لموقف الاتحاد السوفيتى . وروسيا تريد أن تحفظ الرور ضمن النظام الألمانى ، وفرنسا تريد له نظاما دوليًّا ممتازاً .

وأما البلشفية — أو البلشية على وجه أصح — فهو تعبير لا يصح إسناده إلا إلى حالة بل إلى حادثة معينة خلال تطور الحركة الاشتراكية الروسية . ويرجع تاريخ هذه الحادثة إلى سنة ١٩٠٣ إذ عقد مؤتمر دولى للاشتراكية الديموقراطية مثلت فيه الأحزاب والمنظمات الاشتراكية وفود قومية ، كان بينها وفد روسى ، وأريد تمثيل هذه الوفود فى لجان المؤتمر وهيئته التنفيذية . فطالب أعضاء هيئة «الاشتراكيين اليهود فى روسيا» أن يعتبروا أنفسهم وحدة قائمة بذاتها تمثل على حدة فى مختلف لجان المؤتمر ، فعارض سائر الأعضاء الروس هذا الاتجاه وقالوا إن الوفد ممثل للحركة الاشتراكية الروسية دون استناد إلى تشعيب دينى أو اجتماعى ؛ فرفض اليهود وانسحبوا من المؤتمر . وكانوا هم بين الوفد الروسى أقلة فسماهم الآخرون « منشفيك » — من كلمة « منشى » ومعناها القلة — وسموا أنفسهم « بلشفيك » — من كلمة « بولشى » ومعناها الكثرة . ثم وقع حادث آخر حين أراد الحزب الاشتراكى الديموقراطى الروسى أن ينظم نفسه ويضع لائحته ، فأريد تحديد من هو العضو فى الحزب . فقالت جماعة إنه من يقبل مبادئ الحزب ، ويتعهد بدفع الاشتراك السنوى . وقالت جماعة أخرى إنه من يقبل مبادئ الحزب ، ويتعهد بدفع الاشتراك السنوى ،

ويقوم بجهود فى سبيل النضال الاشتراكى . وكان أصحاب الرأى الأول هم القلة ، وكان زعيم أصحاب الرأى الثانى هو لينين . فانطلقت التسمية من جديد على الأولين منشفيك وعلى جماعة لينين بولشفيك . وحبب هذا التعبير إلى لينين وأنصاره . فلما قامت الثورة فى سنة ١٩١٧ وأعلن الحزب الشيوعى نعتوه بذلك النعت المحبب اليهم ، إذ أضافوه بين قوسين بعد التعبير باسم الحزب الشيوعى **Parti communiste (Bolchevik).**

وإذن فالتعبير « بالبلشية » لا يتصل إلا بحادث أو حادثين معينين متصلين بتطور كيان الحزب الاشتراكى الديموقراطى الروسى من أجل مناسبتين لاعلاقة لهما بأى مبدأ من مبادئ الاشتراكية أو أى اتجاه من اتجاهات المذاهب الاجتماعية يميناً أو وسطاً أو يساراً . وإنما الخلط الذى سجلناه فى أول هذا المقال هو الذى أقحمه — خطأ وجهلا — فى عداد تيارات هذه المذاهب .

وبعد ، فرجاؤنا أن نكون بهذا المقال قد ألقينا شيئاً من الضوء على حقيقة ماتنطوى عليه معانى تلك الألفاظ التى يسىء الناس استعمالها عندما يتحدثون عن نظم الحكم ومذاهب الاجتماع . ولعلهم أن يعنوا بتحديد نظام الحكم على أنه متصل بسياسة الدولة ، وبتحديد مذهب الاجتماع على أنه متصل بهناء الفرد ومعاشه ، وهما ميدانان متميزان فى طبيعتيهما وإن وجد بينهما شىء من التفاعل ؛ لأن المذهب الاجتماعى حين ينتقل به أصحابه إلى طور التطبيق ينقلب نظاما يحتاج إلى وسائل الدولة كى تحققه .

وإلى هذا التمييز المبدئى يرجع بخاصة اتقاء الوقوع فى الخطأ ، وينتفى مايقوم بين رجال الحكم وأهل الإصلاح من سوء تفاهم .

محمود عزمى

فيضان النيل وأثره فى الحضارة المصرية

قال هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد إن مصر هبة النيل . ولعله كان يقصد بعبارة أدق أن تربة مصر هبة فيضان النيل . ذلك أن مصر بحياتها الزراعية وحضارتها المستقرة وتاريخها الذى لمس معالمه هيرودوت عندما زار أرضها وكتب عنها فصوله المعروفة ، لم تكن كلها مجرد هبة من هبات النهر أو هبات الطبيعة ؛ وكل ما فعله النيل أنه مهد السبيل وأعد المكان ، لجاء المصريون واستغلوا ظروف بيئتهم استغلالا ، وأنشأوا حضارتهم فى واديهم إنشاء ؛ بل هذّبوا النهر وتحكموا فى جريانه حتى أصبح نهراً مصوباً مقوماً ، لا يفيض على غير هدى ، ولا يجرى فى غير حدود مرسومة . وكانت ظاهرة الفيضان بالذات أول ما اتجه المصريون إلى تهذيبه من تصرفات هذا النهر الذى أخرجته الطبيعة أول ما أخرجته جامحاً فى تدفقه ، جارفاً فى جريانه ، ثم جاء الإنسان فوجّه انصراف مياهه ، وهذب اندفاع فيضانه ، فأقام له الجسور ، وأعدّ له الحياض ، وحفر الترع والمصارف والقنوات ، ورد النهر بذلك كله إلى شىء من الهدوء الموزون ، والاتزان المحكم ؛ ثم أخرجه آخر الأمر نهراً رشيداً فى قوته ، سديداً فى اندفاعه ، قد جمع إلى قوة التيار وتدفقه انتظام المجرى وضبطه ، بل جمع إلى اندفاع الطبيعة وجموحها حكمة العقل البشرى وصوابه . وهكذا جاءت حياة المصريين وحضارتهم على ضفاف هذا النهر العظيم نتيجة لتفاعل منتج بين سخاء الطبيعة وقوتها ، وبين دهاء الإنسان وحيلته . . . وبقى ازدهار الحضارة فى مصر على مر العصور صورة صادقة لتوازن هذا التفاعل بين النيل والإنسان : النيل يأتى جامحاً فى كل سنة ، يسعى لأن يكسر جسوره ويطوّف بجنباته ، يغرق الأرض ويأتى على كل شىء فى غير نظام ؛ والإنسان يشفق من هذه الطبيعة الطاغية ، ولكنه لا ييأس من رحمتها الباقية ، فهو يرسم خطته ، ويقيم الجسور ويحفر القنوات ، ويحاول دائماً أن يرد إلى الطبيعة

شيئا من النظام ، وأن يفيء على النهر شيئاً من الاتساق ، حتى تمر الأزمة ويعود إلى الطبيعة والنهر هدوءها المعهود . . . ثم تتكرر القصة فى كل عام : سخاء جامح صاخب من ناحية الطبيعة ، وجهاد مطّرد دائب من ناحية الإنسان ؛ لا الطبيعة تغير من شيمتها ، ولا الإنسان يقطع من أمله . . . وأغلب الظن أن الأمر سيبقى كذلك ما بقى هناك نيل يجرى ويفيض ، وما بقى هناك مصريون يقيمون على ضفافه ويفلحون أراضيه .

ولكن ظاهرة الفيضان تستحق الدراسة أكثر من هذه الملاحظة العابرة ؛ وكلما أنعمنا فيها النظر ازددنا تفهماً للحياة المصرية وكشفاً عن بعض أسرارها . ذلك أن المغالبة بين الطبيعة والإنسان فى مصر لم تبلغ فى يوم من الأيام حد المصارعة والإفناء ؛ فقد جمعت الطبيعة فى مصر بين القسوة والرحمة . وقد استطاع الإنسان منذ فجر التاريخ أن يهتدى إلى ضبط النيل ، وأن يتحايل على الفيضان فى صورة من الصور ؛ واستعان فى جهاده بالعلم والتجربة على حد سواء ؛ وكانت الطبيعة كما سنرى بعد قليل معواناً له فى جهاده ، فتحكّم فيها ، وسخّرها لصالحه بعد عناء قليل او كثير . ولعل هذا هو السر الأول فى أن نتيجة المغالبة بين الطبيعة والإنسان فى مصر كانت على الدوام فى صالح الحياة والمدنية . وحتى فى السنوات التى كان فيها الفيضان يغلب حيلة الإنسان ، فيطغى على الأرض طغياناً يفوق التقدير ، كانت الحياة تتأخر مؤقتاً ، وكانت مرافقها تعطل ولكن لتعود إلى التجدد بعد هبوط الفيضان الذى يجدد الخصب بما يعوض كل بوار ، والذى يعد أرض مصر الطيبة لتؤتى أكلها مضاعفاً فى الموسم الجديد .

ومع هذا فظاهرة الفيضان ليست من البساطة بما قد نتصور ؛ ولا بد لفهمها وإدراك آثارها الظاهرة والخفية من أن ندرس النهر فى جملته . فنهر النيل يمتاز على غيره من أنهار العالم الكبرى بأمرين أساسيين ؛ أثر كل منهما فى حياة سكانه تأثيراً بليغاً ، لم يزده الزمن إلا وضوحاً وتميزاً . وأول هذين الأمرين أن نهر النيل من أكبر أنهار العالم ؛ فهو يزيد فى الطول على ستة آلاف كيلومتر ؛ وقد تضارعه فى ذلك أنهار قليلة كالمسسيبى أو الأمزون ، ولكن المهم أن النيل يقطع تلك المسافة كلها فى اتجاه عام واحد من الجنوب إلى الشمال ، ويصل ما بين خط عرض ٣° جنوب خط الاستواء وخط عرض ٣١° شماله ،

أى إنه يخترق أربعاً وثلاثين درجة من درجات العرض أو تزيد . وليس بين أنهار العالم إطلاقاً نهر يجمع بين مثل هذه العروض المتباعدة ؛ فالمسسيبى ينبع ويصب بين عشرين درجة تقع كلها فى المنطقة المعتدلة ؛ والأمزون وروافده المتباعدة تنبع وتصب بين أربع وعشرين تقع كلها فى المنطقة الحارة ؛ على حين يجمع النيل بين المنطقة الاستوائية المرتفعة والجهات الاستوائية المنخفضة والمنطقة الحبشية الموسمية وسهول السودان وصحارى إفريقية الحارة وسواحل البحر المتوسط ؛ وقد ربط هذا النهر العظيم بين تلك المناطق المتباعدة وسكانها وحضاراتهم منذ أقدم العصور ، وجعل حياة فريق منهم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأحوال الجغرافيـة السـائدة فى أرض فريق آخر يبعد عنه آلاف الكيلومترات ؛ فأهل مصر مثلا إذ يتأثرون بفيضان النهر فى أواخر الصيف إنما يتأثرون فى الواقع بأحوال المناخ وتساقط الأمطار على جبال الحبشة ومرتفعاتها ، حيث يعيش شعب آخر ربطهم به نهر النيل ؛ وهم إذ يزرعون زراعاتهم الصيفية بعد أن أدخل نظام الرى الدائم إلى حقولهم إنما يتأثرون بموارد المياه الصيفية التى تأتيهم من أمطار الهضبة الاستوائية ، وينساب بها النهر من بحيرات تلك البلاد النائية ماراً بأرض السودان . فالنيل إذن نهر عظيم يقرّب البعيد ويجمع أطرافه بعضها إلى بعض . ولا بد لمن يريد أن يدرس الحياة فى أدانيه وأن يستجلى مقوماتها من موارد الماء ومصادر التربة وتعاقب الفيضان والجفاف وغير ذلك . . . لا بد له من أن يوسعّ مجال دراسته بعيداً عن أرض مصر بحدودها السياسية الضيقة .

وثانى هذين الأمرين اللذين يمتاز بهما النيل على غيره من الأنهار أنه على عظمته التاريخية ، ورغم أنه كان مهداً لحضارة هى أقدم الحضارات التاريخية ، فإنه يعتبر حديثاً جداً من حيث تكوينه الجيولوجى ، بل إنه ربما كان أحدث أنهار العالم الكبرى على الإطلاق ؛ فهو فى صورته الحالية لا يمتد إلى أبعد من النصف الثانى لآخر الأعصر الجيولوجية (البلايستوسين) ؛ أو هو إن شئت التبسيط لا يزيد فى عمره وصورته الحالية عن بضعة عشر ألف سنة ، وإن زاد عن ذلك فلن يبلغ بضع عشرات قليلة من آلاف السنين ؛ وهى فترة لا تقاس بالأعمار الجيولوجية لبعض الأنهار التى قد تبلغ مليون عام أو تزيد . ومن المعروف أن النيل قبل أن يتخذ صورته الحالية كان موجوداً ، ولكن على شكل ثلاث

مجموعات نهرية تستقل كل منها عن المجموعتين الآخريين تمام الاستقلال . فأما المجموعة الأولى فتتمثل فى النوبة ومصر حيث كان النهر يجرى معتمداً على الأمطار المحلية التى تسيل بها الروافد من الصحارى المجاورة ، لا سيما الصحراء الشرقية وتلال البحر الأحمر . وفى هذه المرحلة حفر النيل مجراه فى النوبة ومصر . ثم مهد ذلك المجرى وملأ قاعه وبعض جوانبه بالرواسب الرملية التى جلبتها الأمطار القديمة من تلال البحر الأحمر إبان ما يعرف بالعصر المطير ، عندما كانت صحارى مصر أقل جفافاً منها فى الوقت الحاضر .

وأما المجموعة الثانية فأنهار الحبشة . وهذه يقال إنها كانت تنصرف إلى البحر الأحمر ؛ ولم تكن مياهها ولاطميها لتنصرف إلى سهول السودان أو أرض مصر ، حتى أذن الله فانتابت هضبة الحبشة اضطرابات أرضية أدت إلى ارتفاع حافتها الشرقية والجنوبية ارتفاعاً أدى إلى انحدار سطحها نحو الشمال الغربى ، فانصرفت مياهها فى ذلك الاتجاه ، أى نحو أرض الجزيرة ووسط السودان وشماله . وقد أنفقت تلك المياه فترة من الزمن فى ردم سهول السودان بالغرين الحبشى ، كما حدث فى أرض الجزيرة بالذات ؛ حتى إذا ما مهدت الأنهار مجاريها وملأت ما اعترضها من حياض ومنخفضات استطاعت أن تصل آخر الأمر إلى النوبة ومصر ، فجرت مياهها فى مجرى النيل القديم هناك .

وكذلك الحال فى منابع النيل الاستوائية ؛ فقد كانت مستقلة قائمة بذاتها ، حتى اهتزت الهضبة الاستوائية وتأثرت بنفس الحركات التى أثرت فى هضبة الحبشة ، فاندفعت مياه البحيرات الاستوائية نحو حوض الجبل والغزال ، واستطاعت آخر الأمر أن تجرى فى النيل الأبيض وتتحد بمياه الحبشة وتصل إلى مصر . وكان هذا إيذاناً بأن يتخذ النيل صورته الحالية .

فالنيل إذن لم يكن نهراً موحداً منذ البداءة ؛ وإنما كانت منابعه الحبشية والاستوائية منفصلة عن أدانيه فى النوبة ومصر . وهذه الحقيقة التى أجملناها إجمالاً قد جهد الچيولوچيون والجغرافيون فى إثباتها سنين كثيرة ، ولكنها صارت الآن مقبولة بصفة عامة ، لا يجادل فيها الباحثون إلا فيما يمس التفاصيل . والواقع أننا لا نستطيع أن نتفهم كثيراً من نواحى التاريخ المصرى بعد ذلك بغير الرجوع إلى هذه الحقيقة الچيولوچية البسيطة ، وهى أن النيل فى جزئه الأدنى فى مصر بدأ مستقلا ، واستطاع أن يردم قاع واديه ببطانة من الرمل

والحصى الذى يصرف المياه الجوفية بسهولة . ثم تلا ذلك وصول مياه الحبشة وغرينها فكسا الرمال والحصباء بطبقة جديدة من الطين الناعم الأسود الذى يكوّن التربة المصرية المعروفة ، والتى لا يزيد سمكها عن اثنى عشر متراً أو أكثر قليلا ، يقدر بعضهم بصفة عامة أنها إن كانت قد أرسبت فى الماضى بمعدل مليمتر واحد ، فإن عمرها لا يمكن أن يزيد كثيراً عن اثنى عشر ألف عام . وإلى هذه الطبقة يضيف الفيضان والنيل فى الوقت الحاضر مليمتراً واحداً فى كل سنة ، يجدد به خصب الأرض ويعوضها عن بعض ما فقدته فى تغذية الزرع والنبات . والشئ المهم ، والذى قد يبدو غريباً عند أول نظرة ، أن طبقة الرمل السفلية قد تكونت أيام كانت الصحارى المصرية أكثر مطراً منها الآن ، وأنه عند انتهاء العصر المطير فى مصر كان من الواجب أن يجف نهر النيل ، وألا يختلف فى مصيره عن بقية الأودية الجافة فى صحارى مصر كوادى قنا أو وادى حوف أو غيرها من الأودية التى يسميها عربان الصحراء الآن « وادى بلا ماء » . ولكن الموقف أنقذ بوصول مياه الحبشة والمنابع الاستوائية ؛ ولولا ذلك ما استطاع النيل أن يستمر كنهر يجرى بالماء ، ولا استطاع الإنسان أن يستقر فى واديه ، ولا أن ينشئ فيه حضارته الزراعية المستقرة التى تقوم على استنبات النبات واستئناس الحيوان . ففيضان النيل من منابعه الجديدة إذن كان مصدر الحياة الجديدة فى مصر ، بسببه اتصلت ، وعليه اعتمدت ، ومنه تغذت وأينعت ، حتى ظهرت المدنية المصرية ولاح فجر التاريخ .

ولكن حكمة الخليقة فى مصر أبلغ من ذلك ، وقصة الحياة فى وادى النيل الأدنى أعجب وأروع مما أجملنا . فقد ترتب على وصول مياه الفيضان الحبشى بعد انقضاء العصر المطير فى مصر لا فى إبانه . . . ترتب على ذلك من النتائج ما تغير له وجه التاريخ فيما بعد . فالمعروف الآن أن طبقة الرمل السفلية تصرف جانباً كبيراً من مياه النيل إبان الفيضان ؛ فهى تتشرب الماء وتغوص به إلى جوف الأرض ثم تنتهى به إلى البحر كما تنتهى المصفاة بما يصب فوقها من ماء . ولو أننا تصورنا أن مياه الحبشة وغرينها كانت قد وصلت أرض مصر إبان العصر المطير وأثناء تكوّن طبقة الرمل ، ما أمكن لتلك الطبقة أن تحتفظ بطبيعتها الرملية الخالصة ، بل لاحتوت بين طياتها بعض طبقات من الغرين الناعم الذى لايصرف المياه كما تصرفها الرمال والحصباء ، ولترتب على ذلك أن صارت

الطبقات السفلى من أرض مصر غير مساميّة ولا صالحة لتصريف المياه الجوفية كما تصرفها الآن . ومعنى هذا أن مياه الفيضان الحبشى الغزير والذى يعم قاع الوادى حتى يصل حافة الصحراء لا تستطيع أن تنصرف بسهولة فى جوف الأرض ، فتبقى على السطح مدة أطول مما تفعل الآن ، ويساعد ذلك على تكوّن المستنقعات وانتشار الماء الآسن فى جنبات الوادى ؛ وليس ذلك مما يعين على أن يصبح الوادى صالحاً للحياة الصحية والمعيشة المستقرة والزراعة النامية . بل إننا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنقول إنه لو كانت الصلة قد تمت بين النيل الحبشى والنيل المصرى قبل الوقت الذى حدثت فيه ، لترتب على ذلك تأخير خطير فى نشأة المدنية المصرية ، ولاتخذت حياة مصر الزراعية وحضارتها التاريخية طابعاً آخر غير الذى اتخذته ، ولكانت أهوال الفيضان الحبشى وأخطاره أعظم كثيراً مما حدث أو يحدث الآن بالفعل ، ولما استطاعت تربة مصر أن تتخلص مما يخلفه ذلك الفيضان السنوى من مستنقعات ومياه راكدة وغير ذلك . . . فكأن يد الله إذ فرقت أول الأمر بين طرفى النيل فى مصر والحبشة ، وأخرت اتصال هذين الطرفين قد قدمت بذلك نشأة المدنية ، ومكّنت لأبناء النيل فى العهود اللاحقة من أن يغالبوا الطبيعة وأن ينشئوا مدنيتهم الزراعية فى أنسب الظروف . . . ولعلنا إنما نتحدث بنعمة الله ونكشف عن إبداع الخليقة إذ نسجل أننا لا نزال نعيش فى بركة هذا التتابع المتسق فى أطوار الخلق الجيولوچى ، وأن قصة تطور نهر النيل لا تقل جمالاً وإبداعاً من هذه الناحية عن قصة تطور غيره من مخلوقات الجماد والحيوان !

ومع ذلك ففيضان النيل أعقد مما رسمناه . والنيل يمتاز على غيره من الأنهار فى أن له منبعين يفيض كل منهما على طريقته الخاصة . فالمنبع الاستوائى يجرى بالمياه جرياناً مطرداً ، وتصل مياهه إلى مصر فى انتظام عجيب ، وعليه تعتمد الزراعات الصيفية فى الوقت الحاضر إلى حد كبير ، بل لولاه لجف مجرى النيل فى مصر خلال جزء من العام ، ولتعذر بذلك استخدام النهر كشريان للمواصلات فى غير أيام الفيضان الحبشى . . . والواقع أن جريان المياه من المنبع الاستوائى يعتبر نوعاً من الفيضان له أهميته الخاصة فى حياة مصر فى العصور القديمة والعصر الحديث ؛ فهو الذى مكّن للحياة من أن تستمر فى مصر يانعة فى أيام القيظ والتحاريق ، وهو الذى مكّن للمواصلات من أن تجرى بين الدلتا

والصعيد والنوبة عن طريق مجرى النهر وبانتظام طوال العام ، وعليه يعتمد التوسع الزراعى الصيفى فى مصر الحديثة ، وستبقى له أهميته الخاصة فى مشروعات الرى فى قابل الأيام .

فأما الفيضان الآخر فذلك الذى يأتى من الحبشة . وهو يختلف عن الفيضان الاستوائى اختلافاً ظاهراً ، ولكنه فى الحقيقة يكمله ويتممه . فالحبشة تعطينا الماء الغزير الذى يعادل سبعة أثمان ماء النيل كله أو يزيد ، وهى تعطينا الغرين الذى هو أصل نعمة التربة وسر غنى مصر ومجدد خصب هذه الأرض الطيبة التى غالبت الزمن فغلبته ، واحتفظت بقوتها وإنتاجها على مر السنين وتعاقب القرون . والحبشة فوق ذلك تعطينا هذا الماء والغرين فى أنسب الفصول ، ففيضانها يبلغنا فى أواخر الصيف بعد أن يكون القيظ المبكر وشمس الصيف المرتفعة قد جففت تربة مصر وشققت سطحها ، وأماتت ما ينمو عليها من أعشاب وحشائش تمتص خيرها ولا تفيد شيئاً ، ونقتها من الحشرات والآفات إلى حد بعيد ؛ وبذلك يصل الفيضان فى وقت مناسب ، فيكسو الأرض بطبقة جديدة من الغرين تغذى التربة وتعدها لفصل الإنبات الجديد فى الخريف . والطريف أن هذا الفيضان ينحسر عن الأرض فى أكتوبر ونوفمبر ، أى فى أنسب الأوقات لزراعة محاصيل الشتاء ، وهى القمح والشعير وبعض البقول والأفوال ، تلك النباتات التى تنمو وتجود بطبيعتها فى هذا القسم من العالم القديم . وبعد أن تنبت تلك المحاصيل الشتوية فيما انجاب عنه النهر من جنبات قد غذاها ماؤه وطيب ثراها غرينه ، تاتى أمطار الشتاء المصرية فتتعهد النبت بالغيث والإرواء ، حتى يحين الحصاد فى أواخر الربيع ، فتتجدد الدورة من جديد . ونستطيع أن نتصور ما كان يحدث لو أن فيضان الحبشة وصل فى أوائل الصيف مثلاً وانجاب عن الأرض فى منتصف الصيف أو أواخره ؛ إذن لكان الصيف كله فصل حرارة رطبة لا تستقيم معها صحة ولا ينبعث معها نشاط . . . بل إذن لما جاء فى أعقاب الفيضان فصل معتدل ممطر يكمل عمل الفيضان ويتم نعمته على الزرع والضرع جميعاً . ونستطيع كذلك أن نتصور ما كان يحدث لو أن ذلك الفيضان الحبشى جاء شتوياً أو ربيعياً كما هى الحال فى فيضان بعض الأنهار الأخرى كدجلة والفرات ، وهما كثيراً ما يفيضان على جانبيهما نتيجة لذوبان الثلوج فوق جبال إيران وكردستان فى الربيع ؛ إذن لداهمت مياه الفيضان

حقول مصر المحصورة بين هضبتين وهى مكسوة بالزرع والنبات قبل موسم الحصاد ، ولتكررت فى مصر تلك المأساة التى تكرر حدوثها فى تاريخ العراق الأدنى من انقلاب الفيضـان إلى طوفان يغرق كل شىء ، مع فارق واضح بين مصر والعراق وهو أن وادى مصر ضيق محصور يسهل على المياه اكتساحه اكتساحاً منظما من حافة الهضبة إلى حافة الهضبة * . بل إننا نستطيع أن نتصور ما كان يحدث لو أن فيضان الحبشة لم يختلف عن فيضان الهضبة الاستوائية ، لجاء مطّرداً طوال العام ؛ إذن لـكان فيضاناً متوسطاً معتدلا ، ولما بلغ أطراف الوادى ، بل ولا غمر من الأرض إلا مساحة ضئيلة محدودة يضيق فيها مجال الحياة أمام المصريين ، ولا تتيسر أسباب الإرواء لاسيا فى العصور الغابرة وقبل أن تتقدم وسائل الرى الحديثة . . . وهكذا نستطيع أن نتصور احتمالات كثيرة مختلفة يتغير معها وجه التاريخ بسبب تغـير أحوال الفيضان . . . وربما كان ختام هذه الاحتمالات وأبعدها أثرا أن الفيضان الحبشى لو لم يكن فى صورته المعروفة لفقدت الحياة المصرية مقوماً من مقوماتها الأولى ، ولفقد المجتمع دافعاً من دوافع الوحدة الأساسية فيه ؛ ذلك أن الفيضان كان يمثل مصدر خطر مشترك ومصدر فائدة مشتركة بالنسبة للمصريين الذين اضطروا عندما انحـدروا من حافة الصحراء ليعمروا قاع الوادى إلى أن يقيموا كومات كبيرة من التراب ليبنوا قراهم على قممها فوق مستوى الفيضان . وهذا فى حد ذاته عمل ضخم استلزم جهداً كبيراً وتعاوناً منظما بين أفراد المجتمع القروى . وقد علّـم خطر الفيضان سكان القرية أن يعيشوا متكاتفين متعاونين ؛ إذ لم يكن فى استطاعة كل فرد أو أسرة أن تقيم تلا مستقلا من التراب تبنى فوقه بيتها ، بل كانت الضرورة تقضى بأن تتضافر الجهود ، فـكلما كان التـل كبيراً كان ذلك أدعى إلى الاعتصام والأمان . وكذلك تضافرت جهود المجتمع فى إقامة الجسور وحراستها أيام الخطر ؛ إذ ليس ينفع فى ساعة الخطر أن يحاول كل فرد أن ينجو بنفسه ، فنحن فى مصر (لا سيما فى الدلتا) نعيش فى أرض منبسطة ، ليس فيها من الجبال ما قد يعتصم به الأفراد ؛ والخطر فى مصر لا بد أن يُواجَـهَ ، ولا سبيل إلى الفرار من وجهه . لذلك وجـد المجتمع نفسه مضطراً منذ بداءة

* حادث الطوفان المعروف قد ثبت الآن وقوعه فى أرض العراق بأدلة أثرية لا تكاد تقبل الجدل . ولعلنا أن نعود إليه يوما فى مقال ما .

الاستقرار والحيـاة فى أرض مصر إلى أن يتعاون أفراده وتتضـافر جهودهم . وكان الفيضان الموسمى فى ذلك كله الباعث الأول لروح الوحدة بين أفراد المجتمع . ومع ذلك لم يكن هذا الفيضان مصدر خطر فحسب ، وإنما كان كذلك مصدر خير وبركة ... ولـكن النفع لا يتحقق إلا بمجهود مشترك ، بل إجماعى ، يتعدى جهد الفرد إلى جهد الجماعة . فماء الفيضان ، إن ترك وشأنه ، يطغى على الأرض فى غير نظام ، وقد يجرف التربة وينقلها تبعاً لتغـيرات مجرى النهر ومسالك تياراته من عام لعام . أما إذا أريد ضبط النهر وضمان تغـذية الأرض وتوزيع الغرين عليها بانتظام ، بحيث يشمل أكبر مساحة ممكنة ، فإن من الواجب أن تتضافر الجهود فى إقامة الجسور والحواجز التى تحدد الحياض ، والترع والقنوات التى تأخذ الماء إليها من النهر حاملا الغرين ثم تصرفه عنها بعـد أن يكون قد أرسب ما فيه من غرين وخير . وهذا العمل هندسى يحتاج إلى جهد كبير وتنظيم لا حد له ، ولا طاقة به لفرد أو مجموعة صغيرة من الأفراد ، وإنما ينبغى أن يتعاون أهل الإقليم جميعاً ، بل أهل القطر جميعاً فى النهاية ، لتنظيم جريان النهر ، وتقسيم الوادى ودلتاه إلى أحواض ، وإجراء المـاء والغرين وتوزيعهما بين الناس بالعدل والقسطاس . وهكذا قضت المنفعة المشتركة أيضاً والصالح العـام بأن تتضافر جهود المجتمع وتنظم فى سبيل الإفادة من مياه الفيضان ، التى جمعت بين الناس فى حالتى الخطر والنعمة ، وفى الضراء وفى السراء على حد سواء .

والحق أننا نستطيع أن نسـتطرد إلى نواح أخرى كثيرة من دراسة هذا الفيضان وآثاره الظاهرة والخفية فى حياة المصريين وحضارتهم التاريخية ؛ ولـكن ما عرضنا له يكفى لأن يبرز كيف أن الإنسان كان منذ البداءة على اتصال وثيق بالطبيعة التى يعيش فى كنفها والنهر الذى يتغذى منه ويحيا فى حماه ، وكيف أن ظاهرة الفيضـان بنوع خاص لعبت دوراً أساسيًّا فى حياة النهر من جهة وحياة السكان من جهة أخرى ؛ وهى من أجل ذلك تستحق أن يلتفت إليها وأن يتناولها أبناء مصر بالبحث والتحليـل ؛ ويكفى أنها عاصرت الحضارة فى مصر أو عاصرتها الحضارة ، وامتدت معها سنة سنة وعاماً عاماً ، خلال قرون قد تبلغ الستين أو السـبعين ، كانت فى كل سنة منها تجدد الحياة والخصب فى الطبيعة ، وتبعث الوحدة والتضامن وروح الهمة والنظام بين جموع المصريين ؛

وهى وإن تسببت فى بعض الأضرار ، وإن صاحبها بعض الخوف فى بعض السنين ، فإنها مع ذلك لم تطغ على الحياة ، ولم تقطع حبل الاستقرار والمدنية المستقرة فى وادى النيل على مر العصور . ولكن الشيء الذى يخشى منه والذى ينبغى أن يلتفت إليه ، أن يكون الزمن قد سبقنا شيئاً ما خلال هذا القرن الأخير ، وأن تكون الظروف قد تغيرت من حولنا ، ولم نشعر بما ترتب على تغيرها من انقلاب فى صلات السكان بالنهر ، وفى استجابتهم لدوافع الخطر المشترك والنفع المشترك اللذين يترتبان على ظاهرة الفيضان . فقد بقيت مصر إلى مائة وعشرين سنة خلت ، وهى تعتمد على رى الحياض ، وتدع النهر يفيض على جانبيه فى شيء من الحرية المنظمة ليغمر هذه الحياض ويبلغ حافة الصحراء . وكانت الأراضى جافة فى معظم أشهر السنة ، مما يزيد من قدرتها على تحمل طغيان الماء وتصريف كميات هائلة منه فى جوف الأرض . أما منذ عهد محمد على فقد أخذنا بأسباب الرى الدائم ؛ وأدخل هذا عاملا جديداً له خطره البالغ فى حياة الريف المصرى . فالحياض أخذت تتلاشى وتختفى رويداً رويدا ؛ والمجال ضاق أمام مياه الفيضان ؛ ولم يكن بدٌّ من أن تجرى تلك المياه بين حواجز النهر وشواطئه ، حتى تبلغ البحر فى ارتفاع شديد سريع ، وتحت حراسة لا تغفل بالليل ولا بالنهار . والحقول ذاتها قد أشبعت بالرى طول العام ، وارتفع مستوى المياه الجوفية فى باطنها ، ولم تبق لها تلك القدرة القديمة على استيعاب مياه الفيضان عندما يرتفع بها مجرى النهر فى أواخر الصيف وأوائل الخريف . لذلك كله أخذ خطر الفيضان يزداد فى العهد الحديث ، واتخذ صورة جديدة مخيفة حقًّا ؛ لأنها تختلف عن تلك الصورة القديمة التى ألفها المصريون وألفتها حياتهم المصرية خلال قرون وقرون . وزاد من شدة الخطر فى العهد الحديث أن القرى لم تعد تبنى فى عهدنا الحديث فوق كومات من التراب كما كانت الحال أيام رى الحياض ؛ وإنما تركت تلالها تتلاشى وسط الحقول ، وأزيل بعضها لتسميد الزراعات ، وبنيت أطرافها الحديثة وما يحيط بها من عزب وملحقات فى مستوى الأرض الزراعية ، مما يجعلها عرضة للغرق فى حالة انكسار الجسور .

وهكذا تغيرت الصورة فى عهدنا الحديث ، وأصبح للفيضان خطره البالغ . ولئن كان أجدادنا الأسلفون قد تحايلوا على الفيضان وغلبوه لأن الطبيعة

كانت فى جانبهم ، فإننا الآن نعيش فى خطر حقيقى . وقد ضيّق علينا مجال الحيلة أننا أخذنا بنظام الرى الدائم وحوّلنا الحياض إلى حقول ترويها الترع والقنوات وتكسوها الزراعات فى فصل الفيضان فلا يمكن أن نغمرها بالماء الزائد . كما زاد الخطر من حولنا أن قرانا أصبحت تقام فى مستوى الأرض الزراعية بدلاً من الكومات القديمة المرتفعة ، بل أصبح بعضها يقام ويمتد على ضفاف النهر وجسور الترع بعد أن كان كثير من القرى فى الصعيد مثلا يقام عند حافة الصحراء . كذلك طرقنا الزراعية وغيرها لم تعد ترفع فوق جسور عالية بعد أن كانت قديماً تسير فوق جسور الحياض . وهكذا أصبح كثير من مرافق الحياة فى مصر الحديثة فى متناول الخطر إن حدث ، لا قدر الله ، وتصدّعت الجسور أو زاد الرشح . بل إن هناك خطراً آخر جديداً يمس حياتنا فى الصميم ؛ فقد ترتب على تشبع الأرض بالرطوبة وارتفاع مستوى المياه الجوفية بسبب الرى الدائم ، أن أصبحت أرض مصر أكثر حساسية بالنسبة للرشح أيام الفيضان ، لا سيما فى سنواته العالية ؛ وبذلك ازداد انتشار المستنقعات والمساحات التى تكسوها مياه الرشح ؛ مما ينشر الأمراض ويضر بالصحة العامة من جهة ، ويضعف المزروعات ويقلل من غلة الفدان ويهبط بالمستوى العام للإنتاج القومى من من جهة أخرى . وإذا نحن تركنا الحال تسير على ما هى عليه فإن الخطر سيتفاقم وأثره يمتد ويتشعب باستمرار . ولن ينقذنا من هذا الخطر الذى نحن مسوقون إليه سوقاً إلا أن نبحث عن بعض نواحى الطبيعة وأسلحتها فنغالب بها الفيضان على نحو ما درج عليه أسلافنا . فليس ينفعنا ولا يجدينا أن ننتظر البلاء حتى يقع ، ولا أن ننتظر ارتفاع النهر ، فنهبّ إلى الجسور نحرسها ونقويها ؛ فالفيضان يأخذنا بالضرر والإضرار عن طريق الرشح ، ولو لم تغمرنا مياهه . والواجب أن نسير فيما نحن بسبيله من دراسة مشروعات اتقائه والوقاية منه ؛ تلك المشروعات التى تقضى بالتخلص من بعض المياه الزائدة فى منخفضات الصحراء المجاورة ، وأهمها منخفض وادى الريان فى جنوب الفيوم ؛ أو التى تقضى ببناء بعض الحواجز وخزن المياه الزائدة فى بعض جهات مجرى النهر حيث لا تقوم زراعة كما هى الحال عند شلالات النوبة العليا فى شمال السودان ؛ أو غير ذلك من المشروعات التى يصح أن تهدينا إليها دراسات المهندسين .

وبعد ، فإن حديث الفيضان وأثره فى تاريخنا وحضارتنا وخطره فى مستقبلنا حديث يمكن أن يتشعب ويطول ، وأن يتعدى الباحثين إلى إثارة اهتمام المواطنين جميعاً . فقصة هذا الفيضان جزء لا يتجزأ من قصة الحياة والمدنية فى مصر . ولقد استطاع أسلافنا الأقدمون ، الذين أنشأوا الحضارة والمدنية الزراعية المستقرة على ضفاف النيل ، أن يتنبهوا للخطر فغالبوه حتى غلبوه ، ثم حولوه عن أصله ووجهوه وجهة الخير والمنفعة ، بل وجهة الحق والجمال . ولكن الطريف فى هذا الجهاد أن الإنسان استجاب للطبيعة كما استجابت الطبيعة للانسان ؛ فكما غلب الإنسان النهر فضبطه وهذبه ، وقومه وصوبه ، وأقام له الجسور والحياض والحدود ، فإنه عاد فاستجاب فيما بينه وبين نفسه لنوازع الطبيعة ودوافعها ، فقدس النهر واحتفل بفيضانه ، وقدم القرابين لهذا الفيض الزاخر ، يستهويه تارة ، ويستهديه تارة أخرى ؛ وسارت الطبيعة والإنسان كما يسير حفل الخليقة فى اتساقه البديع ؛ وشاءت حكمة الله بذلك كله أن تجعل من مصر كنانة الله فى أرضه ، وأن تخرج من أبناء النيل أعرق أمة عرفها التاريخ . وإذا كانت معجزات الاستجابة المتبادلة بين الطبيعة والإنسان قد حدثت فى الماضى ، فما أحراها أن تتكرر فى المستقبل ، وإنْ فى صور وأوضاع جديدة . ونحن فى مصر أمة تمتد فيها ذكريات الماضى لتتصل بآمال المستقبل ؛ بل نحن فى مصر أمة شديدة الحساسية قوية الاستجابة ، قد حذقنا منذ القدم أن نقف فى وجه الخطر ، وألا نجفل منه ، وأن نغالب الطبيعة حتى تستحيل شدتها رخاء ، وحتى تستحيل ثورتها رضا ورحمة . وإذا كان فيضان النيل فى الماضى قد استحال بشىء من تفتق الحيلة من بلاء لا دافع له إلى عطاء لا حد له ، فما أحراه فى المستقبل أن ينقلب ، بشىء من الدراسة والتدبر والحذر وبعد النظر ، ثم بشىء من التضحية والإنفاق . . . ما أحراه أن ينقلب من خطر نرهبه ونخشاه ، إلى خير نرمقه ونرجوه . وعندئذ يتم الله نعمته على مصر ، ويبدل أهلها من عسرهم يسراً ، ومن خوفهم أمناً وسلاماً .

سليمان حزين

حديث آمنة

كنا على شاطئ البحر يعلو حديثنا أمواجه حيناً ويتيح السكوت لصوت الأمواج أن تملأ آذاننا حينا آخر ، حتى مرّت بنا آمنة . رشيقة القوام مشرقة الوجه باسمة الثغر ، يزيدها جمالا بساطة ما تلبس وحسن اختيار ما تتزين به : وإذا صديقتى تقول ، هذه آمنة . فنظرنا إليها جميعاً وابتسمنا تحية لها ، فابتسمت وسارت فى طريقها . ولكن صورتها لم تغادر عيوننا ؛ فقد انبرت صديقتى تسألنى : ما رأيك فى آمنة تلك ؟ قلت إنها طيبة على أساس من الخلق متين فيما سمعت . قالت إنما اسأل عن شكلها . قلت إنها لجميلة أو تكاد تكون ؛ إنى لم أرها إلا مرّات قليلة ، وأكثر مارأيتها عابرة كما عبرت بنا الآن ؛ ولكنك أنت صديقتها وزميلتها ورأيك فيها أصدق من رأيى . قالت : إنى لأراها جميلة جدًّا ، ولكن كانت منّا من تراها قبيحة . كم أثارت فى نفوس زميلاتها الحسد وهى لا تدرى أنها تثير فى نفس أحد شيئاً . كان لها عالمها تسبح فيه ، ونحن من حولها نظن أنها معنا ونحار فى أمرها ، فلا هى تغضب أحداً ، ولا هى ترضى عن أحد . كنا نراها باردة جامدة متكبرة ؛ فمنّا من احتملتها ولم يغير هذا من نظرتها إليها ؛ ومنّا ، وهذه كانت كثرتنا ، من أبغضتها وتنفّست عن بغضها وحسدها بالحط من شأن جمالها بل بمهاجمتها أحيانا . ولكنها كانت كالنجم عالية لا تحس بهذا الصخب الذى يتصاعد من سكان الأرض . كم ظلمناك يا آمنة ! كنا نظن هذا كبراً منك وزهواً بجمالك واعتزازا بمالك؛ فقد كنت أيسر منّا حالا وأسعد حظا . ولكن حسدنا إياك كان أجدر أن يكون شفقة بك . فمن العسير أن تحرم المرأة مالاً وجمالا ، ولكن الأعسر منه أن تمنحهما فلا يتيسر لها أن تنعم بهما . لقد صرفت حياة آمنة عن مالها وجمالها صرفاً ، وإذا هى تشقى ولا تعرف لنفسها من الشقاء مخلصا .

ثم سكتت صديقتي وعلا صوت الأمواج صوتها وتنبهنا جميعا من غفوة الإنصات إليها . ولكنى لم أطق أن أسمع من حديث آمنة هذا القدر دون أن أعرف ما أوحاه . فقلت : ومن أين يأتى الشقاء تلك المخلوقة الهادئة الجميلة ؟ قالت : من قلبها ، وإنه لقلب كبير عظيم له جلال مظهرها وجماله وعذوبة حديثها وحلاوته. ثم سكتت الصديقة هنيهة كأنما تحاول أن تستعيد الذكريات ، واندفعت فى كلامها بعد حين لم تنتظر سؤالا ولا استفساراً ، ولكنها ، كعادتنا فى سرد مالا يُعرف من الأخبار ، استحلفتنا ألا ننقل إلى أحد مما سمعنا شيئاً ، فما كدنا لها ذلك ، فقالت :

كان ذلك فى يوم صاف مشرق دافئ من أيام أبريل ، يوم لن أنساه ؛ فقد هز مشاعرى أكثر من أى يوم من أيام حياتى ، وكنا فيه فى المدرسة وقد دق جرس انتهاء الدرس . فاندفعنا نحن المعلمات إلى غرفتنا وكأنما قد أنقذنا إنقاذاً . وإذا آمنة تدخل علينا متأخرة كعادتها ؛ فقد كانت تحب تلميذاتها ويحببنها حبا عجيبا ، فاستطاعت بهذا الحب أن تقهر ملال الدرس وسخافة التلميذات المشاكسات . ولكنها ما كادت تستقر فى كرسيها حتى دخلت علينا تلميذتنا هدى ، وهى صبية فى الخامسة عشرة من عمرها ، كثيرة الاجتهاد ، شاذة الذكاء تكاد تكون قبيحة لولا بريق من الذكاء يلمع فى عينيها الكبيرتين ، وابتسامة مشرقة تشع فى وجهها أبداً . وكنا جميعاً نحب هدى هذه ؛ لأنها كانت رقيقة الإحساس ، مهذبة الطباع ، ذكية الفؤاد ، تدل تصرفاتها جميعاً على انها من أصل طيب يمتاز بالرقى أكثر مما يمتاز بالمال .

واقتربت هدى من آمنة وقالت : إنى آسفة على ماقد بدر منى فسامحينى . فنظرت إليها آمنة مضطربة تكاد تدمع عيناها ، وقالت فى شئ من الجفاء لم نعهده فيها : لقد سامحتك . ولكن هدى انفجرت فى البكاء وهى تقول : أنت آخر من كنت أريد أن أغضبها منى . فقامت آمنة تهدئ من روعها وتجفف دمعها وهى تقول لها : لم أغضب منك . عودى إلى صاحباتك ياهدى والعبى معهن بدل أن تضيعى وقت راحتك فى تلك الغرفة الثقيلة . إنى لست غاضبة . إنى أحبك ياهدى فعودى . وكأنما كانت تريد آمنة أن تتخلص منها فى سرعة ، ولكن هدى تعلقت بها وهى تجهش بالبكاء قائلة فى صرخة شاذة : وأنا أحبك ، أحبك أكثر من أمى . ليتك كنت أمى . نعم ! ليتك كنت أمى ! ولم تكد آمنة

تسمع هذا حتى سقطت على كرسيها ، وأخذت إحدانا هدى من يدها وأخرجتها إلى الحديقة . والتفتُّ أنا إلى آمنة فقد كنت لها الصديقة الوحيدة إذ ذاك فإذا يداها كالثلج وعيناها غائرتان من الإعياء . فخشيت أن يكون قد أصابها شيء ، فضغطت على يدها وقلت لها : مالك يا آمنة ؟ قالت : لا شيء لا شيء . ودق الجرس واندفعنا إلى حجر الدرس ، ولكن آمنة اعتذرت إلى الناظرة وعادت إلى منزلها متعبة .

ولما عدتها فى هذا المساء وجدتها تذرع غرفتها ذهاباً وإياباً فى اضطراب عنيف . وجلست إليها أهدئها وأستحثها على الكلام ، ففى البوح بما تكتم شفاؤها ، فقصت علىَّ قصتها :

كان ذلك منذ أعوام كثيرة مضت وآمنة تستقبل الحياة فى طهارة الفتاة الطيبة واستبشارها . قالت : ولم أكن أرى فى هذا المستقبل البعيد شيئاً . لم أكن أحلم بالأمومة ولا بالزوجية ، كلا ولا بالحب . كان مستقبلى البعيد غدى وما سأعمل فيه مع صديقاتى فى المدرسة . لست أدرى لماذا ظللت إلى هذه السن المتأخرة ، فقد كنت فى العشرين تقريباً لا تداعبنى أحلام تداعب كل فتاة قبل هذه السن بأعوام . لعل تربيتى كان لها أكبر الأثر فى ذلك ، فأنت أعلم بأسرتى وأحوالها . وكانت أختى الصغيرة هى سلوتى . أحبها كما كنت أحب دميتى . ولكن العجيب أنى لم أتمنَّ أن تكون لى بنت فى جمالها . ولو قد تمنيت ذلك وأحسسته لربما أنقذت مما قد وقعت فيه . لست أعرف كيف أبدأ حديثى إليك ، ولكنى أظن أنه قد بدأ عندما مرضت أختى الصغيرة مرضها الأخير ، فعادها الطبيب وفى صحبته عمى سعيد كما كنت أدعوه ؛ فقد ألفت أن أراه فى بيتنا منذ كنت طفلة . كان صديق أبى وشريكه فى تجارته وزوج ابنة عمه التى كانت تزورنا قليلا ؛ لأن أمى لم تكن تألفها ولا تحبها . وكان بغض أمى لها لا يفسر بما كان يشاع من أن أبى كان سيتزوجها ليس غير ، ولكن لشراسة تلك السيدة وقسوة قلبها أكبر الأثر فى نفور الناس منها . وكانت تزورنا وكأنها مضطرة إلى تلك الزيارة ؛ لأن زوجها كان يحب أبى حبًّا جماً ، وكان يحب أن يجلس إليه ليتحدثا فى شؤون تجارتهما أحاديث طويلة . وكان عمى ، كما تعودت أن أدعوه ، أكثر من أبى علماً وأقل مالا . ولعل فى قول أبى إنه شريكه كثيراً جدًّا من التجاوز ؛ فلقد كان فى الواقع يساهم فى تجارة أبى بمقدار

ضئيل ، ولكنه كان يقدم لهذه التجارة فى إخلاص كل ما كانت تحتاج إليه من خبرته القانونية ومعرفته العامة بالدنيا والناس . فلقد كان مثقفا ثقافة ممتازة . عاش فى أوربا أعواماً وزار أكثر بلادها ، ودرس عن كثب أسواقها التجارية ، كأنما كان يميل بفطرته إلى التجارة فلم يسعفه رأس المال . فلما اتصل بأبى صلة النسب والصداقة التى مهدت لهذا النسب وجد عنده ما كان ينقصه فنمت ثروة أبى على يديه نماء عظيما ، وأصبح عنده هو من رأس المال ما لم يكن يطمع فى أن تيسره له خبرته العلمية وحدها .

ولكن مالى أطيل عليك فى هذا ! لقد كان كل منهما مكملا لصاحبه فى الحياة العملية ، وكذلك كانا فى حياتهما الروحية فيما كنت أحس . وثقل المرض على أختى فى أيامها الأخيرة فكانت زيارته لنا يومية ثم عجزت أمى عن العناية بالمريضة الصغيرة إذ مرضت خوفاً وقلقاً ، ولم يكن بد من أن أمرض أنا الاثنتين . أتذكرين تغيبى عن الدراسة إذ ذاك شهراً كاملا ؟ ثم ماتت أختى وطال مرض أمى وشقاؤها ، ولكنها شفيت لتعيش كما ترينها الآن حزينة والهة على تلك الصغيرة الجميلة . فلم يبق لها بعدها إلا أنا ، وأنا كما ترين لا أملأ فراغ قاب أو بيت .

ألفت عمى وأحببته حباً بدأ أبويا وانتهى عنيفا . ولعله هو الذى أيقظ فى هذا الشعور النائم الحالم بالحياة والحب . فمنه سمعت أولى كلمات الإعجاب الملتهبة بالعاطفة الصادقة . ولكنه كان يقاوم هذا الحب مقاومة عنيفة لا من أجل زوجه ولا من أجل هدى ، فهدى تلك ابنته ، ولكن من أجلى أنا . كان يقول لى إن الفرق بيننا فى العمر أكثر من ربع قرن ، فإن أسعده هذا الحب مدى الحياة فلن يسعدنى أنا إلا أعواماً قصيرة . وكنت أنفى عنه هذه الفكرة . ولكنى لم أكن أفكر يوماً فى أن أكون له زوجة . كان حبه لى حبًّا أفلاطونيا كما يقولون . يعبدنى كما يعبد الوثنيون أصنامهم ولا يكاد يلمسنى كما يخشون هم لمس ما يعبدون . وعشت فى هذا النعيم عاماً ، لا أفكر إلا فى متى ألقى عمى سعيداً ومتى أخلو إليه لنتحدث فيما كان يجيده من فنون الحديث . والعجيب أنه لم يكن ليشير إلى زوجه ولم أكن لأشير إليها أنا أيضاً ، كأننا كنا لا نريد أن نعكر صفو أحلامنا بالواقع المرير . وفجأة عرض علىّ فى يوم من الأيام أن أتزوجه ، فبهتُّ لهذا العرض . وكنت أسمع طوال هذا العام أنه كاره لعيشه مع زوجه ، ولكنى كنت قد ألفت هذه الأخبار لأنه لم يهنأ فى

عيشه معها يوماً . ولكن حبه لهدى كان مضرب الامثال ، وكنت أعلل بقاءه مع زوجه واحتماله أخلاقها بحبه لهدى . فماذا حدث ؟ قلت له إنى لا أريد . قال فكرى فى الأمر ، وتركنى . وفكرت فوجدته مستحيلا . كيف أحرم طفلة كهذه من أمها مهما تكن ، وقلت له : إن آخر رأيى كأوله لن أحرم هدى من أمها . قال : إنى أحبها أكثر منك وأنا أدرى بصالحها . قولى إنك لا تريديننى أنا . قلت : هو هذا ؛ ولن أحرم هدى من أمها . وكان هذا آخر ما كان بيننا .

وظل عمى سعيد يدخل بيت أبى فلا أتحاشاه ولا أتعمد لقاءه . وفترت حرارة الحب لولا جمرات صغيرة تحت الرماد ، بل لقد مرّت بى فترات كنت أنظر إليه ، فأعجب مما كان بيننا من عاطفة حارة . حتى فضّت الشركة بينه وبين أبى، ورحل هو إلى أوربا لأعمال تجارية قد تنقذ ثروته من الضياع . فحزنت لفراقه ، ولكنى فى الوقت نفسه ارتحت إذ ظننت أنه قد أسدل الستار على كل ما كان بيننا . ولكن أخباره عادت تملأ البيت من جديد . واستقل بتجارته ، ولم ير أبى لذلك سببا ، ولكنى كنت على يقين منه . وافترقا صديقين . وعاد لتجارة أبى رواجها فى هذه الحرب ، حتى إن ثروته لم تنقذ فحسب وإنما تضاعفت ، ولولا وفاته منذ أعوام لأصبحنا من أغنياء الحرب .

وفى هذه الأثناء كبرت هدى وجاءتنى تلميذة منذ العام الماضى . فأيقظ مظهرها هذا الحب القديم من مدفنه ، وبدأت أفكر فى عمى سعيد من جديد ترى ما أحواله . قالت لى أمى مرة كأنما تروى خبراً عابراً : إن هدى بنت فلانة عندك فى المدرسة ؟ قلت نعم . قالت : كيف هى ؟ قلت : ذكية طيبة . قالت : ما أشقاها ! قلت : لماذا ؟ قالت : بأمها . قلت : ولكن لها أبا تحسد على حبه لها . قالت : إنه أفلس . فخرجت من الغرفة حتى لا يلحظ علىّ أحد شيئاً . ترى لماذا أفلس ؟ وهل كنت أنا عاملا فى هذا ؟ فلقد كنت السبب ولا شك فى استقلاله عن أبى ، وربما كان هذا هو سبب إفلاسه . ولكنى اعتدت أن أدفن هذه الآلام بالخروج إليك ، فكنت آتيك على غير ميعاد لنتحدث . أتذكرين ؟ قلت أذكر ، ولكنك لم تقولى شيئاً من هذا . قالت : وكنت أريد ألا أقول شيئاً أبداً ؛ فلقد كنت على يقين من أمرى حتى اليوم . كنت كلما نظرت فى عينى هدى الواسعتين البراقتين قلت فى نفسى كم وفقت فيما ارتأيت لحياتى من مسلك . ألست أستطيع اليوم أن أنظر إلى هاتين العينين مرتاحة الضمير قوية القلب فلا يرتد بصرى ولا

أشيح بوجهى خجلا منهما ! إنى لم أعذب تلك المخلوقة الساذجة ولم أضح بها لأسعد أنا . كم كنت على حق ! إنى ألقاك ياهدى فأعطف عليك فى حرية واطمئنان ورضا عن نفسى .

وكانت كلمة أمى : «ما أشقاها بأمها» ترن فى أذنى أحياناً فأفكر فيها طويلا وكثيراً . فلقد كبرت وعرفت من أخبار هذه الأم كثيراً . إنها لا تعيش إلاّ ظلاً لزوجها وأمر هدى يأتى فى المرتبة الثانيــة إن أتى . فإن حنا عليها زوجها ، وأنفق عليها فى سعة من ماله خفّــت حدّتها ولانت قسوتها . ولــكن الويل لهُدَى بل لــكل من يمر بحياتها إذا ما جفاها زوجها ، أو قتّر عليها فى المال . وهذا هو قد أفلس ، والإفلاس يستتبع شذوذاً فى الخلق ونفوراً من الناس بل كرهاً لهم . ترى أتعانى من جفــاء أبيها لأمها كما كانت تعانى طفلة ؟ إنها اليوم صبية تفهم كل شئ حولها . ترى أتشقى بهذا الفهم ؟ وكنت أسائل نفسى كثيراً : أخيراً كان ما فعلت أم شرّا ؟ ألم أكن أستطيع أن أنقذ هذا الرجل من الإفلاس وأنقذ هُدى من قسوة أمها ، ولــكن أأحرم هدى أبها ؟ هذا مستحيل . إنها لن تحس قسوة أمها إلا إلى حين ، ثم تعود فلا ترى أحداً كهذه الأم .

وهكذا انقضى العام الماضى وانا افــكر فى هدى وفى نفسى . أسائل نفسى مرّات فى اليوم : أخيراً كان ما فعلت أم شرّا . وأنا لا أريد أن أستطلع شيئاً ، أو أسأل عن شئ . وفى يوم رأيت عمّى سعيداً من بعيد ، وكانت الصلة بينه وبين أسرتنا تــكاد تــكون قد قطعت بعد أن أصبحت لا تعتمد إلا على قرابة أبى لزوج سعيد وكره أمى لها . وجمعت طرفاً من شجاعتى وتقدمت إليــه وصافحته . فصافحنى ثم تحاشانى وسار فى طريقه ، يا لهول ما قد تغير! إن التجاعيد ملأت وجهه وبهت نور عينيه حتى كاد يطفأ . إنه الآن رجل قد جاوز الخمسين بقليل ولــكنه يبــدو فى الثمانين من عمره . وعدت إلى نفسى ذلك اليوم باكية حزينــة أسائلها فى حرارة : أخيراً كان ما فعلت أم شرّا . وأبعدت الموضوع فى عنف وجهد وأنا أقول : وهل يمكن أن تكون الفرقة بين أم وابنتها خيراً ؟

وأخيراً لا أطيل عليك ، فقد رأيت اليوم وسمعت ما رأيت وسمعت : « ليتك كنت أنت أمى » . نعم حتى هدى معقلى الأخير الذى كنت أعتصم به فى أتى ما فعلت إلا الخير يسقط أمامى كأن لم يكن . حتى هدى تريدنى بعد نحو عامين من معاملتى لها كتلميذة أن أكون لها أما . إن صرختها لم تكن صرخة عابرة .

إنها صرخة من الأعماق ونداء من القلب . إنها تحبنى ، وكان يمكن أن تحبنى وتسعد بدل أن تشقى بحب أمها . ترى أقال لها أبوها شيئاً ؟

واستمرت آمنة تتحدث كأنما تناجى نفسها وهى تبكى . كم رثيت لها ! حقًّا لقد كانت صرخة هدى صرخة شاذة ، ولكن أأقول لآمنة إننا ذهلنا لها جميعاً ؟ كلا !

قلت لآمنة : إنها صبية لاتدرك شيئاً ، ولم يكن فى صوتها وقد سمعتها أكثر من إحساس عادى بالندم لأنها أغضبتك . ومن هى من تلميذاتك التى تحب أن تغضبك ! ثوبى إلى رشدك . لقد فعلت خيراً ، وكان إتماماً لهذا الخير ألا تظلمى نفسك وتستجيبى لأحد الكثيرين الذين طلبوا يدك وكانوا لك أكفاء . قالت : إنى لا أزال أحبه . قلت هذا وهم يجب أن تخلصى نفسك منه . لقد فعلت خيراً ولا تفكرى لا فى هدى ولا فى سعيد . إن الأم إن كانت وحشاً ضارياً فهى أحن على ابنتها من زوج الأب . فكرى فى أنك كنت ستصبحين أماً لغير هدى ، وفكرى فى إمكان المساواة بين هدى وبين ابنك أو ابنتك . صدقينى يا آمنة لقد فعلت خيراً . خففى من عبرتك ، وانظرى إلى الحياة . إنها تقبل عليك إقبالا فلك فيها المال والجمال ، ولعمرى إنهما لكفيلان بإسعاد أشقى امرأة . استبشرى والبشر يأتيك . قالت آمنة فى هدوء : ياليت هذا يكون . وخرجنا إلى النزهة ثم عدنا وقد اطمأنت نفس آمنة كثيراً .

ولكن آمنة لم تعد إلى المدرسة أسبوعا وأسبوعين . وكنت كلما ذهبت إليها قالت إنى لاأطيق أن أرى هدى . قلت لها : كلا ! بل تزينها وترينها وتنظرين إلى عينيها الواسعتين وأنت مطمئنة سعيدة . إنك لم تكونى سبباً فى شقائها . اعطفى عليها ماشئت أو تجنبيها إن شئت ، ولكن لاتنسى أن تنظرى إليها وأنت رافعة الرأس مطمئنة القلب . لقد جنبتها أن تبكى لتسعدى . قالت مستبشرة : أحقًّا ما تقولين ؟ قلت كل الحق .

وبعد أسابيع عادت آمنة إلى درسها ولكن هدى لم تعد ؛ فقد انتقلت إلى مدرسة أخرى لسبب لاندريه . أقالت لأبيها شيئاً فتصرف هكذا فى ابنته أم أن المقادير هى التى تصرفت فى أمر آمنة هذا التصرف ؟ وتابعت آمنة عملها فى اطمئنان وهدوء ونشاط . وسرعان ما عادت إلى نمائها . وفترت صداقتنا لأنها لم تشجع على استمرارها ، وابتعدت عنها تحقيقاً لسعادتها ؛ فقد أكون لها ذكرى

لا تحب أن تمرّ بفؤادها كثيراً . وعاد قلب آمنة مقفلا كالحصن . كم اشتقت أن أعرف مايدور بهذا القلب من عواصف واضطراب ! ولكن آمنة لم تشجع أحداً على الدنو منها . وها هى ذى تسير إلى اليوم بيننا فى جمالها وجلالها تعلو وجهها الجميل مسحة من الحزن لايراها إلا الأقربون .

ثم سكتت صديقتى هنيهة لتقول كأنما هى تقول لنفسها : ترى أخيرا كان مافعلت آمنة أم شرًّا . حقًّا لست أدرى .

ومرّت بنا آمنة عائدة بعد أن انتهت من زيارة أو رياضة ، فتأملتها فإذا فى ابتسامتها مرارة تزيد من جمال ثغرها ، وإذا فى عينيها حزن يزيدها عمقاً وسحراً ، وإذا هى فى جمالها وجلالها ومن ورائها البحر بامتداده واتساعه كالمركب الضائع فى لجج البحار . إنها أروع صورة للهائمين على وجوههم فى هذه الأرض لا يدرون أعلى بر النجاة نهايتهم أم فى هذه الأعماق السحيقة المخيفة سيكون المصير .

سهير القلماوى

هـ . ج . ولز

فى الثالث عشر من أغسطس ١٩٤٦ مات الأديب العالم المفكر القصصى هربرت چورچ ولز . فلم يفقد العالم بموته شيئاً كثيراً . فمن مات فى التاسعة والسبعين من عمره فقد استوفى أجله أو كاد . وولز بالذات لم يغبن فى حياته ولم يضن على العالم بشىء فى مستطاعه أن يؤديه ؛ فلقد كتب كما لم يكتب إلا الأقلون كمّا وكيفا ، ولقد فكر لبنى البشر وجمع لهم حقائق المجتمع ودلائل التاريخ ، ولقد ناضل فى سبيل المبادئ الإنسانية العليا نصف قرن من الزمان صاغ فيه عقول هذا الجيل وترك طابعه الذى لا يمحى على مرّ الأيام .

ولد هـ . ج . كما يلقبه أصدقاؤه فى ٢١ سبتمبر ١٨٦٦ ببلدة بروملى من أعمال مقاطعة كنت بجنوب انجلترا ، وكان أبوه بستانيا آناً وصاحب حوينيت لا يدر مالا كثيراً آناً آخر ، ولاعبا محترفا فى فريق كنت الرياضى يرتزق من لعبة الكريكيت . وكانت أمه خادما فى دار ريفية كبيرة أو وصيفة كما يشاء أدب الإنجليز أو نفاقهم أن يسميها . وقد ساء تعليمه فى المبتدأ ووقف عند حد بسبب فقر أهله ، فبدأ العمل صغيراً أولاً بوصفه صبيًّا فى حانوت أصواف ، ثم بوصفه مساعداً فى صيدلية . ولكنه ثار على هذه الحياة المحدودة خلف منضدة البيع وبين العقاقير ، وجاهد فى التحصيل حتى ظفر بجائزة مالية تتيح له طلب العلم فيما يسمى الآن الكلية الإمبراطورية للعلوم ، وتخرج فى هذه الكلية بامتياز عظيم ، ومن ثم اشتغل بالتدريس زمناً وجيزاً ، ثم انقطع عام ١٨٩٣ للصحافة والتأليف ونشر الدعوة الاشتراكية . وقد تزوج مرتين أولا عام ١٨٩١ من ابنة عم له لم يلبث أن طلقها ، ثم من آنسة تدعى آمى كاترين روبنز .

ولكن وراء هذه السيرة المقتضبة التى قد تكون سيرة أى صحفى تافه فى فليت ستريت ، أو أى مؤلف تافه فى بلومزبرى ، سيرة أخرى قوية ملأى بالحوادث ،

هى سيرة عقله الكبير وقلمه الخصب . ولقد كان عقل ولز بين عقول العظماء كبيراً حقا ، ولكن بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة . لم يكن عقلا لامعاً ذا بريق يخطف أبصار الناظرين ، او عقلا نافذاً كالسلاح الماضى الدقيق الذى يقطع حجب الفكر ويستخرج الدر من ثناياها ، رغم كل ما اتصف به هذا الرجل من قدرة على التنبؤ ، بل كان عقلا كبيراً فحسب . وفى هذا العقل الكبير جمع ولز ملايين الحقائق فى كل باب من أبواب الحياة تقريباً ، من نشأة العضويات إلى مؤتمرات الصلح ، ومن ألعاب الأطفال إلى قوانين الاقتصاد . ولقد كتب فى ذلك كله وكتب كثيراً ، بل لعله كتب أكثر مما ينبغى ، وهذا هو المقصود بخصوبة قلمه . فنحن إذن بإزاء عملاق شاهق الأبعاد هائل القوة ، ولكن أبعاده الشاهقة وقوته الهائلة تبدهنا أكثر مما تبدهنا صفاته الأخرى .

وكثير من قصص ولز يشتمل على ترجمة للسنين الأولى من حياته ، ومنه وصف مفصل يفيض بالمرح والسخرية من الحياة التى كانت تحياها الطبقة المتوسطة الصغيرة فى عصر الملكة فكتوريا ، وهى الطبقة التى نشأ فيها ولز وذاق مرارة العيش . ففى قصة « الحب ومستر لويشام » (١٩٠٠) وصف لحال ولز أيام كان يشتغل بالتدريس فى مدرسة ميدهرست الأولية ، ويعد العدة للنزوح إلى لندن حيث يحصل من جامعتها على درجة « بامتياز فى جميع المواد » . وفى قصة « كيبس » (١٩٠٥) يعود ولز إلى الظهور فى زى البطل ، فالبطل كيبس كالكاتب ولز صبى فى حانوت أصواف وهو يتدرج تدرجه فى سلم الحياة ، ولكنه يجد أخيراً أن حياة الموسرين لا تحقق ما كان يرجوه فيها من أحلام سعيدة . أما قصة « تونوبنجى » (١٩٠٩) فهى تصور المجتمع الذى شب ولز فيه ، ومحورها صيدلى كشف عن دواء جديد فغدا به مليونيرا ثم أفلس إزاء منافسة المنافسين . وفى « سيرة مستر پولى » (١٩١٠) تعرض ولز لنظام التعليم فى انجلترا وطعن فى سلامته . أما السيرة الرسمية التى ترجم بها ولز لنفسه بلغة الواقع فلم تظهر إلا فى شيخوخته .

وقد كان لنشأته الأولى أعظم الأثر فى تكوين أفكاره الأولى وأفكاره الدائمة كذلك . فولز الصغير لم تكن له ثياب لورد فونتلروى الصغير الذى أجاد تصويره أيما إجادة ، ولم يكن له تعليمه الهادئ المنتظم ، فقد كان رث الثياب ممزق الحذاء ناقص التعليم . وهو يحدثنا عن كل ذلك فيقول فى « آلام الأحذية » وهى

نشرة اشتراكية من نشرات الجماعة الفابية أصدرها عام ١٩٠٥ : « لقد قضيت الشطر الأكبر من طفولتى فى مطبخ تحت الأرض ، وكانت نافذة المطبخ تطل على مساحة من الأرض يسدها جدار تعلوه سفافيد أمام واجهة حانوت أبى ، فكنت بذلك كلما أطللت من النافذة رأيت أسفل الناس ولم أر رؤسهم وأجسامهم كما يفعل غيرى من الأطفال الذين تفضل نشأتهم نشأتى . وهكذا تعرفت على جميع أنواع الناس فى كل طبقة من طبقات المجتمع ، فكانوا عندى مجرد أحذية تتحرك بل مجرد نعال تمشى . »

وقد تعارف النقاد على تقسيم قصص ولز إلى ثلاثة أنواع : الأول أساطيره العلمية ، والثانى قصصه الواقعية ، والثالث قصصه الجدلية . وهذا التقسيم لا يحتاج إلى تعمق فى دراسة ولز ، فهو يفرض نفسه على القارئ فرضا .

أما الأساطير العلمية فرحلتها تقع بين ١٨٩٥ و ١٩٠٨ وأهمها « آلة الزمن » و « طعام الآلهة » و « بشر كالآلهة » و « حرب العوالم » و « حرب الهواء » و « جزيرة الدكتور مورو » و « الرجل الخفى » و « فى زمن المذنب » و « الزيارة العجيبة » . وقد كانت هذه الأساطير أول ما كتب ولز إذا تجاوزنا عن محاولاته الصحفية الأولى وهى تافهة . وموضوع هذه الأساطير الكوكب الأرضى وسكانه وحضاراته ، وغيره من الكواكب وسكانها وحضاراتها . ومسرح هذه الأساطير الأزل والأبد ، الماضى السحيق الذى يقاس بالسنين الفلكية والمستقبل البعيد الذى لا نعرف ولا يمكن أن نعرف عنه شيئاً . والبطل فى أكثر هذه الأساطير هو العلم . فمنهج ولز أن يتخيل صورة العالم وصورة المجتمع الإنسانى حين يتم إخضاع كل شىء فيهما للعلم . لذلك كانت كل أسطورة من هذه الأساطير أشبه بنبوءة ، ومن هذه النبوءات ما تحقق فعلا . وفى هذه الأساطير يسخر ولز العلم لخدمة الخيال على نسق لا مثيل له فى تاريخ العلم أو فى تاريخ الخيال ، اللهم إلا فى قصص الكاتب الفرنسى چول ڤيرن ، والتشابه لا يسوغ القياس . وقد جرت العادة بين النقاد أن يربطوا ما بين فن ولز وفن ڤيرن ، ولكن الاختلاف بينهما عظيم : فڤيرن يتخيل حقًّا كما يتخيل ولز ، وڤيرن يجعل العلم أداة الخيال كما يجعله ولز ، ولكن ڤيرن يقف عند المغامرات القصصية ، ولا يتجاوزها بحال ، أما ولز فيحاول من ورائها أن يعيد بناء العالم والمجتمع وهو يستخدمها مناسبة لعرض تأملاته وشرح آرائه . وطريقته أن يخرج من

تيار الحياة ويقف من كل شيء موقف المشاهد المتأمل الذى لا يربطه بما يشاهد رابط ولا تصله بما يتأمل صلة . وليس هذا غريباً فى ولز ؛ فلعل نشأته العلمية بين المعامل قد عوّدت هـذا الأديب أن ينهج فى أدبه منهج العالم ، أو لعل عادة التجرد هذه هى التى ألزمت هذا الأديب بدراسة العلوم فى الجامعة وما بعدها . ومهما يكن الأصل ففى هـذه الأساطير ينظر ولز إلى العالم وما فيه من أحياء نظره إلى السائل وما فيه من جراثيم تحت المجهر . والمنهج الذى يتبعـه فى أدبه هو منهج العلم ؛ فالأدب عنـده لا يستطيع أن يسجل صورة صادقة للحياة إلا إذا انفصل الأديب من الحياة جملة ، ووصفها وصفاً موضوعيا لا أثر للذات فيه ، أى وصـفها وصف العالم الجيولوجى لصخرة من الصخور . وهذا لا يتأتى بخروج الأديب من العالم فحسب بل يقتضى خروجه من نفسه كذلك . لذلك نجد ولز فى أساطيره العلميـة ينظر إلى العالم آناً بعينى مَلك ، وآناً بعينى جنيّة ، وآناً بعينى عمـلاق ؛ وبذلك أمكن لولز أن يرى الحشود البشرية فى مجموعها ، وأن يستعرض موكب الحضارة من بعيد ، وبذلك أمكنه أن يرجم بما عساه أن يكون هدف هذه الحشود العظيمة من الأحياء ، وأن يطّلع على ماتشكو منه «الإنسانية» من أوجاع ، وأن يرسم للناس فى حدود تقديره طريق الخلاص . وقد وجد أن طريق الخلاص هو طريق العلم . ولقد يكون ولز مصيباً فى تقديره إذا كان موقف المصلح من المجتمع موقف الطبيب من المريض بجسـمه ، ولقد يكون مخطئاً إذا كان موقفه موقف المحلل النفسى من المريض بنفسه . والأرجح أن موقف المصلح من المجتمع موقفهما جميعاً .

ولقد استطاع ولز بأساطيره العلمية هذه أن يبلغ مكانا مرموقاً بين الـكاتبين ؛ ولـكن نصيب الأدب فيه يبدأ بالطور الثانى من أطوار إنتاجه ، طور القصص الواقعية ، طور « كيبس » و « سيرة مستر پولى » و « تونوبنجى » . وبهذه القصص الواقعية وحدها كان يمكن لولز أن يخلد فى عالم الأدب ، وبها وحدها يجوز لمن يشاء أن يلقبه بخليفة دكنز العظيم ؛ فالنَّفَس الذى يشيع فيها نفحة من نَفَسه ، والبيان من بيانه . بل إن ولز قد يتجاوز دكنز فى بعض المواضع من ناحية صفاء الأسلوب وعمق التحليل . وفى هذه القصص الواقعية يصل ولز إلى كثير مما وصل إليه دكنز ، فيوفق مثله لخلق الشخصيات الحية المكتملة التكوين ، ويسخر مثله من العصر وحضارته لا عن طريق التبشير الصريح

والتعريض المباشر ، بل بما يخلق من شخصيات ومايسرد من وقائع . وهو يهجو الطبقة البورجوازية طبقته ، لا بالنقد ولا بسباب الغاضبين ، ولكن بالوصف الأمين لما يقول أبناؤها وبما يفعلون . وعلى الجملة فولز يدرك فى هذه القصص الواقعية مهمة الفنان ويحققها ، فهو لايستثير الناس على معايب المجتمع الإنجليزى بل يضحكهم منها ، وهو لا يستخدم أبطاله لشرح نظرياته فى الحياة ، ولكن يستخدمهم لشرح نظرياتهم . إن مستر بولى رجل من دم ولحم لا مجرد صورة أو كاريكاتور . ونحن نضحك منه حقًّا ولكننا نعطف عليه كذلك ؛ فهو نموذج للرجل الحائر الذى خلقته الحضارة الحديثة وحطمته فى وقت واحد ، ذلك الرجل الذكى الذى فقد نفسه وسط هذه الحركة الكثيرة وخارت قواه فى تيار الحياة الجارف فاشتهى أن يغرق ، ولكن تيار الحياة لفظه بالرغم منه على الشاطىء بين الحصى والرمال ، فعاش كالسمكة خارج الماء .
إن مستر بولى رجل مكتمل الرجولة ، وهو متزوج منذ خمسة عشر عاما ، ودأبه فى الحياة أن يحتفظ بحانوته التافه الذى لا يتردد عليه الناس . أما نفسه فجائعة ، وأما بدنه فسقيم ، والحياة عنده لم تعد تحتمل . لذلك يعقد عزمه على الانتحار. وليس بينه وبين الانتحار إلا مستقبل زوجته ، فيهتدى إلى حل يضمن به موته وحياة زوجته ، وذلك الحل هو إحراق الحانوت والاحتراق فيه ، فبإحراق الحانوت والاحتراق فيه تستولى زوجته على التأمينين ، ويخلص هو من شقائه . ويحترق الحانوت ولكن مستر بولى لا يحترق ، بيد أنه يختفى على أية حال بعد قليل ، ويبدأ الحياة من جديد هائماً على وجهه فى طرقات انجلترا ، جيوبه فارغة ورأسه عامر بالأحلام. ومامن شك فى أن شخصية مستر بولى نقد للمجتمع الإنجليزى فى نهاية القرن الماضى ، أو نقد لحياة البورجوازية الصغيرة على وجه التخصيص . ولكن النقد الذى نجده فى شخصية مستر بولى لا يقاس بالنقد الذى نجده فى شخصية كيبس . فكيبس كبولى وكولز ذاته بورجوازى صغير ، وهو غلام يعمل صبيًّا فى حانوت أصواف كما كان خالقه يعمل فى حداثته ، وهو يعانى ما يعانيه سائر صبيان الحانوت من شقاء العمل والحرمان وخنق الحرية ؛ فهم يعيشون فى عنبر قيوده مضنية شأن جميع العنابر ، ومع ذلك نسمع منهم هذا الحديث وهم فى العنبر قبل أن ينطفىء النور كالمعتاد بحكم القوانين التى وضعها صاحب الحانوت :

« وتابع بجينز القراءة ، فقد أثارت اهتمامه افتتاحية عن شئون الهند أبلغ إثارة . قال :

— إن من الحق أن يعطى هؤلاء السود حق التصويت .

قال كيپس :

— وأى حمق ؟

قال بجينز :

— إنهم من طينة غير طينتنا ؛ فليس لهم ما للإنجليز من منطق رشيد ، وليس لهم ما لهم من خلق متين . وإن فى خصالهم نوعاً من الغدر والتحايل ؛ فشهادة الزور مثلا وأشباهها من التصرفات التى لا يعرف عنها الإنجليز شيئاً فى طبيعتهم . وكيف يعرف الأمانة من كان فى جبنهم ومذلتهم ؟ إنهم لم يعتادوا الحرية كما اعتدناها ، ولو أعطيت لهم لأساءوا استخدامها . أما نحن . . . آه . . . اللعنة !

فقد انطفأ النور فجأة ولا يزال أمام بجينز عمود كامل عن لغو المجتمع الراقى كان يحب أن يقرأه . »

ومثل هذا التهكم اللاذع بأبناء البورجوازية الصغيرة وبآرائهم وآمالهم قد يبلغ فى « كيپس » مبلغ السخط . ففى « كيپس » سخط على نظام التعليم ، وسخط على عقم الحياة الريفية ، وسخط على استبداد الموظفين الجهال ، وسخط على العقلية الإنجليزية الضيقة ، وعلى « الغباوة ذلك الحكم المطلق فى بلادنا » بلغة ولز . وهـذا كيپس مضطجع إلى جوار زوجته بعد مشاحنة سفيهة سببتها غباوتهما ، وولز من ورائهما يقول :

« لولا ضيق العقل ... لولا ذلك الوحش لما تلمّس كل منهما أتفه الأسباب ليؤذى صاحبه كل هذا الإيذاء المرير . لولا ذلك الوحش لخرج من طفولتهما الذهبية وشبابهما اليانع ثمر سعيد ، واستيقظ فيهما وعى يستقبل أفكار العـالم ، ولنفـذ ضوء الأدب المنعش إلى قرارة روحيهما ، ولتفتحت نفساهما بدل هذا الاستغلاق ؛ لإدراك الجمال الذى ننعم به نحن المجدودين ، ولرؤية ذلك الحلم الذى تصفو به الحياة إلى الأبد . لقد سخرت منهما فى الماضى ، وإنى لأسخر منهما الآن لعلك أن تسخر معى منهما كذلك . . . ولـكنى أنفذ فى ظلام روح كيپس وزوجته كما اراهما الآن قطعتين ورديتين من المادة الحيـة المرتجفة ، وجسدين أشبه بجسدى طفلين يشكوان الجهل والسقم وسوء الغذاء ، طفلين

يتعذبان ، طفلين مشاكسين مضطربين يشقيان ولا يعرفان لشقائهما سببا ، طفلين يطبق عليهما مخالب ذلك الوحش الجهنمى . »

كذلك الأمر فى « تونوبنجى » وهى أعظم قصصه الواقعية جميعاً أو من أعظمها على أقل تقدير ؛ فهى سجل أمين لحياة الطبقة المتوسطة الصغيرة فى انجلترا أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهى تصف ما أصاب المجتمع الإنجليزى إبان هذه الفترة التاريخية من تصدع ، وتصور خروج الأرستقراطية إلى الأبد من الحياة الإنجليزية ، ودخول فئة من الأدعياء ذوى الجاه والمغامرين الموسرين ليحلوا محلها . وفى هذه القصة نجد السخط قويًّا كذلك . فالعم پوندريڤو صيدلى ريفى ابتكر مستحضراً جديداً ، فربح من ورائه الملايين ، ثم أفلس حين ظهر له منافسون جدد ، وقد جاءه كل هذا المال الكثير دون أن يحدث فى شخصيته وأخلاقه تطور يقابل ارتفاع قدره فى الحياة :

« لقد كان عمى يملك فى أوج غناه نقداً وعيناً نحو مليونى جنيه على أقل تقدير مقابل ديون جسيمة لا تعرف على وجه التحديد . أما دائرة نفوذه التى كان يتحكم فيها فقد كانت تشمل فى مجموعها نحو ثلاثين مليوناً . وقد منحه كل ذلك مجتمعنا الذى تحكمه الفوضى وتختل موازينه . نَعم ، كافأه مجتمعنا كل هذه المكافأة ؛ لأنه يجلس داخل غرفة ويشتغل بالدسائس ويطلق فى الناس الأكاذيب . فعمى لم يخلق شيئاً ولم يبتكر شيئاً . ولست أستطيع أن أدعى أن أى مشروع من المشروعات التى نظمناها قد عاد بأدنى نفع على الحياة الإنسانية . »

وما هذا الصيدلى إلا نموذج لطبقة الأدعياء والمغامرين الذين مكنتهم الصناعة والنظام الرأسمالى من اقتحام العالم والاستيلاء عليه وطرد طبقة الأشراف منه بعد أن ظلّوا آمنين دهراً وراء زراعتهم ونظامهم الإقطاعى . وقد ذهب الأرستقراط وتركوا وراءهم خراباً ثقافيًّا وفراغاً مدنيًّا عجز البورچوازيون من بعدهم عن تعميره وملئه . ومع ذلك يبدو أن ولز مغتبط بهذه النتيجة ، على العكس من جولزورذى الذى عالج الموضوع نفسه فى ملحمة « فورسايت » والأسف يملأ قلبه على المجد الذى كان ، وللبربرية التى سادت المجتمع من بعده .

وقصة « تونوبنجى » هى آخر ما كتبه ولز فى باب القصص الواقعية . وما من

شك فى أنها ومثيلاتها تشتمل على مواضع ما كان ينبغى أن توجد فيها ، وولز لم يستطع أن يتجنب فيها دائماً إعلان آرائه فى السياسة والاجتماع والأخلاق الخ ، من كل ما يغض من قيمتها الفنية ، وتحت المرح الذى يحيط بپولى وكيپس والمستر پوندريڤو نرى وجه ولز العبوس ، ولز المصلح ، ونقرأ فى أساريره سخطه على المجتمع . ولكننا نستطيع بوجه عام أن نحكم بأن شخصية الكاتب تختفى وراء أشخاص قصصه الواقعية ، كما نستطيع أن نحكم بأن هذه القصص الواقعية برغم ما فيها من استطراد ملحوظ منشأة على تصميم واضح لا يخطئه أحد ، وهذا ما يجعلها آثاراً أدبية من طراز عظيم . ولو أن لولز ما لأستاذه دكنز من رحابة فى القلب وحرارة فى العواطف ومقدرة على العطف لما تخلف عنه فى كثير أو قليل ، فمرحهما سواء وسخريتهما واحدة ، وفهمهما لتفاصيل المجتمع البورچوازى الصغير يكاد يكون متساوياً . بل إن لولز ما لدكنز من عيوب ، فكلاهما يبلغ قمة فنه حين يلتزم وصف الحياة فى الطبقة المتوسطة الصغيرة التى نشأ فيها ، وكلاهما يخفق إخفاقاً واضحاً كلما خرج من دائرة هذه الطبقة واجترأ على غيرها من الطبقات . ومهما يكن من شىء فسيرة ولز الأدبية تنتهى هنا . فقد انصرف قبيل عام ١٩١١ إلى تحبير نوع ثالث من القصص ليس فيه من الأساطير العلمية ولا من تصوير الواقع شىء : انصرف إلى تحبير القصص الجدلية أو القصص الاجتماعية أو القصص الفكرية أو ما شئت من الأسماء التى لا تختلف كثيراً وتتفق جميعاً فى أنها ليست من نصيب الفن . ومن هذه القصص « مستر بريتلنج » و « چون وپيتر » و « آن ڤيرونيكا » وكثير غيرها مما نسيه الناس أو كادوا . ومنهج ولز فى هذه القصص الجدلية يختلف عن منهجيه السالفين فى الأساطير وفى الواقعيات . لقد ضاق بالخيال ذرعاً، فعدل عنه وكتب عن الواقع . وها هو ذا يضيق بالواقع ذرعاً فيعدل عنه ويكتب عن الأفكار . ولكل قصة من قصصه الجدلية « هدف » أو « رسالة » . والهدف العام هو مناقشة الآراء الاجتماعية وتحليلها . والرسالة العامة هى الإصلاح الاجتماعى . أما وصف الحياة المجرد فلم يعد ولز يكتفى به ، وهذا دليل على أن طبيعة المفكر المصلح فيه أقوى من طبيعة الأديب الفنان . وما هذا التحول فى ولز بظاهرة جديدة تماما أو خفية تماما ؛ فبذور التبشير موجودة فى كل عمل من أعماله الأولى حتى أعظمها شأناً وأقربها إلى روح الفن الصرف . وولز قبل سواه يعلم بأمر هذا التحول فيه ،

بل لقد أعلنه إعلانا فى مقال له عن « القصة المعاصرة » نشره عام ١٩١١ فى عدد نوفمبر من مجلة « فورتنايتلى ريفيو » . وفى هذا المقال ، أو فى هذا البيان بتعبير أدق ، حدد ولز وظيفة القصة كما يفهمها هو ، فإذا بها وظيفة لا تقوم بها « آلة الزمن » ولا تقوم بها « كيپس » أى لا تقوم بها أساطيره العلمية ولا تقوم بها قصصه الواقعية . فمبادئ القصة فى بيانه ثلاثة : أولها أن القصة استطرادية فى طبيعتها ، فهى نسيج من خيوط كثيرة قد تختلف فى ألوانها ، وهذا يقضى على مبدأ التصميم الذى يلتزمه الفنانون فى القصص . وثانيها أن القصة مرنة ورحيبة تتسع أو يجب أن تتسع لكل شىء فى الحياة من إدارة الأعمال إلى السياسة إلى شواهد التاريخ إلى الأعمال الفاضلة إلى الأعمال الفاضحة ، وكل هذه المواد تختلط وتنسجم وتصفو فى نهاية القصة ، وهذا يهدم مبدأ الوحدة . وثالثها أن القصة وإن لم تكن منبراً يستخدمه القصصى لشرح آرائه فهى « كرسى الاعتراف ونبع المعرفة ودافع النفس إلى أن تراجع نفسها مراجعة مثمرة » ، وهى كذلك معرض الآراء ومكان امتحان السلوك الإنسانى . وقد بدأ ولز يجرب هذا المنهج فى القصة قبل أن يصدر بيانه ببضع سنوات ، ودأب عليه بقية حياته ، فانتقل بذلك من قائمة الأدباء إلى قائمة الكتاب الاجتماعيين .

أدب ولز أدب البورجوازية الصغيرة ، وهو امتداد لهذا النوع من الأدب الذى وضع أساسه دكنز وبنى عليه چورج إليوت وأضاف إليه أرنولد بنيت . فما المراد من هذه العبارة ؟ لاشك أن نشأة ولز فى أسرة من أسر الطبقة المتوسطة الصغيرة قد ترك فى آثاره خصائص يتفرد بها أبناء هذه الطبقة دون سواهم ، فجاء أدبه بهذا المعنى من أدب البورجوازية الصغيرة . وأبسط مثال لذلك ضخامة إنتاجه التى يعجز دونها الكثيرون ، وهى ضخامة تدل على جده ودؤوبه على العمل سواء فى الاطلاع أو فى التحرير . والجد والدؤوب على العمل خاصتان تتميز بهما البورجوازية الصغيرة أكثر مما تتميز غيرها من الطبقات . كذلك الحال مع أسلوبه ؛ فهو ليس بالأسلوب الحر السوى الذى يؤتاه صاحبه ويعمل على إتقانه بقية عمره ، بل هو أسلوب غير ثابت الصفات يتراوح كثيراً بين القوة السكسونية والطنطنة اللاتينية ، فيه من إتقان الحريص شىء وفيه من إهمال المتعجل شىء ، وهو أسلوب طموح يحس قارئه بأن صاحبه يحاول الاستفادة

من مستصعب الكلم فيوفق آناً ويخفق آناً ، وهو أسلوب يتفاوت كثيراً بين الصدق والادعاء . وعلى الجملة فهو أسلوب ذو شخصية تشبه شخصية صغار البورجوازيين ، بعض جوانبها يدعو إلى الإعجاب وبعض جوانبها كريه تمجه النفوس ، ولكنها في كل حالة تحاول أن تثبت وجودها وتفرض نفسها على الناس فرضاً . ولكن أدب ولز أدب البورجوازية الصغيرة بمعنى آخر كذلك ؛ فهو يصف حياة هذه الطبقة ومشاكلها وصفاً مفصلا يوشك أن يكون جامعاً مانعاً . وولز مع طول اشتغاله بالاشتراكية ليس بالكاتب العاملي الأصيل الذي وقف بيانه على تصوير الحياة البروليتارية بمعناها الصحيح ، وإنما هو كاتب من فقراء المتوسطين كتب عن فقراء المتوسطين . وبؤس الإنسانية عنده يبدأ ببؤس الأحذية وبؤس التعليم الإلزامي ، ومشاكل الجماهير عنده تتركز في إزالة هذين البؤسين . والناس في قصصه خدم وليسوا بالخدم في وقت واحد ، وصيادلة ريفيون يجدّون وراء المال ويوفقون لاقتناء الكثير منه ، ومدرسون لهم في الحياة آمال صغيرة وأطماع تافهة بعضها يتحقق وبعضها يخيب . والشخصيات عنده شخصيات فردية تتحرك بالدوافع الفردية أكثر من سواها . فولز أديب البورجوازية الصغيرة بالمعنى الذي أراده القصصي الأمريكي هنري جيمس حين كتب يقول : « أنت أول من وصف الطبقة المتوسطة الصغيرة في انجلترا وصفاً خلا من التنميق وخلا من الغرابة وخلا من الإسراف وخلا من الخيال الدخيل الذي يكثر في أدب دكنز مثلا فيضلل القارئ ، ويكثر في أدب جورج إليوت فيخرج به عن الجوهر . فلقد وصفت ما في هذه الطبقة من الابتذال بروح هي روح العالم وروح المؤرخ معاً ، ولقد رأيت تفاصيل الحياة بين أبناء هذه الطبقة على هذا الضوء القوى ، ضوء العلم والتاريخ . »

على أن أدب ولز أدب البورجوازية الصغيرة بمعنى آخر أكثر عمقاً من كل ما تقدم ؛ فهو ليس مجرد أديب من صغار البورجوازيين يكتب للبورجوازية الصغيرة عن حياة البورجوازية الصغيرة فيجيد الكتابة والتصوير . وهو ليس مجرد مرآة صادقة تنعكس فيها حياة صغار المتوسطين ، بل هو الأديب الذي «يعبر» عن هذه الطبقة في كل شيء من حيث ظروفها الاجتماعية والاقتصادية ، ومن حيث فلسفتها السياسية والأخلاقية ، ومن حيث آلامها وآمالها في الحياة ، ومن حيث شخصيتها الإنسانية التي تميزها عن سائر طبقات المجتمع . فهو إذن

مرحلة فى تاريخ الفكر الإنسانى والأدب الإنسانى ؛ وهو ظاهرة فى تطور المجتمع لا سبيل إلى فهم ذلك التطور إلا بدراستها . وصلته بالبورچوازية الصغيرة صلة عضوية حتمية ، فهو المثبت لوجودها المظهر لقوتها المفكر لهـا المعبر عن أهدافها فى الحياة .

وآيات ذلك فى أدبه كثيرة فولز قد نشأ فى أواخر القرن التاسع عشر مع نشوء الحركة العاملية ومع نشوء الفلسفة الاشتراكية بنوعيها الماركسى الثورى والپرودونى التطورى ، فماذا كان موقفه من العمال والاشتراكيين ؟ آمن ولز بحقوق العمال حقًّا ، ولكنه لم يؤمن بها إيمان عامل بل آمن بها إيمان صديق للعمال . فهو يؤمن بحقوق الإنسان أكثر من إيمانه بحقوق العمال ، وهو يؤمن بحقوق العمال لأنها جزء لايتجزأ من حقوق الإنسان . وانتصاره للطبقة العاملة دون غيرها من الطبقات طبيعى بحكم الجوار ؛ فطبقته البورچوازية الصغيرة أقرب ما تكون إلى البروليتاريا ، وهى أقرب إلى البروليتاريا منها إلى الطبقات الأخرى ، وانفصال المفكرين والمثقفين عامة من صغار البورچوازيين عن طبقتهم البورچوازية الصغيرة ، وانضمامهم فى المبدأ والأمانى إلى جموع البروليتاريا أمر مألوف أو شك أن يكون قاعدة فى الحركات السياسية . لهذا كله اختار ولز من بين النظريات الاشتراكية الكثيرة الشائعة أكثرها اعتدالا وأقربها إلى فهم البورچوازية الصغيرة ، فآمن بنظام الملكية المشتركة كما يؤمن كل اشتراكى ، ولكنه آمن كذلك بالانتقال المقسط أو بالتدرج أو بالتطور ، ولم يؤمن بالانقلاب الكامل أو بالطفرة أو بالثورة . آمن بپرودون ولم يؤمن بماركس ، فصدق عليه وصف ماركس لپرودون بأنه أستاذ فى الجامعة له قدم فى الطبقة البروليتارية وقدم فى الطبقة البورچوازية ، فهو مذبذب بينهما حائر يجتهد فى التوفيق بين أمانيهما فيخسرهما جميعاً . وولز يؤمن بحقوق الإنسان عامة دون حقوق العمال على وجه التخصيص ؛ لأنه يحس بوعى منه أو بغير وعى أن الإنسانية لا تقتصر على العمال والعاملين كما يقول الماركسيون ، بل تتسع حتى تشمل كذلك الطبقات العاملة المالكة والطبقات المالكة فحسب . وهذا اختلاف جوهرى فى وجهة النظر ، منشؤه أن ولز يقف فى منتصف الطريق بين المستغِلّين والمستَغَلين . ولأنه يقف بحكم طبقته ومصلحتها فى منتصف الطريق بينهما نراه يرى وجهة نظر الطرفين ويؤمن بهما جميعاً . ولأنه يرى وجهة نظر الطرفين ويؤمن

بهما جميعاً نراه يعتقد أن للطبقات العاملة حقوقاً أولها امتلاك وسائل الإنتاج بالاشتراك ، ويعتقد أن للطبقات المالكة حقوقاً كذلك أولها تعويضها عن وسائل الإنتاج التى تنزع من يدها . ولأنه يرى وجهتى نظر الطرفين ويؤمن بهما جميعاً نراه يعترف بشخصية الطبقات غير العاملة ويعترف بشرعيتها ضمناً ، وهذا ما لا يفعله الماركسيون الذين يعدون الطبقات المالكة طفيليات تعيش على جسم البروليتاريا وتأكل ثمار العاملين ، ويعدون الملكية الفرديه لوناً من ألوان الاغتصاب يحميه القانون . ولأنه يعترف بشخصية الطبقات المالكة وبشرعيتها نراه يؤمن بالتدرج فى تطبيق البرنامج الاشتراكى . ولهذا كان طبيعيًّا أن يجد ولز فى الجماعة الفابية منظمة كافية لنشر الاشتراكية بين الناس ثم تطبيقها على المجتمع ، فانضم إلى برنارد شو وسيدنى وب وبياتريس وب وجراهام والاس ، وساهم بنصيب لا بأس به فى حركة التنوير الاشتراكى التى اضطلع بها الفابيون .

وبهذا المعنى يصح أن نصف ولز بأنه أديب إنجليزى لحماً ودما . فالبورجوازية الصغيرة هى العمود الفقرى للشعب الإنجليزى ، وعقلية صغار البورجوازيين هى العقلية السائدة بين أبناء هذا الشعب ؛ فهم يطالبون الاشتراكية ولكن بمقدار ، وينشدون التغيير ولكن فى الحدود البطيئة التى تمليها الحاجة الملحة ويأذن بها النظام . وهم شديدو الفردية أشخاصاً وشعبا يقيسون كل شىء بمقياسهم ، وينفرون من كل تأثير خارجى ، ويرفضون كل فلسفة أو نظام من شأنه أن يحدّ ممكنات التضخم أمام « الأنا » .

وولز شديد الإيمان بالمنهج العلمى . وشدة الإيمان بالمنهج العلمى كانت خاصة هامة من خواص البورجوازية الصغيرة والكبيرة فى انجلترا وفرنسا وحدهما إبان القرن التاسع عشر ، أى إبان نماء البورجوازية وعنفوانها . وذلك لأن البورجوازية الإنجليزية والبورجوازية الفرنسية قدشبَّتا فى جو من الحرية يوشك أن يكون مطلقا بعد تصارعهما المشهود فى الحروب النابوليونية ، وانتهتا من تلك الحروب إلى تقسيم العالم بينهما ، وبذلك نضجت الرأسمالية الإنجليزية والرأسمالية الفرنسية فى جو من الأمان أشبه ما يكون بأمان الاحتكار ، مصدره استئثارهما بأسواق العالم دون غيرهما من الرأسماليات المتأخرة فى الدول الأخرى ، فلاغرابة أن تؤمنا بالعلم مصدر رخائهما ، وبالعقل أس سعادتهما . أما البورجوازية الألمانية فقد نشأت وشبت وشاخت فى جو من العنت والمحاصرة والاضطهاد

الخارجى ، فلا غرابة إذن أن يتصف الفكر البورجوازى الألمانى فى كل مرحلة من مراحله من نختة إلى شپنجلر بالثورة على العقل والإيمان بالعاطفة . فالبورجوازية بوجه عام لم تكن دائماً كما نعرفها نحن أبناء القرن العشرين قوة ثائرة على قوانين العقل ثائرة على منهج العلم ، تؤمن بالعاطفة والخرافات فى كل باب من أبواب النشاط الإنسانى ، وتنجب من المفكرين أمثال سوريل وشپنجلر وروزنبرج وألدوس هكسلى ، ومن الأدباء أمثال ت. س. إليوت وچيمس چويس و د. هـ. لورانس ، ومن الفلاسفة أمثال أدنجتون وبرجسون وبرتراند رسل ، بل تنجب من العلماء من يجلسون حول المائدة ويخاطبون الأرواح أمثال أوليڤرلودج وكونان دويل . كانت البورجوازية بين نهاية القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر ، أى بين عام ١٧٩٤ عام الإرهاب الأكبر الذى ألغى فيه روبسپيير المسيحية وأقام عبادة العقل مكانها ، وعام ١٨٩٥ الذى خلق أوسكار وايلد فيه « دوريان جراى » وألغى به العقل وأقام عبادة الجمال مكانه — كانت البورجوازية إبان هذه الفترة تؤمن بالعلم وبالعلم وحده ، وتربط مستقبل الإنسانية وسعادتها بفتوحات العلم التجريبى فى المعمل ، وبفتوحات العقل المشاهد بين طبقات الأرض وقبائل الهمج ، وبفتوحات الذهن المبتكر بين آلات الإنتاج ، وكانت بورجوازية متفائلة تؤمن بفلسفة « التقدم » أى مطمئنة إلى تقدم البشر المطرد ؛ لأنها كانت بورجوازية منتصرة مستقرة لا تجد ما يهدد سلامتها ، فلما اكتهلت تكشف ما فى نظامها الرأسمالى من تناقض داخلى ، فبدأت الرأسماليات الجديدة (ألمانيا وأمريكا أولا ، ثم اليابان وإيطاليا) تنازع الرأسمالية الإنجليزية والرأسمالية الفرنسية ما كان لهما من سيطرة مطلقة على أسواق العالم ، من كل ماجر إلى التسابق الاستعمارى والحروب الكلية ، وبدأت عوامل الهدم الداخلية تنشط بظهور الحركة العاملية التى تهدف إلى إلغاء النظام الرأسمالى جملة وإحلال نظام عاملى محله . وإزاء كل هذه الظروف التى جدّت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر زال عن البورجوازية الإنجليزية والبورجوازية الفرنسية ما كان لهما من اطمئنان سابق على المستقبل ، وتزعزع ما كان لهما من ثقة فى « التقدم » ، وتشككتا فى كفاية العقل والعلم لحل مشكلات الإنسانية ، بل ظهر منهما أنبياء مزيفون يتحدثون عن الكارثة المحدقة بالنوع الإنسانى وينذرون بانهيار الغرب ، ويتوقعون حلول الساعة أو العودة إلى الهمجية الأولى ،

وانتقل التفاؤل والإيمان بالعقل والعلم والثقة التى لا حد لها فى « تقدم » الإنسانية من البورجوازية المنهارة إلى البروليتاريا الفتية التى تطالب حقها فى الحياة . وقد كان طبيعيًّا هذا التعميم الذى نجده فى فلسفة البورجوازية وفى فلسفة البروليتاريا ؛ فكل طبقة من طبقات المجتمع تتحدث عن الإنسانية ومصير الإنسانية ؛ لأنها تتوهم بالحق أو بالباطل أو بهما معاً أنها والإنسانية سواء .

فولز يقف فى منتصف الطريق بين البورجوازية والبروليتاريا ، وهذا هو سره الكبير ومفتاح شخصيته وأدبه معا . فقد أخذ عن البورجوازية إيمانها بالعقل والعلم أيام كانت تؤمن بالعقل والعلم . فلما زال عنها إيمانها بالعقل والعلم لم يعدل ولز عن إيمانه بالعقل والعلم . لماذا ؟ لأنه ليس بورجوازيا صرفا ، ولو قد كان لكفر بهما كما كفرت البورجوازية وليئس من المستقبل كما يئست . ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً لأن له أصولا فى البروليتاريا إلى جانب أصوله البورجوازية . لهذا كله ظل ولز قوة تقدمية عظيمة فى المجتمع ، يبشر بالعقل والعلم ويحطم الاستسلام للعاطفة والانسياق أمام الخرافات . وهذه دلالة بطولة هذا المفكر ؛ فقد ثبت وحده أو بين نفر قليل على إيمانه بالحياة كأنه الصخرة التى لا تتزعزع ، ورأى الأرض تسوخ تحت قدميه فى أواخر القرن الماضى وأدباء الكارثة من حوله يتجمهرون ، فما عدل عن إيمانه بالعقل أو بالعلم . وهذا هو نصيب البروليتاريا الحقيقى فيه . فمن آمن بالعقل والعلم دفع البشرية إلى الأمام .

ولكن ولز كما أخذ عن البورجوازية القوية إيمانها بالعقل والعلم ، أخذ كذلك عنها شيئاً من التشاؤم الذى اتصفت به حين كثرت فيها ومن حولها عوامل الهدم . وقلق ولز على مصير « الإنسانية » لا يبلغ مبلغ التشاؤم حقا إلا قبيل وفاته ، وهو لون من الشك أو الخوف المعقول الذى يدفع إليه الحرص . فولز ليس من أدباء الكارثة أو مفكريها ، وإنما هو طبيب أمين ونبى يتكهن بالغيوب . وهو يرى أن أداة التقدم هى العقل والعلم ، ولكنه يرى كذلك أن تقدم الإنسانية ليس ضرورة تاريخية ولا جبرا ماديا كما يرى الماركسيون وعامة مفكرى البروليتاريا المطمئنون إلى مستقبل الطبقة العاملة ، بل هو أمر جائز إذا دامت للإنسانية شروط التقدم وهذا غير مضمون . وكثرة الأوجاع التى تشقى بها الإنسانية فى القرن العشرين وهول هذه الأوجاع من حروب مهلكة ونظم مدمرة لا يبشران بخير كثير ؛ فهو إذن يرى نُذُر الكارثة ولا يرى الكارثة

نمسها . ولقد وقف ولز حياته أو شطرا عظيما منها يحذر الناس وينذرهم من مآلهم إن لم يرعووا . فالعقل والعلم عنده قد يكونان أداة خراب بمقدار ما هما أداة تعمير . والعلاج عنده هو إلغاء العاطفية والعدول عن ارتجال الحلول ، ثم الإيمان بنفع التصميم . فعلى المفكرين والقادة والساسة أن يخرجوا العالم من هذه الفوضى الراهنة ، بأن يضعوا له تصميما يسير عليه فى مستقبله . والأصل فى كل تصميم عند ولز هو تحطيم حواجز القوميات وإقامة حكومة عالمية تدبر شئون البشر من بلاد البنجوين إلى بلاد الأفيال . وهو لا يستطيع أن يتصور الأرض إلا كوكبا يسبح فى الفضاء عليه نوع واحد عال هو النوع الإنسانى ، وإن كان لابد من قتال فليقاتل أبناء هذه الكوكب الطبيعة ، أو فليقاتلوا أبناء الكواكب الأخرى . وبالعقل والعلم وحدهما يستطيع أبناء الأرض أن يعمروا الأرض وأن ينهضوا وأن يتطوروا فى الطريق المستقيم . وهذا التصور أو هذا الحلم الجميل يبعد كثيرا عن تصور البورچوازية للمستقبل ويقترب كثيرا من تصور البروليتاريا له . فالبورچوازية لا تتصور النوع الإنسانى تصورها وحدة منسجمة متماثلة ، بل تتصوره تصورها فرقا من الكائنات متجافية متنازعة على البقاء ، ليبقى على وجه الأرض أصلحها جميعا . والبروليتاريا تتصور النوع الإنسانى نوعا من الأحياء واحدا فى الجوهر وفى الممكنات ، فرّقته الطبقات المالكة بمختلف الفلسفات الدينية والعنصرية والإقليمية والثقافية ، وعلمته التناحر بدل أن تعلمه التفاهم والتعاون . وفى هذه الحدود خدم ولز جموع البروليتاريا بنشر فكرة من أفكارها الرئيسية . ولكن ولز لم يأخذ فكرة الحكومة العالمية أو فكرة التصميم العالمى عن فلاسفة البروليتاريا ، ماركس وإنجلز ولنين ، وإنما اهتدى إليها بحكم إيمانه بالعقل والعلم . فعقليته العلمية جعلته يفهم المجتمع البشرى لا فهما اجتماعيا بل فهما بيولوچيا ، أى جعلته يراه كما يرى نوعاً من أنواع العضويات راقيا ومعقدا . فالنوع الإنسانى عند ولز حقيقة كلية ، حقيقة تميزه فى ذهن العالم عن غيره من أنواع الحياة . والفروق الدينية والعنصرية والإقليمية والثقافية بين أصناف البشر إن كانت حقيقة ، فهى حقيقة جزئية لا تقوى أمام الحقيقة الكلية التى تقنع العلماء بوحدة النوع الإنسانى . وولز الإنسان يلمس أن حزازات المصلحة والدين والعنصر والثقافة تمنع النوع الإنسانى فى مجموعه من التطور أو تدفعه إلى سبيل فى التطور ينبغى أن يتحاشاها . وولز

العالم الذي ألف أن يفكر فى الإنسانية تفكيره فى مادة عضوية كانت فى بساطة الأميبا فأضحت فى تعقيد أينشتين ، ولز هذا شديد الحرص على أن يدوم للإنسانية ما كان لها من تطور ورقى . والضمان الأول فى نظره هو إيجاد نظام عالمى يضع حدًّا لأسباب التأخر بين البشر كالفقر والجهل والمرض والحروب ، ويقضى على كل تكتل دينى أو عنصرى أو ثقافى يمنع البشر من الإحساس بوحدتهم أو يدفعهم إلى التناحر وهدم الذات . واهتمامه بالنظام هو العالمى اهتمام عالم حريص على سلامة النوع الإنسانى أكثر منه اهتمام مصلح حريص على سعادة البشرية فى وضعها الحالى .

كذلك اهتدى ولز إلى فكرة العالمية اهتداء بحكم موقفه المتوسط بين البورجوازية والبروليتاريا . فقربه من الطبقة العاملة هو الذى هداه إلى التفكير الاشتراكى بما ينطوى عليه من إيمان بنظام الملكية العامة وإيمان بإنشاء ولايات متحدة عالمية ، ولكن صلته بالطبقة المتوسطة جعلت اشتراكيته اشتراكية طوبية كما يحب أن يصفها إنجلز ، أى اشتراكية عاطفية أو خيالية أو مثالية أو ما شاكل ذلك من النعوت ، أى اشتراكية لا تستند فى تحقيقها على أصول مادية فى المجتمع والحياة . فهو يبغى حقًّا تطبيق نظام الملكية العامة ، ولكنه يكاد ينتظر من الطبقة المالكة أن تبادر إلى تطبيق هذا النظام . وهو يبغى حقا إقامة حكومة عالمية ، ولكنه يحسب أن الحكومة العالمية ممكنة الإقامة فى حدود الكادر القائم للأشياء . وهذا وجه الاختلاف بينه وبين فلاسفة البروليتاريا ، وهذا وجه صلته بالبورجوازية . وكلما كثرت من حوله الحروب والصراعات والقنابل الذرية فتح عينيه فى براءة الطفل الغرير وأبصر الهاوية وتحدث فيما يشبه الجزع عن الكارثة ، وطالب مخلصاً بوجوب العمل على تلافيها . ومن رأى الكارثة ولو لحظة واحدة خرج عن التعاليم الماركسية ؛ فالماركسية مطمئنة إلى مصير الطبقة العاملة ، وبالتالى مطمئنة إلى مصير الإنسانية . والماركسية لايشوبها أدنى شك فى أن النظام الاشتراكى قادم لاريب فيه ، وأن الحكومة العالمية قادمة لا ريب فيها ، ومهما كثرت من حولها الحروب والصراعات والقنابل الذرية فهى تعلم أن هذه آلام الموت تعانيها البورجوازية قبل انطواء نظامها الرأسمالى . نعم ! الماركسية مطمئنة إلى مجىء الدولية اطمئنان المسيحية مثلا إلى مجىء الجنة . والماركسية تتفاءل كل هذا التفاؤل لا لأنها

تجد ما يلزمها به فى عالم الأحلام أو فى عالم الأخلاق ، بل تتفاءل كل هذا التفاؤل لأنها تجد مايسوغه فى تطور التاريخ . فولز إذ يقلق على مستقبل الإنسانية لايقلق على مستقبل البروليتاريا ؛ لأن مستقبل البروليتاريا فى الفلسفة البروليتارية على الأقل مضمون ، ولكنه يقلق غير عامد على مستقبل البورجوازية ، فمستقبل البورجوازية لا يدعو إلى القلق فحسب بل يدعو إلى الجزع كذلك باعتراف فلاسفتها أنفسهم . وولز يقلق على مستقبل البورجوازية غير عامد ؛ لأن تصوره للإنسانية يشمل البورجوازية والبروليتاريا جميعاً . وما جاءه هذا التصور إلا بحكم موقفه المتوسط بين الطبقتين ، أى بحكم تبعيته للبورجوازية الصغيرة ، فهو يزعم لنفسه مكاناً « فوق » الطبقات . فاذا كان الارتفاع عن الطبقات ممكنا فقد ارتفع ولز أكثر مما ارتفع إنسان سواه ، وإلا كان مكانه الطبيعى عين المكان الذى وقف فيه برودون من قبل ، أى مكانا « بين » الطبقات .

كل هذه أدلة صريحة على طوبوية ولز ، فمن أراد مزيدا وجده فى قصصه ؛ فالنهج الذى نهجه ولز فى فن القصة يدل على موقفه من المجتمع . فاذا نحن تجاوزنا عن القصص الواقعية التقليدية التى كتبها ولز البورجوازى الصغير للبورجوازية الصغيرة عن البورجوازية الصغيرة مثل « تونو بنجى » و « كيبس » و « سيرة مستر بولى » و « الحب ومستر لويشام » ، وإذا نحن تجاوزنا عن بحوثه الصريحة كنشراته الاشتراكية الفابية و « مجمل التاريخ » و « الإنسانية : عملها وثروتها وسعادتها » فماذا نجد ؟ نجد نوعاً من القصص غير مألوف ، هو الأساطير العلمية ، وأمثلتها كثيرة ، منها « آلة الزمن » و « طعام الآلهة » و « بشر كالآلهة » و « حرب العوالم » و « حرب الهواء » و « جزيرة الدكتور مورو » و « الرجل الخفى » « و الزيارة العجيبة » ، وفيها يجتهد ولز أن يتصور مستقبل البشرية بل مستقبل الأحياء جميعاً إذا ما وضع العلم فى خدمة المجتمع ، ويبنى تصوراته هذه على مستكشفات العلوم ونظرياتها الثابتة . فهو يتصور المجتمع البشرى قد تطور ملتزما قوانين النشوء والارتقاء التى قال بها لامارك وداروين ، فإذا بأفراده ضخام الرؤس صغار الأجسام إلى حد خرافى . وهو يتصور مصلا تحقن به العجماوات فتتطور حتى تقترب من الآدميين . وهو يتصور محلولا يشربه الناس فتشف أجسادهم حتى تمتنع رؤيتها على العيون . وهو يتخيل حرباً تنشب بين كوكبنا الأرضى وغيره من الكواكب ، إلى آخر هذا كله من ممكنات

التنبؤ التى يجوز للعلم فرضاً أن يحققها للحياة . ولـكن الاتجاه العام فى هذه الأساطير العلمية هو إقامة المدينة الفاضلة أو الطوبى كما يسميها بعض الـكتّاب أو الأوتوبيا كما يسميها آخرون . وهذه المدينة الفاضلة مدينة لا توجد إلا فى عالم الأحلام ، وهى مدينة يبلغ المواطنون فيها درجة الـكمال فى كل شئ من حيث تـكوينهم الشخصى ، ومن حيث صلاتهم الاجتماعية ، ومن حيث صلاتهم بالطبيعة ، وهى الوعد السعيد الذى ما لبثت الإنسانية تمنى نفسها به منذ فجر التاريخ . أما المتدينون فيعلمون بأن مكان هذه المدينة الفاضلة فى العالم الآخر حيث كنا وحيث نعود ، وأما غير المتدينين من أمثال ولز فيعلمون أن إنشاء هذه المدينة الفاضلة فى العالم الحالى أمر ممكن أو يرجون ذلك على أقل تقدير . وهؤلاء يذهبون فى ذلك مذاهب شتى : فنهم من يتخيلها جمهورية فاشية كأفلاطون ، ومنهم من يتخيلها جمهورية شيوعية كتوماس مور ، ومنهم من يتخيلها جمهورية فوضوية كوليم موريس ، ومنهم من يتخيلها جمهورية علمية كولز . ولا جدال فى أن الأساس الأول فى أية مدينة فاضلة عند ولز هو تطبيق النظام الاشتراكى ، ولـكن لا جدال كذلك فى أن اهتمام ولز بتطبيق النظريات العلمية على مختلف وجوه الحياة فى مدينته الفاضلة أشـد وضوحاً من اهتمامه بتطبيق النظريات الاجتماعية . وليس غريباً فى ولز هذا الاتجاه العلمى الطوبَوى ؛ فقد نشأ فى قرن العلم قرن داروين ومندل ودالتون ورذرفورد وماكسويل وهكسلى ، وكان تخصصه الأول فى علم الحيوان ، كما نشأ فى عصر الطوبَيّات عصر أوسكاروايلد ووليم موريس وساموئيل بتلر ، أيام تململ مفكرو البورجوزاية من مموليّ البورجوازية ، فانحازوا إلى البروليتاريا غير مدركين ، واشتغلوا بنشر الاشتراكية وبناء المدن الفاضلة .

وهذه الاشتراكية الطوبَوية فى ولز تؤكد أصوله البورجوازية . فلو قد كان ولز مفكراً بروليتاريا أصيلا لما انصرف عن بناء مجتمع اليوم ، وهو شيء مادى واضح المعالم ، إلى بناء مجتمع الغد وهو شيء أشبه بنسيج الأحلام . وهل أدل على هذه الأصول القوية من أن ولز كلما كتب القصص الواقعى كتبه عن أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة بالذات ، وكلما كتب عن « الإنسانية » جمعاء لجأ إلى الأحلام وعمد إلى لغة الخيال ؟ إن الإنسانية العاملية والاشتراكية العاملية والـكفاح العاملى ، أمور مادية وحقائق راهنة ، لا يمكن مفكرا عاملياً أصيلاً

أن يفر منها أو يؤجل النظر فيها حتى يتحقق مجتمع الغد القريب ، فكيف إذن وغدُ ولز غدٌ بعيدٌ ، غد يحصى بالعصور الأرضية وبالسنين الضوئية ، ولقد يحصى بالآباد يوم يبتلع الأرض اللهب ويصعد منها الدخان .

هذا هو الكاتب المحترف هربرت چورچ ولز الذى عرف مهمة الكاتب الناجح ، وأدرك سر النجاح فى الكتابة طول حياته ، وأصاب التوفيق بأول كتاب نشره فى الناس ، فلم ينطو على نفسه ويكتب للخاصة ، ولم يبتذل ويكتب للدهماء بل كتب للجمهور الكبير الذى يحسب له حساب ، كتب للرأى العام ، كتب للرجل العادى . ولكن هناك استدراكا لا بد منه لفهم ولز وجولزوورذى وأرنولد بنيت وأترابهم من كتّاب البورچوازية الصغيرة ، وهو أن الرجل العادى الإنجليزى فى هذه المرحلة من تاريخ انجلترا ليس العامل فى المنجم ولا الصانع فى المصنع بل البورچوازى الصغير ، ذلك المتوسط الفقير الذى يعيش على هامش النظام الرأسمالى ويتعلق بأهدابه ، وهو فى انجلترا المعاصرة يعد بالملايين ؛ لأن الرأسمالية الفردية أو الرأسمالية القومية نظام قد تغلغل فى صميم الحياة الإنجليزية بحكم طابعها الإمبراطورى الذى يجعل البروليتاريا الإنجليزية ذاتها بورچوازية صغيرة بالنسبة إلى عمال العالم المتأخرين منهم والمتحضرين . ولقد فهم ولز أبناء هذه الطبقة فهما صحيحا ، ووصفهم وصفاً أميناً ، لا فى قصصه الواقعية وحدها بل فى أساطيره العلمية كذلك . ولعل أنفع ختام لهذا البحث هذه الصورة الرائعة التى جاءت فى قصته « حرب العوالم » وهى صورة لأبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة لا ينقصها إلا الإطار :

« كل هؤلاء الناس ، هؤلاءالناس الذين يسكنون هذه الدور ، وأولئك الملاعين من صغار الكتبة الذين سكنوا فى تلك الناحية ، كلهم قوم لا خير فيهم ، فأجسادهم لا أرواح فيها ، ونفوسهم صغيرة لا تعرف الآمال الكبار ولا الأشواق العظيمة . ومن خلت نفسه من هذه الآمال وهذه الأشواق فهو رمّة حية لا أكثر من ذلك ، رمة يتلفها الحرص ويدمرها الاحتياط . لقد رأيت المئات منهم ، رأيتهم يهرولون من دورهم إلى أعمالهم وقد حمل كلٌّ فطوره فى يده . رأيتهم يركضون جزعين لاهثين ليلحقوا بقطارهم الرخيص خشية أن يفوتهم القطار فيفصلوا من وظائفهم . رأيتهم يقومون بأعمال لا يفهمون من طبيعتها شيئاً لأن الفهم يخيفهم ويضنيهم . رأيتهم يهرولون عائدين من أعمالهم

إلى بيوتهم خشية أن يتأخروا عن موعد العشاء ، ورأيتهم يلزمون بيوتهم بعـد العشاء خوفاً من الشوارع الخلفية المظلمة . رأيتهم يضاجعون النسوة اللائى تزوجوهن لاحبًّا فيهن ، بل لأنهن يملكن قدراً من المال يطمئنون به على حياتهم التافهة الدنيئة التى يهرولون فيها من المبدأ إلى المنتهى ، وقد أمّن كل منهم على حياته واستثمر جانباً من ماله خوفاً من الحوادث . وفى أيام الآحد يقصدون إلى الكنيسة خوفاً من المجهول ، كأنما الجحيم قد أقيم للفيران . »

لويس عوض

LE MINOTAURE OU LA HALTE D'ORAN

ALBERT CAMUS

المينوتور(1) أو وقفة وهران

[ألبير كامو كاتب فرنسي معروف من كتاب الجيل الحديث . نشأ في شمال أفريقيا واكتسب لنفسه مكاناً ممتازاً في الأدب حين نشر أسطورة « سيزيف » *Sisyphe* وهو كتاب يعرض فيه مذهبه في فلسفة العبث ، وقصة « الغريب » *L'étranger* التي تمتاز بعمق التفكير ويسر التعبير ، وبمسرحيته اللتين نالتا في باريس فوزاً عظيماً وهما كاليجولا *Caligula* وسوء التفاهم *Le malentendu* .

وقد اختصصنا بهذا الفصل الرائع في الأدب الوصفي الذى ننشره ليرى أدباء الشباب مذهب الكتاب الفرنسيين في النظر إلى الأشياء وتصورها واتخاذها وسيلة إلى التفكير والاعتبار .]

« إني أتصوره في بلاط الملك مينوس موزع اللب قلقاً يريد أن يعرف أى نوع من أنواع الوحوش المروعة يكون المينوتور : أشنيع إلى هذا الحد ؟ أم لعله أن يكون خلاباً جذاباً ؟ »

فكر غير متحيز

لم تبق من صحارٍ ولم تبق من جزر ، ومع ذلك فان الحاجة تدعو إليهما .. وإذا أردنا أن نفهم العالم فينبغي أحياناً أن نتحوّل عنه ، وإذا أردنا ان نخدم الناس فعلينا أن نمسكهم نائين عنا إلى حين . ولكن من لنا بالمكان الذى نجد

---

(1) المينوتور : وحش ، تذهب الأساطير اليونانية إلى أن نصفه آدمي والنصف الأعلى ثور ، كان يتغذى بلحم بني آدم : سجن في لابيرنت جزيرة أقريطش . وقد استطاع تيزيوس أحد أبطال اليونان أن يهتدي إليه في اللابيرنت بفضل خيط أعطته إياه أريان بنت الملك مينوس وقتله .

واللابيرنت ، أو قصر التيه ، يتألف من مجموعة لا حصر لها من الغرف الصغيرة المظلمة المتداخلة ، يضل كل من دخلها ، ولا يمكنه الاهتداء فيها إلى الطريق .

فيه القوة والنفس الطويل اللذين يجمع الفكر فيهما شمله ، وتقدّر الشجاعة فيهما نفسها. هناك المدن الكبرى ، ولكنها فى حاجة إلى بعض الخصال. فالمدن التى تعرضها علينا أوربا ملأى بهمهمة ذكريات الماضى . وفى وسع أذن متدربة أن تدرك حفيف بعض الأجنحة وخفق بعض النفوس ؛ تحس فيها دوار القرون الغابرة والثورات والمجد ، وتذكر فيها أن الغرب صهر وسط الصياح والعجيج . وليس كل هذا خليقاً أن يهيئ لنا مانحتاج إليه من صمت.

كثيراً ما تكون باريس صحراء بالقياس إلى القلب . ولكن قد تمرّ بعض الأحيان تهبّ فيها من فوق مقبرة « البير لا شيز » ريح ثورية تملأ المدينة فجأة بالأعلام وبألوان العظمة المنهزمة . وكذلك الأمر بالقياس إلى بعض المدن الأسبانية أو إلى فلورنسا أو إلى براغ . وسالزبورج مدينة هادئة ساكنة لولا موزار ، فمن حين إلى حين تندفع على السلزاك الصيحة المدوية المتكبرة التى يدفعها دون چوان حين يلقى به فى أعماق الجحيم . وقد تبدو فيينا أدنى إلى الهدوء ، وهى فتاة بين المدن ، وحجارتها حديثة السنّ لاتتجاوز ثلاثة قرون ، فلا يعرف شبابها الأسى والشجون . غير أن فيينا ملتقى للتاريخ يدوى من حولها اصطدام الدول . وربما يمر بها مساء تصطبغ فيه السماء بحمرة الدم. ويخيّل إلينا فيه أن تماثيل الخيل الحجرية المقامة على الرنج توشك أن تطير . فى هذه اللحظة العابرة يتحدث كل شئ عن التاريخ وما يحفل به من بأس ، ونستطيع أن نشهد فى وضوح انهيار الدولة العثمانية تحت انقضاض الجيوش البولاندية . وهذا أيضاً ليس خليقاً أن يهيئ لنا ما نحتاج إليه من صمت .

ولا شك أن الذى يبحث عنه فى هذه المدن الأوربية هو تلك العزلة المأهولة ، أو على الأقل يبحث عنها أولئك الذين يعلمون ما يريدون . يستطيعون فيها أن يختاروا لأنفسهم الرفاق ، يستبقونهم حيناً ويتخلون عنهم حيناً . وما أكثر الذين صهرت الحياة نفوسهم وهم يقطعون الطريق بين غرفة فندقهم والأحجار القديمة فى جزيرة سان لوى . [1] من الحق أن غيرهم أهلكتهم العزلة ، غير أنهم هلكوا لأنهم لم يكونوا على حظ كاف من الجلد وقوة الاحتمال .

---

(١) قلب باريس .

أما الأولون فقد حفزتهم هذه الوحدة إلى السمو وإلى تثبيت نفوسهم . كانوا في العزلة ولم يكونوا فيها . كانت ترافقهم على ضفاف نهر السين قرون من التاريخ والجمال تحدثهم عن شتى التقاليد وعن مختلف ألوان التقدم . على أن شبابهم كان يدفعهم إلى استدعاء مثل هذه المرافقة . ولكن أوقاتاً تلمّ وظروفاً تمرّ ، وإذا هذه المرافقة ثقيلة مرهقة . فقد صاح راستينياك أمام البقعة العفنة الضخمة التي كانت تتألف منها مدينة باريس : « ليصطرع اثنانا » . نعم كانا اثنين ، ومع ذلك كان العدد ضخماً .

والصحراء نفسها قد اتخذت معنىً ؛ فقد حُمِّلت شعراً وأصبحت من هذه الأماكن المقررة . والذي يبغيه القلب في بعض الأوقات ، هو على العكس من ذلك مكان لا شعر فيه . وقد أراد ديكارت أن يخلو إلى نفسه ليمعن في التفكير والتأمل ، فاختار لذلك صحراءه ، مدينة كانت في ذلك الوقت من أكثر المدن تعاطياً للتجارة ، فوجد فيها عزلته . وكانت هذه العزلة مصدر وحي شعري لعله من أعظم شعرنا وأقواه ، نجد فيه هذه العبارة : « والمبدأ الأول ألاّ أتقبل شيئاً ما على أنه حق إلا أن أتبين ذلك بداهة » . وقد يكون المرء أقل طموحاً ولا يكون مع ذلك أقل ميلا إلى الحنين . على أن أمستردام امتلأت منذ ثلاثة قرون بالمتاحف . وإذا أردنا أن نفرّ من الشعر لنلقى سكون الأحجار ، فعلينا أن نبحث عن صحار أخرى ، عن أماكن لا روح فيها ولا عون . ووهران إحدى هذه الأماكن .

ليس من مكان لم يشوهه أهل وهران ببناء شنيع يشوّه أي منظر طبيعي . تتوقع مدينة تستقبل البحر وقد فتحت عليه ، يرطبها ويغسلها نسيم المساء ، ولكنك ، إذا استثنيت الحي الأسباني ، تجد مدينة تستدبر البحر وقد بُنيت على شكل حلزوني وهي تدور حول نفسها على غرار بعض القواقع . فوهران سور ضخم مستدير أصفر اللون تظله سماء قاسية . وفي أول الأمر تضلّ في قصر التيه ، تبحث عن البحر كأنك تبحث عن خيط أريان . ولكنك تدور في شوارع ملتهبة قائظة تحصر النفس ، وفي نهاية الأمر يلتهم المينوتور أهل وهران . وهذا الوحش هو السأم . ومنذ زمن بعيد لم يعُد أهل وهران يهيمون على وجوههم في غير هدى ، فقد قبلوا أن يُلتهموا .

ولن تستطيع معرفة الحجارة على وجه التحقيق إذا لم ترَ وهران . ففى هذه المدينة التى يطغى عليها الغبار ، يستأثر الحصى بالمكان الأول إلى حد أن التجار يضعونه فى مقدمات حوانيتهم لتثبيت الأوراق ، بل لمجرد العرض ، وتؤلف منه كومات على جوانب الطرقات ، ولا بد أن يكون ذلك لمتعة العين ، فإنك تجـد الـكومة فى مكانها وقد يمرّ عليها عام . والأشياء التى تستمد شاعريتها من النبات فى أماكن أخرى تتخـذ هنا وجه الحجارة . فالأشجار التى قد تصادفك فى مدينة التجار والتى لا تزيد فى مجموعها على العشر يكسوها الغبار . فهى نباتات متحجرة تتساقط من أغصانها رائحة مريرة ترِبة . وللمقبرة العربية فى مدينة الجزائر هدوء ودعة اشتهرت بهما . أما فى وهران فاذا نظرت فوق وادى رأس العين ، وجدت بقاعاً من الأرض تواجه البحر هنا ، هى حقول من الحصى الجيرى المتفتت ، لاصقة بالسماء الزرقاء ، تشعل الشمس فيها حرائق طامسة تعمى الأبصار . ووسط عظام الأرض هذه ترى بين آن وآخر زهرة من زهور الجيرانيوم تهب لمنظر الطبيعة حياتها ودمها الرخص . وقد تجمدت المدينة كلها فى إطار متحجر . وإذا نظرت إليها من المزارع ، فإن صخور الشواطئ التى تحاصرها من السـمك بحيث يخيّـل إليك أن منظر الطبيعة خيالى غير واقعى لشدة معدنيته . وليس للإنسان فيه مكان لأنه قد أقصى عنه إقصاء . وكأن كل هذه الروعة المثقلة تأتى من عالم آخر .

وإذا جاز لنا أن نُـعَـرِّف الصحراء بأنها مكان لاروح فيه تسوده السماء دون سواها ، فإن هــذه المدينة تنتظر إذن أنبياءها . فأنت إذا نظرت من فوق المنازل ومن حولها رأيت الطبيعة الإفريقية الجافة العنيفة قد زينتها مفاتنها الوهاجة ؛ فهى تدفع المنظر المنكر الذى غمرت به فتصدّعه ، وترسل صيحات عنيفة بين كل منزل ومن فوق كل سطح . وإذا صعّـدنا فى إحدى الطرقات الجانبيـة التى تتسلق جبل سانتا كروز ، فأول مايبدو أمام أنظارنا هو مكعبات وهران المنتثرة الملونة . وإذا ماارتفعنا قليلا ، فسرعان ما تظهر صخور الشواطئ الممزقة التى تحيط بالنجد وقد انحنت على البحر كأنها ضوار حمر . وإذا واصلنا التصعيد فهذه لطمات عظيمة تمتزج فيها الشمس بالريح وتخيم على المدينة الشعثاء المتناثرة فى غير نظام بين مختلف أرجاء بقعة صخرية فتأخذها من جميع أقطارها ، وتجرى فيها الهواء وتخالط بعض أجزائها ببعض . وتجد هنا

تقابلا بين الفوضى الإنسانية الهائلة وبين استقرار البحر المستوى دائماً . وهذا يكفى حتى تنتشر فى الطريق الجانبي لسفح الجبل رائحة للحياة مذهلة .

وفى الصحراء خصلة القسوة التى لا تعرف اللين . فسماء وهران المعدنية اللون ، وشوارعها وأشجارها التى تغشاها طبقة من الغبار ، كل هذا يساهم فى إنشاء ذلك العالم الكثيف الجامد الذى لا يشغل فيه القلب والفكر عن نفسهما ، ولا عن هدفهما الفذ وهو الإنسان . وإنى أتحدث هنا عن خلوات صعبة ، وقد وضعت كتب عن فلورنسا وأثينا . وهاتان المدينتان والمدن الشبيهة بهما كونت عدداً كبيراً من رجال الفكر الأوربيين بحيث يجب أن تكون ذات مغزى . وهى تحتفظ بين طياتها بما يدعو إلى الحنين إليها والإكبار لها. وهى تسكن لوناً من ألوان الجوع تحسه الروح وتشبعه الذكرى. ولكن كيف الحنين إلى مدينة ليس فيها ما يغرى الفكر ، والقبح نفسه فيها لا يمتاز بطابع خاص ، وماضيها ينتهى إلى لا شىء ؟ وفيم التعلق بما لا يستطيع أن يقدم لنا شيئاً ؟ وما الذى تحويه هذه الأماكن من إغراء : أهو الفراغ ؟ أم الملل ؟ أم السماء التى لا تعبأ بشىء ؟ بل لعلها العزلة ، ولعلها الخليقة أيضاً . فالخليقة حيث تروع تصبح وطناً مراً لأجيال من الناس . ووهران إحدى هذه الأوطان الكثيرة .

الشارع

كثيراً ما سمعت أهل وهران يشكون من مدينتهم قائلين : « ليس فيها أية بيئة ممتعة . » وكيف يمكن أن يكون ذلك ! فقد حاول بعض ذوى العقول الطيبة أن يؤقلموا فى هذه الصحراء تقاليد عالم آخر وعاداته ، متبعين فى ذلك المبدأ الذى يذهب إلى أنه لا يمكن خدمة الفن أو الفكر على خير الوجوه إلا إذا تضافرت على ذلك الجهود [1] . وكان من نتيجة هذا أن ما بقى فى وهران من بيئات ممتعة إنما هى بيئات لاعبي البوكر ، وهواة الملاكمة والكرة الخشبية ،

---

(١) نجد فى وهران كليستا كوف بطل جوجول . فهو يتثاءب ثم يقول : « أشعر أن على أن أعنى ببعض الرفيع من الأمر » .

والجمعيات الإقليمية المحلية . فى هذه البيئات على الأقل ينأى أهل وهران عن التكلف ويرسلون أنفسهم على سجيتها . وذلك واضح جلى . فهناك نوع من العظمة لا يستطيع أن يسمو ، فهو مجدب بطبعه . وعلى أولئك الذين يرغبون فى استكشافه أن يتركوا البيئات وينزلوا إلى الشارع .

وشوارع وهران موهوبة للغبار والحصى والقيظ . وإذا سقط المطر كان طوفاناً وتحوّلت الأرض إلى بحر من الوحل . ولـكن سواء أسطعت الشمس أم نزل المطر ، فإن الحوانيت تحتفظ بنفس المظهر العجيب الشاذ . وقد اصطلحت الألوان المختلفة من سوء الذوق فى الغرب والشرق على أن تلتقى فيها . تجد بها أكداساً من التحف ، فهذه كلاب سلوقية من المرمر ، وراقصات تصحبهن بجعات ، وآلهة صيد من الجلاليت الأخضر ، وهؤلاء لاعبو الـكرة الخشبية ، وحاصدو الحقول . بها كل ما يستعمل للهدايا والمسابقات وأعياد الميلاد ، وكل ما يتخذ طريق الحواصل ورفوف المدافئ . بها كل هذه المجموعة المحزنة التى لا تفتأ تنشئها عبقرية تجارية مهرّجة . على أن هذا الإمعان فى فساد الذوق يتخذ هنا مظهراً مضحكا يجعلك تغتفر كل شىء . فهاك ما تحويه مقدمة أحد الحوانيت ، وقد عُرض مغموراً بالغبار : نماذج شنيعة من أرجل معذّبة متألمة مصنوعة من الجبس ، ومجموعة من « رسوم رمبرانت مضحاة بمبلغ ١٥٠ فرنكا للرسم » وحافظات للأوراق النقدية مثلثة الألوان ، ورسم بالپاستيل يرجع إلى القرن الثامن عشر ، وجحش ميكانيكى صغير مصنوع من قماش يشبه القطيفة ، وزجاجات من سائل خاص لتخليل الزيتون الأخضر ، وتمثال بغيض للعذراء قد اتخذ من الخشب ، ذات ابتسامة فاحشة (وحتى لا يجهل أحد ما تمثله كتبت « الإدارة » تحت قدمه هذه العبارة « تمثال للعذراء من الخشب » .)

وتستطيع أيضاً أن تجد فى وهران ما يأتى :

أولا — مقاهى ذات مناضد تلمع من الدَّرَن ، مرشوقة بأقدام الذباب وأجنحتها . وصاحب المقهى دائم الابتسام على الرغم من أن حانته خالية دائماً . وكان ثمن القدح الصغير من القهوة ستين سنتيماً والـكبير ثمانين .

ثانياً — حوانيت للتصوير الفتوغرافى لم تتقدم فيها الصناعة الفنية منذ اخترع الورق الحسّاس للتصوير . وهى تعرض مجموعة من الحيوانات العجيبة لا يمكن أن تصادفك فى الطرق العامة ، منها الصورة التى تمثّل بحاراً يسند

ذراعه على كونسول . ومنها الفتاة التى تؤهلها سنّها للزواج ، وقد حُزم خصرها بشكل مضحك ، فوقفت أمام منظر من مناظر الغابة وقد تدلّت ذراعاها إلى جانبيها . وتستطيع أن تقدّر أن صور هؤلاء الأشخاص لم تتخذ من نماذج طبيعية ، إنما هى مبتكرات أنشئت إنشاء .

ثالثاً — عدداً وافراً من دور تجهيز الموتى ، لا لأن الناس يموتون فى وهران أكثر مما يموتون فى غيرها من المدن ، بل لأن الناس يعنون فيها بالموت أكثر مما يعنى به فى غيرها.

والسذاجة المميزة لهذا الشعب من التجّار والأجانب المستغلّين تبدو جلية حتى فى طرق الإعلان . فقد قرأت فى البرنامج المطبوع لإحدى دور السينما فى وهران إعلاناً عن فلم من الطبقة الثالثة ، فلاحظت فيه النعوت الآتية : « باهر » ، « فخم » ، « مدهش » ، « أخّاذ » ، « مذهل » ، « هائل » . ثم إن الإدارة تنبئ الجمهور بما تحملت من تضحيات عظيمة فى سبيل تقديم هذا « الإخراج » العجيب . وعلى الرغم من ذلك فإن ثمن التذاكر سيبقى كما هو ولن يُرفع .

ومن الخطأ أن تظن أن فى ذلك تصويراً لما يمتاز به أهل الجنوب من ميل إلى المبالغة ، بل إنما يبرهن واضعو هذا الإعلان على سداد حكمهم البسيكولوجى ؛ فإن عليهم أن يقهروا عدم الاكتراث والشعور السلبى المتأصل اللذين يستوليان على كل إنسان فى هذا البلد حين يريد الاختيار بين حفلتين تمثيليتين أو بين صناعتين أو حتى بين امرأتين ، فلا يقرّر إلا مجبراً . وفنّ الإعلان يعلم هذا حق العلم ، لذلك يتخذ لنفسه مقاييس أمريكية ، فهو هنا مدفوع بنفس الدوافع التى تحمله هنا إلى الغلو والإسراف .

وأخيراً فإن شوارع وهران تظهرنا على المتعتين الأساسيتين اللتين ينعم بهما شباب المدينة ، وهما مسح الأحذية ، ثم عرض هذه الأحذية فى الشارع العام . وإذا أردت أن تكوّن لنفسك فكرة دقيقة عن أولى هاتين المتعتين ، فعليك أن تكل نعليك الساعة العاشرة من صباح يوم أحد إلى أحد مساحى الأحذية بشارع جاليينى . هنالك تستطيع وأنت جالس على مقعد مرتفع أن تتذوق اللذة الخاصة التى ينعم بها حتى غير الخبير فى هذه الأمور ، حين يشهد رجالا مشغوفين بمهنتهم

كما يظهر ذلك فى جلاء على مساحى الأحذية الوهرانيين . تراهم يدققون فى كل نقطة ويمعنون فى كل تفصيل من تفاصيل مهنتهم . فهناك فرش متعددة ، وثلاثة أنواع من الخِرَق ومَزْج ماهر بين الدهان والبنزين . وقد يتبادر إلى ظنك أن العملية انتهت حين ترى البريق النهائى الذى ينشأ على أثر استعمال الفرشة الناعمة . ولكن نفس اليد الصَّنَّاع تعيد نشر الدهان على الطبقة اللامعة ، ثم تفركها ، ثم تطفئ بريقها ، وتوصل الدهان إلى أعماق ثنايا الجلد ، فترتفع نفس الفرشة عن الحذاء وقد انبعث من أعماق الجلد هذا البريق المزدوج الأخير .

يبقى بعد ذلك عرض الأحذية . وإن أردت أن تقدّر هذه المتع المستقاة من الطريق العام حق قدرها ، فعليك أن تشهد اجتماع الشباب فى حفلات الرقص التنكرى التى تقام كل مساء فى الشوارع الكبرى للمدينة . فالشباب الوهرانيون من « أبناء الطبقة الراقية » الذين تتراوح أسنانهم بين السادسة عشرة والعشرين يتخذون مثلهم العليا فى الأناقة من السينما الأمريكية ، ويستعيرون هذا الزى التنكرى كل مساء . فشعرهم مجعّد لاصق برءوسهم يتجاوز طرف قُبّعة من الجوخ مائلة على الأذن اليسرى ومنكسرة على العين اليمنى ، وقد حُصرت العنق فى ياقة ترتفع حتى تبلغ أطراف الشعر ، وأحاط بها رباط الرقبة تجمعه عقدة ضئيلة جداً يسندها دبوس لا مفرّ منه . والسترة تتدلّى حتى تبلغ نصف الفخذ على سروال قصير فاتح اللون . وينزل الخصر فيكاد يبلغ الوركين ، وتسطع الأحذية التى تقوم على طبقات ثلاث من النعال . ترى هؤلاء الشباب يتبخترون كل مساء على أرصفة الشوارع يقرعونها بما رُكّب فى طباعهم من ثبات جأش وما رُكّب فى أحذيتهم من أطراف الجديد . وهم يتكلفون فى كل هذا تقليد مشية كلارك جابل وهيئته المطمئنة واستعلاءه الممتاز . من أجل ذلك يطلق ذوو البصائر الناقدة من أهل المدينة على هؤلاء الشباب فى نطق غير معْنِيّ بدقته لقب « البكلارك » .

ومهما يكن من شئ ، فإن الطرق العامة فى وهران جافلة فى أصيل كل يوم بجيش من الفتيان اليافعين الخفاف ، يتكلفون أقصى الجهد ليظهروا بمظهر شباب سيئ السلوك . ولما كانت الفتيات الوهرانيات يشعرن أنهن منذ الأزل شبه مخطوبات لهؤلاء المجرمين ذوى القلوب الرقاق ، فهن يتكلفن أيضاً ما تتخذ أشهر الممثلات الأمريكيات من زينة وبهرج وأناقة .. ونفس

البصائر الناقدة الماكرة تطلق عليهن لقباً مقابلا وتسميهن « المارلين » .

فإذا أقبل المساء وصعدت من النخيل المصفوف على جانبي الشوارع الكبيرة أصوات الطير مرتفعة نحو السماء ، التقت عشرات من « الكلارك » « والمارلين » يقيس بعضهم بعضاً بأنظارهم فى ترفع ، ويقوّم بعضهم بعضاً ، وقد سعدوا بالحياة والظهور ، فانسابوا أثناء ساعة لنشوة الوجود الكامل السعيد . هنالك يقول الحساد إننا نشهد اجتماعات اللجنة الأمريكية . لكنك تحسّ فى هذه العبارة مرارة السنّ التى جاوزت الثلاثين فلم يعد لأصحابها فى هذه الألعاب أرب ، فهم يغضّون من هذه المؤتمرات اليومية التى يعقدها الشباب والخيال . والواقع أنها برلمانات الطير التى يتحدث عنها الأدب الهندى . لكن هذه البرلمانات التى تنعقد فى شوارع وهران لا تشقّ على العقول فى البحث عن مشكلة الوجود ، ولا تجشمها السعى نحو الطريق المؤدى إلى الكمال ، ولا تستبقى من الأثر إلا حفيف أجنحة مرهفة ، وزهو أبهة مبهرجة ، ورشاقة مدللة منتصرة ، وبهاء غناء مرسل غير مكترث يختفى مع الليل .

وكأنى أسمع كليستاكوف يقول : « أشعر أن علىّ أن أعنى ببعض الرفيع من الأمر . » وهو للأسف قادر على ذلك . ولو دفع إلى العمل لعَمَر هذه الصحراء قبل بضع سنين . ولكن حسب القلب أن يكون له حظ من عمق حتى يرغب فى أن يخلص لنفسه وسط هذه المدينة السهلة وما تشتمل عليه من موكب فتيات مزينات بالمساحيق ، لكنهن مع ذلك لا يستطعن إثارة العاطفة ويتخذن من التدلل ثوباً رقيقاً شفافاً لا يستر ما وراءه من المكر ، وسرعان ما يكشف أمرهن . نعم ! الاهتمام ببعض الرفيع من الأمر ! وإن أردت ذلك فحوّل عينيك وانظر : هذه سانتا كروز قد نقشت فى الصخر نقشاً . وهذه الجبال الشاهقة ، والبحر المستوى ، والريح العاصفة ، والشمس المحرقة ، ورافعات الأثقال فى الميناء ، والقُطُر ، والمستودعات ، والميناء نفسه ، وهذه الدرجات الهائلة التى تتسلق صخرة المدينة ، وفى المدينة نفسها هذه الألعاب وهذا الملل ، هذه الضوضاء وهذه العزلة .

وقد لا يكون فى ذلك سمو كافٍ . ولكن القيمة الكبرى لهذه الجزر المكتظة بالسكان أن القلب يتجرّد فيها من كل شىء . فليس إلى الصمت الآن

من سبيل إلا فى هذه المدن التى تملؤها الضوضاء . وكتب ديكارت وهو فى أمستردام إلى بلزاك القديم : « إنى أتنزه بين شعب ضخم مختلط فأنعم بحظ من الحرية والراحة لا يقل عما تنعم به فى طرقات حديقتك » .

الألعاب

يقيم النادى الرياضى المركزى بشارع الفندق حفلة ملاكمة ، ويؤكد أن الهواة الحقيقيين سيقدرونها حق قدرها . وإذا أردنا أن نترجم هذا الإعلان إلى لغة واضحة فمعناه أن الملاكمين الذين سيتبارون ليسوا من الشهرة وذيوع الصيت فى شىء ، وأن بعضهم يرقى إلى جلقة الملاكمة لأول مرة . فإذا لم ننتظر من المتخاصمين فنًا ممتازاً ، فلننتظر منهم على الأقل شجاعة وإقداماً . وقد أثارنى أحد أهل وهران إذ وعدنى وعداً قاطعاً « بأن سيراق فى هذه المباراة دم » ، فرأيتنى فى هذا المساء بين الهواة الحقيقيين .

ويخيل إلىّ أن هؤلاء الهواة لا يتطلبون أبداً لأنفسهم شيئاً من الرفاهية . فقد أقيمت حفلة ملاكمة فى نهاية شىء يشبه أن يكون حظيرة للسيارات ، طلى بالجير وغُطى بالصفيح المموج وأضىء إضاءة عنيفة ، ووضعت مقاعد من تلك التى تطوى ، فرُصّت على شكل مربع حول الحبال . وهذه « مقاعد الشرف » . ووضعت مقاعد أخرى فى طول القاعة . وفى نهاية هذه القاعة يمتد مكان فسيح خال يُسمّى « المشى » ؛ وذلك لأنه لا يسوغ لواحد من المئات الخمس الحاضرة أن يخرج منديله دون أن يحدث حدثاً . فى هذا الصندوق المستطيل يتنفس نحو من ألف رجل وامرأتان أو ثلاث ، من أولئك اللاتى يهممن دائماً « استرعاء النظر » كما حدثنى بذلك جارى . والنظارة جميعاً يتصببون عرقاً يوشك أن يغمرهم . وبينما هم ينتظرون معركة « الآمال » يدك فنوغراف ضخم صنوفاً من أغانى « تينو روسى » ، وهو اللحن الذى يتقدم القتل .

وصبر الهواة الحقيقيين لا حد له ؛ فقد أعلن أن الحفلة ستبدأ الساعة التاسعة مساء ، وقد انتصفت الساعة العاشرة ولم تكن بدأت ، ولم ينكر ذلك أحد . والربيع حار ، وقد انتشرت فيه رائحة مثيرة تنبعث من هذه الإنسانية التى تجردت من سترتها . والمناقشة حادة يفصلها فرقعات منتظمة لصمامات القازوزة

والعويل النائح غير المنقطع الذى يصدر من المغنّى الكورسيكى فى غير ملل أو كلل . ويقحم ببعض القادمين من المتفرجين بين الجمهور ، وإذا بفانوس يعطر على حلقة الملاكمة ضوءاً يخطف الأبصار ، إيذاناً ببدء النضال بين « الآمال » .

والآمال أى المبتدئون الذين يناضلون فى سبيل المتعة دون سواها ، يجتهدون دائماً فى أن يبرهنوا على ذلك بتضحية أنفسهم فى لهف ، غير عابئين بأية قاعدة من قواعد الفن . وهؤلاء المبتدئون لا يتجاوز نضالهم مطلقاً ثلاث جولات . وبطل الليلة فى هذا المضمار هو الفتى كيد اقيون الذى يجول أثناء النهار بأوراق اليانصيب يبيعها على شرفات المقاهى . وهذا خصمُه قد دُفع إلى خارج الحلقة فى مبدأ الجولة الثانية على أثر ضربة أصابته من يد انهالت عليه بسرعة عجيبة .

وأخذ جمهور النظارة يتحمس قليلا ، ولكنه مازال تحمساً مجاملا . تحس هذا الجمهور غارقاً فى لذة عميقة ، يستنشق الرائحة المقدسة المنبعثة من الدهان الذى يدهن به المتلاكمان ، ويشهد فى لهف تتابع هذه الطقوس البطيئة والقرابين المختلة النظام . ويزيد هذا المنظر صدقاً تلك الرسوم التى ترسمها على الحائط الظلال المكافحة . وهذه مقدمات مقررة لدين وحشى . أما الساعة الرهيبة فتأتى بعد ذلك .

وهذا مكبّر الصوت يعلن : عمّار « الوهرانى الصلب الذى لم يقهر » ضد بيريز « الملاكم الجزائرى الشهير » . وقد يسىء من لم يكن من أهل الفن تأويل الصياح الصاخب الذى يلقى تقديم الملاكمين فى حلقة الملاكمة ، فيتصور نضالا عظيما يفض فيه الملاكمان نزاعاً شخصياً يعرفه الجمهور . والواقع أنه نزاع سيفضانه ، ولكنه النزاع الذى يفرّق فى غلظة وشراسة بين مدينتى الجزائر ووهران منذ مائة عام . ولو قد مضت على هذا النزاع بضعة من القرون لجرّت كلتا المدينتين الإفريقيتين على صاحبتها من الشر والهول مثل ما كان بين بيزا وفلورنسا فى أزمان أعظم حظاً من السعادة والهناء ، ويزيد الخصومة عنفاً أنها فى أغلب الظن لا ترجع إلى سبب . وإذ تهيأت لهما كل الأسباب التى تدعوهما إلى تبادل المودة ، فهما على العكس من ذلك تتبادلان البغض بنفس هذا القدر . فالوهرانيون يتهمون الجزائريين « بالتحذق » . والجزائريون يذهبون إلى أن الوهرانيين « غلاظ جفاة لا حظ لهم من ترف » . وهذا سباب أشد إقذاعاً مما يبدو فى ظاهر الأمر ، لأنه يتصل بالمعانى المجردة لا بالحقائق الواقعة . وإذ حيل بين المدينتين وبين

الحرب وما تقتضيه من حصار ، فهما تلتقيان وتتناضلان وتتسابان فى ميادين الرياضة والإحصائيات والأعمال الكبار .

هى إذن صفحة من صفحات التاريخ تنشر على حلقة الملاكمة . والوهرانى الصلب يشد أزره نحو ألف صوت من الأصوات الصاخبة ، وهو إذ يهاجم بيريز يدافع بذلك عن نهج معين فى الحياة وعن نخر إقليمه بأسره . والحق يضطرنا إلى أن نقول إن عماراً لا يحسن توجيه النضال ؛ فإن فى مرافقيه عيباً شكليًّا ، إذ ينقصه طول الساعد ، فى حين أن ذراع الملاكم الجزائرى ، على العكس ، تصل إلى الطول المطلوب ؛ فهو يصيب بطريقة مقنعة خصمه فى حاجبه . وإقليم وهران تزدهيه الخيلاء وسط الضجيج الصاخب لجمهور أطلق عنانه . وعلى الرغم من التشجيع المتصل الصادر من الجمهور ومن جارى ، وعلى الرغم من الصيحات المشجعة له « اخترمه ! » ، « أعلِفْهُ التراب ! » ، والصيحات المنكرة على خصمه أنه يضرب فى غير موضع للضرب ، وأن الحكم لم يرَ شيئاً والصيحات المتفائلة : « لقد امتُص ! » ، « لم يبقَ به رمق ! » — على الرغم من كل ذلك فقد أعلن انتصار الجزائرى بالأبناط وسط صياح استنكار لانهاية له . وجارى الذى لايفتأ يتحدث عن الروح الرياضية فيصفق بشكل يتكلف الوضوح ، وفى نفس الوقت يهمس فى أذنى بصوت يكاد يضيع وسط هذا الصياح : « وكذلك لن يستطيع أن يقول « هناك » إن الوهرانيين غلاظ جفاة » .

على أن ألواناً من الصراع لم ينبىء بها البرنامج قد ثارت فى القاعة . فهذه كراسىّ ترفع ، والشرطة تشق لنفسها طريقاً ، والهياج يبلغ أشدّه . ولتهدئة الخواطر ، والعمل على استعادة الهدوء ، أسرعت « الإدارة » فكلفت الفونوغراف بصياح أغنية « سامبر وموز »[1] وقد اتخذت القاعة أثناء لحظات مظهراً رائعاً . فهذه عناقيد متشابكة من المتشاجرين ومن الحكمين المتطوعين تترجح تحت قبضات رجال الشرطة ، والجمهور صاخب يطالب ببقية البرنامج يعبر عن رغباته عن طريق أصوات متوحشة أو صيحات تريد أن تشبه صياح الديك أو عويل القط . وكل هذا غارق فى النهر الجارف للموسيقا العسكرية .

على أنه يكفى الإعلان عن الصراع الهام حتى يعود الهدوء . ويتم ذلك فجأة

(١) إحدى الأغانى العسكرية الحماسية الشهيرة .

دون تدرّج ، كما يغادر الممثلون المسرح حين تنتهى القصة ، فتُنفّض قبعات ، وتصفّ مقاعد فى سرعة وسهولة ، وتتخذ الأوجه فى غير تردد المظهر العطوف للمتفرج الطيب الذى أدّى ثمن تذكرته ليشهد حفلة عزف موسيقا للأسر .

وفى الصراع الأخير يلتقى بطل فرنسى من أبطال البحرية بملاكم وهرانى . أما هذه المرة فالاختلاف فى طول الساعد فى صالح الوهرانى . على أن امتيازه أثناء الجولات الأولى لا يحرّك الجمهور ؛ فهو يفيق من هياجه ، ويستعيد هدوءه ، ولا يزال قصير التنفس . فهو يصفّر ، ولكن فى غير حماسة عدائية وتنقسم القاعة إلى فريقين كما تقضى بذلك القواعد التقليدية . ولكن انحياز كل متفرج إلى أحد الخصمين يشوبه عدم الاكتراث الذى يلى بذل الجهد الكبير . فإذا ما قاوم الفرنسى ، أو إذا ما نسى الوهرانى أنه لا يصح الهجوم بالرأس ، انهالت على هامة الملاكم موجة من الصفير خنقتها ، ولكن لا تلبث أن ترفعها زوبعة من التصفيق . ولا بد من الوصول إلى الجولة السابعة حتى تطفو الرياضة على سطح الماء ، فى ذات الوقت الذى يأخذ فيه الهواة الحقيقيون يطفون من أعماق إعيائهم . لقد ألقى الفرنسى على الأرض ، ورغب حينئذ فى أن يكسب لنفسه أبناطاً ، فانهال على خصمه . قال جارى : « هانحن أولا ، قد وصلنا ، سنشهد الآن صراع الثيران . » وفعلاً كان صراع ثيران . فالملاكمان يتصببان عرقاً تحت الضوء الضعيف ، وقد أخذا يبدآن الهجوم ويضربان مغمضى العينين ، ويدفعان بالأكتاف والركب ، ويتبادلان الدم ، ويستنشقان فى حدة . وفى نفس اللحظة وقف جمهور المتفرجين ، وأخذ يقطّع جهود البطلين كما يقطّع الشعر ؛ فهو الذى يتلقى الضربات ويردّها ، ويسمع دوى ذلك فى ألف صوت كلها أصم لاهث . وهؤلاء المتفرجون الذين اختاروا بطلهم فى غير اكتراث يلتزمون اختيارهم فى تعنّت وولع شديدين . ولا تمرّ عشر ثوانٍ حتى يكرر جارى صيحة تخترق أذنى اليمنى : « هيا يا أزرق الياقة ! هيا للبحرية ! » على حين يصيح متفرج أمامنا للوهرانى بالإسبانية : « تقدم أيها الرجل ! » والرجل والياقة الزرقاء يتقدمان ، وتتقدم معهما فى هذا المعبد المبنى من الجير والصفيح والاسمنت قاعة بأسرها تهب نفسها كاملة لآلهة منخفضة الجبين . وكل ضربة تدقّ صمّاء على الصدور اللامعة تدوى فى شكل تموجات هائلة على جسم الشعب نفسه الذى يبذل مع الملاكمين آخر جهد من جهوده .

وما دام الجو قد تهيأ على هذا النحو ، فإن المباراة التى تنتهى إلى عدم فوز أحد الخصمين تقع موقعاً سيئاً ى نفوس النظارة ؛ فإنها تؤذى فى الجمهور حساسية مانوية . فهناك الخير والشر ، والمنتصر والمنهزم . وإذا لم تكن مخطئاً فلا بد أن تكون صائباً . وتتيجة هذا المنطق الدقيق الذى لايتسرب إليه الخطأ تتقدم بها فى الحال أصوات صادرة من ألفى رئة عنيفة ، وتتهم القضاة بالارتشاء . غير أن ذا الياقة الزرقاء سعى إلى خصمه يقبله على الحلقة ويشرب من عرقه الأخوى . وهذا كفيل بأن تنقلب مشاعر القاعة فتنطلق مصفقة . وجارى محق بلا شك فيما قال ، فليسوا جفاة ولا غلاظاً .

والجمهور الذى يتفرق فى الخارج تحت سماء يغمرها السكون، وتعلوها النجوم قد شارك فى أشد المعارك إضناء ، وهو صامت يتسرب خلسة دون أن يقوى على التأويل والمناقشة . هناك الخير والشر . وهذا الدين لا هوادة فيه . لم تعد جماعة المؤمنين به إلا حشداً من الظلال السوداء والبيضاء التى تختفى فى ظلمات الليل . فالقوة والعنف إلـهان منفردان ، وهما لايمنحان الذكرى شيئاً ، على حين يوزعان معجزاتهما فى الزمن الحاضر ملء اليدين . وهما قد فُصّلا على قدّ هذا الشعب الذى لا ماضى له والذى يقيم شعائره الدينية حول حلقات الملاكمة . وهى طقوس تشق أحياناً ولكنها تبسط كل شىء . الخير والشر ، المنتصر والمنهزم . أما فى مدينة كورينتوس، فقد قام معبدان متجاوران : معبد العُنْف، ومعبد الضرورة .

المبانى والآثار

هنالك أسباب عدة يرجع بعضها إلى الاقتصاد وبعضها الآخر إلى علوم ما بعد الطبيعة ، تدفعنا إلى القول إن الطراز الوهرانى (إن كان هناك طراز وهرانى) يبدو فى قوة ووضوح فى البناء الغريب الذى يدعى « منزل المستغلّ » . والمبانى والآثار كثيرة فى وهران . فالمدينة لها نصيبها الضخم من تماثيل القواد الحربيين والوزراء ورجال الخير المحليين . تلقاها فى ميادين صغيرة مغبرة أسلمت أمرها للمطر والشمس ، واستحالت هى أيضاً إلى جو الحجارة والسأم ، ولكنها تمثل تأثيراً خارجيًّا . ففى بلاد البربر هذه السعيدة تعتبر دلائل للمدنية باعثة على الأسف .

أما وهران فعلى العكس من ذلك أقامت لنفسها هيا كلها الخاصة . فقد رغب الوهرانيون فى أن يبنوا وسط الحى التجارى بناء يضم مختلف الهيئات الزراعية التى لا حصر لها والتى تعتبر مورد الحياة لهذا البلد ، ففكـروا فى أن يقيموا بالرمل والجير صـورة مقنعة تبـيّن خصالهم ، وبنوا « منزل المستغلّ » . وإذا اعتمدنا على هذا البناء لإصدار حكمنا ، تبينـا أن هذه الخصال ثلاث : الجرأة فى الذوق ، والجنوح إلى العنف ، والحذق فى الجمع بين الاتجاهات المختلفة للتاريخ . فقـد شارك كل من مصر وبيزنطة وميونيخ فى إقامة هذا البناء الرقيق الذى يشبه قطعة من الحلوى تمثّـل كأساً مقلوبة . وقد كسى السقف بأحجار متنوعة الألوان عنيفة التأثير . وهذه الأحجار الحادة اللون من الإقناع بحيث لا تتيح لك ملاحظة شيء لأول وهلة . على أنك إذا اقتربت منها ، وقد استرعى انتباهك ، تبينت أن لها مغزى : فهذا مستغلّ رشيق له رباط عنق على شكل فراشة ، وتغطى رأسه قبعة بيضاء من الفلّ ، يتلقى عبارات الإجلال التى يتقدم بها موكب من الرقيق مرتدين رداء قديم الطراز . وقد أقيم البناء ذو النقوش الملوّنة على مفترق للطرق ، تذهب وتجيء فيه عربات الترام الضئيلة ، التى تغرى قذارتها بزيارة المدينة .

ومن جهة أخرى فإن وهران فخور جدًّا بأسديها اللذين يقومان فى ميدان السلاح . ومنذ سنة ١٨٨٨ يتصدران جانبى السلم فى دار البلدية . وكان صانعهما يدعى قائين . والأســدان قصيرا القامة ولهما روعة وجلال . ويقال إنه إذا كان الليل ، هبطا من قاعدتهما أحدهما إثر صاحبه فطوّفا حول الميدان المظلم ، ثم بالا طويلاً تحت أشجار الجمّيز الضخمة المتربة . وهذه بالطبع أحاديث يعيرها الوهرانيون آذاناً صاغية ، ولـكنها غير معقولة .

وعلى كثرة البحث لم أعثر من أمر قائين هـــذا بشيء . غير أنه كان مشهوراً بأنه مثّـال حيوانات حاذق . على أنى كثيراً ما أفكـر فيه ؛ فهو قد سلك إلى وهران منحدراً خاصًّا من منحدرات العقل . فهذا مثّـال ذو اسم رنّـان ترك هنا أثراً غير ذى خطر . ومع ذلك فإن مئات الألوف من الرجال أنسوا تلك الوحوش الحليمة التى وضعها أمام دار البلدية المزهوة بنفسها . وهــذه لإحدى وسائل النجاح فى ميدان الفن . ولا شك أن هذين الأسدين إن دلاّ على شيء فهما يدلاّن على شيء آخر غير النبوغ ، شأن آلاف من الآثار الأخرى . وقد

استطاع بعض الفنانين أن يخرجوا « طوف الليل » و « القديس فرانسوا يتلقى الوسم » و « دافيد » و « تمجيد الزهرة » . أما قائين فقد أقام حيوانين مضحكين فى الميدان العام لإحدى المدن التجارية من وراء البحار . على أن تمثال « داود » قد يهوى يوماً مع فلورنسا ، ويُنقذ الأسدان من الدمار . وأعود فأقول إنهما إن دلاّ على شيء فليس على النبوغ .

ومالى أتعمق هذه الفكرة ، فإن ذلك الأثر يشتمل على تفاهة ومتانة . ليس للفكر فيه نصيب ، وللمادة النصيب الأكبر . تريد الرداءة أن تبقى بكل الوسائل ومنها البرونز . يأبى الناس أن يكون لها حقوق أبدية ، وهى تغتصب لنفسها هذه الحقوق فى كل يوم . أليست هى الأبد ؟ ومهما يكن من شئ فنى هذا الثبات ما يدعو إلى التأثر ، وهو يحمل بين طياته درساً ثميناً وهو الدرس الذى تلقيه جميع مبانى وهران وآثارها ، بل تلقيه وهران نفسها . فنى خلال ساعة من ساعات اليوم ، ومرّة بين المرات ، يرغمك هذا الدرس على أن توجه عنايتك إلى مالا أهمية له . ويستفيد الفكر من هذا الرجوع إلى نفسه ، فهو رياضة له . وما دام فى حاجة إلى أن يقضى بعض الوقت متواضعاً ، فيخيّل إلىّ أن هذه فرصة خير من غيرها تمكنه من النزول إلى مستوى البلاهة . وكل ما من شأنه الفناء يريد أن يبقى . فلنقبل إذن إن كل شئ يريد البقاء . فليس للأعمال الإنسانية مغزى آخر . وإذا نظرنا إلى أسدى قائين من هذه الناحية ، فإن لهما فى البقاء حظًّا لايقل عن حظ آثار « أنكور » . وهذا يغرى الإنسان بالتواضع .

وهناك مبان وهرانية أخرى ، أو على الأقل ينبغى أن نطلق عليها هذا الاسم ما دامت هى أيضاً تشهد للمدينة ، وقد تكون أقوى تعبيراً فى شهادتها ، أعنى بها الأعمال الكثيرة التى تستغرق من الساحل الآن نحو عشرة كيلومترات . ويظهر أنه يُراد تحويل خليج من أبهى الخلجان إلى ميناء ضخم . والواقع أنها فرصة جديدة يواجه فيها عزم الإنسان صلابة الصخر .

وقد ترى فى لوحات لبعض أساتذة الفن الفلمنك موضوعا فخما يثير الإعجاب ويعود إليه هؤلاء الفنانون فى إلحاح متصل ، وهو بناء برج بابل . ترى مناظر طبيعية غير مالوفة ، وصخوراً تتسلق السماء ، ومنحدرات وعرة يعج فيها العمال

والحيوان ، وتنتثر السلالم والآلات الغريبة والحبال والجرارات ، ولا يظهر الإنسان فى هذا الميدان إلا ليعطيه الطابع الذى يتجاوز الطاقة الإنسانية . وهذا هو الذى تفكر فيه حين ترى الرصيف الذى يتخذ على الساحل شرق وهران .

فقد تعلقت بمنحدرات ضخمة قضبان من الحديد ، وعربات دقاق ، ورافعات للأثقال ، وقطارات ضئيلة . فى هذه الشمس المهلكة ترى قاطرات كأنها لعب الأطفال تدور حول صخور ضخمة بين الصفير والغبار والدخان . وينشط ليل نهار شعب من النمل على هيكل الجبل الداخن ، وقد تدلى طوال حبل واحد ملتصق بالصخر البحرى عشرات من الرجال أسندوا بطونهم على مقابض ثاقبات أوتوماتيكية ، ويضطربون فى الفضاء طوال النهار ، فيستخرجون قطعاً هائلة من الصخر تهوى بين الغبار والدوى . وعلى بعد منهم تنقلب عربات صغيرة من أعلى المنحدر فتهوى الصخور فجأة فى البحر ، طائرات متدحرجات كأنها سرب من الأطفال أطلقوا من المدرسة . وبين فترات منتظمة ، فى قلب الليل أو فى جوف النهار ، يسمع دوى يزلزل الجبل كله ويرفع البحر نفسه .

والإنسان وسط هذا كله يهاجم الصخر وجهاً لوجه . فإذا أتيح لنا أن ننسى لحظة الرق القاسى الذى يقوم على أساسه هذا العمل ، فلا سبيل إلى التخلص من الإعجاب الذى يستأثر بنا . هذه الأحجار التى تقطع من الجبل مسخرة لخدمة الإنسان ، فهى تترا كم تحت الموجات الأولى ، ثم تطفو شيئاً فشيئاً ، وأخيراً تنتظم على شكل رصيف لا يلبث أن يغطى بالآلات والرجال الذين يتقدمون فى عرض البحر يوماً بعد يوم . ولا تفتأ آلات ضخمة من الفولاذ تشبه الأفكاك تقضم بطن الصخور البحرية ، دائرة حول نفسها ، ثم مفرغة فى الماء شحنتها الحجرية . وكلما هبطت جبهة الساحل تقدم الشاطئ نحو البحر تقدماً لا سبيل إلى دفعه .

ولا ريب فى أن إبادة الصخر غير ممكنة . إنما الممكن نقله من مكان إلى مكان . وهو على كل حال سيبقى أكثر من الرجال الذين يستخدمونه . ولكنه فى الوقت الحاضر يدعم إرادتهم فى العمل . ولا شك أن هذا نفسه غير مجد . على أن نقل الأشياء من أماكنها هو عمل الإنسان . فعليه أن يختار بين أن يعمل هذا ، أو لا يعمل شيئاً . ويبدو أن الوهرانيين قد اختاروا لأنفسهم مصيرهم . فأمام

هذا الخليج الساكن المتقن ، ولسنوات مقبلة عديدة ، سيكدسون أكواماً من الحصى طوال الشاطئ . وبعد مائة عام ، أى غدا ، ينبغى استئناف ذلك كله . أما الآن فهذه الأكداس من الصخور تشهد للرجال الذين يجولون وسطها وقد علا وجههم قناع من التراب والعرق . فبانى وهران الحقيقية وآثارها إنما هى أحجارها .

صخر أرباله

يذكرنى الوهرانيون بصديق فلوبير الذى ألقى وهو يحتضر نظرة أخيرة على هذه الأرض التى لا تستعاض وصاح : أغلقوا النافذة ، فقد بلغ المنظر من الروعة أقصاه لقد أغلقوا النافذة وأقاموا حول أنفسهم سوراً ، ورصدوا المنظر من حولهم بالعزائم والرقى . غير أن ليبواتفان توفى ، واستمرت بعده الأيام تتصل بالأيام . وكذلك الحال من وراء الأسوار الصفر التى تحيط بوهران . تمضى الأرض والبحر فى جوارها غير مكترثين . وقد أثار العالم فى الإنسان باستمراره فتنة متناقضة ؛ فهو يبعث فيه اليأس ويحيى فيه الابتهاج . لا يقول العالم للإنسان إلا شيئاً واحداً فيثير فيه الشوق ، ولكن لا يلبث أن يرده إلى الملل . وهو الفائز آخر الأمر لإلحاحه فى الإصرار ، وهو المصيب دائماً .

وعلى أبواب وهران نفسها تأخذ الطبيعة فى رفع صوتها . فمن ناحية كانا ستيل تمتد أرض بور بعيدة الأرجاء تغطيها آجام ينبعث منها عرف ذكى . والشمس والهواء لايتحدثان هنا إلا عن العزلة . وفوق وهران تجد جبل سانتا كروز والنجد وعدداً لا يحصى من مجارى السيل العميقة التى ترقى إليه . وهناك طرق ، كانت مطروقة فيما مضى ، تتعلق بجوانب التلال المشرفة على البحر .. فإذا كان شهر يناير اكتسى بعضها بالزهر الأبيض والذهبى فأصبحت طرقات بديعة طرزت بالصفرة والبياض . وقد قيل كل شئ عن جبل سانتا كروز . ولو أن لى أن أصفه ، لأغفلت ذكر المواكب المقدسة التى تصعّد فى التل القاسى فى الأعياد الكبرى ، ولذكرت ألوانا أخرى من الحج ، وهى ، زيارات فردية منعزلة تتخذ طريقها فى الصخر الأحمر ، وترتفع فوق الخليج الساكن فتقضى فى هذه الأماكن الجرداء ساعة مضيئة رائعة الكمال .

على أن لوهران صحاريها الرملية أيضاً . وهي شواطئ قفر على بعد نحو عشرين كيلو متراً من المدينة . وتلقاك صحارٍ أخرى غير هذه قبل الوصول إلى المدينة على مقربة من أبوابها ، ولـكنها ليست مهجورة إلا في الشتاء وفي الربيع . وهي حينئذ أنجاد مواجهة للبحر يغطيها زهر الأسفوديل . وتكثر فيها الفيلات الصغيرة العادية المبعثرة وسط الأزهار . ويزأر البحر شيئاً أسفل النجد ، غير أن الشمس ، والريح الخفيفة ، وبياض الأزهار ، وزرقة السماء التي تكون أخذت في الصفاء ، كل هذا يؤذن بمقدم الصيف ، فيرى الإنسان في خياله الشباب الذهبي الذي يغمر الشاطئ حينئذ ، والساعات الطوال التي تقضى على الرمل ، والعذوبة المفاجئة التي تحل في المساء . وفي كل عام ترى على هذه الشواطئ فوجاً جديدا من الفتيات كأنهن زهرات جديدة . وقد يلقى في روعك أنهن لا يَعِشْنَ إلا فصلاً واحدا . وإنما تخلفهن من قابل زهرات جديدة لم تكن في العام السابق إلا بنيّات صلاب الأجسام كأنهن براعيم الزهر . وفي الحادية عشرة من الصباح تنساب كل هذه الأجسام الفتية من النجد ، وتنهمر على الرمل كأنها موجة مختلفة الألوان .

فإذا مضيت في سيرك غير مبعد عن هذا المكان الذي يضطرب فيه مائتا ألف رجل كأنهم في دائرة مفرغة ، وجدت مناظر طبيعية عذراء ، وكثباناً جرداً عراضاً لا أثر فيها للإنسان ما عدا كوخاً متهدماً . وبين حين وحين تجد راعياً أعرابيًا يدفع إلى قمم التلال البقع الحمراء والصفراء التي يتألف منها قطيعه من الماعز . على هـذه السواحل الوهرانية يبدو كل صباح من أيام الصيف كأنه أول صباح في العالم . ويبدو كل أصيل كأنه آخر أصيل فيه ، كأنه الاحتفال الرسمي بنهاية العالم ، يُنبئ بهذه النهاية عند غروب الشمس ضوء أخير يقتّم كل الألوان : فالبحر مسرف في زرقته ، والطريق اتخذت لون الدم المتجمد ، والشاطئ أصفر ، وكل شيء يختفي مع الشمس الخضراء . وما هي إلا ساعة حتى تسيل التلال بضوء القمر . وهي حينئذ ليال مسرفة في الروعة ، تمطر وابلا من النجم ، وتتخللها زوابع في بعض الأحيـان ، فيجرى البرق متصفحا التلال ، ويشيع على السماء لوناً شاحباً ، ويفيض على الرمال وفي الأعين ضوءاً برتقالى اللون . على أن هـذا الشعور لا يمكن المشاركة فيه . فلا بد أن تحسه بنفسك . وكل هذه العزلة وهـذه العظمة تكسب تلك الأماكن مظهراً

لا ينسى . وفى مبدأ الفجر الدافئ حين تمر الموجات الأولى التى ما تزال سوداء مُرَّة ترى كائناً جديداً ينفذ من ماء الليل الصفيق . إنى لأذكر هـذه المتع فلا آسى عليها ، إنما أعترف أنها كانت حلوة عذبة . والآن وقد انقضت سنوات عدة لا تزال ذكرياتها باقية فى ناحية من نواحى هـذا القلب الذى يصعب عليه مع ذلك الوفاء والاحتفاظ بالذكرى . وإن عدت اليوم إلى تلك الكثبان الجرداء فأنا أعلم أن السماء ذاتها ستمضى فى إلقاء ما تحمل من رياح ونجوم .

هذه أرض البراءة .

غير أن البراءة تعوزها الرمال والأحجار . وقد نسى الإنسان كيف يعيش . هذا على الأقل ما يبدو عليه وقد انزوى فى هذه المدينة العجيبة التى استقر بها الملك . على أن هذا التقابل هو الذى يكسب وهران قيمتها : فهى عاصمة الملك ، تحاصرها البراءة والجمال . والجيش الذى يحاصرها له من الجند بقدر ما له من الأحجار . ومع ذلك فقد تمرّ بك فى المدينة ساعات يشتد فيها الميل إلى الاستسلام للعدو ! فما أشد هـذه الرغبة فى الانسجام مع الأحجار ، فى الإنسجام مع ذلك العالم المتوقد الجامد الذى يتحدى التاريخ واضطراباته ! وهذه الرغبة بالطبع لا غناء فيها . ولكن فى كل إنسان غريزة عميقة ليست غريزة الهدم ولا هى غريزة الإنشاء ، إنما هى الرغبة فى ألاّ يشبه شيئاً [1] . وقد تسمع أحياناً هذه الدعوة وأنت تسير فى شوارع وهران المتربة وفى ظل جدرانها الساخنة . ويخيل إليك حيناً أن المستجيبين لهذه الدعوة لن يخسروا شيئاً ؛ فهى ظلمات أوريديس ، وهى نوم إيزيس . وهـذه هى الصحارى التى يرتد الفكر فيها إلى نفسه : وهذه يد المساء الرطبة قد وضعت على القلب المضطرب . وعلى جبل الزيتون هذا لا حاجة إلى اليقظة ؛ فإن الفكر يدرك الرسل النائمين ويستصوب نومهم . أكانوا مخطئين حقا ؟ ومع ذلك فقـد نزل عليهم الوحى .

---

(١) وأنا أتحدث هنا عن رغبة معينة لأنى أعتقد أنها من النوع الذى يجب أن يكون الإنسان قد تلقاه . فيستطيع بعد ذلك أن يحسن التقدير فى ما يساويه العمل وما لا يساويه .

ولنذكر كاكيامونى وهو فى الصحراء . أقام بها دهراً طويلا جالساً القرفصاء ساكن الحركة وقد اتجه نظره نحو السماء . وكان الآلهة أنفسهم يغبطونه على هذه الحكمة وعلى هذا المصير الذى يشبه مصير الحجارة . وقد اتخذت الطير من يديه المبسوطتين الجامدتين عشًا لها . ولكنها ذات يوم غادرت هذا المكان وطارت مستجيبة لنداء أرض نائية . وهذا الرجل الذى قتل فى نفسه كل رغبة وكل إرادة ، ومحا كل فخر وكل ألم ، أخذ يبكى . وهكذا قد ينبت بعض الزهر فى الصخر نفسه .

نعم لنستجب للحجر حين تدعو إلى ذلك الضرورة ! فهذا السر وهذا الابتهاج اللذان نتطلبهما فى الأوجه الإنسانية ، يستطيع هو أيضاً أن يمنحنا إياهما . لا شك أن ذلك لا يمكن أن يدوم . ولكن ما الذى يمكن أن يدوم ؟ فإن سر الوجوه يستخفى هو أيضاً ، وها نحن أولاء نندفع من جديد فى حلقة الشهوات . وإذا لم يكن فى وسع الحجر أن يرضينا أكثر من قلب الإنسان ، فإن فى وسعه على الأقل أن يرضينا بقدر ما يرضينا قلب الإنسان .

« ألا نكون شيئاً ! » لقد أثارت هذه الصيحة شعباً كاملا آلافاً من السنين . وقد تخلل صداها ثنايا الأجيال والبحار حتى وصل إلى هنا ، إلى أقدم بحار العالم لبموت . وهو لا يزال يرتطم فى صوت أصم على صخور وهران السميكة . وكل إنسان فى هذا البلد يستجيب له دون أن يدرى . ولا ريب أن كل ذلك عديم الجدوى . فلا سبيل إلى إدراك العدم ، كما لا سبيل إلى إدراك المطلق . ولكن مادمنا نتلقى من الأبد هذا الدعاء الذى يحمله إلينا ورد الطبيعة وألم الإنسان على أنه نعمة ، فلنستجب لهذا الدعاء إلى النوم الذى تحمله الأرض أحياناً . فليس هو أقل صواباً من ذاك .

وقد يكون هذا خيط أريان الذى يهدى إلى سواء السبيل فى تلك المدينة الصاخبة اليقظة فى نومها . تتعلم فيها مزايا بعض السأم ، وكلها مزايا مؤقتة . وإذا أردت أن تتقى هذا السأم فعليك أن تقول للمينوتور : « نعم » . وهذه حكمة قديمة خصبة . وإذا أشرفت من فوق الصخور على البحر الهادئ المطمئن ، ووقفت فى توازن معتدل على مسافة متساوية بين الرأسين الضخمين الغاطسين فى الماء الصافى عن يمين وعن يسار ، ففى خلال اللهث المتقطع الصادر من زورق خفر السواحل الذى يزحف فى عرض البحر ويغمره ضوء ساطع ، تستطيع أن تسمع فى وضوح

النـداء الخافت للقوى الوضاءة الخارقة للطبيعة . وهذا وداع المينوتور .

لقد انتصف النهار ، واليوم نفسه فى الميزان . وإذا فرغ المسافر من أداء الطقوس تلقى ثمن إنقاذه ، وهو هذا الحجر الصغير الذى يلتقطه على الصخرة يابساً ناعماً كأنه زهر الأسفوديل . وليس العالم بالقياس إلى الملم بهذه الأسرار بأثقل حملاً من هذا الحجر . فمهمة « أطلس » سهلة يسيرة ، ويكفى أن يختار لها الساعة الملائمة حينئذ . وأنت على هذه الشواطىء تشعر أنك تستطيع أن تنقطع للحرية ساعة أو شهراً أو سنة . فهى تستقبل كل شخص دون تمييز ودون النظر إليه ، تستقبل الراهب والموظف والغازى . وكنت أتوقع فى بعض الأيام أن ألقى فى شوارع وهران ديكارت أو سيزار بورجيا . لم يتح لى ذلك . وقد يكون غيرى أسعد حظًّا منى . وفيما مضى كان القيام بعمل جليل أو تحقيق مهمة كبيرة أو التفكير العميق ، يقتضى عزلة الصحراء أو الدير . هنالك كان الفكر يقظاً حريصاً . وهل من مكان يلائم يقظة الفكر وحرصه خير من عزلة مدينة كبيرة قد استقرت استقراراً أبديًّا فى الجمال الذى لا فكر فيه ؟

وهذا هو الحجر الصغير الناعم مثل زهر الأسفوديل ، وهو فى مبدأ كل شئ . فالزهر والبكاء (إن حرص الإنسان عليه) والرحيل والنزاع ، كل ذلك يرجأ إلى غد . وفى وسط النهار حين تفتح السماء ينابيع الضوء فى الفضاء العظيم الرنان ، تبدو جميع رؤس الساحل كأنها اسطول صغير يوشك أن يقلع . وهذه المراكب المثقلة بالحجارة والضوء ترجف فوق قواعدها كأنها تتأهب للسير إلى جزر تغمرها الشمس . أين مِـنِّى إصباح وهران ! ومن أعلى النجد يغوص الطير فى خوابٍ ضخمة يزبد فيها الهواء . والشاطئ كله متأهب للرحيل تجرى فيه قشعريرة المخاطرة . غداً ، قد نسافر معاً .

ألبير كامو

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته

كيف ومتى
عرفت مصر كتاب الأمير لمكياڤللى

هذا المقال صدى للمقال القيم الذى كتبه الأستاذ حسن محمود فى عدد أغسطس من مجلة «الكاتب المصرى» ، وعنوانه «عود إلى مكياڤللى وأميره» ؛ فقد ذكر الأستاذ أن كتاب الأمير « اشتهر فى جميع أنحاء العالم ، وصار الأساس لعلم السياسة . وهو كتاب عجيب فى آرائه وأغراضه وتأثيره ؛ إذ لو استعرضنا أعمال الحكام من عصر مكياڤللى حتى الآن — ولا نقصد الأمراء بالذات ، بل نقصد الهيئة الحاكمة المسئولة ، فالأمراء فى العصور الحديثة لا يحكمون — لوجدنا أن الدول لم تخرج فى توطيد سلطانها ومعاملاتها بوجه عام عما جاء فى الكتاب ؛ فهى لا تزال تسير على مبادئه ، تلك المبادئ السياسية التى فصل فصلا تاما بينها وبين الأخلاق ، فجلبت لصاحبها السمعة الشنيعة . »

وهذا قول قد يدفع القارئ المصرى إلى التساؤل : هل عرفت مصر هذا الكتاب ؟ ومتى عرفته ؟ وإلى أى حد تأثر به عارفوه أو الحكومات المصرية المختلفة ؟

وقد سبق لى أن بحثت هذا الموضوع بنواحيه المختلفة فى كتابى الذى لم يطبع بعد عن : « تاريخ الترجمة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر » ، غير أن إعجابى بمقال الأستاذ حسن محمود دفعنى إلى أن أوجز لقراء مجلة الكاتب ما فصلته فى بحثى السابق الذكر إلى أن تتاح له فرصة النشر .

ألف مكياڤللى Machiavelli كتابه « الأمير » Il Principe فى نهاية القرن السادس عشر وقت أن كانت مصر خاضعة للحكم العثمانى ، وحين كانت الصلات بينها وبين دول أوربا منقطعة مبتوتة .

وقد ظلت مصر فى سبات عميق وعزلة عن العالم الأوربى قرابة ثلاثة قرون — أى طوال العهد العثمانى — ثم بدأت تخرج من هذه العزلة ، وتصحو

من هذا السبات نتيجة لنزول الفرنسيين بأرضها . وقد هزتها الحملة الفرنسية هزة عنيفة جعلتها تقضى بعض الوقت حتى تتعرف ما حولها ، وحتى تستعيد ماضيها الذى نسيته — أو كادت تنساه — وحتى تستبين هذا الناس الجديد الذى وفد إلى أرضها غازيا ، وحتى تستشف مِنْ بُعْد هذا العالم الأوربى الذى انقطعت الصلات بينها وبينه منذ أمد بعيد ؛ شأنها فى ذلك شأن النائم المستغرق فى نومه توقظه — فجأة — هزة أرضية ، أو غارة جوية ، أو صدمة قوية ؛ أو شأنها فى ذلك شأن أهل الكهف الذين لبثوا فى كهفهم « ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا » ، أما مصر فقد لبثت فى كهفها تحت الحكم العثمانى ثلثمائة سنين تنقص تسعتين (١٥١٧ — ١٧٩٨) .

وبينا هى تستبين هذا كله كان القدر قد هيأ الظروف لكى يتولى عرشها الرجل المصلح محمد على الكبير .

وقد آمن محمد على منذ اللحظة الأولى أن سر تقدم الدول الأوربية وتفوقها إنما هو نهضتها العلمية الممتازة وعلومها الجديدة ، فبذل الجهود الجبارة لنقل هذه العلوم الأوربية إلى مصر ، فأوفد البعوث العلمية إلى أوربا ، وفتح فى مصر المدارس الحديثة ، واستدعى إليها العلماء من مختلف البلدان الأوربية ؛ غير أن وسيلته الناجحة كانت الترجمة : ترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغتين العربية والتركية .

وقد عرفت مصر كتاب « الأمير » — أول ما عرفته — فى ذلك العصر ، بل لقد كان كتاب « الأمير » ثانى أو ثالث كتاب ترجم إلى اللغة العربية فى عصر محمد على . قام بترجمته مترجم سورى هو الأب أنطون رفائيل زاخور راهبة .

وحديثنا عن هذه الترجمة يقتضى أن نقدم له أولاً بتعريف مجمل بالمترجم وذكر موجز سريع لحياته وجهوده .

كانت أسرة الأب رفائيل من طائفة الروم الكاثوليك الملكانيين ، وقد رحلت عن حلب إلى مصر فى أوائل القرن الثامن عشر . وفى القاهرة وُلد رفائيل فى ٧ مارس سنة ١٧٥٩ ، وفيها أيضا تلقى علومه الدينية الأولى ودرس اللغة العربية على آباء طائفته .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره سافر إلى إيطاليا ليتم علومه

الدينية فى روما[1] وهناك التحق بمدرسة سانت أتاناز الأكليركية Séminaire de Saint-Athanase حيث بقى بها ٥ سنوات أتم فى خلالها دراساته الدينية ، ثم مكث سنتين اخريين فى إحدى الجامعات لدراسة اللغات ، وخاصة اللغة الإيطالية .

وفى سنة ١٧٨١ ، وعند ما أتم رفائيل الثانية والعشرين من عمره غادر روما وعاد إلى صيدا — مركز الطائفة البازيلية — فالتحق بدير المخلص ، وهناك اشتغل بترجمة بعض الكتب الدينية والوثائق المحفوظة فى مكتبة الدير ، وظل يرتقى فى المناصب الدينية فعين شماسا فى سنة ١٧٨٢ ، ثم قسيسا فى سنة ١٧٨٥ ، ثم ارتحل بعد ذلك إلى روما فى سفارة دينية قام فى أثنائها بترجمة كثير من وثائق هذه السفارة عن العربية إلى الإيطالية ، وعن الإيطالية إلى العربية .

وبانتهاء هذه السفارة عاد رفائيل إلى مصر واستقر بها حتى وصلت الحملة الفرنسية ، فكانت أعمالها ميدانا طيبا لإشباع طموحه وتحقيق آماله العريضة .

وفى ٣ فروكتيدور من السنة السادسة (٢٠ أغسطس ١٧٩٨ — ٨ ربيع الاول ١٢١٣) صدرت اللائحة بتكوين المجمع المصرى l'Institut d'Egypte وكانت المادة ٢٠ من هذه اللائحة تقول بأنه « سيكون هناك مترجم عربى يتقاضى مرتبا خاصا ، ومن الممكن أن يكون عضوا بالمجمع . » Il y aura un interprète arabe, qui aura un traitement particulier et qui pourra être membre de l'Institut.

واختير انطون رفائيل زاخور راهبة ليكون هذا المترجم ، ونصب عضوا فى لجنة الآداب والفنون الجميلة بالمجمع ، وبهذا كان رفائيل العضو الشرقى الوحيد ، أما بقية أعضاء المجمع فقد كانوا من علماء الحملة الفرنسيين .

وقد قام رفائيل ـ أثناء عضويته بالمجمع ـ بترجمة كثير من القوانين والأوامر الفرنسية الجديدة ، كما شارك فى بعض الأبحاث العلمية التى قام بها المجمع .

---

(١) أنظر عن حياته الدينية : قسطنطين الباشا ، ترجمة الاب روفائيل زخور ، المجلة البطريركية ، السنتان السابعة والثامنة (١٩٣٢) ، ص ٤٨٦ — ٤٨٨ ، ٥٦١ — ٥٦٤ ؛ ونفس الكاتب ، وصف قنداق قداس يونانى قديم ، المسرة ، السنة ١٩ ، ج ٣ ، ١٩٣٣ ص ١٥٩ — ١٦١ ؛ Bachatly, «Un Membre Oriental du Premier Institut d'Egypte», *Bull. Inst. D'Egypte*, t. XVII 1934-1935, p. 237-260.

وبعد سفر نابليون إلى فرنسا انتقلت قيادة الحملة إلى كليبر . وفى ٢٥ نوفبر سنة ١٧٩٩ (٢٧ جمادى الآخرة ١٢٤١) أصدر القائد الجديد أمراً بتكوين لجنة لجمع المعلومات عن مصر [١] : Commission des renseignements sur l'Egypte.

وقد ذكر رفائيل فى مخطوطة له يملكها صديقنا الأستاذ بشاتلى أن هذه اللجنة كانت تتكون منه — أى من رفائيل — ومن سبعة أعضاء آخرين . وفى هذه المخطوطة أيضاً صورة لخطاب [٢] أرسله رفائيل للشيخ السادات يشكره فيه على حسن استقباله لتابعه ، ويطلب منه — كعضو فى اللجنة — أن يزوده بالمعلومات الوافية الشافية عن أسرته .

وإبان قيام رفائيل بهذا العمل قتل كليبر فى ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ (٢١ المحرم ١٢١٥) فانتقلت مقاليد الأمور والقيادة إلى الجنرال مينو ؛ وأصدر مينو أمره فأعيد تكوين الديوان فى صورة جديدة : من تسعة من المشايخ المسلمين ، ويشترك معهم فورييه — السكرتير الدائم للمجمع — بلقب قوميسيير (كثارى أو مدبر سياسة الأحكام الشرعية) — كما يسميه الجبرتى — ؛ وظفر رفائيل طفرة جديدة فنصب ترجمانا كبيرا للديوان الجديد ؛ وتمكنت الصداقة فى هذا العهد بين رفائيل والقوميسيير فورييه ، فكانا يسكنان معاً فى بيت رشوان بك بعابدين حيث كانت تعقد جلسات الديوان . وظل رفائيل على نشاطه المعهود يقوم بترجمة الرسائل والمراسيم والفرمانات ، ويقرؤها بنفسه على أعضاء الديوان [٣] . غير أن اشتغال رفائيل بالترجمة الرسمية فى العهد الأخير لم يشغله تماماً عن الترجمة العلمية ؛ فقد قام فى شعبان سنة ١٢١٤ (يناير سنة ١٨٠٠) بترجمة رسالة طبية صغيرة ألفها ديجينت Desgenettes كبير أطباء الحملة عن مرض الجدرى وطرق علاجه ؛ وقد طبعت هذه الرسالة

---

(١) انظر صورة هذا الأمر فى خطاب وجهه كليبر إلى رئيس هذه اللجنة فى :
Le Comte Pajal, *Kléber, sa vie, sa correspondance*, Paris 1877, p. 392
Rigault: *Le Général Abdallah Menon et la dernière phase de l'expédition d'Egypte*, Paris 1802, p. 125-126.

(٢) Bachatly, *Op. Cit.*, p. 247 et *Un manuscrit inédit de Don Raphaël*, p. 30.

(٣) انظر بعض جهوده فى هذه الناحية فى : الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ، ١٨٨ — ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٥ .

مرتين فى مطبعة الحملة ، وكان عنوان الطبعة الأولى : « هذا تنبيه فيما يخص داء الجدرى المتسلط الآن ، وذلك بشرح موجه إلى أرباب الديوان بمصر القاهرة من قبل البلدى دجنخط رئيس الأطبا فى الجيش الفرنساوى بجهة الشرق — بمصر القاهرة ، بدار المطبعة الجمهور الفرنساوية (كذا) فى يوم ٢٠ من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية » وبالفرنسية :

« **Avis sur la petite vérole régnante, adressée au Divan du Kaire, par le C^en Desgenettes, Premier médecin de l'Armée d'Orient; Au Kaire, de l'Imprimerie Nationale, le 27 nivôse an VIII.** »

وقد ذكر ديچينت أنه أهـــدى ٧٥٠ نسخة من رسالته إلى الديوان و ٥٠ نسخة أخرى للست نفيسة المرادية ، وأيد هذه الرواية الجبرتى فقال فى حوادث شعبان سنة ١٢١٥ : « وفيه أرسل رئيس الأطباء الفرنساوى نسخا من رسالة ألفها فى علاج الجدرى لأرباب الديوان ، لكل واحد منهم نسخة على سبيل المحبة والهدية ليتناقلها الناس ، ويستعملوا ما أشار إليه فيها من العلاجات لهذا الداء العضال ، فقبلوا ذلك منه ، وأرسلوا له جوابا شكراً له على ذلك ... » ولا شك أن الجبرتى نال نسخة منها — فقد كان عضواً فى الديوان — وأنه قرأها ، فقد قال معقباً على هذا الحادث : « وهى رسالة لا بأس بها فى بابها » .

وفى سنة ١٨٠١ جلت الحملة الفرنسية عن مصر ، غير أن الأب رفائيل لم يرحل معها كما رحل غيره من السوريين ، بل بقى فى مصر نحو سنتين أخريين اشتغل فى أثنائهما سكرتيراً لرئيس طائفته الدينية الأب باسيليوس عطا الله .

كان رفائيل ذا نفس طموح وآمال عريضة ، وقد ارتقى فى عهد الحملة الفرنسية مكانا عليا فى مصر ، فكان من رجال العلم والحكم والدولة ، وعرف شخصيات فذة كنابليون وديزيه وكليبر ومينو . . . الخ ممن اشتركوا فى صنع تاريخ مصر فى مفتتح القرن التاسع عشر ، وقد كان فى تلك الفترة دائم العمل دائب النشاط والإنتاج . فهل يقنع بأن يقبع فى مركزه الدينى الجديد المحدود الآفاق ؟ لم ترض نفس رفائيل بهذا الركود بعد الحركة ؛ ولم يكن فى ظروف الحكومة الجديدة بعد أن عادت مصر إلى حكم العثمانيين مجال لإظهار نشاطه السياسى أو العلمى ، فولى رفائيل وجهه شطر فرنسا من جديد ، وأرسل فى مدى هاتين السنتين خطابين إلى صديقه القديم نابليون بونابرت ؛ ثم وجد أن سياسة

الخطابات غير مجدية فقرر أن يرتحل إلى فرنسا ، فسافر إليها فى سنة ١٨٠٣ حيث قابل نابليون ووزير خارجيته تاليران [١] .

وفى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٠٣ صدر أمر نابليون — القنصل الاول — بتعيين رفائيل أستاذاً للغة العربية العامية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس على أن يُعهد إليه « بتدريس اللغة العامية ، وترجمة المخطوطات العربية الموجودة فى المكتبة والخاصة بالأدب والتاريخ المصرى » . وقد نشط رفائيل أثناء وجوده فى باريس فألف كتباً عربية كثيرة [٢] .

وفى سنة ١٨١٥ هزم نابليون فى وقعة ووترلو ونفى إلى جزيرة سانت هيلانة ، ففقد رفائيل صديقه وراعيه وحاميه ، وبدأ يناله ما نال معظم مؤيدى الإمبراطورية السابقة من نقمة واضطهاد ؛ فقد قررت الحكومة الجديدة تخفيض مرتبه ، ولم يرض رفائيل عن هذا الوضع الجديد ، فقدم استقالته فى أبريل سنة ١٨١٦ وقرر العودة إلى مصر .

عاد رفائيل إلى مصر فى سنة ١٨١٦ ، واتصل بمحمد على الذى كان يمهد السبيل حينذاك لنقل علوم الغرب إلى اللغة العربية ، وكان قد أرسل بعثاته الأولى إلى إيطاليا للتخصص فى فن الطباعة . وإذ كانت اللغة الإيطالية هى لغة المراسلات الدبلوماسية وأكثر اللغات الأوربية انتشاراً وقتذاك فى مصر ، فقد كلف محمد على الأب رفائيل أن يضع قاموساً للغتين العربية والإيطالية .

وفى سنة ١٨٢٠ مر بمصر الرحالة الإيطالى بروكى Brocchi ، وفى ٥ ديسمبر سنة ١٨٢٢ زار مدرسة بولاق ، وروى أنه رأى بين هيئة المدرسين بها ثلاثة من رجال الدين المسيحيين [٣] هم : دون كارلو بيلوتى — من كالابريا — والأب سكاليوتى — من بيدمنت — ودون رفائيل — ويقوم بتدريس اللغة العربية .

وبعد ستة أيام — أى فى ١١ ديسمبر — زار بروكى مطبعة بولاق ، وأشار إلى الكتب الأولى التى كانت تحت الطبع ، ومنها : « قاموس طليانى وعربى

---

(١) فصلنا الحديث عن خطابات رفائيل ورحلته إلى فرنسا ومقابلاته لرجالاتها فى بحثنا السابق الذكر عن تاريخ الترجمة فى النصف الأول من القرن ١٩ .

(٢) أنظر مقدمة القاموس .

(٣) Brocchi, *Giornale delle osservazioni fatte ne'viaggi in Egitto,* ecc. t. I. p. 173.

Dizionario Italiano-Arabo وقد تم طبعه فى نفس السنة ١٢٣٨ (١٨٢٢).

وفى السنة التالية (١٨٢٣) طبع الكتاب الثانى لرفائيل وهو ترجمة عربية لرسالة فرنسية من تأليف ماكير Macquer عن صباغة الحرير ، وعنوانها باللغة الفرنسية : *L'art de la teinture en soie.* وباللغة العربية « كتاب فى صناعة صباغة الحرير » ، وبهذا يعتبر رفائيل صاحب السبق فى ميدان الترجمة فى تاريخ مصر الحديث ، فهو صاحب أول كتاب ترجم عن الفرنسية إلى العربية وطبع فى مطبعة الحملة وفى عهدها — وهو رسالة ديچينت عن مرض الجدري — وهو أيضاً صاحب أول كتاب ترجم عن الفرنسية إلى العربية وطبع فى مطبعة بولاق فى عهد محمد على .

وضع رفائيل هذا القاموس وترجم هذا الكتاب تنفيذاً لأمر محمد على مما يرجح أن الصلة كانت قوية بين الرجلين ؛ ولم يكن محمد على سليل بيت مالك ، بل إنه سعى حتى فاز بهذا العرش فوزاً ، ولقد كان له من فطرته السليمة وعبقريته الفذة ما دفعه إلى البحث والدرس ، وخاصة كل ما يتعلق بنظم الحكم والإدارة ومنها السياسة ، ولهذا كان دائم الصلة بكل من فى مصر من دبلوماسيين أوروبيين ، وبكل من يفد عليها مرتحلا أو زائراً ، وكان فى اجتماعه معهم دائم السؤال عن أحوال بلادهم السياسية والعلمية ، وعن نظم حكوماتهم ، وعن أهم الكتب وأحسنها ، وقد نصحه ناصح من هؤلاء فى تلك الفترة (حوالى سنة ١٨٢٠) — وإن كانت المراجع لا تذكر من هو[1] — بقراءة كتاب « الأمير » لمكيافللى .

بادر محمد على فكلف رفائيل بترجمة هذا الكتاب ، فترجمه إلى اللغة العربية (حوالى ١٢٣٩ — ١٢٤٠ = ١٨٢٤ — ١٨٢٥) .

أشار بروكى — فى غموض — إلى ترجمة هذا الكتاب ، ثم أشار إلى هذه الترجمة فى وضوح وإيضاح لا باس بهما جويسي أشربى

---

(١) انفرد مرجع واحد ، وهو الرحالة الانجليزى سانت جون الذى زار مصر حوالى سنة ١٨٣٠ — فذكر أن سولت Salt قنصل انجلترا فى مصر هو الذى أعد الترجمة التركية لهذا الكتاب وأهداها إلى محمد على ليطلع عليها ويفيد منها فى سياسته . غير أننى لم أعثر على مايؤيد هذه الرواية فى أى مرجع آخر ؛ انظر :
Egypt and Mehemed 'Ali, by St. John. V. 2, p. 453-454.

Giuseppe Acerbi (1773-1846) قنصل النمسا فى مصر فى عهد محمد على ، فى رسالة منه إلى السنيور چيروفى أمين المكتبة الإمبراطورية فى ميلانو ؛ وقد ذكر أشربى فى هذه الرسالة أنه تحدث مع الباشا فى إحدى مقابلاته عن الكتب والأدب ، وقد دهش عندما أخبره محمد على أنه أمر بترجمة كتاب «الأمير » لمكيافللى إلى اللغة التركية ، وأنه جد مشوق إلى معرفة مايتضمنه هذا الكتاب الذى سمع عنه ثناء جما من أحد الأوربيين .

وذكر أشربى بعد ذلك أن محمد على تحدث إليه عن هذا الكتاب فى مقابلة أخرى — وكان ذلك فى سنة ١٨٢٨ أى بعد ترجمة الكتاب بنحو أربع سنوات — فقال له ما ملخصه : « إنكم تثيرون فى إيطاليا ضجة كبيرة حول كاتبكم المعروف مكيافللى ، وقد أمرت بترجمة كتابه إلى التركية لكى أعرف ما فيه ، ولكننى أعترف بأننى قد وجدته أقل بكثير مما كنت أتوقع ومن الشهرة التى له .

«وإنى أعلن إليك أيضاً أن هناك مؤلفاً عربيا آخر أثار دهشتى ونال إعجابى بعد أن أمرت فترجم إلى اللغة التركية — هو مقدمة ابن خلدون — ؛ إن هذا الكاتب أكثر حرية فى تفكيره من مكيافللى ، بل إننى أعتقد أن كتابه أكثر وأشد نفعاً . وإذا كان كتاب مكيافللى ممنوع تداوله فى بعض البلاد الأوربية ، أفما كان من الأجدر أن يكون المنع أتم وأعم بالنسبة لمقدمة ابن خلدون (١) ؟»

ولا يمكننا أن نمر بهذا الحديث دون أن نشير إلى دلالاته المختلفة ، وأولها وأهمها هذه القدرة العجيبة من شخص كمحمد على — ظل أميًّا حتى سن متأخرة جدا — على تفهم كتابين من أعظم ماخلفته الثقافة الإنسانية فى الغرب والشرق ثم المقارنة بينهما وتفضيل أحدهما على الآخر .

بقى أن نشير إلى ما ورد فى حديث محمد على لأشربى من أنه أمر بأن يترجم الكتاب إلى التركية مع أن الترجمة التى وصلتنا ترجمة عربية . ويمكن تفسير هذا التعارض بأن رفائيل الذى كلف بترجمة الكتاب لم يكن يعرف اللغة التركية فترجمه إلى العربية ، وإذ كان محمد على لا يتقن العربية ولغته الأصلية هى التركية

---

(١) *Lettera del Signor Const. Acerbi, console generale di S.M.I.R.A. in Egitto al Signor Girovi, Bibliotecario della Bibl. Imp. di Brera in Milano.* Biblioteca Italiana, tomo LXI, Milano, 1831, p. 289-298.

فمن الممكن أن نفرض أن هذه الترجمة العربية ترجمت ثانية إلى التركية[1] ، إما كتابة وإما شفاهاً ليتمكن محمد على من فهم ما جاء بها . ويؤكد هذا الظن أمر محمد على فيما بعد بترجمة رحلة رفاعة الطهطاوى إلى باريس عن العربيـة إلى التركية ليطلع عليها هو ورجال دولته ممن يجيدون التركية دون العربية .

ومخطوطة الترجمة العربية كانت موقوفة على مكتبة مسجد سيدنا الحسين ، ثم نقلت منهـا إلى دار الـكتب المصرية حيث لا تزال محفوظة تحت رقم ٤٣٥ تاريخ وعنوانها : « المجلد الرابع من مصنفات نيقلاوس فى التواريخ ، وفى علم حسن التدبير فى الأحكام »[2] ؛ وطول المخطوطة ٢١,٥ سم ، وعرضها ١٦ سم ، وهى مكتوبة بالخط النسخى الجميل ، وتتكون من ٨٢ ورقة ، وفى كل صفحة ٢٠ سطراً .

والصفحات من ١ ا إلى ٢ ب تحتوى على مقدمة موجزة بقلم المترجم ، تبدأ بقوله : « نبتدئ بعون الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، الحمد لله الذى على مشيئته وتدبيره تنعقد سلاسل الحوادث والأخبار ، ومن فيض أحكامه ونجد (كذا) تقديره يجرى مجرى ما وقع فى الدهور والأعصـار . » ، ثم يلى ذلك مدح لمحمد على ، وأنه قد أمره بترجمة هذا الـكتاب الذى ألفه المعلم مكياڤلى ليفيد منه القائمون بالوظائف الإدارية ، وأنه ترجمه ترجمة دقيقة ليكون واضحاً سهلا لمن يقرؤه ، وأنه بذل فى ذلك عناء وعناية لأن تراكيب الـكتاب قديمة ، وأفـكاره صعبة ، فقد ألف فى سنة ١٦٠٠ م .

والـكتاب غير تام الترجمة[3] ، ويتكون من ٢٣ فصـلا ، وترجمة رفائيل

---

(1) Maria Nallino, «Interno Due Traduzioni Arabe del Principe del Machiavelli», *Oriente Moderno*, 1931, p. 605.

(2) ذكر هـذا الـكتاب فى الجزء الخامس من فهرس دار الـكتب المصرية بالقاهرة ، ص ٣٩ تحت هذا العنوان : « الأمير فى علم التاريخ والسياسـة والتدبير تأليف نيقالاوس ماكيافلى الايطالى » .

(3) آخر جملة وردت فى الـكتاب هى : « فانهم لسائدون إذا توافقوا مع الأوقات والأحوال ، ولتعسون إذا وقع ... » وقد ذكرت Maria Nallino, *Op. Cit.*, p. 608 أن هذه الجملة يقابلها فى النص الايطالى ما يلى :

«Concludendo adunque, che, variando la fortuna e stando gli uomini ne' loro modi ostinati, sono felici mentre concordano insieme e, come discordano infelici.»

وهذه إحدى فقرات الفصل الخامس والعشرين من الأصل ، واستنتجت من هذا ان الذى لم يترجم هو بقية هذا الفصل والفصل السادس والعشرون وهو الأخير .

لهذا الكتاب — كترجماته الأخرى — ضعيفة ركيكة الأسلوب صعبة الفهم .

وتقول الآنسة ماريا نللينو[1] إن مشروع طبع هذا الكتاب لم يُنفذ ، ولعل ذلك راجع إلى رأى محمد على الذى لم يقدر محتويات كتاب مكيافللى ، أو لعل ترجمة رفائيل بدت أمام مصححى مطبعة بولاق من شيوخ الأزهر ركيكة الأسلوب ضعيفة العربية ، بل غامضة غير واضحة المعنى فى مواضع كثيرة منها[2] .

هذه هى الترجمة الأولى لكتاب « الأمير » عرفتها مصر فى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وقد ترجمت تنفيذاً لأمر أميرها محمد على ليطلع هو عليها وليفيد منها القائمون بالوظائف الإدارية — كما ذكر رفائيل فى مقدمته .

وفى مفتتح القرن العشرين عرفت مصر الترجمة الثانية لهذا الكتاب ، قام بها الأستاذ محمد لطفى جمعة بك ، وقد طبعت فى سنة ١٩١٢ ، وأسلوب هذه الترجمة أكثر وضوحاً وأقرب إلى الفهم من أسلوب الترجمة الأولى .

هذا هو تاريخ كتاب « الأمير » فى مصر وفى اللغة العربية . أما إلى أى حد أفاد منه الحكام أو الحكومات أو الأفراد فى مصر أو فى الشرق العربى ، فهذا موضوع بحث آخر .

جمال الدين الشيال

---

(١) M. Nallino, *Op. Cit.*, p. 609.

(٢) تحدثت عن عيوب هذه الترجمة و نقدتها نقداً تفصيلياً فى بحثى السالف الذكر عن تاريخ الترجمة .

نشوة اليأس

[إلى الصفوح الهاجرة]

أرهقيني بالصدِّ، ما شئتِ يا « ميُّ » (م) وجوري على فؤادي المتيَّمْ
وتجنَّيْ ما شئتِ أن تتجنَّيْ واجعلي الهمَّ منكِ أنْ أتألَّمْ
أنا ممَّنْ يرى التألُّمَ نُعمى والعذابَ الممضَّ في الحبِّ بلسَمْ!
أرهقيني حتى اليآسةَ، ولْتُنْكأْ جراحي، حتى تُضرَّجَ بالدَّمْ!
فالجراحُ الحِرارُ ينكؤُها اليأسُ مَعينُ الشعرِ الرقيقِ المُنَمْنَمْ
إنما اليأسُ والتألُّمُ أسمى مِنَحِ اللهِ للمِفَنِّ[1] المُلْهَمْ!
والأسى للأديبِ وحيٌ، وبؤسُ العيْشِ للمُرْهَفَ الأحاسيسِ مغنَمْ!

إنه يا « ميُّ » ، يا قسيمةَ قلبي والهوى للقلوبِ رزقٌ مقسَّمْ
علّليني بالوعد، وبالوعدُ في السَّمْعِ لذيذٌ وفي الجوارحِ علقَمْ!
واحبسي كُتْبَكِ الرقيقةَ عنّي وادّعي الحبَّ والحنانَ المجسَّمْ!
واحرميني طيبَ اللقاءِ، وقولي: قدقضى الدهرُ - لا الهوى - أن تُحرَمْ!
وتواريْ وراءَ عُذْراكِ[2] يا « ميُّ » (م) وعُذْراكِ حجَّةٌ لا تفحَمْ
أرهقيني، وليَجْشُمِ الحزنُ في قلبي، فقلبي للحزنِ أفضلُ مَجْثَمْ!
ولْتَسُمْني الأقدارُ عسفاً، فليستْ منكِ أقسى، ولستِ منها بأرحَمْ!
حسبيَ اللهُ في بلائي، وحسبي رحمةُ الدمعِ في غرامكِ يُسْجَمْ!

---

(١) المفن هى اللفظة الفصيحة « للفنان » الشائعة خطأ على أقلام الكتاب.
(٢) العذرى : بالضم كالعذر والمعذرة والمعذار وهى الحجة يعتذر بها ، قال الشاعر :

لله درك إنى قد رميتهم إنى جذدت ولاعذرى لمجدود

ليس يرجو عطفَ الحياة شقيٌّ — عاشَ صِنْوَ العذابِ والبؤسِ والغمْ
شاعرٌ يدلفُ الخطى ، وهو نشوا — ن ولكن ... من خمرة اليأس والهمْ
إنَّ لليأسِ خمرةً ، ليس يدريـ — ها نظيري، إلا الكئيبُ المُسَدَّمْ (١)
خمرةً تُسكرُ الأديبَ وتُنْشيـ — هِ ، فتنشى الدُّنيا إذا ما تكلَّمْ !

أفعمي بالشجون قلبي أغنّيـ — كِ بشعرٍ بروعة الفنّ مُفْعَمْ !
إنَّ بينَ الآلام والفنِّ ما بيـ — نَ الشقيقينِ من عُرًى ليس تُفْصَمْ !
والأديب المفنُّ ما التاعَ إلا — سحَرَ الناسَ بالبيانِ المُلْهَمْ !
يَغْمُرُ الكونَ بالفنون أديبٌ — زَحَمَتْهُ الآلامُ فَرْدى (٢) وتوْأمْ
ويتيهُ الفنُّ الرفيعُ اختيالاً — حين يشقى الأديبُ أو حينَ يألمْ

فاغمري يا همومُ بالوحي روحي — وأذكْ يا حبُّ في الحشا وتضرَّمْ
فعزائي إن متُّ أنَّ قريضي — في هواها يُروى ، وشعري يُرنَّمْ !

[بيروت] — جورج ساسين

(١) المسدم : الحزين الذى لا يطيق ذهاباً ولا مجيئاً .
(٢) فردى وفرادى ، وفراد منوناً وغير منون أى واحداً بعد واحد .

الوجودية

[طلب إلينا غير واحد من المثقفين فى مصر والشرق العربى أن ننشر درسا مستفيضاً لهذه الفلسفة الجديدة التى يكثر الحديث عنها فى هذه الأيام .

ونحن ننشر هذه الدراسة المفصلة المتقنة ، وقد كتبها لنا شاب فرنسى من المتخصصين فى الفلسفة ، وهو يتهيأ الآن فى مدرسة المعلمين العليا بباريس لنيل إجازة الأجرجاسيون .

ونحب أن ننبه إلى أشياء ، أولها أن هذه الفلسفة الجديدة محببة إلى الشباب الفرنسيين ، فأردنا أن يكون صاحب هـذا البحث من هؤلاء الشباب أنفسهم فذلك يبين عن الفلسفة نفسها من جهة ، وعن نظر الشـبان إليها وتحمسهم لها من جهة أخرى .

الثانى أننا نعرض هـذا البحث الذى كتبه شاب يتهيأ للتعليم ليقرأه شبابنا الذين يتهيأون للتعليم ، وليروا مقدار ما يبذل زملاؤهم فى فرنسا من الجهد ، وما يتاح لهم من التوفيق . الثالث أن نشر هـذا البحث لا يدل بحال من الأحوال على أننا نقبل ما فيه من الآراء والنظريات كلها أو بعضها ، وإنما هو مذهب فى الفلسـفة أراد المثقفون الشرقيون أن يعرفوه ومن الحق عليهم أن يعرفوه ؛ فنحن لا نزيد على أن نيسر لهم سبيل هـذه المعرفة . الرابع أننا نشكر للدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة مدرس الفلسفة بكلية الآداب ما تفضل به من الجهد العنيف الذى بذله لنقل هـذا البحث إلى اللغة العربية .

فهذا الفضل مظهر من مظاهر ما يمتاز به الدكتور من العلم والدقة والتواضع والاخلاص .]

١ — « الجو » الوجودى

منذ تحررت فرنسا من الاحتلال الأجنبى قامت فيها فلسفة جديدة تتبوأ مكاناً بين المسيحية والماركسـية ، وهى بمثابة مذهب ثالث كبير فى الفكر وفى الحياة . وقد كشفت هذه الفلسفة بشعور واضح لماذا وجّه شعب بأسره ومن تلقاء نفسه مقاومته للعدو ، وهى قد أعلنت أن كل حادث كهذا الحادث يجب

أن يقع بفضل الحرّية الفردية ولأجل الحرية الفردية ، كما أنها أهابت بالعالم كله فى خارج فرنسا أن يواصل انتصاره بأن يحرر الإنسان تحريراً كاملا من سلطان العلم والأخلاق التقليدية والتاريخ ؛ هـذه الفلسفة الجديدة هى الوجودية .

ولم تكد هذه الفلسفة تقوم حتى انصبّت عليها الصواعق من الكنيسة ومن الحزب الشيوعى ؛ ذلك لأن هاتين القوتين الدكتاتوريتين لم تستطيعا احتمال ما تؤكده الفلسفة الوجودية من حرية تريان أنها لا مستند لها فى الكون أو فى مجتمع منظّم تنظيما قويًّا . بل إنّ مذهب الحرية القديم libéralisme نفسه ، بعد أن اتهمه الدكتاتوريون المحدثون بالنفاق ، أخذ يعلن وجوب الحياة السعيدة ، وضم صوته إلى نقاد الوجوديّة ، دون أن يفطن إلى أن نجاته ربما كانت فى أن يترك ما هو عليه من سوء الطوية ، وأن يتخذ الوجودية خلفاً لغيرها من المذاهب .

وأول ما يقوله خصوم الوجودية هو أنها مذهب الغموض والظلام obscurantisme ؛ والواقع أن الوجودية تقرر أن الكون لا يبالى بالإنسان ، وهى أيضاً لا تؤمن بأى قانون علمى ، كما أنها لا تهتم بالأشياء لكى لا تعنى إلا بحظ الإنسان ومصيره . أما الماركسية والمسيحية فإنهما كلتيهما تعتمدان على العلم ، هذا العلم الذى يبرهن لإحداهما على الضرورة المنطقية لقانون التطور التاريخى وعلى الانتصار الذى لا بد أن تفوز به طبقات العمال ، والذى يكشف للأخرى فى التطور البطىء من عالم المعادن إلى الإنسان خلال عالم النبات والحيوان عن الغاية التى يرمى إليها الفكر الإلهى ؛ (وهذه على الأقل هى نظرية پ . تيلهارد دى شاردان P. Teilhard de Chardin ، وهو عالم الحياة والفيلسوف شبه الرسمى للكاثوليكية الفرنسية) . ولهذا فان العلم ، وهو السلطة الرسمية فى القرن العشرين ، يسخط على مسلك الوجودية إزاءه ، فنجد نافيل Naville فى إحدى محاضراته يهاجم سارتر ، أشهر ممثلى الوجودية ، قائلا : « إن الحرية والمثالية اللتين تنادى بهما تتلخصان فى إهمال الأشياء إهمالا متعسّفاً ... وليس عالم الطبيعة ولا عالم الأحياء فى نظرك من ظروف الحياة الإنسانية ولا هو مصدر لتكييفها ... وهـذا رغم أن الإنسان فى الطبيعة وأنه خاضع لتأثير التاريخ ... إن ثم قوانين تسير عليها أفعال الإنسان ، كما أن ثم قوانين لكل

موضوع يدرسه العلم . » وكذلك نجد مونان Mounin يستشهد لإثبات صحة رأيه بعبارة قديمة قالها سبينوزا ، (وهى أن الإنسان إنما يعتقد أنه حرٌّ لأنه يجهل الأسباب التى تدفعه إلى الفعل) ، وذلك حين يقول : « إن الفيلسوف الوجودى ، إذ يقبع فى داخل الإنسان لكى يثبت الكون من هناك ، يسد على نفسه كل السُّبل التى يستطيع منها إثبات شىء أيا كان ، وإن الحرية التى يريدها سارتر Sartre للتخلص من العلل والمؤثرات هى كتخلص النعامة من الصياد ؛ فإن هذه الحرية مصدرها إرادة تجاهل الأسباب المؤثرة » . وربما مال العلم إلى أن يبعث نظام « التفتيش » لمحاربة منتقصيه ، أفليس عنده برهان آخر على إثبات ما له من قيمة ؟

وثم حجة أخرى أكبر خطراً يذكرها خصوم الوجودية ؛ فهم يقولون إن الوجودية نظرٌ خالص للعقل ، ولا يمكن تطبيقه على الحياة اليومية ؛ ذلك أن هذه الفلسفة بانتباذها كل فعل لا يصدر عن سبب معتبرة إياه وهما ، تقضى على نفسها بألا يكون لها تأثير ؛ فإن أهل الجد من الناس يقولون إنها تجرد الإنسان من كل ثقة فى الحياة ، وأهل العمل من الناس يزعمون أنها تهدم كل اساس ثابت يقوم عليه العمل . والجميع متفقون على الاعتراف بأن الوجودية لا يمكن أن تكون أساسا للحياة ، وذلك لأن كلا من المسيحى والماركسى له عقيدة دينية أو ثورية تجعل لحياته معنى وتنظم له مستقبله مقدما كما نظمت له ماضيه ؛ أما الوجودية فهى تذهب إلى أنه ليس ثم معنى للحياة ولا للكون ، وأن كل إيمان فهو قرار ذاتى suggestive يتخذه الإنسان حرًّا ، وليس له ضمان دينى ولا جماعى . وجريمة الفلسفة الوجودية فى نظر خصومها هى عدم وجود الإيمان ومناقشة كل شىء ووضعه موضع الجدال دائما . إن كلا من المسيحى والماركسى قد أجهده القلق وأسأمه ، فهو يريد أخيرا أن يتخلص من ذلك بأن يفعل شيئا ما ، دون أن يكلّف نفسه مشقة التفكير ، حتى نجد جارودى Garaudy يرسل صيحة الإنذار بالخطر أمام حرية الوجودية قائلا : « إن هذه الحرية المجردة من الصورة تصنع لنا تاريخا لا يمكن التنبؤ به ، وليس له بناء ؛ وهذا الأمر خطير ، لأنه إذا كان ماضينا ليس له هيكل أساسى وخطوط ثابتة من هذا الوجه ، وإذا كان كل شىء فيه يتغير فى كل لحظة ، فإننا نجدنا أمام المستقبل مجرّدين من السلاح » . وهكذا يَدِبّ سوء الطوية

فى تدليل خصوم الوجودية ، فيقولون إن الوجودية علامة تدهورنا ؛ هى الصورة الفلسفية التى تتخذها الفوضى أو المناقشات البيزنطية الفارغة ، هى الوجه التنكرى الذى تستتر خلفه الفردية الرجعية التى تتنافى مع النظام الجديد فى العالم الحديث . فأما الماركسيون فهم يعتبرون أن الوجودية مرض دبّ فى الشعور البورجوازى ، ويرون فيها آخر مراحل انحلال ذلك الشعور ؛ وأما المسيحيون فيرون أنها « أداة انحطاط » شبيهة بطريقة النازيين فى معسكرات الاعتقال ؛ وكلهم يرددون معا أن الوجودية تمثل الحالة العقلية التى تتقدم ظهور الفاشية منذرة بها ؛ فإنه إذا لم يصبح لشىء من الأشياء معنى صارت البطولة تتلخص فى أن يموت الإنسان موت الأبطال الكرام ، والوجودية فى نظر خصومها ترحب بكل طاغية ينظم اليأس من الحياة فى حياة شعب تنظيما محكما . وهم يقولون إن مما له مغزاه أن الفيلسوف الوجودى الألمانى هيديجر Heidegger انضم إلى حزب هتلر ، بل تقول الألسنة الجارحة التى تشنع على الوجودية إنه حتى مالرو Malraux ، وهو الكاتب الروائى الفرنسى الذى كتب فى الثورات الشيوعية فى الصين وأسپانيا ، ليس إلا فاشيا يجهل حقيقة نفسه .

وآخر أدلة خصوم الوجودية دليل يقوم على الجدل ومجرد الطعن ، وهو يتلخص فى امتناعهم عن النظر إليها نظرة جدية . هم يرمون الوجودية بأنها تسلية يعمد إليها أساتذة قد لحقهم السأم ، وبأنها لعب لفظى لمثقفين هيجهم التعمق فى دراساتهم . ويصف هيرڤى Hervé الوجوديين بقوله : « هم يزعمون أنهم هم الذين يضعون الأسئلة الجوهرية التى لا جوهرى غيرها ، فيقولون : لماذا أنا فى هذا الكون ؟ وما غاية هذا الوجود ؟ وهم لا يفطنون إلى أن هذه الأسئلة ليست جوهرية بالنسبة لهم إلا لأن وجودهم فى الحقيقة لا فائدة منه . إن الوجوديين يذكّرون الإنسان بتلك الكلاب الحالمة التى تقوم فيها فجأة ، وفى حالة جرى وقفز فردى ، رغبة فى أن تجرى وراء طرَف ذَنبها » . فالوجودية عند خصومها أشبه بتعمية عريضة أو هى بالأحرى وسيلة خفية يريد أصحابها الوصول إلى احتكار الأدب والفلسفة ، وكثيرٌ من يتكلم عن سارتر قائلا : « اتحاد شركات سارتر وأصحابه » . والحقيقة أنه يكفى الإعلان عن محاضرة عن الوجودية فى باريس لكى يزدحم الجمهور حتى يدوس بعضه بعضا على مدخل

مكان المحاضرة . وإن مجلة سارتر ، المسماة « العصور الحديثة » *Les Temps Modernes* وكذلك رواياته ، يطبع منها أكبر عدد ؛ فهل يرجع هذا النجاح كله إلى خداع الوجوديين للجمهور ؟ أليس الأحرى أن نقول إن الشباب الحريص على الشعور بذاته وبحقيقته هو الذى يسارع إلى كلمات ليست سحرية بعد بل هى كلمات واضحة تقدمها له الفلسفة الجديدة ؟

إن الفلسفة الوجودية قد أصبح لها موتاها وقاتلوها ؛ فقد كان الشباب منذ مائة عام ينتحر تحت تأثير الروح الرومانتيكية وبدافع الحزن المتلف والسأم من الحياة . أما شباب اليوم فهو يعلم أن الوجود لا قيمة له ، ولكن بطولته فى أن يستمر متمسكا بالحياة ؛ ولذلك فإن انتحار تلميذ فى مدرسة ثانوية كبيرة بباريس أحدث صدى كبيرا بين الطلبة : كان هذا التلميذ عضوا قديما فى جماعات الشباب الشيوعية ، وقد أسلم نفسه للموت دون جبن ولكن دون وقاحة ؛ وذلك لأنه انتهى إلى عقدة فلسفية لم يجد سبيلا إلى حلها ، كما يقول . وقد أثار حادث آخر فضيحة حقيقية ؛ ذلك أن أحد التلاميذ فى مدرسة ثانوية ، وهو ابن غير شرعى منقلب الميول الجنسية ، قتل أمه فى الصيف الماضى ، وكانت من المصابين بالميل إلى الاتصال الجنسى بالأقارب الأدنين ، ولكنها لم تنل ما أرادت ، وقد بغّضت ابنها فى الحياة . صرح هذا الابن أمام قاضى التحقيق قائلا : « أخذت ميولى عن فلسفة خطرة ، لأنى تمثلتها تمثلا غريبا ، والفلسفة الوجودية قد بدت لى أنها الحقيقة الوحيدة . . . إنها جنون اليأس . . . كل ما يسعى الإنسان وراءه ينتهى إلى لا شىء ؛ وهاك ما فهمته : وهو أن الإنسان يشاهد أنه يحيا ، وهو غريب بالنسبة لكل ما يقع فى العالم الخارجى » . وعند ذلك أخذ الأطباء النفسيون ، بعد أن وقعوا فى خطأ كبير فى مهنتهم ، يهاجمون الوجودية ويرمونها بأنها « جو » ملائم للأعمال الخطرة ؛ ولكن كان أصدق منهم نظرا ذلك الصحفى الذى كتب قائلا : « يبدو أن هذه الجريمة تبين مقدار شدة الاختلال التوازنى الذى يوجد بين غاية الفكر ووسائله؛ففى عالم تتكشف فيه باستمرار العلاقة التى تربط أشد الظواهر تناقضا، لا يزال كل شىء على حال شديدة من ضعف الدعم ، وإرادة الإنسان بعيدة عن أن تكون مكافئة لوضوح بصيرته ، ووضوح بصيرته بعيد أن يكون مساويا لقدرته » . فالوجودية هى بحق أحد مميزات عصرنا ، ولكن هذا المميز ليس

إلهيا ولا شيطانيا ؛ هى لا تجلب داء ولا دواء، بل تلاحظ ماهو العالم الحديث وتتنبه لحظ الإنسان ومصيره . هى تقول لنا ما هى الحياة ، ولا تريد تغيير شىء فيها ؛ ولكنها تريد منا ، إذ نحيا ، أن نعرف ما هى الحياة ، وتطلب منها وضوح البصيرة باعتبارها الفضيلة الوحيدة .

وهذا هو السبب فى أن الوجودية تثير على نفسها عداوة كل الذين يعيشون من المساومة مع ضمائرهم ، وكل من لا عقيدة لهم سوى الطوية السيئة ، وكل الذين لهم ضمير طيب إلى حد مسرف ، والعلماء ، والمسيحيين الهادئين ، والماركسيين المتمسكين بحرفية أصولهم ، وأهـــل المناصب والساسة الذين وصلوا ، والذين يوهمون أنهم وصلوا لأن لهم فضلا أسمى من فضل غيرهم ؛ كل هؤلاء يشعرون بحاجة إلى تسويغ موقفهم ؛ هم يريدون أن يغسلوا أيديهم من الإثم كما فعل بونس بيلات Ponce Pilate ، ولكنهم مهما فعلوا فستظل أيديهم ملوثة . وقد كشف عنهم اللثام سارتر فى أولى قصصه التمثيلية ، وهى المسماة : «الذباب» *Les Mouches* فى هذه القصة يعترف جوبيتر Jupiter ، كبير الآلهة ، لأيجيست Egisthe ، ملك أهل أرجوس ، قائلا : « إن كلاً منا يعمل على أن يسود النظام ، أنت فى أرجوس وأنا فى العالم ، وإن سرًّا واحدا بعينه يُثقل قلبى وقلبك . . . وهو أن أبناء آدم أحرار ؛ هم أحرار ، يا إيجيست ، أنت تعلم ذلك ، وهم لا يعلمونه » . فيجيب إيجيست قائلا : « إنى منذ توليت الحكم ترمى كل أفعالى وأقوالى إلى تكوين صورتى . . . وما أنا إن لم أكن ذلك الخوف الذى يشعر به الآخرون منى ! »

وقد كانت الظاهرة التى تتميز بها هذه السنون الأخيرة فى فرنسا هى ظهور طريقة جديدة فى الحياة تتميز باستعداد ثابت تقريباً لمواجهة مختلف مواقف الحياة والتأثر بها . ومعظم الشبان لا يرتبطون ارتباطاً نهائيًّا لا بجهة ولا بطبقة اجتماعية ولا بأسرة معينة ، فلم يعد لاختيار المبرَّر أو الاعتبار الاجتماعى فى نظرهم ما كان له من الشأن . هم قـد أصبحوا لا يعيشون لغاية معينة ، بل هم يعيشون ليعيشوا فقط . وعلى هذا فإن مصير الإنسان لا يتحقق ولا ينتهى مادام حيًّا ، والحياة لا تزال تبدأ دائماً من جديد كل لحظة . وهذا تطبيق لقول هوسرل Husserl : « إن الفيلسوف لا يزال مبتدئا على الدوام » . ولم يعد مجهود سارتر فى أخرى رواياته ، وهى المسماة «سبل الحرية» Les chemins

de la liberté متجها إلى تصوير نماذج اجتماعية كلاسيكية كالبخيل أو الكذاب أو الفاجر أو العاشق ، بل إلى تصوير شخصيات « فى موقف » ، شخصيات تتطور على نحو غير ثابت ، فلا ينتهى تاريخها إلى نهاية ، « هأنذا موجود ، أتذوق نفسى ، إنى أحس بالطعم القديم للدم وللماء الحديدى ، وذوقى هو أنى أتذوق نفسى ؛ إنى أحيا ، والحياة هى هذا : أن أتمتع بنفسى وأرتوى منها بدون ظمأ ؛ أربعة وثلاثون عاما ، أربعة وثلاثون عاما أتذوق فيها نفسى ، وقد كبرتُ ؛ قد اشتغلت ، وانتظرت ، وبلغت ما كنت أريد : مارسيل وباريس والاستقلال ، وقد انتهى كل شىء ، فلا أنتظر شيئاً بعد ذلك » . هذا هو الانسان الحديث ، الانسان الحر حرية كاملة ، لأنه قد تحرر من المؤثرات الطبيعية والاجتماعية التى أريد إخضاع الفرد لها والتى يخضع لها الفرد راضياً فى كثير من الأحيان ؛ والوجودية ليست شيئاً سوى فلسفة هذا الإنسان الحديث ، فلعصرنا « جوُّه » الخاص ، والوجودية هى التعبير الفلسفى عنه .

والآن فلنحلل بعض مكوِّنات هذا الجو ؛ فكما أن الحياة الحديثة حياة مُدن فإن الوجودية فلسفة المدن أيضاً ؛ فالطبيعة التى قد أولع بها فنانو المناظر الطبيعية لا وجود له فيها ، أليست كل نواحى البيئة الطبيعية الريفية تصبح بحكم تقدم المدنية بيئة صناعية ؟ فليس ثم رسام إلا نظريا ، وقرننا هو قرن الأشياء المصنوعة . ولا شك فى أن الماركسية كانت على حق فى نظرها للانسان على ضوء الأدوات التى يستعملها ، لكنها أخطأت فى أنها بنت على هذا الإنتاج المادى قيمة أو احتراماً ما . وإن شعور « الغثيان » الذى صوره سارتر والذى خصص له أولى قصصه مصدره الاتصال اللمسى بالأشياء ، فهى تلمسنى ، كأنها حيوانات ، وتحرك فىّ شعور الغثيان ، ولكنى إذ أشعر بذلك أشعر بوجودى كالأشياء ، كحزمة من الأشياء المتلازجة ، بل إن تفكيرى هو كبيت نمل يزخر بحركة ما فيه . وفكرة اللزوجة هى فى نظر سارتر فكرة أصيلة ؛ فكل وجود هو قبل كل شىء أشبه برائحة كريهة تبعث شعور الغثيان . وعلى هذا فإن ما يشعر به الإنسان حين يستخدم المترو له من هذا الوجه أهمية ميتافيزيقية ؛ فأنا أحس وسط الزحام إحساساً واضحاً بتلك اللزوجة التى هى خاصة أساسية للإنسان ؛ على أن العلاقات التى تربطنى بالآخرين هى من هذا الطراز ، فلا تربطنى بهم صلة روحية ، بل الأمر لا يعدو تلامساً يلتزق فيه وجود بوجود .

وقد دهش الناس من الأهمية الخفية التي صارت لها ، من وجه ما ، صفة الأسرار والتي أصبحت للمقاهي في فلسفة الوجوديين وفي حياتهم ؛ فالمقاهي إلى جانب كونها أماكن أشعر فيها ، عند احتكاكي بالغير ، بوجودي المجرد العاري على نحو أحسن ، فإن فيها من غير شك مقاومة للروح البورجوازية التي استبدت بفرنسا منذ قرنين ؛ فقد كان آباء الأسر حوالي عام ١٩٠٠ مثلا يحرمون على أولادهم التردُّدَ على المقاهي ؛ لأن الإنسان يضيع فيها وقته وماله وكرامته ، بمجالسة الفنانين والمتبطّلين والبوهيميين الذين يعيشون من يوم ليوم ؛ وكان الرجل البورجوازي يطالب أسرته أيضاً بأن تتكلم كلاماً مهذّباً ، وتتأدب بآداب حسنة ، ولكن ذلك لم يمنع من إتيان المفاسد سرًّا ، وكان الأب يرافق أسرته نادراً وبانتظام إلى المسرح أو إلى « البال » ، لكنه كان من وراء ذلك لا يبغي التسلية بقدر ما كان يقصد أن يكون ذلك بمثابة مران على الحياة الاجتماعية . فالأجيال الناشئة ، إذ تنبذُ هذه الحياة الزائفة تصرّ عمداً على كل هذه النقط التي يراد الحيلولة بينها وبينهم في سنهم الصغيرة ؛ فهم يقضون كل يومهم في ضروب التسلية في السينما وصالات الرقص والكباريهات ، وهم يمجدون الكسل ويمارسونه ، ويتكلمون ، كما تتكلم شخصيات سارتر ، لغة مشوبة باللهجة الدارجة argot ومملوءة بالألفاظ التي يأباها الحياء ؛ وليس هذا عندهم مجرد ميل طبيعي ، بل هم يضمّون إلى ذلك روح عدم الاكتراث ، وهي روح الحياة التي قد خلصت من الأوهام بما فيها وهمُ اللذة نفسه ، ويجمعون إلى ذلك أيضاً نظراً منيراً يعرفون به أن الوجود هو هذا ، وأن الإنسان لا يستطيع أن يفعل سوى أن يكون موجوداً . في هذه الشبيبة الفرنسية التي أطلق عليها اسم المتأنقين المتحذّقين zazous ، هذه الشبيبة التي تتردد على البارات الأمريكية ، وتتجر في السوق السوداء هي أغنى الطوائف في دلالتها ؛ وليس ذلك لأن طريقة حياتها أحسن الطرق ، بل لأنها تشهد لمصلحة حرية الفرد ؛ وفوق ذلك فلا طريقة في الحياة أفضل عندهم من أخرى من حيث ما تتضمنه ، وللإنسان بفضل حريته القدرة على تخطي حدود كل ما يقيده ، وهذه الحرية هي قيمته الوحيدة ، فليس بعدُ عند هذه الشبيبة لا خير ولا شر ، لا جميل ولا قبيح ، ولا حق ولا باطل .

إن الشبيبة الحديثة تقلق وتسأم ، وهنا فضلها الكبير : هي لا تترك نفسها تقع في حبائل وهم ما ، علمي أو فني ، أو سياسي ، أو خلقي ؛ هي تريد أن تحيا

بنفسها لا أن تترك فكرة ما غير شخصية ، أو ضميراً جماعياً يحتل مكانها ويعيش فيه؛ هي تسير على قاعدة تفرقة الإنسان بين شخصه أو «أنا» je وبين الآخرين أو «هم» on وليس الذي يجب أن يحيا في كل منا هو الـ «هم» أعنى الشيء الذي ليس حقيقتنا ، بل هو الـ « أنا » . إن الحياة الحقيقية تنصرف عن التسليات ، وهي تعلم نفسها وجوداً محضاً ؛ هي شاعرة بنفسها ولا تترك حريتها المستمرة ؛ والشاعر المتوفى ، ڤاليرى Valéry هو معبود هذه الشبيبة ؛ فشعره يعبر عن بحث عن الحرية الداخلية ، كما يعبر عن تأمل آثارها الطبيعية . ألم يبين ڤاليرى في كتابه «الروح والرقص» *L'Ame et la danse* ذلك السأم الذي يتميز به قرننا بياناً مدهشاً ؟ إذ يقول : « هذا المرض الذي هو مرض الأمراض ، وهذا السم الذي هو سم السموم ، هذا السم المضاد للطبيعة كلها ، هو الذي يسمى السأم من الحياة ــ هو ليس الملل العارض ، ملل التعب أو الملل الذي يمكن رؤية أصل جرثومته أو رؤية حدوده ، بل هو السأم الكامل ، السأم الخالص ، الذي لا يرجع منشؤه إلى سوء الحظ ، أو المرض ، أو الضعف، ويرضى بتأمل أسعد ما يمكن من الظروف ، وأخيراً هو هذا السأم الذي ليس له مادة سوى الحياة نفسها ، وليس له سبب بعد ذلك سوى وضوح بصيرة الحي ، هذا السأم المطلق ليس في ذاته إلا الحياة عارية تماماً ، إذا نظرتْ إلى نفسها بوضوح » . في هذا السأم يشعر الإنسان ، بحسب عبارة بوسويه Bossuet ، « بالشيء الجدي الذي لا يمكن تقليده والذي يوجد في الحياة الإنسانية » .

فنرى أن الشيء الجدي عند الوجوديين يختلف عن نظيره التقليدي الموروث ؛ فعند أصحاب التقاليد أن من الأشياء ما هو جدي ومنها ما هو هزل لا قيمة له . أما عند الوجوديين فالأشياء كلها لا قيمة لها بذاتها ، والأمر المهم الذي يدور حوله البحث هو جد الحياة الذي لا ينحصر في الأشياء بل في الحياة إذا شعرنا بها .

وإذن فالرجل المجنون قد يكون في كثير من الأحيان أكثر جداً من الرجل الذي يسمى عادياً ، بسليم العقل . ويذكر كامو Camus على سبيل التمثيل هذه العبارة المقتبسة من الروائي التشيكوسلوفاكي كافكا Kafka : « لو أراد كافكا أن يشرح التناقض فإنه يستخدم لذلك الفكر الصحيح المنسجم . نحن نعرف قصة ذلك المجنون الذي كان يريد أن يصطاد سمكاً في حوض الاستحمام ، فسأله

طبيب كانت له أفكاره عن العلاج النفسي : أيعضّ السمك الطُّعم ؛ فسمع من المجنون هذا الجواب المنطقي الصحيح : « لا ، أيها الغبي ! لأن هذا حوض الاستحمام » . إنَّ العالم ، كما يتصوره كافكا ، هو في الحقيقة عالم لا يمكن الإبانة عنه بالألفاظ ، وفيه يبحث الإنسان عن الترف المؤلم بأن يصطاد في حوض استحمام ، مع علمه أنه لا يخرج من ذلك شيء » .

إن الجو الوجودي يمكن أن يتلخص في شيئين : فالعالَم والإنسان لا معنى لهما ، والحياة لا معنى لها ولا قيمة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لا يجوز الانتحار بل ينبغي احتمال مشقة الحياة . يجب علينا أن نقبل وجودنا ونحتمله ، دون أمل ، ذلك « الأمل الحقير » ، كما يقول سارتر ، وأن نستعمل حريتنا الفردية في أي شيء ؛ نحن « قد قضى علينا بالحرية » ، فلا مفر من ذلك ، والفليسوف الوجودي لا يضع كنموذج أمامه قِدّيسا أو حكيماً ، بل إن مثله الأعلى هو البطل .

ويمكن أن نعتبر شعار الوجودية والكلمة المعرفة بها تلك الفكرة التي افتتح بها هيجل Hegel « دروسه في فلسفة التاريخ » إذ يقول : « إن الشرقيين لا يعرفون أن العقل حرٌّ أو أن الإنسان حرٌّ ، من حيث هو إنسان ؛ بل هم يعلمون أن واحدا فقط هو الحرّ ؛ وهذا هو حكم الاستبداد . أما اليونان فيعرفون أن بعض الناس أحرار ، لكن نظام الرِّق يستمر بينهم . والمسيحية تبين شيئاً فشيئاً أن الإنسان ، من حيث هو إنسان ، حر . . . » والناس لا يعرفون جميعا ذلك ، والفيلسوف الوجودي يعمِّمهم أنه بحسب كلمة لشخصية من الشخصيات التي صوَّرها دستويفسكي يمكن القول إن « كل شيء فهو جائز غير محرَّم » . ويختم هيجل كلامه بقوله : « إن تاريخ العالم هو تطور الشعور بالحرية ، وهذه هي النهاية الأخيرة للكون » ؛ فالوجودية هي بحق فلسفة نهاية الكون .

٢ — الوجودية المسيحية

وإذا أردنا أن نترك « الجو » الوجودي ، وندخل في التفاصيل الفلسفية لهذا المذهب الوجودي فإننا نستهدف لمواجهة التناقض وقلة اليقين ؛ ذلك

أن كلا من أتباع هذا المذهب له ، وراء هذا الجو المشترك بينهم ، فلسفته الخاصة ؛ فليس ثم فلسفة وجودية واحدة ، بل ثم فلسفات وجودية . وهذا التنوع هو أحسن برهان على وحدة المذهب الوجودى ؛ ذلك أن الوجودية لا تنحصر فى الفكر ، ولا حتى فى التفكير فى الوجود ، بل هى تنحصر فى الوجود نفسه ؛ وكل إنسان لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا لنفسه . وما يؤخذ فى كثير من الأحيان على الوجودية من أنها تناقض نفسها لا قيمة له ضدها ؛ لأنه مما لا شك فيه أن الوجود نفسه يشتمل على التناقض ، بل هو وليد التناقض ، كما يذهب إلى ذلك هيجل بنظره الثاقب . إن الوجودية تحدث الثورة فى الفلسفة بأن ترفض التفكير مستعينة بالمفهومات المجردة ، فهى بذلك مستمدة مباشرة من فلسفة كَنت الذى فصل بين الفكر وبين الوجود فصلا تامًّا ، هذا الوجود الذى هو فى نظره سابق على كل فكر ، بحيث لا يمكن أن يُعرَّف بمفهوم مجرد أيًّا كان ؛ وإذن فليس الفكر أساس الوجود ، بل إن الوجود هو ، على العكس من ذلك ، أساس الفكر ؛ وهكذا يُقضى القضاء النهائى على الميتافيزيقا التى يعتبرها كَنت وهماً .

والآن فلنلخص وصف هذا الوجود الذى هو نقطة بداية الوجوديين كلهم .

إن الإنسان لا يمكن أن يعرَّف التعريف الكامل بمجرد الاستناد إلى المعيَّنات والخصائص المادية والاجتماعية ، فهو يفلت منها جميعاً ، لأنه يشعر بها ، وهو من حيث أنه يأبى ان يُردّ إلى أحد منها أو إلى جملتها فهو شىء آخر غير ما يبدو للآخرين ، فهو ما هو . والشخص الذى يعتبر أن حقيقة حياته تنحصر فى ثروته أو فى مهنته إنما يعتبر نفسه كالآلة ، ولا يستحق اسم الانسان ، وهذا فى كثير من الأحيان شأن الرجل البورچوازى والممول الكبير فى عاصمة ، وشأن الموظف الصغير ورب الأسرة فى الريف ؛ فليس فى حياة الواحد منهم من نفسه شىء ؛ وهو يملأ مكانا يمكن أن يتبداوله الكثيرون ، وذلك بحسب فكرة معينة عن الجماعة لا يفطن إليها ؛ وربما كان هذا أيضاً هو شأن رئيس صناعة أو دولة أو دين ، فهو ليس له أى فضل فائق ، وهو لايوجد بذاته ، وهو ليس شيئاً إذا جُرِّد من الاحترام ومن الطاعة ومن الخوف الذي سعثه فى نفوس الآخرين .

وَمَنْ يضع نفسه وذاته فيما يُسمى الخلق أو الشخصية يرتكب نفس الخطأ ؛

فإن كونى ذكيًا أو غبيًا ، جميلا أو قبيحاً ، قوى البنية أو مريضاً ، رقيقاً أو شريراً ، ليس من مميزات كيانى العميق أكثر مما يكون ذلك لكونى تاجراً أو عاملا أو أعزب أو ارمل ، فأنا شيء آخر غير صفاتى الخاصة ؛ وقد أستطيع أن أستمد منها عُجْباً كما أستمده من رباط رقبة جميل ، ولكنى لا أريد أن يحبنى الآخرون أو يحكموا علىّ بحسب هذه الصفات ، فأنا متميز عن هذه الصفات كما أتميز عن كل ما هو خارج عنى ؛ فأنا أحيا ، وأنا محدود محصور فى كل وقت بين وجودى الماضى الذى لا أرتبط به إلا بالقدر الذى أريده وبين وجودى فى المستقبل ، وهو وجود حرّ ؛ فحياتى كلها أمامى فى كل لحظة ، وأستطيع أن أجعلها كما أشاء ، وأن أنهى كل شيء وأبدأ كل شيء من جديد دائماً ، بشرط أن أتصرف حرًّا وأن أحافظ على حريتى واستعدادى الداخليين .

هذه هى الحقيقة الأولى ، وهى الحقيقة الوحيدة فى نظر البعض . فإذا أدرك الإنسان هذه القدرة التى له على أن يجعل من حياته شيئاً فإنه يشعر عند ذلك بوجوده الخاص ، وهو يجتاز عند ذلك حالة نفسية معينة يحس فيها أن ذاته والكون لا معنى لهما ، وأن كل عمل يعمله يخفى وراءه وفى أعماقه السأمَ من الحياة ، وهو يحس نفسه قد أُسلِم إلى الملل الذى لا يبدو فيه أن اختيار شيء أحسن من اختيار آخر ، ولا أن حالا خير من حال ، ولا أن حياة أكبر قيمة من حياة أخرى ؛ هو يحس بأنه حر وأنه لا سبب لإظهار حريته إلا الفعل عن إرادة خالصة . إن كل إنسان يريد أن يحيا حياة حقيقية لا بد أن يجتاز هذه المرحلة ، وهو عند ذلك يكون وجوديا ، ولكن هل يستطيع أن يبقى كذلك ؟ وهل يجد فى ذلك مذهباً نهائيًا متماسكا منسجماً ؟ أو أليس ذلك بالنسبة له مجرد مرحلة انتقال ، وتمهيداً لحقائق أخرى ، وتصفية أولية لا غنى عنها لوضع الروح فى حالة حسن التأهب ؟

إن الوجودية ، كما يصورها الوجوديون اليوم لجمهور الناس ، هى محاولة منظمة يقوم بها أصحابها عن شعور ، بقصد إقامة مذهب من هذا الوصف المباشر لحال الإنسان ومصيره، واستخلاص قواعد للحياة من هذا الوصف وحده . وقد كان هيدجر Heidegger ، الفيلسوف الألمانى المعاصر ، أول من وضع المشكلة وبيّنها على هذا النحو . ويحاول ج. پ. سارتر J-P. Sartre فى فرنسا مستعيناً بمجلة « العصور الحديثة » *Les Temps Modernes* أن يطبق هذه الطريقة على

المشكلات التى تعرض كل يوم فى السياسة والفن . وأهمية هذه الوجودية تأتى من أنها محاولة لكى يحيا الإنسان على الصورة الإنسانية الخالصة ، ولكى يستغنى بعد ذلك عن الإله ؛ فإذا كان الإله موجوداً ، وإذا كان هو خالقنا فليس هو عند الوجوديين غاية لنا ، لأنه خلقنا أحراراً . وهنا تعرض المشكلة الأساسية : هل يمكن أن نجعل للحياة معنى إذا جردت من الإله ؟ وفى نفس الوقت نجد أن الوجودية سابقة على سارتر وهيديجر وأن أصلها مسيحى .

والواقع أننى لا أستطيع من مجرد النظر فى وجودى الخاص أن أصل إلى ما يجب أن تكون عليه حياتى ؛ فأنا لذلك أرجع إلى قيمة عليا ، إلى الإله ؛ ولكن الإله ليس بالنسبة لى موضوع بحث عقلى ؛ هو يتدخل من نفسه فى وجودى ويظهر لى حضوره ؛ وسواء أرضانى ذلك أم لم يرضنى ، فهو قد أظهر نفسه فى التاريخ ، وتغير مجرى حياتى بسبب ذلك ، ولكن التمسك بالإله لا قيمة له إلا إذا صدر عن حرية كاملة ، وإلا إذا أكد «مع الخوف والارتعاد» كما يقول كيركجارد Kierkegaard ؛ فأنا لا فضل لى فى كونى مسيحيا إلا لأنى نزلت إلى باطن وجودى كإنسان ووهبت للإله هذا الوجود دون صفاتى أو مكانتى ، وأنا فى البؤس والضعف أجرد نفسى من كل ما ليس نفسى ؛ واليأس المتناهى هو الطريق الذى لا بد منه لتلقى الأمل الإلهى . ويمكن القول إن أول الوجوديين هم پسكال والقديس أوغسطين والمسيح ، من وجه ما ، يوم احتضاره .

قضى پسكال شبابا هادئا ، لأنه تلقى من ابيه تربية طيبة مثالية ، بين له فيها أن كل نوع من الأشياء له ماهيته : من معادن ومادة ، ومن نباتات وأحياء ، ومن حيوانات ، أو حشرات ، أو غرائز ، من إنسان أو عقل . وفى قمة ذلك كله تقف الملائكة بما لها من عقل . أما الوجود الإنسانى فكان عنده واضحا بسيطا ، كأن له وضوح النظرية الهندسية وبساطتها ؛ وكان الإنسان يعتبر جزءا من الكون . هو حلقة ثابتة فى سلم مراتب الموجودات ، بينه وبين الملائكة فوقه نفس ما بينه وبين الحيوان تحته من مسافة ، ويكفيه أن يحقق غايته كإنسان عاقل مفكر ، وأن يفكر مستعينا بالمفهومات المجردة ، وأن يقنع الآخرين بحسب قواعد الإقناع ، وأن يدير أمر نفسه وأمر الجماعة فى إتقان ، على نحو ما يتقن الإنسان عملا فنيا .

ولكن هلع پسكال ينشأ من احتكاكه بالأفراد الآخرين ؛ فهو في مجالس الصالونات يجد الناس كما هم عليه ، ويجدهم على غير ما ينبغي أن يكونوا ؛ هو يشاهد الظلم سائدا في الدولة كما يجد الشهوات الجامحة متسلطة على قلب الإنسان ؛ هو يلاحظ أن الفن ، لكي يكون سارًّا ، لا حاجة له بأن يهتم فقط بأن يكون صحيحا ، وأن الفلسفة التي تتعقل لا تساوي شيئاً بجانب الفلسفة التي تحس ؛ ويشهد پسكال انهيار كل عقائده ويرى أن ماهيته الخاصة تنهدم دون أن يسندها شيء ، وهو يلخص اضطرابه الشديد في جملة واحدة وهي قوله : « إن الإنسان لايتصرف بحسب عقله ، هذا العقل الذي يكوّن وجودَه » .

وبالاختصار فإن طبيعة الإنسان قد فسدت ، ولم يصبح مكانه في نظر پسكال بين المَلَك والحيوان ، بل هو أحيانا يظهر في صورة المَلَك وأحيانا في صورة الحيوان ؛ أما الكون فهو بدوره يصبح محايدا لا شأن له بالإنسان . يقول پسكال :

« إن السكون الأزلي لهذا الفراغ الذي لا نهاية له يروعني » .

يسأل پسكال نفسه : ماأنا وما هو الإنسان ؟ فلايجد شيئاً يكوّن ماهية له ، فليس الإنسان ماهية ، بل هو وجود ؛ ولا بد أن يطول عهدنا بالاقتناع ، كما اقتنع پسكال ، بأن للعالم نظاماً وبرنامجاً ، وبأن للإنسان طبيعة خاصة به ، وعند ذلك تصيبنا الدهشة ويستولي علينا الذعر حينما نتبين ما في الكون من فوضى ، وحينما نرى أن الإنسان لا طبيعة له ولا ماهية ، وسواء أكنت أريد أن أكون عالماً هندسيًّا ، أم رجلا شريفاً أميناً ، أم راهباً ، فإني أولاً وقبل كل شيء وجود غير معيَّن يتقدم فيَّ على كل ماهية .

وإن الوصف الذي يصف پسكال به هذا الوجود قد بلغ من الدقة والكمال بحيث إن خصومه لم يفتأوا يصطدمون به ، وإن أنصاره لم يفتأوا يتخذونه أساساً لتفكيرهم . وربما كانت أكثر كلمات پسكال تميزاً لتفكيره هذه الكلمات التي كثيراً ما جعلت ڤولتير يرسل صيحاته والتي كأنها ماخوذة من قصة للكاتب التشيكوسلوفاكي كافكا . يقول پسكال :

« عند ما أشاهد تعس الإنسان وتخبطه ، وأرى الكون كله أبكم ، وأشاهد الإنسان في غير نور يهتدي به ، بل متروكا لنفسه كالضالّ في هذا الركن من الكون ، لا يعلم من وضعه فيه ، ولا ما جاء هنا ليفعله ، ولا ما سيؤول

إليه أمره ، إذا مات ، وعند ما أرى أنه عاجز عن كل معرفة ، عند ذلك يعتريني الذعر ، كما يعترى رجلا حُمل نائماً إلى جزيرة مقفرة مخيفة ، فاستيقظ لا يعلم أين هو ولا يجد وسيلة للخروج من هذه الجزيرة » .

إن الإنســان لا يمكن أن يعرّف إلا من حيث إنه هو الموجود الحاضر ، لـكن الذى ينير أمره ليس هو هذا الـكون ، بل هو إنما يجد فى داخل نفسه ما يكشف له أمر نفسه . يقول پسكال :

« ليس الإنسـان إلا كنبت ضعيف ، هو أضعف ما فى الطبيعة ؛ لـكنه نبت مفكر ، وليس من الضرورى أن يتسلح الـكون كله لـكى يسحقه ، لأن قطرة من الماء تـكفى لأن تقتله . ولـكن إذا أهلك الـكونُ الانسان فإن الإنسان يكون أكثر شرفاً ممن يهلـكه ؛ لأن الإنسان يعلم أنه يموت ، أما مزية الـكون على الإنسان فإن الـكون لا يعلم من أمرها شيئاً . »

وعند پسكال يبلغ التصادم بين الإنسان والـكون منتهى شدته ؛ فالإنسان يعلم إنسانيته من طريق معارضته للـكون ، ولـكنه إنما يعلم ذلك لأنه فى الـكون ، وهو لن يستطيع أن يتخلص منه ، لأن وجوده كإنسان يحتم افتراض وجود الـكون . يقول پسكال :

« ما هو الانسان بالنســبة للطبيعة ؟ هو لا شئ بالنسبة للامتناهى ، وهو كل بالنسبة للاشئ ؛ فهو إذن وسط بين اللاشئ وبين اللامتناهى » .

ولم تقض العقيدة المسيحية على هــذا الشعور الحزين فى نفس پسكال أمام ما يشاهده من وجود الإنسان ؛ لأن العقيدة المسيحية بوضعها الإنسان بين التلبس باللحم والدم وبين البعث الجسدى آخر الأمر ، تؤكد أن مصيره أن يكون للـكون ، بحيث لا يستطيع أن ينفك منه . على أن پسكال لا يمل من تكرير القول بأن الإنسان لا يمكن أن يظفر بشىء من النظر فى الـكون وأنه لابد من أن يتجه إلى نفسه ليجد بعض النور . يقول پسكال :

« ثم ماذا ؟ ألستم تقولون أنتم إن السماء والطيور تدل على وجود الله ؟ ــ لا ــ أوليس دينـكم يقول ذلك ؟ هذا وإن كان صحيحاً بوجه ما عند بعض الأرواح التى أعطاها الله هذا النور فإنه خطأ بالنسبة للـكثرَة » .

إن الناس يفرون من أنفسهم إلى أنواع التسلية ، فيلعبون بالـكرة أو يطلبون صيد الأرانب البرية خوفاً من التفكير فى أنفسهم . على أن الشعور بأننا مائتون

لابد من أن يؤدى بنا دائماً إلى مشكلة حياتنا . وليس الهلع مرضاً عقليًّا ولا هو كظم للغرائز ، بل هو الطريقة التى نشعر بها أننا — حتى ونحن فى وسط عالم طبيعى واجتماعى يؤثر فينا ويسيطر علينا سيطرة كاملة — لايزال يبقى لنا وجودنا وحريتنا . نحن نستطيع أن نصير ما نريد ، ويكفى أن نريد ذلك بفعل يشمل كياننا كله ؛ ومعنى أننا موجودون هو أننا أحرار .

على أن پسكال يبحث عن أبطال يستطيع أن يستعمل على مثالهم ما له من الحرية ، وهو يجد أمامه حتى عصره بطلين : إپيكتيت Epictète ومونتينى Montaigne : الأول هو رمز عظمة الإنسان ، والثانى رمز شقائه وتعسه ، الأول هو الإنسان الذى يجعل من نفسه ملكا وإلها ، والثانى هو الإنسان الذى ينحط إلى مرتبة الحيوان . ولكن پسكال لا يريد أن يوجه حياته على أثر الفلاسفة الذين لا يستغرقون إلا جزءاً من وجوده . ولكى يكون الإنسان منطقيا مع نفسه فإنه يجب أن يستخدم كل وجوده . ولما كان إپيكتيت ومونتينى يبطل كل منهما الآخر ، فإن المجال يبقى فى نظر پسكال لبطل واحد يحقق الإنسان كله ويوجد فى صميم كل إنسان ، وذلك هو المسيح .

والسبب فى أن برهان پسكال على صحة الديانة المسيحية لا يمثل وثبة ميتافيزيقية هو أن پسكال يصور لنا مسيحاً وجوديًّا . فلنقرأ القطعة التى عنوانها « سر المسيح » :

« إن المسيح فى محنته يعانى الآلام التى يسببها له الناس ، ولكنه فى حال الاحتضار يعانى الآلام التى يعطيها هو لنفسه . . . إنى أعتقد أن المسيح لم يَشْكُ إلا هذه المرة فقط ، ولكنه عند ذلك يشكو كأنه لم يستطع أن يصبر على كظم ألمه المفرط . يقول المسيح : « إن روحى حزينة حتى الموت » . . . فالمسيح سيستمر ألمه حتى آخر الدنيا ، فلا يجوز النوم فى أثناء ذلك » .

إن الألم ووحدة الإنسان مع نفسه واستيقاظ الضمير المشرق فيه وتجربة الموت ، كل هذه الإحساسات التى هى من شأن الوجود الحقيقى قد عرفها المسيح خيراً مما عرفها أى واحد سواه . ولكن المسيح ليس بطلا يضع نفسه فى صف غيره من الأبطال ؛ فهو لم يكن له وجود تاريخى فحسب ولم يقتصر أمره على أنه عاش ومات ، بل هو يعيش ، عند پسكال ، فى كل إنسان حتى آخر النوع الإنسانى ؛ فهو نفس وجود الإنسان ومصيره ، ثم وجود كل الآدميين متحدين فى جسده

المقدس . وعلى هذا فإن مأساة المصير الإنسانى تتجلى على هذا النحو ، وهو أن المسيح فى ألم الاحتضار حتى آخر الدنيا .

والطريق الذى فتحه پسكال له نهايتان : إحداهما پروستانتية ، والأخرى كاثوليكية ، وهما تدلان على الفرق بين هذين الدينين . فأما الكاثوليك فإنهم ، وإن كانوا ينظرون إلى پسكال بعين الريبة ، يعتبرون أن الوجودية طريق يؤدى إلى الله ، ولكنهم لا يعتبرونها أساسا للدين . فالحقيقة النهائية فى نظرهم لا تأتى من الإنسان ، بل إن الوحى هو الذى يهدئ القلق الوجودى شيئا فشيئا ، هذا ما يذهب إليه اليوم لويس لاڤيل Louis Lavelle ورينيه لوسين René Le Senne وپريس پاران Price Parain وجان ڤال Jean Wahl وخصوصا جابرييل مارسيل Gabriel Marcel ، وعلى العكس من ذلك ترى طائفة من مفكرى الروس البيض وهم شيستوف Chestov وسولوڤييف Soloviev وحتى برديايف Bardiaev ، ترى أنه لا توجد فى داخل المسيحية حقيقة نهائية ما ، وأنه لا يمكن الوصول إلى عقيدة خالصة من القلق ، وأنه لابد للإنسان من أن يجدد فى كل لحظة قراره بأن يكون مؤمنا . وهؤلاء المفكرون يسيرون فى طريق الفيلسوف البروتستانتى الدنمركى الذى نبغ فى القرن التاسع عشر ، وهو كيركجارد الذى كان أعظم الوجوديين تأثيرا ، وقد أدى به الاعتقاد باستحالة الوصول إلى اليقين المطلق إلى مذهب الصمت . يقول كيركجارد : « لو كان لا بد أن أجيب ، والسيف على رقبتى ، على هذا السؤال وهو : هل أنت مسيحى أو لا ؟ فإنى أقول : إنى أضع فى الله وحده أمل أن أكون مسيحيا ؛ ولكن إذا لم يُعْتَبرْ هذا الجواب كافيا ، وقيل لى : لا بد أن تقول : أنت مسيحى أو غير مسيحى ، فإنى أجيب : لا ! هذا لا أقوله . فإذا أصرّوا وقالوا لى : سنقتلك إن لم تجب ، فإنى أقول : فلتفعلوا إذن ، ولا شئ عندى أعترض به على ذلك » . إن المسيحية عند كيركجارد هى دين الشئ غير العادى ودين اليأس المتناهى . وعلى يدى كيركجارد تنتقل المشكلة ، فإنها بعد أن كانت : « كيف يمكن أن يكون الإنسان وجوديا » ، تصير : « كيف يمكن أن يكون الإنسان مسيحيا » ، وهو لا يجد مخرجا ، على حين أن غيره يصلون فيما يتعلق بالسؤال الأول إلى يقين جديد .

أما جبرييل مارسيل فهو يؤكد أن التحليل الكامل للإنسان يكشف فى

هذا الإنسان عن الإله ، ويجعل مارسيل تدليله مستندا إلى الوجود être والمِلْك avoir ؛ فكلما حاولتُ أن أعرّف ما أنا ، لا أجد فى ذلك ما أقوله سوى ما أملك ؛ فإذا كنت مالكا أو أباً أو عاشقا أو فيلسوفا فمعنى ذلك أن لى داراً وابناً ومعشوقة وفلسفة ؛ ولكن الوجود لا يقاس رغم هذا بما يملكه الإنسان ، وقيمتى الحقيقية لا تعرف بحسب ما أملك . أما ألبير كامو Albert Camus فهو عند ذلك ينصحنا أن نعيش بقوة أكثر، لا أن نعيش احسن؛ لأن المعيشة الحسنى لا معنى لها ، كما ينصحنا أن نقلد الممثل و نتشبه بدون چوان Don Juan . وليس الأمر عند مارسيل أمر أن نجرب أكبر عدد ممكن من ضروب الحياة ، بل هو أن نخلق صورة الحياة التى نكون فيها ما نحن حقيقة ؛ ولكن كل ما نملكه يملكنا بدوره : فالمالك أسير ممتلكاته ، والأب أسير أسرته ، والفيلسوف أسير مذهبه ، فيجب إذن أن أخلّص وجودى الخاص من كل ما أستطيع أن أملكه . إن وجودى ينحصر تماما فى إحساس هو التجربة الخالدة للإنسانية ، وهو إحساس الحب ؛ ففى الحب الحقيقى أجد أن وجودا آخر يَهَبُ لى نَفْسَه ، وجوداً أحبه لذاته وحده وهو يحبنى لذاتى وحدى ؛ فالحب صلة بين شخصى وشخص أخاطبه «بأنت» ، هو صلة بين وجودين قد تخلصا بفضل الحب من القيود التى تأتى من جميع ضروب الامتلاك .

وتجربة الحياة الزوجية ، على بعدها من أن تقيدنا فى عالم اللحم والدم ، تدخلنا فى عالم الأرواح وتؤدى بنا إلى فهم الوجودات التى نصادفها وإلى حبها لذاتها ، على نحو ما يكون ذلك فى المحبة للإنسان charité وذلك بدلا من أن تؤدى بنا إلى امتلاك هذه الوجودات . وهذا الحب الإنسانى يجاوز الإنسان وهو يبلغ أشد قوته بالموت . والتفكر فى الموت هو العامل الحاسم الذى يدفعنا إلى تغيير حياتنا ؛ ولكن هذا الموت إذا كان موت الوجود الذى نحبه ، فإنه يكون له معنى أكثر من ذلك ؛ لأن هذا الوجود المحبوب لا يفتأ يظل حاضراً أمامنا بعد موته ؛ وحتى لو كنت أجهل حبه أو كنت لا أحبه كما ينبغى فإنه يصير حاضراً أمامى حقيقة ؛ وفى هذا سر لا ينكشف إلا فى حالات محسّة ؛ ففى مثل هذه المواقف بما فيها من مآس يكون وجودنا مشغولا إلى أعلى درجة . ولذلك جرى مارسيل منذ أول الأمر على الطريقة المسرحية التمثيلية للإبانة عن أفكاره .

وحضور الإله، وهو الحضور الذى يأتى به إلى أرواحنا الكائنُ المحبوب حتى لو كان ميتاً، ينتهى بأن يكون له معناه فى حياتنا ؛ ونحن نجعل بيننا وبين الإله صلة حب بين أنا وأنت. أما الفلسفة التقليدية المأثورة فتتصور الإله ذاتاً sujet كل المخلوقات بالنسبة لها موضوعات objet، ومن هذا الوجه لا تكون ثم حقيقة إلا فى الإله ؛ فالوجودية قد احتلت مكانها فى التاريخ وفى الفلسفة، لأنها قد كشفت من جديد أن فى الإنسان حقيقة وأن الإنسان ذات، أعنى أنه سيد لنفسه. أما الوجودية الإلحادية فإنها تعكس النسبة بين الإله والإنسان بدلا من أن تكملها : فالإنسان عند الوجوديين الملحدين، هو وحده الذات، وهو وحده الوجود، والإله موضوع له، أى إن الانسان هو الذى يخلقه. أما مارسيل فهو يربط بين الحقيقتين ؛ فليس الإنسان كائناً موجوداً، مهمة الإله أن يملكه، ولا العكس، بل كل منهما ذات، حرة وحقيقية ؛ ولهذا فإن الصلة التى بينهما هى صلة الحب. وبتحليل هذه الصلة كشف مارسيل من جديد عن الإيمان والأمل والمحبة الإنسانية ؛ وإذن فقد أدى به بحثه الوجودى إلى أن وجد العقيدة المسيحية من جديد، وهو إنما انتقل إلى الكاثوليكية عام ١٩٢٩ ليكون مخلصاً مع نفسه.

فمنذ ذلك الحين صار جبرييل مارسيل مسيحيًّا، وترك الوجودية، فأصبح لا يحيا مجرد حياة غير معينة ولا محددة، بل هو قد أصبح مرتبطاً على نحو نهائى بنوع من الحياة قد استبعد منه كل مجادلة أوشك، فأصبح لا يتكلم عن الوجودية إلا ليمهد الشباب للحقيقة الإلهية، وذلك بأن يكشف لهم عن الحقيقة الإنسانية لها. ويختلف عهد مارسيل عن عهد سارتر اختلافا جوهريًّا ؛ ذلك أن سارتر يريد أن نرتبط بشىء لا من أجل قيمة العمل الذى سنقوم به، لأن الأعمال كلها لها فى نظره نفس القيمة، بل لكى يُظهر الإنسان منا حريته ؛ ولذلك فإن هذا الارتباط لا « يلزمنى » إلا فى اللحظة التى أُتمّ فيها الفعل، وهو يتركنى حرًّا بعد ذلك مباشرة، ثم هو يتحدد مع كل فعل. أما عند مارسيل فإن العهد أشبه باختيار الزوج أو الدين، فهو أشبه بنذر ينذره الإنسان على نفسه، وهو ينقلك إلى خارج الوجود الإنسانى وإلى خارج الزمان، هو يدمجك فى الحقيقة الإلهية ويضعك فى مرتبة الخلود.

إن المسيحى الحق لا يمكن أن يظل وجوديًّا ؛ لأنه فى الوجودية تعرض الحالة

النفسية التى تسبق الانقلاب إلى الدين ؛ والإنسان يمر بها لـكى يقدم للإله الذى سيصل إليه أصفى ما فى وجوده ، وهو يجتازها كما اجتاز اليهود الصحراء فـكانوا أعظم سروراً بالأرض المقدسة .

٣ — الوجودية الالحادية

« يقول جوپتير : يا إيجيست إن الآلهة عندهم سر آخر . . . فإن الحرية إذا انفجرت فى روح إنسان أصبح الآلهة غير قادرين على شىء ضد هذا الإنسان ، والأمر بعد ذلك أمر الآدميين ، ولهؤلاء الآدميين وحدهم إما أن يتركوه يجرى فى أفعاله أو ان يخنقوه » . هذه القصة من قصص سارتر ، وهى المسماة « الذباب » *Les Mouches* غايتها أن تعلن للعالم كله أنه لا شىء هو الإله ، لا الإله المسيحى ولا آلهة الوثنيين ، ولا إلـه دين من الأديان أيًّا كان هذا الدين ، ولا المال ، ولا الحب ، ولا الآلات ؛ فالحياة الإنسانية تُرى وتجرى بين آدميين ؛ هذه الوجودية هى نتيجة لفلسفة نيتشه Nietzsche وهو المفكر الذى نادى بموت الإله . فما دام الإلـه قد مات فيجب أن يعيش الإنسان مستغنيا عن القيم التقليدية التى اخترعها الضعفاء للتسلط على الأقوياء ويجب خلق قيم جديدة . إن مثل هذه الفلسفة فلسفة مثيرة للحماسة قبل كل شىء ، ونجد أورست Oreste الذى يمثل البطل الوجودى يقف موقف المعارضة لجوپتير فيقول : « إنك ملك الآلهة يا جوپتير ، أنت ملك الحجارة والنجوم وأمواج البحر ؛ ولـكنك لست ملـكا على الآدميين » . فيقول جوپتير : « إنى لست ملـكا عليك أيتها الشرنقة الوقحة ! فمن الذى خلقك إذن » . فيقول أورست : « أنت الذى خلقتنى ، ولـكن كان ينبغى ألا تخلقنى حرًّا » . فيقول جوپتير : « إنما أعطيتك الحرية لتخدمنى » . فيجيب أورست : « هذا جائز ، لـكن هذه الحرية قد انقلبت عليك ، ولا أنا ولا أنت نستطيع أن نغير ذلك » . فيقول جوپتير : « أخيرا ، هذا هو العذر ! » . فيقول أورست : « أنا لا أعتذر . . . فلست السيد ولا العبد ، وإنما أنا الحرية التى أتمتع بها » . وإذن فلم يعد لمشكلة معرفة هل الإلـه موجود أى أهمية ، مهما كان حل هذه المشكلة ؛ فالإنسان حر ، ويجب ألا يصدر فى أفعاله إلا عن الحرية .

إن الوجودية فلسفة تعطى الإنسان القوة ، وهى إذن فلسفة خلقية ؛ هى ترفض كل تشدد أجوف فى المبادئ ، وتحارب الخضوع للمألوف كما تحارب الشكّيّة ، وهى تطالبنا بحياة خلقية نحياها ونشعر بها حقيقة . ولكن هذه الوجودية الإلحادية تقف أمام نفس المشكلة التى يقف أمامها المسيحى ؛ فكل إنسان يبحث عن طريقه ، يجتاز حالة التفكير الوجودية ، ولكن هل يستطيع أن يبقى فيها ؟ وهل تعطيه الوجودية نحواً من الحياة بريئا من التناقض ؟ يظهر أننا الآن وإلى أن يظهر لنا شئ جديد لا بد أن نجيب على هذه الأسئلة بالنفى ؛ ولذلك فإن الناس ينتظرون بفارغ الصبر نشر كتاب الأخلاق الذى وعد به سارتر .

فاذا كانت الوجودية المسيحية تعتبر من وضع پسكال ، وكيركجارد ، فإن أستاذ الفلسفة الإلحادية هو هيديجر الذى لا يزال حيًّا . ولكن هيديجر يرفض أن يلقب بالفيلسوف الوجودى philosophe de l'existence بل يؤكد أنه فيلسوف الوجود philosophe de l'être ، ويقول إن بحثه من النوع الميتافيزيقى . والواقع أن هيديجر يريد باستعمال منهج الظاهرية la méthode phénomenologique ، الذى بينه أستاذه هوسرل Husserl أن يكشف عن وجود كل الكائنات ، وهذه هى المهمة الحقيقية للفلسفة أو معرفة الوجود connaissance ontique ، لأن العلم لا يعطينا إلا أوصاف هذه الكائنات ، وذلك بوساطة معرفة من النوع المشاهد فى علم الوجود connaissance ontologique ، والكائن الإنسانى له من بين كل الكائنات المحسّة مزية المعرفة ، فله الأولوية . ويمضى تحليل هيديجر على تدرُّج فى كشف أن الإنسان هو موجود محدود être-là أو كائن فى العالم être-dans-le-monde وأنه هلع وحريّة .

إن غاية الفلسفة هى أن تصوِّر الإنسان لنفسه لكى يعرف نفسه مباشرة ؛ ولكن بعض الفلاسفة يسيرون فى الوصول إلى ذلك على غير الاتجاه الطبيعى ، فهم يجعلون الإله أو الطبيعة أو الحياة نقطة بداية تفكيرهم . أما هيديجر فهو مقتنع بعدم كفاية أى مذهب من هذه المذاهب بإزاء معرفة الإنسان نفسه بنفسه ، فلا بد بحسب تعبير سلفه ياسپرز Jaspers من خطوة جريئة للنفوذ بالقوة إلى الأعماق التى لم يستكشفها أحد فيما يتعلق بهذا اليقين الذى عند الإنسان بالنسبة لنفسه . إن الإنسان يظهر لنا « موجودا محدَّدا معينا هنا » être-là ،

فأنا شئ حاضر ، شئ متحقق ، هو ما يُشار إليه بقولنا : هأنذا ؛ ونحن نخطئ في مصير الإنسان إن لم نعترف أنه ، أولا وقبل كل شئ ، كائن يبرز بوجوده ، وأنه مظهر متناقض غير مفهوم ، ومعنى أنه « موجود معيَّن » هو أنه كائن موجود ، موجود من الداخل ، له في أساس هذا الوجود الذى له ، إمكانية معينة أو حرية ؛ فالإنسان موجود بحيث إن وجوده موضوع لتصرف مستمر من جانبه .

وهذا الحضور الذى للإنسان والذى نعرفه به هو حضور بالنسبة لشئ ما . وقد أثبت كانت ، الفيلسوف الألماني ، في مثاليته النقدية ، ومنذ زمان طويل ، أن الإنسان لا يمكن أن يتعقل نفسه إلا من حيث صلته بالأشياء ؛ فمعنى الوجود المعين Dasein إذن هو كون الإنسان في الكون in-der-Welt-sein ؛ وليس هذا بالشئ العرضى ، لأن الإنسان ليس له الحرية ولا القدرة على أن يجعل وجوده خارج الكون ، بل هو لا يوجد إلا بأن يكون بينه وبين الكون علاقة . فالإنسان [1] في حقيقته هو شئ وراء التجربة ، هو شئ بارز من هذا العالم وهو مجاوز له ، هو مظهر من النور ؛ لكن شعوره وتنبهه إلى أنه « موجود في الكون » هو أول وثبة لتفكيره وهو استيقاظه . و « وجود الشئ في الكون » له خصائص ثلاث ، وهى : الانفتاح Erschlossenheit والكائنية Benfindlichkeit ، وفهمه لنفسه (؟) Verstehen . إن الوجود المعين هو كون الموجود مفتوح النافذة على الكون ولكنه مضاء من الداخل ، وهذا هو معنى الانفتاح ؛ ولذلك يشعر الإنسان بنفسه ويتنبه لوجوده من طريق إحساسه فجأة بأنه موجود هنا وبأنه شئ خيالى منعزل Benfindlichkeit ,déréliction ؛ لكنه سرعان ما ينكشف له أمر نفسه بفضل قدرته على الوصول إلى أقصى حدود نفسه وبفضل مجهود يجلّى له الحرية الموجودة فيه والملازمة له ؛ فالإنسان متقدم على نفسه دائماً ، هو يقف أمام نفسه Verstehen .

إن الهلع يردّ الإنسان من فقدان نفسه في كثرة المهام والمشاغل اليومية إلى مشاهدة مصيره وطبيعته الأساسية مجردة من كل ما يحيط بها . وتجربة

---

(١) النص من هنا إلى آخر الفقرة غامض مضطرب ، والأفكار غير محكمة البناء (المترجم) .

الموت التى تنتهى بها حتما كل حياة هى التى تصل بالإنسان إلى أعلى درجات هذا الهلع ، وتحوّل سقوطنا أو انهيارنا فى الموجودات المتكثرة on إلى النجاة من طريق حياة حقيقية تتمثل فى شعورنا بذاتنا je ؛ ولذلك فإن هيدجر يعرّف الإنسانيــة بأنها القلق ، ومعنى أن الإنسان يقلق عنده هو أنه أمام نفسه مع بقائه مثقلا بالأشياء التى تلاقيه ، وهذا هو الذى يمهد للعزم والتصميم .

وإنالتصميم الذى به يباشر الإنسان حريته وسط موقفه غير الحقيقى هو علامة الحياة الحقيقية ، وهو يصدر عنى لا عن الـكون ؛ ولـكنه من ناحيته لا يمكن أن يتجلى إلا فى الـكون، هذا الـكون الذى يصطبغ من حيث طبيعته بصبغة الزمن ؛ والاتجاهات الثلاثة للزمن تعطينــا صورة كاملة عن طبيعة الإنسان وحاله ؛ فالإنسان لايستطيع أن يتقدم نفسه إلا بالقدر الذى له مستقبل أمامه ؛ ثم إن كونه وحيداً منعزلا يأتى من أنه مرتبط بماض ؛ أما حقيقــة وجوده المعين فهى الالتقاء بينه وبين حاضره ؛ فثم إذن ميزة للمستقبل ، ومصير الإنسان مصير تاريخى .

لقد حاول هيدجر فى عهد هتلر أن يدعو الناس إلى اعتبار فلسفته تمهيداً للنظام الاشتراكى الوطنى ، ولـكنه الآن يفسرها على نحو روحانى شبه دينى ؛ فهل هذا منه نزعة انتهازية ؟ أليس الأمر أن نقول بالأحرى إن الوجودية ، إن كانت تريد أن يرتبط الإنسان بها ارتباطاً متيناً ، لاتعرف بأى شىء يجب أن يرتبط ، ويمكن لذلك تفسيرها على كل الوجوه ؟ ولذلك فإن من الوسائل التى تريد الوجودية أن تنجو بها ما حاوله ميرلوبونتى Merlau-Ponty ، وهو المفكر الذى يرى فيه هيدجر أخاص تلاميذه الفرنسيين ، والذى تبشر الأمارات بأنه سيكون أعظم شأنا من سارتر بكثير

وقد كان الحادث الفلسفى الـكبير فى عام ١٩٤٥ هو ظهور رسالة ميرلوبونتى التى عنوانها : ظاهرية الإدراك phénoménologie de la perception ؛ وقد اختير هذا العنوان المتواضع فى ظاهره اختياراً له مغزاه . يريد المؤلف أن يقول إن الوقت قد آن للاعتراف من جديد بالعالم المدرَك والعودة إلى الواقع . وكانت أول دراسة عن الظاهرية هى التى قام بها سارتر فى كتابه عن « المتوهَّم » *L'Imaginaire* ، والمؤلف يعود فى هذا البحث إلى التمييز الأولى الطبيعى بين

العالم المتوهم وبين الواقع ؛ فإن كليهما أمامنا ، لكن أحدهما « شيء غائب » absence والآخر « شيء حاضر » présence ، وقد تمسك المؤلف فقط بوصف الصورة الوهمية التي هي لاشيء néant وبتحديد معنى التوهم الذي وظيفته تحويل الكون إلى لا شيء ، وبذلك يعبر المؤلف عن الاتجاه الأساسي الذي به نعارض هذا الكون . ثم إنه أيضاً قد جعل أساس تفكيره نفس التمييز الواضح الذي نفرق به دفعة واحدة بين الحلم وبين الحقيقة ؛ فهو يمثل الطرف المقابل لسارتر . وهو يقصر الظاهرية التي يذهب إليها على الإدراك الذي شأنه أن يصلنا مباشرة بالكون ؛ وهو على هذا النحو يصل إلى المعنى الحقيقي لحياتنا بعد أن أفقدنا إياها التخيل أو الوهم .

إن الكون يوجد قبل أن أدركه ، وإن المسلك الوحيد الذي أستطيع أن أسلكه إزاء الكون هو أن أدرك هذا الكون ، لا أن أفهمه . وإذا كنت فيلسوفاً ، كان مسلكي أن أصف الكون دون أن أحاول تفسيره ولا تحليله . ووضع المشكلات أهم من حلها ؛ وكثيراً ما نلاحظ أنه ليس ثم حلول تطاب ، وأن « أنواع اليقين التي توجد في بادىء الرأي المشترك » وأن المسلك الطبيعي العادي صحيحة لا غبار عليها ، وإنما يكفي أن نتبين بالدقة ما نحن وما نفعل ؛ « لا يجوز أن نسأل : هل ندرك نحن العالم في الحقيقة ، بل يجب على العكس من ذلك أن نقول : إن العالم هو هذا الذي ندركه » . ثم إن الشيء الذي به نتأكد أن العالم موجود هو جسدنا ؛ والجسد ليس شيئاً كالأشياء الأخرى ، بل هو يكوّن وجودنا كما يكوّنه تفكيرنا ؛ هو ليس جزءاً من الكون بل يقيم في الكون ويجعله حاضراً بالنسبة لنا ، وبدون هذه الفكرة لا نستطيع أن نعلل ما يتوهمه الذين بترت أعضاؤهم ، وذلك حين يعتقدون أنهم يحسون بالعضو المفقود ، ولا أن نفسر الجنسية sexualité التي تعبر عن الوجود بأن تحققه ، ولا اللغة التي لا تنبني على الفكر ، وإن كانت تتمه ، ولا أخيراً توجيه الإنسان نفسه في الفراغ .

والنتيجة الأولى هي أن الإنسان خلق ليعيش على هذه الأرض ، وسواء أأردت أم لم أرد « فأنا ذات مقضيّ عليّ بأن أكون في هذا الكون » ، فهل ينبغي أن نستنتج من هذا أنه لافائدة ولاجدوى من الثورة على المركز المتناقض في كثير من الأحيان والذي قد خصص لنا في هذا العالم الأدنى ؟ ولن يكون

ميرلوپونتى وجوديًا إن رفض كل قيمة للإحساسات العميقة الخاصة بالإنسان مثل شعور الملل ، وإحساس الإنسان بأنه غريب ، ورغبته فى رفض الأشياء . ولكننا نجد پونتى ينظر إلى هذه الإحساسات ويصورها من زاوية جديدة جدًا ، لم يكد فنك Fink أحد تلامذة هوسرل ، يبينها حين يقول إن اندماج الإنسان فى الكون طبيعى إلى حد أنه لا غنى عن نسيانه وعن معارضته لكى نظهره على وجه أكمل ؛ وهذا هو معنى «التحويل» réduction الظاهرى . فيجب على الإنسان أن يدهش لأنه فى العالم وأن يشك فيه وأن يشكو منه على نحو شبيه قليلا بما يفعله المجنون الذى اختل حكمه فحسب أنه غريب فى هذا العالم ، إلى أن يتبين أنه حقيقة فى الوسط الخاص به . وعند هذا يعود اليأس وتحطيم كل العقائد ، وهما ما تتميز به الكتب الأولى التى أخرجها سارتر ، إلى مكانهما فى تاريخ الشعور ، وذلك كعنصر ضرورى ، وإن كان مؤقتاً .

أما النتيجة الثانية فهى أن مثل هذه الفلسفة تعيد لنا مع حضور أنفسنا أمام الكون حضورنا أمام غيرنا . وإن طريقة أصحاب الظاهرية تتلخص فى اعتبار الشعور لا على أنه « اليقين الخالص الذى لنا عن أنفسنا » بل على أنه شعور بشىء أو اتجاه نحو شىء . فكل شعور له إذن طريقة وحيدة لأن يتصل بالأشياء الخارجية ؛ وشخصيتنا أو مصيرنا ينتهى بأن يكون عبارة عن العلاقة الخاصة التى تربطنا بالكون . وزيادة على هذا يوجد بين خطوات شعورنا اتجاه قصدى جوهرى ، هو أساس الحب وهو الاتجاه إلى الشخص الآخر . وإن ميرلو پونتى ليدفعنا حتما إلى تذكر ما وصفه لويس لاڤيل ، وإن كان ميرلو لم يذكر ذلك ، وهو يهيئ على نحو ما انتقالا من وجودية المآسى إلى وجودية السرور . فهو يسأل مثلا : « هل أعطى هذا الوعد ؟ وهل أخاطر بحياتى لأجل شىء قليل كهذا ؟ وهل أضحى بحريتى لإنقاذ الحرية ؟ لا توجد إجابة نظرية على هذه الأسئلة ، ولكن توجد أشياء ماثلة أمامك لا يمكن تفاديها ؛ أمامك هذا الشخص المحبوب ، وأمامك هؤلاء الناس الذين يعيشون حولك مستعبدين ، والحرية لا يمكن أن تراد دون الخروج عن الفردية ودون إرادة الحرية » . فالاتصال بين الكائنات الشاعرة يضيف معنى جديداً للحياة ، وذلك أن تكون حياة لا فى الكون فقط بل حياة لأجل آخر ولأجل الآخرين .

أما النتيجة الأخيرة فهى أنه بمجرد أن نستقر فى العالم المادى والعالم

الاجتماعى فإن حياتنا تتجسد فى التاريخ . ويكرر ميرلو بونتى هنا الآراء التى فصلها آرون Aron ، وهو ثالث الثلاثة الكبار الذين يؤمنون بالوجودية الظاهرية ، فى كتابه « مقدمة لفلسفة التاريخ » ؛ فليس عنده للتاريخ معنى فى ذاته ، بل هو غير ثابت وهو يتوقف على غيره ، لكنه يصبح له معنى بالنسبة لنا نحن الآدميين ، وهو المعنى الذى نريد أن نعطيه إياه ؛ « فلما كنا فى هذا الكون فقد قضى علينا أن نعتبر للأشياء معنى ، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً أو أن نقول شيئاً إلا إذا كان له اسم فى التاريخ » ؛ وليس تفسير التاريخ بالسياسة أو بالدين أو بالحرب أصح من تفسيره بالمادية الجدلية أو بالاقتصاد . إن التاريخ يظهر حريتنا ، والتاريخ الحقيقى الوحيد هو تاريخ المناهج المتتابعة التى أريد بها تفسيرُ التاريخ ، على أن التطور التاريخى لا نزاع فيه ؛ فثم خطوط للوقائع وللاحتمالات الممكنة ، فنحن الذين نعطى التاريخ معناه ، ولكن لا بد أن يشير علينا التاريخ بذلك .

وهنا يشتد الجدال ؛ فالوجودية قد أبطلت العلم باسم الكرامة الإنسانية . العلم لا يقدم لنا إلا آراء احتمالية ، لنا الحرية فى أن نقبلها أو نرفضها ، وهو لا يريد أن يتصرف تصرفاً حراً . ولقد كان پسكال ممن يتكلمون عن خبرة حين قال : « لقد قضيت وقتاً طويلاً فى دراسة العلوم المجردة ، وإن قلة ما استطعت أن أفيده منها من الأسرار قد أملّتنى ؛ فلما بدأت دراسة الإنسان تبينت أن هذه العلوم المجردة ليست شأن الإنسان ، وأنى كنت كلما تعمقت فيها ازددت بعداً عن طبيعتى الإنسانية من الآخرين الذين يجهلونها »

والتاريخ من حيث هو علم يتعرض لهذا النقد نفسه ؛ فتقرير ماركس أن « سقوط البورجوازيه وانتصار طبقة العمال كلاهما لا مفر منه » يصبح غير مقبول . والمسألة الاجتماعية هى الظاهرة التى تميز عصرنا ؛ لأن العالم يتجه إلى الاشتراكية ، وهذه حقائق وخطوط تطوّر أمامها أكبر فرصة . ولكن نلاحظ أولا أن من يعتقد بالضرورة القاهرة فى التاريخ فهو إنما يحكم على نفسه بألا يكون له تأثير ؛ لأنه لا أحد بعد ذلك سيكلف نفسه مشقة العمل ، كما أنه بدون الإرادة الإنسانية لا يتم شىء . على أننا ألسنا قد انتهينا إلى هذه الحالة من الركود ، وهى الحالة التى طالما خاف منها ماركس والتى فيها أصبح التاريخ لا يتقدم . ومن جهة أخرى فإن سير الحرية فى طريقها لا يمكنه أن يحتمل توقفاً ، ولو مؤقتا ،

لهذه الحرية ، إلا ويقضى على نفسه . وهذه الحجة موجهة هنا ضد الحزب الشيوعى الذى يميِّز تمييزاً دقيقاً عن الحالة الأخيرة لفكرة ماركس . يقول بوفريه Beaufret : « إن الأمر هو معرفة هل الماركسية الحقيقية إلغاء وتصفية للحرية أو هى التأكيد الجازم لها » . وأخيراً من أين كانت تأتى قيمة الرجل الثورى الذى يحدث انقلاباً ، ومن أين كانت تأتى قيمته العظيمة ، إن كان ليس ثوريًّا إلا بحكم الضرورة ولم يكن تأكيده لفكرته واضطلاعه بتحقيقها غير ناشىء عن أفعال يتجلى فيها وجوده كله ؟ يجيب بوفريه : « إن معنى كون الإنسان ثوريا هو أن يختار لنفسه الكفاح بقرار لا يرغمه عليه شىء خارجى » .

وبوفريه فى هذا ينضم إلى ما قرره ليون بلوم Léon Blum حديثاً من « أن الثورة الاجتماعية ليست فقط نتيجة لا مفر منها للتطور الاقتصادى ؛ بل هى فى الوقت نفسه نهاية ما يطالب به العقل والضمير الإنسانى منذ الأزل . » والثورى الحقيقى لا حاجة به إلى الأمل ، بل إن تأكيد السعادة فى الثورة الشيوعية يفسد كل شىء ؛ ذلك أنه لا يمكن أن نخلص الإنسان من الإنسان ، من بؤسه ومن كونه لا شىء ، فلن يكون ثم أبداً جنة على الأرض . وقد كان يهوذا خائناً للمسيح لأنه كان يعتقد بإمكان السعادة فى هذا العالم الأدنى ؛ فكل الثوريين الذين يثورون على ضوء الأمل هم خونة المستقبل . فيجب إذن القيام بالثورة لا بقصد بلوغ حال للإنسانية خير مما هى عليه ، بل يجب القيام بالثورة كما يقدم الإنسان على مستقبل مجهول لا بد أن يجتازه معرضاً نفسه للموت ، فالبعض يختارون الموت غير شاعرين ، أما الوجودى فلا يستطيع الاختيار إلا عن شعور ، ولا يستطيع إلا أن يختار الوجود ، فهو سيكون دائماً إلى جانب الشيوعيين ، ولكن له فكرة خاصة به .

ماذا نفعل بحريتنا ؟ نحن نستعملها فى أن نحرر الآخرين . فإذا اختار الإنسان لنفسه الحرية فمعنى ذلك أنه يشمل الإنسانية كلها ويلزمها بهذا الاختيار ؛ بمعنى أن كلاًّ منا ، كما يقول عنوان رواية س . دى بوفور S. de Beauvoir ، مسئول عن « دم الآخرين » . وعلى هذا المقياس ينبغى أن يكون حكم القضاء منذ الآن ، فلن يكون ثم إلا جريمة واحدة معترف بها ، وهى معاملة الإنسان كشىء أو القضاء على حريته . وفى هذه الحالة لا يوجد إلا عقاب واحد ، وهو الانتقام ، أعنى الموت ، دون قانون أن الجزاء من جنس العمل ؛ وباسم هذا المبدأ

احتجت س. دى بوفوار على الفظائع التى ارتكبت عند تحرير فرنسا، كما احتجت على الفظائع التى ارتكبها الألمان أنفسهم، وهى تطالب بدلا من محاكمة مجرمى الحرب بإطلاق حريتهم أو بإعدامهم دون محاكمة.

فبعد أن كانت الوجودية فلسفة الهلع الدينى ثم فلسفة اليأس العقلى، تصير، كما يبدو، فلسفة إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، فلسفة إعادة الكرامة لجسمنا، فلسفة مواجهة الواقع والارتباط بالموجودات الأخرى. ولا يزال مذهب ميرلو بونتى وجوديًا بفضل إحساسه القوى بأنه ليس ثم ماهية مجردة إلا ولابد أن تظهر فى ثوب وجود محس؛ لكن هذا المذهب يوجه الفلسفة الوجودية إلى حل كبير، وهو يسير بها إلى كلاسيكية ليست بأكاديمية، وإلى نظام ليس بورجوازيا، وإلى سلام ليس بضعف ولا جبن. ومع هذا فإن الوهم سيبقى دائما إلى جانب الحقيقة، وستظل الثورة دائما فى مقابل أخذ الأشياء كما هى؛ وإذن فالإنسان يظل بين الحركة التى تدفعنا إلى القول بأن الإنسان ليس له طبيعة وبين الحركة التى تردنا إلى الطبيعة وإلى بادىء الرأى المشترك. هكذا يبقى الإنسان وهو يعيش من هذا التناقض ذاته.

ريجيه أنزيو

نقلها عن الفرنسية محمد عبد الهادى أبو ريدة

ملاحظات ومراجع

بليز بسكال (١٦٢٣ – ١٦٦٢): عالم وفيلسوف فرنسى، تدخل فى المنازعات الدينية، ودافع عن أتباع جانزينيوس وحارب الجزويت؛ وقد ترك كتاباً فى الدفاع عن المسيحية، وهو غير كامل وعنوانه *Les Pensées*.

PASCAL Blaise (1623-1662), savant et philosophe français, mêlé aux luttes religieuses, défend les jansénistes contre les jésuites. Les fragments de son Apologie de la religion chrétienne, inachevée, forment *Les Pensées*.

سورن كيركيجارد : كاتب دانماركى ، كان فسخ خطبته سببا فى بقاء الفكرة فى ذهنه طول حياته ، وهو يحاول أن يبرر حالته النفسية فى كتابه المسمى « الخوف والارتعاد » وله كتب أخرى منها المائدة ، ورسالة اليأس ، ومعنى الهلع ، وكتاب إما وإما . . .

KIERKEGAARD Soren, écrivain danois; la rupture de ses fiançailles, à titre de sacrifice, le hanta toute sa vie; il essaie de s'en justifier dans *Crainte et tremblement* (1843). Autres ouvrages principaux: *Le banquet, Le traité du désespoir, Le concept d'angoisse, Ou bien ou bien...*

لويس لاڤيل : أستاذ فى كوليج دى فرانس وله كتب منها « جدل الحاضر الخالد » ، و « الحضور الكامل » و « الشر والألم » وغيرها .

LAVELLE Louis, professeur au Collège de France. *La dialectique de l'éternel présent* (5 vol. 1936-1946); *La présence totale, L'erreur de Narcisse, Le mal et la souffrance...*

رينيه لوسين : أستاذ فى السوربون ، ومن كتبه كتاب الأخلاق ، وكتاب الأمزجة ، وكتاب العقبة والقيمة .

LE SENNE René, professeur en Sorbonne. *Obstacle et valeur, Traité de morale, Traité de caractérologie...*

بريس باران : قارئ فى دار جاليمار للنشر ، وله رسالة تسمى أبحاث فى معنى اللغة ، وله قصة تسمى موت جان ماديك .

PARAIN Price, lecteur à la maison d'éditions Gallimard; auteur d'une thèse *Recherches sur la signification du langage* (1942), et d'un roman: *La mort de Jean Madec* (1945).

جان ڤال : أستاذ فى مدرسة المعلمين العليا بباريس ، وهو شاعر وفيلسوف ، وكتابه الأكبر هو « دراسات كيركيجاردية » .

WAHL Jean, professeur à l'Ecole Normale Supérieure, poète et philosophe; son ouvrage fondamental est *Etudes kierkegaardiennes* (1935).

البير كاموس : كان ممثلا ، وهو جزائرى الأصل وكان قارئاً فى دار جاليمار للنشر ، وله قصص : مثل الغريب ، ومسرحية : كاليجولا ، وغير ذلك .

CAMUS Albert, ancien acteur, algérien, lecteur chez Gallimard, auteur d'un roman *L'Etranger*, d'une pièce de théâtre *Caligula*, d'un essai *Le Mythe de Sysiphe.* (I°/1937. 2°/1942. 3°/1939).

جان بول سارتر : صحفى ، وكان مدرسا للفلسفة ، وهو مؤلف لروايات عدة منها : الغثيان ، والحائط ، وسبل الحرية ، وله قصص مسرحية مثل الذباب ، وكتب فلسفية مثل المتوهم ، والوجود واللاشئ ، وهو مدير مجلة « العصور الحديثة » بفرنسا .

SARTRE Jean-Paul, journaliste, ancien professeur de philosophie, auteur de romans: *La nausée* (1936), *Le mur, Les chemins de la liberté* (1945); de pièces de théâtre: *Les mouches* (1942), *Huis clos* (1944), *Mort sans sépulture* (en création); d'ouvrages philosophiques: *L'imagination, L'imaginaire* (1941), *L'être et le néant* (1943). Directeur de *Les Temps Modernes,*

سيمون دى بوفوار : كانت معاونة لسارتر وحاصلة على درجـة الأجربجاسيون فى الفلسفة ؛ وقد ألفت قصصاً منها دم الآخرين . ومنها قطعة مسرحية تسمى الأفواه التى لا فائدة لها وغير ذلك .

DE BEAUVOIR Simone, agrégée de philosophie, collaboratrice de Sartre, auteur de romans: *L'invitée*, *Le sang des autres*; d'une pièce: *Les bouches inutiles*; d'un essai: *Byrrhus et Cinéas* (1942-45).

ميرلو بونتى : أستاذ فى كلية ليون ، ومن كتبه تكوين السلوك ، وظاهرية الادراك .

MERLEAU-PONTY Maurice, professeur à la faculté de Lyon. *La structure du comportement* (1942), *Phénoménologie de la perception* (1945); gérant de la revue *Les Temps Modernes*.

جبريل مارسيل : كاتب مسرحى ومن قصصه المسرحية : الحرية ، والشعلة ، ومن مقـالاته الفلسفيه : الوجود والملك .

MARCEL Gabriel, Théâtre: *Le dard*, *Le fanal*, *Le chemin de Crête*, *La soif*... Philosophie: *Journal métaphysique*, *Etre et avoir*, *Du refus à l'invocation*, *Homo viator*.

برديف : له كتاب يسمى خمس تأملات فى الوجود ، وكتاب يسمى العقل والواقع .

BERDIAIEV Nicolas, *Cinq méditations sur l'existence*, *Esprit et réalité*.

هيدجر : من كتبه الوجود والزمان ، وكتاب ما هى الميتافيزيقا .

HEIDEGGER Martin, *Sein und zeit (Etre et temps)*; *Qu'est-ce que la métaphysique*.

جنّة الحبّ

أنا في الدُّنيا كمحروم طريدْ بات مِن جنّات عَدْنٍ بالوصيدْ
شاخصُ الطّرف إلى أبوابها وعلى أسوارها الزّهرُ النّضيدْ
أجتلى في كلّ حين وافداً من لداتى ثابتَ الخطو وئيدْ
جاز بى عندَ حماها ، وانثنى يطرقُ البابَ ، فلبّاه الرّصيد
وانفَتَحى الباب له ثم انطوى وغدا في جنّة هذا السّعيدْ(1)
ويا لَتا إن ظلّ حظي عندها لمحات مُعجَلات من بعيد
وسَماعى رنّةَ القَصْف بها وشميمى المسكَ من ذاك الصعيد
آه يا ليت الذى يحرمنا لم يُضاعف بالمنى فقدَ الفقيد
شفتى عطشى ، وقلبى جائعٌ يتضاغى ، والمنى برحٌ جديد
هِيَ كالمُهْل وكالزّقّوم لا تشبع الطاوى ولا تُروى الجهيد(2)
ليس يغنينا المُنى عن واقعٍ وهي تغرينا دواماً بالمزيد
جنّةَ الحبّ ! أيغشاك الورى من غليظ الحسّ ، مأفونٍ ، بليد
ثم تحمين جناك المشتهى شاعراً يُضني على الحبّ القصيد !

عبد الرحمن صدقي

(1) انفجى الباب : انفتح . (2) المهل والزقوم شراب أهل الجحيم وطعامهم .

عاكفا على المخطوطات العربية [1]

إينياس كراتشكوفسكي عضو المجمع العلمى ورئيس مدرسة المستعربين السوفيتية ، بحاثة مدقق فى عالم الأدب والحضارة العربية . إن بحوثه الكثيرة مشهورة فى دنيا العلم فى الخارج وفى الاتحاد السوفيتى . فهو ليس بعالم فحسب ، ولكنه كاتب ممتاز ومنشئ بارع . ولذلك فان القراء السوفيتيين قد رحبوا كثيراً بكتابه « عاكفا على المخطوطات العربية » الذى تولى نشره مجمع العلوم فى الاتحاد السوفيتى .

ليس الكتاب مذكرات بالمعنى الصحيح على حد تعبير المؤلف فى مقدمته ، فهو يقول : « إن ما دونته على الطرس ليس ذكريات حياتى ، وإنما هى ذكرياتى عن المخطوطات العربية التى لعبت دوراً كبيراً فى حياتى » . والواقع أن البطل ، فى كل فصل من فصول هذا الكتاب ، هو عبارة عن مخطوط لا تقل سيرته متعة عن أبطال القصص العربية . فلكى يتم إذن ما كتب على لوحة القدر لكل مخطوط راقد فى مكتبة كالأميرة المسحورة ، لا بد لفارس من فرسان تلك الدولة ، عالم ، أن يقوم بغزوة . لا بد أن يحيي حبه للعلم هذا المخطوط وينفث فيه الروح .

لقاء العالم والمخطوط ، والطريق الخصبة بالمغامرات الأدبية التى يقطعانها معاً ، ذلكم هو الموضوع الجذاب الذى تضمنه مؤلف كراتشكوفسكي عضو المجمع العلمى .

إنه يقول فى مقدمته : « لقد أردت ، قبل كل شئ أن أقص ما يشعر به العالم وهو يدرس مخطوطاً ، أردت

(١) من كتاب المستشرق الروسى العظيم نقلا عن مجلة الآداب السوفيتية عدد ٢ (فبراير سنة ١٩٤٦) .

ان أكشف عن المشاعر التي تنتابه ولا يتكلم عنها إطلاقاً في بحوثه العلمية . أردت أن أتحدث عن عوامل الفرح أو اليأس التي تنشأ عن العمل المكتبي الذي لا يشك فيه الكثيرون إذ يقدرون أنه عمل غير مجد وبعيد عن الحياة » .

فالقصص الثلاث التي ننشرها مقتطفة من الفصل الثاني من كتابه « سياحاتي في الشرق » .

إن المؤلف يصور لنا بحوثه ، كعالم فتي ، في دور الكتب في الشرق الأدنى بين سنتي ١٩٠٨ و١٩١٠ .

مرت أودسا ، والآستانة ، وأزمير كما لو كانت في ضباب . وفي شهر يوليه كنت في بيروت . لقد صادفني كثير من خيبة الأمل ، وتبدد – قبل كل شيء – ما كنت أخادع به نفسي . لقد تبين لي أن معلوماتي المتينة في اللغة العربية الفصحى كانت قليلة النفع بالقياس إلى لغة الحديث التي لم أكن أعرف منها إلا بعض المبادئ التي وقفت عليها من إلمامي بما كتب عن العادات القديمة . كان الناس في الطريق لا يفهمون ما أقوله . وكان لا بد لي من بذل جهد كبير لأفهم اللغة التي يتكلمونها في سرعة شديدة . ومع ذلك لم يكن لي بد من « أن أتكلم » فهذا بعض ما جئت له . ولا بد من اتخاذ الاجراءات الحازمة . فقررت أن أقضي شهرين في ضيعة صغيرة في لبنان ، حيث لا أسمع إلا الكلام باللغة العربية .

في بادئ الأمر شغلت الطبيعة والناس كل اهتمامي حتى ليخال أن الكتب أصبحت في المقام الثاني . فكنت أجتهد ، ما استطعت ، في معاشرة السكان لأتمرن في اللغة . وكان السكان بطبيعتهم يحبون المعاشرة ، ويميلون إلى التعارف والتآلف ، فكانوا ينظرون في استطلاع مرحبين في كل مكان بهذا « المسكوفي » الذي يبدو مدهشاً غريباً . ولم يكن ذلك مما يسهل احتماله على طبيعتي النافرة . وكان هؤلاء الأصدقاء يقولون لي مازحين : « إنك تشترى ، ولا تبيع ! وتصغي ولا تقول » . وإذ لم أستطع أن أغير طبيعتي ، فقد رأيتني منجذباً نحو الكتب التي كنت أرتاح إليها أكثر من ارتياحي إلى الناس .

. . . وقد تم التوازن ، إلى حد ما ، بين الكتب والناس ، خلال الشتاءين اللذين قضيتهما بعد ذلك في بيروت ، مختلفاً إلى الجامعة اليسوعية وهي جامعة فرنسية عربية . على أنه يجدر بي أن أعترف بأن الناس الذين قابلتهم هناك ، كانوا ، من جانبهم « رجال كتب » ، وهذا ما سهل التقارب . ما أكثر الأسماء بين الأوربيين وبين العرب .

. . . صورة غنية بالمناظر الخلابة تجلت لنظري في الشرق ، غير أن ثروته من المخطوطات هي التي أسرتني ، فلم يعد في استطاعتي أن أخلص من هذا السحر . لم أكن أعرف إلى ذلك العهد إلا بعض فهارس للمخطوطات . أما هنا فتوجد مجموعات كاملة من هذه الأثبات التي تحوي المئات والألوف من الأرقام . كنت أشعر باحساس الطفل أمام المحيط الذي لا ينتهي ، وكنت مسحوراً لا أستطيع أن أبعد عنها ، كان ذلك فوق طاقتي .

رسالة فى النحو أو رسالة فى مهاجمة الدين (١٩١٠ — ١٩٣٢)

كان مقامى فى القاهرة يوشك أن ينتهى ، ولكننى لم أستطع أن أنتزع نفسى من بين المخطوطات المحفوظة فى مكتبة الأزهر وهو مدرسة الاسلام العليا . وبينما كنت فى دار الكتب الخديوية ، أستطيع أن أطلع على الفهارس المطبوعة للمخطوطات ، لم أكن أجد هناك إلا فهرساً مقتضباً قد كتب باليد . ولذلك كنت مضطرا إلى البحث عن المخطوطات فوق رفوف المكتبة ، حسب عنواناتها ، التى لم تخل من خطأ ، وكنت أعتمد فى ذلك على المصادفة .

فى أوائل يناير ١٩١٠ ، وخلال بضعة الأيام الأخيرة الباقية لى ، عثرت على رسالة فى النحو والصرف لأبى العلاء الشاعر الفيلسوف الضرير(١) . لم تكن الرسالة فى نفسها هى التى استرعت اهتمامى ، ولكننى كنت أعرف المؤلف جد المعرفة ، وكنت أجمع — بغير غرض معين — كل ما يتصل به . كان ذلك — إذا صح التعبير — كوصية من أستاذى ف. روزن لذى شعر بشغف — فى سنى حياته الأخيرة — نحو هذا المتشكك والأديب اللاذع . إن تحليله التشاؤمى الدقيق ينفذ إلى أعماق النفوس ويبصم بابتسامته الرقيقة الساخرة ، مرارة اليأس التى تثيرها الخواطر المقطعة .

ومن المحقق أنى لم أكن أنتظر آن أجد فى هذه المخطوطة آراء جديدة مميزة لأبى العلاء من تلك الناحية ، ولكننى دهشت لأن الاشارة إلى هذا الكتاب كانت نادرة وأن نسخاً أخرى منه كانت مجهولة ، وشاركنى فى دهشتى الشيخ المحمصانى الذى رأى له مخطوطات أخرى ! كان الشيخ أحد أمناء المكتبة ، وكنت أتحدث إليه كثيراً فى مختلف الموضوعات الأدبية ، بل عن تعلم اللغة الفرنساوية أيسير هو أم عسير ، وكان صدور هذا السؤال من مثله يعد شذوذاً . كان يعطف على عطفاً خاصاً ، وكانت إليه شؤون المسلمين الروسيين ، فظن أن إشرافه هذا يمتد إلى .

لا يبدو على هذا المخطوط شئ هام عند أول نظرة . كانت نسخة كبقية النسخ الأخرى . نقلها ناسخ محترف فى القرن التاسع عشر عن نسخة أصلية . وليس من شك فى أن هذا الناسخ لم يحسن الانتفاع بهذه النسخة القديمة . على أننى ما كدت أقرأ السطور الأولى حتى أدركت السبب فى بقاء هذا المؤلف قليل الانتشار إن لم يكن مجهولا . فلو أن للعرب فهرسا للكتب التى تحظر قراءتها لاحتلت تلك الرسالة مكان الشرف منه .

كانت الرسالة فى ظاهرها تبحث عن النحو ، فكانت تتناول شرح القواعد المقررة الشائعة لمختلف أنواع التصريف فى أسماء الملائكة مع الاستشهاد المعتاد بآيات القرآن والرجوع إلى الاشارات الأدبية المختلفة . على أن ذلك كله لم يكن إلا ستاراً . فالكتاب بأكمله مشبع بروح السخرية المستترة التى لا يسهل على من يجهل روح أبى العلاء الأدبية ، أن يستوعبها ، وكذلك على من لا يشعر بأن لأبى العلاء طرقاً فى تركيب العبارات خاصة به ، وأن هذا التركيب يخفى بمهارة فائقة على أعين المبتدئين غير المختصين فكرة

---

(١) يشير الى رسالة الملائكة وقد طبعت أخيراً فى دمشق طبعة عامية قام بها الأستاذ محمد سليم الجندى .

جريئة . الحق أن هذه الرسالة فى النحو ليست إلا رسالة نقد لاذع خفى للفكرة التى يكونها المسلمون لأنفسهم عن الملائكة . وتلك هى الوسيلة التى لجأ إليها أبو العلاء فى مؤلف آخر مشهور هو « رسالة الغفران » حيث يتهكم بنفس السخرية اللاذعة ، بالوصف التقليدى لما وراء الموت .

وتعجلت فى قراءة السطور التى خطها الناسخ الجاهل وأنا أكد ذهنى لعلى أن أكشف عن حقيقة فكرة المؤلف أثناء هذا النص المشوه . فكنت أحيانا أجد بصيصاً من النور غير منتظر يجلو أمامى إشارة خفية . وكان لا بد لى من أن أمر بعبارات أخرى دون أن أتمكن من فهمها ودون أن أتمكن من إيجاد وسيلة للتغلب على عجزى ، نظراً للساعات القلائل الباقية من إقامتى فى القاهرة . فاكتفيت إذن بنسخ نبذ قصار فى سرعة . وعند ما أعدت المخطوط لآخر مرة إلى الشيخ المحمصانى اقتصرت على قولى له ، وأنا فى عجلة من أمر الرحيل : « إذا قدر لك أن تقرأه يوماً فلسوف تدرك السبب فى قلة انتشاره » .

كان قطارى يغادر القاهرة فى الصباح المبكر . ففى اللحظة الأخيرة ، دهشت إذ رأيت الشيخ يبحث عنى وهو يلهث تعباً . ولم يجد من الوقت إلا ما يكفى ليصيح بى من نافذة القطار الذى بدأ يتحرك وعلى مسمع من الجمهور الواقف على الرصيف ودهشته : « لم أتم من ليلتى ! إن من المدهش أن أبا العلاء لم يحرق ومعه رسالته ! » . ولم أكن بحاجة إلى شرح أوفى لأدرك أن معنى « الرسالة فى أصول اللغة » قد وضح له وتجلى .

ومضت سنوات طوال قبل أن أصل إلى تفهم جميع إشارات المتشكك الضرير والوقوف على دقائق المعانى والاستشهادات والمراجع الأدبية ، ولكننى لم أنس استكشافى الصغير .

. . . وفى صيف ١٩٢٦ ، وبينما كنت فى عزلة فى بقعة على حدود القوقاس عند ساحل البحر الأسود ، انتهيت من تقويم نص محرف منذ أجيال خلت كان يخال أنه غير مفهوم . وفى سنة ١٩٣٢ ، طبعت رسالة أبى العلاء ، بعد أن مر اثنان وعشرون سنة منذ ناولنى الشيخ بمكتبة الأزهر ، فهرس المخطوطات المتواضع الذى خطه قوم لا يعلمون . وهكذا انتهت قصة استكشافى الصغير تحت قبة الجامع الأزهر ، والذى نشره مجمع العلوم فى مطبعته فى جزيرة فاسيكفسكى فى لينينجراد .

رسالة لم تكتب (١٩١٠)

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب　　أودى وذلك شأو غير مطلوب
ولى حميدا وهذا الشيب يطلبه　　لو كان يدركه ركض اليعاقيب

لا أدرى لماذا يلح على هذا الشعر العربى يذكرنى بشهر يناير سنة ١٩١٠ حين كنت أعود من القاهرة إلى بيروت للمرة الثانية .

لم تكن الاسكندرية « بلد المال والقطن » تعنينى ، فمنذ عهد بعيد كانت تذكرنى بالغرب أكثر مما تذكرنى بالشرق ، ولكننى مع ذلك اعتزمت الاقامة فيها بضعة أيام ، كنت أريد أن أتعرف إلى حليم زيات الذى كان يتاجر بالفواكه المجففة مع جميع أنحاء العالم

وكان من الهواة فى جمع المخطوطات ، كان يحسن اكتشاف الأوضاع المجهولة فى الحضارة العربية وينفث فيها الروح فى أشعاره التى نشرت نبها بعد . وكنت أريد أيضا رؤية المخطوطات المحفوظة فى مكتبة الاسكندرية .

لقد أخبرنى الروائى الأديب زيدان وأنا فى القاهرة ، أن مكتبة الاسكندرية قد امتصت جزءاً من مكتبة الخديوى الثانى إبراهيم باشا ، نجل محمد على العظيم رأس الأسرة المالكة فى مصر . وسلمنى زيدان خطاباً فتح أمامى جميع الأبواب فى الحال .

وبينما كنت لا أزال متأثراً الأزهر ، مدرسة الاسلام العليا ، رأيتنى هنا أمام مشهد من نوع آخر . كانت المكتبة فى بناء جديد على طراز أوربى تابع للبلدية . وكان القسم الشرقى فيها يشغل قاعة فسيحة صفت إلى جدرانها الخزائن التقليدية وفى وسطها مائدة كبيرة . كنت فى تلك الآونة الزائر الوحيد ، على أن أمين المكتبه فتح لى القاعة عن طيب خاطر . وكان الأمين الذى يرأس هذا القسم شيخا حديث السن درس فى الأزهر . على أنه ، لولا لباسه المصرى — وهو عبارة عن عباءة رمادية بغير ياقة ، فضفاضة الأكمام — لصعب التكهن . بأنه ربيب هذا المعهد . فنظارته ، ولحيته المدببة ، ولغته الفرنسية التى يخال أنه كان يفخر بها أكثر من المخطوطات العربية الموكولة إلى حراسته ! كانت تخيل ، لأول وهلة ، أنه أوربى متنكر . على أن لغته العربية وحديثنا عن الأدب العربى ، قد تغلبا على هذا المظهر الذى يرجع فى الغالب إلى طبيعة الوسط فى الاسكندرية .

كانت المخطوطات منظمة . بل كان هناك فهرس مقتضب موضوع على غرار فهرس الأزهر ، ولكن بغير ما تمييز بين المطبوع والمخطوط . ومع رغبة الشيخ الصادقة فى القيام بما تتطلبه المقتضيات الأوربية ، فان فكرته عن قيمة الكنوز الموكولة إليه كانت ضئيلة . ولم تخب آمالى ، فقد وجدت ، ضمن نحو من عشرين مخطوطا جديرة بالعناية ، درتين من نفائس الشعر العربى الذى كنت أعنى به عناية خاصة .

وكان أحد المخطوطين يشتمل على قصائد لشاعر عربى معاصر للمؤرخ السورى الشهير ابى الفداء . كان هذا الشاعر وطنياً كبيراً ومداحا متحمساً من مدينة حماة التى كنت أعرفها ، أنا أيضا ، ببساتينها وهزيز نواعيرها المستمر . وكان هذا الشاعر يهجر اللغة الفصحى أحيانا ليكتب بلغة الحديث فى سوريا . فنسخت ، بغير ما عجلة ، بعض المقطوعات ونشرتها بعد خمس سنوات . أما المخطوط نفسه فهو الوحيد فى العالم إلى الآن ، ولا أدرى لماذا لم يثر اهتمامى .

أما الثانى فقد ذاد عنى الطمأنينة وقتاً طويلا . أرجأت فحصه إلى آخر يوم كنت سأقضيه فى الاسكندرية ؛ إذ أننى حجزت لى مكاناً على الباخرة . ولما أخذت هذا المخطوط بيدى جعلت أدرس بشغف ما كان يخيل إلى أنه نموذج من النسخ البديع . كان يحمل تاريخ القرن السادس للهجرة ويتصف بما امتازت به مدرسة ابن البواب الشهيرة . وقد كتب على صفحة من الحجم المتوسط ثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر بطريقة فنية بحروف كبيرة تحمل جميع علامات النطق والالقاء . وتبعا للطريقة الخاصة المتبعة عند الخطاطين ، كان البيت من الشعر الذى لا تكمل كتابته فى السطر ، تنقل بقيته إلى أعلى بحروف أصغر حجماً . هذا الاختلاف العجيب فى النظام ، كان يضفى على الرسم شكلا بديعاً . فكانت ألوانه — وخصوصاً توازن الألوان الخضراء التى شحبت على الزمن — مريحة للنظر . لا شك

فى أنه من صنع فنان ماهر . لقد نفذ هذا العمل بتلك الدقة العظيمة التى يتطلبها هذا الفن ، وبتلك الحرية التى يتمتع بها الفنان الممتاز .

وسرعان ما نسيت هذا الشكل بعد أن تصفحت المخطوط ، وأخذت بما حواه . لقد كنت أرى تحت عينى أبياتا لشاعر عربى من فحول شعراء العصر القديم ، ويرجع تاريخه بغير شك إلى ما قبل الاسلام . كانت هذه الأبيات ترسم صوراً ثمينة لحياة البدو ، وكانت تعطى تفاصيل عن الوسط الذى عاش فيه المؤلف تكاد تكون صوراً فوتوغرافية . وكانت مؤلفة على نمط القصائد فى العصر الجاهلى ، وقد روعيت فيها جميع قواعد النظم . وأحيانا كان التأمل يقوم مقام الرسوم البارزة . وقد علق فى ذهنى فى الحال مطلع قصيدة :

اودى الشباب حميدا ذو التعاجيب   أودى وذلك شأو غير مطلوب
ولى حميدا وهذا الشيب يطلبه   لو كان يدركه ركض اليعاقيب

لم أكن أذكر اسم الشاعر سلامة بن جندل المدون على المخطوط إلا على نحو مبهم . ومن الحق أنه ليس من فئة الشعراء الذين نشرت لهم مختارات باسم ديوان الستة الجاهليين . ومع ذلك فان المرء ليتبين فى كل بيت فناً ومهارة من نوع خاص . فأخذت أقرأ ، باضطراب متزايد ، سطراً إثر سطر . وكنت أشعر ، وقلبى يخفق، بأننى سأهتدى إلى استكشاف علمى. لم يكن يوجد فى المكتبة أى مرجع من المراجع التى تعودنا نحن الاوربيين أن نلجأ إليها . ولم أحمل معى خلال أسفارى كتاب بروكلمان ذلك المرجع الثمين لجميع المستعربين . ولكننى كنت على يقين من أنه لو ذكر شاعرى هذا ، فى أية ناحية من نواحيه ، فلا بد من ذكر المخطوط الذى اكتشفته ، وهو الوحيد فى العالم أجمع .

وكان لا يمكن أن أترك هذا الاستكشاف . وقد تقرر الأمر فى اليوم نفسه. كان لابد أن أسافر فى اليوم التالى ، وكان مكانى محجوزاً على الباخرة . ولكننى أسرعت فاستبدلت بتذكرتى تذكرة أخرى على الباخرة التالية . وكنت مسترسلا فى نوع من الذهول ، وانقطعت يومين إلى عمل محموم على مرأى من الشيخ المشدوه الذى انتهى به الأمر إلى أن يترك لى مفتاح القاعة على أن أسلمه للحارس حين أنصرف .

وأبحرت وكأننى فى حلم ؛ فقد كانت أفكارى كلها متجهة إلى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام . كنت أحمل فى جيبى نسخة من أشعار سلامة بن جندل مدعومة بجميع التفاصيل الدقيقة عن مخطوط الاسكندرية . ولم أستطع النوم ليلا ، وكانت باخرتنا قد أصبحت على مرأى من يافا . فأخذت أقطع ظهر الباخرة جيئة وذهابا ، ولم أفكر فى حدائق البرتقال التى كان البحر يحمل إلينا عبيرها . وحدثت نفسى بأنه يحسن بى أن أتخذ هذا الشاعر موضوعاً لرسالتى لنيل الدكتوراه . كنت أتخيل نفسى وقد بدأت أدرس الجو الحقيقى الذى نشأت فيه أناشيد سلامة بن جندل ، دراسة شبيهة بمؤلف جاكوب عن حياة البدو فى العصر الجاهلى ؛ وكنت أرانى وأنا أفيض فى شرح أفكار شوارتز فى شاعر من شعراء صدر الاسلام ، كما دونها فى المؤلف الذى وضعه عام ١٩٠٩ . ومن الحق أننى كنت قد اخترت موضوع رسالتى للدكتوراه ، وكدت أتمها ، ولكن سلامة قد أبعد كل ذلك عن فكرى . وإنه لما يغتفر لمستعرب حديث السن أن يرغب فى الاعلان عن استكشافه فى أقرب وقت ،

وأن يطالب بالأولوية بحيث يحتل مؤلفه مكانا متواضعاً فى مكتبة تاريخ العلم ! وبينما كنا نقترب من بيروت قررت نهائيا أن أهجر موضوع رسالتى الأول ، وأن أقف عنايتى على الثانى لا سيما وقد خيل إلى أن هذا الموضوع سيشغل منى وقتاً قصيراً .

ووصلنا إلى بيروت . إن المرء ليدرك مقدار ما كنت أشعر به من انفعال وعجب عند ما أسرعت ، فى الساعة الثامنة صباحا ، إلى زيارة أستاذى المستشرق لويس شيخو ، فى جامعة القديس يوسف التى كان بنيانها الضخم يشرف على جميع الحى الذى كنت أقيم فيه ، ويبدو للناظر من جميع أطراف المدينة . كان أستاذى أيضا ، يعيش فى عالم الكتب والمخطوطات . فليس ثمة شك فى أنه سيدرك مقدار ما أشعر به . كنت أعلم أنه سيشاطرنى سرورى وتأثرى ، كما كنت على يقين من أننى سأجده فى حجرته المتواضعة ، وهو يكتب أو يراجع أصول مجلة المشرق التى يرأس تحريرها ، أو فى المكتبة الشرقية الفسيحة فى الطابق الذى كنت أدرس فيه . هناك كان لا يوجد غيرنا إلا بعض أساتذة كلية الشرق الذين كانوا يترددون عليها أحيانا . وكان شيخو — كما قدرت — فى حجرته مهتما بمراجعة عدد المجلة المعد للاصدار . وبعد تبادل العبارات الأولى وقع نظرى أمامه على أبيات من الشعر ، فسألته عما عسى أن يكون ذلك المقال .

فأجابنى : «إننى أنشر ديوان سلامة بن جندل» . فاختلط على الأمر تماماً ، ولم أستطع إلا أن ألقى عليه سؤالا واحداً : « عن مخطوطة الاسكندرية ؟ » فدهش شيخو ونظر إلى، وقال : «كلا ! عن مخطوط الآستانة . » وسألنى بدوره عما يسبب اضطرابى إلى هذا الحد . ولما تمالكت نفسى قليلا رويت له سبب مجيئى إليه ، فكانت دهشته عظيمة . وأخذ يشير بيديه صائحا : « ما أعجب ذلك ! » وأخذنا فى معارضة المخطوطين . كانا شقيقين ، صادرين عن أم واحدة وفى تاريخين متقاربين .

ولم يكن الظرف الذى أثار عند شيخو فكرة هذا العمل ، أقل غرابة ودهشة . كان المستشرق الفرنساوى الشهير ك . هوايابا قد نشر ، منذ بضعة شهور خلت ، فى « المجلة الاسيوية » نفس أشعار سلامة نقلا عن مخطوط الآستانة . ولما لم يكن كاتب المقال مستعرباً ممتازاً فلم يصادف مقاله نجاحاً . هنالك قرر شيخو ، وكان منذ عهد بعيد قد نسخ المخطوط ، أن ينشره على طريقة أدق . كان بعيداً عن الظن وجود مخطوط فى الاسكندرية ؛ فلم يسعنى إلا أن أقدم له نسختى فساعدته على بعض التفاصيل .

وهكذا لم تكتب الرسالة قط على الرغم من الشروع فيها ، وتبدد حلمى فى الأولوية المزعومة . وأثارت نسخة شيخو بعض المقالات والتعليقات ، على أن مؤلفا ضخما عن سلامة ، موضوع أحلامى على الباخرة ، يحسن أن يكتب . والآن ، عند ما يتحدث الناس عن أثر المصادفة فى البحث العلمى ، أذكر دائما أن ثلاثة من العلماء : فرنسى وعربى وروسى ، قد درسوا فى وقت واحد نفس الشاعر العربى عن نفس المخطوط ، وعند ما أصادف أشعار سلامة أو اسمه ، تتمثل لى قاعة ساكنة فى الاسكندرية الصاخبة ، وشيخ حديث السن مدبب اللحية على النمط الفرنسى ، ونسخة المخطوط المكتوبة بحروف كبيرة خضراء تنعكس منها أشعة ذهبية ، وأسمع همسا فى أذنى :

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب
ولى حميداً وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه ركض اليعاقيب

وربما فكرت فى أعماق نفسى ليتنى لم أعدل عن اتخاذ سلامة بن جندل موضوعا لرسالتى .

كتاب الصفد (١٩٣٤)

طوبى للعالم الذى قدر له ، فى حياته ، ان يلاحظ نشأة فرع جديد من أفرع العلم ونموه ؛ ذلك العالم الذى رأت عيناه استكشافات طارئة ، ودرست أمامه أسانيد تم استكشافها حديثا ، وأدت إلى إعادة تكوين مضمورة رهيبة ، مجهولة من حقبة من الباحثين السابقين . هذا ما أتيح لى بالقياس إلى لغة الصفد وثقافتها . هذه الثقافة ازدهرت خلال قرون فى آسيا الوسطى ، وتشعبت فيما وراء ذلك . لقد حطمها العرب ولكنها لم تزل ، واندمجت فى طور جديد مكمل لخط حضارة آسيا الوسطى ، وهو خط واحد مستمر .

كنت مراقبا بسيطا للجهود المضنية التى كان يبذلها زملائى ممن هم أكبر منى سنا ، وإلحاحهم فى تفسير السطور التى استكشفوها فى مخطوطات الصفد ، وقد كانت حتى الأمس خفية . وكنت أبعد ما أكون عن التفكير ، أنا المستعرب الغريب عن تاريخ آسيا الوسطى ، فى أننى سأشترك فى هذا العمل ، وأننى سأقبض بيدى على أثر ثمين للثقافة العربية ، وحيد فى نوعه ، تنعكس منه أشعة عصر فاجع هو عصر النزاع الأخير بين الصفد والعرب . لقد أرادت المصادفة ذلك . لقد نشرت فى لينتجراد مخطوطات عربية وأخرى بلغة الصفد ، على مائدة واحدة ، ووقف أمامها جنبا إلى جنب ، رجلان أحدهما مستعرب والآخر ممن يدرسون لغة إيران ، وانحنيا كمحمومين على حروف تكاد تكون ظاهرة . إنه لمن الصعب أن تقول أمام أى الاثنين قد انبثق أول شعاع من النور ، فأضاء الطريق الذى يجب أن يسلك والذى جعلهما ينتفضان معاً كأنما قد مسهما تيار كهربائى .

فى سنة ١٩٣٢ استولى على علماء اللغة الفارسية فى لينتجراد اضطراب شديد، فقد سرى نبأ بأن قد استكشف فى تاجستان مخطوطات عن الصفد ، لم يعثر منها على شىء فى ذلك العهد فى هذا البلد نفسه، وإنما وجد فى البلاد التابعة لها بتركستان الشرقية. وقد أخذت هذه الأنباء تتحقق وتذكر مخلفات محفوظات استكشفت فى جبال موجس على ساحل زرافشانا الجنوبى . فأرسلت — فى خريف سنة ١٩٣٣ — بعثة صغيرة خصيصا للحفريات المنتظمة . وتحقق كل شىء ، وحجبت قيمة هذه الوثائق جميع ما تقدمها من الاستكشافات . وأغرب من ذلك أن الباحثين استكشفوا كذلك وثائق صينية وعربية تلقى ضوءا على الحالة السياسية المعقدة التى كانت عليها آسيا الوسطى فى ذلك العصر .

ووصلت أنباء كشف هذه المخطوطات العربية إلى لينتجراد قبل عودة البعثة ، وكانت هذه الأنباء من الغرابة بحيث حملت الشك إلى نفسى . فقد كان يقال إن هذه الأسانيد مكتوبة على الرق . فى حين أنه لم يعرف فى العالم إلا ستة مخطوطات عربية قد كتبت على الرق . وكان من الصعب أن نفرض أن هذا العدد قد زاد فجأة فى تاجستان دون البلاد العربية . كان يخيل إلى أن ما استكشف مقصور على جزء من القرآن كتب على رق ، ولا شك فى أن هذا الجزء قد يكون قيما ولكن لا يمكن أن يعد نادراً . وقد أيد هذه الفكرة كتاب من رئيس البعثة ا. فريمان وهو أحد زملائى فى الجامعة وأكبر منى سناً . وإلى جانب ذلك فقد كتب لى

أنهم عثروا على قطعة صغيرة من الجلد يمكن أن يقرا عليها بخط عربي واضح « لا إله » . كان ذلك ، بوجه التقدير ، جزءاً من التشهد الاسلامى . وسرى النبأ بأن من فحصوا مستنداً كبيراً ، فى آسيا الوسطى ، قد عثروا فيه على اسم طرخون ، أحد كبار ملوك الصفد إبان عصر الفتح العربى . أما أنا فقد كنت أميل إلى إسناد كل هـذه الأنباء إلى حماسة الذين أرادوا أن يربطوا كشفهم بتاريخ البلد ، وهذا أمر مغتفر .

ومهما كان الأمر فان فضولى كان عظيما . وحاولت أن أحصل على صورة فوتوغرافية من المخطوط . ولا أدرى لماذا لم يستطيعوا عمل هذه الصورة فى آسيا الوسطى . ودارت مناقشات ذات صبغة خاصة بين المصالح حول من عسى أن يحتفظ بهـذه المخطوطات ، وأين تحفظ ، وإلى من تسند دراستها .

وإنه لمن حسن الحظ فى النهاية أن المخطوطات قد وصلت إلى لينينجراد . وعلمت فى شهر يناير ١٩٣٤ أنها وضعت مؤقتاً فى قسم المخطوطات فى المجمع العلمى . كنت مريضاً ، تنتابنى حمى شـديدة . ولكنى بالطبع ، لم أتمالك نفسى من الذهاب فى اليوم التالى ، إلى المجمع وأنا أسير على رصيف الجامعة الذى كنت أعرفه منذ عدة سنوات . لم أكن وحدى ، إذ كانت زوجتى ترافقنى . وكانت منذ ست سنوات قد تعمقت على الخطوط والنقوش إلى حد أنها ، منذ عهد بعيد ، كانت تجيد أحسن منى قراءة الحروف الكوفية ، فكنا نتذاكر ونحن نبتسم أنه منذ ربع قرن مضى كنا نزور جوامع القاهرة ، فكان علماء المسلمين فيها يجيبون على أسئلتنا فى صدد هـذه النقوش : « ولكن هذا كوفى ! لا يمكن قراءته ! » أما الآن فان استعدادها ونظرتها الثاقبة فى قراءة الخطوط كانا يسـاعدانى كثيراً على قراءة بعض العلامات فى فك رموز بعض العلامات فى المخطوطات عند ما كانت تبدو لى غير واضحة على الرغم من معرفتى للغة العربية ، إذ يخيل إلى أن مرور السنين يخول لى حق الادعاء بالمامى بهذه اللغة .

والتقينا فى القسم الخاص بالمخطوطات فى الطابق الأرضى حيث توجد المكتبة ، بالسيد ا . فريمان ، وقد كان جالساً أمام المائدة الكبيرة . كان غارقاً فى فحص حروف أو « عصى » الصفد التى جاءت بها البعثة . كان ، على عادته ، هادئاً رزيناً . ومع ذلك فان هيأته كانت تدل على أنه « متغيب » بمنظاره المستدير الذى كان يرفعه فى كل لحظة إلى جبينه . كان قد أعد لى مظروفاً ، فأخرج المستند وهو يرمق التأثير الذى أحدثه فينا .

وشعرت بأنى قد تحطمت من أول نظرة ، وأن الدم تصاعد إلى رأسى تحت تأثير الانفعال . ثم شعرت بأن سحابة تظلل على عينى ، وخارت قواى . وكنت أمسك بقطعة من الجلد المجعد قرضها الدود ، فلم أر عليها ــ كما لو كان ذلك من وراء ضباب من البخار الأحمر ــ إلا حروفاً عربية متناثرة ، دون أن أستطيع تمييز كلمة واحدة . وأخذ قلبى يخفق كأنمـا يريد أن يقفز خارج صدرى . وكانت فكرتى الأولى رهيبة : « لن أجلو شيئاً ! » . ومع ذلك سرعان ما خجلت . وبذلت مجهوداً كبيراً من إرادتى لأرغم نفسى على إلقـاء نظرة ثانية على المخطوط فرأيت إذ ذاك أننى لا أستطيع أن أحدق النظر ، فهناك ضباب أرجوانى يخيم على عينى .

واستنجدت بجميع إرادتى ، وأخذت أحدق تارة فى عبارة من المستند ، وتارة فى ناحية أخرى . ولكننى كنت لا أستطيع أن أقف نظرى طويلا . وطرأت على أفكار محمومة عقب كل نبضة عصبية . فكنت أتمتم بغير وعى وبصوت مرتفع : « أجل ، فى السطر الأول نهاية العبارة المقدسة التى تكتب عند بدء كل خطاب : « باسم الله » . . . إذن تلك فاتحة رسالة .

وليست صفحة منتزعة من وسط كتاب . . . أجل ! فى الواقع كان اسم طرخون مكتوباً فى الوسط . . . يقيناً ، ليس هذا بقرآن . . . ولكن ماذا عسى أن يكون ؟ » كانت فكرتى تشتغل عاجزة ، وتعذبنى . وكنت أشعر بطنين فى أذنى : « أهى رسالة ؟ أجل ، أجل . فنى نهاية السطر الثانى يوجد : « من . . . عميله . » ولكن الاسم ؟ الاسم ؟ « ديوا ؟ « ديوا ؟ » ديوا ؟ أجل ، حسناً « ديوا » بحرفى « ى » و « ا » مستطيلين . ياللسخف ! ليس هذا اسما ! والسطر الثانى يبدأ أسوأ من الأول : يقرأ فيه بوضوح « سى » ، وهذا لا يوجد فى اللغة الفصحى ، لا تستعمل « ستى » إلا فى اللغة الدارجة . وهى تعنى « مولاتى » . فماذا تفعل هذه هنا ؟ سطر ينتهى بكلمة « ديوا » ويبدأ الثانى بكلمة « ستى . . . » ومن جديد أخذ نبضى يدق دقات مضاعفة . قد تكون كلمة واحدة شطرت إلى مقطعين للانتقال إلى سطر جديد ؟ هذا دارج فى الرقوق فى مصر . ديواستى ، ديواستى . . . ليس هذا باسم ! إن الاسم طارخون يصادف فى المؤلفات التى تتكلم عن آسيا الوسطى ، ولكن لا يوجد اسم ديواستى . . ومع ذلك فهو ديواستى ! »

فنظرت رفيقتى إلى فريمان وسألته : « ألكسندر أمولدوفتش ، ألم تصادف شخصاً باسم ديواستى فى مستندات الصغد ؟ » فارتعش فريمان ، ومنظاره معلق على جبينه . كان مشدوهاً مضطرباً وأجاب فى النهاية : « كلا . . . ولكن يوجد شئ مثل ديوان فى كل مكان . . . وربما كان مرجع ذلك إلى ديوان أى مقر الحكومة وربما كان عنوان كتاب ؟ » فصحت : « كلا ! فهنا ، باللغة العربية ، كلمة ديواستى . . . ديواستى ! » .

وفجأة طرأت على فكرة ، فوثبت عن مقعدى وخرجت أجرى . تمت دهشة من كانوا جالسين أمام المائدة ، وقارئ اللغة الايرانية الصغير الذى جاء لمقابلة فريمان الذى جمد فى مكانه من هيئتى الشاردة وغرابة الحوار . وصعدت إلى الدور الثامن عن طريق السلم الجانبى لأصل سريعاً ، هناك يوجد معهد البحوث الشرقية ومكتب الدراسات العربية . هناك على رف صفت مجلدات المؤرخ الكبير الطبرى . وساورنى الأمل بأنى سأجد فيها تفسيراً لهذه الكلمة .

ومن حسن الحظ أنى لم أصادف أحداً على السلم ولا فى المكتب . كنت أعلم أن منظرى كان مخيفاً وأنى كنت عاجزاً عن تفسير ما ألم بى .

كنت ألهث من العدو . واندفعت نحو الرف المعروف وفتحت فهرس الطبرى ، واخذت أقلب صفحاته وأنا محموم باحثاً عن اسم متقارب . كان نظرى مضطرباً ، ومع ذلك قرأت تقريباً جميع الأسماء التى تبدأ بحرف د . لم أجد بينها ديواستى ، فشعرت بقلبى يخور . وبغتة قرأت بعد بضعة سطور تحتها « ديواشنى » . فصحت لنفسى : « ولكن لا يوجد إلا اختلاف فى النقط ! » هذه نفس الكلمة ! فلم أصدق عينى . وأخذت أقرأ فى الكتاب الصفحات التى أشير إليها فى الفهرس . لم يعد مجال للشك . لقد ورد ذكر ذلك فى آسيا الوسطى ، كما ورد ذكر حوادث وقعت فى القرن الثانى للهجرة . لم أكن بحالة تمكننى من التبحر فى القراءة ولكن لم يبق عندى مجال للشك وأضاءت شعلة فى خبيئة نفسى .

ونزلت بنفس السرعة التى صعدت بها . ولو أنى كنت أصغر سنا بعشرين عاماً لامتطيت حاجز السلم كالجواد لأنزل بسرعة أزيد . وسقطت على مقعد ولم أستطع إلا أن أتمتم ، وأنا أخاطب فريمان الذى لم يفهم بعد السبب فى هروبى السريع : « لقد وجدت ديواستى ! »

كان ذلك غير منتظر إلى حد أن ثلاثة أزواج من العيون المشدوهة قد سلطت إلى بذعر . وعند ما استعدت تنفسى وسردت بعبارات متقطعة ما فى الموضوع كان الابتهاج عاماً . لقد شعروا كلهم أن السر قد وضح ، وأن الخيط للوصل قد وجد . وجاء رد الفعل بعد هذه الانفعالات وشعرت بأن قواى قد خارت .

فى ذلك الصباح لم أستطع أن أسير فى دراسة المستند إلى أبعد من ذلك ، ولكننى كنت مطمئنا : لسوف يكون العمل شاقا طويل الأمد ، ولكننى كنت واثقا من أننى على الطريق القويم . وفى اليوم التالى بالذات كنت فى حالة عقلية مختلفة . فأخذت أتبين الخطاب بانتظام ، وفى نفس الوقت كنت أراجع الصفحات المقابلة فى الطبرى . الآن ، كنت أستطيع أن أفحص المستند دون تخوف من إشاراته . وإذ ذاك فقط أمكننى أن أقدر روعة الجمال فى خط الكاتب الخطاط .

كل يوم كان يحمل لى أفراحاً وأشجانا ، واستكشافات صغيرة ويأساً . ولكن لم يعد شىء يخيفنى . فتلك القطعة الصغيرة من الجلد المجعد التى بقيت فى جوف الأرض مدى اثنى عشر قرنا ، لا تستطيع أن تخفى أسرارها على التحليل الذى يجريه العالم فى قراءة المخطوط القديمة ؛ لم يكن يمكنها أن تحافظ على الصمت متى ووجهت بالمؤرخ الذى دونت أقواله فى أسفار الطبرى الثمينة .

فى الواقع كان اسم ديواشنى مفتاح السر ؛ فهو لم يفسر لنا الخطاب العربى فحسب . ولكنه قدم لنا أيضا قاعدة لدراسة مستندات الصغد . كان ديواشنى ملكا على الصغد ، وتلك كانت آثار المحفوظات التى استكشفتها البعثة فى جبال موجس . أما اسم الخليفة العربى الذى وجهت إليه تلك الرسالة فقد أمكن الوقوف عليه بعناء أقل ، وهذا ما ساعد على تحديد تاريخ هذا المستند ورجعه إلى عام ١٠٠ للهجرة أى حوالى سنة ٧١٨ — ٧١٩ من تاريخنا . لقد انتزعنا كل ذلك من الرسالة حرفا حرفا .

أما قطعة الجلد الصغيرة التى قرضها الدود والتى استكشفت إلى جانب الرسالة وتحمل أول البسملة ، فقد وجدت مكانها سريعاً فى المستند . لقد نجحنا حتى فى إعادة تكوين السطور التى التهمها الدود الشره . وإنى ، عند ما أنظر الآن إلى الصورة الفوتوغرافية التى أخذت للخطاب على الجلد الأملس الناعم ، لأسائل نفسى أحيانا : كيف توصلنا إلى قراءة السطور التى لم يبق منها فى أغلب الأحيان غير حرف أو حرفين ، وكيف استطعنا أيضاً أن نحزر معنى ما كان قد التهمه الدود ؟

إننى لأفخر بعلمنا الذى تسمح أساليبه الدقيقة أحيانا ، بإيجاد ما يخال ، عند أول نظرة ، أنه قد اختفى إلى الأبد . إننى لأعتقد أن جميع الناس يشعرون بمثل هذا الاحساس ، حتى علماء مختلف الفروع الأخرى الذين جاءوا بعد أسبوعين — فى فبراير — لحضور اجتماع المجمع العلمى الذى عقد خصيصا لتلاوة البيان الخاص ببعثة جبال موجس . كانت حجرة المطالعة فى معهد الدراسات الشرقية ، مكتظة بعد أن كانت فى الغالب لا تضم بين جدرانها إلا عدداً قليلا من القراء . لم تكن الأماكن مشغولة بأكملها فحسب ، بل كانت الردهات مكتظة كذلك . وحضر سكرتير المجمع الدائم فى وسط الجلسة . وما إن فتح الباب حتى بدرت منه عفواً حركة ارتداد ، لأن المنظر الذى وقعت عليه عينه كان أبعد من أن يشبه بمنظر الجلسات العادية لجماعة المستشرقين . كان ذلك انتصاراً للبعثة التى زادت فى ثروة العلم باضافة مستندات لم تنشر ، وانتصاراً

العلم ذاته ، لأنه يعزز قوته بأجلى بيان ، ويضع معارفنا فى مستوى أرفع أمام أنظار الجميع .
وليس ثمة حاجة إلى القول بأن دراسة تلك المستندات لم تقف عند حد هذا الاجتماع ، ولا عند نشر « مجموعة الصفد » التى ظهرت فى نفس السنة . إن هذه المجموعة تشرح أهم النتائج العلمية التى تم الحصول عليها ، وتبين أساليب الدراسة المنظمة التى اتبعت فى حل رموز الرسالة العربية التى تحدثت عنها فيما تقدم . لقد عرفنا ، مع الزمن ، أن اسم الشخص الرئيسى كان يقرأ ديواشتى وليس ديواستى . لقد نجحنا فى استكشاف اسم القصر الذى احتمى به مع رجاله بعد مقاطعته للعرب نهائيا . بل قد أمكن الوصول إلى استكشاف سلالة الماعز الذى يرجع إليها نوع الجلد الذى كتبت عليه الرسالة . إنه لمن المرجح أن كثيراً من التفاصيل الأخرى سترى النور من دراسة هذه المستندات فيما بعد . وإنى لأرجو أن يأتى شخص فيحسن أو يتمم قراءة بعض الحروف والكلمات التى بقيت خافية علينا . ولكن تلك ليست إلا تفاصيل . لقد وجدنا الطريق الذى يتبع بمجرد الوصول إلى تفسير ذلك الاسم الخفى العجيب وهو ديواشتى . إن تلك اللحظة من الايحاء الوجدانى ، وهذا النوع من الاستكشاف كانا فاتحة نمو فى عالم التحليل العلمى . وبفضله أصبح هـذا الاسم مألوفاً عند كل عالم فى القراءات الفارسية ، وكذلك عند مؤرخى آسيا الوسطى .
إن المستعربين لسعداء ، لأن رسالة الصفد ، التى وقعت تحت يدهم ، لم تكن فقط أثراً بارزاً ونادراً لفن قراءة الكتابات العربية القديمة ، ولكنها كذلك مصدر تاريخى من الطراز الأول .

ا . كراتشكوفسكى

نقلها عن الفرنسية سليم سعده

أحمد عيسى (1)

« إذا جاء الموت طالب العلم وهو على حاله مات شهيدا »
(حديث . عن أبي هريرة وأبي ذر)

عرفته أول ما عرفته بين يدى أحمد زكى (باشا) رحمه الله . وكنت ألقاه فى « دار العروبة » غير مرة فى الأسبوع . وكان فيه مثل ما كان فى صاحبه وشيخى أحمد زكى من الولع بالقراءة والصبر على البحث والثبات فى التأليف . مات رحمه الله كما كان يحيا متجرداً ، شبه مغمور ، وهو حقيق بأن يذكر وأن يعظم . ولكنها مصر ، بل لكنه الشرق العربى ضاعت فيه المقاييس وزاغت القيم ؛ فأمسى القدر ، فى جهة المعنى ، مرهوناً بالجاه أو البأس أو الحظوة ، وصارت الشهرة عند جمهرة الأدباء ، حتى عند طائفة من العلماء أستغفر الله ، أو أشباههم ، وليدة ارتجال واتكال ، أو نتيجة تهويل وتلفيق .

لم يكن الطبيب أحمد عيسى بالمتلمس ولا المتزلف ولا المتكلف . كان دلالة قائمة على الجد بصدق والكفاية بحق . كان والله قذى فى أعين من يرضى بالفوضى فى عالم الاجتهاد ، اجتهاد الذهن ، وكذلك فى أعين من يحط بثقافتنا ، عن رضا أحياناً ، إلى مخرقة صبيان .

ما هذه الكتب التى فى عنواناتها بهرج الدعوى وفى بطونها فقر العاجز الواغل المقتحم لغير بابه ؟ إنها لنكبة من نكبات الغرور مع الارتزاق ما عرفها الأدب العربى — والهفى عليه ! — مثلما يعرفها الآن .

ليس لى أن أرى رأياً فى الكتب التى ألفها أحمد عيسى بك فى الطب الخالص ، ولكننى أظننى أستطيع أن أزن ما أخرج للناس فى اللغة وتاريخ العلوم عند العرب .

فإن كان كتابه « التهذيب فى أصول التعريب » (القاهرة ١٩٢٣) ضرباً من الجمع ، فإن « المحكم فى أصول الكلمات العامية » (القاهرة ١٩٣٩) زاخر بالفوائد المستنبطة . غير أن فضل أحمد عيسى فى كتب الطب والنبات على وجه التخصيص ؛ فهى فى المحل الأول فى جانب التنقيب والتحقيق . ثم إن علماء الفرنجة — وهم أعلى من علمائنا بصراً بالنفائس — ينزلون تلك الكتب منزلة المراجع المعتمدة . وأجل هذه الكتب : « معجم أسماء النبات باللاتينية والفرنسية والانجليزية والعربية » (القاهرة ١٩٣٠) ، وهذا هو المصدر الأوثق الأعلى فى هذا الباب . ثم « تاريخ النبات عند العرب » (القاهرة ١٩٤٤) سرد فيه المؤلفات العربية فى النبات ، ما ضاع منها وما وقع ، مع تنسيقها وذكر مؤلفيها . ثم « تاريخ البيمارستانات فى

---

(1) ولد فى مدينة رشيد سنة ١٨٧٨ وتوفى بالقاهرة فى ٢٤ يولية ١٩٤٦ . وتجد ترجمة حياته فى مجلة « منبر الشرق » ، القاهرة ، السنة الـ ٢١ ، العدد الـ ٢١٢ .

العهد الاسلامى » (القاهرة ١٩٣٩) وهو طريف . ثم « معجم الأطباء من القرن السابع الهجرى إلى وقتنا هذا » (القاهرة ١٩٤٢) ، فى هـذا الكتاب أتم أ. عيسى « عيون الانبـاء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة » المتوفى سـنة ٦٦٨ هـ واستدرك عليه ؛ أما مصادره فوافرة جداً ، وأكثرها مخطوط أو مطوى أو مهمل ، ويا ليت هذا الكتاب الجامع على استيفاء خرج بالمسارد والفهارس الضافية .

تلك هى مشاركة أحمد عيسى فى ميدان حضارتنا الغابرة وثقافتنا الراهنة . وإنها لمشاركة شريفة غزيرة . وهيهات هيهات أن يسقطها أو يرققها أن « مجمع فؤاد الاول للغة العربية » — وكلنا يعرف ما قدره بالاجلال وما همته — لم يحرص أن يكون أحمد عيسى من أعضائه . وكأن الله يريد أن يبذل كفارة لهذا المجمع الذى عرف كيف يخفف عن نفسه مؤونة السعى . فبدلا من أن يملنا بمجلة لا تخرج ومعاجم لا تنفك تسرح فى أفق الوهم ، ليقبل على طبع هذا الكتاب الذى أعده أحمد عيسى العالم العامل ، وهو « معجم مصطلحات العلوم الطبية الانجليزية والفرنسية والعربية » . هل نعرف يوماً ما الجد ؟ (١)

بشر فارس

---

(١) كما عرفته كلية الطب فى القاهرة اذ نشرت الراحل « تاريخ النبات عند العرب » و « معجم الاطباء ... » .

من التحرير إلى القراء

اجتمعت أمور عدة أدت إلى تأخير البت فى مسابقة القصة منها سفر الأستاذ محمود تيمور بك إلى أمريكا ثم سفر الأستاذ رئيس التحرير إلى فرنسا ثم سفر الدكتور محمد عوض محمد بك إلى انجلترا وكلهم من أعضاء اللجنة التى تنظر فى هذه المسابقة . وقد استأنفت اللجنة عملها وستنتهى منـه فى شهر نوفمبر .

*

وقع فى مقـال الأستاذ منير الحسامى عن ابراهيم بن المهدى (عدد سبتمبر) خطأ بسيط فقد ذكر فى الهامش أنه أعتمد على الجزء ١ من الأغانى والصواب أنه جزء ١٠ .

من هنا وهناك

حديث ناشر لكتاب قديم

لو أنك رأيتنا ونحن حول مخطوطة ننشرها لحسبتنا جماعة من المجانين قد خيل لهم جنونهم شيئاً ، فالتصقت رءوسهم وحملقت عيونهم وانعقدت ألسنتهم . . . مجموعة من الرءوس متلاصقة تكون نصف دائرة ، قد أرسلت عيونها خيوطاً من النظر حادة مضيئة فتلاقت جميعاً في نقطة واحدة على كتاب قديم ! . . . تلاقت عند هذا الحرف المطموس أو في رأس هذه الواو الطائرة أو على نقطة تلك الصاد الهاربة ! ترانا سكوتاً والحقيقة أننا نهتف بكل حواسنا العقلية والفنية ، ونستوحي ما نعلم وما لا نعلم ، ونمسك بخناق هذا الرجل المسكين الذي نسخ الكتاب كيف هانت عليه رأس هذه الواو فصارت راء . وأحياناً ترانا نحاسب هذه الحشرة المسكينة التي توفاها الله منذ أكثر من ألف سنة ، نحاسبها لأنها أكلت نقطة الجيم مثلا فجعلتنا نراها حاء ، فلم تكن هذه الحشرة التي نسميها الأرضة ، تدري أنه بعد ألف سنة من وفاتها تقوم جامعة فؤاد الأول بنشر هذا الكتاب ، وتحملق عيون كثيرة في هذه النقطة الضئيلة التي ملأت منها بطنها ! . . .

أنظر إلينا ونحن على تلك الحال حول مخطوطتنا ، وقد عن لأحدنا رأي فأعلنه فارتفعت الرءوس ولمعت العيون ، وأسرعنا لنلائم بين هذا الوجه من الرأي ورسم الكلمة في المخطوط . ثم انظر إلى صاحب الرأي كيف أشرق وجهه بالرضا حين وافقناه وهنأناه ! . . . ثم نمضي في قراءة المخطوطة كجماعة سفر وقفوا عند بعض الطريق حين أبهمت عليهم ، ثم دلهم أحدهم فمضوا جاهدين ! . . .

انظر إلينا وقد رفع أحدنا رأسه كأنه مستيقظ من سبات عميق ، ثم مد يده يفتح القاموس وهو صامت لا يتكلم ، ثم يجيل نظره فيه ثم يلقيه ، ونحن نعلم أن رأياً عن له فأراد أن يتثبت منه ، فأحياناً يهتف بنا ، وأحياناً يلقي القاموس في تخاذل وابتئاس ، وقد عاد نظره عالقاً بهذه الكلمة المطموسة أو رأس هذا الحرف الطائر أو تلك النقطة المختفية ، يدقق النظر ويستوحي الفكر ، ويعصر نفسه عصراً حتى يجمد في مكانه . . . ويسأل بعضنا : ماذا كنت تظنها ؟ فأحياناً يقول لا شيء ، وأحياناً يصارحنا بظنه مع اعترافه بتفاهته ، فنتضاحك ونشكره على صراحته ، وربما قلنا له لقد كان سكوتك وتأملك أجدى علينا ! . . .

ونقرأ في المخطوطة شطر هذا البيت :

أيسيل على الماء في كل تلعة

ونراه لا يستقيم مع العروض ، فننظر في رسم حروفه فنراها صحيحة واضحة ، ولا نجد مسوغاً لنقول في حاشية الكتاب هذه العبارة المعتادة التي نلجأ إليها كارهين : « كذا بالأصل » . ونجيل في أنفسنا هذه الفروض الكثيرة التي تعودنا أن نجيلها عند ما يحزب الأمر وتستبهم الطريق ، فلا نجد البيت يستقيم مع فرض منها . . . « الماء يسيل في كل تلعة » كلام يشبه أن يكون صحيحاً لكن البيت مكسور ، فماذا هناك من خطأ ؟ ويمضي وقت ليس بالقليل على تلك الرءوس المتلاصقة

وهذه العيون الشاخصة . . . وتمتد الأيدى إلى القاموس بين الفينة والفينة ، ونظل نجيل الفكر ونقلب النظر ونفترض الفروض . وما دام البيت فى صيغة الاستفهام فلا معدى عن بقاء هذه الألف فى أول كلمة « يسيل » . على أن الصيغة التى يجب أن تبنى عليها الكلمة هى صيغة « فعل » على الاستفهام ، فما عسى أن تكون هذه الصيغة من سال يسيل ؟ ... إذن لابد أن تكون «أسيل على الماء فى كل تلعة » فهو صحيح الوزن مستقيم المعنى . . . غير أن الشاعر هنا فى معرض الشكوى فكيف يستقيم المعنى على هذا ، وما يجوز أن يشكو لأن الماء يسيل عليه من كل تلعة . . . كلا ، وإذن فلنخلص أنفسنا من هذا الحكم السابق وهذا الافتراض الواهم الذى خدع الناسخ وخدعنا ، فلم لا تكون الكلمة من مادة أخرى غير مادة سال يسيل . ما عسى أن تكون هذه المادة الأخرى أو هذه الكلمة الجديدة على شريطة أن يأتى رسمها قريبا من هذا الرسم الذى كتبه الناسخ ؟ هل قدم الناسخ فى بعض الحروف وأخر ، أم هل زاد أم نقص ؟ وهنا يأتى دور الخيال الذى يعلق هذه الكلمة أمام عينيه ويظل يضع حرفا مكان آخر ، وينقص حرفا أو يزيد حرفا لكى تستقيم له كلمة أخرى جديدة تتوافر فيها هذه الشروط الثلاثة : (١) وزن «أفعل» (٢) معنى الشكوى (٣) حروف مقاربة لهذه الحروف فى « أيسيل » . ثم يأتى دور النقط بعد الحروف ، فما عسى أن يكون فى هذه النقط الأربع تحت هاتين الياءين من زيادة أو نقصان ؟ لنبتدئ بالياء الأولى ونحذف منها نقطة ، فقد صارت الكلمة « أبسيل » وهنا يضحك الخيال قليلا حين يرى هذه الكلمة التى ولدها والتى لا يتوافر فيها شرط واحد من هذه الشروط الثلاثة . ولكن الذهن مع ذلك يلتبه لهذه الكلمة ، فهى كأنها توحى إليه شيئاً لا يكاد يتبينه تماما . أتكون العبارة « أبسل على الماء » ؟ وتمتد اليد إلى القاموس فلا تجد فى مادة بسل يبسل ما يوائم هذا المعنى ويتفق مع هذه الصيغة . ثم يعود الخيال فيضع أمام عينيه هذه الكلمة الغريبة التى اخترعها آنفاً فيطيل النظر فى الكلمة « أبسيل » وبعد لحظة وجيزة تهوى هذه الياء التى جاءت بعد السين وتلتحم السين باللام سريعا وتصبح الكلمة « أبسل على الماء فى كل تلعة » كلام تام مستقيم ، فالبسل الحرام والشاعر يشكو من الحرمان ، والصيغة ورسم الحروف صحيحان ، فلا يلبث أحدنا أن يهتف بها كأن إلهاما تنزل عليه من السماء ، ونهتف نحن به مهنئين ونسرع إلى تدوينها وإثباتها فى الأصل ، ثم نكتب فى الحاشية هذه العبارة التى نكتبها كثيراً والتى ربما لا يراها بعض القراء : « رسم الكلمة فى الأصل : أيسيل » !

وتسأل هل تذوقنا هذا الشعر الذى كنا نقرؤه ؟ لكأنما لا يهمنا منه ونحن نقوم نصه فنثبت اختلافات رواياته إلا ما فعلت يد الناسخ به من تصحيف وتحريف وما أكلت الأرضة من نقط أو حروف ! أذكر أنا كنا عاكفين ذات يوم على مخطوطتنا وقد عرض فيها بيت أبى نواس :

عرضن للذى تحب بحب
ثم دعه يروضه إبليس

وكدنا والله نمضى إلى ما بعده مادام البيت صحيحاً لم يعبث به عابث لولا أن سمعنا أحدنا يضرب بيده على المائدة ، ويهمهم بشئ فى نفسه ، ثم يرفع صوته ويردد البيت وقد أخذه الطرب وتملكته فتلته . . . وانتبهنا نحن ورددنا البيت فاذا هو رائع حقا ، فوقفنا عنده قليلا وقد نسينا كل شىء وأخذنا نتحدث فى هذه النصائح النواسية كيف يعلمنا أبو نواس

الحب ويهدينا إلى سبله بهذه اللمحة العذبة وهذه الاشارة الماكرة . فليس الحب إذن فى حاجة إلى هذه المكاشفة الصريحة الملحة ، حتى يذلل صعب الحبيب ويخفف من امتناعه وتأبيه ، ولكنه يكفى أن يعرض له بهواه ، ثم يدعه ، فان وقع هذا التعريض فى نفسه أشد وأقوى ، وسيلعب الشك واليقين بهذا الحبيب ويتناوبان عليه ، ويأتى إبليس أخيرا فيمسكه من يده ويروضه إليه ! وما نكاد نستروح بهذا البيت وتتذوق معانيه حتى يصرفنا عنه ما نحن فيه من تحقيق وتدقيق وعبث ناسخ وأكل أرضة ، فنسرع لنقطع فى المخطوطة سطراً آخر ، فان الذين يشتغلون بالمخطوطات يعلمون أن الفراغ من سطر واحد ليس بالشيء القليل فى بعض الأحيان ! الحق أن ناشر الكتب القديمة يقرأ الشعر فيها لا كما يقرأ الناس الشعر يفتنهم خياله ويستهويهم جماله ، ولكنه ينظر فيه ليقوم نصه ويصحح روايته ويثبت فى الحاشية ما يصح أن يثبت وهو لا يفكر فى جمال الشعر وتجاوبه مع نفسه بقدر ما يهمه صحة الفن واستقامة المعنى ! نعم قد وقفنا عند بيت أبى نواس هذا وأنسانا قوله « يروضه إبليس » أشياء كثيرة لكننا ما لبثنا أن مضينا إلى غيره ، وربما لم تكن فرحتنا بجماله أكثر من فرحتنا بصحة حروفه !

محمد عبده عزام

مركز المرأة بين الجماعات الفطرية

جرى العرف منذ الزمان البعيد أن يتخذ مركز المرأة مقياسا تقاس به الحضارة لدى مختلف الشعوب .

فاذا سأل سائل : هل لنساء شعب من الشعوب حق الانتخاب ؟ وهل لهن أن يكن طبيبات أو محاميات ؟ وهل لهن حق التصرف فيما يملكن ؟ وكان الجواب بالنفى خفت إذن موازين ذلك الشعب الذى ينكر على النساء تلك الحقوق . وكان ذلك الشعب فى قافلة الشعوب من الخوالف القاعدين .

ولكن تقدم علم تاريخ الأجناس البشرية قد ألقى على هذا الحكم ظلالا من الشكوك . ولكى نحكم حكماً قاطعاً فى مثل هذه المسائل يجب علينا أن نبتعد عن مبدأ الاطلاق والتعميم ، وأن نعنى بدرس الحقائق التى اجتمعت لدينا بعد طول الدرس والتقصى .

فقد كاد الاجماع ينعقد على أن سكان أستراليا الأصليين هم من أحط الشعوب . وتأييدا لهذا الرأى يؤكد العارفون أن المرأة هناك إن هى إلا دابة من دواب الحمل ، تساء معاملتها وتحتقر ويلقى على كاهلها كل عبء ثقيل .

والرجل هناك يعنى بالصيد فى البر والبحر ويشن الغارات . أما المرأة فهى الزارعة ، وهى البانية ، وهى الحائكة ، وهى صانعة الأوانى الخزفية ، وهى دابغة الجلود ، وهى صانعة السلال ، وهى فوق ذلك ربة البيت ، وهى التى تعنى بالضعاف وبالمرضى . وهى تحمل فوق رأسها جونة فيها كل ما يعنيها فى كل ما تقوم به من عمل أو صناعة ، وهى تحمل فوق ذلك أيضا أسلحة زوجها ، وهى تحمل أيضا طفلا من أطفالها فوق كل هذه الأثقال .

مما تقدم يبدو أن ذل المرأة الأسترالية وخنوعها أمر مقطوع بصحته . ولكن سير بلدوين سبنسر — وهو الحجة الثقة فى هذا الموضوع ، وهو الذى يتكلم عن خبرة لا يرقى

إليها الشك — يؤكد لنا أن عيش المرأة الأسترالية والمعاملة التي تلقاها من زوجها ها في مستوى لا يطمع أن يناله مئات الألوف من اخواتهن ممن يعشن في الأحياء الحقيرة في بلاد الانجليز. وهو يؤكد ايضا أن النساء هناك لا يعاملن بالقسوة البالغة. واذا كن يعشن — كما هو الواقع — معيشة ضنكا فان ذلك العيش الضنك هـو من نصيب الرجال أيضا.

ففي سني الرخاء يجد الرجال والنساء عملا يعملونه. أما في السنين العجاف فالرجال والنساء يتقاسمون الشقاء على سواء. والمرأة الأسترالية على خـلاف أختهـا المتحضرة لا يتطلب منها أن تمضي الساعات الطوال في صنع ملابس زوجها ورتق جواربه. ذلك لأن الرجل الأسترالي هو بصفة عامة رجل عار. وهو اذا اكتسى فتمنع بحزام يشده على وسطه وبمذبة في حجم قطعة النقود من ذات خمسة القروش تتوسط ذلك الحزام. أما المرأة فلباسها حزام من المطاط يضاف إليه عند بعض القبائل مئزر من شعر.

أما العمل المنزلي عند أولئك القوم فهو أقل من القليل. وكذلك تربية الاطفال فانها عندهم ليست من المشكلات ذوات الخطر كما هي الحال عندنا.

ومن المحقق أن الحب، كما تدل عليه هذه الكلمة عندنا، هو قليل الوجود أو نادره. والنساء اللائي يأتين بفاحشة مبينة فانهن يلاقين عقابا شديدا، وذلك بكي أجسامهن بالنار. أما الندوب التي يراها الراءون في أجسام النساء وقد تبلغ الأربعين عدا ومكانها ما بين السرة إلى ما فوق الثديين، فليست من عمل الأزواج الغاضبين، كما يؤكد سير بلدوين سبنسر.

انمـا تلك الندوب من عمـل النساء أنفسهن؛ لكي يشهدن الناس على إخلاصهن لمن فقدن من الأزواج. وكذلك الرجال يفعلون بأجسامهم ما يفعل النساء، ولـكن الرجال يفعلون ذلك ابتغاء الزينة.

والحمل — وهو عند المرأة المتحضرة مهمة ذات خطر — هو عند المرأة الاسترالية مسألة ليست بذات بال.

ويقول أحد الـكتاب: إن القبيلة من القبائل الأسترالية إذا ارتحلت في سفر قاصد أو غير قاصد، لا تـكلف نفسها عناء قليلا أو كثيرا لـكي تتم عملية تافهة كعملية الوضع. وكل ما يعملونه هو أنهم يلفون المولود في جلد من جلود الحيوانات، ثم يستأنفون المسير والمرأة الوالدة تدلف مع سائر المرتحلين.

ولـكنا مهما بالغنا في تعداد ما تتمتع به المرأة الأسترالية من مزايا المعيشة الفطرية فاننا لا ننكر أن عيشها مما لا تحسد عليه؛ فهي تقاسم زوجها ما يلقاه من حرمان وما يلاقيه من خطر. وما يلقاه من حرمان وخطر ليس بالشيء القليل.

ونصيب المرأة من العمل هو ذلك النصيب المضني الممل. وهي تتزوج أول ما تبلغ مبلغ النساء. وقلما يسمح لها باختيار زوجها. ولزوجها أن يقرضها لمن شاء من الرجال، وهي لا تستطيع لهذا الاقراض رفضا.

وإذا مات عنها زوجها قامت بما تفرضه عليها العادات من حزن مقعد وهم مقيم، ثم تصبح بعد ذلك — رضيت أو كرهت — زوجة لأخ الزوج الفقيد.

ولذلك يقل العجب أو يبطل إذا رأينا المرأة الأسترالية — وهي في شبابها ممشوقة القد هيفاء القوام — تصبح — إذا مسها الكبر — مغضنة الوجه، مقوسة الظهر مترهلة العضل مسترخية المفاصل. وهي إذا بلغت الخامسة والعشرين غاض ماء شبابها وولت محاسنها. وإذا حبت إلى الأربعين خلتها إحدى العرافات العجائز. وهي قلما

تجاوز الخمسين . وهذه هي ضريبة الشقاء والحرمان .

وفي القبائل الافريقية حيث تثبت الآراء الفطرية لنفوذ الغربيين وآرائهم يشبه مركز المرأة مركز أختها الاسترالية . ولذلك اختص الرجال — كما يقول هافلوك اليس — بأعمال الحرب والقتال ، واختصت المرأة بأعمال الصناعة .

والمرأة هناك تعني بتربية الأطفال وبكل عمل يمت إلى البيت بصلة . والرجل هناك يعنى بكل ما يزيد مفاصله صلابة ومتانة .

ويقول الكاتب ج . كلاريدج إن المرأة العادية في بلاد الكونغو تترجح في مثل تذبذب رقاص الساعة بين طفلها وحقلها ؛ وهما الشيئان اللذان يمثلان أهم ما تعنى به من أمور الحياة . فمن شروق الشمس إلى غروبها تجد المرأة تعزق الأرض وتسقيها وتحصد الزرع وتجني الثمار . وهي تقوم بهذه الأعمال وطفلها فوق ظهرها ، وهي ترى مرتين في النهار وهي تذهب لتملأ جرتها من العيون والأنهار . والعارفون ينسبون انتصاب قامة المرأة في تلك البلاد واعتدال قوامها إلى هذا النوع من العمل . والمرأة هناك هي التي تزرع الخضر وتطبخها . وهي التي تبني كوخها ، وتقيم من أوده إذا أضرت به الريح أو أتلفه المطر .

من أجل ذلك ينظر للمرأة بين قبائل إفريقية كأنها عملية مالية مذهبة الحواشي ، تدر ربحا وفيرا في صورة خدمات وأطفال .

ومما يعلى من قدرها ويغلي من ثمنها أنها إذا ماتت كان لزوجها أن يتزوج — بغير مهر جديد — إحدى أخواتها غير المتزوجات .

وهناك في نيجريا ترسف المرأة في قيود الذل في بعض نواحي العيش ، في حين أنها تظفر بقسط وافر من الحرية في بعض النواحي الأخرى .

فهناك لا ينبغي للمرأة أن تضفر إلا إذا رضيت أن تعرض نفسها لتهمة السحر ، ولا أن تطوى أشرعة القوارب أو أن تصعد إلى سقوف الأكواخ . ذلك لأن تحت السقوف تحفظ الملابس التي يلبسها رجال الجماعات السرية . وهي لذلك تعتبر ملابس مقدسة ، فاذا وقعت عليها عين المرأة أصبحت نجسة .

والمرأة هناك يجوز لأبيها أو زوجها أن يرهنها في مقابل دين . فان غلق الرهن وكان الراهن أباها جاز للدائن أن يضمها إلى حريمه .

وقد يحدث — والشيء بالشيء يذكر — أنه إذا مرضت امرأة وكانت غير قادرة على أجر الطبيب كتبت على نفسها أن تكون له عبدة مدى الحياة إذا أبرأها من سقمها .

وإلى جانب أمارات الذل التي سلف بيانها نجد كثيرات من النساء يعملن في الصناعة والتجارة ، ويجنين من عملهن ما يكفلهن هن وأولادهن ، وإن كانت القاعدة أن الزوج هو صاحب رأس المال الأول .

وإن أردت أن تلقى القوم الذين نساؤهم في الدرك الأسفل من الذل ، فانك واجدهم بين أقزام الغابات الاستوائية ، وكذلك أنت واجدهم في صحاري كلهاري . وهم — كقوم رحل — ليس لنسائهم عمل يعملنه في المنزل أو في الحقل . وحياة نسائهم إنما هي دورة طويلة من الحمل والولادة ومن الحرمان يتخللها نوبات من النهم والبطنة يعقبها سبات هو أشبه بسبات الذاهلين .

ولكن يجب أن نقرر أن هذا الشقاء لا يرجع إلى سيطرة الرجل على المرأة ، وإنما يرجع إلى شقاء البيئة التي تعيش فيها وتحيا .

وإن المرء ليجد اليوم قوماً يسكنون تلال نلجرى في جنوبي الهند يقال لهم « التودا » وهم يبلغون السبعمائة عداً ، وهم يرون ان المرأة أدنى درجة من الرجل طبيعة وخلقة ، ولذلك يرون أن الاتصال بها رجس ونجس .

ومن ثم نجد النساء ممنوعات من المشاركة في حلب اللبن ومخضه ، وممنوعات أيضا من العناية بالجواميس في إبان الولادة والانتاج . وإذا انتقلت الجواميس من قرية إلى قرية كان على النساء أن يهجرن بيوتهن وأن يخرجن إلى الغابات تحمل كل منهن شارة الانوثة وهي المكنسة والغربال والهاون .

والبنات مستثنيات من هذا المنع والتحريم حتى يبلغن مبلغ النساء . ولذلك فهن اللائي يقدمن للجواميس العلف ويتولين تنظيف الحظائر .

وكذلك الحال في كمبوديا بالهند الصينية حيث يحرم على المرأة أن تنام على الوسائد والحشايا التي ينام عليها زوجها .

وفي سيام تتوسد المرأة وسائد أقل درجة من وسائد زوجها للدلالة على نقصها .

وعند بعض الشعوب يرى من غير اللائق ومما ينافي الاحتشام أن تذكر النسوة اسماء أزواجهن .

وفي كثير من البلاد تعزل النساء عن الرجال إذا الليل جن . فتنام النساء والبنات في البيوت ، وينام الرجال في ساحات المدينة .

وعلى عكس ما أسلفنا نجد للنساء المقام الاول في بورنيو الشمالية . فالنساء هناك هن اللائي يتزعمن الاحتفالات الدينية ، والرجال هناك يقنعون بدق الطبول . والنساء هناك هن الكهنة . ويقال إنهن يؤدين الطقوس بلغة لا يفهمها الرجال .

وكذلك هن الموكلات بطرد الأرواح الشريرة من القرية ، وهن يقمن بهذا العمل في حفل صاخب ، وهن يمشين الهوينى ، وهن يقفن في كل ركن ، ويقعدن في كل زاوية يرقصن ويهزجن . حتى إذا وصل الركب إلى جانب البر حيث ترسو السفينة وهي محملة بالهدايا التي تسترضي بها الارواح الشريرة أمرت الكاهنة بأن تسير السفينة وهي تحمل فوق ظهرها الأرواح التي يظن أنها قد لجأت إليها ثم تجري بها إلى بلد آخر .

وفي جزيرة سيلان يعيش شعب من سكان الكهوف . والمظنون أن هذا الشعب قد انحدر من سكان الجزيرة الأصليين ، وهم الآن قوم منبوذون . ولا تختلف معيشتهم عن معيشة الوحوش التي تأوي إلى الغابات التي يسكنها هؤلاء الناس .

وعلى الرغم من ذلك فان رجالهم لا يعرفون تعدد الزوجات ، كما أن نساءهم لا يعرفن الخيانة الزوجية . وهن يعشن على قدم المساواة مع الرجال .

مما تقدم يبدو أن القول المكرر المعاد ، والذي يجيء دائماً في صيغة التوكيد بأن المرأة في الشعوب غير المتحضرة إن هي إلا دابة من دواب الحمل ، لا يصح الاخذ به إلا عند بعض الشعوب ؛ إذ عند كثير من الشعوب غير المتحضرة لا تلقى المرأة إلا التوقير والتكريم .

والفكرة القديمة القائلة إن كلمة الانوثة عند الشعوب التي تعيش على الفطرة هي إحدى مترادفات الرق والعبودية هي فكرة لا تثبت للتمحيص والتحقيق .

عن الانجليزية

مبارك ابراهيم

شهريات

شهرية السياسة الدولية

كان العالم الدولى خلال الشهر المنقضى عالم قلق واضطراب . جلسات مؤتمر الصلح بباريس لا تخلو واحدة منها من اصطدام بين الكتلتين اللتين ظهرتا فيه : كتلة الانجلو سكسونيين وكتلة الصقالبة ، حتى قال أحد المعقبين السياسيين الظرفاء إنه « مؤتمر للحرب » بدل أن يكون مؤتمراً للسلام ! واجتماعات مجلس الأمن بنيويورك تتجلى فيها كذلك مظاهر ذلك الخصام بين الكتلتين ، تتقدم روسيا بأسئلتها المحرجة وتوجه أكرانيا اتهاماتها . وفى البحر المتوسط تتجمع وحدات من البحرية الأمريكية لأول مرة فى تاريخها وتقوم بنوع من المظاهرات قريباً من اليونان وقريباً من الدردنيل ، كأنها تعلن أنها حاضرة إذا ما حاولت روسيا النيل من تركيا أو دفعت بلغاريا إلى النيل من اليونان . بل إن التعبير بالحرب الثالثة قد ذكر هنا وهناك على ألسنة رؤساء حكومات ومندوبين رسميين ، شبهوا ما يحدث الآن بما كان يحدث عند اجتماعات مونيخ العتيدة قبيل الحرب العالمية الثانية التى لا تكاد تقف رحاها .

فى مؤتمر الصلح

اما مؤتمر الصلح فبعد أن أمضى وقتا طويلا فى سبيل إقرار قواعد إجراءاته الخاصة بكثرة الأصوات التى تمكن من صحة قراراته بدأ أعماله بمناقشة حول الدول التى كانت قد طلبت الانضمام إليه على اعتبار أنها قد ساهمت فى الحرب مساهمة على قدر ظروفها وملابساتها ، وكانت هى مصر وألبانيا وكوبا وإيران والعراق . وانتهى إلى إقرار سماعها عند ما يعرض المؤتمر لمعاهدة من معاهدات الصلح تمس مصالح تلك الدول . وقد تقدمت كل من هذه الدول بملاحظاتها ، وكان أغلبها مطالبة بتعويض ، إلا مصر فكانت ملاحظاتها مطالبة بتعويض ومطالبة باسترداد جغبوب وتعديل تخومها مع برقة ، وكذلك بتأييد أهل طرابلس فى مطالبتهم بالاستقلال أو تحفظها بأن تكون الوصاية عليها لجامعة الدول العربية أو لاحداها إذا فرضت عليها الوصاية .

وقد انتهى المؤتمر إلى إقرار تعديل التخوم الفرنسية الايطالية ، ولكن مشكلة تريستا لا تزال قائمة ؛ إذ أن يوجوسلافيا قد أعلنت المؤتمر أنها لن توقع المعاهدة إلا إذا تقرر ضم تريستا ليوجوسلافيا بالذات بدل جعل منطقتها إقليما حراً .

وطرأت على مؤتمر الصلح مضاعفات كان أهمها اقتراح استمراره أو تأجيل أعماله نظراً لاقتراب موعد انعقاد الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة . فقد كان هذا الموعد مقرراً فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ، وكان البطء الذى تسير به أعمال المؤتمر غير مؤذن قطعاً بانتهائه منها قبل هذا التاريخ . وأخيراً اتجه التفكير إلى إيثار المؤتمر على

هيئة الامم المتحدة ، فتقرر تأجيل الجمعية العامة لهذه الهيئة شهراً واحداً إلى الثالث والعشرين من شهر أكتوبر ، على أن يتم مؤتمر الصلح أعماله قبل هذا التاريخ .

وقد تعهد وزراء خارجية الدول الخمس العظمى بالانتهاء من أعمال المؤتمر بحيث تنعقد الجمعية العامة فى موعدها دون إبطاء .

فى مجلس الأمن

أما فى مجلس الأمن فقد عرضت عليه مطالب بعض الدول بالانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة ، فتجلى إزاءها الخلاف بين الكتلتين . فرفضت روسيا الموافقة على قبول إرلندا وشرق الأردن والبرتغال ، كما رفضت انجلترا والولايات المتحدة الموافقة على قبول ألبانيا ومنغوليا اللتين كانت روسيا تؤيد طلبهما كل التأييد .

ثم أطلق الرفيق جروميكو مندوب الاتحاد السوفيتى قنبلة إذ طالب مجلس الأمن أن يدعو أعضاءه إلى الادلاء باحصاءات عن عدد قواتهم العسكرية الباقية إلى الآن فى أراضى دول لم تكن من دول الأعداء . وهو يقصد خاصة وجود القوات البريتانية فى اليونان وفى أندونسيا وفى مصر وفى العراق .

ويلوح أن الاجابة البريتانية على السؤال الروسى ستكون أن تلك القوات قد بقيت فى تلك البلاد بناء على طلب حكومات بعضها، وهى حكومة اليونان القائمة ، وحكومة هولندا ، وبناء على معاهدات تربط بين انجلترا ومصر والعراق .

على أن مندوب أكرانيا قد تقدم بطلب اتهام انجلترا بتدخلها فى الادارة الداخلية لليونان تدخلا فى ناحية فريق من الأهلين على ناحية فريق آخر ، وأنه يرى فى هذا التدخل إخلالا بالأمن العام إذ ستقوم من جرائه حرب أهلية .

وكان موقف الولايات المتحدة موقفُ معارضة لنظر مجلس الأمن ذلك الاتهام . لكن الأمر انتهى الى إدراج الموضوع فى جدول الأعمال ، وإلى الساعة التى نكتب فيها هذه الشهرية لاتزال المناقشة حادة حول هذا الموضوع .

الملكية والجمهورية

وبينما تجرى الأمور على ذلك النحو فى مجلس الامن ، وفى مؤتمر الصلح من قبل ، تم الانتخابات العامة فى اليونان وفى بلغاريا ، وهى انتخابات استفتاء على شكل الحكم الذى تريده البلدان : ملكية أو جمهورية . وقد أسفرت انتخابات اليونان عن إعلان الملكية ، وأسفرت انتخابات بلغاريا عن إعلان الجمهورية. لكن يلوح من الاحصاءات التى أعلنت فى البلدين ويلوح من التطورات الأولى لنتائج الانتخابات أن بلغاريا راضية فى مجموعها عما أسفر عنه الاستفتاء ، وأن اليونان غير راضية . وقد أعلن أن الحكومة البلغارية قد منحت الأسرة المالكة خمسة ملايين من الجنيهات تعويضاً عن الأملاك التى إستولت عليها الدولة ، وهى الأملاك للملكية السابقة . وأما فى اليونان فقد اغتيل زعيم الشيوعيين فى أثينا يوم الانتخابات ، وقد اغتيل زعيم الملكيين بعد إعلان نتيجة الانتخابات بأيام .

مسألة المضايق

ولم تتم مسألة المضايق ، بل هى لا تزال شاغلة الأذهان فى الميدان الدولى . وروسيا تطالب باقامة قواعد لها مماثلة للقواعد البريطانية فى منطقة قناة السويس . وتركيا ترفض هذا الطلب لأنها تعتبره اعتداء على سيادتها واستقلالها ، وتخندق عند اعتبار معاهدة مونترو المنظمة لكيان المضايق ، الذى لا ترفض هى إعادة النظر فيه ، بل تقبل بحث أمره فى حدود تلك المعاهدة أى بحضور جميع الموقعين عليها من الدول . وروسيا ترضى هذا البحث فى حدود الدول الواقعة على شواطىء البحر الأسود وحده . لكن أغلب الظن أن الأمور لن تتعقد فى هذا الصدد إلى حد عدم التغلب عليها والاحتفاظ بالسلام .

مشكلة فلسطين

وفى العاشر من شهر سبتمبر انعقد فى لندن مؤتمر المائدة المستديرة لبحث مشكلة فلسطين . وكانت الدول العربية لا تريد حضوره إذا حضره اليهود . لكن اليهود رفضوا حضوره أولا . والحكومة الانجليزية ارتضت أن يكون للمؤتمر مؤتمرين : مؤتمرا بين الانجليز والعرب ، ومؤتمراً بين الانجليز واليهود ، بحيث لا يجتمع العرب واليهود .

وقد افتتح المؤتمر دون حضور عرب فلسطين أنفسهم الذين أشترطوا لحضورهم إبلاغ الدعوة إليه إلى سماحة الحاج أمين الحسينى رئيس لجنتهم العليا ، ولم ترض انجلترا بذلك . وقد ألقى فيه رئيس الوزارة البريطانية خطبة الافتتاح ورد السيد فارس الخورى رئيس الوفد السورى نيابة عن الوفود العربية جميعاً . وعقب بعد الخطبتين الافتتاحيتين وزير المستعمرات بخطاب موضوعى . وقد تجلت خلال تلك الخطب جميعها وجهات النظر متباينة . فمستر أتلى يدعو إلى تساهل من جانب اليهود ومن جانب العرب . ووزير المستعمرات يعرض لمشروع التقسيم على أنه المشروع البريطانى ، والعرب يقولون إنهم لن يرضوا بمشروع التقسيم ولن يقبلوا قيام دولة يهودية فى فلسطين . ولكن أمراً واحداً هو الذى لاح خلال الأفق مما قد يلوح معه شئ من وحدة الاتجاه ، وهو القول بأن المشكلة الفلسطينية لا يمكن حلها إلا حلا دوليا شاملا مشكلة اليهود كلها . ولدى الناحية العربية بعض اتجاهات إلى اعتبار المشكلة اليهودية مشكلة انسانية تعالج باشتراك العالم كله . فاذا فتحت الدول أبوابها أمام البؤساء من اليهود ، كل منها بنسبة مساحتها وعدد سكانها واستيعابها الاقتصادى والاجتماعى ، فان الدول العربية مستعدة أن تساهم بحصتها ، دون دخل لفلسطين ذاتها لأنها قد احتملت فوق نصيبها بكثير وكثير .

محمود عزمى

شهرية السينما

حول فيلم مدام كورى

يعرض قريباً فى باريس لأول مرة فيلم مدام كورى الذى شهدته مصر قبل سنتين. وهو من إنتاج شركة مترو جلدوين ماير وتمثيل جرير جارسون وولتر بيدجون. ومما يدعو إلى العجب أن هذا الفيلم لا يعرض فى وطن مدام كورى إلا بعد عرضه فى أنحاء العالم. وقد كتب مسيو جبرييل روبار فى جريدة «لموند» مقالا عن هذه العالمة الفذة يسوق إلينا فيه معلومات طريفة عن شخصيتها وأخلاقها وطباعها. ومما جاء فى مقاله قوله:

« لقد أعلن أنه سيعرض قريباً فيلم أمريكى عن حياة بيير وماري كورى مقتبس من كتاب ابنتهما إيف كورى.

«وسيقوم ولتر بيدجون بدور بيير كورى. أما جرير جارسون فتمثل شخصية مارى كورى. وقد امتدحوا لنا مواهب هذه الممثلة وعدم تكلفها فى التمثيل. وإن إعادة شخصية العالمة الشهيرة إلى مسرح الحياة لما يتطلب الكثير من المواهب ومن الاعتدال فى التعبير.

« إن أهم ما تمتاز به مارى كورى من صفات هو أنها لا تظهر شيئا من مميزاتها وصفاتها. فالكثيرون يعملون للظهور، أما هى فقد كانت تبذل كل عنايتها لتنزوى إن لم تستطع أن تختفى تماماً.

« لقد أتيح لى مرارا شرف محادثتها. لم تكن تميل إلى الصحفيين، لأنها كانت تكره كل ما يشبه الدعاوة من قريب أو بعيد، ثم هى تخشى أن يشوهوا فكرتها مهما حسنت نياتهم.

« وقد توسط لى عندها أناس كرام، فاستقبلتنى.

« لن أنسى أبداً تلك المقابلة الأولى.

« فهى ماثلة فى ذهنى بثوبها الأسود كأنه ثوب تلميذة. ولقد ظلت مارى كورى تلميذة ودارسة حتى آخر يوم من حياتها. ولا زلت أذكر ملامح وجهها النبيل المعروق، وعينيها اللتين أجهدهما الالتهاب وهما تنظران من وراء منظارها الضخم الذى اتخذته أخيرا لحمايتهما، وشعرها الذى وخطه الشيب وقد ربطته إلى الوراء فى غير تأنق، فظهرت جبهتها عالية مفكرة.

« قليل من الحركات، صوت عذب متحد النبرات يخرج منه حرف الراء المنغوم خشناً قلقاً. أما حديثها فقد كان بطيئاً يبتعد عن أية لهجة خطابية، وتصبغه بلون خاص عباراتها المعترضة وإيجازها واستدراكها لكى تصحح بعض هذه العبارات.

« كنت أسترسل فى الحديث لأتأكد من فهم مقاصدها فى القول. فكانت تقول مثلا:

« — لا تقل إن هذه المادة الثمينة ذات الخواص الاشعاعية قد أتت بالمعجزات، بل قل إنها تقوم بخدمات، وخدمات عظيمة.

« كان تصحيحها للقول يرمى دائماً إلى تخفيف العبارة، ويرمى دائماً إلى التواضع عند

ما يكون خاصاً بها وباكتشافاتها أو بما تقوم به من أعمال .

« وقد توسلت إلى قائلة :

« — ارجو بصفة خاصة ألا تتكلم عنى .

« فعالم من الوساوس يحيط بها وخجل لم تتغلب عليه قط ، حتى بعد أن بلغت ذروة المجد ، يجعلها مرتبكة أمام غيرها من الناس مهما كانوا أقل منها قدراً . فهى تقول دائما :

« — لقد خلقنا لكى نخدم .

« وهى تستعمل هذا الفعل « يخدم » فى معنى يبلغ أقصى التواضع ، ويبلغ أيضاً غاية الجمال والنبل ؛ فهى تعمل خادما للانسانية بأجمعها وهذا ما كانت تريد .

« كانت تقول :

« — إننا شئ ضئيل . ومرورنا على هذه الأرض قصير سريع . فلنجتهد أن نعمل قليلا من الخير .

« لم تكن لتفوه بكلمة عن نفسها . وكان علينا أن نبذل مجهوداً لنجعلها ترضى أن تذكر لنا لمحات متواضعة عن أعمالها . فالعمل الجليل الذى كانت تواصله يوما بعد يوم رغم المرض والضعف المتزايد فى السنوات الأخيرة ، والمجهود الجبار الذى كانت تبذله لتصل به إلى نهايته — كل ذلك كانت تمنع التحدث عنه إلى الجمهور قائلة :

« — لا وما الفائدة ؟

« ومع ذلك كانت هذه السيدة العالمة امرأة من أرق النساء ، تحب كل ما هو جدير بالحب وتعبد الحياة .

« أذكر أنى رأيتها فى عطلتها على شاطئ البحر عند ساحل بريتانى الوحشى ، وكنت فى ذلك الوقت ضيفاً على جان بيران الذى كان جاراً لأسرة كورى . كان جان فى ردائه من المخمل المخطط ، وقميصه من الصوف الأحمر وقبعته الرمادية العريضة الجوانب ، يشبه رسامى المناظر الطبيعية . كنا نجرى على السهول فى أحذية خفيفة أو نعتلى دراجة لنأتى بحاجتنا من الزاد . وفى ساعة الاستحمام يخرج الناس آباء وأبناء وأصدقاء تتساقط منهم المياه فينثرونها من حولهم وهم يتمازحون ويتضاحكون من كل شئ ومن غير شئ كأنهم تلاميذ يريدون أن يظهروا اغتباطهم بأوقات الفراغ .

« إن تمثيل مثل هذه الشخصية الفذة يحتاج إلى مجهود لاظهار هذه الألوان المختلفة . وإنها لمهمة شاقة وجميلة تقع على عاتق من تصوير حياة مارى كورى . »

المهرجان الدولى للفيلم فى كان

كان المهرجان الدولى يقام دائما قبل الحرب فى مدينة البندقية حيث كان يجتمع كبار رجال الفن فى العالم . وقد أدركت فرنسا ما يكون من وراء هذا المهرجان من دعاوة للبلاد ، وما يعود عليها وعلى صناعة السينما المحلية من فائدة ، فبادرت بدعوة الدول إلى إقامته فى مدينة كان . وافتتح المهرجان فى الأسبوع الماضى بحضور مندوب عن كل دولة من الدول المشتركة ؛ فمثل مصر الأستاذ يوسف بك وهبى . وبهذه المناسبة أذاع مكتب الأنباء والنشر الفرنسى نشرة تحتوى على أسماء الأفلام التى تعرض فى هذا المهرجان ومن بينها الأفلام التى قدمتها مصر . وها نحن أولاء ننشرها للقراء :

جاء فى قانون المهرجان أنه يجب على البلاد التى ترغب أن تشترك فيه ، إعلان رغبتها هذه

قبل ابتداء المهرجان بشهر – أى فى ميعاد أقصاه ٢٠ أغسطس – ولذا نستطيع الآن أن نعلن قائمة البلاد المشتركة بصفة نهائية :

الأرجنتين – بلجيكا – كندا – الدانمارك – مصر – الولايات المتحدة – فرنسا – بريطانيا العظمى – إيطاليا – المكسيك – النرويج – هولنده – بولنده – البرتغال – رومانيا – السويد – سويسرا – تشيكوسلوفكيا – روسيا .

وقد أرسلت معظم هذه البلاد إلى السكرتارية العامة للمهرجان قائمة الأفلام التى اختارتها هى بنفسها مراعية فى اختيارها أن يكون نصف الأفلام لم يسبق عرضه فى العالم ، والنصف الآخر عرض لأول مرة أثناء الاثنى عشر شهراً التى تسبق افتتاح المهرجان . وها هى ذى أسماء الأفلام :

الأرجنتين

السيدة دولنديه – فيلاريكا دل سانتو .

بلجيكا

رجال كالآخرين .

الدانمارك

يوم الغضب – المراعى الحمراء .

مصر

دنيا – الماضى المجهول – سيف الجلاد – ليلى بنت الفقراء – لعبة الست – هذا جناه أبى .

أفلام احتياطية :

شمعة تحترق – الحياة كفاح .

الولايات المتحدة

لم يتم للآن اشتراك الولايات المتحدة بصفة نهائية . ولكن نستطيع أن نعلن الأفلام الآتية :

أنا وملك سيام – موسيقا زرقاء – عطلة الأسبوع المفقودة .

بريطانيا العظمى

افلام روائية :

الحجاب السابع – قلب القائد – قيصر وكليوباتره (بالألوان) – القوس السحرية (بالألوان) – مسألة حياة أو موت (بالألوان) – مقابلة قصيرة .

أفلام ثقافية :

عالم الرخاء – جزيرة قبرص – الفولاذ – حياة البصل الدورية – عيون أطفالكم – آلات الفرق الموسيقية – قطرة من الأثير – قيادة البواخر – طريقتنا فى المعيشة – الانسان – أسرة واحدة .

المكسيك

ماريا كاندلريا – الفرسان الثلاثة – الأراضى الملعونة – زهرة دورازنو – بطل بلا إكليل .

بولنده

الأغانى الممنوعة .

البرتغال

كامويئس – ثلاثة أيام بدون إله .

السويد

دماء ونار – وسواس .

تشيكوسلوفكيا

الطالب الوقح ــ رجال بدون أجنحة .

روسيا

افلام روائية :

ألدورة الحاسمة ــ الزهرة الحجرية (بالألوان) ــ سلام يا موسكو ــ أثياب بيضاء ــ جلينكا ــ زويا ــ رقم ٢١٧ .

أفلام ثقافية :

برلين ــ مدينــة النحل ــ العرض الرياضى (بالألوان) .

ولا تعرض كندا والنرويج وهولنــده وسويسرا إلا أفلاما قصيرة . وقد اختارت فرنسا لمهرجان كان الأفلام الآتية :

أفلام طويلة :

السنفونية الريفية لجان دلانوا ، تمثيل ميشيل مورجان وبيير بلانشار .
الحسناء والوحش لجان كوكتو ، تمثيــل جان ماريه وچوزيت داى .
صراع القضبان لرنيه كليمان .
وطن للويس داكان ، تمثيــل بيير بلانشار وماريا موبان .

الأب الهادئ لرنيه كليمان ونويل نويل .
شبح لــكريستيان چاك ، تمثيــل لويس چوڤيه ، جابى مورلى ، فرانسوا بيريبه وتشيرينا .

أفلام قصيرة :

أوبرڤيلييه للوتار ــ أوبوسون للورسا ــ حطام لـكوستو ــ ألاعيب الأطفال لباتليڤيه ــ النتوء الشمسى ــ كيف تجلس لتكتب ــ طريق س . . . ــ الناى السحرى لجريمو ــ نزهة ريفية لرنوار ــ الانسان لمرجاريتيس .

*

وستمنح هيئة من الحـكام تتـكون من مندوب عن كل دولة مشتركة فى المهرجان جوائز مختارة من لوحات الرسامين الآتية أسماؤهم :

أوچام ــ برتوم سانت أندريه ــ بريير ــ كايار ــ كاڤايس ــ كليمان ــ سرڤو ــ دورى ــ چيزيل فرانديه ــ فريز ــ موز ــ هامبلو ــ كلين ــ ليستريل ــ ليموز ــ لورسا ــ س. مانيــار ــ ماركيه ــ فرنسيس مونتانيه ــ پلانسون ــ كيزيه ــ سابورو ــ ساڤان ــ ساڤرو ــ شور ــ تيريشكوڤتش ــ دى ڤاروكييه ــ وورمز ــ زندل .

من وراء البحار

البحوث العلمية فى فرنسا

تروي نشرة الانباء الفرنسية أنه على أثر تحرير باريس أنشئ مركز وطنى للبحوث العلمية ، وعين مسيو چوليو كورى مديراً له فوضع برنامجاً لهذه المنشأة حتى تقوم بدورها الهام فى نهضة البلاد . فكان برنامج العمل كما وضع فى سنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥ كما يأتى :

أولا — السير بالأمور إلى الأحوال العادية واستئناف تنفيذ المشروعات التى سبق وضعها .

ثانيا — الاشتراك بأكبر جهد فى المباحث العلمية الخاصة بالحرب .

ثالثاً — بعد الانتصار تسترد جميع المواد العلمية والصناعية فى ألمانيا والنمسا ، والحصول على المعلومات عن البحوث العلمية فى هذين البلدين .

رابعاً — بذل المجهودات لزيادة عدد الباحثين والفنيين فى المصالح الوزارية المختلفة .

خامساً — ربط هذا المركز العلمى بأقسام المباحث فى الوزارات الأخرى .

وقد أخذ هذا المركز فى العمل تحت إدارة مسيو چوليو منذ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ووجد تأييداً من جميع الأوساط العلمية . ويمكن معرفة النتائج التى وصل إليها حتى الآن من النظر إلى بعض الأرقام :

فقد بلغت ميزانيته فى السنوات الأخيرة ما يأتى :

سنة ١٩٤٤ : ١٤٠٠ مليوناً من الفرنكات

سنة ١٩٤٥ : ٣٠١ مليون من الفرنكات

سنة ١٩٤٦ : ٦٠٠ مليون من الفرنكات

(وهى الميزانية الأساسية فقط) .

وبلغ عدد الباحثين فى سنة ١٩٤٦ ألفاً ومائة وأربعة وخمسين باحثاً بعد أن كان ستمائة وتسعة وسبعين باحثين .

وينقسم هذا المركز إلى أقسام علمية يتألف كل منها من ثمانيــة أو عشرة علماء حسب الاختصاص . وتدرس المسائل إما بوساطة هذه الأقسام وإما بوساطة علماء ليسوا تابعين للمركز . ويشرف على الأعمال ويؤلف بينها إدارة تتكون من خمسة عشرة عضواً . أما العمل التنفيذى فيقوم به المدير ومساعده يعاونهما سكرتير عام .

وقد صدر مرسوم فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٥ يجعل هؤلاء الباحثين فى مركز رجال التعليم العالى ، وهذا مما يزيد فى مقدرة المركز على اختيار رجاله من نخبة العلماء .

وليس من المستطاع التوسع فى بيان نشاط الاقسام المختلفة لهذا المركز ، ويكفى أن نذكر ما قام به من توسيع المعامل فى بلبلفى فقد أنشئت معامل جديدة للبحث فى المواد الدهنية وفى الألوان وفى المواد بعد تعريضها لانخفاض الحرارة ، وغير ذلك من المعامل النافعة .

ويجمل فى هذا المقام أن نذكر النشاط العلمى الهام الذى قام به المسيو ڤيار الأستاذ بالسوربون منذ سنة ١٩٤٠ حين أنشئت مصلحة لتسجيل النتائج العلمية تصدر نشرة تحليلية لهذه البحوث ، ولهذه النشرة صفة عامة ؛ فهى تبين للباحث ما نشر من بحوث فى موضوعه مع ذكر خلاصة قصيرة ثم إنه يستطيع عن طريقها أن يحصل على

نسخة فوتوغرافية كاملة أو على الميكروفيلم للبحث الذى يريده بقيمة زهيدة. وقد بدأت المصلحة تعرف فى الخارج، وتتصل بمثلها من المنشآت مثل اتصالها بمصلحة أسلب للميكروفيلم بلندن. ويستفيد بها العلماء والباحثون.

التقدم الاقتصادى فى فرنسا

ألقى مسيو ماتتون وزير الاقتصاد الوطنى الفرنسى أخيراً محاضرة على رجال الصحافة فى باريس شرح فيها سياسة الحكومة الفرنسية فيما يتعلق بأسعار الحاجيات. ومما جاء فيها أن الحكومة تحارب التضخم وهبوط النقد وتعمل على تعادل الميزانية وزيادة الانتاج، وتؤيد خفض الأسعار كلما كان ذلك مستطاعاً. وبهذه الوسائل تكون الزيادة فى المرتبات التى منحتها أخيراً ثابتة لاتهددها زيادة الأسعار.

ويتحقق هذا البرنامج ذو الوجهات الثلاث، أى الدفاع عن العملة والدفاع عن الأسعار وزيادة الأسعار، باتباع سياسة دقيقة فى الاقتصاد فى الميزانية، والرقابة الاقتصادية القوية، والقضاء على الوسطاء الذين لا فائدة من ورائهم وإنقاص أرباح المنتفعين وزيادة إنتاج المواد ذات المنفعة الاجتماعية. ولا يمكن تثبيت الفرنك إلا بالاقتصاد فى أعباء الميزانية. وقال الوزير إن زيادة أعباء الميزانية تؤدى دائماً إلى الالتجاء لاقتراضات من بنك فرنسا أى إخراج أوراق نقد إضافية، وهذا يزيد فى ارتفاع الأسعار. وخير أبواب الاقتصاد فى الميزانية هو باب الاعانات التى لا تغطيها زيادة الضرائب، أو إصدار قروض هى عنصر اضطراب فى الحياة الاقتصادية لا يمكن أن يؤدى إلى خفض الأسعار ولا يمكن أن يزيد من مقدرة الفقراء على الشراء.

لذلك رئى خفض باب الاعانات خفضاً كبيراً، فألغيت الاعانات التى كانت تمنح لتثبيت أسعار السكر والزبدة واللحم والفحم والغاز والنقل، ولم تبق غير الاعانات التى تمنح للخبز واللبن. أما إعانة الصلب فتلغى فى يناير سنة ١٩٤٧. وهكذا خفضت الاعانات من ٨٦ مليارا إلى ٤١ ملياراً.

وقد عزمت الحكومة الفرنسية على ألا تسمح بزيادة أسعار الحاجيات إلا فى ظروف استثنائية، وأن تقضى بخفض الأسعار بمجرد زيادة الانتاج. وتوقع الوزير فى القريب العاجل أن تنخفض الأسعار ١٩٪ فى أسعار الخردوات ومن ١٠ إلى ٦٥٪ فى أسعار المنسوجات و ١٦٪ فى أسعار الحرير الصناعى.

وفيما يتعلق بانتاج المواد ذات المنفعة الاجتماعية أعلن الوزير أنه منذ شهر أكتوبر ستصدر السوق الفرنسية شهريا ٣٠ ألف عربة للأطفال بسعر ٣ آلاف فرنك و ٩٤٠ طناً من أوانى الألمنيوم — يكون الخمس منها بسعر ٤٥٢ فرنكا و ٢٨٠٠ طن من أوانى الصينى و ٢١ ألفا من أدوات التدفئة ومليون و ٢٥٠ زوجا من الأحذية يتراوح ثمنها بين ٥٠٠ و ٦٠٠ فرنك و ١٥٠ ألف بدلة للرجال ثمن الواحدة منها من المصنع يتراوح بين ١٩٥٠ و ٢٤٠٠ فرنك، و مليونى قميص يتراوح ثمنها بين ١٨٠ و ٣٢٠ فرنكا.

ثم تكلم الوزير عن النظام الجديد الذى يفرض على المطاعم، وستنقسم إلى أقسام ثلاثة:

المطاعم التى لا يزيد السعر فيها عن ٤٥ فرنكا. وهذه تمنح لها ميزات خاصة فى الضرائب.

وللمطاعم التى يتراوح فيها السعر بين ٤٥ فرنكا و ٢٥٠ فرنكا . وهذه تفرض عليها الضريبة العادية .

وللمطاعم التى يزيد فيها السعر على ٢٥٠ فرنكا . وهذه تفرض عليها زيادة فى الضريبة قدرها ٤٥ ٪ .

فنلندا بعد الهزيمة

إن الدور الذى قامت به فنلندا فى الحرب معروف لدى الناس ، ولكن قد يكون موقف أهلها غير معروف ، هذا ما تراه مجلة « العالم اليوم » فى عدد أغسطس ؛ فقد قرر الفنلنديون أن يقاوموا مطالب الروس فى سنة ١٩٣٩ ، وكانوا على ما يظهر على حق فى ذلك ولو أن العقل لا يؤيدهم . وعندئذ ضربوا مثلا للعالم بأجمعه ووجدوا عطفاً شاملا ورضا عن مسلكهم وعرفوا أنهم جديرون بهذا العطف ، ولذلك استغربوا عند ما رأوا العالم المتحضر أو أكثره يتحول عنهم ويلومهم على حربهم الثانيــة ، مع أنهم لا يرون فى هذه الحرب إلا تتمة لنزاع قديم ومقاومة لطرائق فى الحياة غريبة عنهم .

إن الفنلنديين قوم لا يتغيرون بسهولة ، والحياة فى بلادهم صعبة بحيث لا تترك لهم فراغا للنظر فى أمور غيرهم من الشعوب . ولقــد قاوموا الاضطهاد الروسى لعدة سنوات قبل سنة ١٩١٨ وهم يعتقدون أنهم لا يخطئون لذلك لم تؤثر فيهم محاكمة المسئولين عن الحرب الثانية التأثير الذى كان يرجوه الحلفاء . ومما يدل على عدم قدرتهم على التطور أنهم لم يعرفوا كيف يستغلون الظروف السياسية الدقيقة فى سنة ١٩٤١ كما استغلتها تركيا مثلا .

فهم لم يعملوا على البقاء خارج الحرب ، وكان ذلك فى مقدورهم بعد صلح سنة ١٩٤٠ مع موسكو لو وجــدوا سياسيين ذوى خبرة ، ولكنهم ضلعوا مع الألمان وخضعوا لنفوذهم وتلكأوا فى الصلح مع ألمانيا .

ولذلك كانت الشروط التى فرضت عليهم فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ ثقيلة . ولكن فنلندا لم تتعرض للتحرير بوساطة قوات أجنبية كما حدث للبــلاد المهزومة الأخرى ، ولذلك نجت من الاحتلال الأجنبى .

كانت شروط الهدنة أشد من شروط هدنة سنة ١٩٤٠ ، فقد خسرت ميناء بتسامو وهو ميناء لا يغطيه ثلج فى الشتاء ، كما أنها خسرت مناجم النيكل الثمينة فى الشمال ، ومع ذلك لم تتألم البلاد كما تألمت لفقد ديبورج الحصن القديم القائم منذ القرون الوسطى ، وكاريليا التى تحتوى على ١٠ ٪ من الاراضى المزروعة بفنلندا وهى من أخصب أراضيها . وخسرت فنلندا أيضاً أكثر من هذه النسبة من غاباتها ومن الصناعات الفنلندية ومن الميــاه المليئة بالاسماك . ثم إنها فقدت كثيراً من طرقها ووسائل انتقالها ، وخسرت مقاطعة بوركالا وهى من أخصب المقاطعات القريبة من العاصمة .

ليست هذه شروط الهدنة جميعها ، بل هناك ما هو أثقل فى التعويضات والمصانع وتسليم المواد مما أدى إلى تضخم فى العمــلة وزاد فى صعوبة حياة الفنلنديين . ومع ذلك فقــد تلقت فنلندا شيئاً من المساعدة من بعض الدول لا سـيما السويد وأمريكا اللتين منحتاها قروضا .

ومن الغريب أن فنلندا تعمل على الوفاء بتعهداتها بالرغم من فداحة العبء ؛ فلقد نالت فنلندا شهرة فى أمريكا فى وقت من الاوقات لانها كانت الدولة الوحيدة التى سددت ديونها

قبل الحرب الأخيرة ، وهى تطمح الآن إلى أن تكون الدولة التى تدفع التعويضات المفروضة عليها كاملة . ولذلك نرى أهلها يعملون أكثر مما يجب ، ولا يخلدون إلى راحة بعد متاعب الحرب ؛ لأنهم يرون أن مستقبلهم متعلق بالوفاء ، فهم لا يسمحون لعمالهم بالاضراب مثلا ، بل يعملون على تسوية المشاكل فى أسرع وقت .

ولقد انحط مستوى الحياة عندهم كثيراً . والذين يشتغلون بالأعمال العقلية يجدون أنفسهم فى ضنك شديد ، فالأستاذ فى الجامعة بفنلندا يتناول الآن أجراً قدره ٣٦٠ جنيها سنوياً يدفع نصفه على الأقل ضرائب . وإذا كان له لسوء حظه دخل إضافى آخر فان الضرائب تبتلع راتبه . ومما يستحق الذكر أن راتب الاستاذ اليوم هو ما كان يتناوله عامل البريد فى سنة ١٩١٤ . أما العامل اليدوى فى صناعة المعامل أو الغابات ، فان دخله يبلغ ٥٠٠ جنيه سنويا .

وحالة الطعام سيئة جداً فى المدن الكبيرة ، ومن المستحيل المعيشة على المخصصات ، ولذلك ترى السوق السوداء نشيطة جداً ، ولكن هنالك أمل فى تحسن الاحوال لا سيا بعد أن وعدت روسيا بامداد فنلندا بعشرة آلاف طن من الحبوب ، وهذه تكفى لدرء خطر المجاعة إلى بضعة شهور .

والحاجة إلى المساكن اسوأ من حالة الطعام ، ففى مدينة آبو مثلا قضت القوانين بأن يعطى لكل فرد فى أسرة حجرة واحدة وما تبقى أعطى لأسر العمال والمهاجرين ، وأمر الأعزاب بأن يخلوا دورهم لسكنى الأسر . وزادت الازمة تعقداً فقضى بأن تخصص غرفة لكل أسرة ، وتشترك الأسر جميعها فى المطبخ والحمام .

فالحياة إذن مظلمة فى فنلندا ، ولا يشاهد تحسن فيها بعد نهاية الحرب . والأمل الوحيد هو فى نشاط أهلها لو وجدوا نوعا من الاستقرار والأمل .

ظهر حديثاً

نابليون تأليف إميل لودفيج ترجمة الاستاذ محمود إبراهيم الدسوقي (دار الكاتب المصري) مجلدات مجموع صفحاتها ٧٠٠ صفحة ، وترجمة أخرى للأستاذ عادل زعيتر مجلد واحد (دار إحياء الكتب العربية — عيسى البابي الحلبي) مجموع صفحاته ٥٥٦ صفحة .

فبين الترجمتين إذن فرق عظيم في عدد الصفحات يبلغ مائة ونصف مائة منها فيجب أن يكون أحدهما قد أضاف هذا المقدار الضخم إلى الكتاب من عند نفسه ، أو أن يكون الآخر قد حذف هذا العدد الضخم من الكتاب ليخفف حجمه ، ويجعل حمله ونقله يسيراً . ولكن هذه قصة أخرى ، يضحك لها من يشاء أن يضحك ، ويحزن لها من يشاء أن يحزن ، ويسخر منها من لا ينظر إلى الأشياء نظرة الجد ، ولا يرى لدقة الترجمة وحسن النقل والأمانة فيه خطرا .

ولست من المعجبين بإميل لودفيج وفنه إعجاباً شديدا . ومصدر هذا في أكبر الظن أني لم أقرأه في نصه الألماني . ومصدر هذا في أكبر الظن كذلك أن بين خياله الألماني البعيد ، وتفكيره الألماني الملتوي ، وبين خيالي القاصر وعقلي العربي الذي يواجه الأشياء أكثر مما يدور حولها ، أمداً بعيداً . ومصدر هذا في أكبر الظن كذلك ، أني حاولت أول ما حاولت أن أعرف لودفيج من طريق كتابه عن حياة المسيح ، ومن طريق كتابه عن حياة جوت ، فلم أستطع أن أمضي في الكتابين إلا قليلا . ومصدر هذا آخر الأمر أني لقيت لودفيج في القاهرة حين زار مصر متهيئاً لانشاء كتابه عن النيل ، فلم أجد لقاءه ولم يحمد لقائي . كلفت أن أستقبله في بعض الأندية ، فطلبت إليه في صراحة لعلها لم تخل من العنف ألا يتعجل إنشاء كتابه ، وألا يسلك طريق جماعة من الكتاب الذين ينفقون في مصر أسابيع ثم ينشرون عنها كتاباً حظه من الخطأ يربي على حظه من من الصواب . وكان طبيعياً ألا يقع هذا الكلام من نفس الكاتب الألماني الممتاز موقعاً حسناً ، وكان طبيعياً أن نفترق إلى غير لقاء .

على أني بعد ذلك قرأت له كتابين رضيت عنهما كل الرضا ، وأعجبت بهما كل الاعجاب ، ووددت لو ترجما إلى اللغة العربية ليقرأهما أكبر عدد ممكن من أبناء الشرق العربي ، وهما كتابه عن بسمارك وكتابه عن نابليون .

ولعل شخصية بسمارك ونابليون أن تكونا هما المؤثرتين في نفسي . وأن يكون تأثيرهما أشد من تأثير لودفيج . ومع ذلك فقد كانت شخصية جوت خليقة أن تحدث في نفسي مثل هذا الأثر ، وأن ترضيني عن هذه المجلدات الثلاثة التي تشتمل على الترجمة الفرنسية لكتاب لودفيج عن جوت .

مهما يكن من شيء فقد أخذت أقرأ كتاب نابليون . ولم أكد أمضي في قراءته شيئاً حتى استأثر بي ، ولم أدعه حتى أتممته على

طوله وعلى ما يحفل به من المشقة والجهد فى تصوير الحوادث وعرض التاريخ واستقصاء العلل واستنباط النتائج . والواقع أن الجهد العنيف الذى يبذله القارئ حين يتنقل بين هذه الأجزاء التى سماها لودفيج جزيرة ، وسيلاً ، ونهراً ، وبحراً ، وصخرة — هذا الجهد يثير فى النفس متاعا عظيما لكثرة ما يمكن من معاشرة هذه الأحداث الكثيرة جداً ، المختلفة جدا ، التى أثرت أبعد الآثار وأعمقها فى تاريخ العالم الحديث . فالأحداث التى صورها إميل لودفيج فى كتابه تصويراً رائعاً دقيقاً تقع كلها فى أقل من ربع قرن ، وكانت خليقة أن تقع فى أكثر من قرن . ويكفى أن تعلم أنها أحداث الثورة الفرنسية ، وأحداث الامبراطورية وما استتبعت من أحداث فى العالم المتحضر كله إذ ذاك . وقد وقعت هذه الأحداث فى وقت قصير وفى أماكن محدودة من الأرض، ولكن آثارها وأصداءها لم تلبث أن انتشرت وتجاوبت فى أقطار الارض كلها، ولم تلبث أن تصحب الزمن وتسايره إلى الآن، وليس من شك فى أنها ستصحب الزمن وتسايره إلى آماد بعيدة فى المستقبل أشد البعد . والذين لا يفرغون لدرس نابليون واستقصاء حياته العجيبة ، ويكتفون بما يعرف عنها المثقف العادى الذى يقنع بما يقرأ فى مختصرات التاريخ وبما يسمع من الأساتذة فى معاهد التعليم ، يحتفظون لأنفسهم من نابليون بصورة ناقصة أشد النقص ؛ فهو البطل العصامى الذى نجم من أسرة متواضعة فى جزيرة كورسيكا، ثم ملأ الدنيا وشغل الناس بانتصاراته فى إيطاليا ، وباقدامه على غزو مصر ، وبتكوين هذه الامبراطورية العظيمة التى أقرت النظام بعد الثورة فى فرنسا ، والتى نشرت أصول الثورة فى أوربا ، والتى ثلت ما ثلت ، وأقامت ما أقامت من العروش، والتى كتبت فى التاريخ بأحرف من نار دامية أو بأحرف من دم

ملتهب أسماء هذه المواقع الحربية التى لا يمكن أن تنسى . ولكن كتاب لودفيج يظهرنا فى يسر شاق بعض الشىء ، إن أمكن أن يستقيم هذا التعبير ، على نواحى أخرى من حياة نابليون : يظهرنا على المشرع الذى سلك بفرنسا هذه الطريق الرائعة فى سبيل تجديد التشريع ، وعلى المسالم الذى أبلى فى الحرب بلاء لا يعدله إلا بلاء الاسكندر وقيصر . ولكنه أحب السلم كما لم يحببها أحد ، وصور السلم فى رسائله وأحاديثه ومذكراته كما لم يصورها أحد ، ودعا إلى السلم كما لم يدع إليها أحد . وللمثالى الذى اشتق حياته هذه الهائلة من قراءة كتاب بلوتارك عن حياة عظماء الرجال صور لنفسه حياته هذه الهائلة تصويرا ، ثم اندفع إلى تحقيقها اندفاعاً فحققها كما أراد . خلق لنفسه نجماً واعتقد أن هذا النجم يهديه فى هذه السبل الملتوية التى دفعته إليها مغامراته ؛ وقد هداه هذا النجم بالفعل؛ لأن هذا النجم لم يكن فى حقيقة الأمر إلا هذه الارادة القوية العنيفة الماضية القاهرة التى لا تعرف تردداً ولا تراخيا ولا استسلاما .

ثم يظهرنا كتاب لودفيج على نابليون العاشق الذى يعذبه العشق ، واللاهى الذى يتعجل اللهو بين موقعتين من مواقع الحرب ، والأديب الذى يذوق الأدب وينقده ، والذى يشجعه ويسخر منه ، والعالم بنفسية الشعوب وبنفسية الجيوش ، وبنفسية الأفراد على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وحظوظهم من الثقافة والعلم ، ونصيبهم من استقامة الأخلاق واعوجاجها . ثم يظهرنا مع ذلك على ضعفه الانسانى أمام هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الغرور ، وعلى قوته الانسانية الهائلة التى كان ينفقها ، لينعم بهذا الضعف ويجد فيه ما يرضى حاجة نفسه الانسانية إلى الاستمتاع بأكاذيب الوهم وخداع الآمال .

يظهرنا لودفيج على هذا كله ، وعلى أكثر

جداً من هذا كله ، فى هذا الكتاب الذى لم يخلص للتاريخ ، ولم يخلص للقصص ، وإنما كان مزاجاً منهما ، يرضى الحاجة إلى المعرفة كما يرضى الحاجة إلى السلو والتخلص بين حين وحين من هموم الحياة الواقعة التى تغشى الناس حين يصبحون وحين يمسون .

ومن هنا لم أتردد فى تشجيع صديقى الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى على نشر ترجمته لهذا الكتاب حين عرفت منه أنها قد تمت أو أوشكت أن تتم ؛ ففى إهداء هذا الكتاب إلى قراء العربية إظهار لهم على فصول رائعة من تاريخ العالم الحديث قليل منهم يستطيع أن يظهر عليها من طريق اللغات الأجنبية التى يحسنونها ، وأكثرهم لا يجد إليها سبيلا .

والأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى دقيق إلى أقصى غايات الدقة ، أمين إلى أبعد حدود الأمانة ، يكلف نفسه من ذلك ما يشق عليه وما يشق على الذين يعملون معه أعظم المشقة ، وينتهى به حرصه على الدقة والأمانة إلى الحرج والأحراج فى كثير من الأحيان ، وهو من كتابنا القليلين جداً الذين يمضون أمامهم فى الطريق التى رسموها لأنفسهم أو رسمتها لهم الحياة ، لا يحبون العوج ولا الذبذبة ولا الالتواء ، ولا يكرهون أن يبذلوا أعظم الجهد ويتحملوا أشد العناء فى سبيل المحافظة على سلوك هذا الصراط المستقيم . وإتقانه للألمانية ، وتعمقه لأسرارها واستقصاؤه لدقائقها أمور معروفة قد استقرت فى نفوس المثقفين جميعاً . وهو قد ترجم آثار جوت ، فأرضى نفسه وأرضى قراءه سواء منهم من استطاع أن يقرأ جوت فى لغته الألمانية ومن استطاع أن يقرأه فى اللغات الأوربية الأخرى . فاقدامه على ترجمة هذا الكتاب اليسير لا غرابة فيه ؛ لأنه تعود دائماً أن يواجه فى الحياة كل عسير .

وهو لم يقدم على ترجمة هذا الكتاب إلا بعد أن استأذن المؤلف فى هذه الترجمة ، وظفر باذنه ، وحاول أن يستعينه على تفسير بعض نصوصه فلم يجد عنده طائلا كما ينبئنا بذلك فى مقدمته . ثم هو لم يكتف بجهده الخاص ، وإنما امتحن ترجمته بعد إتمامها ، فعارض بينها وبين الترجمة الانجليزية والترجمة الفرنسية ، وخرج من هذه المعارضة ظافراً مطمئناً ، بل استكشف فى هاتين الترجمتين ضروباً من النقص عرض علينا نماذج منها فى كثير من التواضع والاستحياء . فمن أيسر حقه على وعلى غيرى من الذين لا يقرءون الألمانية أن نشكر له هذا الجهد الخصب ونهنئه بهذا التوفيق العظيم ، ونتمنى عليه أن يترجم لنا كتاب لودفيج عن بسمارك ، وأن يمضى فى إظهار قراء العربية على روائع الأدب الألمانى العظيم .

أما الترجمة الثانية لكتاب نابليون فلها مزيتان : الأولى أنها تقع فى مجلد واحد فهى أخف حملا وأيسر تناولا ؛ والمزية الثانية أنها رخيصة الثمن بالقياس إلى الترجمة الأولى . وما من شك فى أن الأستاذ عادل زعيتر قد كلف نفسه مشقة عنيفة وبذل فى عمله جهداً عظيما ، وفى أنه خليق من أجل ذلك بأن نحمد له رغبته فى الخير ، ومحاولته للنفع ، وتكلفه للمشقة والجهد فى سبيل ذلك . والأستاذ نفسه ينبئنا بأنه لم يترجم الكتاب عن أصله الألمانى ، وإنما استخلصه لنا من الترجمة الفرنسية والترجمة الانجليزية والترجمة التركية . وأقول استخلصه ولا أقول ترجمه ؛ فالأستاذ ينبئنا بأنه لخص فى كثير من المواطن ولم يترجم . وهو ليس فى حاجة إلى أن ينبئنا بذلك ؛ فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى أن ينبئنا به او يدلنا عليه . وقد قلت فى اول هذا الحديث إن بين النصين العربيين فرقاً فى عدد الصفحات يبلغ خمسين ومائة صفحة . وواضح جدا أن

المترجم المصرى لم يزد على كتاب لودفيج خمسين ومائة صفحة من عند نفسه ، فيجب ان يكون المترجم الفلسطيني قد حذف من الكتاب ربعه أو أقل من ربعه قليلا . ذلك إلى عيوب خطيرة أخرى فى الترجمة تظهر من الموازنة بين النصوص ، وقد يعرض لها غيرى من الذين يجدون الوقت لمثل هذا الاستقصاء الذى لا بد منه .

وبعد ، فقد يخيل إلى أن الحياة العقلية فى الشرق قد بلغت من الرقى حدا لا تسمح بالنقل عن التراجم حين يمكن النقل عن الأصل ، ولا تسمح بترجمة الكتب ونشرها والانتفاع منها دون استئذان مؤلفيها ، ولا تسمح بهذا التنافس المالى بين عملين احدهما متقن دقيق والآخر بعيد كل البعد عن الاتقان قد تعجله صاحبه واختطفه اختطافا

طه حسين

كتب أربعة

يقظة العرب تأليف جورج انطونيوس وترجمة على حيدر الركابى (مطبعة الترقى بدمشق) .

العرب تأليف الدكتور فيليب حتى وترجمته مع بعض المعاونين (منشورات دار العلم للملايين) .

قضية فلسطين تأليف نجيب صدقة (منشورات دار الكتاب ببيروت) .

هذه هى الأغلال تأليف عبد الله القصيمى (مطبعة مصر — القاهرة) .

كتب أربعة ، تدور كلها حول موضوع واحد ، وتصدر عن منزع واحد ، وترمى إلى هدف واحد ، وإن اختلفت مناهج مؤلفيها وأساليبهم فى التفكير ووسائلهم فى البيان وطريقتهم إلى الهدف .

كتب أربعة لمؤلفين أربعة لم يجتمعوا فى دار ولا اظلهم سقف ، ولعلهم لم يلتقوا يوما على ميعاد ولم يتراءوا عينا لعين ، ولكنهم مع ذلك قد اجتمعوا على خاطر مشترك أومض فى قلوبهم جميعا فى لحظة معا ، فتوجهوا بأبصارهم وقلوبهم وعقولهم إلى قبلة تتراءى لهم على مقربة أو على مبعدة ، فمضوا يغذون السير إليها جميعا آملين أن يبلغوها . وسلك كل منهم إلى غايته سبيلا ، فمنهم من أوشك أن يبلغ ، ومنهم من لا يزال فى وسط الطريق أو فى أوله ، ولكنهم على اختلاف سبلهم لا يزالون متجهين بأبصارهم وقلوبهم وعقولهم نحو تلك القبلة التى تتراءى لهم على مقربة أو على مبعدة ، فلا بد أن يبلغوا لأن معهم الايمان والصبر !

على أى دلالة تدل هذه الكتب الأربعة التى يخرجها كتابها لقراء العربية فى وقت واحد على غير سابق ميعاد ، ليتحدثوا إليهم فى موضوعاتها الأربعة ، أو فى الموضوع الواحد الذى يدور حوله حديث المؤلفين الأربعة ؟

أليست هى الدلالة على أن الوعى القومى فى بلاد العربية قد بلغ مبلغه من القوة

والانتشار ، فعاد نبضا فى كل قلب ، وخاطرا فى كل فكر ، وصورة محسة فى مرأى كل ذى عينين ؟

بلى ! وإنه لحقيقة ماثلة ينبغى أن يحسب حسابها وتقدر مغباتها وعواقبها . . .

أما أولها وهو كتاب « يقظة العرب » فألفه مؤلفه بالانجليزية منذ بضع سنين ليكون تعريفاً وافيا دقيقا بالقضية العربية لكل قارئ بالانجليزية .

ومؤلفه المرحوم جورج أنطونيوس أديب من أبناء العربية كان له فى الجهاد العربى سابقة وفضل ، وقد عاصر بعض مراحل النهضة العربية الحديثة وعرف كثيرا من دقائقها عن كثب ، وأتيحت له فرص لم تتح لغيره للاطلاع على كثير من الوثائق العربية والافرنجية التى تكشف اللثام عن بعض ما استتر من فصول هذه القضية . وقد أراد بكتابه هذا أن يخرج بالقضية العربية من نطاقها المحدود إلى نطاق دولى أوسع ليكسب لها التأييد من أحرار الفكر الذين يقدرون الحق بعيدا عن مؤثرات الهوى . وقد نجح فيما قصد إليه ؛ فكان محاميا طلق اللسان قوى الحجة بارع العرض لقضيته بين أصحاب الرأى من قراء الانجليزية فى انجلترا وأمريكا وغيرهما من البلاد .

على أن كتابه ذاك وإن كان القصد الأول منه تعريف الانجليز بقضية العرب والانتصار لهم والاستدلال على حقهم — لم يقتصر نفعه على هذا الوجه من أوجه الدعاوة ، فقد تضمن من المعلومات والأسرار ما لا يعرفه العرب أنفسهم عن القضية التى ينتصرون لها ؛ وفيه من وصف بعض الأحداث التاريخية القريبة أو البعيدة ما كان حقيقاً — لو لم يكشف عنه المؤلف — بأن يظل مجهولا للعرب أنفسهم ، عامة وخاصة ؛ فهو كتاب للعلم والتاريخ ، وهو بحث سياسى يتسلل بالمنطق الصحيح من المقدمات إلى نتائجها فى أسلوب معتدل ليس فيه سفسطة أهل الجدل ولا اندفاع أهل السياسة ولا حماسة دعاة الوطنية . وهو بكل ذلك ، وبغير ذلك ، كتاب نتمنى أن يقرأه كل عربى ، كما نتمنى أن يقرأه كل قارئ بالانجليزية .

ومن أجل ذلك اتجهت نية معربه إلى تعريبه ، ودعته إليه حكومة الجمهورية السورية ، فبلغ مبلغه فى تجويد الترجمة والأداء ، وأخرجه للناس كتابا عربياً مبيناً

هذا هو كتاب «يقظة العرب» . . .

وأما الكتاب الثانى فهو كتاب « العرب : تاريخ موجز » لمؤلفه الدكتور فيليب حتى أستاذ آداب اللغات السامية ورئيس دائرة العلوم الشرعية بجامعة برنستون .

وليس الدكتور فيليب حتى من النكرات فنتحدث عنه إلى القراء حين نتحدث عن كتابه هذا الذى ظهر حديثاً فى أسلوبه العربى ، بعد أن قرأه قراؤه بالانجليزية منذ سنتين أو ثلاث ، وظهرت منه طبعات أربع ، منها طبعة خاصة بالقوات الأمريكية المحاربة .

وقد وضع الدكتور فيليب حتى قبل هذا الكتاب كتاباً آخر مطولا بالانجليزية عن تاريخ العرب نشرته شركة مكملان ، لندن ، فلقى من الرواج ما حدا بمطبعة جامعة برنستون أن تدعو مؤلفه لوضع هذا الموجز الذى نتحدث عنه اليوم ، فراج رواجه كذلك بالانجليزية ، وترجم فى الأرجنتين إلى الأسبانية ، وشرع فى ترجمته إلى البرتغالية ؛ ثم كانت هذه الترجمة العربية التى استعان فيها المؤلف بطائفة من رفاقه الذين كانوا يساهمون معه فى منهاج التدريس الخاص بالجيش الأمريكى فى جامعة برنستون ، وهم السادة شكرى

خوری ، وقرحات زيادة ، وإبراهيم فريجی ، إلى غيرهم من رفاقه .

والكتاب نهج جديد فى الحديث عن العرب على هامش تاريخهم ، وفيه فاتحة وتسعة عشر فصلا يتحدث فيها المؤلف عن العرب منذ بداوتهم الأولى إلى ما قبل الاسلام ، إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى أيام الخلافة والفتح ، إلى الحروب الصليبية وعصر المماليك ، إلى العصر الحديث ، يتخلل ذلك كله مباحث عن الاسلام ، والخلافة ، والحياة الثقافية والاجتماعية ، والعلوم والآداب ، والفنون الجميلة وغيرها مما لابد أن يستدعيه المقام حين يراد التعريف بالعرب فى ماضيهم وحاضرهم وأمجادهم الباقية وما ترهم المذكورة ومثلهم العليا ؛ ليعرف من لم يكن يعرف أين مكانة العرب بين الأمم التى شادت بناء الحضارة ورفعت منار العلم . ويلى ذلك كله فهرس دقيق للأعلام والبلدان والطوائف التى وردت فى صلب الكتاب مرتب على حروف المعجم .

فهذا كذلك كتاب جاء فى أوانه وحين الحاجة إليه ؛ وإنه لحقيق بحفاوة كل قارئ عربى . . .

ويتحدث الأستاذ نجيب صدقة فى الكتاب الثالث عن « قضية فلسطين » وهو كتاب لا يقل شأنا عن الكتابين الأولين . وقد افتتح بكلمتين قدم بهما إلى القراء ، أولاهما كلمة لعبد الرحمن عزام باشا ، والأخرى للسيد جمال الحسينى رئيس الحزب العربى ونائب رئيس اللجنة العربية العليا .

ويقع الكتاب فى أكثر من ثمانين وثلثمائة صفحة ، وقد قسمه المؤلف أقساما ثلاثة ، عرض فى القسم الأول منها لتاريخ هذه القضية منذ بدأت الثورة العربية الكبرى فى أثناء الحرب العالمية الماضية ، وما كان من وعود الانجليز للهاشميين ، ثم ما كان من وعودهم للصهيونيين ، وما تخلل ذلك من محادثات ومساومات ومعاهدات سرية وأخرى علنية ، ثم ما تلا ذلك من وصف الحالة بعد الانتداب والثورات العربية المتتابعة والمحاولات الانجليزية المختلفة للتغرير بالعرب ، ومحاولات الصهيونيين للسيطرة والغلب .

ثم يتحدث فى القسم الثانى عن الموقف السياسى الحاضر ، ويصف فيه ما كان من تقلب الأحوال بعد صدور الكتاب الأبيض فى سنة ١٩٣٩ وما تلا ذلك من جزر ومد يتتابعان على اختلاف نشاط الهيئات العربية والصهيونية وحركات السياسة الدولية .

ثم أفرد القسم الثالث للوثائق والاحصائيات والمراجع والفهارس وللصورات الجغرافية التى تعين على تتبع مراحل القضية منذ ابتدائها حتى اليوم .

يعرض ذلك كله فى أسلوب هادئ متزن فيه دفء الوطنية ، وسلامة المنطق ، ويقين الايمان .

واليوم يجتمع المؤتمرون فى لندن لبحث مشكلة فلسطين ، وهذا كتاب بالعربية يفصل مراحل هذه المشكلة منذ سولت لبريطانيا مطامعها أنها تستطيع أن تعقد صفقتين على سلعة لا تملكها ، لتقبض ثمنها مرتين إحداهما من المالك الأصيل . . . فهل ألفه مؤلفه فى هذه المناسبة ليكون لونا من ألوان الدفاع أمام المحكمة التى توشك أن تنفض وتصنف أعضاءها خصوم للنصف الآخر ، أم ألفه ليكون مقدمة كبيرة للجهاد الكبير الذى يوشك أن تزحف جحافله لاستخلاص الحق من مغتصبيه ؟

إنه لذاك ولذلك ، فليت كل صهيونى فى إنجلترا وفى أمريكا يتاح له أن يقرأه ليعرف بأى باطل يستمسك . وليت كل عربى فى المشرق والمغرب يقرؤه كذلك ليعرف عن أى حق يدافع !

وهذا الكتاب الرابع «هذه هى الأغلال» الذى يقول مؤلفه فى صدره : « سيقول مؤرخو الفكر : إنه بهذا الكتاب قد بدأت الامم العربية تبصر طريق العقل . . . »

ويصفه بأنه « ثورة فى فهم العقل والدين والحياة . . . ودراسة عميقة للعوامل النفسية والاعتقادية والتاريخية والخلقية التى قضت باضمحلال المسلمين — عربهم وعجمهم — وذهابهم فى طوفان الغرب الطاغى . . . ثم كيف ينحسر عنهم هذا الطوفان . . . »

ولعل الكتاب كما وصف مؤلفه ؛ فليس من شك أن فى هذا الكتاب صورة تلهم مؤرخ الحركة الفكرية فى غد أن يقول إن الامم العربية قد بدأت تبصر طريق العقل ؛ وليس من شك أن فى الكتاب ثورة ودراسة ومحاولات للعلاج !

ولكن ما هى هذه الأغلال التى يطلب المؤلف إلى العرب والمسلمين أن يحطموها لينهضوا وينحسر عنهم ذلك الطوفان ؟

ذلك هو السؤال الذى يستغرق الجواب عنه ثلاثين وثلثمائة صفحة هى مجموع صفحات هذا الكتاب ، واثقلها غلا فى أعناق المسلمين والعرب : هو الجهل الاعتقادى أو سوء فهم الدين ، وضعف الاقبال على الاعمال الانتاجية المثمرة ووسائل الاكتساب المادية .

ويتضمن الكتاب فصولا شتى يقدم لها بصفحات يرفعها إلى مقام صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ؛ ثم يتحدث فيما يلى عن الايمان بالانسان ، ثم عن الجهل والفضيلة ، وتعليم المرأة ، والحجاب ، وخطأ الدعوة إلى الزهد فى الدنيا ، وضرورة التزود من علم الحياة ، ومعنى القضاء والقدر والتوكل ، والأسباب والمسببات ، والدعوة إلى الأمل فى المستقبل . فاذا كان الفصل الأخير تحدث عن « المشكلة التى لم تحل ! » وفى هذا الفصل يرد كل المزالق الفكرية إلى « التدين الباطل » . . .

يعالج كل ذلك فى اسلوب مسهب ضافى الذيول كثير الفضول ، إلى قوة إيمان بالفكرة التى يدعو لها وحرص على أن يبلغ موضع الاقناع فى نفس قارئها من كل سبيل ، بالالحاح وبالتكرار وبالاسلوب الخطابى ، وبكل ما يملك أو ما لا يملك من الوسائل !

ولكنه على أى أحواله كتاب يستحق أن يقرأ ؛ لأن فيه نفس صاحبه ، وإيمان هذه النفس ، وقوة ذلك الايمان ؛ ثم لانه إلى جانب كل ذلك برهان جديد على اليقظة العربية . وأول يقظة الطفل صراخ !

محمد سعيد العريان

مشكلة السلوك السيكوباتى تاليف الدكتور صبرى جرجس (مطبعة المعارف) .

قدم الدكتور صبرى جرجس هذا البحث لنيل درجة الماجستير فى الآداب من جامعة فاروق الأول . والدكتور صبرى جرجس طبيب تخرج فى جامعة فؤاد الأول واختص بالأمراض العقلية . ووجد المؤلف فرصة الوقوف على حالات مرضية فى مستشفى الامراض العقلية بالعباسية لجمع الكثير منها وتتبع أحوالها ، واهتم بالناحية السلوكية لمرضاه قبل دخولهم المستشفى ، واستطاع بهذا تأييد فكرة المنهاج التكاملى الذى يدعو إلى الجمع بين العوامل البيولوجية والنفسية والاجتماعية لفهم السلوك الانسانى ، وظهر

البحث مبتكرا فى علم جديد بالنسبة لكل الدراسات المقررة فى معاهد مصر العالية . ويعتبر كتاب « مشكلة السلوك السيكوباتى » أساس الأبحاث فى علم النفس الطبى الاجتماعى .

ويجب أن نتفطن إلى نقطة هامة فى دراسة علم النفس . إن كانت بعض العلوم الوضعية التجريبية صالحة فى كل مكان فان علم النفس الحديث يحاول أن يدرس الانسان فى بيئته ؛ إذ ثبت أن للبيئة أثراً كبيرا فى تكوين الشخصية .

ولذلك يعتبر الفصل الثانى من الكتاب ، وهو الجزء المخصص للمظاهر الاكلينيكية ، جزءاً هاما بالنسبة لعلم النفس فى مصر . لم يكتف المؤلف بعرض حالات مرضية ، ولكنه حاول أن يبحث فى تاريخ الشخص الفردى وتاريخ الأسرة وحاول أن يصل الشخص بكل البيئات التى تؤثر فى السلوك . ويمكن القارئ الاجنبى عن مصر أن يكون فكرة واضحة عن مشاكل المجتمع المصرى . وتوجد حالات تبدو بسيطة فى مظهرها ولكنها خطيرة فى حقيقة الأمر ، ومن بين هذه الحالات الحالة الثالثة والرابعة .

واستطاع المؤلف أن يقول كلمة صريحة عن السيكوباتية بين ذوى المهن العالية . ويلقى هذا الجزء ضوءاً على كثير من الاضطرابات التى تسرى فى المجتمع من جراء مرض خفى يلعب فى نفس شخص استطاع أن يخفى المرض على نفسه ويخفيه على الناس . وتكون النتيجة أن يصل أشخاص إلى مقامات عالية ويوجد تباين كبير بين مقدرة الشخص على العمل والتعب وبين المسئولية الخطيرة التى تحملها . وعلى ضوء هذا البحث العلمى يمكننا أن نفهم خطر التفاوت بين النفوس الصغيرة والمراكز الكبيرة .. وهكذا يجد القارئ تحليلا دقيقاً لنفسية طبيب مريض غير شاعر بمرضه ، وهو يملأ منصباً هاماً فى إحدى المستشفيات : « إن ش * * * طبيب ، ولكن جانباً كبيرا من جهده ووقته منصرف إلى التقول على زملائه وافتراء الأكاذيب عليهم ، سيان فى ذلك أعداؤه « وأصدقاؤه » . وليس مما يعنيه ، أو يثنيه ، أن تفتضح أكاذيبه ؛ فان الذى يرى ابتسامته العابثة وهو يقابل صد زملائه وإعراضهم حيناً ، وسخريتهم وتحقيرهم أحياناً ، يرى الخلق السيكوباتى فى لهوه غير المتبصر بألفاظ لا يستطيع أن يتمثل مدلولها ، واتجاهه الجامع إلى إرضاء نزعات لجة وتحقيق كسب وهمى . » (ص ١٦٢)

والمهم هو أن نربط بين هذا السلوك الذى يبدو بسيطاً وعاديا وبين سلوك أكثر خطورة ينسب للشخص نفسه ويثير ضجة فى المجتمع وحيرة .

ولعل بعض الناس يعتقد أن الوصف الذى قدمه لنا المؤلف عمل يمكن أى شخص أن يقوم به . ولا تظهر قيمة الاختبار والملاحظة إلا إذا وقف القارئ بامعان على الفصل الثالث وتتبع جولات المؤلف فى تعليل السلوك السيكوباتى واستغلاله لملاحظاته القيمة . وفى هذا الجزء من الكتاب تظهر براعة المؤلف كطبيب باحث يجمع بين المطالعة الغزيرة والملاحظة الدقيقة . وتعتبر صفحات الوراثة أهم ما كتب فى هذا الموضوع ، إذ نجد أحدث الأبحاث وأعمق الافكار .

وذكر المؤلف مجلات مختصة كما رجع إلى كتب مطولة . وأهم ما جاء فى هذا الجزء هو مناقشة المؤلف لبعض النظريات الموضحة للوظائف النفسية لبعض الأعضاء مثل صلة الهيبوتلاموس بالانفعال (ص ١٩٤) .

وعرف المؤلف كيف يستغل منهج التكامل فى دراسة الجبلة ، واستطاع أن يتتبع مراحل النمو ويربط بينها وبين آثار الجسم من جهة وآثار المجتمع من جهة أخرى ؛ نتراه يدرس المرحلة الرابعة وهى « مرحلة المعارضة

المضادة للنظام التي تستغرق فترة المراهقة . هذه هي مرحلة ثورة الذات على القيود الاجتماعية ، وهي تحفل بصراعات جديدة ناتجة من اضطراب التوازن السيكو بيولوجي الذي يحدثه نشاط الغدد الجنسية ، ثم من القيود التي يقيمها المجتمع دون إشباع الغريزة العارمة . »
(ص ٢٠٨)

ويظهر تعب الباحث في محاولته حصر كل آراء العلماء في التعليل والتعريف والتصنيف . وترددت أسماء أعلام علم النفس . وكل رأى مصحوب بشرح واضح ومناقشة علمية دقيقة .

ويصل القارئ بفكرة واضحة عن المرض ليخرج من الكتاب برأى عن الطريق العملي في التوجيه والعلاج . ويعتبر هذا الفصل خلاصة تلقي ضوءاً يوضح الصلة بين كل أجزاء الكتاب . ودراسة الأسباب والعلل والتطور تعتبر تمهيداً للتوجيه والعلاج . إذ يكفي أن يعرف السيكوباتي نفسه ليغير سلوكه . فالشخص يأنف من الاعمال الآلية المفروضة عليه فرضاً . فالشخص الذي يجد وصفاً دقيقاً لسلوكه ويعلم انه أصبح معروفا لدى كل الناس فانه يقلع عنه ويبتعد عن كل ما يتعلق به .

ولهذا لعب التمثيل الفرنسي في القرن السابع عشر دوراً هاما في محاربة السيكوباتية . والفضل في ذلك يرجع إلى الأديب موليير Molière الذي استطاع أن يدرك الشذوذ في السلوك ويقدم نماذج مضحكة منه على المسرح .

وزيادة على هذه الافادة بطريق التعريف والتصنيف حاول الدكتور صبري جرجس أن يضع أساساً جديداً للعلاج قائماً على المنهج التكاملي : « الهدف الذي يقصد المنهج التكاملي إليه هو أن يجعل من المهنة الطبية أداة وقائية إجتماعية لا أداة علاجية فردية ، لأنه يجعل مثله الأعلى تدبير الصحة لا خدمة المرض . » (ص ٢٧٩)

وإذ تبين أن السلوك السيكوباتي يرجع إلى التفكك الناشئ عن اضطراب عوامل الشخصية ، فان الغاية الصحيحة في الطب هي أن نحاول إيجاد الظروف الملائمة لتكون هذه العوامل متكاملة ، ولتضمن بذلك تكامل الشخصية وسلامتها .

أبو مدين الشافعي

في مجلات الشرق

حقيقة الأمة

في مقال بعنوان «بريطانيا في دنيا الشعر» في مجلة «الأديب» بقلم الأستاذ عبد اللطيف شرارة، يسائل:

«أين تكمن حقيقة الأمة؟

«وكيف نكتشفها؟»

ثم يحاول أن يجيب، فيقول:

«لقد كانت ألمانيا قبل الحرب الأخيرة تعطي العالم عن نفسها صورة يخيل بها للرائي أن ألمانيا أقوى الأمم وأرقاها وأعظمها، فلن تنبت الأرض بعدها جيلا من الناس يضاهيها في القوة والرفعة والعظمة... وما هي إلا أن جاءت التجربة، فاذا الحقيقة شيء غير الجيش والمعامل والجامعات والفلسفة...»

ثم يمضي في ترتيب المقدمات إلى النتيجة التي يقصد إليها، فيقول:

«فكما أن حقيقة الانسان لا تكمن في كثرة ماله، ولا في شدة عضلاته، ولا في وفرة خدمه وأتباعه، ولا في ذرابة لسانه، ولا في أناقة لباسه؛ بل في شيء مستقر في الروح متحد بها — فان حقيقة الأمة أيضاً لا تكون في الأساطيل والجيوش والأسلحة وكثرة الخطباء والفلاسفة، وإنما هي في «النور» الذي يملأ نفوس أبنائها ويحفزهم إلى النضال... وما من سبيل لمعرفة ذلك النور إلا عند الشعراء...

«الشاعر يحدث القلوب عن القلوب، وينقل ما في نفسه إلى نفوس الناس، ويكاد يكون الوحيد الذي يحيا الحياة بعمق وعنف بينما أكثر الناس من حوله يعيشون على هامش الوجود....»

ثم يذكر الكاتب أنه نقل معنى البيت الآتي من الشعر لأحد الأساتذة الفرنسيين وهو:

وإنا لمن قوم كأن نفوسهم
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما!

فقال صاحبه الفرنسي — وكانا يخوضان في حديث «المفاخر» عند الشعوب:

«لو اطلعت على هذا البيت ولم أعرف جنسية قائله لذهب بي الحدس إلى أنه عربي، فان بيتاً كهذا لا يقوله إلا عربي!»

وينتهي الكاتب بعد مقدمات منطقية متسلسلة إلى أن بريطانيا أمة «شاعرة» وأن الانجليز شعب «روحي» من الطراز الأول... وإن كانوا... وكانوا... وكانوا...

الفكر والسياسة

وفي مقال بعنوان «أنت مفكر... إذن فأنت سياسي» في مجلة «عالم الغد» البغدادية، بقلم الأستاذ حسين مروة، يقول:

«كان للسياسة قبل اليوم معنى، وكان معناها أن يستأثر فرد — او طبقة — بالحكم في الشعوب، والعبث بأقدار الأمم، وفرض السيطرة والرهبة على الناس؛ سواء أجاء هذا الاستئثار من طريق الوراثة، أم

من طريق القوة والحيلة ، أم من طريق الغدر والخديعة . وكان السياسى الناجح — يومداك — هو من يرث سلطانا أكبر ، أو من يملك وسائل للبطش أقوى وأنفذ ، أو من يستطيع انتهاز الفرص للوقيعة والخديعة . وكانت الشعوب يومئذ شراذم من الناس تسير كقطعان الماشية ، لا تعرف من السياسة إلا هذا السوط يلهب ظهرها من وراء يستحثها على السير وهى خافضة الرأس لا تعرف إلى أية غاية تسير . . .

«كان للسياسة معناها ذاك ، فلم يكن يصح لأحد من الناس أن يفكر بالسياسة أو يتحدث فيما يخوض فيه رجال السياسة ... أما اليوم فقد انقلبت معانى الأشياء كلها انقلابا لا محيص للأذهان عن أن تنقاد فيه قسرا أو طواعية . . . لأن ريحا هبت على الحياة منذ الثورة الفرنسية الكبرى ، تحمل للأمم والشعوب فى كل بقاع الأرض «لائحة حقوق الانسان . . . »

ثم يمضى الكاتب فى بحثه حتى ينتهى إلى الحقيقة التى يريد أن يقررها ، وهى أن السياسة لم تعد منذ اليوم وراثة ولا استئثاراً بالحكم ، ولا تميزاً بالقوة أو بالحيلة ، ولا تملكا بالجاه ، « بل اصبح معنى السياسة أن يملك الفرد — أيا كان الفرد — قدراً من التفكير والثقافة يستطيع أن ينفذ به إلى الحدود الواضحة لكل مذهب من المذاهب الكبرى » فى العلم والأدب والسياسة والاجتماع والاقتصاد .

« وبذلك يكون كل مفكر ، وكل مثقف سياسياً ، وإن وضعوا ألف حجاب بينه وبين السياسة ! »

مخلفات عباسية

فى سنة ٦٥٦ من الهجرة سقطت بغداد فى يد هولاكو ، وصرع آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد أبو أحمد المستعصم بالله ، وانقطعت الخلافة العباسية فترة حتى أعادها الظاهر بيبرس البندقدارى فى القاهرة وبايع بها بعض ولد المستنصر بالله ، ثم بقيت فيه وفى ولده من بعده حتى سقطت مصر فى يد العثمانيين سنة ٩٢٢ من الهجرة ، فكان ذلك أذاناً بانتهاء الخلافة العباسية وانقراض بنى العباس ابن عبد المطلب الهاشمى وانهارهم فى اللجة ، فلم يسمع لهم خبر بعد ذلك ولم تقم لدولتهم قائمة ، وغاب آخر تاريخ العباسيين فى غمرة الحوادث المتتابعة ، ونسى أبناؤهم وحفدتهم ما كان عليه آباؤهم على توالى القرون وعادوا ناساً من الناس ، آباؤهم وجر النسيان أذياله على الماضى الزاخر بالأمجاد والمفاخر . . .

ثم ماذا ؟

ثم هذا كاتب عراقى تنتفض فى فكره ذكريات الماضى لمناسبة بحث قرأه فى مجلة « الكتاب » المصرية عنوانه « السيف فى الشرق الأدنى » فاذا هو يكتب مقالا لمجلة « البيان » التى تصدر فى النجف ، عنوانه « أدوات المستعصم العباسى » يحاول فيه أن يحقق آخر تاريخ بنى العباس ، فيصف — مستنداً إلى وثائقه — كيف كانت آخرة أبناء أبى أحمد المستعصم بالله ، وكيف نجا من الهلكة ولده أبو المناقب مبارك ، وعاش حتى أنجب ، ثم كان من ولده أمراء تولوا الحكم فى بعض الامارات فى شمال العراق يتوارثونها خلفاً عن سلف حتى سنة ١٢٥٩ من الهجرة — أى منذ قرن واحد — حينئذ انتقل من بقى من سلالة بنى العباس إلى بغداد فاتخذوها

وطنا ، يعيشون كما يعيش سائر الناس ؛ وليس فى يدهم من أمجاد الماضى إلا ذكريات ، وبعض مخلفات ملوكية ؛ ثم لا يزال حفدتهم يقيمون فى العراق حتى اليوم ، ومنهم كاتب هذا المقال ، السيد خضر العباسى ، حفيد المرحوم أحمد بك العباسى ، ابن الأمير اسماعيل باشا العباسى ، آخر بنى العباس فى الملك والامارة . . .

بحث طريف يستند إلى إيمان ، وبرهان ، وشهود ثقات ، قد احتفل له كاتبه احتفال المحامى عن حسبه ونسبه وأمجاد آبائه !

ويعد الكاتب فى آخر مقاله بأن ينشر كثيراً من المعلومات التفصيلية فى كتاب قد فرغ من تأليفه فى تاريخ أسرته العباسية ، مع تصاوير الأدوات والمخلفات وبعض الفرمانات التى أقطعتهم بمقتضاها الحكومة التركية قرى وأملاكا ما زالوا يتقاضون غلتها حتى اليوم !

رمضان فى النجف

مقال ممتع فى مجلة « القادسية » التى تصدر فى « النجف » يصف فيه كاتبه الشيخ أحمد الحسانى كيف يحتفل أهل النجف بشهر رمضان ، فيتحدث فيه عن وفرة المواد الغذائية والحلويات ، وعن المجالس الأدبية ، وتلاوة القرآن ، واحتشاد النجفيين فى رمضان بالحرم العلوى المقدس ، ثم عن القبر الطاهر وأدعية الناس عنده ، إلى غير ذلك مما قد يعنى كثيراً من المسلمين فى بقاع الأرض المختلفة أن يعرفوه عن « النجف » وأهلها وما تعودوه من عادات وما ورثوه من تقاليد .

الدراسة فى النجف

وفى مدينة النجف أكثر مما فى أى بلد من بلاد العراق نشاط علمى ملحوظ ؛ فليست موطن « الحرم العلوى » فحسب ، ولكنها إلى ذلك مركز من مراكز الثقافة منذ بعيد ، فلا زالت أقوال أدبائها ومباحث أهل العلم فيها تدور على الألسنة ويتناقلها الرواة وينتفع بها كثير من العلماء فى كثير من الأقطار .

وفى مجلة « الاعتدال » النجفية مقال بعنوان « الدراسة فى النجف » يتحدث فيه كاتبه عن ماضى النجف فى العلم وعن حاضرها ، ثم يقول :

« النجف مدينة تختلف عن سائر المدن العربية والاسلامية ، فارتفاع أرضها ، وجفاف مناخها ، وقربها من البادية ، وبعدها عن ضوضاء المدينة الحديثة ، جعل منها مدينة أشبه بمدرسة جامعة واحدة لها منهجها الخاص بها ، هو خلاصة القديم الذى عرفت به من عهدها السابق ، وخيار الجديد الذى جاء به هذا العصر ؛ فهى لم تزل ولا تزال تواصل الحركة الفكرية والأدبية ، وتطالع بما تطالع به المطابع فى أنحاء المعمورة من كتب حديثة وآراء جديدة ؛ فمكتباتها الكثيرة زاخرة بكل قديم قيم وكل جديد جيد . »

ثم يهيب الكاتب بأهل النجف أن يصلوا بين ماضيهم فى العلم وحاضرهم ، وأن يتحفزوا لأداء رسالتهم ، وأن ينهضوا ليلحقوا بقافلة الأمم السائرة ، ويواكبوا مواكب العصر الجديد .

أنا عربى !

وفى المجلة نفسها للأستاذ الصافى شاعر النجف ، قرأت هذه الأبيات :

تسائلنى هند عن نسبتى … فقلت : إلى المعدن الفاضل
أنا عربى . . وحسبى بذا … جوابا يعظمه سائلى
وإن رمت يا هند شرحا لما … أشرت له . من علا شامل
فآبائى الصيد من هاشم … وأخوالى الغر من عامل
أوحد سورية بالعراق … وأجمع لبنان فى بابل
ولى فى فلسطين ماضى علا … وآمال مستقبل حافل
ولى نسب جال فى الكائنات … ومن عامل سار فى عاهل
تولد قدما بأرض الحجاز … وحل بمحرزة الساحل
وألق عصاه بأرض العراق … ومنبت كل فتى باسل
سيبقى يطوف إلى أن يقيم … على ذروة الوطن الكامل !

النشاط العلمى فى الشرق

وفى مجلة «الثريا» التونسية مقال للأستاذ مصطفى زبيس بعنوان «حركة التأليف والنشر فى الشرق» يوازن فيه بين النشاط العلمى بالشرق قبل الحرب وفى أثنائها ، وينوه بكثرة ما أنتج الادباء وأهل البحث من المشارقة فى السنوات الأخيرة ، ويخص مصر بفضل من التنويه ؛ ثم يأخذ فى سرد ما رآه من مظاهر النشاط . فيحدث عن ذيوع «كتب السلاسل الدورية» كسلسلة «العلم للملايين» التى تصدر فى بيروت ، وسلسلة «اقرأ» التى تصدرها دار المعارف بالقاهرة ، وسلسلة «أعلام الاسلام» وغيرها ، ثم يتحدث عما رآه من زهد حملة الأقلام فى ترجمة مؤلفات الأجانب خصوصاً الفنية منها ، وجنوحهم إلى الابتكار أو الانشاء فى موضوعات لم يكن يخطر على البال أن يطرقها — اليوم — كتاب العربية . ثم يصف نشاط دور النشر الكبرى فى القاهرة وغيرها فى إحياء الكتب العربية القديمة . . . إلى غير ذلك مما عد من أوجه النشاط . حتى إذا فرغ من تعدادها نوه بطائفة من الكتب التى أخرجتها المطبعة العربية فى الفترة الأخيرة أو أنشأها المؤلفون العرب ؛ ويختم بحثه بعد ذلك بذكر ثبت لما ظهر من سلسلة «أعلام الاسلام» حتى فبراير الماضى . . . .

وهو مقال فيه تتبع واستقصاء جديران بالتنويه .

كفر بعد إيمان

وفى مجلة «الحديث» التى تصدر فى حلب مقال المحرر بعنوان «إيمان الشرق بالغرب» يقول فيه :

«كان الشرق منذ مطلع القرن التاسع عشر ، يؤمن إيماناً قوياً بأوربا : يؤمن بحضارتها وفنها وعلمها ، وكان يراها صورة

مثالية للقيم الروحية . وعلى ضوء هذه العقيدة أخذ الشرقيون يتجهون نحو الغرب ويعملون جهدهم للتطبع بالطابع الغربي واقتباس كل مالدى أوربا من مظاهر وأخلاق وعادات ، حتى كادت تنصهر جميع خصائص الشرق مع الأيام فى بوتقة الغرب .

« وجاءت الحرب العالمية الأولى وبدأ الصراع الدامى للكفاح فى سبيل حرية الشعوب ، وعلقت الأمم الصغيرة آمالها بعدالة الغرب ، بل آمنت بها إيماناً راسخاً . . . وانتظرت أن تنتهى الحرب ، وقد انتهت ووضعت أوزارها . . . وأخذ المؤمنون ينتظرون ثمرة الحرب ، فماذا حدث ؟ لقد أفصحت الأمم الغالبة عن نياتها ، وإذا هى تريد أن تبتلع الشرق وأن تستثمر خيراته . . . وهكذا ظهرت أوربا بوجهها السافر وعرف الشرق حقيقتها . . .

« ومرت فترة ما بين الحربين ، واتجه الشرق إلى أمريكا . . . لقد أصبحت أوربا فى نظره مادية جشعة ، لا تعرف معنى العدالة ولا الحرية ولا الرحمة . أما أمريكا — وهى التى انتصرت للحرية فى الحرب الماضية — فهى القارة المثالية التى تتحقق عندها كل القيم الروحية . . .

« وانتهت الحرب الثانية . . . وأخذ العالم ينتظر الفترة التى تقرر فيها الحقوق ، ولكن جميع الاتجاهات دلت على أن الأقوال التى يفوه بها الساسة هى غير ما هو مسطر فى ضمير المطامع . . . »

وبعد أن وصف الكاتب موقف أمريكا والرئيس ترومان من قضية العرب والصهيونية وكيف انقلبت أمريكا تحت ضغط الصهيونية إلى جلاد مخيف بعد أن كانت فى نظر العرب رسول السلام والخير إلى الناس — قال :

« إن الايمان بالوثنية لون من ضعف المؤمن . وقد آمن الشرق بعدالة أوربا ، وآمن مرة ثانية بعدالة أمريكا ، ولكن الحقائق المجردة زعزعت من نفسه هذا الايمان الوثنى ، وهو يرتد اليوم إلى أعماق ذاته ينشد إيماناً جديداً .

« فعلى الشرق لكى يتحرر من العبوديات أن يؤمن بفلسفة الواقع . . . فلسفة القوة . علينا كى نعيش أحراراً أن ننهج نهج الغرب فى علمه وفنه وحياته ، وأن نقتبس من أمريكا كل وسائلها المادية ، على أن نعود فى مثالياتنا إلى أعماق ذاتنا . لنأخذ من الغرب ماديته ، على أن نحتفظ بمثلنا الروحية لنستطيع الحياة ! »

أدب التصدير

لا تزال مجلة « المنهل » التى تصدر فى مكة المكرمة توالى نشر ما يرد إليها من إجابات الأدباء عن الاستفتاء الذى دعت إليه أدباء الحجاز تسألهم : « هل يصلح أدب الحجاز للتصدير » .

وفى العدد الثامن من المجلد السادس إجابات ثلاث . نقتبس منها بعض رأى الأستاذ عبد الغفور عطار ، يقول :

« ليس غريبا على أدباء الحجاز إن يجودوا الشعر والنثر وقد قرب العلم الأبعاد . . . فكأن مصر والحجاز وطن واحد من الناحية الجغرافية ، ولا نغالى إذا قلنا إن المطابع والاذاعة والمواصلات السريعة قضت على الحدود الاقليمية ومحت المسافات .

« وأدباء الحجاز لا ينتشون اللغات الأجنبية فلا تزحم تراقيهم العربية : فهم

مضطرون إلى القراءة والدراسة، ولا تنفس لهم غير الأدب المصرى على الأخص والأدب العربى على العموم بلتهمونهما التهاما، وأصبحوا يعرفون عن أدباء مصر أكثر مما يعرف المصريون أنفسهم عنهم ؛ لأن هؤلاء تتوزع أوقاتهم ثقافات الأمم الأخرى . . .

« وليس أدباء الحجاز طلاب تسلية يريدون تزجية الفراغ ، وإنما هم عشاق فن . . . وهم أحرار الفكر يمتازون بالسماحة الطيبة ورجاحة العقل وسلامة النية ونبل الضمير . . .

« ولعل الفراغ الذى لديهم أتاح لهم الدراسة والتحصيل والتعمق وقراءة كل ما تقذفه المطبعة العربية ، حتى أطاعهم القلم فكتبوا ونظموا ثم أجادوا فيما يكتبون وينظمون » .

في مجلات الغرب

من باريس

قد يراع القارئ من كثرة المجلات التي تنشر في فرنسا . ولكنها لحسن الحظ كثرة لا تخيف الذين يريدون أن يعطوا عنها فكرة شاملة ؛ فهي على قيمتها تتفاوت في حظها من الجودة . ولن أذكر في هذا الحديث إلا أشهرها . فلأبدأ بما كان منها قائما قبل الحرب . وظل قائما حتى الآن .

مجلة « أوربا » *Europe* . أنشأها سنة ١٩٢٣ جماعة من الكتاب كانوا يعملون مع الكاتب العظيم ، رومان رولان Romain Rolland ولجنة تحريرها مؤلفة من كتاب بارزين يعرف القارئ منهم أسماء : أراجون Aragon ، كلود أفلين Claude Aveline ، بول إيلوارد Paul Eluard ، فركور Vercors ، ورئيس تحريرها جان كاسو Jean Cassou . وتقرأ في عددها الأخير (أول سبتمبر) قصة تصور مغامرات علي جرزلين بطل الأغاني الشعبية الاسلامية في البوسنه . وهذه القصة على ما تصور من جمال للمغامرات تعطي فكرة قيمة عن الحرب في القرن السابع عشر . ويعرض إميه دوبوى Aimé Dupuy في الشهريات ثلاثة كتب ذات شأن بالقياس إلى العالم العربي :

الأول ألفه الفونس جوني Alphonse Gonilly وعنوانه « الاسلام والعالم الحديث » (١) ويلخص الناقد موقف العالم الاسلامي بعد الفتح العربي كما يراه المؤلف حين يقول . « إنه لم يتجاوز الحدود الجغرافية واللغوية ، وإنما قيد نفسه بها » ، وحلل بوادر نهضة تريد أن تتحقق سياسيا ؛ لأن الاسلام في رأي الفونس جوني « نظام للحياة أكثر من المسيحية » ولكي يبلغ تلك الغاية لا بد له أن يتفاهم مع الأمم الأوربية والفاتيكان والبعثات المختلفة والهيئات المحتكرة للتجارة والحركة الشيوعية الدولية . ثم ينتقل المؤلف إلى مشكلات العلاقات بين فرنسا والعرب . وفي نقد هذا الباب من أبواب الكتاب يرجو إميه دوبوى أن تتخلى فرنسا « فيما بينها وبين أهالي مستعمراتها عن سياسة قد تكون أحيانا حليمة في وداعة تشبه عدم المبالاة وأحيانا قاسية في استبداد يدعو إلى الأسف » . ويسائل المؤلف في ختام بحثه : « أيستطيع الاسلام أن يحقق غايته وأن يسير جازما في طريق التوفيق بينه وبين مقتضيات الحياة الحديثة ، أم يظل في طريقته التقليدية مثالا مستبقيا على الأرض حضارة القرون الوسطى ؟ »

أما الكتاب الثاني وعنوانه « تاريخ إفريقية الشمالية » (٢) فيتجه إلى عناية الجمهور . ويرى إميه دوبوى أنه لم ينجح لاشتماله على أغلاط جغرافية وتاريخية ، وقصوره عن تصوير

---

(١) *L'Islam devant le monde moderne* (La nouvelle édition) .

(٢) *Histoire de l'Afrique du nord* (Société privée d'imprimerie et d'édition-Paris).

الحياة الشعبية التى لا تزال محتاجة فى رأى الناقد إلى من يصورها تصويراً صحيحاً .

أما الكتاب الثالث وموضوعه البحوث الاستعمارية وعنوانه « فنيو الاستعمار فى القرنين التاسع عشر والعشرين »(١) فهو الجزء الاول من مجموعة عنوانها الشامل «مستعمرات وإمبراطوريات» . وقد وصف فيه الاخصائيون طرق خمسة عشر من أعظم الاستعماريين فى العالم ، من جالييني Gallieni إلى بالبو Balbo ومنهم سيسيل رودس Cecil Rhodes .

وحسبي أن أذكر قول الناقد : « ليس منهم رجل عادى ، وهم من أجل ذلك يلتقون . وتستحق مذاهبهم أن تدرس ؛ وإن كان بعضها خليقاً بالنقد لتشبثه بالقديم وانحرافه عن أصول الاخلاق والقانون ، ذلك أجدر أن يتيح الحكمة العنائية على روح الاستعمار ومناهجه . »

وتقرأ فى شهرية الفلسفة فى العدد نفسه للأستاذ الكسندر كواريه Alexandre Koyré الذى عرفناه أستاذاً للفلسفة فى جامعة فؤاد الاول مقالا عن فلسفة التاريخ أوحى به كتاب لويس ألفين Louis Aulphen عنوانه : « مدخل إلى التاريخ »(٢) .

وفى عدد سبتمبر من « مجلة باريس » وهو فى هذه المرة متواضع النفع مقال يستحق العناية للسياسى الانجليزى المعروف اللورد فانسيترت Lord Vansittart وعنوانه : « العلاقات بين فرنسا وانجلترا » وقد فهمت بالطبع مغزى هذا المقال من عنوانه . ولنترجم بعض ما فيه من طرائف : «إن قوانين الطبيعة ومصاير البلدين حين تصل بين منافعهما تفرض عليهما أن يعقدا بينهما زواجا وان يتحررا احيانا ولو فى شيء من العنف مما يتصفان به من حياء العذارى » .

وينشر الأستاذ هنرى جيمان Henri Guillemin ثلاثة آثار لم تعرف لجان جاك روسو J. J. Rousseau ، ويظهر الأستاذ ذو الروح الجذاب ، وهو الآن مستشار ثقافى للسفارة الفرنسية فى برن ، أنه لم ييأس خصائصه الجامعية .

وأقرأ مقالا لم يذكر اسم كاتبه موضوعه : «مشكلة الجزائر» ويرى الكاتب أن المشكلة اقتصادية قبل كل شيء . ومما يدهش فى هذا المقال ذكر « أسطورة الوحدة العربية » أترى الكاتب يجهل هذه الوحدة أم تراه يشفق منها ؟

وقد نشرت مجلة «إسبرى Esprit» تحت هذا العنوان المخيف : « لتنقذنا الجامعة »(٣) ثلاثة فصول تضمنها جون لاكروا Jean Lacroix و ف . كوتينيكوف V. Koutéynikoff وروجيه جال Roger Gal . فأما جون لاكروا فيغلب عليه التشاؤم ، وهو يختم حديثه بهذه العبارة الحاسمة : « لا خير فى إصلاح التعليم إلا إذا ارتبط بالاصلاح الاقتصادى والسياسى والاجتماعى . فان تجدد المدرسة إلا إذا جددت الحضارة ، ولن تجدد الحضارة إلا إذا جددت المدرسة » .

ودراسة الأستاذ كوتينيكوف عظيمة النفع جداً تعتمد على الأرقام لتعرض حال التعليم فى فرنسا . ويلاحظ أن الكاتب يختار مدينة الاسكندرية نموذجا حين يتحدث عن أثر

---

(١) *Les techniciens de la colonisation, XIXe et XXe siècles* (Presses universitaires de France).

(٢) *Introduction à l'Histoire* (Paris, presses universitaires).

(٣) *S.O.S. à l'université.*

الثقافة الفرنسية فى الخارج . ويظهر لنا من هذه الأسطر القليلة أن عاصمتنا الثانية على حداثة عهدها بالجامعة ممعنة بهذا التأثر بالثقافة . ويرى الكاتب أن مشكلة التعليم لن تحل إلا إذا اشتدت بها عناية الرأى العام ووضعت الوسائل المادية التى يعتمد عليها التعليم .

أما الأستاذ روجيه جال ، فيدرس محاولات فرنسا لانهاض التعليم منذ تحريرها : (١) محاولات إنشائية (٢) تجديد لمناهج التعليم . وأخيرا ينتهى الكاتب فيما يتصل بمستقبل الاصلاح إلى « أن هذا الاصلاح مهما تكن الظروف ديموقراطى اجتماعى فى أغراضه بيداجوجى فى صورته تجريبى فى تطبيقه » .

ويكفى أن نشير فى مجلة « لانيف » *La Nef* إلى مقال نشرته فى عدد اغسطس فى النقد المسرحى موضوعه « أوديب » *Œdipe* لأندريه جيد André Gide وقد قرئت هذه القصة فى القاهرة أثناء الشتاء الماضى ، ومثلت بعد ذلك فى باريس . ويرى الناقد ج. ج. رينييرى وهو من شباب مدرسة المعلمين أن نجاح القصة فى القاهرة قد شجع أندريه جيد على أن يواجه المسرح فى باريس . وقد نقد الكاتب قصة جيد فى لباقة بارعة وقال : « إن المناظر والتمثيل لم تستطع أن تجعل من هذا التمرين الفنى البديع قصة تمثيلية » .

من موسكو ..

مجلة الآداب السوفييتية :

يجب أن نعترف بما تثير هذه المجلة من حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة فى نفسى أنا على الأقل . ومصدر ذلك فيما يظهر اشتداد حاجة القارئ إلى أن يظهر على حقائق الحياة السوفييتية . وليس من شك فى أن لمقالات هذه المجلة غرضاً يتصل بالدعاية فى أحسن صورها ومعانيها . ولكن القارئ الذى يحتفظ باستقلاله يجد فى قراءتها ما ينفع دائماً ، ويخلب غالباً ، ويثير أحياناً ؛ فلهذه المجلة إذن قيمة محققة . ولننظر إلى هذه الفصول من قريب .

ففى العدد الأول من هذه المجلة (يناير سنة ١٩٤٦) بعنوان « الفنون » فصل خصص للعب « مالى » وهو أقدم ملاعب التمثيل فى روسيا . وفى هذا الفصل يعرض الكاتب عرضاً سريعاً تاريخ هذا الملعب وصور الممثلين الممتازين الذين ظهروا فيه وبنوع خاص صورة ميخائيل تشبكين Mikhail Chtchepkine (١٧٨٨–١٨٦٣) . وقد كان زعيم الممثلين الواقعيين فى روسيا ، وكان فى أول أمره ممثلا من طبقة المستعبدين . ويقول هرزن : إنه أول من أبى أن يكون ممثلا فى دار التمثيل . ويشير الكاتب إلى مذهب ممثلى هذا الملعب فى فن الكوميديا : « فهم بارعون فى هذا الفن ولكنهم كانوا وما زالوا يجهلون الضحك للضحك ، ويرون أن الضحك سلاح حاسم يجب أن يستخدم فى الجهاد لخدمة الانسانية وتحقيق الحرية الاجتماعية » .

وعنوان مشوق هو « زيارة لكنسطنطين سيمونوف » Constantin Simonoff . ولكن هذه الزيارة لا تعطينا من حياة الشاعر والقصاص الروسى العظيم إلا أطرافا ضئيلة ، وهى تعطينا فكرة عن ذوقه بالقياس إلى الآداب الأجنبية ؛ فهو يحب الكتاب الفرنسيين ويرى أن الأدبين الفرنسى والروسى هما « أقوام آداب الدنيا » ..

وفى الشهريات ملاحظة قصيرة عن حياة الممثلة الروسية الشهيرة أولجا كنيفر تشيكوفا

Olga Kniffer-Tchekhova فقد تزوجت من الكاتب التمثيلى تشيكوف Tchekhov ومثلت قصصه وقد بلغت سنها المسرحية الآن خمسين عاما .

وفى العدد الثامن من هذه المجلة (فبراير سنة ١٩٤٦) شهرية قيمة جدا عن الكتب الجديدة تفيدنا بما فيها من كثرة الكتب وتنوعها وتعدد الموضوعات التى تشغل العقل الروسى : فنها دراسة للكاتب التمثيلى فون فيزين Fonvizine من كتاب القرن الثامن عشر وهو الذى بدأ إصلاح اللغة الأدبية الروسية وقد أتم بوشكين Pouchkine هذا الاصلاح. وكتاب «رسم بوشكين» للناقد الفنى ابرام افروس Abram Efros (١) يبين فيه حرص بوشكين الشديد على أن يصل دائما بين الأدب وبين رسم الصور التى تدل عليها العبارات . وهذا يذعو إلى التفكير فى جانب كوكتو Jean Cocteau الكاتب الفرنسى الذى يشعر بنفس هذه الحاجة . وفهرس عنوانه «الأهمية العالمية للآداب والفنون الروسية» (٢) ألفتــه ك . موراتوڤا K. Mouratova و إ . بريڤالوڤا E. Privalova وهو كنز من كنوز المعرفة خليق أن يترجم .

من لندن

مجلة «هوريزن» Horizon (يونيه سنة ١٩٤٦) فى هذا العدد مقالان خليقان بالعناية : احدهما بقلم الكاتب ادوارد سكڤيل وست Edward Sackville West عنوانه «تقدير» (٣) وفيه دراسة لكاتبتين انجليزيتين من كتاب القصص ، وهما : إيڤى كومبتون - بورنت Ivy Compton-Burnett واليزبث بوون Elisabeth Bowen ونجتزئ من هذا المقال بأوله الذى يعرض فيه الكاتب رأيه فى القصة : فهو يريد أولا أن يكون الأسلوب شاعرا بنفسه . ثانيا : أن يظفر الأشخاص بتربية قيمة يضاف إليها أو يقوم مقامها إحســاس دقيق . وهذه الفكرة خطيرة جدا . يقول الكاتب : إن المأساة الحقيقيــة التى تدور حول مستوى نفسى منخفض ليست إلا تناقضا . ومحاولة إنشائها ــ كما فعل كامو فى قصة «الغريب» ــ (٤) يثير شعورا يشبه القحة واختلاط القيم المعنوية . ثالثا : وينشأ عن هذا أن يرتفع الحوار عن مستوى الأحاديث اليومية . رابعا : يقول الكاتب يجب أن تعنى بمجرى الحوادث فى قصتك ، فسيستطيع أشخاص القصة حينئذ أن ينظموا أمورهم بأنفسهم . خامسا : يجب أن تطمح وأن تحقق أثرا شعريا .

والكاتب يعترف بأن قواعده هذه عسيرة ، ولكنه يرى أن الحضارة الصحيحة لا تقوم إلا على النظام الدقيق .

المقــال الثانى يمضيه الدوس هكسلى

(١) Abram Efros, *Les croquis de Pouchkine.*

(٢) Un index bibliographique, «*Importance mondiale de la littérature et de l'art russe*».

(٣) *An appraisal.*

(٤) A. Camus. *L'Etranger.*

Aldous Huxley وهو ليس مقالا بالمعنى الدقيق، وإنما هو جزء مقتبس من كتاب سيظهر، عنوانه: «الفلسفة الخالدة» (١) وموضوع هذا الجزء «الدين والمزاج» (٢) والمسألة التى يريد الدوس هكسلى أن يجيب عليها فى الصحف الثمان التى خصصت له فى المجلة هى: ما هى الصلة الدقيقة بين تركيب الجسم ومزاجه من جهة وطبيعة المعرفة الروحية ودرجتها من جهة أخرى؟ ولسنا فى حاجة إلى أن نقول هنا إلى أى حد نفذ الكاتب الانجليزى العظيم بذكائه المتوقد وبصيرته الفطنة إلى دقائق هذه المسألة.

ويجد القارئ فى عدد يوليه من المجلة نفسها دراسة واضحة مقنعة، موضوعها المرحلة المقبلة فى مستقبل الشعر، وصاحبها موريس باوره Maurice Bowra.

والكاتب يعتمد على أمثال يستقيها من الشعراء الفرنسيين أمثال بول ايلوار Paul Eluard والانجليز أمثال سيسيل د. لويس Cecil D. Lewis والاسبانيين رفائيل البيرتى Raphaël Alberti ليبين ما فى تقريب الشعراء إلى الكافة من منافع ومضار.

وفى العدد نفسه عرض للكتب تستطيع ان تقرأ فيه بقلم سونيا براونل Sonia Brownell تحليلا دقيقاً لكتاب «الصداقات الخاصة (٣)» للكاتب الفرنسى روجيه بيرفيت Roger Peyrefitte وموضوع الكتاب كما هو معروف وصف الحياة فى مدرسة كاثوليكية من مدارس البنين. والناقدة معنية أشد العناية بمشكلة هذه الحياة الداخلية للتلاميذ كما يتصورها الكاثوليكيون واليسوعيون منهم خاصة، وهى تحكم على هذا التصور حكماً قاسيا تسوغه فى أكبر الظن الحقائق التى كشف عنها مؤلف الكتاب.

مجلة «بريتن تودى» Britain to day (أغسطس ١٩٤٦) تستطيع أن تقرأ فى هذه المجلة فى معرض الكتب أنباء أدبية قيمة فقد أصدر أدموند بلوندن Edmund Blunden كتاباً جديداً عن حياة شيلى Shelley وأصدر سومرست موجم Somerset Maugham قصة عن مكيافيلى Machiavelli عنوانها «إذ ذاك واليوم» (٤) وأصدر ا. ف. حورانى كتاباً سياسياً عنوانه «سوريا ولبنان» (٥).

واقرأ فى مجلة «ناشيونال ريفيو National Review (سبتمبر ١٩٤٦) فصلا قيما للكاتب الفرنسى المعروف جوليان بندا Julien Benda عن الأدب الأسود عنوانه «الأدب الأسود والفلسفة الجديدة (٦)» وهذا الفصل كما كان ينتظر هجوم على الأدب الأسود، ولكنه هجوم قوامه الاخلاص وصدق الرأى حتى حين يأبى المؤلف أن يعترف لهذا الأدب بأية مزية؛ وهو مع ذلك يثنى عرضاً على جان بول سارتر Jean Paul Sartre حين يصف قلمه بأن له حظاً من براعة.

---

(١) *The Perennial Philosophy*, by A. Huxley (Chatto and Windus).

(٢) *Religion and Temperament*.

(٣) Roger Peyrefitte, *Les amitiés particulières*.

(٤) *Then and Now*, by W. Somerset Maugham (Heinemann).

(٥) *Syrian and Lebanon*, A Political Essay, by A.H. Hourani Cumberlege: Oxford University Press for R.I.I.A.).

(٦) *Black Literature and the New Philosophy*.

من بغداد

وأنا أعتذر إلى جارى فى الشهريات ، كما يقول ناقد فرنسى ، حين أعرض لمجلة من شأنه هو أن يتحدث عنهـا وهى مجلة « الفكر الحديث » التى تفضل صاحبها فأرسلها إلى فهذا العدد (عدد ٨ و ٩) مفتتح بفصل قيم لرئيس التحرير جميل حمودى عن المثال الفرنسى الشهير مايول Maillol . ولنلاحظ قبل كل شئ أن المثقفين العراقيين يختصون الفنون الجميلة فيها يظهر بعناية ممتازة . فاذا لاحظت أن غلاف العـدد يزدان بصورة فوتوغرافية لأثر من آثار مايول ، وأن المقال الأول منه مخصص لهذا المثال كما قلنا آنفاً ، وأن فى العدد دفاعا حاراً عن جماعة أصدقاء الفن فى بغداد ، وفصلا للأستاذ نسيم قطان عن «السوريالسم» عرفت مقدار العناية العراقية بالفن والمستوى الذى يسمو إليه محررو مجلة « الفكر الحديث » .

أمينة طه حسين



ليون دوديه

كليمنصو وحياته العاصفة

تعريب حسن محمود

طبعة مزينة بالصور

وصفحة ملونة تبين كيف كان هذا الزعيم يعد خطبه

٣٥ مليما والبريد ٢٤







لاصفحة مضطربة مهوشة ولا بقع حبر . .

فى يوم من أيام ١٨٧٤ كان مارك توين الكاتب الأمريكى الشهير يستعمل لأول مرة آلته الكاتبة الجديدة رمنجتون موديل ١ ، فكتب رسالة باقية بالحروف الكبيرة التى لم تكن الآلة فى ذاك الوقت تطبع غيرها* :

« رأيتها فى بوسطن منذ أيام فاستأثرت بى . إن لها ميزات عدة . أظن أنها ستطبع أسرع مما أستطيع أن أكتب . ويمكنك أن تستند إلى المقعد وأنت تكتب بها . إنها تجمع عدداً هائلا من الكلمات فى صفحة واحدة . لا صفحة مضطربة مهوشة ولا بقع حبر . ومن البديهى أنها توفر الورق . »

وهذا التقدير الذى قيل منذ ٧٢ سنة تلاه ألوف من التقديرات لأن أسبقية رمنجتون فى كل السنين منذ مارك توين قائمة على هذه الأسس : هندسة مبتكرة وصناعة فائقة وتصريف فى الأسواق العالمية :

ولا عجب إذن إذا كانت آلات رمنجتون قد بيع منها أكثر مما بيع من أية آلة أخرى .

ولا عجب أيضاً إذا كانت ثمة آلاف من الأصابع تنتظر بفارغ الصبر تجربة الآلة الكاتبة رمنجتون راند الجديدة إذ أن تحسينات جد... — ملمس جديد أنعم وسرعة زا... فى العمل — قد أدخلت على ... الآلة الفاخرة .

والكلمة اليوم : « آلة رمنجتو... راند الجديدة جديرة بالانتظار !

* واليوم يمكن أن تطبع الا... رمنجتون راند على خمسة آلاف نظام ... أنظمة الأحرف مما يجعلها صالحة للك... بما يزيد على مئة وخمسين لغة ولهجة

Remington Rand



رمنجتون راند

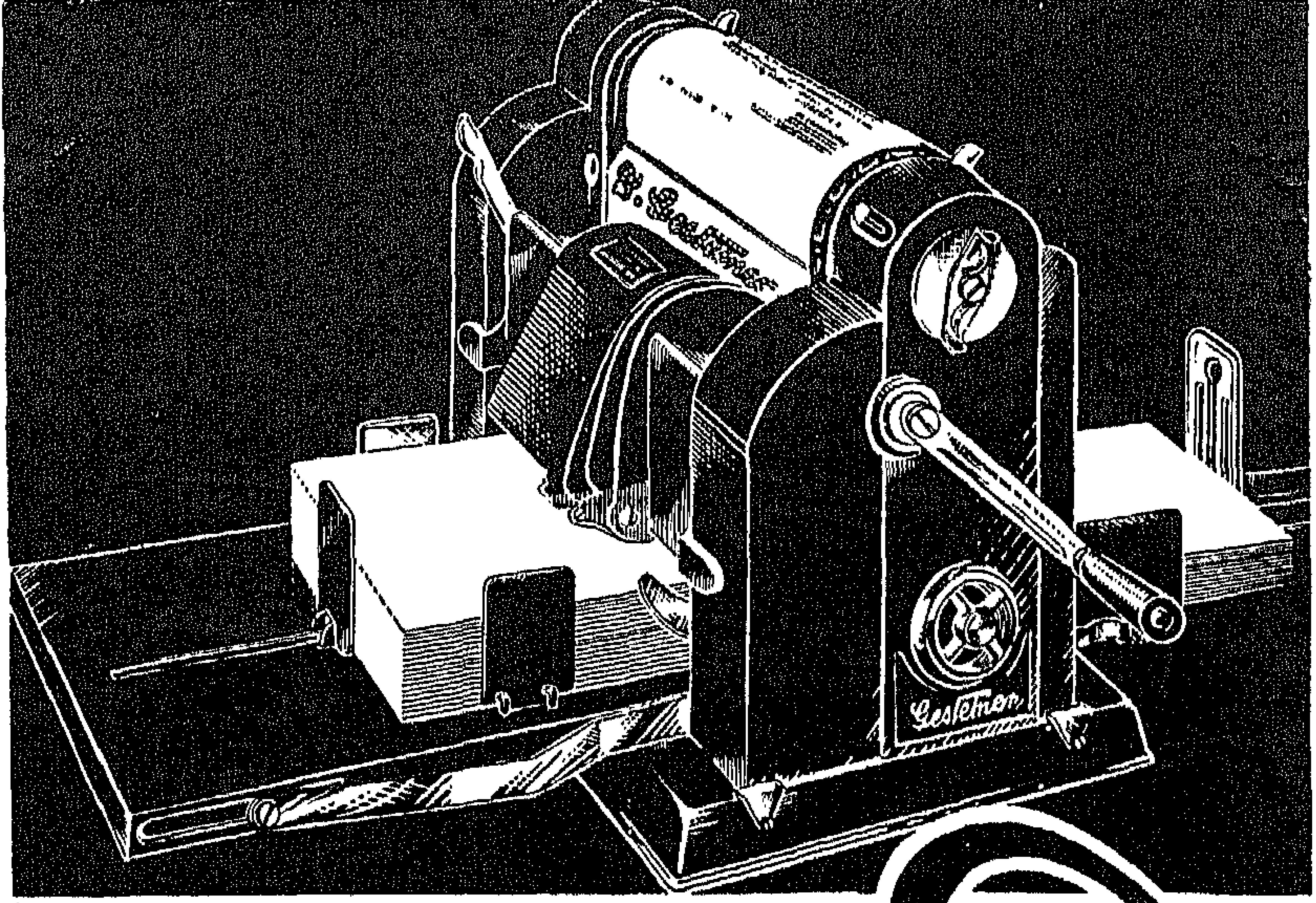
الأولى بين الآلات الكاتبة



الوكلاء الموزعون : **الكاتب المصرى** شركة مساهمة مصرية فتم آلات وأثاث وأدوات المكات...

القاهرة الاسكندرية بورسعيد

المركز الرئيسى بالقاهرة — ٥ شارع قنطرة الدكـ...



جستتنر

Gestetner

آلات نسخ الصور ولوازمها

أن ما بلغتـه منتجات جستتنر من التفوق هو نتيجة للبحث المستمر والتحسين المتصل منذ سنة ١٨٨١ .

وصلت فى مصر آخر نماذج من هذه الآلات ولوازمها ، اطلبوا كافة الاستعلامات من الوكلاء الموزعين الوحيدين .



جستتنر

ضمانات للثقة فى النوع

تحقق من هذا الأسم دائما

SCRIBE



الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية قسم آلات وأثاث وأدوات المكاتب

القاهرة الأسكندرية بورسعيد

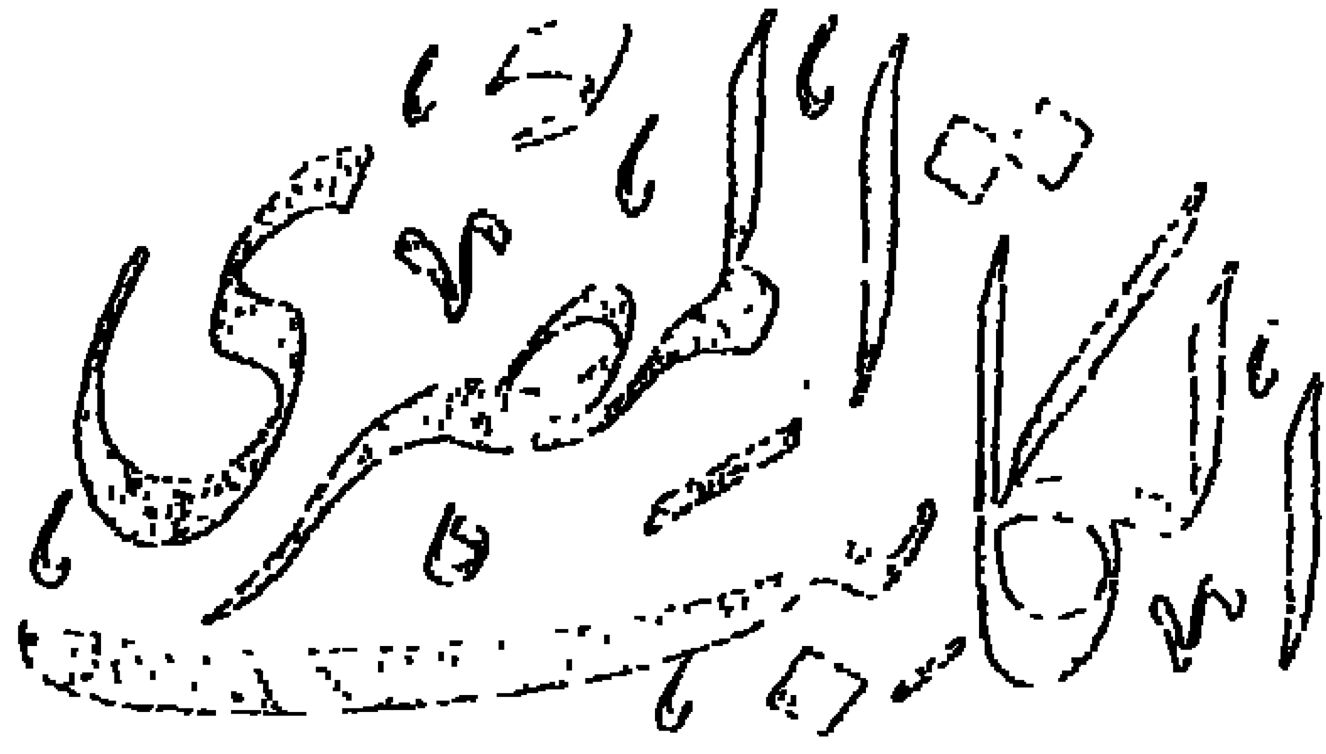
المركز الرئيسى بالقاهرة : ٥ شارع قنطرة الدكة

في أرجاء العالم العربي



مجلد ٤ — عدد ١٤

نوفمبر ١٩٤٦



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة



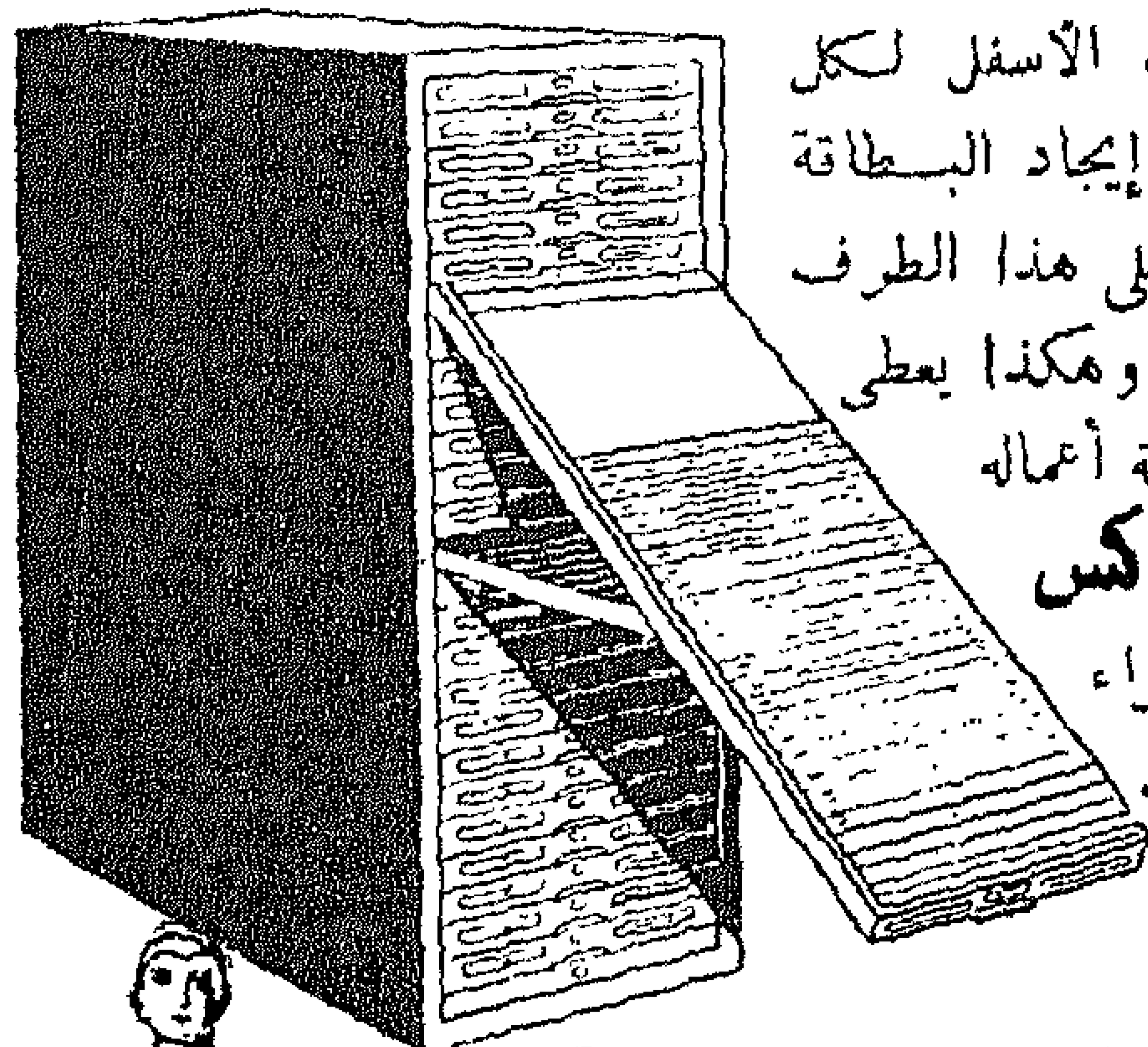
KARDEX

كاردكس



ــــ لتحسين الإنتاج في العمل

إنتاج مصانع الآلة الكاتبة رمنجتون راند



نظام **كاردكس** اختراع أمريكى فريد يتيح ترتيب بطاقات الأعمال ترتيباً أفقياً وليس رأسياً كالنظام العتيق ، وهو لذلك يضمن بطريقة عجيبة سرعة ترتيب تلك البطاقات وتسجيل البيانات فيها . وترى الطرف الأسفل لكل بطاقة ــــ وهو الفهرس ــــ ظاهراً بأكمله ، فيسهل عليك إيجاد البطاقة التى تبحث عنها فى الحال . وهنالك إشارات ملونة تتحرك على هذا الطرف الظاهر ، فتلفت النظر إلى الموضوعات التى تستدعى إجراء خاصاً . وهكذا يعطى نظام **كاردكس** لرجل الأعمال صورة منظمة سريعة عن حالة أعماله

وفى أنحاء القطر المصرى ، يستعمل رجال الأعمال نظام **كاردكس** فى تسجيل أهم العمليات التجارية مثل الجرد ، والبيع ، والشراء والانتاج وغيرها من الأعمال. فاستعمال **كاردكس** يمكن صاحب العمل من « الرقابة » . . . وامتلاك زمام عمله إذ يكون أمامه فى كل لحظة رسم بيانى للأمور يرشده فيما يتخذ من قرارات .

فنظام **كاردكس** يزيد من كفاية عمالك ، فيساعد على زيادة انتاجك كما ساعد الشركات الأمريكية .



الوكلاء الموزعون : **الكاتب المصرى** شركة مساهمة مصرية قسم آلات وأثاث وأدوات المكاتب

القاهرة الاسكندرية بورسعيد

المركز الرئيسى بالقاهرة - ٥ شارع قنطرة الدكة

ظهر حديثا

يوسف كرم
مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

كتاب يقع فى ٢٦٨ صفحة

الثمن ٥٠ قرشا (البريد ٣٦ مليما)



الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى . شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها .

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٠٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى



ذو الحجة ١٣٦٥ — نوفمبر ١٩٤٦

السنة الثانية — مجلد ٤ – عدد ١٤

ما وراء النهر

لست أدرى أين وقعت أحداث هذه القصة ، ولكنى أقطع بأنها لم تقع فى مدينة القاهرة . فقد تتبعت شاطئ النيل كله فى هذه المدينة ، فلم أجد ربوة شديدة الارتفاع والاتساع ، يقوم عليها قصر فخم ضخم شاهق فى السماء ، ويتكاثف فيها شجر باسق ملتف يظل ضروبا من النجم لا تعد ، وفنونا من الزهر لا تحصى . وهذه الربوة المرتفعة الواسعة تنحدر فى يسر إلى النهر ، كأنما تسعى للقائه ، أو كأنما تيسر للشجر والزهر السعى للقائه .

لم أجد على شاطئ النيل فى القاهرة هذه الربوة ولا شيئاً يشبهها ، ووجود هذه الربوة شرط أساسى لوقوع الأحداث التى تعرضها هذه القصة . فما أظنك تخالفنى فى أن ما يمس الإنسان من الأحداث وما يصور هذه الأحداث من قصص ، لا يمكن أن يتم إلا إذا كان له مكان معروف بحدوده وأوصافه . وقد وقعت أحداث هذه القصة فى مكان ، ما فى ذلك شك ، بل وقعت فى هذا المكان الذى وصفته وصفاً موجزا . وأكاد أعتقد أن هذا المكان نفسه هو الذى أنشأها ، وهو الذى ابتكر أحداثها ودفع أشخاصها إلى إجراء هذه الأحداث .

وقد علمنا النقاد منذ عهد بعيد أن هناك صلة متينة دقيقة بين أقوال الناس وأعمالهم ، وبين البيئة التى يعيشون فيها ويتأثرون بدقائقها فى حياتهم اليومية . ولو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو فى قصر يقوم على الأرض المنبسطة السهلة ، لا على هذه الربوة المرتفعة التى تمتاز مما حولها من الأرض ، وترفع قصرها فوق ما حولها من القصور والدور ، وتنحدر بشجرها

وزهرها فى سذاجة ويسر إلى النهر — أقول لو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو قصر يقوم على السهل لما أجروا ما أجروا من الأحداث، ولما أصابهم ما أصابهم من الخطوب. فغرفات القصر وحجراته، وأفنية القصر وأبهاؤه، وهذه الدهاليز الكثيرة الملتوية، وهذه السلالم الكثيرة المختلفة، وهذا الشجر المتكاثف الملتف، وهذه النجوم المتقابلة المتدابرة، وهذا الزهر المنسق المنمق، كل أولئك قد فرض على أهل القصر لوناً او ألواناً من الحياة لم يكونوا يستطيعون إلا أن يخضعوا له ويسلكوا فى سيرتهم ما يلائمه، وكل أولئك قد أغرى هذا الشخص أو ذاك من أشخاص القصة بهذا العمل أو ذاك من أعماله، وبهذا القول أو ذاك من أقواله، بحيث لم يكن بدٌّ من أن تحدث هذه الأحداث فى هذا المكان المقسوم لها دون غيره من الأمكنة، وإلا لبطلت قواعد الفن، ولفسد التاريخ الأدبى، ولذهب الأدباء بإنتاجهم الأدبى كل مذهب وسلكوا به كل سبيل، لا يخضعون لأصل من الأصول، ولا يتقيدون بقانون من القوانين التى وضعها أرسطاطاليس وأسلافه وأخلافه ولم يفرغوا من وضعها إلى الآن

وإذن فلا بد لهذه القصة من ربوة عظيمة الارتفاع والاتساع، ومن قصر شاهق، وشجر باسق، وزهر رائق، ونجم شائق، ونهر دافق يجرى من تحت هذا كله فى أناة حيناً وفى عنف حيناً آخر. فإذا فقد شىء من هذا ضاعت القصة. وما أظنك ترغب فى أن تضيع؛ فأنت محتاج إليها لتنفق الوقت فى القراءة، وأنا محتاج إليها لأنفق الوقت فى الإملاء، والمجلة محتاجة إليها لتملأ عدداً من صفحاتها قليلا أو كثيرا. كل شىء يضطرنى إلى أن أملى، وكل شىء يضطر المجلة إلى أن تنشر، وكل شىء يضطرك إلى أن تقرأ، وكل أولئك يفرض علينا جميعاً أن نقبل هذه الربوة وما فيها وما عليها لنمضى فيما يُسِّر له كل منا من الكتابة والنشر والقراءة. فلتكن هذه الربوة ما دام لا بدّ لها ولنا من أن تكون. ولكنها لا تستطيع أن توجد فى القاهرة لأن شاطئ القاهرة منبسط مستو ليس فيه نجاد ولا وهاد. فلو زعمنا أن الربوة قائمة فى هذا المكان أو ذاك من المدينة لاستطاع من شاء من القراء أن يواجهنا بالإنكار ويخاصمنا بالحقائق الواقعة، ويضيع علينا القصة وما بذلنا فى كتابتها ونشرها وقراءتها من الجهود.

وأكاد أعتقد أن هذه الربوة لا توجد على شاطئ النيل فى مصر كلها . فلست أزعم أنى قد تتبعت الشاطئ المصرى كله على النيل ، ولكنى لم أسمع قط عن ربوة كهذه الربوة ، ولا عن قصر كهذا القصر . ولو قد وجدت هذه الربوة وقصرها الشاهق وجنتها الرائعة لكثر عنها الحديث فى كتب الخطط أولاً ، وفى الصحف والمجلات ثانياً ، وعلى ألسنة الناس بعد ذلك ؛ لأن جو مصر من الصفاء والنقاء بحيث لا يخفى شىء فيها على أحد من الناس إلا أن تتكاثف عليه الرمال كما تتكاثف على الآثار . وقصتنا لم تحدث فى العصر القديم ، وإنما تزعم أنها حدثت فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عاصرتنا أو سبقتنا إلى الوجود بوقت قصير جداً .

ومن الجائز أن تكون هذه الربوة مسحورة ، توجد لتفنى ، وتفنى لتوجد ، تظهر اليوم لتستخفى غداً ، وتستخفى غداً لتظهر بعد غد ؛ شأنها فى ذلك شأن كثير من المدن والقرى التى يتحدث عنها القصاص ويراها الرحالون فى قلب الصحراء أو فى أطرافها . ولكنى أستبعد ذلك ، لا لأنه فى نفسه بعيد أو مخالف لقوانين الطبيعة ؛ فقوانين الطبيعة لا تستطيع أن تثبت أمام قوانين الفن ، وقوانين الفن تبيح أن توجد الربى وتفنى ، وأن تظهر وتخفى ، بل هى تبيح أن توجد هذه الربوة فى مدينة القاهرة نفسها إلى أن تقع أحداث القصة . ثم تمضى بما عليها ومن عليها كأن لم تغن بالأمس . وما دام الزمان يمضى فليس بأس من أن يمضى المكان كما يمضى الزمان . وإذا استبعدت أن تكون هذه الربوة فى مدينة القاهرة ، فمصدر ذلك أن القراء يتفاوتون فى الثقافة ويختلف علمهم بأصول الفن . وما أحب أن يتجنى لى منهم قارئ أو قراء يزعمون لى أن لا وجود لهذه الربوة فى القاهرة ويجادلون فيما لا معنى للجدال فيه .

وأنا مع ذلك أستبعد أن تكون هذه الربوة مصرية لعلة أخرى لا تتصل بطبيعة الأرض ولا بتقويم البلدان ، وإنما هى أعظم خطراً من طبيعة الأرض ومن تقويم البلدان ، لأنها تتصل بالأخلاق .

فأهل مصر كلهم أخيار أبرار ، لا يحبون شيئاً كما يحبون العدل ، ولا يبغضون شيئاً كما يبغضون الجور ، ولا يؤثرون شيئاً كما يؤثرون ذكاء القلب وصفاء النفس وطهارة الضمير ، ولا يرفعون أنفسهم عن شئ كما يرفعونها عن

مقارفة الإثم ومصاحبة الفساد : ينأون عن السيئات أشد ما يكون النأى ، ويتجافون عن الموبقات أشد مايكون التجافى ، وينزهون أنفسهم عن الخطيئة أشد التنزيه ؛ فلست ترى بينهم قويًّا يستذل ضعيفاً ، ولا غنيًّا يستذل فقيراً ، ولا ناعماً يستطيل على بائس ، ولا سعيداً يستخف بشقى . ولست ترى بينهم متعجلا للمنفعة ، ولا مؤجلا لعمل من أعمال البر ، ولا مضحياً بمصلحة الكافة فى سبيل المصلحة الخاصة ، ولا مؤثراً لنفسه بالخير من دون مواطنيه . ولست ترى بينهم من يستحب الحياة الدنيا على الآخرة ، ويؤثر العاجلة على الآجلة ، ويتهالك على اللذات لا يصطنع فى سبيلها أناة ولا وقاراً ، ويقبل على الآثام لا يرى فى الإقبال عليها حرجاً ولا جناحاً ؛ لست ترى من بينهم أحداً يهم بشىء من ذلك أو يفكر فيه أو يصد نفسه عنه متكلفاً من الجهد قليلا أو كثيراً ، وإنما هم قوم فُطِروا على البر والاحسان ، ورُكّبت فى طبائعهم خصال التعاون والتناصف والاستباق إلى الخيرات ، وائتلفت أذواقهم من حب الجمال المادى والمعنوى ؛ فهم يكرهون أشد الكره القبح الذى تتأذى به العيون ، وهم ينفرون أشد النفور من القبح الذى تشمئز منه النفوس ، حياتهم الأولى فى هذه الدنيا مشاكلة كل المشاكلة لحياة الصالحين المقربين فى الجنة التى وعد الله عباده المتقين . وفى هذه القصة ، كما سترى ، شىء من ظلم وجور ، وشىء من استطالة واستعلاء ، وشىء من الاستئثار باللذات فى غير تحرج ، والإقدام على الآثام فى غير تحفظ ، والاستهتار بما يأبى الرجل الكريم أن يستهتر به أو يظهر الناس على ميله إليه ورغبته فيه . فلا يمكن إذن أن تحدث هذه القصة فى مصر ؛ لأن أحداثها منافرة أشد المنافرة للمعروف المألوف من أخلاق المصريين فى عصورهم المختلفة وفى عصرهم هذا الحديث خاصة ؛ لأن الأخيار يمضون فى الخير كلما تقدم الزمان ، كما أن الأشرار يتخففون من الشر كلما ارتقت الحضارة . وأكبر الظن أن حياة المصريين قد بلغت من الصفاء والنقاء على تقدم الزمن طوراً ليس بينه وبين حياة الملائكة فى السماء إلا آماد قصار . وإذا كان الجيل المعاصر منهم يسعد بهذه الحياة الراضية الرخية النقية أكثر مما سعدت الأجيال الماضية ، فانه على سعادته العظيمة شقى بالقياس إلى ما ستظفر به الأجيال المقبلة من هذه السعادة التى لا يمكن أن توصف بلغة الناس لأنها لم تُقْدَرْ للناس فى حياتهم الدنيا .

ليست هذه القصة مصرية إذن ؛ لأن مكانها لا يوجد فى أرض مصر ، ولأن أشخاصها لا يعيشون فى جو مصر ، ولأن أحداثها لا تلائم طبائع المصريين . وإذن فقد تسأل نفسك كما أسأل نفسى : أين وقعت أحداث هـذه القصة ؟ والحق أن الجواب على هذا السؤال ليس شاقا ولا عسيراً ؛ فما أكثر البلاد التى ترتفع فيها الربى على ضفاف الأنهار ، وترتفع فيها القصور الشاهقة المترفة على قمم الربى ! وإذا لم تكذبنى الذاكرة فان شاعراً من أصحاب الموشحات قد صوّر لنا ربى كثيرة فى أسبانيا ، كان يطلب إلى السحب أن تجلل تيجانها بالحلى ، وأن تجعل منعطفات الجداول لها أساور من لجين ، وإن شئت فقل أساور يختلف معدنها باختلاف ما يلقى عليها من الضوء وما يعكس عليها من الألوان ؛ فهى من فضـة حين يمتع النهار ، وهى من ذهب حين يترقرق على صفحاتها ضوء الأصيل . والمهم أن هذا الشاعر الموشح الموفق قد دلّنا على مكان هذه الربوة الرائعة التى يقوم عليها هذا القصر المنيف . فلنقُلْ إذن إنها فى أسبانيا . وأنت تعرف أن أسبانيا هى البلد الذى يبنى الخيال فيه ما يشاء من القصور ومن القصور المطاوعة التى ترتفع فى السماء وتتسع فى الفضاء ما شئت لها الارتفاع والاتساع ، والتى تنخفض وتنقبض حين تريد لها الانخفاض والانقباض ، والتى تندك وتنهار وتصبح أطلالاً باليـة حين تريد أن تقف عليها كما كان يقف الشعراء القدماء على أطلالهم ، وأن تنشد عليها هذا الشعر الذى أنشده النابغة على طلله القديم :

يادار ميـة بالعليـاء فالسنـد ... أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيـلالاً أسائلها ... عَيَتْ جواباً وما بالربع من أحد

ربوتنا إذن فى أسبانيا ، قد أشرفت على نهر من أنهارها ، وانحدرت إليه كما قلت فى سهولة ويسر ، واتخذت لنفسها من الشجر والزهر تاجاً رائعاً بارع الجمال ، واتخذت لتاجها هـذا الرائع البارع من ذلك القصر الشامخ الباذخ الأنيق درة نادرة المثال منقطعة النظير ، تستطيع أن تلتمس لها اسما بين هذه الدرر الكثيرة التى يأتلف منها كتاب العقـد الفريد لذلك الكاتب الشاعر الأندلسى العظيم .

ولكنى لم أصف الربوة حق وصفها ولم أصورها كما ينبغى لها أن تصور. فأنت لا تحسن الوصف والتصوير لشئ من الأشياء إلا إذا وصلت به ملحقاته التى تكمله وتعطيه صورته النهائية ، إن أتيح لشئ من الأشياء فى هذه الحياة أن يظفر بصورته النهائية فى يوم من الأيام . ولهذه الربوة ملحق لا يمكن إهماله لأن إهماله يخل بنظام القصة إخلالا خطيراً . فالجمال لا يستقيم إلا إذا جاوره القبح ، والنعيم لا يكمل إلا إذا جاوره الجحيم . وما ينبغى أن تحتج على بنعيم الجنة وجمالها ؛ فنعيم الجنة وجمالها لا يستقيمان إلا إذا كان بإزائهما قبح جهنم ، وما يَصْلَى الخاطئون فيها من نار الجحيم .

لا بد إذن من أن أتم تصوير الربوة بشئ من الحديث عن هذا الملحق الذى لا يستقيم أمرها بدونه . وهذا الملحق قرية تقوم على السهل المنبسط مما يلى الربوة ، وهى بعيدة الأرجاء ، مترامية الأطراف قبيحة المنظر إلى أقصى غايات القبح ، تقوم فيها دور منخفضة لا تكاد ترتفع فى الجو إلا قليلا ، لم تتخذ من الحجر ولا من الآجر ولا من اللبن ، وإنما اتخذت من الطين قد صنع صناعة غليظة خشنة ، وأسند بعضه إلى بعض وأقيم بعضه على بعض ، فائتلفت منه بيوت كانت تريد أن تكون جحوراً تتخذ فى باطن الأرض ، ولكن أهلها لم يجدوا من القوة ولا من الجهد ولا من المال ما يمكِّنهم من احتفار الجحور فى الأرض ، فآثروا أيسر الأمرين واتخذوا دورهم من هذا الطين المهمل الغليظ .

وقد قامت هذه القرية البائسة ، فى هذا السهل المنبسط ، على شاطئ النهر الجميل ، وإلى جانب الربوة الرائعة ، ليعلم الناس وليعلم النهر أيضاً ، وليشهد النهار المشرق والليل المظلم ، وليسجل التاريخ الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها . أن الحياة مزاج من الخير والشر ، ومن النعيم والبؤس ، ومن الجمال والقبح ، ومن السعادة والشقاء وأن تمايز الأشياء وتفاوت الأحياء أصل من أصول الوجود . فلولا الفقر ما كان الغنى ، ولولا البؤس ما كان النعيم ، ولولا الانخفاض ما كان الارتفاع ، ولولا الضيق ما كانت السعة .

ولست فى حاجة إلى أن أفصل ما تمتاز به الربوة من جمال ، وما تمتاز به القرية من قبح . فقد لا يكون من الخير ولا من الذوق ولا من حسن الرعاية للقراء أن أستأثر وحدى بهذا الوصف ؛ فأنا لم أستأثر بالخيال من دون القراء ، بل أنا قد أكون أقل الناس حظاً من الخيال وقدرةً

على الوصف وبراعة في الأداء . ولم يخلق الله أديباً يستطيع أن يستأثر وحده بوصف مايعرض على قرائه من الأشياء والأحياء ؛ فهذا الوصف شركة دائماً بين الأديب المنتج والقارئ المستهلك . وليس من المحقق أن الأشياء التي يعرضها الأدباء تقع في نفوس القراء كما يعرضونها عليهم ، وإنما الشيء الذي ليس فيه شك هو أن القراء يشاركون في الخلق والإنشاء ، ويسبغون من ذات أنفسهم على ما يجلو لهم الكتاب من صور ألواناً لعل الكتاب أنفسهم لم يروها ، ولعلها لم تخطر لهم على بال . فهذه الربوة التي تحدثت عنها ، وهذه القرية التي أشرت إليها ، تقعان من نفوس القراء على اختلافهم مواقع مختلفة متباينة ، لعلها لا تلتقي ولا تتشابه إلا في القليل . فالإنتاج الأدبي إذن شركة بين الأديب وقارئه ، وليس الأديب في حقيقة الأمر إلا رائداً يمهد الطريق . وما ينبغي للقراء إذن أن ينخدعوا عن أنفسهم ، ولا أن يخلعوا على الأدباء هذه الخصال الرائعة التي تثير فيهم الغرور وتغريهم بالكبرياء . والذي أريد أن أصل إليه هو أني أعتمد على القراء في أن يُعمِل كل منهم خياله ما وجد إلى إعماله سبيلا ، ليصور لنفسه هذه الربوة جميلة كأروع ما يكون الجمال ، وهذه القرية قبيحة كأبشع ما يكون القبح ، وألا تكون قراءتهم سلبية غير ذات غناء . فهذه القصة لا تحتمل القراءة السلبية ، وإنما هي تريد ، بل هي لا تقوم إلا على المشاركة الإيجابية بين الكاتب حين يرسم الخطوط وبين القارئ حين يتم الرسم ويملأ ما بين الخطوط من فراغ لعله تُرك عن إرادة وعمد .

ولعل القارئ يظن ، وهو معذور إن ظن ، أن هذا الحديث قد طال وأسرف في الطول قبل أن يصل إلى أول هذه القصة ؛ فكتابنا قد عودوا القراء أن يهيئوا لهم الأدب كما يهيأ لهم الطعام ؛ فليس على القراء إلا أن يقرأوا ويسيغوا ، كما أنهم أو كما أن بعضهم ليس عليه إلا أن يجلس إلى مائدة الطعام في مواعيد موقوتة ليمضغ ويسيغ .

أما أنا فلا أحب هذا اللون من الطهي الأدبي ؛ لأني أكبر نفسي وأكره أن أكون خادماً للقراء من جهة ، ولأني أكبر القراء ، وأكره أن تكون آذانهم أفواهاً وعقولهم بطوناً يلقى إليهم الكلام فيسمعون ثم يسيغون !. لا أحب شيئاً من هذا ، وإنما أحب أن أنشئ بيني وبين القراء نوعاً من

الزمالة ، بحيث نبدأ القصة معا ، ونمضى فيها معا ، وننتهى منها معا ، نتفق أحيانا ونختلف أحيانا أخرى ، ويشجر بيننا الخصام من حين إلى حين .

وقد كدنا نصل إلى أول القصة إن كنا لم نخط فيها خطوات واسعة فيما أعتقد . فليست القصة حكاية للأحداث وسرداً للوقائع كما استقر على ذلك عرف النقاد والكتاب ، وإنما القصة فقه لحياة الناس وما يحيط بها من الظروف ، وما يتتابع فيها من الأحداث . وإذا كان الأمر كذلك وهو عندى كذلك ، فنحن قد بدأنا القصة منذ الكلمة الأولى من هذا الحديث .

وعلى كل حال فليس بيننا وبين الأخذ فى عرض الحوادث إلا شئ واحد ، وهو أن نتبين الصلة بين القرية الملقاة على السهل والربوة المشرفة على النهر . وهذه الصلة قريبة كل القرب ، يسيرة كل اليسر ، ليست بعيدة ولا عسيرة كالصلة بين القصر وقريته فى قصة الكاتب المعروف كفكا Kafka لأنى لا أصطنع فى حديثى رمزاً ولا إيماء ، وإنما أصطنع الصراحة التى تؤثر الجلاء وتكره الغموض . والذين قرأوا قصة القصر لهذا الكاتب ذى الصوت البعيد يعرفون أن قصره إنما هو رمز للعالم العلوى ، وأن قريته إنما هى رمز للعالم السفلى ، ومن هنا تعقدت الصلة بين هذين العالمين . أما ربوتى أنا فهى ربوة من هذه الربى التى يراها الناس فى كل يوم ويقرءون عنها فى كل كتاب من كتب الأدب ، وليس أدل على ذلك من أنى قد استعرتها من ذلك الشاعر الأندلسى القديم . وأما قصرى أنا فهو قصر من هذه القصور التى يشهدها الناس حين يصبحون وحين يمسون ، قد بنى من المادة التى تبنى منها القصور ، وأثث بالأثاث الذى تزدهى به القصور ، وأترف أهله كما تعوّد الناس أن يترفوا فى هذه الحياة التى نحياها ، وفى هذا العصر الذى نعيش فيه . فمن أيسر الأشياء أن يهبط رجل من أهل القصر إلى القرية ، ليس عليه فى ذلك إلا أن يمضى أمامه حتى يقرب من شاطئ النهر ، ثم ينعطف إلى يمين فيرى أمامه طريقين إحداهما ممهدة تمهيداً حسنا كأنها أعدت لصعود السيارات وانحدارها ، والأخرى ممهدة تمهيداً مقاربا ضيقة بعض الضيق ، ولكنها أقصر من الأخرى ، وهى الطريق التى يسلكها الراجلون ، وقد يرى فيها الفرسان الذين يمتطون الخيل . وكذلك يستطيع الرجل من أهل القرية أن يرقى إلى هذا القصر على قمة الربوة سالكا الطريق.

الأولى إن أراد التيسير على نفسه بالسعى الهين والرقى السهل ، وإن أراد كذلك أن يلهو بما يلقى فى طريقه من هذه السيارات الصاعدة الهابطة بمن فيها من السادة والقادة والغادات الحسان . وسالكا إن شاء الطريق الأخرى إذا لم يشفق من التصعيد العسير الملتوى ، وإذا كان حريصاً بنوع خاص على أن يبلغ القصر فى أقصر وقت ممكن وفى غير تلكؤ أو إبطاء . هذه هى الصلة المادية بين الربوة والقرية ، وهى كما ترى قريبة ميسرة . فأما الصلة المعنوية فأشد من الصلة المادية قرباً وأعظم منها يسرا ، هى صلة السادة بالخدم ، أو صلة الخدم بالسادة لا أكثر ولا أقل . وما ينبغى أن تظن أن أهل القرية جميعاً خدم يعملون فى القصر يرقون إليه مع الصبح ويهبطون منه مع الليل ؛ فأهل القرية ليسوا من هذه الخدمة فى شىء ، بل هم لا يرقون إلى القصر إلا قليلا ، وهم حين يرقون إليه لا يبلغونه فضلا عن أن يدخلوه ، وإنما يبلغون مكاتب الدائرة التى أُلحقت به ، فيتصلون بهذا الموظف أو ذاك لما يمكن أن يكون بينهم وبين هذا الموظف من عمل . هم خدم للقصر على هذا النحو الذى تعرفه والذى تراه فى كل مكان يقوم فيه قصر فخم وتنبسط فيه أرض زراعية يملكها أصحاب القصر ، ويعيش من حوله قوم يعملون فى هذه الأرض ويعيشون مما يعملون . فجزء عظيم من السهل المنبسط فى أسفل الربوة ملك لسادة القصر ، وأهل هذه القرية هم الفلاحون الذين يزرعون هذه الأرض ويستغلونها ويستخلصون خيراتها لسادتهم . يقدِّمون إليهم كل هذه الخيرات ويعيشون على ما يَساقطُ منها هنا وهناك وعلى ما يتفضل به عليهم سادتهم من الفتات . لا يملكون شيئاً ، وليس لهم أمل فى أن يملكوا شيئاً ، لا يكادون يملكون أنفسهم ، وليس لهم أمل فى أن يستقلوا بملك أنفسهم . هم أحرار فى ظاهر الأمر يذهبون ويجيئون ، ويستيقظون وينامون ، ولكنهم رقيق فى حقيقة الأمر لأنهم لا يذهبون إلا إلى حيث يعملون ، ولا يجيئون إلا إلى حيث ينامون ، ولأنهم يَطْعَمون ما أريد لهم أن يطعموا لا ما يريدون هم أن يطعموا . ولعلهم لا يريدون أن يطعموا إلا ما يُسِّر لهم ؛ لأنهم لا يعرفون غير ما يُسِّرَ لهم ، ولا يستطيعون أن يطمعوا فيما لا علم لهم به . ولأنهم بعد ذلك لا يستطيعون أن يتصرفوا فى شىء لأنهم لا يجدون شيئاً ، ولا يطمعون فى أن يجدوا شيئاً يمكن أن يتصرفوا فيه . هم أحرار

كالعبيد ، وعبيد كالأحرار ، ليسوا راضين ولا ساخطين ؛ لأنهم لا يعرفون الرضا ولا السخط ، وإنما يعيشون كما تعيش النمل تدفعهم الغريزة وتدبر أمرهم إرادة سادتهم فى القصر . ويجب أن نعترف بأن هؤلاء السادة قساة القلوب غلاظ الأكباد ، يؤثرون أنفسهم بكل شىء ، ولا ينزلون لغيرهم عن شىء ؛ ولأجل هذا قلنا إنهم لا يمكن أن يكونوا من المصريين . .

وقد آن للحوادث أن تحدث ، وللقصة أن تأخذ طريقها إلى الوجود إن لم تكن قد أخذته من قبل . وأول ما نشهده من حوادث القصة منظر هذا الشاعر الذى نيّف على الستين ولكنه احتفظ بقوة توشك أن تكون قوة الشباب ، وهو على ذلك يتكلف الشيخوخة ويتصنع الضعف حين يراه سادة القصر ، وهو لا يمشى إلا متوكئا على عصا يسرف فى الانحناء عليها إذا رآه الناس ، فإذا خلا إلى نفسه اعتدلت قامته واستقام قده ، ونظر إلى ما حوله معجباً تياها . وقد تعوّد صاحب القصر الذى سنعرفه بعد قليل أن يراه منحنياً يمشى على ثلاث ، كما كان يقول أبو الهول فى سؤاله لأوديب فكان كل ما رآه أنشد متضاحكا ساخراً قول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

ونحن نرى هذا الشاعر الشاب الشيخ وقد خرج من الجناح الذى يقيم فيه عن يمين القصر ، وسعى منحدراً فى بطء وتمهل يريد أن يبلغ المجلس الذى تعوّد أن يلقى فيه صاحب القصر فى جوسق جميل على شاطىء النهر ، ولكنه يلقى فى طريقه شيخاً لاحظ له من قوة ولا من شباب وهو البستانى عثمان الذى يقول له فى صوته المتهالك المحطم : « فى المكتب ، يا سيدى فى المكتب ! إنه لم يخرج اليوم من مكتبه ولم يهبط إلى الحديقة ، ولم يقف عند أزهاره التى تعوّد أن يطيل الوقوف عندها » . قال الشاعر الشيخ الشاب : « عِمْ صباحاً ياعثمان ، فى المكتب ! ماذا سيصنع سيدك فى المكتب أيمكن أن يعيش الناس تحت السقوف وبين الجدران حين تصفو السماء وتتألق الشمس وتَزّيّن الأرض ويتهادى النهر على هذا النحو ! دعه فى المكتب ؟ ياعثمان ولا تؤذنه بمكانى إلا أن يسألك ، ولكن أرسل إلىّ القهوة ، أرسل إلىّ قدحين لا قدحاً واحدا ، وقف على إبراهيم حتى يتقنها ، فأنت تعرف القهوة التى أحب » . قال عثمان : « طاعة ياسيدى ! ولكنى

رأيت مولاى عابسا هذا الصباح كما لم أره قط » . قال الشاعر : « عابسا ! عابسا ! لقد أدركه بعض الخبل ، إنه يعبس والدنيا باسمة ، ويحبس نفسه وكل شيء يدعوه إلى أن ينعم بهذا الجمال . دعه محبوساً عبوساً ، وأرسل إلىّ قهوتى ولا تنبئه بمحضرى إلا أن يسألك . »

ثم مضى أمامه منحنياً على عصاه مستأنيا متمهلا حتى بلغ الجوسق فجلس إلى المائدة ونشر أمامه أوراقا وأخذ بيده قلما وجعل يطيل النظر إلى النهر كأنما كان يستمليه ثم يكتب متباطئا على ما بين يديه من الأوراق .

[يتبع]

طه حسين

في أفق السياسة العالمية

بين روسيا والولايات المتحدة

ليس في العالم كله بلاد كروسيا والولايات المتحدة بينها أوجه الشبه كما تعددت أوجه الخلاف ، وتوافرت فيها أسباب الاتفاق كما توافرت عوامل النفرة والجفاء . وأنت لو ألقيت إلى الكرة الأرضية بنظرة فاحصة لكشفت لك عن وجود مساحتين شاسعتين متقابلتين من اليابسة ، إحداهما في نصف الكرة الشرقي ، والثانية في النصف الغربي ، وفي كل منهما تقوم حكومة مركزية واحدة تجمع بين شتات هذه الأرجاء الواسعة ، وتشرف على نظامها العام ومواصلاتها ودفاعها وعلاقاتها مع سائر الأمم . أما في نصف الكرة الشرقي أو العالم القديم فتقوم حكومة اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية ، ومساحتها تزيد على ثمانية ملايين من الأميال المربعة ، ويبلغ عدد سكانها ١٨٠ مليون من الأنفس . وأما في نصف الكرة الغربي أو العالم الجديد فتقوم حكومة الولايات المتحدة بأمريكا ، ومساحتها تزيد على ثلاثة ملايين من الأميال المربعة ، ويبلغ عدد سكانها نحو ١٣٠ مليون من الأنفس ، ولا يفوقهما في العالم كله إلا بلاد الهند والصين ، وذلك من حيث عدد السكان فحسب . وروسيا والولايات المتحدة كلتاهما تخترقها أنهار عظيمة تنساب بين سهول خصبة مترامية الأطراف ، كثيرة الخيرات ، موفورة المحصولات ، وفيها مراع ممتدة وهضاب وأودية وسلاسل من الجبال يستخرج من ظاهرها وباطنها معادن مختلفة ، وفي مقدمتها زيت البترول ومنه تنتج الولايات المتحدة ٦٤ ٪ من محصول العالم ، وتليها روسيا إذ تنتج منه ١٢ ٪ ولعظم مساحتهما تعتبر كل منها قارة قائمة بنفسها في عزلة عن غيرها ؛ فروسيا في عزلة برية شبه جليدية تبدأ من البحر البلطي في غرب أوربا وتنتهي عند ساحل المحيط الهادي الشمالي شرقي روسيا . وأما عزلة الولايات المتحدة فعزلة بحرية ، إذ يكتنفها المحيط الاطلنطي من الناحية الشرقية ، والمحيط الهادي من الناحية الغربية .

وكما تغلبت الولايات المتحدة على وصل أبعاد الفيافى السحيقة بإنشاء السكك الحديدية بين المحيطين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، كذلك ربطت روسيا بين غربها وشرقها بإنشاء خط سيبريا الحديدى فى أوائل القرن العشرين . ولكن بينما كان إنشاء السكك الحديدية فى الولايات المتحدة مقدمة لتعمير أراضيها وزيادة إنتاجها وإشاعة الرغد والرخاء فى ربوعها ، كان امتداد السكك الحديدية فى روسيا شرقا عابراً سيبريا نذير شؤم على الأهالى ؛ إذ أصبح العمل فى إنشاء السكك الحديدية واستغلال المناجم والعمل فى المصانع الواقعة قربها تكليفاً شاقًا ينوء به عادةً المجرمون والمسخرون من رقيق الأراضى ومئات الألوف من السياسيين والمفكرين الأحرار والاشتراكيين الذين نالهم سخط الحكومة فكان نصيبهم النفى إلى تلك البقاع ، يعيشون فى صحراء من الجليد لا فكاك منها وليس فيها أثر من آثار الرحمة الانسانية ، فكانوا يموتون ضحية الجوع والمرض والقسوة واليأس .

وليس فى كل هذا أمر يدعو إلى العجب والدهشة ، إذا عرفنا أن الروس كافة قد ظلوا مستعبدين قرونا طويلة ، يتحكم فيهم الأشراف ويسومونهم سوء العذاب ، ويعيشون ملتصقين بالأرض كالسائمة أو كالعبيد . وظل هذا شأنهم إلى أن أصدر القيصر إسكندر الثانى سنة ١٨٦١ قانونا يحررهم من عبوديتهم . ومنذ ذلك التاريخ أخذت الأجيال الناشئة تتنسم نسيم الحرية والكرامة الإنسانية ، وحملت مشاعل الثورة ومعاولها التى قوضت أخيراً حكومة القياصرة . ولذلك كان الروس قبل هذا التاريخ فى عزلة عن غرب أوربا ، فلم يتأثروا كما تأثرت شعوب غربى أوربا بحركة النهضة أو بالثورة الفرنسية وما تبعها من أحداث وثورات ، ولم تمسسهم حركات الإصلاح الدينية التى انبعثت من روما وألمانيا وسويسرا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . لذلك بقى الحكم فى روسيا طوال هذه القرون حكما أتوقراطيًا بحتاً بالغا منتهى الشدة والقسوة ، وظل الشعب يرسف فى أغلال جهله وفقره المدقع إلى أن قامت الثورة البلشفية فى سنة ١٩١٧ . ولا نستثنى من ذلك الفترة التى اعتلى فيها العرش القيصر إسكندر الأول ، الذى كان قوام المحالفة الأوربية بين سنة ١٨١٢ و ١٨١٥ ، وهى المحالفة التى قضت على نابليون بونابرت . وقد بدا للناس حينذاك أن القيصر يريد أن يبدأ عهداً جديداً من الحرية وحكم القانون ، لا فى روسيا وحدها بل فى إقليم بولندة كذلك

التي اقتسمتها روسيا والنمسا وبروسيا ومحوها قبيل نهاية القرن الثامن عشر من الوجود السياسي ؛ فإن هذه الفترة لم تظل إلا سنوات قليلة لم يلبث بعدها إسكندر أن انحاز إلى جانب سياسة مترنخ الرجعية ، وسرعان ما صارت روسيا سوط العذاب يلهب به مترنخ ظهور الأحرار أينما وجدوا حتى لو كانوا في أمريكا من وراء المحيط . فقد قامت في سنة ١٨٢٢ ثورة في أسبانيا على مليكها فرديناند السابع ، ومنها انتقلت إلى مستعمراتها في جنوب أمريكا ، فما كان من إسكندر قيصر روسيا إلا أن تقدم يريد إرسال قواته تعبر أوربا لقمع الثورة لا في أسبانيا فحسب ، بل في المستعمرات أيضاً إذا اقتضت الحال . وكان من الطبيعي في ذلك الوقت أن تعترض فرنسا وانجلترا على هذا الدور الدكتاتوري الرجعي الذي أراد القيصر تمثيله على مسرح السياسة الدولية ، فقرر مؤتمر الدول الذي انعقد في فيرونا أن يعهد إلى فرنسا ، وهي أقرب الدول إليها ، بقمع الثورة . وفي ذلك الحين خشيت انجلترا والولايات المتحدة ، وكانت لهما في المستعمرات الأسبانية مصالح تجارية حيوية أن يمتد أثر قرار فيرونا إلى أمريكا ، فقام جيمس منرو Monroe رئيس الولايات المتحدة في ديسمبر سنة ١٨٢٣ فأعلن تصريحه الشهير الذي قامت على مبادئه من بعد سياسة أمريكا الخارجية . وينص ذلك التصريح على أن الأقاليم الأمريكية لم تعد مجالا للتدخل أو للاستعمار الأوربي ، وأن أي تدخل من جانب أية دولة أوربية تعتبره الولايات المتحدة عملا عدائياً موجها ضدها . وأعقب ذلك اعتراف كاننج وزير خارجية انجلترا باستقلال المستعمرات الأسبانية سنة ١٨٢٤ ومنذ ذلك الوقت أصبحت شؤون الجمهوريات الأمريكية من اختصاص الولايات المتحدة دون غيرها من سائر الدول .

وبذلك استطاع شعب الولايات المتحدة أن يصون استقلاله وحرياته ، بل أن يقف فوق ذلك حارسا على حريات الشعوب الأمريكية وضامنا لاستقلالها جميعا . وحدث ذلك في وقت كان فيه الشعب الروسي يرسف في أغلال عبوديته وجهله وفقره . وليس بغريب أن يصل شعب الولايات المتحدة إلى هذه الدرجة من النضج السياسي ، وإلى هذه المكانة بين الدول ، إذا عرفنا أنه وريث الفضائل والصفات التي ميزت المهاجرين الأول من أحرار الانجليز والهولنديين والفرنسيين الذين أبت عليهم نفوسهم الأبية أن يقيموا على الضيم والاضطهاد الديني في أوربا فهاجروا أول ما هاجروا من انجلترا في سنة ١٦٢٠ تحملهم

سفينة « ميقلور » إلى الساحل الشرق من الولايات المتحدة حيث أقاموا حكوماتهم على أساس من الحرية والمساواة والعمل لصالح المجموع ، حتى إذا رأوا من جانب حكومة الأم فى انجلترا عنتاً وتشبثا بحقوق لا تستند إلا على القوة لم يترددوا فى إعلان الثورة عليها وحمل السلاح ضدها ، وسرعان ما قامت حرب الاستقلال الأمريكى التى انتهت سنة ١٧٨٣ ؛ وانتهزت دول أوربا المنافسة لانجلترا هذه الفرصة فأعلنت حيدتها المسلحة ضد انجلترا ، حتى لا تستغل انجلترا تفوقها البحرى فى مناوأة تجارتهم مع أمريكا . وكانت روسيا إلى جانب الحيدة المسلحة ضد انجلترا ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه تمقت الثوار ومبدأ الثورة ، فلم تشأ أن يكون بينها وبين الولايات الثائرة بعد استقلالها صلات أو روابط من أى نوع كانت ، واستمرت كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين استقبل إسكندر الثانى أول ممثل للولايات المتحدة فى سنة ١٨٠٩ وعقدت أول معاهدة تجارية بين البلدين فى سنة ١٨٣٢ .

ولما قامت الحرب الأهلية بين ولايات الجنوب وولايات الشمال ، وكان أهل الجنوب يريدون أن ينفصلوا عن الولايات الشمالية ، حتى لا يتعرض اقتصادهم الزراعى والاجتماعى القائم على استخدام الرقيق لأى خطر من ناحية الرئيس لنكولن وولايات الشمال الصناعية ، كانت انجلترا وفرنسا تناصران حركة الجنوب الانفصالية ، حتى لا تقوى الولايات المتحدة وتصبح يوما دولة كبيرة منافسة . ومن عجب أن تكون روسيا حينذاك إلى جانب الولايات المتحدة مع أنها لم تكن تربطها بالولايات المتحدة أية رابطة من الجنس أو الدين أو الثقافة ، بل كانت روسيا تعتبر إذ ذاك مباءة الحكم الرجعى الاوتقراطى ، كما كانت الولايات المتحدة الشمالية تمثل أكثر المبادئ حرية وتسامحا وإنسانية

وقد أبدى إسكندر الثانى قيصر روسيا من الاهتمام بقضية الولايات المتحدة ما جعله يسارع بإرسال جزء من أسطوله يرسو فى ميناء نيويورك وسان فرنسسكو ، وأعلن فى صراحة أن بقاء الولايات المتحدة دولة مستقلة متماسكة أمر لا بد منه لصيانة السلم بين الدول . وكان هذا الموقف من أهم الأسباب التى دعت انجلترا وفرنسا إلى العدول عن موقفها العدائى نحو الولايات الشمالية .

ولما سئل القيصر إسكندر عن سبب وقوفه هذا الموقف من النزاع

الأمريكى أجاب بأنه إنما فعل ذلك خدمة لصالح روسيا لا حبًّا فى الولايات المتحدة .

فقد كان التنافس بين روسيا وبريطانيا شديداً فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكانت روسيا حديثةعهد بخروجها منهزمة أمام انجلترا وحليفاتها فى حرب القرم ، فأرادت روسيا أن تثأر لنفسها ، فتعمل على تقوية الولايات المتحدة لعلها أن تنمو يوما فتتفوق على بريطانيا ، وعلى ذلك ينفسح المجال أمام روسيا فى آسيا وفى البحر المتوسط . وتحقيقاً لهذا الغرض لم تجد روسيا مانعاً من النزول للولايات المتحدة عن أرض شبه جزيرة ألسكا شمالى كندا فى سنة ١٨٦٧ مقابل مبلغ ضئيل دفعتـه أمريكا ، حتى لا تسيطر على مضيق بهرنج دولة أجنبية .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى كان وجود روسيا إلى جانب انجلترا وحلفائها من الأسباب التى جعلت حكومة الولايات المتحدة تتردد طويلا قبل تصديق ما أعلنه الحلفاء من أغراضهم فى دخول الحرب ؛ إذ لم يكن معقولا حينذاك أن تشترك حكومة روسيا القيصرية فى نصرة المبادئ الديمقراطية واحترام حريات الشعوب وحكومتها إذ ذاك فى أسفل درك من الفساد والطغيان . وفعلا لم تشترك الولايات المتحدة فى الحرب إلا بعد أن اشتعلت نار الثورة البلشفية الكبرى فى روسيا ، وأعلن الثوار على الملأ أنهم إنما يريدون السلام ولا مطمع لهم فى أرض أو مال للغير ، وعلى ذلك سرعان ما عقدت مع ألمانيا معاهدة برست ليتوفسك فى مارس سنة ١٩١٨ أى قبل انهزام ألمانيا النهائى بشهور قليلة .

ومنذ ذلك اليوم انطوت روسيا على نفسها ، وأخذ الثوار يكافحون فى سبيل توطيد دعائم الثورة ودرء خطر القوات الرجعية التى كان الحلفاء يؤازرونها ويمدونها بالمال والرجال ، حتى ملئت روسيا على دول الغرب سخطا وغلاً وحفيظة ، ولم تجد أمامها إذ ذاك إلا دول الشرق الناشئة كتركيا وإيران وأفغانستان فأوثقت معها روابط الصداقة وعدم الاعتداء ، وأقامت بينها وبين دول الغرب أو أقاموا بينهم وبينها ستاراً كثيفاً جعلها بمعزل عن العالم الغربى .

وكانت الولايات المتحدة أشد هذه الشعوب مقتاً لحكومة الثوار فى روسيا ، وأكثرها رغبة فى تجنب الاتصال بها . فبينما عملت انجلترا وفرنسا على

إنشاء علاقات تجارية بينها وبين روسيا أسوة بما سبقت إليه ألمانيا فى سنة ١٩٢٢ بمقتضى معاهدة راپالو ، فإن الولايات المتحدة ظلت جامدة فى موقفها أزاء روسيا ، كارهة أن يكون بينها وبين البلاشفة أية صلة مهما كان بعدها عن السياسة . وقد استاء شعب الولايات المتحدة من الثوار فى روسيا حين تنكروا للدين المسيحى ، وأنكروا الديون التى كانت لأمريكا على الحكومة القيصرية ، وحين أقاموا نظام الثورة على أساس من الغدر والتقتيل والتشريد إلى درجة أفزعت الشعوب الغربية ، ولأنهم لم يقتصروا على تنفيذ مبادئ ثورتهم فى بلادهم بل عملوا سراً وعلانية على نشر هذه المبادئ ومحاولة تنفيذها فى البلاد الأجنبية الأخرى ، يريدون أن تعم الثورة الشيوعية العالم كله ويكون لموسكو الأمر كله على الناس جميعا .

ولما أصبح الأمر فى روسيا بيد ستالين بعد موت لينين فى سنة ١٩٢٤ دخلت روسيا فى طور جديد من حياتها السياسية ؛ إذ لم يكن ستالين من قادة الفكر النظريين الذين درسوا فى جامعات أوربا واطلعوا على آراء الغرب وكتبهم ، بل كان رجلا حربيا عمليا يعتبر حقائق الواقع ، فلم يشأ أن يضحى بمصلحة روسيا فى سبيل تحقيق ماقصد إليه ماركس ولينين وتروتسكى من تعميم الثورة الشيوعية فى العالم بطريق العنف والقوة ، وصمم ستالين على تركيز جهود الثورة فى روسيا أولاً بإنهاضها صناعيًّا وثقافيًّا ، وتطهيرها تدريجاً من عناصر الشيوعية العالمية . ومن حسن طالع ستالين أن أوربا كانت تجنى فى هذه الفترة أحسن ثمار عصبة الأمم ؛ إذ دخلت ألمانيا العصبة فى سنة ١٩٢٦ وسادت بلاد العالم موجة من حب السلام جعلت روسيا تشترك من صميم قلبها فى اللجنة التحضيرية لمؤتمر تخفيف التسلح الذى انعقد فى جنيف ١٩٣٢ مع أنها لم تكن عضواً فى العصبة إذ ذاك ، وقد كان صوت مندوبها لتفينوف أقوى صوت ارتفع فى المؤتمر منادياً بوحدة السلام فى العالم ، وبتخفيف التسلح بل ونزعه تماما فى مدى سنوات قليلة .

ولما لم يفد مؤتمر نزع السلاح شيئاً وباءت عصبة الأمم بالخيبة ، تنبهت روسيا إلى موقفها إزاء الدول ، وأدركت أنها إنما تقف وحدها فى عزلة حربية وسياسية عن دول العالم ، وأيقنت أن مسابقة التسلح بين الدول ستعود حتما إلى أشد مما كانت عليه فى الماضى ، وأن مصير الثورة فى روسيا قد أصبح معرضا للضياع إذا لم تنهض بسد حاجاتها الحربية والصناعية بنفسها . وعلى ذلك بدأ ستالين سنة

١٩٢٩ مشروع السنوات الخمس الشهير مرة بعد مرة ، حتى شهد العالم وهو مشدوه مبهوت إحدى معجزات القرن العشرين الاقتصادية ؛ إذ تحولت روسيا إلى بلاد صناعية تنتج كل ما تحتاج إليه حربيا واقتصاديا ، وذلك إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وحركة عمرانية ثقافية أصبحت مضرب المثل فى مداها وكفايتها ، وأصبح ستالين صاحب هذه النهضة الكبرى ومبدعها معبود القوم وملاذهم الأعلى فى السلم وفى الحرب .

وفى هذه الأثناء كان قد ولى رياسة الولايات المتحدة رئيس حصيف واسع الأفق شديد الإيمان بالمبادئ الديمقراطية والأهداف الإنسانية العامة ، فهاله أن تكون بين أمريكا وروسيا تلك الهوة السحيقة من الجفاء وعدم الثقة مما أضاع على الولايات المتحدة الاتصال بأعظم دول أوربا قوة وسكانا وأفسحهم مستقبلا ، فقرر أن الوقت قد حان لاتصال الشعبين تحقيقاً لمصلحتهما السياسية والاقتصادية . وكانت الحركة النازية قد اشتدت فى ألمانيا ، وأصبح هتلر يهدد روسيا من جهة ودول الغرب من جهة أخرى ، كما أصبحت اليابان بعد احتلالها منشوريا تهدد مصالح الولايات المتحدة كما تهدد مصالح روسيا فى الشرق الأقصى . وكانت كل من روسيا والولايات المتحدة فى عزلة سياسية خارجة عن مدار عصبة الأمم ؛ وعلى ذلك سرعان ما تقاربت مصالح البلدين ، فاستقبل الرئيس روزفلت سفير روسيا لتڤينوف فى سنة ١٩٣٣ ؛ وأرسلت الولايات المتحدة سفيرها مستر ديفيس سنة ١٩٣٧ وإليه يرجع الفضل فى تنوير أذهان الشعب الأمريكى بشأن النهضة البلشفية . وكانت روسيا قد اشتركت فى عصبة الأمم سنة ١٩٣٤ وارتبطت بأواصر المودة مع الدول الديمقراطية عندما قامت أزمة الحبشة ورفع هتلر القناع عن مطامعه . واستمرت العلاقات ودية بين البلدين حتى أتم هتلر لعبته السياسية الكبرى سنة ١٩٣٩ إذ مازال بستالين حتى جعله يعقد مع ألمانيا معاهدة عدم الاعتداء ويهمل مساعى انجلترا وفرنسا فى هذا السبيل . فعاد الشعب الأمريكى يسخط على زعماء روسيا ويتهمهم بكل نقيصة . وزاد من سخطهم هجوم روسيا على دول البلطيق وغزوها دولة فنلندة الصغيرة ، وتأكد لأمريكا أن حصول هتلر على ما يحتاج إليه من زيت البترول من روسيا سيساعد ألمانيا على المضى فى عدوانها ضد الدول الديمقراطية ؛ وعلى ذلك توترت العلاقات بين البلدين ، وظلت كذلك حتى كشف هتلر عن نياته ضد روسيا ، حينئذ استفاق

الروس إلى منظر عجب حقاً ، فقد كانوا موقنين أن الدول الديمقراطية سيرضيها حتما أن ينقلب الوحش الألمانى على روسيا فيفترسها ويزيح عن العالم كابوس البلشفية ، وإذا بهذه الدول تمد يدها إلى روسيا لتتعاون معها على درء الخطر الألمانى الذى بدأه هتلر سنة ١٩٤١ ، وسارع تشرشل وروزفلت إلى إرسال مندوبيهما إلى روسيا للاتفاق معها على خطة العمل ولم تمض إلا شهور قليلة بعد هجوم هتلر على روسيا حتى سطت اليابان على ميناء بيرل ، ودخلت الولايات المتحدة الحرب بعد مضى ستة أشهر على الهجوم الروسى . وقد أفادت روسيا من قانون الإعارة والتأجير الذى أصدرته الولايات المتحدة أيما فائدة ، فكانت ترد إليها المؤن والطيارات والمدافع والدبابات سالكة أحياناً طريق إيران وخليج العجم ، وأحياناً عابرة المحيط المتجمد الشمالى . وسرعان ما ظهرت معجزة روسيا الحربية ، فبينما كان النقاد وثقات الحربيين يتوقعون هزيمة روسيا فى مدى لا يزيد على ستة أشهر ، إذا بروسيا تقف وقفتها الشهيرة عند أبواب موسكو فى ستالينجراد أمام أكبر وأضخم قوة حربية تحركت على سطح الأرض منذ الخليقة ، فتصدها صداً باسلا عنيفاً . ثم ما لبث الدفاع أن تحول إلى هجوم كاسح انتهى إلى النصر بفضل الصلابة التى اكتسبها الجند من الرجل «الصلب» الذى يقودهم ، وبفضل المعونة التى تلقتها روسيا من الحلفاء وخاصة أمريكا ، وأخيراً بفضل الإنتاج الحربى المتزايد المتصل الذى كان ينبعث من المصانع الروسية المستورة فى بطون الكهوف والوهاد وراء جبال الأورال التى اعتصم بها الروس عند ما توغل الأعداء فى داخل بلادهم .

ولما لاحت بشائر النصر عقب ارتداد الألمان عن ستالينجراد فى الشمال وتراجعهم فى شمال إفريقية بعد موقعة العلمين ، بدأ الحلفاء يفكرون فى تبادل الآراء بشأن مشاكل السلم وتنسيق الخطط الحربية الختامية فى مؤتمرات دورية عقدوها أولاً فى موسكو فى أكتوبر سنة ١٩٤٣ ثم فى القاهرة حيث اتفقوا على صورة قهر اليابان وحرمانها فى النهاية من كل الأراضى التى ضمتها إليها منذ الحرب العالمية الأولى ، وفى مقدمتها منشوريا وجزر المحيط الهادى . ولما اجتمع مؤتمر الحلفاء فى طهران فى نوفمبر سنة ١٩٤٣ عقب مؤتمر القاهرة سنحت الفرصة لأول مرة لتقابل العاهلين العظيمين روزفلت وستالين . وفى هذا المؤتمر

أكد الحلفاء تصميمهم على العمل فى الحرب وفى السلم الذى يعقب النصر . وقد تأيد هذا التصميم فى مؤتمر القرم الذى انعقد فى فبراير سنة ١٩٤٥ بحضور العاهلين وتشرشل ووزراء الخارجية ، وفيه قرروا إنشاء هيئة الأمم المتحدة لحفظ السلام وتأمين العالم ضد الحرب .

وأخيراً انتهت الحرب وخرجت منها روسيا وهى عالمة تمام العلم أن النصر قد رفعها فوق دول أوربا جميعاً ، وأن من حقها أن تتقاضى ثمن النصر كما تقاضته منذ أكثر من قرن عقب انكسار نابليون بونابرت سنة ١٨١٤ ، وقد كانت لروسيا يومئذ الزعامة بين الحلفاء الذين قاوموا نابليون وهزموه . ومع أن الحلفاء كانوا قد أعلنوا فى أكثر من مناسبة أنهم لا يرومون من الحرب الأخيرة أن يكسبوا لأنفسهم فوائد إقليمية ، فإن روسيا لم تتردد فى ضم جمهوريات البلطيق السابقة إليها (عدا فنلنده) رافضة حتى أن تتفاوض بشأنها ، كما ضمت جزءاً من بولندة الشرقية ، وتمسكت بيساربيا وبكوفينا من رومانيا وسوغت عملها فى نظر الناس بأن كثرة السكان تنتمى إلى روسيا ، وأيدت ذلك باستفتاء شعبي قام به رجالها . وزيادة على ذلك أرادت روسيا أن تكون لها الزعامة فى شرق أوربا ، وهيأ لها احتلالها المنطقة الشرقية من ألمانيا أن تزعم أن من حقها أن يكون طريقها فى البلقان ودول الدانوب مامون الجانب موصول الأطراف بالاتحاد السوفيتى . وكما عملت الولايات المتحدة قبل الحرب على توطيد مركزها بين جمهوريات أمريكا بإنشاء اتحاد الجامعة الأمريكية ، كذلك تريد روسيا اليوم أن تكون لها الزعامة بين شعوب البلقان السلافية ، وأن تجعل من هذه الأقاليم منطقة نفوذ خاصة بها . وكان من الحتم أن تجر هذه السياسة إلى الاحتكاك بتركيا واليونان ، وإلى معارضة الدول الديمقراطية الكبرى ولها فى مضايق الدردنيل وفى اليونان وجزر بحر إيجة مصالح استراتيجية واقتصادية لا يستهان بها .

أما بينها وبين الولايات المتحدة ذاتها فليست هناك مطامع إقليمية تدعو إلى النزاع ، فروسيا دولة برية ؛ وكل من الولايات المتحدة وبريطانيا دولة بحرية جوية لاناقة لها فى أوربا ولا جمل ، ولكنها سياسة تأمين الحدود التى نادت بها روسيا وحملتها على أن تمد أخطبوطها غرباً وجنوباً وشرقاً ، حتى باتت تهدد الكتلة الاتلنطيقية من جهة والولايات المتحدة والصين من جهة أخرى .

ومن سوء حظ روسيا أنها آمنت بمبدأ التكتل فى الوقت الذى تهيأ فيه العالم

لقبول فكرة الاتحاد العالمى أو الاتحاد الأوربى على الأقل . فبينما أمريكا وبريطانيا تبذلان غاية الجهد فى إقامة هيئة الأمم المتحدة وتوطيد أركانها ، نرى روسيا تعمل جاهدة على تكتيل أوربا بل والعالم كله إلى كتلتين شرقية وغربية .

وعلى هذا الأساس تركزت الآراء والمناقشات فى اللجان والمؤتمرات الدولية مما جعل الأهداف التى ترمى إليها هيئة الأمم المتحدة تتضاءل وتتخاذل أمام الحدة الناشئة من هذا الانقسام أو التكتل ؛ حتى قالوا إن روسيا قد تورطت تورطا فى الموافقة على إنشاء هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ؛ إذ لا يعقل أن تعمل روسيا البلشفية على إعادة بناء العالم وإقرار السلام بين الشعوب وهى التى ينادى رسلها وأبواقها بضرورة الثورة العالمية حتى يزول النظام الرأسمالى عن وجه البسيطة . ويظهر أن زوال ألمانيا من الوجود الدولى قد طمأن روسيا لأول مرة فى تاريخها الحديث من جهة حدودها الشرقية اذ لم يبق ظل من الشك فى أن قواتها البرية فى أوربا تفوق قوات الدول الديمقراطية جميعها . وعلى ذلك لم تعد لها فائدة حربية ترجى من وراء أمريكا ، كما أصبحت أمريكا بعد زوال اليابان من الوجود الدولى فى الشرق الأقصى تخشى تفوق روسيا فى منطقة المحيط الهادى الشمالية ، وقد كانت الولايات المتحدة قبل هذه الحرب فى حاجة قصوى إلى صداقة روسيا لتحد من خطر اليابان .

من هذا نستطيع أن ندرك طائفة من الأسباب التى جعلت الجفاء يحل بين روسيا وحلفائها القدامى محل الوئام الذى ساد بينهم فى أثناء الحرب . وكان هذا الجفاء أول بادرة من بوادر الإخفاق للسلم الجديدة وأخوف ما نخافه الناس أن يكون إخفاق السلام مقدمة الاستعداد للحرب الثالثة .

محمد رفعت

دستور فرنسا الجديد

يكاد يكون تقليداً من تقاليد الحكم فى فرنسا أن يحمل نظام الحكم القائم أوزار الكوارث التى تحل فى الميادين العسكرية وفى الميادين الاجتماعية على السواء . ولعل الحكمة فى ذلك أن الفرنسى يزاوج بسهولة بين العضو والوظيفة فيفرض التضامن بين العهد والقوامين عليه . فلما غلبت فرنسا على أمرها فى ميادين القتال فى أوائل صيف سنة ١٩٤٠ حكم العارفون لفرنسا على الجمهورية الثالثة بالزوال ، وانتظروا أن يلجأ الفرنسيون بعد أن يستعيدوا سلطانهم إلى شكل جديد من أشكال الحكم .

ولم يلبث الفرنسيون منذ استرداد حريتهم أن وجهوا همهم الأول لمعالجة نظامهم السياسى ، ولكن لمعالجته فى هوادة واعتدال . فلم يقبلوه « ملكية » أو « إمبراطورية » بل أبقوه « جمهورية » ، الشعب فيها مصدر السلطات جميعاً ، وتولوا دعم سياجها عن طريق تعديل الدستور تعديلا يقضى على أسباب الضعف الذى عرّض فرنسا لما عرضها له من تخاذل وتدهور .

وعهد بوضع مشروع الدستور الجديد لجمعية تأسيسية انتخبت انتخاباً عاماً ، على أن تعرضه على الشعب فى استفتاء يقرر قبوله أو رفضه . وانتخبت الجمعية التأسيسية ووضعت مشروع الدستور وعرضته على الشعب فى الاستفتاء ، فأسفر الاستفتاء عن رفضه . فأجريت انتخابات جديدة لجمعية تأسيسية جديدة ، وضعت مشروع دستور جديد ، وعرضته على الشعب فى استفتاء جديد جرى يوم الأحد الثالث عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٤٦ فأسفر عن قبوله بكثرة ٤٧٧و٢٠٠و٩ صوت يقابلها ٦٧٦و٧٩٠و٧ صوت رفضه أصحابها ، على حين لم يتقدم للاستفتاء ٨٩٣و٧٧٦و٧ شخص . ويريد بعض المعقبين أن يفسر بلوغ الممتنعين هذا العدد الهائل بموقف المعارضة الذى وقفه الجنرال ديجول من المشروع ، والفرنسيون يعترفون للجنرال

ديجول بجميل موقفه طوال مدة الحرب ، ولا يريدون أن يظهروه خلال الاستفتاء بمظهر المبتعد عن رأيه ، فآثر ثلثهم ألا يساهم فى الاستفتاء حتى لا يعاون قبولهم الدستور الجديد فى إظهاره ذلك المظهر . وكان الجنرال ديجول يوجه معارضته إلى السلطات الضيقة التى يمنحها المشروع الجديد رئيس الجمهورية ، فهو يريدها له واسعة قوية تقر سلطان الحكم . لكن معارضته قد أضعفها ما هو معروف من رغبته فى أن يتولى هو رياسة الجمهورية ، إذ ساعد هذا على ن يمزج الفرنسى العادى بين الرغبة فى الإصلاح والإفادة من تحقيق هذه الرغبه .

أما الدستور الجديد فمؤلف من ديباجة واثنى عشر باباً . أما الديباجة فقد تضمنت المبادئ الأساسية التى تقوم عليها الجماعة الفرنسية الجديدة ، وأما الاثنا عشر باباً فقد تضمنت أحكام مؤسسات الجمهورية من سيادة وبرلمان ومجلس اقتصادى ، ومعاهدات دبلوماسية ، ورئيس جمهورية ، ومجلس وزراء ، ومسئولية جنائية للوزراء ، واتحاد فرنسى ، ومجلس قضاء أعلى ، وجماعات إقليمية ، وتعديل للدستور ، وأحكام انتقالية .

وقد كرست الديباجة حقوق الإنسان المعلنة فى سنة ١٧٨٩ والمقررة فى مختلف قوانين الجمهورية ، كما أثبتت حقوقاً جديدة تقتضيها ظروف الوجود الحديث « لكل كائن بشرى دون تمييز راجع للجنس أو الدين أو العقيدة » : فضمنت للمرأة مساواتها بالرجل فى جميع الميادين ، وأنه يمنح حق الالتجاء إلى أراضى الجمهورية كل مضطهد بسبب عمله فى سبيل الحرية ، ويفرض على كل شخص واجب العمل مع منحه حق الحصول عليه ، كما تصان حقوقه ومصالحه النقابية وبينها حرية اختيار نقابته ، ويقرر استعمال « حق الإضراب » فى حدود القانون المنظم له ، واشتراك كل عامل بواسطة مندوبيه فى تحديد شرائط العمل وفى إدارة المنشآت ، ويقرر انتقال كل منشأة لها صفة الخدمة العامة القومية أولها صفة الاحتكار إلى ملك من الأملاك العامة .

وكذلك نصت الديباجة على تحقيق وسائل التقدم للفرد وللأسرة : فتضمن الأمة للأفراد جميعاً ، ولاسيما الأطفال والأمهات والعمال المسنين ، الصحة والأمان المادى والراحة والفراغ ، كما تضمن المعرفة والثقافة والتكوين

المهنى للصغار والكبار بحيث يعتبر تنظيم التعليم العام مجاناً ومدنيا فى جميع درجاته واجباً من واجبات الدولة .

واعلن فى الديباجة تعهد الجمهورية الفرنسية ألا تلجأ إلى حرب هجومية، وأن تتضامن مع الهيئات الدولية فى بذل جهودها فى سبيل حفظ السلم والأمن فى ربوع العالم ، كما أنها تقيم اتحاداً بين الأمم والشعوب التى تتألف منها ، وتدفع بهذه الأمم والشعوب جميعاً إلى حكم نفسها بنفسها فى حرية وأنظمة ديموقراطية .

ويتميز الدستور الفرنسى الجديد بأن نص فى مادته الأولى على صفات الجمهورية فقال إنها : «مدنية ديموقراطية اجتماعية» إلى جانب كونها «لاتجزأ» ، فكرس جهود الجمهوريين الأحرار فى سبيل فصل الكنيسة عن الدولة وما أصدروه من قوانين جبارة ، وجارى التيار الحديث بخص الناحية الاجتماعية بالذكر ضمن عناصر الدولة الأساسية . واحتفظ فى مادته الثانية بما أصبح ملازما لاسم « فرنسا » ملازمة طبيعية وهو نشيد « المارسييز » نشيداً قوميا ، وعبارات « الحرية والإخاء والمساواة » رمزاً للجمهورية ، و « حكومة الشعب للشعب وبالشعب » و « السيادة القومية ملك للشعب الفرنسى » أصلا أساسيًّا للحكم .

أما البرلمان فقد أقر الدستور الجديد تأليفه من مجلسين — على خلاف ما كان قد استساغه المشروع السابق الذى رفضه الاستفتاء الأول من قصره على مجلس واحد — لكنه حد من سلطان المجلس الأعلى على خلاف ما كان لمجلس الشيوخ القديم . وقد غير الدستور الجديد تسمية مجلسى البرلمان ، فدعا أولهما « الجمعية الوطنية » بدل مجلس النواب ، ودعا ثانيهما « مجلس الجمهورية » بدل مجلس الشيوخ . وتقوم « الجمعية الوطنية » على مبدأ الانتخاب العام المباشر ، وينبعث مجلس الجمهورية عن انتخاب عام غير مباشر عن طريق وحدات النواحى والمقاطعات . ويتناسب عدد أعضاء الجمعية الوطنية مع عدد السكان ، لكن عدد أعضاء مجلس الجمهورية لا يجوز أن يقل عن مائتين وخمسين ولا أن يزيد على ثلثمائة وعشرين ، وعلى أنه يجوز للجمعية الوطنية أن تنتخب هى أعضاء تبعث بهم إلى مجلس الجمهورية بشرط ألا يزيد عددهم على سدس عدد أعضائها المنتخبين بالانتخاب العام .

ومن المبادئ الطريفة التى جاء بها الدستور الفرنسى الجديد تحديد الوقت الذى تقف فيه أعمال البرلمان ، فجعل مجموعه غير متجاوز الأربعة الأشهر بما فيها تأجيلات الجلسات إلى مدة أطول من عشرة أيام . ومنها أنه فى فترة عدم انعقاد الجمعية الوطنية لعطلة أو ما شابهها تنتقل رقابة أعمال الوزارة إلى مكتب الجمعية الوطنية الذى يكون له حق دعوة البرلمان إلى الاجتماع بناء على طلب ثلث أعضاء الجمعية أو بناء على طلب رئيس مجلس الوزراء .

ولرئيس مجلس الوزراء وأعضاء البرلمان جميعاً حق المبادأة باقتراح القوانين . وتودع اقتراحات أعضاء الجمعية الوطنية مكتب هذه الجمعية ، كما تودع اقتراحات أعضاء مجلس الجمهورية مكتب هذا المجلس . وترسل اقتراحات أعضاء الجمعية الوطنية إلى لجانها المختصة لنظرها قبل المناقشة فيها . لكن اقتراحات أعضاء مجلس الجمهورية ، يجب أن تبلغ لمكتب الجمعية الوطنية قبل أن ترسل إلى أية لجنة من لجانه وقبل أن تجرى عليها أية مناقشة فيه ، بل يكون درسها فى الجمعية الوطنية قبل كل شىء . ولا يقبل مكتب الجمعية ما يكون منطويا منها على تخفيض للإيرادات أو زيادة فى النفقات .

أما دور مجلس الجمهورية فى العمل التشريعى فمحصور فى « إبداء رأيه » فى المشروعات التى انتهت الجمعية الوطنية من تلاوتها التلاوة الاولى ، ويجب أن يبدى رأيه فى بحر الشهرين المنقضيين من تاريخ إحالة الجمعية الوطنية مشروعها إليه على الأكثر ، إلا إذا قررت الجمعية نظر المشروع على وجه الاستعجال ، وإلا فى حالة قانون ربط الميزانية الذى يجب إبداء الرأى فيه بحيث لا تعوق مدته الجمعية الوطنية عن سرعة النظر فيه .

فإذا جاء الرأى الذى أبداه مجلس الجمهورية موافقاً للرأى الذى بدا خلال التلاوة الأولى فى الجمعية الوطنية أو إذا لم يجىء الرد فى حدود المدة المقررة فإن القانون يصدر حسب النص الذى انتهت إليه الجمعية . أما إذا جاء الرأى مخالفا لهذا النص فإن تعديلات مجلس الجمهورية هى التى تنظرها الجمعية الوطنية فى تلاوتها الثانية وتقرر بشأنها ما تشاء ، ويصدر القانون بما تقرره بكثرة الأصوات

وقد خص الدستور الفرنسى الجديد « المجلس الاقتصادى » بالذكر بين أحكامه . وهو مجلس سينظم قانون خاص طريقة تأليفه ، ولكنه مختص بحكم

الدستور بالنظر — لإبداء الرأى — فى المسائل التى تحيلها إليه الجمعية الوطنية قبل الانتهاء من التصويت عليها ، وكذلك فى المسائل التى يطلب إليه مجلس الوزراء بحثها . على أنه يجب أن يؤخذ رأيه فى المشروعات الاقتصادية القومية التى يكون موضوعها استخدام الأفراد فى عموم أو استخدام مصادر الثروة المادية .

وقد وقف الدستور الفرنسى الجديد عند حدود النظام البرلمانى ولم يتجاوزه إلى النظام التمثيلى كما هو الحال فى الولايات المتحدة ، فأبقى انتخاب رئيس الجمهورية من اختصاص البرلمان لا عن طريق انتخابات عامة .

وكذلك أبقى مدة انتخابه محددة بالسبع السنوات القديمة ، وحرم عدم إعادة انتخابه إلا لمرة واحدة ثانية . كما أبقى تقليد رياسته لاجتماعات مجلس الوزراء ومجلس الدفاع الأعلى ومجلس القضاء الأعلى . وأوجب وقف رئيس الجمهورية على تطورات المفاوضات الدولية ، ولقبه برئيس الجيوش ، وخصه بالتوقيع والمصادقة على المعاهدات ، وحق العفو يصدر فى نطاق مجلس القضاء ، وحق إصدار القوانين فى حدوده المقررة بالدستور ، وحق تعيين القواد وأصحاب المناصب الكبيرة فى نطاق مجلس الوزراء .

أما مجلس الوزراء فقد أبقى الدستور الجديد اختيار رئيسه من اختصاص رئيس الجمهورية « بعد إجراء الاستشارات » . لكنه جاء بجديد فى صدد تعيين ذلك الرئيس وزملائه الوزراء . فرئيس الجمهورية بعد إجراء الاستشارات يختار رئيس مجلس الوزراء . ورئيس مجلس الوزراء يختار كذلك زملاءه الوزراء ، ويضع « برنامج وسياسة المجلس الذى يعتزم تأليفه » ، ثم يتقدم ببيان هذا البرنامج وهذه السياسة للجمعية الوطنية ، فتناقشها الجمعية . فإذا أقرتهما كثرتها المطلقة صدر أمر رئيس الجمهورية بتعيين رئيس مجلس الوزراء والوزراء .

وقرر الدستور الجديد المسئولية الوزارية أمام الجمعية الوطنية وحدها دون تقريرها أمام مجلس الجمهورية على خلاف ما كان مقرراً فى الدستور القديم من مسئولية أمام مجلس النواب وأمام مجلس الشيوخ ، وإن كان العمل قد جرى على المسئولية أمام النواب وحدهم أو غالبا . وكذلك نظم الدستور الجديد أمر عرض الثقة على الجمعية الوطنية ، بأن جعله معلقا على مناقشته فى مجلس الوزراء وتقريره ،

وبأن جعل رئيس مجلس الوزراء وحده هو صاحب حق العرض على الجمعية الوطنية بعد تلك المناقشة وذلك القرار . وعلى أن يكون تصويت الجمعية الوطنية على أمر الثقة غير جائز إلا بعد مضي يوم كامل على عرضه ، وأن يكون بإبداء الرأي علنا . ولا ترفض الثقة بالوزارة إلا بالكثرة المطلقة لأعضاء الجمعية الوطنية جميعاً لا لكثرة الحاضرين منهم وحدهم . وكذلك الحال من حيث المدة الفاصلة ومن حيث الكثرة المطلقة بالنسبة لاقتراح بعدم الثقة يتقدم به عضو من أعضاء الجمعية الوطنية .

وإذا وقعت أزمتان وزاريتان فى بحر ثمانية عشر شهراً متوالية فإن لمجلس الوزارة أن يقرر حل الجمعية الوطنية بعد أخذ رأى رئيس هذه الجمعية .

وفى هذه الأحكام الجديدة التى جاء بها الدستور الجديد دعم لسلطان الحكم واستقراره ، وقضاء على تلك السرعة الهائلة التى كانت تتداول بها الوزارات الحكم فى فرنسا حتى أصبحت مضرب الأمثال .

ولعل جديداً آخر أتى به الدستور الفرنسى يجدر تسجيله ولفت الأنظار إليه ، وهو النظام الذى ابتكره للعلاقة بين فرنسا « الأم » والأقاليم التابعة لها فيما وراء البحار . وهو النظام الذى يخلق ما سمى « الاتحاد الفرنسى » مؤلفا من « الجمهورية الفرنسية » التى تشمل فرنسا الإقليمية والمقاطعات والأقاليم فيما وراء البحار من ناحية ، وأقاليم « الدول المشتركة » من ناحية ثانية .

وتقضى المادة الثانية والستون من الدستور الجديد بأن « أعضاء الاتحاد الفرنسى » يشاركون بكامل وسائلهم لضمان الدفاع عن مجموع الاتحاد . وتقوم حكومة الجمهورية بتنسيق هذه الوسائل وإدارة السياسة الخاصة بإعداد وتحقيق ذلك الدفاع .

ورئيس الجمهورية الفرنسية هو رئيس الاتحاد الفرنسى الذى يمثل مصالحه الدائمة . وللاتحاد مجلس عال يرأسه رئيس الاتحاد ، ويؤلف من مندوبين عن الحكومة الفرنسية ومندوبين عن كل دولة من « الدول المشتركة » ، ويختص بمعاونة الحكومة فى الإدارة العامة لشؤون الاتحاد .

وللاتحاد إلى جانب رئيسه وإلى جانب مجلسه جمعية مؤلف نصفها من أعضاء ممثلين لفرنسا الأصيلة ، ونصفها الثانى من أعضاء ممثلين للمقاطعات والأقاليم

فيما وراء البحار والدول المشتركة . على أن يجيء ممثلو فرنسا الأصيلة عن طريق انتخاب ثلثيهم بواسطة الجمعية الوطنية وثلثهم الباقي بواسطة مجلس الجمهورية ، وأن يجيء ممثلو المقاطعات والأقاليم فيما وراء البحار عن طريق انتخاب جمعياتهم النيابية الإقليمية . أما ممثلو الدول المشتركة فيحدد قانون خاص تصدره كل دولة منها شرائط اختيارهم وحدود اختصاصاتهم . ويدعو رئيس الجمهورية إلى اجتماع تلك الجمعية ، ويفض دور انعقادها ، ولا يصح اجتماعها أثناء فترات العطلة البرلمانية الفرنسية .

وتختص جمعية الاتحاد الفرنسي بالنظر في المشروعات والمقترحات التي تعرض عليها لإبداء الرأي عن طريق الجمعية الوطنية أو حكومة الجمهورية الفرنسية أو حكومات الدول المشتركة . ولها أن تنظر فيما يعرضه عليها عضو من أعضائها ، على أن يبلغ مكتبها قراراتها في هذا الشأن إلى الجمعية الوطنية كما أن لها أن تقدم مقترحات من قبلها للحكومة الفرنسية وللمجلس الأعلى للاتحاد الفرنسي ، على أن يكون ذلك كله متصلا بتشريع من التشريعات الخاصة بأقاليم ما وراء البحار ، وهي في الأصل ملك لأنظمتها المحلية فيما عدا القوانين الجنائية والحريات العامة والتنظيم السياسي والإداري ، وهذا من اختصاص البرلمان الفرنسي وحده .

وعلى رأس كل إقليم أو مجموعة أقاليم فيما وراء البحار ممثل للجمهورية الفرنسية هو رأس الإدارة فيها ومسئول عن أعماله لدى حكومة الجمهورية . على أن إدارة المصالح العامة فيها موكول بها إلى هيئة نيابية منتخبة . ولجميع التابعين لتلك الأقاليم صفة المواطنين التي يتمتع بها الفرنسيون الأصيلون في فرنسا وفي أقاليم ما وراء البحار ، على أن قوانين خاصة ستحدد شرائط استعمالهم حقوق المواطن ، وهم على كل حال متساوون في التمتع بالحقوق والحريات التي تكفلها ديباجة الدستور الجديد ، وإن كان لمن لم يكن قانون أحواله الشخصية هو القانون الفرنسي أن يحتفظ باتباع قانونه الخاص دون أن ينقص هذا الاحتفاظ حقا أو حرية متصلا بصفة المواطن الفرنسي .

وفي هذه الأحكام الجديدة محاولة للربط بين أجزاء فرنسا والبلاد الخاضعة لنفوذها بنوع من الرباط غير ذلك الذي يرجع إلى اعتبار الاستعمار

التقليـدى ، ولا سيما ما كان متعلقاً فى ذلك كله بقيود الأحوال الشخصية والتمييز بين « المواطن » و « الرعيـة » ، وخص الأنظمة النيابية بأقاليم دون أخرى ، وعدم سريان مبادئ الحريات العامة عليها جميعاً .

ذلك تقديم للدستور الفرنسى الجديد فى مبادئه العامة وطرائقه الجديدة . وسيكون من أثر إقرار الأمة الفرنسية إياه فى استفتائها يوم الأحد الثالث عشر من أكتوبر أن تجرى انتخابات عامة جديدة فى اليوم العاشر من شهر نوفمبر المقبل ، وأن يجتمع البرلمان فى اليوم الثامن والعشرين منه ؛ إذ يبدأ عهد الجمهورية الرابعة فيتطلع العـالم كله إليهـا وإلى تعاليمها كما اعتـاد أن يتطلع دائما إلى فرنسا وتعاليمها .

محمود عزمى

كيف طارت منى أكسفورد

تركت دارى منقبض النفس تملكنى حيرة . . . علىّ أن أدبّج الساعة مقالاً أشغل به المكان المخصص لى فى الصحيفة الأسبوعية التى أعمل بها ، وكنت أحس كأن رأسى قد أجدب ، وأن جعبتى قد خوت . . . وسرت فى الطريق قاصداً مقر الصحيفة ، وأنا أتمثل رئيس التحرير ومساعديه ، كأنهم زبانية ينتظرون مقدمى ليلقوا بى فى قاع جهنم . . . ومررت عفواً بـ « بار الفؤاد » ملتقى الطبقة الراقية من سراة أمس الدابر ، والطبقة غير الراقية من أثرياء الحرب المحدثين . . . فتلكأت أتطلع إلى الوجوه فإذا بى أتبين بينها وجه صديقى عاطف بك فألفيت قدمىّ تقودانني إليه ، فلما رآنى هش لى وبش ، ودعانى إلى مجلسه ، فقلت وأنا أهزّ يده محييا :

سأمكث معك لحظات قليلةً أستمتع فيها بك ، فإنى مرتبط بموعد لا بد لى من المضى إليه .

فقرّب منى مقعداً ، وقال :

— اجلس نثرثر وقتاً ، ونعرف ما عندك من جديد الأخبار .

وسرعان ما طلب إلى غلام الحانة أن يحضر لى كأساً من الويسكى . . . وبعد هنيهة وجدت عاطف بك يقدم لى شخصاً عن كثب منه قائلا :

— سعادة عبد المولى بك السيوطى .

فانتبهت ، فألفيت شخصاً ضخم الجثة ، سمين الرقبة كأنها جذع شجرة ، يتناثر شاربه على جوانب فمه غزيراً مهوشاً كأنه الحسك الشائك . فأما وجهه فكان مفرطحاً قانئ الحمرة يتمثل فى ملامحه الشوهاء أحدَ تلك الوجوه المفزّعة التى تتخذ فى محافل التنكر .

وسمعت صديقى يقدمنى إليه قائلا :

— أخونا الأستاذ غندور ، صحفى كبير . . .

فما كاد يبلغ سمع جليسنا السيوطى كلمة «صحفى» حتى تقلقلت أركانه فى مجلسه، ورمق صديقى بنظرة نكراء، وصاح مُغضباً متحشرج الصوت :

— ألم أحرّم عليك أن تعرّفنى بهذا الصنّف من مخلوقات الله ؟

فتضاحك الصديق ملء شدقيه، وقال :

— أخونا غندور صحفى حقًّا، ولكنه ليس طويل اللسان !

فصحت على الأثر :

— كيف واللسان بضاعتى ورأس مالى ؟

وأقبلت على السيوطى الثائر أقول :

— إنى أضع خبرتى رهن مشيئتك !

فاسلم السيوطى أنحاء جسمه على مقعده وانفرجت أساريره شيئاً، وقال فى غمغمة :

— يغنينا الله عن خدماتك .

وقدمَ غلام الحانة بالويسكى، فجرعت من الكأس جرعة وافية وأنا أقول للسيوطى :

— على أية حال لا أتأخر عن خدمتك عند الحاجة ... واطمئن الآن، فلن تضيقَ بمجلسى طويلا ... لقد أزف موعدى .

وتناولت الكأس فجرعت منه أيضاً، وأحسست نزعة إلى معاتبة وجيه أسيوط، باتخاذ تلك اللجاجة الأصلية فى نفوسنا نحن رعايا صاحبة الجلالة الصحافة، فواجهته بابتسامة مصنوعة، وقلت :

— سعادة البك يكره الصحفيين .

فتجشأ بقوله :

— أكرههم كراهة الموت !

— أليس ثمة من سبب ؟

— بسبب أو بلاسبب ... إنى أكرههم لله فى الله ... أنا حرٌّ فيما احب وما أكره !

— إنى صحفى ويحق لى أن أعرفَ سببَ كرهك لزملائى فى المهنة ... ربما استطعت تحويلك عن رأيك .

— هيهات !

وملأ من قنينة البراندى أمامه كأساً ، فقذف فى فمه بما فيها دفعة واحدة ، وراح يمسح شاربه المنتفش ، ويبذل جهد الطاقة فى إخضاع شعبه الشائكة . ثم ملأ كأساً أخرى قذف بما فيها كما فعل بالكأس الأولى ، فازداد احتقان ذلك الوجه الشائه ، واتقدت جذوتا عينيه . ورأيت صديقى عاطف بك يضرب كتِفَ السيوطى مداعباً وهو يقول فى إلحاح :

— ناشدتك الله إلا أخبرتنا لِمَ تكره رجال الصحافة ؟

فتراخى وجيه أسيوط على كرسيه ، فأحسست كأن ضخامته تفيض متدفقة على جوانب المقعد ، وقال فى غير مبالاة :

— إنها لحادثة قديمة وقعتْ منذ خمسة وعشرين عاماً ، فى أعقاب الحرب العالمية السابقة . . .

فقلت له وأنا أنظر إلى الكأس متشاغلا بما فى قرارتها :

— لقد مضتْ حِقبة طويلة تغير فيها كل شئ يا سعادة البك حتى الصحفيون . . . إن طراز سنة ١٩٢٠ قد حل محله الآن طراز أرقى وأحسن . . . أهم مايمتاز به طراز سنة ١٩٤٦ هو السرعة والأمانة ، وحفظ العهد ، وصيانة الأسرار .

وانتفش شاربُ السيوطى ، فأخذ يقرض أطرافه بأسنانه الصفراء النخرة . وقال :

— أتقول حقًّا ؟ إن صديقى الصحفى الذى وقعتْ لى معه تلك الواقعة لم يكن حائزاً لأية صفة من هذه الصفات التى تذكرها الآن . . . لا حيَّا الله ذكراه !

فقال له صديقى عاطف بك :

— بالله عليك أخبرنا ، ماذا كان موقف هذا الصحفى منك ؟ . . .

والتفت إلىّ قائلا :

— إن عبد المولى بك محدث خلاب الحديث ساحر الدُّعابة سلس الكلام ، قلّ ان يكون له فى هذا الباب نظير . . .

فتضاحك وجيه أسيوط تضاحكا اهتز له كرشُه وتَرَجْرج . ثم ملأ من قنِّينَةِ البراندى كأسه ، وصبها فى فمه ، ثم تمكّن فى مجلسه ، وقال فى تعالٍ وهو يمطّ ألفاظه مطّا :

— إليكما قصتى . . . وإنى أدع لك أيها الصحفى أن تحكم على زميلك بما يمليه عليك ضميرك . . .

كنت وقتئذ طالباً فى مدرسة المروءة الثانوية بالقاهرة أعيش فى مثوى « پنسيون » عيشاً هادئاً لا غبار عليه . وكان والدى يعيش فى أسيوط يدير أعماله وأملاكه . وقد وعدنى إذا نلت الشهادة الثانوية وحسن سلوكى أن يرسلنى إلى أكسفورد لإتمام دراستى هنالك ، فحرصت على أن أنال رضاه لأحقق حلمى الكبير فى الارتحال إلى انجلترا والاستمتاع بما فيها من مجالى الحياة الرفيعة والعيش البهيج ، فأقبلت على دروسى وسلكت مسلك الاستقامة ، ولكنى بليت بصداقة شخص صحفى من أمثالك ، غرنى ما أبداه لى من مودة وصفاء ، فتمكنت بيننا الألفة ، وتلازمنا نقضى معاً بعض السهرات . ولما كان الراتب الذى يبعث إلىّ به أبى كل شهر محدوداً كما هو الشأن مع الطلاب ، فقد توافقنا أنا وهذا الشخص الصحفى على أن نتناوب الإنفاق فى ليالى السهر . . . ولبثنا على تلك الحال قريرى العين ناعمى البال ، حتى حدث أصيل يوم أن كنت أقطع شارع توفيق فإذا بى أرى صديقى الصحفى يواجهنى ، وبعد أن تطارحنا التحيات قال لى :

— إلى أين ؟

— إلى مثواى : البنسيون . . .

— هكذا مبكراً ؟

— بى صداع . . . أرغب فى الراحة .

— وأنا أيضاً بى مثل ما بك . . . تعال نشرب كأساً تشفينا من الصداع . لن أؤخرك عن الاستمتاع براحتك . . . إنهم ينتظروننى فى الصحيفة لأكتب لهم مقالى . . .

وطرقنا أول حانة مررنا بها فى الطريق ، وكانت الحانات قد تكاثرت فى ذلك الزمن كما تكاثرت فى هذه السنوات . . . وانتحينا جانباً ، وكان بالحانة بعض نفر من رجال الجيش الأجانب لم يعيرونا أى اهتمام . . . وشربنا كأساً بعد كأس ، ونحن نتجاذب أطراف الأحاديث . ولما حان وقت دفع الحساب ألفيت صديقى يتلكأ ويتغاضى ، فقلت له :

— ألم يحن وقت الانصراف ؟

— كما تحب . . .

— ولكن . . . الحساب ؟

— الحساب ؟ . . . عليك أن تدفع هذه المرة !

فصحت به وأنا واثق مما أقول :

— بل عليك أنت . . .

— أؤكد لك . . . أن . . .

— إنك تغالط . . .

— بل أنت المغالط . . .

ونهضنا ، كلانا يرمق صاحبه كما تترامى الديكة بنظراتها ، وهى على اهبة العراك !

ومكثنا كذلك لحظة ، ثم صاح صديقى :

— نحن مختلفان . . . فليكن الحكم للقرعة !

وكنا نلجأ إلى هذا الأسلوب كلما نشب بيننا الخلاف على مثل تلك الحال . فأجرينا القرعة ، فكانت الواقعة على الصديق ، فأخذ يهرش رأسه وقال متلعثما :

— أرجو أن تدفع هذه المرة عنى . . . وسيكون دينا علىّ . . .

فحدقت فيه محنقاً أدمدم ، فبادرنى بقوله :

— حقيقة الأمر أنه ليس معى نقود . . . إنى راجع من سباق الخيل حيث سلبنى الحصان « كحيان » كل ما ملكت يداى . . . أقسم لك على ذلك !

فجحظت عيناى ، وقلت صائحاً :

— وأنا أيضاً ليس معى نقود . . . أقسم لك على ذلك !

— كيف ؟ أخسرت مثلى نقودك فى حلبة السباق !

فخفضت من بصرى ، وهرشت رأسى هامساً :

— بل فى حلبة سباق آخر . . . فى منزل صاحبتك الست نعمات !

فانفجر صديقى يقهقه وهو يقول :

— لم تخسر شيئاً وحق السماء ، وإنما ربحت كل شىء !

— لا يحتمل الموقف أى مزاح . . . ألسنا فى ورطة ؟ ما العمل ؟

فقال عابثاً بكلماته :

— أية ورطة ؟ لا شىء !

— إن الأمر جد . . .

— المسألة هينة يا صديقى . . . إنها لا تخرج عن شيئين : إما أن نأكل « علقة » من صاحب الحانة وبطانته ، وإما أن نقضى ليلة على الأسفلت فى قسم البوليس . . . وإذا أسعدنا الحظ نعمنا بالأمرين معاً !

وأخذت تتوارد فى خاطرى مشاهد مختلفة : هراوة صاحب الحانة ، رجال الشرطة ، الأسفلت ، وجه والدى العبوس يزفر ويصيح بجملته المعهودة :

— لن تفلح أبداً . . . أحلق شاربى إذا أفلحت !

فصحت مضطرباً واجفاً :

— كلا . . . كلا . . .

وضرب صديقى المنضدة بيده ، ورفع هامته يقول :

— وجدت لمشكلتك حلا . . .

— علىّ به . . . أدركنى . . .

فحدق فى وجهى وقال :

— أن نعاود الشراب فى إسراف !

فرفعت يدى كأنى أهم بلكمه ، فأنزل يدى فى هدوء ، وقال :

— لا تيئس . . . فرج الله قريب !

وسمعته ينادى غلام الحانة طالباً كأساً بعده كأس ، ولما ألفانى صامتاً لا أمد إلى كأسى يداً وكزنى فى جنبى ، وقال :

— إن سلوكك هذا لن يغير من الموقف شيئاً . . . العلقة تنتظرنا . . . والأسفلت مُمَهَّد لاستقبالنا . . . فلماذا تحرم نفسك الاستمتاع بهذه الفرصة الذهبية ؟

فسرت القشعريرة فى جسدى ، وتراءى لى شارب والدى يتراقص غضباً على شفتيه الغليظتين . ودفع صديقى بالكأس فى يدى وهو يقول :

— إشرب . . . اشرب . . . لك الساعة التى أنت فيها . . . !

فصببت الكأس فى فمى دفعة واحدة ، وانطلقنا نشرب دون وعى ، وإذ بنا نتداول احاديث لا نلوى على شئ ، فأسمعنى صديقى الكثير من النوادر والحكايات والنكات ، ورويت له أنا أشتاتاً من حوادث وقعت لى أو لبعض أهلى ما ظهر منها وما بطن . . . وتعالت ضحكاتنا ونحن لا نرعى للوقت حساباً .

وبدأ غلام الحانة يحوم حولنـا ، وهو يقلب فينا نظر المستريب ، فكنا نزجِّيه عنا كل مرة بمطلب جديد . . . ولمحنا نحن بعض جيراننـا من رواد الحانة يتمايلون على المقاعد لا يعون . فهمس صديقي في أذني :

— لو كنت ممن منحهم الله خفـة اليد وجرأة النفس لنشلت محفظة ذلك الضابط تنتشلنا من هـذه الورطة التي نعانيها . . . إن اللص لجدير بالتمجيد في مثل هذا الموقف ! . . . إنه بطل !

واندفع يتحدث في فلسفة السرقة ، وما يمتاز به اللص من جسـارة جديرة بالإكبار . . . فضربت كتفه بيدي ، وقلت :

— لا تلق للأمر بالا . . . فرج الله قريب !

واستأنفنا الضحك والقهقهة وتبادل النكات والنوادر وأخلاط الأحاديث . واسترعت انتباه صديقي حكاية كنت أرويها له ، فجعل يستزيدني ويستوضحني في شأنها ، فلم أبخل عليه بشيء من خفاياها ، ورأيته ينهض وهو يقول لي :

تأذن لي أن أخلوَ بنفسي ربع ساعة إلى تلك المنضدة القريبة ؟

— ولِمَ ؟

— أرغب في كتابة مقال الأسبوع هذه اللحظة !

— ما هذا الخلط ؟ أهذا وقته ؟

— لقد هبط عليَّ الوحي ، ولا سبيل إلى العصيان !

فاندفعت أسفِّـه وحيه متهكماً ، وقام صديقي وهو يقول :

— إذا استطعت أن أذهب بالمقالة الآن إلى إدارة الصحيفة تمحوني ثمنها فوراً . . . وفي ذلك انفراج الأزمة !

وانتقل صديقي إلى المنضدة القريبة ، وشرع يجري قلمه ، وكنت أرقبه مهتما وغلام الحانة يكثر من تحويمه حولنا ومحاصرته إيانا بالنظر الشزر . . .

وبعد فترة رجع صديقي إلي ، وقال :

— أحسب أني دبجت قطعة طريفة أثاب عليها . . . ولـكن عليك أن تساهم في عملي . . .

— أنا ؟

— أنت ! . . . ليس عليك إلا أن توقع في ذيل هذا المقال بالجملة الآتية :

« أدليت بهذه المعلومات بمحض اختياري ولا مانع عندي من نشرها » .

— فقط ؟

— فقط !

وتناولت ثمالة الكأس ، ثم أسرعت إلى القلم فأجريته بتلك الجملة التى أملاها علىّ وأنا أبعث بالضحكات تتوالى ، دون أن أقرأ من المقالة أى حرف . . .

واندفع صديقى صوب الباب مهرولا ، فأمسكت بطرف سترته ، وقد لمحت فى رأسى فكرة راعتنى . فقلت له :

— أما إذا كانت هـذه حيلة للهرب تتركنى بها أنام على الأسفلت وحيداً .

فقاطعنى وقد رفع هامته فى عزة وأنفة بقوله :

— أقسم بشرفى لأعودن إليك بالنقود ، أو لأشاركنك فى مرقدك الوثير على الأسفلت !

ومرق كالسهم ، وعدت إلى مجلسى وقد اشـتدت رقابة الغلام لى ، فأخذ يسارُّ صاحب الحانة ، وشُغلا معاً بأمرى ، وضربا علىّ نطاقاً من حصارٍ منيع ... وأخذ رواد الحانة ينصرفون حتى خلا منهم المكان . . . وبدأ الوقت يتثاقل فى سيره وأنا أتكلف ضبط النفس وأتظاهر بعدم المبالاة . . . يا لها من لحظات رازحة فادحة أطارت ما فى رأسى من نشوة الخمر . . . وتكاثر الرقباء من أتباع الحانة يحيطون بى من كل ناحية ، واستحكم الحصار من كل جانب . . . وأخذ جبينى يتفصد عرقاً بارداً ، وبدأت الحلقة تتدانى إلىّ وتضيق ، وشهدت صاحب الحانة يتقدم فى جرمه الهائل بخطاه الغليظة وفى يمناه هراوة يقرع بها الأرض . وسمعته يتحدث إلى أعوانه عالى الصوت كأنه يُسمعنى قوله :

— إن موعد إغلاق الحانة قد حل !

وتراءى لى الأسـفلت يلتمع فى غمرة الظلام ، وقد تصاعدت من رطوبته الشديدة سحب كثيفة تكاد تحجب ما حولى من المشـاهد . . . ولا أدرى ماذا مضى علىّ من الوقت وأنا فى جلستى هـذه ، وبغتة لمحت وجه صديقى يتخايل وسط هذه السحب الكثيفة وهو يلهث من الجهد والإعياء . . .

وتبددت السحب ، فإذا بى أجد صديقى جالساً على مقعده منتفخاً فى جلسته يصفق بيديه يطلب شراباً رفيعاً . . . وانطلق يتحدث فى لهجة طبيعية أحاديث تافهة . وجرع كل منا كأسه ، وصاحب الحانة وأتباعه ينظرون إلينا ذاهلين مشدوهين . . .

وأخرج صديقى محفظته فى كبرياء ، وصاح بالغلام صيحة خشنة :

— أين الحساب ؟ أسرع ، فليس لدينا وقت نضيعه فى الانتظار .

فهرول إليه الغلام برقعة الحساب ، فرمى له صديقى ببضع ورقات من فئة الجنيه . . . ولما رد إليه البقية قذف له بمنحة سخية ، ولم يحرم سائر الخدم من منح مناسبة . . . ونهض فتبعته على الأثر ، ومضى متثاقل المشية ، وأتباع الحانة يوسعون له الطريق ويومئون له بالتحية البالغة . وقد كنت أنا أثناء ذلك كله واجماً تعرونى الحيرة .

وما كدنا نبلغ الشارع ، حتى وقف صديقى قبالتى ، وقال :

— لقد بقى من المبلغ الذى قبضته الساعة عشرة قروش . . . لك خمسة منها . . . ها كها . . .

فتراميت عليه أعانقه ، وأهتف بشكره . . .

ومر أسبوع لم ألق فيه الصديق ، وكدت أنسى ما كان ليلة الحانة . وعدت إلى المنزل ذات ليلة ، فإذا بى أجد برقية من والدى تنتظرنى ، وإذا هو يطلب إلىّ فيها أن أوافيه من فورى فى أسيوط ، فتكاثرت هواجسى واشتد قلقى ، ولعبت بى الظنون كل ملعب ، أنزلت بنا كارثة ؟ أفقدنا عزيزاً من الأسرة ؟

وفى ضحوة غد استقللتُ قطار الصعيد ، وقضيت ساعات السفر واجفاً مهموم الفؤاد . . . وما إن بلغت محطة أسيوط حتى هرعتُ إلى المنزل ، فلم يرعنى شىء . . . المنزل على حاله ، والأهل فى سلامة وخير ، وأخبرونى أن أبى فى حجرة مكتبه ينتظرنى ، فتشاءمت . . . لقد كانت حجرة المكتب فى عرف الأسرة كأنها قاعة المحاكمة لا يخلو فيها والدى بحبيس إلا ليحاسبه ويعاقبه . . . لقد كان والدى فى هذه الحجرة يحاكم الجانى ويحكم عليه وينفذ العقوبة فيه . وعند ما كنت أسمع قول أبى :

— هاتوا الولد إلى حجرة المكتب . . .

لا يبقى عندى ريب فى أنى واقع تحت طائلة العقاب !

ولكن ماذا حدث اليوم حتى يطلبنى إلى حجرة مكتبه بهذه البرقية ؟ أى أمر جلل حفزه ؟ لا أعرف لذلك علة ولا أذكر شيئاً وقع منى يستوجب المؤاخذة !

ولم أجد مناصاً من المضى إلى لقاء أبى فى حجرة القصاص ، وقد أخذت

أجنِّد كل ما فى طوقى من أدب ولباقة وتظرف وابتسام ... واقتحمت الباب ، ولكن نظرة واحدة أطلقها أبى فى وجهى دكت ما أعددته دكاً ولم تبق منه باقيـة !

ووجدت قدمىَّ تخطوان نحو قفص الاتهام فى غير تلكؤ ولا مراوغة ، وكان هذا القفص هو الركن الأيسر من المكتب ، ورأيت والدى — على عهده — يزحم كرسيه بجسمه الممتلئ . . . وبغتة جلجلت جملته الخالدة :

— لن تفلح أبداً . . . أحلق شاربى إن أفلحت !

وكان حين نطق هـذه الجملة ينتفض شاربه انتفاضاً بالغاً فى شكل بشع مرهوب . . . ولطالما تمنيت على الله من قبل أن أرى الحلاق وقد أطار ذلك الشارب العتى ، فأما فى هذه المرة فكنت أبتهل إلى الله أن أكون أنا ذلك الحلاق ! . . .

ودفع والدى إلىّ نسخةً من مجلة مصورة ، فرأيت فى الصفحة المبسوطة منها علامة غليظة بالمداد الأحمر ، وسمعته يقول :

— ما رأيك فى هذه النكتة اللطيفة ؟

وألقيت على الصحيفة نظرة خاطفة ، فتشابكت الصور والكلمات ، فلم أتبين منها أى شئ ، ولكنى قلت على الفور :

— نكتة لطيفة جداً . . .

وتصنعت الابتسام متظرفاً ، فأجابنى وهو يزأر بصوت محتبس :

— أتراها كذلك ؟

— ألم تقل حضرتك إنها نكتة لطيفة ؟

فضرب المكتب بيده ضربة كادت تهوى به ، وقال :

— غداً ستكون حبيساً فى القسم الداخلى من مدرسة أسيوط لا تبرحها إلا حين أريد . . . ولن أريد ! . . . أسمعت ؟ أفهمت ؟ . . . أأهلٌ أنت لأكسفورد ؟ لن تراها ما حييت !

فقلت وأنا فى غمرة من الدهشة والتعجب :

— فهمت . . . .

— أخرج . . .

وأيقنت أن المحاكمة قد تمت ، وأن الحكم قد صدر ، وليس ثمة من استئناف !

فخرجت أجر قدمىّ إلى حجرتى ، والمجلة فى يدى ، وألقيت بنفسى على المقعد وقد اعتلجت فى نفسى ضروب المشاعر وتلاطمت فى رأسى شتى الأفكار . . . يا للنكبة ! . . . أأقضى أيامى فى مدرسة أسيوط حبيساً ؟ وفيم هذا ؟ . . .

ووقعتْ عينى على صفحة المجلة ، فصدمتنى العلامة الحمراء ، وتركز بصرى فى رسم هزلى تبينت فيه صورة مشوهة لأبى تمثله فى لبوس المهرجين : طُرطور طويل ، وسراويل فضفاضة منتفشة مُفوَّفة ، وهو ماثل بباب أحد المسارح وبيده ناقوس يدقه قائلا :

« هلموا . . . هلموا . . . شاهدوا الراقصة المرّاكشية العالمية فاطمة الساحرة . . . نجم الشرق وعروس الأحلام ! »

وانهلتُ على المقال أقرؤه ، ونظراتى تتواثب على الجمل والسطور ، وأنفاسى تتلاحق . . . وضربت رأسى بيدى ، وقد اتقدت عيناى . . . إنها قصة مما أفضيت به إلى صديقى الصحفى ليلة الحانة ، وإنها لتتضمن حادثاً لأبى حين كان يطلب العلم فى فرنسا ، وقد وقع فى حبائل راقصة مَرّاكُشية تدعى فاطمة الساحرة . . . وذلك أنه قَبِلَ مرة أن يكون مهرجا لها فى إحدى قرى فرنسا ، فوقف أمام المسرح يجتلب لها الرواد !

وأكبر ما غاظنى من هذا المقال أن الصحيفة قدمته بالعبارة التالية :

« أدلى إلينا الشاب المهذب عبد المولى السيوطى بهذه القصة الواقعية الطريفة التى كان والده بطلها ، فننشرها راجين له مستقبلا زاهراً . . . »

وانكببت على يدى أعَضها ، وخيل إلى أنى لو لمحت فى هذه اللحظة صديقى الصحفى لأشبعته لكماً وركلا ، ولمزقته إرْباً إربا . . .

وتراخى الوجيه عبد المولى بك السيوطى فى جلسته ، ومسح شاربه المنتفش ، وأرسل نحشْنَحة منكرة الصوت وغمغم :

— لست بمنكر أن إفضائى بهذه القصة إلى الصديق الصحفى قد ألجأنى من المبيت ليلة على الأسفلت . . . ولكن . . .

فقلت على الفور :

— ولكن طارت منك أكسفورد !

ونظر الوجيه السيوطى فى عُرْضِ الفضاء نظراتٍ تائهةً ، وهو يهمهم :

— لشدّ ما جار أبي فى حكمه !

وألقيت بنظرة على ساعة معصمى . . . لقد أبطأت عن موعدى فى الصحيفة التى أعمَلُ بها . . . إنى لأتمثل رئيس التحرير ومن حوله زبانيته يرتقبون مَقْدَمى وهم يُكنّون لى ثورة جامحة . . . إن عمال صف الحروف وقوف ينتظرون ، وإن آلة الطبع معطلة متململة !

ولمعت فى خاطرى فكرة سرعان ما شملتنى بفرحة جياشة . . . فأمسكت بيد صديقى وجيه أسيوط وهززتها متحمساً وأنا أقول :

— أشكر لك . . . أشكر لك حسن صنيعك . . .

ونهضت على الفور مستأذناً ، فقال لى عبد المولى بك وعلى وجهه أمارات التوجس والريب :

— أى صنيع تشكره لى ؟

ولم يكد يتم سؤاله حتى أخذ بطرف ثوبى لا يريد أن أفلت منه . . . وواصل حديثه فى شىء من الاهتياج :

— ماذا تقصد ؟ . . . يبدو أنك معتزم . . .

وتأتأ بكلمات تطايرت من فمه غير مبينة . . .

وتضاحك عاطف بك مخاطباً عبد المولى بك :

— دعه يسترزق !

فأجابه بصوت متهدج :

— كيف يسترزق ؟ على حسابى ؟ والله لا أدعه يعيد المأساة . . . أألدغ من جحر الصحافة مرتين ؟

فأفلتّ من يده ، ووثبت إلى الطريق وثبة أبعدتنى عن متناوله ، ولكنها لم تبعد عن أذنى شتائمه ولعناته التى كان يصبها علىّ فى ثورة وحنق كأنها قذائف مدفع رشاش ! . . .

وجعلتُ أعدو متجهاً إلى دار الصحيفة ، وأمام عينى يرتسم بخط الثلث الكبير عنوان مقالى الذى أزمعت كتابته على الفور :

« كيف طارت منى أكسفورد ؟ »

محمود تيمور

القرية والاصلاح الريفي في مصر

في مقال سابق [1] تناولنا حديث الفيضان وأثره في الحضارة المصرية ، ورأينا أن هذا الفيضان ظاهرة طبيعية عاصرت الحضارة منذ نشأتها الاولى في أرض وادي النيل ، وكان لها أكبر الأثر في تكييف الحياة المصرية وإبرازها في طابعها المعروف الذي احتفظت به على مر السنين . وقد كان الفيضان الحبشي وارتفاع الماء في أواخر كل صيف وأوائل كل خريف مصدر خطر مشترك بالنسبة للمجتمع المصري ، ومصدر خير مشترك في الوقت نفسه ؛ وكان دفع هذا الخطر وجلب هـذا الخير مدعاة لأن يتكانف المجتمع وتتضافر جهود أفراده ؛ فبعث ذلك روح الوحدة والنظام في حياة المجتمع الريفي منذ البداءة ؛ وظهرت الجماعات التي كانت تعيش على ضفاف النيل بمظهر الأمة الموحدة قبـل أن يظهر غيرها من الأمم ؛ وتمثـل روح الوحدة والنظام في العمل والنشاط الزراعي في الحقول من جهة ، وفي حياة القرية والسكنى الريفية المستقرة من جهة أخرى .

وقد عرضنا في المقال السابق لبعض مظاهر النشاط الزراعي وارتباطها بفيضان النيل وتنظيم الإفادة من مياهه إفادة كانت أساس الحياة المادية ، بل أساس المدنية الزراعية في مصر . وقد يكون من الخير أن نتابع الآن هذا البحث فيما يتصل بالقرية المصرية التي هي نواة المجتمع ، وتمثلت فيها حياة الاسـتقرار والانتقـال من المرحلة القَبَلية إلى المرحلة الحضرية ، التي كتب لهـا الدوام والاستمرار في مصر خلال آلاف كثيرة من السنين .

وإذا كانت القرية المصرية قد مثلت نواة المجتمع الريفي ، فيها تركزت حياته وتكيفت معيشته ، واستقرت نظمه وتقاليده حتى اتخذت طابعها الذي لم يستطع الزمن ولا الأيام أن تمحوه أو أن تغيره ، فإن من الحق علينا ونحن الآن بسبيل إصلاح الريف وحياته القروية أن ندرس هذه القرية دراسة دقيقة ، قد لا يكون

---

(١) الكاتب المصري عدد ١٣ (أكتوبر ١٩٤٦) .

هذا مجالها من الناحية الفنية الخالصة ، ولكن لها مع ذلك جانباً ينبغي أن يهتم له أكبر عدد من أبناء مصر الراغبين في أن يتعرفوا على بيئتهم ، وأن يلتمسوا العبرة من دراسة تاريخهم الاجتماعي والقومي العام ؛ بل ينبغي أن يهتم له اكبر عدد من غير أبناء مصر ، والراغبين في تعرف شيء عن تاريخ المدنية البشرية ، وتاريخ هذه الأمة العريقة التي ساهمت بحياتها الريفية وقراها المستقرة في نشأة المدنية والاحتفاظ بتراثها على مر السنين . ولقد كانت القرية خلال أجيال طويلة عامل استقرار هام ، بل نواة دار من حولها نشاط الجماعات البشرية الريفية في أرض الكنانة . . . وحق بذلك على من يهتمون بتراث الإنسانية وحضارتها المستقرة أن يدرسوا هذه المظاهر العريقة من حياة الإنسان في هذه الأرض الطيبة ، التي كتب لها أن تكون أم المدنيات .

ولقد رأينا في المقال السابق أن الحياة في الريف المصري بقيت على استقرارها القديم آماداً طويلة ؛ فكان المصريون يقسمون الأرض إلى حياض يرويها الفيضان بانتظام في كل عام ، ثم يفلحها أبناء الوادي على طريقتهم المتوارثة التي احتفظوا بها حتى جاء العهد الحديث ، فظهر الري الدائم ، وجاء ما يمكن أن نسميه الثورة الزراعية ، وانقلبت حياة الريف رأساً على عقب ، فامتد النشاط الزراعي ليشمل العام كله بدلا من الاقتصار على فصل واحد ومحصول واحد في العام ، وتكاثر الخلق في القرى ، وتشابكت مصالحهم المادية وامتدت فيما وراء حدود القرية ، بل تعدتها إلى جهات أخرى في القطر أو خارجه فيما وراء الصحراء أو ما وراء البحار ؛ وخرجت القرية بذلك كله إلى حياة جديدة تتعدى الحوض أو الحياض التي تحيط بها ، وتتأثر بأمور بعيدة عن نطاقها وخارجة عن طاقتها ، تتصل بالحكومة المركزية القائمة في عاصمة البلاد ، والتي يصدر عنها تدبير الاقتصاد الزراعي كله ورسم الخطة للتوسع الزراعي الحديث في الري والصرف واختيار المحاصيل وغير ذلك ، كما تتصل أيضاً بالعالم الخارجي ، بعد أن ارتبط اقتصاد الريف المصري في العهد الحديث بالأسواق الخارجية ، يغذيها بالقطن وغيره من المحصولات ، ويعتمد عليها في استيراد غير قليل من المصنوعات .

وقد كان طبيعيًّا أن يترتب على هذه الثورة في الحياة الريفية المصرية ، بعد أن دخلها الري الدائم واتصلت بالعالم الخارجي اتصالا مس مقومات الحياة المادية وأسسها الاقتصادية مساساً قريباً . . . ترتب على ذلك كله وصاحبه غير

قليل من الاضطراب لا نزال نلمس آثاره ؛ فقد استلزمت الحياة الجديدة غير قليـل من التغيير والتحوير فى نشاط الريف ومعيشته القروية المستكينة . وحاولت القرية المصرية وأبناؤها أن يلائموا بين ظروفهم القديمة وبين مقتضيات العصر الحديث محاولات لم تكن كلها سعيدة العواقب ولا موفقة السبيل . ثم جاءت هذه السنوات الأخيرة فظهرت فى البلاد اتجاهات جديدة تهـدف إلى ما اصطلح الناس على أن يسموه الإصلاح الاجتماعى . بدأه الذين يبشرون بالحركة فى بعض أركان المدن وأحيائها الفقيرة ؛ ثم انتهى بهم الأمر إلى ضرورة إنفاذه إلى الريف وقراه النائية . . . ذلك أن سكان الريف يمثلون الكثرة الساحقة من شعب مصر ، بل هم يمثلون أكثر من ثلاثة أرباعه . ونحن بلا جدال أمة تعيش فى القرى أكثر مما تعيش فى المدن ، ويستند إنتاجها القومى إلى سواعد سكان الريف أكثر مما يستند إلى سواعد سكان المدن . وإذا نحن هدفنا إلى إصلاح حياتنا القومية فينبغى أن نبدأ بالريف وأهله؛ فهم قوام الأمة ، وهم عماد إنتاجها ؛ بل هم القوامون الحقيقيون على تراث مصر القديم ، وهم الذين هزتهم الحياة الجديدة وصدمتهم أعنف الصـدمات بما اقتضته ولا تزال تقتضيه من تغيير وتحوير .

ومع ذلك فقد يكون من الخير لأولئك الذين يعرضون للإصلاح الاجتماعى ، ويشاركون فى رسم خططه ، أن يبدءوا بالتعرف على المشكلة فى وضعها العلمى والتاريخى الصحيح ؛ إذ ليس الإصلاح الاجتماعى مما يمكن أو يجوز ارتجاله ، أو حتى نقل وسائله وأساليبه نقلا عن غيرنا من البلدان والأمم التى سبقتنا إلى إصلاح حياتها الريفيـة ودعمها قبل أن تتصدع أمام ضغط الحياة الحديثة . وإنما ينبغى أن تسبق الإصلاح دراسة عميقة لمشكلات الريف فى وضعها الطبيعى والبشرى . وإذا كانت هذه الدراسة ضرورية بالنسبة لغـيرنا من الأمم التى أخذت بالإصلاح ، فإنها ألزم بالنسبة لمصر والمجتمع المصرى . فنحن أمة تعيش فى الماضى بقدر ما تعيش فى الحاضر أو فى المستقبل ؛ وليست حياتنا فى الماضى راجعة إلى أننا محافظون نستمسك بالقديم لمجرد قدمه ، وإنمـا نحن نعيش فى الماضى لأن كثيراً من نظمنا وتقاليدنا نشأت فى البيئة المصرية نشأة طبيعية ، ولم تكن مستعارة من الخارج استعارة طارئة ؛ فهى بنت البيئة ، نشأت فيها ، وتغذت بلبانها ، ثم عاشت وعمرت لأنها كانت صالحة للحياة والبقاء والتعمير . ولم تكن هناك ضرورة ملحة على المصريين خلال أجيالهم المتعاقبة فى أن يغيّروا

حياتهم المادية ونظام زراعتهم ؛ فلم يغيروا شيئاً من ذلك إلا بقدر معلوم . كذلك الحال في تقاليدهم ونظمهم الاجتماعية التي تتصل بحياة الريف ؛ فقد بقيت كلها أو جلها على الزمن ، لأنها كانت صالحة للبقاء . وليس من العلم الصحيح ولا الروح العلمية السليمة ، بل ليس من الإنصاف ، أن نفسر احتفاظ الريف والحياة القروية المصرية بنظمها وحياتها القديمة على أنه راجع إلى حب المصريين للمحافظة على القديم ؛ فذلك تعليل ، إن صح في بعض نواحيه ، فهو أبسط من أن يفسر ما حدث في تاريخ مصر الطويل ، وما اكتنفه من أحداث جسام ، اهتزت لها جوانب أخرى من حياة مصر والمصريين . وإذا كان المصريون محافظين على كل قديم في حياتهم وحضارتهم ، فكيف نفسر تغييرهم لغتهم التي يتكلمون والتي يكتبون ؟ واستبدالهم بدينهم ديناً آخر مرة أو مرتين ؟ وجمعهم بين القديم والحديث في كثير من مظاهر حياتهم وألوان ثقافتهم القديمة والحديثة ؟ واقتباسهم عن العالم الخارجي ، واتصالهم بأممه وحضاراته في الشرق والغرب على حد سواء ؟ الحق أن ما يقال عن الجمود وروح المحافظة على القديم في مصر ، وتمسك المصريين بقديمهم لمجرد قدمه ، قول لا يجوز أن يطلق على علاته ، لأنه لا يطابق الحقيقة الواقعة مطابقة علمية صحيحة . ولعلنا أن نعود إلى هذا الموضوع يوماً في مقال ما .

ولكن الشيء الذي يهمنا الآن إنما هو أن الحياة الجديدة والثورة الزراعية الحديثة في مصر قد هزت الريف وقراه هزات عنيفة اقتضت كثيراً من التغيير بعد ثبات طويل في بعض نواحي الحياة . وعلى من يريد أن يعرض للإصلاح والتجديد في الريف أن يدرس المجتمع الريفي وحياته القروية في ضوء ما اكتنف نشأة النظام الزراعي والقروي في مصر من ظروف طبيعية وبشرية . وعليه فوق ذلك أن يدرس العوامل الجغرافية والتاريخية التي أثرت في حياة المجتمع بل كيفتها منذ البداءة ، تلك العوامل التي ربما كانت مسئولة إلى حد بعيد أو قريب عما بدا لنا أول الأمر كأنه جمود في حياة القرية المصرية ونظامها خلال أجيال طويلة . ومن الخير لمن يريد التجديد والتغيير أن يلم بعوامل الثبات التقليدية ، التي لا بد أن تدافعه في جهوده ؛ وقد يتوقف على خطته إزاءها نجاحه أو إخفاقه . . . بل قد يكون من الخير المحقق ، ونحن بصدد الإصلاح ، أن نلم بقوى الطبيعة والمجتمع التقليدية ، فنجندها تجنيداً ، ونوجهها وجهة

الخير والحق توجيهاً ، فتغدو جميعاً فى جانب الإصلاح ، بدلا من أن تبقى فى جانب ما يسميه بعضنا جموداً ، وما يسميه بعضنا الآخر استمساكا بالقديم أو إعراضاً عن التجديد ، وقد يسميه فريق منا عدم اكتراث بما يستلزمه العصر الجديد من نزوع إلى التطور وأخذ بسبيل التجديد .

ولقد تأثرت القرية المصرية فى نشأتها وتطورها بعدد من العوامل الأساسية، نستطيع أن نختار منها الآن ما نجمله فى نقط أربع : هى الموقع المحلى والمكان الذى تحدد الظروف الطبيعية أن تقام فيه القرية . ثم المركز الجغرافى وعلاقة القرية واتصالاتها بغيرها من القرى فى البيئة الريفية . ثم المواد التى تبنى منها القرية وموارد الطبيعة المصرية من هذه الناحية ، وما يتصل بذلك من تصميم القرية تصميما يتفق وظروف البيئة وحاجات المجتمع القروى . ثم أخيراً معيشة القرويين فى قريتهم ، واتصال ذلك بشؤون الإدارة والأمن والنظام ، وعلاقتها بالحكومة الإقليمية أو المركزية . وجميع هذه النواحى قد تأثرت القرية فيها بالظروف الطبيعية والبشرية للبيئة المصرية . وهذا ماسنحاول أن نعالجه الآن فى شىء كثير من الإيجاز .

فأما عن الموقع والمكان فإن أرض مصر امتازت على غيرها من مواطن الحضارة القديمة بأنها أرض مستوية منخفضة ، يهددها فيضان النهر فى كل عام تهديداً مباشراً بالإغراق ، وغير مباشر بالرشح . وعندما نزل المصريون أول ما نزلوا من الصحراء إلى الوادى ، بين الألف السادسة والألف الخامسة قبل الميلاد ، كان عليهم أن يتحولوا من الحياة القَبَلية ، أى التى تكون القبيلة فيها وحدة المجتمع ، إلى الحياة الإقليمية ، أى التى يكون فيها الإقليم أو الوطن الصغير رباط المجتمع . وكان هذا الإقليم فى العادة قسما من الوادى ، تحوّل فيما بعد إلى مجموعة من الحياض التى يغمرها الفيضان ويفلحها الناس بعد انحسار مياهه . وفى هذا القسم حاول السكان الأولون أن يقيموا قراهم ؛ فكان عليهم أن ينشئوا أول الأمر كومات كبيرة من التراب ، ترتفع فوق مستوى الفيضان وتثبت لتيار الماء الجارف وقت اندفاع المياه ؛ وكثيراً ما تبطّن جنبات هذه الكومات بالأحجار الجيرية البيضاء ، يجلبها القوم من حافة الهضبة إن كانت قريبة ، أو بأعمدة من جذوع الأشجار وجدائل من الأحراش والأعشاب إن كانت الكومة بعيدة عن الهضبة ومعرضة فى بعض جنباتها لتيار جارف ،

وذلك حتى لا تنهار الكومة ويجرفها الماء . وقد كانت إقامة هذه الكومات والمحافظة عليها ضرورية ، حتى يمكن إقامة مبانى القرية فى مكان أمين ، لا يهدده الفيضان . كما كان من المستحيل عمليا على شخص بمفرده ، أو حتى على أسرة أو مجموعة صغيرة من الأفراد أن تقيم لنفسها كومة صغيرة تبنى بيتها فوقها ؛ لأن تلك الكومة الصغيرة يسهل أن يطغى عليها الماء ، وأن يصدع جوانبها التيار ؛ فضلاً عن أنها فى وقت الفيضان تصبح فى عزلة عن غيرها من أماكن السكنى ، فتصعب حياتها ، ويسهل السطو عليها ، لأنها لا تتمتع بما تتيحه القرية الكبيرة لأهلها الكثيرين المتضامنين من أمن وسلام . لذلك كله وجد السكان فى وادى النيل الأدنى ودلتاه أنفسهم مضطرين منذ بداءة الحضارة الزراعية المستقرة إلى أن يعيشوا فى قرى كبيرة ، تتوج كومات كبيرة منتثرة بين الأحواض ؛ بعضها قريب من الصحراء أو ملتصق بها ، ولكن أغلبها مجاور للنهر أو منتشر فى سهل الدلتا الفسيح ، حيث لا عاصم من الماء إلا هذه التلال الصناعية التى بنتها يد الإنسان ، والتى يعتصم بها وقت الفيضان كل من يسعى وما يسعى على الأرض من أحياء ، فهى ملجأ الإنسان والحيوان على حد سواء .

وهكذا تركزت الحياة الريفية كلها فى القرية التى أصبح تلها بحكم الضرورة مسرح النشاط البشرى كله خلال فترة الفيضان . وقد كانت ضرورة إقامة التل الصناعى مبعث الوحدة والتضامن فى المجتمع القروى ؛ وبقيت كذلك خلال أعصر التاريخ ، يحافظ سكان القرية على التل ، ويضيفون إليه من الأتربة ما يحفظ كيانه ، ثم يعيشون فوقه متضامنين متكاتفين متشاركين فى الشعور بالخطر إبان الفيضان ، حتى إذا ما انجابت المياه نزلوا إلى الحياض يفلحونها ، ثم يحصدون مايزرعون ، ويجتهدون من جديد فى تطهير مسالك الماء ، وترميم جسور الحياض ، استعداداً لموسم الفيضان الجديد . بل هكذا قامت القرية والحياة الريفية كلها فى مصر على أساس التضامن والتعاون والمشاركة فى دفع الخطر وجلب المنفعة ؛ وطبع ذلك حياة أهل الريف على شىء كثير من مظاهر النظام والطاعة ، وهما صفتان ضروريتان لكل عمل إجماعى يشترك فيه عدد كبير من الأفراد . ولعل هذا كله هو سر القوة الأول فى حياة القرية المصرية ؛ وهو الذى استطاعت بفضله هذه القرية أن تعيش وأن تحتفظ بشخصيتها على مر العصور رغم تغير الزمن وتداول الأيام ، ورغم ما كان من غزوات أتت مصر وغيرت وجه التاريخ ؛

فى مظهره ، ولـكنها لم تغير أسس الحياة فى مخبرها الأصلى ؛ فكانت القرية ، وكان الفلاح ، عنوان الاستقرار فى الحياة المصرية ، بل عنوان الدوام والاستمرار فى مدنيـة مصر الزراعية . وهذا ما عبر عنه بعض من لايتعمقون الأمور بأنه محافظة على القديم !

ولـكن ما قيمة هذا الـكلام بالنسبة لما نحن بسبيله من إصلاح الحياة الريفية ؟ ربما كان مرجع العلة فى مجتمعنا الريفى الحديث (لا سيما فى الدلتا) أن نظام الرى الدائم قلل من أثر رى الحياض وضرورة إقامة القرية فوق كومة مرتفعة . فالأرض لم تعد تغمر بالمياه إلا فى مناطق محدودة فى جنوب مصر ؛ والقرى أصبح من الممكن أن تقام فى مستوى الأرض الزراعيـة ، دون أن يرفع مكانها على هيئة تل صناعى . وقد أفقدت الحالة الجديدة قرى مصر مقوماً أساسيًّا من مقوماتها الأولى ؛ إذ لم تعـد هناك حاجة لأن يتضافر السكان ويتعاونوا فى إقامة تل التراب وحراسته ؛ بل إنهم قد اندفعوا فى العهد الحديث إلى تخريبه ونقل أتربته لتسميد أراضيهم الزراعية ، التى ازدادت حاجتها إلى التسميد بسبب استمرار الزراعة طول العام . على أن الظاهرة التى لا ينبغى أن نغفل عنها هى أن إقامة التل كانت بالنسبة للسكان تمثل عملا إجماعيًّا يتضافر من أجله الجميع ، على حين أن هدمه ونقل أتربته وأسبخته إلى الحقول الخاصة أصبحت الآن عملا فرديًّا يقوم على الأنانية والأثرة أكثر مما يقوم على الشعور بواجب التضامن وإيثار الصالح العام . وإلى جانب ذلك فقد كانت القرى القديمة كبيرة الحجم متجمعة السكان ؛ أما فى العهد الحديث فقد كثرت العزب والقرى الصغيرة المنتثرة ، وأدى هذا إلى شئ من التفكك فى روح الاجتماع فى الريف . وعلى من يعالجون الإصلاح الإجتماعى أن يلحظوا مثل هذه الظاهرات الخطيرة فى فلاحى مصر : تعـاون لم يبق مايحفز إليه ، وتضامن لم يبق ما يرغم الناس عليه ، وتفكك فى المجتمع القروى يقوم على الأثر حيناً ، وعلى اعتزال الجماعة الـكبيرة ، وانفراد الجماعة الصغيرة بذاتها حيناً آخر . وتلك كلها معاول هدم خطيرة فى حياة الريف . ولا بد لنا فى رسم خططنا الإصلاحية أن نعوض أهل القرى وسكان الريف بعض ما فقدوه من مقومات بقيت على الزمن ، حتى أصابتها الثورة الحديثة بصدمتها العنيفة التى هزت بناء المجتمع من الأساس . وإذا صح هذا الفهم لأحد أسباب التفكك والانحلال فى

مجتمعنا الريفي ، فقد ينفعنا أن نعنى بكل ما يرد إلى المجتمع روح التضامن والتعاون ؛ فنعلم سكان القرية مثلا أن تتضافر جهودهم في بعض المشروعات القروية الجديدة من بناء أماكن الاستشفاء أو دور التعليم أو المراكز الاجتماعية أو ردم البرك والمستنقعات أو غير ذلك مما قد يكون على الحكومة المركزية أن تضطلع به لضمان سرعة الإنجاز ، ولكن من الخير أن يُعَوَّد الأهالي أن يشاركوا فيه بما يرد عليهم روح الجماعة ، التي حفظت لمصر كيانها على مر الأعصر وكر الأيام .

كل هـذا عن موقع القرية ومكان إقامتها ؛ فأما عن مركزها الجغرافي وعلاقاتها بغيرها من القرى فشأنه أيسر من ذلك . وقد راعى المصريون الأقدمون دواماً أن يتيسر على قراهم أن يتصل بعضها ببعض ؛ وكانت وسيلتهم في المواصلات نهر النيل ذاته من جهة ، ثم تلك الطرق الكثيرة التي تقطع الوادي ودلتاه طولا وعرضاً ، والتي كانت تتمشى مع الجسور التي تفصل الحياض بعضها عن بعض من جهة أخرى . والواقع أن مصر في تاريخها القديم والوسيط امتازت على الدوام بكثرة هذه الطرق التي تقطع أراضيها من الجنوب إلى الشمال ، ومن الشرق إلى الغرب في هيئة شبكة صغيرة العيون . ولكن العهد الحديث غيّر من هذه الصورة بعض الشيء ؛ فلم تعد هناك حاجة إلى أن تقسم الأرض إلى مربعات وحياض ، ولا إلى أن يحتفظ بتلك الجسور التي تجرى من فوقها الطرق ؛ وإنما أزيلت الجسور وأزيل معها كثير من سبل الاتصال ، واستعيض عنها بقنوات تجرى كلها في اتجاه عام واحد من الجنوب نحو البحر ، وتتفرع على هيئة مروحة في أرض الدلتا التي تتفتح وتنتشر نحو الشمال . ومهما قيل عن صلاحيـة الطرق الحديثة التي تجرى فوق جسور القنوات ، فإنها لا تعتبر مسالك قروية بالمعنى الصحيح الدقيق للكلمة ؛ لا سيما أن المشروعات الحديثـة لم يراع في شقها أن تخدم القرى ومناطق السكن ، وإنما روعى فيها أن تروى الحقول ؛ ولذلك فإن كثيراً من الطرق التي تساير الترع تتحاشى القرى ولا تمر بها ، وإنما تهدف مستقيمة وسط الحقول . وفضلا عن ذلك فإن ارتباط الطريق البرى بترعة لم تنشأ للملاحة والاتصال ، وإنما أنشئت لغرض آخر هو الرى ، قد خرج بالمواصلات البرية في ريف مصر عن هدفها الأصلي ، وانحرف بها عما كان ينبغي أن تسخَّر له من خدمة القرى

وتوصيلها بعضها ببعض . لذلك فإن معظم طرق الريف لا تزيد عن أنها مسالك قديمة جرى عليها الزمن ، وطغت عليها مطالب الزراعة والرى الحديثة ، فهى لا تصلح لعصر أهم ما فيه تقصير المسافات وتوثيق الصلة بين الناس ، وربط أركان الريف وزواياه المنعزلة بعضها ببعض . . . وفى هذا كله مجال فسيح لمن يريد الإصلاح .

وأما عن موارد البيئة المصرية وما تجود به من مواد لبناء القرى ومساكن الريف ، فمن المفيد أن نلحظ أن ظروف المناخ فى مصر ليست من القسوة بما عليه الحال فى مناطق أخرى من العالم . لذلك لم يجهد المصريون أنفسهم فى أن يقيموا مساكن قوية تقيهم غوائل الطقس وتقلباته ؛ وإنما اكتفوا بإقامة مساكن بسيطة تقيهم حرارة الشمس ووهجها حين ترتفع فى الصيف ، وشدة الريح وثورتها حين تعصف فى بعض أيام الشتاء . وكانت مصر فقيرة فى الأخشاب ، فاقتصدت فى استخدامها إلى أبعد الحدود . واكتفى المصريون بأن يقيموا منازلهم ومساكنهم من اللبن والطين المجفف . وكان هذا الطين مناسباً جداً لأحوال المناخ لأنه موصل ردىء للحرارة ؛ فهو لا يسخن فى الصيف ولا يبرد فى الشتاء ؛ لذلك وجد المصريون فيه مادة مناسبة جداً لمناخ بلادهم القارى . ولعل من الطريف أن نلحظ أنه فى مصر القديمة كانت مساكن الفراعنة نفسها تبنى من هذا اللبن ؛ أما الحجر فلم يكن يبنى به غير المعابد والهياكل والمقابر وما إليها من بيوت الله ودور البقاء . ولعل هذا هو السر فى أنه لم يبق لنا من آثار السكن القديم فى مصر غير القليل . وقد بنيت قرى المصريين ومساكنهم على مر العصور من نفس المادة ، لا لسبب إلا أنها أنسب ما تكون للبيئة والمناخ . حتى إذا ما جاء العهد الحديث وانتشر نظام الرى الدائم تغيرت الأحوال ، فكثرت الرطوبة فى الأرض وارتفع مستوى المياه الجوفية ؛ كما أن بعض القرى كما ذكرنا هجر أهلها الأكوام القديمة وبنوا مساكنهم فى مستوى الأرض الزراعية ؛ وذلك كله جعل المساكن عرضة للرطوبة ، وأقل صلاحية للسكنى والإقامة ، لا سيما فى أشهر الخريف والشتاء . والواقع أن كثيراً من قرى الريف وبيوته فى الوقت الحاضر أصبحت لا تكاد تصلح لسكنى البشر فى كثير من أشهر الشتاء ، بسبب الرطوبة الزائدة والأحوال الصحية غير المناسبة ، فضلاً عن تزاحم السكان وتكاثرهم بما يفوق طاقة المكان ، ثم تكاثر الحيوان أيضاً

وسكناه مع الإنسان بحكم ظروف الفلاح التى يلمسها كل من نشأ أو عاش فى الريف . لذلك كله لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الثورة الزراعية كان لها من الأثر فى حياة الريف المعيشية ، ما لا يقل فى مداه ونوعه عما كان للثورة الصناعية من أثر فى حياة الطبقات العاملة فى مدن أوربا ؛ إذ الواقع أن سكنى الريف فى مصر هى اليوم أقل فى مستواها الصحى ، بل فى مستواها الإنسانى ، عما كانت عليه الحال قبل إدخال نظام الرى الدائم . وقد تكون هذه من كبريات المعضلات التى يواجهها من يعرضون لإصلاح الحياة فى الريف ، خصوصاً أن الحالة تزداد سوءاً يوماً عن يوم . والواجب أن يوجه التفكير فى صرف المياه الجوفية توجيهاً لا يقتصر على مراعاة فائدة الصرف للأرض الزراعية ورفع مستوى غلة الفدان ، وإنما يمتد إلى مراعاة ضرورة تحسين الصرف كوسيلة من وسائل تحسين حالة السكنى فى الريف . وإذا كان البناء باللبن والطين المجفف قد صلح فيما مضى ، فإنه فى الظروف الحاضرة وبنظام الصرف الحالى لم يعد يصلح للسكنى الصحية . ولا بد من معالجة الحال بخفض مستوى المياه الجوفية ، أو بتغيير مادة البناء فى إقامة أسس المساكن ، أو بغير ذلك مما قد تتفتق عنه حيلة المهندسين [1] .

وأما الناحية الرابعة والأخيرة التى نعرض لها فى هذا المقال ، فناحية العلاقات التى تسود بين سكان القرية وتحكم معاملاتهم واتصالاتهم بعضهم ببعض من جهة ، ثم اتصالاتهم كمجموعة بالحكومات الإقليمية والمركزية من جهة أخرى . وهنا نعرض بالطبع للأمن والإدارة . وقد رأينا فيما أشرنا إليه من تاريخ نشأة القرية أنها قامت منذ البداءة على شركة من المصالح المتشابكة والمنافع المتداخلة ، التى يحرسها تضامن اجتماعى قضت به ضرورات الحياة ومقوماتها الأولى ؛ وقد تمثل ذلك فى القرية المصرية حتى فى عصور ما قبل التاريخ . لذلك كانت الحكومة أو الإدارة القروية ضرورة من ضرورات الحياة ؛ فكان لكل قرية رئيس ينظم جهود الأفراد ويوجهها فى إقامة كومة التراب مثلاً ، وفى الدفاع ضد الفيضان فى موسمه ، وفى تنظيم الدفاع عن القرية ضد ما قد يصيبها من سطو

---

(١) هناك نواح أخرى من هندسة القرية لا نعرض لها هنا لأنها فنية خالصة ؛ وهى التى تتصل بتصميم القرية وتحديد مواقع مرافقها العامة ورسم شوارعها وغير ذلك مما يحسن أن يترك الكلام فيه للمهندسين .

خارجى ، ثم تيسير اتصالها بالقرى الأخرى بوساطة القوارب أيام الفيضان أو الطرق أيام انحسار الماء ، وغير ذلك من مرافق الحياة القروية التى تركزت فيما بعد فى نظام الإدارة المعروف وعلى رأسه العمدة والمشايخ . ولقد كانت سلطة الإدارة القروية فى تاريخ مصر الطويل سلطة حقيقية مستمدة من مصالح أهل القرية وممثلة لإرادتهم فى صورة واحدة أو صور تتشابه وتكرر من قرية إلى قرية . وبقيت الحال على ذلك ، فيما يبدو ، خلال معظم فترات التاريخ ، وإن تغيرت بعض تفاصيلها من عصر لعصر . ولكن المهم أن هذه الحال قد تغيرت فى عهدنا الحديث ، فقويت سلطة الحكومة المركزية على حساب الساطات الإقليمية والإدارات القروية ؛ وأصبح نظام الإدارة يفرض من العاصمة على البنادر ، ومن البنادر على القرى والدساكر ؛ وضاعت سلطة الحكومة القروية وهيبتها فى أعين أهل القرية إلى حد كبير ، وأصبح العمدة مثلا يتقرر تعيينه أو إعفاؤه عن طريق السلطات المركزية العليا ، فلا يستند اختياره والاستغناء عنه إلى إرادة أهل القرية إلا استناداً عرفيًا أو شكليًا فى كثير من الأحيان . وفى هذا مساس خطير بأساس هام من أسس القرية والحياة القروية التى عرفتها البيئة المصرية قبل الثورة الزراعية الحديثة . وقد أضعفت الحالة الجديدة ثقة المحكوم بحاكمه فى القرية من جهة ، وجعلت صلة الحاكم القروى برجال الحكومة الإقليمية أو المركزية أهم فى نظره وأدنى إلى منفعته فى بعض الأحيان من صلته بأبناء القرية ذاتها . وفى ذلك فساد يمس الأصل والأساس ؛ ولا يمكن إصلاحه إلا بإعادة السلطة إلى القرية ، بحيث يكون بناء الإدارة قائماً على القرية (الناحية) فالإقليم ، فالحكومة المركزية ، وبحيث تستند هذه الأخيرة فى سلطتها إلى السلطات المحلية والقروية ، ولا تستمد القرية سلطانها من المدينة كما هى الحال الآن . ولكن قصة الإدارة فى مصر قصة طويلة ، وقد تختلف فيها آراء المصلحين .

من كل هذا يتبين لنا أن موضوع القرية المصرية وإصلاحها موضوع خطير معقد ، يزيد من خطورته وتعقيده أنه يكاد يشمل الحياة المصرية فى جملتها ، وأنه يستلزم دراسة واسعة وعميقة لحياة مصر التقليدية . . . تلك التى يعرفها المؤرخون ، ويعنى بها الذين يدرسون حضارة البشر ، ويحرصون على ما فيها من تراث جميل . وريف مصر من هذه الناحية يمثل أقدم بقعة فى الأرض اتصلت فيها الحياة الدائمة المستقرة ، والحضارة القائمة المستمرة ، قد حباه الله بنيل كريم

يفيض بالخير ويجدد الحياة فى كل عام ، وهدى الله أهله إلى أن يعيشوا متكاتفين متضامنين ، فى قرى آمنة ، تجمّع فيها الخلق ، واستجاب الفرد لمقتضيات التضامن الاجتماعى ، الذى هو خير ما تتكشف عنه نفس إنسان . وإذا كان صحيحاً أن الله قد جعل من مصر كنانته فى الأرض ، فقد شاءت حكمته أن يخرج من سكان قرى مصر أمة عريقة ومجتمعاً عرف كيف يحتفظ بوحدته وكيانه وطابعه الحضارى المميز خلال قرون وقرون . وليس عجيباً فى هذا المجتمع أن تكون القرية قد بقيت على الدوام نواة النظام الاجتماعى ودعامتـه التى يستند إليها بناء الأمة ، وأن يكون ما أصاب مدائن مصر وعواصمها من تغيير وتبديل فى مظهر المدينة فى بعض العهود لم يستطع أن يمحو ما رسمته الطبيعة ، ولا أن يهدم ما بنته يد الإنسان فى ريف مصر . ومع ذلك فليس من الحق ولا من الإنصاف أن نفسر ثبات الحياة فى الريف وقراه بأنه جمود أو تشبث بالقديم لايفيد ولا يغنى فى العصر الحديث ؛ فقد يكون فى هذا الذى نسميه قديما بعض ما ينفع فى حاضر مصر ومستقبلها ؛ بل قد يكون من الخير أن ننتبه للأمر فلا نندفع فى التغيير والتبديل لمجرد التغيير والتبديل ، ولا ندع هذا التصدع الذى أصاب المجتمع فى أعقاب ثورته الزراعية الحديثة يستمر على غير هدى وفى غير ضابط . ومن يدرينا ! فقد يكون هذا التصدع الذى أصاب حياتنا الريفية والقروية منذ قرن أو يزيد ، والذى أشرنا إلى أمثلة منه فى هذا المقال ، سبب العلة فى ضعف مجتمعنا المصرى فى العهد الحديث . وقد تكون الثورة الزراعية ، على ما فيها من خير وبركة ، قد سارت بنا دون أن نحس إلى انقلاب خطير فى حياة مجتمعنا الريفى ، لا يدرك مداه إلا من درس تاريخ هذا المجتمع ومراحل تطوره دراسة جدية عميقة . وإذا كان هـذا كله صحيحاً — وهو ما نخشاه خشية محققة — فإن أمر الإصلاح الاجتماعى والريفى فى مصر يخرج عن كونه مجرد أمر يتوقف على الإرادة الطيبة والهمة الصادقة والرغبة الأكيدة فى تحقيق الخير والحق . . . يخرج عن ذلك إلى أنه أمر خطير يستلزم دراسة عميقة دقيقة ، لا لشؤون المجتمع فى الوقت الحاضر فحسب ، وإنما كذلك التاريخ المجتمع فى عصوره وأطواره الماضية . وإذا جاز لغيرنا من الأمم ذات التاريخ القصير أن تعرض عن الماضى ، فلا تعنى به فى رسم خططها الإصلاحية للمستقبل ، فإن ذلك لا يجوز بالنسبة لمصر ومجتمعها الذى يمتد

بأصوله إلى الماضى البعيد . بل قد يكون إهمال الماضى فى نظر كثير من الناس جرماً لا يغتفر ، وخسارة لا تعوض ؛ ففى تاريخ مصر ومجتمعها كثير من الثروة والتراث الطيب ؛ وفى ذلك التاريخ عبرة ودروس لمن شاء أن يعتبر أو يتعلم . . . وربما كان أول هذه العبر والدروس أن النهضة الزراعية الحديثة لا تسير بنا بالضرورة فى الطريق القويم ، وأن الشر فى حياة الريف يزداد يوما عن يوم . . . وقد لا ينقذنا من الكارثة إلا أن نرد إلى حياة الريف شيئاً مما يعلمنا التاريخ . . . فنبعث فيه من جديد ، وفى صورة جديدة تساير الزمن ، روح التضامن والتعاون التى قامت على تأسيسها القرية المصرية فى عهودها الأولى ، ونقيم حياة القرية على أساس جديد من المنافع المحلية المشتركة والمصالح المتبادلة والنزعة الاستقلالية فى الحكم والإدارة . فنرد بذلك كله إلى القرية اعتبارها المسلوب ، ونعود بها إلى ما كانت عليه أول الأمر ، وإلى ما كانت عليه فى عهود عظمة المجتمع المصرى وازدهار حياته بصفة خاصة ؛ ونجعل من القرية بحق نواة المجتمع تدور من حولها أفلاك نشاطه ، وتستند إليها دعائم كيانه ووجوده . . . بل نجعل منها رمز الخلود فى روح مصر علّه أن يبعث فتياً وأن ينشر قوياً ، وعلى مصر الخالدة أن تبقى على الزمن وتجدده ما بقيت على الأيام وتقلبها ، فتعيد فى مستقبلها بعض ما كان لها من سيرة خالدة فى ماضيها المجيد

سليمان حزين

هـ . ج . ولز

كان هـ . ج . ولز أديباً علميًّا يكتب باللغة الانجليزية . ولكنه كان آخر من يرضى بأن يصف نفسه بأنه انجليزى فى قوميته ؛ فقد كان يكافح القوميات ويصف العالم بأنه « قريتنا الكبرى » وقد كتب كثيراً لهذه الدعوة العالمية التى نسير إلى تحقيقها على الرغم من الدعوات الانفصالية التى يزدحم بها عالمنا الحاضر من أثر العقائد والوطنيات واللغات والمذاهب والإمبراطوريات .

وربما ننسى أشياء كثيرة من ولز فى المستقبل . ولكن ليس شك فى أننا سنذكره بأنه الأب الروحى للعالم الجديد المتحد ، وبأنه أول من عمد إلى وضع التفاصيل لوضع حكومة عالمية ولغة عالمية وموسوعات عالمية ، بل ايضاً لوضع النصوص والشروط التى يستطيع أن يعيش بها أبناء هذا العالم وهم آمنون من استبداد الحاكين والأولياء حتى الآباء .

وإذا شئنا أن نعين الطراز الذى ينتسب إليه ولز وجدناه أقرب إلى رجال النهضة الأوربية (من ١٤٠٠ إلى ١٦٥٠) منه إلى عصرنا . فهو من طراز دافنشى الرسام الجيولوجى البشرى المستقبلى . والاختلاف بينهما بسيط ، لأن الأول استعمل الريشة والثانى استعمل القلم ، ولكن كليهما عرف قيمة العلم ، وكان على وجدان بمغزاه فى مستقبل البشر وعلى تفاؤل بهذا المستقبل .

وقد روى عن دافنشى أنه حين مات حطت على رأسه حمامة ، فكانت رمزاً لطيران الإنسان ، هذه الأمنية التى فكر فيها هذا المفكر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وكذلك مات ولز وهو يرى بعينيه فى العام الأخير من حياته هذا الكشف العالمى ، كدت أقول الكونى ، المظيم : الطاقة الذرية تخدم الإنسان . وصحيح أن هذه الخدمة كانت للشر والدمار ، ولكن ماذا فى هذا ؟

أجل ! لقد اهتز ولز من هذا الكشف بل تزعزع وتكلم فى تشاؤم . ولكن

ما كان أحراه لو أنه عاش سنوات بعد هذا الكشف أن ينهض ويكافح ، وفق سيرته الماضية ، لاستخدام هذا العلم الجديد فى خدمة الإنسان . ولا بد أنه كان يظفر . فقد سبق أن حدثنا فى خيال علمى ، بديع مرعب ، عن غارة أبناء أحد الكواكب على أرضنا ، وكيف استولوا فى أيام قليلة على الأرض والبحر والجبل والسهل ، وكيف شرعوا يربوننا كما نربى نحن الأرانب ، فإذا جاعوا مصوا دماءنا ، ثم كيف نجونا منهم بالميكروبات ، هذه الميكروبات التى يزخر بها عالمنا وقد تعودتها أجسامنا ، ولكن أجسام هؤلاء الغرباء لم تتعودها ؛ ولذلك تعفنوا وهلكوا .

وجاءت الطاقة الذرية فى العام الأخير من حياة ولز ترمز إلى هذا الخيال ، كما حطت الحمامة على رأس دافنشى ترمز إلى صعود الإنسان إلى السماء . وقد تحققت الرؤيا الأولى ، رؤيا دافنشى ، فهل تتحقق رؤيا ولز فى استعمار الكواكب ؟

وهذا الطراز الجديد من الأدباء يتكاثر فى أيامنا . أجل ! أولئك الأدباء العلميون الموسوعيون الذين عرفوا القوة التحريرية فى العلم ، أى تلك القوة التى تحرر الناس من الكد وتبسط لهم آفاقا فى الحياة الطويلة العريضة حين يكدّ لنا الحديد والكهرباء والذرة ، ولا يكون لنا بعد ذلك من هم واهتمام سوى الاستمتاع بالدراسة والكشف والاختراع والوقوف على أسرار الطبيعة . ولو أن ولز عاش أيام النهضة الأوربية حوالى ١٥٠٠ لكان واحداً من رجال النهضة ؛ لأنه كان يدعو فى حماسة إلى « البشرية » ، وكان يكافح « الغيبية » . وقد تغير معنى « البشرية » من أيام النهضة لأيامنا ؛ فكانت قبلا دعوة إلى قراءة مؤلفات الإغريق والرومان القدماء . أما الآن فهى ، فى معناها الامريكى ، دعوة إلى مقاطعة الغيبيات .

وليس غريباً أن تنشأ هذه الدعوة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث العلم مزاج نفسى وتطبيق عملى ومذهب دينى . وليس من شك أن لكل هذا نقائصه بل شروره . ولكن للحوادث حتمية تتجاوز النيات البشرية . ومن هنا الحاجة الملحة إلى مثل هـ . ج . ولز كى يعمل للتوفيق بين المعارف فلا يجعل إحداها تتمكن منا وتوجهنا بدلا من أن نتمكن نحن منها ونوجهها . وقد أوشك أن يحدث مثل هذا من الطاقة الذرية .

عمد ولز إلى القصة . وهو بلا شك قصاص ماهر ، ولكنه لو خير لآثر على القصة الشرح الموضوعي . وهناك قصص ألفها فى الفترة الأولى من حياته الأدبية يبدو أنه التذ كتابتها وسُرّ بما فيها من براعة فنية . ولكنه فى السنين الأخيرة ، أو بالأحرى منذ بداءة الحرب الكبرى الأولى إلى الآن ، جعل القصة وسيلة إلى نشر بحوثه الاجتماعية العلمية . ولكن يجب ألا نخطئ فنزعم أنه اختار هذا الطراز من القصة ، لأن الاختيار لا مكان له . ذلك أنه حين ابتدأ يكتب فى العقد الأخير من القرن الماضى كان العصر والظرف ، كلاهما يتيح إلى حد ما ، نبوغاً فردياً أو اقتحاماً شخصياً ؛ فكان هناك مجال للبطل فى القصة ، ينوى فيعمل ، ويريد فيفلح ، أو على الأقل كان هذا هو الفهم العام . والأغلب أنه كان فهماً مخطئاً حتى فى ذلك الوقت . ولكن منذ بداءة هذا القرن أخذ الوسط يتغلب على الفرد ، وكان وسط القوات الاقتصادية الآلية ، فصارت الأعمال « تكيف » النيات وتوجه الإرادات . ولذلك أصبحت قصص ولز رسائل مسهبة فى التحليل النفسى أو التضخم الاقتصادى أو الاتجاه السياسى ، وانحط شأن الفرد فى القصة لهذا السبب .

سألنى ذات مرة أحد القارئين عن أحسن كتاب قرأته فى اللغة الانجليزية من حيث الأسلوب. فقلت له ببديهتى : كتاب داروين « أصل الانواع » . ولم أكن مازحا فى هذا ؛ لأنى أحس أن أسلوب التفكير الذهنى عند داروين خير ألف مرة من أسلوب العاطفة المزيفة أو الخالصة عند أوسكار وايلد ؛ لأن الفن الذهنى خير من الفن العاطفى .

وأسلوب ولز الأديب العلمى هو أسلوب داروين لا أسلوب أوسكار وايلد . ولو أن ولز نفسه سئل عن أسلوبه من أى الطرز هو لأجاب بقهقهة عالية ؛ لأنه لو استطاع أن يكتب بالعامية وأن يصل منها إلى غايته فى سعة الانتشار لما أحجم .

وقد استخدم ولز العلم بمهارة كبيرة فى القصة أكبر من المهارة التى استخدمه بها چول ڤيرن . ولكنه وجد أن القصة لا تؤاتيه على إيضاح أغراضه ، فتركها وعمد إلى ماوصفناه بأنه « رسالة مسهبة » فى شرح الموضوعات التى يتماس فيها العلمان : المادى والاجتماعى .

ولعل أعظم ماحمله على ترك القصة أنه رأى أن إغفال البطل منها يجعلها ماسخة ؛ لأن حيوية القصة بأشخاصها . وأغلب القصص ، يجعل مرتكز هذه الحيوية ،

الغريزة الجنسية ، فما تفتأ جميع القصص تتحرش بهذه الغريزة . والانتقال من هذا التحرش العامي إلى البحوث السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخطيرة يحدث للقارئ صدمة لا تتفق وفن القصة . وهذه القصص الخطيرة التي عالج فيها ولز مشكلات المجتمع لن تعيش ؛ لأن هذه المشكلات تتغير ويجد غيرها بتغير الوسط الاجتماعي الاقتصادي . لأن مالنا من عواطف وأمان وما يرافقهما من سلوك وتفكير إنما هو كله ثمرة الوسط الاجتماعي الاقتصادي . ولذلك فإن القارئ لقصص ولز الاجتماعية بعد عشرين أو ثلاثين سنة سوف يجدها غريبة عن قلبه وعقله ، في حين أن تلك القصص الأولى التي تحوي « أبطالا » سوف تقرأ في لذة مهما طال عليها الزمن، وخاصة تلك التي يعمد فيها ولز إلى فكاهاته التي تقارب بل أحياناً تطابق ماخلفه ديكنز أحد أمراء القصة في القرن التاسع عشر .

قال ولز في كتابه « طوالع الإنسان » ، وهو كتاب يبحث فيه مشكلات البشر ومستقبلهم

« لقد استغرق جزءاً كبيراً من حياتي الوجدانية ، كفاحي لأجل نشر المعارف المثمرة . فقد حاولت أن أجمع وألخص المعارف الراهنة كي يستطاع استغلالها في المعيشة البشرية ، وكي أحمل غيري ومن هم أكفى مني على أن يقوموا مثلي بهذا العمل . وكذلك عملت كي أجمع بين النظم غير المتناسقة من التفكير بشأن الحقائق ، وهي نظم ، يتجاهل كل منها الآخر ، في بلادة الذهن وإضاعة الفرصة ، كما أن كثيراً من التشوش الذهني في التفكير البشري يعود إليها . ذلك أن هذه الفلسفات والغيبيات المتناقضة ، التي لم تتناسق ، تزحم الذهن البشري . وعدم تناسقها هذا يرجع إلى أن كلاً منها يتجاهل الآخر . وأنا لا أطيق هذه المتناقضات ؛ لأني حين أعالجها أجد أنها تقلقني وتربكني . . . وما لذهني من ميزة خاصة أو نقص خاص إنما يرجع إلى صفة واحدة . فاذا مدحت قلت إن عقلي يجابه المشكلات ، وإذا ذممت قلت إنه لايفطن للخفي . فأنا لا أطيق التفاصيل المربكة أو الأكاذيب العرفية لأني أخشاها جميعاً . . . وأنا أطرق فكرتي كما لو كانت سنداناً . . . »

أجل ! لقد طرق ولز طائفة من الفكرات ودق عليها في تكرار ، ولكن ، في كل مرة ، يختار ناحية أخرى منها غير تلك التي دق عليها من قبل . ولذلك

انتقل من القصة إلى المقال الاجتماعى ، ثم جعــل القصة تتناول بحوثا اجتماعية مختلفة . وأخيراً ترك القصة أو كاد إلى تأليف الكتب الضخمة فى الاجتماع .

وقد نجح كل من أبسن وشو فى استخدام الدرامة للبحوث الاجتماعيـــة . واحتفظ الأول بعشرة فى المئة من فن الدرامة ، واحتفظ الثانى بأكثر من خمسين أو ستين فى المئة . ولكن لا يمكن أن يقال إن ولز نجح فى استخدام القصة حتى إلى الحد الذى بلغه شو . والحق أن المسرح يتيح للمؤلف معالجة المشكلة الاجتماعية أكثر مما تتيحه القصة ؛ لأن الأشخاص على المسرح يجسمون المشكلة بلا شرح مسهب لما تحويه من عُقَد . ولكن مؤلف القصة يضطر إلى مثل هذا الشرح فتنقلب القصة إلى بحث اجتماعى كثيراً ما يتعارض مع أصول الفن فيها .

عندما أتأمل حياة ولز ومؤلفاته أحس أن شهوته الذهنية الأولى هى العلم . فقد تتلمذ للعظيم توماس هكسلى (والد چوليان وألدوس) ، الذى جعل من نظرية التطور مذهبا جهاديا ، وقضى حياته فى مكافحة المظلمين والغيبيين كى يجعل هذه النظرية مألوفة تتحدث عنها الصحف ويسلم بها العامة . وقد نجح فى ذلك . وشىء من هذا الروح الكفاحى قد انتقل إلى ولز ؛ فإنه حين ألف « خلاصة التاريخ » بل حتى فى أواخر السنين من عمره لم يكن ينسى أن ينبه إلى أننا كنا سمكا قبل ٣٠٠ أو ٤٠٠ مليون سنة ، فكيف نكون بعد مثل هذه الملايين فى المستقبل ؟ وقد نبعت تكهناته المختلفة ، الخيالية والحقيقية ، من هذه البؤرة . فمن التكهنات الخيالية هاتان القصتان: « حرب العوالم » و « ناس كالآلهة ». ومن التكهنات الحقيقية الحرب الأوربية الكبرى الثانية ، والدبابات والطائرات ، والقنبلة الذرية . وكانت بصيرته ، لسوء حظ البشر ، صادقة فى كل ذلك .

ولكن ولز انقطع عن البحث العلمى ؛ لأنه اضطر عقب حصوله على درجة « بكالوريوس فى العلم » إلى ان يسعى لرزقه ، فاختار القصة الخيالية والفكاهية أولاً حتى إذا زالت عنه الحاجة الملحة عمد إلى البحوث العلمية الاجتماعية ، أو ، كما قال هو ، محاولة التنسيق بين المعارف المادية والنظام الاجتماعى . وكأنه بهذه البحوث قد استأنف إشباع شهوته العلمية الأولى ولكن فى الميدان الاجتماعى .

وكتاب « خلاصة التاريخ » يعد حسناً من حيث إنه محاولة أولى فى اعتبار

العالم أمة واحدة تسير متساندة فى موكب الحضارة : الكتابة فى مصر ، والورق فى الصين ، والمطبعة فى ألمانيا ، ثم بعد ذلك انفجار الثقافة على العالم كله . أو ، من قبل ذلك : الزراعة فى مصر ، ثم نقود الأسكندر وجيوشه وفتوحاته ، ثم انفجار الحضارة الإغريقية المصرية الرومانية فى البحر المتوسط . ثم يتصل العالم ويتشابك ، حتى إننا نرى ملكا هنديًا فى بداءة القرن الثانى قبل الميلاد يبعث إلى الأسكندرية يدعو المصريين إلى البوذية . ثم يزداد التشابك بمخترعات القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين إلى أن يعود استقلال الأمم وانفرادها مستحيلا بل ضارًا . إذ يجب التوحيد السياسى للعالم بحكومة واحدة .

وقد عاش ولز أيام طفولته فى بدروم ، وكانت أمه خادمة للأسرة التى تعيش فى الطبقتين العليين . وكانت أمه ، كما هو الشأن فى الخادمات ، تخشى صعوده إلى إحدى الطبقتين . ولذلك هو يذكر من أيام طفولته ذلك البعبع الذى يسكن فى الطبقة العليا. وقد أتاح له نجاحه أن ينتسب بعد ذلك إلى الطبقة المتوسطة ، ولكن بقى فى نفسه خوف الفقر إلى يوم وفاته . وعندى أن هذا الخوف هو ، فى سيكلوجية الأعماق الفرويدية التحليلية ، السبب لكراهته للاشتراكية الماركسية أو حرب الطبقات ؛ لأنه أبى أن يمثل طبقات العمال الذين ولد معهم فى ظلام البدروم ، وأصبحت دعوته إلى الاشتراكية هى الدعوة الفابية أى اشتراكية التطور السلمى بالإصلاحات المتدرجة التى يقبلها أبناء الأمة جميعهم فقيرهم وثريهم .

وقد زار روسيا مرتين، فلم يرتح إلى اشتراكيتها، وفهم منها مثلما فهم برنهام الأمريكى فى كتابه « الثورة الإدارية » أى إن القائمين بإدارة المصانع والمزارع والمكاتب قد أخذوا فى النظام الجديد مكان المالكين فى النظام القديم من حيث التمتع بامتيازات الأجور أو الرواتب العالية وغيرها . ولكن ليس شك فى أن حجة ولز ضعيفة جدًا فى مكافحته للماركسيين . وقد أنفق كثيراً من جهده فى هذه المكافحة العقيمة ، وكان فى مستطاعه أن يتركها ، وخاصة لأن موضوعه الأصلى وهو « الحكومة العالمية » لايحتاج إلى مثل هذه المكافحة . فقد آمن هو بالاشتراكية ، ووجد أنها ضرورية للسلام والطمأنينة للأفراد والأمم . ومشاجرته هنا للماركسيين الإشتراكيين تشبه مشاجرته القديمة فى ١٩٠٦ حين وقف فى الجمعية الفابية ، وهى جمعية تدعو إلى الاشتراكية

السلمية التدرجية ، يدعو إلى الكفاح السياسى ، فى حين كان زعماؤها قانعين بالكفاح الثقافى . ووجد نفسه أيضاً أنه ضد مبادئ ماركس أى ضد حرب الطبقات ، والمنطق الكلامى ، والدوليات ؛ مع أن هذه « الدوليات » كانت الطليعة للبرنامج العالمى الذى انتهى إليه بعد ذلك . ولكن يمكن الدفاع عن ولز هنا بأنه أيقن فى تلك السنين أن المزاج الانجليزى أقرب إلى المبادئ الفابية السلمية منه إلى المبادئ الماركسية . وحكومة العمال القائمة الآن ، بعد أربعين سنة من مشاجرته مع الفابيين ، تدل على أنه قد صدق هنا أيضاً فى تكهنه السياسى ، كما سبق أن صدق فى تكهناته العلمية . وفى تلك الفترة وضع كتابه عن الاشتراكية « عوالم جديدة للقدامى » ، وغايته أن يثبت أن الأثرياء والمتوسطين يجب أن يقبلوا النظام الاشتراكى مثل العمال ؛ لأن مصلحتهم تقتضى ذلك .

ولكن ولز سيعرف فى السنين القادمة بجهاده لأجل التوحيد العالمى . وأول ما نجد هذا الاتجاه واضحاً فيه هو فى كتابه الذى ألفه فى ١٩٢١ « استنقاذ الحضارة » . وفهرست الكتاب تدل عليه : المستقبل المرجح للبشر ، مشروع الدولة العالمية ، التوسع الوطنى إلى الدولة العالمية ، إنجيل الحضارة ، تعليم البشر ، الكلية والجريدة والكتاب .

وهذه الفهرست لا تحتاج إلى شرح . فهو يقترح إيجاد حكومة عالمية تهيئ البشر جميعهم بتعاليم موحدة إلى وطنية عالمية .

وفى ١٩٣٢ وضع كتابه « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » وهو دراسة موضوعية للحال القائمة للعالم فى تلك السنة كأنها الجغرافية الاجتماعية . اعتبر الفهرست أيضاً : كيف أصبح الإنسان حيواناً اقتصاديًّا ، كيف تعلم الانسان التفكير والتسلط على القوة والمادة ، التسلط على المسافات ، التسلط على الجوع وكيف يغتذى الإنسان ، التسلط على المناخ ، كيف تشترى السلع وتباع ، كيف ينظم العمل ، لماذا يعمل الناس ، كيف يكافأ العمل وكيف تجمع الثروة ، الغنى والفقير وخصومتهما التقليدية ، مهمة المرأة فى عمل العالم ، حكومات البشر والقتال الحربى والاقتصادى ، عدد البشر وصفاتهم ، الطاقة الفائضة للبشر ، كيف يعلم البشر ويدربون ، طوالع البشر .

ثم كتابه « أشكال الأشياء القادمة » وهو تعقيبات وشروح وتكهنات عن الكتاب السابق . وقد وضعه فى ١٩٣٣ .

وأخيراً كتابه « طوالع الإنسان » وقد ألفه فى ١٩٤٢ . وهو أيضاً مثل الكتاب السابق تعقيبات وشروح .

وصفحات هذه الكتب الأربعة تبلغ نحو ألفى صفحة كبيرة . وهى جميعها حافلة بالإحصاءات والإشارات إلى دراسات أخرى .

ومن هذه العجالة يرى القارئ أن ولز طراز جديد من الأدباء . أجل ! هو أديب علمى ، سوف نرى فى هذا القرن مئات يسيرون على الطريق الذى شقه . ولن يكون هذا للتقليد ، ولكن لأن أدباء القرن العشرين سيجدون من واجبهم أن يقفوا حياتهم على حل المشكلة القائمة ، وهى التقدم الرائع فى العلوم المادية مع الجمود التام فى العلوم الاجتماعية ، وما ينتجه هذا من الرعب فى جميع المتبصرين المتكهنين الذين يرون الطاقة الذرية تصطدم بالغيبيات .

سلامه موسى

إلى البلبـل

أيهـــا البلبـل المغنّى سلاما ما أرقّ الغـناء والأنغاما !
شاقنى صوتك الجميل ، وأحيا فى حياتى الأفراح والأحلاما .
وسبانى الصياح يطلق فى الأفـ ـق سـناه مغرداً بساما
والطيور التى تبـادلك الألـ ـحان حبًّا وألفـة وانسجاما
والزهور التى تزيد جمـالا حين تلقـاك شاديا مستهاما
كعذارى يسمعن همساً رقيقاً من شـفاه تبثهن الغراما

أنت يا بلبلى تغنى غنـاء يجعـل النفس تستعيد الرجاء
ويزف الربيع للقـلب حتى لا يرى القلب فى الحياة شتاء
أنت روح علوية تعشق النو ر ، وتهوى الآفاق والأرجاء
وترى غاية الحياة غنـاء يملأ الكون فرحة وبهـاء
ورســول من السماء إلينا يبعث الحب والمنى والرجاء
لنرى كيف نجعل الحياة نعيما وسلاما وبهجـة وصـفاء

أنت تحيـا فى غبطة وحبور بين أيك وربوة وغـدير
لك ما تشتهى الحيـاة إذا جا شت بسر المنى، وروح الشعور
إنما أنت فى الحيـاة طليق لست مثلى تعيش عيش الأسير
فتنقّـل بين الرياض طـروبا أو تحلّق بين الفضاء الكبير
وإذا ضمك المساء فطر شو قاً إلى عشك الجميـل الوثير
فاقض فيه ليـل الصبابة حتى يقبـل الفجر هاتفاً بالطيور

إلى البلبل

يا سليل الحياة ، يا ابن الزمانِ ... صوتك العذب رنّ فى وجدانى
أنت علمتنى الغنــاء فأصبحـ ... ـت أغنى بمهجتى وكيـــانى
إننى دائمـــاً أذوّب روحى ... فى قواف تموج بالألحـــان
أنا فى مهجتى مشـاعر ما زا ... لت تعانى فى سجنها ما تعانى
فادنُ منى كيما أبثـــك أفرا ... حى ، وأشكو إليك من أحزانى
وكفانى أنى أعيش غريبـــاً ... بشعورى فى عالم الإنسان

ليتنى بلبل يعيش ســـعيدا ... يقطع العــمر طائراً غِرّيدا
أنا فى عالم يقيـــد روحى ... وهى تشتاق أن تفك القيودا
غير أنى لم أعرف اليـأس يوما ... لا ، ولم أفقد الرجاء الوليدا
إننى دائمـــاً أطل بروحى ... نحو أفق يضم فجراً جديدا
سوف يبدو سناه يوما لعينى ... فأرى فيــه حلمىَ المنشودا
وترفّ الحيـــاة فى قلبىَ البا ... كى سـلاما وفرحة ونشيدا
أمل ساحر أراه قريبـــاً ... فأغنّى ، وقد أراه بعيـــدا

ابراهيم محمد نجا

صورة من عهد النهضة الأوربية

البابا والمثّال

عند ما قابل البابا يوليوس الثانى المثّال لأول مرة ، كان كل منهما قد بلغ قمة الشهرة فى محيطه . فلم يكن البابا شبحاً من تلك الأشباح العابرة التى جلست على كرسى القديس بطرس وتركت أسطراً على صفحات التاريخ ضئيلة ، بل برزت مواهبه منذ نصبه عمه البابا سستو الرابع كردينالا ، فكان من أقوى ذوى القبعات الحمراء شخصية ، ومن أمضاهم عزيمة ، وقد عرف بالسخاء فى تشجيع العلوم والفنون ، كما عرف بشدة العارضة واللَّدَد فى الخصومة إذا غضب . فما إن مضى به الزمن وامتدت به الحياة حتى صار فريق من الناس يعتقدون أنه أولى من غيره بالجلوس على كرسى البابوية وأجدر رجال الدين بأن يملأ هذا العرش الكبير .

لكن إسكندر السادس ، أو إسكندر بورچيا إذا أحببت ، فاز بالانتخاب دونه بعد وفاة نيقولا الخامس . ولم يقنع اسكندر السادس ، أو لم يقنع أبناؤه ، بأن يكون جالساً على العرش الرومانى للمسيحية والمدنى لروما وتوابعها من بلاد وأراض واسعة فى إيطاليا ، بل أراد أن يؤسس ملكا لبنيه ، وطمع ابنه شيزارى بورچيا فى أن يكون ملكا على إيطاليا بأسرها ، جاعلاً نواة هذا المطمح العظيم أن ينتزع أرض الكنيسة من الكنيسة .

وكان من الطبيعى أن يكون الكردينال دى روڤيرى ، الذى نذكره تحت اسم يوليوس الثانى ، أشد خصوم البابا وأبنائه فى مشروعاتهم ، وأكثر الناس تنديداً بمطامعهم ، وكان آل بورچيا لايتورعون عن محاربة خصومهم بجميع الوسائل . حتى الوسائل التى تعد جرماً من فرد عادىّ بَلْهَ رجل من رجال الدين ، بل بَلْهَ بابا أو كرادلة ، فكانوا مثلا — هكذا أثبت ذلك التاريخ ، أو لم يثبت وإنما هكذا قال معاصروهم — يلجأون أحياناً

إلى طريقة بسيطة فى التخلص من خصومهم : فكأس من الشراب مشوب بمادة يعرف آل بورجيا سرها كفيلة بذلك .

لذلك رأى الكردينال دى روفيرى مع خصومته وشدة عارضته — كما رأى غيره من كرادلة — أن حياته ليست بمأمن فى روما ، واضطر إلى الفرار والالتجاء إلى ملك فرنسا ، يعيش فى أرضها ويقيم فى الوقت نفسه حرباً عواناً على بابا بورجيا .

فإذا مات البابا إسكندر السادس فى ظروف غامضة ، إذ كان الناس لا ينتظرون وفاته ، توقع الناس أن يليه الكردينال دى روفيرى غريمه . ولكن ذلك لم يحدث ؛ لأن الكرادلة كعادتهم يؤثرون البابا الضعيف على القوى ، وانتخب الكردينال بيكولمينى باسم بايوس الثالث ، ولكنه لم يعمر غير بضعة أشهر ، وانعقد مجلس الكرادلة ، فلم يكن بد من انتخاب يوليوس الثانى .

ولسنا نريد أن نسرد تاريخ هذا البابا العجيب ، فقد برزت قوته بمجرد توليه كرسى البابوية ، فهو لم يقنع بأن استخلص أراضى الكنيسة من شيزارى ، واضطره إلى التشرد والنفى والموت فى بلاد بعيدة ، بل أخذ يستخلص غيرها من الأراضى التابعة للبابا ، فشن الحروب وسير الجيوش على مدينة بيروجيا ، ثم على مدينة بولونيا ، وكان يسير مع جنوده فى ثياب أقرب إلى ثياب القواد منها إلى ثياب البابا ، وهو يستحث جنوده على القتال ويدخل فى طليعتهم إلى المدن إذ تسلم إليه .

ولقد نعجب إذ نرى أن المؤرخين والكتاب من الفرنسيين إلى اليوم يحبون أن ينحوا باللائمة على البابا يوليوس الثانى ، ويزعمون أنه نبذ ما يليق بالبابا من وقار ، وأنه كان يسلك مسلك القواد المرتزقة — الكوندتييرى — الذين كانوا يؤجرون أنفسهم وجنودهم لأمراء الدول الإيطالية ، وللبراطرة والملوك الذين كانوا يطمحون دائماً إلى الاستيلاء على المدن والبلاد الإيطالية . ولكن لعل الكتاب الفرنسيين متأثرون حتى الآن بموقف البابا نحو بلادهم . فلقد عرفنا أنه لجأ إلى فرنسا وهو كردينال . ويجب أن نعرف أن الكرادلة الفرنسيين أيدوه ، وعملوا على انتخابه لكرسى البابوية ، وكانوا ينتظرون منه أن يؤيد سياسة فرنسا ومطامعها ، ولكنه لم يفعل ، بل سلك سياسة مستقلة غرضها

الأول حماية ما للكنيسة من نفوذ سياسى . وكان طبيعيًا أن يصطدم فى مبدأ حكمه بملك فرنسا ؛ فقد تحدى الملك فى أغراضه ، ولم يتردد فى قتال الفرنسيين ، وعرف كيف ينهزم أمامهم ، ثم كيف يهزمهم .

أما المؤرخون الألمان فإنهم جميعاً ، أو أكثرهم ، يعتبرونه أعظم رجل جلس على كرسى البابا فى عصر النهضة . ولعل ما اتصف به من روح الحرب والقتال ، مما يخرج به عن موقف رجل الدين ، قد صادف هوًى فى نفوسهم وفى طبيعتهم المناضلة . ولكن ما لنا نحن الشرقيين لا ننظر إلى هذا البابا وزملائه من الذين حكموا روما فى عصر النهضة نظرتنا إلى النظام القائم عندئذ فى الشرق ! ألم يكن الخليفة من بنى العباس رجل دين ودنيا معاً ؟

على أن ما يهمنا فى السنوات الثمانى من حكم البابا يوليوس الثانى ، ليس حروبه ، فتلك قصة رائعة لذيذة ، وليس هذا موضعها ، ولكن ما يهمنا هو ذلك النشاط الفنى العظيم الذى ظهر فى عصره نتيجة لتشجيعه . فالبابا يوليوس الثانى حوّل روما من مدينة خربة من مدن القرون الوسطى ، إلى مدينة من مدن الفن الخالدة ؛ فقد جذب إليها أكبر رجال الفن فى عصره ، وكان من حسن طالعه أن عصره يعج بالرجال النابغين فى مختلف الفنون ، فجذب إلى روما أكبر المهندسين ، وأكبر المصورين ، وأكبر المثّالين .

ولقد خدمه حشد منهم ، نذكر من بينهم برامنتى ذلك الذى أشرف على العمل فى إعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، فصارت تحفة نادرة من تحف الفن كما نراها اليوم ، وهو الذى عرف ما فى الصبىّ رفاييل من مقدرة على التصوير ، فعهد إليه أن يضع تلك الرسوم الخالدة التى نراها إلى اليوم فى شرفة من شرفات قصر الفاتيكان ، ولكن الصفحة البارزة فى حياته الفنية ، هى قصته مع ميكل أنجلو ذلك المثـال الخالد .

لقد نشأ المثال ميكل أنجلو بوناروتى فى مدينة فلورنسا ، من أسرة عريقة ، وفى عصر لورنزو دى مديتشى الفخم ، وظهرت مواهبه الفنية وهو لا يزال طفلا ، وبدت هذه المواهب جلية لوالده ، فلم ير بدًّا من الاستجابة لميول الصبى ، فعهد فى تعليمه الرسم إلى جريلاندايو من أكبر المصورين فى فلورنسا ، فأظهر فى وقت قصير مقدرة فى فن التصوير وأثار اعجاب أستاذه ، حتى قال ذات مرة إنه ليعرف أكثر مما أعرفه أنا .

وكان لورنزو دى مديتشى محبًّا لفن التماثيل ، فجمع مجموعة عظيمة من التماثيل القديمة ، وأنشأ فى حديقته بساحة سان ماركو مدرسة يتعلم فيها الشبان هذا الفن ، واتخذ برتولدو المثال لها رئيساً . فطلب من جريلاندايو أن يختار له من بين تلاميذه من يميل إلى فن التماثيل أكثر من التصوير ، فاختار له ميكل انجلو الذى أخذ بعد بضعة أيام فى احتذاء بعض التماثيل القديمة مع أنه لم يلمس الرخام من قبل . وأعجب لورنزو برأس رجل شيخ نقله المثال الشاب إعجاباً شديداً . وكان الشاب فى دقته قد فتح فم التمثال ووضع داخل الفم لسانا والأسنان كاملة . فقال له لورنزو ضاحكا : ألا تعلم يابنى أن الشيوخ يفقدون دائما بعض أسنانهم ! وكان الشاب يحترم الأمير احتراماً كبيراً . ولم يأخذ الملاحظة على أنها دعابة ، فكسر بعض الأسنان وعدّل من اللثة . فلما شاهد الأمير ذلك زاد ضحكه وزاد إعجاباً بمهارته ، وأرسل فى طلب والده واستأذنه فى أن يقيم الصبى فى القصر ، ويطعم من طعامه ، وكان عندئذ فى الخامسة عشرة من عمره ، وقد ظل مقيما فى القصر إلى وفاة لورنزو .

لم يكن الشاب ليقنع بما ظهر من مهارته ، فأخذ يحاول أن يتعرف الجسم الانسانى ، وكان فى ذلك الوقت يصنع صليباً من الخشب لكنيسة روح القدس بفلورنسا ، فأنزله رئيس الكنيسة فى غرفة مناسبة ، وسمح له فى تشريح بعض الجثث ليقف على تكوينها ، وبذلك زاد خبرة ومعرفة بتركيب الجسم الإنسانى وما فيه من عضلات .

ثم سافر قبل طرد أسرة مديتشى من فلورنسا بقليل إلى البندقية ، فلم يجد عملا ، فرحل عنها إلى مدينة بولونيا حيث أقام أكثر من سنة بين أسرة كبيرة عرفت قدره ، ثم عاد إلى وطنه . وحدث فى ذلك الوقت أن صنع تمثالا للقديس يوحنا لأحد أفراد أسرة مديتشى ، ثم صنع تمثالا من الرخام لإله الحب وهو نائم . فلما شاهده أحد العظماء قال له : إنك لو أرسلته إلى روما على أن يدفن فى الأرض ثم يخرج منها ، لظنوه تمثالا قديماً ، ولدفعوا لك أضعاف ما تجنيه من ثمنه فى هذه المدينة . وقد فعل ، وجاز الأمر على الكردينال سان جورجيو ، فاشتراه بمائتى دينار ذهباً . وشاع الأمر بعد ذلك فى مدينة فلورنسا ، واضطر إلى رد النقود ، وإن كان المشترى لم يسلم من النقد لأنه لا يهتم للفن الحديث مهما كان إتقانه .

وكان فى فلورنسا قطعة من رخام أفسد مثال من مقاييسها فلم تعد صالحة لشئ ، وظلت ملقاة لا نفع منها ، إلى أن استأذن ميكل أنجلو فى أن تعطى له ، فوضعتها إدارة المدينة تحت تصرفه ، فاذا به يصنع من تلك القطعة التى كانت لا تصلح لشئ ، تمثالا خالداً يمثل صورة البطل داڤيد ، فكان هذا التمثال وسيظل دائماً فخراً للمثال ولموطنه .

إذن كان كل من البابا والمثال قد بلغ قمة الشهرة فى محيطه ، عند ما أرسل البابا يوليوس الثانى فى طلبه ، وكان المثال مع كل ما بلغه من شهرة حول الثلاثين من عمره ، ولا يزال فى شرح شبابه ، وهو متوسط القامة نحيل متوتر الأعصاب ، أكتافه عريضة على أنها متناسبة مع قامته ، وكان وجهه كبيراً ، وتبدو فى عينيه الصغيرتين مظاهر الطيبة ، وهو غير قبيح الصورة مع أن أنفه كان أفطس إذ كسر عقب حادث وقع له فى صباه . وكان ميكل أنجلو سريع الغضب سريع الرضا . أما البابا فكان يبدو ، كما نراه فى صورته التى رسمها له رفاييل ، طويل القامة نحيلا بعينين متوقدتين نافذتين ، ويبدو كما نراه فى هذه الصورة أيضاً ، متوثباً سريع الغضب أيضاً وسريع الرضا . وكان البابا قد عرفه لا بشهرته فقط ، بل لأنه شاهد شيئاً من أعماله الخالدة . فقد رأى ذلك التمثال الرائع الذى يمثل حنو الأم المقدسة نحو ولدها الجريح ، والذى نشاهده ونعجب به إلى اليوم فى الركن الأيمن من كنيسة القديس بطرس . فلما جاءته دعوة البابا أسرع إلى روما ووصل إليها فى شهر مارس سنة ١٥٠٥ ، فوجد فى البابا أكبر عاهل يقدر رجال الفن ويحفظ لهم كرامتهم . وكان البابا يتابع أعمال الفنان فى اهتمام كبير ، ويلح عليه فى إتمام مابدأ به من عمل الحاح الطفل فيما يرغب فيه . ولا ينتهى الفنان من عمل حتى يكل إليه البابا عملاً آخر . وكان البابا والفنان متفاهمين كل التفاهم ، ولكن كل منهما كان حاد الطبع عنيفا ؛ فكانا على ما لديهما من حب واحترام متبادل ، تقع بينهما مصادمات ومشادات لا يلبث أثرها أن يزول ، ويتغلب عليها ما طبعا عليه من طيبة قلب وحب للفن وتقدير له .

عهد إليه البابا أول ما عهد فى إنشاء بناء فخم يكون من الرخام يوضع فوق قبره ، وقد أراد البابا أن يتم ذلك فى حياته ، فأعد ميكل أنجلو عدة رسوم واختار البابا إحداها ، ووقع المثال عقداً فى أن يتم ذلك النصب فى خمس

سنوات ، على أن ينقد ثمنا قدره عشرة آلاف دينار ويمنح فى هذه السنوات الخمس راتبا شهريا قدره مائة دينار . وتحمس ميكل أنجلو لهذا العمل ، وسافر إلى تلال مدينة كارارا المشهورة بصفاء رخامها ليختار الأحجار بنفســه وظل يراقب العمال حتى أتموا استخراج قطع الرخام التى نقلت إلى روما بالبحر ، وكانت تزن نحو عشرة ومائة طن ، واستغرق هذا العمل ثمانية أشهر .

عاد إلى روما بأحجاره التى وصلت بعد صعوبات كبيرة ، فأقام مصنعه فى ساحة سان بيترو ، واستعد للعمل فى هذا البنــاء التذكارى الذى لو أنه تم كما بين فى الرسم لــكان أعجوبة الزمن .

ولــكن ميكل أنجلو كان يدبّر لعمله والبابا يدبّر لعمل آخر : ذلك أن أفــكار البابا أخذت تتجه وجهة جديدة ؛ فقد رأى قبل أن ينشىء هذا النصب الذى ليس له مثيل والذى كان يقدر وضعه فى كنيسة القديس بطرس ، أن يجدد الــكنيسة نفسها ويعيد بناءها ، بحيث تصبح جديرة بمقر المسيحية . وموئل رئيسها . وإذن فقد رأى أن يوقف بناء النصب مؤقتا إلى أن يشرع فى تجديد الــكنيسة ، كى يكون هنالك تناسق بين فخامة البناء وفخامة النصب التذكارى . وفى الوقت نفسه كان البابا يدبر عملا فنيًّا آخر لميكل أنجلو ، وهو أن يغطى حوائط المصلى المعروفة باسم البابا سستو بالرسوم ، وكان ميكل أنجلو قد ترك فن التصوير منذ صباه واتجه بميله نحو النحت ، فتلــكأ فى إجابة البابا إلى رغبته ، واعتذر بانه لايتقن التصوير ، وأنه وقد بدأ فى العمل الذى تعاقدا عليه ، واستأجر أعوانا من رجال الفن من فلورنسا بعد إذن البابا ، ونقدهم نقوداً من عنده ، وأنفق فى سعة على العمل غير منتظر الأقساط التى تدفع إليه ، لا يستطيع الآن أن يترك هذا العمل . وطلب مقابلة البابا شخصيًّا ، ليشرح له الظروف ويقنعه بالسير فيما اتفق عليه ، لاسيما أنه نمى إليه أن البابا صرح لبعض رجاله بأنه لن ينفق فلسا على الأحجار . على أن البابا لم يقابله بل أجل مقابلته أسبوعا ، فلما ذهب فى الموعد المضروب قيل له إن البابا مشغول عن مقابلته فى ذلك اليوم ، فاستشاط غضبا وصاح قائلا : « أخبروا البابا بأنه إذا أرادنى فليجدنى إذا استطاع ذلك » . وخرج مسرعا من القصر ، فطلب من أتباعه أن يبيعوا متاعه وامتطى جوادا ورحل عن روما وهو لا ينتوى الرجوع إليها .

أخبر البابا يوليوس بفرار ميكل أنجلو وكان ذلك فى اليوم السابق للاحتفال

بوضع الحجر الأساسى فى بناء كنيسة القديس بطرس ، فأمر بأن يجدّ بعض جنوده فى أثر المثال الهارب وأن يأتوا به ولو قسراً إذا اضطروا إلى ذلك . ولكن المثّال كان يسرع العدو ، ولم يهدأ باله حتى وصل إلى حدود دولة فلورنسا . وهنالك أدركه الرسل وسلموه رسالة البابا التى يأمره فيها بالعودة وإلا غضب عليه . ولكن الفنان الغضوب لم يكن ليذعن فى هذا الظرف ، بل كتب إلى البابا رسالة يقول فيها : « إننى لم أكن أستحق بعد ما قدمته لقداستك من خدمات أن أطرد من القصر كما يفعل بخادم حقير ، وما دمت قد عدلتَ عن إقامة النصب التذكارى فقد تحررتُ من العقد ، ولا أريد أن أرتبط بعمل آخر . »

رأى أصدقاء من مواطنيه فى خدمة البابا أن يتوسطوا فى الأمر ، وكاتبوا ميكل أنجلو طويلا فى ذلك ، فكان يتمنع . وقد ذكر له أحد هؤلاء الفنانين فى رسالة أنه كان جالساً فى حضرة البابا مع الفنان برامنتى ، الذى وضع رسوما لتجديد كنيسة القديس بطرس ، وكان برامنتى لا يحب ميكل أنجلو ويغار منه ، فقال له البابا وهو يشاهد الرسوم سأرسل غداً صديقنا هذا سان جالو ليأتى بميكل أنجلو كى يبدى لنا رأيه ، فتضايق برامنتى وقال : « إن ميكل أنجلو لن يأتى فأنا على علم بطباعه » ، ثم أبدى أن ميكل أنجلو لا يحسن التصوير ، ولذلك فرّ من عمل الرسوم .

وكانت هذه الأنباء تحز فى قلب ميكل أنجلو ولكنه ظل على موقفه .

وحاول البابا محاولة أخرى ، فأرسل رسالة إلى مجلس الحكم فى فلورنسا يقول فيها : « أبنائى الأعزاء إليكم تحيتى وإنى لأباركـكم . وبعد فقد بلغنا أن ميكل أنجلو المثال الذى تركنا بغير سبب ولمجرد نزوة خائف ، من العودة . أما نحن فلسنا غاضبين عليه ، لأننا نعرف نزوات الرجال ذى المواهب . ولكى نبعد كل مظاهر القلق نعتمد على إخلاصكم فى إقناعه باسمنا بأنه إذا عاد فلن يصاب بسوء ، بل سيستمتع برضانا كما استمتع به من قبل . »

ومع ذلك ظل ميكل أنجلو على موقفه ، وكان قد وجد عملا فى صب اثنى عشر تمثالا من البرنز للرسل كى توضع فى كنيسة فلورنسا الكبرى .

وجاءت رسالة أخرى من البابا إلى سودرينى رئيس مجلس الحكم ، فدعا المثال وقال له : لقد سلكت نحو البابا مسلكا لا يجرؤ عليه ملك فرنسا ، فلينته هذا

الأمر ، فإننا لا نود أن نجر إلى حرب ونعرض الدولة للخطر من أجلك ، فاعتزم أمرك على الذهاب إلى روما .

ومع ذلك ظل الفنان ممتنعا ، بل فكر فى الرحيل عن إيطاليا بأسرها والذهاب إلى سلطان تركيا الذى دعاه إلى تنسيق جسر بين القسطنطينية وحى بيرا .

فى هذه الأثناء كان البابا قد قام بحملته على مدينة بولونيا فاستولى عليها ودخل المدينة فى موكب حافل فى شهر نوفمبر سنة ١٥٠٦ ، ورأى أن يخلد هذه الذكرى بتمثال تذكارى ، وكان فى أعماق قلبه لا يرغب فى أن يصنع هذا التمثال غير ميكل أنجلو . ولذلك عاد الكردينال اليدوزى ، نائبه فى حكم المدينة ، إلى السعى لدى حكومة فلورنسا كى ترسل الفنان إلى بولونيا ، وقد وُعد بأنه لن يقابل إلا بما يحبّ . وأخيراً رضى المثّال وسافر إلى بولونيا مزوداً برسالة من رئيس مجلس الحكم . ولم يكن الفنان راضياً كل الرضا بهذا الخضوع ؛ فقد قال عن ذهابه : « لقد سافرت بعد أن وضعوا النير فى عنقى » .

وقابله البابا مقابلة عاصفة وقال له : « كان من واجبك أن تبحث عنا ، ولكنك انتظرت حتى جئنا على مقربة منك — أى إلى بولونيا — لكى نبحث عنك » . فركع أمامه الفنان واعتذر إليه فى صوت عالٍ قائلا : إن فراره لم يكن مقصودا بل إنه اندفع فيه فى سورة الغضب ، إذ لم يحتمل حجبه عن القصر . ولم يجب البابا بل ظل مقطب الجبين مطاطئا إلى أن تدخّل أحد الكرادلة بكلمة يريد بها تهدئته فقال : « لعل قداستك لا تشتد على ما ارتكبه ميكل أنجلو من خطأ ، فهو رجل لم يتعلم قط حسن السلوك ، فهؤلاء الفنانون لا يعرفون كيف يتصرفون ولا يعرفون غير فنهم » . فما نطق بهذا الكلام حتى استشاط البابا غضبا على هذا المتدخل وصاح به : « لقد جرؤت على أن تقول لهذا الرجل أشياء لم أحلم أنا بقولها ! إنك أنت الذى لا تعرف حسن السلوك ! فلتذهب من أمامى أيها الجاهل التعس » . ومد يده إلى ميكل أنجلو وعفا عنه وأمره بصنع تمثاله .

هكذا عاد البابا والمثال إلى الصفاء بعد القطيعة : وكان البابا يتردد عليه فى مصنعه ليشاهد عمله كل يوم تقريباً . وتم التمثال بعد سنة وبضعة أشهر ، وكان تمثالاً عظيما يمثل البابا فى ملابسه الرسمية ، وهو أكبر من حجمه الطبيعى ثلاث مرات ، وكان تمثالا يظن أنه خالد ، ولكن لحياته كانت من أقصر ما تكون

حياة هذه الآثار ؛ فلم تمض على إقامته ثلاث سنوات حتى خرجت المدينة من يد البابا، واستولى خصومه عليها ، فكسروا التمثال بين سخرية الجمهور ، وصب منه مدفع أطلق عليه جوليا تحقيراً للبابا .

عاد ميكل أنجلو بعد انتهائه من هذا العمل إلى فلورنسا، فما لبث أن دعاه البابا، لا ليتم النصب التذكارى للقبر ، بل ليصور سقف المصلى . وأراد المثال أن يمتنع ويقاوم ، ولكن إرادة البابا الحديدية تغلبت فى آخر الأمر وتم الاتفاق على العمل . ووضع الفنان الرسوم ، ولكنه مالبث أن تصور فكرة أجل وأضخم مما قدّر فى بادئ الأمر ووضع لها رسوماً ، وعقد اتفاق ثان ولم يأت شهر مايو من سنة ١٥٠٨ حتى كانت العمد والحوامل الخشبية تملأ المصلى .

أراد الفنان أن يجد أعواناً يساعدونه فى عمله ولكنه وجدهم دون ما ينتظر فصرفهم جميعاً ، ورفع عبء العمل بأكمله على كاهله . وكان مما يزيد فى متاعبه أنه لا يكاد يمضى يوم حتى يزوره البابا فى مكان عمله ، ملحفاً عليه أن يسرع . وكان البابا الشيخ يتسلق أحياناً تلك الحوامل الخطرة لكى يشاهد بنفسه ما تم عمله ، وكثيراً ما تحدث بينهما مشادات عنيفة ولكنها لا تلبث أن تزول . وقضى الفنان بقية تلك السنة وشتاء السنة التى تليها فى عمل متواصل . وفى شهر مايو تمكن من إجازة قصيرة قضاها فى فلورنسا ثم عاد إلى العمل .

كان البابا فى هذه الأثناء قد دخل فى نضال حياة أو موت من أجل تحرير إيطاليا من الفرنسيين . لذلك اضطر إلى مغادرة روما للتفرغ للقتال ، وكانت الحرب تبتلع كل ما يأتى من مال . فما جاء شهر سبتمبر حتى وقف صرف النقود إلى الفنان . فكتب للبابا مرة يطلب نقوداً ، ثم رأى أن يسافر ويذهب ليراه شخصيا فى بولونيا ، فأمر البابا بأن يزود بالمال ، فكان القائمون على الأموال يدفعون إليه بعض الدفعات ولكن فى غير انتظام . وظل هو من جهته يصور السقف بالرسوم يوماً بعد يوم ، وكان يفعل ذلك وهو مستلق على ظهره فوق الحوامل الخشبية والألوان تتساقط فوق وجهه ، حتى قيل إنه بعد الانتهاء من هذا العمل ظل زمناً ما لا يستطيع قراءة رسالة إلا إذا رفعها فوق رأسه .

لكى نقرب إلى الفكر شيئاً من التعب الذى يحتاج إليه مثل هذا العمل ،

لا نريد الآن أن نذكر جمال هذه الصور كما رآها الناس منذ خمسمائة سنة وكما يرونها حتى الآن ، ولا ما فيها من نبوغ وقوة ، بل نريد فقط أن نذكر أنه غطى ما تبلغ مساحته عشرة آلاف قدم مربع بالرسوم ، وأنه صور من صور الأشخاص ما يربى على ثلاثمائة وأربعين صورة ، كل منها فى وضع غير وضع الآخر ، بعضها يبلغ طوله اثنىعشر قدما ، وبعضها يبلغ ثمانية عشر قدما ، وكلها دقيقة حتى فى تفاصيلها من شعر الرأس إلى أخمص القدم .

وكان البابا عندئذ فىأحرج الأوقات ، فقد انتصر عليه ملكفرنسا ، ولـكن نفسه لم تقهر . وقد عاد إلى روما فى أواخر يونيـه سنة ١٥١١ فرأى أن أكثر العمل تم . وظل ميكل أنجلو يعمل سنة أخرى بجد واهتمام . وكتب فى هذه الفترة يقول إننى أعمل عملا أشق مما عمله أى إنسان من قبل ، وأشعر بتدهور صحتى ولـكننى عازم على الصبر والعمل إلى النهاية . وفى أكتوبر من سنة ١٥١٢ كتب إلى أبيه يقول إنه أتم العمل . وفى أواخر ذلك الشهر احتفل البابا بإزالة الستار عن هذا العمل الخالد ، فوقعت أعين العظماء الذين حضروا الحفل على تلك الصور التى لا تزال تثير الإعجاب ، حتى هذا الزمن بالرغم مما أحدث بها مر السنين .

لم يكن وقتئذ أمام ميكل أنجلو مانع يحول دون استئنافه العمل فى النصب التذكارى الذى علق على إتمامه آماله ، وكانت الصعوبة فى هذا النصب أنه لم يتقرر بعد المكان الذى يقام فيه من كنيسة القديس بطرس .

ويظن أن المثال كان ينتوى حسب رسومه أن يقيم بناء يكون فيه النعش فى قالب من الرخام طوله أربعة وخمسون قدماً وعرضه ستة وثلاثون قدماً ، وتقوم حوله تماثيل ومجموعات تمثل فنون الرسم والنحت والبناء ، وهى أسيرة حداداً على البابا الفقيد ، حيث إنها لن تجد مشجعاً بعـده ، ثم تماثيل للنصر وأمامها الولايات التى استولى عليها راكعة تدل على خضوعها للـكنيسة ، ثم فى القسم الأعلى تماثيل أربعة ، يمثل اثنان منها النبى موسى والقديس بولس ، وفوق هذه التماثيل صورة للبابا وهو نائم يحمله ملـكان ، فيكون ارتفاع هذا البناء الضخم نحو ثلاثين قدماً ، وفيه أكثر من أربعين تمثالا غير صور لحوادث حياة يوليوس الثانى .

لو أن البابا عاش بضع سنوات لأتم ميكل أنجلو هـذا العمل الضخم الذى

ليس له مثيل ، ولكن البابا كان يسرع عاجلا إلى الموت مع ما كان من مظهر الصحة التى تبدو عليه ، ومع أنه ظل يعالج مهام الأمور بنشاطه المعروف ، فكانت وفاته فى ١٩ فبراير سنة ١٥١٣ ، وكان طبيعيًّا أن لا يتم هذا العمل الضخم ، فإن خلفاءه على كرسى البابا كانوا يهتمون للاستفادة من مواهب ميكل أنجلو فى أمورهم ، وكان الفنان يحاول عبثاً أن يتم هذا العمل وفاء للرجل الذى أحبه وقدره ، فلم يستطع ، ولكنه مع ذلك ترك أثراً خالداً فى صورة ذلك التمثال الرائع للنبى موسى ، الذى نشاهده الآن على قبر البابا يوليوس الثانى فى كنيسة سان پيترو دى ڤينكولى بروما ، وهو الذى يمثل النبى فى جلسة عظيمة ، وهو يهم بالقيام ويكاد ينطق . وكذلك نجد أثره فى تمثالى الأسيرين العظيمين ، فى أرض فرنسا حيث وجدا مأوى فى متحف اللوفر .

حسن محمود

البارونة فون كريدنر

والمعاهدة المقدسة

١

كان النصف الأخير من القرن الثامن عشر عصراً عجيباً حافلا بمختلف النزعات والثورات الفكرية والاجتماعية ؛ فهو عصر ڤولتير وروسو ، وهو عصر ازدهار الجمعيات السرية من البناء الحر (الماسونية) وغيرها ، وعصر الدعوات السرية الغامضة ، والدعاة السريين الذين تملأ سيرهم العجيبة صحفاً ممتعة أمثال البارون فون اوفنباخ (يعقوب فرنك) ، والكونت سان جرمان ، وكاليوسترو وغيرهم ؛ وهو أخيراً عصر الثورة الفرنسية التى دكت صروح المجتمع الفرنسى القديم ، وكانت فاتحة عصر جديد فى حياة فرنسا وحياة القارة الأوربية .

فى ظل هذا المجتمع الذى تهب عليه ريح الغموض والخفاء ويحدوه شغف التطلع إلى المجهول والخارق ، تجد المزاعم والدعوات السرية والأساطير الدينية تتمتع بنفوذ مدهش ، ولا يقف أثرها عند جمهور الكافة بل يتعداه فى أحيان كثيرة إلى القصور والحكومات ، فيوجه أعمالها ، ويطبعها بطابع خاص .

وتقدم إلينا صحف هذا العصر أمثلة عدة من هذه الشعوذة الدينية أو السياسية . وربما كان من أغربها وأعجبها جميعاً مثل البارونة فون كريدنر التى استطاعت بتأثيرها الروحى المدهش أن تسيطر حيناً على عقل ملك من أعظم ملوك عصره ، وأن تنفذ بوساطته إلى معترك الحياة السياسية الدولية العليا ، وأن تؤثر فى توجيهها من وراء ستار .

كانت البارونة فون كريدنر[1] ، واسمها العذرى بربارا يوليانا فتنجهوف ،

---

(١) Von Krüdener .

سيدة من الارستقراطية الألمانية الروسية : ولدت فى مدينة ريجا بمقاطعة ليڤونيا فى سنة ١٧٦٤ ؛ وكان أبوها هرمان فون فتنجهوف ضابطاً كبيراً فى جيش الإمبراطورة كاترين الثانية ، ومستشاراً للمقاطعة ، وكان سيداً واسع الثراء . ونشأت يوليانا نشأة أرستقراطية بين مظاهر النعماء والترف مع عدة من الإخوة والأخوات ، وتلقت من ألوان التربية ما كان يتلقاه بنات الأسر الشريفة فى هذا العصر : اللغة الفرنسية وشيئاً من الموسيقى والتطريز وبعض المعلومات العامة . وما كادت تبلغ الثامنة عشرة وتبدو فى ذروة جمالها وسحرها حتى خطبها البارون بوركهارت فون كريدنر ، وهو أرمل فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وتم الزواج على الأثر . وكان البارون من رجال السلك السياسى ، كثير الاتزان والتحفظ . وكانت البارونة الفتية من جانبها كثيرة الخفة والمرح ، تعشق السرور والبهجة ، وتشغف بالظهور والحفلات ، ويطربها المديح والغزل ؛ وكان هذا التباين فى الخلال يثير بين الزوجين كثيراً من الخلاف والكدر . ولم يمض عام وبعض عام حتى رزق الزوجان بابن سمى پول . ورقى البارون فى الوقت نفسه إلى مرتبة سفير وأرسل إلى البندقية ، ثم نقل إلى كوپنهاجن سنة ١٧٨٦ وكانت البارونة خلال ذلك عرضة لبعض الآلام النفسية والعصبية التى تزداد على كر الأيام . وفى سنة ١٧٨٧ وضعت ابنة سميت چوليت وعلى أثر ذلك تفاقمت آلامها العصبية ، ونصح لها الأطباء بالسفر إلى الجنوب تنتجع الصحة والعافية ، فنزلت على نصحهم وسافرت مع ابنتها الطفلة وابنة زوجها صوفى .

ووصلت إلى باريس فى ربيع سنة ١٧٨٩ وقت اجتماع نواب الطبقات، وكانت طلائع الثورة الفرنسية قد أخذت تبدو فى الأفق ؛ ثم سافرت فى العام التالى إلى الجنوب واستقرت بمدينة مونپلييه ، وهنالك تعرفت بضابط شاب يدعى شارل دى فرانجفيل ؛ وكانت البارونة يومئذ فى السادسة والعشرين من عمرها ، وافرة الشباب والسحر ، فهام بها الضابط الفتى وهامت به حتى إنها لما عادت إلى كوپنهاجن عاد معها العاشق المفتون . وكان منظراً غريباً حينما تقدمت البارونة إلى زوجها تقص عليه قصة حبها وتنبئه بأن قلبها لم يعد ملكا له ؛ فاستمع البارون فى حلم وأناة ولم يبد اكتراثا لهذا الحدث الغرامى ، ولكنه لم يرتض الطلاق ، وآثر أن يعقد مع البارونة نوعا من الوفاق الحر ؛ وسهل عقد هذا التراضى رحيل الضابط العاشق ليلحق بفرقته . ولكن البارونة رفضت أن تبقى

إلى جانب زوجها فى كوبنهاجن وعادت إلى التجوال والسفر ، فزارت ريجا وإطرسبرج وبرلين وسويسرة ، ولم تقبل أن تعود إلى زوجها إلا حينما عين فى سنة ١٧٩٨ سفيراً فى برلين ، فصحبته إلى العاصمة البروسية ، ولكنها لم تلبث أن سئمت برود المجتمع البروسى وتحفظه ، وضاعفت حياة البذخ نفقاتها وديونها ، ثم تحرج الموقف بمقتل القيصر بول ، وقد كان البارون يتمتع بعطفه وحمايته ؛ فاضطربت أحوال البارون ، ولم تصبر البارونة على البقاء فى هذا الجو الكدر ، فغادرت زوجها إلى الجنوب لتقضى الشتاء ، وشاء القدر ألا ترى زوجها بعد ذلك لأنها لبثت هذه المرة بعيدة عنه حتى توفى فى صيف سنة ١٨٠٢ دون أن يراها .

٢

فى ذلك الحين كانت البارونة تعيش فى باريس فى جو من المرح وتستقبل فى بهوها الأنيق علية القوم ؛ وكان يحدوها عندئذ شغف بالأدب والكتابة ، ولها صلات وثيقة بأكابر الكتاب والأدباء ، وكان شاتوبريان وغيره من أساتذة العصر فى مقدمة أصدقائها وزوارها . وقد عرضت عليهم قصة وضعتها بعنوان « ڤاليرى » وهى قصة عاطفية تصف فيها طرفاً من حياتها وعواطفها فى شخص بطلتها ، فشجعوها على نشرها . وبالرغم من أن البارونة كانت قد بلغت يومئذ السادسة والثلاثين من عمرها ، وأخذ سحرها يذبل ويتضاءل ، فإنها كانت تشغف بالمديح والغزل ، وتلتمس كل سبيل للشهرة ولفت النظر . وقد قال عنها سانت بيف بهذه المناسبة : « إنها كانت تشعر بحاجة كبرى لأن يهتم العالم بها . الكبرياء . . . الكبرياء دائماً . »

وفى سنة ١٨٠٤ عادت البارونة إلى وطنها ليڤونيا . وهنا وقع لها حادث عجيب كان سبباً فى تغيير مجرى حياتها إلى وجهة لم تكن تتصورها . ذلك أن سيداً من أصدقائها كان ذات يوم يهم بتحيتها ، فسقط ميتاً عند قدميها ، فارتاعت البارونة ، وتفاقمت اضطراباتها العصبية ، واستحالت إلى نوع من الهيام الدينى ؛ وكان صانع أحذيتها رجلا مشعوذاً من جمعية « إخوان موراڤيا » الدينية ، فلقنها التوجيهات الأولى ، وأضحت منذ ذلك الحين تستمع إلى كل دجال ومشعوذ . وزارت البارونة مدينة كينجزبرج ، وهنالك حظيت برؤية الملكة لويزة

ملكة بروسيا ومحادثتها . وكان ملك بروسيا فريدريك ولهلم الثالث ، وزوجه الملكة لويزة يقيمان فى كينجزبرج منذ هزيمة ينـا ، وسقوط بروسيا صريعة الغزو الفرنسى .

ولقيت البارونة فى الوقت نفسه مشعوذا يدعى آدم ميلر يزعم أن السيد المسيح كلفه برسالة لدى الملك فردريك ولهلم ، وأن بعث المسيح قد أضحى على وشك الحدوث . وكانت نظرية البعث chiliasm وخلاصتها أن المسيح سيبعث ويحكم العالم ألف عام ، تهب يومئذ على كثير من المجتمعات الأوربية ، وكان نابليون يعتبر عدوًّا للمسيح منتهكا لتعاليمه ، وكان الاعتقاد سائدا بأن أوان البعث قد اقترب . ويذكى الرهبان هذه الخرافة ويبثونها فى القصور بين علية القوم كما يبثونها بين الفلاحين والكافة ، ويزعمون « أنه سيقوم رجل من الشمال ، من مطلع الشمس» وأن عدو المسيح سوف يهزم ، وسوف يقوم المسيح ليحكم الأرض مدى ألف عام .

كان لتلك المقابلة وتلك المزاعم أعمق الأثر فى إذكاء خيال البارونة، فعكفت من ذلك الحين على استقصاء آثار الدعوة والاتصال بالدعاة والمشعوذين فى كل مكان ، فهرعت إلى كالسروه حيث كان الراهب المتصوف هينريخ شتلنج يبث دعوته ، وكان أستاذا بارعا فى ضروب الخفاء ، وكان له نفوذ كبير فى قصور بادن وستوكهلم وبطرسبرج ،فلقنها أصول نظرية البعث وخفايا العالم الآخر . ثم نمى إليها أن راهبا آخر فى منطقة « الڤوج » يدعى فونتين يأتى بالعجائب والمعجزات ، فقصدت إليه بمقره ببلدة سانت مارى أومين تصحبها ابنتها جوليت وابنة زوجها صوفى وخادم روسى ، وأقامت هناك عامين . وكان فونتين مشعوذا ودجالا بارعا ، وكانت تعاونه فى بث تعاليمه مشعوذة بارعة تدعى مارى كومر كانت تخلب لب البارونة بأحلامها وجلساتها الروحية . وكانت البارونة تعيش فى هذا الجو الذى يغمره الدجل والخفاء مضطربة الذهن هائمة النفس، تعتقد فى صدق رسالتها الجديدة ، وهى أنها سوف تكون المبشرة بعود السيد المسيح . وكانت مكانتها الاجتماعية ، وصدقاتها الوفيرة ، وفصاحتها المؤثرة ، تخلق حولها جوا من العطف والإعجاب ، وتحدث فى جمهور الفلاحين والكافة أعظم الأثر .

ولما شعرت البارونة أن دعوتها أخذت تحدث أثرها ، اعتزمت أن تنشىء للمؤمنين بعودة المسيح مستعمرة خاصة بمعاونة فونتين ، فهرع اليها كثير من

السذج والفلاحين بعد ان باعوا كل ما لديهم ، وأنشأت هذه المستعمرة الغريبة بالفعل فى ١٨٠٩ فى بلدة كاترنن بليزير بمقاطعة فرتمبرج ، ولكن الحكومة ما لبثت أن أمرت بإلغائها وتفريقها .

وعندئذ أخذت البارونة تتحول من مكان إلى مكان فى أنحاء بادن تبشر بعود السيد المسيح ، وكانت حماستها فى بث تعاليمها وهباتها وصدقاتها الجمة تجذب إليها الجماهير من كل فج ؛ وكانت كلما حلت بمكان كثرت حولها المزاعم والروايات الخارقة . ثم رحلت إلى جنيف فى سنة ١٨١٣ فاجتمع حولها بعض الهائمين المتحمسين ولا سيما هنرى أمپتاز الذى غدا فيما بعد أعظم أنصارها ومعاونيها . وعادت بعد ذلك إلى شتراسبرج حيث كان لها بعض الصحب والأنصار ، وهناك انضم إليها داعية يدعى فرانز فون بركهايم وهو الذى تزوج فيما بعد من ابنتها جولييت .

٣

فى أواخر سنة ١٨١٤ سافرت البارونة مع ابنتها وأمپتاز معاونها الجديد إلى بادن . وشاء القدر أن تكون القيصرة اليزابيث الروسية يومئذ فى كالسروه ؛ وكان القيصر إسكندر يعانى منذ حين بعض الاضطرابات النفسية ، ويحاول أن يجد راحة الذهن والروح فى ظل الإيمان والتعاليم المسيحية . فخطر للقيصرة أن القيصر قد يشفى من نزعاته العصبية ويجد الراحة النفسية المنشودة على يد البارونة فون كريدنر ، خصوصا بعد أن أخفق الراهب شتانج فى القيام بهذه المهمة . والواقع أن البارونة كانت تسعى إلى لقاء القيصر ، وقد كتبت إلى حاشيته غير مرة ترجو هذا اللقاء ولكن دون جدوى . ولم تحقق أمنيتها سوى المصادفة المحضة . ففى ربيع سنة ١٨١٥ كانت البارونة تقيم فى شليختزن على مقربة من بادن تبث دعوتها بين الفلاحين . وفى الرابع من شهر يونيه نزل القيصر إسكندر وحاشيته فى بلدة قريبة تسمى هايلبرون ففى مساء ذلك اليوم التمست البارونة مقابلة القيصر ، وأجيبت فورا إلى طلبها .

وكان منظرا عجيبا : كان القيصر وحيدا يلقى نظراته الشاردة على صفحات التوراة ، فلما دخلت البارونة خيل إليه أن مقدمها كان استجابة لأمنيته . ولبثت

البارونة معه ثلاث ساعات تعظه وتلقنه تعاليمها ورسالتها بأسلوب عذب وفصاحة مؤثرة ، على حين كان القيصر — أعظم ملك فى أوربا — يجلس معتمدا رأسه بين يديه ، وهو يصعد الزفرات كالطفل المحزون ؛ وأخيرا هدأت نفسه وأعلن أنه لقى السلام المنشود .

شعر القيصر إسكندر أن هذه المرأة المؤمنة الهائمة تغزو نفسه المضطربة بقوة عجيبة فقربها ، وأسبغ عليها عطفه وحمايته ، وتبعته البارونة إلى هيدلبرج نزولا على رغبته ، ثم سار إلى پاريس والبارونة فى ركبه . وكانت موقعة واترلو قد توجت يومئذ نضال الأمم المتحالفة ضد ناپليون وسحق الإمبراطور وسحق جيشه الذى لبث خمسة عشر عاما أداة الطغيان والاعتداء على حريات الأمم الأوربية . واحتل الحلفاء پاريس ، ونزل القيصر مع حاشيته فى قصر الإليزيه ونزلت البارونة فى فندق مونشنى المجاور للقصر ، وكان يصل بينهما باب خفى . وكان القيصر يذهب كل مساء ليشهد الصلاة التى تقيمها البارونة ومعاونها أمبتاز .

وكانت نظرية البعث (عود المسيح) قد ذاعت يومئذ وشقت طريقها بعد الكافة إلى قصور أوربا وحكوماتها . واضحت البارونة فون كريدنر زعيمة هذه الدعوة إلى جانب نفوذها الروحى ، قوة سياسية يعتد بها . وكان يهرع إلى اجتماعاتها مذ حلت بپاريس صفوة من أكابر المفكرين والسادة مثل شاتوبريان وبنچمان كونستان ومدام ركامييه والدوقة بوربون ومدام دى دوراس وغيرهم ، هذا عدا جمهور من المؤمنين الذين خلبتهم دعوة البارونة ونبوءاتها .

فى هذا المعترك الفياض بالخفاء والهيام الدينى نشأت فكرة « المعاهدة المقدسة » وهى أغرب وثيقة دولية عرفت فى العصر الحديث . ولم تمض أسابيع قلائل حتى نضجت الفكرة ووضعت المعاهدة ، ووقعها القيصر ، وفرانز الأول إمبراطور النمسا ، وفردريك وليم ملك پروسيا . وفى يوم ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ أعلن القيصر نصوص « المعاهدة المقدسة » فى حفل عسكرى من جنود الحلفاء أقيم بميدان ڤرتى على مقربة من پاريس .

وتبدو هذه المعاهدة الغريبة سواء بديباجتها أو نصوصها كأنها وثيقة كنسية محضة لا وثيقة دولية . فقد سميت « بالمعاهدة المقدسة » وقد بدئت بهذه العبارة : « باسم التثليث الرفيع الذى لا ينفصم » واستهلها الموقعون عليها بالإشارة إلى البركات التى شاءت العناية الإلـهية أن تغدقها على دولهم وإلى

اقتناعهم « بوجوب تسوية الخطوات التى تتخذها الدول لتنظيم علائقها المتبادلة وفقا للحقائق السامية التى دعا إليها السيد المسيح »، وأنهم يعلنون عزمهم الثابت على إدارة دولهم وتنظيم علائقهم مع الحكومات الأخرى وفقا لتعاليم الدين المقدس ، أعنى مبادىء العدالة والصداقة المسيحية والسلام .

وقد صيغت مواد المعاهدة الثلاث بهذه الصيغة الدينية ، فنصت الأولى على أن يبقى الملوك الثلاثة مرتبطين برباط الأخوة الذى لا ينفصم ، وأن يتبادلوا المساعدة، وأن يعتبروا أنفسهم نحو شعوبهم وجيوشهم كآباء أبرار ويقودونهم بنفس الروح الأخوية لحماية الدين والسلام والعدالة . ونصت الثانية على « أن الملوك الثلاثة يعتبرون أن العناية الإلهية قد بعثتهم ليحكموا ثلاث شعب من أسرة واحدة ، وأن العالم المسيحى الذى يكونون جزءا منه ليس له سيد سوى « الله » وهو وحده القوى القادر ، وفيه تجتمع كنوز المحبة والعلم والحكمة » . وأما الثالثه فقد نصت على دعوة جميع الدول التى تؤمن بهذه المبادىء إلى الانضمام إلى هذه المعاهدة المقدسة .

تلك نصوص المعاهدة الغريبة التى تمخضت عن نزعات القيصر الدينية . وتجمع الروايات على أن البارونة فون كريدنر كانت مصدر الإلهام والوحى فى إعدادها وعقدها . بل تقول لنا البارونة إنها هى صاحبة الفكرة كلها ، وإن القيصر عرض عليها مشروع المعاهدة لإقرار نصوصه ؛ وهذا ما ترجحه كل الدلائل والروايات . وقد استاء القيصر فيما بعد ، حينما استرد رشده وصوابه ، من خفة البارونة وأحاديثها حول المعاهدة ، وأنحى باللائمة عليها ، وأخذ يفطن شيئاً فشيئاً لما يحيط به من ضروب الشعوذة والدجل ، وأخذ نفوذ البارونة يتقلص تباعا ، وأخذ القيصر يتبرم بعلاقتها ، ويشعر بما يحيط بها من سخرية لاذعة . وبالرغم من أنه أذن قبل رحيله من پاريس للبارونة بجواز سفر إلى روسيا ، فإنه لم يعجل باستدعائها . وسافرت البارونة إلى سويسرا فى أوائل أكتوبر فى طريقها إلى روسيا ، وبقيت هنالك تنتظر دعوة القيصر ، بيد أنها لم تره مرة أخرى .

وقد كان لإذاعة المعاهدة المقدسة وقع عميق فى أوربا ، وقد وقعها الملوك الثلاثة فى البداية ، وكان القيصر إسكندر تحدوه الحماسة الإنجيلية ، ولكن قيصر النمسا ، وملك پروسيا وافقا عليها دون حماسة ، ووصفها مترنيخ وزير

خارجية النمسا بأنها « شيء طنان لا قيمة له » . ووصفها كاسلريغ وزير خارجيه انجلترا بأنها « قطعة من التصوف السامى والسخف » . ولم توقع انجلترا المعاهدة ولـكن وصى المملـكة بعث بكتاب أعلن فيه موافقته على المبادئ التى قامت عليها ، ثم وقعتها دول أوربا بعد ذلك تباعاً عدا السلطان والبابا . ولبثت الأمم الأوربية مدى حين ترى فى المعاهدة المقدسة بالرغم من صيغتها المسيحية أداة رجعية لقمع الحركات التحريرية ، وتعاون الملوك الثلاثة على تأييد النظم الطاغية .

٤

استقرت البارونة فى سويسرا مدى حين ، وهناك وقعت تحت تأثير مشعوذ جديد يدعى كلنر ، وأخذت تطوف معه من مكان إلى مكان وهو يبشر بدعوتها ويدعو الناس إلى اتباعها . وكان يتبعها أينما سارت رهط من المتشردين والمتسولين تغدق عليهم من الأموال التى تجمعها باسم الدعوة . وكانت السلطات السويسرية تنظر إلى هذا التجوال بعين السخط ، وتخرجها من الولايات تباعاً ، حتى اضطرت آخر الأمر أن تغادر سويسرا مع كلنر وبعض المؤمنين إلى موطنها ليفونيا وذلك فى سنة ١٨١٧ .

وفى سنة ١٨٢٠ ذهبت البارونة إلى بطرسبرج . وجاءت الأنباء يومئذ عن قيام حركة الزعيم ابسلانتى فى المجر وزحفه على الولايات التركية الدانوبية ، فعندئذ أعلنت البارونة فى الحال رسالة القيصر الإلـٰهية فى أن يقوم بحماية النصرانية وتأييد زعمائها . ولـكن القيصر لم يحفل بهذه الحركة ، ولم يخطر له أن يعلن حرباً مقدسة ، وكان قد تحرر نهائياً من نفوذ البارونة ، وأخذ يتأثر بنصائح مترنيخ ، ورد على البارونة بخطاب يفيض رقة وأدباً ، ولـكن يطلب إليها فيه أن تغادر بطرسبرج فوراً .

وكانت هذه الضربة مؤلمة للبارونة ، وكانت عندئذ تدنو من عامها الستين وتذبل صحتها تباعاً من جراء التجوال المستمر ، والاضطرابات النفسية العنيفة ، وكان القيصر قد سمح لدعاة البعث بإنشاء مستعمرة لهم فى إحدى بلاد القرم ، فقصدت البارونة إلى القرم بالرغم من اعتلال صحتها لتزور صحبها المؤمنين ، وهناك وافاها القدر المحتوم فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٢٥ .

وهكذا اختتمت البارونة فون كريدنر حياتها الحافلة بصنوف المغامرات والشعوذة الدينية العجيبة بعد أن وصلت بحماستها وقوة تأثيرها الروحى إلى السيطرة على ذهن أعظم ملوك العصر ، واستطاعت أن تؤثر فى سير السياسة الدولية من وراء ستار . بيد أن البارونة شهدت فى أواخر حياتها أحلامها ودعواتها تنهار تباعا ، وأخذت الغشاوة التى طمست على عقلها ونفسها تنقشع ببطء ، وأصبحت ترى أن ما كانت تعتقده من صوت الله لم يكن سوى الخيال المغرق والكبرياء المضللة العقيم .

وقد كانت حياة البارونة فون كريدنر مستقى خصبا لأقلام كثيرة ، فصدرت عنها كتب وتراجم عديدة بالألمانية والفرنسية والانجليزية . هذا عدا ما دونته كتب التاريخ بصفة عامة عن صلتها الوثيقة بعقد « المعاهدة المقدسة » وهى ألمع نقطة فى سيرتها العجيبة .

محمد عبد الله عنان

الكتاب ونقادهم

دراسة فى سوء الفهم (١)

فى آخر كتاب أصدره الأستاذ هنرى پير، وهو كتاب عميق تغمره الحيوية ويفيض علماً وحدّة قريحة، يعرض المؤلف مشكلة من الخطر بمكان عظيم، أو على الأقل يبدو خطرها هذا بالقياس إلى أعضاء « جمهورية الأدب »، وهى مشكلة الصلات التى تنشأ بين الكاتب والجمهور، وبصفة خاصة بين الكاتب والنقد الأدبى.

والنقد الأدبى الذى صار لوناً خاصًّا من ألوان الأدب مستقلا عن غيره، قد اتخذ لنفسه خلال القرن التاسع عشر مكانة وأهمية تَطّردان فى النمو. على أن هذا الأمر طبيعى؛ فقد كان من نتيجة الازدياد الضخم للإنتاج الأدبى (٢) وازدياد عدد القرّاء على مدى أوسع (وهم قرّاء يفرض فيهم قراءة الآثار الأدبية، ولكنهم فى الواقع يقرءون الروايات الهزلية والبوليسية، كما يذكر ذلك الأستاذ پير فى شىء من الدهاء) أن الجمهور الحائر الذاهل سرعان ما أدرك أن ليس لديه من الوقت أو من الوسائل ما يتيح له القيام بنفسه بالانتقاء والاختيار. لذلك قوى شعوره يوماً بعد يوم بالحاجة إلى هيئة من الإخصائيين ترشده، فأخذ شيئاً فشيئاً يسلم إلى هؤلاء الإخصائيين مهمة إصدار الحكم على تلك الآثار،

---

(١) كتب هذه الدراسة خاصة « للكاتب المصرى » الأستاذ ألكسندر كواريه أستاذ الفلسفة بجامعة باريس الآن، وبجامعة فؤاد الأول بالقاهرة سابقاً، وهو يستعرض كتاباً أصدره حديثاً الأستاذ هنرى پير أستاذ الأدب الفرنسى بجامعة فؤاد الأول سابقاً، وهذا الكتاب هو :

HENRI PEYRE, *Writers and their Critics, A Study in Misunderstanding*, in 8°, XII + 340 p., Cornell University Press, Ithaca, N.Y. 1944.

(٢) على أن هذا الانتاج يحتفظ منذ نحو سبعين عاما بمستوى متعادل تقريباً، فهو يتراوح فى فرنسا بين ١٢ و ١٤ ألف مؤلف، وفى انجلترا بين ٨ و ١٥ ألف (ص ٥). ومجموع هذا خلال سبعين عاماً يبلغ نحو مليون مؤلف . . .

وعهد إليهم أمر التمييز بين الصحيح منها والزائف ، بين الجيد والردىء ، بين الصالح والطالح . ويقول الأستاذ پير فى ذلك : « ويظهر أن الجمهور أصبح أسلس قياداً فى ميدان الآداب والفنون بقدر حصوله على حقوق أوسع مدى فى ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية . . . ونحن لا نقتصر على مطالبة الناقد بإرشادنا إلى بعض الكتب الجديدة ، بل نريد أن يدرس لنا المؤلفات التى تشق علينا ، وأن يذكر لنا ماذا يجب أن يكون رأينا فيها ، ثم ما الذى يجب أن نقوله لجارنا على المائدة أو فى المرقص أو فى ملعب الجولف » (ص ٣) . ويضيف فى موضع آخر : « إن الأدب والفن الحديثين يفرض فيهما أنهما أصبحا (بالقياس إلى الجمهور) من الغموض بحيث لا يستطيع الرجل المتوسط أن ينفذ إليهما دون عون » (ص ٦٠) . والجمهور يلجأ إلى النقد يستعين به على الفهم والذوق . ومما يحمل على الأسف أن هذا النقد بدا عاجزاً عن القيام بالمهمة الخطيرة التى وكلت إليه ، وهى تجمع فى نفس الوقت بين وظيفة المحكّم ووظيفة الرائد المربى .

على أن الأمر كان (أو كاد يكون) كذلك دائماً . وقد قال شوپنهاور (وكان هو نفسه إحدى ضحايا النقد) إن الناقد الجيد « أندر من العنقاء التى تظهر كل خمسائة عام . »

والاستعراض النقدى الذى يقدمه لنا الأستاذ پير فى الفصول الثلاثة الأولى لكتابه يؤيد كل التأييد هذا الرأى السديد الذى أبداه الفيلسوف المتشائم العظيم . وإذا استثنينا بوالو الذى أصاب دائماً فى حكمه ، فقد امتاز وحده فى عصره دون غيره ببصيرة نافذة لم يتسرب إليها الخطأ ، حين أبدى رأيه فى المؤلفين وفى كتبهم ، وقد جاء الخلف من بعده فأيدوا حكمه أو اتخذوا لنفسهم هذا الحكم . وإذا استثنينا بودلير أيضاً (ص ٨٥ وما يليها) — فإن أعظم المفكرين شأناً وأوسعهم آفاقاً ، أمثال جوته (ص ٧٥ وما يليها) وڤولتير ، حين أصدروا حكمهم على الإنتاج الأدبى والفلسفى لمعاصريهم ارتكبوا أخطاء شنيعة (تبدو لنا غير مفهومة بحال ولا نجد لها تفسيراً أو تعليلاً) . ذلك أنهم من ناحية لم يقدروا أعظم آثار عصرهم أو انتقصوا من قدرها ، ومن ناحية أخرى رفعوا من قدر آثار رديئة أو كانوا مصدراً لهذه الآثار التى خيّم عليها اليوم ما تستحقه من النسيان (ص ٨٦ وما يليها) .

أما النقاد الذين هم أقل شأناً من هؤلاء ، ولا سيما النقاد المحترفون أمثال

لاهارپ ، ونيزار ، وبرونتيير ، وفاجيه ، وليمتر فى فرنسا ، ونظراؤهم فى انجلترا وأمريكا (ولابد أن يكون الأمر كذلك فى غير هذه البلاد) ، فنستطيع أن نقول إنهم مع استثناء قليل أخطأوا على نحو مطّرد ، فأنكروا فى جميع الأحوال تقريباً الآثار المبتكرة القوية ، وأثنوا فى جميع الأحوال تقريباً على آثار من الطبقة الثانية أو الثالثة ، بل على آثار شديدة الفراغ والفتور . وسانت بيف نفسه ، وهو بلا جدال أعظم النقاد الفرنسيين ، لم يقدر بلزاك وستندال وبودلير ومريميه وميشليه الخ . . . (ص ١٢٥ وما يليها) .

وما أطرف ثبت السخف النقدى الذى جمعه الأستاذ پير . على أنه ليس آدعى للأسف أيضاً مما يظهرنا عليه هذا الثبت من قصور مطبق عن الإدراك وعجز مطلق عن الحكم وزهو مسرف محدود الأفق . فكل الآثار العظيمة وجميع المؤلفين الكبار ، هؤلاء الذين نعتبرهم « كلاسيكيين » أُنكروا وهوجموا وأهينوا . فإن وردسورث وشيلى وكيتس ومريديث فى انجلترا (ص ٢٦ وما يليها ، ٣٠ وما يليها ، ٣٥ وما يليها ، ٣٩ وما يليها) ، وهاوثورن وملڤيل فى أمريكا (ص ٦١ و ٦٢) وستندال و بلزاك وفلوبير (ص ٩٢ وما يليها ، ٩٦ ، ٩٩) ، وفكتور هوجو وبالطبع بودلير وپروست (ص ١٠١ وما يليها ، ١١٣ وما يليها) — اتهموا بإفساد الخُلق وبإهدار اللغة ، وبأن عقولهم مجدبة وأن ليس إلى فهمهم من سبيل . والعصور الأرستقراطية ، خلافاً لما تذهب إليه خطأ بعض الأحكام النقدية المقررة الذائعة الانتشار ، لا تتميز بحال فى هذا الصدد عن عصور الحضارة الشعبية . لا ريب أن الأولى لا تعد الخروج على الأخلاق من المآخذ التى توجه إليها النقد (فإن التكلف الخلقى من خصائص العصور البورچوازية) ولكن معاصرى شكسپير كانوا بعيدين كل البعد عن إدراك عظمته (فلم يعترف بها إلا بعد مرور مائة وخمسين عاما) ، وكثيراً ما كانوا يؤثرون عليه مؤلفين لا نجرؤ أن نقرن أسماءهم باسمه . ومعظم آثار ملتون مرت دون أن تلفت النظر الخ . . . الخ . . . (ص ١٧ وما يليها ، ص ٢٠ وما يليها) . كذلك الحال فى فرنسا ، فإن حظ شاپلان من التقدير كان أعظم من حظ راسين ، وكان الجمهور يتردد فى الاختيار بين پيير وتوما كورنى ، فلا يعرف أيهما يؤثر . وعدم تقدير المعاصرين يمكن تفسيره فى رأى الأستاذ پير بمجموعة من المقررات المبتسرة الخاطئة يتألف منها نموذج تقليدى مطّرد (وما أفيد المعجم

الجديد « للآراء المتوارثة » الذى وضعه الأستاذ پير — ص ١٣٧ ومايليها) .
وهذا النموذج من شأنه أن يظهرنا على ألوان من السخف وضروب من الاتهام يوجهها النقاد إلى الفن فى العصر الذى يعيشون فيه ، وتكررها وتعيدها أجيال متتابعة من النقاد . وبعض هذه العيوب (مثل المساس بالخلق ، والاتسام بطابع الانحلال ، والخفة وعدم الاستقرار) مصدرها العقائد السياسية والدينية التى يعتنقها النقاد ، على حين أن غيرها (منها أن الأسبقين كانوا يعرفون كيف يكتبون بينما العصر الحاضر لا يعرف ، وأنه كانت توجد مدارس فيما مضى بينما الآن تعم الفوضى . . . الخ . . .) مردها إلى موقف متحيز من شأنه إيثار الأجيال الماضية على الأجيال المعاصرة (نعيش فى عصر انحطاط أو عصر انتقال) بدعوى أن الأجيال المعاصرة غامضة يستعصى فهمها . هذا إذا لم يكن التحذق وذكرى أخطاء السابقين من شأنهما أن يدفعا طائفة من النقاد (ومن الجمهور الذى يريد أن يكون فى الطليعة دائماً) إلى الإعجاب بأشد الآراء تقدماً وتطرفاً ، هذا الإعجاب الذى لايقل سخفاً عن النقد المتكلف .
وأشد خطراً من ذلك أن طائفة كبيرة من النقاد ، وهم النقاد الجامعيون ، ومؤرخو الأدب خاصة ، بعد أن بحثوا عبثاً عن المقاييس التى تتيح لهم الحكم على الآثار المعاصرة تخلوا عنها ، وأمسكوا فى حذر وحيطة عن إبداء الرأى بشأنها ، وفوضوا أمر الحكم عليها للخلف من الأجيال اللاحقة . أما بالقياس إلى الجيل المعاصر فانهم يتركون المجال حراً للصحافة ونشر الدعوة . هذا العجز فى النقد الجدى يأسف له الأستاذ پير أشد الأسف . لذلك يرجو ، ويضرب بنفسه المثل فى ذلك [1] ، أن يعين تحليله النقاد على التخلص من تحاملهم — ومن استحيائهم أيضاً — وعلى القيام بالمهمة التى يجب أن يضطلعوا بها . أما المقياس الذى يجب أن يكون أساساً لحكمنا فهو مقدار ما استطاع المؤلف أن يستوعبه أثره من حياة قوية خصبة .

ويخيل إلى أن الأستاذ پير مسرف فى التفاؤل . فهو يشترط فى الناقد صفات خاصة متعددة : منها أن تكون حاسته فى إدراك الجمال حادة دقيقة حتى يستطيع إزاء أثر عظيم رائع أن يشعر « بوقع » المتعة والاستكشاف ، وأن

(١) فى كتابه « رجال القرن العشرين وآثارهم » ، باريس سنة ١٩٣٨ .

يكون فى وسعه أن يشرح السبب فى إعجابه بالأثر ويبين نواحى روعته ، وأن يتبين بطبيعة الحال نقائصه وأوجه ضعفه ، فيظهر المؤلف عليها ويكون بذلك عوناً له ، وأن يعين مرتبة الأثر ذى القيمة المتوسطة فيحدد له مكانه فى طبقته ، وأن تكون له دراية واسعة بالماضى ، ثم أن يكون هو نفسه كاتباً مجيداً فى وسعه أن يقوم بعمل إنشائى ، وأن تكون لديه الشجاعة فى التعبير عن رأيه وأن يجازف بتعريض نفسه للخطأ . . . الخ . . . فإذا ما رأينا الشروط التى يشترطها الأستاذ پير فى الناقد كان من حقنا أن نتساءل عن مجلة النقد التى يرجو أن تنشأ فى أمريكا أيجد لها من الأعوان عدداً كبيراً ؟

وإنى آسف كل الأسف لأنى لا أستطيع أن أنقل هنا الصفحات الرائعة اللاذعة التى تفيض بملاحظات دقيقة عميقة نافذة ، والتى يهاجم فيها الأستاذ پير النقد ، ولا سيما فى عيبيه الأساسيين وهما : امتناعه عن كل مجهود فى سبيل فهم الأدب الحديث بحجة أنه غامض يستعصى فهمه ، وامتناعه عن إصدار حكمه على الآثار الأدبية بحجة أن هذه مهمة الخلف من الأجيال التالية .

ولا يؤمن الأستاذ پير بالخلف وبحكمهم ، إذ يقول : « حكم الخلف هو الحكم الذى يفرضه بعض المتحمسين على الخلف » . وفى هذا كل الصواب . والأستاذ پير محق بلا شك حين يحذّرنا من الإسراف فى الاطمئنان إلى الخلف . على أن الخطأ فى الحكم والتقدير قد يقع أيضاً على الأجيال الماضية كما يقع على الأجيال المعاصرة ، وليس مؤكداً أن ما يتمتع به الآن بعض شعراء الماضى من صيت ذائع (موريس سيف مثلا [1]) له مايسوّغه أكثر من ذيوع صيت بعض الشعراء الحديثين . غير أن الأستاذ پير يعلم حق العلم أن الزمن « ليس رجلا كريم الخلق رفيع الشمائل » على الرغم مما قاله ما زاران ، وأن ليس أشد قسوة من اختبار الزمن . وقد يبهرنا أثر من الآثار فيفتننا ويستهوينا ، لأنه يتفق مع مشاغلنا الحالية ، ومع أساليبنا فى فهم الحياة وفى التفكير وفى الحديث . . . فإذا ما قرأناه بعد مضى عشرة أعوام بدا لنا فارغاً مملاً سطحيّاً . . . وقليل جدّاً من الكتب تخرج ظافرة من هذا الاختبار حين تخضع له . ولا أظن أنه يمكن

---

(١) شاعر فرنسى من النصف الثانى للقرن السادس عشر ، صاحب شعر غرامى فيه كثير من الغموض (للمترجم) .

الاستعاضة عنه بأى مقياس آخر . فممارسة الأثر وحدها هى التى تبين متانته وثراءه وخصبه . والآثار التى نعتبرها كلاسيكية هى التى تثبت على مر الزمن فلا تستنفد قيمتها قراءة الأجيال ، وإنما تزيدها قراءً على قراء : والواقع ، كما يلاحظ الأستاذ پير وهو يوضح بطريقة مستحدثة طريفة جداً فكرة هيجل عن تطور الأثر فى الزمن وبفعل الزمن ، أننا كثيراً ما نعجب بآثار الماضى لأسباب لا تتصل بتلك التى كانت تدعو معاصريها إلى الإعجاب بها ، كما أننا كثيراً ما نجد فى بعض الآثار أشياء غير تلك التى يكون كتابها قد ضمنوها إياها ، أو خيل إليهم أنهم ضمنوها إياها ، بل قد نجد فيها أشياء تختلف عنها كل الاختلاف (ص ٢٣٦) . ونتيجة كل ذلك أن الخلف ، أو توالى الأجيال من الخلف ، يتمتع بحظ أكبر من المعاصرين يتيح له إصدار حكم موضوعى على الأثر ، وإدراكه وفهمه على وجهه الصحيح ، ويتيح له بصفة خاصة إمكان الحكم عليه .

وهذا يعود بنا ثانية إلى مشكلة إدراك الأثر وفهمه . فليست الأحكام المقررة الخاطئة وحدها التى تجعل الآثار المبتكرة مستعصية الفهم على المعاصرين (وكثيراً ما تكون هذه الأحكام المقررة لها مايسوغها وتصدر عن شعور حميد : فبعض الآثار التى ناهضها النقاد كانت فعلا مسيئة إلى الدين فى عصرهم ، وبالقياس إلينا تبدو هذه الأحكام المقررة سخيفة ضيقة الأفق ، لذلك نتحامل على النقد الذى وجه إليها . ونحن من غير شك مصيبون . ومع ذلك فليس مؤكداً أنه يجوز للنقد حين يصدر حكمه بشأن كتاب ما أن يهمل تأثير ذلك الكتاب) بل قد يرجع عدم فهم الأثر إلى عوامل تتصل بتكوين الإنسان نفسه . هذا إلى ما فى الأدب الحديث من جنوح متعمد وتعصب مقصود إلى الغموض والعسر . ويرى الأستاذ پير أن أسباب هذا التحول متعددة : منها ضرورة تقتضيها طبيعة الأدب نفسها (فاللغة الشعرية لا تستطيع أن تستغنى عن شىء من الإيهام وعن ضوء يتراوح بين الوضوح والإظلام) . ومنها الجنوح إلى ضرب من المخاتلة والتلاعب بالأذهان (مؤداه الرغبة فى إذهال البورچوازيين وفى الاستهزاء بالنقد) . ومنها أيضاً اصطناع صيغ جديدة للتعبير الشعرى والفنى ، ونبذ الصيغ القديمة التى أصبحت جامدة ، والثورة على مذهب التكلف الفكرى والذهنى ، والسعى إلى التعمق والابتكار (أنظر ص ١٩٦

وما يليها) والغموضية تصور من ناحيــةٍ التعارض المطرد القائم بين رجل الفن والهيئة الاجتماعية ، ومن ناحية أخرى ثورة رجل الفن الذى تؤذيه حماقة الجمهور وينفـّـره قصوره عن الإدراك فيعكف على نفسه ويتحدث حديثاً خفيًّا غامضاً ، كأنه يريد بذلك أن ينتقم لنفسه من الهيئة الاجتماعية . ويلاحظ الأستاذ پير أن هذه ظاهرة حديثة خاصة بلا شك بعصر تحـُّضر الجماهير وهو العصر الذى نعيش فيه (ص ٢٠٠ وما يليها) . غير أن الأستاذ پير يرى أن صعوبة الفن الحديث أو غموضه (وهما حقيقتان واقعتان لا مجرد ظاهرتين شكليتين) لا يمكن اعتبارهما عيباً يؤخذ على هذا الفن ؛ فما يزال أفلاطون وهيجل أشــد عسراً ، وتوسيديد كان مستعصى الفهم فى العصور القـديمة نفسها ، ولا شك أن پندار ليس أيسر إدراكا من ملارميه أو ڤاليرى ، ونحن جميعاً نعلم أنه لا يمكن قراءة دانتى دون الاستعانة بتفسير (ص١٩٢ وما يليها) . أما تحرى انتقاء اللفظ وتنميق الأسلوب فلا يجب أن يغيب عن بالنا مذهب « الجونجورزم » (١) .

وإنى آسف أن لم أتفق مع الأستاذ پير فى جميع آرائه . ومما لا ريب فيه أن الفن (لا سيما الفن الأدبى) ينبغى من حين إلى حين أن يجدد أساليبه ؛ فإن الألفاظ والصور والاستعارات تبلى وتذوى ويزول تأثيرها ، وإيلاف الشىء يلغى من قوة وقعه . ومما لا ريب فيه أيضاً أننا حين نقدم للناس خمراً جديدة يحسن ألا نفرغها فى دنان قديمة . على أنه مما لا شك فيه من ناحية أخرى (والأستاذ پير يعلم ذلك حق العلم ويجيد التعبير عنه إجادة خاصة) أن الدنان الحديثة كثيراً ما تـكون بالخمر الردئية المغشوشة ، وأن البحث عن الطرافة قلما تصحبه طرافة حقيقية (بل قد لا تصحبه هذه الطرافة أصلا) ، وأن مستكشفات الذين يتوغلون من رجال الفن فى أعماق حياتهم الداخلية (الشعورية واللاشعورية) كثيراً ما تـكون قليلة القيمة . لذلك أرى أن صعوبة الأدب الحديث وغموضه (والشعر بصفة خاصة) ليس لهما ما يسوّغهما بحال ، وأن أوجه المقارنة التى أتى بها الأستاذ پير ليست من الإقناع فى شىء .

(١) نسبة إلى « جونجورا » شاعر أسبانى عاش أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وعمد فى كتابته إلى اصطناع أسلوب متكلف . ونشأ مذهب باسمه .

فيخيل إلىّ أن الفن المعاصر ، وذلك بلا شك على أثر مالفت إليه الأستاذ بير من انقطاع الصلة بين رجل الفن والجمهور ، (وأنا أعرف ما فى الرأى الذى أعرضه من ادعاء ومجازفة) — هذا الفن يتجه اتجاها خاطئاً ، وتبدو عليه جميع أعراض الاختلال ، بل الفساد . ولو كنت ماركسيًّا لقلت إنه يعكس عكساً صحيحاً انحلال الجماعة البورجوازية وتفككها ، وإن هذا ما يحمله على إيثار التفكك على غيره من الاشكال : تفكك فى الصيغ الشعرية ، وتفكك فى قواعد النحو ، وتفكك فى الأشكال والأجسام فى فن التصوير . . . الخ ولو كنت فقيها من فقهاء الدين لقلت إن هذا الفن الحديث تفسده من أساسه خطيئة الكبرياء ، وإنه فن إبليسى ، فنٌّ يثور فيه الفنان على الخالق وعلى العالم الذى خلقه ، فيحاول أن يستعيض عنه بعالم آخر من إنشائه . وإلى هذا ترجع بعض ظواهر خاصة مثل محاولة إنشاء لغة خاصة (چيمس چويس) والامتناع عن الاتباع والتقليد ، وتصوير المصورين للأشياء فى تشويه بشع . . . ولأضفت إلى ذلك أن هذه المحاولة الشيطانية الجديدة لم تصب نجاح المحاولة الأولى (فليس الإنسان ملاكا) . فما لاشك فيه أن الفن المعاصر مخالف لأوضاع الكون . وإذ لم أكن ماركسيًّا ولا فقيهاً من فقهاء الدين ، فإنى أقول فى كل بساطة إن الفن الحديث يمثل فى رأيى ثورة على المعانى والألفاظ والمشاعر جميعاً .

ومن هنا نشأ مذهب الدادايزم وما أتى به من تخبط سخيف ، ومذهب السورياليزم وما يعتريه من طفولة سقيمة ثقيلة يملؤها الغرور . ومن هنا نشأت محاولات فن التصوير الحديث فى إظهارنا على الأشياء من جميع نواحيها فى نفس الوقت . . . الخ .

وقد فقد الفن الحديث مركزه ومهمته فى الحياة . لذلك أصبح شاعراً بنفسه ، كل الشعور (كما يشير إلى ذلك الأستاذ بير ص ٢٨٣) . فقد الثقة بنفسه فحاول أن يصير شيئاً آخر غير الفن : أن يصير سحراً أو فلسفة فيما بعد الطبيعة ، أو غير ذلك من الأمور . وهذا ما يحمله على القيام بتجارب ، ويدفعه إلى أن ينسى أن الشعر إنما يقرض ليحفظ عن ظهر قلب لا ليملأ صفحة من صفحات المطابع بالأشكال الزخرفية ، وأن الفن القصصى يجب أن يشتمل على شىء يُقَصّ على حكاية ، وأنه إذا انعدمت الطرافة فى هذه الحكاية انعدمت بذلك قيمة

القصة نفسها [1] ، وأن صور المصورين إنما ترسم لينظر إليها ، وأن ألحان الموسيقى إنما توضع لتسمع ، وأخيراً وليس آخراً أن الأثر الفنى ينبغى أن يروقنا ويلذنا وأن يكون مصدر متعة لنا [2] . أما الفنان الحديث فلا يريد أن تروقنا آثاره ، وإنما يريد أن يتجه الاهتمام إليه باعتباره هو هو ، واعتبار ما يعبر عنه هو ، وأن يكون فنّه مصدر إعجاب . ولما كانت الاعترافات لا تحمل طرافة إلا إذا كان لدى صاحبها شيء يعترف به (وهذا قلما يحدث) فإن الفن الحديث ، فن القوم الذين ليس لديهم شيء يقولونه ولكنهم مع ذلك يجيدون القول على نحو مستحدث مبتكر ممتع ، هذا الفن يفقد فنيّته ويصير تكلفاً بيانيًّا ، إن صحّ هذا التعبير الذى تظهر عليه الغرابة .

على أن من المقرر أن الفلاسفة لا يفقهون شيئاً فى الفن ، وأن الأساتذة (ولاسيما المؤرخين منهم) لا يفقهون شيئاً فى أمور الأجيال المعاصرة . لذلك يجدر بى أن أقف هنا ، وأنا أحيل القارئ إلى كتاب الأستاذ پير وما فيه من خصب وثراء ، ومن حذق وإيحاء ؛ فإنه سيجد فى قراءته — كما وجدت — أعظم المتعة وأقوم الغناء .

ألكسندر كواريه

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته

---

(١) وعلى ذلك فاذا كان « حب سوان » لا يزال يحتفظ بطرافة ممتعة جداً ، فذلك لأنه يقص شيئاً يستهوينا إلى أقصى حد ، فهو يقص «قصة غرامية» ، فى حين يصعب جداً أن نقرأ دون أن يعترينا السأم ، الأجزاء التى لا تنتهى ، المتعلقة بأسرة جرمانت . (يشير الكاتب بذلك إلى مؤلفات پروست — المترجم) .

(٢) ومسيو پير يلح بحق فى هذه النقطة .

بدعة المحاريب

[ننشر هذا البحث القيم غير محتملين شيئاً من تبعاته الفنية والتاريخية والدينية أيضاً . ونعتقد أن المختصين خليقون بأن يتعقبوه بالنقد والتمحيص .]

١

تحتفظ دار الكتب المصرية ، فيما تحتفظ به من نفائس الكتب والآثار ، بمخطوط غريب أسماه مؤلفه « كتاب إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب » . والكتيب أو الرسالة وريقات معدودات ، كتبها ناقلها بخط حسن مقروء ، وأدخلها في مجموعة من الرسائل المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين السيوطي ، صاحب «تاريخ الخلفاء» ، و«تفسير الجلالين» ، و«حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» . وهي مصنفات شهيرة لعالم جليل ، ومؤرخ واسع الاطلاع . كان مولده بمصر سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٥) ، وكانت وفاته سنة إحدى عشرة وتسعمائة (١٥٠٥) . وقد يسر علينا السيوطي نفسه سبيل البحث عنه ، والتفتيش عن أعماله ، فأورد في كتابه « حسن المحاضرة » كشفاً بمصنفاته ، وذكر لنا أنها بلغت ثلاثمائة كتاب «سوى ما غسله ورجع عنه» ، وأنه كتب في فنون التفسير والفقه والحديث وتعلقاتها ، وفي فنون العربية والأصول والبيان والتصوف والتاريخ والأدب ، وأنه كتب إلى هذا في « مسائل مخصوصة » منها رسالة في « تحريم الاشتغال بالمنطق » ، وأخرى عنوانها « أنموذج اللبيب إلى خصائص الحبيب » ، وثالثة في « فصل الخطاب في قتل الكلاب » . ولم يذكر لنا السيوطي أنه كتب رسالة بالعنوان الذي يحمله مخطوط دار الكتب ، أو أنه شغل بموضوع المحاريب مثل ما شغل بتحريم المنطق ، عملا بفتوة سمعها من ابن الصلاح . ولهذا فإني أشك في صحة انتساب هذه الرسالة إليه بالرغم

مما انطبع فيها من مظاهر أسلوبه وتفكيره ، غير أني سأتمهل في الرفض وأنظر في موضوعها .

الرسالة بحث في موضوع حديث يُعزى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وللحديث، كما نقله السيوطي ، نصان : النص الأول «اتقوا هذه المذابح» ، والنص الآخر « لا تزال هذه الأمة — أو قال أمتي — بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى » . وحاول السيوطي جهده أن يثبت صحة سند هـذا الحديث ، ونقل في ذلك أحاديث أخرى عن قوم من الأوائل ، قال البعض فيها إنه لم يكن بمسجد المدينة محراب قط على عهد الرسول ، ولا في زمان الخلفاء الأربعـة ، وأورد البعض الآخر أن المحاريب من شأن الكنائس ، وأن اتخاذها في المساجد من أشراط الساعة ، وأخرج أحدهم عن على بن أبي طالب أنه كره الصلاة في « الطاق » . وأجمعوا كلهم على ذكر « المذابح » ، وهم في ذلك يقصدون « ما أخرجه عبد الرازق في (المصنف) عن كعب قال : يكون في آخر الزمان قوم يزينون مساجد ، ويتخذون مذابح كمذابح النصارى ، فإن فعلوا ذلك صب عليهم البلاء » .

حديث السيوطي ينصب إذن على المذابح ، لا على المحاريب ، أو إنه فسر هذه بتلك ، وجعل منها عنوان رسالته . وفي الأحاديث علماء ، ولست أشك في أنهم لا يترددون في إسقاط حديث السيوطي ، معنى وتركيباً وسنداً . والذي أجزم به ، على كل حال ، هو أن رسالة السيوطي مرفوضة علماً ، مستنكرة تاريخاً حتى لو كانت مخطوطة بيده . إذ لا يستطيع المؤرخ ، مهما بلغت حماسته في الرأي أو مقدرته على الاستنباط أن يعترف برواية نقلها الراوي بعد تسعة قرون طويلة من تاريخ حدوثها ، مهما أضفى عليها راويها من صحة المظهر واستقامة المعنى . وماذا تقول في راو يطلع علينا اليوم ، من غير مرجع أو سند صحيح بحديث مبتكر عن المستنصر العبيدي خليفـة الفاطميين في مصر ، أو بقصة مطوية عن القائم بأمر الله ، خليفـة العباسيين في بغـداد ، أو برواية منسوبة إلى السلطان ملكشاه السلجوقي ، وكانوا جميعاً أحياء منذ تسعمائة سنة ؟

والأمر شبيه بهذا في حديث السيوطي ، فإنه لم يأت بذكره راو من رواة الأحاديث ، ولم ينقله قبله مؤرخ من مؤرخي الإسـلام . وإذا كان العلماء

يرمون بالشك أحاديث كثيرة من أحاديث البخارى ، مع ما نعرفه عنه من دقة البحث ، وقرب العهد ، نسبياً ، بالرسول — إذ عاش بعده بمائتى سنة — أليس حديث السيوطى أولى بالشك وأبعد عن التصديق ؟

والذى ذكره رواة الأحاديث وعلماء الفقه قبل السيوطى لا ينصب على المحاريب ، فلم يتعرضوا لها بخير ولا بشر ، وإنما كرهوا زينتها ، حتى لا يشغل الإمام بها عن الصلاة . فقد ذكر ابن الحج فى « المدخل » نهياً عن زخرفة المحراب ، وقال إن ذلك من البدع ومن « أشراط الساعة » ، ونقل عن الطرطوشى عن الإمام مالك أنه كره ما كانوا يعلقونه من خرق كسوة الكعبة فى المحراب وغيره ، فإن ذلك كله من البدع « لأنه لم يكن من فعل من مضى » .

وذكر كثير من العلماء الذى سبقوا السيوطى ، أمثال الكاشانى ، وقاضى خان ، والزيلعى . والطرابلسى ، ما يدل على أن المحاريب كانت شائعة فى مساجد الإسلام ، وأنه لم يكن هنالك من حظر فى بنائها ، أو نهى عن استعمالها . بل إنهم أجمعوا على ذكر محاريب نصبها الصحابة فى القرى والأمصار التى فتحوها ، وإن كانوا لم يبينوا لنا أشكالها . إلا أنهم أوصوا باعتبارها دلائل لتعيين القبلة والتوجه فى الصلاة .

وبالرغم من هذا ، فقد تعلق كثير من المستشرقين وعلماء الآثار بحديث السيوطى ، وأولوه ثقتهم ، وقالوا معه ، أو على الأصح محتجين به ، إن المحراب بدعة ، وإنه من عمل الكنائس . أما الشق الأول مما ينادى به المستشرقون فيكاد الإجماع ينعقد عليه ، وحديث السيوطى لا يغنى فى ذلك قليلا ولا كثيراً . وقد جاء فى رحلة ابن بطوطة أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان هو الذى صنع المحراب لمسجد المدينة ، وأضاف ابن بطوطة إلى ذلك أنه « قيل إن مروان هو أول من بنى المحراب ، وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد » . غير أن المقدسى والسمهودى ، وغيرهما من المؤرخين ، قالوا إنه لما تولى عمر بن عبد العزيز بناء مسجد المدينة « وبلغ هدم المحراب دعا بمشايخ المهاجرين والأنصار فقال احضروا بنيان قبلتكم ، لا تقولوا غيَّرها ، فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً » . وفى هذا بعض الدلالة على أنه كان بالمسجد محراب قبل ذلك . ويقول السمهودى فى وصفه الشامل وتحليله الدقيق لمسجد المدينة فى كتابه « خلاصة

الوفى » إنه كان بجدار القبلة « إزار رخام مخلق بخلق ، فيه الوتد الذى كان صلى الله عليه وسلم يتوكأ عليه فى المحراب الأول » . فكأنه يدلنا على أنه كان بمسجد المدينة محراب على حياة الرسول . أما فى غير هذا المسجد ، فقد ذكر الكندى وابن عبد الحكم وغيرهما من المؤرخين القدماء أنه « لم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وإنما قرة بن شريك جعل المحراب المجوف » . وقرة بن شريك ولى إمرة مصر بين ربيع الأول سنة تسعين (يناير ٧٠٩) وربيع الأول سنة ست وتسعين (ديسمبر ٧١٤) ، وكان عمر بن عبد العزيز قبيل ذلك عاملا على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك ، ولاه سنة ست وثمانين (٧٠٥) وعزله سنة ثلاث وتسعين (٧١١) . وقد أخذ العلماء برأى غالبية المؤرخين ، وأجمعوا على الحكم بأنه لم يكن لمسجد من مساجد الإسلام محراب مجوف قبل سنة سبع وثمانين للهجرة . غير أنى أرانى مضطرًا إلى الخروج على هذا الاجماع ، فهناك أثر ثابت ، قد تحققت حديثاً من وجوده ، ولا سبيل إلى الطعن بعد اليوم فى صحته ، وهو يناقض هذا الرأى الأخير .

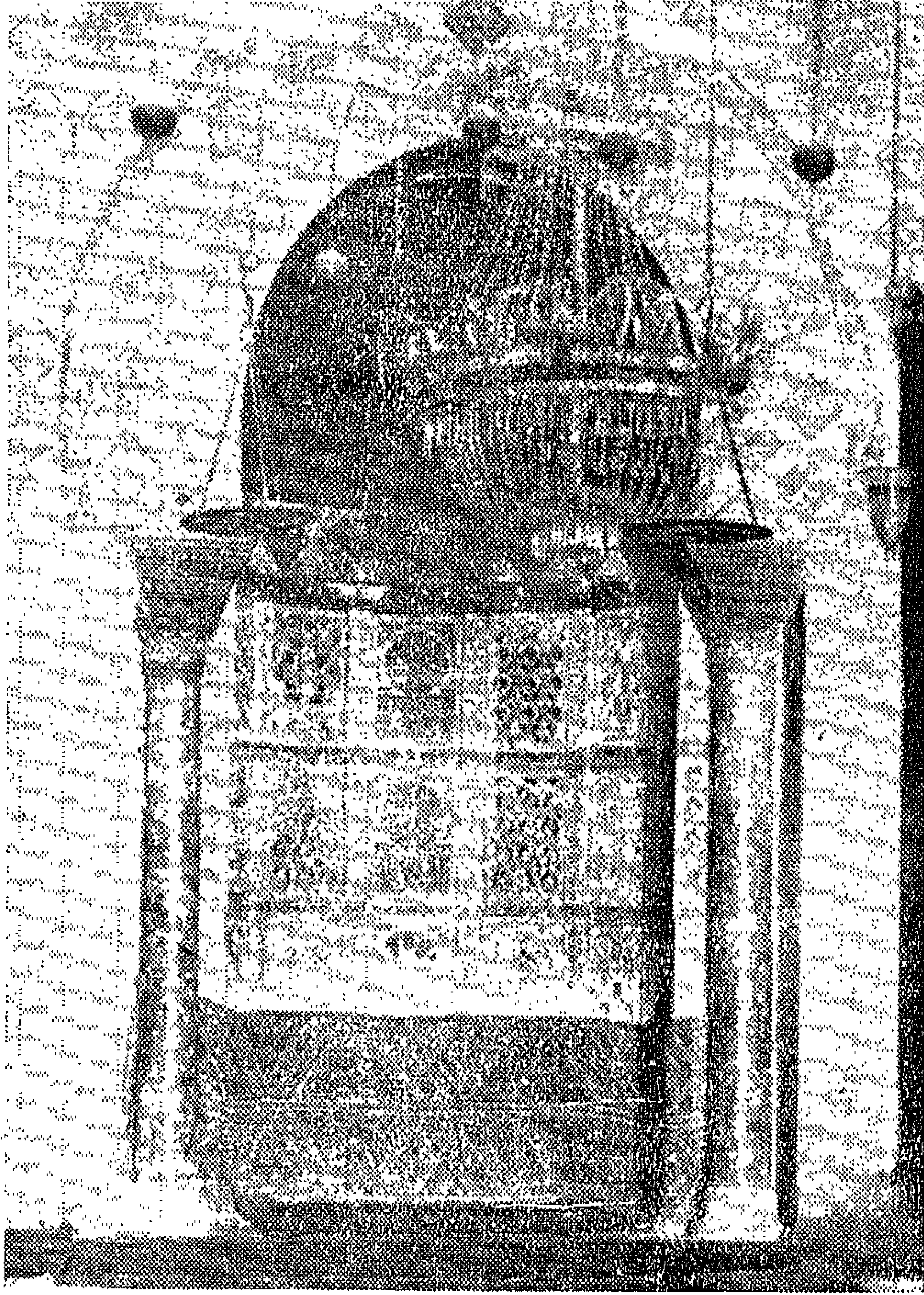
والواقع أن مؤرخى العرب لم ينكروا إطلاقاً وجود المحاريب قبل سنة سبع وثمانين فى غير مسجدى الرسول بالمدينة ومسجد عمرو بالفسطاط . بل إنا قد رأيناهم يترددون فيما يتصل بمسجد المدينة ، واختلف رأيهم فى محرابه ، فقال أحدهم : كان للرسول محراب فى ذلك المسجد ، وقال آخر إن عثمان هو أول من جعل له محراباً . ثم إنهم لم يتحدثوا عن المساجد الأولى فى الإسلام ، فلا نعرف من رواياتهم إذا كان المحراب قد أدخل فى بناء مساجد البصرة والكوفة وزمام ، ولكننا نعرف على كل حال أنه كان فى نظام مسجد القيروان ، وهو الذى أقامه عقبة بن نافع سنة خمسين (٦٧٠) .

حدثنا كثير من المؤرخين عن تاريخ بناء مسجد القيروان ، وذكروا كيف أن عقبة بن نافع بدأ ينشئ هذه البلدة بعد دخوله إفريقية ، وكيف اختط فيها دار العمارة والمسجد الأعظم . وذكروا أن الناس كانوا يصلون فى المسجد قبل أن يحدث فيه بناء ، وأن أمرهم اختلف فى القبلة . وقيل إن آتياً أتى عقبة فى منامه ، وأن صوتاً من عند الله أسمعه أين يضع محرابه من المسجد ، وتناقل الناس هذا الحديث إلى اليوم ، وإليه يرجع ما يحملونه من الإجلال للرجل

ولمسجده . ذكر هذا جمهرة من المؤرخين من بينهم ابن عذارى والنويرى وابن خلدون وابن حوقل والبكرى . ولا شك أن ما نقله عبيد الله البكرى هذا عن القيروان هو أصدق صورة وضعت عن تاريخ هـذه المدينة ، وكتابه عن المغرب مشهور ، والثقة به عظيمة . وإن يكن وصفه للجامع غير شامل ، فهو وصف دقيق ، يسهل تحقيقه ومراجعته . وإن يكن البكرى قد عاش فى النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى ، فقد نقل كثيراً من أخباره عن أصدق مارواه المؤرخون السابقون ، وأكثرهم ثقة بالرواية . وقد أثبت البحث العلمى الحديث ، كما أثبتت المقارنة التاريخيـة ودل التحقيق الأثرى ، على أنه لا مجال للشك فيما نقله البكرى إلينا من تاريخ المغرب والقيروان .

يحدثنـا البكرى أن عقبة بن نافع أقام مسجده وأقام محرابه ، وأن حسان ابن النعمان هدم هـذا المسجد وشيد عليه بناء جديداً ، وكان ذلك بين سنتى ثمان وسبعين وثلاث وثمانين (٦٩٣ — ٦٩٧ م) ، ويحدثنا أن بشر بن صفوان زاد فى هذا المسجد زيادة كبيرة سنة خمس ومائة (٧٢٤) ، وأن يزيد بن حاتم هدم المسجد مرة ثانية وبناه من جديد ، لما ولى إفريقية سنة خمس وخمسين ومائة (٧٧٢) . ويؤكد لنـا البكرى أن جميع هؤلاء الولاة والبناة لم يمسوا محراب عقبة ، وأنهم تركوه على ما كان عليه حتى كانت سـنة إحدى وعشرين ومائتين (٨٣٦) . فى تلك السنة ولى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمرة إفريقية ، وهدم جامع القيروان كله ، ثم أراد أن يهدم المحراب فلم يجبه أحد إلى ما أراد . فألح فى ذلك ، ولـكنه حيل بينه وبين هدمه ، ويقول البكرى ، منعه الناس من المساس بالمحراب « لمـا كان قد وضعه عقبة بن نافع ومن كان معه » . فقد كان هـذا المحراب ، كما قرأنا ، موضع إجلال القوم وتقديسهم ، وكانوا إلى عهد زيادة الله ، مازالوا يتناقلون حديث الوحى الذى أبان لعقبة موقع محرابه من المسـجد . ويروى البكرى أن صانعاً ذا حيلة من الصناع ، تقدم بعدئذ إلى زيادة الله برأى يوفق بين رغبته فى بنـاء محراب جديد ، وبين إجماع القوم على الاحتفاظ بمحراب عقبة ، وأن هذا الصانع صنع لأميره حلية من لوحات الرخام المنقوش المخرم ، وألصق هذه اللوحات على جدار المحراب القديم ، فبدا فى ثوب بديع قشيب ، ولم يصب محراب عقبة بسوء .

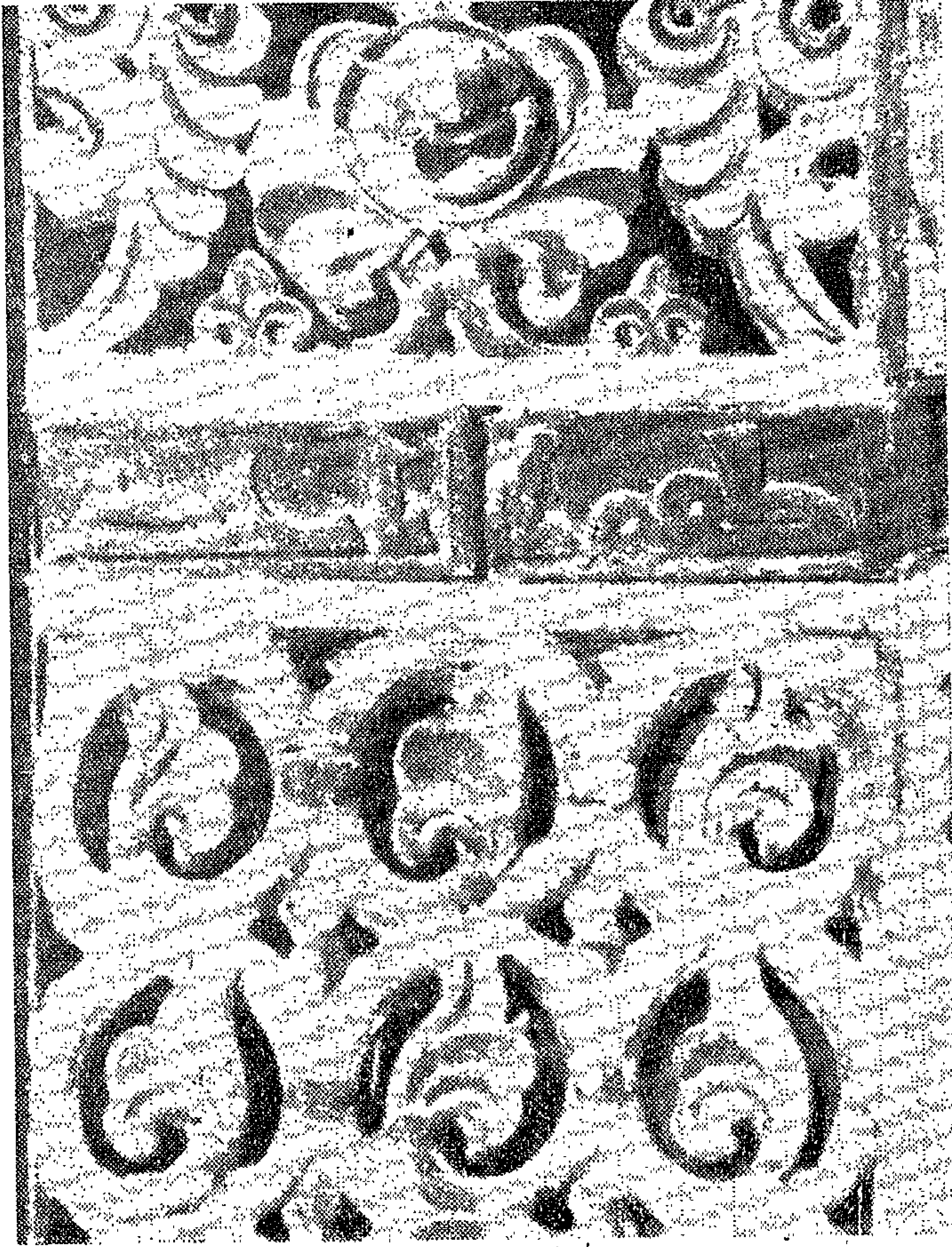
وقد كنا نستطيع أن نقنع بهذه الحجة ، فان فى رواية البكرى هذه من الثقة والاستقامة ما يفتقر إليه حديث السيوطى ، وما يغنينا عن استزادة الإيضاح . ولكننا نفند آراء معمارية ، فلندع العناصر المعمارية نفسها تحاجُّ وتتكلم ؛ لأن محراب عقبة هذا ما زال كما قال البكرى منذ تسعمائة سنة ، قائماً « على بنائه إلى اليوم » . وإنا لنراه من بين خروم لوحات الرخام التى صنعها الصانع النبيه فى عهد زيادة الله ، وكسا بها جدران ذلك المحراب المبجل .



محراب مسجد القيروان (سنة ٢٢١ هـ — ٨٣٦ م)

يرى الناظر خلال هذه الخروم أنها تخفى من ورائها جداراً مقوساً . على هيئة جوفة فى جدار القبلة ، غير أن الفراغ الضيق الذى يلمحه الناظر من ثنايا

هـذا الجدار يحول دون تبين شكله كاملا . ولهذا لم يشأ أحد من المشتغلين بالآثار أن يعترف بطبيعة هذا المحراب المجوف العتيق ، وادعى أحدهم أن قيام هذا الجدار ، أو هذه الجوفة أمر طبيعى ، إذ أن لوحات الرخام المخرم تتطلب إيجاد فراغ من خلفها حتى تظهر نقوشها ، وقال إن هذا الاحتيال البسيط ، أدى إلى نشأة أسطورة المحراب ، وإلى اختلاق القوم لحديث محراب عقبة .



تفصيل من اللوحات الرخامية بمحراب مسجد القيروان

ولهذا لم أر بدا من العودة إلى القيروان ، وقمت منذ ثمانية أعوام بدراسة هذا المحراب دراسة جديدة وافية . وقدم لى أصدقائى التونسيون معاونة جليلة أذكرها لهم هنا بالشكر والتقدير ، وقمت بنقر جدار القبلة فى المسجد فى

مواضع مختلفة ، وأزلت طبقات الجير التى تكسوه فى مواضع أخرى ، وتبين لى بصفة قاطعة أنه بنى من حجارة كبيرة منتظمة القطع ، تطابق فى استطالتها وفى استوائها وفى حجمها وفى رصها نوع الحجارة التى بنيت منها مئذنة المسجد فى الجزء الأوسط من برجها . وقد أجمع المؤرخون وعلماء الآثار على أن هذه المئذنة أقيمت سنة خمس ومائة ، أثناء ولاية بشر بن صفوان ، عامل الخليفة هشام بن عبد الملك .

أما جدار المحراب فكان أبعد منى منالا ، وكانت عملية تحقيقه أدق سبيلا ، ولم يكن انتزاع لوحات الرخام بالأمر اليسير الهين ، فاكتفيت بلوحتين متباعدتين وتحايلنا على نزعهما من موضعيهما فى حيطة بالغة وحذر شديد . فبدا لنا جدار المحراب مكسوا بطبقة كثيفة من التراب ، قاتمة اللون ، عطنة الرائحة ، وأسرعنا فنقرنا نقرات هينة وأزلنا بعضاً من الغلاف الجيرى ، فتبين لنا أن حائط المحراب هذا قد صنع طرف فيه من قطع من حجارة منبعجة ، لا استواء فيها ولا اعتدال ، وأنه فى طرف آخر ، قد رصت فيه قطع منتظمة من الآجر ، وأنه فى بنيانه وفى مظهره وفى تكوينه لا يتصل بجدار القبلة طبيعة ولا زمنا .

لا شك فى أن جوفة محراب القيروان أقيمت فى غير السنة التى أقيم فيها جدار قبلته أيام بشر بن صفوان . ولا شك فى أن هذه الجوفة شيدت فى غير الوقت الذى أمر فيه زيادة الله ببناء المحراب الجديد ؛ فإن عناصر بنائها تنفى القول بوحدتهما الزمنية . وقد ذكر أبو عبيد الله البكرى أن زيادة الله قد أولى محرابه وقبته التى تليه كل عناية ، وأنه حرص على أن تكون موادها ثمينة وصناعتها بديعة ؛ والأمر عكس ذلك فى بناء هذه الجوفة ، فهى غليظة المظهر والعنصر ، وهذا وحده يكفى للدلالة على أن هذه الجوفة لا تنتمى إلى عصر زيادة الله ، ولا بد أن تكون أقدم من ذلك عهداً .

وقيل إن هذه الجوفة شيدت خلف لوحات الرخام لتكون هذه لتلك ستاراً يزداد بها بيان نقوش اللوحات وضوحاً وإبداعاً . ولو أن الأمر كان كذلك لروعى أن يكون بناؤها منتظماً ، وأن يكون بينها وبين اللوحات فراغ فاصل متسع ، والحال على عكس ذلك أيضاً ؛ فسطح هذه الجوفة يقترب من لوحات الرخام حتى ليمسها فى مواضع عديدة ، فالنظر فيها لا يخترق خرومها ، والهواء

لا يمرح ولا ينفذ فى فضائها ، وأنت ترى اللوحات لا تتدلى أمام هذه الجوفة فى خفة ورشاقة ، فهذه عائق لوضوح جمال تلك اللوحات ، وليست وسيلة إلى إظهاره . ولا شك عندى فى أن هذا الحائط الغليظ لم يشيد خصيصاً ليكون ستاراً لهذه المنسوجات الرخامية البديعة .

كان هذا الحائط قائماً ، وكان هذه الجوفة مشيدة ، فاضيفت إليها لوحات الرخام فى عصر زيادة الله ، وكان ذلك وسيلة لأحد البناة توصل بها إلى إرضاء رغبة الأمير ، وإلى الإبقاء على اعتقادات قومه ، فاحتفظ بمحراب عقبة ، وقال لزيادة الله : « أنا أدخله بين حائطين ولا يظهر فى الجامع أثر لغيرك . »

ولسنا نحتاج إلى حجة بعد هذا لدعم هذه الحقيقة ، ولكنى أضيف إلى كل هذا حقيقة أخرى . ذلك أن القبلة ، التى هى موضع المحراب ، عنصر رئيسى من شكل المسجد وتخطيطه . فهذا الموضع يتحدد به اتجاه جدار القبلة ويجب أن يكون هذا الاتجاه عموديا على خط يصل القبلة إلى مكة . وكان يرجى أن يكون هذا هو الواقع فى مسجد القيروان ، إلا أن اتجاه القبلة فى هذا المسجد منحرف إلى الغرب بضع درجات . وقد أخطأ أصحاب عقبة فى تحديد شطرها ، إذ لم يكونوا قد بلغوا من العلم ما يؤهلهم لدقة تحديد الجهات . وقد ذكر المؤرخون أن هؤلاء الأصحاب اختلف أمرهم فى القبلة ، ولم يحسم خلافهم إلا ما أعلنهم عقبة به من أن صوتاً من عند الله عين له موضع المحراب . ولو أن تحديد هذه القبلة وتخطيط حائط المحراب يرجع عهدهما إلى خلفاء عقبة فى القيروان ، لكان أولئك الخلفاء أكثر دقة فى ذلك من أصحاب عقبة ، وأشد تحقيقاً ، ولما كانت القبلة على ما هى عليه اليوم من الانحراف عن شطر المسجد الحرام . ولو أن القوم لم يتناقلوا على تعاقب الأعوام قصة الوحى التى علقت بتاريخ قبلتهم ، لقوّموا انحراف هذه القبلة وصححوا من موضعها ، إلا أن هذا المحراب لم يمسسه أحد من بعد عقبة بسوء ، وظل إلى يومنا هذا محل الإجلال والإكبار .

وعلى هذه الأسس كلها نستطيع أن نقرر أولا أن محراب عقبة كان مجوفا ، وما قبلته إلا هذه الجوفة التى كشفنا عنها من وراء لوحات الرخام والتى يراها الناس من خلال خرومه ؛ فهذا المحراب باق منذ سنة خمسين للهجرة « على بنائه إلى اليوم » . وعلى هذه الأسس نستطيع أن نقرر ثانياً أن محراب القيروان هذا ،

فيما نعرفه ، أقدم محاريب المساجد على الإطلاق . ونستطيع أن نقرر أخيراً ، أن ما نقله السيوطى من النهى عن المذابح ، لا ينصب على المحاريب ، وأن المحراب لم يكن بدعة فى المساجد . وسيتبقى علينا أن نبحث الشق الثانى من حديث السيوطى ، ذلك الذى يدعى فيه أن المحراب كان من شأن الكنائس .

٢

سبق لنا القول بأن علماء الآثار رضوا جميعاً بحديث السيوطى ، والواقع أنهم ذهبوا إلى أبعد مما ذهب الرجل إليه ؛ فجزموا بصحة روايته ، بالرغم من تشككه هو نفسه فيها ، وأقروا الرأى القائل باشتقاق المحراب من مذابح الكنيسة . ولم تقتصر حجتهم فى ذلك على ما جاء بهذا الحديث ، فانهم يدركون أنه بمفرده لايصلح أساساً لإقرار مثل هذه النظرية الخطيرة ، فالتجأوا إلى غيره من المؤرخين ، ونظروا فى رواية ذكرها السمهودى عن أعمال عمر بن عبد العزيز بمسجد المدينة ، ولكنهم فى هذا أيضاً لم يقدروا هذه الرواية على حقيقتها ونسوا أو تناسوا أن السمهودى أبعد عهداً بالرسول من السيوطى ، فانه توفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة وقيل إحدى عشرة وألف . والذى رواه السمهودى فى « خلاصة الوفى » أن الوليد لما أراد أن يعمر مسجد الرسول كتب إلى ملك الروم ليرسل إليه عمالا وفسيفساء ، فبعث إليه بأربعين من الروم ، وبأربعين من القبط ، وبأربعين ألف مثقال من ذهب وفسيفساء ونقل السمهودى عن الواقدى أن عمل القبط كان بمقدم المسجد . خذ بعض المستشرقين هذه الرواية حجة للادعاء بأن الفضل فى إحداث المحراب المجوف فى مسجد المدينة يرجع إلى هؤلاء القبط دون غيرهم .

ولكن السمهودى لم يقل هذا فهو محض استنتاج . وكذلك ماذكره السمهودى يحتمل الشك ، بل إن هذا الراوى نفسه يعترف بهذا الشك ، فهو يروى ثلاث روايات ، على أن إحداها صحيحة ، وقد تكون الرواية التى تمسك بها المستشرقون أشد هذه الروايات كلها مغالاة . فالرواية الأولى نقلها السمهودى عن يحيى بن قدامة بن موسى ، وهى التى ذكرناها ، والرواية الثانية نقلها عن ابن زبالة ، وهى أن ملك الروم بعث إلى الوليد « بأحمال من فسيفساء وبضعة

وعشرين عاملا » ، والرواية الثالثة أنهم كانوا « عشرة عمال » وقال عنهم ملك الروم إنهم « يعدلون مائة » .

فهنالك خلاف إذن فى عدد العمال ، وهنالك خلاف أيضاً فى جنسيتهم . وجدير بنا أن نذكر أن السمهودى يكاد ينفرد بذكر رواية القبط ، ولم يشاركه فى نقلها كثير من كبار المؤرخين والثقات الذين نقلوا تاريخ مسجد المدينة ودقائق تطوراته ، كابن سعد ، واليعقوبى ، والطبرى ، والبخارى ، وابن بطوطة وغيرهم .

وإذا افترضنا جدلا صحة رواية السمهودى ، وسواء أكان القبط يشتغلون فى بيت الصلاة ، أم فى بهو المسجد ، فانهم كانوا فعلة فحسب ، يشتغلون تحت إشراف رئيس مسلم اسمه صالح بن كيسان . وليس من الجائز أن فعلة من الأجانب يبدلون من نظام أول مساجد الإسلام وأكثرها اعتباراً . وأعود فأسجل مرة أخرى ما ذكره السمهودى نفسه من أن عمر بن عبد العزيز ، لما بلغ هدم محراب مسجد المدينة « جعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً » . فمن المغالاة حقًّا أن نحمل نصوص التاريخ أكثر من طاقتها ، وأن نمزج الخيال بالحقيقة ، وأن نزج بالقبط فيما هم براء منه .

ويكفى كل هذا للدلالة على أن ما يستخلصه علماء الآثار المستشرقون من رواية السمهودى زائد عن الحد . فان اشتغال صناع فى بناء مقدس لا يؤدى حتما إلى إحداث عنصر فيه ، وخاصة إذا كان هذا العنصر رئيسيًّا فى نظام هذا البناء ؛ إذ أن المحراب ، كما يعترف المستشرقون أنفسهم ، أكثر مراكز المسجد تقديساً ، وأولاها بالإجلال ، حتى إن لفظ المحراب يطلق مجازاً على الصدر فى المجلس ، فيقال فى اللغة المحراب أشرف المجالس ، وهو حيث يجلس الملوك والسادات والعظماء . ولعله اختير فى الاسلام لما كان يعبر به فى الجاهلية عن أسمى المبانى ، تلك التى أقيمت خصيصاً للملوك .

ولنعد إلى حديث السيوطى ، وإلى ما زعم فيه من علاقة المحراب بمذبح الكنيسة ، وإلى ما قد يصل بين العنصرين مبنى ومعنى . والثابت أن النقل والاقتباس فى الفنون وفى العمارة ، لا يتمان عفوا ، بل إن الحاجة هى التى تدفع الناقل إلى نقل ما يريد أن يستعين به فى قضاء حاجته ، والغاية هى التى ترسم للمقتبس طريق ما يرجو به تحقيق غايته . والغاية أو الحاجة فى هذا أهم من

الأصل ، والفكرة أبدى من الصورة . فالفكرة التى تنقل الشكل لغير ما وضع له ، أحق بالتقدير من الشكل نفسه . والثابت أيضاً أن لمذابح الكنائس وظيفة غير التى لمحاريب المساجد ، وأن هيكل الكنيسة وضع لغير ما وضع له محراب المسجد ، وأن كلا منهما يؤدى فى بنائه وفى موضعه وفى شكله غاية مختلفة ، متباينة ، منعدمة الصلة والموضوع بينهما . وإذا كان اختلاف الغاية لا يستبعد فكرة الاشتقاق ، فهو على الأقل يفرق بين الفضل فى الاقتباس ، والبداهة فى النقل . والمعروف قطعاً ان المعنى الذى يتركز فى هيكل الكنيسة أو فى مذبحها بعيد كل البعد عن احتمال إيحاء المعنى الذى يتركز فى المحراب .

أما فى مبناه ، فالمحراب يختلف شكلا عن هيكل الكنيسة . فهذا فناء كبير فى صدر الكنيسة ، يتسع على الأقل لمنضدة توضع عليها معدات الشعائر والمراسيم ، وفضاء كبير ، يذهب القائم بهذه الشعائر ويجيء فيه ، فى فسحة من الزمن والمكان . أما المحراب ، فهو جوفة فى حائط تضيق بغير الإمام ، بل تكاد تضيق بالإمام نفسه فى ركوعه وسجوده وجلوسه . فليس فى مبنى العنصرين ، المحراب والهيكل ، كما لم يكن فى معناهما ، صلة أو ارتباط .

ومع هذا فما الذى كان يدعو بناة المساجد أن يقفوا فى تأمل أمام هياكل الكنائس ، فيرسموها ويحوروها ويصغروها ، ويخرجوا منها بناء قريباً لها أو بعيداً عنها ، وشيئاً لا صلة له بها وهو المحراب ؟ ما الذى كان يدعوهم إلى هذا وفى الصحارى التى عاشوا عليها مغارات توحى فتحاتها بأشكال المحاريب ، وفى الجبال التى اجتازوا بها ، فى الشام وسيناء وإفريقية ، لجوات كأنها محاريب قطعت فى جدران القبلة ، وفوق هذا وذاك كانت آثار الرومان والفرس تمتد وتنتشر فى البلاد التى فتحها العرب ، وكانت تعرض على بناة المساجد طاقات صغيرة ضيقة مجوفة لا تختلف فى شيء كثير عما اتخذته أشكال المحاريب ، وكانت هذه الطاقات فارغة تبين أوضاعها جملة وتفصيلا ، أو كانت تظل تمثالا واقفاً كأنه الإمام يتوجه إلى المصلين قبل أن يولى وجهه نحو القبلة للصلاة . بل إن الباحث قد يجد إلى هذا فى الكنائس المسيحية الأولى نفسها شكلا أقرب من هياكلها إلى إيحاء شكل المحراب . غير أننا سنرى بعد قليل أننا لا نستطيع أن نجزم على ثقة ويقين بأصل معمارى أجنبى للمحراب ، وأنه ليس فى مراجع التاريخ ، وليس فى آثار العمارة التى سبقت الإسلام ، تفسير صحيح لشكله .

وكل هذا يدلنا على أن الحديث الذى أثبته السيوطى ، حديث ينقصه السند ، ويرفضه النقاش . وكذلك يدلنا على أن الحقائق تنقض ما ذكره السمهودى ، أو أن الشك ، على الأقل ، يحوم حول روايته . وإلى هذا فقد عاش هذان المؤرخان فى عصر جد بعيد عن الحوادث التى ذكراها ، والتى لم يشر إليها مؤرخ آخر غيرهما أقرب منهما إليها ، وأجدر منهما بالثقة ، بل ينقضها كثير غيرهما من المؤرخين . ولهذا فان الادعاء باشتقاق المحراب من الكنائس لا يقوم على حجة ثابتة ، ويفتقر إلى البرهان ؛ فالحقيقة تنكره قطعا ، والتاريخ يرفضه بتاتا .

أقول هذا فى ثقة لا يتطرق إليها فتيل من الشك ، وأقوله فى قوة تستند على دعيمة من البناء ، معنى لا مجازا ، دعيمة ظلت راكزة فى الأرض منذ أقيمت سنة خمسين للهجرة ، وحتى يومنا هذا ، وأقوله فى صدق أقره التاريخ منذ أكثر من ألف عام ، ولم توهنه بعد ، حجة جدية ، أو ادعاء قويم .

يخيل إلىّ أن ما انتهيت إليه من نقض حديث السيوطى ، وما قيل فى بدعة المحاريب ، يتطلب المزيد من البحث لإيضاح أمرين : يتصل أحدهما بنشأة حديث السيوطى ، ويتصل الآخر بنشأة المحراب نفسه .

والواقع أن الحيرة تأخذنا حقا فى إدراك السبب الذى حمل السيوطى او محدثه ، على خلق حديث مثل الذى شغلنا ، مع ما فيه من اختلال واضح ، وركاكة ثابتة . وأخشى أن يخرجنى البحث عن حلقة التاريخ وموضوع الآثار ، ويجرنى إلى دراسة فى فقه الدين والتفسير لا قبل لى بالمضى فيها . ولكنى أعتقد عن يقين أن تطورا فقهيا قد أصاب علماء الدين فى القرنين التاسع والعاشر الهجرى ، وأن أحوال مصر الاجتماعية والسياسية قد دفعت كثيرا منهم إلى نوع من الزهد ، ودفعت البعض الآخر إلى التحايل على إنكار صلاة الجماعة ، وإلى وضع الأحاديث وضعا يمكنهم من إثبات ما كانوا يسعون إليه ، أو يتزلهم مكانة أسمى من العلم بما كان زملاؤهم به جاهلين ، حتى إن أحدهم ، وهو ابن الحج ، ذكر فى « المدخل » ، أن المحراب أقل أجزاء المسجد جلالا ، وحرم على الإمام أن يأخذ مكانه فيه ، مع ما فى هذا من خلاف لما أجمع عليه الناس من تقديس المحراب . والظاهر أيضا أن علماء الدين حينئذ ، بل فيما قبل ذلك بزمن طويل ، كرهوا المغالاة فى زخرفة المساجد ، فإنها فيما ظنوا تشغل المصلين عن الصلاة ،

وزخرفة المحراب تشغل الإمام ، وهذا أدهى وأكثر فحشا ؛ فلم ير السيوطى حرجا من أن يشبه المحراب بالمذبح ، من حيث بهرجهما ، ومن أن ينهى عن هذه الزخرفة ، ويجعلها ، كما رأينا ، من أشراط الساعة .

يتبقى علينا البحث فى أصل المحراب وفى فكرة إنشائه . ويجدر بى أولاً أن استعرض رأيا فى اللفظ نفسه . فقد كان المحراب لفظاً يستعمله العرب قبل الإسلام للدلالة على بناء أقيم لملك من الملوك . وبهذا المعنى جاء ذكر هذا اللفظ فى أشعار امرئ القيس والأعشى وفى المفضليات . وهو فى القرآن يؤدى معنى آخر لا صلة له بالقبلة أو بالمسجد . وهو على كل حال مصطلح لجزء من البناء ، غرفة كان أو قصرا . وقيل فى كتب اللغة محراب المصلِّى مأخوذ عن المحاربة ، لأن المصلى يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه . وهذا تفسير ، إن أرضى علماء الدين ، لا يرضى المؤرخ وعالم الآثار . وقد ذكرت فى سياق الحديث عن محراب عقبة فى القيروان ، أنه حين حدد اتجاه القبلة ، ركز لواءه فى مكانها ، وأبان موضع المحراب من مسجده . فهل كان هذا اللواء حربة من الحراب ، فلما ركزها فى ذلك الموضع ، سماه القوم بالمحراب ، اشتقاقا من الحربة ، فسارت هذه الكلمة فى اللغة للدلالة على مركز القبلة ، لست أدرى أيجوز هذا التفسير لغة ، ولست أجزم بصحته ، وهو على كل حال موضوع بحث جدير بعناية علماء اللغة .

أما نشأة المحراب باعتباره عنصراً معماريًّا من بناء المسجد ، فترجع فى نظرنا إلى ابتكار أملته الضرورة ، مثله فى ذلك مثل المسجد نفسه ، الذى تكونت نظمه ، وتشكلت هيئته من واجبات الصلاة وفروضها وسننها ، ومن عادات العرب وطبيعة بلادهم . والمحراب ينسجم شكله مع شكل المسجد ، بل هو المركز الذى تتفرع منه خطوطه ، وتتشعب منه اتجاهاته .

وإذا كان التاريخ لا يرشدنا إلى المصدر الذى اشتق عقبة منه شكل محرابه فى القيروان ، ولم يبين لنا كيف ابتكر هذا الشكل ، فقد لانعدم حيلة فى استنباط الرأى وتحليل الفكرة .

والمحراب لا يقصد به الدلالة على اتجاه القبلة فحسب ؛ إذ لو كان الأمر قد اقتصر على هذا لاتخذ المحراب أى شكل آخر ، فلم يكن هنالك ما يدعو إلى

تجويفه ، وكان يمكن أن يستعاض عنه بأى شىء يكون منه ميزة للقبلة ، كقطعة من الحجر أو لوحة بارزة ، أو علم ، أو ستار ، أو جذع نخلة ، أو وتد مثل ذلك الوتد الذى كان يتكىء عليه الرسول فى محرابه الأول . ولهذا فليس فيما اتخذه المحراب من شكل مجوف غضاضة أو بدعة أو شرط من أشراط الساعة .

غير أنى أعتقد أنه كان هناك فوق هذا سبب قوى آخر دعا المسلمين إلى اتخاذ هذا الشكل المجوف ، أو إلى ابتكاره . فإننا نعلم أن المصلين كانوا ، وما زالوا ، يصطفون للصلاة فى المسجد صفوفاً مستقيمة موازية لجدران القبلة ، مؤتمين بإمام منهم ، ونعلم أن الإمام يقف منعزلا فى صدر المسجد ، ويحتل من بيت الصلاة لنفسه وحده ، صفاً طويلا بأكمله . فإذا أدركنا أن الصف الواحد فى مسجد القيروان يتسع لمائتين من المصلين وأن المصلين كان عددهم وافراً حتى كانوا يملأون بيت الصلاة وبهو المسجد وزياداته ، بل كان يضيق بهم كل هذا فيصطف الكثير منهم للصلاة خارج المسجد فى قارعة الطريق — إذا علمنا كل هذا أدركنا أنه كان من الحيف حقًا أن يحتل الإمام صفًا واحداً لنفسه ، ويدفع بمائتين من المصلين خلفه إلى صحن المسجد يؤدون صلاتهم فى غير مأوى من القيظ أو المطر أو البرد .

وفى رأينا أن هذا كله لم يغب عن عقبة وأصحابه ، وأنهم ابتكروا المحراب المجوف حتى يدخله الإمام فى صلاته ويتسع الصف الذى كان يحتله هو وحده لمائتين غيره من المصلين ، فينفذوا من العراء إلى بيت الصلاة ، ويستظلوا بعروشه .

فكرة المحراب هذه بسيطة بحيث لا تتطلب ، فيما أرى ، عناء البحث فى صلتها بالمذابح ، ولا يستقيم معها الحديث الذى طلع به علينا السيوطى عن « بدعة المحاريب » .

احمد فكرى

صفاء الحبّ

[أعيذك ياقارئى أن تشتط فتنسب هذه النفثة الحرى إلى الغلو ، فانما تند أمثال هذه الخواطر من فؤاد متبول ، لا يعرف الحب إلا مصوناً لا ترق إليه الشبهات ، ولا الحبيب إلا ملكا عند الطهر حول هامته هالات ، ولن يعز عليك أن ترى فى الناس من يؤثر حبيبه هذا الايثار مادام فيهم ملك يتخلى عن عرشه فى سبيل الاحتفاظ بقلب ، وشاعر عف يحتم عليه وفاؤه أن يوىء دن يهوى حرمات التقديس .]

لم أُنا عن ميّ سلواناً ولا تيها ... فميُّ معبودتى من بعد باريها !
وليس فى الحبِّ من تيه ومن صلَفٍ ... لدى عميدٍ أبيٍّ النفس عاليها !
يتيهُ دلاًّ خليُّ القلبِ مُطْلَقُهُ ... ولا يتيهُ أسيرُ الروحِ عانيها ،
إنى أراعى عهودَ الحبِّ صادقةً ... إن كان ثمّةَ غيرى لا يراعيها ؛
لو أبعدونىَ عن ميٍّ لا سلوها ... وبتُّ عنها قصىَّ الدّار نائيها ،
وتوّجونى مليكاً لا شريكَ له ... فى العرشِ ، يحكمُ فى الدنيا وأهليها ،
ورقرقوا الخلدَ فى أرجاءِ مملكتى ... وسلسلوهُ على شتّى نواحيها ،
وأرسلوا الحورَ أصباحاً منوّرةً ... وضّاءةَ الحسنِ تسبى قلبَ رائيها
تموج بالرونقِ الضاحى وبهجته ... نشوى مموّهةً بالسحرِ تمويهْ ،
مجنّحاتُ المغانى رهنُ مطلبها ... وحالياتُ الأمانى رهنُ أيديها ،
وعلّلتنىَ بالآمال قاطبةً ... وألّهتنىَ دونَ الناسِ تأليها
أبيتُ إلاّ مهاةً لا تعادلها الد (م) نيا ، ولا الملأ الأعلى يوازيها !
فىٌّ راجحةٌ عندى على الملأ الأ ... على وما فيه ، والدنيا وما فيها !

نأيتُ عنها وفى الأحشاءِ مجمرةٌ ... البعدُ يضرمها والشوقُ يذكيها !
قالوا النوى تطفئُ الأشواقَ ، ويحهمُ ... فنارُ قلبيَ زادتْ فى تلظّيها !
ما العاشقون سواء فى تولُّههم ... ولا النفوسُ سواء فى تفانيها !
وليس من يدّعى الأشواقَ عن وَطرٍ ... كمن يكابدُها أو من يُعانيها !
شطَّ المزارُ بجسمى عن مرابعها ... وظلّتِ الروحُ روحى فى مغانيها !
باللهِ يا روحُ إمّا عزّ مؤنسُها ... وارفضَّ من حولها السُّمّارُ سلّيها ،
فرهبةُ الليلةِ الليلاءِ تؤلمها ... ووحشةُ الظلمةِ الدكناءِ تشجيها
ومن تكنْ مثلَ مىّ فى نعومتها ... فإنما ألطفُ الأشياء يؤذيها !

يا مىُّ إنَّ النوى ليست تغيّرُ من ... حبّ الشريفِ وإن أربتْ عواديها
شهرٌ . . . وترجعُ أيامُ اللقاءِ لنا ... زهراء ننعمُ فى ضاحى لياليها

[بيروت]
جورج سلستى

على الهامش

وفي الصميم

أؤكد للقارئ وإن شاء أقسمت له أني محرج كل الإحراج وأنا أكتب هذا المقال خشية أن أمس زملاء وإخوانا وأصدقاء ، تربطني بهم روابط عدة تتفاوت تراخيـا وتتفاوت إحكاما ، ولهم جميعاً عليّ حرمة الزمالة والأخوة والصداقة ، وفي عنقي لبعضهم دين من تعليم وتثقيف واقتدار . وقد تتلمذت على بعضهم فيما يحب أن ينسبه إليّ أستاذي الجليل الدكتور طه حسين بك من دقة ، وتأثرت ببعضهم في تكويني الأدبي وببعضهم الآخر في تقرير منهاجي في الحياة . هذا فضلهم وعلى الأصح بعض فضلهم عليّ ، فلعله لا يكون فيما أكتب مساس بصاحب فضل وإن كنت أحرص ما أكون على كرامة الكـتّاب بوجه عام لا أتعرض إلا لمن تهون عليه كرامة الكـتّاب .

قبل نيف وربع قرن كان واسطة التحاقي بالصحافة وممتحني فيها صديقي الأستاذ المازني . ذلك أني أبيت أن أدخل فيها قبل أن أجوز امتحان الدخول . وكان إلى جانب الأستاذ المازني في ذلك اليوم صديق له مرشح منذ أشهر للعمل بالصحيفة عينها ، فلم يتردد الأستاذ في نسيان صديقه ساعة امتحنني ، ولم يتحرج من إعلان نجاحي ، وكان أن حللت محل هذا الصديق المرشح . ولا أدري على التحقيق أشقّ ذلك على الأسـتاذ المازني ، لـكن الذي أعلمه علم اليقين وأحسه إلى الآن من الأعماق أنه جاز معي في ذلك اليوم امتحانا آخر ونجح فيه وكنت أنا ممتحنه في الإنصاف . وقد سرنا في الترجمة سيرة كنت اتخذه فيها مثالا ونبراسا ، وكانت بعض كبريات الصحف إذ ذاك تنقل ما تترجم أو على الأرجح ما يترجم من البرقيات بالحرف دون إشارة توفيرا لوقت محرريها وثقة منها بجريدة الأخبار التي كان يحررها آنئذ المغفور له الطيب الذكر أمين بك الرافعي .

ويخيل إليّ أن أمور الترجمة لم تكن إذ ذاك فوضى كما هي الآن أو كما أعتقد

أنها الآن . فقد كان الجهد المبذول فيها خليقا بالجبابرة ويكاد أن يكون لوجه الله . وكان الأجر المعروف فيها كالصدقة يعطاها السائل ويطلبها « لله » : عشرون جنيها فى أربعمائة صفحة من القطع المتوسط تزداد للسبق الحاذق عشرة . ومع ذلك لم يفكر كثير من الكتاب فى الجيد كثيرا عن قواعد الترجمة. وإهدار الأمانة فى النقل إذ ذاك . واليوم وفى سنى الحرب التى كانت إلى أمس تفتحت آفاق المادة والكسب لكل من دب على هذه الأرض وهب ، فكان لطائفة كبيرة من الناشئين جولات العدائين فى هذه الآفاق والميادين ، وكانت مجموعة من الترجمات تزحم الرفوف وتنذر بالتضخم . والغرب الذى نترجم عنه غافل عما فى كثير منها من التمثيل به والتشويه لآثاره . فما تزال الصحف والمجلات تطلع علينا كل يوم بكتب ملخصة فى صفحة ، وقصص ملخصة فى أعمدة ، ونعوت جديدة لهذا التلخيص ، يدخل تحتها ما يسمى بالشرح وما يسمى بالتضمين. ومن الكتب الملخصة فى صفحة واحدة من صفحات الجرائد كتاب مشهور يقع فى أصله الألمانى فى قرابة ثمانمائة صفحة بالبنط الصغير . والصحف والمجلات هذه الأيام يجارى بعضها بعضا ، لا تعرف الاستقلال فى الطابع واللون بقدر ما تؤثر المحاكاة ؛ فإذا ظهرت العناوين فى جريدة بالأحمر والكليشيهات لم تلبث أن تظهر فى البقية بالأحمر والكليشيهات ؛ وإذا حلت واحدة صدرها بغادة فتانة قامت المباراة بينها فى عرض الغادات .

وقد كان فى سالف الزمان عندنا مسرح وتمثيليات . وكان ما يقع فى محيط الغرب ينتقل إلى محيطنا الشرقى ممصرا ، فتحذف الأسماء الأعجمية وتحل محلها أسماء عربية ، وتعرض علينا دون مراعاة للظروف والأحوال ، بيئة لا هى شرقية ولا غربية ، ولكنها بيئة غرابية . ولا على التمثيلية بعد ذلك مما فيها من مسخ وما يغلب عليها من صفة الانتحال ، فكله « صابون » . وقد قامت شهرة بعض روائيينا المسرحيين على هذا النوع من الأساس وهذا الضرب من المسوخ . ويعترف بعضهم صراحة بأنه كان يفعل هذا . ولا شك أنه كان يفعله كدرجة أولى فى سلم الشهرة وذيوع الصيت بين الجمهور . ثم نشأ جيل من القصصيين بارع حقا فيما يعرض على الجمهور من تأليف تلمس فيها « اليسر » لا « العسر » والمطاوعة لا المشقة ، إذ تحور القصص الأجنبية بعض التحوير وتمصر على الغرار السابق ، لتبرز فى حلة محلية يعود منها محورها بفضل التحوير ووزر

التزوير ، ثم هو إلى ذلك مأجور أعظم الأجر بما فاز به من ابتكار تم له بوضع اليد . وأحسب أن هذا الجيل ما يزال بخير ، وما يزال فيه أفراد فى الذروة يشار إليهم بالبنان ، وإن كانت هذه البنان ترتعش حين تشير إليهم ، من الانفعال .

وهذا السطو «المشروع» ، مابرح يتخذ أشكالا «مشروعة» أيضا . من ذلك أنى كنت أتندر مع كاتب كبير فقصصت عليه نادرة سمعتها بدورى من غيرى ، فلم يمر أسبوع حتى كانت الحكاية كلها قوام قصة فى مجلة أسبوعية كبيرة ومورد أجر كبير . وقد أصاب الكاتب بها عصفورين من ذهب : الأول أنه سيقر فى الأذهان أن صاحبنا الكاتب الكبير مبتكرها ، والثانى وهو الأهم أنها ضمنت له رزمة محترمة من ورق البنكنوت على أهون سبيل . وليضحك بعد ذلك من يضحك ، وليسخر بعد ذلك من يسخر ، فمع كاتبنا الكثرة من القراء ، وعارفو القصة الأصلية نفر قليل .

وكتّاب الغرب مساكين حقا ؛ فإن النهضة التى تغترف فى الشرق من عيونهم توشك أن تسمم هذه العيون . فهذه مجلة فلسطينية تنشر قصة للكاتب الدنماركى الأشهر هانس أندرسن بعنوان يستبهم علىّ بعض الشئ وأنا مترجم أقاصيصه . فحين أشرع فى استجلاء القصة هذا العنوان أنتقل من غموض إلى ما هو أغمض ومن بهمة إلى ما هو أشد إبهاما . وأخيراً أعثر على شئ فى القصة يدلنى على أصلها . ذلك أن ما نشر لم يكن لأندرسن وإنما مشيدة أو تلفيقة تستند إلى أساس من أندرسن . هذه جريمة نكراء شوّه فيها جسم حى فانقلب جثة هامدة يضنى المحقق الاستدلال على صاحبها ، ويعيى عارفيه التعرف عليه . لكنه يهتدى آخر الأمر إلى شئ يدل عليه . ويأبى كاتب مصرى إلا أن يسئ إلى القصصى الدنماركى بالذات حتى لا يبذه الفلسطينى ، وينشر له قصة فى إحدى مجلاتنا المحترمة من دون أن يشير إليه أو يشعر القارئ بأنها مترجمة ، ثم يذيلها بتوقيعه . أين ؟ فى نفس المجلة التى صدرت أقاصيص هذا الكاتب عن دارها .

الحق أنه ليس أهون هذه الأيام من عملية المسخ ، لأنها فى الواقع أهون شئ يستطيعها الطفل الأخرق ، ويستطيعها المثقف الرشيد ولا يتورع . فباب الكسب المشروع وغير المشروع مفتوح على مصراعيه ، والكتاب كثيرون يتسابقون ، والقصة رائجة تذيل الصحف اليومية وكانت إلى عهد قريب خلواً منها .

فنى كل يوم قصة غربية ملخصة فى غير صحيفة . والأذى الذى يلحق القصة الأصلية من هذا التلخيص الذى لم يأت لغرض يقتضيه وإنما جاء لذاته أذى كبير . فإن كثيراً من الكتاب لا يتردد طويلا عند الصعب من التعابير فيلخص الصفحة كلها أو يختصرها ، ويتمادى فى هذا ويسترسل فيرق الكتاب على يديه ويتهلهل ويكاد يصبح خرقا .

وهذا بالذات ما أريد التعرض له والمعارضة أثناء ذلك بين ما يقع فيه عندنا وما يقع فى الغرب . فقد أتيح لى أخيراً أن أقرأ شيئاً واحدا بلغات أربع هى الألمانية والإنجليزية والفرنسية والعربية . واستغفر الله أن يتبادر إلى الذهن أنى أتقن هذه اللغات الأربع ، فقد يتسامح معى فى اثنتين منها وأعود من واحدة بنصيب متواضع ومن أخرى بحظ ضئيل . لكنى استطعت مع ذلك أن أزعم فهم ما قرأت من هذا الشئ بهذه اللغات الأربع والإشارة إلى ما تعرّض له من تشويه . والذى أحب أن ألفت إليه بصفة خاصة هو أن الضمير الإنسانى فقد من سلطانه على النفوس الشئ الكثير ، وأنه فى بعض الأنفس بسبيل الاحتضار ، إن لم يكن اتخذ فى العدم المحل المختار .

ونبدأ بالمقابلة بين ما جاء فى بعض ترجمات هذا الشئ أو هذا الكتاب الذى ترجم إلى أكثر من خمس عشرة لغة أجنبية . ففى أصله الألمانى عن مدام دى ستال ونابليون : « ولو لم تتغن فى عالمها المتشيع لروسو بالفضيلة والطيبة اللتين لا يحتاج إليهما حاكم بأمره ، ولو تنبأت بالهدف الذى يرمى إليه [نابليون] وهو ما لا ينكشف يقينا إلا عند الإشراف على نهاية الطريق ، لبقى لها فخر تبين العبقرى قبل غيرها . » والجملة هنا شرطية ومعناها أن مدام دى ستال لم تعد بفخر تبين العبقرى فى نابليون قبل غيرها لأنها كانت تتغنى فى عالمها المتشيع لروسو . . الخ . فيأتى مترجم غربى فيفهم الأصل الألمانى على النحو الآتى : إنها تتحرك فى عالم روسو ، عالم الفضيلة والطيبة اللتين لا يمكن أن يعبأ بهما ديكتاتور ، ومن ثم لا تستطيع أن تتحمس لبونابرت . لكنها مع ذلك تتبين هدفه الذى لم يكشف إلا حين أشرفت سيرته على الختام . فإليها يرجع الفضل فى أنها كانت أول من تبين العبقرى ، وهذا نقيض ذلك على خط مستقيم .

ولتبيان علة هذا التناقض بين الأصل والترجمة لا بد من إلقاء درس فى الأفعال الألمانية ليس هنا مقامه ولا مجال شرح صيغها المعقدة وتبيان ما يستعمل منها

فى الشرط بأنواعه وما لا يستعمل . إنما أريد مجرد التنبيه إلى ما بين الأصل والترجمة من فرق جوهرى يجعل منهما نقيضين . فماذا فعل مترجم عربى لذلك الكتاب ؟ أدى الأصل الألمانى بهذه العبارة :

« والبارونة ستائيل تلك قد أغفلت مع ذلك ذكر مجد بونابرت وهدفه الأسمى الذى لم يتضح أمره إلا فى آخر عمره » .

وندع للقارئ الحكم على مبلغ مطابقة هذا الكلام للأصل أو مغايرته له . ولكننا ننبه إلى شئ لحظناه فى الترجمة العربية ، وهذه الجملة مثال من هذا الشئ . إن المترجم العربى للأسف الشديد خبير بفن الاستخلاص كما لاحظ الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك ، فهو يضع أمامه تراجم ثلاثا لشئ واحد ويقابل بينها ، فإذا تبين اتفاقا بينها نقل من أيها ما يحلو له ، وإذا تبين اختلافا استخلص من الترجمات الثلاث عبارة مقتضبة تنقذ الموقف فى رأيه ، وغاب عنه أن هنالك أصلا ألمانيا يمكن من شاء الرجوع إليه . وحسبنا هذا فى الاقتباس فما نحب أن نرهق القارئ أو نثقل عليه ، وإن كنا مضينا فى التحقيق إلى آخره فلم نترك شيئاً يمكن أن يدل على الطريقتين لم نتثبت منه : الطريقة الغربية والطريقة التى يسير عليها بعض الشرقيين لمن ذوى الأسماء الرنانة التى تظهر وتختفى فى طليعة كل نشر أدبى وفى عقبه نازلة فى الفنادق الكبرى ومزايلة لها .

فالذى نريد أن ننوه به خاصة هو ذلك الجهد البادى فى محاولة الأمانة فى النقل فى التراجم الغربية حيال هذا الاستخفاف الظاهر بهذه الأمانة فى الترجمة العربية . فبينا نلحظ أن الترجمة الانجليزية على سبيل المثال تحافظ ، فيما خلا هنات وأخطاء هنا وهناك ، على روح المؤلف وأسلوبه ، نجد تلك الترجمة العربية التى أسلفنا الكلام عنها بمنأى عن هذا الجهد ، عاجزة كل العجز عن تتبع المؤلف فى آفاقه ومواطنه ، لأنها لا تعرفه ولم تتصل به رأسا ، بل اتصلت به بالواسطة ، ولم تحفل فوق ذلك بهذه الواسطة الاحتفال الواجب .

لقد يعسر تعبير بعض المؤلفين عسرا يعذر المترجم من إساءة الفهم والخطأ فى الأداء إلى حد كبير . فما هو مكلف بجلاء ما لا ينجلى وتيسير العسير ، لكنما هو مطالب بأن يحاول ذلك ما أمكن ، فإذا استعصى عليه المعنى استوضحه أهل العلم ، فإذا لم يجد غناء كان فى حل من أن يترجم على قدر اجتهاده ، وأن يشير فى هامش إلى هذا العسر إذا لم يطمئن إلى ماترجم . والرقيب على هذا كله

هو ضمير الكاتب ، فإذا لم يأبه الكاتب أو المترجم بصوت الضمير ولم يذعن لرقابته فليس لنا عنده شئ ولا ينفع تنبيهنا فيه . ومثل الناقل الدليل الضمير لا يلبث أن ينكشف ، وانكشافه هو أقسى عقاب يلقاه . وليس من الأمانة فى النقل أن يكتفى مترجم بعبارة : « أثار الجماهير » تأدية لعبارة : « أثار الجماهير المحرومة الامتيازات من أعماقها الساخطة » . وليس فى هذا الأصل غموض ولا إبهام ، ولكن وضع كلمة الامتيازات فى الجملة الألمانية قد يحير قليلا ، فلم يتوافر للمترجم ذوق اللغة التى يترجم منها حار فى الفهم . لكن ما عذره فى إغفال « من أعماقها الساخطة » وهى واضحة فى الأصل ؟

والقدرة على الوصف من مميزات الكاتب ، مافى ذلك شك . وهى محك إجادته والدليل الأدل عليها ، فالأدب تعبير . فإذا رزئ الأديب الوصافة بمترجم لا يحسن أداء الوصف على حقيقته بل يخلط بين ظلاله ولا يدرك فروقها التى يبلغ من دقتها أن يحسبها المترجم غير الدقيق مترادفات — إذا رزئ الأديب الوصافة بمثل هذا المترجم فأكبر الظن أنه فاقد على يديه قيمته ، مجرد على يديه من كل ما يحسنه فى صورة شوهاء تترجم فيها الأوصاف كيفما اتفق ، متجاوزا فيها عن الخطوط الأساسية والملامح المميزة استناداً إلى أن القارئ العادى قلما يكلف نفسه عناء التدبر ، وأنه يلتهم الحوادث التهاما من دون عناية بالتفاصيل أو التفات إلى ما يكون على حواشى الحوادث ، وأنه يمر بكل ذلك مر الكرام ولا يتأمله بحال . وفى ظنى أنه ليس مما يسر الكاتب الذى يحترم نفسه أو المترجم الذى يحترم نتاج المؤلف أن يقتصر قراؤه على العاديين منهم ولو كانوا الكثرة الساحقة .

ومن العيوب التى يقع فيها المترجمون عن قصد حسن ، ميل بعضهم إلى تكملة ما يرونه نقصاً فى الأصل أو تصحيح ما يجدونه خطأ فى الوقائع أو التواريخ . ولا بأس من ذلك إذا ضمنه المترجم هامشاً أو نص عليه بين قوسين ليدل على أنه من وضعه هو لا من وضع المؤلف . بيد أن الكثيرين يثبتون من عند أنفسهم ما يرون إثباته فى صلب الترجمة ذاته . وقد يكون ما يرون إثباته شيئاً لم يغفل عنه المؤلف ولم يعبأ بإثباته ، كذكر اسم تعمّد ألاّ يورده ، أو مسلك بعينه تجاوز عن الإشارة إليه ، أو تفصيل لم ير حاجة إليه ، فإذا بك تقرأ هذا كله فى صلب الترجمة على أنه من عند المؤلف ، والمؤلف براء منه لا يحمل تبعته .

مثال ذلك أن ترد فى كتاب «نابليون» لإميل لودفيج عبارة «الملك أسير» فيقابلها فى الترجمة الإنجليزية هذه العبارة : « وشرع الملك لويس السادس عشر فى الهرب فضبط فى ڤارين وأعيد . » وهذه واقعة وتفصيل قد يفيد القارئ الذى يجهله أن يعرفه بل هو يفيده على التحقيق ، وكان يمكن إثباته فى هامش ، فما يدور بالخاطر أن المؤلف يجهله ، لكن القوة الدرامية التى تبدهك من عبارة « الملك أسير » كانت آثر عنده من التفصيل .

وتلقى الجمل الاصطلاحية على أيدى بعض المترجمين إهمالا شديدا . وعذرهم من الخطأ فيها لا سبيل إلى تجاهله ، وإن كان شىء من الفطنة خليقا أن ينبه المترجم إلى ضرورة التثبت والتحرى . وهناك جمل تعذر المترجم كل العذر بخاصة إذا كان الكلام فيها عن جندى كنابليون وعن خنادق . ففى اللغة الألمانية اصطلاح معناه الحرفى : ألقيت بنفسى فى الخندق . ومعناه الحقيق « ألقيت بيدى إلى التهلكة . » أو « أوردت نفسى موارد الحتف . » فإذ ترد هذه العبارة على لسان نابليون يترجمها مترجمها « ولطالما خاطرت بحياتى فى الخنادق . » والخنادق هنا زائدة كما يرى القارئ ، والمعنى يستقيم ويتم بدونها ، وكان المترجم خليقا أن يهملها لو فطن إلى أن ما يترجم اصطلاح لا جملة عادية .

والسوابق التى تسبق الأفعال فى اللغات الغربية تسبب للمترجمين متاعب وتوقعهم فى ارتباكات كانوا خلقاء أن يتفادوا منها بالتثبت . وهى فى اللغة الألمانية مصدر عناء حتى للمتضلعين منها . من ذلك كلمة abtun ومعناها خلع و antun ومعناها لبس . وقد خلط مترجم بينهما وكان الكلام عن ثوب نابليون العسكرى وأنه سوف يخلعه مرات فى حياته ، ففهم المترجم الجملة على أن نابليون سيلبس هذا الثوب مرات فى حياته . وإذ يستبعد أن يكون هذا شأن نابليون الجندى الذى لا يكاد يخلع هذا الثوب لم يفرض خطأه هو والتباس الكلمة عليه ، لكن ظن أنه يخلص من هذا الإشكال بإضافة « كثيرة » إلى « مرات » لتكون الجملة : « وسيلبس هذا الثوب فى حياته مرات كثيرة » فأوقع نفسه فى إشكال آخر .

ومن السوابق الألمانية سابقة ent التى تسبق الفعل فتخلق منه نقيضه . فكلمة binden ومعناها « ربط » إذا سبقتها ent أصبح معناها « حلّ » . ولكن هذه السابقة لا تخلق النقيض دائما كما هى الحال فى كلمة entschwinden .

ففعل schwinden بدون هذه السابقة معناه تضاءل واختفى ، ومعنى entschwinden كذلك « اختفى » . وفى كتاب « نابليون » :

« وبينما هو يتلفت إذا بصره يقع على سلسلة من الجبال يعرفها تختفى فى الزرقة عن الأنظار . »

وما دامت كلمة entschwinden هى الواردة فهى فى نظر المترجم عكس schwinden وضد الاختفاء الظهور ، فلا بد أن يكون معنى الفعل الأول « ظهرت » ولا بد أن يكون معناه فى الجملة السالفة الذكر : تلمع أو تتألق فى الزرقة أو shimmer الإنجليزية .

والكاتبة الفرنسية الذائعة الصيت مدام دى ستال عادت نابليون وناهضها الإمبراطور وأقصاها عن باريس وشردها وحرّم كتبها ، لكنها كانت متصلة بأخيه يوسف ملك أسبانيا حينا من الزمان . وكان يكاتبها ، فكتب إليها يوما يبدى احتقاره للألقاب التى أنعم بها الإمبراطور عليه وعلى غيره من أعضاء أسرته وخاصته وأعيان دولته . ولا يمكن أن يكون الكاتب نابليون وهذه عداوته الطويلة لمدام دى ستال ، لكن المترجم لا يفطن إلى ما بين الأفعال الألمانية من فروق وإلى ما فى صيغها من اختلاف حين تعبر عن الخطاب المباشر وغير المباشر ، فهو ينسب إلى نابليون أنه كتب إلى مدام دى ستال يقول : إن أخى يأبى أن يكون له دخل بلقبه الجديد . والأصل يذكر : فهو [أى نابليون] يقول : إن أخى يكتب إلى مدام دى ستال يقول إن شيئاً لم يتغير ويأبى أن يكون له دخل بلقبه الجديد . وإن دل هذا على شىء فعلى أن المترجم أساء الفهم أولاً فلم يفطن إلى حقيقة الأفعال المستعملة فى الجملة ، وأنه ثانياً لم يجعل باله إلى حقيقة من حقائق الكتاب الذى ترجمه .

ويلاحظ فى بعض المترجمين أنهم لا يتجردون حين الترجمة من الهوى ولا ينفون تحاملاتهم الخاصة ؛ فقد لا يعجب المترجم فى الأصل عبارة شديدة عن بلده أو بنى وطنه أو يسيئه حكم حق عليهم فيستبعده من الترجمة غير عابىء بأنه هنا ناقل فحسب ! وناقل الكفر ليس بكافر . وليس كل ما ينفعك يعجبك . وقد يكون النقد إذا نقل حافزا إلى الإصلاح والانصلاح ؛ والأمة التى تتهيب النقد لا تتقدم ؛ وفرق بين النقد والإهانة ، بين أن يقال فى قوم : « إن بينهم كثيراً من المتسولين » وأن يقال : « إنهم متسولون » فالأولى خليقة أن تضاعف

جهودنا فى مكافحة التسول، والثانية تغضبنا بحق وتحملنا على رد الإهانة . لكن مهمة المترجم تقف عند هذا وذاك : نقل النصيحة والنقد، ونقل الإهانة على السواء . أما الموقف الذى يتخذه المترجم حيال هذا أو ذاك فنافلة إذا كان من ورائه مساس بما فى صلب الكتاب . وله إن شاء أن يتخذ الموقف الذى يراه فى مقدمة أو على الهامش . وقد بلغ الأمر بمترجمة لودفيج الفرنسية ألا يعجبها قول للمؤلف عن أسنان وليد نابليون فحذفت الجملة كلها واستبعدتها من الترجمة . والجملة كما يلى :

« لكنه [أى نابليون] يذهب ويجىء فى خيمته يملى ، وقلم السكرتير الصامت الذى اعتاد أن يسجل تنقل الجيوش هنا وههنا ، يتابع إملاء السيد ليذكر الأسنان الأربع التى تنقص طفلا مقيما فى قصر بارد على بعد ألف ميل من هنا ، الأسنان التى تعوزه للعض . . . » وكان نابليون قد رد على مربية الطفل يعرب عن أمله فى أن يسمع منها قريبا أن الأسنان الأربع قد نبتت له .

وبعد، فآمل ألا أكون أسخطت أحدا ، فكلنا يقع فى هذا أو ذاك من الأخطاء التى أوردت . لكننا بحاجة ونحن نتثقف على الغرب أن نترفق بثقافة الغرب ، وأن ننقل منها الخير على وجهه الواضح لا تشويه فيه ولا نقص ولا تبديل . ومن العبث أن نطالب بذلك المتطفلين على الترجمة والمتكسبين من ورائها ومن لا يحسنون سوى الإساءة ، فهؤلاء نحب بل نرجو أن تقسو على ترجماتهم الأقلام لتحد ما أمكن من عبثهم الضار . وليس لهؤلاء ينبغى التشجيع وإنما التشجيع لمن تلمس من خطئه حسن النية وأثر الجهد الصادق ومحاولة الأمانة على قدر المستطاع . وقد أشرت فى صدر المقال إلى الذى نسب إلى أندرسن مالم يقل ، وإلى الذى نسب إلى نفسه ما قال أندرسن ، كذلك الذى يسطو على قصة يسمعها فينشرها على أنها قصته . فإلى أمثال هؤلاء ألفت زعماء الأدب وأئمته ليأخذوهم بالشدة ، فما كانت الثقافة لتنهض على أكتافهم الهزيلة العجفاء وما يجوز أن يتثقف بجهودهم أحد .

محمود الدسوقى

يجب أن نعيش

كان عازف الكمان الأول ينظر إلى الزامر فى البوق الكبير ويعجب لماذا يوالى النفخ وإخراج هذه الأصوات التى يختلقها ويدسها على اللحن ، ثم ينقل بصره إلى المدير فيزداد عجبه ، فهو أيضاً لا يزال يومئ إلى الزامرين فى الأبواق ويدعوهم بالعصا إلى الاستمرار .

ماذا حدث ؟ كان يجب أن تسكت هذه الأصوات فجأة بالطرقات الثلاث على الطبل الكبير لتهيئ له دخولا خفيفاً هادئاً . . . ولكن الأبواق لا تزال فى صخبها المرتجل ، وضارب الطبل لا يزال رافعاً يده بمطارقه منتظراً أمر الطرق من العصا المشغولة بالناحية الأخرى .

ونظر إلى الأوراق المثبتة أمامه وساءل متى يبدأ دخوله ؟ لقد فات الأوان وتأخر كثيراً . يجب أن يبدأ الآن . . . وعاد يحملق فى العصا التى تهتز فى يد صاحبها فى عنف مثير ، ولكنها لم تأمره . . . وظلت الأبواق تدوى .

وأحس بضيق شديد ، وهم أن يقف فينتبه المدير ، ولكن ساقيه لم تحتملاه وتهاوى فى كرسيه كـكومة من القش . يجب أن يبدأ ، فلا ريب أنه أخطأ التقدير ؛ فقد قال له المدير أمس إنه دخل متأخراً بعض الشئ ، وإنه أكل بعض الأصوات .

ولكن هذه الأبواق ألا تسكت !

ورأى ألا ينتظر أكثر من هـذا ، فرفع القوس ودفعه على الأوتار بيد مضطربة دفعاً شديداً ، فأزعجته الأصوات التى أصدرها فتوقف فجأة . وسمع فى اللحظة التى تلت هذا السكون المفاجئ طبولا وأبواقاً وصيحات تزأر وتهدر ، ورأى العصا ، وكأنها تقسمت إلى عشر أمثالها ، تقترب من وجهه حتى لتكاد تمسه وتومئ إليـه جميعاً بالأمر الذى انتظره طويلا . وجاهد أن يظل قابضاً على كمانه ، ولكنها تفلتت من أصابعه وهوت مع القوس . . . ومعه .

وأسرع إليه زملاؤه يحملونه إلى غرفة قريبة ، ولـكنه افاق فى الطريق إليها وإن كانت عينه لاتزال زائغة ، ونظر إلى المدير الذى كان قرب رأسه وتمتم بصوت متقطع غير واع : « لقد دخلت متأخراً هذه الليلة أيضاً . . . »

ولـكنه حين أفاق وارتد إليه رشـده كاملا ذكر أنه لم يتأخر ؛ فقد كان دوره فى العزف لم يأت بعد ، وإنما هى بوادر هذه النوبة التى أصابته أضاعت معالم اللحن من رأسه ومسخت الأصوات فى أذنيه .

وتحركت شفتاه وهمس : « هذه آخر مرة » .

ولم يسمع همسه أحد ، ولـكن زميلا ظن أنه سمع شيئاً ! فسأله : « ماذا » ؟ فأجاب : « لا شئ . . . » ثم خرج .

وسار فى الطريق لا يدرى إلى أين يذهب ؛ فهو لا يريد أن يعود إلى غرفته فى هذا البيت الذى كان يحبه ويدخله فى خشوع ، كأنه معبد مقدس من معابد الصين ، ويحمل لسكانه لوناً من احترام الآلهة . إنهم فنانون . . . فهم أيضاً آلهة صغيرة خالقة . وقد اختاروا هذا البيت يتمون فيه صنعتهم ، ويفرغون فيه لفنهم . وراقته فكرة هذه الحياة التى تعينه على التصنيف فى الموسيقى فسكن غرفة فى البيت .

ثم كشف على الزمن أنهم يحبون حياة حظها من التركيز الفنى قليل . وكان فى طبعه أن يأخذ نفسه والناس بمقاييس دقيقة قاسية ، ولـكنه ، لسبب لايدريه ، كان يجفل من أن يصدر على جيرانه هؤلاء حكما حازماً . وكلما ساءل نفسه : أهم فنانون خالقون ؟ أم هذه حياة مختلقة زائفة ، وهؤلاء إنتاجهم ثرثرة وخلقهم هراء ؟ كان يهرب من الحكم كأنه يوشك أن يقطع أعناقاً بريئة .

ولـكنه على كل حال ، قضى فى غرفته هـذه التى يخشى الليلة دخولها أوقاتاً سعيدة حلوة ، عكف فيها على فنه وأقبل عليه بشوق العاشق وحرارته ، وعرف فيهـا قسوة الفن حين يستعصى ويأبى الإفصاح ، وذاق مرارة الصراع مع الأصوات قبـل أن يأسرها وينظمها ألحاناً ، وجاش كيانه بالفرحة الطليقة حين يقوم عن مائدة العمل ويهمس لنفسه : « لقد صنعت الليلة شيئاً » .

وكانت هـذه كل دنياه . فما يعرف أنه خلق إلا ليجمع هذه الألحان التى تطوف برأسه دائماً ، منـذ درس الأصوات وبدأ يدرك أسرارها . وتخاذلت رغباته ومطالبه من هـذه الدنيا ، حين رأته يضعها جميعاً تحت قدمه ويخنقها

وهو يركع فى محراب فنه . وكانت براعته النادرة فى العزف ترفع قدره عند زملائه ومدير الفرقة ، ولكنه كان لا يأبه لهـذا أو يهتم به ؛ فقد كان يؤمن بأن مكانه ليس أمام الحامل الحديدى للأوراق الموسيقية بين أفراد الفرقة ينتظر أمر المدير بالابتداء والانتهاء ، ويذهب يكرر أصواتاً من صنع غيره ، كالطفل الذى تدفع الكلمات فى حلقه دفعاً ، ليكررها أمام الأضياف .

إنه لم يخلق ليكون عازفاً . . . بل مؤلفاً .

وحمل هذه الأمنية اليتيمة فى صدره ، ولم يشرك أحداً فى سره ، ولم يكثر من الكلام عن الفن والصنعة فيه ؛ لأنه لايؤمن إلا بالعمل والكدح فى سبيل الوصول إلى القمة والكمال .

ومرت السنوات ، وخرجت الألحان من رأسه متوالية متـداركة . وكان يقضى الليلة بعد الليلة يعيد لحنه الأخير ، ويكرره حتى تتصلب أصابعه وتموت الحساسية من أطرافها ، فيلقى كمانه آسفاً ويترك الأوراق مكانها ويجر ساقيه إلى الفراش وفى قلبه حسرة توشك أن تهشمه . كلا . . . إنه لم يصل . . . لم يصل بعد . . . ولا تزال اللمسة السحرية للفن بعيدة عن هـذه الألحان ، والانبثاقة الخالدة للجمال ضائعة بين ثنايا الأصوات .

وتراكمت الأوراق الحاملة على مكتبه ، وتراكمت الأحزان فى قلبه . وساءل نفسه وكأنه يتوسل إلى ربه : « ماذا ؟ ماذا ينقصنى ؟ »

وفى أيامه الأخيرة هذه أجاب فى ذلة قاسية :

— موهبة السماء . . . العبقرية . . . لم أعطها .

وبكى ونشج . ولما انتهى البكاء والنشيج بعد أن تركا فى قلبه يأساً خطيراً ، جلس يفكر ليصدر حكماً حازماً كعادته .

إنه خلق ليعيش فى السماء العالية للفن ، فهو لايعرف لنفسه دنيا غير هذه ، ولكن سلمه إلى السماء واه قصير ، فكيف يعيش معلقاً بينها وبين الأرض ؟

كلا ! كلا ! ليس له أن يعيش بعد هذا . . . بعد هذه الليلة . .

وساءل نفسه أين يذهب ؟ وخطر فى ذهنه أن يمر على زميلته فى الغرفة المجاورة ، وهى فتـاة ثرية شغفت بالرسم ، ودربت يدها عليه ، وكان أفق خيالها فسيحاً فوسعها أن تبرع فيه ، وركبها ما يركب أهل الفن من شطحات الذهن ، فاختارت غرفة فى هذا البيت تصنع فيها رسومها وإن لم تتخذها سكناً . وقد نشأت بينها

وبين جارها الموسيقى وشائج صداقة ، ميزتها عن ود الجيرة وصلتها ببقية الزملاء حرية سمحة ، فخلطته بنفسها ، وتبادلا خطرات الذهن وأمل السنين القادمة .

ونما كل منهما كالسرحة فى قلب صاحبه . غير أنهما لم يجسرا على أن يعرفا ما بينهما ويعطياه اسماً صريحاً يذكر به ، فصار كالقصة ينقصها العنوان وإن كانت لا تنقصها القدرة على الإيحاء بعنوانها الصحيح .

وعند ما خابت آماله فى فنه ، وهوى تحت ثقل أحزانه ، وقيّد اليأس قلبه ، كانت كلماتها تنعشه وإن لم تشفه . فإنها لم تر فيما حدث له كارثة يتحطم وجوده من هولها . وإنما الفن شئ جميل حقّاً ، يلوّن الحياة بلون بهيج سعيد ، ويعطى لرياحها اللافحة رقة تعين على تحملها ، ولكن غيابه لا يعنى الموت والفناء . وكانت تقول :

— إن ما يحزنك هو صورتك التى ترسمها لنفسك مترجحاً بين السماء والأرض ، كالسجين بين صور الماضى وأحلام المستقبل ، كالطائر فى القفص . إنك تود لو تكون إلهاً . ولكن من يدرى ! لعل هذه رغبة سببتها فورة الشباب ، وستنتهى وتترك لك نوعاً من الرضا ، وستنسى على الأيام رغبتك هذه ، وترضى بسجنك وتذهب فيه لاعباً ضاحكا فرحاً . بل سيأتى اليوم الذى تعجب فيه للطيور الشابة وهى تنطح بأجنحتها جدران القفص تريد الانطلاق .

فقال لها :

— كلا . . . لا أستطيع أن أحطم أجنحتى . . . لست أملك الجرأة على هذا ، ولا أعرف كيف أعيش هنا ، على هذه الأرض ، كهؤلاء الأناسى الذين تموج بهم الحياة .

كانت تريد أن تبعث فى قلبه حب الحياة ، ولكن إخفاقه فى ألحانه يشتت محاولتها ويبددها هباء . وكان يرى فى نظراتها وعطفها ورغبتها فى إنهاضه دعوة عالية صريحة إلى عالمها كأنما توشك أن تقول له :

— لئن فاتك الفن ، إنك لم تضيع الحب . هو وحده قادر على أن ينسيك آلامك . . . ينسيك السجن وأجنحتك الكسيرة .

ولكن يأسه كان خطيراً يوحى له أن عمل الفنان فوق كل شئ ، حتى هذه السعادة الثمينة يجب أن يضحى بها من أجله . وضاعف آلامه علمه أنه يحطم قلبها ويقتل الزهرة الجميلة النادرة التى نبتت فيه .

وكان هـــذه الليلة يريد أن ينفذ الحكم الذى أصدره . وتمنى لو يراها مرة أخيرة ويستمع إليها ويلمس يدها ، فهى منذ ليـال فى غرفتها تزعم أنها تعمل ، وإنما هى تتخذ العمل وسيلة للبقاء بجانبه حتى تنتهى هذه الشدة التى نزلت به . ولـكنه خشى أن تخور عزيمته ويتضاءل عزمه أمام حنانها ونظراتها الدافئة ، فترك طريق البيت . وتحدرت دمعات على خديه فصرّ على أسنانه يمنع نفسه من البـكاء ، وسار بقدم ثابتة إلى غايته .

وحين وصل إلى شاطئ النيل ، عند القنطرة الصغيرة التى تواجه المعرض كان الليل فى شيخوخته والقمر يشحب وقد أتعبه طول السهر . فاسند ظهره هنيهة إلى السور دون أن ينظر إلى الماء . كان يعرف تماماً علامَ هو مقبـل . وتصور نفسه فى الصباح ملقى على طين الشاطئ مشوه الوجه منتفخاً كقربة الماء وحوله الناس يتلاغطون ، فلم تزعجه هذه الصورة أو ترعبه ، بل همس وهو يعتلى السور :

— انى لم أغضب أو أرض حين أرغمت على دخول هذه الحياة ، فـلِمَ أرضى أو أغضب حين أرغم على الخروج منها ؟

وهوى إلى الماء . . .

وكان يحسب كل شئ قد انتهى ، فترك نفسه تغوص بقوة السقوط . ولما ظهر فوق الماء وجد أنه يحرك ذراعيه وجسمه بقوة جديدة ، وشعر بشئ من الزراية لنفسه ، فاستكان هنيهة ، ولـكنه أحس كأنه فى بحر من الدم ، وملأ الماء حلقه وطمس عينيه وأكربه فأوشك على الغوص . وكان له شئ من الدراية بالسباحة فعاد إلى الحركة وضرب الماء . وعجب لماذا صفا ذهنه فصار كالصحيفة البيضاء تستجيب لـكل ما يكتب عليهـا . وامتلأ الجو حوله بموسيقى أطلق عازفوها لأصواتها العنان يسابق بعضها بعضا . إنه يعرف هذه الألحان جيداً . . . هى ألحانه التى حكم عليها بالفناء والعدم . ورأى فجأة أنه لم يكن له حق الحـكم . ليس من حقه أن يقتل هذه الأبناء ولا أن يخنق ما لم يخرج بعد إلى الحياة منهم . وتذكر أوراقه فى الغرفة يقلبها الهواء قبل أن يجمعها الزملاء كوما وتخرس إلى الأبد ، وامتلأ برغبة طاغية فى العودة إلى عمله . . . وإلى صاحبته .

كلا . . . لن يحرم منهما . . . وصار كأن ذهنه يردد :

— العمل . . . والحب . . . كلاهما . . .

ووصل الشاطئ فارتمى عليه حتى لذعته برودة الفجر ، فقام يسير ببلولته يترنح ويتلفت خلفه وكأنه يخشى أن تجذبه إلى الماء أيد خفية .

وحين هم أن يدفع باب غرفتــه أحس يداً خفيفة توضع على كتفه وصوتها يهمس فى جزع : « أين كنت ؟ . . . إنك تقطر ماء ». ثم لــكأنها فهمت فندت عنها صيحة ذاهلة ، فالتفت إليها وأطال النظر فى وجهها وقرأ السؤال الحائر فى عينها ، ثم خفض رأسه وقال :

— نعم ! . . . (ثم بعد هنيهة قصيرة) : ولــكنى واثق أنه لم يكن جبناً . . .

وأرادت أن تتكلم ، ولــكنه وضع يده على فمها فى رفق وقال :

— فى الصباح . . . فى الصباح .

وأغلق الباب على نفسه .

وسمعته طويلا يعزف ألحاناً خافتة حتى أغاق النوم جفونها .

درويش الجميل

من هنا وهناك

إفريقية

ثم أوت سفينتنا مبكرة إلى خليج ساكن فى أرض إفريقية ... وهدات السفينة مجلتها تنتظر إشراق الصباح ... وكسا غبش الصبح كل شيء بيننا وبين الأرض ... فلا نبصر فى ضباب البحر سوى وميض الفنار الخافت ومصابيح تخترق حجباً ثقيلة من الهواء ... وصحا ركب السفينة ينتظرون الأرض ... كأنما اعتادت الأرض يوم خلقت أن تحتضن أبناءها ... وأن تجتذب نفوس من ركب البحر والهواء وترى الناس يأتونها آمنين مستبشرين ... متهللين ...

وخلع النهار ستار الليل ... فبدت « مدينة الجزائر » فى ثدى خليج مرتفع يمد ذراعيه أمداً بعيداً فى البحر ... وهذه الأرض المشرفة بصخرها على البحر أهل لأن يسعد فيها طيرها ... فقد حفت صخورها بزرع ونخل، وهى أهل لأن يغمرها طنين النحل وهتاف الطير فقد عبأ البرتقال هواءها بعطر ثماره. وتشرق الشمس من كبد البحر من وراء جبل، واستمتعت الأرض بنعمتى الحياة والقوة بالشمس والنسيم ...

ولم تكن أرضاً ميتة لا تقول شيئاً، ولكنها حية بسحر نسيمها، وحية بسحر حديثها ... فلا تكاد ترقى فى مشارفها متشدداً متثاقلا حتى ترجع البصر مرتين إلى البحر، وهو يمد بساطه عند قدم الأرض كأنما يتبدل لون ذلك البساط إذا أشرفت عليه من مكان بعيد ... ويخف ثقل الهواء ويخلو لك الصفو، وحينئذ تتمنى ألا يكون لك من الأرض إلا ما ملك الطير ... فتعتزل من تشاء وتعيش حيث تشاء وتشدو والطير صلاة الجمال، ويكون كساؤك ريشها وغذاؤك قطوفها وتصحب الزهر حيث يكون والماء حيث يكون ... ولم تعدم هذه الأرض فى تاريخها القديم شعراً؛ فإن آباء الشعراء تغنوا بما هيجت هذه الأرض من حب، ورعاة الأغريق لم يدعوا الجزر المقابلة المكملة لهذه الأرض حتى شدوا بالحب ... وترى الراعى فى زهرة الشباب فوق صخرة مشرفة على الماء ... يغنى حب جالاتيه(١) التى تقبل على نفسه كموج البحر، فترفع وجهها وتدنو إليه كأنها ترقص وهو ينتظرها مقبلة آتية لاريب فيها، حتى إذا بلغت قدم الأرض تلوت راجعة، ويقبل الأمل واليأس على نفس الراعى وقد انسابت أغنامه وكلبه فى صفحة الجبل ... ويدنى الراعى جمال الحب والأرض ويصبح ماوسمته السعادة والصفو، ثم تقبل جالاتيه فترمى راعيها بتفاحة وتتوارى ضاحكة وراء الشجر.

ألا ليت شعرى من قضى على ذلك الراعى السعيد ... إن قرصان المدنية الأوربية قد هدروا سعادة إفريقية ليبنوا على أنقاض هذه السعادة بيوتاً كالتى ترى ... فلم أجد فى جنوب فرنسا وإيطاليا مدينة أجمل من مدينة الجزائر قد بنيت على أحدث فن وخطت على أجمل هندسة، واتبعت شوارعها نظاماً موضوعاً ... شوارعها تتصاعد فى الجبل، قد

---

(١) Galatée.

حفت بزرع ونخل، وبيوتها بيضاء مزهرة، وسكون ثنايا الجبل أدعى ما يكون إلى السعادة و لأمل . وسميت شوارعها بأسماء النابغين فى الشعر والفن . ولست أدرى هل عرف فن العمارة سحر هذه الأسماء ... فان الذى يعييه الطلوع فى ثنايا هذه الطرقات قد يقف قليلا ليرتاح ويشرع البصر فيما حوله فيرى فى نافذة الدار امرأة بيضاء ذات شعر محمر تنظمه وترجله وتنظمه، ويرى حديقة الدار قد تزينت بثمر البرتقال والشمس ناعمة لاتثير غباراً، ويقرأ اسم الشارع فيسمع لهذا الاسم نشيداً حلواً... لأنه علم من أعلام الموسيقى . . . مثل راڤيل وديبوسى ويسمع لذلك الاسم معنى جميلا . . . لأنه علم من أعلام الأدب والشعر مثل ڤيكتور هوجو ولامارتين ... كل شىء يدعو إلى معنى طيب فى النفس وكل شىء يداعب وتراً من أوتار السعادة فى النفس ...

وفى المدينة جامعة ومسارح وأوپرا وتماثيل، وترى أهلها من الأوروبيين فرحين سعداء ... وهم مزيج أوربى ممن نزح من فرنسا وأسبانيا وايطاليا وممن نزح من جزر البحر المقابلة ... وبنات هذه الأرض قد فزن بجمال وبشر . . . ولكل وجه معنى وأقبلت المدينة على عملها جادة فرحة ينبض شبابها فى كل شىء . . . ولكن أين أهل المدينة العرب . . . ستذهب الحسرة جمال ما ترى لان صوراً مؤذية تتوارى خلف ذلك الجمال. فلا تلبث أن تجلس فى « قهوة » حتى يطير إلى حذائك عشرات من صبية العرب الذين يعيشون من مسح الأحذية كما يعيش إخوتهم فى مصر تحت قصور القاهرة والاسكندرية من جمع أعقاب السجاير وبيع أوراق اليانصيب ومن مد الأكف... فمتى تسمو غرائز البشر الذى يباهى بتأليف جماعات للرفق بالحيوان فيرفق ببشر مثله ... ومتى تذهب فلسفة القائلين بأن الانسان ذئب على أخيه الانسان ! فقد لا أنسى ذلك الصبح المبكر والليل جاثم على الأرض فى طريق من أجمل طرق المدينة إذ أسمع خلف الظلام نبشاً، فألتفت إليه فاذا بكهل عربى يبحث فى صندوق الزبالة عن رزق، قد حنى هذا الشيخ هامته المجللة بالشيب على فضلات المقتدرين ... ورأيت هذه الصورة على طول الطريق . . . أيها الشيخ المحتجب من العار ... إنما العار على القادرين والحاكمين ... إنما أريد أن أبلغ مسامعك أيها الحاكم الذى تعتز بسياسة الناس، وأريد أن أبلغ قلبك أيها الغنى الذى تعتز بثرائك وهو متطاول على ويلات إخوتك وأخواتك من بنى أمتك، وأريد أن تفيق نفساكما من نشوة الحكم والمال ... إن الضعيف أمانة فى عنق القوى، والفقير كفالة فى ذمة الغنى . فإن أدى القوى أمانته، واحتمل الغنى كفالته، عصمت أمتهما من الذل، ودرجت جماعة صوب الكمال ...

سئل أعرابى : «من أحب أبنائك إليك؟» فقال : «الصغير حتى يكبر والضعيف حتى يقوى والبعيد حتى يؤوب» أو كما قال . ولست أريد اليوم من حكمة هذا الأعرابى سوى المقطع الأخير أى « البعيد حتى يؤوب » فان فى البعد حنيناً إلى من تحب ... وهذا البعد يجلو وجه ما تحب . . . وفى البعد صور لأوطاننا لا يشهدها القريب . . . فترى قوة وطنك وضعفه، وترى علة المعتلين فيه وتدرك حاجة الشرف فيه . . . ويجد البعيد عرضاً لأمته أقرب إليه من أمه وأبيه، لان أمته قد وسمت وجهه بسمتها وزينت جبينه بشرفها ... وهذه الأم الكبرى معك حيث تكون ...

أبا مسمع إنى امرؤ من قبيلة
بنى لى مجداً موتها وحياتها

وقد مزقت أمم أوربا بعضها شمل بعض ، وبقيت مصر مثل سويسرا تؤوى الشريد وتطعم الجائع وتنادى بالسلام . وهى أرض مقدسة للعلماء وقد ولج دعاؤها بالحق إلى نفوس من هيض جناحه من أهل الشرق ، فما بقى الاولون من أبناء الوادى لم يذهب أدراج الرياح مع الزمان ، وما تصاعد من دعاء الشهداء قد اوى إلى قرار مكين فى نفوس أمم فى الشرق . . . وقد سمع أهل المدينة أن سفينة فى البحر قد حملت طائفة من طلبة العلم من أبناء مصر . . . وفيهم ابن طه حسين شيخ الجامع الأزهر القديم . . . هكذا كتبت صحف المدينة . فسارع مدير الجامعة بدعوتنا ليحتفل بقدومنا ، وسارع الطلبة العرب من أهل إفريقية ليستمعوا حديثنا ، وصارت أيامنا فرحاً ولياليا عرساً بين حفلات مدير الجامعة وأساتذتها وبين فتية الجامعة وفتياتها . . . ولم نعدم أدباً يسمو بأمتنا وبنا فى أعين الاوربيين والشرقيين . . . وكانت سفينتنا تعيد إلى الفكر صوراً من شعر هومير . . . فقد جاءت سفينة أو ليس أرضاً سأل قومها الوفادة فأوفدوه ، وجمعوا فتية المدينة ليستبقوا أيهم أبعد رمياً للقرص ، ورمى كل جهد طاقته ، ثم عزموا على هذا الغريب أن يرمى رميته ، فأقبل متواضعاً يمشى على استحياء ثم رمى فتجاوز كل طاقة ، فتعلقت به القلوب والأبصار . . . لم نرم قرصاً وإنما رمينا أدباً فأصبنا حباً من الاوربيين والعرب .

إنما تفعل الأفكار ما لا يعمله السيف وقد حف بنا فرنسيون سعداء بأفكارنا ، وخطب خطيب العرب يقول : إنكم أيها الطلاب تأخذون العلم عن أوربا لتأخذه عنكم بعدها . . .

بين الاوربيين والشرقيين قضية فى بلاد الشرق جميعاً ، فمن يحكم بيننا وبينهم ؟ ومن ذا الذى يحدثهم فيؤمنوا أن الصداقة والسلام أنفع للانسانية من أكياس القطن التى يزرعها أهلنا ويتصبب فيها عرق جبينهم لتبتلعها ليفربول ، وأن الصداقة والسلام خير من ثمر الكروم التى تثمرها فى إفريقية حسبة لموائد أوربا . . . وليس علينا أن نذكر جنى المستعمرين وحده وننسى حساب الظالمين ، فاننا نتلو القرآن للذكر « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

وأرض الجزائر الساحلية مساطب من الكروم والفاكهة ، وهى تنتظر السماء كل عام لتسقيها بغيث . وهذه المساطب التى يتبع معارجها محراث العربى الذى يجره فرس أو فرسان ، قد صفت سوق كرومه فى أبعاد متوازية . والأرض تربة جبلية محمرة ، وترى فى رأس المرتفع بيتاً أوروبياً لمالك الأرض . . . واجتمعت على عرب الجزائر سنة وجدب لم يغثهم مطر ، فهزلت دوابهم ومزقت أسمالهم وعطلت أيديهم ، فهم مساكين ضعفاء إلا من حفظت له أرضه أو أثمر جهده . ونساؤهم أدنى للقصر من الطول ، وهن يمشين فى الطرقات ساكنات متلفعات « بعلاية » بيضاء . وقد قرأت أن هذه « الملايات » البيض من نسيج هؤلاء النساء . وهن يحجبن أنوفهن حتى أدنى العين بمنديل أبيض . ومهما تطلعت لعيونهن فلا تعلم ما تقول العين .

وقد أويت يوما إلى جبل فى الأرض لا أعرف مسالكه عند مدينة تدعى « بليدا » وأظنها تحريفاً أوربياً لكلمة « بليدة » أى تصغير بلدة . وقد قرأ على صاحب فى السفينة أن هذه المدينة كانت أحب بلاد إفريقية إلى الكاتب الفرنسى أندريه جيد . فلم أكد أتفرد فى مسلك فى الجبل تخيم عليه أعشاب أدنى إلى الظلمة . . . وأشجار قائمة مشتبكة حتى خرجت من عالم الحضارة إلى عالم البدو . . .

قال العربى من سكان هذا الجبل يغطى رأسه كله ويتعمم فوق غطاء الرأس بعقال، ويلبس عباءة من صوف أبيض لا أكمام لها، وإنما يخرج يديه من جيبين، وزاد أكثرهم حمار وحطب، وترى الحمار مطرقاً لا ينظر إليك كأنما نزعت من قلبه سائر نزعات المجد. وترى القافلين من هؤلاء البدو يتجافونك، لأنهم يحسبونك رومياً، أو لا يردون سلامك خشية أن تكون يهودياً « لعنة الله عليه » كما يقولون إن أخرجتهم عن صمتهم وخشيتهم وكأن هؤلاء البدو لم يجر من حولهم الزمان . . . بل عاشوا بفكرهم القديم . . . وقد سألت رفيقى الذى أنس بى عن قبيلته فقال: نحن من قبيلة فى الجبل تدعى « بنى مصر » . ولم يكد هذا الفتى يكشف عن نسبه حتى قربت بينى وبينه انسانية الأخوة . . . ومكث طرفاً من النهار يهديني ويؤنسني . . . وليست لغة هذا الجبل بفصحة لمن يتكلم لسان مصر فاستعنت بلغة القرآن فى فهم ما يقولون، وقد كان ذلك النهار متاعاً وفراراً من المدنية . . . وكنت أصغى بحنان وحنين إلى دعاء الطير المحتجب فى الأدغال، وكنت أتأذى فى سكون الجبل من إنسان يثير سكون السماء بطائرته.

واخترت هذه الوحشة المؤنسة ابتغاء قرية فى قمة الجبل تدعى « الشريعة » دعتنى الشريعة باسمها لأنها من أحب الأسماء إلى نفسى، ودعتنى الشريعة برفعها لأنها تشرف من أعلى الجبل على الساحل والبحر . وأحببت أن آوى إلى نفسى واصغى إلى نفسى، وأستمع الصمت السحيق العميق، الذى لا يبعث إلا القرار والأمان والحب، وأحببت أن أتنسم هواء لم يفسده الأحياء بحياتهم ونفوسهم، وأن أقرأ من نافذة فى الليل صور النجوم، وأن أشهد الاصباح من رأس الجبل، وأن أستقل يوماً بنفسى من أثقال الانسان الذى تحبه فيكرهك، ويشهر على البراءة العداوة، ويناصبك العدوان من حيث لا تدرى . . .

لم أظفر ببيتى فى « الشريعة » فقد كانت مهجورة لا تؤوى غريبا . . . ونزلت منها بشىء كاليأس، وجعلت أبتسم من فكرة عارضة وهى أن الشريعة مهجورة إلا من الطير لأن أمها العدالة نفرت الظالمين . . .

ثم عزمت سفينتنا بعد لأى على أن تبحر إلى مرسيليا . . .

على حافظ

حلم ليلة من ليالى الصيف

« كنت فى غرفتى تلك الليلة، أصلح من شأنى على عجل قبل الخروج للسهرة . . .

« تطلعت فى المرآة، فاستوقف نظرى هندام حلتى الجديدة التى ارتديتها لأول مرة .

« ما كدت أنتبه إلى هذا الشعور العابر حتى انفتحت الصفحة المقابلة له فى كتاب الذكرى . وهذه السرعة فى التنقل بين الحاضر والغابر أصبحت دينى وعادتى فى الصغيرة والكبيرة منذ ماتت زوجتى .

« ذكرت ما كان فى الحين بعد الحين من إلحاحها الوامق المحب فى أن أستجد لى ثياباً قشيبية غير التى ذهبت بهجتها . وكنت لا أسمع لها لأنى كنت أفكر فى أن أدخر اليسير لمستقبلنا .

« أذهلتنى الذكرى لحظة عما كنت عليه من عزيمة الخروج، فتلكأت وتمشيت فى الغرفة رفيق الخطو غائب الفكر، ثم توقفت ساهما .

« انغمرت بكليتى فى غمرة الذكرى ، وكانت مختلطة غامضة .

« لم تلبث أن تلاشت الصور فى ذهنى إلا صورة واحـدة : صورة جلية ناطقة لمظاهر غبطتها وتهلل أساريرها وتألق نظرتها كما لو كانت حية ترانى الساعة فى الزينـة التى كانت تحب دائماً أن ترانى عليها .

« استشعرت ارتيـاحاً وأنا احاكى فى نفسى ارتياحها . ثم تمادى بى هذا الشعور بالغبطة ، فأنكرته ، وجعلت أدافعه عنى ، وهو يغالبنى .

« شـاعت — على أثر ذلك — روح انتعاش غريبة فى الغرفة الموحشة .

« دبت حياة جديدة فى كل قطعة من قطع الأثاث الهامدة .

« سطعت الأنوار الـكهربائية سـطعة لا عهد بها .

« اضطربت مشاعرى . اهتز كيانى هزة عنيفة . هجم على نفسى جيشاً شعور جنونى ، ولـكنه غامر قوى : « إنها قادمة ، زوجتى إنها حية ، إنها قادمة . . . »

« إرتفع فى وسط هذه العاصفة الصاخبة صوت كالنذير يجاهد للبلوغ إلى ، ينبهنى إلى الجنون الداخل على .

« بقيت لحظة نهب حيرة هائلة : إما العقل ولا أمل معه فى حياتها ، وإما الجنون ومعه الأمل فى حياتها والأنس بها .

« طال الشد والجذب . ثم غلب الحب . وارتفعت على الرغم منى صيحتى ، أنادى زوجتى . صيحة متهدجة ، يتجسم فيها الفرح والفزع .

« فى مثل طرفة العين ، أحسست عقلى يغيب عنى وينطوى عالمه الواعى دفعة واحدة .

« ها أنذا فى مواجهة عالم غريب عنى أنكره . يالفجيعة !... إنه عالم غير عالمى . عالم غير عالمى ، وإن كانت الغرفة هى الغرفة ، والردهة التى أمامها هى الردهة . عالم فظيع ، فظيع ، مضطرب ، مختل ، مكهرب ، ينذر بالأهوال والفواجع .

« لم يطل انتظارى . لقد ظهرت لعينى المرتاعتين — فجاءة — من باب الردهة ، سواعد صغار ، لفتيات صغيرات ، وهى ممدودة إلى الأمام مشدودة ، ممسكة بشموع العرس الطاف الناصعة وعليهـا الأشرطة البيض ، وكأنما — فى هذه اللحظة أو التى تليها — يبدأ الموكب سيره . . .

« انطلقت منى صرخة ألم جنونية ، وحملقت عيناى جاحظتين جامدتين ناحية باب الردهة ، ارتقاباً للموكب .

« وانقضت فترة . وهفت حركة . ثم اجتازت إلى الردهة — بدلا من الموكب — سيدة محترمة محتشمة لا أذكر أنى رأيتها .

« ما وقع بصر السيدة على وجهى المحتقن ، وأمارات الجنون المنطبعة عليه ، حتى رفعت يدها تحجب عينيها وأشاحت بوجهها مجفلة ، وصرخت هى الأخرى .

« لم تكن الصرخة بالجلجلة العاتية . كانت لشدة ما ملئت رعباً صرخة مخنوقة . إن ما فيها من قوة التعبير عن شقاء ما صرت إليه فوق كل طاقة وكل احتمال . »

فانتفضت عندها من نومى مهتاجاً متقززاً ، واستويت جالساً فى فراشى حتى هدأت . وجعلت أراجع نفسى وأمتحنها ، وأنا لا أكاد أصدق أنى ما أزال سليم الحصـاة موفور العقل .

عبد الرحمن صبرى

مهلاً ياعميد الأدب

. . . انتهيت من قراءة مقدمة كتابك القادم «أوديب ـ ثيسيوس» الذى تفضلت وأتحفت به قراءك الأفاضل على صفحات «الكاتب» الغراء ، وأردت أن أغضى الطرف عن أى نقد فما ينبغى أن ينقد التلميذ أستاذه . وأشهد أنك استاذى منذ كتابك «الأيام» حتى كتابيك «جنة الشوك» و «فصول فى الأدب والنقد» . ولكن أكاد أرى أن إغضاء الطرف قد يغضبك ، ولذا أبادر بتقديم نقدى .

لا أود أن أطيل عليك ولا أكلفك بقراءة كتابى أشد الكلف ، فوقتك ثمين . ولكن مهلا ياسيدى ، ألأنك تعشق أندريه جيد ، وتكلف نفسك بقراءة كتبه أتريدنا أيضاً ان نعجب به ؟

الم نجد بين كتاب فرنسا غير جيد ، ولم نجد من كتب جيد غير كتابه هذا ؟

أما علمت ياسيدى أن الآلهة الخرافية الوهمية لا وجود لها فى القرن العشرين ؟

وماذا استفدنا نحن من تضييع وقتنا فى قراءتها وأى قراءة !

أكاد أجزم ياسيدى أننى قرأت مثل هذه القصص وأنا فى السنة الأولى الابتدائية حين كنا نشنف بقراءة قصص الزميل سعيدالعريان وغيرهم .

مهلا يا عميد الأدب ماهكذا يليق . نريد منك قصصا إن كان لابد من القصص كتلك التى نشرتها باسم «المعذبون فى الأرض» . أما إذا كان لا مفر من الترجمة عن الفرنسيين فهناك عدة كتب نحن فى أشد الحاجة إلى قراءتها . وإليك مثالا منها وهو «الاسلام والعالم الحديث» لألفونس جويتلى *L'Islam devant le monde moderne* وهناك غيره وغيره .

نريد ياعميد الأدب فصولا فى الأدب والنقد والسياسة الدولية وقصصاً من تلك القصص الرائعة ولا نريد آلهة خرافية تعيدنا إلى أيام الروضة و «أبو رجل مسلوخة» وغيرهم .

صبحى شفيق

بحث مطروق

تسعى مجلة الكاتب المصرى الغراء سعياً حثيثا بالأدب العربى نحو غايته المرجوة التى نعمل جاهدين لتحقيقها ، والحق إن هذه المجلة بما تحمله بين دفتيها من أروع ما أنتجته أقلام كبار كتاب الشرق والغرب لجديرة بأن تسير بأدبنا قدماً لتجرى ريحه رخاء إلى ما نؤمل له من أهداف كى يستطيع اللحاق بالآداب العالمية الحية والسير معها . وقد كان لى شرف متابعة بحوثها الشائقة منذ صدورها فأعجبت أيما إعجاب بتلك الطريقة الفذة التى هى نسيج وحدها فى كل شئ ، وكان إعجابى على الخصوص مركزاً ومنصباً على بحوث الناقد النزيه الأستاذ سيد قطب وموضوعاته البكر الطريفة التى يطرق بابها لأول مرة فى تاريخ أدبنا العربى الحديث . وآخر موضوع قرأته له ذلك البحث الممتع الرائع المنشور فى الجزء العاشر من هذه المجلة الغراء تحت عنوان «النقد والفن»

فما أتممت قراءته حتى قفل الذهن إلى الوراء راجعاً القهقرى كأنه يبحث عن مجهول ، و بعد مجهود قليل طوينا من الزمان ست سنين وقرأنا للاستاذ قطب بحثاً تحت عنوان « دلالة الألفاظ على المعانى » منشوراً فى مجلة الثقافة العدد ٧٨ وما بعده فألفيناه هو بنصه وفصه وبجره وبجره كما يقولون ... علم الله أننى لست من يتهمون الأستاذ — وهو من هو — بالمتاجرة بالأدب ولا لبيعه مقالا لأكثر من صحيفة كما فعل ذلك المدعى المأفون ، ولكنها فرصة ننتهزها — ولو أنها غير مناسبة — كى نبدى للأستاذ اعجابنا بذلك الكنز الذى عثر عليه وحده ، وهو ذلك الفتح الجديد فى هذه الدراسات المطربة المعجبة . وللأستاذ تقديرى وتحياتى على كل حال .

محمد الشاذلى حسن

قرأت هذه الملاحظة ، وقد يستحق كاتبها الفاضل أن أشكر له ثناءه . ولكن لى أن أعتب عليه فى أنه لم يكن دقيقاً فى تعبيره وهو يقول :

« فألفيناه هو بنصه وفصه وعجره وبجره كما يقولون . »

هذا ليس صحيحا ، والصحيح أننى نشرت مثل هذا البحث فى مجلة الثقافة منذ ست سنوات . ولكن الكاتب كثيراً ما ينشر بحثاً ما ؛ ثم يعن له بعد فترة أن يحدث فيه تعديلات ، تتناوله بالزيادة هنا والنقص هناك ؛ وباحكام بعض العبارات لتكون أدق فى الأداء ؛ وبتغيير الأمثلة والنماذج لتؤدى الغرض خيراً مما أدته الأمثلة والنماذج الاولى ؛ وعندئذ يتغير التعليق على هذه الأمثلة ، وهو يؤلف جزءاً أساسياً فى مبحث عن النقد خاصة.

فاذا ما انتهى إلى مثل هذا التعديل رأى أن بحثه القديم قد عاد جديداً يستحق النشر من جديد ، أولا لأنه معدل ، وثانياً لأنه خير مما كان . ولم يجد فى ضميره حرجاً من إعادة النشر فى مثل هذه الظروف ، ومع مثل تلك الملابسات .

وهذا هو الذى وقع فى بحث « دلالة الالفاظ على المعانى » حينما أعيد نشره معدلا منقحاً بعنوان « النقد والفن » .

وهذا ما كنت أحب أن يشير إليه الكاتب والسلام .

سيد قطب

أما نحن فنأسف أشد الأسف لأن الأستاذ سيد قطب لم يؤذنا بأنه قد نشر مقاله ذاك ثم أعاد النظر فيه لينشره من جديد . ولو قد أذننا بذلك لكان من الممكن أن نرى فى نشر هذا المقال المعدل رأياً غير الذى رأيناه حين لم نكن نعلم أن له صورة أخرى نشرت فى مجلة أخرى منذ سنين .

الكاتب المصرى

شهريات

١ شهرية العلم

وسائل التغلب على الآلام

مزاياها وأخطارها

ما أقسى سكون الليل وأشد حلكته . وما أبدع استرخاء النوم وألذ غفلته ، وما أفظع وطأة الألم وأشد بأسه ، فالناس لديه سواء لا يرحم العدو ولا الصديق .

على أن الألم رغم شدة وطأته على الجسم والنفس ، يجب اعتباره من الحواس الضرورية كالسمع واللمس وباقي الحواس الخمس ، إذ أن له مزايا وقائية جمة . فلولاه لتركنا الجمرة المحترقة تنال من أجسامنا ما شاءت ، ولما ابتعدنا عن مواطن الأذى والخطر حيثما كانت ، ولما فطنا إلى موضع الخلل من الآلة البشرية التي تعمل دون انقطاع أعواما ، فتسير في نعومة حيناً أو يختل ميزانها أياما . والألم هو سبيلنا الوحيد لتعرف موضع الداء ، فنكافحه بما يناسبه من دواء . فهو نقمة ونعمة ، وخنجر مغمود ودرع واق . وسبحان الذي يعطي ويأخذ ، ويذل ويرحم وهو على كل شيء قدير .

كم سمعنا عن قلب يتلظى أو كبد تحترق ، فظننا أن أعضاءنا الداخلية كالقلب والكبد والرئة والكليتين والمعدة والأمعاء حساسة مرهفة يؤلمها الوخز الرقيق الدقيق ، ولكن الواقع أنها لا تحس ولا تشعر بالألم ، فإنك إذا فتحت بطن حيوان ما ثم عبثت بأحشائه تضغط عليها حيناً وتقطعها بحد السلاح أو تحرقها بالنار حيناً آخر لما وجف أو صرخ متألماً . وفي الحالات الجراحية التي تجرى تحت تأثير البنج للوضعي يلاحظ الجراح ومن حوله أنه متى تعرضت الأحشاء أمكن العبث بها أو الضغط عليها والمريض لا يكاد يشعر بما يجرى فيه . ويقص السير وليم هارفي أسطورة لا تخلو من طرافة ، وهي أن الابن الأكبر للورد مونتسجومري ولد وفيه تشوه خلقي جعل قلبه بادياً للعين إلا من الجلد الرقيق حتى أمكن لمسه بالأصبع . فحملوه إلى الملك شارل ليشاهد تلك الحالة الشاذة ، وأمكنه أن يتأكد بنفسه أن القلب لا يشعر إذا أمسكناه أو ضغطناه بأصابعنا . ولقد أوحت كل هذه الظواهر إلى العلامة هنري هيد بفكرة الألم الانعكاسي . أي إن أعصاب الحساسية لكل عضو داخلي تنتهي في مكان معين من النخاع الشوكي تتقابل فيه مع أعصاب الحساسية لجزء معين من الجلد . فإذا تألم القلب مثلا انعكس ألمه إلى الكتف الأيسر أو الذراع الأيسر ، وينعكس ألم حويصلة المرارة إلى الكتف الأيمن أو الظهر أو منطقة المعدة . والرئة مثلا لا تحس بالألم ولكن متى امتد الالتهاب إلى غشائها شعر المريض بألم حاد قد ينعكس إلى البطن ، فيظن الطبيب أن موطن الداء في المرارة أو المصران

الأمور. وبالعكس من هذا ، إذا امتد التهاب الكبد أو المرارة إلى الحجاب الحاجز سبب أعراضاً تشبه الالتهاب الرئوى . ولعل جالينوس كان أول من وصف هذه الظاهرة فى عام ١٦٠ قبل الميلاد . فقد فصل فى مذكراته عنها وبلغ من دقة الوصف أن قال : « إذا امتد مرض الكبد إلى الحجاب الحاجز نتج عن هذا سرعة فى التنفس وألم موضعى وسعال شديد لا يصحبه بصاق ... »

ولا بد أن يمر الشعور بالألم بمراحل عديدة قبل أن يترجم على وجهه الصحيح . فمحطة الاستقبال الأولى سواء كانت على سطح الجسم أو داخله — ترسل إشارتها إلى النخاع الشوكى ومنه إلى مكان فى قاع المخ يدعى المهاد thalamus ومهمته التفريق بين درجات الحرارة والألم بشكل تقريبى . ومن هناك تستمر الاشارة فى طريقها إلى المحطة الرئيسية العليا فى سطح المخ ، فتتحلل تحليلا فنياً دقيقاً ، ويشعر بمكان الألم وطبيعته ودرجته من الشدة ، فيثير فى الانسان الجزع والقلق والضيق وغير ذلك من مظاهر الألم التى يعهدها كل من اكتوى بناره .

من هذا ندرك أن شعور الألم يجب أن يمر فى المراحل الآتية : محطة إرسال سطحية أو داخلية ، ومنها يسرى فى الأعصاب والنخاع الشوكى حتى يصل إلى مركز الرئاسة وهو المخ حيث تتسلمه محطتان إحداهما إضافية غير دقيقة ، والأخرى رئيسية وهى بمثابة الأخت الكبرى المكتملة النضوج التى تدرك ما خفى من الأمور . فاذا تحدثنا عن دواء مسكن أو منوم أو مخدر قصدنا بهذا عنصراً كيميائياً ينزل على أحد هذه المحطات أو كلها فيشل من حيويتها بشكل مؤقت ويريح الجسم من عناء الألم أو الأرق المذل المرهق ويسلمه إلى سلطان النوم الهنىء ، ويالها من نعمة كبرى .

أنت تسمع مثلا عن استعمال لبخة بذر الكتان أو الانتفلوجستين أو قربة الماء الساخن لتخفيف الآلام السطحية الموضعية . فهل خطر لك أن تسأل عن سر مفعولها فى سبيل تخفيف آلامك ؟ ولا بد أنك فى يوم ما لجأت إلى أحد أدوية الروماتزم تدلك بها كتفك أو ذراعك أو ظهرك أو ساقك فلا تلبث أن تشعر بدفء موضعى عجيب يصحبه ذوبان الشعور بالألم المضنى . لماذا نلجأ إلى هذه الطرق البدائية فى سبيل الخلاص من قيود الآلام والأوجاع ؟ ألم أقل لك منذ سطور قلائل إن الشعور بالألم يبدأ فى محطة الارسال سطحية كانت أو داخلية ومنها يسرى فى أعصاب هى بمثابة الأسلاك الكهربائية ليصل بواسطتها إلى المركز الرئيسى الذى يفسر الألم على حقيقته . فاذا أنت حاولت إنشاء محطة أخرى فى منطقة مجاورة بحيث تطغى أمواجها على رسالة المحطة الأصلية أى موضع الألم ، أمكنك أن ترغمها على الانزواء والاختفاء ولو مؤقتاً ، فينسى المخ الألم الأصلى ويتفرغ للمداعب الجديد يحاول تفسير كنهه ومدى أغراضه من تدخل غير متوقع فى ظرف دقيق كهذا . وقد تطول فترة المداعبة أو تقصر حسب قوة المحطة الاضافية ودرجة انتشار أمواجها فى الأفق الضيق .

على نفس هذه المحطة الخارجية يسرى مفعول بعض المخدرات الموضعية كالكوكايين مثلا . فأنت إذا حقنت هذه المادة تحت الجلد فى أى موضع من سطح الجسم ، أمكنك أن تعمل فيه بالسلاح والمبضع دون أن يشعر المريض بأى غضاضة أو نفور . وإذا حقنتها تحت ضرس أمكنك خلعه على حين يراقبك المريض فى بساطة وسكون . وما هذا إلا نتيجة لشلل مؤقت فى

محطة الاستقبال ، فيجرى كل شيء فى غفلة من مركز القيادة العليا الذى يعتمد فى تصريف أموره على حارس يود لو كان أميناً ، ولكن من طبيعته أن تلهيه عن مهمته الأصلية المداعبات والمشاغلات ولا يفيق من غفلته إلا بعد فوات الأوان .

بقيت لدينا المحطتان الرئيسيتان ، وإحداهما كما أسلفنا تقع عند قاع المخ ، والثانية عند سطحه . أما الأولى فان تأثيرها بأدوية خاصة يؤدى إلى زوال الألم دون أن يغيب الشخص عن صوابه أو يفقد توازنه ، كما هى الحال عند تعاطى الأسبرين والبيراميدون والفيناستين والفينوباربيتال (اللومينال) . ومعظم المستحضرات المسكنة المنتشرة فى السوق الطبي تجمع بين اللومينال وأحد أفراد المجموعة سالفة الذكر . أما المنومات التى تشل من حركة المركز الأعلى فن أهمها المورفين ، وأملاح البروموور والكلورال والبارالدهيد ، فيصحب زوال الألم استرسال فى نوم عميق ينسى خلاله المريض ألمه ولو إلى حين .

ومهما قيل عن أخطار المنومات والمسكنات فانه لابد أن يأتى اليوم الذى يحتاج أحدنا إلى واحد منها ليقاوم أرقا مستعصياً سببته أحداث العالم الصاخب ، أو ليريح نفسه من ألم ممض هو من الأحداث اليومية العادية فى حياة الآلة البشرية .

وإذا كان لابد من الشر فلنتحايل عليه لنمتص منه الذى ينفع ، وتتجنب فى الوقت نفسه ويلاته ومضايقاته . فيجب أن يكون الدواء المنوم مثلا رءوفا بالمعدة لا يهيج غشاءها المخاطى وأن يكون سهل الامتصاص من الأمعاء سريع الافراز فى البول حتى لا يتراكم فى الجسم بعد أن يؤدى مهمته ، ولأنه وجد بالتجربة أن هذا التراكم يؤدى إلى نوع من التسمم المزمن ، من أهم أعراضه التبلد الذهنى والخمود الجسمى ، فيصحو الشخص من النوم خاملا كسولا لا يقبل على عمل اليوم بالنشاط المعهود بعد أن نام ملء جفونه ساعات طوالا . كما يجب أن تتجنب الأدوية التى تؤثر فى القلب والدورة الدموية أو التى تؤدى إلى عادة الإدمان كالمورفين مثلا .

إذا استعرضنا الأدوية الشائعة واحداً بعد الآخر وبدأنا بأكثرها شيوعا وهى مهبطات الحرارة العادية التى لا تكاد تخلو منها صيدلية أى منزل ، وأعنى بهذه الشرذمة مركبات الأسبرين والفيناستين والبيراميدون وجدنا نحن الأطباء أنفسنا مضطرين إلى إرسال كلمة تحذير لابد منها فى سبيل السلامة العامة . فما لا شك فيه أن لهذه المركبات فوائد عظيمة فى علاج الصداع وآلام المفاصل وروماتزم العضلات وألم الأسنان ، فهى بجانب مفعولها كمهبط للحرارة نتيجة تأثيرها فى مركز الحرارة المخى تؤثر فى الوقت نفسه فى مركز الألم المجاور لأخيه الحرارى أى إن بركتها تحل على الدائرة ومن فيها . ولكن حتى هذه المجموعة البريئة فى ظاهرها لا تخلو من أشواك قد تحز ، أو قد تنال من الجسم مقتلا . . . فالاسبرين مثلا — هو اللعبة المفضلة فى صيدلية المنزل — قد يسبب آلاما معدية يصحبها عسر هضمى ، وقد يؤدى تعاطيه إلى حدوث طفح جلدى وهرش شديدين وتورم فى الوجه والعينين ونزف من الأنف والفم . ولذا جرت العادة الآن على إعطاء الفيتامين ك — وهو الفيتامين المضاد للنزف — فى نفس الوقت إذا اضطر الطبيب إلى إعطائه لمريض بكميات كبيرة كما هى الحال فى الحمى الروماتزمية مثلا . ومن سبيل وضع الحق فى نصابه يجب أن نذكر أنه ليس للأسبرين وبقية أفراد أسرة السلسلات أى تأثير سيء فى القلب كما تروى الشائعات .

فاذا تركنا فصيلة الأسبرين وطرقنا باب

أسرة البيراميدون لنكشف عما فيهـا من محاسن ومساوئ لرأينـا عجبا ؛ فاتنا نجد اسم أحد أعضائها ضمن معظم المركبات المسكنة التي في متناول الجميع يشترونها من الصيدلي المتخصص ومن البدال الذي يبيعهـا بجانب طابع البريد وعلبـة السجائر . ولا بد لي في هذا الصـدد أن أرسل لك كلمة إنذار خالصـة . فاذا رأيت اسم البيراميـدون Pyramidon مدرجا في تركيب دواء ما فخذ حذرك منـه ؛ لأن لهذا الصديق الملعون قدرة خاصة في بعض الأشخاص — لا كلهم بطبيعة الحال — على النزول بكريات الدم البيضـاء إلى الحضيض ، فتهـوى من مستواها العـالي البالغ عشرة آلاف في الملليمتر المكعب إلى ألف أو أقل ، فتقـل مقاومة المريض للجراثيم ويصاب بالتهـابات شديدة بالفم والزور وينتابه هبوط شديد قد ينتهي بالوفاة . وتحـدث هذه الأعراض — لحسن الحظ — في قلة من النـاس في أجسامهم حساسية خاصة لهذا الدواء . ويمكننا أن نجنبهم شره بتحليـل دم كل مريض يتعاطاه بصفـة دائمة ، من آن لآخر ، ووقف تعاطيـه في الحال إذا وجـدنا أن عدد الكريات البيض آخـذ في الهبوط .

وعنـد ما أسرد لك فيما يلي قائمة أسماء الأدوية التي تحوي مادة البيراميـدون بين عناصرها ، لا أقصد مطلقاً الحط من قدرها فمعظمها أسماء عزيزة كم خففت من آلام وأوجاع وأدت للانسانيـة خدمات جلي تسجل بماء الذهب . ولـكن كل ما أريده إنذار ودي من صديق يود لو كان نافعاً وأمينا ، لولا حساسية خاصة في البعض منا تجعل من الدواء داء ، ومن النعيم بلاء .

نوع الدواء		مقدار الجرعة الواحدة	التركيب الكيميائي
الفيرامون	Veramon	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، فينوباربيتال
سيبالجين	Cibalgin	قرص إلى أربعة	بيراميدون ، فينوباربيتال
ألونال	Allonal	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، فينوباربيتال
جاردان	Gardan	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، نوفالجين
نوفالجين	Novalgin	قرص إلى قرصين	لا تحويان مادة البيراميدون ولـكن فيهما مادة الفيناستين وهي أسلم نوعا ولو أن لها أيضاً متاعبها ومضايقاتها .
فيجانين	Veganin	قرص إلى قرصين	

فـكل ما أرمي إليـه من عرض هذه الأسماء الغالية على كل نفس هو مجرد لفت النظر إلى عدم الافراط دون تبصر أو روية في تعاطيها ، وألا تنشئ بيننا وبينها صداقات كبيرة ؛ فليس أعصف بالود من ملازمة مستمرة تـكشف الغـطاء عما خفي وبطن .

أنتقـل من ذلك إلى أملاح البرومور Bromides وهي من أوسع المسكنات انتشاراً وتستعمل بصفة خاصة في علاج الأرق والتهيج العصبي والصرع . وتتميز أملاح البرومور بطول مدة مفعولها ؛ لأن إفرازها من الـكليتين بطيء فتبقى في الجسم مدة أطول . ولهذا كانت فائدتها في علاج الصرع كبيرة لأن بقاءها بالجسم مدة طويلة يضمن السيطرة على الأعصاب المتوترة حتى يحين موعد الجرعة التالية :

ولعل فائدة البرومور كعلاج للصرع هي ألمع صفحة في تاريخه الطبي . فهو غير كفء كنوم ، ولا يزيل الألم في الحالات الحادة . وإذا أعطى بمقادير صغيرة ، خمدت حدة الذهن والتيقظ والتنبه التي يمتاز بها الشخص العادي . فيبدو خاملا خامداً ، لا يقوى على التركيز والتفكير . وإذا أعطى بمقادير كافية لجلب النوم فان المريض يصحو منه كسلان على غير ما نعهده فيه بعد الاستيقاظ من نوم طويل .

وإذا أعطى البرومور مددا طويلة فان تراكمه بالجسم يسبب أعراضاً خاصة ، من أهمها بلادة التفكير وضعف الذاكرة ، وظهور طفح جلدي يظهر على شكل فقاعات أو بثور دملية أو بقع حمراء ، وفي الحالات الشديدة قد لا يقوى المريض على السير بثبات ، ويتهته ويتلعثم إذا حاول التعبير عن أفكاره . ويمكن شفاء هذه الحالات بوقف تعاطي الدواء وتناول المريض كميات كبيرة من ملح الطعام أي كلورور الصوديوم ، فان هذا يساعد على سرعة إفرازه بواسطة الكليتين .

وقد شاع في السنين الاخيرة استعمال مستحضرات الفينوباربتال Phenobarbital ومن أسمائه المعروف بها اللومينال Luminal حتى ليقال إن معامل الولايات المتحدة وحدها أخرجت ما زنته مائة طن استهلك منها داخل أمريكا نفسها ثمانون طنا ، وأصبح الناس يستعملونها في بساطة كأنها أقراص الحلوى ، ولجأ إليها الكثيرون كوسيلة للانتحار ، وأدى سوء استعمالها إلى ظهور أعراض تسمم شديدة تصحبها غيبوبة قد لا يفيق المريض منها نتيجة شلل مركز التنفس المخي ، أو التهاب رئوي حاد تنتجه الغيبوبة الشديدة وتراكم الافرازات المخاطية في قاع الرئتين ثم غزوها بالجراثيم . ولكن قد لا تعدو أعراض التسمم حدوث طفح جلدي يشبه طفح الحصبة مصحوب بارتفاع في الحرارة ، ولا يلبث كل هذا أن يزول إذا وقفنا تعاطي الدواء . أما في الحالات الشديدة المصحوبة بغيبوبة فيجب حقن المريض بالاستركنين ، ويفيد أيضا من استنشاق الاوكسجين ، وخاصة المخلوط بثاني أكسيد الكربون بنسبة سبعة في المائة .

وللفينوباربتال مستحضرات عدة وتتوقف كفايتها وسلامة مفعولها على قدرة الجسم على تحطيمها والتخلص منها ، فلا يبقى منها في الجسم بعد مضي ٢٤ ساعة من تناولها سوى القليل ، ولا يؤدي تكرار استعمالها أياما متوالية إلى تراكمها بجسمه الأمر الذي يؤدي عادة إلى أعراض تسمم مزمن . فالفينوباربتون مثلا لا يطرد من الجسم بسهولة ، بينما النجيبوتال والأميتال ، وهما من مشتقات الباربتال أيضاً ، أسلم عاقبة لأنهما يحطمان وتفرزان من الجسم بسهولة . وكلما كان الافراز بطيئا شعر الانسان بخمول جسمي وذهني في اليوم الذي يعقب تناول المنوم .

وعلى العموم يحسن عدم الالتجاء إلى تعاطي أحد أفراد هذه المجموعة بانتظام ولو أنه ليس هناك مانع من تعاطيها من آن لآخر عند ما تكون الحاجة ملحة . وعلينا دائماً أن نقاوم هذا القرص السحري الصغير الذي يغرينا صغر حجمه على التهامه حتى دون جرعة ماء .

وهناك دواءان منومان شائعان منذ زمن طويل ، وهما البارالدهيد والكلورال وهما يمتازان بسرعة مفعولها وسرعة طردهما من الجسم حتى ليصحو الشخص في اليوم التالي من نومه منتعشاً هادئاً وكأنه نام نوما طبيعياً . ولكن ظهور المستحضرات سالفة الذكر طغى عليهما كما طغت السيارة والقطار على ذوات الأربع كالحصان والحمار .

أما المورفين فيجب تجنب استعماله كنوم في حالات الأرق المزمن، فقد يولد في الشخص عادة مزمنة متى وقع في مخالبها فقل عليه السلام . ولكننا نلجأ إليه كمسكن من الدرجة الأولى في الأزمات القلبية والكلوية والكبدية وفي الأمراض المزمنة الميئوس منها لكي يقضي المريض أيامه الأخيرة على أهنأ حال .

هذه قصة تلك الطاقة الفريدة التي قد ترى العين غير المجربة بين أفرادها الفل والياسمين على حين ترى فيها العين الناقدة الخطر الدفين . فاحذروا لين ملمسها ، لأن الخداع من طبعها والغدر من طبيعتها .

مصطفى الديواني

شهرية الاجتماع

إصلاح الأداة الحكومية

ضرورة يقتضيها السعي لتحقيق الأهداف القومية

كانت السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية ، مندمجة بعضها في بعض ، لا يميزها خط واضح . ثم أخذت تنفصل رويداً رويداً حتى ظهرت « نظرية فصل السلطات » فطبقتها كل دولة بما يلائم ظروفها التاريخية .

وبمقتضى النظرية الجديدة أصبح ، بمرور الزمن ، لكل سلطة كيانها الخاص ، ونظمها الذاتية ، واستقلالها المحترم . ولكن ليس معنى ذلك أنها باتت بمعزل عن السلطتين الأخريين ، إنما هو توزيع عملي للوظائف الرئيسية للدولة الحديثة ، أملته الضرورات ، وأوحته التجارب الشاقة الطويلة بقصد الوفاء الدقيق بالالتزامات الكثيرة المتبادلة بين الدولة والرعية ، وفي سبيل دعم أسس المجتمع الصالح الذي مازالت الانسانية تهرق دماءها الغالية على مذبحه ، وتجعله ابداً مثلها الأعلى الموموق .

إلا أن الامم التي اقتبست الحياة البرلمانية ظنت أنها بلغت ذروة الكمال في نظم الحكم ، وأصبحت دون منال شهوات الحكام وأخطائهم . فانصرفت عنايتها إلى هذه الحياة البرلمانية وحدها ، وشغلت بها عن الهيئة المتممة لها ، والتي ابتدعت من أجلها ، ألا وهي : السلطة التنفيذية . ولهذا السبب لم تجار أداة الحكم النظام البرلماني في رقيه ، وسرعته ، ومرونته . بل لم تتفق مع أوضاعه ، وإن كنا لا ننكر ما للنظام البرلماني نفسه من أثر بعيد المدى في مضاعفة العلة وزيادة الحرج !

وكلنا يعلم أن انجلترا هي مهد النظام البرلماني الحديث ، ومنها انتقل إلى فرنسا ، ثم انتشر في معظم الدول الأوربية . غير أن فرنسا عندما اقتبست هذا النظام أقامته على أداتها الادارية القديمة التي صاغتها لها حكوماتها الاستبدادية ، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك هي اضطراب نظامها البرلماني ، وكثرة الثورات فيها ، وتوالي الدساتير ، إذ تعاقب عليها منذ ثورتها الكبرى اثنا عشر دستوراً . وكان هذا أيضاً حظ النظام البرلماني في أكثر الدول التي نقلته عن فرنسا (١) !

وقد كان من جراء هذا الموقف الدستوري الخطير أن توجهت مجاهر العلم صوب النظم الادارية ، فكان التنظيم الاداري العلمي في الدول العريقة والفتية على السواء ، وخاصة بعد إذ تبين أن الاضطرابات العنيفة التي انتابت النظام البرلماني ، ودفعت بعض الأمم إلى خنقه واستبدال النظام الدكتاتوري به ، إنما كان مرجعها كلها لا إلى جوهر الديمقراطية ، بل إلى فساد الهيئة التنفيذية ، واختلال أساليب التعاون بينها وبين الهيئة التشريعية .

(١) انظر بحث « اصلاح الأداة الحكومية والادارية في مصر » للدكتور محمد عبد الله العربي بك «مجلة القانون والاقتصاد» مايو (١٩٣٤) .

وقد كانت الولايات المتحدة أسبق الدول جميعها إلى إصلاح « جهازها » الادارى برمته ، إذ أنشأت عام ١٩١٠ « لجنة الاقتصاد والكفاءة » لهذا الغرض . وفى سنة ١٩١٢ وافق البرلمان الأمريكى على جعل تلك اللجنة دائمة « لأن معضلة الحصول على أداة حكومية صالحة ليست من المسائل التى تعالج دفعة واحدة ، بل هى مستمرة الوجود ، دائمة التجدد » .

وكانت انجلترا أولى الدول فى الاهتمام « بيئة الخدمة المدنية » — أى هيئة موظفى الحكومة — خاصة ، فشكلت عام ١٨٥٣ لجنة تريفليان ـ نورث كوت التى كان من نتائج أعمالها صدور مرسوم ٢١ مايو ١٨٥٥ الذى نص على ضرورة « التفوق فى الاختبار كأساس للتوظف » ، ثم مرسوم ٤ يوليو ١٨٧٠ الذى يعتبر إلى وقتنا هذا دستور الخدمة المدنية فى بريطانيا . غير أنه لم تكد تضع الحرب العظمى الماضية أوزارها حتى حذت بريطانيا حذو الولايات المتحدة ، فأنشأت « لجنة الأداة الحكومية » Machinery of Government Commitee التى عهد إليها فحص الجسم الادارى كله .

وقد لحقت بالولايات المتحدة وانجلترا فى هذا السبيل ، أمم أخرى كثيرة ، حتى فرنسا التى حفل تاريخها السياسى والدستورى بتقلبات عنيفة لم تشذ عن القاعدة . وقد أهاب العلامة هنرى شاردون ، المستشار بمجلس الدولة ، بمواطنيه قائلا : « إن البرلمان ليس إلا نصف الديمقراطية بل قد لا يكون نصفها الأهم ؛ إذ أن الديمقراطية تقوم على دعامتين : إحداهما أداة سياسية ، قائمة على الأكثرية العددية ، ومشرفة على الشئون العليا للدولة ، ومتغيرة حسب نتائج الانتخاب . والأخرى أداة إدارية ، قائمة على حسن الاختيار ، لتسيير الحياة اليومية » .

وقد تخلفت مصر ، فى هذا السبيل ، عن سائر الدول المتحضرة تخلفا واضحا ، أدى بها إلى هذا الجمود السياسى والاجتماعى المزعج . فقد ابتليت إدارتها الحكومية بتعقيدات لا حصر لها نظرا إلى ما لابس تاريخ البلاد من اضطرابات وتفاعلات شتى .

وقد كان من الواجب بعد إذ حصلنا على استقلالنا عام ١٩٢٢ ، أن يفكر ولاة الأمر فى مقابلة هذا التغيير السياسى بتغيير إدارى يلائمه ؛ غير أنهم شغلوا بالجهاد الوطنى وحده ، وفاتهم أن الاصلاح الداخلى ، وفى مقدمته الاصلاح الادارى ، هو الدعامة الحقيقية التى يقوم عليها استقلال صحيح !

ولا نغالى إذا قلنا إن أداتنا الحكومية الحاضرة ، التى يتكىء عليها الاستقلال ، يرجع تاريخها إلى أيام الاحتلال! ... فبعد أن انتهت الثورة العرابية ، ورسخ الانجليز أقدامهم فى مصر ، أدركوا ، وأدركت الحكومات التى تألفت فى عهدهم ، أن للشعب المصرى روحا قوية تكمن ولكن لا تموت أبدا : روحا سامية لا تسهل مقاومتها وإن كان يسهل مداورتها ، لأنها روح الفطرة السليمة ، والطبع المستقيم الصريح . ولذلك عمدوا منذ بدء الاحتلال إلى مخدر الاصلاح الظاهرى يسكنون به نفوس الشعب المتعطش إلى الاستقرار ، والعدالة ، والكرامة ؛ فصدر قانون أول مايو سنة ١٨٨٣ ، بناء على اقتراحات مبعوثهم الأول اللورد دوفرين ، متضمنا الكلام عن (١) مجالس المديريات (٢) مجلس شورى القوانين (٣) مجلس شورى الحكومة (الذى لم يؤلف من بعد) . ويعتبر هذا القانون أساس الأداة الحكومية القائمة اليوم بغض النظر عن التعديلات الجزئية ، السطحية ، التى أدخلت عليه فى فترات مختلفة . فما زال الوزراء — كما كانوا — يركزون فى أيديهم كل الاختصاصات

المتعلقة بوزاراتهم ، كأنهم رجال إدارة — أى موظفون — لا « رجال سياسة » كما يقتضى الوضع البرلمانى السليم ، وما زالت تئن البلاد تحت وطأة النظام اللامركزى الصورى الذى أنشأه الاحتلال !

أما مسائل الموظفين فأمرها أعجب ما يقال ، إذ كنا بدأنا ، منذ أواخر عهد إسماعيل ، الاقتباس فيها من أحدث أنظمة الغرب ، ولم يلبث ما اقتبسناه أن انهار وذاب ، وعلى الأخص بعد قيام الحياة البرلمانية !

ومن أخطر مظاهر أداة الحكم فى مصر ، بل أخطرها على الاطلاق ، ارتباطها بحبل السياسة . فحين تحل بنا أزمة سياسية سرعان ما تقف « الآلة الحكومية » ، وتتعطل الأعمال العامة الحيوية التى من شأنها الدوام . وبدل أن يقتصر التغيير ، من عهد إلى عهد ، على الوزراء وأعضاء مكاتبهم يكاد يشمل كل رؤساء الادارات ومن فوقهم ومن تحتهم من الموظفين . فهذه مشروعات تحيا ثم تموت ، ثم تبعث من جديد يوم يؤذن لها بالنشور . وهؤلاء موظفون يعينون اليوم ، ويرقون ، ثم تدول دولتهم فاذا بهم فى آخر الصفوف مستذلين إن لم يقذف بهم إلى عرض الطريق ! . . . وهنا يحلو لى أن أستعير كلمة خلابة لسياسى مصرى معروف ، قال فيها : « ليس للسياسة ضمير فى أى بلد من بلاد العالم . أما فى مصر فليس لها عقل أيضاً » !

ويحزننى أن أقول إن كل ما ننشده اليوم لمصر من أمانى ، وما نعقده عليها من آمال كبار جسام ، لا يمكن أن يتم كما نريد ونشتهى وأداتها الحكومية كما هى لسبب بسيط هو . . . أن النقيضين لا يجتمعان !

محمد عبد الرحيم عنبر

شهرية السياسة الدولية

بين التصفية والتنظيم

جرت هذه الشهرية بين تاريخين ، بين الخامس عشر من أكتوبر والثالث والعشرين منه . وفى الخامس عشر من أكتوبر كانت الجلسة الختامية لمؤتمر الصلح فى باريس ، وقد حدد الثالث والعشرون منه موعداً لانعقاد الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى نيويورك . وقد سبق ختام مؤتمر الصلح لانتهاء من محاكمة مجرمى الحرب فى نورمبرج وتنفيذ الأحكام شنقاً فى من قضى عليه بالاعدام ، كما أنه سيتلو انعقاد دورة الأمم المتحدة نفاذ الدستور الجديد فى فرنسا ، وانهماك سائر الدول التى كانت مشتركة فى الحرب فى الاصلاح وإعادة البناء . ومعنى هذا أن هذه الشهرية قد جرت بين التصفية والتنظيم : تصفية حالة الحرب ، وتنظيم وسائل السلام .

فلسفة نورمبرج

ولمحاكمة نورمبرج فلسفة ؛ فهى الأولى فى التاريخ التى عقدت فيها محكمة دولية للنظر فى شؤون جنائية . وهى الأولى فى التاريخ التى يتولى فيها المنتصرون معاقبة زعماء المهزومين . وهى كذلك الأولى فى التاريخ التى يكون موضوعها جرائم الحرب .

لقد أدخلت فى قوانين الحرب والصلح مبدأ المسئولية الشخصية بعد أن كانت تلك القوانين لا تعتبر غير مسئولية الدول ، تفرض عليها الغرامات وتغير فيها التخوم ، ولو أدخلت اعتبار المسئولية الذاتية فانها لم تكن تتجاوز شخص الرئيس الأول إلى أحد غيره من المعاونين . ولقد كان هذا هو الشأن بالنسبة لنابليون ، وكان هذا هو بعض الشأن بالنسبة لغليوم الثانى . أما القواد والسياسيون والماليون والاداريون فكانت محاكمتهم لمناسبة تصرفاتهم أثناء الحرب هذه هى الأولى . وقد يكون لهذا التصرف شيء من الأثر فى نفوس أولئك الذين يقذفون بأممهم وبالعالم كله فى أتون المنازعات والحروب . فقد يكون هذا المثل رادعاً لهم يفكرون بسببه مثنى وثلاث ورباع قبل أن يقدموا على فعلتهم . وقد يكون لهذا التصرف أثر فى احترام قوانين الحرب التى تحرم استعمال بعض الأسلحة وبعض الأساليب . لكنه يكون حتما دافعاً إلى التفكير فى أولئك الذين استعملوا القنبلة الذرية فى هوراشيما وناجازاكى دون سابق إنذار بل دون سابق علم للبشرية بهذا السلاح المدمر الجبار !

وفلسفة أخرى لمحاكمة نورمبرج . فقد كان المعروف فى أصول القضاء أن يكتم سر المداولة ، وأن الحكم الذى يصدر بكثرة الآراء دون إجماعها لا يعرف الناس عن تفصيل كثرته بل عن مبدأ هذه الكثرة شيئاً . وفى محاكمة نورمبرج احتج القاضى الروسى على تبرئة الثلاثة المبرئين وعلى خفة

الحكم على واين بالسجن المؤبد بدل الاعدام. ولتنفيذ الاحكام ذاتها فلسفته ، فلم يسمح للصحفيين أول الامر أن يحضروه ، ثم سمح لثمانية منهم به ، ثم امتنع عن حضوره الاثنان الروسيان ، وقيل إن امتناعهما من باب الاحتجاج على إهمال الرقابة المفروضة إلى حد تمكين جورنج من الانتحار . ثم سهر المنفذين على أن يتأكد الألمان أن الانتحار واقع وأن وفاة جورنج ليست راجعة إلى سوء المعاملة .

فلسفة عجيبة تلك التي تتلمسها خلال تصرفات نورمبرج ، وهي في مجموعها لا تقرب في نظرنا ساعة الاطمئنان إلى أن البشرية سائرة حقاً في سبيل القضاء على أسباب الحروب أو بالأقل على أسباب سوء الظن ...

مؤتمر الصلح

أما مؤتمر الصلح فقد كان هو الآخر مظهراً من مظاهر سوء الظن المتبادل بين الدول العظمى ، بل بينهن وبين الدول الصغرى أيضاً .

تجلى فيه الانقسام بين كتلتين : كتلة الصقالبة وكتلة الانجلوسكسونيين . وتقابلت الكتلتان ووقفت الواحدة منهما للأخرى موقف المخاصم المناضل . وكذلك تجلى فيه عدم الرضا . كان موضوعه وضع معاهدات الصلح مع إيطاليا والمجر وبلغاريا ورومانيا وفنلندا ، فلم ترض واحدة من هذه الدول عن المعاهدة التي فرضت عليها . وزاد عدد الغاضبين من جراء هذه المعاهدات بين الدول المتحالفة المتشاركة في الحرب ضد أولئك الأعداء الأولين . لم ترض يوجوسلافيا وأعلنت أنها لن توقع على المعاهدة الايتالية لأنها قد ظلمت في تسوية المسألة التريستية . ولم ترض اليونان للتخوم التي تركت لبلغاريا ، ولم ترض البانيا لتخومها مع اليونان ، ولم ترض أثيوبيا لتأجيل النظر في مسألة المستعمرات الايتالية وإرجاء ضم أرتيريا إلى أملاكها ، ولم يرض أهل طرابلس وبرقة والعالم العربي جميعاً لتعليق مصير ليبيا سنة كاملة .

اليونان

وفي اليونان لا تتجه الامور إلى الاستقرار . وفيها في الواقع شبه حرب أهلية بين الشمال والجنوب . وبريتانيا تقول عبداً سحبها جنودها من هناك ، لكنها لا تستطيع تحديد موعد هذا الجلاء . وتريد أن تمون اليونان بالأسلحة والذخائر ، لكنها تخشى أن تنتقل هذه الذخائر والأسلحة من الجيش إلى الخارجين عليه ولاسيما الشيوعيين منهم . ويلوح أن الأمر الآن إلى محاولة جديدة هي محاولة الانتخابات التي تجرى بعد عودة الملك إلى بلاده . وقد تنتهي باشتراك جميع العناصر فيها ، وقد يصل هذا الاشتراك إلى شيء من الهدوء والاطمئنان إلى النتائج .

إيران

ويقابل هذا المسعى فى الطرف الغربى من الشرق الأدنى مسعى آخر فى الطرف الشرقى من الشرق الأوسط . ففى إيران قامت المنافسة بين روسيا وانجلترا . وقالت انجلترا إن روسيا هى التى دبرت الحركة فى أذربيجان . لكن الحركة انتهت ، وانتهت إلى تفاهم من شأنه أن يستقبل الشاه رؤساء الاقليم النافر فيعلنون بين يديه أنهم إيرانيون يستمسكون بالبقاء فى حظيرة إيران . وقامت حركة أخرى فى عربستان قيل إن لانجلترا يداً فى قيامها ، بل إن حكومة طهران قد طلبت إلى الحكومة البريطانية سحب قناصل لها اتهمتهم بأنهم المحركون للقبائل والثوار . وانتهت هذه الحركة الثانية إلى السكون . لكن سكون الشمال كان وراءه انتصار معنوى للروس ، وسكون الجنوب وراءه إخفاق معنوى للانجليز . فأذربيجان نال استقلاله الذاتى ، وعربستان باقية فى حدود إيران لم تنتزع منها وتضم إلى العراق . وإذن فقد اتجهت المساعى — ولاسيما بعد أن أذيع أن روسيا قد دعت إيران إلى عقد محالفة عسكرية بينها وبين الاتحاد السوفيتى — إلى عودة إلى التفاهم على عدم تدخل روسيا فى الشمال ولا انجلترا فى الجنوب ، وتترك إيران بين الاتحاد السوفيتى ومناطق النفوذ البريطانى فى آسيا « منطقة حرام » .

ومن يدرى ! فقد يكون فى هذا الاتجاه خير ، ومن يدرى ! فقد يصبح تطبيقه على تركيا بالذات بعد أن قيل إن لروسيا مشروعا ضخما يصل البحر الأسود بالبحر الأدرياتى فالبحر المتوسط دون الدردنيل والبوسفور !

فى هيئة الأمم المتحدة

وفى جدول أعمال هيئة الأمم المتحدة موضوعان شائكان : أولهما موضوع حق الاعتراض على القرارات ، وهو الممنوح بمقتضى ميثاق سان فرنسيسكو للدول العظمى صاحبة المقاعد الدائمة فى مجلس الأمن . وموضوع معاملة جنوب أفريقيا لأهله الأصليين لأن لهم لونا غير لون الأوروبيين ، وديباجة الميثاق تقضى بعدم التفرقة فى أخذ الناس تفرقة ترجع إلى اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين .

وقد استعملت روسيا خلال الدورة الماضية من دورات هيئة الأمم المتحدة حقها فى الرفض والإعتراض ، واستعملته أكثر من مرة والاتجاه هو إلى حرمانها من هذا الحق . والدول الصغيرة والدول المتوسطة كلها تؤيد بلا ريب إلغاء هذا الحق لأنه واضع لهن فى موضع غير كريم . لكن تعديل الميثاق يستدعى كثرة ثلثى الأعضاء . فهل يوفق الحاملون على الاعتراض للحصول على هذه الكثرة ؟

وسيكون بطل إثارة مسألة إساءة معاملة جنوب أفريقيا لأهله الأصليين هو نهرو الزعيم الهندى . فقد شكت الهند جنوب

افريقيا لهيئة الأمم المتحدة لتمييزها فى المعاملة بين الأوربيين والهنود . ونهرو هو الذى يتولى رياسة الوفد الهندى هـذه المرة . ومن مبادئه المعروفة الحرية والمساواة للناس جميعاً وبين الناس جميعاً . وستنتهز روسيا الفرصة لتأييد نهرو والتنديد بالسكسونية ؛ إذ لا تقف معاملة الملونين عنـد حد جنوب أفريقيا وحدها بل تتجاوزه إلى الولايات المتحدة بالذات .

وسنرى هل تخرج الهيئة الدولية الجديدة من المحنتين إلى التقدم أو إلى الرجعية ، إلى المساواة أو إلى التمييز . وإنها لتجربة مرتقبة .

محمود عزمى

شهرية السينما

ابتدأ الموسم السينمائى بقدوم شهر اكتوبر بعد ركود دام أكثر من ثلاثة أشهر. واستأنف مديرو قاعات العرض نشاطهم بتقديم الأفلام المصرية إلا فى ثلاث قاعات تعرض أفلاما أمريكية أو فرنسية. وأخذت قاعة مترو منذ السنة الماضية تعيد من آن لآخر عرض خير ما أنتجته قديماً شركة مترو جلدوين ماير. ففى الموسم الماضى قدمت للمرة الثانية « ذهب مع الريح » و « غادة الكاميليا » و « جسر واترلو ». وهى منذ أسبوعين تعيد مرة أخرى فيلم « غضب من السماء » الذى يعد من خير الأفلام بالقياس إلى ما تنتجه الشركات السينمائية الأمريكية عادة من أفلام سقيمة.

غضب من السماء (مترو جلدوين ماير) (١)

وهذا الفيلم يعتبر دراسة لحالة نفسية معقدة لشخص ابتلاه الدهر بمركب النقص دفعه إلى الانتحار للتخلص من حياته التعسة وللانتقام من الشخص الذى كان مبعث شقائه المتصل.

تبدأ حوادث القصة فى باريس فى مستشفى للأمراض العقلية حيث يقيم الشاب فيليب مونريل منتحلا اسم صديقه وورد أندروز. وينجح فيليب فى الهرب من المستشفى والعودة إلى إنجلترا حيث يصادف صديقه وورد، فيدعوه إلى الاقامة فى قصرة الريفى. وهناك فى القصر يلتقى الشابان بفتاة تدعى ستيلا وكانت تعمل وصيفة لوالدة فيليب. يقع الشابان فى غرام الفتاة، ولكنهما لا يبوحان بحبهما. وما يكاد وورد يرحل عن القصر، وكان يستأثر بالفتاه دون صديقه، حتى يبوح فيليب بحبه للفتاة، ويطلب منها أن تتزوجه. ويتم الزواج فعلا ويبدأ شقاء الزوجين وصديقهما وورد. فالزوج يعلم أن وورد يكاف بستيلا، ويصور له مركب النقص أن ستيلا لا تحبه بل تهيم بصديقه وتبادله غراماً بغرام. ويقوى عنده هذه الفكرة ما تبديه من اضطراب عند ما يحدثها عن وورد. وتحرك الغيرة عند فيليب طبيعته الشريرة، فيدبر لامرأته وصديقه سلسلة من المواقف ليثبت لنفسه أنهما عاشقان. فيدعو وورد عنده فى القصر وكثيراً ما يتركه بمفرده مع ستيلا. ثم يطلب من وورد أن يعمل عنده فى المصنع الذى يديره. وعند ما يعتقد فيليب أن لديه ما يثبت حب ستيلا لصديقه، يحاول قتل وورد ولكنه لا ينجح، فيفترق الصديقان. ويأخذ فيليب فى تعذيب امرأته ويحاول قتلها أيضاً فى أثناء نوبة من النوبات التى تعتريه من حين لحين. وتهرب الزوجة وتحتمى بوورد، وقد بدأت تعجب به وتقدره لقوة شخصيته. وما الاعجاب إلا أولى مراحل الحب. ولكن فيليب لا يرضى بهذا الوضع فقد أخفق فى الانتقام من صديقه وزوجه.

---

(١) Rage in Heaven *(Metro-Goldwyn-Mayer)*.

فيفكر فى الانتحار ليتخذه وسيلة للانتقام منهما معاً ، وينفذ فعلا ما عزم عليه بعد أن ترك ما يكفى من الأدلة ليتهم وورد بهذه الجريمة ، فينجح فى تدبير هذه المؤامرة ويلقى القبض على وورد ويحكم عليه بالاعدام .

إلى هنا سارت القصة سيراً منتظماً ، فحوادثها متسلسلة تسلسلا طبيعياً ، فهى نتيجة حالة فيليب النفسية وصدى لمركب النقص الذى أشقاه وجعل حياته بؤساً متصلا . غير أن الحوادث تطورت فجاءة . فلا بد من نهاية حسنة للقصة . وليكون للقصة نهاية حسنة لا بد من إنقاذ وورد . فالمؤلف يجعل ستيلا تكتشف فى الأربع وعشرين ساعة السابقة لتنفيذ حكم الاعدام أن لزوجها يوميات ، وأن هذه اليوميات تتضمن اعترافات تبرئ وورد . ولكن هذه اليوميات فى باريس ، فتستقل طائرة وتطير إلى العاصمة الفرنسية لتبحث عنها وأخيراً تهتدى إليها . وبالاهتداء إليها يفهم المشاهد أن وورد ناج بلا شك . وهكذا تتابعت الحوادث سراعاً مما جعل المشاهد فى حالة من اللهفة غير طبيعية .

وقد وفق المؤلف والمخرج فى تصوير شخصية فيليب موريل . فلم يكتف الاثنان بأن يطلعانا على حالته النفسية من أقوال طبيبه المعالج ، بل هما يجعلاننا نشاهد عدة مواقف تظهر لنا جلياً مركب النقص الذى عذبه طيلة حياته ، ولم يتركا ناحية من هذه الشخصية الشاذة إلا أبرزاها وأمعنا فى دراستها . وقد يكون فى الفيلم بعض مناظر تعتبر مسرحية أكثر منها سينمائية ، منها هذا المنظر الذى تتنزه فيه ستيلا فى الحديقة ثم تصادف فى طريقها فيليب . وهذا المنظر الآخر الذى يبتدئ وفيليب منهمك فى المطالعة . فتفتح عليه ستيلا باب الحجرة وتدخل . ولم يوفق المخرج فى اختيار بعض مناظر الحديقة ، فبدت المشاهد غير طبيعية .

أما التمثيل فكان موفقاً كل التوفيق بفضل ممثليه الثلاثة وهم : جورج ساندرز ، وكان يمثل دور وورد أندروز ، وقد نجح فى إبراز ما لهذه الشخصية من قوة وفتنة . وروبرت مونتجومرى الذى قام بدور فيليب موريل ووفق فى تمثيله إلى تحقيق هذه الشخصية المركبة دون الالتجاء إلى عنف فى التعبير ؛ وانجريد برجمان التى أخرجت لنا شخصية ستيلا ، تلك الفتاة البسيطة الراضية بمصيرها الأسود . وساعدها المصور على إبراز مقدرتها على التعبير بنظراتها عما يخالج نفسها من شعور مضطرب .

فوترال (جومون) (١)

« فوتران » قصة للكاتب الفرنسى بلزاك اقتبسها عنه بيير بنوا وقدمها للسينما . وهى لا تختلف فى حوادثها ووضعها عما اعتدنا أن نقرأه فى كتب بلزاك العديدة . وشخصية فوتران من الشخصيات التى نجدها فى بعض قصص مجموعة « الملهاة الانسانية » فهو يلعب دوراً فى قصة « الأب جوريو » و « أوهام تبددت » و « عظمة الغانيات وبؤسهن » . وقد بعثه الكاتب من جديد فى قصة « فوتران » حيث يقوم بدور سجين

---

(١) Vautrin *(Gaumont-C.P.L.F.)* .

هرب من السجن وانتحل شخصية الأب كارلوس هيريرا مبعوث ملك أسبانيا فى فرنسا . وفى طريقه إلى باريس صادف شابا كاد أن ينتحر لولا أنه مد له يد المساعدة ، فأعانه على اكتساب مكانة رفيعة فى المجتمع الباريسى ، كما توصل إلى تلقيبه بالمركيز دى روبمبريه . ولكن الحظ يخون الاثنين فى النهاية ، وحين يفتضح أمرهما ينتحر المركيز الشاب . أما ڤوتران فبقوة إرادته وذكائه الخارق ينجح فى كفاحه مع العدالة ، ويصل أخيراً إلى مركز رئيس البوليس السرى .

والقصة لا تخلو من قيمة أدبية واجتماعية . فبلزاك يبرز فى حوادثها ما للمجتمع الفرنسى فى عصره من عيوب ، وما كان للطبقة العليا من تأثير سيء فى رجال العدالة . فڤوتران لا يصل إلى المركز بشخصيته الجبارة فحسب ، بل كذلك بمساعدة سيدات من طبقة النبلاء أردن ألا يفتضح أمرهن فى هـذه القضية ، فطلبن إلى النائب العام أن يتكتم المسألة ووعـدن المحقق بتعيينه مستشاراً إذا نجح فى تبرئة ڤوتران والمركيز دى روبمبرى .

والقصة فى بداءتها تذكر «بالبؤساء» ، فڤوتران مثـل جان ڤالجان فار من وجه العدالة ورجال الشرطة يلاحقونه حيثما ذهب . وأطلعنا المؤلف على حيل ڤوتران للهروب من الشرطى المكلف بمراقبته . وهذا الشرطى يذكرنا أيضاً بشخصية جاڤير . وتحمل القصة طابع روايات المذهب الرومانتيكى فى آخر أيامه ، فهى لا تخلو من مؤامرات وجرائم الاغتصاب والدسائس الاجتماعيـة . فهى صورة بغيضة لما وصل إليـه انحلال المجتمع الأخلاقى فى عصر بلزاك .

وإخراج القصة لا يخلو من طرافة واتقان ، فقـد حافظ المخرج على روح قصص بلزاك وجوها . غير أن المناظر فى بعض الأحيان تبدو غير طبيعية ، كما أن الصور لم تكن واضحة كما ينبغى لرداءة الضوء . وقد ساهم تمثيل مسيو ميشيل سيمون وإتقانه فى إخراج شخصية ڤوتران ، ومواهب مادلين سولونى وأداؤها الطبيعى فى نجاح هذا الانتاج .

بشرى كامل

من كتب الشرق والغرب

كتاب الفاشوش

هذا الكتاب أقدم الكتب الفكهة فى تاريخ مصر العربية ، وقد ألفه ابن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، أو كما نقول نحن الآن وزير المالية والحربية . وكان آباؤه من نصارى أسيوط نزحوا إلى القاهرة فى عهد الفاطميين واتصلوا بهم وفوضوا إليهم كثيراً من شؤونهم وأعمالهم . فلما قدم صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين ، وأصبح إليهما أمر مصر اضطهدا موظفى الدولة من القبط ، واضطرت أسرة ابن مماتى تحت تأثير هذا الاضطهاد أن تسلم حتى تحتفظ بمكانتها فى الدولة ، واستقام لها ذلك ؛ فإن صلاح الدين قرب منه المهذب مماتى ، وجعله قيما على ديوان الجيش ، فلما توفى خلفه ابنه فى عمله ، ثم أسندت إليه الشؤون المالية فأحسن تدبيرها وتصريفها .

وقد اشتهر ابن مماتى فى عصره بسرعة البديهة واللذع فى النادرة . يقول ياقوت عنه فى كتابه «معجم الأدباء» : إنه كان ذا خاطر وقاد مسارع . ويقول أيضا : إن له نوادر حسنة حادة . وقد تعلقت هذه الشخصية الفكهة بشخصية أخرى عاصرتها ، هى شخصية قراقوش التركى أحد قواد صلاح الدين وأصفيائه ، وكان فيه — على ما يظهر — شئ من الغباء والغفلة والشدة والقسوة ، ومع ذلك كان صلاح الدين يسلم إليه مقاليد مصر حين يغيب عنها فى حروبه الصليبية ، وهو الذى قام على بناء قلعة الجبل المعروفة بقلعة صلاح الدين . ويحدثنا الرواة أن صلاح الدين كان يشرك معه بعض أولاده فى إدارة مصر أثناء غيبته لما يعلم من عدم فطنته ونباهته . ولكن حدث ذات مرة أن ترك له حكم مصر منفرداً ، فتشوش عليه الأمر ، وأتى فى حكوماته بين الناس من الحمق والغفلة ما جعل أكبر كاتب فكه لعصره وهو ابن مماتى يضع عليه الحكايات المضحكة ، وقد نسقها فى الكتاب الذى نحن بصدده الآن وسماه هذا الاسم الطريف «كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش» وإنه ليستهله بقوله : «إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخزمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم ، والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يرد [على] كلمته ، ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين» .

ويذهب بعض المستشرقين ، وهو الأستاذ كازانوفا الذى عنى ببحث هذا الكتاب ونشره ، إلى فكرة طريفة خلاصتها أن ابن مماتى لم يؤلف هذا الكتاب لغرض الضحك فقط عن غفلة قراقوش وغبائه ، بل ألفه سخطاً على الدولة الجديدة التى خلفت الدولة الفاطمية ، وهى دولة كانت تتعصب على القبط عكس دولة الفاطميين ، فأراد أن يكيد لها بتعقب أحد حكامها تعقباً مضحكا ، أو قل

تعقباً ساخراً ، يسخر أثناءه من صلاح الدين وما كان من طغيانه هو وحاشيته أو بطانته . وهى فكرة قيمة ، وإن كان يضعف منها أن ابن مماتى لم يكن نصرانيا حين تأليفه هذا الكتاب ،أو على الأقل ليس بين أيدينا دليل على أنه كان نصرانياً حينئذ ، إذ كان قد أسلم . ومع ذلك فربما كان أسلم على ضغن وموجدة . ومن يدرى لعل المصريين جميعاً قبطاً ومسلمين كانوا يتعصبون على دولة صلاح الدين ، وخاصة أنه ألغى كثيراً من أعيادهم الفاطمية ، وأيضاً فانه أتعبهم فى غاراته وحروبه الصليبية . ويظهر أن بطانته كانت كلها أجنبية أو تكاد . ومن هنا تسلل بعض معاصريه ، وهو ابن مماتى إلى الكيد لهذه الدولة عن طريق الفكاهة ، وهو كيد قديم عرفت به مصر منذ عهد الرومان ؛ فقد كانوا يستقبلون ظلم بعض القياصرة بالفكاهة الساخرة ينفسون بها عن صدورهم . وهذا هو ما لجأ إليه ابن مماتى فى عهد صلاح الدين ، فقد تعقب أهم قواده ، وما كان من حكوماته الطائشة بين المصريين ، فألف فيها هذا الكتاب الطريف كتاب الفاشوش . وأول ما نلقاه فى الكتاب من هذه الحكومات أن سيدة حجازية تقدمت لقراقوش تشكو له جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء فرد شكواها عليها مدعياً أنها ليست السيدة بل هى الجارية ، والجارية هى السيدة ، وهم بحبسها لولا أن تدخلت الجارية فعفت عن سيدتها . وتمضى حكومات قراقوش على هذا النحو المضطرب : فمن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا « أجرودا » كان ما يزال يعبث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إليهما وإلى خصمهما فلم يجد له لحية ، حينئذ قلب الوضع فى القضية إذ ظن أنهما هما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته ، فصاح فى غلمانه : ودوهما إلى السجن ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الرجل . وهكذا رد الأمر إلى نصابه على ما ظن وتصور . ومن هذه الحكومات المضحكة أن الشرطة جاءته يوماً بأحد غلمانه ، وقد قتل نفساً محرمة بغير حق ، فقال اشنقوه . فقيل له : إنه حدادك الذى ينعل لك الفرس ، فان شنقته انقطعت منه ، فنظر أمام بابه ، فرأى رجلا قفاصاً ، فقال : اشنقوا القفاص وسيبوا الحداد !

ونحن إنما نضحك من هذه الحكومات لأن منطق الحكم فيها ليس هو المنطق الذى ألفناه ، فان قراقوش يتصرف فى القضايا بحمق غريب ، وهو حمق لا يستقيم مع عقولنا ولا منطقنا ، حمق فيه طيش وفيه غفلة وفيه ظلم صارخ . وهل يريد ابن مماتى غير ذلك ؟ إنه لا يريد إلا أن يعرض علينا قراقوش فى صور مضحكة تضحكنا من حكوماته وما يعتورها من غباء ونزق ، وما تخفى فى باطنها من ظلم يجسمه ابن مماتى تجسيما . وإننا نضحك لا للظلم الذى وقع على هؤلاء الأشخاص ، وإنما للتباين بين المقدمات والنتائج . فسيدة تدخل عنده لتشكو له خادمتها ، فاذا هما تخرجان فى حال شاذة ، إذ نرى السيدة أصبحت خادمة والخادمة أصبحت سيدة ، وكذلك الشأن فى الرجل « الأجرود » فقد دخل بدون لحية ، وخرج ولا بد له من لحية إلا أنها نتفت ، أو قل : دخل متهما وخرج متهما . وفى النادرة الثالثة نرى القاتل يبرأ ، والبرىء يقتل ، وكأنما لسنا بإزاء دار من دور الحكم والقضاء ، إنما نحن بإزاء ملعب هزلى نرى فيه رجلا يأخذ سمت الحاكمين ويصطنع شاراتهم ، ولكنه ما يبدأ النظر فى القضايا والحديث مع الخصوم : المدعين والمتهمين حتى يشوش عليه الأمر ، فاذا هو يحكم دائماً حكومة مهوسة . وأى هوس يفوق هوس هذا الحاكم الذى يقلب الأوضاع

فى قضاياه قلبا يزرى بعقولنا لأنه يلغيها إلغاءً ، يلغى ما فيها من منطق وفكر مستقيم .

ونستمر فى قراءة كتاب الفاشوش ، فاذا ابن مماتى يروى أن قراقوش طلب إلى أحد القضاة أن يجيء له حساب القمح والشعير والفول والحمص ، وقام القاضى بطلبه ، إلا أنه وضع الحساب كله فى جريدة واحدة أو كما نقول نحن الآن فى صحيفة واحدة ، فاختلط الأمر على قراقوش ، وظن أن القاضى خلط هذه الأصناف بعضها ببعض ، ولولا ذلك ما استطاع أن يجمعها فى جريدة واحدة وأمر بحبسه ! وتنبه القاضى للمسألة ، فأرسل إليه من الحبس بحساب كل صنف فى جريدة على حدة . حينئذ سر قراقوش وعفا عنه قائلا : لقد تعبت يا فقيه ، نقيت هذا من هذا وذا من ذا ، زفوه فى المدينة . أرأيت إلى ابن مماتى كيف يسخر من قراقوش إذ جعله يظن حين أفرد القاضى كل صنف بجريدة أنه نحى الأصناف بعضها عن بعض . وينقلنا ابن مماتى من هذه النادرة إلى نادرة أخرى لا تقل عنها طرافة ، وذلك أن النيل توقف بمصر أياما ، فنظر قراقوش فرأى جمال السقايين وهى تسير فى شوارع القاهرة عشرين عشرين فقال : ياغلمان ! نادوا فى المدينة قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لا يملى أحد من البحر إلا جملا واحدا ، ففعلوا ذلك ، فأوفى النيل فقال : يا هؤلاء ! كيف رأيتم رأيى عليكم ؟ ما هو إلا رأى مبارك . وكأن قراقوش ظن أن هذه الجمال هى التى تنقص ماء النيل فتمنع الفيضان ! وأيضاً فقد فاته أنه إنما حرم على هذه الجمال أن تحمل الماء مجتمعة ولم يحرم عليها أن تحمله منفردة ، فحكمه من هذه الناحية لا نتيجة له ، ولكنه قراقوش مثلة عصره والعصور التالية فى الغفلة والغباء .

وما نظن أحداً فى تاريخ مصر والمصريين بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن مماتى من التشهير بقراقوش وحكوماته بين الناس ، وهو لم يبلغ ذلك عن طريق هجائه لقراقوش بالشعر ، وكان شاعراً ممتازاً ، وإنما بلغه عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة ، وكأنه كان يريد أن يطابق بين ما يرويه وبين اللغة الحقيقية التى كانت تدور بين قراقوش ومن يحكم بينهم من الناس حتى يحافظ على أصل نوادره محافظة دقيقة . ولعله كان يريد لهذه النوادر أن تشيع بين العامة ، ومن أجل ذلك اختار لها هذه اللغة الدارجة ، وهى فعلا قد شاعت فى المصريين فى مدنهم وريفهم كلما قابلهم حكم ظالم قالوا : « دا ولا حكم قراقوش » . وقد يكون قراقوش دون كل هذا الظلم الصارخ الذى صوره ابن مماتى كما يذهب إلى ذلك الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه « حكم قراقوش » ، فقد نصب نفسه فى هذا الكتاب مدافعاً عن قراقوش فى تحيز ظاهر . ونحن لا نستطيع أن ننفى ما أثبته كتاب الفاشوش على قراقوش من ظلم وغباء ، فان نفيه لا يدل عليه دليل واضح ، بل المعقول أن يكون على الأقل لهذه الحملة التى حملها ابن مماتى على قراقوش أصل من سيرته وخلقه وحكوماته بين الناس .

وقد وفق ابن مماتى توفيقا لا نظير له حين اختار دار الحكومة ليعرض فيها قراقوش هذا العرض الفكه ، وهو عرض أراد به أن يشوه الدولة الأيوبية الجديدة كلها ومن تصطنعهم فى أعمالها وشئونها ، وإنه ليستمر فيروى نادرة بديعة ، وهى أن شيخا وصبيا أمرد احتكما إلى قراقوش فى دار ، كل منهما يدعى أنها له ، فلما مثلا بين يديه قال قراقوش للصبى : أمعك كتاب يشهد لك ؟ ثم رجع إلى نفسه فتراءى له أن العار لا تكون إلا للشيخ الكبير ، حينئذ قال للصبى : ياصبى ادفع له داره ، وإذا صرت فى

عمر هـذا الشيخ الـكبير دفع لك الدار !

وعلى هذا النسق مايزال ابن مماتى يصور قراقوش فى هذه الصور الهزليـة التى كان يسمر بها المصريون لعهد صلاح الدين سمراً فيه لهو ومتعة ، وفيه هذا البلاء الذى صبه قراقوش على رءوس الناس . والغريب أن ابن مماتى حين تصـدى له فى هذه النوادر والفكاهات لم يترك منـه جانباً إلا وشوهه ومسخ خلقه حتى دينه ، فقد قص أن شاعرا تقدم إليه ليمدحه ببعض شعره ، فلما فرغ من إنشاده قال له قراقوش : « يا مقرئ ! لقد قرأت قراءة طيبة . » فقد ظنه يتلو قرآنا ، وكأنه لا يفرق بين القرآن والشعر ، وليس ذلك كل ما يريده خصمه به ، فإنه يريد شيئاً وراء ذلك ، يريد أن قراقوش لا يعرف ما يقال فيه مدحاً مما يقال فيه ذما .

ومهما يكن فإن ابن ممـاتى عرف كيف يحيل قراقوش إلى شخصية روائيـة للغفلة والحمق . وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطا وألوانا أخرى ، إذ نسب إليها كثير من القصص المضحك . بل إننا نجد كتباً تروى نوادرها ، كتباً جديدة ، فقد ألف السيوطى كتابا استعار له نفس اسم كتاب ابن مماتى ، ولـكنه يختلف عنه فى كثير من طرفه ونوادره ، مما يدل على أنه من صنعه أو على الأقل من صنع الأجيال التالية لابن مماتى ، وهو حقاً يلتقى مع كتاب ابن مماتى فى كثير من نوادره ولـكنه ينفرد بطرائف جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش شخصية روائية ، فالرواة والقصاصون يضيفون إليها كثيراً من النوادر والحكايات المضحكة . ولعل من أطرف ما ساقه السيوطى ما رواه من أنه « سرقت عملة فى زمن قراقوش ، فقال لأصحاب العملة : الحارة بتاعتكم لها درب (يريد بابا) فقالوا له : نعم . فقال : اذهبوا ائتونى به . ففعلوا وجاءوا بالدرب إليه ، فقال مدوه ، فقالوا يامولانا هذا خشب لا يعقل ، فقال افعلوا ما آمركم به فمـدوه وضربوه ونزل قراقوش ووضع أذنه بجانبه وجعل يوشوشه ، فلما فرغ قال : اجمعوا لى باقى أهل الحارة ، فلما حضروا قال لهم الدرب يخبرنى أن الذى سرق العملة على رأسه ريشة ، وكان سارق العمـلة (واقفا) بجملة النـاس ، فتوهم ورفع يده إلى رأسـه ، فرآه قراقوش ، فأمر به وقرره بالضرب ، وأحضر العملة ودفعهـا إلى أصحابها . » وما من ريب فى أن هذه النادرة لو صحت لأضحكت الناس طويلا فى عصره وبعد عصره . ويحكى السيوطى أيضاً أنه « كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلا ، وكان ولده يقترض على موته قدراً معلوما ، فزاد عليـه ، ومامات والده ، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة ، فدخل هو والدائنون عليـه ، وغسلوه ، وكفنوه ، ووضعوه فى النعش وهو يستغيث فلا يغاث ، وجاءوا حول تابوته ذاكرين يصيحون حوله ، فلما دخلوا للصلاة عليه اتفق أن قراقوش كان ماراً فنزل وصلى عليه ، فلما سمع الميت بذلك قال : الحمد لله جاءنى الفرج فجلس فى التابوت ، وقال يا مولانا السلطان ! خلص حقى لى من ولدى فإنه يريد دفنى بالحياة ، فقال له : كيف تدفن والدك بالحياة ؟ فقال الولد : كذب على يا مولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت ، ولاحملته إلا وهو ميت ، وهؤلاء (الحاضرين) يشهدون بذلك ، فقال للحاضرين : أتشهدون بذلك ؟ فقالوا نشهد بما قال الولد ، فالتفت قراقوش للميت وقال : أنا جئت أصـدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين ، روح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم ، فحملوه ودفنوه بالحياة فى ذمة قراقوش . » ويحكى السيوطى أيضاً : « من طرفه أنه طار له باز ، فقال : أقفلوا باب النصر وباب زويلة ،

قال الباز لا يجـد له موضعاً يطير منه ! »

وعلى هذا النمط نجد شخصية قراقوش تصبح شخصية خيالية لكل حاكم مهوس ، فيه بله ، وفيه غفلة ، ولذلك كثر القصص حوله ، وكثرت النوادر التي تروى عنه . وهناك كتاب يظهر أنه ألف في عصر متأخر ، وهو يذهب مذهب الكتابين السابقين ويسمى « الطراز المنقوش في حكم السلطان قراقوش » . والحق أن ابن مماتي نجح نجاحا هائلا في تشويه شخصية قراقوش وعرضها أو عكسها في هذه المرايا المحدبة من فكاهاته ونوادره .

ومع مرور الزمن وتتابعه أصبح اسم قراقوش يتخذ رمزاً لكل شخص مضحك . وأكبر الظن أن كلمة « كراكوز » التي تطلق في الشام وتركيا على خيال الظل ترجع في اشتقاقها إلى اسم قراقوش ، وقد دخلت إلى مصر باسم « اراجوز » . وإن في ذلك ما يدل على نجاح ابن مماتي في « التشنيع » على قراقوش والتندر عليه ، وهو تشنيع تفذ منه إلى كل ما كان يريده المصريون في عصر صلاح الدين من ضحك على الدولة الايوبية الجديدة وتفكيه .

شوقي ضيف

من وراء البحار

شاعر يريد تنظيم العالم (١)

أذاع الشاعر اليوناني نيقوس كازانتزاكى من أكبر الشعراء اليونانيين المحدثين نداء على صفحات مجلة «الحياة والأدب» الانجليزية (عدد سبتمبر) وجهه إلى العلماء والمفكرين وجميع الذين يهتمون لخير الانسانية . وقال فيه : إن الانسانية تجتاز فترة حرجة ، وقد صار العالم مرتبطاً بعضه ببعض ، حتى إنه لا يمكن نجاة شعب من الشعوب دون نجاة الشعوب بأسرها ، وقد يجر سقوط أمة من الامم إلى سقوط جميع الأمم . ولقد زال إلى الأبد ذلك الوقت الذى كانت تعيش فيه الأمم فى عزلة ؛ فاذا تكلم المرء عن أمته ، فانما هو يتكلم عن جميع الأمم الأخرى .

إننا لنشعر جميعاً شعوراً غامضاً أن الثقافة الحديثة مهددة بخطر جسيم ، ولن نستطيع التغلب على هذا الخطر إلا إذا واجهناه فى غير خوف ولا وجل ، فالشجاعة والضوء هما أقوى أعداء قوى الشر .

فما هو الخطر الجسيم الذى يهدد هذا العالم فيما بعد الحرب ؟ هو أن عقل الرجل المعاصر قد نما فى الشؤون المادية والطبيعية بسرعة وعمق أكثر من نموه الروحى ؛ فالعقل قد سيطر على القوى الطبيعية وأخضعها لأمر الانسان ، فى حين أن الانسان لم يبلغ النضج الاخلاقى الضرورى لكى يحسن استعمال هذه القوى فى ضمان سلام العالم ورخائه ؛ فلم يعد هناك توازن وتناسق بين تطور الانسان العقلى وتطوره الاخلاقى هذا هو الخطر الكبير .

كان الأمر فى الشرق فى الازمنة الغابرة على خلاف ذلك ، فقد سمت النفس الانسانية إلى آفاق عالية ، ولكن قدرة الانسان على الاختراع — قدرته العلمية — كانت لا تزال متأخرة ، وكان عدم التوازن فى هذه الامم المتقدمة أخلاقياً مما كلفها غالياً ، فقد أغار عليها البرابرة فمحوها . والآن يحدث فى أوربا عكس ذلك .

يجب لكى تظل المدنية فى مستوى رفيع أن نوجد تناسقاً وتوازناً بين العقل والروح ، ويكون هذا التناسق أكبر غاية يرمى إليها نضال الانسان . وهذا الواجب عسير ، ولكن يجب تحقيقه بشرط أن نتبين ما نريد وإلى أين نسير .

على أنه من الطبيعى أن نمر فترة فوضى أخلاقية وروحية ، قبل أن نصل إلى هذا الغرض . وإن الذى يتصل بالرجال المفكرين فى أنحاء العالم يجد النتائج التى لا محيص عنها للحرب بادية عليهم — نتائج الجوع والحيرة وهى التعب والقلق وعدم الاستقرار . وأهم من ذلك نتائج عدم وجود مبدأ أخلاق ثابت معترف به من الجميع ، يقوم عليه بناء حياة الرجل فيما بعد الحرب . ويجب ألا نقع فى الزلل : فاعادة البناء الحقيقى لا يقوم على بناء المصانع والسفن والدور والمدارس والكنائس التى دمرتها الحرب ، بل البناء الحقيقى الصلب هو الذى يقوم على الاصلاح الداخلى للنفس الانسانية . فالمدنية لا تقوم إلا على أسس روحية ، والحياة الاقتصادية والسياسية يحكمها ما فى الانسانية من تقدم روحانى . وكيف يمكن تحقيق هذا الاصلاح الداخلى مع وجود هذا التعب والقلق وعدم

(١) أنظر « من مجلات الغرب » .

الاستقرار ؟ يمكن ذلك بطريقة واحدة هو تجنيد جميع قوى النور الكامنة في كل رجل وكل أمة . ولقد وجه الأب مونييه ذات مرة سؤالا إلى برجسون الفيلسوف الكبير : هل يستطيع أن يجمل فلسفته في كلمة واحدة ؟ فأجاب الفيلسوف بعد تفكير لحظة : التعبئة . ففي كل موقف حرج يجب أن نعبئ جميع مواردنا الاخلاقية . وليس هنالك في هذه الفترة طريق آخر للنجاة . يجب ان نعبئ مواردنا ، ونحارب الخداع والكراهية والفقر والظلم ، ويكون ذلك بأن نعيد الفضيلة إلى العالم .

من هم الرجال الذين يظهرون موارد العالم الخلقية ؟ إننا لا ننتظر أن تنبعث هذه الصيحة الجامعة الهامة من الزعماء المدنيين كالسياسيين ورجال الاعمال والاقتصاديين ، إنما يستطيع أن ينهض بهذا العمل الزعماء الروحيون ، وواجبهم أن يقوموا بهذه المهمة الشريفة بمنأى عن الاهواء الشخصية . إن مسئولية المفكر الآن كبيرة ؛ إذ أن الاهواء عمياء ، والرغبات تتنازع ، والقوى المادية التي وهبها العقل للانسان عظيمة ، وعلى استعمالها يتوقف نجاة الجنس البشري أو القضاء عليه . فليتخذ أولئك الذين يعتقدون في القيم الروحية . ويجب أن نفتح أعيننا في هذه الأزمنة الخطرة التي نمر بها ، وننظر في وضوح إلى الواجب الروحي للانسان ؛ فلم يعد الجمال كافياً ، ولم يعد الصدق النظري كافياً ، ولا الطيبة السلبية كافية . لقد صار الواجب الروحي للإنسان اليوم عظيما وأكثر تعقيدا مما كان ؛ فعليه أن يشق طريقاً وسط الفوضى التي تبعث الحرب ، ويعيد النظام وأن يوجد التوازن بين العقل الانساني وقلبه . ويجد كلمات بسيطة يعبر بها عن الصدق الصراح وهو أن الناس إخوة .

لذلك يوجه الشاعر اليوناني نداء إلى جميع ذوي الرغبة الحسنة في أنحاء العالم ويسألهم واثقاً أنهم سيحاولون الاجابة ، لكي يقوم على إجابتهم تعاون دولي للروح ، هذه الاسئلة :

أولا — هل تظنون أننا نعيش في نهاية فترة تاريخية أم في مبدأ فترة تاريخية ؟ وماذا تظنون الصفات المميزة لهذه الفترة ؟

ثانياً — هل يستطيع الأدب والفن والتفكير النظري أن يؤثر في الحركة الحاضرة للتاريخ أم هي تصور الأحوال القائمة فقط ؟

ثالثاً — إذا اعتقدت أن التفكير والفن يؤثران في الحقيقة فإلى أية وجهة يجب أن يوجه التطور الروحي في بلادنا ؟

رابعاً — ماهو العمل الايجابي الذي يستطيع أن يقدمه التفكير والفن إلى العالم في ظنك ؟

خامساً — إلى أي مقدار يمكن أن يوجد الاتصال بين رجال التفكير وجمهور الشعب ؟ وماذا يمكن عمله لاتساع نطاق هذا الاتصال ؟

سادساً — ماهو الواجب الأول على الرجل من رجال الفكر أو على الفنان ؟ وكيف يساعد في التعاون السلمي بين الامم ؟

سابعا — هل يكون عمليا أن تنشأ « دولية » للروح ؟ وإذا كان الأمر كذلك هل ترغب في الاشتراك فيها ؟

تجربة بكيني

أقيمت تجربتان للقنبلة الذرية لكي يرى الخبراء مدى تأثير هذا السلاح الجديد وما يجره على الانسانية من ويلات . وقد كتب أحد المراقبين الخبراء مقالا في مجلة «ناشيونال ريفيو» الانجليزية (عدد سبتمبر) يبسط فيه رأيه . ومن أهم ما جاء فيه أقواله :

فى ٣٠ يونيه ثم فى ٢٥ يوليه سنة ١٩٤٦ أجرت وزارة البحرية للولايات المتحدة تجربتى القنبلة الذرية اللتين انتظرهما العالم فى لهفة. ففى التجربة الأولى انفجرت القنبلة فى الهواء وهى على ارتفاع ألف قدم تقريباً، فوق أسطول مؤلف من ٧٧ قطعة موزع فى مساحة قدرها عشرة أميال. فغرقت نقالتان وانقلبت مدمرة، وأصاب قطعتين أخريين عطب كبير. وكانت الغواصة «سكيت» واقفة على مقربة من السفينة «نڤادا» وهى التى صوبت إليها القنبلة فلم تكد تطفو. وكانت البارجة اليابانية «سكاوا» إلى جانب الهدف خطار ما فوق سطحها من أبنية. وكانت أقرب سفينة إلى مركز الانفجار حاملة الطائرات «اند بندانس» فكانت لاتزال عائمة، ولكن السطح الذى تقوم منه الطائرات وهو أقوى أجزائها طوح به الانفجار، وطوح معه بجميع الطائرات والدبابات التى وضعت فوقه، وقد وجد خرق فى جانبها كبير. وأصيبت البارجة «بنساكولا» بعطب فيما فوق ظهرها من منشئات. ولم تصب القنبلة البارجة نڤادا وإن كانت قد صوبت إليها، ولكنها أطارت ساريتها. وكان مجموع السفن التى أصيبت بشئ من العطب نحو العشرين. أما «البرنس أوچين» وهى أحدث السفن الكبيرة بناء فلم تكد تصاب بشئ، مع أنها كانت قريبة من مركز الانفجار.

وفى التجربة الثانية انفجرت القنبلة تحت تحت الماء، وكان الأسطول مؤلفاً من ٨٥ قطعة فى مساحة قدرها عشرة أميال، وكانت السفن الكبرى كما كانت فى التجربة الأولى فى قطر دائرة قدره ميل من مركز الانفجار. وكان أكبر ما حدث من خسارة فى هذه التجربة غرق البارجة «أركنساس» فى التو، وغرق حاملة الطائرات «ساراتوجا» بعد سبع ساعات ونصف ساعة من الانفجار، وجنوح المدمرة «هيوز» والناقلة «فلكون» وغرق البارجة اليابانية «ناجاتو» بعد خمسة أيام من الانفجار.

وكانت جميع السفن الكبرى فى التجربتين من الطراز القديم، ماعدا «البرنس أوچين» وقد جددت هذه السفن فى الحرب العالمية الثانية. ويجب فى تقدير نتائج التجربتين أن نحسب حسابا للأحوال التى أحاطت باستعمال القنبلتين؛ فقد كان البحر هادئاً والرؤية ميسورة، ولم تتخذ وسائل للدفاع أو الخديعة. فالاصابات تشهد بالقوة الفظيعة للقنبلة الذرية لأنها إصابات لا تحدث من انفجار أية قنبلة واحدة من أى نوع آخر، ولكنها كانت مع ذلك أقل بكثير من الاصابة التى حاقت بالأسطول الأمريكى عندما هاجمته الطيارات اليابانية فى ميناء بيرل.

ولا تزال تكاليف إنتاج القنبلة الذرية سرا محاطاً بالكتمان الشديد، ولكن مما لاريب فيه أنها سلاح يكلف مبلغاً باهظاً لا يكاد يصدق. وقد قيل إن تكاليف التجربة الأولى بلغت ١٧ مليونا و٥٠٠ ألف من الجنيهات، ولكنها لا تشمل تكاليف القنبلة نفسها. ويختلف الباحثون فى تقدير تكاليف هذه القنبلة، فيقول بعضهم إنها تبلغ ٦ ملايين من الجنيهات. ويظهر أن هذا تقدير مبالغ فيه. ويقول البعض الآخر مثل مستر برنارد برودى أنها تبلغ ٢٠٠ ألف والراجح أن هذا الرقم ضئيل، وقد نلزم جانب الحيطة إذا قدرناها بمبلغ مليون من الجنيهات.

إن تكاليف كل سلعة أو كل سلاح تماثل تكاليفها بالنسبة لما تتطلبه من مجهود اجتماعى من الهيئة التى تقوم بصنعها. فاذا نظرنا إلى المجهود الاجتماعى الذى أنفق على هاتين القنبلتين نجد أننا نحتاج إلى مجهود كبير جداً لكى نوقع خسائر فى السفن التى أصيبت فى تجربة بكينى أقل بكثير مما أحدثه اليابانيون فى ميناء

يرل ، وكانت القنابل التي فتكت بالأسطول الأمريكي عندئذ في تكاليفها ليست إلا جزءاً بسيطاً جداً مما تتكلفه القنبلة الذرية . وكان من الممكن في مثل تجربة بكيني أن تهجم بعض سفن العدو فتصيب بقنابلها السفن الواقفة بغير دفاع ، وتقضي عليها بكلفة أقل من كلفة القنبلة الذرية . وكذلك كان يمكن لطائرات حاملة القنابل قادرة على اختراق دروع المدمرات أن تصيب السفن بخسارة عظيمة ، وربما كانت الخسارة أقل مما حدث بالقنبلة الذريه ، ولكنها بلا شك لا تقاس بها من جهة النفقات . وكان من المستطاع أن يحدث مثل ذلك في التجربة الثانية .

إن تجربتي بكيني أثبتتا أن القنبلة الذرية وسيلة شديدة الخطر والقوة في الهجوم ، ولكن هاتين التجربتين لم تثبتا قط أنه لا وسيلة للدفاع واتقاء شرها ، بل هي تثبت قطعاً احتمال هذا الدفاع .

ولقد تبين من تقرير رئيس لجنة التقدير أن الخطر الأساسي للقنبلة ليس هو في الحرارة وتفريغ الهواء بقدر ماهو في الاشعاع . ولكن الاشعاع من الممكن معالجته ، فالراديوم مستعمل منذ سنوات عدة في المستشفيات وأمكن مجانبة آثاره الاشعاعية . ونحن نعلم أن هنالك معادن لا تتأثر بالنشاط الاشعاعي ، ولو استعملت ألواح من هذه المعادن في السفن لأمكن تجنب أخطارها . وإذا استعمل رجال السفن ملابس وأقنعة واقية أمكن تجنب هذه الأخطار ولو أصيبت السفن بعطل ، فاذن الدفاع مستطاع .

ومما يلاحظ أن سفينة حديثة مثل «برانس أوجين» لم تكد تمس بسوء . وهذا النوع من السفن صنعه الألمان في سنة ١٩٢٩ ، وسموه سفن الجيب ليتهربوا من شروط معاهدة فرساي التي كانت قائمة عندئذ والغرض منها الاقتصاد في الحمولة ، ولكنها بذلك تزيد في قوة الانشاء ، وفيها ركبت الألواح الحديدية بواسطة الكهرباء من غير مسامير ، وبذلك زادت قوة ، لأن خرق المسامير في الصلب مما يضعفه .

ومن أهم نتائج تجربتي بكيني أنها تدلنا على وسائل حماية المدن ، فقد ثبت أن القنبلة الذرية تصيب بالحرارة وتفريغ الهواء والاشعاع ، وقد ظهر أن الأبنية المصنوعة بالاسمنت المسلح تقاوم تفريغ الهواء ولو أن سكانها قد يصابون بالاشعاع . وأن المخابئ تتحمل تفريغ الهواء . ولذلك إذا استطعنا أن نزود الناس بالملابس والأقنعة الواقية فاننا نستطيع أن ننجي حياتهم ، وإن لم نستطع أن ننجي دورهم . فاذن يمكن أن نتغلب على الاشعاع بالملابس الواقية والاقنعة ، كما تغلبنا على الغازات السامة . وحينئذ تفقد القنبلة الذرية ٩٥ ./. من فظاعتها الحقيقية

وتدل تجربة بكيني أن خير الطرق للوقاية من القنبلة الذرية هو بناء قوي من الاسمنت المسلح لا منافذ فيه مصنوع بحيث يقاوم تفريغ الهواء ومعقم بحيث لا يضره الاشعاع وجميع فتحاته الضرورية غائصة في جوف الارض ، وجميع الأنابيب والأسلاك التي تنقل القوى غائصة أيضاً في جوف الأرض . ويجب أن يكون هنالك قدر احتياطي من الهواء المضغوط يمكن أن ينتفع به ساعات إن لم يكن أياما . وإذا كانت إجراءات الوقاية تكلف كثيراً أو غير عملية فيكون من الضروري جداً في الصناعات الحيوية أن توزع على مراكز متباعدة .

والآن يعرض هذا السؤال : هل يكون من المستطاع لدولة منظمة كل التنظيم أن تتغلب على دولة منظمة كل التنظيم بالقنبلة الذرية ؟ الجواب هو هذا : إننا نقصر في تقدير المجهود الاجتماعي الهائل الذي يتطلبه مثل هذا العمل ويظهر أن خبراء القنبلة الذرية

يكررون الخطأ الذى وقع فيه خبراء الجو فى السنوات الواقعة بين الحربين الماضيتين ، إذ ظنوا أن بضع قنابل وطيارات تستطيع أن تلقى الفوضى فى دولة منظمة كل التنظيم . فتكاليف إنتاج القنبلة باهظة وعملها معقد ، حتى إنه ليبدو أن من الهزل حقاً أن تعتقد أن الولايات المتحدة مثلا تستطيع أن تتغلب على روسيا فى حرب إذا ابتدأت ببضع قنابل من هذا النوع ، فان من المفروض أن روسيا تتخذ كل الوسائل الوقائية التى ذكرت من توزيع صناعات الحرب الأساسية ، وصنع مخابئ معقمة ضد الاشعاع ، وتوزيع الملابس والاقنعة الواقية ، وحينئـذ تكون القنابل الذرية أقل أثراً من الوجهة الحربية من قنابل الألمان فى الحرب الماضية . ولا يكون هنالك احتمال بأن تجد أمريكا الوقت لانشاء قواتها الجوية للهجوم دون تدخل ، كما حدث فى مهاجمة ألمانيا ، ولا تستطيع أمريكا أن تتوسع فى عمل قنابل ذرية إلا إذا وجهت المجهود الأعظم للشعب الامريكى نحو هذا الغرض .

ومن غير المحتمل فى ابتداء حرب جديدة أن يكون لدى الفريقين العدد الـكافى من القنابل الذرية لمحو المدن فلا تكون هنـالك فائدة حربية جدية فى هذا النوع من السلاح ، ففى الحرب الأخيرة ألقى الانجليز والامريكيون على ألمانيا مليونين وسبعمائة الف طن من القنابل تكاليفها ١٥ الف مليون من الجنيهات فدمروا أو أصابوا ثلاثة ملايين وستمائة الف من المساكن فصار سبعة ملايين وخمسمائة من الناس بلا مأوى . ومع ذلك استمرت المانيا تقاتل ولم تضع السلاح إلا بعد هزيمة جيوشها هزيمة ساحقة .

ومن الراجح أن تستعمل القنابل الذرية للهجوم على أهداف ذات أهمية حربية لا لمجرد الارهاب ، وقيمتها حتى فى هذا الامر مشكوك فيها . ومن تجارب الحرب العالمية الأولى أن رسخت فى الأذهان فكرة الدفاع الهـائل الذى لا يمكن التغلب عليه وهى متمثلة فى خط ماجينو ، ويخشى أن ترسخ فى الأذهان بعد الحرب الاخيرة فكرة الهجوم الذى لا يغلب ممثلة فى القنبلة الذرية . والفكرة الثانية لا تقل خطأ وخطراً عن الفكرة الأولى . فالحرب تـكسب بالعقول والمجهود والتضحيـة لا بالمذاهب والحيل .

رأى فى هنرى ميلر

هنرى ميلر كاتب أمريكى عاش فى فرنسا ونشر كتبه فى فرنسا ، وهو من أبرز الـكتاب الامريكيين وإن كانت كتبه محرمة على الجمهور الامريكى ، لمـا يلجأ إليه فى وصف الغرائز الجنسية من الاسهاب والاطناب . وقد كتب الناقد فاولى مقالا فى مجلة «الآداب» الفرنسية *Lettres* (عدد ٥) نقد فيه الـكاتب الأمريكى . ومما جاء فيـه قوله : إن أبرز صفة فى مؤلفات هنرى ميلر هى العنف ، وليس هذا العنف بادياً فيما يقوله بقدر ما هو ظاهر فى طريقة هـذا القول . ولقد انتقل عنف العاطفة عنده إلى أسـلوبه فصار عنيفاً وصارت لغته عنيفة . ولقـد قال فى كتابه « حكمة القلب » إنه لا يعترف بالـكلمات وإنما يعترف باللغة التى هى أبعد من مجرد الكلمات ، ففن الـكتابة عنده نوع من الاحتفال الـكامل ، تجمع فيه أجزاء التجارب المتناثرة فى مجموع واحد ، ولـكن هذه العناصر لا تنتظم بحيث تفهم منطقياً ، وإنما هى تفهم أو تحقق بالغريزة ، وتظهر فى كتابات ميلر الموهبة التى تأتى بنت وقتها . فرغباته

فى الحاضر لاتتحقق مطلقاً ولذلك هى لا تصير ذكريات تمثل رغبات فى الماضى . وهذا هو السبب فى أن نظرته للحياة هى نوع من التجربة دائم غير منقطع ، وهذا هو الذى يجعل فى مؤلفاته رعدة دائمة . ولتواتر الحياة اليومية لا يمكن تعريفه او تفسيره بالقوانين التى تعبر عنهـا ألفاظ الازمنة والأنواع والفكرة .

إن قراءة الرسائل التى تبودلت بين هنرى ميلر وميكل فرانكل ، ونشرت تحت عنوان هاملت ، لتثبت تماماً أن ميلر هو المثل الأكبر للمؤلف الذى يمثل هذا العصر ، أى الكاتب الذى يؤدى عمل الساحر والنبى ، ونجد سلفاً له فى رامبو ، ويمثله فى إنجلترا د. هـ. لورنس ، ومما له دلالة أن هنرى ميلر يعتبر الشاعر رامبـو من أكبر الكتاب ، وأنه أخذ فى كتابه دراسات عن رامبو ولورنس .

ومن صفات هذا الفنان الجديد ، أنه يحب دائماً التجارب ويقبل عليها فى اندفاع ؛ فهو يحب أن يحيا حياة ابطاله . ولقد دعا رامبو نفسه بالسـائل والفنان وقاطع الطريق والكاهن ، وكتب لورنس روايات وقصصاً ومقالات وأشعاراً ومسرحيات وكتب سياحة وفلسفة . وكتب هنرى ميلر عن حياته كما كتب روايات وفلسفة ونقداً ، وربما نراه فيما بعد شاعراً .

إن هـذا العصر الجرح المتنازع قد خلق بالرغم منه فنانين متحدين ومنتصرين مثل بروست وجويس ولورنس وهنرى ميلر ، ساروا فى طليعته وسبقوه وتقدموا به أكثر من الزعماء الذين يصفق لهم الجمهور . وقد عمل هؤلاء الكتاب فى كتبهم أمرين ؛ فقد سجلوا تاريخ حياتهم وسجلوا تاريخ عصرهم . ولقد اتهموا بأنهم ابتعدوا عن عصرهم ولم يهتموا لسياسة الوقت الحاضر ، ولكن الحقيقة غير ذلك ؛ فهم لم يطمحوا إلى أن يتحكموا فى جشع بمصاير العالم بنظرياتهم الفلسفية ، بل قبلوا العالم كما هو ، وبذلك استطاعوا أن يروا قوات الشر كما استطاعوا أن يروا قوات الخير .

إن عنوان كتاب هنرى ميلر « حكمة القلب » لهو مفتاح لواجب الفنان ، وهو يقول فى موضع من هذا الكتاب : « إننا فى قبضة قوات شيطانية خلقناها نحن أنفسنا من مخاوفنا وجهلنا » وهذا هو سر لغة الرجل الحديث .

لقد رأى ميلر بنظرته الثاقبة العناصر المتنافرة فى هذا العالم بوضوح ، حتى إنه عمل على التحرر منها ؛ ولذلك بلغ فى مؤلفاته نهاية الفجور ، فمنعت كتبه فى الولايات المتحـدة ، ولـكن هذا العنف فى لغتـه كان ضرورياً لاصلاح الضمير الأميركى فيما يتعلق بالشر وليحرر نفسه من تقاليـد الأدباء فى أوربا وأمريكا .

يقول ميلر فى كتابه «حكمة القلب» : إنى جائع دائماً ، ويلاحظ أن الجوع الغـذائى والجنسى هما من نوع واحـد ، أما الجوع الروحى فهو من نوع آخر ، فتجد فى مؤلفات ميلر الجوع الجنسى الذى يعبر عنه بالالتجاء إلى الفحش فى القول ، وهو جوع جسدى . ولذلك كان فيـه طعم الموت وطعم الانحلال وفيـه رمز الكوارث . والمرأة هى غرض هذا الجوع ، ولـكن ميلر أثبت أكثر من مرة أنه لا يشعر بجوع نحو المرأة .

ولقد أوجدت الرغبة فى المرأة شـعوراً كاذباً بالتسلط ، وكان لورنس أول من حمل على هذا الشعور وكان لورنس مخلصاً للحب ، أما ميلر فهو مخلص للحياة . ولـكن الاثنين يخشيان دور المرأة فى الحياة الحديثة ، ويخشيان أن تعمل على اغتصاب مركز الرجل . وعلى هذا الخوف قامت نظرتهما للمرأة : فلورنس يعتبر الزوجة إنما هى إلا عشيقة ، وميلر يعتبرها عاهرة . وهما فى هذا قد أوجدا لها موقفاً

غير طبيعى بقدر الموقف الذى خشيناه .

وهنرى ميلر يعلم أنه لا يمكن أن نجد حلا للجوع الجنسى بغير أن نجد حلا للجوع الروحى . وهو يكتب فى كتابه « عالم الجنس » فيقول :

إنى رجل متدين ، وقد كنت دائما متدينا !

وفى كتبه عبارات كثيرة تدل على صحة تلك النزعة وهذا القول ، فهو ينظر نظرة المتصوف إلى الحب . وكأنه يرى قدرة الله فى الحب .

ظهر حديثا

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط للأستاذ يوسف كرم مدرس بجامعة فاروق الأول (دار الكاتب المصرى)

الأستاذ يوسف كرم عالم معروف فى الأوساط العلمية بجامعتى فؤاد وفاروق بتوفره على البحث ، والاستقصاء فى فلسفة القرون الوسطى . وهو فى هذا الكتاب يضع لقراء العربية تاريخاً للفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ، وهو تاريخ يكتسب من غزارة مادة المؤلف وواسع اطلاعه على موضوعه بساطة فى التعبير وجلاء لموضوعات الكتاب ، بحيث صار نفع هذا الكتاب لا يقتصر على الباحثين فى الفلسفة والمتعلمين من التلاميذ ، بل يشمل جميع المتأدبين والمثقفين الذين يريدون الوقوف على خلاصة الآراء الفلسفية التى كانت سائدة فى تلك الفترة .

ويقع هذا الكتاب فى ٢٦٦ صفحة من القطع المتوسط . وقد قدم له المؤلف بمقدمة لخص فيها الأدوار التى مرت بها فلسفة العصور الوسطى من تكوين واكتمال والانحلال ، فابتدأ بالكلام عن نقلة الفلسفة اليونانية إلى اللغة اللاتينية ، ثم عقد فصلا عن حياة القديس أوغسطين ومنهجه الفلسفى وآرائه فى مختلف الموضوعات العقلية والالهية ، وتكلم عن ديونيسيوس وبويس شارحاً مذاهبهما الفلسفية. ويعتبر هذا القسم الخطوة الأولى فى فلسفة العصور الوسطى .

وفى الباب الثانى عالج تاريخ الفلسفة من القرن التاسع إلى الثالث عشر ، أى منذ النهضة فى المدارس وتكاثرها فى عصر شرلمان، فتكلم عن جون سكوت اريجنا ومذاهبه ، ثم تناول الجدليين واللاهوتيين وأشهرهم روسلان وبطرس دميانى ولانفرانز والقديس أنسلم .

وفى القرن الثالث عشر ، وهو القرن الذى ابتدأت فيه الحضارة الأوربية فى الازدهار ، فتكاثرت المدارس ونشأت الجامعات وانتشرت منتديات العلم ، اتجه المفكرون إلى البحث ، فكثر المترجمون الذين أخذوا فى نقل مؤلفات الفلاسفة اليونانيين أولا عن طريق اللغة العربية ثم عن طريق اللغة اليونانية رأسا ، واهتموا بنوع خاص بدراسة فلسفة أفلاطون وأرسطو ، وظهر كبار المفكرين من أمثال دوفرنى وهاليس وبونافنتورا وروجر بيكون والقديس ألبرت الأكبر ، ثم القديس توما الأكوينى وقد درس المؤلف نظرياته دراسة وافية دقيقة .

ثم تكلم عن انحلال الفلسفة فى القرن الرابع عشر ، بعد أن حاول الفلاسفة فى القرن الثالث عشر التوفيق بين العقل والدين ، فنرى التشكك فى العقل والدعوة إلى الاعتصام بالدين وحده ، ونرى التشكك فى الدين والانسياق إلى الالحاد بحيث يبدو القرن الرابع عشر على حد وصف المؤلف « سلبياً هداما » .

على أن هذا القرن على ما أوضحه المؤلف له وجهة « إيجابية إنشائية بالاضافة إلى المستقبل ، فان تخليص الفلسفة من الدين أعادها إلى ما كانت عليه عند اليونان ».

ثم شرح المؤلف نظريات فلاسفة ذلك العصر . وختم كتابه القيم بفهرس للمراجع وقاموس للأعلام .

والكتاب مطبوع طبعة أنيقة معتنى بها وإن لم يسلم من بعض هنات مطبعية قليلة .

ثورة سنة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ . في جزأين

للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك (مكتبة النهضة المصرية)

نحن حقيقة في حاجة شديدة إلى الكتب التي تبحث في التاريخ المصري لاسيما في التاريخ المصري الحديث والمعاصر . فلقد نجد في تاريخ مصر القديم الآلاف من المؤلفات الاوربية التي تبعث لنا حياة تلك العصور في صورة واضحة . وحاول بعض المؤرخين والبحاث في الآثار القديمة وضع مؤلفات باللغة العربية عن تلك العصور تسد شيئاً كبيراً من النقص في المكتبة العربية ، ونذكر من أقومها مؤلفات العالم سليم بك حسن . كما أن فترة التاريخ المصري الاسلامي وجدت من يعني بها من مؤرخين أوربيين وشرقيين . ولكن التاريخ الحديث ، لاسيما في الفترة التي تلت الاحتلال الانجليزي ، لم يكتب من وجهة قومية . فأكثر المؤلفين الأوربيين متأثرون بما كتبه الانجليز دفاعا عن موقفهم في البلاد ، وهم لا يحفلون كثيراً بالوقوف على وجهة النظر المصرية ، وهم ينظرون إلى الماديات السطحية التي يظنون أن الانجليز أول من أدخلها ، غير مهتمين النشاط الحيوي الذي كان باديا قبل دخول الانجليز ، هذا النشاط الذي قضوا عليه تحقيقاً لأهوائهم .

لذلك عندما أخذ عبد الرحمن الرافعي بك في وضع سلسلة الكتب التي أخرجها عن تاريخ مصر الحديث فانه سد فراغا كان يجب أن يسده أمثاله من رجال البحث والنظرة القومية .

إلا أنه في هذا الكتاب أقدم على عمل أشق مع عظيم نفعه ؛ فهو قد تناول فترة من التاريخ المعاصر عاش فيها واشترك ، أكثر الاحياء من رجال هذا الجيل ، لاسيما الشيوخ منهم . ولا ريب في أن كتابة التاريخ المعاصر من أشق الأعمال ، إذ لا يزال المؤرخ تضطرب في نفسه الأهواء ، ولا يزال متأثراً بالحوادث التي اشترك فيها ، لاسيما إذا كان دوره في ميدان الحياة بارزاً مثل عبد الرحمن بك الرافعي الذي كان ولا يزال من أظهر العاملين في الحياة السياسية ، ومن الذين ساهموا في تلك الفترة مساهمة كبيرة على مبادئ الحزب الوطني .

عالج المؤلف في الجزء الأول من كتابه موضع مصر في أثناء الحرب الأولى (سنة ١٩١٤ — ١٩١٨) وفي هذا القسم نجد وصفاً لاعلان الحماية ، وما كان له من أثر في البلاد وماترتب عليه من تغير لمركزها ، ونجد جميع الوثائق المتعلقة بذلك . ثم أخذ المؤلف يتكلم عن أسباب الثورة وتأليف الوفد المصري ، ومقدمات الثورة المصرية وابتدائها وانتشارها إلى الأقاليم ، وما اتخذته السلطة الغاصبة لمواجهة الثورة . وفي الجزء الثاني يتكلم عن انقلاب هذه السلطة إلى تهدئة الخواطر وعدم رضا الأمة بالاجراءات الوقتية ، وما كان من محاكمات للمتزعمين الحركات الثورية . ثم تكلم عن لجنة ملنر ومفاوضاته واستشارة الامة فيها . ثم اعتراف البريطانيين بأن الحماية علاقة غير مرضية . ثم أبدى حكمه في الثورة هل هي نجحت ، وفيم نجاحها ، وهو يرى أنها قد نجحت في حمل انجلترا على إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، وكان لها الفضل الأكبر في تقرير النظام الدستوري في البلاد أما النهضة الاقتصادية فان الثورة لم تعمل لها ولم تتجه إليها ، على أن الروح الوطنية التي انبعثت خلالها أدت إلى اتجاه الجمهور من تلقاء نفسه إلى معاضدة النهضة الاقتصادية وإلى متابعة البحث الاقتصادي .

وكان للثورة فضل فى النهضة الاجتماعية ، فتألفت الجماعات والأندية الرياضية وفرق الكشافة ، واشترك النساء فى العمل القومى . وكان لها أثر فعال فى النهضة التعاونية ونهضة العمال ، فتألفت النقابات وتعددت . فروح الثورة إذن على قول المؤلف الجليل « قد طافت بالمجتمع على اختلاف طبقاته وبيئاته واستثارت عوامل الوعى والتقدم » .

واختتم المؤلف كتابه بمجموعة من الوثائق التاريخية ، أهمها أنه عدد العهود التى قطعتها انجلترا على نفسها باحترام استقلال مصر ووعدها بالجلاء وهى ستون عهدا ، غير العهد الصريح الأخير المقترن بوعد الجلاء من البر والبحر والجو ! ثم جاء بنص معاهدة الآستانه سنة ١٨٨٨ ثم النصوص الخاصة بمصر فى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ وفى نهاية المجلد الثانى فهرس قيم هجائى للكتاب .

وإنا لنرجو أن نرى فى المستقبل القريب العشرات من الكتب التى تبحث فى التاريخ المعاصر من نواحى عدة ومن رجال متأثرين بمختلف الأحزاب ، كما نرجو أن يعمل الزعماء على نشر مذكراتهم عن تلك الثورة التى اشتركوا فيها أو راقبوها ، حتى نترك للأجيال القادمة تراثا تمكن أن يحكموا منه حكما نزيها على هذه الثورة وما كان لها من آثار فى مستقبل البلاد

حسن محمود

تاريخ حكماء الإسلام : تأليف ظهير الدين البيهقى (مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، بتحقيق الأستاذ محمد كرد على)

لا يزال المجمع العلمى العربى بدمشق قائما على رباطه ، دائبا فى نشاطه ، ولا تزال مجلته ومطبوعاته تضيف إلى العربية ثروة وتحيى من التراث العربى أثرا . ولا يزال رئيسه الكبير السيد محمد كرد على ، عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة ، ماضيا على سنته فى الجهاد المتصل والدأب الساهر لتحقيق أمجاد العربية وتاريخ الاسلام . وهذا كتاب قديم جديد ، ألفه مؤلفه منذ نيف وثمانمائة عام ليكون تماماً على كتاب « صوان الحكمة » الذى ألفه أبو سليمان المنطقى السجستانى من حكماء القرن الرابع للتعريف عمن مر به ذكرهم من حكماء الاسلام ، فأراد البيهقى من بعده أن يكون كتابه له تتمة ووفاء وتكملة ، وقد كان ذلك شأن علماء العربية منذ أخذوا فى وضع المؤلفات وتدوين العلماء : لا يزال اللاحق منهم يبنى على أساس سابقه ليكون عمله حلقة فى سلسلة العلم المتصلة الممتدة على توالى القرون ، إيماناً بالعلم واعترافاً بجهد من سبق .

ولم يكن اسم كتاب البيهقى هذا هو ذلك الاسم الذى اختاره له محققه ، وإنما وجدت هذه التسمية على النسخة المخطوطة التى نقل عنها هذا المطبوع ، وهى مخطوطة حديثة نسخها كاتبها فى منتصف القرن الثانى عشر — منذ قرنين وبضع عشرة سنة — فارتضاه المحقق عنواناً للكتاب لصدق دلالته على موضوعه ، وقد جاء ذكر هذا الكتاب فيما ترجم القدماء لمؤلفه باسم « كتاب تتمة أصول الحكمة » فلعل هذا هو اسمه الحق ، أو لعله كذلك وصف من أوصافه ، إذ ألفه — كما قلنا — ليكون تماماً على كتاب « صوان الحكمة » ، فليس ممتنعا أن يشتهر بصفته هذه عند القدماء حين يغيب اسمه .

وقد أتم الأستاذ كرد على تصحيح هذا الكتاب وتحقيق أصوله قبل أن يصل إلى علمه أن نسخة منه قد طبعت فى لاهور مع ترجمة له بالفارسية ، على أن ذلك لم يمنعه من الانتفاع بهذه الطبعة فى المقابلة وتصحيح بعض الأجزاء فى أثناء الطبع ، كما أثبت ذلك فى المقدمة وفى هامش بعض الصفحات .

وقد ترجم البيهقى فى كتابه هذا لطائفة ممن عرف من أهل الحكمة . والحكمة فى عرف القدماء مدلولات شتى تنتظم طوائف من العلوم والفنون ، وإن يكن أقربها إلى الفهم هو الفلسفة والهيئة وعلم الحقيقة . وتكاد تراجم هذا الكتاب تكون مقتصرة على بعض حكماء خوارزم وخراسان وفارس والعراق وما جاور تلك البلاد ، فلم يتحدث عن أحد فى الشام أو فى مصر أو المغرب أو الأندلس . وأكثر تراجمه مختصرة لا تكاد تبرز صورة المترجم له ، ولا تحقق اسمه فى بعض الأحيان ؛ على أن فيها مع ذلك فائدة يعز نشدانها فى مكان آخر .

وقد قدم الأستاذ كرد على الكتاب بمقدمة وافية للتعريف بالمؤلف وكتابه ، ووازن بينه وبين غيره من الكتب المؤلفة فى بابه ، وخص فى هذه الموازنة كتاب طبقات الحكماء للقفطى بمزيد من فضله ، ثم اختتم هذه المقدمة المفيدة بكلمة الأستاذ السيد محمد المبارك : « تصحيح الكتب القديمة أولى من الاشتغال بتأليف كتب جديدة » . ولعل من حتى أن أزيد على كلمة السيد المبارك كلمة أخرى فأزعم أن تصحيح كتاب قديم عمل يقتضى من الجهد والمشقة والدأب أكثر مما يقتضيه الاشتغال بتأليف بضعة كتب جديدة !

ولست أشك أن الأستاذ كرد على قد بذل جهدا وعانى مشقة فى تحقيق هذا الكتاب وإخراجه على هذه الصورة ، يدل على ذلك مقدمته وتعليقاته وما ألحقه بالكتاب من فهارس وافية للأعلام والأماكن والشعوب والموضوعات وغيرها . وأيسر هذا الجهد كثير .

ديوان ابن عنين (مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، بتحقيق السيد خليل مردم بك)

وهذا أثر جديد قديم كذلك من آثار جهاد المجمع العلمى العربى بدمشق لاحياء تراث العربية والاسلام ، هو ديوان الشاعر شرف الدين بن عنين الانصارى الدمشقى من مخضرمى شعراء القرنين السادس والسابع لعهد دولة بنى أيوب ؛ وقد توفر على إخراجه فى صورته هذه القشيبة عالم أديب من علماء دمشق ، وفاء بحق الشاعر الدمشقى الذى عاش ثمانين حجة يتغنى بمفاتن دمشق الخالدة ، فكان حقاً على كل دمشقى أن يذكر ما بينه وبين هذا الشاعر من آصرة القربى ولحمة النسب وروابط العاطفة .

على أن ابن عنين لم يكن شاعر دمشق وحدها ، وهو الذى يقول عنه ابن خلكان فى الوفيات — وكان من معاصريه — : « . . . خاتمة الشعراء ، لم يأت بعده مثله ، ولا كان فى أواخر عصره من يقاس به » . وصدق ابن خلكان وإن لم يصفه بكل ما يستحق أن يوصف به ، وحكم المتعاصرين بعضهم على بعض لا وسط فيه ؛ فاما غلو وإما تقصير .

وكان لابن عنين بين شعراء عصره نهج وحده ، فقد كان من أهل الترف والسرف فيما يبدو ، فلم يصانع الحاكمين رجاء لعطاياهم ، بل لم يتحرج عن سبهم والازراء عليهم ونسبة كل نقيصة إليهم ، حتى باعدوه وتجافوا عنه ، وحتى نفاه صلاح الدين الأيوبى عن دمشق ،

فغى على وجهه تتقاذفه البلاد عشرين سنة — فيما يرجح السيد خليل مردم بك محقق الديوان — ثم استقرت به النوى فى دمشق، ووزر لأميرها فأحكم الوزارة ونهض بأعبائها نهوض ذوى السياسة والتدبير، وإن كانت طبيعته الفنية قد حملته مرة — أو أكثر من مرة — على طلب الاقالة فلم يجب إليها .

وكان فى طبعه الدعابة والسخرية وعدم الرضا بالأوضاع القائمة أو التقيد بالتقاليد، وكان فى رأسه عقل أديب وفى قلبه وجدان شاعر، وما كان شىء من هذه الصفات ليؤهله للوزارة، ولكنه وليها فأحسن الولاية والسفارة والتحدث باسم الأمير والإستماع للمتحدثين إليه باسمه . وكان هجاء مر الهجاء مقذعا؛ فمن العجيب مع كل ذلك أن يكون من أهل السياسة والتدبير والقصد فى الكلام على ما تقتضيه الأوضاع الحكمية !

وليس هذا الديوان الذى يخرجه السيد خليل مردم بك هو كل شعره، ولكنه شىء مما وقع له من شعره؛ فقد كان ابن عنين ضنيناً بشعره على الرواة، فضاع أكثره ولم تبق إلا هذه القلة فى ديوان جمعه بعض معاصريه من أهل دمشق، فتداولته أقطار الأرض، وذهب سائر شعره مع الزمن .

على أن هذه القلة الباقية فيها كل الغناء للدلالة على خصائص هذا الشاعر الذى عاش فى أحفل حقبة فى تاريخ المشرق بالحوادث فلم تنفعل بها نفسه ولم يظهر أثرها فى شعره؛ لأنه كان من الايمان بنفسه فوق الحوادث والأحداث التى يزخر بها عصره، فجاء شعره صورة صادقة التعبير عن نفسه وعن الجماعة القريبة التى يعيش فيها ويرتبط إليها ارتباط المحبة أو ارتباط البغضة، وأغفل ما دون ذلك من حوادث الأيام والناس !

ولكنه — بما له وما عليه — شاعر من طراز جيد، له ديباجة ورونق وروح وعاطفة . وليس هذا بقليل .

أى جميل أسدى السيد خليل مردم بك إلى قراء العربية باخراج هذا الديوان فى صورته هذه الواضحة المبينة ! .

على أن جهد السيد خليل مردم بك لم يقتصر على تحقيق نصوص الديوان ومقابلة بعضها على بعض فى ثمانى نسخ مخطوطة منه لا تصلح واحدة منها للاعتماد عليها أو الاعتداد بها، فهذه الرسالة التى قدم بها للديوان فى بضع وأربعين صفحة منه هى وحدها عمل أدبى يستحق التنويه والاشادة، إلى هذه التعليقات الثمينة الضافية، وتلك الفهارس المنظمة فى آخر الديوان المطبوع .

التيار : ديوان شعر للأستاذ احمد الصافى النجفى (مطبعة دار اليقظة العربية، بغداد)

سأحاول فى هذه المرة تجربة لعلى أبلغ بها بعض ما أريد فى التعرف إلى شاعر ذائع الصيت منذ بعيد، سمعت به ولم أقرأ له، وعرفت بعض رأى الناس فيه ولم يكن لى فيه رأى، حتى ألقى إلى ديوانه هذا الذى أريد أن أتحدث عنه اليوم، فجعلت شعره سبيلى إلى التعرف عليه . وإذا صح حدسى فهذا شاعر صادق التعبير عن نفسه وعما حوله من ظروف الحياة، وما يضطرب فى مرأى عينيه من صور الحوادث والناس، وما يختلج فى قلبه من صور الوجدان والعاطفة .

وليس هذا الديوان هو كل شعره، ولا أكثره، ولكنه طائفة منه رغبت إليه وزارة المعارف العراقية أن تقوم على طبعها، تقديراً له وإعجاباً به، فدفعتها وزارة المعارف العراقية إلى لجنة الترجمة والتأليف والنشر فى

بغداد فأخرجتها ديواناً يصور صاحبه تصويراً صادقاً كأن قد عرفته وجلست إليه واستمعت لحديثه واطلعت على مكنون صدره .

وقد قدمت القول بأنني لا أعرف ناظم هذا الديوان ، وإن كان اسمه فى أذنى منذ بعيد ، فكل ما أتحدث به عنه بعد فهو مما استنبطته من ديوانه هذا الصغير الذى لا يتجاوز بضعا وثلاثين ومائة صفحة . فإن طابقت صورته التى أصفها بعد ، صورته الحقيقية التى يعرفها الناس ويرونها رأى العين ويستيقنونها يقين المشاهدة ، فهو إذن شاعر صدق . وما أقل الصادقين فى شعراء هذا الجيل ! وإن خالفت الصورة فلست أحب أن أنفى ما وصفت به شعره من صدق الاحساس ولكننى أتهم نفسى .

فهو كما يصفه ديوانه شيخ ضئيل عليل ينوء كاهله بما حمل من عبء الليالى ، أشيب الرأس شاب الفطرة والنظرة ، فيه كثير من الاعتداد بالنفس ، لا يأبه بما تواضع عليه الناس من تقاليد ، إلى شعور قوى بالحياة وعطف شديد على الأحياء ، بادى الدمامة ، قديم الزى ، مغبر النعل من طول السفار ، أفاق له فى كل أفق وطن ، خفيف الظهر ليس له زوج ولا عيال ، يحمل من هم نفسه ومن هموم الناس عبئا يثقل كاهله ، متهم فى دينه عند ذوى الحفاظ ، متهم فى دنياه عند أهل الترف ، يتغفله أهل الفطنة وهو يسخر منهم ، يغشى المساجد ولا يراه الناس مصليا ، ويرتاد الحانات ولا يذوق المدام ، خل وإن لم يتزوج ، أب وإن لم يولد له ، يطيع دواعى السفر ولا يزال يحن إلى وطنه ، سخى جواد ، وهو من العدم والاملاق فى حاجة إلى من يجود عليه ، حريص على الحياة مؤمن بها وإن لم يجد فيها خيراً يستحق أن يحرص عليه .

ذلك هو الشيخ أحمد الصافى النجفى الدمشقى البغدادى الحموى الرحلاوى ، إلى ما شئت من أوصاف أخرى ، وتلك هى صورته كما أراد أن يرسمها لنفسه ، أو كما بدت لى من خلال ديوانه . أهى صورته كما يعرفها الناس أم تلك صورته فى عينى أنا وحدى ؟ فان كانت الأولى فما أصدقه شاعراً يحسن التعبير عن نفسه وعما حوله ، وإن كانت الثانية فما يرضينى أن تكون لى بها صورة أخرى ، لأظل على يقينى بأنى أملك من هذا الديوان الذى فرغت من قراءته الساعة صورة الصديق الذى أصفيته حبى منذ عرفته فى ديوانه ولست اطيق أن أفقده !

أنا أعطيتكم لنفسى مرآ ... ة ونفسى تشع من ناظريا
نظر الناس لى فحاروا بأمرى ... وأنا مثلهم بأمرى حائر
أنا إما ألا أكون كغيرى ... شاعراً أو أكون وحدى الشاعر

قلت إن هذا الشاعر لا يأبه للتقاليد فى الحياة ولا فى الفن . أما فى الحياة فلأنه يعيش كما يشتهى ، أو كما يرى لنفسه ، فى طعامه وشرابه وزيه وما يضطرب فيه من ألوان العيش . وأما عدم اعتداده بالتقاليد فى فنه فآية ذلك ظاهرة فى كل مقطوعة من مقطوعات شعره التى تزيد على ثمانين ، قد تحررفيها من لوازم كثيرة يلتزمها الشعراء فى لغة الأداء وفى أسلوب الشعر وفى موضوعه . ولقد تقرأ قصيدة واحدة من شعره فتعيب عليه لغة أقرب إلى العامية المبتذلة وعبارات مما يجرى على ألسنة سواد الناس ، أو تسيل على أقلام كتاب الصحف اليومية ، ولكنك لا تكاد تمضى فى قراءة شعره مقطوعة بعد مقطوعة حتى تألف

هذا الاسلوب الذى كنت تبتذله حين تستيقن أنه لم يصطنعه عجزاً وإنما اصطنعه إيثاراً لحرية التعبير عن كل ما يختلج فى نفسه من ألوان الوجدان ، لا يريد أن يتقيد فى شيء من ذلك بأسلوب خاص ولا لغة خاصة ، وليس يعنيه الاطار الذى يمسك الصورة بقدر ما يعنيه صدق التعبير فى الصورة نفسها . قد يكون هذا عيباً فى الشعر ، لو خلا منه لكان أكمل وأحلى وقعاً فى الاذن وأثراً فى النفس، ولكنه على أى أحواله أحسن كثيرا من بعض ما نسمع من الشعر الفخم الضخم فى ألفاظه ومبانيه على خلو من المعنى وفقر فى الاحساس .

وهذه النزعة الحرة التى ترد إليها فنه وأسلوبه فى الاداء وموضوعاته هى جزء من طبيعة الشاعر فيما يبدو . اقرأ له المقطوعة التى جعل عنوانها «أكل الحرام» ص ١٢٦ :

عمت مثل ذوى الخلاعة حانة ... ووضعت أقداح المدام أمامى
قربتها منى وإن لم أحسها ... حتى أشوه سمعتى ومقامى
حتام أعبد سمعة وهيبة ... فكأنها صنم من الاصنام
وغدوت حراً مثل قومى عائشاً ... لما صبغت الصيت بالآثام

ظمئت كؤوس القوم حيناً وارتوت ... حينا ، وجامى طول ليلى ظامى
والناس حيناً يضحكون تعجباً ... منى وحيناً من جمود مدامى
يتهامسون علام جئت لحانهم ... أو ما نهتنى جبتى وحزامى
هذا يقول لخله : ذا متق ... فيجيبه بل ذا من الانعام
كفرت بين الشاربين وقبل ذا ... كفرت بين مشايخ الاسلام
عفت الذين قد اتقوا لقيودهم ... فاذا قيود الشاربين أمامى
الكل منهم عابد عاداته ... تالله تلك عبادة الاصنام
أنى أرى حرية ضيعتها ... طالت على سياحة الاقوام

وفى مقطوعات الديوان روح القصة إلى كثير من الدعابة والسخرية . وحسبنا للاستشهاد على هذين اللونين فى شعره أن نشير إلى قصيدته « التخت العليل » ص ٣٠ ، وفيها يصف سريرا من اسرة النوم لعله قد أوى إليه ذات ليلة فى فندق ما فى بلد ما فى أثناء أسفاره الكثيرة ، يقول فى وصفه :

رب تخت سموه تخت منام ... وهو حقاً مكسر للعظام
نصفه ناتىء بدون انتظام ... جامع للوهاد والآكام
ينتهى سفحه بواد عميق ... ضيق الصور خانق للنيام
من ينم فوق ناتىء منه يحسب ... أنه فوق ناتئات السهام
شخر الضيف حين نام فلاموه ... وما كان يستحق الملام
لم يكن طبعه الشخير ولكن ... عصروه فصاح من آلام
أنة التخت مازجت أنة الضيف ... فألفن مشجى الانغام

ظهر حديثا

وكأن الأنين من جانب التخـ ... ـت بكاء على الضيوف الكرام
وكأن الأنين منـه زفير ... أو شكاوى يبثها للأنام
قائلا إنني عليل فهل أسـ ... ـطيع حملا لهذه الأجسام

على أني لست مستطيعاً أن أنقل إلى القارئ — بالكثير أو بالقليل من الشواهد — النموذج الذي يتبينون فيه روح الشاعر واضحة ؛ فكل قصيدة من هذا الديوان عنوان بارز على قطعة من نفس شاعره ، فلست أملك إلا أن أنوه به وأدعو إلى قراءته ليعرفوا الشاعر المبدع الحر الانساني النزعة : أحمد الصافي النجفي .

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

المرأة السورية

فى العدد التاسع من مجلة « الحديث » التى تصدر فى حلب يتحدث الأستاذ سامى الكيالى عن « المرأة فى المجتمع العربى » فيبدأ الحديث عن المرأة السورية، فيزعم أنها تجمع فى شخصيتها وفى الحياة التى تحياها كل عصور التاريخ :

« فى مجتمعنا نساء يعشن من حيث التفكير وإدراك أسرار الحياة عيشة امرأة العصر الحجرى ، وأخريات كأنهن فى عصور البداوة . . . وبعضهن لم يذقن نعيم الحضارة ولا عرفن لونها ولا طعمها ... وقد نتجاوز فنقول عن بعضهن إنهن نصف متحضرات... ثم إلى هذه المجموعة من النساء المختلفات عقلية وميولا ، نساء يعشن عيشة الباريسيات المتأنقات سواء فى بيوتهن أو فى المجتمعات ، وقد تبذ المرأة السورية الباريسية فى الكثير من المظاهر » .

ثم يمضى الكاتب فى حديثه عن المرأة ودعوات المفكرين لتحريرها وما كان لهذه الدعوات من آثار إصلاحية قليلة بالقياس إلى ما لا تزال تتمرغ فيه المرأة العربية من الجهالات والخرافات ، ثم يرد فساد الحياة الاجتماعية فى البلاد العربية إلى هذا الأصل « لأن المرأة هى التى تزيل غشاوة الحياة وترقى بالأسرة والمجتمع إلى المرتبة التى تتمتع بها المجتمعات الراقية التى أصابت حظاً وافرا من نعيم المدنية وفيض الحضارة » .

قصر بيت الدين

وتفرد مجلة « المكشوف » فى بيروت عدداً خاصا فى بضع وثلاثين صفحة للحديث عن قصر بيت الدين ، وهو القصر الذى ابتناه فى قرية « بيت الدين » سيد الجبل الأمير بشير الكبير منذ قرن ونصف قرن ، مظهراً رائعاً لأبهة الامارة وآية من آيات الفن .

وللأمير بشير فى تاريخ لبنان ، بل فى تاريخ الشام كله ، بل فى التاريخ القريب لهذا الشرق العربى ، فصل بعنوانه يحفل بالأمجاد والمفاخر ، فلا عجب أن يحتفل إخواننا فى لبنان بذكره ويحرصوا على تراثه . وليس كل تراثه هو هذا القصر الباذخ ولكنه التراث البارز فى مرأى كل ذى عين وفى إحساسه . وكانت حفاوة مجلة «المكشوف» باخراج هذا العدد الخاص عن قصر بيت الدين مظهراً من مظاهر الحفاوة بكل أثر من آثار الأمير بشير الكبير .

وقد جمع هذا العدد بين دفتيه طائفة من الفصول لطائفة من أهل الأدب والتاريخ يتحدث كل منهم فى مقاله عن ناحية تتصل بالموضوع الفرد الذى خصص له هذا العدد من «المكشوف» : ففيه حديث بقلم فؤاد حبيش عن ماضى لبنان وحاضره منذ انفصل عن سلطان الدولة العثمانية حتى اليوم . يلى ذلك موجز من بحث للشاعر الأديب يوسف غصوب عن لبنان قبل عهد الأمير بشير ساير فيه لبنان مع الرحالين الفرنسيين من فولنى إلى موريس بارس .

وقد اتخذ الشيخ بشارة الخورى رئيس الجمهورية اللبنانية قصر بيت الدين مصيفاً لفخامته فى الصيف المنصرم ، فكان لابد من الحديث عن « رئيس الجمهورية فى قصر الأمير » وهو وصف صحفى دقيق بقلم زهير زهير يتحدث فيه عن القصر وساكنه وبانيه وحاضره وماضيه .

يلى ذلك فصل ممتع بقلم رئيف خورى عنوانه « سهرة مع الأمير فى مجلسه الأدبى » يصف فيه بعض مجالس الأمير بشير منذ أكثر من مائة عام ، فيه طرائف أدبية ممتعة وصور لبعض ألوان الحياة الاجتماعية فى قصر أمير لبنان يوم كان . . .

إلى فصول أخرى لبعض أهل الادب والتحقيق ، ونتف مترجمة من أقلام الرحالين الذين عرضوا لحديث هذا القصر وأميره ، مثل لامرتين وموريس بارس وغيرهما .

كتاب طريف فى غلاف مجلة ، يتناول حقبة من تاريخ لبنان القريب ، فيه أدب وفن ، وفيه مظهر من مظاهر القومية العربية الواعية .

من أدب العراق

ولا تزال مجلة « الغرى » التى تصدر فى النجف عنواناً بارزاً من عناوين النهضة الأدبية النشيطة فى العراق . فهذه الاعداد الأولى من سنتها الثامنة تعرض طائفة من المقالات لجماعة من كبار الكاتبين يتناولون فنوناً من العلم والأدب خليقة بالتقدير ؛ فهذا الدكتور مصطفى جواد يعرض لمجموعة صغيرة من الشعر لخمسة من شعراء العراق المتأخرين أو المعاصرين ، فيعقد بينهم موازنة أو « حكومة » على حد تعبيره يذهب فيها مذهبا طريفاً من مذاهب الموازنة . وهذا السيد عبد الحميد الدجيلى يتحدث عن « الغلاة وتحامهم فى العصور المتأخرة » . وهذه مقطوعات من « رباعيات الحبوبى » يحتذى فيها مثال الزهاوى على فرق ما بينهما فى الأداة والفكر . إلى فصول أخرى فى تاريخ العراق الحديث والقديم . وها نحن أولاء نجتزىء من العدد الأول بهذه « الرباعية » للحبوبى التى جعل عنوانها « الشعر لا ينفع الفقراء » :

تقول نفسى : دع ذكر الفقير فما ... يجديه شعر ولا تغنيه أمثال
فقلت : أتبع من قالوا لنصرته . ... قالت : وماذا أفادوه بما قالوا ؟
لم يمنح البائسين الشعر فائدة ... ولم تغير لهم يوما به حال
أما الألى يفهمون الشعر ليس لهم ... مال ، وأما ذوو النعمى فجهال !

وفى العدد الثانى من تلك المجلة ينشر السيد عبد الكريم الدجيلى الحلقة الثالثة من بحثه « النثر الفنى فى النجف » فيقدم « مقامة » ممتعة للمرحوم الشيخ جواد الشبيبى الأديب العراق المتوفى منذ قريب ، يرد بها دعوى ادعاها صفية للمرحوم السيد جعفر الحلى الشاعر لدى قاضى النجف ، ويصف الكاتب هذه المقامة بأنها من « نتائج قريحة فياضة فى الأدب العربى لا تقصر عن مجاراة أجود المقامات فى خيالها الخصب ومداخلاتها الأدبية التى تعترض أثناء قراءتها » ثم يورد المقامة بعد ذلك بنصها .

وفى العدد الثالث منها فصل ظريف بقلم صدر الدين أحمد عنوانه « إلى ولدى الذى لم يولد » يخاطب فيه ولده من وراء الغيب :

« عزيزى . . . يؤلمني أشد الألم أنني لا أدرى متى أنت تولد فأرى فيك بعضى بل جميعى موروثاً لك ومنقولا إليك ؛ فما أنت منى إلا اختصار كائن حى يضم فى حدوده صفوة خصائصى وعصارة مواهبى ومزاياى ، فأنا أنتظر إيجادك من نفسى كما لو كنت أنا سأوجد إيجاداً من نفسك ... »

أما السبب فى أن ولده ذاك لم يزل فى ظهر الغيب فلأن أباه لم يتزوج بعد ، ولأن أمه لم تزل وراء الحجاب ، وذلك فيما يقول ذنب المجتمع المتعنت الذى حال بينه وبين الزواج لأنه فقير معلق ، فهو يعتذر آسفا إلى ولده من إبقائه إياه مكفوفا فى طيات نفسه ثلاثين سنة لا يرى وجهه ولا يستمع إلى نغمات صوته .

يذكرنى هذا الفصل بحديث قرأته فى مجلة « الرسالة » المصرية منذ بضع عشرة سنة لكاتب معروف فى مصر والعراق عنوانه « أين أنتم يا أحبائى ؟ » . . . كلا الكاتبين خط مقاله تحت وطأة الشعور بأنه « أب بلا ولد ! »

أرأيت الصغيرات يحنون على الدمى حنو الوالدات على مواليدهن ؟ تلك صورة من صور الأمومة الباكرة ، وهذه صورة أخرى من صور الأبوة المعطلة !

ولا يزال السيد خضر العباسى يتحدث فى « الغرى » عن « المخلفات العباسية » وقد أوجزنا لقرائنا فى مثل هذا المكان من العدد الماضى شيئاً مما نشره الكاتب عن آخر سلائل العباسيين فى العراق ، وهو من حفدتهم ؛ وها هو ذا يوالى حديثه عنهم فى مقال عنوانه « مدرسة اسماعيل باشا العباسى فى بغداد » فمن أراد أن يتتبع تاريخ بنى العباس بن عبد المطلب الهاشمى إلى هذا الزمان فليقرأ مباحث السيد خضر العباسى فى مجلة « الغرى » عن أجداده .

تمنيت لو تهيأت إلى مصادر هذا التاريخ الذي يحكيه لأعرف تمام القصة التى بدأت فى خراسان منذ اثنى عشر قرناً ولا تزال حوادثها تتسلسل مع الأجيال حتى اليوم ...

الأدب المصرى المعاصر

وهذه مجلة أخرى جديدة تصدر فى النجف باسم « الدليل » يصفها صاحبها السيد موسى الأسدى بأنها « شهرية علمية أدبية اجتماعية جامعة » . وبين يدى فى العدد الأول منها مقالة بقلم ابراهيم الوائلى عنوانها « الاتجاه الحديث فى الأدب المصرى » عنى فيها الكاتب بتتبع بعض الألوان فى الأدب المصرى المعاصر ، منذ كان ذلك الأدب مقصوراً على البحث فى إنتاج القدماء وما يتصل به من البحث والوصف والنقد ، إلى أن صار إنشاء يصور الحياة ويستوحى الواقع ويهدف إلى إصلاح الحياة والمجتمع . ويرى الكاتب أن زعيم هذه المدرسة الحديثة التى خرجت بالأدب المعاصر من نطاقه التقليدى المحدود إلى فسيح الحياة هو الدكتور طه حسين الذى دعا إلى حرية الرأى والصراحة فى القول والصدق فى التعبير ، فاستجاب لدعوته طوائف من الشباب يسيرون على النهج الذى شرعه .

ادب العراق أيضاً

على أن هذه النهضة الأدبية التى تصورها مجلات العراق لا تقنع السيد حسين على ، فهذا مقال له فى العدد العاشر من مجلة « البطحاء » التى تصدر فى الناصرية — بغداد ، عنوانه « حاجتنا إلى الادباء » يتمنى فيه أن يرى فى العراق طائفة من الأدباء قد استكملوا أدواتهم وعرفوا واجبهم للناس لا لأنفسهم . فهو يرى أن فى حياة العراق اليوم اضطرابا يشمل كل صغيرة وكبيرة ويتناول أموره الخاصة والعامة ، وفيها إهمال يشيع فى كل شىء ، فى الأسرة ، وفى دوائر العمل ، وفى الشارع ، وفى دور التسلية ودور الثقافة ، وفى الريف والحضر على السواء ، وهو اضطراب وتقلقل كان من أثر تلك الحرب وما خلفته من أعقاب ؛ فهو لذلك يهيب بأدباء العراق أن يحاولوا علاج هذه النقائص بالسعى الحثيث لتصوير هذه الأدواء تصويراً يوقظ الشعور ويبعث الامل ويجدد الحياة ويحمل على تلمس السبيل إلى الدواء ؛ ثم يتساءل منكرا : « ولكن أين هم هؤلاء الأدباء ، وما مبلغ تأثيرهم فى مجتمعهم ، وأين إنتاجهم الذين يكون به هذا التأثير ؟ »

ثم يحاول الجواب عن أسئلته تلك فيقول :

« الحق أننا لا نغالى إذا قلنا إنهم ويا للأسف الشديد قلة لا يعتد بهم ، قد سلك كل منهم وجهة خاصة بعيدة فى عالم غير عالمنا أو فى عصر غير هذا العصر . وليس أدل على ذلك من هذا التباين الكبير بينهم — على قلتهم — فى طراز التفكير ولون الأدب وقوة الأثر ، فهم بين قديم خشن الأسلوب بطىء التفكير متعصب للماضى ، وبين آخر يخوض فى كل شىء ولا يخرج بشىء ، وإنما ثمرة كل ذلك هلهلة فى النسج واضطراب فى النهج وبلبلة فى الفكر ... »

المرأة الكردية

أما مجلة « الثقافة الحديثة » التى تصدر عن الكاظمية ، وهى مجلة أدب وعلم وفن واجتماع كما تصف نفسها ، فان لها تأراً — كما يبدو — عند أكثر من مجلة من مجلات العراق ؛ فهى تخص بضع صفحات من العدد الثالث للنيل من بعض زميلاتها ثمة ، وإن لم تخل إلى جانب ذلك من مقالات تستحق أن تقرأ ، فهذا مقال القائم مقام محمد شاكر فتاح عن « المرأة الكردية » يتحدث فيه عن شىء من خصائصها فى البيت ، وفى ميدان العمل ، فهى تحب زوجها وأولادها وبيتها ، وتشعر بما عليها للأسرة من تبعات ، فتشارك زوجها فى العمل والمزرعة ، وفى الاحتطاب والنقل ، وفى البيع والشراء ، وقد تقوم بأعمال لا يقوى على مثلها الرجال . وبعد أن يورد أسماء طائفة من الكرديات المعاصرات اللاتى اشتهرن فى ميادين الأدب والفن والثقافة وأعمال البطولة ، يقول :

« إن المرأة الكردية تعتمد على نفسها لتحصيل قوتها اليومى أو إدارة اقتصاد العائلة عند ما تتزوج ؛ لذا لا تجد المرأة الكردية كبير مشقة فى تجهيز الأسرة بما قسم الله من

الرزق عنـد فقدانها زوجها أو عائلها . فكم شاهدت من أرملة كردية قد حرمت على نفسها الزواج بعد زوجها الأول وكرست حياتها لخدمة أولادها بالكسب الشريف وعرق الجبين ، بل شاهدت عدة أرامل وقد أعيابهن العمى ورغم ذلك قد أبين سؤال الناس أو مد الأكف ، بل قمن ببعض المهن الشاقة وآثرن شظف العيش والحرمان على النعم المتأتية من الذل والخنوع فى خدمة الأثرياء . . . »

حيرتنى يا قارئى

ونكتفى بهذا الحديث عن مجلات العراق لنقرأ للأستاذ عبدالحميد يس فى مجلة « الذخيرة » التى تصدر عن فلسطين مقالا بهـذا العنوان يعيب فيه على طائفة من المؤلفين وكثير من الصحفيين أنهم يعمدون فيما يكتبون وينشرون إلى اسـتهواء القراء وترضيتهم وتملقهم ، واشتغالهم بذلك عن صقل أنفسهم وتغـذية أرواحهم . فأصبح الكاتب مقوداً لا قائداً ، ومسلياً لا مؤدباً ، وسميراً للتندر لا وزيراً للنصـح والارشاد . . . ثم يقول متحدثاً إلى قارئه :

« يبدو لى ، ولعلك أنت أيضاً ترى ، أن الجانب الأكبر مما فى المجلات الأسبوعية يدور حول ثلاث نقاط : المرأة ، والحياة الجنسية ، والجرائم وأبطالها والقيل والقال فى الطبقات العليا من المجتمع ؛ فالمجلة التى لا تزدان بصورة من صور الحسان فى مناسبة ودون مناسبة ، نعتبر رجعية تليق بالسلف الصالح وحده . . . »

ويمضى الكاتب فى نقده ، وفى حيرته فى اختيار ما يرضى القـارئ وما لا يرضيه ، حتى ينتهى من مقاله كما بدأ : بين الانـكار والرضا ، وبين الحيرة والاطمئنان .

عدالة المستقبل !

وندع هذا اللون لننظر فى لون آخر تقدمه مجلة « الطريق » التى تصدر فى « بيروت » وهى مجلة ذات طابع خاص فى النقد السياسى ، وقد سلخت من عمرها بضع سنين ماضية إلى غاية تدعو لها وتكافح عنها ، ولعلها بالغة غايتها.

وها هى ذى تتحدث فى العدد السابع عشر من سـنتها الخامسة عن « عدالة المستقبل » لمناسبة الحكم الذى أصدرته محكمة نورمبرج على من أسماهم منطق المنتصرين « مجرمى الحرب » . ولولا الهزيمة التى نالت جيوشهم لكانوا اليوم أبطالا وسادة ينزلون من الناس منزلة الحفاوة والتكريم . . . ولعل الذين حاكموهم لحكموا عليهم كانوا يومئذ فى عرف العالم هم المجرمين ، لأنهم . . . لأنهم لم يكسبوا المعركة الأخيرة !

هؤلاء وأولئك قد اعتدوا على سلام العالم ، وسفكوا دم الأبرياء ، وأيتموا الأطفال ، وأرملوا النساء ، وأخربوا العامر ، وأظمأوا وأجاعوا وأعروا ، إن لم يكن فى هذه الحرب ففى حروب سلفت ، وإن لم يكن فى تلك المعركة ففى معارك أخرى لا تزال ناشبة فى الشرق والغرب . . .

. . . هؤلاء وأولئك سواسية فى الصفة التى وقفت هؤلاء النازيين بين يدى قضاتهم

ثم انتهت بهم إلى يد الجلاد . ولكن إحدى الطائفتين انتصرت فى تلك المعركة فنالت البراءة بانتصارها ، وانهزمت الأخرى فكانت مجرمة بهزيمتها ؛ ولا يزال قانون «اسبرطة» نافذاً على توالى القرون ، ولا يزال الحق هو القوة ، ولا يزال الويل للمغلوب !

وتتحدث مجلة « الطريق » إلى قرائها بهذه المناسبة ، فتصف هذا الحكم الذى حكم به قضاة نورمبرج على مجرمى النازية بأنه « عدالة المستقبل » لا لأنه نال النازيين دون غيرهم من سائر سفاكى الدماء وقتلة البشر ومغتصبى حرية الشعوب ، بل لأنه « لأول مرة فى تاريخ الانسانية لم تعدالجرائم الفردية وحدها هى التى تقع تحت طائلة العقاب ، فقد برهن حكم نورمبرج أن الانسانية قد دخلت مرحلة جديدة من تاريخها ، مرحلة أصبح فيها قتل الشعوب الآمنة فى نطاق الجرائم التى لا تغتفر . ولن يكون بعيداً اليوم الذى تطول فيه يد العدالة الانسانية الجرائم المقترفة ضد السلم وضد الانسانية وجميع المؤامرات التى تحاك ضد السلم والانسانية باعتبارها شروعاً فى ارتكاب الجرم ... ! » .

أترى يتحقق هذا الحلم الرائع فتعقد غداً المحاكمات لمجرمى الحرب وأعداء السلام والحرية ، غالبين ومغلوبين على السواء !

ولكن من ينفذ هذا الحكم وفى كل جريمة غالب قوى ومغلوب منهزم ؟

فى مجلات الغرب

من لندن

مجـلة « ســكروتينى » *Scrutiny* . صيف ١٩٤٦ . يعرض فيها هـ . ا . ميزون H. A. Mason عرضامفصلالمؤلفات ج.ب. سارتر J.-P. Sartre القصصيــة وخاصــة « طرق الحرية »(١) وهى تريلوجيا أى قصة تدور حول ثلاثة موضوعات كما هو معروف .

« سن الرشد » و« التأجيل » ، وسيظهر قريباً « الحظ الأخير »(٢) يحلل الناقد القصتين اللتين ظهرتا سالـكا إلى تحليله طرقا مختلفــة ولاسيما الطريق التى استخلصها من رسالة لجان بول سارتر عنوانهــا « الوجودية ثقافة إنسانية »(٣) فيحاول أن يتتبع تقدم فكرة الحرية والفعل الحر . ولا يكتفى هـ . ا . ميزون أن ينقد هذه الـكتب نقداً فلسفياً أو اجتماعياً إنما يقول : « حقا ، إذا تعمقنا البحث وأردنا تحليل المؤلفات الأخيرة ثبت لنا أن الموقف الذى اتخذه النقاد هو اللائم ، أعنى أن مؤلفات سارتر الأدبية يجب أن تنقد نقــداً أدبيا خالصا ، لأن « المادة » الفلسفية فيها يجب أن تقاس وتقدر حسب قيمتها الخاصة ومن حيث هى جزء مقوم لـكل أدبى . فعلى النــاقد أن يقدر قيمة المؤلف كما تبــدو فى قصصه ومسرحياته لا أن يتبع الطرق المألوفة فى جمع الأفـكار الفلسفية ومقارنتها بما هو مقدر فى كتب الفلسفة . » وهذا ما يفعله ميزون فى بحثه القيم الدقيق . ويقول فى ختامه : « إن « الوجودية » من حيث هى موقف فى الـكتب التى عرضنا لها فى هذا المقال « ليست إنسانية » .

ونلاحظ أن هـ . ا . ميزون لم يطل كغيره فى نقد إسراف المؤلف فى التحقيق ، أما بالقياس إلى الأسلوب فهو محتفظ تحفظ الأجنبى .

« لايف أند ليترز » *Life and Letters* ، سبتمبر ١٩٤٦ . إن المقال الوحيد الذى يستحق الذكر فى هذه المجلة هو نداء الشاعر اليونانى نيكوس كازانتزاكى Nikos Kazantzaki ويتبع هذا النداء نبذة عن حياته . ولد الشاعر فى كندى Candie فى جزيرة كريت Crète سنة ١٨٨٥ ، وتلقى علومه فى أثينا وباريس وروما وبرلين ، وهو يعيش الآن فى انجلترا وأهم مؤلفاته تاريخ الأدب الروسى ، وترجمات عن جوته Gœthe ودانت Dante وهوميروس Homère ونيتشيه Nietsche وديوان حماسى قصصى « الأوديسية » *Odyssea* وهو مكون من ٣٣٠٣٣ بيت ، ومسرحيات منهــا تريلوجية عن بروميثيوس Prometheus . وبعد أن شغل سنة ١٩١٩ منصب مدير عام لوزارة الخدمة العامة استقال فى سنة ١٩٢٠ لينصرف إلى الأدب ، وهو الآن يعد كتبا عن الحياة الأدبية فى انجلترا بعد الحرب .

فلنوجه النظر إلى نداء نيكوس كازانتزاكى فهو يقول : « إننا نشعر أو نـكاد نشعر

(١) J.-P. Sartre, *Les chemins de la liberté.*

(٢) *L'âge de raison. Le sursis. La dernière chance.*

(٣) *L'existentialisme est un humanisme.*

ان خطرا عظيما يحدق بالحضارة الحديثة » وذلك لأن : « بين نمو الانسان العقلى ونموه الخلق اختلالا فى التوازن والانسجام » مصدره أن « عقل الرجل الحديث قد تطور بسرعة أشد وبحدة أدق من روحه » . ولذلك يرى نيكوس كازانتزاكى أن من الضرورة « أن نحشد مواردنا وأن نحارب الخداع والعداء والبؤس والظلم . يجب علينا ان نرد الفضيلة إلى العالم . » إن حرارة الأسلوب التى تسود تلك الصفحات تدفعنا إلى أن نود منه ما يرى الشاعر من « أن الشعراء الآن كما كانوا فى الماضى يشبهون الأنبياء . »

من باريس

قرأت اليوم لأول مرة مجلة « كونستيلاسيون » Constellation وهى الطبعة الباريسية لمجلة La France Libre عنوانها « فرنسا الحرة » كانت تصدر فى لندن مدة الحرب . فالطبعة الجديدة للمجلة تختلف عن طبعتها السابقة اختلافا عظيما ، فى منظرها خاصة ؛ والواقع أن هذه المجلة فى شكلها الجديد فاخرة جدا . أما ما تنشره من المقالات ، فمنها ما هو مهم حقا ، وما هو شاحب اللون ، إن صح هذا التعبير ؛ فليست فصول المجلة مستوية كما نرى .

ولننظر إلى بعض هذه المقالات : ففى العدد الخامس والستين منها بعنوان : « دفاع عن التجريب » لبريس باران (١) ، مقال يحاول فيه الكاتب أن يبحث عن أسباب القلق المستمر فى فرنسا منذ تحررت . فيرى بريس باران أن سبب هذا القلق هو البربرية ، أو بعبارة أدق هو البربرية فى العالم بعد انتهاء الحرب . فيقول الكاتب : « لقد تجد فرنسا نفسها أمام تهديد البربرية ، وترى أنها إن لم تكن عزلاء فهى ليست مسلحة كما ينبغى أمام هذا التهديد . . . وهى شقية بهذا لا فى جسمها بل فى نفسها . وهى من أجل ذلك تتكلم كثيراً . قذف بها فى عالم غير واقعى ، فهى لا تعرف فيه نفسها بعد ، وهى تبحث فيه لذلك عن هذه النفس . إن الفرنسيين يشعرون بأن الحقيقة تفر منهم والأخلاق كذلك . فالأخلاق هى سيرة الانسان مع الحقيقة ، بحيث يستطيع أن يسيطر عليها دون أن يعنف بها ، وبحيث يستطيع أن يجعلها قابلة للحياة غير معرضة للفناء . »

ويشتمل هذا العدد على ثلاثة فصول بعضها كتاب بريطانيون ، فالمجلة إذن شديدة الاتصال بالمثقفين الانجليز ، — أو قل إن أردت — إن الكتاب الانجليز هم الذين يعنون بالثقافة الفرنسية . فالمقال الأول بقلم الشاعر الكبير ستيفن سبندر ، عنوانه « مقابلات فى ألمانيا » (٢) وهو فصل من كتاب ، سيصدر بعد أشهر ، عنوانه « شاهد أوربى » (٣) .

وهذا المقال ذو شأن فيما يتعلق بموقف الحلفاء نحو الألمان وخاصة برأى الروس والامريكيين فيما يجب أن تكون عليه علاقاتهم بالشعب الألمانى .

لويس ماك نيج : « الكاتب البريطانى

(١) Brice Parain, *Défense de l'empirisme.*

(٢) Stephen Spender, *Rencontres en Allemagne.*

(٣) *European Witness.*

والحرب»(١) : « لا يمكن العودة إلى ما بين الحربين . فاذا يكون اتجاهنا فى المستقبل ؟ » هذا هو السؤال الذى يلقيه الكاتب فى أول مقاله . فهو يلاحظ أن الدولية الأدبية «عامل باعث للحياة لا مناص منه ولكنه خلو من تحقيق التوازن وفيه شيء من التصنع . » ثم يذكر تعريف الوطنية الثورية لجورج أورويل George Orwell الذى كان من أبرز المدافعين عن الدولية المركسية وذلك حيث يقول : « إن الوطنية إخلاص بشيء يتغير دائما ونحن نشعر مع ذلك فى بعض التصوف بأنه خالد » . ويقول الكاتب بعد ذلك حين يشير إلى أدب الغد : «سنقتبس موضوعاتنا من الحوادث الراهنة ، ولكن نحول طبيعتها بحيث تمتزج الحقيقة بالرمز . » ويصل لويس ماك نيج مقاله إلى هذه النتيجة : «يجب على انجلترا إذن أن تحتفظ بنفسها ، بل بعبارة أدق ، أن تحقق نفسها . بذلك وحده تستطيع أن تكون عضواً منتجاً فى الجامعة الأوربية الكبرى » .

إما المقال الثالث وعنوانه « بيكاسو فى انجلترا » فقد كتبه هربرت ريد(٢) وهو يحدثنا عن عرض بعض لوحات للمصور العظيم بيكاسو Picasso فى لندن . ويذكر فى دعابة ما كان له من رد الفعل فى الجمهور البريطانى . فيقول مثلا : « إن الجمهور البريطانى يكتشف كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما أن الفن موجود ، وإذا كان قد تجاهله فيما بين ذلك فهو يشعر كل مرة بصدمة روحية . فليس الفن جامداً بل هو يتطور فى سرعة قد يراها الفنان أو الناقد الفنى ، عادية ولكنها تبدو بطبيعة الحال كارثة لمن يدركها كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما . »

وتحقيقا للمظهر الدولى الذى تبدو فيه المجلة يجد القارئ قطعة مترجمة عن اليونانية الحديثة من قصة كتبها إيلياس ڤينيزيس Ilias Venezis ويقدم بيير أماندرى Pierre Amandry (وهو أحد مترجمى القصة) لقراء « كونستيلاسيون » هذا الكاتب اليونانى . وحسبى أن أذكر من هذه المقدمة هذه الأسطر التى يشير فيها إلى ما تأثرت به القصة من العقائد والأساطير ، وذلك حيث يقول : « بعض هذه العقائد والأساطير مسيحى الأصل وبعضها إسلامى ... ولكن أوديسيوس الحديث أضاف إلى مواقف سميه القديم زيارات فى القصور المحدثة . وفى قصصه أحداث دامية تردد أصداء غريبة لألف ليلة وليلة . »

وتختم المجلة بعرض المجلات ثمانى عشر مجلة فى صفحتين ! خصص لكل واحدة منها أربعة أو خمسة أسطر تكفى لتعطينا فكرة شاملة عن تلك المجلات .

« الفكرة » *La Pensée* (عدد ٧) أبريل ، مايو ، يونيو . وهى مجلة العقليين المحدثين ، وهى فنية ، علمية ، فلسفية . ومن بين لجنتها الادارية بول لانجفان Paul Langevin و ف. جوليو ـ كورى F. Joliot-Curie واتجاه هذه المجلة يسارى متطرف . وفى العدد المذكور ثلاث مقالات عن العالم العظيم باستور Pasteur نشرت بمناسبة العام الخمسين لوفاته . فتقرأ فى المقالة الأولى منها بقلم بول لانجفان ما يأتى : «هذا العام الخمسون لوفاة باستور وهو فى آن واحد العام المئوى لبحوثه الأولى ، يتيح لنا أن نذكر شخصية هذا الرجل الذى برع فى فن استنطاق

---

(١) Louis Mac Neige, *L'écrivain brittannique et la guerre*.

(٢) Herbert Read, *Picasso en Angleterre*.

الطبيعة ، وتمكن أن يكون فى الوقت نفسه عالما ذا ذكاء خارق ورجلا يمثل عصره تمثيلا ساميا فى موقفه فى مشاكل العلم والحياة . »

أما فى المقال الثانى وعنوانه « مناهج باستور » بقلم فرنان نيتى (١) فيطلق على منهج باستور عبارة « المادية الاستنباطية » (le matérialisme dialectique) إذ يقول : « وأخيراً كان باستور يعرف بالدقة أن تحسين حياة الناس مرتبط ارتباطا وثيقا بمعرفة العالم الحقيقى ، وفى كل آثاره يتفرع التطبيق العلمى من الأصول النظرية .

فنحن نجد فى كل أعمال باستور البرهنة التجريبية على أكثر أصول « المادية الاستنباطية » ... فليس باستور هو الذى ابتكر « المادية الاستنباطية » بل هى التى تلائم أعمال باستور ملاءمة تامة » . والمقال الثالث مقتطفات نشرها بول دوبوى فى « نشرة أصدقاء مدرسة المعلمين العليا » (سنة ١٩٣٨ - ١٩٣٩) (٢) ولخصها سكرتير تحرير المجلة تحت عنوان « باستور فى مدرسة المعلمين » Pasteur à l'Ecole Normale والمشكلة التى يعرض لها فى هذا المقال هى تدين باستور . وهو يلقى السؤال الآتى : هل كان باستور كاثوليكياً فى أدق معانى الكلمة ؟ وجوابه على هذا السؤال لا يقنعنا .

وفى نفس المجلة مقال عن تونس ومشكلاتها لبيير جورج (٣) ذو شأن كبير للقارئ العربى . وفى مقدمة قصيرة يبسط لنا الكاتب غاية ذلك المقال إذ يقول : « إن الملاحظات الآتية ترمى إلى تبيين أن الضيق الشديد الذى يشكو منه الشعب التونسى لا يرجع إلى قلة الماء فحسب » بل إلى عوامل مختلفة تحاول تحليلها : أولا المشكلة الغذائية وهى مصدر المشكلة الاجتماعية . وحسبى أن أنقل خلاصة ذلك البحث . إن المشكلة كما يراها بيير جورج كانت فى سنة ١٩٣٧ وما زالت مشكلة نظام وتوزيع أكثر منها مشكلة إنتاج . وذلك لأسباب ثلاثة :

ا) الشركات الضخمة للاستعمار .

ب) الاقطاعات العربية الواسعة .

ج) إثقال الملكية الصغيرة بالضرائب المباشرة وغير المباشرة .

ويختم بيير جورج هذا القسم بقوله : « إن الفلاحين المشردين يدفعون إلى نوع جديد من البداوة هو بداوة الجوع واليأس . »

ثانياً ، إن حالة العمال يسودها بؤس شديد يعود إلى أساليب العمل وأدواته البدائية .

ثالثاً ، المشكلات الأهلية والسياسية . إن أهم هذه المشكلات يرجع إلى الفريقين التونسى والايطالى من السكان . ولندع نحن الناحية السياسية لنصل إلى مشكلة التعليم . فيقول بيير جورج فى هذا الموضوع : « إن فرض الثقافة من طريق لغتين أجنبيتين ، الفرنسية والعربية الفصحى ، على أطفال لغتهم الأصلية هى اللغة العربية الدارجة التى تمتاز بطابعه الوطنى وتختلف اختلافاً ملحوظاً عن اللغة الفصحى وهى لغة قديمة مقصورة على الأدب دون الاستعمال ، وإن الاستعانة على ذلك بكتب ألفت لفرنسا (بالنسبة إلى الثقافة الفرنسية) مغامرة يصعب الخروج منها . »

ويختم الكاتب بحثه هذا قائلا : « إن الحالة فى تونس تتطلب تدابير سريعة وتعديل

(١) Docteur Fernand Nitti, *La méthode pastorienne.*

(٢) Paul Dupuy, *Bulletin des Amis de l'Ecole Normale Supérieure* (1938-1939).

(٣) Pierre George, *Problèmes de la Tunisie contemporaine.* Notes de géographie économique et politique.

سياستنا نحو الأهالى . . . إن خيبة الآمال والبؤس من ناحية والطموح الشخصى من ناحية أخرى قد يتكشفان عن نتائج لا تعود بنفع ما على البلاد التونسية . »

La Revue Hommes et Mondes

« مجلة الانسان والعالم » وهى « مجلة العالمين » فيما *La Revue des Deux Mondes* مضى . فى الشهرية الأدبية مقال لتيبرى مونييه عنوانه « مصير القصة » (١) يحاول فيه الناقد المعروف تحليل الأزمة المالية التى تخضع لها القصة ، أو بعبارة أدق « الضعف النسبى للانتاج القصصى فى فرنسا » فيخلص مميزات القصص التى تأثر بها الجمهور تأثيراً ملحوظاً وهى قصص جان بول سارتر Jean-Paul Sartre والبير كامو Albert Camus وسيمون دى بوفوار Simone de Beauvoir فتلك القصص كتبها فلاسفة « ليخدموا بها غاية فلسفية مضمرة » وتصل بهذه الفكرة قصص لويس اراجون Louis Aragon التى « تريد أن تدعو إلى رأى سياسى أو توحى به » . ويلاحظ الكاتب فيما بعد أن تلك الأزمة يضاعفها « نمو عظيم لتأثير القصة الأجنبية ، وخاصة الأمريكية ، فى فرنسا » .

ويرى تيبرى مونييه أن أسباب ذلك النمو هى :

أولا : عنف الهجاء الاجتماعى (جون دوس باسوس John Dos Pasos) (وستاينبيك Steinbeck .)

ثانياً : حدة الملاحظة وتصوير المرئيات .

ثالثاً : امتزاج مذهب التحقيق بالروح الشعرية .

رابعاً : عنف الفن وتوحشه .

خامساً : طرق حديثة لعرض الكوارث المعاصرة .

وبعد أن عرض الكاتب لهذه الأسباب يقول :

« نرى إذن أن الأدب القصصى الأجنبى قد يتفوق على الفرنسى لا فى نظر نخبة القراء فحسب بل فى نظر العامة . » وأخيراً يعتقد تيبرى مونييه أنه : « إذا كانت هناك الآن أزمة فى القصة فلعلها عند المؤلفين لا عند القراء . »

من نيويورك

« الغد » *To Morrow* اغسطس سنة ١٩٤٦ .

فى هذه المجلة فصول قيمة ، نذكر منها « مدارس الرق فى أمريكا » بقلم ستريتجفلو بار (٢) وهو نقد للتعليم فى الولايات المتحدة الأمريكية . يقول الكاتب : « إن الأمريكيين جميعاً يولدون أحراراً ، ولكنهم يتعلمون فى مدارسهم كيف يسيرون سيرة العبيد » . والعيوب التى ينكرها الكاتب هى :

أولا — أن التعليم يثير شغف التلميذ لا بالمادة التى يدرسها بل بالدرس الذى يلقى عليه .

ثانياً — أن التعليم يمحى روح التنافس .

ثالثاً — أن التعليم يثير حاجة التلميذ إلى رضا المعلم عنه .

وهذه الحاجة خصلة من خصال الرق ، لأن « الاعتماد على رضا المعلم يلائم طبيعة العبد وهى الطاعة لارادة سيده دون أن تكون له

(١) Thierry Maulnier, *Le sort du roman.*

(٢) *America's Schools for Slaves,* by Stringfellow Barr.

هو إرادة خاصة » . وكل هذه العيوب التى تتلو المدارس فيها إنما تصنع الأغلال لأبناء أمريكا الحرة ، وبعبارة قد تظهر غريبة أن المدارس الأمريكية معاهد لانشاء العبيد لا لانشاء المواطنين الأحرار .

وفى المجلة نفسها مقال فى الفن عنوانه : « ا . ت . ا . هوفمان وقصص الأعاجيب » لبول روزنفلد (١) وفيه تحديد للقصص الذى أنشأه الكاتب الألمانى فى أول القرن التاسع عشر يقول صاحب المقال : « إنه إنتاج خاص متكلف قد أنتجه عقل شديد الذكاء ملتزم مذهب العقليين ، فيه مزاج رقيق عجيب ، مثير من حادثة شخصية مفزعة وأسطورة شخصية . . . غايتها إثارة الشوق وتلوين الحياة بتغريق الحقيقة وإحداث الخوف ». والكاتب يذكر بعض القصاص الذين عالجوا هذا الفن ومن بينهم أبوليوس Apuleius الذى عاش فى آخر الامبراطورية الرومانية وأنشأ قصة « الحمار الذهبى » ومنهم فى القرن التاسع عشر : نوديه Nodier وجيرارد دى نيرڤال Gérard de Nerval و ا . ا . بو E. A. Poe وبالزاك Balzac الخ . وفى عصرنا كافكا Kafka .

من كابول

مجلة « أفغانستان » ، العدد الأول (يناير ، فبراير ، مارس ١٩٤٦) هذه المجلة محررة بلغة أجنبية ، وغايتها أن تعرف عن أفغانستان وماضيها ، ومواردها ونموها المتوالى ، وشعبها ومطالبه المشروعة ، كما تقول مقدمة هذا العدد. فنلاحظ مقالا عنوانه نمو « التعليم العام فى أفغانستان » بقلم ريشتيا (٢) وفيه تتبين نجاح أفغانستان فى أمرين خطيرين : الاحتفاظ بالقديم والاندفاع الذى قوامه العلم الحديث والحضارة المعاصرة . واقرأ فى نفس العدد مقالا عن « أثر الأفغانستان فى الحضارة الاسلامية » بقلم م . غبار وهو بحث قيم حافل يصعب تلخيصه . وتظهر فيه أسماء شهيرة كعمر الخيام خوراسانى ، وابن قتيبة مروزى خوراسانى ، وبشار بن برد الخ ... ولنلاحظ أن بعض الأجانب المقيمين فى أفغانستان يشاركون فى تحرير هذه المجلة التى نهدى إليها تحياتنا وتقديرنا مخلصين .

من القاهرة

« مجلة القاهرة » La Revue du Caire أكتوبر ١٩٤٦ ، ليست من مجلات الغرب ولكنها تصدر باللغة الفرنسية فى القاهرة وخصص عدد أكتوبر منها لهذه الأسرة العظيمة الخالدة الماجدة أسرة ماسبيرو Maspero . وهو عدد قيم ممتع بالقياس إلى

---

(١) *E.T.A. Hoffmann and Fantastic Fiction*, **by Paul Rosenfeld.**

(٢) **S. Q. Reshtia,** *Développement de l'instruction publique en Afghanistan.*

القارىء المصرى خاصة . وقد كتب فيه بيير جوجيه Pierre Jouguet وإتيين دريوتون Etienne Drioton . وهو تذكار لمولد العالم العظيم ماسپيرو منذ مائةعام . وقد أتيحت لهذا العالم العظيم أسرة تلائم نبوغه وامتيازه . فابنه چان ماسپيرو Jean Maspero قد امتاز فى التاريخ البيزنطى وقتل فى الحرب العالمية الأولى ولما يتجاوز الثلاثين . وابنه الثانى هنرى ماسپيرو Henri Maspero قد امتاز فى الدراسات الصينية وتوفى معتقلا فى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية، وسقط ابنه الفتى صريعاً فى ميدان القتال. فالعدد كما ترى مخصص لأسرة عظيمة الخطر بمبادئها فى العلم وتضحيتها فى سبيل الوطن .

وتستطيع ان تقرأ فى هذا العدد فصولا ممتعة بقلم الأستاذ بيير جوجيه : تحية لجاستون ماسبيرو . وإيتين دريوتون — مكانة جاستون ماسپيرو فى علم الآثار المصرية . واقرأ بصفة، خاصة مقالين لجاستون ماسپيرو نفسه : أحدهما « الأسـواق والدكاكين فى مصر القديمة » وآخر « معبد الاقصر وما يستفاد من حسن زيارته » ومقالا آخر للأستاذ جوجيه عن چان ماسپيرو وشعراً لهذا المؤرخ نفسه ، ومقالا لهنرى ماسپيرو موضوعه « الحياة الخاصة فى الصين فى عصر الهان » ...

ونحن نشارك منشئ المجلة وأعوانه فى هذه التحية وهذا التقدير لأسرة ماسپيرو التى لم تخدم العلم والوطن الفرنسى وحدهما وإنما خدمت معهما مصر .

أمينة طه حسين

حكايات فارسية

كتاب يحمل الى قراء العربية عبيرا رقيقا حسن الموقع فى النفس من هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من رقة وفطنة وفكاهة

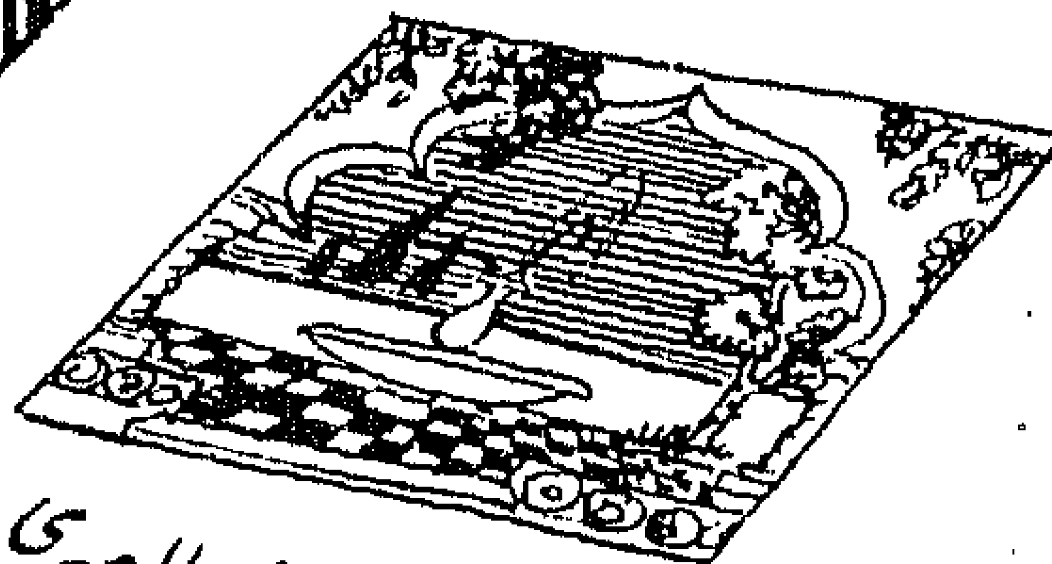


من حولنا

جيل من الناس فى أفراحهم وآلامهم ، يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه

يحيى الخشاب

حكايات فارسية



دار الكاتب المصرى

حكايات فارسية

٢٠ م

البريد ١٦ مليما

محمد سعيد العريان

من حولنا

قصص مصرية



دار الكاتب المصرى

فى
ثوب
أنيق
خلاب

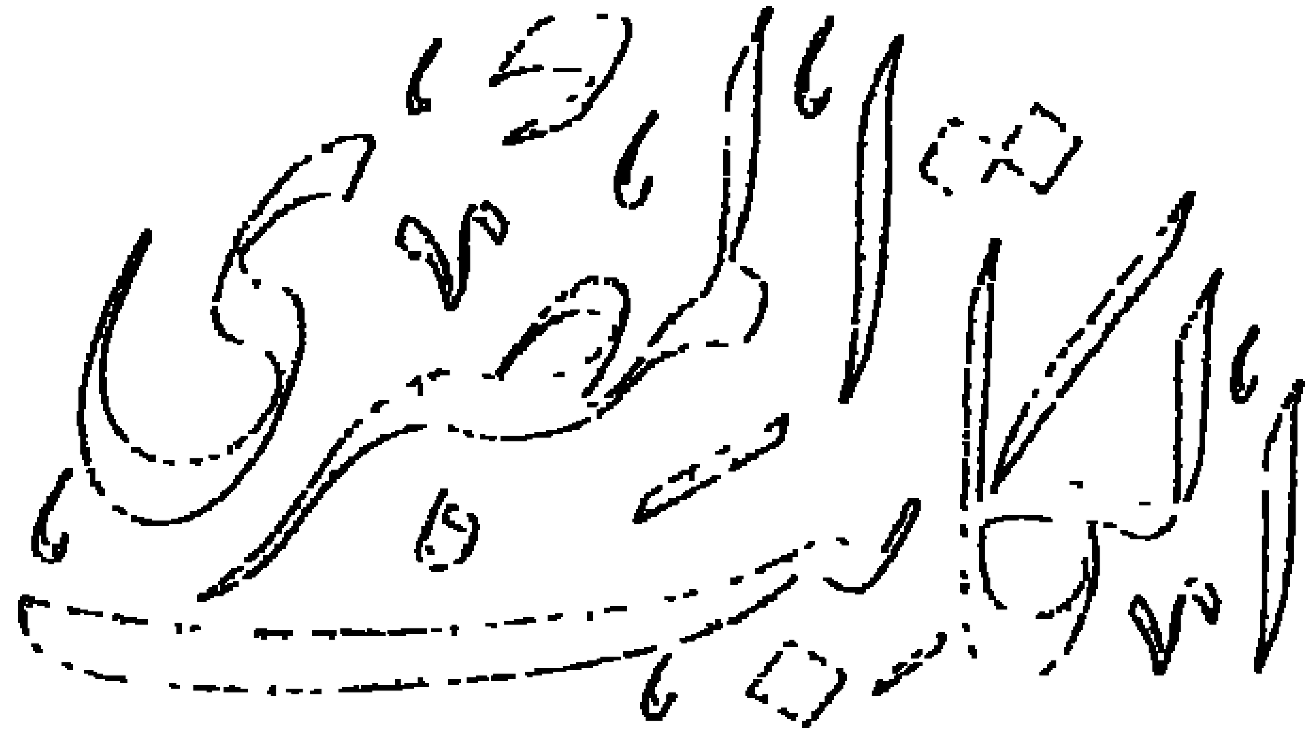
٢٥ م

البريد ٢٠ مليما



مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية

مجلد ٤ — عدد ١٥ ديسمبر ١٩٤٦



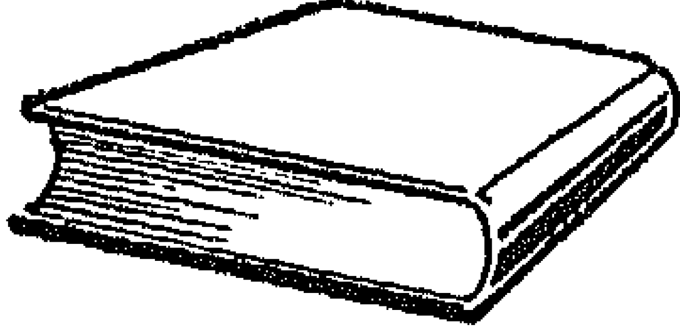
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة





الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها . يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.

5 Kantaret el Dekka Street

Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى



محـــرم ١٣٦٦ . ديسمبر ١٩٤٦

السـنة الثانيـة مجلد ٤ — عدد ١٥

ما وراء النهر(١)

وكان النهر يملى عليه حديثاً عجبا ، لأنه نهر عجيب بين الأنهار ، لا يعرف الناس له منبعاً ولا مصبًّا ، وإنما يرونه يسعى من الشرق إلى الغرب دون أن يستطيع أحـد أن يقول : من أين يأتى ؟ ولا إلى أين يجرى ؟ وقد حاول المستكشفون أن يعرفوا من أمره ماعرفوا من أمر الأنهار الأخرى فى الأرض فلم يبلغوا من ذلك شيئاً ، سايروا شاطئه من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، فوجدوا مدناً وقرى ، وصحارى ليس فيها مدن ولا قرى ، ولـكنهم انتهوا دائماً إلى غابات كثاف يضيع النهر بينها ، ولا سبيل إلى النفوذ منها ولا إلى تتبعه فيها . وكأنما خلقت هذه الغـابات فى الشرق والغرب لتحجب النهر عن المستكشفين وتعمى آثاره على المتتبعين . وهى تتكاثف وتتكاثف ، ويدنو بعض أشجارها من بعض ، ويلتف بعض أشجارها ببعض ، ويكاد بعض أشجارها يركب بعضا ، حتى كأن النهر إنما ينبع من بيئة مظلمة أشد الإظلام ، ليصب فى بيئة أخرى ليست أقل منها إظلاماً ولا حلوكا .

ولم يكن هذا هو الشىء الوحيد العجيب من أمر النهر ، وإنما كانت له خصلة أخرى ليست أقل من هذه الخصلة عجبا ؛ فقـد عرف الناس أحد شاطئيه وهو هذا الذى تقوم عليه الربوة ، وتنبسط فيه السهول الخصبة المأهولة والصحارى الجدبة المقفرة من الشمال . فأما شاطئه الآخر مما يلى الجنوب فقد جهله النـاس كما جهلوا منبع النهر ومصبه ، ولم يعرفوا منه إلا شيئين اثنين : أحدهما أن من وراء النهر وعلى أمد منه غير بعيد ، جبالا شاهقة ترتفع فى السماء ، وتبعـد فى فى الارتفاع حتى لا يكاد البصر يبلغ قممها إلا فى كثير من الجهد والمشـقة .

(١) الكاتب المصرى عدد ١٤ (نوفبر ١٩٤٦) .

والثانى أن العبور إلى هذا الشاطئ مخوف يملأ القلوب هولا ورعباً ؛ فقد تعارف الناس وتوارثوا منذ أقدم العصور ، أن الذين يعبرون إليه لا يعودون ، وهم من أجل ذلك لا يفكرون فى العبور إليه بل لا يتحدثون فى العبور إليه إلا فى كثير جداً من الحذر والتحفظ والاحتياط . ولعلهم لا يذكرونه بالتصريح وإنما يذكرونه بالإشارة والإيماء ، بل نشأ عن هذا أيضاً أن الناس كرهوا الدنو الشديد من شاطئه الشمالى المعروف ، وآثروا أن يقيموا مدنهم وقراهم على آماد بعيدة منه قد قدِّرت تقديراً . وما أكثر المدن والقرى التى اتخذت بينها وبين النهر حواجز كثافا من الشجر ، كأنما كان الناس يكرهون حتى أن تبلغ أبصارهم شاطئ النهر الذى يليهم ، لا نستثنى منهم إلا أهل هذه الربوة التى أشرفت على النهر وكادت تسعى إليه سعياً ؛ فقد كانوا لا يخافون النهر ولا يرهبونه ولا يكادون يحفلون به ، إما لأنهم كانوا من عنصر ممتاز لا يعرف الخوف ولا الرهب ولا يحفل بما يحفل به الناس ، وإما لأنهم كانوا مشغولين عنه بحياتهم الناعمة وعيشهم الغض وتهالكهم على ما يتاح لهم من لذات ، وإما لأنهم كانوا أذكى قلوبا وأنفذ بصائر من أن يقفوا عند ما تقف عنده العامة .

ومن يدرى ! لعل كل هذه الخصال مجتمعة وخصالا أخرى غيرها كانت تشغلهم بأنفسهم وتصدهم عما يُقبل الناس عليه من ألوان التفكير .

وكان الشاعر وحده بين أهل القصر وما يتصل به من الأجنحة والدور هو الذى يُعنَى بهذا النهر ويريد أن يستكشف أسراره ويتعمق دقائق أمره . ولكن للشعراء مذاهب فى البحث والاستقصاء لا تشبه مذاهب العلماء والفلاسفة إلا قليلا ؛ فلم يكن شاعرنا يتتبع شاطئ النهر ليعرف منبعه أو مصبه ، ولم يكن يحاول أن يعبر إلى شاطئه الآخر ليعرف ما وراء النهر ، وإنما كان يكتفى حين يتاح له شئ من فراغ بأن يجلس فى هذا الجوسق مشرفاً على النهر محدِّقاً فيه مطيلا النظر إليه ، يسأله ويلح فى السؤال ، ويستمليه ويسجل ما يملى عليه .

وكان النهر بخيلا بأسراره ، ضنيناً بدقائقه وحقائقه حتى على هذا الشاعر ، مع أن المعروف أن الأنهار تحب التحدث إلى الشعراء ؛ فكان الشاعر إذا سأل عن شىء من هذه الألغاز لم يرجع النهر عليه جوابا ، وإنما يتحدث إليه عن أسرار أخرى ، كانت الشمس تفضى بها إليه فى رسائلها الطوال التى كانت تقرؤها عليه منذ يسفر الصبح إلى أن يظلم الليل ، والتى كانت النجوم تفضى بها إليه فى

رسائل خاطفة متقطعة ترسلها إليه حين يغشى الليل ، والتى كان القمر يرسل بها إليه ضوءه الهادئ المستقر بين حين وحين ، والتى كان النسيم يهديها إليه فى الليل مرة وفى النهار مرة أخرى ، والتى كانت تعصف بها الريح أحياناً ويقصف بها الرعد أحيانا ، ويخفق بها البرق أحياناً أخرى . وربما أملى عليه بعض ما كانت تتحدث به أمواجه الهادئة المطمئنة من بعض النجوى .

وكان الشاعر يجد فى هذه الأحاديث متاعا ، ويسجل منها أطرافاً يحتفظ بأكثرها لنفسه ، وربما عرض أقلها على أهل القصر فرضوا حيناً وسخروا أحياناً .

وهو فى هذه الساعة مقبل على النهر يسأله ويتلقى أحاديثه ، بعينيه حينا إذ يرقب صفحته المضطربة فى هدوء ، وبأذنيه حيناً آخر إذ يسمع هذا الخرير الهادئ الذى يشبه نجوى المحبين . ولكن إقباله على النهر لا يتصل ؛ فهذا الخادم قد أقبل يحمل إليه القهوة التى طلبها إليه ، وهو لا يضع القهوة أمامه ثم ينصرف كما تعوّد أن يفعل فى كل يوم ، وإنما يقف صامتا أول الأمر ؛ ثم يقول : ما ينبغى أن يطول انتظار مولاي لك يا سيدى ، وإنما الخير إذا فرغت من قهوتك أن تستجيب لدعائه ؛ فقد أنسيت أن أنبئك بأنه كلفنى أن أوجهك إليه متى أقبلت ، وما أرى إلا أنه يجهل مقدمك إلى الآن .

قال الشاعر : فدعه يجهل مقدمى حتى أسعى إليه بعد قليل .

قال الخادم : لا تبطئ يا سيدى ، فما أرى إلا أنه شديد الحاجة إلى لقائك ، وأكبر الظن أنه لم ينم من ليلته ، وأن أمراً ذا بال ينغص عليه حياته .

قال الشاعر : وما ذاك ؟

قال الخادم : لا أدرى ! ولكنى أعلم أنه أنفق آخر الليل فى مكتبه ذاهباً جائيا ، وأنه لم يصب من إفطاره إلا القهوة ، وأنه كان مكدوداً مجهوداً يتكلف القوة والجلد ، وأحسب أن ابنه الشاب هو مصدر هذا الهم وأصل هذا العناء ، فإن له كما تعلم خطوباً لا تنتهى .

قال الشاعر : حسبك فقد فهمت عنك ، أنبئ مولاك بأنى سأرقى إليه بعد قليل .

ووقف الخادم لحظة لا يقول شيئا ، ولكنه يدير فى نفسه أن هذا الرجل لحمق يؤثر حديث الأنهار على حديث الناس ، ثم نظر فإذا الشاعر قد أعرض عنه

وأقبل على النهر ينظر إليه والقلم فى يده كأنه يستمليه ، فلم ير بدًّا من أنه ينصرف متباطئا وفى نفسه كثير من الغيظ .

وليس من شك فى أن حديث النهر كان أحسن موقعا فى نفس الشاعر من حديث هذا الخادم الذى لم يكن ينبئه بشىء جديد . فهو يعلم أن لذلك الفتى المترف خطوبا لا تنقضى ، بعضها يحدث فى القصر نفسه ، وبعضها يحدث فيما يتصل به من الأجنحة والدور ، وبعضها يحدث فى القرية المقيمة فى أسفل الربوة ، وبعضها يتجاوز القصر والقرية إلى أماكن قريبة أو بعيدة ، وهو يعلم أن هذه الخطوب كثيراً ما تشغل صاحب القصر وتثير فى نفسه ألوانا مختلفة من الشعور .

فهو مرة راض عنها ومبتسم لها ، يرى أن ابنه فتى قد نيف على العشرين ومن حق الشباب أن يلهو ويعبث . وهو مرة ضيق بها منكر لها ، يرى أن للهو حدوداً لا ينبغى أن يعدوها الفتيان مهما يكن حظهم من نشاط الشباب ، وهو مرة ساخط أشد السخط ثائر أعنف الثورة ، يرى أن ابنه قد أسرف فى تعدى الحدود وتجاوز الممكن من لهو الشباب . وهو إذا بلغ هذا الطور من أطوار الغضب لم يؤثر نفسه بنتائجه وإنما يشيع هذه النتائج من حوله ، ويريد أهلَ القصر جميعاً على أن يثوروا كما ثار ويسخطوا كما سخط ، ويُرهق امرأته من أمرها عسراً ، يحمّلها أوزار هذا الفتى الذى لا يعرف القصد ، ولا يستطيع أن يقف نفسه عندما ينبغى أن تقف عنده من الحدود .

يردّ ذلك إلى أن أمه لم تحسن تربيته ، ولم تعرف كيف تنشئه ، ولم تستطع قط أن تمتنع عن تدليله وتيسير كل ما يعرض له من أمر عسير

ثم إن صاحب القصر لا يشق على نفسه وعلى أهله وذوى خاصته وحدهم حين يتورط ابنه فى خطيئة من الخطايا ، وإنما هو معلن لثورته مشيع لسخطه ، يريد أن يُشرك الناس جميعاً والأشياء جميعاً فيما يجد . فهو يتجهم للزائرين ويلقاهم بوجه عابس بغيض . ويتحدث إليهم من طرف اللسان ؛ وما يزال يتكلف من ذلك فنونا وفنونا حتى يضطرهم إلى أن يسألوه عن أمره . فإذا فعلوا أنبأهم بهذه الأحداث الجسام التى يحدثها ابنه الطائش المفتون ، ومضى فى أحاديث لا آخر لها ، يجد فى ذلك تسرية عن نفسه ، ويجدون فيه إملالا لنفوسهم . ولكن لا بد مما ليس منه بد ؛ فقد ينبغى أن نقبل الأصدقاء على علاتهم ليقبلونا على علاتنا ، وأن نأخذهم كما هم ليأخذونا كما نحن .

والشاعر بالطبع أشد الناس تعرضاً لهذا السيل الجارف من الأحاديث عن هفوات الفتى ونزواته وأحداثه التى يحدثها هنا وهناك ، لمكانه القريب من صاحب القصر . فأى غرابة فى أن ينفر بنفسه بين حين وحين من هذا الامتحان ، ويخلو إلى نهره هذا العزيز فيسمع منـه ويقول له ! وأى غرابة فى أن يُعرض عن الخادم حين يريد أن يشق عليه بهذا الحديث فيقفه ثم يصرفه فى غير رقة ولا لين ! أليس يكفيه مايسمع من السيد ! ألم يبق إلا أن يشقيه الخدم أيضاً بهذه الأحاديث !

كانت أحاديث هذا الفتى إذن معادة مملولة بالقياس إليه على حين لم تكن أحاديث النهر معادة ولا مملولة ، وإن كانت شاقة عسيرة دائماً . فقـد كان النهر عصيًّا أبيا ، يتحدث بما يريد هو لا بما يريده سائلوه . وكان فى تلك الساعة يقرأ على شاعرنا ألوانا من رسائل اختلسها من ريح الشمال ، وكانت تحملها إلى ظلال قوم عبروا النهر ولم يعودوا ، وكانت هذه الرسائل تصور ما يضطرم فى بعض القلوب من لهيب الحزن والأسى ، وما يزهر فى بعضها الآخر من الذكريات ، وما يساور بعض النفوس من يأس يحبب عبور النهر إلى الأحياء الآمنين ، ومن حرص على الحياة يجعل عبور النهر مروّعا مخيفاً .

وكان الشاعر يستمع لهذه الرسائل ، ويستمتع بما فيها استماعا حزيناً شاحباً يلائم آمال الناس التى لاتنقضى وقدرتهم التى لا تمتد إلى أمد بعيد ، كما يلائم حبهم للحياة وشوقهم إلى من فارقوا الحياة ، وكما يلائم مايشيع فى قلوبهم من هذه القوة الضعيفة التى تعجز عن استبقاء الأشياء فتحتفظ بذكراها ، ومن هذا الضعف القوى الذى يأبى أن يسلم الذكرى للنسيان ، فيستبقيها وينميها ويتخذ منها وسائل لاستبقاء الحياة وتنمية ما فيها من نعيم قليل واحتمال ما فيها من بؤس كثير .

وقد هم الشاعر غير مرة أن يتقدم إلى النهر فى طى هذه الرسائل الإنسانية المتعة المحزنة ، ونشر رسائل أخرى ليس لها حظ من حزن ولها حظ عظيم من المتاع . فما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه رسائل يسعى بها النسيم بين أزهار الشمال النضرة وأزهار الجنوب الذاوية الذابلة ! وما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه أنباء السماء تحملها أشـعة النجوم أو ضوء القمر أو نور الشمس ! بل ما أكثر ما كان الشاعر يستحب هذه النجوى التى تـكون بين أمواج النهر متحدثة

بأنباء الشرق ذلك الذى لم يصل إليه أحد ، حاملة هذه الأنباء إلى الغرب الذى لا يصل إليه أحد .

ولكن النهر كان يأبى دائما أن يقرأ على الشاعر أو يملى عليه شيئاً غير ما يريده هو . وكان الشاعر يجد فى هذا الإباء والامتناع ما يشقيه ويرضيه فى وقت واحد : يشقيه لأنه يبعده عما يحب ، ويرضيه لأنه يأتيه بما يلذه ويمتعه . وهل حياة الشعراء إلا مزاج من الشقاء والرضا ! ولو خير الشاعر لاختار أن تتصل خلوته إلى النهر أطول وقت ممكن ، وأن يحتمل من شذوذه واستبداده ما شاء النهر أن يحتمل . ولكن الشاعر لم يكن مخيرا فى شئ . ومتى خير الشعراء وأصحاب الفنون فى شئ ! إنما هم عبيد الطبيعة ، تفرض عليهم ما فيها من جمال وقبح ومن نعيم وبؤس ، وتخيل إليهم أو يخيلون هم إلى أنفسهم أنهم أحرار يستنبطون من الطبيعة أسرارها ويصوغونها فى صيغهم الفنية المألوفة شعرا أو رسما أو نحتا أو تصويرا أو غناء أو إيقاعاً .

وليس أدل على ذلك من أن شاعرنا قد كان عبداً لهذا النهر ، ولم يكن يستطيع حتى أن ينعم بهذا الرق ، وإنما كان يصرف عنه من وقت إلى وقت بطارئ يطرأ أو طارق يطرق . وليس كل الطوارئ يمكن أن يدفع فى يسر . وليس كل الطارقين يمكن أن يرد فى لين أو عنف . وقد استطاع الشاعر أن يرد الخادم حين هم أن يصرفه عن النهر ، ولكن من له بأن يرد هذا الطارق الذى وضع يده فى رفق على كتفه ونشر فى الجو ضحكا عريضاً وهو يقول فى صوت متقطع : هأنتذا ! تخلو إلى نهرك لتقول له وتسمع منه . متى تنصرف عن أوهام الشعراء إلى ما يحيط بك من حقائق الحياة !

ويرفع الشاعر رأسه فيرى ابن صاحب القصر قد قام عن يمينه جميل المنظر رائع الطلعة معتدل القامة حاد النظرات ، قد امتلأ قوة ونشاطا ، وظهر على وجهه المشرق شئ من الجد الحزين حاول أن يخفيه بهذا الضحك العريض الذى كان ينشره من حوله فى كثير من التكلف .

ولست أخفى على القارئ أنى حائر أشد الحيرة فى أمر هذا الفتى ، كما أنى حائر أشد الحيرة فى أمر أهل الربوة جميعا ؛ فكلهم يلح على فى أن أجد له اسما يتسمى به ويميزه بين غيره من الناس . وكلهم يلح على فى أن الأشخاص لا يستكملون وجودهم إلا إذا عرفت أسماؤهم التى تحقق التمايز فيما بينهم وتخرجهم من هذا

الوجود الوهمى الذى يشبه العدم ، إلى وجود إلا يكن واقعا كل الوقوع فهو شئ بين بين ، أقرب إلى الواقع منه إلى الوهم ، وأدنى إلى الحقيقة منه إلى الخيال . وكلهم يلح علىّ فى أن القدماء الذين عاشوا بين النهرين فى بعض عصور التاريخ لم يكونوا مخطئين حين كانوا يرون أن اسم الرجل هو أخطر أجزاء حياته ، وحين كان هذا الرأى يذهب بهم إلى شئ من الغلو فيعتقدون أن لأسمائهم إذا نقشت على الجدران حظها من الحياة وحقها فى القربان ؛ لأنها تظل حية بعد موت أصحابها ، أو لأنها تختصر وتستجمع ما يمكن أن يبقى من حياة أصحابها .

فللأسماء خطرها إذن ، ويوشك الرجل الذى ليس له اسم ألا يكون موجوداً . وهم من أجل ذلك يتصايحون بى من كل وجه مطالبين بأن أسميهم بأسمائهم ليستمتعوا بالوجود الصحيح .

وما ينبغى أن تسألنى كيف يتصايحون وهم لم يوجدوا بعد ؛ فإنهم يتصايحون على نحو خاص لا يسمعه أحد غيرى . ولو أنى منحتهم أسماءهم لكان من الممكن أن يتجاوز تصايحهم أذنىّ إلى أذنيك .

وما أظنك تنكر أن الشخص الوحيد الذى استطعت أن تتصوره من أشخاص هذه القصة الذين مروا بك إلى الآن إنما هو شخص البستانى الذى سميته عثمان ، ولو لم أسمه لما تبينته . كما أنك لم تتبين إلى الآن شخص الشاعر على كثرة ما أضفت إليه من الصفات ، ولا شخص هذا الفتى الطارق على ما وصفت لك من منظره الجميل وطلعته الرائعة ووجهه المشرق الوضاء .

فهم لا يتجاوزون الإنصاف حين يطالبوننى بأن أسميهم بأسمائهم . ولكن ماذا أصنع وأنا أشد الناس ضيقاً بابتكار الأسماء ، لا يطاوعنى عقلى الضئيل ، ولا خيالى الكليل على هذا النحو من العبث . ثم أنا من جهة أخرى أكره أن أختار الأسماء ؛ لأنى أخشى أن أختار أسماء لها أشخاص قد اتخذوها لأنفسهم ، أو وسمهم بها آباؤهم ، وهذا أبغض الأشياء إلىّ ؛ فقد أنبأتك أن هذه القصة لم تقع أحداثها فى مصر ، ولا فى بلد متاخم أو مجاور لمصر ، كما يقول الناس فى هذه الأيام ، وإنما افترضت أن تكون أحداث القصة قد وقعت فى أسبانيا ، لا لأنها وقعت فى أسبانيا بالفعل ، فدون وقوعها فى أسبانيا خطوب وأهوال ، بل لأن أسبانيا هى الأرض التى تبنى فيها قصور الخيال والتى وجدت فيها تلك الربا التى ذكرها الشاعر الموشح حين طلب إلى السحب أن تجلل تيجانها بالحلى .

من أجل هذا كله أكره أن أسمى أهل هذه الربوة بأسمائهم ، وأخشى بنوع خاص أن يصرف بعض الناس هذه الأسماء وما يرون حولها من الحديث إلى أنفسهم ، فيظنوا أنى قد أردت بهم شراً وعرضت لهم من قريب أو من بعيد .

فإذا عاهدنى القراء على أن يؤمنوا أوثق الإيمان فيما بينهم وبين أنفسهم بأن هذه الربوة ليست قائمة فى مصر ولا فى البلاد المتاخمة أو المجاورة لها ، وبأن أهلها ليسوا مصريين ولا عرباً ولا شرقيين ، فقد أستطيع أن أجيب أشخاص القصة إلى ما يريدون ، وأهدى إلى كل واحد اسما يميزه ويمنحه حظه من الوجود الذى يطمع فيه ويطمح إليه ، وإن كان الوجود فى نفسه ليس شيئاً يستحق الطمع فيه أو الطموح إليه .

وليس ينبغى لك أن تظن أنى أمزح أو أداعب حين أغض من قيمة الوجود ؛ فلست أنا فى هذا مبتدئا ولا مبتكراً ، ولست فيه بدعا من الناس . وما أكثر الفلاسفة ، والشعراء الذين ينكرون قيمة الوجود ويرونه شراً أى شر ، ويودون لو أنهم لم يدفعوا إليه ، أو لو أنه لم يدفع إليهم .

وأنت تذكر بالطبع أن أبا العلاء تمنى غير مرة لو أن حواء ماتت قبل أن تمنح زوجها الولد أو لو أنها ماتت عقب ولادتها لابنها الأول . وأنت تذكر كذلك أن أبا العلاء ، ومن قبله فلاسفة كثيرون ، كان يرى النسل جناية لا ينبغى أن يجنيها الرجل العاقل الحازم ، وقد ظن بنفسه العقل والحزم ، فلم يقترف هذا الإثم ، ولم يتورط فى هذه الجناية .

ولو سمع لى أشخاص القصة وقبلوا نصحى لهم ومشورتى عليهم ، لما طمعوا فى الوجود ولما طمحوا إليه ، ولما أثقلوا على بهذا الإلحاح فى أن تكون لهم أسماء يعرفون بها ، كما أن لغيرهم من الناس أسماء يعرفون بها . ولكن أرسطاطاليس قد أخطأ تعريف الإنسان حين قال إنه حيوان ناطق . ولو قد وفق إلى الصواب لقال إنه حيوان أحمق . وليس أدل على حمقه من طمعه فى الوجود وطموحه إليه وحبه للحياة .

وما دام هؤلاء الأشخاص قد استوفوا أعظم حظ ممكن من الحمق فأبوا إلا أن تكون لهم أسماء ، فلنسم الشاعر راغبا ، ولنسم الفتى نعيما ، فأما أبوه فلنرجئ تسميته إلى أن نلقاه فى مكتبه ذاك الذى اتخذه لنفسه سجنا منذ آخر الليل .

قال الفتى للشاعر حين سكت عنه الضحك : قد كنت أبحث عنك لأودّعك ، فقد أزمعت السفر قبل أن يُقبل الليل ، وعزيز علىّ أن أحرم هذه الساعات الحلوة التى أخلو فيها إليك ، فأسمع ما تنشدنى من شعرك الرائع الجميل ، وما تقص علىّ من طرائف الأخبار ونوادرها .

قال الشاعر : وإنك لمسافر منذ اليوم ؟ وفيم هذا السفر الذى لم تنبئنا به ولم تهيئنا له ، ولم يقدّم القصر بين يديه هذه المقدمات التى تعودت أن تسبق سفرك بأيام طوال ؟

قال نعيم وهو يتكلف الضحك ويخفى سخرية مرة : فإنها المأساة ياسيدى ! إنها المأساة ! لقد زلزلت الأرض وغضبت السماء ، وأظلمت الدنيا وفسد فى حياة القصر كل شئ .

قال الشاعر : وما ذاك .

قال نعيم : ذاك أن الشيوخ ينسون الشباب ، أو قل إنهم يستبقون الشباب لأنفسهم ، ويستأثرون بما يتيح لأصحابه من فرصة ، وما يبيح لهم من تجاوز الحدود . يرون ذلك سائغاً حين يتصل بأشخاصهم ، ويرونه حراماً حين يتصل بغيرهم من الناس .

قال الشاعر : فإنى لم أفهم عنك إلى الآن .

قال نعيم : ولكنك قد قدّرت من غير شك أن قد حدث فى القصر حدث ؛ فأنت لم تلق أبى فى حديقته هذه الغلباء ، وجنته الفيحاء كما تعودت أن تلقاه فى كل يوم قبل أن يرتفع الضحى ، متنقلا بين زهره وشجره ، ملحًّا على بستانيه بالأمر والنهى والسؤال والاستقصاء ، حتى إذا أجهد سعيه وإلحاحه وحركته وسكونه وتشددت أنت عليه فى أن يريح نفسه ويريح بستانيه ويريحك أنت من هذا العناء ، أقبلتما معاً إلى هذا الجوسق أو إلى غيره من جواسق الحديقة ، فأنفقتما سائر الضحى فيما تحبان من الحديث .

ولا شك فى أنك قد أنكرت تخلف أبى عن موعده ، واحتجابه عن أخص الناس به وأكرمهم عليه . ولا شك أنك قد سألت عن ذلك فعرفت من أنبائه أطرافاً .

قال الشاعر : لم أعرف إلا أنه محتجب فى مكتبه ، وأنه طلب أن اوَجّه إليه متى أقبلت ، وقد غاظنى أن يحتجب الناس بين الجدران وتحت السقوف حين

يصفو الجو ويعذب النسيم ، ويدعونا الجمال إلى أن نستمتع به فى هذه الحديقة الرائعة النادرة ؛ فلم أسع إليه وإنما سعيت إلى النهر ، وكنت أريد أن أرقى إليه بعد ساعة تقصر أو تطول .

قال نعيم : فإن استطعت أن ترقى إليــه الآن فافعل ؛ فهو فى حاجة إلى من يؤنس وحدته ويسلى عزلته ويبدد عنــه هموماً ثقالا . وما أظن إلا أن حاجته هذه ستتصل وتتصل، فسأسافر حين يُقبل الأصيل . ولـكنى إن أسافر وحدى اليوم فسيتبعنى بعد أيام قوم نبتْ بهم الدار ولم يبق لهم فيها أرب . إنها المأساة يا سيدى ، إنها المأساة ! وإن شئت فقل إنه الجنون واختــلاط العقل .

ثم سكت لحظة كان يعبث فى أثنائها بسلسلة ذهبية قد علق بها جماعة من المفاتيح ، ثم قدّم إلى الشاعر سيجارة وأشعل لنفسه سيجارة أخرى، ورمى النهر بنظرة فيها كثير من السخط والغضب ، وأرسل فى الجو تنفساً كان يريد أن يكون عميقاً بعيداً . ولـكن الفتى تجمل وتحفظ وأبى أن يخرج عن طوره، فاكتفى بتنفس بعيد بعض الشىء ، وجعل ينظر إلى الدخان وهو يتلوى تلوياً خفيفاً فى الهواء ، ثم قال فى صوت هادئ لا يخلو من حنق وسخرية : ومع ذلك فقد كنت أرى أبى إلى الآن مستأنيا حليما .

قال الشاعر : أمفصح أنت لى آخر الأمر عما تريد ، ومعرض أنت عن هذه الألغاز ؟

قال الفتى فى صوت صاخب : تريد أن أفصح لك ؟ فاعلم أن أبى قد طردنى من القصر . وإن لم يكفك هذا فاعلم أنه لم يطردنى وحدى وإنما طرد معى قوماً آخرين ، أفهمت ؟ أرضيت ؟

قال الشاعر : لم أفهم شيئاً ولم أرض عن شىء ، وإنما ازددت جهلا إلى جهل ، وحيرة إلى حيرة . فكيف أقصاك أبوك عن القصر ؟ وفيم كان هذا الإقصاء ؟ وكيف تلقيت أمره هذا على أنه جد ، مع أنك تعلم أنه يجدّ الآن ليهزل بعد ساعة ، وأنه لا يسخط إلا ليرضى ، وأن من العسير حين يستمع إليه خلطاؤه أن يتبينوا أهازل هو أم جاد ؟

قال الفتى : فإنى لا أعلم أن الناس يتمازحون بالطلاق .

فوجم الشاعر حين وقعت هذه الـكلمة فى نفسه ، كما وجم الفتى حين جرى بهذه الـكلمة لسانه ، وأغرق الرجلان فى صمت عميق كئيب طويل .

قال الشاعر بعد حين : فقد كانت لهذا كله أسباب خطيرة حقا .

قال نعيم : إلى أقصى غايات الخطورة ! سرت بعض سيرته حين كان فى سنى ، وما ينبغى أن أقول : سرتُ بعض سيرته فى سنه التى بلغها الآن ؛ فقد يجب أن يكون الأبناء حراصاً على الأدب وحسن الذوق ورعاية اللياقة حين يتحدثون عن الآباء ، ولكنى على كل حال قد سرت بعض سيرته حين كان فى سنى ، وأخطأنى التوفيق فلم يتح لى أن أخفى عليه كل شئ ، وما كاد يظهر على بعض ما فعلت حتى ثارت ثائرته ، فأنكر وسخط ، وأغرق فى الإنكار والسخط ، ثم ارتقى إلى الوعيد والنذير ، وأسرف على نفسه وعلى أهله فى ذلك . فقيل له حين تجاوز طوره : فإن هذا الفتى لم يفعل إلا ما تعوّد أترابه أن يفعلوا وما كنت تفعل أنت حين كنت بين العشرين والثلاثين . هنالك لم يضبط نفسه ولم يملك أمره ، فأرسل كلمته المنكرة ، ثم اندفع إلى شئ يشبه أن يكون جنونا فأقسم جهد أيمانه لا رآنى الليل فى قصره هذا ولا على ربوته هذه . فأنا مسافر إذا كان الأصيل ، وسيلحق بى غيرى بعد يومين أو بعد أيام ؛ فقد ينبغى أن أهيئ الدار لاستقبالهم فى مستقرنا الجديد .

وهمّ الشاعر أن يتكلم ، ولكن نعيما مضى فى حديثه فقال : إنك رفيق والدى منذ صباه وشريكه فى هزله وجده ، فهل تعلم أنه لقى من أبيه مثل ما ألقى منه ؟ وهل تعلم أنه لم يُقبل على بعض لذاته كما أُقبل أنا على لذاتى ؟ وهل تعلم أنه وفق دائما لأن يخفى عبثه كله على أبيه ؟ أم هل تعلم أنه كغيره من الناس لها أثناء شبابه وجدّ ، وأسرف على نفسه وعلى أسرته فى اللهو أحيانا ، فأنكروا عليه فى رفق ، ونصحوا له فى حب ، ووجهوه إلى الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وأكاد أقطع بأنهم لم يبلغوا مما أرادوا شيئاً .

قال الشاعر فى شئ من العنف : حسبك ! فما ينبغى أن تقضى على أبيك .

قال نعيم : فهذه هى الجملة التى نسمعها دائما : ما ينبغى أن نقضى على آبائنا ، وما ينبغى أن نخالف عن أمرهم ، وما ينبغى أن نسوءهم بقول أو فعل ! هذه خصال فرضتها علينا التربية وفرضتها علينا الأخلاق وفرضها علينا الدين . ولكن أواثق أنت بأن الحياة لم تفرض على الآباء شيئاً بالقياس إلى أبنائهم يلائم هذه الخصال التى فرضت على الأبناء بالقياس إليهم ؟

قال الشاعر : فدعنا من الفلسفة واستقصاء البحث عن أحكام التربية

والأخلاق والدين ، وحدثنى عن هفوتك هذه التى هفوتها فجرّت علينا كل هذا البلاء العظيم . أحق إذن ما يقال من أنه قد كانت لك فى القرية خطوب ؟ فما عسى أن تكون هذه الخطوب ؟

قال نعيم : وما عسى أن تكون الخطوب التى تحدث لفتى فارغ مترف قد أقبل ينفق أشهراً بين أهله ، فهو يغدو ويروح لا همّ له إلا نفسه وإلا لذاته القريبة والبعيدة ، وكل شيء من حوله يغريه باللهو ويدفعه إليه ! وما أكثر ما يعبث الفتيان فلا تقف حركة الفلك ولا تغير الشمس مجراها فى السماء ! إنما هى فتاة من أهل القرية راقنى منظرها وفتننى سحر لحظها ، فصبت إليها نفسى ، وانتهى الأمر بنا إلى غايته من الإثم . لم أتحرّج أنا ، ومتى تحرج السيد من اللهو بإحدى إمائه ! ولم تتحفظ هى ! ومتى تحفظت الأمة فلم تستجب لأحد سادتها !

قال الشاعر مروّعا : حسبك ، حسبك ! لستَ سيداً وليست أمة ، وإنما امتزت عليها بثروتك ومكانك الاجتماعى ، فأسرفت على نفسك وأسرفت عليها : غررتها فاغترت لك ، وما كان لك أن تخدعها ، وما كان لها أن تنخدع .

قال نعيم : ولكنى خدعتها فانخدعت .

قال الشاعر : فأنت تجنى الآن ثمرة هذا الظلم .

قال نعيم : فإنى أود لو أعلم أنكم لاتظلمون أهل القرية ، ولاتعنفون بهم ، ولاتشتطون عليهم ، ولاتظلمونهم ألوانا أخرى من الظلم ليست أقل من هذا الإثم الذى اقترفته خطراً ، ولا أهون منه شأنا ، ولا أضعف منه تأثيراً فى حياتهم كلها .

إنكم تستذلونهم وتستغلونهم ، وتضطرونهم إلى البؤس وتفرضون عليهم الحرمان ، تكلفونهم ماتكلفونهم من ضروب الجهد والعناء ، حتى إذا آتى جهدهم ثمره وانتهى عناؤهم إلى نتيجته ، أخذتم خير ماتثمر الأرض على أيديهم فآثرتم به أنفسكم من دونهم واستمتعتم بنعيمه ، وهم ينظرون إليكم من قريتهم تلك التى توشك أن تكون قطعة من الجحيم ، وأنتم لاترون بهذا بأساً ، ولا تجدون فى أنفسكم منه حرجا . ولو استطعتم أن تزدادوا ظلماً لهم وإثقالا عليهم لما تورعتم عن ذلك ولا زهدتم فيه ، ولكنكم تعصرونهم حتى لاتتركوا فيهم معتصراً ، ثم لاتجدون فى أنفسكم إلا الرضا ، ولا تحسون فى قلوبكم إلا الطمأنينة . تقبلون على هذا مصبحين ، وتقبلون على هذا ممسين ، وتنعمون بثمره هذا بين الصباح والمساء ، وتنامون هادئين غير حافلين بهذا بين المساء والصباح .

وددت لو أعلم أن أهل القرية يجدون من اللذة فى استثمار الأرض لكم ورفع ثمرات الأرض إليكم ، واضطرارهم إلى الحرمان والبؤس ، مثل ما وجدت هذه الفتاة من النعيم والرضا حين خدعتها فانخدعت ، وحين غريتها فاستجابت للإغراء .

إنى ياسيدى لا أجحد أنى تجاوزت حدود الخلق والدين ، واقترفت إثما من الحق علىّ أن أمحو آثاره ، ولكنى فى سبيل هذا كله لم أظلم ضحيتى وحدها ، وإنما ظلمت معها نفسى ، واعترفت بهذا الظلم فأصلحت منه ما استطعت إصلاحه : قدّمت إلى هذه الفتاة كثيراً من الطرف وفنونا من الهدايا ، رفعتها إلى نفسى أو نزلت إليها ، عشنا حيناً من الدهر عيشة سواء لم أكن سيداً ولم تكن أمة ، وإنما كنت عاشقاً خايلا ، وكانت عاشقة خليلة . وأنت شاعر ياسيدى تعرف أن الحب يغير الأوضاع بين المحبين ، فيجعل السيد عبداً والعبد سيداً .

حدثنى عما تقدّمون من الخير والبر إلى أهل هذه القرية حين تسخّرونهم فى غير رفق ولا لين ، وفى غير محبة ولا مودة ، وفى غير إنصاف ولا عدل لمنافعكم ؛ وحين تستأثرون من دونهم بثمرة ما يبذلون من جهد ، وما يحتملون من عناء .

إن أرض القرية لخصبة تنبت الغنى ، ولكنها تنبت الغنى لكم ، ولا تنبت لأهلها إلا فقراً ، وبؤساً ، وحرماناً . وإنكم لتعلمون ذلك وتقبلون عليه عن تعمد له ورغبة فيه ، لا تتحرّجون ولا يخطر لكم أن تتحرجوا ؛ فإن لامكم فى ذلك لائم أو عابكم عليه عائب دعوتم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ونظرتم إلى أنفسكم كأنكم الضحايا ، وإلى لائميكم والعائبين عليكم كأنهم الأعداء المغيرون . فما لكم لا تحلّون الحلال كله ولا تحرّمون الحرام كله ، وإنما تتبعون فيما تحلون وما تحرمون أهواءكم ومنافعكم لا ما أحلّ الله ولا ما حرّم !

ثم حدّثنى أواثق أنت بأنكم لا تستحلون لأنفسكم حين تسنح لكم الفرص ما تحرمون على غيركم ؟ أواثق أنت بأن أبى إنما يسخط علىّ غيرة على الحق وغضباً للحرمات ورعاية للخلق والدين ؟ أما أنا فما أرى أنه يسخط علىّ إلا ضنًّا بى أن أنزل إلى مكانة دون مكانتى ، وخوفاً علىّ أن أتجاوز بهذا الحب طور المجون واللهو وأرتفع به إلى طور آخر يخشاه كل الخشية ويأباه أشد الإباء . ولو قد حدثته بأنى أريد أن أتخذ هذه الفتاة لى زوجا لجنّ جنونه وضل ضلاله . وثق بأنه لم يبلغ من الغضب ما بلغ إلا لأنه أشفق أن أتحدث

إليه هذا الحديث . وآية ذلك أنه لم يلمني ولن يلومني حين رآني وحين يراني أداعب وألاعب فتيات من أسر ممتازة كأسرتنا الممتازة . إنه يراني لذلك كفؤا ، ويرى هذه الأسر موضعا لصهره ؛ فليس عليه بأس أن رآني أقع في شرك هذه الفتاة أو تلك ، ولعله يسعى ويدبر الأمر لأقع في شرك هذه الفتاة أو تلك . أسرة ممتازة تُصهر إلى أسرة ممتازة ، ومال يجمع إلى مال ، وفتى كريم يقترن بفتاة كريمة . كل هـذه أمور ترضون عنها وتسعون إليها ، تنعمون إن انتهت إلى الخير ، ولا تبتئسون إن انتهت إلى الشر من حق الشباب أن يمضي في طريقه التي قسمت له ، ولـكنهم تمايزوا بين الطرق التي قسمت للشباب ، فللأغنياء منهم طريق ، وللفقراء منهم طريق ، وللبائسين منهم طرق لا تحصى .

ثم أطرق الفتى إطراقة طويلة لم يكد الشاعر ينتبه إليها ؛ لأنه كان مغرقا في الذهول منذ اندفع الفتى في حديثه هذا الجريء العنيف الطويل . ورفع الفتى رأسه بعد حين باسماً للشاعر وهو يقول : عُدْ إلى نفسك أو أعِدْ نفسك إليك ؛ فليس في الأمر ما يدعو إلى هذا الوجوم . إن الأمر أيسر جداً مما تظن . إني خدعت خديجة ابنة الحذّاء فانخدعت ، ودعوتها فاستجابت . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما سخط أبي ولا ثار ، ولـكان من اليسير أن نرضي الفتاة ببعض الهدايا ، وأن نرضي أباها ببعض البر أو ببعض الابتسام ، وكان من اليسير أن أسافر فأطيل الغيبة فأنسى أنا وتنسى هي ، ويلتمس لها الزوج من طبقتها هنا أو هناك ، ويلقى الستار على مأساة تحدث الآلاف من أمثالها في كل عام . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، وإنما وقعت الفتاة من نفسي موقعاً خاصاً ، واستقر حبها في قلبي استقراراً مكينا ؛ فلست أرى من الاقتران بها بدّاً . ولم أتحدث بذلك إلى أبي ، ولـكنه أحس ميلي إليه وتفكيري فيه . نهاني عن هذه الفتاة فلم أنته ، وأغراني بغيرها من بنات طبقتنا فلم يكن لإغرائه في نفسي صدى ، ثم أنذر فلم يغن النذير ، وحذّر فلم ينفع التحذير ، فقال كلمته التي قالها ، وفعل فعلته التي فعلها حين أخرجه الغضب عن طور العقلاء .

وقد قلت لك آنفا إني كنت أبحث عنك لأودعك قبل الرحيل . وهذا حق ، ولـكن هناك حقاً آخر لم أقله لك ؛ وقد كنت أبحث عنك لأقوله لك أيضاً . وبعد فإني سأسافر إذا دنا الأصيل ، وسيتبعني قوم آخرون ، ولكن هناك قوما آخرين

قد سبقونى إلى السفر ، وسألقاهم فى العاصمة . ولن يمضى الأمر بينى وبينهم كما مضى إلى الآن ، ولكنى سأتخذ خديجة لى زوجا . فإن استطعت وإن أردت أن تلقى هذا النبأ الخطير إلى أبى فى رفق ، فافعل ، وإن عجزت أو أبيت فسيأتيه النبأ من طريق لا رفق فيها ولا لين .

وهمّ الشاعر أن يقف الفتى وأن يجادله فى بعض هذا الأمر ، وأن يرده إلى شىء من الرشد ، ولكن الفتى اندفع فى حديثه لايلوى على شىء قائلا : لاتتكلف مشقة ولا جهداً فى إقناعى بغير ما تممت عليه ؛ فإنك لن تبلغ من ذلك شيئاً . وإذا لم يكن بد من أن تبذل الجهد وتحتمل المشقة فافعل ذلك فى العناية بهذا الشيخ الذى سيعيش وحيداً فى قصره هذا الفخم الضخم بعد أن ينصرف عنه أهله ، وفى إعداده مترفقاً به لتلقّى هذا النبأ الذى سينتهى إليه بعد أيام ما أظنها ستطول .

وهنا صمت الفتى لحظة ، ثم لم يلبث أن اندفع فى ضحك متصل ، ولكنه ضحك لايخلو من حزن ، ثم قال : وأكبر الظن أنك لن تحتمل كثيراً من العناء فى تعزية الشيخ عن هذه الخطوب ؛ فانه شيخ قد احتفظ بفضل من شباب . وما أشك فى أن الملل قد وجد إلى نفسه سبيلا ، وما أشك فى أنه يدير فى رأسه أمراً ذا بال ، وما أشك فى أن هذه الكلمة البغيضة التى انطلق بها لسانه حين تقدم الليل قد مدت له أسبابا وفتحت له أبواباً .

ثم وثب الفتى كأنما دفع إلى الوثوب دفعاً وانحنى على الشاعر فألقى على رأسه قبلة سريعة خاطفة ، ومضى أمامه لا يلتفت ولا يلوى على شىء .

وظل الشاعر واجماً لحظات ، قد أخذه شىء يشبه الدوار لكثرة ماسمع ولثقل ماسمع ، ثم ثابت نفسه إليه شيئاً فشيئاً ، وأراد أن يلقى نظرة إلى النهر ولكنه رأى نفسه ينهض متثاقلا ، ثم يرقى إلى القصر متباطئا وقد أنسى عادته الحبيبة إليه فلم ينحن على العصا ، ولم يمش على ثلاث .

طه حسين

[يتبع]

فى أفق السياسة العالمية

أمريكا والشرق الأقصى

ترك چورج واشنجتون بطل الاستقلال الأمريكى قبل وفاته ، وصية سياسية لخلفائه ، كانت الدعامة الأولى لمبدأ منرو ، ولسياسة العزلة التى اعتنقها الشعب الأمريكى وارتبط بها سياسيوه حتى أوائل الحرب الأخيرة . فقد قال واشنجتون — فيما قاله فى خطبة الوداع — محذراً مواطنيه عواقب الاشتباك فى السياسة الأوربية : « إن لأوربا مصالح معينة لا تربطنا بها أية رابطة وإذا ربطتنا فمن بعيد جداً ، وستنشأ من هذه المصالح مشاكل وخلافات متواصلة تشتغل بها أوربا ، وهى فى جوهرها مسائل غريبة عن مصالحنا كل الغرابة » . ولقد حرص الأمريكيون على تنفيذ هذه الوصية حرصاً يدعو حقاً إلى الدهشة ؛ فقد كانت تربطهم بدول أوربا أواصر القرابة فى الجنس واللغة والدين ، ومع ذلك فإنهم فى سياستهم لم يولوا وجوههم قط صوب أوربا ؛ فلم يشتركوا فى حروب نابليون ولا حضروا مؤتمر ڤينا أو واحداً من المؤتمرات التى تلت . حتى إذا ما قرر أحد هذه المؤتمرات المنعقد فى ڤيرونا سنة ١٨٢٢ أن تتدخل فرنسا بالقوة لقمع الثورة فى أسبانيا على الملك فرديناند السابع ، خشيت الولايات المتحدة أن تكون هذه الحركة مقدمة لتدخل فرنسا أو غيرها من الدول الأوربية الكبرى فى شؤون المستعمرات الأسبانية ، التى أدركتها الثورة أيضاً فى الوقت نفسه على اسبانيا ، وأزمعت إعلان استقلالها عنها . وحينذاك أعان رئيس الولايات المتحدة چيمس منرو بالاتفاق مع كاننج الوزير الانجليزى مبدأ منرو الشهير الذى أغلق باب العالم الجديد فى وجه الاستعمار الأوربى ، وجعل من أمريكا منطقة حراما على دول أوربا ، ومن شؤونها حقاً سائغاً للولايات المتحدة دون غيرها .

على أن الولايات المتحدة إذا كانت قد نفذت وصية واشنجتون فيما يخص أوربا ، فإنها رنت ببصرها نحو المحيط الهادى غربا ، وما برحت تهتم بشؤونه وشؤون سواحل آسيا فى الشرق الأقصى إلى الآن وقد يبدو للناظر إلى الخريطة

لأول وهلة أن ما يفصل أمريكا عن آسيا عبر المحيط الهادى لا يقل عن ضعف المسافة بين أمريكا وأوربا . وهذا حق ، ولكنك إذا دققت النظر تبين لك أنه لا يفصل إقليم الأسكا التابع للولايات المتحدة عن سيبريا التابعة لروسيا فى المنطقة المتجمدة الشمالية إلا بوغاز بيرنج وعرضه لا يزيد على ٥٦ ميلا . ولا تزيد المسافة بين جزر الوشيان التابعة للولايات المتحدة أيضاً وشبه جزيرة كمآتشكا شرقى سيبريا سوى بضع مئات من الأميال .

وكان أول عهد الولايات المتحدة بالتدخل فى شؤون الشرق الأقصى فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؛ إذ أرسلت الحكومة إلى اليابان الكومودور پرى Perry فى سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٤ على رأس قوة بحرية عمادها عشر سفن وألفا رجل ، وطلب إلى «الشوجن» رئيس حكومة البلاد إذ ذاك عقد معاهدة تجارية تجيز للسفن الأمريكية وللتجار الأمريكيين الإقامة ببعض الثغور اليابانية ، وتسمح بقبول قناصل يمثلون الحكومة الأمريكية فى هذه الثغور ، فقبلت اليابان هذه العروض بعد تردد ، وكان هذا فاتحة العلاقات الدولية بين اليابان والخارج ؛ إذ ما لبثت روسيا وانجلترا وهولندة وفرنسا أن حذت حذو الولايات المتحدة وطالبت بمثل هذه المزايا لمواطنيها . وفى هذه الأثناء أو قبلها بقليل كانت الحكومة الإنجليزية قد تدخلت بالقوة فى شؤون الصين وأجبرت حكومتها على فتح خمسة ثغور للتجار الأجانب ، وكانت الولايات المتحدة أسرع الدول إفادة من هذا الامتياز .

وما دعا الأمريكيين إلى ارتياد المحيط الهادى والزج بأنفسهم وسط شعوب شرقى آسيا إلا غريزتهم التجارية ، ورغبتهم فى ألا تفلت من نفوذهم هذه المناطق البكر ، الشاسعة فى مداها ، الغنية بمواردها الكامنة ، الآهلة بمئات الملايين من الناس .

وليس معنى هذا أن الولايات المتحدة كانت تزهد فى التوسع والاستعمار ، ولا تريد أن تتشبه بدول أوربا الكبرى ، فيكون لها أسواق تسيطر عليها وأساطيل تجوب البحار ، وقواعد تلجأ إليها عند الحاجة وتمدها بالغذاء والوقود ؛ فقد اجتازت الولايات المتحدة فى أواخر القرن التاسع عشر مرحلة التطور الصناعى ، وبلغت مصنوعاتها ومنتجاتها من الوفرة والجودة درجة دعت القوم إلى البحث عن ميادين جديدة لتصريف الفائض منها ، فلم تلبث أن وجدتها فى الشرق الأقصى . وعلى ذلك جعلت تقوّى مركزها فى المحيط الهادى تدريجا

فاشترت من روسيا سنة ١٨٦٧ شبه جزيرة ألسكا في الشمال الغربي من كندا ، وفي سنة ١٨٩٣ ضمت إليها جزيرة هوايي . وفي أوائل القرن العشرين قامت الولايات المتحدة بحفر قناة بناما لتصل بين المحيطين الأطلنطي والهادى وتقرب بينهما المسافات البحرية ، وقد عقدت مع جمهورية بناما اتفاقا يضمن لها احتكار منطقة القناة لنفسها دون غيرها .

وفي نهاية القرن التاسع عشر حدث أن اشتد الجفاء بين أسبانيا والولايات المتحدة بشأن جزيرة كوبا التي كانت تابعة لأسبانيا وثائرة عليها ، وكانت الولايات المتحدة تريد أن تحررها من ربقة التبعية الأسبانية حتى تأمن جانبها وتدخل في نطاقها الأمريكي . وعلى ذلك سرعان ماأدى النزاع بينهما إلى الحرب . وكان بعض الناس يظنون أن أهل الولايات المتحدة قوم جبلوا على حب المال ، وأنه لاقبل لهم بمحاربة دولة أوربية قديمة كأسبانيا ، ولكن الأمريكيين خيبوا ظن العالم القديم ، وانتصروا على أسبانيا بحراً عند سنتياجو بجزيرة كوبا ، وعند مانلا عاصمة جزر الفلبين التي كانت تابعة لأسبانيا . وعند ذلك بدأت مفاوضات الصلح بوساطة فرنسا ، ونزلت أسبانيا عن جزيرتي كوبا وبورتوريكو في المحيط الأطلنطي ، وعن جزر الفلبين وجوام في المحيط الهادى ، وذلك مقابل عشرين مليون دولار لأسبانيا .

وبانتصار الولايات المتحدة على أسبانيا واحتلالها جزر الفلبين دخلت الولايات المتحدة في طور جديد من سياستها الخارجية . فبينما كانت في عزلة من ناحية أوربا ، إذا هي في الشرق الأقصى قد انتهجت خطة تنبئ بتصميم أكيد على أن يكون لها مركز مرموق في شؤون الشرق الأقصى والمحيط الهادى الشمالي . وعلى ذلك انخرطت الولايات المتحدة عقب انتصارها في سلك الدول العظمى واتخذت من جزر الفلبين مقاما تشرف منه على بلاد الصين . ولم تعمد أمريكا كبريطانيا في سياستها نحو الصين إلى تجارة الأفيون تنشره بين الناس سراً وعلانية ، أو إلى القوة الحربية تلجأ إليها ضد الصين كلما قام الخلاف بين حكومة الصين والتجار الأجانب ، وإنما شادت سياستها على رسالة العلم والدين تنشرها في جمعياتها ومعاهدها ومستشفياتها ، وعلى تبادل التجارة الشريفة ، وأخيراً على ميول العطف والمساعدة التي كانت تظهرها في المناسبات المختلفة نحو البلاد وأهلها . فمثلا حين قامت حرب الملاكمين الصينيين في آخر القرن الماضي ضد

الأجانب وانهزم الصينيون وفرضت عليهم غرامات ثقيلة لتعويض الأجانب عن خسائرهم ، نزلت الولايات المتحدة عن نحو نصف نصيبها من التعويض معلنة أنه يزيد على قيمة خسائرها . ولما تكاثرت الدول على الصين ، كل تريد أن تلتهم جزءاً على الساحل الشرقي يكون دائرة نفوذ لها ، أبت أمريكا أن يكون لها شيء في هذه الاعتداءات ، وظلت إلى النهاية تحترم استقلال الصين ووحدة كيانها ، وتحول بقدر طاقتها دون تمزيق أوصالها واقتسام أراضيها .

وكانت اليابان وروسيا أكثر الدول طمعاً في الصين بعد أن بدا ضعفها وفساد نظامها على أثر انهزامها أمام الأجانب مرة وأخرى . أما اليابان فإنها أفادت من الأجانب ونظمهم وصناعاتهم شيئاً كثيراً ، فسارعت إلى إلغاء نظام الإقطاع وأرسلت بعثاتها المختلفة إلى الخارج ، وجعلت تصلح من شؤونها وتؤسس نهضتها ، بل قفزتها الحديثة ، على أسس متينة من قوتي البر والبحر ، وتقدم الصناعة والتجارة . وكان طبيعياً بعد أن نما استعدادها أن تجرب قوتها في ميدان تعتبره مصدر الخطر عليها ، أي في كوريا التابعة للصين والقريبة من سواحلها والتي إذا احتلتها دولة أجنبية استطاعت أن تهدد اليابان وتعرض استقلالها للخطر . لذلك أخذت اليابان تتدخل في شؤون كوريا ، وسرعان ما بدأ الاحتكاك بين الصين واليابان ، فقامت الحرب بينهما ، وانتهت بعد بضعة شهور بانتصار اليابان سنة ١٨٩٥ . وقد نزلت الصين لليابان عن جزيرتي فورموزا وبسكادورس ، واعترفت الصين باستقلال كوريا عنها ، فأصبحت تحت رحمة اليابان ، وقد ضمتها إليها في سنة ١٩١٠ .

أما روسيا فأخذت منذ منتصف القرن التاسع عشر تزحف شرقاً داخل هضاب آسيا وأوديتها حتى ضمت جزيرة سخالين في سنة ١٨٧٦ ، ثم بدأت تصل أطراف أملاكها عبر سيبريا من جبال أورال إلى ساحل المحيط الهادى بإنشاء سكة حديد سيبريا ومدها داخل منشوريا إلى ميناء بورت أرثر وفلاديفستك بعد الاتفاق مع الصين . وبذلك أصبحت روسيا جارة شديدة الخطر لا على الصين حسب بل على اليابان أيضاً . لذلك صممت اليابان في دخيلة نفسها على الاستعداد لمحاربة روسيا ، وكانت اليابان تعتبر نفسها أولى الناس بحق الارتفاق بالصين اعتماداً على صلة القربى في الجنس والدين والجيرة . وقد مهدت للحرب باتفاقها مع انجلترا سنة ١٩٠٢ فارتفعت بذلك فجأة إلى مصاف الدول العظمى . ولما كسبت الحرب

براً وبحراً من روسيا فى سنة ١٩٠٥ أصبحت مع الولايات المتحدة أقوى دول المحيط الهادى .

وكانت الولايات المتحدة هى التى توسطت فى عقد الصلح بين المتحاربين . ولم تفد اليابان من الحرب سوى جلاء روسيا عن منشوريا وعن نصف جزيرة سخالين الجنوبى، وحلت اليابان محل روسيا فى شبه جزيرة لياوتنج وبورت آرثر، وانفسح المجال أمامها فى كوريا ومنشوريا . وبعد ما كانت روسيا مصدر الخطر فى آسيا على النفوذ الإنجليزى أضحت روسيا حليفة لبريطانيا فى ١٩٠٧، وتحول الاتفاق الإنجليزى اليابانى عقب انتصار اليابان إلى محالفة حربية دفاعية . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أن تقف أمريكا بمعزل عن هذه المحالفات تنقم على روسيا رجعيتها وأساليبها الأتقراطية فى الحكم، وعلى اليابان شراهتها ونزوح اليابانيين بكثرة إلى سواحل المحيط الهادى فى أمريكا ينافسون أهل البلاد فى أرزاقهم ومعاشهم . وهكذا مضت الولايات المتحدة فى عزلتها السياسية القديمة لا ترسم لنفسها خطة عملية صريحة تنهجها إذا ما قضت عليها التزاماتها فى الشرق الأقصى بالعمل ؛ فلا أساطيل قوية أنشأت ، ولا قواعد حصنت ، ولا محالفات مع الدول الصديقة عقدت . وانبنى على هذا الإهمال الفاضح لمسئولياتها أنها أرغمت فى الحربين العالميتين على التدخل بغير استعداد . ولو قد واجهت الحقائق وأنجزت شيئاً مما ذكرنا لأمكن تفادى الكارثتين ولو إلى حد ما . ولما قامت الحرب العالمية الأولى كانت كل من روسيا واليابان إلى جانب الحلفاء ، ولزمت الولايات المتحدة حيدتها طوعا لسياستها العتيقة، إلى أن كثر اعتداء الغواصات الألمانية على السفن الأمريكية، وتركت روسيا ميدان الحرب أثر ثورتها الكبرى فى سنة ١٩١٧، عند ذلك لم ير الرئيس ولسون بدًّا من دخول الحرب إلى جانب الحلفاء، فأهاب بمواطنيه أن يمتشقوا الحسام لا كمواطنين أمريكيين فحسب بل كمواطنين عالميين يعملون على تحرير العالم من عناصر الظلم والطغيان . وقد استجاب الشعب الأمريكى لنداء رئيسهم عن اقتناع وطيب خاطر ، كما استجابت له حكومة الصين الجمهورية الجديدة فجعلها تعلن الحرب على ألمانيا حتى لا يطمع فيها طامع إذا انتهت الحرب بانتصار الحلفاء .

ولكن ما كادت تنتهى الحرب حتى بدا للعالم أن أمريكا التى عجلت بانتصار الحلفاء تزمع أن تعود إلى عزلتها السياسية ، وتترك دول العالم القديم تتطاحن فيما

بينها بشأن الأسلاب الإقليمية . فخرجت اليابان من الحرب العالمية الأولى ظافرة بجزر المحيط الهادى الواقعة شمالى خط الاستواء التى كانت بيد ألمانيا قبل الحرب. ومع أن اليابان قد أخذت هذه الجزر عن طريق الانتداب فإنها حصنتها واتخذت منها قواعد وثبت منها فى ديسمبر ١٩٤١ على پيرل هاربر القاعدة البحرية الأمريكية فى جزيرة هوايى ؛ فكان ترك هذه الجزر بيد اليابان من أهم العوامل التى ساعدت على إشعال نار الحرب الأخيرة فى المحيط الهادى . وقد حاولت الولايات المتحدة أن تسترد اعتبارها فتدعو الدول صاحبات المصالح فى المحيط الهادى إلى الاجتماع فى مؤتمر واشنجتون البحرى سنة ١٩٢٢ ، فكانت النتيجة اعتراف الدول بما فيها الولايات المتحدة بحق اليابان فى الانتداب على هذه الجزر ، وتأييد سياسة الباب المفتوح فى الصين ، وانسحاب اليابان من منشوريا ، وانتهاء العمل بالمحالفة الانجليزية اليابانية والاستعاضة عنها بمعاهدة رباعية تجمع بين الولايات المتحدة واليابان وانجلترا وفرنسا . وقد كان إلغاء المعاهدة الإنجليزية اليابانية من الأسباب التى دعت اليابان إلى البحث عن حليف آخر تستند إليه ساعة الخطر ، فوجدته فى ألمانيا ثم إيطاليا .

ثم تطورت الحال فى اليابان ، فجاءت فى سنة ١٩٣١ وزارة حربية رأت أن الفرصة قد سنحت لتحقيق مطامع اليابان فى الصين .

وكانت الأزمة المالية التى بدأت فى أمريكا سنة ١٩٢٩ قد شملت أنحاء العالم وجعلت الدول تخشى أن تشتبك فى حروب تحملها نفقات لا طاقة لها بها ، فسارعت اليابان إلى مهاجمة منشوريا فى سبتمبر سنة ١٩٣١ ، واضطرت الصين إلى التقدم لمجلس العصبة بالشكوى . ولكن العصبة لم تكن لديها القوة الحربية التى تستطيع أن ترد اليابان عن عدوانها ، وكل ما كانت تستطيعه أن تكلف بريطانيا العمل ضد اليابان . ولو آنست بريطانيا من الولايات المتحدة استعدادا للتعاون ما توانت ، ولكن الدولتين كانتا فى غمرة من الأزمة المالية ومشاكل السياسة الداخلية . ولذلك لم تلق الصين من العصبة أو من الدولتين السكسونيتين سوى القروض المالية والكلمات المنمقة والتمنيات الطيبة . وعلى ذلك أوغلت اليابان فى منشوريا ، ومنها انقضت على الصين فى سنة ١٩٣٧ فدخل الصينيون أتون حرب طاحنة ماحقة مع اليابان ، حتى لحقتهم الحرب الأخيرة فانصهروا فى نيرانها . ولو قد رضيت الولايات المتحدة بإطلاق يد اليابان فى الصين مادبر

اليابانيون مشروعهم الجهنمى بالسطو بحرا وجوا على الأسطول الأمريكى فى پيرل هاربر وما ترتب على ذلك من انهيار القوة البحرية التى كانت للولايات المتحدة ولبريطانيا فى المحيط الهادى . وتداعى قواعد الحلفاء واحدة تلو أخرى فى سنغافورة ورانجون ، ثم تعرض الهند واستراليا لخطر الغزو اليابانى .

وفى بدء الحرب مع اليابان أذعن الحلفاء أمام الأمر الواقع فى المحيط الهادى فركزوا جهودهم فى تنمية سلاح الطيران وتعويض ما فقدوه من سفن الحرب وتوجيه جهودهم نحو قمع الخطر النازى فى اوربا والشرق الأوسط ، حتى يحولوا دون تقابل القوات الألمانية واليابانية فى غربى آسيا .

ولما زال هذا الخطر عقب معركة العلمين وارتداد الألمان أمام ستالنجراد بدأت سلسلة المؤتمرات بين الحلفاء لتنسيق جهودهم وخططهم الحربية ، ولإعلان أغراضهم من الحرب . وكان انعقاد مؤتمر القاهرة فى آخر نوفمبر سنة ١٩٤٣ خاصا بشؤون الشرق الأقصى ، وقد قررت الدول الثلاث الكبرى بريطانيا والولايات المتحدة والصين أنهم مصممون على مواصلة الحرب ضد اليابان حين يتم استسلامها بدون شرط أو قيد ، وأعلن الحلفاء أنهم لا يضمرون فى أنفسهم أية رغبة لكسب مغانم خاصة أو ضم أراض للغير ، ولكنهم يعتزمون معاقبة اليابان على جشعها وغدرها ، فيستردوا منها جميع الجزر والأراضى التى احتلتها منذ الحرب العالمية الأولى ، ويعيدوا إلى جمهورية الصين ما سلبته من أراضيها منذ سنة ١٨٩٥ فيعيدوا إليها منشوريا وفورموزا بسكادورس . أما الجزر التى احتلتها منذ الحرب العالمية الأولى فهى جزر لادرون ومارشال وكارولينا . ثم أبدى الحلفاء فى نهاية قرارهم أنهم يدركون المآسى التى قاساها أهل كوريا على أيدى اليابانيين ، وأنهم لذلك مصممون على ان تصبح كوريا حرة مستقلة فى الوقت المناسب .

وقد بر الحلفاء بوعدهم بشأن القضاء على قوة اليابان ؛ فما كادت طلائع النصر تزحف غربا من سواحل نورمنديا بفرنسا وشرقا من حدود بولندة قاصدة إلى برلين حتى استعدت قوات الحلفاء فى الشرق الأقصى للهجوم الأخير ، فنزل الأمريكيون على ساحل الفلبين فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ ومنها احتلوا جزيرة ايوجيما على مسافة قريبة من اليابان ، ثم احتل البريطانيون رانجون واخترقوا طريق بورما إلى الصين . وأخيرا فى ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ نزلت أول قنبلة ذرية

على هيروشيما فى اليابان ، فكادت تمحوها وأحدثت من الأهوال ما جعل اليابانيين يخشون على بلادهم من الانقراض إذا تتابع سقوط هذه القنابل على أراضيهم . عند ذلك خشيت حكومة السوفييت التى كانت مرتبطة مع اليابان بمعاهدة الحيدة لمدة خمس سنوات ابتداء من ١٩٤١ أن يتم استسلام اليابان دون أن يكون لروسيا شأن فى تقرير مصيرها ، فأعلنت عليها الحرب . ونزلت القنبلة الثانية على نجازاكى فى ٩ أغسطس ، فكانت القنبلة الأخيرة فى الحرب والآخرة بالقياس إلى اليابان ؛ فقد استسلمت فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ .

وبخروج اليابان من ميدان التنافس فى المحيط الهادى وقفت روسيا وجها لوجه أمام الولايات المتحدة . وقد كانت الولايات المتحدة حريصة فى الماضى على بقاء قوة روسيا على سواحل آسيا الشرقية لتتخذ منها حليفاً يصد اليابان من الخلف عند الحاجة . أما الآن وقد انتهت قوة اليابان ، فإن روسيا وأمريكا أصبحتا قوتين متجاورتين . وليس الخطر من روسيا على أمريكا منشؤه الأطلنطى والتنافس الاوربى كما يبدو لأول وهلة ، فبين الولايات المتحدة وروسيا من ناحية الأطلنطى حاجزان: الأول كتلة الدول الغربية تتزعمها بريطانيا وفرنسا والأراضى المنخفضة ، والآخر دول الحدود التى تترس خلفها حكومة اتحاد السوفيت مثل بولندة ، وتشكوسلوفاكيا ، والنمسا ، والمجر .

وقد كان يظن والحرب مستعرة بين الحلفاء ودول المحور أن الترابط الوثيق الذى ساد بين الحلفاء سينمو ويطرد بعد الحرب ، ولكن الدلائل كلها تنبئ بظهور النزاع الايديولوجى القديم بين الدول الديمقراطية وغيرها . وهذا الغير كان فى أثناء الحرب الدول الفاشية ، فأصبح بعد الحرب حكومة السوفيت . وبعد أن كانت روسيا قد ألغت فكرة الشيوعية الدولية عادت بعد الحرب تشجع رسلها وأعوانها فى جميع أنحاء العالم ، وصار من المألوف لدى ساسة السوفيت أن يوعزوا إلى جيرانهم بتأليف حكومة صديقة ، ويقصدون بالصديقة أن تكون اشتراكية شيوعية تستمد وحيها من قصر الكرملن بموسكو ، حتى أحاطت بها حكومات شيوعية لا فى البلقان ووسط أوربا فحسب بل فى منشوريا ومنغوليا وكوريا الشمالية فى الشرق الأقصى . ولو لم يسارع الحلفاء إلى تعيين الجنرال ماك أرثر الأمريكى على رأس الهيئة المحتلة باليابان لتدخلت روسيا ولاتخذت من شعور الأهالى بالهزيمة ومن فقرهم المدقع سبيلا إلى تلوين البلاد باللون

الأحمر . ولا تزال بلاد الصين الجنوبية التى يسيطر عليها المارشال تشانج كاى تشك تعانى كثيراً من جانب الشيوعيين شمالا وغربا . لذلك تقف حكومة الولايات المتحدة الآن حارسة لاستقلال الصين وحمايتها من الثورة الشيوعية ، كما تقف محتلة جنوبى كوريا وعاصمة « سيول » لدرء الخطر الشيوعى المنبعث من القسم الشمالى الذى تحتله روسيا . ويبدو أن الولايات المتحدة ستتمسك بالجزر ذات الأهمية الاستراتيجية فى المحيط الهادى وهى التى كانت تحتلها اليابان، وقد تتولى أمورها نيابة عن مجلس الأمن . وستكون أعباء الولايات المتحدة باهظة إزاء تبعاتها فى العالم ؛ فعليها أن تحتفظ بتفوقها البحرى والجوى فى المحيطين العظيمين الاطلنطى والهادى . ولعمرى إن هذا وحده سيتطلب نفقات طائلة ما لم تؤيد مركزها فى المحيطين بالتحالف الدائم بينها وبين الدول الصديقة بريطانيا والصين وروسيا . والاتفاق بين روسيا وأمريكا وإن بدا متعذرا من الوجهة الايديولوجية، فهو من الوجهة الاقتصادية قريب ويسير، وقد قامت الأدلة العملية أخيراً على أن مستقبل الطيران فى المسافات البعيدة مرهون بالملاحة الجوية فوق سطح الكرة الأرضيــة عن طريق المناطق القطبية ، وهذا يستدعى توثيق الروابط بين الدول التى تسيطر على هذه المناطق وهى روسيا وكندا والولايات المتحدة وبريطانيا. وليس بين هذه الدول بعضها وبعض خلافات بشأن حدودها أو ضم أجزاء من أراضيها ، وإنما الخلافات جميعها وقتية منشؤها سوء الظن وتوتر الأعصاب بعد الحرب .

ولقد غيرت الحرب من شؤون المحيط الهادى تغييراً كليــاً، فالصين أصبحت دولة كبرى ، وكلما تقدمت فيها حركة التحول الصناعى ، وكشفت كنوزها المدخرة فى باطنها ، انفسح مجال العمــل والرقى أمام الأربعمائة مليون نفس التى تسكن هذه القارة . ولا ننسى أن السنتين أو الثلاث التى قضتها اليــابان فى السيطرة على شعوب شرقى آسيا قد وضع أمام هذه الشعوب مثالا حيــاً للتحدى وإمكان التغلب على الجنس الأبيض ، وخلق فيهم روحاً جديدة تصبو إلى التحرر من نير الاستعباد الأجنبى ، وإلى تحقيق الشعار الذى كانت تنادى به اليــابان لاستمالة هذه الشعوب إلى جانبها وهو أن « آسيا للآسيويين » .

وجميع هذه الشعوب عناصر جديدة غير مستقرة على حال قد أيقظتها هذه الحرب العالمية الثانية ، وفتحت عيونها إلى آراء وآفاق جديدة ؛ فكل شىء

فى الشرق الأقصى ملغم مشحون بالكهرباء ، ولا يعلم أحد متى ، أو كيف ، أو أين تنطلق هذه القوات المكبوتة المحبوسة طوال هذه القرون الماضية والتى تمثل أكثر من نصف سكان العالم . وستكون بلاد الصين بلا شك هى المحور الذى تدور عليه عجلة التطور فى هذه المناطق ، وفيها أيضاً تتقابل العناصر الأمريكية والروسية (وربما تدخلت اليابانية بعد زمن) . وعلى تعاون هذه العناصر أو تشاحنها يتوقف مصير الشرق الأقصى بل مصير العالم . إما حرب وإما سلام .

محمد رفعت

أبو الهول يطير . . .

[خواطر ومشاهدات ، كان الكاتب يقيدها أثناء رحلته من مصر ، للتنقل بين أمريكا وفرنسا وسويسرا طوال ستة أشهر .
وقد شاء الكاتب أن يضمن هذه الخواطر والمشاهدات رسائل وجهها إلى ولده الراحل . وأهداها إليه .
وفيما يلي كلمة إهداء ، تتبعها الرسالة الأولى .]

إهـــــداء

إليك . . .

إليكَ يا أعز من أحببته ، ويا أعز من فقدته . . .

إليكَ أنتَ يا من لا أسميك . . . فإن اسمكَ لم يعد يجرى على لسانى منــذ أضعتك . . .

إليكَ أخط هذه الرسائل .

إنى لأبعث بها إليك واحدة تلو الأخرى ، لعلى أتنسم من توجيهها إليك برد السلوى ، وإنها لتطالعك فى عالمك العلوى ، لعلها تحمل إليــك خوالج القلب ونجوى الضمير !

تهتاج بين جوانحى رغبة متقدة فى الكتابة إليك ، فى التحدث معك ، فى مخاطبتك . . . فى فك الإسار عن نفسى التى تتنزى فى القيود والأصفاد !

لقد أسكنت هذه النفس قمقما من قماقم سليمان ، وأحكمت سدّه بالرصاص ، وقذفت به فى قاع المحيط ، هنالك تحت أعماق الماء ، حيث يتكدس الظلام والصمت طبقات فوق طبقات .

ظلت تلك النفس حبيسة قمقمها ثلاث سنين طوالاً كأنها دهور تتلاحق ،

ولكن فى هذه الساعة التى ازمع فيها سفراً لا أدرى ما ذا يكون مصيرى فيه تنبعث صرخة يضطرب لها ذلك القمقم ، صرخة تنفذ من الرصاص ، وتخترق أطباق الصمت والظلام ، وتشق أعماق الماء ؛ فإذا هى تبلغ أذنى ، وإذا هى تملأ سمعى بالدوى . . .

إنها رغبة النفس فى أن تناجيك ، فى أن تتصل بك ، فى أن تفنى فيك !

ثمة اتصال دائم بينك وبين هذه النفس السجينة ، بيد أنه اتصال صامت ، لا كلمة فيه تقال ، ولا لفظة فيه تدوّن . أما اليوم فإن هذه النفس شيقة إلى أن تتكلم . . . وإنى لتارك لها هذه الأوراق البيض ، لتخط فيها ما تهفو إلى الإفضاء به إليك !

تلك هى الرحلة الأولى التى تتخلف فيها عن مرافقتى ، فلقد نعمت بصحبتك فى أسفارى جميعاً . . .

أنت تتخلف اليوم على الرغم منك ، وأنا أرحل الساعة بدونك على غير إرادة منى . . .

إنها يا بنى مشيئة القدر ، ومن ذا يردّ القدر إذا شاء ؟

ولكن أى تخلف منك ؟ وأى رحيل منى ؟

إننا نقيس القرب والبعد فى هذه الدنيا بمنطقنا القاصر ، ونظرنا الكليل . . .

أثمة رحيل ينأى بى عنك حقًّا ؟

ربما ضمنى ، أنا وإنسان آخر ، مكان واحد ، مكان ضيق لا يتسع لأكثر من شخصين ، فأشعر مع ذلك ببعد الشقة بينى وبينه ، بل إنى لا أحس لهذا الجليس من وجود ؛ على حين إنه قد يفصلنى عنك شاسع الأرجاء وهول الطريق ، فأحس كأنك تلمسنى ، وأشعر بنسمات أنفاسك تصافح وجهى !

لا رحيل يابنى ولا تخلّف ! . . .

إننا نصطنع المألوف من الكلام ، ونساير المتعارف من الألفاظ ، حتى يكون حديثنا بين الناس غير مستغلق ولا مستغرب ولا مكروه . . . ولعمرى لو تركنا لأرواحنا حرية التعبير ، لاتخذنا لغة لا تصلح إلا فى مخاطبة الأرواح للأرواح !

لا رحيل يا بنى ولا تخلف . . .

أنت فكرة خالدة تحوم فى مخيلتى لا تبرحها أبدا . . .

أنت نجوى تهجس فى صدرى فى تعبد وتبتل صباح مساء . . .

أنت خفقة القلب تجمعت فيها عناصر حياتى . . .

أنى لأزمع الرحيل ، لا تسرية عن النفس ، ولا إشباعاً لفضول ، بل لأرافق شخصاً عزيز المكانة فى قلبينا يلتمس الشفاء فى تلك البلاد القاصية . . .

أما كان أحرى أن تكون أنت مكانى ، ترعى هذا العزيز فى غربته ، وتدعنى مكانك أتوسد الثرى عنك ؟

قسما يابنى ما كنت أطلب من الله أمنية أجل من تلك ، ولكن الله يصرف الأقدار وفق مشيئته التى نسلم لها القياد ، وإن كانت عقولنا القاصرة تعيا عن إدراك ما فى هذه الأقدار من حكمة وما لها من مرمى . . .

إنها إذن مشيئة الله ، أن أرحل أنا وتبقى أنت ؛ كما كانت مشيئته من قبل أن ترحل أنت عن دنيانا وأن أبقى أنا فيها أقضى أياماً أخر !

وإنها كذلك مشيئة الله : بينما يدعوك إلى جواره الأعلى ، مخلفا قلوبنا فى ظلمة وعبوس ، إذ يبعث إلينا نجماً [1] صغيراً مافتئ نوره الوادع منذ بزغ يحاول جاهداً أن ينير هذه القلوب ، وأن يهدى إليها راحة الرضا بما هو مكتوب ومقسوم . . .

بذلك الصغير الذى راح ينمو بيننا ويتفتح كتفتح الزهرة باكرها الطل ، بدأنا نستعيد طفولتك المحببة ، ونعرض أطوار حياتك البهيجة . . .

لقد ظهرت بيننا المعاطف الصغيرة ، والقبعات العريضة ، والأحذية الدقيقة . . .

لقد تراءت فى حديقة المنزل تلك العربة التى تدفع باليد مرتقبة خطا الطفل الجديد . . .

لقد تعالت فى أجواء المنزل جلبة صاخبة مشبعة بالحياة والبهجة ؛ لتوقظ المنزل مما ران عليه من ركود وخمول . . .

ها أنت ذا تعود إلينا يا بنى . . .

تعود إلينا بابتسامتك الوضاحة ، بضحكتك الرنانة ، بعبثك المستظرف ، بمرحك الحى . . .

---

(١) حفيد الكاتب .

يا لله . . . كأنك بيننا لم تفارقنا ، وكأننا معك لم تفقدك !

إننى حين أُقبل على ذلك الصغير ، فياض الحنين ، أضمه إلى صدرى وألثمه ، يخيل إلىّ أنى أضمك أنت يا بنى وألثمك ! . . .

كنت دائما طفلا أمام عينى . . .

إن الوليد ليظل صغيراً فى نظر والديه ، وإن شب شبابه ، وإن علت به السن ، وإن علاه المشيب . . .

إنه هو هو ذلك الصغير الذى نزعجه دَوْماً بالعطف والتفقد والنصح المملول . . .

أنت طفلى ، وستلبث طفلى أبداً ، صبيًّا كنت أو كهلا ، حيًّا كنت أو فى عداد الراحلين . . .

وهل كنت إلا طفلا وأنت على فراش مرضك الأخير ؟

لقد كنت ترنو إلىّ ، وتطلب منى أن أحيطك بما ألفته منى من حنوّ ، وتسألنى أن أخفف عنك ما تعانى من تباريح الألم . ولطالما قلت لى : متى أغادر سرير المرض وأعاود مألوف العيش ، فكنت أؤكد لك أن الشدة زائلة ، وأن الصحة مقبلة ، وإن هو إلا يوم أو بعض يوم . . .

كنت أردد ذلك لك بلسانى ، فأما قلبى فإنه كان يحس هول الفاجعة من بعيد . . .

كان مثلى كمثل ذلك الحيوان الذى يحس بغريزته هبوب العاصفة العاتية قبل أن تسجل آلة الرصد ما فى الجو من انقلاب ! . . .

كنت أحس أنك توشك أن تنساب من بين يدىّ انسياب الماء من بين الأصابع ، حتى حل اليوم الذى وجدت فيه يدى قد صفرت منك ، فجاهدت لا بقى فى راحتى ما أستطيع إبقاءه ، ولو بضع قطرات . . . ولكن ذهب الجهد والجهاد عبثاً ، فإن أديم يدى كان قد جف وتشقق من لفحات الهجير ، فلم يعد لأية قطرة مكان فيه !

لقد تطايرت من بيننا ، يا بنى ، كما يتطاير العطر من قارورة رفعت سدادتها ، فلم نعد نراك بأبصارنا ، ولكننا ظللنا نشمك طيباً يشيع فيما حولنا من أجواء . . .

لم لا أضع صورتك هنا لتزين هذا الحديث وتجمّله ؟

إنها فكرة خامرت رأسي وقتاً ، ولكن العزم على إنفاذها أعوزني .

إني لأجاهر بضعفي وجبني حيال هذا العزم ؛ فليس لي من قوة ولا من جلد أستعينهما على مواجهة رسمك يا بني !

إن صورك ماثلة في ركن خاص بها ، ماثلة في محراب أقامه لك شخص عزيز المكانة في قلبينا . . .

هو محرابه القدسي يقضي فيه الساعات رانياً إليك ، يرشف الألم قطرات على مهل في نشوة واستعذاب !

أما أنا فكلما مررت بهذا المحراب عامداً أو غير عامد ، زاغ عنه بصري وازورّ . . .

إن « الرجل » منا ليجعجع بشجاعته ، ويعتد بقوته ، ولا يفتأ يزهو ويفاخر ، حتى إذا لمح طيف الألم يتخايل أمام عينيه ، فر منه ما وسعه الفرار . . .

ولكن « المرأة » تستمرئ الألم وتقدم عليه ، ولا تبغي به في النوائب والأرزاء بديلا . . .

تلك خطرات جاش بها القلب يا بني ساعة الرحيل ، أناجيك بها حين أستودعك الله . . .

وإلى اللقاء القريب !

الرسالة الأولى : أهبة السفر

٤ ابريل سنة ١٩٤٦

أي بني :

في صباح اليوم المتم للثلاثين من مارس المنصرم ، دق جرس « التليفون » وأحطت علماً في لهجة بالغة الأدب وإن كانت لهجة حاسمة بموعد قيام الطائرة ، فإذا به بعد أربعة أيام . . .

أية طائرة ؟ وأية أيام أربعة ؟

وتذكرت أني سجلت اسمي في القنصلية الأمريكية للظفر بالأسبقية في

ركوب الطائرة . . . كان ذلك منذ أشهر . . . أشهر تقضت دون أن يتخللها حديث فى هذا الصدد ، حتى عزب عن بالى أنى مقبل على سفر . . .

ها قد تبين الأمر ، فإذا هو جد لا هزل فيه . . . بعد أربعة أيام أطير إلى نيويورك . . . ولكن هل تكفى هذه الأيام الأربعة فى إعداد عدة الرحيل ؟ ألا أراجع ولاة الأمر لتأجيل الموعد ؟ عبث ما أفكر فيه ! . . . إنها أوامر يتلقاها طلاب الرحلة من مكاتب الشركات كما يتلقى الجندى أوامر القواد . . . أليس العهد قريباً بحالة حرب ؟ إذن فلنذعن لهذا الأمر صاغرين صابرين إذا طمعنا فى تحقيق ما نصبو إليه . . .

ونهضت أعمل . . . يجب أولاً أن أحضر ما يجب علىّ أن أقوم به ؛ وإذا بالمطالب والشؤون قد تشابكت وأخذ بعضها بتلابيب بعض . فبأى شئ أبدأ ؟ وبأى شئ أنتهى ؟

وبذلت جهدى فى حصر الأعمال . . . ومَثَل لخاطرى على الفور إعداد الحقائب ، بل أستغفر الله إعداد حقيبة واحدة لى ، ومثلها لزوجى . . . حقيبة من الوزن الخفيف ، لا تزيد زنتها على خمسة وعشرين كيلو . . . الأمر إذن هيّن ، إن نصف ساعة أو نحوه ليكفى لإعداد متاع لا يزيد وزنه على هذا العدد . . .

واطمأن قلبى ، وهدأ بالى ، يبدو لى أن اهبة السفر ليست من التعقيد على النحو الذى كنت أتصوره . . .

وما كدت أستريح إلى هذا الخاطر ، حتى وقع بصرى على إضامة منتفخة تحوى بعض الأوراق الخاصة بإدارة أعمالى . . . وانسرحت أفكر . . . يجب أن أصفِّىَ هذه الأعمال ، وأن أكلها إلى من يحسن إدارتها فى غيبتى . . . ها هو ذا عمل ليس بالهيّن الميسور ، ولكن إنجازه لا بد منه على أية حال !

وماذا بعد ؟ وهنا انبرى أمامى شبح لجنة العملة ، ومن ورائه تبدو أشباح أخرى : المصارف ، مكاتب الصيارفة ، دار شركة الطيران ، وما إليها . . . وما فتئت هذه الأشباح تتدافع دونى وتتواثب ، يحاول كلٌّ منها أن يكون أول آخذ بخناقى !

وفى أثناء هذا الهرج والمرج أحسست دبيباً فى درج مكتبى ، وهمساً يرف على مسمعى ، وإذا بى أنصت إلى من يقول :

أنا رائدك الأول . . . أنا مفتاح الطريق . . . لن تستطيع بغيرى سفراً !

فجذبت الدرج إلىّ ، فإذا بجواز السفر يعلو بهامته رجلٌ معتزّ . فمددت يدى إليه يدى فى تخشع ، ثم انثنيت أميط عنه الغبار !

أمامى تلك الأيام الأربعة ، لإنجاز هذه المهام وما يتصل بها أو يتفرع منها . . . ومن هذه الفترة القصيرة يوم الجمعة الذى تغلق فيه مصالح الحكومة أبوابها ، ويوم الأحد الذى تأخذ فيه المصارف ومكاتب العملة قسطها من الراحة والتعطل . . . فليكن . . . أمامى يومان ، ثمان وأربعون ساعة طوال عراض ، مهما تقتطع منها ساعات نوم واستجمام فالبركة فيما يبقى !

وشمّرت عن ساعة الجد ، وأطلقت ما أختزنه من قوة ونشاط وحماسة ، وانطلقت أعمل . . . كان مثلى كمثل تلك الأشباح السينمية حين يخطىء العامل فى تحريكها فتلمحها على الستارة البيضاء خاطفة مضطربة !

وانكببت على الاستمارات أستوفى تحريرها ، فما أكاد أفرغ من واحدة حتى تعترضنى الأخرى . أما الإمضاءات فكنت أبعثرها ذات اليمين وذات الشمال . وجعلت أذرع الطريق بين لجنة العملة والمصارف وبين المصارف ولجنة العملة مثنى وثلاث ورباع . . . إن شركة الطيران تستمسك بموعدها لا تتأخر عنه ، وإن المصرف لا يحوّل مليما واحدا إلا بتصريحات مستوفية للشروط مذيلة بإمضاءات معترف بها على أوراق رسمية ، ولكن لجنة العملة لا يعنيها من ذلك شىء ، فأعضاؤها الموقرون فى شغل بشؤونهم وآفاقهم عن ضيق الوقت ودقة الموعد وتعجّل الناس . . . !

وتعلمت بين عشية وضحاها كيف أكون هجّاماً لجوجاً ملحاحاً ، واستبان لى ما لهذه الصفات المباركة من فوائد طالما أنكرتها وأنحيت باللائمة على ذويها . . .

ثم ألفيتنى بغتة وأنا ألتقط الدولارات من مكاتب الصيارفة ، قد أصبحت بالرغم منى خبيراً فنيّـاً فى العملة الأمريكية ، أميز بين الدولار الجيد والزائف ، الحربىّ والمدنىّ ، المباح والمحظور !

وأحسست بأعصابى تنهار . . . إنها حرب أعصاب فى مقتبل ساعات السلم !

وأخيراً تم كل شىء بما يشبه المعجزة ، ووجدتنى مزوداً بكل ما هو مطلوب من التصريحات والمستندات والمعدات . . . وألقيت نظرة خاطفة على محفظة

جبيني ، فإذا هي قد تورمت ، وإذا بسطحها قد بدا عليه ما يشبه التضاريس والهضاب ! . . .

وحلت ساعة الميزان ، فررنا بحقائبنا في الطريق إليه كأننا نجتاز الصراط . . . ثم صعدنا في السيارة الحافلة مع رفقة السفر ، وبدأنا نتعرف إليهم بنظرات حيية متعثرة ، وكأن لسان حالنا يقول :

أمقبلون نحن على سفر يسلمنا إلى عالمنا المنشود ، أم على سفر يصير بنا إلى عالم الخلود ؟

وتحركت السيارة الحافلة ، تتأثرها سيارات المودعين ، وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل . . . وقضينا الوقت في صمت لا يقطعه إلا نثار ألفاظ وظلال ابتسامات تضطرب بها الشفاه . . .

ودخلنا مطار يين فيلد تلك المدينة التي شيدها الأمريكيون في أحرج ساعات الحرب ، تلك المدينة العامرة الزاخرة تخترق رحابها الطرق الفسيحة المعبدة ، تلك المدينة التي تبدو في ظلمة الصحراء المترامية وقد أضاءتها سواطع المصابيح الكهربية معلقة في الفضاء أو متناثرة على أديم الأرض . . .

واقتادونا إلى « الجمرك » . . . وما إن بلغت حوزته حتى ثارت في نفسي ذكريات غير محببة . . .

« الجمرك » . . . هو تلك الساقية العظيمة تدور رحاها في قوة وجبروت ، ولكنها في واقع الأمر تدور على نبع غاض ماؤه ، فإنك لتسمع نعير هذه الساقية يشق أجواز الفضاء ، ثم لا تلمح لمائها من أثر !

« الجمرك » . . . هو تلك المؤسسة التي أنشأها قوم حاقدون على البشرية ، فاتخذوها أداة تنكيل وسوط عذاب ! . . . إجراءات تافهة تثير الضحك إن لم تثر الغيظ وترهق الأعصاب . . .

وظهرت الاستمارات عودًا على بدء . . . علينا أن نحررها ، وأن نستوفيها بإجابات غاية في التفاهة . . . وحنينا هاماتنا نكتب ونمضي ، وأحيانا نسأل :

ما المراد بهذ السؤال ؟ وكيف يكون الجواب ؟

وارتفعت يد الضابط بالخاتم العظيم تضرب هنا وهنالك في مهارة حرية بالتقدير ، إنه ليضرب ضربا محكما كأنما يسدد الطعن في ميدان القتال . . . وأخذ الضابط الهمام يجفف ما تفصد من جبينه في زهو المنتصر الغلاب . . .

ألم يؤد عملا بالغ الجلالة عظيم الخطر ؟ إن ورقة تخلو من ضربة واحدة من خاتمه العظيم كفيلة ان تقضى على صاحبها التاعس بالحرمان ؟

ثم اتجهنا إلى الخوان الطويل صُفَّت عليه الحقائب . . . هذا ضابط آخر تشمَّر واهتم وأخذ يتصايح :

تلك الحقيبة تفتح ، أما هذه فتحمل إلى الخارج ، ماذا فى هذه اللفافة ؟ حذار أن يكون فى ذلك الصندوق شئ محظور !

فلا تكاد الكلمات تتناثر من فمه ، حتى تتحرك الحقائب وما إليها من الأمتعة غادية رائحة كأنما تحركها يد ساحر !

ومَثَلْنا أمام الخوان ، كلٌّ منا يرتقب نوبته ، فدهمنى شعور ممض ، شعورُ برىء تهدر كرامته ، يرى نفسه فى قاعة محاكمة وموقف اتهام ؛ كأنه أحد مهربى المخدرات ! . . .

وأخيراً أُفرج عنا ، فخرجنا « طابوراً » من بهو « الجمرك » ، ومن حولنا الأهل والرفاق . . . خرجنا إلى ساحة المطار ، فإذا « أبو الهول (١) » رابض أمامنا ، باسط جناحيه على أُهبة الطيران . . .

كان باسمه التاريخى العتيق ، وهيكله العصرى الحديث ، كأنما يجمع بين جلال الماضى التليد ، ومدنية الحاضر المشرقة الزاهية . . . إنه رمز حضارتين عظيمتين : حضارة مصر العريقة ، وحضارة أمريكا الفتية المتوثبة . . .

ولبثت لحظة أتأمله . . .

لست جمادًا يا « أبا الهول » . . .

ما أنت إلا مخلوق حىّ ، طائر ضخم من فصيلة النسور والعقبان ، بل أنت أخو الرُّخّ وصنو العنقاء ، طائر هائل الجرم مما تدور عليه أساطير الأولين . . .

نحن مقبلون على أن نحيا معك فى أسطورة جديدة نخطها معا فى سفر الوجود !

ما أبهاك فى لونك الفضى !

إنك لتتألق وسط الظلام كشعاع الفجر ينتظر خلف أستار الأفق البعيد . . .

---

(١) اسم الطائرة .

سنسلمك أرواحنا أيها الطائر العظيم . . . فهي وديعتك ، إن شئت أضعتها هباء ، وإن شئت كنت لها نعم الحافظ الأمين . . .

وتلفتُّ حولى ، فإذا بى أنا وزوجى يحيط بنا المودعون . . . إذن حانت ساعة الوداع . . .

وشعرت بغتة كأن قلبى تهصره يد قاسية . . .

وثارت بى فجأة ذكريات . . . ذكريات يزحم بعضها بعضا . . . ذكريات شتى جليلة وتافهة !

فى هذا الموقف الدقيق تتخايل لنا حادثة قديمة ليست بذات بال ، أو يبدو لنا وجه نعجب كيف انفسح له مجال الظهور ! . . . وتتداعى المشاهد فى مخيلتنا ، وتتلاحق سراعا ، حتى تتجمع كلها وكأنها تدور حول محور واحد ولا تفتأ تدور .

وننظر إلى المودعين نظرة ساهمة ، ونبدأ نودعهم مصافحين أو مقبِّلين ، وتثور فى النفس رواقد الشجون ، وينكشف للمرء منا تفاهته العجيبة ، وتنهار فى لحظات تلك الشجاعة التى نتغنى بها مفاخرين ، فنغدو نحن الرجال أمام وداع طفل صغير قد تصاغرنا وأصبحنا فى مثل حجمه وعقله وشعوره ! . . .

أى بنى !

إن وداع الأحياء رائع مثير لأخفى كوامن الشعور ، ولكن ثق أنه لا يقاس بشىء أمام وداع « الراحلين » . . .

إننا حين نودع الحى فإنما نشاهده ونلمسه ونناقله الكلام ، أما « الراحل » فإنما نستشعر وجوده فحسب . . . إنه يبـدو من أغوار الظلمات ليطالعنا من بعيد . . . متخذاً له مكاناً نائياً عن الزحمة والضوضاء . . . لا نشافهه بحرف ، ولا نودعه بقبلة ، ولا نبادله شيئاً حتى الإشارة والتلويح !

ثمة نظرات صامتة تصحبها ابتسامات رقيقة كلها صفاء وحنين . . .

هذا الطيف الرقيق يظل فى أفقه ، لا صلة بيننا وبينه إلا صلة الروح بالروح . . .

أى بنى !

ها هوذا كل شىء قد اختفى من حولنا ، فلم يعد إلا أنت وأنا وحدنا . . .

لقد تزايلت أصوات الأحياء بما تحمل من تحية وتوديع ، وبقيت أنت . . .

أنت الوحيد الذى مازلت أراه . . .

إنك لتملأ عليّ الرحاب والآفاق . . .

وإنى لأحس وجودك إحساساً كله صدق ويقين . . . وجودك مادة متجسدة لا طيفاً من عالم الروح !

حقاً إن الموت لأعجز من آن يفرّق بين حبيبين . . .

إنه ليوهمنا أنه أقام بيننا الفواصل والحدود . . .

زور وبهتان !

ما أغفلك أيها الموت ! . . تحسب أنك انتصرت وما أنت إلا منهزم مقهور !

وصعدنا فى الدرج ندخل « أبا الهول » . . . وغبنا فى جوفه ، فكأنما التقمنا حوت !

وطافت بمخيلتى قصة « أيوب » فساءلت نفسى :

أيكون حالنا كحاله ، ومآلنا كمآله ؟

وقصدت أحد المقاعد ، فتهالكت عليه .

وسمعت صوت الباب يدفع بشدة ، فإذا هو يفصل بيننا وبين عالم الأرض . . .

وتراءت لأعيننا جملة مكتوبة بأحرف من نور :

« التدخين غير مباح . . . ليشد كل منكم حزامه » .

وسرعان ما شاهدت شابًّا طلق المحيا فى حلة رمادية رسمية ، تنطق كل جارحة فيه بأنه أمريكى أصيل ، فدنا منى فى تلطف ، وأخذ يعيننى على عقد النطاق حولى ، فأصبحت إلى مقعدى مشدوداً لا أستطيع البراح . . .

وبدأت المحركات تدوّى ، وأحسست « أبا الهول » يتحرك ، وما هى إلا أن رفع هامته ، فإذا نحن بعد لحظات نشق الأجواز صُعُداً إلى السماء ، تحيينا بسمات السَّحَر !

محمود تيمور

البومة والعندليب

« فى ركن آمن سحرى من وادٍ ناءٍ سحيق سمعتُ بومة وعندليباً يتناظران . وكانت المناظرة بينهما حادة عنيفة عنيدة ، تهدأ الأصوات فيها حيناً لتعود عالية صاخبة من جديد . كل طائر مغيظ من صاحبه ، حانق عليه تملأ ألفاظه القسوة ، ويبيح لنفسه من الكلم ما لا يستباح ، ويسب أخلاق صاحبه بأسوأ ما تصل إليه قريحته من سباب ، وكان أكبر همهما أن يذم كل منهما غناء صاحبه ، وينتقده نقداً صريحاً واضحاً لايحتاج إلى تفسير أو بيان . »

ثم نقل إلينا الشاعر الإنجليزى المجهول هذه المناظرة الطريفة فى عالم النقد والأدب بكل أمانة وإخلاص . فإذا قصيدته حلقة ممتازة فى سلسلة المناظرات التى أقيمت فى الأدب النقدى منذ أيام أرستوفان فى أثينا القديمة إلى اليوم . موضوع من موضوعات النقد يطول النقاش حوله ، أو يتحسس الأديب بحسه المرهف انشغال عقول الناس به فيعرضه فى صورة أدبية خلابة يبين كل ما يمكن أن يساق من حجج معارضة أو مؤيدة ، لا ليخرج بنتيجة ، فلعل هذه آخر ما اهتمت به تلك الفئة من الشعراء الناقدين ، ولكن ليعرض علينا الصورة الجميلة فى حد ذاتها ، وليبين لنا تلك الحجج فى حد نفسها ، فيرضى بذلك الحس والعقل معاً . كل ما فى الأمر أنه اتخذ موضوعاً لقصيدته أو قطعته الفنية قضية نقدية بدل أن تكون قضية سياسية أو اجتماعية أو لا قضية .

واختلفت آراء النقاد فى هذه القصيدة ماذا كان يعنى بها صاحبها . إنها مناظرة شعرية باللغة الإنجليزية القديمة ، بين بومة وعندليب . مناظرة رمزية بلا مراء ، فإلى أى شيء رمز الشاعر بهذا الذى يقول ؟ قال قوم إن البومة بما لها من وقار ، وما تدل عليه عيناها النافذتان من عمق وهدوء ، اتخذت رمزاً للحكمة ، أو الفلسفة ، أو التفكير عامة ، أو ما شئت من هذه المعانى التى تدور حول عمل العقل دائرة فى حياة الإنسان . وإن العندليب اتخذ رمزاً للتسبيح بحمد الله ،

ثم للحب والجمال والربيع ، أو ما شئت من هذه المعـاني التي تتحرك في القلب لدى سماعه صوته الرقيق وأثره في حيـاة الإنسان . وقال آخرون : إنها مفاضلة بين العقل والقلب ودور كل منهما في حياة الناس . ولـكن هذا القول لم يستقم طويلا في كثير من ظاهر القصيدة ؛ فهذا كلام يطول حول صفات الطائرين ، ولـكن هذا كلام ، ولعله لباب القصيدة ، يدور حول علاقة الطائرين بحياة الناس . ثم هذا كلام أكثر وأبين يدور حول غناء الطائرين وما يبعث في نفوس الناس من إحساسات وما يهيج فيها من عواطف . ثم هذه مقدمة الشاعر القصيرة يحدد فيها غرضه واضحاً . إذ يقول : « وكان أكبر همهما أن يذم كل منهما غناء صاحبه ، وينتقده نقداً صريحاً واضحاً ، لايحتاج إلى تفسير أو بيان » . كان الأمر إذن يدور حول الغناء ، وحول أثر هذا الغناء في حياة الناس . ولـكن ما ذا يريد الشاعر بهذا الغناء وإلام رمز به ؟ إننـا إذا رجعنا إلى الشاعر أو إلى عصره فقد نستطيع أن نصل إلى ما نريد .

أما الشاعر فمجهول . وإذا وصـل مؤرخو الأدب إلى ترجيح اسمه ، فإن الجهل الذي يحيط بهذا الاسم أكثر من المعرفة بل لعله يحجبها . فالقصيد تذكر اسم السيد نقولا في تكرار ظاهر تتمثل البـومة بأقواله ، ويأتي العندليب من أقوال هذا السـيد الحـكيم بما يؤيد هو أيضاً به حجته . وعندما يحتدم النقاش ويريد الشاعر أن يفرغ من القصيدة ، نراه يحيلنا نحن على هذا السـيد الحـكيم في بلدته جلدفورد لنسمع منه القول الفصل في هذه القضية التي أثارت الوادي وكل ما سكنه من طيور . فإذا رجح المؤرخون أن الشاعر يدعى نقولا جلدفورد فإن معلوماتهم التي تدور حول هذا الاسم من الضآلة بحيث لا تفيدنا فيما نحن فيه ، بل لعلها لا تفيد كثيراً في أي موضوع يمكن أن يثار حول هذه القصيدة الفريدة .

أما إذا رجعنا إلى العصر الذي أُلِّفت فيه ، والوصولُ إلى تحديده من خط النسخ واللغة أمر ميسور ، فإن أحوال هذه الفترة الطويلة من أزمان التاريخ تجلو لنا الـكثير مما نراه مستغلقاً في هـذا الباب . ولا يعنينا من أحوال هذا العصر إلا ما يمكن أن يمس الحياة الأدبية ويؤثر فيها ، بل ما يمكن أن يمس هذه الناحية بالذات من الحياة الأدبية . فلقد شهد هذا العصر البعيد نهضة لا تقل في روعتها عن هذه النهضة العظيمة التي عنى بها المؤرخون في القرن الخامس عشر

والسادس عشر في أوربا إن لم تفقها . تلك النهضـة الأولى في القرون الثلاثة بعد العشرة كانت أول صحوة فعلية لهذه الشعوب من أثر القرون الوسطى ، نتيجة أول احتكاك جدى قوى بين طائفة كبيرة من شعوب أوربا والشرق . لقـد كانت الكنيسة تجتاز محنة عصر اضمحلال وإنذار شديد بزوال السلطان في القرن الحادى عشر فهبّت لتعيد لسلطانها القديم على عقول الناس ونفوسهم وحياتهم سيرته الأولى . وكان من آثار تلك الهبة القوية الحروب الصليبية المعروفة . هذه الحروب التى شهدت جيوشاً عديدة من الغرب تأتى بنفسها إلى الشرق لتراه عن كثب في الواقع لا في الخيال . وكما أحدث احتكاك الشرق بالغرب في أسبانيا آثاراً في الفن والتاريخ لا تمحى ، فكذلك أحدث هذا الاحتكاك بينهما في أرض الشرق المقدسة آثاراً أقوى وأعم وأشد : وتعود تلك الجيوش إلى أوطانها فإذا هى تحدث هذا الانقلاب القوى في كل مرافق الحياة ، نتيجته انقلاب مادى عنيف في ميزان الثروة وتوزيعها . فإذا كانت العلوم والصناعة قادرة على إحداث مثل هذا الانقلاب في العصور الحديثة فإن التجارة وانتشارها كانت كافية لإحداث مثل هذا الانقلاب في العصور القديمة . فهذه طبقة جديدة تنشأ إلى جانب ملاك الأرض وقد سلّحت بنفس السلاح ـ بالثراء . يكفى أن يعود أحد من هذه الجيوش أو من اتصل بها بتحف الشرق يبيعهـا في الغرب ليعود بتحف من الغرب يبيعها في الشرق وهكذا ، فإذا هو ثرى في طرفة عين قادر على أن يشترى الأرض ومن عليها من عبيد دون أن يرثها عن الآباء والأجداد . وتطلع العامة إلى ما لم يتطلعوا إليه من قبل ، وهز الأمل في نفوسهم من الحياة ما أنعشها وقادها إلى حركات عنيفة تريد بها أن تتحرر من سلطان السادة ملاك الأرض . وليس يعنينا ما قد قامت به هذه الجماعات في سبيل التحرر المادى ، ولكن الذى يعنينا هو أن نذكر أن هذا التحرر المادى لم يكن إلا ليسبق بمحاولات عنيفة للتحرر الروحى والعقلى . ولقد حاولت العامة أن تنفض عنها سلطان الكنيسة بنفس الحماسة التى حاولت بهـا أن تنفض عنها سلطان ملاك الأرض . وحاولت الطبقة المستنيرة أن تقود هذه المحاولات وتوجهها ، وإذا الكنيسة أمام هذا الإنذار الشديد بزوال سلطانها تصحو صحوة قوية بالعمل والقول لتدعم سلطانها على أساس جديد لا يهتز بهذه الأعاصير . والأدب في كل هذا سلاح الطرفين ، يشترك في كل كبيرة وصغيرة ، ويعبر عن آمال هؤلاء في

التحرر ، وعن رغبة هؤلاء فى السلطان . وإذا هو يصور هذه النفوس التى تريد أن تنطلق من إسارها لتسبح فى الهواء الطلق حرة لايقيد جسمها ولا يشل عقالها سلطان ، كما لم يصورها من قبل لأنه كان سلاح الكنيسة وحدها فيما قبل . ولكنه بانتشار استعمال اللغات المحلية بدل اللاتينية أصبح الشعب قادراً على أن يعبر عن نفسه . وإذا نوع جديد من الأغانى الشعبية يفشو فى هذا العصر : أغانى الحب والجمال يترنم بها الشعراء والمغنون الطوافون يغنونها على آلاتهم الموسيقية المعروفة ، فيذيعون بين الناس رنات محببة إليهم تصور لهم الحب المحرّم المخروم فيجدون فيه صدى لنفوسهم الظامئة . وتصبغ هذه الأغانى عصراً طويلا من عصور تاريخ أوربا بصبغتها القوية ، حتى ليعرف هذا العصر فى التاريخ بأنه عصر هؤلاء المغنين الطوّافين ، عصر « التروبدور » . ولم يكن غناؤهم ليزول ، فقد كانوا يبذرون مع أنغامهم بذوراً فى كل مكان يزرعون بها زرعا ينطلق نحو شىء مجهول ، ولكنه انطلاق من عذاب وقيد . وانتعش الأدب والشعر الغنائى خاصة انتعاشاً قويا فى فرنسا وإيطاليا خاصة ، وظلت انجلترا رغم اتصالها الوثيق بفرنسا ، حتى إنها كانت تعد فى نظر بعض المؤرخين مقاطعة منها ، بمعزل عن هذه الحركة القوية لا تتأثر بها كثيراً لطبيعة أهلها أولا ولانفصال جزرها من القارة ثانياً .

ولكن هذه القصيدة تكتب فى إنجلترا فى ذلك العصر فتمثل مبلغ تأثر شعراء انجلترا بهذه الحركة وإن لم يتأثر بها الشعب . إنها قصيدة نقدية تصور قضية أدبية قائمة إذ ذاك . وما هى تلك القضية ؟ إنها لن تعدو هذا النزاع الأبدى العظيم بين أدب قديم وأدب حديث . هذا النزاع الذى تشهده الأدب كلما عصفت بالناس عاصفة تريد أن تدفع بهم نحو جديد ليتركوا قديماً . أما الأدب القديم هنا فكان الشعر الكنسى خاصة يحض الناس على الخير ويرغب ويعد ويتوعد ويزأر ويرعد ليقرّب الناس من الله بنكران الذات والتقشف فى سبيله . وأما الأدب الحديث فكان هذا الشعر الغنائى الجديد الذى دوّى فى الآفاق يقيم ما للإنسان من حق فى أن يستمتع بالحب والجمال والربيع ، شعر المغنين الطوافين ، وهو يصور نفساً تنطلق من إسارها نحو جديد مجهول ، ولكنه جديد على كل حال . وثارت فى عقول الناس قضية القديم والحديث بصورة جديدة فجاءت هذه القصيدة لترسم هذه الصورة ، ولتفصل فى القضية ولو من بعيد .

فما هذه البومة إلا رمز للشعر الكنسى ، وما هذا العندليب إلا رمز لهذا الشعر الغنائى الحديث . والشاعر حريص كل الحرص على بيان غرضه حتى لا يضل وسط الرمز والإلغاز قراؤه . فهو ينص منذ بدء القصيدة على أن الغناء كان أهم ما انتقد كل فى صاحبه . والقصيدة مليئة بهذا النقد بل إنها تقوم عليه . فهذا العندليب يقول للبومة : إن غناءها ليفزع الناس ويروعهم ويحزنهم (كما كان يفعل شعر الكنيسة بهم) ، وإن البومة لا تغنى إلا فى الظلام فى ساعات اليأس من حياة الناس كأنما هى غيرى من سعادتهم تحسدهم عليها بل لا تريدها لهم . والبومة تقول إن غناءها ليعلّم الناس ، ويهذب من خلالهم ، ويفسر لهم ما قد غمض من رموز الحياة على حين يفسد غناء العندليب عقول الناشئة . والعندليب يقول إن غنائى ليلذ الناس ويطربهم ويفرحهم ، والبومة تقول إن غنائى ليحثهم على التوبة ويقربهم من الله ، إنه يوحى إلى الأبرار بالشوق إلى الجنة ، ويملأ الأشرار فزعاً مما سيصيبهم من العذاب فى الآخرة . ويقول العندليب إن غناءك أيتها البومة لقاس مرير ، وإنك لتأوين إلى الخرائب والكنائس لتغنى حتى تكونى بعيدة عن الناس ، وإنك لتغنين دائماً أبداً فى ساعات بعينها ، بل إن فى خلقك دهاء ومكرا ولؤما تستعملين من الأساليب ما ينفر منها الحق والخلق الكريم (إشار إلى أساليب الكنيسة) . ولكن العندليب يدعى لنفسه هو أيضاً أنه يتغنى بغناء الكنائس لأنه يسبح بحمد الله ويعدّ الناس خير إعداد لتذوق أنغام الجنان والسموات . إن له من فضل التعليم ما للبومة لأنه يهذب بغنائه ويعلّم ، فهو يحث على فضيلة الوفاء ، والإخلاص ، ويعلم حقيقة العدم والزوال وحكمتهما . أكان يريد الشاعر بهذا شيئاً غير الشعر الغنائى ؟ أو ليس الشعر الغنائى يدّعى لنفسه التهذيب والعمل على التقرب من الله ؟ إن لكل طريقته ، ولكن الشاعر يميل فيما نرى إلى تفضيل العندليب لا يعيب عليه بلسان البومة إلا أمراً واحداً هو أنه كثيراً ما يتغنى بحب محرم ، فهو يحض الزوج على حب عاشق غير زوجها .

وكان هذا الموضوع أهم ما دار حوله الشعر الغنائى الجديد . ولكن الشاعر يدافع عن هذا بقوله : أليس الشائع المشاهد أن الزوج يعامل زوجه بقسوة وفظاظة ، وأن قلبه بعيد عن هذا البيت الذى هيأت له فيه زوجه أسباب الراحة والسعادة ! وإن الزوج لتعمل كالخادم بل كالعبد المطيع ليل نهار ، فلا تجد لنصبها وتعبها جزاء إلا الغضب بل اللطم فى كثير من الأحيان . أفليست تلك معذورة

إذا ما وجدت لدى عاشق محب ما تتعطش إليه من حنان وحب فى أن تجيب النداء ؟ ولـكن هذا الدفاع لا يرضى الشاعر ولا يرى أنه مما يصح أن يسكت عنده . فإذا هو يقول على لسان العندليب : ولماذا لا يكون الحب عفيفاً طاهرا حب فتاة لفتاها يتوج بالزواج بعد حين ! إنى أتغنى بكل أنواع الحب . إنى أتغنى بحب محروم ولـكنه مشروع . وهكذا يستمر هذا الشاعر فى معالجة هذا الموضوع ، وكأنما هو يفتح لتلك الطبقة من الشعراء والمغنين الطوائين آفاقا جديدة من الغنـاء نراها وقد ملأت أوربا بعد حين وطربت عليها أجيال من الناس تعاقبت مدى قرون وقرون تتغنى معا بهذا الحب المحروم محرّما ومشروعا .

والشاعر لا يتعرض لتحليل تلك الظاهرة فى غناء عصره ، بل إن الناقد الذى نقل إلينا القصيدة من نصها القديم إلى نصها الحديث ودرسها لا يتعرض هو الآخر لشىء من هذا ولعلهما لم يريدا الدفاع عن مثل هذا الموضوع من موضوعات الغناء لتخرج فى طبعهما الإنجليزى أو لعلة أخرى . فقد كان جل ما اهتما به هو الدفاع عن الحركة الجديدة فى الشعر والغناء . ولـكن المتأمل فى حال أوروبا الوسطى فى تلك العصور يرى مالا يحرج فى تعليل شيوع هذا الموضوع . فغناء بالحب فى مثل هذا العصر لم يكن هناك من بد إلا أن يصور الحب كما صوروه ، حب عبد ذليل متعطش إلى حقه فى الحياة فهو يتطلع إلى العتق غير المشروع . وهل تختلف حال الزوج الذليلة المتعطشة إلى حقها فى الحب والحنان بعد أن قامت لزوجها بكل مافى طاقتها من خدمات ليروى عطشها فلم يقابلها إلا بالقسوة والحرمان ، عن حال هذا العبد الذليل الذى يقدم لسيده مافى وسعه ولا يلقى منه إلا القسوة والحرمان بدل حقه من الاستمتاع واللذة ! وهل يختلف تطلع هذه الزوج إلى عاشق ينزل إليها من السماء عن تطلع هذا العبد إلى منقذ ينزل من السماء أو ينبعث من الأرض ليرد إليه حقه فى الحياة ! وهل يختلف غناء الزوج الذى يصور عذابها وشقاءها وتطلعها وشوقها عن غناء هذا العبد بعذابه وشقائه وبتطلعه وشوقه ! إن هذا الغناء الغزلى كغناء العرب فى بوادى الحجاز بعيد الإسلام ، لا يصور الحب بقدر ما يصور الحرمان والتطلع إلى منقذ مجهول . ولو قد أراد الشاعر أن يدافع هنا عن غناء العندليب فى قضيته لوجد أنه بإخراجه إلى الرمز يعطى العندليب أقوى حجة ليقاوم بها تلك

البومة العاتية القاسية . ولكن الشاعر يعيش فى عصره ويرى الحياة بمنظار ذلك العصر ، فدافع فى سذاجة ، ورسم فى سذاجة أيضا ما يجب لهذا الموضوع من تحوير ليأمن اللوم . ولكنه بهذه السذاجة نفسها وما فيها من إخلاص وجمال استطاع أن يفتح الآفاق ويمهد السبيل لظهور غناء قوى جديد من هذه البداية المتواضعة .

ولكن المناظرة فى حد نفسها تصبح موضوعاً أدبيًّا يجب أن يوفى حقه . فما كان يكفى أن تعيب البومة غناء العندليب ولأن يعيب هو غناءها ليهيأ للقارئ أن منـاظرة حادة قامت بين الطائرين . لا بد أن يكون هناك أكثر من هذا فى الواقع ، وإذا القصيدة مملوءة بالسباب وبعيب الخلق . يرى العندليب فى البومة بشاعتها وكره الناس لها وحبها للعزلة والخراب وسائر ما لها من صفات مذمومة إلى جانب هذا الصوت البشع الذى يتشاءم منه الناس ؛ فلم يكن بد من أن يرى العندليب هذا إذا قامت البومة فعلا أمامه ، وإن كان الإنسان لا يحس منها أكثر من هذا الغناء المشؤم . وكذلك لم يكن بد من أن ترى البومة فى العندليب صغر حجمه وضعفه أمام قوتها وبطشها ، وتفاهة ما يقوم به من أعمال إلى جانب ما تراه من سوء أثر غنائه فى الناس وإفسادهم بالحب والجمال والخيال . ولم يكن بد أيضاً من أن يفعل الغضب فعـله فى الطائرين ، فيظهر غيظهما فى الكلم والحركات . ولـكن الشاعر طبقاً لتقاليد عصره لم يجعل أحداً منهما يخرج عن حده حتى لا يفقد بذلك عطف الناس عليه . فلقد كان من أدب المناظرة والمقاضاة أن يتأدب الشاكى فى شكواه ويتأدب الجانى فى دفاعه ، ليكسب كل منهما عطف الجمهور باحتماله الإيذاء من صاحبه ، فعطف الجمهور عليه هو كسب القضية .

بذلك وبغيره من الأساليب والخطط أتقن الشاعر فنه الرمزى ، وخيل إلى السامع أو القارئ أنه فى ساحة قضاء جاء فيها الطائران يحتكمان بالفعل . ولم يكن الشاعر ليستطيع أن يخفى انحيازه إلى طرف من الطرفين المتخاصمين ؛ فقد كان عطفه على العندليب ظاهراً واضحاً ، وها هو ذا ينهى القصيدة بمغالطة من البومة ينفر منها الحكام ؛ فلقد عاب العندليب عليها كره الناس لها وتشاؤمهم منها ، ولما لم تستطع أن تدفع ذلك عن نفسها اعترفت به وأخذت تفخر بعيبها هذا . فيقول لها العندليب إن هذه مغالطة منها لا تغتفر فى فن المنـاظرات والخصام ؛ فقلب الحقائق وجعل العيوب مفاخر لا يمكن أن يكسب عطف الناس .

واستنجد العندليب بطيور الوادى ، فهبت جميعها لأنها تحب العندليب تلبى غناءه الرقيق العذب . وتهزأ البومة من هذا الجيش الذى أتى به العندليب ليدافع به عن نفسه أمامها . فلو كان المجال مجال قوة وبطش لكان لها ولأخواتها وأبناء عمومتها من صقور الوادى ونسوره ما يكفل لها الغلبة على هذا الجيش من صغار العصافير أى غلبة . ولكن البومة والعندليب كانا قد اتفقا على الاحتكام إلى السيد الحكيم نقولا جلدفورد . وهاهى ذى البومة وقد ضاقت ذرعا بثرثرة العندليب وشقشقة هذا الجيش من العصافير تقترح الذهاب إلى هذا السيد الحكيم ليسمعا القول الفصل فى قضيتهما ، ويوافق العندليب على هذا . وقد وعدت البومة أنها تستطيع أن تعيد كل ما دار بينهما على أسماع الحكم وقبلت أن يذكرها العندليب بما قد تنساه . فيطيران ويتركان الشاعر حيث هو فى ذلك الركن الآمن السحرى من الوادى النائى السحيق . إنه لا يستطيع أن يطير مثلهما . ويقول الشاعر : أما ماحدث بينهما فى هذا الاحتكام فإنى عاجز عن أن أقصه ، إذ هنا تنتهى قصتى هذه .

وهكذا تركنا معلقين كما قد تركنا غير شاعر ناقد من قبل فى مثل هذا الموقف من تصوير معركة القديم والحديث فى الأدب ، لا خوفا من سلطان القديم ولا فتوراً نحو هذا الجديد ، ولكن لتردد الشاعر حقًّا بينه وبين نفسه فى تفضيل أحدهما على الآخر تفضيلا تاما كاملا . إنه شاعر يرى الجمال ويحسه إحساساً عميقاً شاملا ، بلغ من شموله أنه أصبح من الصعب عليه أن يشوبه الحس بدرجات أو بميزان . فهذا القديم له قوته وسلطانه ، وهذا الحديث له عذوبته ولذته وجماله . فأيهما أفضل ؟ إنه يحب الحديث ولكن أهو الأفضل فعلا ؟ وهل نستطيع نحن حتى بعد أن سجل التاريخ انتصار الحديث أن نفاضل حقًّا مهما ملنا إلى أحدهما دون الآخر .

وتركت القصيدة أثرها فى الشعر الإنجليزى المعاصر والذى أتى بعدها ، بل فى شعر أوربا أيضاً . وتعاونت هى ومؤثرات أخرى على نماء أنواع بعينها من الأدب كتبت لها السيادة على قرون طويلة فى تاريخ الأدب . فقد قوى شعر المغنين الطوافين وعظم أثره ، وظهرت ملاحم الحيوانات التى ترمز إلى أحداث التاريخ وأحوال الشعب بأحداث الحيوان وأحواله ، والتى خلدت عصوراً بعينها من عصور الأدب كملحمة الثعلب رينار . ونما هذا الشكل من أشكال الأدب ،

شكل المناظرة ، نموا قويا ، واستغل كثيرا فيما قد كتب بعد هذه القصيدة من شعر وقصص أيضاً .

أفنعجب بعد ذلك إذا وقف النقاد أمام تلك القصيدة وقفة طويلة لا ليتمتعوا بتأمل صورة جميلة من صور معركة القديم والحديث التى تتكرر فى تاريخ النقد تكراراً قويا فحسب ، ولكن ليحاولوا أيضاً أن يحددوا مدى ما أحدثت تلك القصيدة من أثر فى الإنتاج الأدبى قرونا طويلة متتالية ، ثم ما كان لهذا الإنتاج الأدبى من أثر فى صبغ عصور طويلة بصبغة خلابة قوية لونت نظر المؤرخين أنفسهم لهذه العصور الطويلة التى سبقت عصر النهضة المعروفة فى أوربا .

سهير القلماوى

الديمقراطية فى الأمم الديمقراطية

يغلب علينا كثيراً أننا حين نتحدث عن الديمقراطية ، نعمد إلى الأسلوب الذاتى ، فنشرح آمالنا وأمانينا الذاتية ، ونكاد نتعامى عن الواقع ، أو لا نختار من هذا الواقع إلا ما يوافق هذه الآمال والأمانى . ولذلك يحسن بنا أن نتقيد بما يجرى فى الأمم الديمقراطية ، وأن نقتصر على ما نجد فيها ، أى فى سويسرا والولايات المتحدة والدنمرك وبريطانيا مثلا ؛ فنذكر كيف يعيش الفقير هناك ، وما هو حال الصحافة هناك ، وماذا يجرى فى التعليم ، وكيف يعالج التعطل ، وكيف تجبى الضرائب إلخ .

وبهذا المنهج نتقيد بالحقائق الموضوعية ، ولا نتورط فى الأوهام والأمانى الذاتية .

وقبل أن نشرع فى « وقائع » الأمم الديمقراطية يجب أن نقشع وهماً عن تاريخ الديمقراطية العصرية وأن نعللها بتعليلها الصحيح .

فكلمة « ديمقراطية » إغريقية ، ومعناها حكومة الشعب . ولكن ليس هناك أية علاقة تاريخية بين إغريقية الكلمة وبين مدلولها فى العصر الحاضر ؛ فإن الصلة بين الأمم الحديثة وبين الإغريق القدماء مقطوعة . فلا نستطيع أن نرجع بأصول القضاء أو الحكومة أو المجتمع إلى المؤسسات الإغريقية القديمة . وصحيح أنه كان فى أثينا ، لا فى الجزر الإغريقية ، ديمقراطية . ولكن هذا النظام لا يتسلسل إلينا أصيلا أو منقحاً . وحتى القرية السويسرية التى لا تزال تمارس الحكم على ما يشابه النظام الأثينى ، لا تتصل بأية صلة بأثينا . وهذه النظم الديمقراطية فى الأمم الحديثة تعود إلى أسباب لم يعرفها الإغريق أو الرومان .

وقد ظهرت فى القرون الوسطى باوربا مدن استمتعت بنوع ما من الحكم

الذاتى النيابى فى صورة المجالس البلدية ، ولكن هذه أيضاً لا تمت إلى الإغريق بسبب . وإنما كان مرجع نظامها إلى التجار الذين شرعوا يربطون العالم ، بعد نحو ألف سنة من الانفصال عقب الانهيار الرومانى ، بروابط تجارية ، مثل جنوة والبندقية فى الجنوب ، والمدن الهنسية فى الشمال . ولكن هذه المدن فى حكمها النيابى لم تكن ديمقراطية ؛ لأن النيابة البلدية كانت مقصورة على التجار الأثرياء . أما عامة الشعب فلم يكن لها شأن فى هذا الحكم .

ولكن عند ما ننتقل إلى انجلترا نجد تقاليد برلمانية ، وإن كانت هذه التقاليد بقيت نحو ٦٠٠ سنة وهى غير ديمقراطية ، أى أن عامة الشعب لم يكن لها شأن كبير أو صغير فى الحكم.. ومع أن فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية كانتا تنظران حوالى سنة ١٧٧٠ إلى الحكم البرلمانى فى إنجلترا وترجو كل منهما أن يكون لها برلمان ، فإن البرلمان الأمريكى عقب ثورة سنة ١٧٧٦ والبرلمان الفرنسى عقب ثورة سنة ١٧٨٩ كانا أبعد فى الديمقراطية من البرلمان الانجليزى نفسه الذى اتخذ قدوة .

فإذن إلامَ يعزى النظام الديمقراطى القائم الآن فى أوربا ؟

هذا النظام الديمقراطى الذى يعم أوربا وأمريكا هو فى حقيقته انقلاب عصرى فى السياسة والحكم ، وكان ثمرة انقلاب آخر فى الاقتصاد . ومن القواعد التى يجب ألا ننساها أن جميع الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية إنما تتألف وتتكون وفق القواعد الاقتصادية فى طرق الانتاج التى تعيش بها الأمة . ففى القرون الوسطى كانت أوربا إمارات صغيرة ، حيث الأمير ملك أو كالملك ، وشعب الإمارة عمال عنده كالعبيد ، يزرعون أرضه ويتقيدون بحكمه الذى لا يحد من استبداده سوى القليل من العرف والتقاليد . ومن غير المعقول أن تنشأ حكومة برلمانية ديمقراطية فى هذا الوسط الاقتصادى ، ولكن من المعقول أن تنشأ حكومة برلمانية غير ديمقراطية يتولى السلطة فيها هؤلاء الأمراء أو النبلاء أنفسهم . وقد كان هذا حال إنجلترا بين سنة ١٢١٥ حين خضع الملك جون للنبلاء وأمضى « الوثيقة الكبرى » إلى نحو سنة ١٦٠٠ حين تكونت العوامل الاقتصادية التى جعلت الحكم الديمقراطى محتوماً .

فما هى هذه العوامل الاقتصادية ؟

ظهرت فى أوربا عامة وإنجلترا خاصة طبقة التجار الذين صاروا يغارون

من سلطة الأمراء والنبلاء واللوردات ، وصاروا يضعون مالهم المكسوب إزاء أموال أولئك الموروثة ، ويطلبون حقوقاً فى الحكم مثلهم ، بل يطلبون إلغاء الرق الزراعى الذى كان يستمتع به الأمراء والنبلاء دونهم . ولذلك أدى ظهور هؤلاء التجار إلى الدعوة إلى الحريات وإلى معان من المساواة والعدل تقارب ما نفهمه منها فى عصرنا الحديث . وقد نجح هؤلاء التجار فى دخول البرلمان الإنجليزى ، وأصبح لهم صوت مسموع ، يخفت أحياناً ويعلو أحياناً ، منذ سنى ١٥٠٠ و ١٦٠٠ .

ولكن هؤلاء التجار لم يكونوا من الوجدان أو القوة بحيث يستطيعون تعميم الأفكار والعقائد الديمقراطية ، وكان مع ذلك أثرهم واضحاً فى البرلمان الإنجليزى الذى أصبح قدوة للأمم الأخرى . وسبق الإنجليز فى هذه الناحية يعزى إلى سبقهم فى التجارة العالمية . ووجود طبقة من التجار العالميين ، وحولهم القليل من الصناع ، جعل الحكم البرلمانى غير مقصور على النبلاء والأمراء واللوردات الوارثين .

أما الحكم الديمقراطى العصرى فمرجعه إلى ذلك الانقلاب الصناعى الذى أخذ منذ سنة ١٧٧٠ يسير بطيئاً أولا ، ثم تراكمت أمواجه ، فاندفع بقوته المتزايدة فى هذه السنين الأخيرة . ذلك أن هذا الانقلاب الصناعى قد غير أوربا ونقلها من الحضارة الزراعية ، حضارة الريف الفقير ، إلى الحضارة الصناعية ، حضارة المدن الغنية . ونحن فى سنة ١٩٤٦ عند ما نتأمل هذه الدنيا التى نعيش فيها نجد أننا فى صميم الأمر لا نشكو القلة فى الاقتصاديات العالمية ، بل نشكو الوفر بسبب هذا الانقلاب الصناعى .

وكثير من الباحثين يردون العصر الديمقراطى الحاضر إلى مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى : الحرية والمساواة والإخاء . ويفسرون هذه الثورة بأنها كانت الثمرة ، المرة أو الحلوة ، للتفكير التحريرى الذى قام به دالمبير وديدرو وروسو وفولتير وغيرهم . كأن التفسير للثورة ذهنى .

ولكن ما الذى حمل هؤلاء الكتاب على دعوة التحرير هذه ؟ أو ما الذى جعلهم يحسون هذا الوجدان الجديد ؟

الجواب على هذا أنهم كانوا ينتسبون إلى طبقة التجار والصناع الجديدة ،

يفكرون تفكيرها ، ويحسون عواطفها ، ويعبرون عن كراهتها لطبقة النبلاء ، أو بالأحرى يعبرون عن كراهتها للنظام الاستعبادى الذى كان يجعل النبيل يستبد بعامله الزراعى ويستغله بما يشبه المجان ، فى حين كان التاجر أو صاحب المصنع لا يجد من يكفيه من العمال ، أو يجد القليل جداً منهم . وهم لقلتهم يكلفونه أكبر الأجور .

وإذن نفهم أن هذه الدعوة إلى الحرية والمساواة والإخاء فى فرنسا كانت تنهض على تبدل اقتصادى قائم، لم يرافقه تبدل اجتماعى . فكان السخط من هؤلاء الأدباء ، لأنهم كانوا إزاء مجتمع غير متطور يستمسك بتقاليد اجتماعية قد ثبت النظام الاقتصادى الجديد زيفها وضررها . وأدى التصادم بين المستمسكين والمتطورين إلى الثورة .

ونجحت الثورة ، وأعلنت الحرية والمساواة والإخاء ، وظهرت الحكومات الديمقراطية التى ترفض الاعتراف بامتيازات النبلاء .

ثم ظهرت المصانع الآلية ، أو بالأحرى تفشت ؛ فزاد تجمع العمال فى المدن وزاد وجدانهم الطبقى . ولم يتنبه وقتئذ دعاة المساواة والحرية إلى أن هذين المبدأين يتناقضان إزاء المصانع الآلية والمتاجر العالمية . إذ ما دام الناس أحراراً فى جمع المال والتوسع الصناعى والتجارى فإنهم لن يتساووا ؛ لأن منهم من يصل إلى القمة فى الصناعة أو التجارة ، ومنهم من يبقى عاملا لا أمل له فى الامتلاك . وهنا عقدة أوربا وأمريكا الحاضرة ، وهى ليست موضوعنا الآن . وهى عقدة اقتصادية : تفاوت اقتصادى قائم فعلى ، مع الاعتراف الاجتماعى أو العرفى أو القانونى بضرورة المساواة .

بعد هذا التعليل للديمقراطية نحاول الآن النظر فى واقعها :

الديمقراطية فى لبابها وروحها تعد حركة « رومنتية » أى حركة الابتداع والتفكير والعمل ، كما أنها حركة الاقتحام للمستقبل والتفاؤل به . وهى من هذه الناحية غير « كلاسية » أى غير تقليدية . ومن هنا التعليل لما فيها من تسامح . لأن التسامح فى صميمه يعنى أننا يجب علينا ألا نستمسك بالتقاليد إلى حد التعصب أو الكراهة لمن يخالفنا . بل إذا كان هناك تعصب فى الأمم الديمقراطية فهو على التقاليد ولا لها . لأن الإيمان العام فى الأمم الديمقراطية أن الطبيعة البشرية حسنة لم يفسدها غير الحكومات والعقائد والتقاليد ، وأنه إذا ترك

الناس أحراراً لم تؤدِّ حريتهم هذه إلى الإيذاء والفوضى ، بل أدت إلى النظام والحب . وفى هذا الكلام شطط قد وقع فيه روسو وغيره ولكنه شطط منبه يبعث على التفكير ، أو هو الخطأ الذى يهدى إلى الصواب . والتسامح ، والحرية ، والمساواة ، المساواة بين الأفراد والمساواة بين الجنسين ، والعدل : كل هذه الفضائل هى مزاج الأمم الديمقراطية ولكنها ليست كلها حقائق واقعة ، أى إن الأوربى يتجه إليها ، ولكنه لم يوفق لتحقيقها إلى الآن .

حدث قبل نحو ١٤٠ سنة أن البارون همبولت زار جيفرسون رئيس الولايات المتحدة ، فوجد جريدة على مكتبه ، فلما تناولها وجد بها مقالا قد امتلأ بكلمات السباب والقذف فى الرئيس ، فنظر إلى الرئيس وقال : كيف تسمحون بهذا السباب ؟ فقال الرئيس : خذ هذه الجريدة وضعها فى جيبك ، فإذا وجدت من يشك فى حقيقة حريتنا أو حرية الصحافة فى الولايات المتحدة فأعطها له .

هذا هو المزاج العام فى أوربا وأمريكا . وهو مزاج يجعل النقد مباحاً مستفيضاً فى جميع الأوساط الديمقراطية . فليس هناك مشكلة يمنع الجمهور من بحثها . كما أنه ليس هناك وزير أو موظف يعاقب الكاتب على الحملة عليه بكلمات تستبشع فى بلادنا . فقد وجدت ذات مرة صحيفة إنجليزية فى إنجلترا تصف رئيس الوزراء بأن رأسه رأس خنزير .

وأما عن الحرية والمساواة والعدل فإن المزاج العام يتجه إليها ، ولكن المجتمعات الديمقراطية الأوربية لم تستطع إلى الآن تحقيقها ، لعوامل اقتصادية رسخت وتأصلت جذورها ، وتحتاج إلى مجهودات كبيرة لبلوغ هذا التحقيق .

هذا هو المزاج العام أو الروح العام فى الحضارة الأوربية الديمقراطية . فلننظر الآن إلى السمات العامة فى الأمم الديمقراطية . ونعنى ماهو واقع تشهد به النظم الحكومية وقوانين المحاكم . . . إلخ .

١ — فأول مانرى من سمات هذه الأمم أنها جميعها يشرف على شؤونها « برلمان » مؤلف من مجلس واحد أو مجلسين ، وينتخب أعضاؤه انتخاباً نسبيا أو مطلقاً .

٢ — الحكومة الديمقراطية هى فى صميمها « لجنة » يؤلفها البرلمان من بين أعضائه . فالحكم فى النهاية فى يد البرلمان .

٣ — يستطيع البرلمان أن يفعل كل شيء؛ حتى لقد فرض ديسى فرضاً جنونياً كى يثبت هذه القدرة العامة للبرلمان؛ إذ قال: إن البرلمان الإنجليزى يستطيع أن يسن قانوناً لقتل كل من تكون عيناه زرقاوين. وليس هناك عندئذ مايطعن فى صحة هذا القانون.

٤ — بعض البرلمانات مع ذلك لايجوز لها أن «تفعل كل شيء». فالبرلمان الأمريكى قد منعه الدستور من أن يسن قانوناً لتقييد حرية الصحف أولمنع الجمهور من حمل السلاح. وفسر لنكولن هذا المنع بأن من حق الشعب أن يغير، عند الحاجة، الحكومة بقوة السلاح إذا لم يستطع أن يغيرها بالوسائل السلمية.

٥ — مع وجود البرلمان المركزى للأمة توجد على الدوام برلمانات صغيرة نيابية ديمقراطية فى المدن والقرى، وهى تتمتع بحقوق واسعة جداً. يدلك عليها أن المجلس البلدى فى لندن مثلا يتناول ميزانية يجبيها وينفقها فى لندن لاتقل عن ميزانية الحكومة المصرية كلها.

٦ — المساواة فى الحقوق السياسية عامة، بحيث يستطيع العامل أن يصل إلى منصب الوزارة. وفى أوربا الآن وزراء كانوا فى وقت ما عمالا. كذلك المساواة عامة، فى أغلب الأمم الديمقراطية، بين الجنسين.

٧ — المساواة الاقتصادية غير عامة. ولكن الحكومات الديمقراطية تحاول أن تعالج التفاوت بين الفقراء والأغنياء بثلاث طرق:

(ا) التأمين الاجتماعى ضد التعطل والمرض والشيخوخة.

(ب) فرض الضرائب التصاعدية، أى كلما علا الدخل زادت الضرائب. وهذا غير الضرائب على التركات والأيلولة.

(حـ) تأميم الصناعات الكبرى، أى إن الحكومة هى التى تدير المناجم أو بعض المصانع الكبرى وتجعلها ملكا للأمة.

٨ — التعليم الابتدائى، وأحيانا التعليم الثانوى، عام ومجانى لجميع أفراد الشعب.

٩ — نظام التعاون أساسى فى جميع الأمم الديمقراطية، وكذلك نظام النقابات للعمال.

١٠ — حرية الرأى فى الكلام والخطابة والصحافة والتأليف، وكذلك حرية الاجتماع، مقدستان.

١١ — الدين يفصل من الدولة فى العادة . ولكن حتى حين لايفصل تؤيد الدولة سائر الأديان وتخصها بإعانات مالية . فالحكومة الهولندية مثلا تؤدى إعانات مالية للكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستنتية والكنيسة اليهودية على السواء .

قلنا : إن المزاج العام فى جميع الأمم الديمقراطية هو مزاج الحرية والمساواة والإخاء . وهذا هو ما تنطق به الصحف ، وما يتعلمه الطلبة فى الجامعات ، وما يقوله الكهنة فى الكنائس . ولكن منطق الحوادث يختلف عن منطق الكلام بل يناقضه ؛ لأن طرق الإنتاج الصناعى منذ حوالى سنة ١٧٧٠ ، بل كذلك طرق الاتجار العالمى ، قد أوجدت التفاوت الاقتصادى ، وهو تفاوت ليس له شبيه أيام القرون الوسطى .

ومن هنا نجمت الدعوة الرجعية أحياناً بين بعض الكتاب الذين يدعون إلى العودة إلى نظام القرون الوسطى . وهذا حنين سخيف . لأن سذاجة العيش فى تلك القرون قد تغيرت إلى أساليب معقدة تعيش بها الأمم فى عصرنا ولانستطيع النزول عنها ، ولا يمكن أن نرد عقرب الساعة ألف سنة إلى الوراء .

وقد كانت الحرية والمساواة ، أى الدعوة إليهما ، أمام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ معقولة ، أو بالأحرى لم يكن أحد يستطيع أن يبصر عواقبها ؛ لأن طرق الإنتاج كانت لاتزال على شىء من السذاجة ؛ إذ لم يكن المصنع ، مهما تضخم واتسع ، يحوى أكثر من عشرة أو عشرين من العمال . فلم يكن هناك خوف من التفاوت العظيم بين الأغنياء والفقراء . ثم إن شبح التعطل لم يكن يشخص فى خيال المفكرين . أما الآن فإن بعض المصانع ، بقوة الآلات العظيمة ، تستخدم عشرات الألوف من العمال ، وأحياناً تقفل هذه المصانع أبوابها فيتعطل مئات الألوف بل الملايين من العمال .

هذه هى العقدة التى تواجهها جميع الأمم الديمقراطية فى عصرنا . ولهذا السبب اتجه الديمقراطيون إلى اليسار ، وأصبح فى كل أمة نواب يساريون وصحافة وتفكير يسارى .

وقد نشأت كلمة « يسارى » من الوضع البرلمانى للنواب ؛ فإن المعارضين فى المجالس النيابية يقعدون عن يسار الرئيس . ويقعد الحكوميون عن يمينه .

فاليسارى معارض ، والدعوة اليسارية هى مجازاً ، دعوة إلى التغيير والتطور . وتختلف اليسارية فى الأمم من حيث الأسلوب الذى تتخذه . فإن مشروع بيفردج يعد فى بريطانيا مشروعاً يساريا ، يعالج التفاوت الاقتصادى بالتكفل بكل شخص من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، بل قبل ميلاده ؛ لأن أمه وهى حامل تحصل على معونة تتيح لها البقاء بالبيت نحو شهر قبل الولادة . ثم تتعهد الدولة هذا المولود بالتغذية والتعليم ، ثم بالعمل والإعانة فى التعطل ، والتمريض فى المستشفى ، والإعانة فى الشيخوخة .

ثم هناك اليسارية التى تدعو إلى تأميم المصانع والمناجم والمزارع ، أى تمليكها للدولة . فإن المستر تشرشل ، على الرغم من أنه محافظ ، عاش طول حياته السياسية يدعو إلى نزع الأرض من المالكين وتسليمها إلى الفلاحين . والحكومة البريطانية فى الوقت الحاضر تشتغل بسن قانون لنزع المناجم من المالكين وتسليمها للدولة .

ومن قبل التأمين الاجتماعى ، ومن قبل التأميم ، كانت جميع حكومات أوروبا الديمقراطية تأخذ بالضرائب التصاعدية للتخفيف من التفاوت الاقتصادى . وربما كان من المفيد أن تقارن بين أقل الحرف وأعلى الحرف كسباً فى الدولة الديمقراطية ؛ لأن الدولة تحدد الأجور والرواتب بما يتفق وحال المجتمع . والتقدير هنا بالجنيه الانجليزى :

الدولة	الكناس فى المجلس البلدى	الوزير
إنجلترا	١٤٥	٥٠٠٠
الدنمرك	١٥٠	٩٠٠
السويد	٢١٠	١٣٠٠
سويسرا	٢٢٣	١٦٠٠

وهذه المقارنة تدل على أن التفاوت عظيم . ولكنها أيضاً تدل على أنه ليس فى الأمم الديمقراطية ذلك الفقر المدقع والبؤس الأسود الذى يعيش فقراء آسيا وأفريقيا فيه .

سلامة موسى

للحقيقة والتاريخ

رسائل الزهاوى

ترجع صلتى بالشاعر الفيلسوف المرحوم جميل صدقى الزهاوى إلى أكثر من خمس عشرة سنة مضت ، وكنت يومئذ ذلك الفتى اليافع الذى أقبل على دراسة الأدب العربى شعره ونثره — والشعر خاصة — بنهم وشغف بالغين كى يتزود منهما زاده المرجوّ ، وخرج من تلك الدراسة حردان يائساً ؛ فالمثل العليا التى يتعشقها ، والآفاق الواسعة التى يتشوق إليها ، والأجواء المعطرة التى يبتغى أن يحلق فى سماواتها ، أضحت أمامه كلها هباء فى هباء . أجل ! فهذا الشعر الجاهلى بالرغم من حيويته المتدفقة وصياغته البليغة ، تعوزه الصبغة الإنسانية ، أو بعبارة أخرى « العالمية المتحررة » المنطلقة من عقالها ، والتى لا تتقيد بهذا الأفق الضيق ولا تستمع إلى تلك الهمسات الخافتة ، ولا تنحاز جانب ذلك الشعاع الضئيل . . .

على أن من أفضل حسنات هذا الشعر تصويره الصادق للبيئة العربية — ببداوتها وبساطتها — وبما يكتنفها من خشونة وبأس ، ويعتورها من قسوة وألم ، وما طبعت عليه من روح المغامرة والفروسية العارمة والشجاعة المنقطعة النظير . . .

وهو — بعد القرآن الكريم — فى مواطن كثيرة مرآة صادقة للفحولة التى تتسم بها اللغة ، والعبقرية التى بوأتها الصدارة بين لغات العالمين . . .

واعتقدت يومئذ — وما زلت أعتقد — أن هذا الشعر وحده مع هذه الخصائص ، لا يشبع شهوة الجاشع النهم ولا ينقع غلة الصادى .

ثم واصلت الدرس ، فرأيت أن الإسلام قد رقق من حواشى هذه الصحائف الخشنة ، إذ صافحت نسماته العذاب وجوه الشعراء ، فصفت نفوسهم وسمت أرواحهم ، وتجاوبت أصواتهم المدوية وأهازيجهم الجميلة مع صوت الحضارة

الجديدة ، فأعجبت بما ابتدعوه من رائق المعانى وجمال التصوير ، وارتيادهم هذه المجاهل التى لم يفطن إليها الأقدمون . . .

ثم جاء شعراء العصر العباسى ، فكانوا أكثر افتنانا فى الخلق وتجويداً فى المعانى . وذلك من الطبيعى ، لتأثرهم بثقافة الإغريق من ناحية ، ولما أمدتهم به الحضارة من أفانين الحسن وشتى ألوان الجمال من ناحية أخرى .

وأعجبت بهؤلاء الفحول — حملة الشعل — الذين أضفوا على اللغة العربية حللا قشيبة جميلة ، وكنت أكثر إعجاباً بأبى تمام والبحترى وابن الرومى وأبى نواس .

ولكننى خرجت من دواوينهم غضبان أسفا . ذلك لأننى رأيتها قد اكتظت بشعر المديح والهجاء . أما الشعر الفنى الذى يرتفع بالقارئ إلى منازل المثل العليا ويحمله على أجنحة الحب إلى سماء الحقيقة ومناسك الجمال ، فلم أر له ذلك الأثر الذى أنشده وأبتغيه .

ثم نظرت أمامى فلم أجد غير شوقى وحافظ والمطران والزهاوى والعقاد ، وأن الأول وهو الذائع الصيت لم يأت بجديد رغم تلك الأحقاب الطوال التى سلكها الشعر العربى ؛ إذ أنه لم يك يومئذ قد ابتدع شيئاً من مسرحياته الشعرية الخالدة ، بل ظل خالداً فى أحضان الشعر التقليدى — الرثاء والمديح والهجاء — عاكفاً عليه ينسجه احتذاء وتقليداً للشعراء القدامى . وكذلك الشاعر الاجتماعى حافظ إبراهيم كان هو أيضاً ينافس المرحوم شوقى فى زعامة ذلك الشعر التقليدى فصدفت عنهما ، واستوقف ناظرى ذلك التجديد الرائع الذى أخذ بزمامه الزهاوى ومطران والعقاد . . . فدواوينهم لم يشبها المديح ولا الهجاء — اللهم إلا فى القليل النادر — ونظراتهم إلى الشعر نظرات فنية بحتة . وإن فى شعرهم ذلك المزيج العجيب من الحيوية الدفاقة والإنسانية الشاملة — رغم ضعف نسيجهم فى بعض الأحايين — التى تتسم بالصدق ويحيطها الجمال من كل مكان .

فأخذت فى دراسة آثارهم ، وخرجت من هذه الدراسة راضياً مطمئنا موقنا بأن هؤلاء الشعراء أحدثوا حدثاً جديداً فى الشعر العربى . وكان لزاما على أن أسجل هذا الإعجاب وذلك التقدير ، فاعتزمت أن أنشئ عن كل منهم كتاباً

خاصا ، فبدأت بالزهاوى واتصلت به عن طريق « الرسائل » ؛ إذ أننى لم أجد وسيلة لتحقيق حياته غير ذلك ، ولبعد الشقة ؛ فكانت هذه الرسائل العجيبة أو بعبارة أخرى « التحقيقات العلمية » الفريدة التى جاد بها علىّ ذلك الرجل الكريم عن طيب خاطر — فى بساطة ودماثة خلق — مما جعلنى أنشر الفصول الضافية عن حياته وكفاحه وجهاده فى سبيل لغة الضاد الخالدة وفى سبيل وطنه العزيز — قبل رحيله إلى الدار الآخرة — بالسياسة الأسبوعية والمقتطف الأغر .

وهأنذا أبدأ بنشر رسائله — وقد مضى على وفاته نحو عشر السنوات — توطئة لنشر كتابى عنه حسبما أوصانى . وهى مما استنفدت من مجهود تؤلف قسما هاما من هذا الكتاب . وإنها اليوم وهى أمانة فى عنقى أضحت بوفاة صاحبها ملكا للعالم العربى وقلادة جميلة فى عنق الحقيقة والتاريخ .

احمد محمد عيش

*

صديقى الأستاذ

سلاما واحتراما ، وبعد فقد قرأت فى السياسة الأسبوعية أول شطر من ترجمتك لحياتى قبل إهدائك إياها إلىّ فأنا أشكر لك جميل صنعك وتجشمك كل هذا التعب . وقد رددت على أسئلتك أمّا « الكائنات » فما عندى منها غير نسخة وهذه لا أفارقها وعسى أن تحصلوا على نسخة منها فى مطبعة المقتطف فإنها طبعت فيها وقد جعلها أصحابه قبل سنوات هدية لمشتركيهم وكذلك لا يهون علىّ إرسال «الأوشال» و «النزغات» فإنهما مخطوطتان وليس عندى غيرهما .

أما قصائد الأوشال فأكثرها منشور فى السياسة الأسبوعية والرابطة الشرقية والعصور والدهور والمعرفة والإصلاح (تصدر فى أميركا الجنوبية) وكذلك ما عندى من المحاضرات التى كنت ألقيها على تلامذة الجامعة فى الآستانة غير نسخة واحدة باللغه التركية ولا يسعنى مفارقتها .

وأما « ثورة فى الجحيم » فعندى نسخة منها مطبوعة فى مجلة الدهور وعندى المسودة فأرسلت إليك النسخة المطبوعة وقد تكون فيها أغلاط

مطبعية لا تخفى على مثلك ، وأرسلت « الجاذبية وتعليلها » وأرجو أن تعول فى هذا التعليل على « المجل » والديوان الذى طبع فى مصر باسم « ديوان الزهاوى »

أما ما كتب عنى المستشرقون فمعظمها نشر فى « لغة العرب » للاستاذ الأب « أنستاس » وأما ما كتبته المجلات فى مصر وسورية وأميركا فكثير ، غير أنى لم أحفظ جميعه والمحفوظ منه ضائع فى ركام من المجلات والجرائد وصناديق مملوءة من الأوراق وقد رسب عليها الغبار فلا أستطيع أن أتصفحها فلا تكلفنى مالا أستطيع .

ولك أن تتصرف فى رواية « ليلى وسمير » من دون أن تطلعنى عليه .

وقد بلغنى أن مستشرقا كبيراً فى جنيف يشتغل بترجمة حياتى ، وقد عزم على أن ينقل أحد مؤلفاتى إلى اللغة الألمانية (لعله ثورة فى الجحيم) وقد طلبها منى بواسطة أحدهم فأرسلتها إليه مع قسم من مؤلفاتى ودواوينى ، وقد نقل أحد مستشرقى الألمان أبياتاً إلى الألمانيـة شعراً وتكلم عنى مطريا فى مجلة ألمانية له وأهدى إلىّ العدد .

وقرأت قبل سنوات مقالا رئيسيا فى أكثر من صفحة من جريدة « الرائد » الأميركية يكبر شأن ديوانى « اللباب » ويرجحه على دواوين غيرى ويقترح على الحكومات العربية أن تدخل تدريسه فى مناهج التعليم لمدارسها وتعدد فوائد ذلك .

وقرأت فى إحدى أعداد السياسة الأسبوعية قبل سنتين تقريبا مقالا للكاتب الكبير محمود عزت موسى يقول فيها « أنا لا أفضل شعر جوته شاعر ألمانيا على شعر الزهاوى » وقرأت كذلك فى السياسة الأسبوعية سلسلة مقالات لاحد أدباء الاسكندرية يطرى فيها شعرى فوق ما أستحقه .

وقرأت قبل سنتين أو أكثر مقالا للكاتب النابغة الدكتور طه حسين فى « المجلة الجديدة » للاستاذ سلامه موسى يقول فيه ما ملخصه « إن شوقى وحافظا من شعراء بنى العباس وإن المجددين للشعر العربى ثلاثة العقاد والزهاوى وخليل مطران حين كان يعنى بالشعر العقاد وخليل فى معانيهما دون لفظهما والزهاوى فى ألفاظه ومعانيه ويلذنى معانى العقاد كما يلذنى شعر كبار الشعراء فى فرنسا وانكلترا وكما يلذنى شعر الزهاوى وأرى الفرق عظيما بين الفاظ

الزهاوى وألفاظ العقاد وبين معانيها » فقد رجحنى يومئذ على جميع شعراء العرب فى عصرى وجعلنى المجدد الوحيد الذى حسنت ألفاظه ومعانيه ثم إنه بعد وفاة شوقى نشر مقالا فى الصحف قال فيه إن زعامة الشعر التقليدى بعد شوقى وحافظ انتقلت إلى بغداد يتنازعها الزهاوى والرصافى.

وقرأت قبل ذلك مقالا للاستاذ العقاد يطردنى فيه من حظيرة الشعراء والفلاسفة.

وتأتينى فى كثير من الأحايين من مصر والسودان وتونس وسورية كتب يبالغ أصحابها فى إطراء شعرى فقد جعل بعضهم ديوانى « اللباب » توراة المحدثين وإنجيلهم وقرآنهم وقد أهدى إلىّ بعض الأدباء فى السودان صولجان الشاعرية مصنوعا من سن الفيل ومنقوشاً عليه اسمى.

وهناك كتب تأتينى وأكثرها من وطنى بغداد مملوءة بالسب والإهانة والتهديد وقد كتب أحدهم فى مجلة له قائلا « أما الزهاوى فلا شئ ».

يقولون لا شئ وهم يرجموننى   وهل يستحق الرجمَ مَن هو لا شئ

وكتب أخيرا أحدهم فى مجلة « أبولو » أن ليس فى شعر الزهاوى الموسيقى التى هى فى شعر شوقى.

ولا تظنن أنى أنزعج من مثل هذه الكتابات فإن الأذواق مختلفة والأدباء يقدرون الشعر بحسب مستواهم من الأدب.

ولقد أرسلت إليك مجموعة من الأبيات التى ذهبت أمثالا أو كادت لكثرة ما يُستشهد بها التقطتها من ديوانىّ « اللباب » و « الأوشال » وشيئاً قليلا من شعرى الغرامى والعاطفى وكنت أود أن أرسل إليك ما أختاره من شعرى الوصفى والفلسفى والاجتماعى والسياسى ولكن هذا يكلفنى تعبا لا أقوى عليه اليوم، واسمح لى أن أقبل عينيك النافذة.

جميل صدقى الزهاوى

بغداد فى ١٦ شباط سنة ١٩٣٣

ملاحظة : إنى أجوبتى عن أسئلتك كتبتها مراحماً تذاكرتى الواهنة ولو كنت كما كنت قبلا لأثبت المواضيع ولكن الشيخوخة والمرض عدوان.

حضرة الأستاذ

تحية واحتراما . وبعد فقد ثبطتنى أشغالى الفكرية التى كنت قد باشرتها قبل وصول كتابك إلىّ عن الإجابة على أسئلتك المرهقة وقد كان حتما على أن أنظم خمس قصائد مطولة فى مواضيع مختلفة فنظمتها وكانت العاقبة أنى مرضت أسبوعا فلم أعد أصلح للنظم أو الكتابة وحبذا لو كنت تصرف النظر عن توجيه أسئلة تتعلق بماضى حياتى وقد نسيت أكثر حوادثه وأرجو أن لا تتكرر هذه الأسئلة . فإنى أجد فى الجواب عليها عنتا وأنا ذلك الشيخ الذى يشبه جدارا يكاد ينقضّ . أما وقد أبللت فإنى مجيبك فى إجمال عن أكثر أسئلتك فى كتابى هذا .

لم تبق لى والدة ولا والد حتى أسأل منهما ما يتعلق بطفولتى فقد ماتت والدتى قبل أكثر من ٤٥ سنة ووالدى قبل ٤٠ سنة ، ولا هناك عجوز تعرف شيئاً من تلك الطفولة البريئة المتمردة فى وقت معا .

كانت والدتى تعيش مع أولادها فى بيت منعزل عن بيت والدى فنزعنى والدى من أحضانها دون إخوتى وأخواتى وأخذ على عاتقه أن يربينى تربية خاصة متبعاً هواه وكان هواه الأدب وكان شاعراً فى الفارسية والعربية معاً غير أنه مقل فيهما ، ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدعُ فى حاجة بازاً ولا أسدا ‏ ‏ ‏ ‏ الله ربك لا تشرك به أحدا

(يريد بالباز عبد القادر الجيلى وبالأسد عليا بن أبى طالب كما يلقبهما به الجمهور فى العراق) .

وأتذكر أنه كان فى طفولتى (ولم تتجاوز سنى يومئذ أربع سنين) يعدنى بدرهم إذا نظمت شطراً واحداً من الشعر موزونا وإن لم يكن له معنى وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جذل والدى أما جذلى أنا فكان فى الحلوى التى كنت أشتريه بذلك الدرهم .

وأتذكر أنى فى ليلة من ليالى الشتاء القرة كنت فى غرفة والدى فقال لى إلبس يا ولدى عباءتك فإنى أخاف عليك البرد فقلت له وأنا فى السن التى ذكرتها

« يا أبى إنى لابس للغرفة فمن أين يتسرب البرد إلىّ » فكان جوابى هذا مؤيداً لما كان يظنه فىّ من ذكاء وسببا لفرحه .

ولم تكن للبيئة العلمية التى ولدت فيها فضل لخلق الأدب فىّ وما ساعد مواهبى على الظهور — إن كانت لى مواهب — سوى ما كنت أسمعه من والدى وكنت شديد الاختلاط به أنام فى غرفته الخاصة بجنبه وأنظم الشعر تحت لحافى فأنبهه فى كل ليلة مرارا من رقاده أسأله عن وزنه وصحة تركيبه فكان يصلح لى ما يراه مختلا وكان يحملنى على حفظ أحسن الشعر قائلا إذا أكثرت من استظهار الشعر الجيد فإن شعرك سوف يكون من الجودة بمنزلة ما استظهرته ، ومن نصائحه لى عند ما شببت فاستطعت نظم القصائد قوله إنك إذا فرغت من نظم القصيدة فاصقلها ثم انقدها كأنها لغيرك مجردا نفسك من العاطفة فإذا لم يرقك من أبياتها شىء فاحذفه وإلا أفسد عليك الباقى الجيد وأنا إلى اليوم أعمل بنصيحته وأول ما نظمت الشعر فى الفارسية ثم انتقلت إلى العربية حتى شاع أننى أجيده فى كلتا اللغتين .

وبلغنى وأنا مراهق أن الكثيرين يعتقدون أن هذا الشعر الذى أنسبه إلى نفسى هو لوالدى ينحلنى إياه فذكرت ذلك له جردان متبرما فضحك قائلا يجب أن تفرح بدل التبرم فقد بلغ شعرك درجة أن لا يصدق الناس أنه لك فسرى عنى وكان يقول لى وأنا ابن العشرين إنك اليوم أشعر منى ولا أدرى ماذا سوف تكون فى المستقبل عند ما تبلغ الكهولة وتتوسع فى العلم واللغة . وقد تأثرت فى شبابى بشعر المتنبى وشاعر الترك يومئذ « كمال » بك .

ذهبت إلى الكتاب فى الخامسة من سنى أو الرابعة وبقيت فيه بضع سنوات بليدا لا أتقدم ولا أهتم بغير اللعب أو نظم الأشطر الفارغة من المعانى بعد أن وجدتها وسيلة لنيل الدراهم الموصلة إلى الحلوى ، ولكنى بعد ما انتهيت من جزء « عم » أخذت أخطو خطوات واسعة فتعلمت قراءة جميع أجزاء القرآن الباقية فى شهر واحد ، ولما شببت شرعت أقرأ على بعض العلماء من تلامذة والدى ميادىء الصرف والنحو والمنطق وشيئاً من البلاغة . فلما رأيتهم لا يشبعون جشعى ولا يقنعوننى بأجوبتهم على أسئلتى تركتهم ورجعت إلى والدى وقرأت عليه ديوان المتنبى وتفسير البيضاوى وشرح المواقف .

وكان يجتمع إلىّ فى شبابى عدد من الأدباء والشعراء نتذاكر الشعر ونختلف

فى معنى بيت أو بيتين فنذهب إلى والدى جاعلين إياه حكماً فيما اختلفنا فيه فكان دائماً يستصوب ما أذهب إليه حتى قال لى أحدهم إنه أبوك يريد ليرفع من شأنك فقلت انسبوا المعنى الذى ترونه إلىّ والمعنى الذى أراه إلى أنفسكم فإذا استصوبنى كنتم فى دعواكم من الصادقين فلما ذهبنا إليه وبسطنا أمامه ما اختلفنا فيه استصوبهم ووبخنى على خطئى فكان ذلك داعيا لسرورى وفشل المدعين .

وأول مجلة لذتنى مطالعتها هو الأجزاء الأولى من المقتطف ، وأول الكتب فى العلوم العصرية هو مؤلفات فانديك فى الفلك وغيره وكتابان ضخمان فى الفسيولوجيا والتشريح مصوران للدكتور ورتبات ، وكتب أخرى تركية كلها فى العلوم العصرية .

اما الكتب التى لا يمكننى اليوم أن أستغنى عنها فهى كتب اللغة المطولة ولا يلذنى شىء كقراءة الروايات المترجمة إلى العربية أو التركية .

أنا لا أعرف لغة غربية لأعرف أى الشعراء أو الكتاب فى الغرب هو الأكبر غير أنى قرأت بالتركية ترجمة البؤساء لفكتور هوجو فى مجلدين ضخمين فأعجبتنى وأبكتنى وقد قرأت مئات من الروايات المترجمة إلى العربية والتركية فكان بعضها فى منتهى الجودة ، ولا أتذكر الآن أسماء مؤلفيها غير أناتول فرانس وشكسبير وجوته والكسندر وتولستوى وقليل غيرهم .

وإذا كنتم فى سؤالكم « كيف تشعرون نحو كتبكم وما أحبها إليك بنوع خاص » تريدون مؤلفاتى فأحب منها « الكائنات » فإنها باكورتها وإن كانت عبارتها ضعيفة وأحب « المجمل مما أرى » لأنه يشتمل على خلاصة ما أذهب إليه وأحب من دواوينى « الأوشال » وهو ديوانى الأخير الذى لم ينشر منه إلا قصائد هنا وهناك وأحب خاصة قصيدتى « ثورة فى الجحيم » .

والأفضل فى هذه الحياة هو العلم والشعر ثم القصة .

أما مكتبتى فهى هزيلة ليس فيها إلا الكتب التى تهدى إلى من الخارج وأخر قد اشتريتها بعد رجوعى من مصر سنة ١٩٢٤ وكنت قبل ذهابى إليها قد بعت جميع كتبى إلا النادر منها لضيق ذات يدى يومئذ .

وأما وضعى فى مطالعتى فإنى أجلس فى الليل فوق سريرى أمام أكوام من الكتب التى أحتاج إليها مصفوفة فوق منضدة طويلة فى جنب سريرى الذى أنام عليه وقد أطلق علىّ الكهرباء بقوة مائة شمعة معلقا فوق رأسى ببكرة أنزله

وأصعده بها واقرأ فى الغالب مستلقيا على ظهرى على أن هذا الوضع يتعب عينى .

وكل ساعاتى محبوب إلىّ فيها المطالعة إذا عثرت على رواية مترجمة جديدة أو مجلة فيها مقالة فلسفية .

وأكتب شعرى أولا بقلم الرصاص ثم أصقله ثم أثبته فى مجموعة ديوانى الأخير ويحلو لى قرضه فى الليل ولـكننى أنظمه فى كل مكان وإن كنت فى مجلس نتحادث فيه ، وإذا شرعت أنظم قصيدة عن دافع فى نفسى فإنى أكملها فى ليلتى ثم أصقلها فى يوم أو يومين ، وأحسن قصائدى « ثورة فى الجحيم » كما قدمت ، وهناك قصائد أخر بعضها منشور فى ديوانى « اللباب » وبعضها موجود فى ديوانى الأخير « الأوشال » كقصيدة « على قبر ابنتها » وقصيدة « نامى » (هى ترنيمة للتنويم) وقصيدة فى « ليلة هنا » وقصيدة « إلاّ أنا وحدى » وقصيدة « اذكرى » وقصيدة « دمعتى » وقصيدة « إلاّ هواك » وقسم غير قليل من رباعياتى عدا قصائدى الفلسفية .

وأنصح للشعراء أن ينظموا عن شعور وأن يتجنبوا المبالغات وربما كان ذلك لأنى أميل إلى الحقيقة والخيال الذى لا يبعد عنها كثيراً وأن يتجنبوا الاستعارات البعيدة .

وأرى أن الغالب من شعراء مصر والعراق مبالغون وهذا الطرز من الشعر لا يكون عن شعور .

والفرق بين شوقى وحافظ كبير فإن شوقى أكثر ابتكارا وأبعد تصرفا وهو يجيد فى أكثر أبواب الشعر فى حين أن حافظا أكثر ما يجيد فيما يتعلق بالعاطفة وأرى أن شعر شوقى فى السنين الأخيرة أخذ يتجدد ولذلك تغير رأيى فيه فلا أنتقده إلا على مبالغاته التى لا صلة لها بالشعور ويعجبنى منه أسلوبه الخاص به ولـكل شاعر لحل أسلوب .

وأما الفراغ الذى تركه حافظ وشوقى فسوف تسدّه الأيام .

وكنت أجد فى حكم الأتراك غضاضة إلى عهد الدستور وكنت من معارضى استبداد الملك الجبار عبد الحميد ، ولظمت القصائد الجمّة أثير بها الشعب عليه وقد سُجنت عليها فى الآستانة ثم أُرسلتُ مخفورا إلى بلدى ولـكن الأتراك فى عهد الدستور كانوا يحترمونني إلى أن طغى الاتحاديون فأتوا أعمالا لا تتفق والعدالة وكم لى من وقفة فى البرلمان العثمانى أذود فيها عن حقوق العراق والعراقيين .

ولم أكن يوم عينتنى حكومة عبد الحميد عضواً فى مجلس المعارف ببغداد إلا شابا يتظاهر بالاستياء من وضع الحكومة فلعلهم أرادوا بتعيينى أن يسكتونى ولما ذهبت إلى الآستانة واختلطت بالترك الفتيان أبعدت فى التجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعارة فى أمهات الصحف المصرية، وقد ذهبنا فى حرب الإنجليز والبوير جماعة من الترك الأحرار نتمنى للإنكليز الفوز فى محاربتهم وذلك بقرار من الحزب المناوىء لعبد الحميد يريدون بذلك أن يعضدهم الإنكليز فى طلبهم الدستور وكنت نظمت لهذه الغاية قصيدة أمدح فيها الإنكليز وأشدو بقوة أسطولهم وقد نشرت فى أول ديوان نشر لى « الكلم المنظوم » وإلى اليوم يعيبنى ناقدوى على هذه القصيدة ولكن هل كنت يومئذ أعرف أن ستحدث حرب عالمية ويحتل الانكليز العراق هذا لم يكن يخطر فى بال أحد ولم تكن فى بغداد يومئذ كتلة وطنية .

ولم أدرس القانون إلا بعد أن عينتنى الحكومة التركية عضواً لمحكمة الاستئناف ثم فى عهد الدستور أستاذاً للقانون المدنى فى كلية الحقوق ببغداد بعد أن كنت أستاذاً للفلسفة فى الجامعة بالآستانة فجمعت عند تعيينها إياى مدرساً فى كلية الحقوق ما أحتاج إليه من الكتب التى تتعلق بدرسى وتوسعت فيه إلى حد وكلية الحقوق هذه كانت يومئذ أعلى مدرسة فى بغداد يدرس فيها كل مايتعلق بالحقوق .

ولم تكن لى حرفة أشتغل بها فى شبابى أما بعده فكانت حرفتى التدريس فى الجامعة والكلية وغيرهما من المدارس فقد درّست فى عهد الاحتلال معلمى المدارس من المخرجين من دار المعلمين ولم أمل فى حياتى كلها إلا إلى الفلسفة والأدب .

وحبذا لو اعتمد شبان الشرق العربى على أنفسهم فى طريق الحياة ولم يتهافتوا على وظائف الحكومة . أما القوانين التى ترجمتها إلى العربية عندما كنت رئيساً للجنة « تعريب القوانين » فعددها ١٧ قانونا غير أنى لا أتذكر منها إلا قليلا .

وأخال أنى أميل إلى دراسة قانون العقوبات أكثر من القانون المدنى فإن فيه المجال للفكر أوسع وهو أحوج إلى الإصلاح من القانون المدنى فلا أعتقد أنه يصلح للمستقبل الذى ستتغير فيه العادات ويتطور المجتمع تطورا لم يكن فى الحسبان .

وإنى أقضى يومى فى إعادة الزيارة للذين يزورونى من أصحابى الذين هم أقرانى

وكثيراً ما أجلس في المقهى الذي يجتمع فيه الشبان الذين ينزعون إلى الأدب فيحيطون بي وقد أصحح لبعضهم قصيدة له يعرضها عليّ وأرجع ظهراً إلى داري التي بنيتها جديدة وهي محاطة بحدائق وأجلس مساء في حديقتي فيزورني من يزورني وفيهم المتعلم والشاعر والمنادم والسائل يريد حلا لمشكلة علمية عنده .

والجانب الخاص بحياتي المنزلية هو أني إذا لم أكن في يومي قد ثارت فيّ آلامي العصبية أطالع ثم أطالع وأتنقل من كتاب إلى كتاب كأني عصفور ينتزي من غصن إلى غصن في روضته وأكثر ليالي أقضيها في مطالعة وجه السماء الحافل بالنجوم والتفكير فيها إذا كان الفصل صيفاً وأما في الشتاء فأحب أنواع التسلية عندي هو مطالعة الروايات المترجمة إلى العربية أو التركية .

وأما الأبحاث العلمية التي أكتبها فليست كما تظن جافة في نظري وقد أعتمد على المراجع أثناء كتابتي غير أن أكبر مرجع لي هو ذاكرتي فإني وإن كانت ذاكرتي في المسائل الاعتيادية ضعيفة لا أنسى أكثر ماقرأته أو طالعته في شبابي وكهولتي في المطالب الفلسفية واليوم ذاكرتي أضعف منها في شبابي وكهولتي غير أن قوة التفكير فيّ لم تضعف ضعفاً محسوساً .

وأحب الروايات التمثيلية إليّ هو التراجيديا .

وحضرت مامثلته السيدة فاطمة رشدي والأستاذ يوسف وهبي في بغداد من الروايات فأبكاني بعضها وأحب السينما كثيراً لأني أشاهد فيها مناظر الغرب وأعرف من رواياتها عادات القوم فهي تقوم مني مقام السفر .

والناس في بغداد مفرط ومفرّط فمنهم من يقدمني على كل شعراء العرب ومنهم من يجعلني دون جميعهم أما أنا فلا أفرح بمدح المادحين ولا أحزن لذم القادحين غير أني أكره المنافقين الذين يمدحونني في وجهي ويذمونني ورائي وأبغضهم إليّ من ينقدني حباً بالشهرة وأكثر ماقرأته من النقد لي لم يكن نزيهاً ولا قائماً على أساس من العلم والمنطق بل على الأكاذيب والمفتريات والناس المتأدبون في العراق فوضى فقد تقرأ جريدة تصعدني إلى مافوق منزلتي وتقرأ في اليوم الثاني جريدة أخرى تنزل بي إلى الدرك الأسفل ويختار أحدهم بيتاً من دواويني جاء تمهيداً لبيت وراءه ويجعله من بين ٢٠٠٠٠ بيتاً حجة على أني لا أحسن النظم ويأتي آخر فينسب كل ما هو من عملي أنا إلى غيري يريد بذلك إغاظتي كقوله إن فلانا (يريد غيري) هو أول من قاوم الاستبداد بشعره وأول

من نظم الشعر القصصى وأول من دافع عن المرأة كذبا وبهتانا وهو يدرى أنى الذى قاومت استبداد عبد الحميد قبل أربعين سنة ونظمت الشعر القصصى قبل ٣٥ سنة ودافعت عن حقوق المرأة قبل ثلاثين سنة وقد سُجنت فى الآستانة من أجل القصائد التى نظمتها طعناً فى حكومة السلطان الجبار عبد الحميد لاستبدادها وعزلت من وظيفتى فى كلية الحقوق بسبب دفاعى عن حقوق المرأة وأنى أنا الذى نظمت قصة « امرأة الجندى » قبل أكثر من ثلاثين سنة يوم لم يكن فى بغداد شاعر يصرف الشعر فى إصلاح المجتمع .

كل هـذا وأنا ساكت لا أتنزل إلى الرد على أمثالهم فأمر باللغو كما يمرّ الكرام وأقول إذا خاطبنى الجاهل سلاما .

وأكثر الذين يعادوننى فى بغداد هم من الشعراء أو أصحابهم يسأل رأيى فيهم شاب متعلم فانزلهم منزلتهم فيسمعون ذلك ويناصبوننى عليه .

وما زالت نهضة العراق ضيقة النطاق .

وأما أبطال النهضة المصرية فشوقى وحافظ واسماعيل صبرى والأستاذ الأكبر لطفى السيد والفيلسوفان شبلى شميل ويعقوب صروف والدكتور طه حسين والدكتور هيكل والدكتور عنانى والدكتور منصور فهمى والمرحوم ولىّ الدين يكن وفى مقدمتهم الامام عبده والفيلسوف جمال الدين الأفغانى وغيرهم .

وقد أحببت فى أول شبابى جارية شركسية عرضت للبيع واستحييت أن أخبر والدى بحبى لها وكانت هى لا تعرف أنى أحبها وأحببت فى الآستانة يهودية أسبانية عذراء وكانت تحبنى مثل حبى لها وتزورنى فى دارى مع أبيها فلما سجنت بكت علىّ وربما كان لهذا الحب تأثير كبير فى شعرى .

وقد تزوجت قبل ٤٥ سنة بعد وفاة والدى بقرينتى النجيبة السيدة زكية وهى من عائلة تركية وقد قضينا العمر فى حب ووئام ولم تلد لى وربما كنت أنا السبب . وكانت العادة أن تختار الأم أو الأخت الزوجة للإبن أو الأخ وهـذه الطريقة كثيراً ما تفشل إلا أنها لم تفشل معى والمثل الأعلى للزواج أن يختار كل من الزوجين صاحبه بعد صداقة بريئة ومعاشرة غير قصيرة بمشهد من الأقارب أو الأصدقاء وأن يكون العقد مشروطاً بجعل الطلاق من حق كلا القرينين إذا حصلت عند أحدهما كراهية نحو الآخر وكانت راسخة .

ولا تزول أزمة الزواج فى مصر والعراق إلا إذا كانت الثقافة مشتركة بين

الفتيان والفتيات فنظرا إلى الزواج نظرة صادقة وجعلا الحقوق متساوية بينهما . أما فى العراق فالزوجة لاشأن لها فى أمر الطلاق وأما الزوج فكثيراً مايطلقها لأنه جلف بالطلاق أنه صادق وكذب أو لأنه يخاصم أحدهم على مسئلة تافهة فيرجع إلى بيته ليلا حردان أو سكران فيطلق زوجته لأنها كانت راقدة فلم تسرع فى فتح الباب أو لأنها أبت أن تسلمه حليها ليبيعه ليشترى بثمنه الخمرة أو يصرفه على مائدة الخمار .

كراهةٌ فسبابٌ فركلةٌ فطلاق

كانت حنجرتى فى شبابى متينة غير أن الزكام وتكرر الاصابة به والسعال المزمن كل أولئك قد نهكها ولاسيما فى شيخوختى الشلاّء العرجاء .

ولا أرتجل من الشعر إلا البيت والبيتين ولا ميل فى نفسى إلى الارتجال وربما كان ذلك لضعف حافظتى .

وقد كنت فى شبابى وكهولتى أسير فى المنام وكانت بعض أحلامى مزعجة انتفض لها وأهب من نومى مذعوراً وكسرت فى ليلة كل ما فى غرفتى من المرايا والأوانى الصينية والمصابيح الثمينة وأنا نائم فدميت يداى لجروح أحدثتها كسر الزجاج وكانت قرينتى ترتجف من الخوف فى سريرها وقد انتبهت من نومها على صوت الزجاج والأوانى التى كانت تتكسر .

وقد رميت نفسى مرّة من شباك فى الطابق الثانى إلى الطابق الأول ولم يصبنى إلا رضوض وكثيراً ما أنظم فى حلمى شعرا وأنساه فى يقظتى وقد أحل فى نومى مشكلا لم أحله فى يقظتى وفوق هذا فإن العقل الباطن هو الذى يعيننى على نظم الشعر فى يقظتى فكأنه قرينى من الجن يملى علىّ فأكتب .

وآلامى المعنوية أكبر من آلامى المادية فإنى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئا استولى على اليأس وكلما انخدع بالباطل تمزق قلبى من الأسى وكلما خضع للظلم شرقت بدمعى . يمشى فى سبيل التقدم الهوينا ثم يقف به تعصب المتعصبين فى مكانه لا يتقدم و لا يتأخر ثم يمشى ثم يقف .

ليس الذى جاء يمشى اليوم متئدا بلاحق للألى من قبله ركضوا

ولا أقرأ من الصحف إلا ما أراه ذا بال سواء كانت عراقية أو مصرية وأقرأ

خاصة فى المقتطف ما جدّ فى العلم أو ما ارتآه كبار علماء الغرب فى الفلك وبناء الكون أو فى الأشعة أو فى الغدد السائبة إلى غير ذلك .

وكنت فى طفولتى ألعب بالكعاب ثم بالحمام القلاب فأطيره أسرابا وقد نشر لى المقتطف مقالة فى بيان سبب تقبله ورجح تعليلى له على تعليل العلامة داروين وولعت بركوب الخيل فكنت أسابق بكرامها غيرى من غواتها ونشر لى الهلال رسالة فى سباق الخيل ذكرت فيها كثيراً من الحقائق المتعلقة بالعدو .

ثم ولعت بلعبة « الداما » فألفت فيها رسالة سميتها « اشراك الداما » جمعت فيها ٥٠٠ لعبة لأساتذة الداما وأضفت إليها من مستنبطاتى ألف لعبة وكان لى فى شبابى أصحاب من ضباط الجيش الممتازين (أركان حرب) وكان هؤلاء يلقون علىّ مسائل لا تحل إلا بالجبر الأعلى فكنت أحلها بقلمى مستخدما عقلى وحده لأنى لم أتعلم قواعد الجبر فكانوا يتعجبون من ذلك ولا أخالنى اليوم قادراً على ذلك .

كنت فى شبابى زعيما على أترابى وكانوا يحترموننى ويتجنبون مخالفتى وكنت قويا فى منطقى وعضلاتى وأعصابى وسباقا فى العدو وكنا نتسابق فى الغوص فى الماء فلم يغلبنى أحد منهم فقد كنت أستطيع البقاء فيه مدة ثلاث دقائق وكانوا لا يزيدون على الدقيقة وكنت أركض إلى جدار قائم أمامى فأخطو فوقه ثلاث خطوات من غير أن تمسه يدى وغيرى لم يزد على خطوتين .

ولا أزال أستقبل زوّارى مرحباً بهم وإن كان بعضهم من المنافقين الكذابين الذين لا تلذنى محبتهم وكثيراً ما فارقنى هذا القسم من الزوار فكتب فى الصحف مفتريا علىّ ما لم أقله .

الكذب عاهرة شهدت طلاءها وسمعت منهـــا رنة الخلخال

وكنت فى كل حياتى عزيز النفس فقد عيننى جلالة الملك فيصل المعظم قبل سنوات شاعراً لنفسه براتب شهرى قدره ٦٠٠ ربية فرفضت على شدة عوزى يومئـذ وكتبت فى عريضة رفضى « أنا لست ذلك البلبل الذى يغرد طمعاً فى حبات تلقى إليه » ثم بعد أشهر بلغت زيادة راتبى بجعلها ٨٠٠ ربية إذا قبلت فرفضت ثانية على أن رفضى هذا لم يكن عن استكبار بل عن اعتقادى أن الشعر الذى يقوله الأجير لا يصدر عن شعور . وأعتقد أن جلالتـه لم يرد من هذا

التعيين إلا أن يكون وسيلة لرفاهتي فهو غني عن مدحي ومدح غيري ومن واجباتي أن أمدح ملكي المعظم كلما جاء عملا فيه نفع بلادي :

رب مال هو لو شئت اقتناء عند لمسي
إنما تمنعني عن نيله عزة نفسي

أما صحتي فليست جيدة وذلك لمرض عضال اعتراني في سن ٢٥ مركزه في النخاع الشوكي مني وقد تداويت في بغداد والآستانة ومصر عند أشهر الأطباء فلم يجدني دواؤهم وكل استفادتي أن توقف الداء فيّ ولكن بعد أن شلت أصابع رجلي اليسرى .

وقد أحاول أن أسعى فتمنعني رجل رمتها يد الأيام بالشلل .

وأحب من الأطعمة أيدي الضأن مع قليل من الخل ، ولكن الخل يزيد في آلامي العصبية ويثيرها وأحب البيض الطازج والرز إذا كان من النوع المسمى بالعنبر والحلوى إذا كانت قليلة الحلاوة والتمر الطري مع اللبن الرائب وشوي السمك إذا كان من نوع «الشبوط» والبفتك ولكن الأطباء يمنعونني من أكل اللحم إلا الأبيض منه .

وأحب المجلات إليّ في الشرق العربي هو المقتطف الأغر ثم السياسة الأسبوعية والعصور والدهور لما كانتا تصدران .

وإذا جلست معي ساعة كصحفي فإنك تخرج لقرائك من عندي بما يسخط الجمهور ويرضي الخواص وإذا كانت المباحثة في أمر جلل فإن حديثي يهب أولا كالنسيم العليل ثم يزداد شدة فيكون ريحا ثم يشتد فيكون إعصارا فتتوسع عيوني ويرتفع صوتي وتمتد إليك يدي كأني أريد أن أدمغك بجمعي وأخال أن السبب هو شدة العصبية في وأتذكر قول أحد الأطباء الإخصائيين بالأمراض العصبية في الآستانة « أني بحسب اختصاصي شاهدت كثيراً من العصبيين ولكن ما رأيت كعصبيتك في شدتها » وأنا لا أسمع القرآن إلا في أوقات نادرة كحفلة عقد النكاح لأحد معارفي . وعندي أن أفضل لباس للرأس هو البرنيطة ، ولا يجدي الشرق إلا الجندية الإجبارية والتعليم الإلزامي معا ، وإذا جلست معي بدون سابق معرفة فإني أستدرجك في الكلام بادئا بأبسط الأسئلة وأنتقل

فيها حتى أعرفك قبل أن تعرفنى ، وبى من الميل إلى الموسيقى ما هو شديد إذا كان الموسيقار فنانا فقد تبكينى ويطيب لى البكاء حينئذ كأنها تنكأ جرحا فى قلبى يحتاج أن ينصب إلى الخارج قيح محصور فيه وكنت فى شبابى أذهب فى صباح الأعياد إلى المقابر فأسمع أمهات الموتى أو أخواتهم أو خطيباتهم يخاطبنهم بكلمات يودعنها شجوهن هى الشعر فتغرورق عيونى وأجهش فى مكانى .

وإذا جلس إلىّ أحد تلاميذ يود الاستفادة فإنى أنصحه قبل كل شىء بالصدق باسطا له مضار الكذب وأنصحه بالتعلم ولا سيما العلوم التى تحتاج إلى تفكير وأنصحه أن لا يتعصب فى الدين ويترك كل أحد حرّا فى آرائه .

والمصدر المادى الذى أعتمد عليه هو ١٥٠٠ باون لى فى البنك وبيتان لى أريد بيعهما يساويان ١٥٠٠ باون عدا الدار الجديدة التى بنيتها صارفا على شراء العرصة وبنائها وتأثيثها ١٧٠٠ باونا أما راتبى فى التقاعد فهو ١٢ دينارا فهو ضئيل لا يقوم بنصف نفقاتى . وهذا الذى ادخرته هو من فضلة رواتبى الضخمة قبل أن أتقاعد :

لى زوجة وليس لى أولاد وعندى ثلاثة من الخدم إحداهم طباخة .

وما تصورت فى عمرى أن أنتفع بالأدب ولا أرسلت قصائدى إلى مجلة إلا بعد أن طلب صاحبها ذلك وعرفت أن مجلته رائجة وفى السنين الأخيرة لم أنشر قصائد لى فى جرائد بغداد لعلمى أنها تمقتنى وتحسبنى مارقا إلا جريدة هى فى جانبى ولكنها مسدودة اليوم من قبل الحكومة .

أما مواقفى العظيمة التى وقفتها فى حياتى فهى كثيرة منها . أنى لمّا كنت أستاذا للفلسفة فى الجامعة التركية قدم أحدهم تقريراً إلى البرلمان أن الزهاوى يضلل التلاميذ فسألنى وزير المعارف فأجبته قائلا إنى أذكر فى دروسى حجج علماء الغرب بكل قوة وأذكر دلائل علماء الدين كذلك وأترك البت إلى قابلية التلاميذ وأنا لم أطلب هذه الوظيفة منكم فأنتم الذين عينتمونى وإذا كانت طريقتى لا تروقكم فإنى مستعد للاستقالة فرضى البرلمان بجوابى وبقيت مواظبا على دروسى التى كنت ألقيها على تلاميذى وكان عددهم ٣٥٠ تلميذاً .

ومنها أنى أنشدت أبا الهدى قصيدة فى ذم سياسة الملك عبد الحميد وسجنت على ذلك وسُفّرتُ إلى بغداد مخفورا ، ومنها أنى لما كنت عضواً فى البرلمان

العثمانى رأيت فى ميزانيته الحربية مخصصات لقراءة البخارىّ الشريف فقلت لو كنت أرى هذه المخصصات فى ميزانية الأوقاف أو المشيخة الإسلامية لما أوجبت استغرابى ولـكن وجودها فى ميزانية البحرية عجيب فهل ترون أن أسطولنا يتحرك بالبخارى الشريف لا بالبخار فقامت ضجـة حول كلمتى هذه وأخذ النواب يضربون على المناضد حتى كادت تتكسرا ، وأشد الغيظ علىّ كان من أهل العمائم وقد جاءتنى فى اليوم الثانى كتب من شباب الترك يهنئوننى على جراءتى .

ومنها أن الحـكومة المحتلة فى زمن المندوب السامى السر ولسن — كانت يومئذ الثورة العراقية فى أبان شدتها — جمعت مندوبى الأمة للمذاكرة واختارت من الأشراف الذين لم يتظاهروا بالاتفاق مع الثائرين عشرين شخصا وكنت أحدهم . فلما فرغ المندوبون من بسط مطالبهم انتظر المندوب السامى كلمة الذين اختارهم وكان يعتقد أنهم سيكونون فى جانبه فقمت خطيبا وقلت أنا بالأصالة عن نفسى والوكالة عمن انتخبوا معى أشترك مع مندوبى الأمة فى مطالبهم هذه الحقة ولا أرضى بغير الاستقلال للعراق فلم يكذبنى أحد من المختارين واستاء المندوب السامى وجماعته منى وأخذت الحـكومة المحتلة تغير وجهة سيرها فى الانتداب إلى غير ذلك من المواقف التى يطول شرحها .

وما أعددت من الوسائل ليشرب الشباب ماء رسالتى كما تسأل غير نشر افـكارى فى المجلات وفى مؤلفـاتى ويعتقد الـكثيرون أن نعرة التعصب فى العراق لم تخفت إلا بما نشرته من الأفـكار الفلسفية والاجتماعية الحرة .

ولا أرد على خصومى إذ لا أجدهم أهلا للرد ولـكن بعض تلاميذى يثورون الآونة بعد الأخرى فيردون عليهم بما يرجعهم مدحورين .

وأما سؤالك عن صلاتى وصيامى فإنى أرانى مقصراً فيهما وأما ما ينسبونه إلىّ من الإلحاد فلا دليل لهم عليه سوى تخرصاتهم .

وقد درست الشريعة الإسلامية والعلوم العصرية وتقدر أن تفهم أثرهما فىّ من مؤلفاتى ومقالاتى :

لمـا جهلتَ من الطبيعة أمرها ... وأقمتَ نفسك فى مقام مُعَلّلِ
أوجدتَ ربّا تبتغى حلاّ به ... للمشكلات فـكان أكبر مشكلِ

والمسلمون لا ينهضون إلا إذا فرّقوا بين أمور الدنيا والدين ، وقد خرجت من دراستى للشريعــة الإسلامية بمـا يغيظ المتعصبين من إخوانى المسلمين .

ولا نهضة للمسلمين إلا بتعديل أحكام الشريعة وما أحسن القاعدة التى وضعها علماء الـكلام من أهل السنة وهى « إذا تعارض العقل والنقل أُوِّلَ النقلُ بالعقل » .

وصوفيتى التى أتغنى بها هى أن الله فى الطبيعة والطبيعة فى الله ونقطة الضعف التى أشعر بها هى عدم معرفتى لإحدى لغات الغرب .

والجانب البارز العام فى حياتى هو التمرد على كل قديم ضار .

سئمت كلَّ قديم عرفتــهُ فى حياتى
إن كان عندك شيء من الجديد فهات

جميل صدقى الزهاوى

بغداد فى ٢٠ تشرين الثانى لسنة ١٩٣٢

أحزان الوجود

ما لقلبي شفَّه بَرْحُ الضنى ولنفسي قد تغشَّاها السأمْ
أبداً يا قلب تغويك المنى ثم لا يعقبها إلا الندم
هل يُضيع العمرَ إلا أننا نترك السهل ، ونرتاد القمم !
لو أصبنا لاتخذنا مسكنا في صحارى اليأس ، أو وادى العدم

نحن جرَّبنا الأمانى والخيالْ وجرينا خلفها طول السنينْ
ومنحناها شباباً لن يُنال مرة أخرى من الدهر الضنين
ثم ماذا ؟ أين أحلام الليال ؟ لم تعد إلا هباء لا يَبين !
تكشف الأنوارُ ما تخفى الظلال فترى الوهمَ عيونُ الناظرين

ليتنا لم نعرف الشوق إلى عالم لا يتراءى للعيانْ
ليتنا لم نَسْرِ بالوهم على ذروة الكون ، وآفاق الزمان
وبقينا حيث كنا أوَّلاً نجد الأفراح فى كل مكان
لم نكن نعرف ما الشوق ، ولا ما الأمانى ، والتهاويل الحسان

نحن كنا نأخذ العيش كما تمنح الدنيا ، فكنا سعداء
ونغنِّى للربيع ابتسما مثلما كنا نغنى للشتاء
لم نكن ندرى الحنين المبهما نحو أفْق الغيب ، أو دنيا الخفاء
وارتعاشَ القلب أمسى مُغْرَما برؤى الحب ، وأسرار اللقاء

فترة . . . ثم مضى عهد الصِّبا ... وأتى من بعده عهد الشبابْ
فإذا معنًى بقلبي انسكبا ... مثلما ينهلُّ في الكأس الشراب
فصحا القلب وغنَّى وَصبا ... نحو أُفْق يتوارى بالحجاب
ورأينا الكون مهما رحبا ... ضيِّق الأرجاء ، محصور الرحاب

ومضينا أنا والقلب معا ... نعصر الأحلام من كَرْم الليالى
ونرى العالم قفراً بلقعا ... حين لا نسكر من خمر الخيال
ونرى الصحراء روضاً ممرعا ... يزدهينا ، وهْو من وهم الرمال :
ذاك وَهْمٌ ليته قد رجعا ... بعد أن آذن قلبي بالزوال

هكذا عشنا على أحلامنا ... فترة كانت ربيعاً فى الحياهْ
وبنينا من رؤى الوهم لنا ... عالماً لا يدركُ الطرف مداه
طاب فيه العيش حتى إننا ... لم نكن نصبو إلى شيء سواه
وتهادى زورق العمر بنا ... ورؤى الآمال تسرى فى سناه

وكما يَفنَى من الزهر الندى ... حينما ترمقه شمس الصباحْ
ذهبت أحلام قلبي بَدَدَا ... حينما طاف بها الفكر الصُّراح
فإذا الأيام يذهبن سدى ... كهشيم الزهر تذروه الرياح
لن نغنِّى يا فؤادى أبدا ... لا... ولن نبكى، فما يجدى النواح

لم يعد يسكرنا هذا الرحيق ... مذ عرفنا أنه وَهْمُ الظماء
لم يعد يخدعنا هذا البريق ... حين أدركناه ، فانماع الضياء
والذرى والسهل والوادى السحيق ... كلها صارت لدى القلب سواء
ذابت الأحلام والشوق العميق ... وانتهى عهد الأمانى والرجاء

محنة رانت على عمرى السجينْ ... صيرتْه موحشاً مثل القبورْ
حيرة طافت على قلبي الحزين ... فهْو لا يدرى إلى أين المسير
جفّت الكاسات، بل جف المعين ... وذوى فى مهجتى الزهر النضير
وتوارى كل شيء فى السنين ... فتهاوينا إلى هذا المصير

هذه المحنة من أوجدها؟ ... أأنا أم أنت؟ بل نحن براء
هذه الأحلام من بدّدها؟ ... هى يا قلبي أعاصير السماء
وسهام اليأس من سدّدها ... ورماها؟ إنها كف القضاء
هذه القوة لن نجحدها ... قد رأينا فعلها بالضعفاء

فلنعش يا قلب فى الدنيا كما ... تتنزّى الطير فى جوف الحِبالَهْ
هى كأس أترعوها علقما ... وعلينا شربها حتى الثماله
لا نرى فيها جديداً ... كلما ... غاب شيء أطلع الدهر مثاله
وعجيب الأمر ألا نسأما ... بينما الأيام ينضحن مَلاله

وإذا جاء الفناء المنتظرْ ... يسأل الرحلة عن هذا الوجودْ
فلنقل: هذا الرجاء المدّخر ... ذلك الشيء الذى كنا نريد
فلقد عشنا كما شاء القدر ... بين يأس وملال وشرود
ولْنَسَلْه فى أناة وحذر ... قبل أن نتبعه: هل من جديد؟

ابراهيم محمد نجا

القطار فى الأدب الروسى

وسيلة لإثارة الانفعال النفسى

إن الدراسة العميقة المنظمة للحوافز التصويرية ولتفضيل فكرة معينة أو موضوع معين ، سواء فى ميدان الأدب أو فى ميدان الفنون الجميلة ، تساهم بقسط كبير فى تفهم نفسية الأثر الفنى ونظامه الداخلى ، وتكشف عن الميول الكامنة اللاشعورية عند الفرد وفى عصره . ومع ذلك كانت البحوث تدور قبل كل شىء حول مسائل تتعلق بالأسلوب والشكل ، واستجاب العلم نفسه لحاجات العصر الفنية ، وكان من فساد الذوق فى وقت من الأوقات الاشتغال بأمور تصويرية بحتة . بيد أننا نعتبر أن اختيار الموضوع وعناصره الأساسية ، بل اختيار الحوافز التى تبدو ثانوية من حيث الأهمية ، لا يرجع إلى مجرد المصادفة ولكن يوائم رغبة كامنة وميلا خافياً حتى على المؤلف نفسه .

ولذا فإن الدراسة التصويرية والشكلية للأثر الفنى ، تعين كثيراً على معرفة الأساس البعيد والقريب الذى يقوم عليه الأثر الفنى نفسه .

وقد استوحى أوزفانت هذه الفكرة فى مؤلفه « الفن » فقام فيما قام به بمحاولة طريفة ، وهى تحديد الألفاظ والمعانى التى تكرر ورودها فى مؤلفات أشهر الكتاب ، فلاحظ مثلا أن اللون الأسود يغلب عند بودلير ، على حين يسود الأبيض عند جيد ، فى حين تندر الألوان عند پروست ، وهذا أقلهم إدراكا لعالم المرئيات ، فلا يرد عنده سوى اللون الأزرق والرمادى . أما رامبو وملارميه فلهما ميل خاص ، أولهما إلى الجو الممطر ، وثانيهما إلى الضباب والضجر .

وهذا النوع من البحث قد يبدو عقيما لأول وهلة ، ولكن الأمر على عكس ذلك إذا ما سلمنا بوجود رابطة السببية الوثيقة بين الأثر الفنى وعناصره الأساسية ، وبين الشخصية الحقيقية للمؤلف .

ولقد حاولنا فى هذا البحث أن نبدأ بتحليل فكرة كثيراً ما وردت

فى الأدب الروسى بصورة بارزة تسوغ هذه الدراسة ، ألا وهى فكرة القطار الذى تحول فى الأدب الروسى من مجرد وسيلة من وسائل النقل إلى رمز كبير له مغزاه .

فاذا تناولنا دستويفسكى فى قصته « المعتوه » رأيناه يفسر القطار الحديدى تفسيراً غريباً . فنجد ليبيدوف صديق الأمير ميشكين يؤول نجمة الأسى التى ستجتاح الأرض فى رؤيا القديس يوحنا بالشبكة الحديدية التى تحيط بأوربا . حقيقة أن ليبيدوف يحب المبالغة فهو دائماً مشدوه ويغلب على نزعاته نوع من التصوف ؛ فهو فى قصة دستويفسكى مثال الشخصية التى تقلل من سرعة الحوادث التى يدور عليها موضوع القصة الأساسى ، فمن الغريب أن نراه وهو الذى يعيش فى عالمه الغامض المملوء بعلامات الغيب والنبوءات الصوفية يلجأ فى تعبيراته إلى شىء مادى كالقطار الحديدى .

ولكن مهما بدت فكرة القطار الحديدى عادية وخالية من الطرافة ، فإنها قد وردت كثيراً فى قصص كبار المؤلفين بصورة بارزة ، مما يكسب عبارة ليبيدوف معنى عاماً كان سائداً إذ ذاك فيما يتعلق بالقطار ، وفكرة الانفعال البالغ التى كانت ملازمة له فى الأدب الروسى ، فهى لا تدهشنا بكثرة ذكرها فحسب ، ولكنها تظهر على نحو دائم تقريباً ، فى كل المواقف الحادة من القصة حيث نشعر ، من تواتر نفس أو تغيير فى مجرى الحوادث بدنو الكارثة .

وفوق ذلك فإن القطار يقوم بدور التطهير فى القصص الروسية ؛ فحوادث التكفير والانتحار بوساطة القطار تعادل فى كثرتها الأسفار بالقطار إلى سيبريا حيث المنفى والمطهر .

وسنورد فيما يلى بعض أمثلة توضح دور الانفعال البالغ التى تتوم بها فكرة القطار فى بعض أمهات القصص الروسية .

فتولستوى يذكر القطار فى المواقف الفاصلة فى كل قصة من قصصه إذا استثنينا قصة « الحرب والسلم » حيث تدور وقائعها فى وقت سابق لعصر القطار . وهو يعتبر القطار ذا أهمية بالغة وفائدة عامة ، ففى قصة « أنا كارنينا » يقول فى أحد المواقف : إن حديثهم كان يدور حول السياسة والسكك الحديدية . أما فى القصة المسماة «أنشودة كروتزر» فاننا نجد للقطار عملين ، فهو أولا المكان الذى اختاره مسرحا لحوادث القصة ، وهى كما نعلم قصة يرويها

مسافر لرفيق مصادفة جمعه به القطار ، ثم إن برونتشف ، وكأنه معلق فى الزمان والمكان ، يروى لجمهور محدود ومجهول فى أثناء سير القطار ليلا تاريخ حياته وآلامه وجريمته : « كنا فى مستهل الربيع ، بعد يومين وليلة طويلة قضيناها فى القطار » . وتظهر فكرة القطار ثانية لا كمسرح لحوادث القصة يهيئ لها جوا غامضا فحسب بل كعامل ملىء بالانفعالات وذى أثر فنى قوى . فوصفه لسفره الأخير الذى كان فيه فريسة لعاطفة الغيرة حبيس فى ديوانه كما لو كان فى قفص هو مأساة قوية تبلغ حد الإعجاز : « ما إن ركبت القطار حتى تغير كل شئ ، وهذه الساعات الثمانى فى السكة الحديدية كانت فى الحقيقة مؤلمة لى ولن أنساها ما حييت . فهل كان ذلك راجعا إلى الفكرة التى استولت علىّ عندما ركبت القطار بأنى عائد إلى بيتى أو إلى صوت القطار المثير ؟ كل ما أعرفه أننى بمجرد ركوبى القطار استحال علىّ السيطرة على خيالى » . ثم يقول فيما بعد : « كنت كوحش فى قفص أقوم منتفضا وأقترب من الباب تارة وأخرى أمشى بخطى مترددة كما لو كنت آمل أن أزيد بحركاتى من سرعة القطار . كنت حقا خائفا من هذا القطار ، وكنتُ أقاسى العذاب إلى حد أننى لم أكن لأعرف ماذا أفعل ، لاحت لى فكرة راقتنى : أن ألقى بنفسى تحت عجلات القطار وأنتهى مما أنا فيه » .

لقد زادت آلام برونديشوف أثناء رحلة لاستمرار التعارض التوازنى بين حالة الرجل الذى فقد توازنه وحركة القطار الذى يمضى قدما غير مضطرب ، وهذا التعارض يخلق توترا نفسيا غير محتمل تقريبا ، ينتقل أثره إلى القارئ إلى حد الشعور بضيق يكاد يبلغ درجة الألم الجثمانى . وهذه القطعة المفرطة فى التأثير يعقبها شئ من الهدوء ، وهو نوع من التوقف الموسيقى قبل أن تقع الكارثة النهائية . ومن الجلى أن السكة الحديدية ليست فى هذا العمل الفنى مجرد أمر ثانوى تافه ، ولكنها فكرة معبرة أو على الأصح قائمة بالدور المؤثر فى الموقف .

وفى رواية « المعتوه » لدستويفسكى تبدأ القصة فى القطار أيضا ، فقد كان الأمير ميشكين أثناء عودته من سويسرا فى ديوان من الدرجة الثالثة حين كان القطار يجتاز مناظر قاتمة وملبدة بالغيوم تنذر بيوم بارد وطب كيوم من أيام شهر نوفمبر . ولقد تقابل بطل المأساة بسائر أشخاصها وتعارفوا فى هذا القطار الذى أقلهم إلى سان بطرسبرج .

ولكن فكرة القطار استخدمت كرمز على أتم صورة فى قصة « أنا كارنينا » وكان ذلك يظهر فى كل نقطة تحول من القصة كأنه الباعث الأساسى . وقد تم اللقاء الأول بين أنا وفرونسكى ، وهو اللقاء الذى جر أسوأ العواقب فى المحطة . واستطرد تولستوى فى وصف المحطة بجوها الخاص : « أخذ القطار يقترب ويداور إفريز الوصول وكأنه يهتز ، وظهرت للعين القاطرة التى كانت تدفع أمامها البخار المثقل بالبرد ، وبدأ الناس يرون ذراع العجلة الكبرى ينقبض وينبسط فى هدوء وبمقدار ، وحيا العامل الميكانيكى الذى تساقط عليه الثلج المحطة وظهرت خلف عربة الفحم عربة الأمتعة التى مست الرصيف مساً كبيراً » . ولكن سرعان ما قطع نبأ سيء مرح المسافرين وحركتهم : « ففى أثناء مغادرتهم العربة رأوا جمعاً من الناس يهرولون يتبعهم ناظر المحطة صوب مؤخرة القطار . لقد وقعت حادثة وكان كل الناس يجرون فى هذا الاتجاه ؛ فقد دهم القطار أحد المستخدمين ، وعند ما خرج الناس من المحطة كانوا يتحدثون جميعاً عن الكارثة التى وقعت » . وتلخص أنا كارنينا الحادث فى هذه العبارة : « إنه لطالع نحس » على حين كان الناس يتناقشون فى الموت على هذه الصورة : مؤلم هو أم سهل هين .

وطالع النحس هذا يسرى فى ثنايا القصة بحكم كما لو كان وتراً يضرب عليه ؛ وتحت تأثير هذا الطالع تتشابك حوادث القصة وملاحمها ، وتدعنا الفصول الأولى نحس العاطفة التى ستربط أنا بفرونسكى ، ولكنها لم توضح بعد عن شيء . تعود أنا إلى بيتها وتستأنف على حد قولها : « حياتها الطيبة المألوفة » ولكن فرونسكى يلاحقها فى نفس القطار دون أن يشعرها بذلك . ولقد تم أول لقاء حاسم أيضاً فى محطة صغيرة مجهول اسمها : « لقد كانت تنظر حولها وهى واقفة بالقرب من العربة على الإفريز المغطى بالثلج ، والمحطة تتلألأ بالأنوار ، وبينما هى تستعد لركوب القطار إذ حجب عنها ضوء المصباح رجل يرتدى معطفاً حربياً أخذ يقترب منها ، كان هذا الرجل فرونسكى ، وبينما كان يصارحها بحبه أخذت الريح ، وكأنها قد مهدت كل الصعاب ، تزيح الثلج من سقف العربات ، وتهز هزاً عنيفاً قطعة من الصاج انتزعتها ؛ وهنا أرسلت صفارة القاطرة صرخة أنين حزينة ، وكانت أنا قد سمعت كلمات يتخوفها عقلها ولكن يشتهيها قلبها . »

وتنتهى مأساة أنا فى محطة أيضاً وهذه النهاية مؤلفة كما لو كانت سنفونية ،

وهو حال معظم القصص الروسية الموضوعة عادة وفقا للقوانين الموسيقية. فالعناية فيها موجهة إلى النغمة أكثر منها إلى جمال الأسلوب الذى كثيراً ما يعتريه الإهمال خصوصاً عند دستويفسكى أو إلى الشكل بوجه عام. وتتعادل كثير من القطع الطويلة المشبوبة بالعاطفة بأخرى يسودها الهدوء الفكرى. وهكذا تخلق جميعاً عملا فنيًّا حيًّا يتكشف فيه العنصر المؤثر بالحركة أكثر منه بالحوادث (ولقد استهوى الفلم الروسى منذ نشأته جمهوره بنفس هذه الوسيلة الفنية. فمثلا سناريو «عاصفة فوق آسيا» لاينتشين تكشف لنا قراءته عن نفس هذا الميل، وهو الميل إلى التأثير بواسطة نغمة حركة التأليف فنقرؤه عشرين متراً من الأوراق الدوامة، عشرين متراً من سنابك الخيل التى تنهب الأرض، خمسة عشر متراً من الأوراق الدائرة كالدوامة، خمسة عشر متراً من الخيل الراكضة، عشرة أمتار من الورق، عشرة أمتار من النعال، خمسة أمتار من الورق، خمسة أمتار من السنابك الخ ... الخ).

وكذلك يتعاقب الوصال والقطيعة بين أنّا وفرونسكى بكيفية سريعة، وبعد ذلك يؤخر عاملان الخاتمة النهائية، ويعادلان أثناء عدة صفحات الجو الذى لا يطاق للحزن الذى نعيشه، وهما زيارة أنّا للأولاد ولأخت زوجها، وهاتان الزيارتان كان يجب تبعاً للجو الذى تتمان فيه أن تكونا مسكنتين ومهدئتين للروع، ولكنهما تنتهيان بنغمة شاذة.

وهنا تبلغ آلام أنّا أشدها. لقد استقلت القطار لمقابلة فرونسكى، ولم يكن أمامها من حل آخر: وبعد الإشارة الثالثة صفرت القاطرة، وتحرك القطار ورسم العامل علامة الصليب، ولقد تساءلت أنّا عما يعنيه بذلك وأدارت عينيها لترى من فوق رأس السيدة العربات وجدران المحطة التى كانت تمر أمام النوافذ، وصارت الحركة أسرع ووصلت أشعة الشمس الغادية إلى العربة وأخذ نسيم خفيف يداعب الستائر.

وعند ما استقرت فى الديوان وأحاط نظرها برفقائها فى السفر ورأت فقرهم استولى عليها شعور لاتفهمه من الاشمئزاز. «وتساءلت أين المهرب يا إلهى.» وبعد ذلك لاح لها الحل فجأة «إن قطاراً من قطر البضائع يقترب وهو يهز الرصيف، وتذكرت بغتة الرجل الذى دهمه القطار أول يوم لقيت فيه فرونسكى فى موسكو وأدركت ما بقى عليها أن تعمله، وفى خفة وسرعة هبطت الدرج

الذى يؤدى من المضخة الموجودة فى أقصى الرصيف إلى قضبان السكة الحديدية، ومشت أمام القطار ونظرت برباطة جأش إلى العجلة الكبرى للقاطرة والسلاسل والأسلاك محاولة أن تقيس بعينها المسافة التى تفصل العجلات الإمامية للعربة الأولى عن عجلات المؤخرة، ثم قالت لنفسها: «هناك» وهى ترقب الظل الذى تلقيه العربة فوق الرمل المخلوط بالفحم والذى يغطى الفلنكات، هناك فى الوسط سيلقى عقابه وسأتخلص أنا من الجميع ومن نفسى. لقد أفلتت منها لحظة إلقاء نفسها تحت أول عربة فانتظرت الثانية. لقد استولت عليها عاطفة شبيهة بتلك التى كانت تحسها سابقاً عند ما كانت تقفز فى النهر ثم رسمت علامة الصليب... لم تفارق عيناها العربة، وعند ما ظهر الجزء الأوسط بين العجلتين ألقت بحقيبة يدها وجعلت رأسها بين كتفيها ومدت يديها إلى الأمام وقفزت على ركبتيها تحت العربة كأنها مستعدة للنهوض. لقد صدمتها كتلة كبيرة فى رأسها وجذبتها من ظهرها، وهكذا انتهى كتاب حياة أنا، بكل أوجاعها وخدائعها وآلامها، على حد تعبير تولستوى، فى نفس المكان الذى كان قد بدأ فيه. وحياة بطلة القصة محاطة بصورتين للمحطة وجوها وقطرها كما لو كانت محاطة بدعامتين متوازيتين. وقد تكررت حادثة المستخدم التى بدأت بها المأساة والتى يرتبط بها ارتباطا وثيقا التعارف بفرونسكى. ويستطيع الإنسان أن يقول على وجه التقريب إن القطار يرمز لمصير أنا.

وتتناول آخر قصص تولستوى «البعث» الفكرة بإلحاح أشد، فيقرر نيشلودوف بعد صراع نفسى عنيف، أن يشاطر كاتارينا ماسلوفا مصيرها، وهى المحكوم عليها بالنفى إلى سيبريا للتكفير فيها عن جريمة، تعتبر الهيئة الاجتماعية مسئولة عنها أكثر منها، فتابع سير قوافل المبعدين وقاسمهم نفس المصير الفظيع، كما شاطرهم آلامهم ومذلاتهم، ولقد شاركهم أيضاً فى القطار، وعلى مقعده الخشبى بالدرجة الثالثة بين البؤساء وطريدى المجتمع والمنبوذين، ليتم تطهير نفسه الروحى. وهنا يبدأ تكفيره وحياته الحقيقية، إنه هو القطار الذى يقوده نحو العالم الحقيقى الكبير، كما يقول هو عند ما كان يتهكم على الأميرة.

لقد استعمل ارزيباشيف فكرة القطار فى معنى مضاد، ولكن كرمز دائماً. وحينما أراد سانين المفكر الفوضوى، فى إبائه العظيم، مفارقة هذا العالم الحقير الشرير، قفز من القطار الذى يسير بأقصى سرعته. ولقد قام مثل أنا كارنينا

بتجربته الأخيرة في ديوان من السكة الحديدية ، محاطاً بأناس من الدهماء والمغفلين ، وهكذا يصير القطار رمز الحياة نفسها التي يفارقها هو قفزاً من القطار الذي يسحقه .

ويلعب القطار نفس الدور الرمزي في الأدب الروسي الحديث ، ولكن ليس بالإفصاح الذي يقوم به في أدب القرن التاسع عشر ، لسبب بسيط هو أنه في وقت كشفه واستخدامه كانت الأذهان مشغولة بهذه البدعة . وفي قصة بتروف « مليونير في روسيا البلشفية » وهي وصف لاذع من نوع قصص المفكرات مثل « تل الشقي » أو « جارجانتوا » نجد القطار عنصراً هاما في سير وقائع القصة . ولقد استغل الفلم الروسي الحديث ، القطار أيضاً في ثلاث من روائعه وفيلم « توركسيب » يدور كله حول إنشاء خط حديدي عبر سبيريا . وتقابل الوصلتين اللتين أنشئتا في وقت واحد وتلتقيان في المنتصف ، كناية عن رمز تأثري بالغ ، والمقصود من مد خط حديدي في فيلم « الطريق نحو الحرية » إنقاذ شبيبة متدهورة خلقاً وخلقا ، وردها إلى الطريق المستقيم . والعمل المشترك يوقظ في نفس الوقت التحمس لعمل مثمرو الشعور بالمسئولية عند هذه الشبيبة الفاسدة . ولقد رمز لهذا الغرض العملي والأدبي بالسكة الحديدية مرة أخرى . ولقد انتهى الفلم بنوع من التمجيد المزدوج ؛ فلقد أرقدت على القاطرة التي كللت بالزهور والتي تقوم بأول أسفارها ، جثة البطل الصغير الذي مات ضحية العمل المشترك .

هذا الميل الغامض إلى القطار عند الكتاب الروس لابد ان له أسبابا عميقة ترقى إلى مصدر العمل الفني نفسه . وإذن فما هي عناصر هذه الأداة العملية النافعة القادرة على إثارة اهتمام الفنان إلى حد أنها لو جردت من هذا الجانب العملي لصارت مجرد رمز فقط ؟ من المؤكد أن كل رحلة وكل انتقال في أقاليم روسيا النائية له صفة المغامرة التي ليست له في الغرب . وكذلك عند سكانها الذين تأخذ كل عاطفة وكل تجربة يقاسيها المرء صورة قوية تأثرية ، لا يمكن أن يبقى الشعور الناتج من قضاء أيام في ديوان مغلق ، حيث ينتقل الإنسان في فضاء يبدو كأنه لا نهاية له ، لا يمكن أن يبقى بدون أثر . وربما كان الأمر راجعاً إلى بعض الغرائز الكامنة بفعل الزمن عند بعض القبائل الرحل في العصور

الغابرة التى امتزجت ببعض الشعوب ، وهى الغرائز الراقدة بفعل الزمن ولاتزال باقية إلى الآن ، فأيقظتها هذه التنقلات فى صورة انفعال جديد غريب وعنيف. فكل انتقال وكل حركة بالنسبة للنفس الروسية ، وتبعاً لذلك بالنسبة للفنان الروسى ، هى مغامرة روحية وتجربة تأثرية ، وكل عربة تصير بالضرورة عاملا رمزيا. وفى قصة « الأرواح الميتة » يختم جوجول الأنشودة الحادية عشرة من هذه الملحمة العظيمة بصورة للشعب الروسى الذى يقارنه بعربة (ترويكا) تجرها جياد تسير بمنتهى السرعة : « انتصف الليل وجرت العربة الخفيفة كأنها ريشة وكان تستشيكوف يبتسم وهو يهتز اهتزازاً خفيفاً فوق وسادته الجلدية لأنه كان يحب السير السريع . »

«وأى روسى لايحب السرعة ! أيمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك بينما تتوق روحه دائماً إلى الدوار وإلى الطيران أحيانا . فليأخذ الشيطان كل شىء . أو يمكن ألا يحب الانسان السرعة بينما هو يجد فيها حماسة عجيبة ؟ إن الإنسان ليطير وكل شىء يطير فى نفس الوقت : الأعمدة ، والباعة الذين يلقاهم جالسين على حافة عرباتهم والغابة من الجانبين ، والصفوف القاتمة من أشجار الصنوبر وأصوات الفؤوس ونعيق الغربان . إن الطريق ليطير كله ، ويتلاشى فى الفضاء البعيد ، أيتها العربة ، العربة الطائر من الذى اخترعك إذن ! لايمكن أن تولدى إلا لترى شعباً شديد البأس فوق هذه التربة التى أبدعت فى صورة كاملة .

عندما يحدو الحوذى غناء بأنشودته تثب الخيل بشدة ولا تكون القضبان سوى سطح متصل ، وتزلزل الأرض ويرسل الراجل المذعور صيحة تعجب ، وتجرى العربة ملهبة الفضاء ، ويرى الإنسان على بعد شيئاً مايخترق الفضاء ويشقه . وأنت يا روسيا ألا تزالين تطيرين أبداً كالعربة المتوقدة التى لايمكن الانسان أن يسبقها ؟ أنت تمرين فى ضجيج خلال سحب من التراب تاركة كل شىء وراءك ويقف المتفرج مشدوها أمام المعجزة الإلهية . ألست الصاعقة المنقضة من السماء ؟ ماذا تعنى هذه الرحلة الجنونية التى تبث الذعر فى النفوس ؟ وأى قوة خفية لم يشهدها العالم قط تظهرها هذه الجياد ؟ أيتها الجياد ، الجياد العظيمة ! أى قوة عاصفة تهز نواصيها فتبدو أجسامها المرتعدة كأنها آذان كلها ، وهى عندما تسمع من أعلى الأنشودة المألوفة تسنم صدورها القوية دفعة واحدة وهى

لاتكاد تمس الأرض بسنابكها فتكون خطا مشدوداً يشق الفضاء . وهكذا تطير الروسيا تحت تأثير الوحى الإلهى ، إلى أين تجرين ؟ أجيبى . ولا مجيب . يرن الجرس رنيناً منغوما ، ويهتز الهواء المرتج حتى يصير ريحاً ويتخاف كل ما على الأرض » .

ويقتبس دستويفسكى فى دفاعه المجيد عن ديمترى كارمازوف هذه القطعة من قصة جوجول التى صار لها عند الروس مكانة تقرب من التوراة . وفوق ذلك فإن الترويكا هى أيضاً فكرة مستحبة إن لم تكن رمزاً فى مؤلفات كبار الروائيين ، وقد استخدمت فى الفصل العظيم المؤثر الذى يلى استشهاد كارمازوف الهرم عندما رحل ميتجا للقاء جروشنكا فى مهرجان الغجر بمكروج . ولقد صار ميتجا فريسة للقلق والغيرة ، كما كان عليه برودنتشيف فى « أنشودة كروتزر » . وهذه الرحلة التى يقارنها ديمترى نفسه برحلة إلى الجحيم هى من أشد قطع القصة إثارة للعواطف . والحركة التى تسير مسرعة تبلغ الذروة فى مهرجان الغجر حيث يترك ميتجا نفسه تغرق فى حب عظيم نحو جروشنكا . وإن المقارنة بين وصف الصباح الشاحب العالى ووصف ظروف القبض عليه لتعد تتمة للموقف العنيف السابق . وإن حالة الصياح التى كان عليها ميتجا والواقف خلف السائق مستثيرا الجياد والرعب فى نقل قاتله إلى عربته لتتشابه بالحالة التى كان عليها برودنتشيف فى ديوانه ، خصوصاً إذا ذكرنا أن كليهما كان مقرونا بجريمة قتل . لقد تغيرت أداة النقل لكن السرعة هى هى ، سواء كان القطار أو الترويكا الذى يعبر عن خلق ديمترى كارمازوف وطبيعته الحقيقية هذه « الطبيعة العظيمة والكريمة كأمنا روسيا » .

وتظهر أداة النقل إذن على وجه تام كفكرة مستحبة فى الأدب الروسى . ولكن القطار هو الذى يصير على الأخص فكرة رئيسية متكررة .

وإن عدم الاكتراث الملحوظ فى الأدب الغربى أزاء هذا التجديد العملى مما يبرز بوضوح الدور الذى يلعبه هذا التجديد فى المؤلفات الروسية . ولما كانت الرحلة فى السكك الحديدية تمتاز بالشعور المعقد والجمال وبالرابطة الفنية التى تنشأ بين المسافر وبين المناظر التى تمر أمامه ، فقد كان من المفروض أن هذه الفكرة لا يمكن أن تفوت الأدب الغربى وأن تستغل فكرة القطار فى كثير من الأحيان . ولكن الواقع أن هذه الفكرة قلما استخدمتها الآداب

الأوربية ، مع أن وسيلة الانتقال هذه أقدم في أوروبا وأوسع انتشاراً منها في روسيا ، ونجدها في النادر وقد فقدت قيمتها العملية وجردت من العامل التأثري وأصبحت مجرد أداة انتقال لا أكثر .

ونشير على سبيل المثال إلى قصة « الوحش البشرى » لزولا ، وهي القصة التي يستطيع الإنسان تسميتها قصة السكة الحديدية . ولكن عناصرها ووقائعها تدل بالضبط على ما قصده زولا من هذه القصة . وقد اقتبس بول الكسيس في مؤلفه عن حياة زولا عبارات المؤلف نفسه بخصوص هذا الكتاب : « ولكن الذي يهمني والذي أريد أن أبرزه في صورة حية ومحسوسة هو المرور الدائم لخط كبير بين محطتين ضخمتين ووجود محطات متوسطة عليه وطريق للذهاب وآخر للإياب . وأريد أن أثير همة رجال السكك الحديدية جميعاً المستخدمين ونظار المحطات والعمال ورؤساء وسائقي القطارات والميكانيكيين وخفراء الطرق ومستخدمي عربات البريد والتلغراف . وسيلعب التلغراف في قصتي كما هو في الواقع (هكذا) دوراً كبيراً ، وسيسمع الإنسان في كل لحظة رنين جرسه الكهربائي منبئاً ببرقية . وسيعمل الإنسان كل شيء في قطار آتي : يأكل الانسان وينام ويحب فيها وستتم الولادة فيها ، وأخيراً فإن الانسان سيموت فيها » .

ويستطيع الانسان أن يحدد ، على وجه أدق ، الدور الذي تقوم به السكك الحديدية في القصة ، ولقد استخدمت فيها على أكمل صورة بحيث لا يستطيع الانسان أن يأخذ على المؤلف أنه أغفل حتى أبسط التفاصيل ، ولكنه استخدمها كمسرح فقط لحوادث قصته ، وهو الجو الذي يشغف به المؤلف ، وقد عالجه على نحو واقعي بحت . وكما أنه في مؤلفه عن « التاريخ الطبيعي والاجتماعي » يدرس كل نوع من أنواع الكائنات ، ويرتب في مكانه حياة المناجم والمعدنين ، وتاريخ حياة بيت للإيراد ، ومستأجريه وجو أسواق الخضراوات ، ومسجل المودات أيضاً ، كذلك يفعل بنظام السكة الحديدية . وعلى هذا النحو نجد « الوحش البشرى » وهي قصة السكة الحديدية ، ولكنها في تركيبها الداخلي ، إن كان لها تركيب ، كما هي في موضوعها وشخصياتها لا تختلف بتاتاً عن أي مؤلف آخر مماثل لكتابات المؤلف نفسه . على أن السكة الحديدية تؤلف دوراً مخالفاً لهذا في مؤلفات إميل فيرهارن ، فهي تظهر فيها كثيراً وتغلب عليها دائماً

مسحة أليمة وتأثرية ، وهى تستخدم كرمز شؤم . ولكننا يمكن أن نعتبر إميل فيرهارن الذى مات ميتة فاجعة بسبب حادثة فى السكة الحديدية كحالة مرضية ، فلقد انزلق الشاعر من الدرج وبترت ساقاه فى ظروف مماثلة لتلك التى كثيراً ما صورها فى قصائده . وإن مطابقة هذا الخيال المقيم للمنظر الحقيقى للحادث المميت ، كان من الوضوح بحيث لايدع مجالا لافتراض محض المصادفة . وأبان بودوان فى دراسته القيمة أن مسلك فيرهارن أزاء القطار كان جزءاً من مركب فكرة ملحة ، وأن هذا الانتحار اللاشعورى وكذلك الدور الرمزى للسكة الحديدية إنما كان جزءا من مرضه النفسى .

وفكرة القطار أقل شأنا من ذلك فى الأدب الألمانى . ففى الوقت الذى استحدثت فيه هذه الأداة الجديدة من وسائل الانتقال ، رفض المذهب الخيالى لذلك العصر هذا التجديد دفعة واحدة ، واعتبرت السكة الحديدية إحدى المخترعات الفنية الشاذة ، ولقد لقبها هين ومعاصروه « الحيوان الحديدى » وعابوا علنها قضاءها على سحر الريف الهادىء ، فى عصر وجده الشعراء قد جن بالبخار الحقير العادى ، وصارت صفارة القاطرة هى التى تمزق سكون الليل بدلا من السائق الذى ينفخ فى بوقه ، وصارت البقاع التى تشقها الطرق الضئيلة المتعرجة تقطعها القضبان المستقيمة ، كأنها مرسومة بمساطر كبيرة ، وهكذا تتعارض العاطفة الرومانتيكية تماماً مع السكة الحديدية .

وبتغير الاتجاهات الرومانتيكية وظهور النزعة التعقلية والمادية الجديدة فى النصف الثانى من القرن تغير الشعور إزاء هذا الاختراع الجديد ، الذى بدأ الناس يقدرون الناحية العملية منه ، وأخذت السكة الحديدية مجردة من العامل التأثرى ، وضمت إلى عناصر الحياة والتفكير الأخرى . ولنضرب مثلا قصة كيلرمان « النفق » التى كانت كثيرة الذيوع فى وقت ما ، وموضوعها إنشاء سكة حديدية تربط القارتين ، ولكن السكة الحديد فيها ليست مقرونة بأى معنى روحى أو رمزى . وكان يمكن أن يكون الأمر متعلقاً بإنشاء جسر أو قطار ، وورش الإنشاء تخلق الوسط الذى تتحرك فيه شخصيات القصة دون أن تتأثر بذلك ألبتة .

لقد استخدم توماس مان القطار أيضاً فى قصته الفلسفية « الجبل السحرى »

فيه يبدأ هانس كاستورب صعوده البطىء نحو المصحة حيث كان ينوى المكث سبعة أيام ، وهى التى صارت فيما بعد سبعة أعوام . وهذه الرحلة وصفت بكل البراعة الفائقة التى تميزت بها مؤلفات توماس مان . وهذا الصعود نحو القمم التى تغطيها الثلوج والتغير البطىء الذى يطرأ على النور ، والإضاءة بغروب النهار ، وتغير النبات كل هذه الثروة وهذا التنوع للعالم الجديد تبدو لهانس كاستورب الثابت أمام نافذة ديوانه .. ولكن السكة الحديدية فى نفسها وكذلك الرحلة ليس لها أى مغزى خاص، وهى لا تتميز عن أى عنصر آخر فى نظر الشاعر ، وقد استخدمت فى هذه القصة العميقة الفنية دون أن يكون لها أى صبغة تأثيرية البتة . وهى تظهر فى القصة بنفس الكيفية التى ظهرت بها السكة الحديدية الصغيرة عند بروست ، وهى أحد العوامل الثانوية للمشاعر والتأملات الخاصة .

ويظهر أن هنالك أسباباً متعددة لهذا الاختلاف الكبير فى الدور الذى يقوم به القطار فى الأدب الروسى ، الذى يهتم قليلا على عكس الأدب الغربى بالجانب العملى والفنى ، وإنما يوجه اهتمامه إلى قيمته العاطفية وإلى روحه ، إن صح هذا القول . ولقد أشرنا سابقا إلى الأثر الناشىء عن الإحساس الحقيقى الذى يسببه طول الأسفار فى أصقاع روسيا المترامية الأطراف حيث يكون المسافر شبه منقطع عن كل حياة عادية ومحصورا فى موقف سلبى تام تقريبا . ولكن يبدو لنا أنه لا بد من وجود أسباب أدق وأعمق من هذه للاتخاذ من أى عنصر فكرة هامة إلى هذا الحد . ويلوح لنا أن ثمة عاملا حاسما هو ذلك الذى نحب أن نسميه توافق الحركة : توافق الحركة ما بين السكة الحديدية والحياة الروسية . .

فالسفر بالسكة الحديدية يتميز بسرعة تهيئ تجربة خاصة بها وحدها . وهذه السرعة تدركها جميع الحواس ، حيث تضفى عليها ضخامة قل أن توجد . فالأذن تسمع حركة السير وأصوات العربات المملة ، وترى البصر الأشياء التى تجرى نحوه على أبعاد منتظمة ، ويحس الجسم كله بالحركة الدائبة التى تهزه . وهذه التجارب المختلفة التى يستطيع التحليل وحده فصلها بعضها عن بعض تنتظم جميعها فى تجربة واحدة تضمها وتكبرها ؛ وذلك هو الشعور الحاد بالانسياب المتواصل على قضبان السكة الحديدية . ويتراءى لنا أن هذه العاطفة

تكتسب تلك القوة لأن جريان الحركة على وتيرة واحدة يمثل التقدم فى هذه الحركة الموسيقية أى فى التأليف الفنى . وضجيج المتوحشين المنتظم جدا والمثير فى نفس الوقت ليس أكثر تقدما من حيث التنظيم الموسيقى من حركة السكة الحديدية . وسيكون أثره إذن فى حدود إحساس طبيعى بحت بعد أن كان روحيا. ونحن نعرف أثر القوة الهائلة التى تتولد من التكرار السريع لنفس اللحن . ولنضرب لذلك مثلا الحركة الثالثة لسنفونية بتهوفن التاسعة ، فإن العنصر التأثيرى فيها يجاوز تقريبا حدود الاحتمال .

وثمة سبب آخر ، وهو نفسى محض ، للجاذبية التى يجدها الفنانون الروس نحو فكرة السكة الحديدية . فإن الرحلة فى السكة الحديدية تمثل حياة تكون فيما وراء الحقيقة تقريبا ؛ فإن الديوان المغلق من جميع النواحى يخلق عالما على حدة يتعارض فيه كيانه الثابت الباقى ، باطراد التغير المستمر فى العالم الخارجى . وحتى القضبان الحديدية نفسها وهى التى تعبّد صعوبات الطريق بإزالتها آخر اتصال بالتربة ، تساعد على هذا الانفصال عن كل ما هو من التربة الحية غير المستوية . وهكذا يتلاشى هذا الإحساس الجميل بالانسياب على طريق متعرج والشعور بسطح الأرض بمرتفعاتها ومنخفضاتها، وهى العاطفة التى يحسها الإنسان إحساسا عميقا فوق دراجة وبنوع خاص على قباقيب الانزلاق — هذا الاتحاد بالتربة وهو الإحساس الذى يصفه بروست فى صورة قوية يتلاشى تماما عند ما يسافر الإنسان فى السكة الحديدية .

فهذا الانفصال من عالم الحقيقة الذى هو من الصفات الأساسية للسفر فى السكة الحديدية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة السلبية المطلقة التى تكون جزءاً من هذه التجربة . كل شىء يتركز فى المسافر نفسه الذى يبقى فى حالة سكون تامة . ولذلك كان تجاهل الحقيقة الذى يجب أن يؤدى فى نهاية الأمر إلى الحالة السلبية ، إحدى الصفات الجوهرية لشخصيات القصص الروسية فى هذا العصر ، ورفض الحياة ومطالبها هو إحدى أفكارها المحببة إلى النفوس . وهكذا نجد القصة الروسية فى القرن التاسع عشر قصة تفور بالغ من الحياة ، ونرى جونتشاروف فى قصة « اوبلوموف » التى تعد من أروع قصص العصر يتخذ من الشخصية الرئيسية إنساناً فى حالة سلبية تامة ، يعيش حياته كلها حالما فوق أريكة فى حين يغطيه التراب ، وهو يموت ، كما يقول المؤلف ، بمرض روسى

يسمونه « الأبلوفيه » وهو فقدان التأثر وإرادة الكفاح وبلوغ غاية معينة فى الحياة ، وفقدان النشاط والحيوية اللذين هما صفات الرجل الغربى .

وبما أن هاتين الخاصتين الجوهريتين للأدب الروسى فى هذا العصر : سلبية الفرد وسط طبيعة غنية متنوعة مائجة من جهة ، وانفصاله وعزلته عن هذا العالم من الجهة الأخرى ، تبدوان لنا أيضاً كأنهما العناصر الأساسية الثابتة لتجربة السفر فى السكة الحديدية ؛ فإنه يضاف إليهما عامل آخر يكاد يكون فنيًّا ألا وهو نظام حركة القطار نفسه .

ولكننا نعتقد أننا نكاد نلمح سبباً آخر فوق ما تقدم ، وهو الذى يساعد على جعل القطار رمزاً أكثر منه تعبيراً عن التأثير العميق ، وهو سبب يبدو لأول وهلة بعيداً . فعند ما أراد فاوست ــ وهو رمز الرجل الغربى ، إن لم يكن الألمانى ــ وصف عمل أراده مثمراً على وجه خاص ، كان إخصاب المستنقع عنواناً لهذا العمل . فإخصاب التربة هو الوصف المرادف للعمل الصحيح المثمر ، وصار هذا العمل حلم جميع الذين يريدون الفرار من عقم الحياة . ولكن إذا كان إخصاب الأرض يتخذ لدى الرجل الغربى المزود بآلات مكانة الرمز المقدس ، فإنه فى نظر الرجل الروسى لا يعنى إلا نشاطا يوميًّا إن لم يكن عملا مملا . وعنده أن الآلة التى تحل مكان السر الغامض هى التى تصير رمزاً ، رمزاً للتقدم والإصلاح وللمثل أعلى منشود ومرغوب فيه للغاية ، ويضير لها قيمة شبه صوفية . ولهذا السبب يمكن ان تصير الشبكة الحديدية « نجمة العذاب » التى تتحدث عنها رؤيا يوحنا عند دوستويفسكى . ولهذا السبب أيضاً اختلط الحديث عن « السياسة والسكة الحديدية » عند تولستوى .

ولكن إذا أمكن لهذا السبب البسيط أن تصبح السكة الحديدية رمزاً فى الأدب الروسى ، فإن العناصر النفسية والبالغة فى التعقيد التى حللناها آنفاً هى التى كسبتها هذه المسحة التأثيرية ، وكذلك أيضاً الحالة السلبية التى يوجد عليها الفرد ، ونغمة القطار المنتظمة الظاهرة .

وهذا الميل الخاص إلى القيم الموسيقية ــ إلى حد سير المؤلفات الأدبية على وفق القوانين الموسيقية ــ يغلب على المزاج الروسى بوجه عام . ولقد أحس تولستوى خطر ذلك إحساساً عميقاً فى الاتهام الذى أورده على لسان برودنتيشيف . فالموسيقى خطر وهى من عمل الشيطان ، لأنها تخضع الإنسان وتسلبه إرادته

وكرامته . وفى رأى برودنتيشيف أن النزعة الحسية فى موسيقى بتهوفن هى مصدر مأساته وجريمته .

لقد وجد الخلق الروسى كما وجد المزاج الروسى إذن فى القطار — سواء فى الميدان النفسى أم فى المجال الفنى كالنغمة الموسيقية مثلا — عناصر مكنت من السمو ، بوسيلة بسيطة من وسائل الانتقال ، فى مجال رمزى ، إلى مرتبة الحافز التأثيرى العظيم .

هيلد نالوشر

بعض القضايا الصحفية المصرية

محاكمة المؤيد فى قضية التلغراف

عرفت مصر الصحافة الشعبية فى وقت متأخر ، فإذا غضضنا النظر عن « الوقائع المصرية » التى كانت أول صحيفة مصرية والتى لبثت منـذ ظهورها فى سنة ١٨٢٨ تتشح بالصبغة الرسمية فإننا لا نجد قبل بداية عهد إسماعيل صحيفة شعبية مصرية .

وكان ظهور الصحافة الشعبية المصرية فى بداية عهد إسماعيل ثمرة يانعة من ثمار النهضة الأدبية التى بدأت فى عهد محمد على ، وأمدت عهد إسماعيل بجمهرة كبيرة من الأدباء والكتّاب الذين درجوا فى مهادها . ولم يفت إسماعيل أن يعنى بالحركة الأدبية فيما عنى به من وجوه التقدم الاجتماعى . وكان لا بد لهذه التطورات الاجتماعية الجديدة التى شهدتها مصر يومئذ من أقلام تصورها وتعبر عنها ، فكان ذلك إيذاناً بمولد الصحافة الشعبية .

بدأت الصحافة الشعبية فى عهد إسماعيل بصدور مجلة « اليعسوب » الطبية التى أنشأها فى سنة ١٨٦٥ الدكتور محمد على باشا البقلى وإبراهيم الدسوقى كبير مصححى المطبعة الأميرية ، فكانت أول صحيفة مصرية خاصة ظهرت بعد « الوقائع المصرية » ، ولكنها احتجبت بعد زمن وجيز .

وفى سنة ١٨٦٧ أنشأ الشاعر الأديب عبد الله أبو السعود أفندى صحيفة « وادى النيل » سياسية أدبية ، وكان عبد الله أبو السعود من أنجب تلاميذ رفاعة بك الطهطاوى وأعلامهم كعباً فى التحرير والترجمة ، وكانت « وادى النيل » أول جريدة سياسية مصرية خاصة شهدت الضياء ، ولما عطلت فى سنة ١٨٧٢ أنشأ مكانها محمد بك أنسى ولد صاحبها جريدة « روضة الأخبار » ولبثت تصدر مدى حين .

وفى سنة ١٨٦٩ صدرت مجلة « نزهة الأفكار » الأسبوعية التى أنشأها

إبراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ، وكلاهما من أساطين الأدب والبيان فى عصر إسماعيل ، غير أنها لم تلبث أن عطلت بأمر الخديو بعد أن ظهر منها عددان فقط .

ثم ظهرت مجلة « روضة المدارس » الشهيرة فى سنة ١٨٧٠ ، أنشأها العلامة على باشا مبارك وقت أن كان ناظراً للمعارف ، وكانت مجلة حكومية تتولى نظارة المعارف إصدارها والإنفاق عليها ، ويشترك فى تحريرها معظم أعلام البيان فى هذا العصر ، واستمرت على الصدور عدة أعوام .

وأنشأ جماعة من الأدباء اللبنانيين الذين نزحوا إلى مصر يومئذ فراراً من اضطهاد الحكم العثمانى عدة صحف بمصر والإسكندرية ، منها جريدة« الكوكب الشرق » التى أنشأها سليم الحموى سنة ١٨٧٣ ، ومنها جريدة « الأهرام » التى أنشأها فى سنة ١٨٧٦ الأخوان سليم وبشاره تقلا والتى قدر لها أن تلعب خلال حياتها الطويلة أعظم دور فى ميدان النشاط الصحفى بمصر والبلاد العربية .

وتوالى بعد عصر إسماعيل صدور الصحف الخاصة ، فصدرت جريدة « المقطم » فى أوائل سنة ١٨٨٩ ، ثم تلتها جريدة «المؤيد» فى أواخر هذا العام نفسه لترفع علم الجهاد الوطنى ضد المحتلين وأنصارهم ، وظهرت جريدة « اللواء » فى سنة ١٩٠٠ فكان ظهورها إيذاناً ببدء عهد الصحافة المصرية الوطنية الكبرى .

وكما أن مصر لم تعرف الصحافة الشعبية إلا فى عصر متأخر ، فكذلك لم تعرف الجرائم والمحاكمات الصحفية إلا فى عصر متأخر أيضاً .

عرفت مصر هذه الجرائم والمحاكمات الصحفية منذ أواخر القرن الماضى ، وهى الفترة التى شهدت مولد الصحافة المصرية الوطنية الحقيقية ، وبدأ فيها جهاد الأقلام المصرية فى سبيل القضية الوطنية .

ويجب أن تذكر ان أول قانون مصرى للمطبوعات قد صدر فى سنة ١٨٨١ ، كذلك لم يصدر قانون العقوبات المصرى الجديد إلا حينما نفذ مشروع الإصلاح القضائى فى سنة ١٨٨٣ .

ولم تعرف الصحافة فى مصر قبل ذلك محاكمات صحفية بالمعنى الصحيح . وكانت السلطات تلجأ فى ردع الصحف إلى الوسائل الإدارية . وكانت أول

خطوة اتخذت لمحاكمة صحيفة تصدر فى مصر فى أوائل سنة ١٨٧٩ حينما غضب الخديو إسماعيل على جريدة « الاهرام » الناشئة لتعرضها لبعض تصرفاته، فأمر بتعطيلها والقبض على صاحبها وتقديمه للمحاكمة، ولكن تدخل الحكومة الفرنسية التى كان صاحب « الأهرام » يومئذ من رعاياها انتهى بالإفراج عنه وعن صحيفته، والعدول عن محاكمته. وفى ٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ قرر مجلس النظار تعطيل «الأهرام» شهراً لنشرها مقالات سياسية من شأنها أن تسىء إلى سمعة الحكومة وسمعة الخديو، ولأنها نشرت فى عددها الصادر فى ١١ أغسطس مقالا لمراسل من لندن يفيض طعناً فى الخديو وحكومته، وقامت السلطات بالفعل بتنفيذ قرارات التعطيل وإغلاق مطبعة الجريدة بالإسكندرية بالرغم من مقاومة صاحب «الأهرام». ولكن قنصل فرنسا تدخل فى الأمر تدخلا عنيفاً وطلب بلهجة الأمر إلغاء هذه الإجراءات التى اتخذت ضد أحد رعاياه، وعبثاً حاولت الحكومة المصرية الدفاع عن تصرفها. وبادر صاحب «الأهرام» برفع قضية تعويض على الحكومة المصرية أمام القضاء المختلط، واضطر نوبار باشا ناظر النظار ووزير الخارجية أن ينزل فى النهاية عند حكم الظروف وأن يسحب قرار الحكومة المصرية مع ما فى ذلك من صدع لهيبتها وكرامتها (١).

بيد أن هذه لم تكن محاكمات صحفية بالمعنى الحقيقى. ومضت فترة أخرى قبل أن تقع المحاكمات الصحفية بالتطبيق لقانون العقوبات الجديد.

ومما تجدر ملاحظته فى هذا الشأن أن عبء المحاكمات الصحفية كان يقع بالأخص على كاهل الصحف المصرية الصميمة. وأما صحف الأدباء النازحين فلم يكن يصيبها رشاش القانون قط ولم تتعرض حتى يومنا لأية محاكمة قانونية. والسبب فى ذلك ظاهر، وهو أن التشريعات الجنائية والاستثنائية كانت فوق أغراضها العامة ترمى إلى كبح جماح الصحافة الوطنية قبل كل شىء؛ لأنها هى التى تحمل علم الجهاد القومى. وأما الصحف الأخرى فقد كانت وما تزال بعيدة عن هذه الاعتبارات القومية الخالصة، وكانت تغلب عليها منذ البداية بواعث المصلحة الخاصة، ولم يكن من صالحها قط أن تنزل إلى معترك الجهاد القومى.

---

(١) اعتمدنا فى هذه الوقائع على ملف جريدة « الأهرام » الرسمى المودع بمحفوظات وزارة الداخلية.

ولم تعرف الصحافة الأجنبية فى الوقت نفسه المحاكمات الصحفية ؛ لأنها كانت لتمتعها بالامتيازات الأجنبية بمنجاة من نصوص القوانين المصرية ، وكانت تحال إلى قضائها القنصلى المتسامح فيما يقع لها من ذلك .

ونلاحظ أيضاً أن فورة المحاكمات الصحفية تشتد بنوع خاص حينما تشتد مراحل الجهاد الوطنى . فمثلا نرى هذه المحاكمات تكثر عقب حادث دنشواى حينما اشتدت حملات الصحف الوطنية على الاحتلال ، وكذلك نراها تكثر أيام الحركة الوطنية الأخيرة ، ومنذ صدور الدستور فى سنة ١٩٢٣ ، أعنى مذ أغلق القانون باب التعطيل الإدارى ، ونراها تكثر وقت المعارك الحزبية الشديدة .

كانت قضية التلغراف الشهيرة أول قضية صحفية مصرية رنانة ، وقعت حوادثها فى سنة ١٨٩٦ وكان بطلها الصحفى الكبير الشيخ على يوسف منشئ جريدة «المؤيد» . وقد صدرت « المؤيد » ، كما قدمنا ، فى ديسمبر سنة ١٨٨٩ وكان ظهورها حادثاً صحفيًّا ذا شأن ، وكان محققاً لأمنية تجيش بها نفوس الوطنيين منذ صدور جريدة «المقطم» قبل ذلك بعدة أشهر . وكما أن المقطم كان يومئذ داعية الاحتلال وحامل لوائه ، فكذلك كان « المؤيد » يحمل لواء المعارضة لسياسة الاحتلال ، وظهر صاحبه ومحرره الشيخ على يوسف منذ البداية بمقالاته القوية الرنانة . وكان الشيخ من تلاميذ الأزهر النوابغ ، نظم الشعر وعالج الكتابة منذ فتوته ، وأنشأ مجلة « الآداب » مع زميله الشيخ أحمد ماضى فى سنة ١٨٨٧ ثم عطلها لينقطع إلى تحرير « المؤيد » . ولم تلبث المؤيد أن نمت وتقدمت بسرعة ، والتف حولها كثير من الكبراء والوطنيين يشدون أزرها فى كفاحها ضد السياسة الانجليزية والصحف الاحتلالية . وكان للمعارك القلمية التى نشبت يومئذ بين صحف الفريقين أعظم وقع فى البلاد . وعرفت « المؤيد » فوق ذلك بنزعتها الإسلامية القوية وذاع اسمها فى العالم الاسلامى .

وكان طبيعيًّا أن تنزعج سلطات الاحتلال لهذا الصوت المدوى الذى يعلو على صوت أنصارها والذى يبث حولها عواطف البغضاء والسخط ، وأن تحاول القضاء عليه بمختلف الوسائل ، وكانت تتربص الفرص للإيقاع بجريدة «المؤيد» وصاحبها الصحفى الجرىء . وسرعان ما ألفت فرصتها سانحة فى تدبير قضية التلغراف .

وتفصيل هذه القضية الشهيرة هو أن جريدة « المؤيد » نشرت فى عددها الصادر فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٩٦ تحت عنوان «أحوال الجيش المصرى فى الحدود» صورة برقية سرية بعث بها اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى إلى ناظر الحربية فى ٢٦ يوليه عن أحوال الحملة المصرية فى دنقلة وأحوال الجيش الصحية.

وهذا ما نشرته « المؤيد » :

« تفيد التلغرافات الأخيرة الواردة من كوشة أمس على نظارة الحربية التفصيلات الآتية عن حالة الجيش المصرى فى الحدود

«وقد أظهر سعادة السردار أسفه أنه لم يتمكن منذ أيام من إرسال التفصيلات لأنه كان شديد القلق من الكوليرا التى انتشرت هناك فى كل منطقة، ومركز من مراكز خطوط المواصلات وفى المعسكرات . . . » ثم قال : « وقد حصل فى أسوان بين عساكر الحضرة الخديوية الفخيمة ٢٩ إصابة توفى منها ١٥ شخصاً أما فى كروسكو فقد حصلت ٢٢ إصابة توفى منها ١٣ وفى حلفا ١٥٦ إصابة توفى منها ٩٨ وست وفيات فى الجيش البريطانى .

« ولم تحصل إصابات فى الجيش بسواردة . وأمل سعادة السردار أن الاحتياطات التى اتخذت تدفع عنه غائلة الوباء ، ولكن هذا الوباء شديد الوطأة جداً بين اللاجئين إلى سواردة من الأهالى والآتين إليها من الجنوب بقصد الاختباء . وقد توفى منهم عدد كبير ، وقد تأخر وصول سكة الحديد إلى هنا بالنظر إلى سوء حالة الوابورات القديمة، وهذا استوجب تأخير وصول الأدوات اللازمة الكافية لاستمرار العمل فيها بدون انقطاع ، وإلا فكان يجب أن يصل القطار إلى هنا من زمن طويل . ويوجد الآن وابوران جديدان فى الطريق المأمول أنهما يساعداننا ، والوابورات المستعملة اشتغلت أكثر من إحدى عشرة سنة . وأتأسف أن اقول لسعادتكم إن فيضان النيل ليس بكاف لتسيير السفن البخارية فى الشلالات ، وأن هنتر باشا الآن فى حلفا مستعد للشروع فى هذه الأعمال بمجرد ما يوجد ماء كاف فى الباب الأكبر من الشلال الثانى .

« ويظهر أن الدراويش عولوا على المدافعة عن دنقلة . ولكن الصعوبات التى كانت توجد للآن أمامنا قد زالت ، ولذلك سنزحف لاحتلال الإقليم » .

أرسل السردار هذه البرقية فى ٢٦ يوليه باللغة الفرنسية إلى ناظر الحربية محتوية على ٥٦٦ كلمة، فتلقاها مكتب تلغراف الأزبكية وأرسلت مباشرة إلى نظارة

الحربية وحملها إلى الناظر فى منزله جاويش انكليزى، فاطلع عليها واحتفظ بسريتها.
ولكن ظهرت « المؤيد » بعد ذلك بيومين وفيها ترجمة البرقية كلها حسبما تقدم، فانزعجت لذلك نظارة الحربية . وكانت جريدة « المؤيد » توالى منذ حين نشر كثير من الأنباء السرية عن سير الحملة المصرية وأعمالها مما يرد إلى نظارة الحربية فى برقيات سرية متعاقبة دون أن تهتدى السلطات إلى المصدر الذى يمد «المؤيد» بهذه الأنباء، واضطهد من أجل ذلك عدة من موظفى إدارة التلغراف وشردوا فى مختلف الأقاليم .

فلما نشرت « المؤيد » هذه البرقية السرية الخطيرة ضاقت السلطات ذرعا بهذا التحدى، ونشطت إلى تحرى الحقيقة، فبثت العيون والأرصاد فى مكتب التلغراف، وسرعان ما اتجهت الشبهة إلى موظف ملحق به يدعى توفيق أفندى كيرلس ضبط وهو ينقل محتويات برقية كانت مرسلة إلى جريدة «الديلى تلغراف» بلندن من مراسلها فى القاهرة فقبض عليه، وظهر فى التحقيق أنه كان وقت ورود برقية السردار يقوم بأعمال النوباتجية بالمكتب، وإذن فقد كان من الراجح أنه هو الذى نقل البرقية السرية وسلمها إلى صاحب « المؤيد » .

وفى الوقت نفسه تقدم الدكتور فارس نمر أحد أصحاب جريدة « المقطم » إلى السلطات يشكو بأن مراسل جريدته فى ببا أرسل إليه برقية رآها منشورة بنصها فى جريدة « المؤيد » فى يوم ٢٨ يوليه قبل أن تظهر فى « المقطم » وكانت خاصة بنبأ قبض السلطات على أحد كبار الأشقياء الفارين . فكان ذلك دليلا جديداً يعزز الشبهة ضد الموظف المقبوض عليه . ولكن توفيق كيرلس أنكر ما نسب إليه، وأنكر بنوع خاص أنه هو الذى أمد « المؤيد » بنص البرقية السرية، وأنه لا يعرف صاحب « المؤيد » إلا معرفة سطحية جداً .

وكانت سلطات الاحتلال تحاول بكل وسيلة أن تنكل « بالمؤيد » وصاحبه الشيخ على يوسف خصوصاً وأن « المؤيد » كانت منذ البداية تعارض بشدة فى تسيير الحملة المصرية إلى السودان وتنتقد الظروف التى نظمت فيها الحملة وما جرته على موارد البلاد من إرهاق لا يحتمل، وكانت فى اليوم السابق لنشر البرقية قد نشرت مقالا شديداً تكرر فيه مطاعنها وتبين فيه ما لحق البلاد من عنت وما أصاب جيشها من الشدائد والمهانة من جراء هذه الحملة الخطيرة التى

أرسلت على عجل والتى أريد بها تحقيق مشاريع الانجليز قبل كل شىء .

ولكن التحقيق الذى أجرته النيابة العمومية وقام به وكيل النيابة الشاب محمد فريد (الزعيم الوطنى محمد بك فريد فيما بعد) لم يسفر عن دليل يمكن إقامته ضد صاحب «المؤيد» . ولهذا قرر الأفوكاتو العمومى أن لا وجه لإقامة الدعوى ضده. ولكن هذا القرار لم يرق الإنجليز، وأوعز المستشار القضائى الإنجليزى جونسون باشا لناظر الحقانية بوجوب إعادة التحقيق مع الشيخ على يوسف وتقديمه للمحاكمة ، فنزلت النيابة العمومية عند هذه الرغبة ، وكان هذا التصرف مثار الإنكار والنقد ، ونشرت الصحف الوطنية مثل «الوطن» و «الرائد المصرى» وغيرها مقالات شديدة اللهجة تلوم فيها النيابة العمومية على نقض قرارها الأول ، وشاركتها بعض الصحف الأجنبية المحلية مثل «الفار دالكسندرى» فى هذا اللوم ، وكانت جريدة « المؤيد » تنقل هذه المقالات إلى قرائها تباعا .

على أن هذه الحملة لم تغن شيئاً ، فحقق مع صاحب « المؤيد » كما حقق مع توفيق أفندى كيرلس ، ورفعت الدعوى العمومية على الرجلين ووجهت إليهما تهمتان : الأولى تهمة إفشاء الأسرار البريدية والتلغرافية المنصوص عليها فى المادة ٦٨ عقوبات (١٥٤ جديدة) والثانية تهمة إفشاء تلغراف جريدة « المقطم » . واعتبرت توفيق كيرلس فاعلا أصليا فى التهمتين والشيخ على يوسف شريكا له .

ونظرت القضية أمام محكمة جنح عابدين فى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٦ وعقدت الجلسة برياسة القاضى محمود خيرت بك وجلس فى كرسى النيابة على بك توفيق ممثلا للاتهام، وتولى الدفاع عن الشيخ على يوسف الإستاذ أحمد بك الحسينى وعن توفيق أفندى كيرلس الأستاذ إبراهيم بك الهلباوى ، وكان كلاهما من أعلام المحاماة فى ذلك العصر ، واستمر نظر القضية ثلاثة أيام متوالية ، وكان من شهودها ناظر الحربية ومستر ويلى مدير التلغراف وعدد من الصحفيين منهم الدكتور فارس نمر وتادرس أفندى شنوده صاحب جريدة « مصر » ، وكان الجمهور يتتبع حوادث القضية باهتمام بالغ ويحتشد فى ساحة المحكمة وحولها أعظم احتشاد . وأبدى الدفاع مقدرة عظيمة فى تفنيد الأدلة التى تقدم بها ممثل النيابة وعارض فى التطبيق القانونى وطالب ببراءة المتهمين .

وفى مساء يوم الثلاثاء ١٩ نوفمبر أصدرت المحكمة حكمها فى القضية وهو يقضى بحبس توفيق أفندى كيرلس ثلاثة أشهر عن تهمة إفشاء تلغراف السردار

وتبرئته من تهمة إفشاء تلغراف «المقطم» وتبرئة الشيخ على يوسف من التهمتين ، فاستقبل الجمهور الحكم بالهتاف المدوى للقضاء العادل ، وكانت له رنة فرح عظيم فى سائر الدوائر الوطنية ، واعتبر نصراً عظيما للصحافة الوطنية وحرية الصحافة ، واستمرت « المؤيد » مدى أيام تخصص صفحات كاملة منها لنشر المرافعات فى هذه القضية الرنانة .

كان لصدور حكم البراءة بالنسبة لصاحب « المؤيد » وهو المقصود بالذات وقع سىء فى الدوائر الرسمية ، وكان من آثاره الأولى أن صدر الأمر بنقل القاضى الذى أصدره إلى محكمة مصر ، وكذلك صدر الأمر بنقل محمد بك فريد وكيل النيابة الذى قام بتحقيق القضية إلى إحدى نيابات الوجه القبلى ، وكان فى تصرفه منذ البداية ما ينم عن وطنيته وعطفه على المتهمين . ولكن فريد بك رفض تنفيذ الأمر إذ وجد فيه مساساً باستقلال القضاء وآثر الاستقالة من منصبه واشتغل بالمحاماة ، ولم يلبث أن انضم إلى صديقه الشاب النابه مصطفى كامل فى العمل على تنظيم الحركة الوطنية وقيادتها .

وأوعزت الحكومة إلى النيابة باستئناف حكم محكمة عابدين مؤملة أن يستدرك القضاء الأعلى ما فات القضاء الجزئى . ونظر الاستئناف على عجل أمام محكمة الجنح المستأنفة فى يوم الثلاثاء ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٦ وتولى رياسة الجلسة على بك ذو الفقار ، وتولى الدفاع عن المتهمين نفس محاميهما أمام محكمة عابدين ، وكان ظاهراً من التلخيص الذى تلاه القاضى على هيئة المحكمة أن الجو ممهد للدفاع مشبع بالعطف على المتهمين . ولم تطل المرافعات فى القضية واختلت المحكمة للمداولة مدى ساعتين كاملتين ثم أصدرت حكمها على الأثر بتأييد حكم البراءة بالنسبة لصاحب « المؤيد » وإلغاء الحكم المستأنف بالنسبة لتوفيق افندى كيرلس وبراءته من التهمتين المنسوبتين إليه . فاستقبل الحكم بأعظم مظاهر الحماسة وهتف الجمهور الحاشد هتافا عالياً بحياة القضاء العادل ، وأبى إلا أن يحمل الشيخ على الأعناق . ووصفت «المؤيد» هذه المظاهرة الوطنية فى قولها : « كان الألوف من الناس فى قاعات المحكمة فلما نطق الرئيس بالحكم هتف الناس لتحى العدالة ، ليحى الاستقلال ، ليحى المؤيد ، وحملوا الشيخ من قفص الاتهام حتى سلم المحكمة . »

وعلقت « المؤيد » فى نفس اليوم على صدور هذا الحكم بما يأتى : « ونحن نقول عن حكم الاستئناف فى قضيتنا هذه كما يحق لكل المصريين الذين سرهم هذا الحكم اليوم إن هذا الحكم العادل جاء برهانا قاطعا على أن القضاء الأهلى فى مصر لا يزال باقيا على ما كان عليه من الاستقلال وعلى أنه إنما يصدر أحكاما لا أنه يؤدى خدما . »

وهكذا خاب أمل الإنجليز وأمل الحكومة الاحتلالية فى تسخير القضاء لرغباتها وفى الايقاع بصاحب « المؤيد » الذى أزعجت صيحاته المدوية سلطات الاحتلال ، وفى إرهاب الصحافة الوطنية التى أخذت تعمل لإيقاظ الرأى العام ، وإحباط الدعاية المنظمة التى كانت تقوم بها الصحافة الاحتلالية لتثبيت قدم الاحتلال وتوطيد أركانه .

بل كان للقضية بالعكس أثرها فى تقوية الحركة الوطنية التى كانت يومئذ فى بدايتها وفى ذيوع جريدة « المؤيد » وارتفاع مكانتها [1] .

محمد عبد الله عنان

---

(١) كانت اعداد جريدة « المؤيد » أخصب مصادرنا فى عرض حوادث هذه القضية وقد رجعنا أيضاً إلى مذكرات المرحوم شفيق باشا ج ٢ (القسم الثانى) ص ٢٢٠ — ٢٣١ وإلى ترجمة محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى بك ص ٢٥ — ٢٧ .

الضياء المظلم

[كانت ليالى القاهرة الدامسة فى سنى الحرب ، تفتح له آفاقاً موشية من الأنس والبهجة ! حتى إذا رجع إليها الضياء هبط إلى عالم الآناسى الموحش الكئيب !]

عاد الضّياء فعدتُ منطوياً على بَرْحِ الأسى
ذهب الظلامُ به ، وكا نَ لىَ الرّفيقَ المُؤْنِسا
أرْعَى « سُهَيلا » فيه وَرْ داً ، و « الثُّريّا » نَرْجِسا
أتُرَى فؤادىَ صار خُفّا شاً يَلَذُّ الحِنْدِسا [1]
كَمْ وَدَّ لو طمَستْ غوا شِيهِ النّهارَ المُشْمِسا
تتنفّسُ الأشجانُ فيه إذا الصّباحُ تَنَفّسا
يا من أضاء [2] لنا الدُّجى هلّا أضأتَ الأنفُسا

لا تَلْحَيَنّ مُرَزّأ من كلّ شىء أفلسا
كانتْ « عسَى » بعضَ العزا ءِ له ، فخانَتْه « عسَى »
فقدَ الحياةَ وطيبَها مَنْ بات مفقودَ الأُسى [3]

على الجندى

---

(١) الليل الشديد الظلمة .
(٢) المراد « شركة النور » .
(٣) بضم الهمزة وكسرها جمع أسوة : ما يتعزى به الحزين ، وتطلق على الصبر .

جولة فى « ما بعد الحرب »

السفر — لوندرة — باريس

[سافر فى الأسفار خمس فوائد]

من بيت شعر ضعيف

مطار ألماظة — أو ألماسة ، وقيل أدماسة ، كما يريد ولا شك أصحاب المذياع والشاطر والمشطور بينهما لا أدرى ما ذا — يتوهج تحت لمسة الشمس المائلة إلى الغروب ، ذات يوم من أيام يوليه . وكأنى عائد إلى الإسكندرية بالطيارة كما اعتدت منذ أنشئت الشركة المصرية . ولكنى فى هذه المرة أحمل جواز سفر وأقف فى دورى لتفحص أوراقى وحقائبى . فرحلتى تنتهى إلى أبعد من الإسكندرية ومن حدود مصر وغيرها . اليوم أسافر إلى لوندرة ، إلى عالم « ما بعد الحرب » لأول مرة .

الطائرة « داكوتا » ذات العشرين مقعداً أو نحو ذلك ، واتجاهها إلى الغرب فوق الصحراء ، وهذا أيضاً ليس جديداً علىّ ؛ فقد ركبت سنة ١٩٣٢ طائرة « فيكرزفيكنج » الحربية التى تحمل عشرين جنديًّا ، وطرت بها فى اتجاه الغرب حتى المُغْرَة ، وفوق منخفض القطارة إلى واحة سيوة .

والطيران بعيد المدى عبر حدود الدول عرفته بعض الشىء حين سافرت من أثينا الى بوخارست ، ومن روما إلى أثينا ، ومن القاهرة إلى بيروت .

وأنا بعيد العهد بالطيران . أول ما حلقت فى الجو كان عام عبور لندبرج للمحيط الأطلانطى — لندبرج خمر أميركا الذى استحال خلاً بجرثومة النازية — سنة ١٩٢٧ إذا كنت أذكر جيداً . ركبت حينذاك طائرة ذات مقعدين مكشوفين ، فى حفلة « التعميد الجوى » كما تسمى . طائرة كانت إلى طائرات اليوم عربة كارو هوائية ، ألبست قبل الصعود إليها « لاسة » من

الجلد ، وحلقت عشرين دقيقة أشاهد المدينة الفرنسية التى كنت أسكنها ذاك العام .

ثم سافرت بعد ذلك من باريس إلى لوندرة ، فى أول زيارة لانجلترا بالطائرة .

ومع هذا لم يخل سفرى إلى إنجلترا فى صيف ١٩٤٦ من الجدّة ، لطول المسافة ، ومدة الطيران ، والطيران فى جنح الظلام ؛ وأهم من ذلك ، لأنه أول سفر لى بعد الحرب إلى بلاد « ما بعد الحرب » إلى أوربا ، مثلنا الأعلى فى كل ما نريده لبلادنا من خير ورفعة ، أوربا التى دافعت وأدافع عن حضارتها رغم تلك الحركات الرجعية التى تريدنا أن ننظر إلى الشمس فى مطالعها ، والموكب يسير غربا ، أن نولى شطر القرون الوسطى ، والتاريخ ينهب حقبته العشرين . أول سفر إلى أوربا المريضة التى انتهى بها المرض إلى نوبة جنون قاتل دام ستة أعوام .

القاهرة ـ العضم ـ مالطة ـ مارسيليا ـ لوندرة . بدأت الرحلة من ألماظة الساعة السادسة مساء ، وختمتها بمطار هيث رو الساعة الأولى بعد ظهر اليوم التالى : عشرين ساعة بحساب فرق الوقت ، جلها طيران ، إلا ساعة انتظار فى مطارات العضم ومالطة ومارسيليا . كل ما أذكره من تلك الرحلة : هزيم الآلات المستدير ، ومنظر الصحراء يتقلب من الذهبى إلى البنفسجى والرومادى فالأسود الحالك . والمصباحان الأخضر والأحمر إلى طرفى جناح الطائرة ، وشرارات تنبعث من جسم الطائرة الضخمة ، وأضواء تنتشر فى المطارات وسط الليل البهيم ، منها الثابت ومنها المتحرك كفنارات الموانى . وأكلات إنجليزية ازدردتها فى شبه غفوة النائم ، يقدمها جنود سلاح الطيران البريطانى فى جنح الليل أو قرب مطلع الفجر ، وصخور مالطة ، وزرقة البحر الأبيض ، وجزائره الساحرة ، والإفطار الفرنسى الخفيف تقدمه مرسيليات حسناوات ، وفرنسا بطولها فى اتجاه وادى الرون . والمانش بسحبه الكثيفة ، والريف البريطانى الجميل بمنازله ذات الطراز الموحد الممل .

لم أتعرف فى فرنسا على غير نهر الرون ، عند ذلك الكوبرى العتيق المهدم الذى عرفته فى أفنيون باسم قنطرة سان بنازيه . وكان دليلى إليه الكوبرى المعلق القائم إلى جواره يصل بين فيلنوف وافنيون .

يبدأ « ما بعد الحرب » . لعينى عند هيث رو المطار البريطانى الكبير ، المزدحم بالطائرات من كل صوب وحجم وشكل . خلو من المبانى ، تقوم إدارته فى خيام عسكرية كالحة اللون . يتلقاك رجال البوليس والجمارك بالنظرات المعهودة فى كل زمان ومكان ، نظرات عابسة حازمة ، كلها تشكك فى أمانتك ، وتجهم لقدومك ، فأنت فم ومعدة وشهية تضاف إلى الملايين من أشباهها فى بلاد لا تفى بحاجة سكانها . ثم إنك لا بد تحمل فى طيات ثيابك الذهب والجواهر والنشرات والقنابل . فإذا عرف الموظفون بهويتك ، وبما فى حقائبك من هدايا غذائية لأصحابك فى انجلترا ، ابتسموا فيما يشبه الاعتذار ، وتمنوا لك سفرا طيبا .

ثم اختراق تلك الضواحى الهائلة حول لوندرة التى تجعل من المستحيل عليك تحديد نهاية الأرباض وبدء المدينة . ساعة طويلة فى أتوبوس شركة الطيران ، أخترق أثناءها ذلك المزيج بين الريف والحضر ، الذى يميز الانجليزى . فهو إذ يبتعد عن المدينة لوندرة ، لا يعرف على وجه التحقيق أهو يعيش فى الحضر والريف عند أقدامه ، أو يسكن الريف والحضر فى متناول يده .

وأخيرا هذه هى لوندرة ، بحدائقها السندسية البهجة ، وأبنيتها السوداء القبيحة ، وازدحامها المرهق ، وأتوبوساتها الفرحة بلونها الأحمر ، الشامخة بطابقيها ، وحركة المرور المعكوسة المقلقة باتجاهها إلى يسار الطريق بدل يمينه ، وبوليسها ذى القبعات الناقوسية الكحلية .

كلا ! لم أنس لوندرة منذ سنة ١٩٣٨ . فلم يمض على فيها يومان حتى وجدتنى أعرف من أحيائها وطرقها ودورها وآثارها ما عرفت من قبل . ولم أقض ساعة بين أهلها حتى اعتدت ذلك الهدوء البارد ، وشعور « عدم المبالاة بالآخرين » ، والحدود الموضوعة للسلوك فى البيع والشراء ، والاتصال بالناس .

هم هم الانجليز بوجوههم التى لا تنم عن شعور ، إلا أن يكون شعور من يشكو الإمساك المستعصى . ولكن النساء أكثر أناقة وعناية بجمالهن ، وربما كن أشد صلفاً واعتدادا إذا كان رجالهم بدوا أشد تعباً وإنهاكا . نبذوا القبعات السوداء المستديرة التى يسميها الفرنسيون « السنطاوى » والتى كانت مصدر عجبى عند ما زرت لوندرة لأول مرة سنة ١٩٢٧ فلم أك أتصور شعباً

با كله يقلب على رأسه هذه الآنية المضحكة التى عرفتها أول معرفتى لها على رأس شارلى شابلن ابن السبيل المهلهل الأنيق .

شعور واحد يتملكنى فى عشرة أيامى الأولى بلوندرة : شعور الإعجاب المتناهى بعاصمة الدولة التى أنقذت العالم من أعظم الشرور التى حاقت به فى تاريخه الطويل . قلب الأمة الباسلة العنيد التى وقفت وحدها فى مواجهة الأفاقين البرابرة الذى تحدوا البشرية جمعاء ، والتى تلقت الضربات الوحشية تنصب عليها من السماء حمما ونارا ، ومن قاع البحر حمما ونارا .

كنت فخورا بإنسانيتى إذ وجدت من هؤلاء الناس درعا واقيا للحضارة . وسواء عندى أن يكون دفاع الانجليزى عن بلاده وحضارته وإمبراطوريته ، ما دام هذا الدفاع فى ذاته ذودا عن الحضارة والإنسانية قطعا .

أنا هنا بين رجال ونساء راضين بما حققوا . غُلبوا على أمرهم ، وطردوا من أوربا والملايا ، وقُطعت عليهم أغلب طرقهم البحرية ، وهاجمتهم الطيارات والقنابل الطائرة والغواصات فى كل مكان ، وأُنذروا بالفناء قبل الغزو ، أو بالغزو فالفناء . ضيق عليهم أعداء البشرية الخناق ، على حدود مصر والسودان ، وفى العراق وكريت ومالطة والهند . ولكنهم ثبتوا كصخور مالطة ودوفر وجبل طارق ، وردوا الضربات بأقل منها ، فبمثلها ، فبأضعاف أضعافها . ثم جاء دورهم فى الغزو ، فنزلوا بالقارة الأوربية ، وحرروا فرنسا والبلجيك وهولاندة وإيطاليا ، ثم استعادوا بورما والملايا ، واكتسحوا قطعان الذئاب الفاشستية يردونها إلى عقر أوكارها ، حتى قضوا عليها . وهم اليوم يتحكمون فى ديارها . إن قدّموا الخير فبشعور إنسانى كريم ، وإن أعملوا الشر فبروح انتقام مفهوم ، عادل أوغير عادل تبعا لمزاج من يريد أن يبدى حكما .

اشتركت فى الغلبة شعوب أخرى بدمائها وذهبها وصناعاتها ، ولكن أمر هؤلاء وأولئك ليس موضوعى ، ورحلتى فى « ما بعد الحرب » بدأت هنا فى بريطانيا . ومناظر التدمير الماثلة لعينى تخص عاصمة بريطانيا . والشعب حولى هو الشعب البريطانى ، بذل وأعطى ، دافع وهجم ، قاتل وضحى ، صبر وصابر ، حتى ظفر وانتصر .

كانت آثار التدمير فى لوندرة هى مزارى هذه المرة . وإذا كانت زيارة الآثار القديمة مبعث الشعور بالجمال الفنى ، ووحى التاريخ الغابر ، فالبيوت

المدمرة ، والكنائس المبقورة — تلك الكنيسة الأسكتلندية كتب الأسقف على جانب من حائطها المهدم : تجرى الصلوات بالجناح الأيسر — والميادين الجديدة فسحتها قنابل هرمان جورنج حول كاتدرائية سان پول ، هى أيضاً مبعث شعور خلقى ، ووحى تاريخ قريب ، نطالع فيه عمى البربرية وتخرّص النازية التى نادت بالمدافع بدل الزبد ، لتفقد فى آخر أمرها المدافع والزبد ، ولا تجد فى نهاية الطريق سوى حبل المشنقة ورصاص البنادق وأنابيب سيانور البوتاسيوم ، والجوع والذلة وخصاصة العيش فيما أبقت عليه مدافع الروس وقنابل القلاع الطائرة .

قال لى صاحبى الانجليزى : لقد اعتدنا أن نرى المحايدين أقل إحساساً بما تركه التدمير من آثار فى بلادنا .

قلت له : ولكنى لست محايداً .

أجابنى : ولكنك لم تكن محاربا .

فطأطأت رأسى ، ولم أجرؤ أن أذكر له تاريخ دخول بلادى الحرب ، بل اكتفيت بترداد جملتى : ولكنى لم أك محايداً .

والإنجليزى رجل مهذب ، لا يحب الوصول بالحديث إلى غايته ، فسكت .

فى رويال ألبرت هول لحضور حفلات البرومنادكونسرت ، أحسست بروح شعب محب للموسيقى . والبريطانى كان فى كل عصوره سميعاً للموسيقى ، وإن لم يجد فى تاريخه ما يفاخر به شعوبا أكثر إنتاجا فى التأليف الموسيقى . ولم أنس هنا البحث فى أنحاء البناء المستدير الواسع ، أثر قنابل النازى .

وفى الناشونال جاليرى والتيت رأيت الشعب الحريص على تراثه الفنى يخرج توًّا من المخابئ ليؤكد القيم الباقية . وفى الجامعة والأكاديميات والمعارض والمسارح ودور الكتب والمحاضرات عرفت للمرة المائة بعد المائة سر رقى الشعوب . فهو فى غير الزبد والمدفع ، إنما هو فى فكر الفيلسوف ومعمل العالم وريشة المصور وقلم الكاتب والموسيقى .

هنا سر الدفاع الباسل عن حضارتنا . فكل إنسان ، حتى الهمجى ، مستعد للبذل فى سبيل الذود عن حومته . كل يدافع عما ملكت يمينه ويساره ، ولكن . . . فرق بين أن أدافع عن منازل أجدادى وآثارهم الفنية

والذهنية ، عن نوع من الحياة أساسه الكرامة الإنسانية ، وبين أن أدافع عن حياة دنيا ، ووطن استأثر به غنيه دون فقيره ، ورفض أبناؤه الشعور بتاريخه ومجده المؤثل . وحياة الانجليزى تنقلت بين الفقر والغنى والنجاح والخيبة ، والنبوغ والغباء ، والمغامرات شريفها وخسيسها ، ولكنها كانت حياة مجموعة بشرية لا تعرف الذل ، ولم تقبل الضيم يوماً فى تاريخها ، ولم تنكر حقبة من هذا التاريخ .

مسائل الدفاع هذه قد لاتدور بخلد الجندى البسيط بنفس الوضوح الذى تبدو فيه لعين المفكر المتعلم ، ولكنها حية فى نفسه ، كأنها قلبه النابض الذى لايفكر به وهو ينبض ، وليس مضطراً إلى التفكير فيه لكى ينبض . بمثل هذا تحيا الأمم وتنهض .

هذا الشعب المنتصر يعيش قريباً من الجوع ، يُقتَّر عليه فى الخبز واللحم ، ويحسب عليه الكساء وأدوات النظافة ، هذا الشعب الذى استولت الدولة على معظم إيراده لترد عنه غوائل المعتدى ، يرى نفسه فى آخر المطاف غالباً يصرف بعض إيراده على المغلوب ، ويعيش ثلاثة أرباعه على إيراد الربع الباقى . فالدولة تأخذ من الغنى لتعطى الفقير . ومهما كثر ما تأخذ من الغنى ، فهى أبعد من أن تجعل من الغنى فقيراً ومن الفقير غنيا . ولكنها خطوات فى طريق التحرير ، تحرير البشرية من العوز ، طريق العدالة الاجتماعية ، عدالة المساواة لا أمام القانون وحده ، بل أمام الاقتصاد أيضاً .

أعشى البصر من لايرى فى الشعب البريطانى اليوم أثر هذا الانقلاب الاقتصادى الخطير . قال لى أحد أثرياء الإنجليز ، ممن عاشوا طوال الحرب بعيداً عن إنجلترا : غير أنك تجد الشعب أقل تهذيباً وأدبا . ولكنى لم أر أثراً لهذه الملاحظة الرجعية الخاطئة . فقد رأيت فى الشعب البريطانى اليوم قوة اعتداد بنفسه اجتماعياً ، ورفضاً لخيالات الماضى ، وتمسكا بحقائق الاقتصاد والاجتماع . يرفض أن ينحنى للكبراء لأنه كسب الحرب بعرق جبينه ودموعه ودمه ، إذا كان الكبراء كسبوا الحرب بمالهم . وكم كسبت الحروب بدم الفقير ومال الكبير ، فخرج الكبير أكثر غنى وأسعد حالا ، وخرج الفقير أشد فقراً وأفقر دما . والشعب البريطانى اليوم يرفض هذا النوع من كسب الحرب . فلكل بقدر ما ضحى ، ولكل بقدر ما بذل من جهد وعناء لا من مال ورخاء .

كان انتصار العمال وهزيمة الطغام الرجعيين موضع دهشة لنا فى مصر؛ لأننا لم نكن نعرف من أمر تطور « مابعد الحرب » شيئاً ، ولأن صورة العالم الخارجى لا تأتينا إلا عن طريق صحافة المال والأنانية ، وهى صورة أعدّتنا لغير انتصار حزب العمال . ولـكنى بعد زيارتى القصيرة جدًّا للوندرة عرفت أن هذا الانتصار كان طبيعيا ، منطقيا ، متوقعاً ، وأن العكس هو موضع الدهشة لو تم .

لم أر إنسانا يجمع الكل على احترامه أكثر من ونستون شرشل كزعيم حرب ، كرجل قاد أقدار أمته فى أحرج فترة من تاريخها وتاريخ البشرية . . . ليس غير . أما فى حكم البلاد بعد الحرب ، فهو آخر من يصلح ، بسبب ماضيه ومزاجه ورجعيته وحزبه الذى آذنت خاتمة حياته ولايريد أن يموت .

وإذا قدّر لحكومة العمال أن تفقد جزءاً من أغلبيتها فلن يكون ذلك لحساب المحافظين بحال ، ولـكن لشعبة يسارية من حزب العمال غير راضية عن سياسة حكومة العمال فى بطئها وترددها ومواربتها ، وفى سياستها الخارجية التى لم تتغير إلا قليلا جدًّا عن سياسة المحافظين ، ولم تقم بعد بدورها الشخصى فى العالم كمركز التوازن بين الشيوعية الروسية والرأسمالية الأميريكية .

ومع هذا حققت حكومة العمال غير قليل من آمال الطبقة العاملة ، فى إخضاع كثير من المرافق للدولة ، وفى التأمين الاجتماعى بأنواعه ، وفى كسر شوكة أدعياء الحقوق التقليدية سواء كانوا من أصحاب رءوس الأموال أو من الهيئات ذات العزة والسلطان .

والصورة التى انطبعت فى رأسى لبريطانيا بعد إقامتى القصيرة فى لوندرة هى صورة شعب عامل مجد ، محب للنظام والعدالة ، يحترم حكومته لأنه اختارها ، ويتبرم بها تبرم الأخ بأخيه يوما أو بعض يوم . صورة شعب أمين فى معاملاته ، منطق فى عمله دون أن يكون للمنطق حساب فى تفكيره ، يتولاه القلق على معاشه ومستقبله فى العالم ، مع تمسكه بالقيم الروحية المطلقة التى تترجم بالعلم والفن والأدب ، والقيم الروحية فى السياسة التى تترجم بالنظر إلى العالم نظرة الشعب المسئول عن الخير العام للبشرية .

وهذه فى رأيى مقومات الحضارة فى شعب كبير وأمة عظمى .

باريس

هل بلغك أمر الجميلة الأنيقة ، السرية ذات الدلال ، الذكية ذات الثقافة ؟ هل عرفت كيف كان منزلها ملتقى العظماء والمبرزين من رجال العلوم والفنون والآداب من أولادها وأصدقائها ؟ هل جاءك خبر الجميلة وقد استحال جمالها وفقدت أناقتها وضاعت ثروتها ، وتفرق أبناؤها يتلقون فُتات الغاصب ، وراح ضيوفها والأدعياء لصداقتها يحطون من قدرها ويطعنون فى أخلاقها وحسبها وذكائها وكفاية أبنائها ؟

أنا اليوم طائر من لوندرة إلى المنزل العتيد للقاء الجميلة بعد طول الفراق ، وجلٌّ متعثر المشاعر والطائرة تقترب من البورچيه . أستمع لمضيفة الطائرة الفرنسية ، شقراء دقيقة المقاصل ، تحدثنا عن سرعة الطائرة فوق المانش — قاربنا الخمسمائة الكيلو مترا فى الساعة — وتسير إلى مواضع من أرض فرنسا ، فرحة بالعودة ، وقد غيرها جو بلادها فانطلقت تتكلم الفرنسية بلا انقطاع ، وكانت فوق انجلترا والمانش تنتقل بين لغتها والإنجليزية برشاقة وجاذبية لا حد لها .

لحظة اللقاء ، لمست أقدامى أرض فرنسا بعد طول الغياب ، أمنا فرنسا كما يقول أهل لبنان ، ومربيتنا باريس . لن أنساك يا فرنسا قبل أن أنسى نفسى . تقطع يداى قبل أن يغدر بك ربيبك يا باريس !

أنا اليوم سائر إلى المنزل القديم ، دنسته أقدام الغاصب أربع سنوات . لا تبرح خيالى صورة الفيلد جراو يمشى فى أرض باريس مرحا ، مصعر الخد ، شامخ الأنف ، ينظر إلى أعلام منشورة فوق قوس النصر واللوكسمبور وقصر البوربون ، ويرقى الشانزليزيه فى دورية يومية تتقدمها الموسيقى إلى قبر الجندى المجهول .

لا تبرح خيالى جحافل النازى تدخل باريس ذات يوم من أيام يونية سنة ١٩٤٠ ، أمام منازل مهجورة ، ونوافذ مقفلة والجرّاح الكبير دى مارتل يفضل الانتحار على رؤية العلم الأحمر ذى الصليب الأسود يرفرف فى سماء باريس .

هل أنا فى طريقى إلى الحاضر أم أنا أسير القهقرى ؟ وماذا يهمنى الماضى إذا كذبه الحاضر ؟ ولكن ما قيمة الحاضر إذا كان يرفض كل صلة بالماضى ؟

ولم أر أمة حية بتاريخها مثل فرنسا ، تصل حاضرها بماضيها دائماً ، صفحاتها السود ماثلة لعيونها إلى جانب الصفحات البيضاء . وما دامت الأمة حية بتاريخها فلن تموت . إنما تموت الأمم إذ يموت تاريخها فى نفوس أبنائها . كلام معاد ، ودروس أولية ، وحقائق بالية ، تقمصت بعد زيارتى لباريس حياة جديدة حين وجدت فرنسا تضم إلى تاريخها ، وتقبلها ، تلك الصفحة المظلمة من الذلة والهوان ، التى عاشتها تحت أقدام النازى . عبرة ودرساً للأجيال الحاضرة والمقبلة لا من الفرنسيين وحدهم ، بل ومن غيرهم . ففرنسا لا تستطيع أن تحد دروسها بحدود جغرافية أو قومية . عرفت دائماً كيف تتحدث إلى كل الشعوب .

كل ما رأيت فى فرنسا لم أتوقعه ، والذنب فى هذا واقع على الصحافة العالمية التى تعيش بمال المنتصرين ، وبأغراض الطامعين فى تراث أم الحضارة وزينة الحضارة .

توقعت أن أرى فرنسا ترفض أمسها الذليل فى ظل الصليب المعقوف لتنسج لنفسها لبوساً من البطولة الزائفة والجعجعة الفارغة . فوجدت الفرنسيين يواجهون الحقائق المرة بشجاعة ، ويعترفون فى أحاديثهم وحياتهم بسنوات الضعة والانكسار . لهم فى ذلك قولة مشهورة : سنوات الاحتلال النازى هى أيضاً من تاريخ فرنسا العريق . وفى هذا التاريخ صفحات المجد والذلة والفخار والاندحار .

توقعت أن أرى فرنسا فرحة بتحريرها فحسب ، فوجدتها مطأطئة الرأس ، مفكرة حزينة تبحث فى شعاب نفسها عن طريق الخلاص من أسباب نكبتها . تسائل التاريخ والاجتماع والاقتصاد والعلم عن نهج جديد فى حياتها .

توقعت أن أرى فرنسا مهدمة فقيرة ، قذرة تقتحمها العين . فرأيت شعباً جريحاً يضمد جراحه ، أنيقاً يرتق ثيابه ، نشيطاً إلى البناء ، متحفزاً للنهوض من كبوته . أكثر ما يكره الوقوف بالأطلال والبكاء على الدمن .

رأيت فى أيامى الأولى الصورة التى أعدتها لى الصحافة العالمية : مطاراً مهدما زرى الهيئة ، يحتفظ ببقايا اليونكرزو المسرشميت المدمرة ، وأتوبوساً عتيقاً يحملنى إلى باريس . يسير بأى شىء غير البنزين . وضواحى باريس وسكانها يشتملهم الفقر والأسى ومتاعب الحياة .

أيامى الأولى بقطارات المترو ، وفى الأوتوبوس ، وفى الحدائق العامة ، وفى

الشوارع، أيام وجوم ويأس . لا شك أنى كنت أعيش فى مدينة الأشباح ، أشباح الماضى ، باهتة ساهمة ، بطيئة الحركة ، عاطلة السيماء . هل أكون فى مدينة بلقانية كانت تعجب بباريس فقلدتها ؟ أأكون فى بوخارست ، باريس الصغرى كما كان يسميها الأغرار من أبنائها ؟

السلام عليكم يا أهل القبور ! قبور بوخنفالد وداخاو وأوشفتز ، وأقبية الجستابو ، وأعماق سجون فرين ، وجدران الإعدام فى فانسين ومونفاليريان !

باريس بدت لعينى أول ما بدت كسيرة النفس ، مجروحة العزة ، مقروحة الكبرياء . اختفت ابتسامة بناتها ذوات العيون الضاحكة والقدود الهيفاء ، وخفتت حركة أبنائها الطريين لا يحملون هما .

لكل أسرة مفقود فى المعتقلات القريبة والبعيدة ، ذهب ولم يعد ، قضى بين شعاب الماكى وخلف أسلاك الأوفلاج والستالاج . كيف تعود إلى هذا الشعب المعذب ضحكاته ؟ ومتى ينسى همومه ، والحاضر محتفظ بقسوة الماضى المادية ، وإن انقشعت عنه الغمة الروحية ؟

هذه أيامى الأولى فى باريس ، شبح حزين بين الأشباح الحزينة !

ثم بدأت أتجسد وتتجسد الأشباح . أو هى الغشاوة ارتفعت عن عينى بتأثير الجمال وحده ، فبدأت باريس تحيا . قامت الأميرة النائمة وقد فك عنها عقال الساحر المشئوم . حركت ذراعيها البيضاوين أو نشرت شعرها الذهبى ، أشعة الشمس تتجاوب بين قباب الأنفاليد والفال دى جراس ، وأسهم السانت شابل ، وقبوات قوس نصر الكاروزل ، وإذا هى باريس تتلقى عشاقها وتشير إليهم . أنظرونى إلى غد إن كنتم تستطيعون معى صبرا ، وإلا فها كم صفحات تاريخى صفحة صفحة تتلهون بها عن حاضرى ، وما غدى إلا صورة من أمسى .

سرتُ بعد ذلك حاسر الرأس مكشوف الغطاء ، فعرفت أننى الواهم الخاطىء ، وأن باريس هى باريس ، لم تتحول عن مُثُلها العليا لحظة واحدة فى الفن والجمال والإنتاج الذهنى .

دخلت المعارض وقاعات الصور والمسارح ، وارتدت المكاتب العامة وبيوت النشر ، والمعامل ودور الحكم ، وطالعت وراء سطور الصحف السياسية والأدبية والفنية ، فإذا الشعوب لا تعيش بالخبز والزبد وحدها ، ولا تموت بالحديد والنار فحسب .

هنا عرفت للمرة الأولى بعد المائتين سر رقى الشعوب : هو فى فكر الفيلسوف ، ومعمل العالم ، وريشة المصور ، وقلم الكاتب والموسيقى .

وإذا كنت وجدت فى لوندرة شعباً فخوراً بانتصاره ، وفى باريس شعباً كسيراً بانكساره ، فقد عرفت فى الشعبين نفس المثل العليا التى عقدت لها الحضارة ألويتها منذ ازدهرت أثينا ، وحكمت روما ، ورسم ليوناردو ، وحفر ميكل أنجلو ، واحتج لوثر ، واحتكم ديكارت إلى العقل وحده .

وإذا كنت فى لوندرة وجدت النظام البرلمانى يسير سيره وئيداً واثقاً ، فقد عرفت فى باريس شعباً لما يهتد إلى ضالته فى استقرار سياسى أو هدوء اجتماعى أو طمأنينة اقتصادية . هنا أمة ناقهة تنتابها بعض بقايا الحمى ، قلقة لا تعرف اتجاها داخلياً أو خارجياً . تتمخض عن دستور لا هو دستور الجمهورية الثالثة ، ولا هو دستور الثورة الجديدة . بين بين ، اضطرت إليه أحزاب ثلاثة كبرى لترضى أشتات نزعاتها جميعاً ، وتسىء إلى نزعاتها كافة .

عقد مؤتمر السلام بين جدران باريس فى جو خانق من تبادل اللوم ، وتناقر المناقير ، جبهة تناطح جبهة . وفرنسا بينهما كأنها بين شقى الرحى . شعب يناهض الحكومة ، وحكومة تراضى الشعب . . . على حساب الشعب . واليمين يرفع رأسه الذى دنسه التعاون مع النازى ، وينظر شزراً إلى اليسار طهرته المقاومة ، وعلمته المحن كيف يعرف أعداءه بين أصدقائه . والمقاوم الفرنسى الأول يحارب اليسار فلا يجد بظهره سنداً أقوى من طغمة التعاون والرجعية ، يستترون اليوم خلف اسمه الرنان ، بحجة الدفاع عن النظام والسلطان ، نفس الحجة فى مؤازرة أنصار الهدنة الشائنة والمريشال .

خضم من النشاط ، وأفق ممتد من الترقب . وحياة مادية صعبة ، ونشاط عقلى وفنى مزدهر . واستهتار بالقانون فى سبيل العيش ، وبالعيش فى سبيل المثل العليا . جسور تصلح ، وطرقات تنشأ ، وصناعات تنظم فى جو عاصف هائج ، تصوره أصدق تصوير صحافة صاخبة طويلة اللسان .

هذه هى فرنسا اليوم وأمس . . . وغدا . وبغير هذا لا تكون فرنسا . ومن يريد لفرنسا غير هذا فهو لا يعرف روح شعب حى بكل معنى الحياة . حياته فى خلافاته ، ومنازعاته ، وتقلباته . لا تتحد كلمة إلا على مبدأ واحد لا شريك له : الفكر الحر .

ولم تقل فرنسا بعدُ كلمتها فى عالم « ما بعد الحرب » ؛ فهى لاتزال تنفض بقايا عهدها التاعس ، وتنظف بيتها ومرابط الخيل فيها . ثم هى فى حاجة إلى لحظة من الهدوء تفكر فيها بأقدارها وأقدار الإنسانية . وما زال العالم يطلب من فرنسا ما طلبه منها على ممر التاريخ : روحا جديدا وفكرا جديدا .

كل هذا فى ذمة المستقبل . ولكن ما يهم عشاق باريس اليوم أنها عادت إلى الحياة ، واستأنفت سيرها فى موكب البشرية . أتيح لى أن أشترك فى أعياد تحريرها يوما بيوم وليلة بليلة ، فذكرت كلمة سمعتها من إذاعة سكسونية ليلة تحرير باريس بأيدى أهلها فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٤ : « لقد عادت منارة من منائر العرفان فى العالم إلى إضاءة العالم » .

حسين فوزى

ستيفان زفايج

ورسالته الإنسانية الكبرى

روّعت أوربا عام ١٩١٤ بقيام الحرب الكبرى التى شُبّت نارها على حين فجأة، فطوقت البطاح والوهاد، والتهمت ماصادفت من إنسان وحيوان، ومن دور ونبات. تعكر جو أوربا الصافى واكفهرت سماؤه، فأخذت النفوس الهادئة الوادعة تنفعل وتضطرم، والأعصاب تتوتر وتتهدج، وطاش الصواب وطاحت الحماقة بالحكمة. وطفقت الجماهير تتجمع فى كل مكان، وتضج وتصخب، فيفقدها الضجيج والصخب وعيها، وتنقلب إلى قطيع من البَهْم المفترسة، تردد فى غير إدراك تلك الصيحة الطائشة الفاجعة «إلى الحرب... إلى القتال».

امّحت الحكمة حتى كأن الأمم لم تعرفها فى يوم من الأيام، ولم تمجّ أساليب العنف، ولم تستنكر وسائل القوة والبطش، ولم تؤمن بالخير وتعتز بحضارتها الحديثة التى جادت بها أصفى القرائح وأسمى المشاعر... لقد غاض العقل الراجح، وجمدت المشاعر السامية. وعندما رددت الحناجر الدعاء إلى الحرب أشبه صداها نعيق البوم.

فى وسط هذا العباب الطافح بالأحقاد وقف ستيفان زفايج يرقب مايجرى حوله بعين الحسرة المريرة؛ فإن جنون الحرب لم يستطع أن يؤثر فى نفسه الشاعرة. ذلك الجنون الذى سرت عدواه من الأمم المحاربة إلى الأمم المحايدة، فانقسم العالم إلى معسكرين متخاصمين، ينصر كل معسكر منهما أحد الفريقين المتناحرين بما يمده به من أدوات التخريب والتدمير، أو بالدعاية المسمومة، حتى فاضت نفوس البشر بالحقد والمقت، ولم تعد له متعة إلا فيما كانت تطالعه من أنباء الفجائع التى عصفت ببنى الإنسان.

ولكن نفس زفايج كانت، كما قلنا، مطعمة بأسمى الخوالج الإنسانية، فثبتت

لتيار الأهواء الطائشة ، ولم تتردّ في مهاويها . بل إن نفوره من الشرور التي استفحلت واستشرت أشعره بالمهمة الكبرى الملقاة على عاتقه . أدرك أنه صاحب رسالة جُلّى عليه أن يؤديها ؛ فهو الشاعر الألمعي الذي درج على أن يبث أجمل أحاسيسه في قلوب الناس ، وأن يحدوهم إلى غايات الخير والعدل والجمال . والساعة الرهيبة التي تجتازها البشرية تتطلب منه أن يبذل قصاراه ليبشر برسالة الحب والسلام ، وليفيض على العالم ما يكتنزه قلبه الكبير من عطف ورحمة .

آمن بعظم المهمة التي آلى على نفسه أن يضطلع بها ، وهبطت عليه المعاني والمشاعر كأنها إلهام منزل ، وفطن إلى وجه الشبه بين رسالته وبين رسائل الأنبياء ، فجرّد قلمه الصغير السن ، الخطير الشأن . . . جرده ليحطم بسنه الصغير السيوف الفاتكة ، ويخترق الدروع السميكة ، ويزلزل حصون الشر والضلال .

ولكنه لم يغب عنه وهو يهم بتدبيج رسالته أن الأنبياء لم يوفقوا في بث تعاليمهم ، وتوطيد العقائد التي بشروا بها باعتمادهم على القدرة السماوية ، وأن الأمم لا ترعوى عن غيها ولا تهتدى إلا بهدى السماء . ولما كان أوان التنزيل قد مضى وانقضى فقد ارتأى أن يستعين بأحد الأنبياء الأقدمين فيبعثه من جديد في ملحمة شعرية ، ويجرى على لسانه ما يشاء أن يجريه . ولم يجد من هو أقمن من إرميا ، نبي السلام ، بتحقيق هذه الغاية .

كتب زفايج قصة إرميا ، وصور فجائع الحرب التي وقعت في عصر ذلك النبيّ . ولما كان التاريخ يعيد نفسه ، فقد جاءت القصة صورة مطابقة لعصر كاتبنا الفذ في شروره وآثامه . ولما كان إيمانه بالخير كايمان ذلك النبي ، وتعلقه بالسلام كتعلقه ، وتجرده الروحي وسمو شعوره هيأه لتلقى الوحى ، فقد استحال إرميا في القصة الحديثة إلى زفايج نفسه .

لما تجمعت الجيوش الجرارة إبان الحرب الكبرى ، وسارت إلى ميادين القتال وهي تضرب في الأرض بأقدامها ، لم ينخدع زفايج كغيره من الناس في مظاهر الفتوة البادية على الجنود الأشداء ، ولم تبهره سيوفهم المشهورة اللامعة ، ولم يفتنه نظامهم الحربي الرائع ، ولم تتهدج أعصابه حماسة لأهازيج موسيقاهم العسكرية ، إذ كانت نظرته أبعد من ذلك مدى ، وأدق تمحيصا ، فنفذت من

حجب الغيب ، وسبقت الزمن ، ورأتهم وهم عائدون من غمار القتال فلولاً هائمة على وجوهها عفرها التراب ، ونهكها التعب ، وحنت ظهورها الذلة وخيبة الأمل . وفى هذا يقول على لسان إرميا :

« شفَّت المرارة نفسى ، فطفرت الكلمات إلى فمى . . . نبئونى بالله يا إخوتى أبلغت الحرب من النفاسة مبلغا يدعونا إلى الترنم بمديحها ، والإشادة بآلائها ؟ أهى مستطابة إلى الحد الذى يسوِّغ تهافتكم عليها ؟ أهى كريمة فتستحق منكم هذه التحية المنبعثة من سويداء قلوبكم ؟ . . . أما أنا فأسجل عليها أنها ضارية كالحة الأديم . فهى تفرى جلود الأصحاء وتمتص نخاع الأشداء ، وتطحن المدن بين فكيها ، وتمحق الحقول بوطء نعليها . ومن يثرها يعجز من بعد عن قمعها . ومن يستل السيف يمت بحد السيف . . . ويل لأولئك السفهاء الذين يوقظون الفتنة بكلمة تخرج من أفواههم ، فإذا سلك هؤلاء طريقهم إلى القتال ، عادوا أدراجهم لدى فرارهم من سبع طرق . . . الويل لأولئك الذين يكتمون أنفاس السلام . احذروا هؤلاء . . . احذروهم . . . »

ساد أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر اعتقاد بأن الحروب قد انقضى عهدها ورقّقت الرفاهية شعور الشعوب التى غرقت فى بحبوحتها ، وأحدث ازدهار العلوم والفنون تأثيره ، فأيقن أبناء الحضارة الحديثة بأنهم سائرون بخطى واسعة صوب المثل الأعلى الذى بشرهم به المتفائلون من أئمة كتّاب القرون الثلاثة الأخيرة . وما طلع سبنسر على العالم المتحضر بفلسفته حتى قوبل من أبناء القرن التاسع عشر بلا استهجان ؛ فقد رأى على ضوء بحوث داروين أن الإنسان لم يخلق من طينة تختلف عن طينة غيره من أنواع الحيوان ، وأنه خاضع لقانون الغاب ، قانون السيطرة للقاهر الغلاب ، ولا يخطو فى وشائج هذه الحياة خطوة إلا وهو مدفوع بحكم تنازع البقاء . ولم يلبث مقتنعو هذا المذهب أن طنطنوا به ، وأهابوا بالناس أن يفيقوا من خوادع الأوهام ، وأن ينزلوا إلى دنيا الحقائق ، ويجابهوا مشكلاتهم على أساس الواقع .

وما هلّ القرن العشرون حتى ازدادت العلوم ازدهارا ، وتعددت المخترعات التى بهرت الألباب ، ورسخت العقيدة بأن الإنسان سيد هذا الكون ، فهو قاهر الطبيعة ومسخر عناصرها لتحقيق غاياته ، والمهيمن على مصادرها

ومواردها . وبدأ المستقبل باهرا ، حتى خيل للعالم المتحضر أنه يرى خلاله غايته المنشودة ، وهى الكمال .

وازدادت الزراية بنظرية سبنسر ومؤيديه على مر الأيام ، وامتعض راكب السيارة والمستمع إلى الحاكى ، والمستضىء بالكهرباء من أن يحشدوا فى زمرة الحيوان . ولكن حدث فى عام ١٩١٤ أن انقلب هؤلاء السادة بالفعل إلى ضوار كاسرة كشّرت عن أنيابها ، واقتحمت ساحات الوغى مزمجرة ، ونهشت لحوم بنى جلدتها من البشر ، واستماتت فى ميدان هى قاتلة فيه أو مقتولة . وهكذا حققت الأيام ما ذهب إليه سبنسر وهاكسلى وهايكل وأضرابهم ، وأيد أبناء الحضارة الحديثة فلسفة هؤلاء بأساليب لا تختلف عن أساليب الوحوش بعد أن شبعوا منها سخرية .

وأظهرت كثرة الكتاب يأسها من البشرية التى نكصت على أعقابها بعد أن خيل للمتفائلين أنها سائرة قدماً فى سبيل أوج الحضارة ، وتعالى نداؤهم بتوديع الأحلام الذهبية والتسليم بالواقع . ولا غرو فى أن تودع البشرية آمالها بعد أن كثرت الدعاية لمذهب تنازع البقاء ، وبعد أن جاءت الحرب الكبرى داعمة لهذا المذهب الخطير .

ولكن فريقا من الكتّاب ذوى النفوس العامرة بالإيمان أبى أن يكفر بالخير ، وأن يسلم بأن للغرائز البهيمية الغلبة فى النهاية على الفضائل الإنسانية ، ولم ير فى الحرب الكبرى إلا حلقة من سلسلة الحروب السابقة التى لم تنشب إلا لحكمة سماوية .

رأى هذا الفريق ، وعلى رأسه زفايج ، أن القدرة الصمدية الخارقة لم ترد بالإنسانية إلا خيرا ، ولكن النقيض لا يعرف إلا بنقيضه ، ولا يظهر الضد إلا الضد ، ولا سبيل إلى الخير العميم الشامل إلا بعد أن تبلو الإنسانية ألوان الشرور جيلاً بعد جيل ، وبعد أن تنصهر فى بوتقة المكاره والآلام ، فتتخلص من عللها ، وتنفر بعد ذلك من شرورها وآثامها نفورا لا رجعة بعده إليها ، وترقى بعد أن تتطهر من أدرانها الفانية إلى الخلود .

حرص زفايج على بث هذه العقيدة فى آيات القصة التى نتناولها فى هذا العرض ، فكرر القول فى أكثر من موضع منها بأن سبيل الخير هى فى تجرد الإنسان من صلفه وكبريائه ، وبأن الله قدم البلاء

لتستساغ من بعده النعم والآلاء . وفيما يلى نتف مما كتبه فى هذا الصدد .

قال إرميا يخاطب المولى :

طهرتنا بالخير ثم رفعتنا . . .   من بعد أن جمحت بنا الأوزار
وبثثت فينا جذوة الحب الذى   دار الوجود عليه حيث يدار
لما أردت الخير قدّمت الأذى   ليشوقنا بعد العناء يسار
فبدت لنا نعم الحياة جزيلة   من بعد ما عصفت بنا الأقدار

وقال أيضاً :

لست أشقى إلا لينعم غيرى   بشقائى فى كل عصر وجيل
ويدول العهد المقيت ويزهو   عهد حب من بعده مأمول
إن فى موتى المبكر يا قو   م حياة للعالم المخذول

وقال كذلك يخاطب المولى :

لك أجثو يا إلهى   خافض الرأس خشوعا
أضرم النار وقطّب   واغمر الأرض نجيعا
وانبذ الشعب الذى اختر   ت فرادى وجموعا
كلما أبعدتنا أر   جعنا الحب رجوعا
كلما عذبتنا ازدد   نا ولاء وخضوعا

لا غرابة فى أن يطلع علينا علماء التاريخ الطبيعى بنظرية تنازع البقاء ، وفى أن تتأسس هذه النظرية لا على أن الإنسان نظير الحيوان فى غرائزه فحسب ، بل على أن كل إنسان يشبه نوعاً من الحيوان فى صورته كذلك ، ويخضع الجميع لقانون طبيعىّ واحد . ذلك لأن أولئك العلماء توفروا على دراسة الحيوان ومراقبة التطور الطبيعى الذى يطرأ عليه ، وتسجيل طباعه وعاداته . وهذه الممارسة الدقيقة ، وهذا الإدمان الطويل مما يزيغ البصر ويضل الحواس . فلا يلبث الممارس المدقق الذى انحصر فكره وحسه فى دائرة بحثه أن يتأثر حكمه على الأشياء الخارجة عن هذا النطاق بما استقر فى وعيه من سوانح ونظريات

خاصة بذلك البحث ، وإذ به يرى الدنيا بمنظار هذه السوانح والنظريات .

وإذا كفر علماء التاريخ الطبيعي بما تحلى به الانسان من سجايا وخلال تؤهله لبلوغ المجد الذي يصبو إليه ، فمن مقتضيات الطباق أن يمج شاعر مثل زفايج بدعة هؤلاء ؛ لأن الشاعر الذي رق حسه وصفت نفسه ونفذ بصره إلى مواطن الجمال المادي والمعنوي في عالمنا الأرضي ، وحلق في سبحات الفكر السامية ، استطاع أن يرى أي بون شاسع يفرق بينه — وهو من بني الإنسان — وبين سائر الحيوان . . . إن الشاعر الملهم هو الآية الإلهية التي تدحض فرية أولئك العلماء ، وهو الذي يصوغ في روائع شعره أغاني الخلود فتترنم الإنسانية بها وهي تخطو قدماً إلى مثلها الأعلى . وقد اضطلع زفايج بمهمة الشاعر الكبير وصاغ قصة إرميا الشعرية ليحلق من يقرؤها في أجواء الملائكة ، ويتبين وهو في عليائه مبلغ ما في رأي المتشككين في سمو الإنسان من خطل .

تقع حوادث هذه القصة في عصر قويت فيه شوكة آشور حتى صارت خطرا على جيرانها . ولم يخف على حكومة مصر أن الآشوريين وقد أنسوا من أنفسهم القوة يحلمون بالعيش في ظل وادي النيل الممراع ، فأوفدت بعثات عسكرية إلى الدول المتاخمة لها بقصد الاتفاق معها على دفع الخطر الآشوري الداهم . وفي ذات يوم وصل بعض قواد الجيش المصري إلى أورشليم لتحقيق الغرض المذكور ، فقابلهم الشعب بالهتاف والتهليل ، ورحب بتحالف الجارين على دفع أذى المعتدين . وبينما كانت حماسة الجماهير في ذلك الحين على أشدها تصدى لها إرميا ، وحاول إقناع الهاتفين للحرب بأن في دعوتهم إليها هلاكهم وخراب بلادهم ، وبأن سلام الله أولى بالدعوة إليه . ولكن الحكمة لا تجد سبيلا إلى لب من طاح بلبهم الطيش ، وكان نصيب ذلك الداعي إلى الخير أن رمي بأقبح الصفات : رماه بعضهم بالجبن والخور وبخيانة الوطن ، ورماه بعضهم الآخر بفساد الرأي وقلة الإدراك . وعندما صارحهم بأن الله جل شأنه هو الذي بعثه إليهم ليحذرهم مغبة الحرب ويدعوهم إلى السلام ، وأن الوحي السماوي هبط عليه في المنام ، رموه متهكمين بخبل العقل ، وبأنه مريض بداء الأوهام والأحلام .

وبينما كان المتظاهرون يضجون فى ساحة المدينة الكبرى داعين إلى امتشاق الحسام إذ بمليكهم صدقيا يخرج من قصره ، ويتجه على رأس البعثة العسكرية المصرية صوب المعبد ثابت الخطى شاهر السيف . ولكن صرخة مدوية تصدر فى اللحظة من أعماق قلب إرميا وتطبق الآفاق :

— ياصدقيا . . . أغمد سيفك . . .

يتوقف الملك ماخوذا برهبة ذلك الصوت ، ويرتجف السيف فى يده . وتتخاذل يمينه وتتساقط ، ويتلفت ليتبين مصدر ذلك الصوت . ولكن صيحات الشعب الغاضب تجلجل فى هذه الأثناء ، وتعم الأرجاء فتغمر صوت إرميا . ولا تلبث حماسة الشعب أن تدب فى أوصال الملك من جديد ، فيشهر سيفه كما كان ، ويعود إلى مشيته الأولى صارم الوجه ثابت الخطى .

تقع الحرب ، وتروج إشاعات بانتصار المصريين على الآشوريين ، فينتشى شعب أورشليم زهوا وطربا ، ويوسع إرميا سخرية وتنديدا . ولكن النبى يصرخ فى الساخرين المنددين قائلا :

— الرسول فى طريقه الآن .

وما هى إلا هنيهة حتى يبدو من وراء سور المدينة الرسول الذى رآه إرميا وهو لا يزال فى حجاب الغيب . أقبل ذلك الفارس ينهب جواده الأرض ، وأعلن للشعب المتكأكئ حوله الحقيقة سافرة بالغة من السوء مبلغا تنقلب معه العجرفة والصلف إلى ذلة ومسكنة . فالجيش الآشورى قد تغلب على جيش مصر ، وانكشف طريق أورشليم أمام بختنصر .

سقطت مدن فلسطين فى أيدى العدو مدينة بعد مدينة ، ورأى شعب أورشليم من فوق أسواره أعمدة اللهب تتصاعد فى ظلمة الليل من تلك المدن ، فيتوقع حتفه الزاحف إليه ، وينتظر انقضاضه مرتعد الفرائص وجلا ، ولم تلبث الحرب التى دعا إليها أن صبت ويلاتها عليه . ففى ذات ليلة سمع هديرا كهدير البحر يتصاعد من الصحراء المترامية وراء أسواره ، فأدرك أن ملك الظلام قد أقبل بجحفله الجرار ، وحاصر مدينته العزيزة عليه .

تقع مقابلة فى هذه الآونة العصيبة بين صدقيا الملك وبين إرميا النبى . ويفطن أولهما إلى أن الثانى هو الذى أهاب بالسلام فى ساحة المعبد يوم دعا الكافة إلى الحرب ، فيقول له :

— لم تحاشيتني ؟ . . . لم تخليت عني ؟

فيجيب إرميا :

— إني لم أبعد عنك لحظة ، ولكنك لم تفطن لوجودي . أنت لم تهتد إليّ .

— كم من أمور تنبأت بها ياإرميا فحققت الأيام جميع نبوءاتك ، حتى صار لحكمك تأثير بعيد المدى من نفسي . ولهذا سأطلعك على سر يجهله الجميع لتدلي برأيك فيه . بعث إليّ بختنصر برسول يعرض الصلح .

— لله الحمد . . . افتح لهم الأبواب ، افتحها . . . وافتح أبواب قلبك .

— لا تتعجل . . . إن شروط العدو قاسية .

— أنت بادرته بالصلف والكبر ، فاحتمل كبره وصلفه .

— أليس صون الشرف من مهام الملك ومن مفاخر التاج ؟

— لا تكن حريصا على ما ملكت يداك . . . فما أجل الشرف الذي يفوز به من يحتمل العذاب في سبيل الكافة ، ويشقى لينقذ المتعلقين بأهداب الحياة . . . طأطئ هامتك فلا نجاة إلا في خضوعك . . .

يأبى صدقيا أن ينصاع لنصيحة إرميا ، فيثور هذا الأخير ويتهم مليكه بأنه عرض بلاده برعونته للدمار ، ودفع بشعبه إلى الهلاك . فيغضب المليك وينذر ويتوعد ، فيجيبه النبي :

سوف يلقي بك العداة إلى الأر ... ض فتجثو قسراً على ركبتيكا
ويمس الثرى جبينك حتى ... يغمر الترب صفحتي خديكا
اللظى في الأتون يهدر كالوحـ ... ش وينزو منه اللهيب إليكا
فيه نصل يحمونه تحت عينيـ ... ك لمحو الضياء من عينيكا
فاذا ابيض بعد حمرته النصـ ... ل هوت طغمة العداة عليكا
تدفن النصل بين عينيك حتى ... يتعالى الدخان من محجريكا
ما يزالون طيلة الليل يحمو ... ن لظاهم ليسملوا مقلتيكا

يتراجع صدقيا مرتاعا ، ويمد يديه كأنه يدفع عنه القدر ، ولكن إرميا لا يباليه ، ويتم نبوءته الرهيبة :

قبل أن يطفىء العدا منك نور النواظر
سوف تُبْلَى بمحنة في بنيك الأصاغر
ستراهم ثلاثة في مهب المقادر
جاء جلادهم إليهم مخوف البوادر
أنت عن دفع ما قضى فيهم غير قادر
قَيِّد القوم ساعديك فزمجر وهاتر
كل ما تملك الصيا ح وشق المرائر
ثم تهوى رءوسهم ، صاغراً بعد كابر

صدقيا

رحمة بي يا إرميا رحمة بي

إرميا

ستنادى كما تنادى الآنا

راجياً من إلهك العفو عما قارفته يداك والغفرانا
يا أعز الملوك جاهاً ستمسي مدقع الفقر يائساً حيرانا
باسطاً للسؤال كفيك منبو ذاً من الناس جائعاً عريانا
هائماً كالغريب في بلد كنـ ت عليه فيما مضى سلطانا
لا يباليك من لقيت من الرو (م) اد أو من سألتهم إحسانا
جهلوا أمر ذلك السائل العا ني ولم يعرفوا المليك المهانا
فإذا ميزوك صبوا على رأ سك من جام حقدهم ألوانا

يملأ الفزع قلب صدقيا ، ويترنح كالأعمى ، ويتساقط على مقعده وقد ضعضعته شخصية إرميا الغلابة ، ثم يناشد هذا الأخير متضرعاً أن يرحمه ، فيجيبه بأنه قادر على التنبؤ بسر الأقدار ، ولكنه غير قادر على دفع غوائلها .

تفلت الفرصة من يد صدقيا لأن رسول بختنصر عاد أدراجه ، قبل ذلك اللقاء الذي وصفنا تفصيله ، يحمل إلى ملك الظلام رفض اقتراح الصلح . ويصور زفايج آخرة صدقيا الذي أقحم شعبه في حرب سحقته بين شقيها . فقد كبله العدو بعد اقتحام أورشليم بالأغلال ، وقاده إلى الساحة الكبرى ، وضرب الجلاد عنق

أولاده الثلاثة على مشهد منه ، ثم أطفأ نور عينيه . . . وهكذا تحققت نبوءة إرميا بحذافيرها .

ويتخذ زفايج من هذا الملك التاعس فى آخر قصته عظة لكل متكبر صلف . فنراه يخرج من باب قصره كفيف البصر ، محاطا بأمراء كلدية السكارى الذين اتخذوه أداة للهو والمفاكهة ، فأخذوا يتقاذفونه وهو يترنح ويكاد يسقط بين كل خطوة وأخرى . ثم تعالت أصواتهم الساخرة منادية :

— يا قاهر بابل . . . قف وناهض بختنصر .

— لا تسقط على الأرض فأنت عماد أورشليم .

— لم لا ترقص لنا رقصة داود ؟

— دعوه يشرب ظلمة الليل ، ولنعد نحن لنشرب السلاف الصافية .

يبتعد الملك الطريد عن قصره متعثرا مادّا يديه فى الفضاء حتى يقبل على شعبه المتهيّئ للرحيل الى منفاه ، فيقابل بعاصفة من السخط والاستنكار ، ويرمى بأنه كان السبب فيما حل ببلده من أرزاء .

وبينما الهم يقطع نياط قلب الشيخ الأعمى الذليل ، إذ يقبل عليه إرميا مشفقاً ، ويأخذ بيده ، ويخاطبه بصوت يسمعه الملأ :

— لقد أمسيت ملك الآلام ، ولم يبلغ مُلكك فى يوم من الأيام مثل الذروة التى سما إليها اليوم . كنت أناهضك يا سيدى حين ازدهار جاهك ، واكتمال سلطانك ، ولكننى أنحنى اليوم أمام من حناه ربه .

ثم يلتفت إلى الحشد ويستطرد قوله :

أغمض الله له عينيه حتى — لا يرى إلا أقانيم السماء
غضّ جفنيه فدارت مقلتاه — فى امتداد الأفق الضاحى السناء
سخرت جمهرة الجهال منه — وهو مولى الأشقياء السعداء
عاهل المستضعفين الشهداء .

والشخصية الأخرى التى نفث فيها زفايج الحياة فى قصته ، وسخرها كذلك لتبيان مقصده ، هى أم إرميا . اعترضت هذه الأم سبيل ابنها ، ونددت بالدعوة المقدسية التى آلى على نفسه أن ينشرها بين الناس ، وانضمت إلى زمرة

الساخطين عليه ، وحرمت عليه دخول دارها حتى يرعوى ويؤمن بأن شعب الله المختار لا يقهره قاهر ، وبأن معبد الله فوق متناول التخريب . ويحاول النبي أن يقنعها بقدسية رسالته ، فتزداد عليه سخطا وتكيل له اللعنات . فيغادر دارها ثابت الجأش بعد أن يصارحها بأنه وطن نفسه على تأدية رسالته مهما قام فى سبيلها من عقبات ، وبأنه يستعذب فى تلك السبيل كل تضحية حتى لو كان حب أمه له وعطفها عليه مما يضحى به . ذلك لأن الكلمات التى تخرج من فمه هى كلمات الله ، وهو لا يملك إلا الشفة التى تنطق بها .

تشعر الأم بعد هجران ابنها لها بوحشة لا قبل لها باحتمالها ، ويبرّح بها همّ مقيم لا يلبث أن يسلمها الى مرض عضال . وسرعان ما تستغرق فى غيبوبة طويلة لا يقطع سكونها إلا أحلام مفزعة تمثل لها ابنها معرضا عنها ، نافرا منها . ويخشى خادمها الأمين أشعب على حياتها ، ولا يرى وسيلة لتخفيف وطأة مرضها إلا أن يستقدم ابنها . فأرسل فى أثره من يبحث عنه ويعود به إليها ، وكانت الهزيمة قد حاقت أثناء مرضها بأمتها ، ولكنها لم تعلم من أمرها شيئاً .

وقف إرميا بباب غرفة أمه ، فسارع إليه أشعب ، ونبهه إلى جهل المريضة بالمحنة التى حلت بأورشليم ، وأوصاه بألا يلمح إليها بكلمة عنها إبقاء على حياتها . ونظر الولد إلى أمه المستلقية على فراشها ولم يجرؤ على التقدم . ففتحت جفنيها ، ونصّت فى فراشها ، ونادت وحيدها بصوت يتهدج ضعفاً وحناناً ، ولم يلبث الحائر المتردد أن أسرع إليها وارتمى فى أحضانها ، ودار بينهما حوار طويل فاض بالعتب الرقيق ، وبالحب والعطف المتبادل بينهما . وعرّجت الأم على نبوءة ابنها فقالت :

أنا آمنت بالحقائق لم أعدل بها خادعا من الأوهام
أنا لقنتك الحقائق هذى منذ عهد الطفولة البسام
لن ينال العدو منا فإن الله (م) ـه راع لعابديه وحام

اكفهر وجه إرميا ، وانتفض جسده ، وردد فى ذهول :

لن ينال العدو منا فإن الله (م) ـه راع لعابديه وحام !

وامتقع وجه الأم ، وسألته :

لم هذا الخوف المريب الفجائي ؟ لم هذا القنوط بعد الرجاء ؟

ازداد اضطراب إرميا ، وعجز عن أن يحير جواباً . فتوسل إليه الخادم أشعب أن يعيد إلى سيدته طمأنينتها :

قل لها قولا يسرّي بُرَحاء الهم عنها
بعد أن صار رداها دون قيد الرمح منها

وقالت سيدة من أقربائه كان المجلس يضمها :

موّه عليها الحقيقه وارفق بأم رفيقه

وحاول إرميا الكلام من جديد فلم يسعفه القول . وعاود أشعب إلحاحه :

بلفظة يا إرميا واحدة ترحمها

وقالت القريبة :

أيامها محدودة أبالأسى تختمها .

فهمس إرميا متخاذلا :

لا أستطيع أن أقول لفظة توهمها
يأبى عليّ أن أقول لفظتي ملهمها
قد مكّنت من عنقي وأوشكت تحطمها
يد لها قدرتها من الذي يفصمها ؟
يا رب أطلق قيدها فلست من يظلمها

وأدركت الأم الحقيقة فولولت :

الويل والدمار شبت بجسمي النار
وبلدى ومعبدى كلاهما ينهار
أودى بنا البوار وأظلم النهار ...

وسقطت على فراشها جثة هامدة .

هكذا يختتم زفايج حياة أم النبي . فهى لا تتبين مغبة وقوفها فى سبيل الدعوة إلى السلام حتى تموت حسرة وغما .

أما الزعماء والأنبياء الذين عملوا على إذكاء الحرب وأغروا الشعب بخوض غمارها ، فلم تلبث رحاها أن هشمت عظامهم ، وسحقت مشاشهم . وعملت ريشة الشاعر الفنان على تصوير مشاهد الدمار والهلاك اللذين حلا بأورشليم وأهلها . فأسوار المدينة مهدمة ، ومعبدها مخرب ، وطرقها ملوثة بالدماء الآدمية ، والجثث ملقاة على الأرض متحجرة معفرة ، شاخصة العيون ، فاغرة الأفواه ، مطبقة الأيدى على التراب .

يستهول إرميا هذا العقاب الصارم الذى أنزله الخالق بعباده ، وينخلع قلبه جزعا عليهم ، فتثور ثورته ، ويكاد إيمانه ببارئه يتزعزع . ولكن حكمة الخالق لا تلبث أن تتجلى له ناصعة ، فيثوب إلى رشده ، ويدب الايمان إلى قلبه قويا عازما على مثل ما كان من قبل . ويشعر بأن عليه مهمة كبرى جديدة يجب أن يؤديها ، وهى أن يواسى الشعب المنكود ، ويعيد إليه ثقته وإيمانه .

يذهب إلى ساحة المعبد فيرى الملك صدقيا يتخبط فى الظلام على النحو الذى وصفناه سابقا ، ويبشر القوم بقرب انهزام بختنصر وزوال ملك آشور ، ويقول فيما يقول :

كل من جـرد نصل الـ سيف بالسيف هلك
أو أسال الدم سال الـ دم منـه وانسفك
والذى عادى يعـادى . هكذا دار الفلك

يحدث هذا القول تأثيره المنشود ، فيواصل النبي وعظه :

« كأنى وأنا أخبر آلامكم يا إخوتى أطالع كتابا مفتوحا ، وتتكشف لى معانى السطور التى خطها الشقاء والعذاب . ولكنى أتبين فى نفس الوقت حكمة النوائب التى بليتم بها ، وأرى ذات البارئ تتجلى خلالها . . . وإذا عمر الايمان قلوبكم ، بث الله فيكم الروح ، وبعثكم من جديد . لا تملأوا الدنيا

شكالة وولولة ، فنحن نشقى فنستمد القوة من شقائنا ، ونكبو فننهض ثانية ونحن أثبت قدما وأقوى عزماً .»

ولا يزال إرميا بمستمعيه حتى تفور بين الشعب فورة حماسة جارفة ، وينتصر الروح انتصاره الخالد على قوة المعتدين المادية ، وينبثق الأمل فيبدد ظلمات اليأس . ويحين ميعاد رحيل المقهورين إلى منفاهم فى بابل فيغادرون بلدهم فى موكب وراء موكب ، ويرددون أثناء مسيرهم أناشيد زادت حماستهم تأججا حتى أخذ بعضهم يرقص من شدة الطرب .

يرقب زعماء كلدية هذه المواكب المنشدة الراقصة فيتملكهم العجب ، ويسأل أحدهم :

— أى شعب هذا ؟ أليس هو الشعب المهزوم !

ويعقب آخر :

— بم يترنم ؟ . . . ياله من شعب عجيب !

فيجيب ثالث :

— هناك سر يبدلهم من حال إلى حال . هناك قوة خفية تملؤهم نشوة . إنهم يؤمنون بعالم غير منظور .

ويسأله الأول متعجبا :

— وكيف يؤمنون بما لا يرون ؟ لابد من أن نتعلم عنهم هذا السر الغريب .

إننا نستطيع إبادة الرجال ، ولكننا لا نستطيع إبادة الروح الكامن فيهم .

بهذه العبارة تنتهى قصة زفايج الخالدة . ولكننى لا أستطيع أن أنهى كذلك هذه العجالة حتى أعرض لمشهد استوقف نظرى من أحد الفصول الأولى لتلك القصة .

قلنا فيما تقدم إن الشعب كان يهتف للبعثة العسكرية المصرية فى ساحة أورشليم الكبرى ، ويدعو إلى امتشاق الحسام ، وخوض غمار الحرب . وقد وقع قبل أن تصل مظاهرة الشعب إلى تلك الساحة أن اعترض إرميا سبيل المتظاهرين وحاول إقناعهم بالعدول عن دعوتهم الطائشة والتمسك باهداب السلام ، وطفق يندد بجالبة الشرور ومخربة الديار ، ويعدد آلاء السلم ونعم

الوئام ، ولكنه قوبل بغضب صاخب . وخرج له من بين صفوف الحشد شاب ترتجف أعصابه حماسة ، وطلب إليه فى لهجة الآمر أن يتنحى عن طريق المظاهرة . فلم يكن من إرميا إلا أن هتف فى وجهه للسلام ، فهدده الفتى بضرب عنقه بحد سيفه ، فظل النبيّ ثابتاً فى مكانه ، باسطا ذراعيه ، مناشدا المتظاهرين بأعلى صوته أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن الغرض الذى قصدوا إليه

يهوى الفتى عندئذ بسيفه على إرميا فيصيبه فى جبهته ، ويغادره ملقى على الأرض متخبطا فى دمه ، ويسير مع الجماهير إلى ساحة القصر الملكى . ولكنه سرعان ما يتوقف ، ويدفعه دافع من نفسه إلى استطلاع أمر ذلك الرجل الذى اعتدى عليه . فيعود أدراجه بطئ الخطى ، مزاحما تيار المتظاهرين . ولا يصل إلى حيث يرقد إرميا حتى ينحنى عليه ويقول :

— لا تتحرك . دعنى أجفف الدم المتدفق على عينيك .

يفتح إرميا جفنيه ويسأل فى لهفة :

— أين ؟ . . . أين الناس ! . . . الطريق مقفر . . . آه . لقد ذهبوا إلى القصر ينعقون ويستنزلون غضب السماء . . . إحملنى إليهم . . .

فيتعجب الفتى ويجيب :

— اترغب فى محاولة أخرى تناهض بها الكافة وحدك ؟ أنت تلقى بنفسك إلى التهلكة .

ويناديه إرميا :

— أمسك بى . . . أعنى على النهوض . . . سر بى إليهم .

ويقول الفتى وقد ازداد عجبه :

— وأنا الذى حسبتك جبانا ! . . . أنا لم أناهضك إلا وأنا واقع تحت تأثير هذا الحسبان الخاطئ !

— ألا تظن السعى فى سبيل السلام كفاحا ؟ إنه يتطلب جلداً وبأساً قد لا يتطلبهما القتال . إن الذين ينشدون السلام يخوضون حرباً لا يخمد لها أوار .

— إنى أومن بك لأنى رأيت صفاء عينيك وهدوءهما على بريق سيفى المصلت .

— كيف تؤمن بى ، وقد طعنتنى وأنت تناهضنى منذ برهة ؟
— أومن بك لأنى رأيت دمك المسفوك يؤيد دعواك .

كتب زفايج هذه القصة وسط أتون الحرب الأوربية الكبرى . وما وضعت تلك الحرب أوزارها ، ونشر شاعرنا الكبير مؤلفه بين الناس حتى اطمأنت نفسه ، حاسباً أن عهد الحروب قد مضى بغير رجعة ، وأن دعوته السلمية المنبعثة من سويداء قلبه ستجد السبيل إلى كل قلب .

ولكن الأيام بددت حلمه الجميل ، واشتعلت نار الحرب العالمية الأخيرة ورأى أن دعوته إلى السلام لم تكن من القوة بحيث تحول دون وقوع الحرب ، فأراد أن يثبتها ويدعمها بدمه المسفوك فأزهق روحه . وهكذا وضح أن ما سطره فى قصته لم يكن مجرد بديع وبيان ، بل كان أصدق تعبير عن أشرف عقيدة آلى على نفسه أن يبذل فى سبيلها أثمن ما يملك ، وقد بذل حتى نفسه فى تلك السبيل .

محمد فهمى الشوبكشى

من هنا وهناك

نحن والشعر

[تصدر قريبا — او صدرت — في العراق سلسلة شهرية ، من الرسائل ، باسم « عبقر » خاصة ، أو كالخاصة ، بالبحث في الشعر والشعراء. كتب إلى رئيس تحريرها الأستاذ الناصري.. يسألني مقاطع من شعري ، أو كلمة في الشعر — ولعله يريد في نقده — وهذا جوابي ، رأيت له ، أن ينشر في «الكاتب المصري» ، إن رأت هي ذاك .]

آخي المحترم .

أنا لا أومن بالنقد ، ولا أراه إلا هامشا كالمرتزقة على متن الفنون . وقد ينطوى الدهر ، وتمحى الأرض ، والنقد عند أبواب «عبقر» يتطال،ولايطول ،ويهيم،ولا يريم .

لذلك ، فأنا إذ أتحدث عن الشعر أوجز ، ولهذا كان جوابي على كتابك كما ترى ، في خطف وإيجاز .

الشعر العربي في جملته،منذ امرئ القيس، حتى شوقي ، غنائي ، ابتدائي ، ما برح يدور حول إطار النفس والحالة والمشهد ، ولا ينفذ إلى الصميم ؛ لأن الحياة العربية منذ كانت ، سطح، وانبساط وتجزئ .والنفس الانسانية التي صدر عنها امثال برجسون ، ونيتشه ، وفاليرى ، وبيتهوفن، ودوستيوفسكى، عمق، وتكثيف مركزين ، على شمول وكون .

كانت المحاولات العربية الأولى ، لشق الاطار ، والنفوذ إلى الحالة النفسية ، — محاولات المتصوفة العرب ؛ وإن شئت التخصيص ، فالمتألهة منهم ، كالحلاج ، وابن العربي ، وعمر بن الفارض ، ولكنها — تلك المحاولات — أخفقت ، وانصدعت ، وماتت على الاطار ؛ قتلها الدين ، في تجميده الحياة ، وتأزيله الأبجدية .

هذا ؛ أو لأن النفس العربية ، في تاريخها الطويل العريض ، لم تتعقد ، بحيث تصبح كوناً . ولم تنفجر ، بحيث تحدث رجة ، تحيا التاريخ ، وتنحدر إلى جذور الأبد .

تستطيع ، في غير جهد ، أن تجيئني بالأدلة والنصوص ، على انعقاد النفس العربية ، وانفجارها ، في لمحات — من تاريخها الطويل العريض أيضاً — .

أنا أعرف تلك اللمحات معرفتك لها ، وأنا معجب بها إعجابك بها ، ولكني أرى تعقيد النفس العربية — حتى في صوفيتها — تعقيداً عقلياً محضاً . والعقل ، في رأيي ، مظهر ، ليس غير — وهل أقول بليد ! — للنفس الانسانية ، والوجود الكل .

أما انفجاره ، انفجار هذا التعقيد العربي إذ يمتلئ ، فهو ، أبداً ، إلى خارج ، لا إلى الداخل ؛ نتيجة منطقية محتومة ، لانبعاثه عن العقل . .

وأخيراً ، ماشعرنا والفن ؟
وما نحن والعالمية ؟
عد إلى نفسك ، واسألها الجواب .
أما أنا فقد سألت نفسي، وسألتها ، وعدت من كل ذلك ، بابتسامة كاليأس ، وبمفهـوم جديد ، كمكان الصفر من مراتب العدد .
لاتقل : ومصر ؟ فما برحت مصر فى إحياء وتجديد ، وإصلاح . وهذه الألفـاظ ، وأخواتها ، وخالاتها ، شتتها لغة ، أو شتتها منطقاً ، — دوران فى الاصل ، واجترار له ، أما الخلق فـلا خلق ، وأما الفجـر فليس هناك ! .
تلك براعم ، كالحلم ، تستهل على سفوح لبنان ، تتسرب فى كل أفق ، كل فى اتجاه ، حتى لتحسبها إلى ضيـاع وتيه ؛ ولكنها ، وراء المنعطف ، تلتف ، وتنعقد ، على صميم واحد ، يسمى الحياة ، ويدعى النفس ، ومن ألقابه : الفن !
إقرأ ، إن شئت ، سـعيد عقل ، وبشر فارس ، وشارل مالك . وعمر أبو ريشة ، (وأنى يعبر هذا الشعر ، لو لم يكن فى دمائه خفقة من سماء لبنان ؟) وسر — كذلك إن شئت — مع مارو نخائيـل نعيمة ، فى صوفيته ، وجبران فى ثورته(١). — وانظره إلى الاطار ، الاطـار الذى حدثتك عنه ، ودللتك عليه ، تجـده ينشق عن صميمه ، ويحتضن لبنان .
ترى . هل يغمغم : مرحباً ياصباح !

[حمص — سورية]

وصفى قرنفلى

وهم من الأوهام فى تأويل حلم من الاحلام

قرأت « حلم ليلة من ليالى الصيف » (٢) فيمن قرأوه ، بل زدت عليهم فقرأته أكثر من مرة ، ولم أكن وأنا أقرؤه غافلا عن أنى صاحبه وكاتبه .
وما أحسب أن هذا شأنى وحـدى . بل هو — فى أكبر الظن — موضع الضعف فى كل كاتب إزاء بعض آثاره التى ليس فيهـا كبير دخل لحياته الثقافية، ولا هى ثمرة من ثمراتها اليانعـة الجنية ، وإنما هى الوحى الخالص لصدمة عاطفية ومحنة نفسية .
بيد أنى واجد هنا — فوق ما ذكرته — موجباً من موجبات الساعة لتكرارى مراجعة هذا الحلم الذى رأيته فيما يرى النائم ، والذى أثبته على الطرس كما رأيته لم أخرم حرفا ، ولم أخل بوضع ، ثم نشرته كما أثبتـه لا مفتنا ولا متزيداً . وذلك الموجب — بل ذلك الداعى الملح الذى ركب رأسى — هو ما كنت عليه إلى قبيل كتابة هذه السطور من الشبهة المستبهمة والحيرة الشديدة فى أمر تلك السيدة المحترمة المحتشمة التى لم أتعرفها فى الحلم، والتى رأيت ورأى القراء معى كيف تدخلت فى الحلم غير محتسبة ولا متوقعة ، فمنعت ابتسام ارهو بلوغه إلى غايته .
وليس من شك فى أن الحلم كان إلى قبيل ظهور هذه السيدة متصل السياق ، واضح الدلالة ، لا مشقة فى متابعتـه ودرك فحواه وبواعثه . فهو — كما يدل ظاهره فى وضوح لا خفاء به —

(١) اقرأ ، ان كنت لم تقرأ ، آخر ماخـط جبران : « آلهة الارض » .
(٢) الكاتب المصرى عدد ١٤ (نوفمبر ١٩٤٦) .

حلم أرمل ما برحت زوجه الميتة شاغلة لقلبه ولبه ، مستولية على حبه . وكل حلم غايته — كما هو معلوم — أن يحقق ما لا سبيل إلى تحقيقه في الواقع . ولقد دخلت عليه — كما هو الشأن في سائر الأحلام — أفانين من الزخارف الشعرية والاشارات الرمزية . وفيه — كما في سائر الأحلام — عنصر الخوف في صورة من صوره الذريزية أو الاجتماعية ، وقد كان الخوف هنا في أفظع صورة ؛ لأنها صورة الخوف من الجنون واستلاب العقل عند من يغالى بقدر العقل .

ولقد رأينا هذا الحلم — فيما حكينا عنه — وقد نشأ رفيقاً ، ثم تقدم في حركة سريعة ، وارتقى في تعسف أدواره الفاجعة المفزعة العنيفة ، حتى اقترب إلى الذروة ، ولم يبق إلا خطوة ويبلغ الحلم افجع أدواره وأعنفها وأشدها هولا . فمن تراها تكون تلك السيدة المحترمة المحتشمة التي اندفعت وسط الردهة ، واستبقت الموكب فعطلت سيره ، وصرخت صرختها المخنوقة التي ملئت رعباً ، فنبهت وعى النائم ، ودرأت عنه الهول الداهم ؟ من تكون تلك السيدة المحترمة المحتشمة ؟

سؤال طفقت أردده بلا طائل ، مدة شهر كامل ، كلما خلوت إلى نفسى . والآن ، الآن فقط ، أحسبني عرفتها . عرفتها مع ما كان من عمل الحلم في التبديل في مظهرها وإخفاء هيئتها .

أجل ! عرفتها ، عرفتها ، تلك السيدة المحترمة المحتشمة .

يا للعجب ! كيف لم أتعرفها في الحلم !

كيف لم أفطن لها في اليقظة ، وفي ساعات الأرق بين النوم واليقظة ، مع طول التروية والتفكير فيها !

إنها أمى . أمى اندفعت لخلاصى من الهول الداهم . إنها أمى الحبيبة المحبة .

ولكن . . . لكن ، ماذا تراه يخلص من هذا الذى رأيته جميعاً ، هذا الذى رأيته في تفصيله وجملته ؟

أيكون صورة لذلك الصراع الخالد — سواء في السر أو في العلانية ، سواء في الواعية أو في باطن الواعية — ذلك الصراع الخالد بين المرأتين المثاليتين ، بين حبيبتى الرجل المحبتين : أمه وزوجه !

لئن كان تأويل حلمي كالذى وقع في وهمي ليكونن هذا الصراع أروع الصراع وأرهبه . إنه بين امرأتين في عالمين يفصل بينهما الموت ، تريد أن تستأثر بى في هذه الحياة أمى ، وتدعونى أن أزف إليها في الحياة الاخرى زوجى .

ولست أزعم أن هذا هو القول الفصل وكلمة الختام ؛ فلأصحاب منهج التحليل النفسانى من شيعة فرويد رأيهم في هذا المقام ، فما أدعى علماً بتأويل الأحلام .

عبد الرحمن صدقى

المسلمون في إرتريا

قد نشرت بعض المجلات أن عدد المسلمين في إرتريا يساوى عدد المسيحيين . وذلك غير صحيح ؛ لأن إرتريا تتألف من سبع مديريات وهى مديرية عصب ، ومصوع ، وكرن ، واغردت ؛ فهذه الأربع كلها إسلامية ، وثلاثة منها خليط من المسلمين والمسيحيين ، وهى مديرية حماسين ، وسراى ، وأكلغزاى . وجملة عدد المسلمين فيها لا يقل عن النصف إن لم يزد عنه .

ويبلغ عدد قبائلها ثلاثمائة قبيلة منها ٢٤ قبيلة إسلامية . ولغتها الرسمية قراءة وكتابة

هى العربية فقط . وستون قبيلة مسيحية ولغتها الرسمية التجرينية . فلهذا يعد غير المسلمين ربعا والمسلمون ثلاثة أرباع .

وفيها ست عشرة محكمة شرعية ، وخمسمائة مسجد وجامع ، ومائة وتسعون وقفاً من الأوقاف الخيرية . وبعض هذه المساجد والأوقاف من خيرات مصرية . كما يوجد فيها حوالى أربع آلاف خلوة لقراءة القرآن . وفيها عدد لا بأس به من المعاهد الدينية والمدارس الاسلامية الخاصة بأبناء المسلمين .

وثقافة المسلمين فيها كلها مصرية ؛ ويدير الحركة الدينية فيها جماعة من خريجى الجامع الأزهر الشريف .

ولهذه الأسباب كان راى جميع مسلميها الانضمام إلى مصر سوى افراد مؤجرين أو موكلين من أثيوبيا لمطامعهم الشخصية . إلا أنه لما اقتصرت مصر على طلب مصوع فى مجلس الصلح تأسف المسلمون لذلك وعدلوا عنه . ويترجح الآن أنهم يطلبون الاستقلال المنتظر تحت وصاية الحكومة البريطانية أو هيئة الأمم المتحدة إلى أن يقدروا على الاستقلال بادارة بلادهم . وقد أشيع أن إرتريا ستنضم إلى إثيوبيا، وأن اسمرة ومصوع تكونان مقر إمبراطورها لقطع طمع الأجانب والمهاجرين من جهة مصوع . ولكن هذا مع سيول دعايات إثيوبيا وأموالها لم يجد آذانا صاغية بين جميع المسلمين وبعض المسيحيين بل صار زوبعة فى الفنجان او نفخة فى الرماد .

[عصب] عيسى على قامر

البابا والمثال

نبهنا باحث فاضل إلى شيء من اللبس جاء فى عرض الحديث عن البابوات الذين سبقوا البابا يوليوس الثانى مما يبعث على الخطأ فى ترتيب توليتهم . ولذلك رأينا أن نذكر أسماء البابوات الذين جاء ذكرهم فى المقال ومن تبعوهم مع ذكر أسمائهم قبل انتخابهم وتواريخ حكمهم :

نقولا الخامس (توماس بارنتشلى من سارزانا) من سنة ١٤٤٧ إلى ١٤٥٥ .

كاليستو الثالث (الفونسو بورجيا من ڤالنزا) من سنة ١٤٥٥ إلى ١٤٥٨ .

بيو الثانى (إنيا سلڤيو بكولومينى من سيينا) من سنة ١٤٥٨ إلى ١٤٦٤ .

باولو الثانى (بيترو باربو من البندقية) من سنة ١٤٦٤ إلى ١٤٧١ .

سستو الرابع (فرنشسكو دللاروفيرى من ساڤونا) من سنة ١٤٧١ إلى ١٤٨٤ .

إنوشنتى الثامن (ج . باتستا شيبو من جنوه) من سنة ١٤٨٤ إلى ١٤٩٢ .

أليساندرو السادس (ردريجو لنزول بورجيا من ڤالنزا) من سنة ١٤٩٢ إلى ١٥٠٣ .

بيو الثالث (فرنشسكو تودسكينى بيكولومينى من سيينا) سنة ١٥٠٣ . ولم يتول غير ٢٥ يوما)

جوليو الثانى (جوليانو دللاروڤيرى من ساڤونا) من سنة ١٥٠٣ إلى ١٥١٣ .

شهريات

شهرية العلم

بعث العلم فى فرنسا (١)

أنبأتنا الجرائد أن الرئيس ترومان قد أنشأ منـذ قليل لجنة للبحوث العلمية غرضها ذو ثلاث شـعب : « دعم الدفاع الوطنى ، وتنمية الاقتصاد الأمريكى ، وزيادة مجموع المعارف الأمريكية الأساسية . » وذلك عمل سبق الأخذ به فى فرنسا قبل الحرب ، وسيؤتى ثمراته عما قريب فى السنوات الآتية ، بعد فترة الاختناق التى مرت بنا أثناء الاحتلال . وأقصد بذلك « المركز الوطنى للبحث العلمى » ومركزه الرئيسى بباريس رقم ١٣ كى دورسيه وقد جاء أخيراً نتيجة لجهود عدد من العلماء ولا بد أن نذكر فى مقدمتهم العالم الطبيعى الشهير جان بيران Jean Perrin المتوفى بالولايات المتحدة أثناء الحرب . وقد لاحظ أولئك العلماء ، وكلهم تقريباً من الجامعيين ، أن البحث العلمى قد نضب معينه بفرنسا لانعدام الموارد المعدة لذلك ولانعدام التنظيم . وحق من أيام بارّس Barrès ، سمعنا صيحته عن « بؤس المعامل » . ولم تكن الاعانات المقدمة من الحكومة إلى الجامعة ضئيلة جداً فحسب ، وإنما كانت الأعباء التعليمية مانعة أيضاً للأساتذة من قصر أنفسهم على البحث العلمى الخالص . وكان الشبان متجهين بعد حصولهم على إجازاتهم العلمية ، إلى ناحية المهن الصناعية ، إذ أيأسهم قلة ما يجنونه من وراء العلم الخالص ، وأصيب التجنيد العلمى من جراء ذلك إصابة جسيمة . ولم يعـد ينبغ أحد فى بعض فروع العـلوم الطبيعية ، حتى صاح الأستاذ بوفييه صيحة الاستغاثة فى أكاديمية العلوم .

واستخدم جان بيران كل ما أوتيـه من بلاغة ليشعر الحكومة والرأى العـام بالخطر المهدد ، فكتب يقول : « يجب قطعاً أن ندرك أن البحث العلمى هو أملنا الوحيـد لنخلق أحوال جديدة حقاً بحيث تكون الحياة فيها بالنسبة للبشر جميعاً حياة حرة قوية غنية بما تحتويه من مؤهلات السعادة ، ولذا يبدو من الحق ألا تكون الأمم المختلفـة قد قامت إلى الآن بأى مجهود جدى نحو أولئـك الذين أوتوا حب البحث العلمى حتى لا تقصيهم عنه الضرورات المادية . وهكذا فقـدنا الكثير من الرجال ذوى العبقرية ، حتى صارت حالتنا اليوم أتعس وأشق مما كانت تؤول إليه لو استطاع أولئك الباحثون أن يعيشوا . . . »

ولحسن الحظ أصغى البرلمان لتلك الصيحة النبيلة وأقر القوانين والاعتمادات اللازمة لذلك وأسس فى عام ١٩٣٥ صندوق وطنى للبحث العلمى ليقوم بنفقات المعامل والحفريات والبعوث والطبع والمكافآت الدراسية ومكافأة العلماء وأسرهم . وذهب فى ذلك إلى حد أن أقام ذلك القصر الجميل بالشانزليزيه « قصر الاكتشاف » ليبعث حماسة الشباب للعلم وليشيع الحب له بين الشعب . وكل ما اعتمد لذلك هو مبلغ خمسين مليوناً من الفرنكات عام ١٩٣٩ (أى أقل أربع مرات أو خمس مرات من الاعتماد المخصص

(١) هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

ذلك فى ألمانيا) ، ولكنه على أية حال بدء لجهود كان سيؤدى إلى التنظيم التام للبحث العلمى كما أراده بيران .

وكان القصد توسيع الوسائل وتهيئتها لتجنيد صفوة من الشباب ، وزيادة إنتاج الأساتذة الذين يقومون بالبحوث العلمية وذلك بإعداد جوائز للانتاج ، بل السماح للباحثين الموهوبين بتكريس أنفسهم تماما لما يعشقون . وقسم الباحثون من غير الأساتذة إلى ثلاثة أقسام : المكلفون بالبحوث وهم يعادلون رؤساء المعامل بالتعليم العالى ، ورؤساء بحوث ويعادلون الأساتذة المساعدين ، ومديرو بحوث ويعادلون الأساتذة أصحاب الكراسى . ولمهمتهم ورواتبهم مدة محدودة ترتفع بارتفاع الدرجة . وأعد للباحثين من هيئات التدريس مكافآت وقتية أيضاً تساوى نصف الراتب بشرط أن يخصصوا للبحث العلمى كل الوقت الباقى لهم بعد العمل.

ويقسم المبتدئون إلى « مساعدى باحثين » و « مرشحين للبحث » ويحصلون على مكافآت ويوضع مجموع تلك « الادارة الوطنية » تحت رئاسة مجلس أعلى للبحث العلمى .

وتحققت هذه الآمال باجراءات تشريعية ، أولها قانون ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩ القاضى بتأسيس « مركز وطنى للبحث العلمى » . وترك إنشاء المجلس مؤقتا وللآن لم يؤسس بعد ، وسيكون إنشاؤه فى القريب خير نهاية لتنظيم العلم بفرنسا ، فهو لن يؤدى إلى حماية الحقوق المادية والأدبيـة للعلماء فحسب ولكنه سيقيم كذلك سياسة حقيقية للبحث العلمى ، وذلك بجمع كل المجهودات المبعثرة وتنظيمها سواء فى الوظائف العامة أو للمهن الخاصة . وسيضع حداً لتلك الجهود الضائعة عبثاً ، والتى من أمثلتها وجود معامل عديدة تقوم بنوع واحد من البحوث وتتبع وزارات مختلفة وكل منها يجهل وجود الآخر . وليست فرنسا بذلك الغنى ، ولا العقول القادرة على دراسة العلم بالكثرة التى تسمح بالاستمرار فى ذلك التنافس العقيم . وكم من مرة لاحظنا فيها أن مهمة علمية جديرة بالنجاح تنقصها الوسائل لذلك ، على حين أن هذه الوسائل تستخدم فى ناحيـة اخرى فرصة النجاح فيهـا قليلة . وليس هناك إلا الحرب التى تبيح المصادرات المعقولة . ولكن الأمر اليوم أمر السلام وأمر مصير الحضارة .

وفى انتظار إقامة هذه المؤسسة الأخيرة ، التى ستجعل من فرنسا بلداً نموذجياً فى ناحية التنظيم العـلمى ، ترى المركز الوطنى للبحث العلمى لا يضيع وقته عبثاً . وإن العمل الذى قام به لعظيم . ولقد عمل يبطء أثناء الحرب ، تحت رئاسة الاستاذ شارل جاكوب ، واقتصر على تشجيع العلماء وعلى الاستعداد لما بعد الحرب ، وذلك فى أغلب الأحيان دون علم العدو الذى كان يشرف على كل المعامل التى يستطيع الاسـتفادة منها . وجدير أن يكتب كتاب عن العلم الفرنسى أثناء الاحتلال ، وعندئذ نرى فيه مثلا كيف نجح أحد علماء الطبيعة مثل رينيه بارتلمى فى أن يخفى على الألمان ، وكانوا قد صادروا معـمله ، بحوثه عن التلفزيون التى أدت إلى تقدم رائع هو الصورة ذات ألف الخط image à mille lignes وكذلك استطاع المركز العلمى — وكان قد سبق له أن ساعد فى إعداد التعبئة العلمية أثناء فترة الحرب الاولى — أن يمد بالعدد سراً بعض المعامل الجديدة ، وهى التى كانت على أهبة الاستعداد للعمل بمجرد أن حررت فرنسا.

وهناك فكرة قيمة جدا لم تكن فى مشروع بيران الاول ، وهى إيجاد الصلة الضرورية بين العلم البحت والعلم التطبيقى ، وذلك رغم أننا سمعنا مراراً أن ذلك كان سر تفوق الألمان فى العلم ! ففى عام ١٩٣٨ أنشأ المركز العلمى

قسماً « للبحث العلمي التطبيقي » ، وربط بين جهوده وجهود الانتاج الصناعي والجماعات الفنية . ولقد عممت هذه السياسة اليوم بين هذين النوعين من البحوث . وأصبح مفهوماً أن العالم البحت لم يعد يستطيع ألا يهتم بمصير مكتشفاته ، وأن على الرجل الفني أن يتابع التجديد المستمر في المعلومات النظرية حتى لاتفلت منه فرصة تحسين وسائله وتحسين إنتاجه . وإن ذلك التعاون ليمكن تحقيقه على خير وجه في معامل العلم التطبيقي . وتشمل الادارة في كل المعامل التابعة « للمركز الوطني للبحث العلمي » علماء خالصين ومهندسين أو فنيين .

ولكن تحولا أبعد من ذلك وأشد عمقاً قد حدث في عام ١٩٤٥ . فبمجرد تحرير الاراضي الفرنسية ، استولى فريق جديد — كان قد تميز بروحه وأعماله في المقاومة — على تلك المؤسسة الحديثة بقصد توجيهها نحو غايات اجتماعية أسمى وأعظم . وكان الرئيس هو الأستاذ جوليو المعروف في جميع أنحاء العالم بدراساته الذرية وحصل من الحكومة على المراسيم اللازمة ، فتألفت لجنة وطنية من ٤٤٠ عضواً أو مستشاراً يمثلون كل صنوف النشاط العلمي . وحتى ذلك الوقت ، كان يقصد بكلمة «علوم» الدراسات الثلاث : الرياضية ، والطبيعية والخاصة بالتاريخ الطبيعي . فتقرر أن يضاف إليها العلوم التي كانت تدعى فيما قبل بالعلوم « الأدبية » كالفلسفة والتاريخ والحقوق والاجتماع واللغة بل الأدب . ولم ينسوا أن يضيفوا إليها أيضاً تلك العلوم « البشرية » وهي التي تشمل الجغرافيا والانثروبولوجيا وعلم الحفريات . وهذه الولايات الفكرية تتطلب من العلماء أن يكتشفوها بأدوات علمية تكون أحياناً مادية وبوسائل معملية . ولها اليوم نوابها في مركز البحث العلمي . والهيئة التنفيذية لهذه الجماعة العلمية هي مجلس مكون من خمسة عشر عضواً . وهناك مجلس إدارة بالمعنى الصحيح يشرف على المصالح العامة .

ولما نظم المركز العلمي بالطريقة السالفة ، أخذ يعمل في إحصاء الانتاج العلمي وفي وضع خطط البحوث وزيادة عدد الباحثين والفنيين . ووضعت لكل طائفة درجاتها . فقسم الباحثون إلى : طالب بحث ، ثم مكلف بالبحث ، ثم رئيس البحث ، ثم مدير البحث . وقسم الفنيون إلى وكيل فني ، فمساعد ، فمعاون ، ثم مدير فني . ومثل هذا التقسيم لو وجد سالفاً لروع علماء المدرسة القديمة ، ولكنه اليوم يتفق مع نظام توزيع العمل . فالمعامل العلمية اليوم هي مصانع صغيرة بعمالها وبآلاتها المعقدة التي تتطلب وجود ميكانيكيين وكهربائيين وعمال مختصين . ورقي « صبي المعمل » في النظام القديم إلى وظيفة مساعد فني . وأصبح الباحث ، الذي كان فيما مضى يصنع بنفسه أدواته ، يقتصر على وظيفته العلمية تاركاً للمعاون الفني أو المدير الفني أمر العناية بالأجهزة .

ولكن الكادرات والنظم لا قيمة لها إذا أعوزتها الروح ، ويجب أن يكون العلم في كل آن — كما عناه رينان Renan — بذلا من المرء وتضحية بل أحياناً رسالة يؤديها العالم . ولا يصح على أية حال أن يكون وظيفة إدارية . ولقد أدرك المركز الوطني للبحث العلمي — بعد أن جدده جوليو وخلفه تيسيه بمعاونة المدير المساعد جوزيف بيريس وبعض أعضاء هيئة الادارة — أن كل معضلة البحث العلمي هي إيجاد كهنة للمعبد . فتراه يرقب المتحمسين للعلم عند انتهائهم من دراساتهم الجامعية ويمنح من يستحق منهم بالبحث المكافآت والرواتب ، وتجد في قائمة المنتمين للبحث العلمي عن عام ١٩٤٦ : ٣٠٨ طالب بحث، ٣٤٥ ملحق بالبحث وذلك من مجموع الأعضاء البالغ عددهم

١١٠٠ عضو ، وعدد الفنيين كذلك ١١٠٠ عضو . وتبلغ الميزانية العامة — وهى على نفقة الحكومة — ٥٦٠ مليون من الفرنكات وقد كانت ميزانية عام ١٩٣٩ تبلغ ١١٠ مليون من الفرنكات . وعلى هذا فلم تزدد شيئاً نظراً لخفض العملة . وليس لنا أن ننتظر خيراً من ذلك ما لم تقم فرنسا ما تهدم من بنائها .
وأول ما يجب الاهتمام به هو أن تتعهد شعلة العلم المقدسة ، وألا ندع الفناء يعدو على الأعمال العلمية التى لا تستطيع أن تنهض بنفسها . ويذهب مركز البحث فى أداء رسالته إلى مدى مساعدة بعض المؤسسات كالمتحف ومعهد باستير وقد أعاد طبع الكثير من البحوث العلمية مبتدئا بمحاضر أكاديمية العلوم . واعترف تيسييه بأنه « لولم يوجد ذلك المركز لأغلقت المعامل التى تجرى بها أهم البحوث الفرنسية أبوابها » .

وتبدو فائدة المركز جلية فى وضع مشروعات البحوث وتوجيه المعامل القائمة أو إنشاء معامل جديدة . ويجب أن ننتظر بعثاً للعلم الفرنسى الذى أصابته الحرب والخراب الذى عم البلاد إصابة جسيمة . والمركز يشرف على ٣٥ مؤسسة بعضها يقل نظيره أو لا نظير له فى البلاد الأخرى . ويأتى فى المكان الأول من بينها مجموعة معامل « بل فى » القائمة مكان مكتب الاختراعات . وهذه المجموعة تشمل محطة فروا التجريبية ، وتتكون من ثلاثة معامل : الطبيعة وعلم الحياة والتبادل الحرارى ؛ وتشمل أيضا معامل الكيمياء الحيوية التغذية ، ومعامل الضغط الكهربائى العالى ، والتحليل الكهربائى ، وأشعة إكس ، والتصوير الشمسى والسينمائى ، والمغناطيسية (ومنها المغناطيس الكهربائى الكبير الخاص بأكاديمية العلوم) ، ومعامل التطبيقات المغناطيسية ، ومعامل الأراضى النادرة (معمل جورج إربان) ، ومعامل للمواد القطرانية .

وهناك سبعة معامل أخرى تحتاج إلى عون المجموعات الفنية ، وهى معامل للمواد ذات المقاومة الكبيرة ، وللمواد القابلة للتشكل ، ومعمل شڤريل ، ومعامل المواد الدهنية ، وألوان الصباغة والطلاء ، وللمعالجات الحرارية ، والبادلات الحرارية . وهناك معمل ذو لائحة خاصة وهو معمل الوقاية من النار . وسيلعب دوراً هاما فى إعادة إنشاء المساكن والأسطول .

وفى ناحية الفلك ، يتبع المركز مؤسستان لها أهمية عظمى ، وقد كانتا فى طريق التكوين قبل الحرب ، ولم ينته إتمامهما بعد وهما : معمل الطبيعة الفلكية الملحق بمرصد باريس ، ومرصد مقاطعة بروفنس العليا فى ناحية فوركالكييه الجافة المشمسة حيث تصفو السماء صفاء عظيما ، ففى ذلك المرصد أمكن رؤية صور سديمية بتلسكوب بسيط قطره ٨٠ سنتمتراً . وتلك صور يمكن مقارنتها فى وضوحها بصور التلسكوب الذى قطره ٢٥٠ سنتيمترا الموجود فى قمة ولسون . كما أن تلسكوبا عظيما قطره ١٢٠ سنتيمتراً قد تم صنعه فعلا وأقيم هناك فى انتظار تلسكوب آخر قطره ١٩٢ سنتيمترا يجرى صنعه الآن ، وقد صب زجاجه فعلا فى سان جوبان . وسيكون هذا العمل العظيم أكبر عمل من نوعه فى أوربا . وكذلك تطمع محطة الأشعة الكونية المقامة حديثا — فى قمة أجوى — دى — ميدى قرب شامونيكس على ارتفاع ٣٦٥٠ مترا — فى أن تكون أولى مثيلاتها بأوربا .

وفى ناحية الطبيعة ، والكيمياء ، مازال المركز يدير معمل التركيب الذرى بأقرى حيث يستمر جوليو فى إجراء بحوثه . وكذلك معمل الكهرباء الاستاتيكية ، ومعمل طبيعة المعادن بجرنوبل ومركز دراسة وبحث الكيمياء التطبيقية ، والمعمل المركزى للعلاجات الكيميائية فى ڤيترى — سير — سين ، ومعمل التحليل العضوى . ويضاف إلى ذلك

هيئة دراسة الجهد الحراري للبحار ، ومركز الدراسات العليا الميكانيكية ، ومعمل للاحصاء الميكانيكي .

وفيما يختص بالجيولوجيا وعلم المعادن أنشئت لجنة فنية لفحص الثروة المعدنية الفرنسية فحصاً منظماً . ولهذه اللجنة عدة مراكز للتحليل الكيميائي، ولأشعة إكس، وللنشاط الاشعاعي والتصوير الطيفي spectographique والتصوير الشمسي ومركز لصناعة الصفائح الرقيقة والصقل .

ولعلوم الحياة معهد نوعي génétique ، ومركزان لدراسة الأوقيانوجرافيا وعلم الحياة في البحار، علم الحياة المائية hydrobiologie ، ومركز لفسيولوجية التغذية ، ومركز لربط الدراسات الخاصة بالتغذية ، والخاصة بالغذاء . ويهتم البحث العلمي عظيم الاهتمام بمسألة الغذاء كما يهتم بصحة الشعب . وخصص أحد المراكز للدراسة العلمية للانسان .

ولنكمل إحصاء المؤسسات الموجودة وهي : مركز الدراسات الصحراوية ببني عباس ، ومركز الدراسات العلمية الصناعية والبحرية بمرسيليا ، ومركز رسم الخرائط ، ومركز تربية الحيوانات في المعامل ، ومعمل البيومترية البشرية biométrie humaine ، ومركز اجتماعي ، ومعهد بحوث وتاريخ النصوص ، وإدارة للخرائط النباتية . وهناك عمل آخر يبدو أنه فريد في نوعه ، وهو إدارة جمع الوثائق ، وهي تصدر صحيفة شهرية تحوي تحليلا للعلوم البحتة والعلوم التطبيقية التي تنشر في الدنيا كلها (ماعدا الكتب) . وتصور أصول المقالات بطريقة « التصوير الدقيق » microphotographie ويمكن كل باحث الحصول على نسخة بثمن معقول . وأولئك الذين يضيعون وقتاً طويلا في المكتبات باحثين عن بعض الوثائق سيقدرون أعظم التقدير تلك التسهيلات الجديدة التي توجد بفرنسا منذ بضعة شهور .

وهذا الاحصاء لا يمثل إلا المجهود الحالي في حيز ميزانية ضئيلة جداً . ولربما دهش المرء لما يبدو من بعد بين تلك الأعمال ، ولكن هذا البعد شاهد على نهج قد يؤدي إلى خير النتائج بحالته المتواضعة الراهنة . والمركز لا يسعى إلى إقامة الجديد من المنشآت ولكنه يفضل استخدام الموجود منها فعلا ، فيغير من صورته ويزيد عليه ، وذلك بالتقريب ما كان يدعو مونتاني Montaigne بطريقة « الترقيد السكرمي » . فبدلا من انتظار الاعتمادات وبدلا من استخدام المهندسين المعماريين لبناء معاهد نموذجية ترى القوم يستقرون حيث يتاح لهم ذلك ويزيدون ما كان موجودا . وتلك حال روسكوف حيث أعارت الجامعة للمركز مكانا في معمل علم الحياة البحرية . وهذا لا يمنع من تحقيق أوسع المشروعات كذلك المركز الذي سيقام للبحوث البحتة بجيف قرب باريس حيث اشتريت أرض مساحتها ٦٤ هكتاراً (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) وستبنى عليها مدينة عظيمة تغمرها الحدائق وتشمل معامل مختلفة وخاصة معامل علم الحياة . ومن المقترح كذلك إنشاء معهد لعلم البصريات الالكترونية optique électronique وإنشاء باخرة للدراسة الأوقيانوغرافية . ومشروعات المركز عديدة وهي سجل طويل لن ينتهي .

وهذه الرغبة في القوة ، هذه الرغبة التي تجاهد لا لتسخير البشر وإنما لتسخير الطبيعة ، في بلد بأكمله ، إنما هي دليل على أننا ندخل في عصر جديد ، لو أسميناه العصر الذري لكان ذلك تسمية له بإحدى نتائجه التي تسترعي الأنظار وإخفاء لصفته الأساسية ، ألا وهي وضع العلم بكل صورة في خدمة البشرية .

والخير من ذلك أن ندعوه « العصر العلمي » بشرط أن نعطى هذه الكلمة القديمة — التي قالها أوجست كونت — معناها التام الكامل. وستكون تلك الطرق صدمة لكثير من النفوس الحساسة. فلن يتم غزو العلوم البشرية بالوسائل التي نجحت نجاحا باهراً في العلوم المادية لو خشينا مايصبو إليه العلم المنظم. ورغم ذلك فان علماء المركز العلمي يؤكدون أنهم لايريدون شراً بالبحث الحر، وأنهم مستمرون في تأييده. والعقود التي أمضيت بينهم وبين بعض الهيئات الصناعية الخاصة هي الدليل على أنهم يحترمون الأوضاع الاجتماعية الموجودة. ولكن اهتمامهم الكلي يتجه إلى ذلك النوع من العلم المنظم تحت إدارة واحدة، وقد أقاموه وانتظروا منه خير النتائج. وهي تجربة عجيبة تستحق أن تجرب في فرنسا، ذلك البلد الذي لم يتردد فيه العقل أبداً عن أن يحطم التقاليد بإبادة المقاومات العاطفية. ومن المؤكد أن الوقت لم يحن بعد للحكم على هذا العمل الضخم « للمركز العلمي ». ولكنه لو وجد عونا في السياسة فسيكون قادراً على تغيير وجه هذه البلاد وعلى إعطاء العالم صورة لثورة جديدة.

رنيه سودر

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

شهرية السياسة الدولية

كان للسياسة العالمية فى شهر نوفمبر مظهران متمايزان أحدهما مألوف قد شهده الناس منذ انتهت الحرب العالمية الأخيرة ، وهو هـذا الصراع المتصل بين المنتصرين حول بسط السلطان والنفوذ . فالذى يشهده الناس من هذا الصراع هو بعينه الذى كانوا يشهدونه فى الأشهر الماضية ، بل فى العام الماضى أيضاً ، سواء اختلفت موضوعاته وأشكاله أم لم تختلف. فروسيا مثلا مصرة على أن تصل إلى البحر الأبيض المتوسط ، وسبيلها إلى ذلك هو الاشتراك فى حماية المضايق . والبريطانيون والأمريكيون يشفقون من هـذا الاتصال ويؤيدون تركيا التى تريد أن تحافظ على استقلالها وتأبى أن يشترك الروس معها فى حماية هذه المضايق .

وليست هذه المسألة جديدة ، فعهدنا بها بعيد ، ولـكن الحديث فيها لا ينقضى ، وروسيا تسلك إلى حلها طرقا مختلفة ، تلين حيناً وتشتد حيناً ، ترسل المذكرات إلى تركيا مرة وإلى مؤيديها مرة أخرى ، بحيث صح ما يقال من أن روسيا تثير بهذه المشكلة حرب أعصاب مرهقة . والمهم هو أن هذه المشكلة لم تتقدم ولم تتأخر ، فما زالت روسيا تصر ، ومازال الآخرون يرفضون ، ومازالت الصحف ووسائل البرق تفيض فى هذا الرفض ، وذلك الاصرار .

وروسيا من ناحية أخرى تهاجم بوسائلها المعروفة فى الراديو والصحف وفى الاجتماعات الدولية العامة كمؤتمر الصلح وهيئة الأمم المتحدة ، سياسة البريطانيين والأمريكيين التى ترمى إلى التوسع فى بسط النفوذ فى الشرق الأوسط ، والتى ترمى إلى التكتل حول الرأسمالية فى غرب أوربا . والبريطانيون والأمريكيون يهاجمون السياسة الروسية بوسائلهم المعروفة لأنها فيما يرون تلقى الستار الحديدى على جزء من أوربا فى الشرق والجنوب والوسط ، وتجرى من وراء هذا الستار ألواناً من الأحداث ، يصفها البريطانيون والأمريكيون بأنها اعتداء على استقلال الأمم وازدراء لحرية الشعوب ، ويرى الروسيون أنها تحرير للأمم وتحقيق للحرية التى ينبغى أن يستمتع بها الانسان فى هذا العصر الحديث الذى يجب أن يكون عصر الحق والعدل والمساواة .

والعالم يشهد هذا الصراع الكلامى ضيقا به غير مستوثق من نتائجه ، مقدراً أن هذه الدول الكبرى تختصم فيما بينها بالكلام وألوان الاعلان ، لأنها لا تستطيع أكثر من ذلك الآن ، وهى فى أثناء ذلك تصلح من أمرها وتتيح لشعوبها أن تضمد ما أصابها من الجراحات فى الحرب الماضية ، وتستعد استعداداً منكراً لمستقبل قريب أو بعيد .

ولـكن العالم لا يقف موقف المتفرج الخائف الحذر الساخر فحسب ، وإنما يقف موقف الذى تصيبه آثار هذا الصراع ونتائجه فى حياته اليومية المباشرة . فالعالم منقسم بالفعل إلى مناطق نفوذ، تسيطر عليها الدول المنتصرة . وهذه المناطق نفسها هى موضوع النزاع وميدان الصراع ، فمن الطبيعى أن تتأثر مصالحها المباشرة بما يكون بين المنتصرين من تنافس وخصام .

ويكفى أن تنظر إلى المشكلة اليونانية مثلا ، فكل فرد من أفراد الأمة اليونانية متأثر فى حياته اليومية بهـذا الصراع بين الفريقين

المتخاصمين من المتنصرين . وقد كان بعض الناس يظن أن الاستفتاء اليوناني حول نظام الحكم سيضع حداً للمأساة التي يشقى بها الشعب اليوناني ، فتبين الآن في صراحة وجلاء أن الاستفتاء لم يضع حداً لشيء ، ولعله أن يكون قد بدأ مأساة أشد هولا وترويعاً مما كان يجري قبل الاستفتاء ، فالحرب الأهلية مازالت دائرة الرحا في بلاد اليونان وهي تزداد عنفاً من يوم إلى يوم . وكان الروس يطالبون في الدورة السابقة لهيئة الأمم المتحدة بجلاء البريطانيين عن بلاد اليونان ، ومازال الجنود البريطانيون مقيمين فيها إلى أجل لا سبيل إلى تحديده بعد . ونحن نسمع الآن أن الحكومة اليونانية القائمة تريد أن تشكو إلى هيئة الأمم المتحدة من جيرانها الذين يؤلبون عليها ويمدون الثورة فيها بما تحتاج إليه من قوة ، وهؤلاء الجيران هم اليوغسلافيون والبلغاريون والألبانيون ، وهم كلهم خاضعون للنفوذ الروسي . ومعنى ذلك أن الشعب اليوناني العظيم الذي أبلى في الحرب بلاءه الرائع وكان خليقاً أن يظفر من المتنصرين بالعناية والرعاية والعطف ، يشقى الآن بما يقوم بين المتنصرين من اختلاف شقاء يعرض أبناءه للفقر والجوع والموت في كثير من الأحيان .

والقصة الإيرانية ليست خيرا من القصة اليونانية ، فلم تكد إيران تفرغ من الخصومة بينها وبين روسيا وتستريح من مشكلة أذربيجان حتى ثارت الخصومة بينها وبين الانجليز ، ونشأت الاضطرابات والثورات في جنوبها بعد أن لم تكد تهدأ في شمالها . ووقفت إيران هذا الموقف المؤلم الذي لا تجد فيه راحة ولا أمنا لأنها لا تستطيع أن ترضي الروس والانجليز معا .

وحديث الشرق العربي أوضح وأبشع من أن نحتاج إلى ذكره فضلا عن الإطالة فيه . وهذا الصراع نفسه بين المتنصرين يعرض الشعب التركي لشر عظيم فهو مضطر إلى أن يظل في حالة خوف وحذر واستعداد للطوارئ وإبقاء الجيش على أهبة الحرب ، وذلك يكلفه من المال أكثر مما يطيق . ويقال إن الميزانية التركية لم تبلغ قط من التضخم ما بلغته هذا العام ، والفرد التركي هو الذي يمد الدولة بما تحتاج إليه من مال ، وهو يقتطع هذا من نفقات حياته اليومية .

فهذا المظهر المألوف من مظاهر السياسة العالمية ليس من شأنه أن يرضي الشعوب أو يردها إلى الثقة والأمن والاستقرار . ومهما يكن هذا المظهر مألوفاً فإن استمرار البلاء واتصال المحن لا يغير من طبيعتها .

أما المظهر الثاني لهذه السياسة العالمية فقد مر به الناس مسرعين إلى حد ما ، مع أنه قد يكون أشد خطرا وأبعد أثرا في السياسة الدولية مما يظنون . وهو على كل حال سيزيد المظهر الأول قوة . وسيضاعف ما في الصراع بين المتنصرين من عنف . فقد حدثت في شهر نوفمبر أحداث ثلاثة لها خطرها حقا .

الأول : نجاح الجمهوريين في انتخابات الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد كان الديمقراطيون يصارعون روسيا صراعا شديدا عنيفا مع أنهم حزب التقدم والميل القليل إلى الناحية اليسارية ، فكيف بالجمهوريين الذين هم أصحاب اليمين في الولايات المتحدة والمحافظون أشد المحافظة على تقاليد الاقتصاد الرأسمالي ، وعلى تقاليد التشدد في السياسة الخارجية ، وعلى تقاليد إقامة المنفعة المادية وحدها أساسا للحكم وأساسا للعلاقات السياسية الخارجية ! ليس من شك في أن انتصار الجمهوريين سيزيد الولايات المتحدة عنادا في موقفها من روسيا ، وإصرارا على ما أظهرت من التشدد إلى الآن .

الثاني : انتصار الشيوعيين في الانتخابات الفرنسية . وما ينبغي أن نسرف في تقدير

الفوز الذى ظفر به الشيوعيون فى هذه الانتخابات ؛ فهم لم يظفروا بالكثرة التى تمكنهم من الحكم وحدهم . ولو قد ظفروا بها لتغيرت سياسة العالم تغيرا أساسيا خطيرا ، بل هم لم يظفروا بالكثرة التى تمكنهم من أن يحكموا مؤتلفين مع الاشتراكيين . ولو قد ظفروا بها لكان من الممكن أن تتجه فرنسا وأوروبا الغربية معها اتجاها مقلقا إن لم يكن مزعجا .

ولكنهم مع ذلك قد ظفروا بكثرة تجعل حزبهم أكبر الأحزاب الفرنسية أعواما متصلة ، ويتيح لهم أن يطالبوا برياسة الحكومة ، وتمكنهم كذلك من أن يحولوا بين فرنسا وبين الاتجاه المسرف نحو اليمين ، وتمكنهم من أن يفرضوا على الحكومة الفرنسية المضى فى الاصلاح الاجتماعى إلى أبعد مما مضى الفرنسيون منذ تم تحرير فرنسا .

فما أحدثه انتصار الجمهوريين فى أمريكا من اندفاع نحو اليمين ، يلطفه ويخفف من حدته انتصار الشيوعيين فى فرنسا ، ويمكن أن يقال إن ما تخسره روسيا بانتصار اليمين فى أمريكا البعيدة يعوضه عليها انتصار الشمال فى فرنسا .

فأما الدولة التى قد خسرت من هذين الانتخابين جميعا فهى بريطانيا العظمى ، وهى قد خسرت دون تعويض . ذلك أن الحكومة القائمة فى بريطانيا العظمى ليست محافظة يمكن أن تعتز بانتصار المحافظين الشيوعيين فى فرنسا ، وانما هى اشتراكية ، تخاف المحافظين أشد الخوف ، وتبغض الشيوعيين أشد البغض . فانتصار أولئك وهؤلاء يضعف من مركزها فى العالم كله وفى أوروبا الغربية بنوع خاص ، بل هو يضعف من مركزها فى بريطانيا العظمى نفسها ، فسيعتز المحافظون البريطانيون بانتصار المحافظين الأمريكيين ، وستقتضى ظروف الحياة نفسها أن يصبح التعاون بين المحافظين على ساحلى المحيط الأطلنطيقى ضرورة محتومة لحماية للمصالح الاقتصادية والسياسية البريطانية نفسها .

وأكبر الظن أن وقتا طويلا لن يمضى قبل أن يشترك المحافظون البريطانيون فى الحكم على نحو ما . ذلك إذا لم تقتض الظروف حل مجلس العموم ليعيد الشعب البريطانى نظره فى مركزه من السياسة العالمية ومن الاقتصاد العالمى .

على أن حزب العمال البريطانى قد منى بصدمة عنيفة حقاً من الناحية النظرية ، أو قل إن شئت من ناحية مبادئه وآرائه وقدرتها على الثبات فضلا عن الانتشار . وهذه الهزيمة تأتيه من الانتخابين جميعاً . ففى فرنسا ينهزم الاشتراكيون انهزاما خطيراً ، وتزول بهذا الانهزام فكرة الكتلة الغربية التى كان الاشتراكيون البريطانيون يحلمون بتأليفها بين الأحزاب الاشتراكية فى غرب اوروبا . وانتصار المحافظين فى أمريكا يحرج مركز الاشتراكيين البريطانيين فى بريطانيا وفى الخارج ، ويدفع هذا الحزب إلى إحدى اثنتين : فاما أن يتطرف إلى الشمال فيضحى ببغضه للشيوعيين ، وإما أن ينحاز إلى اليمين فيضحى بأساسه الاشتراكى نفسه . ونتيجة هذا كله أن الاشتراكية البريطانية ، بل الاشتراكية العالمية ، قد أصبحت الآن متأخرة بالقياس إلى التطور العالمى ، وستظل وقتا طويلا أو قصيراً مظهراً للقصد والاعتدال بعد أن كانت إلى وقت قريب جداً مظهر التطرف والغلو .

أما الحدث الثالث الذى حدث فى شهر نوفمبر وكان حدوثه صدمة ثالثة للاشتراكية البريطانية ، فهو هذه الثورة أو إن شئت فقل هذا التمرد الذى اندفع إليه عدد غير قليل من

النواب العمال فى مجلس العموم .. وقد لاحظ الناس أن الحكومة البريطانية اهتمت لهذا التمرد ، فأرادت أن تطرح الثقة ، وأن حزب العمال اهتم له فأراد أن يعاقب المتمردين ، وأن المحافظين البريطانيين اهتموا له فأيدوا حكومة العمال عند الاقتراع . وقد مرت هذه العاصفة دون ان تسقط الوزارة البريطانية . فظن الناس أنها مرت بسلام ، والواقع أنها بعيدة عن هذا كل البعد . فهى قد أحدثت صدعا خطيراً فى حزب العمال ، وأثبتت أولا أن فريقاً من هذا الحزب يضيقون بالسياسة الخارجية التى تناهض اليسارية الروسية ، وأثبتت ثانياً أن فى هذا الحزب فريقاً يخافون على المبادئ الاشتراكية نفسها أن تفقد قيمتها وقوتها بالانحياز أو التحبب إلى المحافظين ، وأثبت آخر الأمر أن الحزب الاشتراكى البريطانى ليس من القوة بحيث يستطيع أن يتحدى المحافظين تحدياً صريحاً متصلا ، وليس من القوة بحيث يستطيع أن يفرض النظام الدقيق على أعضائه فيضطرهم إلى أن يذعنوا لما تقرره الحكومة والهيئة الادارية . والحزب الاشتراكى البريطانى لايملك ولا يريد أن يملك من وسائل النظام والمحافظة عليه ما يملكه الحزب الشيوعى من جهة والحزب المحافظ من جهة أخرى .

ولذلك نستطيع أن نثق بأن هذا التمرد ليس إلا أول الغيث ، وبأن الحزب الاشتراكى قد يضطر فى وقت قريب أو بعيد بحكم الظروف الداخلية والخارجية جميعاً إلى أن يشترك مع المحافظين فى الحكم أو ينزل لهم عنه كارهاً .

أما أثر هذا فى الحياة العالمية الآن فضئيل جداً لايكاد يحسب له حساب . ولكن الشاعر العربى لم يخطىء حين قال :

إن الأمور دقيقها ... مما يهيج له العظيم

طه حسين

شهرية المسرح

بدأ الموسم المسرحى فى القاهرة بمسرحيتين مصريتين فى دار الأوبرا الملكية واثنتين من الأوبريت فى مسرح حديقة الأزبكية.

الأرملة الطروب (١)

استهلت نادية دوتى موسمها بأوبريت «الأرملة الطروب» التى وضع موسيقاها فرانز ليهار. ولست أرى ما يدعو إلى تلخيص قصة المسرحية فقد رآها الجمهور المصرى فى السنوات الأخيرة على الشاشة البيضاء واستمع إليها من محطة الاذاعة مرات عدة.

أما أداء الأوبريت فجاء ركيكا مبتذلا، لعدم توافر العناصر الأساسية التى ترتكز عليها هذا النوع من المسرحيات. فالمناظر التى اختارتها الفرقة بالية عتيقة ليس فيها ما كنا ننتظره من جمال وأناقة ورونق النظر، فالحجرة التى مثل فيها الفصل الأول وهى حجرة فى مفوضية مرسوفيا، لا تصلح أن تكون فى منزل أسرة متواضعة، وحديقة الفصل الثانى ليس لها أى جمال أو رونق. وأخيراً منظر محل مكسيم حيث الجدران والأثاث لا تصلح حتى لمقهى متواضع. وما من شك أن الفرقة لم تختر هذه المناظر البالية إلا مضطرة، إذ ليس فى مسرح حديقة الأزبكية – وهو مسرح حكومى – أى منظر صالح للعمل، ولم يهتم المشرفون عليه بتجديد أدواته وأثاثه حتى أصبح هذا المسرح أسوأ دعاية لمصر أمام الفرق الأجنبية التى تمثل فيه والجمهور الأجنبى الذى يرتاده. ومن العناصر المهمة فى الأوبريت الاستعراضات الراقصة والملابس. فالراقصات، إذا استثنينا الأخوات شاسينى، لم يكن يرقصن بل كن يأتين بحركات تنقصها الرشاقة والانسجام. وخاصة فى «باليه» الفصل الأول إذ كان عدم انسجام الحركات بين الراقصات واضحاً جلياً. ولم تكن ملابس الراقصات أنيقة ذات ذوق مترف، وملابس الرجال فى الفصل الأول لم تكن ملائمة للشخصيات التى يمثلونها.

أما التمثيل والغناء فلم يكن مرضيا، لأن الممثلين أباحوا لأنفسهم أن يجعلوا من أوبريت «الأرملة الطروب» ملهاة مبتذلة بإيماءاتهم أو بالنكات التى أضافوها على نص المسرحية. وكانت نادية دوتى، وهى الوحيدة التى لها صوت يصلح للتمثيل الغنائى، تمثل شخصية ميسيا الأرملة. ولربما وجدت سبيلها إلى النجاح لو أنها لم تبتذل فى إيماءاتها ونكاتها. وقد أبدت رشاقة فائقة فى رقصاتها وحركاتها. غير أن فى اللهجة الأمريكية التى اتخذتها فى تمثيلها شيئاً من التكلف. وقام ليون فيرلى بدور الأمير دانيلو، وهو شاب مرح لا عمل له إلا مغازلة الغوانى. ولست أدرى لماذا كان مسيو ليون فيرلى مقطب الجبين عبوساً حتى فى المواقف المرحة: أيرجع هذا إلى أن

---

(١) *La Veuve Joyeuse*. Livret de Victor Léon et Léo Stein. Musique de Franz Lehar.

صوته فى الغناء لم يكن يتعدى الصفوف الأولى فى الصالة ؟

وخلاصة القول أن « الأرملة الطروب » التى افتتحت بها فرقة الأوبريت موسمها التمثيلى الغنائى لم تلق نجاحا عند الجمهور ، فالقصة تافهة وكان أداء الفرقة ضعيفاً بحيث لا يستر تفاهة القصة .

سوزان العفيفة (١)

قصة مرحة لا تخلو من مواقف طريفة ونكات مستملحة قدمتها الفرقة على مسرح دار الأوبرا الملكية ، فجاءت مناظرها جميلة أنيقة ، على خلاف ما كانت عليه تلك المناظر على مسرح حديقة الأزبكية .

وسوزان العفيفة امرأة ريفيـة ، ظفرت بجائزة الفضيلة لما تظهره من أخلاق حميـدة ونشاط فى ميدان البر والاحسان . ولـكن لهذه المرأة حياة أخرى يجهلها زوجها ويجهلها الذين منحوها تلك الجائزة ، فان لها عشيقاً اسمه بوالوريت يريد أن يتزوج من قريبتـه جاكلين . ويعارض البارون ديزوبريه والد جاكلين فى هذا الزواج ؛ لأن لبوالوريت مغامرات عدة ، فهو يحيا حياة لهو لا يرضاها ، فيسأله الشاب هل يرضى به زوجاً لابنته لوأنه باغته فى إحدى محلات اللهو ، فيعد الأب بذلك . وينتهى الفصـل الاول بخروج جاكلين مع عشيقها ، والبارون ، وابنه هوبير دون أن يعلم كل منهم بأن الآخر قد غادر المنزل .

وتزاح الستار فى الفصل الثانى عن مرقص مولان روج حيث شغل كل فرد من هذه الأسرة حجرة خاصة فى الملهى منفرداً يلهو دون أن يعلم بأمر الآخرين ولـكن الحوادث تجمعهم جميعاً ، وحينئذ يبر والد الفتاة بوعده للشاب العاشق .

وما الفصل الثالث إلا خاتمة للفصلين الأول والثانى . ففى الصباح التالى يعلن البارون خطبة ابنته إلى بوالوريت . وتعود سوزان التى أثارت فضيحـة كبرى فى مرقص مولان روج مع ابن البارون إلى زوجها بعـد أن أقنعته أنها لم تذهب إلى هذا المرقص إلا لبث روح الفضيلة بين الغانيات !

وليس للقصة أية قيمة أدبية أو اجتماعية ، ولـكنها ملهاة حافلة بالمواقف الطريفة والنكات اللبقة ، والأغانى المرحة واستعراضات راقصة مستحبة ، وقد أحسن الممثلون فى أداء أدوارهم ، وخاصة نادية دونى التى قامت بدور سوزان ، فأظهرت لباقة وإتقاناً ورشاقة نالت بها إعجاب جمهور النظارة ، ولو أنها غالت فى المواقف المضحكة فى حركاتها وفى نكاتها . وقد وفق ليون فرلى أيضاً فى تمثيل دور هوبير ، الشاب الذى لم يمارس حياة اللهو والمجون ، فمل حياة الزهد وارتمى فى أحضان سوزان دون أن يكون له بالنساء خبرة .

وأدى الممثلون الآخرون أدوارهم فى توفيق إلا أنهم جميعا يعتقدون أن الأوبريت ما هى إلا مهزلة تبيح للممثل أن يلجأ إلى التهريج أحياناً . وهم فى ذلك مخطئون لأن الأوبريت تستنـد إلى شىء من الفن فى التمثيـل والغناء والأداء الموسيقى . وهذه العناصر لم تـكن مكتملة فى حفلة الفرقة الفرنسـية .

(١) *La Chaste Suzanne.* Livret d'Antony Mars et Maurice Desvallières. Musique de Jean Gilbert.

عفريت مراتى لسليمان نجيب بك

هذه مسرحية اخرى يضيفها الأستاذ سليمان نجيب بك إلى مسرحياته المقتبسة وينجح فيها نجاحا كبيراً . فالحوار فى فصول المسرحية الثلاثة لذيذ ممتع ، إذ فيه فكاهات ظريفة مضحكة .

والقصة لا تخلو من مفاجآت سارة ومواقف هزلية . وقد أظهر الأستاذ سليمان نجيب إتقانا فى ربط حوادث الملهاة وفناً فائقاً فى إضحاك الجمهور وتسليته . وقد يعد حضرة الأستاذ ثانى اثنين عملا على إحياء فن الكوميديا فى مصر بمسرحياتهما المؤلفة أو المقتبسة ، والأول هو الأستاذ نجيب الريحانى . وهما بنشاطهما فى عالم المسرح يمهدان السبيل لنشأة الملهاة المصرية الخالصة .

عفريت مراتى هو عفريت زوجة توفيق بك الذى فقد زوجته أمينة منذ سبع سنوات فتزوج بفتاة أخرى تدعى سنية . يبتدىء الفصل الأول فى المنزل الهادىء بين الزوجين حيث يقيم توفيق وامرأته سهرة استدعيا إليها أحد محضرى الأرواح . وفى الظلام تبتدئ جلسة التحضير ويتصل الحاضرون بعالم الأرواح فعلا . ولكن توفيق يتملكه الخوف ويقف الجلسة وينصرف المدعوون . وحينما يخلو الزوج وزوجته ترى روح أمينة الزوجة الأولى تدخل القاعة وتلاحق زوجها أينما سار وتلح عليه ليخلو بها ، وتتمادى فى إلحاحها حتى تغضبه ، فيرميها بألفاظ جارحة تعتقد الزوجة الثانية أنها موجهة إليها لأنها لا ترى شبح أمينة ، فتغضب من زوجها وتنصرف .

وفى الفصل الثانى لا يزال شبح أمينة يواصل الاقامة فى المنزل وقد ساءت العلاقات بين الزوجين ، إذ تحققت سنية من وجود شبح أمينة تغار منه لأنه يستأثر بزوجها . ويدبر شبح أمينة مؤامرة لقتل زوجها حتى تفوز به فى « الرفيق الأعلى » كما تقول . ولكن سنية تذهب ضحية هذه المؤامرة .

وفى الفصل الثالث نرى توفيق يحاول بمساعدة محضر الارواح طرد شبح أمينة ، ولكنه لا يخفق فحسب بل يحضر شبح سنية ويصبح توفيق بين شبحى زوجيه . وأخيراً بعد جهد كبير ينصرف الروحان ، فيعزم توفيق على السفر ويهم بالانصراف هو أيضاً ، فاذا بروحى الزوجين يعبثان فى ستائر المنزل وأوانيه وصوره لكى يثبتا وجودهما معه على الدوام .

وكنا نود أن يكون إخراج مثل هذه القصة المليئة بالمواقف الشائقة أكثر إتقانا مما كان عليه ، وأن يتغلب المخرج على المصاعب التى تنجت من وجود الأشباح مثلا . فأحيانا كان الشبح يبدو أخضر يميل إلى الصفرة ، ويبدو أحيانا أخرى أزرق صافى الزرقة . ولم ينجم هذا التغير فى الألوان إلا لأن الضوء لم يكن يتابع الشبح تماما فى تنقلاته ، وكثيراً ما كان يترك الشبح ويشع على جدران الحجرة فيصبغها بلونه الأصفر . ومسرحية هذه حوادثها تتطلب حركة مستمرة إلا أن بعض المناظر ظلت جامدة لا حراك فيها ولا حياة .

وقد قام الأستاذ سليمان نجيب بك بدور توفيق ، فبدا طبيعياً للغاية . ومن يعرف الأستاذ سليمان فى حياته الخاصة لا يجد تغييراً فى لهجته وحركاته وهو على المسرح . فأداؤه لهذا الدور لم يكن فيه تكلف ولا تصنع ، وقد دل على أنه يتقن فن الكوميديا ويلم به إلماما واسعاً .

وقام بدور شبح أمينة السيدة زوزو

حمدى الحكيم . فكان النجاح حليفها فى هذا الدور ؛ لأنها ملأت المسرحية حياة وأظهرت رشاقة وخفة فى الحركات تناسب الشخصية التى تمثلها فظفرت بإعجاب النظارة وتقديرهم .

ومثلت السيدة إحسان شريف دور سنية .

ومن رأى إحسان فى تمثيلها عهد فيها ممثلة بارعة . ولكن خانها التوفيق فى هذه المرة فبدت مضطربة حيناً وتعثرت فى إلقائها حيناً آخر . وقد يعود هذا الاضطراب وهذا التعثر إلى أنها تؤدى هذا الدور لأول مرة أمام الجمهور .

إن الممثل البارع فى فن تسلية الجمهور وإضحاكه لا يلتجىء عادة إلى المغالاة فى إشاراته . فالتزامه الاعتدال فى التعبير وخاصة إذا كان دوره مضحكا يمده بالمادة الهزلية الكافية . ومن يحاول غير ذلك يقع فى تهريج مبتذل . فكنا نحب للأستاذ فؤاد شفيق أن يقتصد فى حركاته وهو يؤدى دور محضر الأرواح ، وأن يعدل عن أسلوبه فى الأداء الذى يبتعد به كل البعد عن فن الكوميديا الرفيع .

ولا يسعنا أخيراً إلا أن نحمد للفرقة المصرية هذا المجهود بالرغم مما شابه من هنات ، وأن نقول إن مسرحية « عفريت مراتى » قد ظفرت بنجاح كبير .

رشدى كامل

حواء الخالدة للأستاذ محمود تيمور بك

افتتحت الفرقة المصرية موسمها التمثيلى هذا العام على مألوف عادتها بدار الأوبرا الملكية .

وكانت رواية الافتتاح مسرحية للأستاذ محمود بك تيمور أسماها « حواء الخالدة » .

والأستاذ تيمور فى عالم القصة والأقصوصة من ذوى الشهرة ونباهة الذكر . وإنه ليسرنا أن نراه يساهم فى حركة التأليف المسرحى ، كما يسرنا أن يجتذب المسرح إليه الكثير من أدبائنا الذين لا يزالون على ترفعهم عنه واعتزالهم الكتابة له .

وقد اختار الأستاذ تيمور لمسرحيته بطلا من أشهر فرسان العرب فى الجاهلية . وقد بلغ من شهرته — على كثرة ما ظهر بعده من الأبطال المغاوير فى الاسلام — أن ظل أفشاهم ذكرا فى كل زمان ، وأجراهم إسماً على كل لسان ، ولا سيما فى مصر حيث وضعت قصته المشهورة التى امتزج فيها التاريخ بالأسطورة .

وظاهر أننا نعنى بهذا البطل عنترة بن شداد . ومعلوم أن أباه كان من أشراف العرب ، وأمه من الاماء حبشية ، وعنها سرى إلى لونه السواد .

وما دمنا قد عرفنا أن بطل المسرحية عنترة ، فلم يبق أدنى خفاء فى أن بطلتها عبلة . فما يذكر الناس عنترة الفارس ، إلا ذكروا معه عنترة العاشق . فقد عاش عنترة للحب كما عاش للحرب ، بل كان لا ينفك ذاكراً لحبيبته متمثلا خيالها حتى فى حومة القتال ، ومعترك الطعن والنزال . وإذا جاز لنا التشكك فى معظم أخباره ، فما يجوز ذلك فى مأثور أشعاره ، وكلها شاهد على ما قدمناه .

ولقد أدار مؤلفنا الأستاذ محمود تيمور بك روايته على ما كان من حب بين عنترة وعبلة ، وأورد من أخبار عنترة بلاءه فى الحروب ، واشتغاله أثناء السلم بصيد الأسود . ولكنه إلى ذلك أراد أن ينهج بالمسرحية منهج المحدثين من المؤلفين الأوروبيين ، فينظر إلى

الأساطير الخالية والتواريخ القديمة على ضوء جديد يتفق وطريقة ابناء اليوم فى النظر إلى الأشياء .

فاذا تهيأ لمؤلفنا من الاخذ بهذه الطريقة ؟ لقد عرض لنا عنترة كما نعرفه فارساً مغواراً ، ولكنه ساذج ، ساذج جداً ، وقد بلغ من سذاجته فى الفصل الاول من روايته أن نزل بكلمة من عبلة عن صاحب غيرته ومأثور أنفته . ثم ظهر من سلطان عبلة عليه أن أسرع ـ تلبية لها ـ فأتى على لحيته . ولا تنزل الستار على الفصل الاول حتى تتبين أن بطل القصة فى الواقع هو عبلة لا عنترة .

فاذا كان الفصل الثانى استأثرت عبلة بالمسرح وباهتمام النظارة . فهى امرأة قوية تلهو بالرجال ، ولا هم لها إلا الشعور بسلطانها عليهم ، ولا شئ تشفق منه إلا أن تجرح فى عزتها وتفجع فى غرورها بفتنتها .

وتتوالى مشاهد الرواية ، فنرى عنترة عائداً من فارس وقد زالت عنه سذاجته وزادت بالنساء خبرته ، فاذا هو فاتر أو على الاقل يتظاهر بالفتور من ناحية عبلة . فيجن لذلك جنون هذه المرأة ، لا حرصاً على عنترة الفارس وهو من قرابتها وحامى قبيلتها ، ولا على عنترة الشاعر الملهم الولهان الذى سارت بشعره فيها الركبان . كلا ! بل اعتزازاً منها أن يخرج رجل أيا كان عن طاعتها .

وتعمد عبلة إلى الحيلة تتقوى بها ، فتستعين على عنترة بقلب عنترة ، فلا تزال تستحيي فيه ذكريات حبها حتى تغلب على الرجل طبيعته المحبة ، فيقبل عليها بكليته كسابق عادته . فهل تحمد له عبلة ذلك فيستقيم أمرها معه وينصلح الحال ؟ كلا ! بل هى تمضى للزواج بغير عنترة ، بعد أن تم لها ما ارادت من تثبيت الحجة على دوام تعلقه بها وعجزه عن سلوها .

فما بقى للمسكين عنترة ؟ لقد كان أكبر الظن عند الحاضرين أنه خسر المعركة . ولكن لا ! فقد بقى معه سيفه ، وبقى معه ما أفاده من درسه . فهذا هو يتعرض لركب خطيبها ويأخذها أسيرة أخذ العزيز المقتدر .

وبهذه العبرة تنتهى القصة .

ولعله من حق القارئ علينا ان نورد مايتوجه إلى مسوحية الأستاذ محمود بك تيمور من مراجعة فى نقطتين : الأولى أن عنوان « حواء الخالدة » الذى اختاره المؤلف لمسرحيته ، يوهم أن جنس النساء لا يعدو ما صوره . والناقدون لا يحسبونهن جميعاً كذلك ، وإنما ذاك نمط من أنماط ، وقد يغلب على وسط دون سائر الأوساط . والثانية أنه — مع عدم الاعتراض على تحليل أبطال التواريخ والأساطير على هذه الطريقة المحدثة الطريفة — لا يرى الناقدون مندوحة من أن يكون البطل القديم مظنة للتفسير الجديد ، وأن يكون بين الشخصيتين موضع مشاركة . ولا يظن الناقدون الحال هنا كذلك .

وعلى كل حال فان هاتين الملاحظتين — إذا صحتا — لا تتجاوزان الشكل . وأما صميم الرواية فلا يفقد من قيمته ولا من طرافته شيئاً .

وما من شك عندنا فى أن إخراج الرواية وتمثيلها قد أعانا على تقريب فهمها وإبراز كنهها . ولعل فى نجاحها ما يدعو إلى معالجة إخراج بعض ماذاعت شهرته وراجت بضاعته فى المسارح الاوربية من الروايات الحديثة الطريفة التى هى أكثر توجها بالخطاب إلى الفكر منها إلى العاطفة .

عبد الرحمن صدقى

من كتب الشرق والغرب

كتاب « مؤسس الإسماعيلية فيما يقولون » (١)

منذ ظهر عبيد الله المهدى على مسرح السياسة ببلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ . وأسس الدولة التى عرفت فى التاريخ باسم الدولة الفاطمية ، والناس يختلفون فى نسبه ، وأكثروا من الحديث عن ذلك ، ووضعوا الكتب حول نسبه ، بل صدرت نشرات رسمية من قبل العباسيين وعليها خطوط العلماء والفقهاء والنقباء فى معنى أن هؤلاء الذين يحكمون باسم الفاطميين لا يمتون إلى فاطمة الزهراء بصلة ، وأنهم أدعياء وأن نسبهم إلى عبد الله بن ميمون القداح الديصانى الملحد . وبجانب هؤلاء الذين طعنوا فى نسب الفاطميين نجد الدعوة الفاطمية الاسماعيلية تنتشر فى جميع أنحاء البلاد الاسلامية ويعتنقها عدد كبير من العلماء ، بل اتخذها بعض ملوك البويهيين وأمراء اليمن والعرب دينا لهم واعتقدوا اعتقاداً رسخ فى أذهانهم أن الفاطميين من نسل فاطمة البتول .

وورث المحدثون هذا الخلاف بين المنكرين والمؤيدين لنسب الفاطميين ، فنرى كتباً لا تزال تصدر فى نسب الفاطميين ، واهتم به المستشرقون خاصة بسبب ما أذيع ونشر أخيراً عن عقائد الاسماعيلية التى كانت سراً لا يقربه إلا خاصة من اعتنق دعوتهم ، فأصبحت الآن هذه العقائد فى كتب متداولة يطلع عليها من يشاء متى شاء .

ولعل أكثر العلماء المحدثين اهتماما بدراسة الاسماعيلية هو الأستاذ المستشرق الروسى و . ايڤانوف ؛ فقد نشر أكثر من سبعة وعشرين بحثا عن طائفة الاسماعيلية تناول فيها تاريخها وعقائدها . وهذا الكتاب الذى نحن بصدده هو آخر ما أنتجه ، حاول فيه أن يكشف القناع عن سر ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون الذى ينسب إليه بعض العلماء تأسيس الدعوة الاسماعيلية ، وأنه جد الخلفاء الفاطميين .

تتبع المؤلف تاريخ الرواية القائلة بأن القداح هو رأس أسرة خلفاء الفاطميين ، فوجد أن أول القائلين بها هو أبو عبد الله محمد بن رزام الطائى فى كتاب له ألفه فى القرن الرابع للهجرة . وقد فقد هذا الكتاب ، ولكن ابن النديم صاحب الفهرست نقل عنه . ويظهر أن ابن النديم لم يكن واثقاً تمام الثقة بما حكاه صاحبه ؛ ولذلك قال : « وأنا أبرأ من العهدة فى الصدق عنه والكذب فيه » . ثم جاء أخو محسن أبو الحسين محمد بن الشريف الدمشقى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ فوضع كتابا فى الرد على الاسماعيلية ذهب فيه إلى أن الفاطميين أدعياء ، وتوالت بعد ذلك كتب المؤرخين وأصحاب الفرق ، ونحا أكثرهم إلى أن الفاطميين ليسوا من نسل النبى صلى الله عليه وسلم . وقد لاحظ ايڤانوف أن هؤلاء

(١) *The Alleged Founder of Islamism* للأستاذ و . ايفانوف . نشرته الجمعية الاسلامية ببمباى سنة ١٩٤٦ وطبعه Thacker & Co. .

المؤرخين اختلفوا فى حديثهم عن نسب الفاطميين وعن مؤسس دعوتهم ، فكان المتأخر منهم يضيف شيئاً جديداً من عنده لم يذكره المتقدمون، حتى كملت قصة القداح واتخذت هذا المظهر الذى نراه عند المتأخرين . ولعل التعصب المذهبى كان من أهم أسباب اختلاق هذه الروايات المختلفة عن نسب الفاطميين وعقائدهم؛ حتى إن رجال الشيعة الاثنى عشرية قاوموا الدعوة الاسماعيلية قبل ظهور عبيد الله المهدى ؛ فقد ألف فارس بن حاتم بن ماهويه القزوينى المتوفى سنة ٢١٩ ﻫ كتاباً فى الرد على الاسماعيلية ، ووضع محمد بن ابراهيم بن جعفر الكاتب النعمانى المتوفى سنة ٢٧١ ﻫ رداً آخر ، وكتب محمد بن موسى الكاتب المتوفى سنة ٢٨٣ﻫ رداً ثالثا ، وهكذا قاوم الاثنى عشرية الدعوة الاسماعيلية وهى لاتزال فى مهدها . ولكن من الحق علينا أن نقول إن الاثنى عشرية لم يعرضوا لمؤسس الدعوة أو لنسبه ، إنما كانوا يعملون لاثبات الامامة لموسى الكاظم بعد أبيه جعفر الصادق ونفيها عن اسماعيل بن جعفر، فكأنهم كانوا يعترفون أن مؤسس الدعوة الاسماعيلية وإمامها هو إسماعيل وأبناؤه من بعده .

وبالرغم من أن الفاطميين انتصروا سياسياً واسسوا لهم ملكا واسع الارجاء ونافسوا العباسيين منافسة كان لها خطرها ، بل استطاع الفاطميون أن يمتلكوا بغداد نفسها سنة ٤٥٠ ﻫ ، بالرغم من ذلك كله فان الفاطميين لم يصدروا وثيقة واحدة تدحض نشرات العباسيين فى مسألة نسبهم . وقد علل ايڤانوف ذلك بأن الفاطميين كانوا يعتقدون بالستر على الأئمة المستورين، ومن المحرم عندهم أن يذكروا أسماء هؤلاء المستورين . قد يكون هذا الرأى مقبولا ، وعقيدة الستر على الأئمة المستورين ليست من عقائد الفاطميين فحسب ، بل قال بها الاثنى عشرية أيضاً حتى إنهم لا ينطقون باسم الامام الثانى عشر الذى اختبأ فى السرداب بسامرا وقالوا « لا يسميه باسمه إلا كافر » . ومع ذلك فانى أرى دعاة المذهب الفاطمى وحججه لم يخشوا بأسا من ذكر أسماء هؤلاء المستورين ؛ فأحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى حجة العراقيين المتوفى سنة ٤١٢ ﻫ ذكر فى الباب السادس والعشرين من كتابه « تنبيه الهادى والمستهدى » أسماء الأئمة المستورين وسلسل الأئمة حتى إمام زمانه الحاكم بأمر الله . ويحدثنا المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى حجة المستنصر فى سيرته أنه بنى مشهداً فى الأهواز ونقش على محرابه أسماء الأئمة من اسماعيل بن جعفر حتى المستنصر بالله الفاطمى . وكذلك أجد فى كتب دعاة اليمن حديثاً عن هؤلاء الأئمة ؛ فالراعى ابراهيم الحامدى ذكرهم فى كتابه « كنز الولد » وهكذا ، ويعلل أستاذنا الدكتور طه حسين بك صمت الفاطميين عن نشرات العباسيين بأن الفاطميين أجادوا فن السياسة وسياسة الجدل على وجه الخصوص، فلم يمكنوا أعداءهم العباسيين من الحصول على وثائق رسمية منهم بها ذكر نسبهم أيا كان هذا النسب ؛ حتى إن العباسيين كرروا إصدار نشراتهم فلم يقابلها الفاطميون إلا بالصمت .

عرض الأستاذ ايڤانوف لتاريخ عبد الله ابن ميمون القداح وأبيه . واتجه إلى كتب الحديث وطبقات المحدثين يستعين بها، فبحث فى كتب الشيعة الاثنى عشرية وكتب أهل السنة ، فوجد فى هذه الكتب كلها ذكرا لميمون القداح الكوفى المخزومى، وتجمع هذه الكتب على انه كان تقيا ورعا متقشفا ، وكذلك قالت عن ابنه عبد الله بن ميمون ، وأن كل الاحاديث التى تروى عن طريقهما إما عن الصلاة او عن المأكل والمشرب والملبس، وأنهما كانا على صلة وثيقة بالامامين

الباقر والصادق ، حتى لقب كل منهما بمولى الامام . على أن كتب أهل السنة ترفض الأحاديث التي تروى عن طريق ميمون القداح لأنه ضعيف الحديث ، ولكن لم يذكر مصدر واحد من هذه المصادر أن ميمونا أو ولده كان ملحداً منكراً للأديان .

وناقش ايفانوف معنى القداح ؛ فالقدماء يذهبون إلى أنه قادح العيون ، فخالفهم وذهب إلى أنه لقب بهذا اللقب لأنه كان موكلا بالأواني الحجرية الكبيرة التي كانت لمولييه الباقر والصادق . وليس عندنا من النصوص التاريخية ما يثبت هذا الرأى أو ينفيه ، وسيظل فرض ايفانوف قائماً إلى أن تظهر حقيقته . وكذلك بحث المؤلف قصة كنية القداح ، فقد كناه القدماء بأبى شاكر ، فذهب إلى أن هذه الكنية لم تذكر في كتب المحدثين ولم يذكرها ابن رزام أول من قال إن عبد الله ابن ميمون هو مؤسس الاسماعيلية ، ورجح أن أول من أسند هذه الكنية للقداح هو ابن شداد الحميرى المتوفى سنة ٥٠٩ هـ على ما رواه ابن الأثير في حوادث سنة ٢٩٦ هـ ورد إيفانوف على ابن شداد بأن الموالى لم يكن لهم أن يتكنوا في القرنين الأول والثانى من الهجرة . ولكن كتب الطبقات على اختلافها وكتب التراجم لا تؤيد رأى إيفانوف ؛ فقد حفظت لنا هذه الكتب كنى عدد كبير من الموالى ؛ فالشاعر بشار بن برد وكان معاصراً للقداح كان يكنى بأبى معاذ ، والشاعر الحسن بن هانئ كنى بأبى نواس ، وصاحب دعوة العباسيين كنى بأبى مسلم واسمه عبد الرحمن بن مسلم ، والدراوردى المحدث كان يكنى بأبى محمد . وقد يطول بى الأمر لو أتيت على كنى جميع الموالى الذين كانوا في القرنين الأول والثانى من الهجرة .

وناقش إيفانوف قول أعداء الفاطميين بأن عبد الله بن ميمون القداح كان ديصانيا وثنيا ، وبين الخلط الذى وقع فيه القدماء بأن توهموا أن الديصانية وثنية أو مجوسية ؛ إذ أن الديصانية هى إحدى فرق الغنوسطية المسيحية ، نشأت في الرها على يد ابن ديصان المتوفى سنة ٢٢٢ م . وانتشرت في الجزيرة وفارس وتركستان وخراسان واستمرت مدة طويلة حتى عصر ابن النديم ؛ فهى فرقة من الفرق المسيحية وليست كمجوسية مزدك أو وثنية العرب . وقد كان لهذه الفرقة أثرها في الفرق الاسلامية التي ظهرت في القرنين الثانى والثالث للهجرة . ولكن ليس هناك ما يثبت صلة ميمون القداح أو ابنه عبد الله بن ميمون بالديصانية ، وإذا فرض أنهما كانا ديصانيين أى مسيحيين قبل إسلامهما فلم يذكر رجال المحدثين شيئاً عن انحرافهما عن الاسلام أو عدم إخلاصهما للامامين الباقر والصادق . أضف إلى ذلك أننا نجد في كتب الاسماعيلية الأولى ردا على بعض عقائد الديصانية ، وأن بارديصان قد زج به مع زعماء الزنادقة .

وفى فصل ممتع من فصول هذا الكتاب عرض الأستاذ ايفانوف للفرق الشيعية التي ظهرت بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ ، وهى الفرق التي ذهب القدماء إلى أن للقداح صلة بها . وقد يكون هذا اللون من البحث من أشق البحوث العلمية وأدقها ؛ فكتب الفرق الاسلامية قد خلطت بين الفرق ولم تستطع تمييز كل فرقة تمييزاً دقيقاً من ناحية التاريخ والعقائد ؛ فهناك بعض فرق تتشابه في العقائد وتختلف في الأسماء ، وهناك فرق أخرى ذكرت أسماؤها دون عقائدها ، وبعض مؤرخى الفرق نسبوا إلى فرق ما هى بريئة منه . ويخيل إلى أن مؤرخى الفرق لعبوا دورا كبيراً في وضع عقائد بعض الفرق وتاريخها دون الرجوع إلى أسانيد تاريخية . ثم إن التشيع في القرن الثالث

الهجرة كان فى محنة شديدة لم يعرف الشيعة لها مثيلا فى تاريخهم ، فأبناء الصادق كانوا بين مشرد ومسجون ، وكل من اتهم بالتشيع كان يحمل إلى بغداد أو سر من رأى ، ولم يبق للشيعة مركز يجتمعون فيه ويتبادلون الدرس والرأى فتفرقوا ، واتخذوا التقية على أنفسهم ، واتصلوا بأهل السنة ودرسوا مذاهبهم ، بحيث أصبح من الصعب أن نفرق بين الشيعى والسنى ولاسيما فى رواية الحديث ، بل لم يستطع الشيعة أن يضعوا كتباً خاصة بهم تعرف بها خصائص مذهبهم . ثم جاءت القرون المتعاقبة ، فكتب المتعصبون ضد الشيعة حسب أهوائهم ، ومن هنا كان البحث عن الفرق الاسلامية التى ظهرت فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة من أشق البحوث وأدقها . ومع ذلك فقد أدلى الأستاذ ايڤانوف دلوه فى هذا البحث ، فناقش ماقيل عن فرقة الميمونية ولا سيما قول ابن رزام « إن ميمونا تنسب إليه الفرقة المعروفة بالميمونية التى أظهرت اتباع أبى الخطاب محمد ابن أبى زينب الذى دعا إلى ألوهية على بن أبى طالب» إلى أن قال : «وكان ميمون وابنه ديصانيين ، وادعى عبد الله أنه نبى مدة طويلة» . ناقش ايڤانوف هذا النص وانتهى إلى أن هـذه القصة موضوعة ، وناقش كل ما ذكره أصحاب كتب الفرق عن الميمونية وسخر بقول ابن رزام فقال : « من الجائز أن مؤرخا كان قد سمع بوجود فرقة إلحادية عرفت بالميمونية وعرفت أخيراً بالخطابية فبحث عن شخص اسمه ميمون ممن كانوا يتصلون بالامام الصادق ليسند إليه رياسة هذه الفرقة فلم يجد سوى ميمون القداح التقى الورع ، وأن هذا الشخص الذى اخترع قصة نسب الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون القداح لا بد أن يجعله زنديقاً ملحدا فقال إنه من نسل ديصان وأنه ادعى النبوة » . ومن الطريف أن الأستاذ المستشرق دى جويه ناقش نص ابن رزام أيضاً وانتهى إلى رفضه.

وقد وقف الأستاذ ايڤانوف عنـد فرقة المباركية والميمونية وقفة طويلة ، ورجح أن ميمونا الذى تنسب إليه الميمونية هو نفسه عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، مستنداً على نص عثر عليه فى كتاب عيون الاخبار للداعى ادريس عماد الدين بن الحسن المتوفى سنة ٨٧٢ هـ وهى رسالة أرسلها المعز لدين الله الفاطمى إلى داعى دعاته بإقليم السند ، ينكر فيها المعز أنه من نسل ميمون القداح ، ويثبت أنه من نسل عبد الله بن محمد ابن اسماعيل الذى كان يسمى نفسه أحيانا على سبيل التقيـة « ميمون النقيبة » . أما المباركية فقد رجح أنها نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق الذى كان يلقب بالمبارك ، مستدلا على نص فى كتاب « سلم النجاة » الذى ينسب لأبى يعقوب السجزى (وكان فى النصف الثانى من القرن الثالث) : « إن المبارك عليه السلام سادس أئمة دور محمـد ، والامام السادس هو اسماعيل بن جعفر» . هذا مارجحه الأستاذ ايڤانوف عن الميمونية والمباركية .

ولـكنى أقف بدورى أسائل الأستـاذ إيڤانوف كيف وثق برواية الداعى إدريس وهو متأخر (فى القرن التاسع للهجرة) على حين لم تذكر هذه الرواية فى أى كتاب من كتب الدعوة ، وكيف لم تذكر فى كتب القـاضى النعمان وكان جليس المعز وصفيـه وقاضيه ، مع أن القاضى النعمان روى فى كتابه « المجالس والمسايرات » فى الجزء الخامس ما نصه : « وقد وصل للمعز خطاب من أحد الدعاة ، وكان فيما رأيت فى هذا الـكتاب أن زعم له فيه أن الامامة انتقلت عن بعض الأئمة إلى ميمون القداح وإلى فلان وإلى فلان لقوم ذكرهم ، ثم جعل (المعز) يتعجب من هذا القول .» إلى أن قال : « فكيف ينبغى أن

ينقطع القول فيه بأن قد صار إلى بعيدين كالذين ذكرهم هذا من ميمون القداح وغيره». وقد ذكرت أن بعض علماء الدعوة قد عرضوا لذكر الأئمة المستورين، ولكنى لم أجد فى كتبهم أن عبد الله بن محمد بن اسماعيل قد لقب بميمون التقية بل لقبه جميعهم بعبد الله الرضى، وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن خصوم الفاطميين قالوا إن عبد الله ابن ميمون القداح ادعى أنه عبد الله بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر. فكأن الاستاذ ايڤانوف يوافق خصوم الفاطميين فى هذه الدعوى دون أن يشعر. هذه كلها مسائل تحتاج إلى جهود أخرى نرجو أن يبذلها الأستاذ إيڤانوف للكشف عنها وتحقيقها وهو قدير على ذلك.

وقارن الاستاذ إيڤانوف بين عقائد الخطابية وعقائد الفاطميين بعد أن بحث عن الخطابية بحثاً تاريخياً، فكان موفقاً كل التوفيق فى آرائه وبحثه.

أما الفصل الذى كتبه عن « البنوة الروحية » والذى رد فيه على ما ذكره الاستاذ العلامة لويس ماسينيون فى مقاله عن سلمان الفارسى، فقد حاول الاستاذ إيڤانوف أن يجعل من قول النبى عن سلمان « سلمان من أهل البيت » تكريماً لسلمان، وأن كل ما جاء على هذا النحو فهو من قبيل التكريم فحسب، بخلاف ماذهب إليه ماسينيون بأن الفاطميين كانوا يقولون بالبنوة الروحية والدينية. فلعل الاستاذ إيڤانوف يعود إلى قراءة ما جاء فى المجلس السابع عشر من المائة الأولى من المجالس المؤيدية وفيه حديث طويل عن « الولادة النفسانية » و « الأبوة الدينية » وتأويل قول الله تعالى « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » فقد ذهب المؤيد فى الدين إلى أن النبى (ص) أبو المؤمنين نفسانياً ودينياً. كما نجد فى رسائل إخوان الصفا عدة نصوص فى مواضع متفرقة عن الأبوة الروحية، وأن المعلم أبو التلميذ نفسانيا إلى غير ذلك من الآراء والبراهين التى تؤيد رأى الأستاذ لويس ماسينيون. ولعل الاستاذ إيڤانوف يغير هذا الرأى بعد أن يعيد قراءة النصوص التى أشرت إليها.

وليس لى بعد أن قرأت هذا الكتاب القيم إلا أن أشكر الأستاذ إيڤانوف وأهنئه تهنئة صادقة على هذا المجهود الذى بذله للكشف عن سر ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون، وأشكره خاصة لهديته القيمة التى كانت متعة لى عدة أيام.

محمد كامل حسين
مدرس بكلية الآداب

من وراء البحار

هل يعيش الأديب من أدبه ؟

أرادت مجلة هورايزن أن تستطلع رأى طائفة من الأدباء الانجليز فى أحوالهم المعيشية وهل يستطيع الأديب أن يعيش بأدبه ، فوجهت إليهم بعض الأسئلة ونشرت آراء بعضهم فى عدد سبتمبر .

سألتهم المجلة : ما مقدار المال الذى يستطيع الأديب أن يعيش به ؟ وهل يستطيع الأديب الجاد أن يحصل على هذا المقدار بكتاباته ؟ وكيف ؟ وإذا كان ذلك غير مستطاع فما هو العمل الآخر المناسب له ؟ وهل نظن أن الأدب يتأثر بتوجيه مجهود الأديب إلى عمل آخر أم أنه يزيد خصبا ؟ وهل يظن أن من واجب الدولة أو أية هيئة أخرى أن تساعد الأديب ؟ وهل هو قانع بالطريقة التى حل بها هذه المشكلة ؟ وهل لديه نصيحة معينة يقدمها للشبان الذين يريدون كسب قوتهم بالأدب ؟

ووصلت إلى المجلة إجابات من عدة من الأدباء البارزين أكثرهم من الشعراء . أما الروائيون فالعدد الذى أجاب منهم على هذه الأسئلة كان قليلا .

ويرى الكاتب بتجهان أن الأديب لا يختلف عن غيره فى مقدار ما يحتاج إليه من مال . وهو يرى أن الأديب وهو فى حاجة إلى المشروبات الروحية والسجائر والاختلاف إلى السينما والمسارح وإلى طعام فوق المستوى المعروف فى المطاعم البريطانية ، لا يستطيع المعيشة على أدبه من النثر إلا إذا ثبت مركزه وصار معروفاً . أما الشاعر فلا يستطيع العيش بشعره ولو كان مشهوراً . ويفضل هذا الكاتب أن يشغل عمل ناظر محطة ريفية فرعية ، وهو لا يدرى أيؤثر مثل هذا العمل فى أدبه ، وهو لا ينشد مساعدة من الدولة ، كما أنه غير راض عن حالته الآن . ولكنه يرى أن الذى ولد للأدب لا يسعه إلا أن يكون أديباً . وربما كانت تجارب اليوم على مرارتها فيها نفع لمستقبله .

وترى القصصية البارزة اليزابث أوين أنها تود لو كان إيرادها الصافى ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه فى السنة . وفى رأيها أن الأديب بما له من كتب نشرها فى الماضى ولا يزال يعاد طبعها ، وبما يخرجه بانتظام من كتب ، يستطيع أن يحصل على ثلثى هذا المبلغ وهو فى الستين من عمره أو الخامسة والستين ، إذا كان اسمه لا يزال معروفا . وخير عمل يمتهنه الأديب إذا كان رجلا هو الطب أو العمارة أو القانون ، أما النساء فلا يستطعن الجمع بين عملين ، لا سيما أن تبعاتهن المنزلية تستغرق منهن وقتاً طويلا . والعمل الثانى يزيد فى نشاط الأديب إذ يباشر غير زملائه . ولكن فى العمل الآخر خطراً هو أنه لا يحصر ذهنه عند الكتابة فى الأدب . وهى لا تعرف كيف تساعد الدولة الأديب ، وإن كان من واجبها أن تساعده بعض الشىء فى حالة العجز والمرض . وعلى الشبان الذين يقبلون على الأدب أن يعملوا له غير منتظرين منه فى بادىء الأمر ربحاً كبيراً .

ويقول الأديب الشاعر ألكس كمفارت إنه شخصياً يعيش على إيراد من جهات مختلفة يبلغ نحو خمسمائة جنيه فى السنة ، وله زوجة تنتظر طفلا . وهو لا يظن أن الأديب يستطيع

ان يعيش بالادب وحده ، وهو الآن يدير أكثر ماله من الأدب ، ولكن الناشئين لا يستطيعون ذلك . وهو لا يعطف على القصص التي تروى عن شترتون ورامبو وتؤدى بالأديب إلى أن يعيش في غرفة حقيرة ، أو يعيش على أصدقائه من غير الأدباء . فليس لرجال الفن ميزة على غيرهم ، ولعل الفن هو أكثر أنواع النشاط الانساني توقفا على الشعور بمسئولية نحو الناس . وهو يرى أن يتخذ الأدباء البحث العلمي مهنة لهم ، وفي رأيه أن يبتعد الأديب عن الدولة ونفوذها ، وهو راض كل الرضا عن معيشته . ونصيحته أن يكون الاديب إنسانا يقاوم الخنوع والطاعة ، وأن يعمل كأي إنسان ، ويحتقر التملق والمشاركة في العمل الأدبي .

ويرى الأديب سيريل كونولي ، وهو رئيس تحرير المجلة نفسها ، أنه إذا كان للأديب أن يتمتع بشيء من الراحة والمتعة الشخصية ويتزوج ويشترى الكتب ويجوب البلاد ويأدب لأصدقائه ، فانه في حاجة إلى خمسة جنيهات يومياً على الأقل . أما إذا أراد أن تقتله العلل لمجرد صفة الأديب فليعش على أقل من ذلك .

وهو لا يحصل على هذا المال إلا إذا كتب قصة طويلة أو قصيدة أو مسرحية تشتريها هوليوود أو إحدى الجمعيات الامريكية ، ولكنه يستطيع أن يزيد كثيراً دخله إذا سعى لأن ينشر ما يكتبه في المجلات الامريكية في الوقت الذي ينشره في كتبه . وخير عمل آخر هو الزواج من امرأة ثرية . ويرى أن المهنة تؤثر في الاديب ، وأن من واجب الدولة أن تحل محل الأسخياء الذين كانوا يحنون على الأديب على ألا تقوم مساعدتها على نتيجة عمله ، فتساعد الناشئين ، وتضاعف الاعانة لأرامل الأدباء ، وأن تكون علامات الشرف التي تمنح للأديب مصحوبة بنفحة من المال . وهو غير راض عن موارده ، وينصح الشبان بألا يمتهنوا الأدب إلا إذا وجدوا ذلك امراً لابد منه ، واستطاعوا أن ينظروا إلى سعادة الذين هم في خدمة الدولة واستقرارهم وتنعمهم بغير الشعور بالموجدة والحسد . وإن لم يفعلوا فيكون مثلهم مثل الامريكي الذي أراد أن يكون شاعراً وانتهى رجلا يمتهن سبع مهن .

ويرى داي لويس الأديب والشاعر أن خير مركز للكاتب أن يكون ذا إيراد خاص صغير ، كي لا يشجعه على الكسل واعتبار الكتابة هواية ، وكبير ، بحيث يبعد عنه مشاغل الفقر ومتاعبه . وليكن بين مائة وخمسين جنيهاً وثلاثمائة جنيه في السنة . فاذا لم يكن لديه هذا الايراد فليقبل على الكتابة العادية للصحف والمجلات أو يتخذ مهنة أخرى وميزة العمل الأول أنه متصل بعمله كأديب . وميزة المهنة أنه يستطيع أن يتعرف هل خلق للأدب . فاذا لم يكن قد خلق له برر اهتمامه بالمهنة الأخرى وإقباله عليها . ويحسن أن تكون المهنة الأخرى فيها اتصال بالناس إذا كان روائيا ، كالطب والقانون أو التجارة المتنقلة . أما إذا كان شاعراً فليكن التوظف أو التعليم أو الجندية أو العمل في منجم حيث الاتصال بالزملاء أعمق وأبعد أثراً . ولا مانع من مساعدة الدولة ، على أن تكون المساعدة من هيئة غير سياسية كمجلس الفنون مثلا . ولا يجب أن تمهد الحياة للأديب فان نضاله في الحياة هو الذي يشحذ من عزيمته .

وفي إجابة روبرت جريفز الشاعر والأديب والذي كان في إحدى السنوات أستاذاً للأدب الانجليزي بجامعة فؤاد الاول ، أنه لا مانع من العمل في مهنة أخرى لاسيما للروائي ما دام لم يرث أو لم يتزوج مبكراً ، فقد كان فيلدنج من قضاة الشرطة ، وترولوب موظفاً بمصلحة البريد ، وأمثالهم كثيرون في الوقت الحاضر .

ويستطيع المؤرخ الاديب أن يشغل عملا فى الوسط الجامعى بحيث يتصل بالمكتبات وبالزملاء على ألا يشغل وقته بالتدريس. أما الشعر فهو حالة أكثر منه مهنة، والشاعر فى حاجة لان يكون سيد نفسه، وذلك لايحتاج لنفقة كبيرة، وقد حل و. هـ. دافيز هذا المشكل بأن صار متشرداً. وهو يرى آن فى مساعدة الدولة خطرا، فالذين يستأجرون الزامر يختارون عادة الالحان.

وهو لا يريد أن يتخذ نفسه مثالا فى حياته، ويرى أن كل شخص يجب أن يحل مشكلة دخله بطريقته الخاصة. وكثيراً ما يبتدئ الكتاب بالشعر، وينتهون إلى الصحافة العادية. وهو عندما ترك خدمة الجيش بعد الحرب العالمية الأولى أقسم لنفسه أن ينقطع للشعر وبر بقسمه حتى الآن، والمهنة الوحيدة التى قبلها لبضعة أشهر كانت أستاذ الأدب الانجليزى بجامعة القاهرة. وكان فيها سيد نفسه، ولا يعطى غير محاضرة واحدة فى الأسبوع، واستقال بمجرد قيام مصاعب بينه وبين زملائه من الفرنسيين والبلجيكيين وكان ذلك منذ عشرين سنة. وعاش بعد ذلك بكتابة تواريخ الحياة والقصص التاريخية، وهى أعمال تتفق مع الشعر.

ويحتاج روبن إيردنسايد وهو ناقد فنى للتصوير إلى مبلغ خمسة عشر جنيها فى الاسبوع وهو مبلغ لم يصل إليه، ويظن انه لن يصل إليه، وبسبب فاقته لم يزر اليونان ولا أمريكا مع أن مثل هذه الزيارة لناقد فى الفنون الجميلة ضرورية جداً. وهو لم يحل مشكلة المهنة الاخرى حلا مرضياً فهو يعمل فى متحف تيت للفنون، ولكنه مثقل بالعمل الادارى بحيث لا يجد فراغاً للدراسة، ولو كان له دخل قدره خمسة جنيهات فى الاسبوع، أو لديه رأس مال قدره ألف جنيه، لترك هذا العمل غير آسف، يدفعه

امل غير محقق بأن يكتسب بالنقد الفنى من المال ما يساعده على أن يكون أديباً ناقداً. وإذ كان لايجد العيش بالنقد الفنى ميسوراً فهو لا يستطيع نصح الشبان فى هذا الموضوع.

أما روبرت كى وهو أديب برز فى هذه الايام، فان عنده ان الكاتب قلما يحصل على أربعمائة جنيه فى السنة من الأدب وهو المبلغ الذى يراه مناسباً لمعيشته، ولذلك فهو يقبل على العمل الصحفى أو على وظيفة. وهذه الأعمال تضر بمواهبه، ولكن بما أن عمل الأديب متصل بالالفاظ، فلتكن المهنة التى يتخذها متصلة باللفظ.

وإذ كانت المهنة الأخرى تعطل عمله كأديب فهو يرى معالجة هذه الحال بأن يدفع الناشرون أكثر مما يدفعونه الآن للأدباء، فان العلاقة بينهما الآن غير معقولة، مثلها مثل الرجل الذى يتناول نفقات جيبه من خادمه. ومع ذلك لو دفع الناشرون أجراً مناسبا لما انتفع من ذلك الأديب المقل، أو الذى لاتجد آراؤه من عصره قبولا. وإذن على الدولة أن تدفع مبلغاً سنوياً قدره أربعمائة جنيه لمن يريد أن يكون أديباً. وهذه المنحة تتجدد كل سنة. ويظن هذا المبلغ ضئيلا بحيث لا يغرى به المحتالين.

وفى رأى لورى لى أن الاديب فى حاجة إلى الوقت أكثر منه إلى أى شئ آخر. ولذلك كانت حياة الأديب قديما فى اعتماده على سيد كريم خيراً من حياته الآن.

وترى روز ماكولى أن خير حل هو فى أن يقدم الناشرون مبلغا من المال على حقوق الطبع يكون نحو ثلاثمائة جنيه. وهم لا يقدمون الآن غير خمسة وسبعين أو مائة جنيه.

وعند جورج أورويل أن الأديب المتزوج فى حاجة إلى عشرة جنيهات فى الاسبوع على الأقل، وغير المتزوج إلى ستة جنيهات على

الأقل . وخير إيراد للأديب فى هذه الأزمان هو نحو ألف جنيه فى السنة ، وعندئذ يستطيع أن يتخلص من الأعمال الثانوية ويعيش عيشة رغيدة دون أن يبلغ مبلغ الطبقة المترفة . فالأديب لا يستطيع أن يخرج ما عنده إذا كان إيراده معادلا لإيراد العمال . وهو يشير بامتهان مهنة كاتب فى مصرف أو ما ماثلها . وكل ما تستطيع الدولة أن تفعله هو توجيه مبلغ أكبر نحو شراء الكتب للمكتبات العامة ، ويرجو أن يزيد إقبال الجمهور على المكتبة . وهو الآن راض عن معيشته وإن كانت حياة الأدباء فى المبدأ تاعسة .

ويذكر الأديب رتشت أن مدلتن مرى ذكر فيما قبل الحرب أن الأديب يستطيع أن يكون دخله أربعمائة جنيه سنوياً . وقدر الدس هكسلى هذا الدخل بنحو سبعمائة جنيه . وهذا يعادل فى هذه الأيام من ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠ جنيه . وقد يستطيع المؤلف الروائى أو المسرحى الناجح جدا أن يكتسب أكثر من ذلك . ولكن الذين يبدأون حياتهم أو الذين هم فى أول سلم النجاح ، لن يحصلوا على مثل هذا المبلغ بكتابة الكتب أو القصص القصيرة أو الأشعار . وحينئذ يجب أن يلجأوا إلى الصحافة والإذاعة والقراءة للناشرين وتولى التحرير فى المجلات أو أن يكون لهم دخل خاص . ولكن يجب ألا يرهقهم هذا العمل ولا يشغل وقتا طويلا . وهو لا يرى أن الدولة تستطيع أن تساعد الأدب . ونصيحته إلى الشباب أن يعود نفسه على عادة الكتابة كل يوم ، كأنه فى مكتب ، فإن الوحى يأتى من وراء العمل الشاق لا من السماء .

والكاتب هربرت ريد يقدر أن الأديب يحتاج إلى ألف جنيه فى السنة إذا كان متزوجا وله طفلان أو ثلاثة ، ويحب الطعام الجيد وحياة الرخاء فى منزله . ولا يستطيع الحصول على هذا المبلغ إلا إذا كان يبيع ثلاثين ألفا إلى خمسين ألف نسخة من كل كتاب . والأديب الجاد يعمل فى الكتاب نحو سنتين أو ثلاث . والراجح أنه لا يبيع أكثر من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف نسخة . وخير عمل فى رأيه هو أن يعمل فى متحف . أما الأعمال المتصلة بالثقافة والناشرين ، فهى أسوأ أنواع الأعمال الأخرى لأنها لذيذة بحيث قد تتغلب على غرضه الأول . ولعل من الخير له أن يحذو حذو سبينوزا فيحترف صقل العدسات .

وفى رأى الشاعر ستيفن سبندر أن الأديب غير المتزوج يحتاج ما بين خمسمائة وستمائة جنيه فى السنة ، أما المتزوج فيحتاج إلى سبعمائة جنيه إذا كانت الزوجة تطهى طعامها . أما إذا لم تفعل وكان لهما أطفال فهو يحتاج إلى ألف جنيه فى السنة وأكثر . وهو يسأل هل يستطيع أحد أن يحصل على هذا الدخل فى هذه الأيام ؟ ويقول فلتجرب ، فإنك تجد أن الناشر ليس لديه من الورق ما يطبع به أكثر من خمسة آلاف نسخة ، وهذه لا تكسبه غير مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة وخمسين جنيه ومعنى هذا أن يكتب أربعة إلى ستة كتب فى السنة أو يتجه إلى الصحافة . ويقول سبندر إنه عندما يكتب ثلاث مقالات و أربع مقالات فى الأسبوع يصير أولا سريع الغضب ، ثم يصير من الصعب عليه ثانياً أن يقرأ قراءة جدية . وأكثر من ذلك ثالثاً أن يقرأ ما يكتبه ثم تتولاه ، رابعاً كراهية عظيمة لآرائه وطريقة تفكيره وحديثه . ثم يجد نفسه مدفوعاً خامساً إلى الصحافة ويقل إقباله على الشعر .

وخير عمل آخر يمتهنه الأديب عمل فيه اجتناب للتعبير بألفاظ تنزل من مستواه ، وألا يتعب نفسه عقلياً ولا جسدياً ، وأن لا يتخذ واجباً يصير لديه أهم من الأدب . وألا يلعب دوراً هاماً فى الحياة كأن يصير موظفاً ، أو معلماً ، وبأن ذلك يقضى على شخصيته الخالقة

وهو يحض الأديب على أن يعود إلى طفولته بأن يتخذ مهنة يتعلم منها شيئاً جديداً وتكون نافعة له فى كتاباته . وخير علاقة مع زملائه هو أن يجاملهم يعتقدون أن به مسا من الجنون ، ولكنه حسن النية .

ويحتاج الشاعر دايلان توماس إلى نقود تكفى لنفقاته بعد مسكنه ، وطعامه ، ودفئه ، وملابسه وتربية أطفاله ، وهو يرى أن هذه الأشياء من واجب الدولة التى ينبغى أن تتولاها . وهو إذن من القائلين بأن الدولة يجب أن تقوم بتدبير أمور الأديب فى الماديات وما يكتسبه بعد ذلك ينفقه فى شؤون الترف .

البلجيك فيما بعد الحرب

ماهو موقف البلجيك الآن ؟ وكيف أخذت تسترد حيويتها بعد أن عادت إلى الحرية ؟ وماهى المصاعب التى تكتنفها ؟ ذلك ما بحثه باحث فى عدد أكتوبر من مجلة « العالم اليوم » الانجليزية التى تظهرها جمعية الشؤون الدولية ، ومن قول هذا الباحث أن كثيراً ما يقال إن البلجيك كانت أسرع من أية دولة أخرى من الدول التى احتلها الألمان إلى استرداد نشاطها . ولا ريب فى أن هذا الرأى له وجاهته ، ولكن الحالة فى البلجيك بوجه عام لا تبعث على الرضا ، ومستقبل البلاد فيما يتعلق بالوجهتين السياسية والاقتصادية غير ثابت ومحفوف بالأخطار .

فقد كان البناء السياسى فى البلجيك قبل الحرب الأخيرة بسيطاً جدا : فى اليمين حزب قوى من الرجال المتدينين هو الحزب الكاثوليكى ، وفى الوسط حزب الأحرار ، وفى اليسار حزب العمال أو الاشتراكيين ، وكان لهذه الأحزاب ١٧٠ من مائتى مقعد فى البرلمان سنة ١٩٣٩ . ويوجد عدا هذه الأحزاب ثلاثة أحزاب أخرى قليلة النفوذ : فى أقصى اليسار الشيوعيون . وفى أقصى اليمين حزبان فاشيان : حزب الفلمنكيين الوطنيين ، وحزب ركس ، وكلاهما كاثوليكى صميم . ولم يتول حزب من هذه الأحزاب الصغيرة الحكم ، بل كان الحكم بين الأحزاب الكبيرة إما الحكومة الائتلافية من حزبين من الأحزاب الكبيرة وإما بائتلاف الأحزاب الثلاثة .

وكان الحزب الكاثوليكى مؤلفاً من خليط كبير من أصحاب الأراضى وأصحاب الصناعات ورجال المال الكاثوليك وأبناء الطبقة الوسطى والعمال الكاثوليك والفلاحين ، وهو منظم بحيث إن الزعامة فيه للمحافظين . وعلى ذلك كان هذا الحزب قبل الحرب محافظاً فى نزعته . وأدى ذلك إلى ثورة العناصر الديمقراطية فيه واتفاقها مع الاشتراكيين وتأليف حكومة فى سنة ١٩٢٦ أسقطتها مؤامرة ذعر مالى أحكم تدبيرها . وفى سنة ١٩٣٦ حدثت مثل هذه الأزمة عند ما ثار الشبان فى هذا الحزب وأنشأوا حزب ركس الفاشى الذى كان يتلقى معونة مالية من إيطاليا . أما الحزب الوطنى الفلمنكى فيعد أقرب إلى الثورة على الكنيسة التى تؤيد بطبيعة الحال الحزب الكاثوليكى .

وكان حزب الأحرار مؤلفا من الطبقة الوسطى ، فهو مؤلف من العناصر غير الكاثوليكية فى عالم الصناعة والمال فضلا عن رجال الطبقة المتوسطة العليا والسفلى وكثيراً من المثقفين . وهو يتألف من جناح أيمن كانوا أشد الأعضاء رجعية فى البرلمان ، ومن جناح أيسر يعمل على التقدم . وكان الجناح الأيمن متغلبا بحيث إن هذا الحزب انضم أكثر من

مرة إلى الحزب الكاثوليكي فى تأليف الحكومة، ولكنه لم يتحالف قط مع الاشتراكيين إلا عند قيام حكومة ائتلافية من الأحزاب الثلاثة.

وقد عدّل الحزب الأشتراكي من آرائه الثورية وجنح إلى الاعتدال والعمل على التنظيم عند ما صار من جهة العدد الحزب الثانى فى البلاد بعد تقرير الانتخاب العام سنة ١٩١٩. وقد نجح سريعاً فى تحقيق برنامجه المبدئى الاجتماعي، ووجد نفسه فى موقف الحزب الذى حقق برنامجه فلم يعد له برنامج.

أما الفلمنكيون الوطنيون فتاريخهم يرجع إلى استقلال البلجيك فى سنة ١٨٣٠. فبلاد البلجيك تتألف من منطقتين ڤالونيا وأهلها يتكلمون الفرنسية، وفلاندر وأهلها يتكلمون الفلمنكية. وهى لغة قريبة من اللغة الهولندية. والفلمنكيون أكثر عددا من الڤالونيين. ولكن اللغة الفرنسية كانت حتى سنة ١٩١٤ سائدة فى المدارس والمحاكم والجيش والادارة، وقد تغيرت هذه الحال تدريجياً ولكن بعد أن تألف حزب فلمنكى وطنى اتخذ نظاما فاشيا.

أما حزب ركس الفاشى فقد نشأ من الخوف الذى انتشر قبل الحرب من حركات الشيوعيين، والفضل فى نجاح هذا الحزب وظهوره لزعيمه دجريل ومقدرته الخطابية والاعانات الكبيرة التى أمده بها رجال الصناعة. وكان من أنصاره فضلا عن هؤلاء بعض ضباط الجيش العظام وبعض أعضاء البلاط الملكى.

ثم جاءت الحرب وغزا الألمان البلجيك فى ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ وسلم الجيش فى ٢٨ مايو وظل الألمان يحتلونها نحو أربع سنوات ونصف سنة أى لغاية سبتمبر سنة ١٩٤٤، وهذه تجربة مر بها البلجيكيون مرتين فى عشرين سنة. وهو أمر يجب ألا يعزب عن البال عند ما نريد أن نفهم مسلكهم.

ومن الضرورى أن نعرف أنه بينما وقف الاحتلال النشاط العادى وقفا تاما ووقف نشاط النقابات لحد كبير، فى ميدان السياسة الاقتصادية والادارية، فان الحياة العامة ظلت مستمرة دون تغيير كبير. ومن الطبيعى أن مسائل السياسة العامة التى هى من عمل الحكومة، كانت تسويها السلطات الالمانية، ومن الطبيعى أيضاً أن البلجيكيين كانوا يهتمون بهذه الاوامر إذا عجزوا عن التهرب منها.

ولقد عاش البلجيكيون تلك السنوات عيشة غريبة، فقد كانوا من غير زعامة سياسية أو أخلاقية، فالصحافة والاذاعة فى أيدى الألمان وأعوانهم فلم يكن من الممكن تصديقهما. والاذاعة من لندن بوعودها التى لم تحقق، كان تأثيرها فى الشعب بعد التحرير باعثاً على اليأس. ونجح الألمان فى أمر واحد هو إذكاء الخوف من الشيوعيين لدى الكاثوليك ورجال الكنيسة، مما أوجد حتى فى عهد الاحتلال جمعيات الغرض منها مقاومة الألمان ثم بعد التحرير مقاومة الشيوعيين.

وهنالك مسألة شائكة هى مسألة ملك بلجيكا، وهذه المسألة لم تكن قائمة فى عهد الاحتلال؛ فان تسليمه للألمان زاد من تعلق الناس به لانهم كانوا يائسين لما بدا من ضعف الحلفاء. ولكنه فقد حب رعاياه فجأة عند ما تزوج المرة الثانية، فقد كان الناس يحبونه ويعطفون عليه بسبب المأساة التى أدت إلى وفاة زوجته الاولى، وزاد حبهم له عند ما آثر أن يكون أسيراً فى بلاده على الالتجاء لانجلترا، ولكن زواجه أصاب مركزه الاجتماعي بضربة شديدة ولم يعلم إلا القليل من رعاياه أنه زار هتلر.

وتحررت البلاد وعادت الحكومة التى كانت فى لندن ثم استقالت، وتكونت حكومة أخرى تميل إلى اليسار، ويقال إنه

بريطانيا تدخلت فى تأليفها ، ولم تستطع هذه الحكومة أن تظل فى الحكم طويلا . وتولت الحكم وزارة يرأسها ڤان أكر الاشتراكى . وجاءت مسألة عودة الملك من الأسر ، وكان ڤان أكر فى مبدأ الأمر يميل إلى السماح للملك بالعودة إلى بلجيكا ، ثم غير رأيه فى أثناء المفاوضات . وقام النزاع بين الملك المبعد والوزارة ، كل منها يهدد بنشر أسرار عن الآخر ، ولكنه لم يفعل . ولا شك فى أن الوقوف على الحقيقة فيما يتعلق بأعمال الملك صعب ، فأكبر ما يتهمه به خصومه محاولته الاتفاق مع الأعداء ، كحديثه مع هتلر وإرسال برقيات تهنئة أو تعزية لملك إيطاليا وللمرشال بيتان .

على كل حال قرر ڤان أكر رسمياً أن يحول دون عودة الملك ، وان يظل أخوه الأمير شارل وصياً على العرش . فأدى هذا القرار إلى استقالة الوزراء من الحزب الكاثوليكى وانضمامهم إلى المعارضة اليسارية وهذا الموقف هو الذى يحول دون سير الحياة السياسية على طبيعتها فى بلجيكا . وعلى ذلك لن تقوم فى بلجيكا حكومة إلا إذا كانت مكونة من ائتلاف بين الأحرار والاشتراكيين والشيوعيين . ولكن بما أن هذا الائتلاف لا يتمتع إلا بأغلبية ضئيلة فان الحكومة تكون دائما ضعيفة لا تستطيع القيام بتغييرات اقتصادية شاملة .

ولقد حصلت هذه الأحزاب على هذه الأغلبية الضئيلة فى انتخابات فبراير سنة ١٩٤٦ ومما يعقد الموقف السياسى فى البلجيك أن الفلمنك نظموا أنفسهم وهم أغلبية ويزداد تعدادهم دائما فى حين أن الڤالونيين المتكلمين بالفرنسية يقل عددهم مما قلب الأوضاع ، بحيث بدأت حركة وطنية من الڤالونيين ، مشابهة للحركة التى كانت قائمة بين الفلمنكيين من قبل .

ومع ذلك فان البلجيك تسير سيرا مرضياً من الوجهة الاقتصادية ، فليس فيها عطلة ، والانتاج والاصدار يزدادان زيادة كبيرة ، ووسائل المعيشة أحسن منها فى بلاد أخرى . ولكن الجماهير غير راضية . وقد وقفت الحكومة زيادة أجور العمال بحيث لم تعد كافية .

أما فى السياسة الدولية فلم يعد لبلجيكا سياسة خارجية ، وهى تابعة اقتصاديا للولايات المتحدة ، وعلى ذلك فهى تابعة لسياستها . والعلاقات بينها وبين فرنسا طبيعية ، وعلاقاتها بهولندة غير ودية ، فموقفها إذن موقف المنتظر المترقب .

ظهر حديثا

ديكارت تأليف الدكتور عثمان أمين طبعة ثانية مزيدة ومنقحة (مكتبة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة).

هذه هى الطبعة الثانية لكتاب الدكتور عثمان أمين الذى ظهرت الطبعة الأولى منه فى سنة ١٩٤٢ . وقد ذكر المؤلف أن الطبعة الأولى نفدت فى بضعة شهور . على أنه لم يكن من المتيسر طبعاً فى ذلك الوقت أن يعيد المؤلف طبع كتابه . وكان مما اهتم له أن عمل على تنقيحه ، فقام ببعض بحوث تكميلية وأجرى تعديلات وزيادات ، فوسع فصل شخصية ديكارت ، وأرجأ باب تأويل الفلسفة الديكارتية إلى ما بعد الفراغ من عرض تلك الفلسفة ، وأضاف فصلا جديداً عن ديكارت والمجتمع ، ووسع باب أثر الفلسفة الديكارتية ، كما أضاف تعليقات وهوامش ومراجع .

فالطبعة من هذه الجهة تكاد تكون بمثابة كتاب جديد . ولا ريب فى أن الاقبال على هذا الكتاب فى طبعته الأولى دل على حاجة شديدة فى العالم العربى إلى المؤلفين الذين يضعون الكتب فى مختلف العلوم والفنون عن دراسة ومعرفة جديرين بثقة القراء . ولا ريب أيضاً فى أن الدكتور عثمان أمين برهن فى هذا الكتاب على أنه من خير الذين يصلحون لتعريف الناس بالفلاسفة ، وبسط آرائهم بأسلوبه السهل الجميل ، وحسن تبويبه لموضوعه كما يتبين فى هذا الكتاب . كما أن هذا الاقبال دل على نماء حب البحث بين جمهور القراء ، إذ أقبلوا على الكتاب الذى يفسر فلسفة شيخ الفلاسفة العقليين .

ولا شك فى أن ديكارت جدير بأن يكون زعيم مدرسة العقليين هذه . وللمذهب العقلى فى الفلسفة غيره فى جوانب أخرى من المعارف ؛ فليس معناه ، كما يتبادر لذهن الباحثين فى الديانات ، أنه يعبر عن جحود للاسرار الدينية يبلغ أحياناً حد الالحاد ، بل قد يكون معناه فى فلسفة ديكارت عكس ذلك أو ما يصل إلى العكس . فهو فى مجمله ، أن العقل يحتوى على عدد من المبادئ الثابتة ، وأننا إذا فكرنا سائرين على هذه المبادئ استطعنا أن نستكشف الحقيقة الكاملة لجميع الاشياء . فكما أن الرياضى يستطيع أن يستنبط جميع قواعد الرياضة باتخاذ بديهية أو بديهتين ، كذلك الفيلسوف يستطيع أن يستكشف جميع الحقائق لو سار على هذا المذهب . فكأن العقل إذن ، من غير الاختيار والتجربة ، يستطيع أن يمدنا بالمعرفة الفلسفية وهى المعرفة الصادقة . ولكن هل العالم منظم كالرياضة ؟

لعل ما دفع ديكارت إلى هذه الفكرة أنه كان رياضياً ، وله فى هذا الجانب من المعرفة نظريات قد لا تكون أقل شأناً من نظرياته الفلسفية .

وكل ما نريده من هذا العرض أن نبين أهمية هذا الكتاب ، وأن نقول إنه سد فراغاً فى المكتبة العربية .

اللغة اليونانية تأليف الأستاذين أمين سلامة وصمويل كامل عبد السيد (مكتبة النهضة المصرية) .

لو أننا ذكرنا أن الحضارة الاوربية ، وهي الحضارة المؤثرة والسائدة الآن في جميع أنحاء العالم ، قد بدأت بالاقبال على دراسة اللغة اليونانية وعلى قراءة الكتب التي خلفتها الحضارة اليونانية ، وقد نقلت عند ما أطبق الاتراك على بيزنطة إلى إيطاليا وغيرها من بلدان أوربا — لو أننا ذكرنا ذلك لما كنا مبالغين ، بل بالعكس كنا منتقصين للدور الذي لعبته الحضارة اليونانية في تاريخ العالم منذ ازدهار هذه الحضارة . فما لا ريب فيه أن الحضارة اليونانية كان لها التأثير الأكبر في حضارة روما . بل نستطيع أن نقول إن الحضارة الرومانية في جوانبها الثقافية إن هي إلا تقليد للآثار الفكرية التي خلفها اليونان .

والحضارة الاسلامية التي سيطرت على جزء كبير من العالم في العهد الاسلامي كانت في أزهر عصورها ، وصارت أشمل وأكثر إنسانية عند ما أقبلت على مخلفات الفكر اليوناني .

لذلك كان سرورنا كبيراً حقاً عند ما نشر هذا الكتاب عن اللغة اليونانية ، وهي اللغة التي يجب أن نقدر أهميتها إذا أردنا ان يكون لنا مجال في عالم الفكر .

وهذا الكتاب إذا كان مفيداً لمن يريد تعلم اللغة اليونانية ، فهو مفيد كذلك لأنه أحاط بجميع قواعدها بحيث يصلح للمبتدئ والمتقدم في هذه الدراسة . وهو يشرح هذه القواعد باللغة العربية شرحاً وافياً بأبسط لغة وأحدث طريقة . ولعله كما قال الأستاذ محمد شفيق غبريال بك في مقدمته : « أن يبدأ (المؤلفان) أو من يريد من تلامذتهما في كلية الآداب من حيث انتهيا في هذه الأجرومية دراسة مقارنة لخصائص الأجروميتين العربية واليونانية . تلتقي في هذا الكتاب جهود أعضاء قسمي اللغة العربية والدراسات القديمة بتلك الكلية إلتقاء مباركا مثمراً . . . ويصبح اللواء الذي رفعه وحده طه حسين عند ما كافح لاثبات حق الدراسات القديمة في كلية الآداب لواء من ألوية الكلية الخفاقة » .

هيرودوت في مصر للأستاذ وهيب كامل (دار المعارف بمصر) .

قد يصح أن نلقب هيرودوت أبا التاريخ أو لا يصح ، وإنما الواقع أن المؤرخ اليوناني هيرودوت ، بما في تاريخه من شمول لبلاد كثيرة ، وروح قصصية ، ومهارة في السرد ومعرفة بالاستفادة من المواقف المؤثرة ، هو أجدر المؤرخين اليونانيين بهذا اللقب ، على أنه لا يعرف بأنه أقدمهم وإنما يعرف بأنه شيخهم .

وهذا الكتاب ينقله اليوم الأستاذ وهيب كامل إلى اللغة العربية هو الجزء الخاص بمصر من كتابه في التاريخ ؛ فقد زار مصر على الراجح بين ٤٤٨ و ٤٤٥ ق م ، كما أشار المؤلف في مقدمته ، ومكث فيها نحو ثلاثة أشهر ونصف شهر ، قام فيها برحلة من شمال البلاد إلى إلى جنوبها وبجولة في وسط الدلتا وشرقها ، وكان يستقصي أنباء البلاد وتاريخها من أفواه

الذين يقابلونه من الأعيان ورجال الدين ، مستعينا على الاتصال بهم بتراجمة ينقلون إليه هذه الأخبار على الغالب مشوبة بكثير من الخرافات والأحاديث السائرة ، فيسدونه بلغته الأيونية وأسلوبه البديع فى القصص الجدير بمن كان من مواطنى الكتاب والشعراء الاغريقيين ، حتى لتجدهذا الكتاب قصة من ألذ القصص .

ومن مزايا هيرودوت أنه يعنى بالجانب الجغرافى ويحفظ له مكانه فى التاريخ . وهذا الجانب ، وإن كان على قول الأستاذ وهيب كامل أضعف جانب فيه ، يدل ، بمجرد عنايته به ، على فهم التاريخ غير فهم أضرابه من المؤرخين له .

وإنا لنرجو فى القريب أن نرى الأستاذ وهيب كامل ، وقد نقل هذا التاريخ بأكمله إلى اللغة العربية ، فيسدى بذلك يداً كبيرة .

حسن محمود

في مجلات الشرق

حرفة التعليم !

توشك « حرفة التعليم » أن تبلغ في شهرة ما ينال صاحبها من التعاسة ما بلغت « حرفة الأدب » . فلا نزال نقرأ في صحف مصر وسوريا والعراق — من شرق البلاد العربية إلى غربها — مقالات بأقلام المعلمين ، أو غير المعلمين ، يرثون فيها للمعلم ، وما يناله من سوء التقدير وقلة الجزاء وضعف المركز المادي في الحياة الاجتماعية . بل لعل ما نسمع من شكوى حال المعلمين لهذا العهد في كل بلد عربي أن يوقع في وهم كل قارئ أن « شؤم الحرفة » قد نال المعلمين بأسوأ مما نال الأدباء من حرفة الأدب .

وهذا مقال للأستاذ خليل هنداوي في العدد الأخير من مجلة « الأديب » ببيروت يصف فيه حديثاً جرى بينه وبين ولده في أول مرحلة من مراحل دراسته العالية . قال ولده :

— ومهنتي ماذا تكون بعد أن أرجع « من البعثة » ؟

— أظن أنك تكون أستاذا !

نظر إليه ولده نظرة ملؤها العنف والتوبيخ ، وقال :

— اي شيء — فيك — يحملني على أن أمتهن هذه المهنة ؟ أقيمتك المادية أم قيمتك المعنوية ولك أكثر من سبعة عشر عاما ، فماذا تركت وراءك ؟ لقد أشقيت نفسك وأشقيتنا ، بمبادئك لهذه المثل العليا الكاذبة التي رحت تؤمن بها . إن التضحية واجبة حين يقدر الناس معناها ، أما التضحية بالحياة والسعادة عند قوم لا يدركون فضلها فما هي إلا جنون . . .

ويمضي الأستاذ خليل هنداوي في رواية ما كان بينه وبين ولده من حوار حتى ينتهي إلى أن يقول :

« ألا رحم الله ذلك الزمان الذي كنا نعيش فيه أعفة الضمائر ، نكتفي بشرف المهنة دون النظر إلى ما تعطيه من فوائد ؛ ولعن الله هذا الزمان الذي أفسد قلوب الناس فانقلبت القيم وتبدلت المقاييس وماتت البقية الباقية من صلاح موروث . . . . »

ليت شعري : أجرى هذا الحوار بين الأستاذ هنداوي وولده حديث فم إلى فم ، أم نجوى عينين إلى عينين ؟

وهل بلغت « حرفة التعليم » بأصحابها هذا المبلغ من الشؤم حتى حملت الأولاد على أن يجبهوا آباءهم بمثل هذا الرأي ، أم هي مبالغة في التخيل وأسلوب من أساليب الشكوى ؟

وقد كان صاحب هذه المختارات يوما معلماً ، ونالته هذه الحرفة بشؤمها بضع عشرة سنة ؛ فانه ليستطيع أن يصف عن خبرة مقدار ما يلقاه المعلمون من قلة التقدير المادي والأدبي في هذا الشرق ؛ والشرق اليوم على أبواب نهضة لا يمكن أن تبلغ أهدافها إلا على كواهل المعلمين . فأي خيبة ننتهي إليها لو شاع مثل هذا القول على ألسنة المعلمين وامتلأت به نفوسهم حتى صار حديثاً بين الأب وبنيه وبين المعلم وتلاميذه ؟

ألا ما أحوجنا اليوم إلى أن نحاول محاولة لتأمين « استقلال المعلمين » على مثال ما صنعنا لتأمين « استقلال القضاة » !

إن العلم هو الذى يبنى الأمة ويصنع لها تاريخها ويحدد لها منزلتها فى الغد ، وإن العدالة هى التى تمنع بناء الحضارة أن يتهدم : فما أحرانا أن نهيئ للبناة من عوامل الاستقرار والأمن بمقدار ما نبذل لتوقى عوامل التهدم ، وما أحرانا أن نوقن بأن الذين يبنون لا ينبغى أن يكونوا أقل حظاً من رعاية الدولة والشعب من الذين يرممون الأبنية المتداعية أو يعصمونها من الانهيار !

شباب الشعر فى العراق

« شاعر الحى لا يطرب ! »

مثل سمعناه فى مصر ، وأحسب له نظائر فى كل بلد عربى وغير عربى !

فهذه صحف العراق لا تكاد تفتح واحدة منها حتى ترى مقالا ينعى فيه كاتبه على شعراء العراق وكتابه تخلفهم وقصور أدواتهم وضعف إنتاجهم بالقياس إلى ما تنتجه سائر البلاد العربية . وتقرأ صحف الشام فلا تكاد ترى واحدة منها خالية من حديث للتنويه بشاعر عراقى ، أو كاتب عراقى . هو « داء الجار » إذن لا غيره ، وهو حكم كل حى على شاعره !

وهذا مقال فى مجلة « الأديب » كذلك بقلم مير بصرى عنوانه « شعر الشباب فى العراق » يتحدث فيه عن « طلائع نهضة شعرية — بالعراق — تبشر بالخير » . والغريب أن كاتب المقال بغدادى ، فكأنه حين تخلص من « داء الجار » لم يجرؤ على أن ينشر رأيه بين « الجيران » فاختار مجلة فى بيروت .

وفى المقال عرض طيب لانتاج طائفة جديرة بالتنويه من شعر الشباب فى بغداد ، لشعراء الشبان : يحيى الدراجى ، وبلند الحيدرى ، ويعقوب بلبول ، وإبراهيم يعقوب عوبديا .

يقول الأستاذ بصرى :

« إن خير نعت لهذه الحركة الشعرية هو أنها وجدانية واقعية رمزية . ومن الجلى أن إطلاق اسم الحركة هنا من قبيل التوسع لا غير ، فليس هناك حركة منظمة ولا مقررة ، بل هى فورة آنية فى نفوس فريق موهوب من الشباب تقارب بينهم أرض واحدة وعصر واحد ، فأوحت إليهم شعراً متوافقاً فى سماته ، متباينا فى أصواته ونغماته . . . »

دفاع مشترك !

ويشغل حديث مجلس الدفاع المشترك من مجلات الشرق مثل ما يشغله من صحف مصر ، وعناية صحف لبنان به أظهر . وليس عجيباً أن تحتفل صحف الشرق بقضية مجلس الدفاع المشترك لا لأنه جزء من قضية مصر ، الشقيقة الكبرى ، فإنه فوق ذلك جزء من

قضية كل بلد عربى . أليست الدولة التى اخترعت كلمة « الدفاع المشترك » تريد أن تتخذ هذا الوضع منفذاً تنفذ منه إلى نوع من السيطرة على البلاد التى تجاور مصر ؟ فقضيــة مجلس الدفاع المشترك إذن هى قضية كل بلد عربى من جيرة مصر ، القريب منها والبعيد ، وقضية كل وطن عربى يحرص على مقومات استقـلاله ويأبى أن يكون للاستعمار « مقرا أو ممراً » . فعنــاية صحف الشرق بهذه القضية هى إذن عناية ذاتية تنبع من رغبة أصيلة فى الاستقلال والحرية الذاتية .

وهذه مجلة « الطريق » اللبنانية تنشر فى صدرها مقالا بقلم رئيف خورى عنوانها « مجلس دفاع مشترك ، أم توريط لنا فى مشاريع حربية عدوانية » يقول فيه :

« إن بلدان هــذا الشرق العربى إنما طمحت دائماً إلى تحقيق هذا الاستقلال الذى لا يقيده قيد من وجود جيوش أجنبية على أرض الوطن ، والذى لا يقيده قيد « شرعى » من معاهدة يفرضها الجانب القوى على الجانب المستضعف .

« إن الذى يعنينا — أولا وأخيرا — هو ألا يغرز الاستعمار وتاده فى أرضنا باسم الدفاع المشترك ، وألا يتاح له تجنيدنا وسوقنا إلى حرب اعتدائية لا تلبث فيها بلادنا أن تتحول إلى مسرح حرب مدمرة نكون نحن فيها الخاسرين على كل حال ! »

ولا ينتهى حديث مجلة الطريق عن « الدفاع المشترك » بانتهاء مقال الأستاذ رئيف خورى ، فثمة مقــال آخر بقلم وصفى البنى عنوانه « الاسكندرونة فى كفة المساومات من جديد » يتحدث فيه عن موقف بريطانيا منذ سنين وفى هذه الايام من قضية لواء الاسكندرونة ، ويعرض بعض الاقوال البريطانية فى هذا الشأن ثم يقول :

« إن رائحة المساومة تفوح من هــذا الكلام . ولا ريب أن « بعض الاوساط » التى تحاول أن تحشر سوريا ولبنان فى جوف القلعة العسكرية والسياسية التى يجرى العمل لاقامة أسوارها حول الاقطار العربية جميعا لقمع نضالها الوطنى والديمقراطى بقوة الحديد والنار والدسائس باسم « الدفاع المشترك » ، لا ريب أن هذه الأوساط المعروفة الراغبة فى ضم تركيا نهائيا إلى حظيرة الدفاع المشترك هــذه تحاول أن تسوى الخلاف السورى التركى بأسلوبها التقليدى ، أسلوب المساومة والمناورة والتهديد بالخطر الأحمر . . . »

اقتصاديات أوربا !

فى العدد ٤٣٦ من مجلة « المكشوف » يروى ضابط بريطانى الوقائع التــالية التى تصور ما بلغته اقتصاديات أوربا فى هذه الأيام من التقلقل وعدم الاستقرار الذى ينذر بالشر . والقصة بعد فى غنى عن كل تعليق . قال الضابط :

« وفدت بمهمة رسمية إلى الدانمارك ، فامتطيت طائرتى وقمت بالرحلة إلى المكان المعين ، وكان معى عشر لفائف تبغ ، قايضت بها أحد المزارعين على دجاجتين حملتهما معى إلى بلجيكا حيث بعتهما لقاء ألف لفافة تبغ . وما لبثت أن تلقيت الأوامر بالذهاب إلى كوبنهاجن حيث أتيح لى أن أشترى جهازاً لاسلكياً جديداً (راديو) بالألف سيكارة ؟ وما هى

إلا أيام حتى عدت إلى بروكسل فى مهمة مستعجلة فتخلصت منه بطريقة من الطرق لقاء ٣٦ زجاجة شمبانيا ، فدعوت بعض الرفاق إلى « سكرة » شربنا فيهـا ست زجاجات فقط . . . على نخب مقـدرتى التجارية ، ونجاحى المنقطع النظير فى هذا الحقل ، وعدت إلى لندن فبعت الزجاجة الواحدة من الزجاجات الثلاثين الباقية بأربعة جنيهات لحصل لدى ١٢٠ جنيهاً .

« أرأيت كيف أن عشر بقائف تبغ إذا ما أحسن صاحبها استعمالها والتصرف بها تدخل عليه ١٢٠ ليرة استرلينية ؟ . . . »

قرآن بالأسبانية فى أمريكا

وتروى « المكشوف » أن دار الطباعة العربية فى الارجنتين أصدرت أخيرا ترجمة أسبانية للقرآن الكريم ، من عمل الأستاذ سيف الدين رحال مدير دار الطباعة ، بمعاونة الدكتور سنتياجو بيرالتا . وتشتمل تلك الترجمة على مقدمات وافية وشروح هامة استنفد إعدادها وقتـا طويلا وجهوداً جبارة .

انهضة أم انحطاط ؟

ويسأل الأسـتاذ جورج مصروعة فى العدد السادس من مجلة « الفكر » التى تصدر عن دمشق هذا السؤال ، فيقول :

« هل نحن فى عصر نهضة أدبية أم فى عصر انحطاط وخمول ؟

« هل نشهد فى دنيا الفكر والقـلم استعداداً للإنطلاق والتحليق ، أم انحداراً ينذر بالركود والجمود ؟ »

ثم يصف ما تقدمه المطبعة العربية لقرائها فى هذه الأيام من جيد الأدب أو رديئه ، ويعود فيسأل :

« أفى هـذا النشاط دليـل عـلى النهضة . . . وهل فى هذا السيل من الانتاج الأدبى ما يبشر بعصر جديد يصح أن يدعى عصر الحقيقة والفن والجمال ؟ »

ويبدو فى جوابه لون من التشاؤم وسوء الظن ، لا منكراً على المنتجين من اهل الأدب ، بل على القراء الذين لا يكادون يحفلون بالانتاج الجيد ولا يقبلون عليه ، لأنهم لا يقرءون إلا للتسلية واللهو وإزجاء الفراغ ؛ لأن مقاييس الانتاج الأدبى عند جمهرة القراء غير المقاييس عند أهل الفن ، فيقول :

« إياك إذن يا أخى القارئ أن تسألنى بعد اليوم عن نهضة الأدب فى عصرنا هذا ، لأنك أنت مشجنها وموقد نارها ، وأنت أنت عاملها الأكبر والأوحد .

« لا نهضة للأدب ولا رجاء للأديب ما دمت تعد صفحات الكتاب قبل أن تشتريه كأنك تبتاع ورقا «للصر» ، ولا أمل للنهضة بالنشوء والارتقاء ما دمت تقرأ للتسلية وقتل الوقت وجلب النوم إلى رأسك المتعب ! »

قول يقوله كاتبه لقرائه فى سوريا ولبنان . فكيف لو عرف قراء مصر !

المؤلفون فى مصر

ويتحدث الاستاذ محمد كرد على فى المجلد الحادى والعشرين من مجلة « المجمع العلمى العربى» بدمشق عن المؤلفين فى مصر ونشاطهم فى الانتاج، فيصنفهم طوائف ومذاهب مذاهب ، ويذكر الذين يعرفهم من المؤلفين المصريين بأسمائهم ومعاهد تخرجهم ومذاهبهم فى الانتاج ، ويوازن بين إنتاجهم هذا الحاضر الذى يخرجون به إلى الناس ، وما كان من إنتاجهم قبل نصف قرن ، ويخص خريجى دار العلوم ومدرستى المعلمين العليا والقضاء الشرعى الملغاتين بمزيد من التنويه بآثارها فى نهضة التأليف المعاصرة فى مصر .

ويتحدث عن طه حسين وأحمد أمين والرافعى والزيات والعقاد والمازنى ، وعن مؤلفى الكتب المدرسية ، وعن الشيوخ والشبان ، وعن الرجال والنساء ، وعن أهل الجد والفكاهة ، ذاكرا الاسماء ، منوها بكل ذي فضل ؛ لم يند عن خاطره أحد ممن تدور ألسنتهم على الأفواه أو تنشر لهم الصحف والمجلات ، أو تخرج المكتبة المصرية كتباً بأسمائهم ؛ فهو مقال ولكنه سجل واف حافل ومعجم واسع له قيمته فى اليوم وفى الغد . ولا يزال الأستاذ محمد كرد على صاحب فضل على الأدب وتاريخه . ولا يكاد الاستاذ يبلغ آخر المقال حتى يستدرك فيقول :

« ولو ضعفت شهوة الاستخدام فى بعض النفوس المصرية ربما زاد عدد الباحثين المجودين وتضاعفت جهرة من ينتفع الناس منهم نفعاً عاما ، وربما كان تغير بذلك وجه المدنية العربية . وليس من الغرابة فى شىء أن يكون معظم مؤلفى مصر فى هذا العصر من الذين اتصلوا بالحكومة مباشرة ، وقل أن رأينا ذا نعمة وسعة من العيش حاول نفع الناس بقلمه وبيانه . . . »

في مجلات الغرب

من باريس

« لانيف » أكتوبر ١٩٤٦ *La Nef* .

مقال للأستاذ ارمان هوج Armand Hoog الذي كان مدرساً بكلية الآداب في جامعة فؤاد الاول قبل الحرب الأخيرة عنوانه : « إميلي برونتي أو العلاقة بين الجنة والجحيم » (١) وهو فصل قصير يحاول فيه الكاتب أن يجيب على هذا السؤال : « كيف استطاع النقاء أن يفهم الجحيم ؟ » وهو يحاول أن يفسر الجو البغيض الذى يصوره كتابها « ربا وذرنج » (٢) وهو يجد التفسير في الخيال البارع الذى امتازت به المعلمة صاحبة هذا الكتاب . وهو يروى بهذه المناسبة قول الشاعر الفرنسى السوريياليست أندريه بروتون A. Breton « أيها الخيال العزيز إن أخص ما أحب في صفاتك هو أنك لاتعفو » . وفي المقال اختلاط لايكاد يبين لنا عن الموضوع ، بل نحن نسأل أنفسنا أمن الضرورى أن يبين هذا الموضوع ؟

وفي العدد نفسه قصة قصيرة الكاتب المعروف فرنز كافكا عنوانها : « الحكم » (٣) وفي هذه القصة نجد بعض الخصال المميزة لكافكا ، ولاسيا جو الغموض والشك بحيث نسأل أيحدثنا الكاتب عن حقيقة أم عن خيال ؟ أينبؤنا بأخبار أشخاص وجدوا أم هو الخيال قد اخترع الأشخاص والأحداث التى أجراها على أيديهم ؟

وقد وقفت المجلة صفحات في هذا العدد على العلاقات الفرنسية البلجيكية :

١ — تقلبات الجو المعنوى بين فرنسا وبلجيكا (٤) ويكفى أن نثبت في هذا المقال جملة يرويها الكاتب في خطاب ألقاه الملك ألبير في حفلة عشاء « بمجلة العالمين » بباريس وذلك قوله حين كان يتحدث عن اللغة الفرنسية : « إن هذه اللغة تفيض عن وحى لا ينضب ، وهى تقدم في جراءة على كل مغامرة ، وتحافظ في الوقت نفسه على القصد والاعتدال . »

٢ — العلاقات الثقافية بين فرنسا وبلجيكا (٥) ولنلاحظ هذه الأسطر الأخيرة التى يسخر فيها الكاتب البلجيكى من الجامعات البلجيكية : « نعم هذه الصفوة التى لاتشبه إلا قليلا أمثالها في البلاد الأخرى في لندن وباريس وروما بل في ستوكهلم ، تطمئن راضية إلى شيء من الخمول . » (بديع !)

ونلاحظ تقديراً للحياة العقلية في بلجيكا

---

(١) *Emily Brontë ou les relations du ciel et de l'enfer.*

(٢) *Wuthering Heights.*

(٣) Franz Kafka, *Le verdict.*

(٤) Louis Piérard, *Vicissitudes du climat franco-belge.*

(٥) Willy Koninckx, *Les relations intellectuelles.*

أن مسرحية « اوديب » لأندريه جيد (١) قد مثلتها فى أنقرس لأول مرة فرقة بيتوئيف Pitoëff قبل أن تمثل فى إيطاليا بل فى باريس نفسها .

٣ — العلاقات الأدبية بقلم روبير جييت(٢) وهذا الفصل يحاول كاتبه أن يثبت أن هناك أدباء بلجيكيين ينشأون فى اللغة الفرنسية ، كما أن هناك أدباء فى إقليم اللورين أو شمبانيا ، ولكن ليس هناك أدب بلجيكى خاص ، ثم تنتهى هذه الفصول الشاحبة بدراسة موجزة للعلاقات الاقتصادية بين البلدين .

وفى العدد نفسه مقال بقلم هنرى موندور عضو المجمع اللغوى الفرنسى عنوانه : « پول ڤاليرى ودفاتر أندريه ڤالتر » (٣) وفيه مقتطفات لم تنشر . ولا نكاد نفهم لماذا وضع اسم پول ڤاليرى أو لماذا وضع وحده فى رأس هذا المقال ، فهذه الصحف التى خصصها الكاتب لظهور الأثر الأول فى آثار أندريه جيد لا تذكر پول ڤاليرى وحده ، وإنما تذكر معه أكثر الأسماء سطوعا فى هذا العصر .

فالكاتب يقص علينا التاريخ المشوق الذى نعرف بعضه فى يوميات أندريه جيد وفى كتابه « إذا لم تمت الحبة » (٤) لتصور هذا الكتاب وإنشاءه ونشره . ويقول هنرى موندور إن هذا الكتاب الأول فى كتب أندريه جيد قد ظهر مضافا إلى اسم مستعار ولم يكد يخفى على القراء ، ونجح نجاحا عظيما إذا فضلنا قيمة التصفيق على ضوضائه .

فقد رضى عنه قبل ان يتم إنشاءه الكاتب الممتاز پيير لويس P. Louys صديق المؤلف ورفيقه فى الدرس ، فلما نشر أثنى عليه الشاعر الشاب پول ڤاليرى ، وأعجب به الكاتب الشاعر البلجيكى العظيم ميترلنك Maeterlinck وكتب إلى جيد « إن هذا الكتاب فى بعض مواضعه خالد ككتاب « الاقتداء بالمسيح » (٥) وكتاب مارك أوريل (٦) وكهذه الكتب النادرة التى تحيا حياة عضوية خاصة . . . » وكتب إلى غير المؤلف يقول : « إن هذا الكتاب أثر ممتاز لا يبارى ، ولعل له على الجملة هذه الخصائص التى لا تختص بعصر ولا يصل إليها الفناء والتى تمتاز بها روائع الأدب الفرنسى » . وقد قرظ هذا الكتاب أخيراً هنرى دى رينييه ، وريمى دى جورمون (٧) . أما پول ڤاليرى فقد اكتفى بأن يشعر المؤلف بإعجابه فى كتاب خاص وألهم ناقداً غيره مقالا قليل الحظ فى البراعة . وإذا قرأنا ما فى كتاب ڤاليرى من الاعجاب الشديد فهمنا حزن أندريه جيد لأن صديقه لم يرد أن يظهر هذا الاعجاب فى مقال يذاع فى القراء . وقد كتب جيد إليه يقول : « إنك تثير فى نفسى أسفاً شديداً أيضاً حين تحدثنى عن المقال البرىء الذى كتبه ريدونيل Redonnel وحين أوازن بينه وبين المقال الذى كنت أنت خليقا أن تكتبه ! . . . ولكنك تعرض الآن كتابة هذا المقال ... وا أسفاه إنك لتملأ نفسى أسفا » . ومن الطبيعى أن جيد كان يود

(١) André Gide, *Œdipe*.

(٢) Robert Guiette, *Les relations littéraires*.

(٣) Henri Mondor, *Paul Valéry et Les cahiers d'André Walter*.

(٤) *Si le grain ne meurt*.

(٥) *L'Imitation de Jésus-Christ*.

(٦) Marc-Aurèle.

(٧) Henri de Régnier et Rémy de Gourmont.

لو يقرأ الجمهور هذا الثناء الجليل الذى كتبه إليه بول ڤاليرى : « وفى كتابك يمكن أن يتصر أنه يجب أن نبتكر، يجب أن نحب، يجب أن نؤمن » . والخلاصة أن قيمة هذا المقال الذى لا يخلو من بعض الاختلاط أنه يصور لنا أولية كاتب ممتاز، وينشر لنا مقتطفات خطيرة لم تكن معروفة من قبل الآن .

واقرأ فى العدد نفسه مقالا عن «فوست» لبول ڤاليرى بقلم ا. رولان دى رونيڤيل (١) ونحن نعلم أن القصة تنحل آخر الأمر إلى قصتين: إحداها «لوست» والأخرى «الوحيد» (٢) وكلتاهما نشرت قبل أن تتم، ومات الشاعر العظيم دون أن يتمهما . وهذه الدراسة تجمع بين الدقة والنفاذ والوضوح، وتمتاز بأنها تحدد الصلة بين هذا الأثر الأدبى وشخصية الكاتب تحديداً . واقرأ ما يقول صاحب البحث : « لقد استكشف ڤاليرى هذا التشابه بين موقفه الخاص من هذه القوة الخفية المظلمة الملتومة لضمير الانسان والتى كان يريد أن يظهرها للعقل واضحة، وبين موقف فوست فى جهاده لما نسمه فى لغتنا الحديثة بالضمير اللاشعورى . وقد صور جوته Gœthe هذا اللاشعور فى صورة أسطورة سماها مفيستوفيليس Mephistophélès . وقد ألح هذا الاستكشاف على ڤاليرى حتى اختار الأشخاص البارزين فى قصة جوته واستعارهم ليشرح جهاده، بحيث أصبحت هاتان القصتان اللتان انشئتا ونشرتا فى آخر حياة المؤلف ولم تتم واحدة منهما أشبه شىء بالاعتراف والحكم الأخير على حياته وإنتاجه . »

«مجلة باريس» La Revue de Paris أكتوبر ١٩٤٦ .

وهذا العدد يحدثنا أيضاً عن بول ڤاليرى فى صفحة من يوميات شارل دى بوس (٣) فقد زار بول ڤاليرى فى يوم الثلاثاء ٣٠ يناير سنة ١٩٢٣ ويروى لنا الكاتب ما دار بينهما من الحديث فى ذلك المساء . ولسنا فى حاجة إلى أن نبين المتعة التى يجدها القارئ لحديث بين صديقين أحدهما شاعر «المقبرة البحرية» (٤) فكل سطر من هذا الحديث يزيد فى علمنا بالشاعر وتقديرنا لتفكيره . فقد حاول دى بوس أن يقيسه إلى ملارميه Mallarmé فيتخلص ڤاليرى من هذه الموازنة قائلا : « على أن هناك فرقاً آخر بين ملارميه وبينى، فقد كان هو يرى أن الأدب هو كل شىء . » ، وكلمته المشهورة : « إن العالم كله إنما خلق لينتهى إلى كتاب ممتع » تصوره تصويراً صادقاً . أما انا فلم أر فى الأدب قط هذا الرأى ولم أضعه قط هذا الموضع من الجد » . ويضيف دى بوس : « إن ڤاليرى نموذج الفيلسوف كما يراه جروتويزن Grœthuysen : « رجل لا يهمل العالم أبداً » (٥) فليست الحياة وليس الانسان، بل ليس الأدب والفن تكون الوحدة عنده، وإنما الوحدة عنده هى العالم أو بعبارة أصح القوانين التى يستنبطها العقل منه . »

ولندع هذا الميدان الصارم ميدان الفلسفة إلى ميدان آخر أشد منه ابتهاجا وليس أقل منه خصباً، وهو ميدان الموسيقى والموسيقيين . فنحن نقرأ فى هذا العدد صفحات جميلة عن الحياة فى باريس أثناء القرن الثامن عشر .

(١) Rolland de Renéville, *Le Faust de Paul Valéry.*

(٢) *Lust* et *Le solitaire.*

(٣) Charles du Bos, *Pages de journal.*

(٤) *Le cimetière marin.*

(٥) *Ein Mensh der nie die Welt vergiesst.*

وهى «مذكرات الشوفالييه كريستيان دى مانليخ Christian de Mannlich وهو ألمانى ولد فى ستراسبورج وقد كتب مذكراته بالفرنسية « تظرفا » كما يقول ناشر هذه الصحف . وهذه المذكرات التى تنشرها « مجلة باريس » تقص علينا حياة للوسيقى الألمانى جلوك Gluck فى باريس وكان يعيش مع مانليخ تحت سقف واحدوقد اشتهر بقصته الموسيقية «ايفيجينى» Iphigénie وامتاز بقصته الموسيقية الاخرى « أورفيه » Orphée وهو إنما وفد على باريس لينشئ هاتين الآيتين . والكاتب يقص علينا فى فصاحة باريسية وجد ألمانى كيف كان هذا الفنان يعيش فى الجماعة الباريسية، وكيف كانت هذه الجماعة تلقى الحيوية الهائلة التى كان يمتاز بها «الأب جلوك» . وقد تلقى الأستاذ بمناسبة قصة « أيفيجينى » هذه الرسالة التى سحرته عباراتها كما سحره إمضاؤها :

« سيدى الشفالييه

لقد شهدت تجربة قصتك « إيفيجينى » فعدت مسحوراً ؛ فقد حققت ماكنت أعتقد إلى الآن أنه مستحيل . فتقبل تهنئتى الخالصة وتحياتى المتواضعة .

باريس فى ١٧ أبريل ١٧٧٤

جان جاك روسو »

وكانت السوق السوداء رائجة فى ذلك العهد ؛ فقد بيعت تذاكر الاوبرا فى طرفة عين ولكن الذين اشتروها باعوها بعد ذلك بثلاثة أمثال قيمتها فى الشوارع والقهوات! والحديث كله يكاد يكون معاصراً وإن كان فيه من الماضى عطر شائق .

واقرأ فى هذا العدد مقالا رائعاً لمارسيل تيبيو Marcel Thiébaut عنوانه : « بين الكتب » وكان أحرى أن يكون العنوان : « بين الكتب الامريكية » . تحدث فيه حديثاً ممتعاً عن « القصاص الواقعيين » ارنست هيمنجوى ، وهنرى ميلر Ernest Hemingway et Henri Miller وعن « الكتاب المؤدبين » بيتى سميث Betty Smith وويلا كاثر Willa Cather ووليام سارويان Saroyan William .

كما يسمى أولئك وهؤلاء بهذين الاسمين موريس كواندرو « موجز عن الأدب الامريكى » (١) .

واقرأ هذه النتيجة التى يختم بها الناقد مقاله القيم : « نشعر بأن هذه الآداب التى لم تتصل جذورها بالأدب التقليدى قد نشأت من تصادم الشعوب فى عصر السرعة والكوكتيل والسينما ، فهى ماشأة لتعجب الذين يحبون الألعاب الرياضية العنيفة، أنشأها قوم علموا أنفسهم وهم مع ذلك موهوبون فينقصها فى كثير من الأحيان القصد والذوق . وهؤلاء القصاص كما هم يتفوقون على زملائهم الاوربيين بالقوة والخيال ... فخصبهم يسحرنا ولكن نأمل أن يتيح لهم تقدم الزمن أن يرسلوا إلى قرائهم رسائل لاتفقد طرافتها ولكنها تحوى شيئاً من الفائدة . »

مجلة « كاييه دى سود » *Les Cahiers du Sud* المجلد الثانى سنة ١٩٤٦ .

خير ما فى هذا العدد صفحاته الأولى لسببين : الاول أن القارئ يجد فيها ثروة عظيمة . الثانى أنها تروى لنا نصوصاً أدبية لها قيمة استثنائية . وعنوان هذه الصفحات « الدم الأسود » . وقد فهمت بالطبع من هذا العنوان أن النصوص كلها منسوبة إلى السود سواء نسبت إلى جماعات معروفة أو إلى أشخاص بارزين أو كانت شعبية ليس لها مصدر معروف . وهذه

(١) Maurice Coindreau, *Aperçus sur la littérature américaine.*

النصوص مرتبة على النحو الآتى : نصوص إفريقية ، نصوص أمريكية من البرازيل والانتيل Antilles والولايات المتحدة . وبين النصوص الافريقية قصيدة أنشأها بالفرنسية الشاعر الاسود ليوبولد سيدار سانجور عنوانها « آه ، النسيان . . . » (١)

واقرأ منها آخرها فقط :

« فى الدفء التى لهذا الربيع أريد أن أعتقد أنها تنتظرنى هذه العذراء كأن أديمها الحرير الأسود . »

واقرأ لبعض السود الامريكيين هذا الشعر القصير الذى يمزق القلوب :

القمح نزرعه والذرة نعطاها
الخبز ننضجه والكسرة نعطاها
الدقيق ننخله والنخالة نعطاها
وعلى هذا النحو يسخر منا
اللبن نمخضه والفضلة نعطاها
مع هذه الكلمة «هذا كاف للسود !»

من لندن

« The Geographical Magazine المجلة الجغرافية » أكتوبر ١٩٤٦ .

مع أن هذه المجلة متخصصة للجغرافيا كما يدل اسمها على ذلك ، فهى تقدم لنا مقالا لا يقتصر نفعه على المختصين بهذا العلم وحدهم . موضوع هذا المقال آثار مستكشفة سنة ١٩٣٩ تعرض الآن فى المتحف البريطانى . وقد استكشفت هذه الآثار فى ساتون هو Sutton Hoo وهى ودبريدج الآن Woodbridge حيث وجد قبر يرجع تاريخه إلى منتصف القرن السابع ، للمسيح . وهذا القبر (وكان خاليا من الجثة) يصور سفينة . يصفه صاحب المقال س . و . فيلبس م. ا. ف. س. ا. C.W. Phillips, M.A., F.S.A. وصفا دقيقا كما يصف الاشياء التى وجدت فيه . وهذه الصورة من صور القبور قد يظن القارئ غير المختص أنها من آثار قرصان اسكانديناڤيا Vikings نظراً لأمثالها المشهورة التى وجدت فى النرويج وفى غيرها والتى يرجع تاريخها إلى القرنين التاسع والعاشر بعد المسيح ، ولكنها أقدم جداً من ذلك ، وأقرب جداً إلى الشعب الانجليزى ، ولكن الكاتب لا يفسر هذا تفسيراً مطولا .

وبعد ملاحظات تاريخية يعود الكاتب إلى موضوع مقاله ويعلل خلو السفينة من الجثة بفرضين : فاما أن يكون صاحب القبر قد هلك فى البحر ، وإما أن يكون قد هلك فى موقعة لم يمكن العثور بعدها على جثته .

ولكن الأشياء التى وجدت تدل فى وضوح على أنه كان من أهل الطبقة الممتازة . وهذه الأشياء ترجع إلى أصول مختلفة ، بعضها يأتى من السويد ، وبعضها يأتى من بلاد الغال فى العصر الميروڤنجى ، وبعضها يأتى من البحر الأبيض المتوسط ومن شرقه بوجه خاص.

واختلاف هذه الأصول يتيح للمؤلف ملاحظات قيمة حول العلاقات بين انجلترا

(١) Léopold Sedar Senghor, *Ah! oublier...*

والعالم الخارج فى ذلك العصر البعيد » .

وهو يختم مقاله بهذه النتيجة : « وكذلك يلتقى القديم والجديد فى قبر ساتون هو . فالآثار السويدية التى وجدت فيه كانت بقايا عصر بربرى بعيد ، والآثار التى جاءت من بحر الروم وإن تكن متواضعة القيمة تحمل رسالة مستقبل أقرب إلى الحضارة . »

مجلة « العالم اليوم » *The World Today* : أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

اقرأ فى هذا العدد مقالا قيما نفاذاً بامضاء (د . م . ب) يحاول أن يشق لنا طريقاً فى هذه الغابة الملتوية التى تصور الحياة السياسية فى فرنسا اليوم ، وعنوانه « الأحزاب والدستور فى فرنسا » .

وقد كتب هذا المقال قبيل الاستفتاء الثانى . فاذا قرأناه الآن بعد أن تم الاستفتاء ووضع الدستور وجرت الانتخابات دهشنا لنفاذه وخيل إلينا أنه كان متنبئا . وهو يبدأ بعرض صحيح لمصاعب الحياة السياسية الفرنسية : « لم يكن بد من أن تكون الحياة شاقة فى ظل الحكم المؤقت ، ولكن انتخابين عامين فى سبعة أشهر مع انتظار انتخاب ثالث فى شهر أكتوبر ، أى ثلاثة انتخابات فى عام واحد ، كل هذا جعل العصر معركة انتخابية مستمرة ، يزيد فى مرارتها تنافس الأحزاب الثلاثة المتعادلة القوة فى الحكومة . ففى هذه الظروف لم يكن محيص من أن تصبح مواد الدستور نفسها أسلحة الجهاد » .

ثم يعرض الكاتب الأحزاب المختلفة ومواقفها من الدستور المقترح . ويوجز فى دقة وإتقان موقف الجنرال دى جول وما نتج عنه من رد الفعل ويقول : « إن هذا الموقف مضافا إليه هجوم الجنرال دى جول على الشيوعيين وإلى شكوك اليساريين فى مطامعه السياسية قد يعيد إلى الشيوعيين بعض المترددين الذين هموا أن يتركوهم نفورا من سياستهم التى تسرف فى انتهاز الفرص ، ولكنه بوجه عام سيزيد حدة الخلاف بين اليمين واليسار ، وقد يقوى جداً أحزاب اليمين » .

ثم يختم (د . م . ب) فى كثير من الاصابة : « ومن الواضح أن هذا المشروع الجديد للدستور سنأتى قيمته من روحه وتطبيقه أكثر مما تأتى من نصوصه ، كما هى الحال بالقياس إلى الدساتير كلها » .

مجلة « القرن التاسع عشر ومابعده » *The Nineteenth Century and After* أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

نجد فى فهرست هذا العدد عنوانين يلفتاننا « الفرنسيون فى كندا » بقلم جيمس كير James Kerr « ومعرض الكتب » . ومقال جيمس كير عن كندا قصير ممتع فيه ثناء على الذين ورثوا الفاتحين الأولين لكندا ، ويقدم إلينا معلومات قيمة عن النظام والحياة فى إقليم كيبك . وهو يعرض علينا فى أول مقاله السبب الذى دعاه لكتابة هذا المقال « فالكندى الانجليزى المتوسط يعتقد أن هناك علاقات مازالت قائمة بين وطنه وبين انجلترا ، ويود لو يرى الكندى الفرنسى يشاركه فيما يكن من الحب والاكبار لمركز الامبراطورية على حين يعتقد الفرنسيون أن الكندى الفرنسى يجب أن يفكر فى فرنسا ، وهم واثقون بأنهم لن يجنوا من ذلك إلا خيراً . أما الكندى الفرنسى نفسه فلا يفكر فى فرنسا ولا فى انجلترا ، وإنما ينظر إلى ماحوله ويذكر غناء آبائه : « أى كندا وطنى موضوع حبى » (١) . فاذا نظرنا نحن

(١) « O Canada, mon pays, mes amours. »

إلى ما حـوله لم تدهش لهذا الشعور . »

وكذلك يقودنا جيمس كير فى سياحة فى كندا الفرنسية ، لاعيب لها إلا أنها قصيرة .

أما « معرض الكتب » فيعرض لنا الكتاب الذى خصصه هارولد نيكلسون Harold Nicolson لمؤتمر فيينا ۱۸۱۲ — ۱۸۲۲ . يقول كاتب المقال ج. هولتون J. Holton معتمداً على المؤلف نفسه : « موضوع هـذا الكتاب الذى أصدره المؤلف أخيراً ، ووصفه فى تواضع هو تسجيل ما كان من تجمع ثم تفرق ثم تجمع . . . فهو ليس تاريخـاً عسكرياً ، وإنما هو امتحان لما مضى من الأحداث التى أثارت ويمكن أن تثير الاختـلاف بين الدول المستقلة حين تأتلف ائتلافاً مؤقتاً لضرورة ما . »

ولكن الناقد يرى أن الكتاب يتجاوز الحدود المتواضعة التى رسمها له المؤلف فيقول : « إنه كتاب نافع جداً الآن ؛ إذ تردد الشئون الدولية صدى ما يكون من تصادم للمنافع بين الدول الكبرى وما يكون من اختلاف الأحداث التى تنشأ عن تفاوت الأوربيين فى الفهم والتقدير ، وصدى هذه الحروب التى لا تفصلها إلا أعوام قليلة تسمى أعوام سلم . فالمؤلف يكشف لنا فى أسلوبه الحى البسيط عن مناظر رائعة لمواقع ثلاث ، ولمفاوضتين أوليتين ، ولثلاثة أنواع من الصلح ، وخمسة مؤتمرات . »

وعلى الرغم من تأكيد المؤلف أن « التاريخ لا يعيد نفسه » فان قراءة كتابه تكاد تثبت عكس هذا الرأى ، بل تكاد تثبت أنه « إنما ألف كتابه متأثراً أشد التأثر بالأحداث المعاصرة » . ثم يحاول ج. هولتون أن يستق من الكتاب أمثالا يقارب بها بين عصر مؤتمر فيينا وعصرنا الحاضر، وبين سياسة الطمع لبعض الأمم إذ ذاك ومطامع هـذا البعض الآن .

« مجلة الحياة والأدب » Life and Letters أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

تقرأ فى هـذا العدد دراسة قيمة دقيقة الاستقصاء بقلم جاك ليندسيه J. Lindsay عنوانها « الآلهات المشنوقات » وهى تتصل بالأساطير وبالأساطير اليونانية خاصة . والكاتب يستقصى شئون الذين ماتوا شنقاً من اليونانيين فى عصر الأساطير . فيستعرض أحداث هذه الظاهرة التى يمكن أن نسميها — إن جاز لنا أن نمزح حول هذا الموضوع الخطير — مركب الحبل . فهناك الحبل الذى علق به أوديب من رجليه إلى شجرة على جبل كيتيرون Cithéron وهنـاك الحبل أو الخيط الذى استخدمته أريان Ariane لتقود به تيسيوس Thésée فى اللابيرانت ثم لتشنق نفسهـا به . . . الخ .

وعلى كل حال فان القارئ الذى يعنى بدرس الأساطير اليونانية يجد فى هذه الدراسة ملاحظات قيمة يستطيع الاخصائيون وحدهم أن يقدروا قيمتها العلمية .

وفى معرض الكتب من العدد نفسه يلقى ماكس شابمن Max Chapman هذا السؤال فى أول نقـده لكتاب رينير ماريا ريلكه Rainer Maria Rilke عن رودان Rodin : « أقادرون نحن على أن نقوم أثر الفنان بعد أن نحلل النظرية الفنية التى أنشأته؟ » يجيب الناقد على هذا السؤال : « لا ، لأن النظرية إذا كانت أساسية بالقياس إلى الفنان لتحقيقها الصلة بين فلسفته الخاصة وبين الصور الخارجية التى يتخذها مادة لفنه ، فقيمتهـا بالقياس إلى الذى يقوم الآثار الفنية تنتهى عنـد إشعاره بأن لها أثراً خفياً فى قيمة العمل الفنى . فالمهم هو الأثر الفنى نفسه ، بل من الممـكن أن يقبل الأثر وتنكر النظرية التى أنشأته » .

وأهم ما يجعل لهذا الكتاب قيمة ذات

خطر ان « هذه الصورة كغيرها من الصور (إشارة إلى صورة بلزاك Balzac التى صورها رودان) هى على الأقل صورة للفنان نفسه إلى جانب تصويرها لبلزاك ، بحيث يمكن أن تقسم بينهما نصفان . وكذلك يرجع إلى هذا الكتاب التحقق من خصائص مؤلفه الشاعر كما يرجع إلى صورة بلزاك للتحقق من شخصية رودان » .

أمينة طه حسين

يوسف كرم
مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

كتاب يقع فى ٢٦٨ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ مليما وللخارج ٦٨ مليما)



مطبعة الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية

مجلد ٤ — عدد ١٦ يناير ١٩٤٧

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

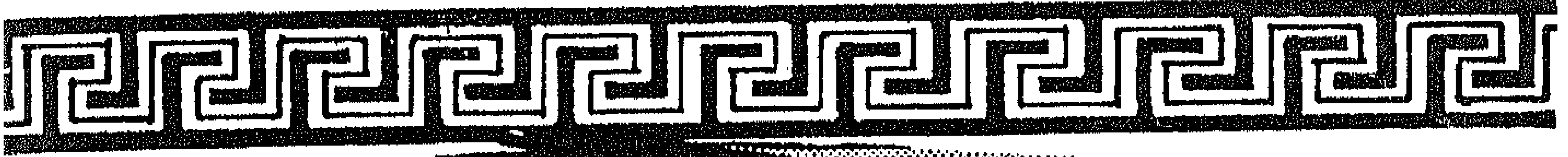
فهرس

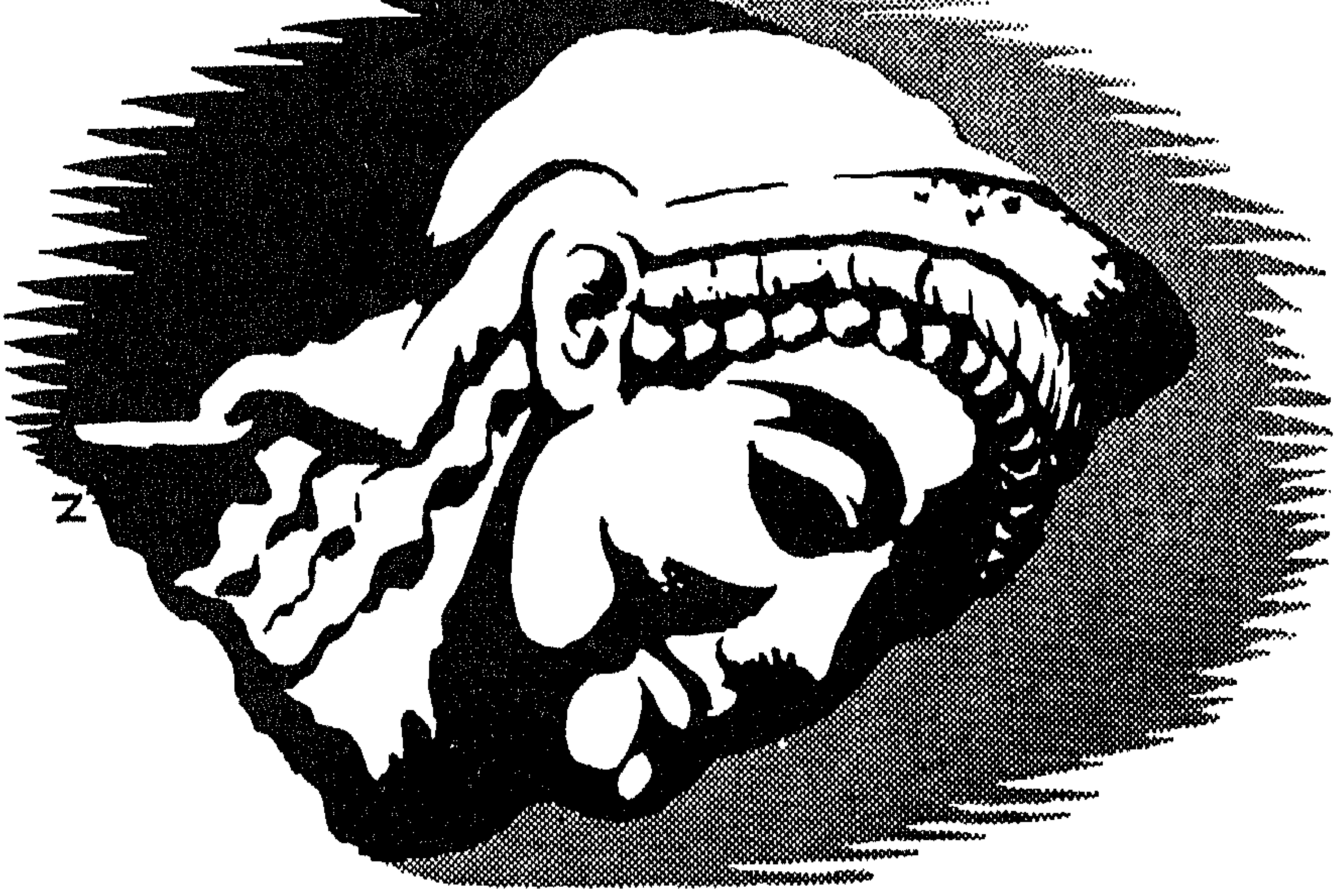


تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة







يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

كتاب يقع فى ٢٦٨ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ مليما والخارج ٦٨ مليما)



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصري



صـــفر ١٣٦٦ — ينـــاير ١٩٤٧

السـنة الثانيـة — مجلد ٤ — عدد ١٦

ما وراء النهر (١)

والقراء بالطبع ينتظرون أن أرقى وأن يرقوا معى فى صحبة الشاعر إلى القصر لنرى صاحبه العظيم فى مكتبه ذاك الذى اتخذه لنفسه سجناً منذ آخر الليل. ولـكنى لن أفعل، ولن يفعلوا؛ فهم لا يستطيعون أن يدخلوا القصر، ولا أن ينظروا إلى أبهائه الفخمة وأثاثه المترف الجميـل، إلا إذا أتحت أنا لهم ذلك. فالربوة كلها بما عليها ومن عليها، والقصر كله بما فيه ومن فيه، سر من أسرارى أبيح منهما للقراء ما أشاء، وأخفى منهما على القراء ما أشاء، ليس لهم أن ينازعوا فى ذلك أو ينكروا منه شيئاً. وقد أزمعت ألاّ أرقى معهم إلى القصر، ولا أبقى معهم على الربوة استجابة لأصل من أصول الفن كما أراه أنا، لا كما يراه النقاد. فلو قد رقيت معهم إلى القصر أو بقيت معهم على الربوة لاتصل الحديث اتصالا يوشك أن يكون مملاً؛ لأنه يضطرب بهم وبى فى هذه الحديقة الفيحاء، وهذا القصر الفخم، بين ألوان من الترف وفنون من الحياة الناعمة، قد يكون وصفها رائعاً، وقد يكون العيش فيها، ولو أثناء الأحلام وفى ظل الخيال، محبباً إلى النفوس، ولـكنه يُمـِلّ إذا اتصل ويسأم إذا طال. وليست الحياة ترفاً كلها ولا زينة كلها، وليس العيش الواقعى أو الخيالىّ يكسب قيمته من البهجة التى يسبغها الجمال على هذا المنظر او ذاك من منـاظر الطبيعة، وعلى هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الناس. فلهذا كله قيمته، ولـكن للقبح قيمته أيضاً، وهى ليست أقل من قيمة الجمال شأناً ولا أهون منها خطراً، ولعلها أن تكون أدعى

(١) الـكاتب المصرى عدد ١٤ و ١٥ (نوفمبر — ديسمبر ١٩٤٦).

إلى المنفعة ، وأبلغ أثراً فى إصلاح النفس ، وتقويم الخلق ، وتصويب الحكم على الأشياء . ولست أدرى ! هل تعمق ابن المعتز معناه ذاك الذى أوجزه فى البيتين المشهورين :

قلبيَ وثابٌ إلى ذا و ذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغى ويرحم القبح فيهواه

ولكن الشئ المحقق أن القبح خليق أن يعشق وأن تصبو إليه النفوس ، وتقف عنده العقول ، ويستقصى دقائقه الكتّاب والمفكرون . وما أظن أحداً يجادل فى أن نصيب القبح من حياة الناس أعظم من نصيب الجمال ، كما أن نصيب البؤس من حياتهم أعظم من نصيب النعيم . فالكتّاب الذين يُعْنَوْن بالجمال والنعيم وحدهما ، ويُعرضون عن القبح والبؤس ، إنما يعنون بأيسر الحياة ويعرضون عن أكثرها ؛ فهم يعلمون ويعلمون الناس ظاهراً من الأمر ، وهم يجهلون ويجهلون الناس بحقائق الأمور وبواطنها .

وأنا بعد هذا كله لا أريد أن أصرف نفسى وأن أصرف القراء عن جمال الربوة والقصر ؛ لأنى كلفٌ بالقبح مشغوف بالبؤس ، وأريد أن أشرك القراء فيما أجد من كلف وشغف ؛ وإنما هى طبيعة الأشياء ومنطق الفن وضرورة الحياة ، كل أولئك يقتضينى أن أدع الربوة وقصرها حيناً ، وأن أصحب القراء إلى مكان ليس له حظ من جمال ، وليس لأهله نصيب من نعيم .

فقد رأينا فيما مضى من هذا الحديث أن هذه الربوة الرائعة لا تقوم وحدها على شاطئ النهر ، وإنما تقوم فى أسفلها قرية بائسة وضيعة يعيش فيها قوم بائسون متضعون . فهذه القرية لم تنشأ عبثاً ، ولم تقم فى أسفل الربوة بغير غاية ، وإنما هى مكملة للربوة . وإن شئت فقل إن الربوة مكملة لها ؛ فقد اختلط الأمر على حقّاً ، فلست أدرى أيهما يتم صاحبه ، أيهما الأصل وأيهما الفرع . فهذه القرية هى التى تستغل الأرض وتستثمرها ، وتستخرج منها هذه الثروة الضخمة التى تتيح لأهل الربوة أن ينعموا وأن يترفوا ، وأن يستمتعوا بهذه الحياة الحلوة الفارغة ، وتتيح للربوة نفسها أن تزدان بجمالها هذا الرائع الخلاب . فلولا أهل القرية البائسون ما ارتفعت الأشجار فى السماء ، ولا انبسطت الأزهار فويق الأرض ، ولا انتشر العشب على هذه الأرض كأنه البسط من السندس والحرير ، كما

يقال، ولا أتيحت لأهل الربوة هذه الصغائر التوافه اليومية التى لا تستقيم بدونها حياة للمترفين وغير المترفين . فالقرية إذن هى الأصل، وليست الربوة إلا ثمرة من ثمراتها وأثراً من آثارها . ولكن واقع الأمر الاجتماعى غير هذا كله ؛ فقد استقر فى نفوس أهل الربوة، أنهم السادة المالكون، وأن أهل القرية هم العبيد المملكون، كما استقر ذلك فى رءوس أهل القرية أنفسهم، وكما استقر ذلك فى القوانين المكتوبة والنظم الشائعة . فأنا إذن معذور إذا اختلط الأمر علىّ فلم أدر أتكون الربوة أصلا والقرية فرعاً، كما يريد النظام وتريد القوانين، أم تكون القرية هى الأصل والربوة هى الفرع، كما تريد الحقائق الثابتة التى لا يبلغها جدال أو نزاع . وإذا كان غنى زيد يكون لفقر عمرو، كما يقول أبو العلاء، فقد لا نخطئ إذا عكسنا القضية وقلنا إن فقر عمرو يكون لغنى زيد . وسواء أكانت القرية أصلاً أم فرعاً، فإنها قد وجدت فى أسفل الربوة، ولم توجد عبثاً . فلا بدّ من أن نهبط إليها وإن كرهنا ذلك، ولا بد من أن نقيم فيها وإن شق علينا هذا المقام . وأنا أريح القراء من مشقة هذا الهبوط، فلا أسلك بهم تلك الطريق العريضة الطويلة التى تزدحم فيها السيارات مصعدة ومصوبة، ولا أسلك بهم هذه الطريقة الضيقة التى يزدحم فيها الفلاحون على أقدامهم وعلى دوابهم مصعدين ومصوّبين، وإنما أبلغ بهم القرية من غير طريق ؛ لأنى أريد ذلك وأستطيعه ما دام الأمر إلىّ، لا إلى أهل الربوة، ولا إلى أهل القرية ؛ ولا إلى القراء . فالكتّاب قديرون على شئ كثير إذا لم يفرضوا على أنفسهم ما يحبُّ النقاد أن يفرضوا عليهم من القواعد والأصول .

نحن إذن فى القرية فى زُقاق ضيق جداً لا يكاد يتسع لسعى اثنين أو ثلاثة إلا أن يتقدم بعضهم بعضاً شيئاً ما، لتجد أقدامهم موضعها من الطريق . والزقاق قذر أبشع القذارة وأشنعها، ترى العين فيه كل ما تكره، ويشم الأنف فيه كل ما يكره . قد عاش أهله عيشة البؤس والضر والإهمال، لم يُعْنَوا بصحتهم لأن أحداً لم يعلمهم أن الصحة شىء يعنى به الناس . ولم يعنوا بنظافتهم لأن أحد لم ينبئهم بأن النظافة شىء يستحب ولأنهم لو أحبُّوا النظافة والتمسوها لما وجدوا إليها سبيلاً، قد قصرت أيديهم عن وسائلها وأدواتها قصوراً تامًّا ؛ فهم يعيشون كما يستطيعون ؛ قد اختلط رجالهم ونساؤهم وأطفالهم وحيوانهم ودواجنهم اختلاطا بشعا بغيضاً . وقد رأيت ما ينشأ عن هذا الاختلاط من الشر والنكر والفساد .

وفى أعماق هذا الزقاق دار منخفضة ليست عظيمة السعة ، ولكنها على كل حال أوسع مما يجاورها من الدور قد انخفض بابها فلا يستطيع الإنسان أن يدخلها معتدل القامة إلا أن يكون قزما أو طفلا ، فأما إذا تجاوز القصر إلى شيء من الطول فلابد له من أن ينحنى ليلج من هذا الباب . وهو إذا تخطى عتبة الدار وجد نفسه فى فناء له شيء من عمق قد ارتبط فيه حمار وانطلقت فيه دجاجات ، وارتفعت فى بعض جوانبه مصطبة صغيرة ضيقة ، جلس عليها رجل قد تقدمت به السن وأدركه الضعف ، وكاد سمعه يثقل فهو لا يفقه ما يلقى إليه من حديث إلا أن يرتفع به الصوت ، وكاد بصره يذهب فهو لا يرى إلا أقرب الأشياء إليه ولا يراه إلا فى قليل من الوضوح . وبين يدى هذا الرجل نعال قديمة قد تخرقت وأدركها البلى ، وقطع من الجلد الرقيق والغليظ وأدوات يعمل بها فى هذا الجلد وفى تلك النعال . وهو مطرق إلى جلده ونعاله وأدواته ، تعمل يداه أحيانا فى ترقيع نعل أو إصلاحه وتكفان عن العمل أحياناً ولكنهما لا تسكنان حين تكفان عن العمل وإنما تعبثان بما أمام الرجل من جلد ونعال وأدوات .

وقد يأخذ الرجل قطعة من الجلد بكلتا يديه يشدها إلى يمين ويشدها إلى يسار ، وقد يضع طرفا من أطرافها فى فمه كأنه يريد أن يقضمها ، وهو لا يريد قضما ولا التهاما ، وإنما يريد أن يمتحن متانة الجلد ، فهو يمسك طرفا منه بما بقى من أسنانه ، ويمسك طرفيه الآخرين بيديه ، وهو يشد إلى هذه الجهة وإلى تلك ليستيقن أن هذا الجلد متين صالح لترقيع هذه النعل أو تلك . والرجل فى أكثر أحواله صامت كالمتكلم ومتكلم كالصامت ، لا يوجه إلى أحد حديثا ، ولا يكاد يجيب إن وجه أحد إليه الحديث ، ولكنه على ذلك متحرك الشفتين دائماً متقلب اللسان فى الفم دائماً ، يغمغم بألفاظ لا يسمعها إلا هو والذين يدنون منه أشد الدنو . وهذه الألفاظ غامضة مختلطة ؛ فهو أحيانا يتحدث إلى جلده ونعاله يصف رثاثتها ومتانتها وحاجتها إلى الرتق والإصلاح ، وأحياناً يتحدث إلى أدواته يصف مضيها وكلالها وعجزها وقوتها ، وأحياناً يتحدث إلى نفسه فينشد محفوظات له من هذا الشعر العامى الذى تجرى به الألسنة وتسير فيه الحكم والأمثال . وعن يمينك وشمالك إذا تجاوزت عتبة الدار حجرتان ليس باباهما أقل انخفاضاً من باب الدار ، ولعلهما أن يكونا أدنى منه إلى الأرض . فإذا دخلت إحدى هاتين الغرفتين لم تجد فيها إلا حصيراً قد ألقى على الأرض ، وصندوقا حقيراً قد وضع فى زاوية من

زواياها ، وجماعة من هذا الخبز العريض الرقيق المستدير قد رص بعضها إلى بعض وارتفعت في زاوية من زوايا الحجرة كأنها العمود ، تأخذ منها الأسرة حين تريد أن تطعم ، وما تزال تأخذ منها والعمود ينخفض ويتضاءل ، حتى إذا دنا من الأرض عملت محبوبة صاحبة الدار على تجديده ورفعه ، فكان إعداد الذرة وإشعال الفرن إلى جانب المصطبة التي يعمل عليها الشيخ ، وانطلاق الدخان ، ويضطر الشيخ في ذلك اليوم إلى أن يأخذ جلده ونعاله وأدواته ويجلس بها على الأرض أمام الدار . فإذا دخلت الحجرة الأخرى لم تر فيها إلا حصيراً قد أُلقى على الأرض ، وأغطية رثة قد نثرت هنا وهناك . فأما إحدى الحجرتين فقد كان يأوى إليها الشيخ الإسكاف ، ولنسمه محموداً ، وامرأته محبوبة . وأما الحجرة الأخرى فقد كان يأوى إليها أبناء الدار وهم ثلاثة أكبرهم أحمد قد نيّف على العشرين وكاد يبلغ الثلاثين ، وهو فتى طُوَال مظلم الوجه قوى الجسم قليل الكلام حائر الطرف لا تكاد عينه تستقر على شيء ، ولا تراه الدار إلا حين تغرب الشمس وتتقدم الليل لأنه يعمل فى الحقول . وأصغرهم على لم يتجاوز الثانية عشرة بعدُ ، وهو صبى قد أُهمل أشد الإهمال ، يلعب إن أتيح له اللعب ، ويعمل إن أتيح له العمل ، ويسرق إن أتيحت له السرقة . وبين هذين الابنين من أبناء الدار خديجة هذه التى كادت تبلغ العشرين والتى لم يُدْرَ من أين جاءت ، ولا لأى أبويها يمكن أن يضاف جمال وجهها الرائع واعتدال قامتها الجميلة ، وهذا الخفر الحلو الذى يصدر فى دعة وهدوء وأمن عن عينيها الجميلتين ، وهذا الحياء العذب الذى يعرب عنه وجهها الهادئ المطمئن ، وثغرها الذى يريد أن يبتسم ولكنه يمتنع على الابتسام ، وصوتها الممتلئ الرخيم الذى لا يكاد يتكلم إلا همسا ، وحركاتها الرشيقة المتزنة المعتدلة التى تدل على حياة قوية دافقة وعلى حياء شديد يمسك هذه القوة أن تندفع إلى أكثر مما ينبغى .

وهذه الفتاة الناعمة الغضة التى لا تلائم هذه الدار البائسة الخشنة ، تعيش بين أبويها وأخويها عيشة صامتة أو كالصامتة ، ساكنة أو كالساكنة ، مقبلة فى أكثر الوقت على مغزلها تديره فى أناة ورفق ودعة . فإذا كان موسم الحصاد خرجت مع أترابها من بنات القرية إلى الحقول فصيّفت ، كما يقول أهل الريف المصرى ، مع المصيفات ، وعادت مع الأصيل إلى أهلها بما التقطت من الحب المنتثر فى الحقول . وإذا كان موسم القطن خرجت مع أترابها من بنات القرية ، فشاركت فى جنى

القطن ، وعادت إلى أهلها مع الأصيل ، بما يتاح لها من أجر ضئيل . وقد رآها نعيم فيما يظهر مصيّفة مع المصيفات أو جانية للقطن مع الجانيات ، فراقه منظرها الرائع فى ثيابها الرثة ، فلما أطال النظر إليها اشتد إعجابه بها ثم ميله إليها ، فعاود المرور بالجماعة التى كانت تعمل معها ، ثم حاول الوقوف إلى هذه الجماعة ، ثم حاول الحديث اليسير إلى هؤلاء العذارى ؛ وكان من شأن هذا كله أن يزيد إعجابه بهذه الفتاة وميله إليها وطمعه فيها ، وكان لحظُ الفتاة وصوتها هما اللذان وقعا من نفس نعيم أغرب الوقع وأعمقه وأعظمه فى نفسه أثراً ، حتى كتب فى دفتر يومياته يقول : « أوشك أن أظن بنفسى الجنون ؛ فإنى لا أنطلق فى الحقول ولا أتنزه فى الحديقة ولا أخلو إلى نفسى فى غرفتى إلا رأيت عيناً ساحرة فاترة تنظر إلىّ فى أناة وخفر ، فتنفذ إلى أعماق نفسى وتلذع قلبى لذعا أليماً . وأنا لا أكاد أخلو إلى نفسى فى غرفتى أو خارج غرفتى ، فى القصر أو بعيـداً عن القصر ، إلا سمعت صوت هذه الفتاة يبلغ أذنى حلواً رقيقاً رفيقاً ، ثم يصل إلى نفسى فيحدث فيها نشوة لا أشبهها بالطرب الذى تحدثه الموسيقى ، وإنما أشبهها بالنشوة التى تحدثها الخمر . لقد استأثرت هذه الفتاة بنفسى . وما أرى أن الأمر سينتهى بينها وبينى كما تعودت الأمور أن تنتهى بينى وبين أترابها من حسان الريف . »

والقراء يعفوننى دون شك من أن أصور لهم ما كان بين نعيم وخديجة من قرب وبعد ، ومن دنو ونأى ، ومن هذه المحاولات الكثيرة المعقدة التى ينسج الحب خيوطها بين المحبين فى أناة ومهل ، ثم فى اندفاع وعجل ، ثم يأخذهم فيها كما تؤخذ الطير فيما ينصب لها من الشراك .

القراء يعفوننى من تصوير هذا كله ؛ فهم يعرفونه حق المعرفة ، يقرءونه فى القصص وفى شعر الشعراء ، ويجده كثير منهم فى أنفسهم ويسمعونه فيما يدار عليهم من الحديث . وهم بعد هذا يستطيعون أن يصوروا نشأة هذا الحب بين خديجة ونعيم كما يشاءون ، لا جناح عليهم فيما يبتكرون من صور وما يخترعون من أحداث ، فكل هذا لا يعنينى ولا يعنى القصة فى كثير أو قليل ، وإنما الذى يعنينى ويعنى القصة ويعنى القراء هو أن هذين الفتيين قد وقعا فى شرك من أشراك الحب ، فاضطربا فيه قليلا أو كثيراً يحاولان أن يخلصا منه وأن يعودا إلى الأمن والحرية وفراغ البال . ولكن إفلات العاشقين من أشراك الحب ليس أقل عسراً من إفلات الطير من أشراكها حين تقع فيها . فقد كان إذن ما لم

يكن بد من حدوثه ، ونظر الفتى المترف الغنى القوى الموفور فإذا هو أسير لخديجة بنت محمود الحذّاء .

ونظرت الفتاة البائسة اليائسة المطمئنة إلى بؤسها ويأسها ، فإذا هى مولّهة بحبّ هذا الفتى ، الفتى المترف الغنى القوى الموفور . وكان الفتى يخلو إلى نفسه فيلقى نظرة من أعلى ترفه وشرفه وغناه إلى بؤس خديجة ويأسها وإعدامها ، فيأخذه شىء يشبه الدوار ، كيف هبط من أعلى عليين إلى أسفل سافلين !

وكانت الفتاة ترفع بصرها من أعماق يأسها وبؤسها وإعدامها فى دارها تلك الحقيرة الفقيرة ، إلى هذا القصر الشاهق على هذه الربوة الشامخة ، فيأخذها شىء يشبه الدوار حين تفكر فى أن الحبّ قد وثبَ بها إلى ذلك الفتى المترف الغنى القوى الموفور . ولكن الناس جميعاً يعلمون أن الحبّ لا يحتقر شيئاً كما يحتقر الرفعة والضعة ، ولا يسخَر من شىء كما يسخر من تفاوت المراتب والطبقات . وهو قد هبط بالفتى إلى الفتاة أو صعد بالفتاة إلى الفتى ! لا أدرى ولكنه جعل كلاً منهما لصاحبه سيداً وعبداً . وقد انتهى أمر هذا الحبّ إلى أبوى نعيم ، فابتسما له أول الأمر ، لم يريا فيه إلا لوناً من عبث الشباب وسخرا منه بعد ذلك ، لم يريا فيه إلا شيئاً من الجموح فى العبث ، وضاقا به بعد ذلك ، رأيا فيه غلواً من الفتى فى هذا الجموح وصارفاً له عما يليق بمثله من الطموح إلى العظيم من الأمر ، وأخذا ينصحان للفتى فى رفق ، ثم فى عنف ، ثم فى إلحاح. ولكن أبا الفتى غلا فى إلحاحه وسخطه حتى انتهى الأمر إلى ما علمت. وانتهى أمر هذا الحبّ إلى أمّ خديجة، فابتسمت له ابتساما مرًّا ، وفرحت به فرحاً حزيناً، وهمّت أن تكفّ ابنتها ، ولكن نصحها لم يغن شيئاً ، وهمّت أن تكتم الأمر على الشيخ الحذاء ، ولكن النساء لا يحببن أن يستقر فى أفواههن ، وهمّ الشيخان أن يكفّا الفتاه ، فلم لم يبلغا شيئاً تواصيا بكتمان الأمر على ابنهما الفتى لأنه كان عنيفاً مخوفاً . والأمر ينتهى إلى غايته ؛ وهذا نعيم قد فُتِنَ بخديجة إلى أبعد حدود الفتنة ؛ فهو يعدها ويمنّيها ، وهو يرغّبها ويغريها ، وهو يختطفها آخر الأمر إن صحّ أن يكون سفرها إلى العاصمة اختطافاً ؛ فهى لم تكد تدعى إلى السفر حتى استجابت للدعاء مسرعة واستعدت له متهالكة ، وارتفع الضحى ذات يوم فلم ترَ الأسرة خديجة ، وتقدّم النهار فلم تعرف من نبأها شيئاً ، وأقبل الأصيل فلم تعد معه إلى الدار ، وتقدّم الليل فلم تعد ، وإنما عاد أخوها أحمد ثائراً

يكظم ثورته ، وفائراً يكتم فورته . أقبل متجهما فلم يقل كلمة لأحد ، ولم يلق نظرة على أحد ، وإنما ألقى أدوات عمله فى مكانها من الدار ، واندفع إلى حجرة أبويه فأخذ من عمود الخبز شيئاً التهمه التهاماً وهو قائم لا يقول شيئاً ولا يردّ على أحد حديثاً . فلما التهم ما كان فى يده من الخبز ألقى نظرة غاضبة على ما حوله ومن حوله ، ثم أدار ظهره ومضى صامتا لا يقول شيئاً ولا يلوى على شئ . قالت محبوبة لزوجها الحذاء فى صوت مرتعد حزين : ما باله ؟ وما الذى عرض له من الخطب ؟ قال الشيخ فى صوت هادئ ثابت يشيع فيه الحزن والغضب معا : افتقد أخته فلم يجدها ، وترامى إليه بعض ما طوينا عنه من الحديث . قالت محبوبة : وإذن ؟ قال الشيخ : وإذن فهو يسعى فى أثر أخته ، وما أدرى ! لعله لا يعود .

والناس يتمنون ويسرفون فى التمنى ، والأقدار تعبث بهم وبما يتمنون . ذلك أن الناس لا يعرفون إلا أنفسهم وقليلا مما يحيط بهم من الظروف ؛ فهم يدبرون ويقدّرون فى دائرة ضيقة لا تكاد تتجاوزهم إلا قليلا . وآية ذلك أن نعيما كان قد دبّر أمره فأحسن تدبيره ، وقدّر خطته فأحسن تقديرها . لقد أحب الفتاة حبا لم يجرّب مثله من قبل على كثرة ما جرب من العبث واللهو والحب أيضاً ؛ فهو مصمم على أن يحدث حدثا ذا خطر وهو المترف الغنى القوى الموفور . سيهبط إلى هذه الفتاة اليائسة البائسة الفقيرة الحقيرة ، فيتخذها لنفسه زوجا ويقسم بينها وبينه ما أتيح له من ترف وشرف وقوة وثراء . وهو قد قدّر غضب أبويه وعرف كيف يستعد للتخلص من أعقاب هذا الغضب . وهو قد قدّر ما بينه وبين الفتاة من اختلاف المنزلة وبعد الأمد ، وعرف كيف يستعد لإلغاء هذه المسافة البعيدة . أليس قد اختطف الفتاة فباعد بينها وبين قريتها وبيئتها وأهلها ليخلقها فى العاصمة خلقاً جديداً ! لقد دبّر وقدّر وأحسن التدبير والتقدير ، واطمأن إلى أنه بالغ بحبه ما أراد له من الأمن والثقة ، ومن الدعة والهدوء . ولكنه لم ينس إلا شيئاً واحداً ، وهو أن لهذه الفتاة أخا فى مثل سنه ليس مترفا ولا غنيا ولا قويا ولا موفوراً ، وهو من أجل ذلك حاقد حانق ، قد ملأ السخط قلبه وملك الغيظ نفسه ، فرآه الناس إنسانا مثلهم يغدو ويروح ويعمل فى الحرث والزرع ، ورأته الطبيعة شيطاناً مريداً ينتظر أن تتاح له الفرصة ليملأ الأرض من حوله شرًّا ونكراً . وقد أتيحت له الفرصة ؛ فهذه أخته التى

كان يحبها وحدها من دون الناس ويؤثرها بقلبه كله ونفسه كلها ، قد غوت وهوت . أغواها ذلك الفتى المترف الغنى القوى الموفور . وإذن . . . وإذن ففى نفس الوقت الذى انصرف فيه نعيم عن الشاعر فرحاً حزيناً ومسروراً كئيباً ، ونهض الشاعر فيه مسرعاً يرقى إلى القصر ليلقى صاحبه فى مكتبه ذاك ، فى نفس هذا الوقت وقبل أن يصل الشاعر إلى صاحب القصر يستفيض فى القرية الحقيرة الفقيرة البائسة نبأ يملؤها خوفاً وروعا ؛ فقد لحق أحمد بأخته فى العاصمة وقتلها وأسلم نفسه للشرطى معترفاً بأنه اقترف هذا الإثم دفاعاً عن عرضه المكلوم .

فلندع القرية تتسامع بهذا النبأ وتتبادل الحديث فى تفسيره وتأويله ، ولندع الأبوين وقد أخذتهما الصاعقة حين أتاها هذا النبأ ، ولنعد مسرعين فنصعد إلى الربوة من أقصر الطرق المؤدية إليها ، فسنرى الشاعر قد ارتقى سلم القصر . ولم يكد يبلغ البهو الأول من أبهائه حتى رأى نفسه فى مرآة هناك ، ورأى أنه معتدل القامة يمشى على اثنتين ، فما أسرع ما ينحنى على العصا ، وما أسرع ما يدور فى رأسه هذا البيت كأنه يسمعه من صاحب القصر :

وتقول بوزع قد دببت على العصا . هلاّ هزئت بغيرنا يا بوزع

يتبع] طه حسين

مشكلة الهند

تنص المادة ٧٦ من قانون هيئة الأمم المتحدة — وهى المادة الخاصة بنظام الوصاية — على : « أن تكون الأهداف السياسية لنظام الوصاية هى ترقية هذه الأقاليم وشعوبها فى النواحى السياسية . . . واطراد تهيئتها للحكم الذاتى أو للاستقلال . . . » وفى الماضى القريب نصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الأمم على : « أن يكون الغرض الأساسى من الانتداب سعادة الشعوب المحكومة وترقيتها ، حتى تستطيع هذه الشعوب النهوض بنفسها والوقوف على قدميها » .

وفى الحالتين لم تشأ الدول أن تنص على أقصى زمن تستغرقه الشعوب المقول بأنها قاصرة فى اجتياز مرحلة الانتداب أو الوصاية أو الحماية أو الاستعمار . فقد ظلت انجلترا مثلا تحكم فى الهند — إما حكما مباشراً أو بواسطة شركة الهند الشرقية الإنجليزية — نحو قرنين من الزمان ؛ ومع ذلك فها هى ذى انجلترا اليوم وقد أملت عليها الظروف ضرورة تسليم أهل الهند زمام الحكم فى بلادهم ، تتلفت يميناً ويساراً باحثة بدون جدوى عن الهيئة التى أعدتها للحكم والاستقلال ، فلا ترى أمامها ولا يرى العالم كله فى الهند سوى طوائف تقتتل ، ومعارك شعبية تستعر ، وشيع وجماعات متنافرة متطاحنة تكاد من عنف انقسامها على نفسها تجر البلاد وأهلها إلى حرب أهلية جامحة لاتبقى ولا تذر .

وتسأل عما فعلته الحكومة المتفوقة طوال هذين القرنين ، فيكون جواب بعضهم أنها سياسة « فرّق تسد » التى سارت عليها حكومة المستعمرين ، ويقول آخرون إن الذنب ليس ذنب الحاكم وإنما هو ذنب الهنود أنفسهم ؛ فهم بحكم اختلاف أجناسهم ولغاتهم ومللهم لايصلحون للحكم القومى الموحد . وقد يكون بعض هذا أو ذاك صحيحاً ، ولكن الشىء المؤكد الذى يؤيده الواقع

هو أن الحاكم الأجنبي مهما خلصت نياته واستنارت سياسته، ومهما أوتى من الاستعداد الادارى والفنى، فإنه ينساق حتما بحكم المنطق وبقوة غريزة الأثرة والدفاع عن النفس إلى قمع الروح الوطنية أو القومية فى البلاد التى يحكمها، وإرجاء إصلاحها سياسيًّا، حتى يرغم على ذلك إرغاما، إما بالثورة من جانب المحكومين، وإما انصياعا لعوامل القلق على مصيره فى أوقات الحروب أو حين يستشعر خطر الحرب.

ولقد كانت الفكرة المتسلطة على الحكومات المستعمرة إلى زمن قريب أنهم ماداموا قد سبقوا غيرهم من الشعوب الضعيفة فى ميدان الانقلاب الصناعى، وتفتحت أمامهم سبل التجارة والاستعمار فى أرجاء آسيا وإفريقية، فإن تفوقهم فى تلك البلاد لابد أن يبقى إلى ما شاء الله. وفاتهم أن المعرفة ليست لها حدود أو حواجز، وأن اختراع الطباعة وسرعة المواصلات الحديثة كانا كفيلين بنقل الآراء والبحوث والعدد والآلات إلى طلابها من مختلف جهات المعمورة؛ فلم يكن هناك بدٌّ من انعدام الفوارق العقلية والثقافية مادام الدليل لم يقم بعدُ على أن عقول أهل البلاد المتفوقة أو استعداداتهم الفطرية ستبقى على مر الدهور أرقى من عقول سائر البشر! حتى فى الأمم العريقة التى كانت لها مدنيات وإمبراطوريات فى الزمن القديم أو المتوسط، ثم أصابها الضعف فترة من الزمن فاستكانت حيناً ثم أفاقت وقامت تطالب من جديد بحقوقها المهضومة، وتنافس مستعمريها فى الميادين التى كان لهم فيها تفوق ملحوظ.

لذلك ما كادت الآراء والمخترعات الحديثة تنتشر بين الناس فى أواخر القرن التاسع عشر حتى تعاقبت الأحداث وتوالت النُّذُر بأن الشعوب المغلوبة على أمرها لابد أن تنهض فى يوم قريب وتقف على قدميها، سواء أراد الحكام لها ذلك أو لم يريدوه؛ لأن الحاكم إذا وقف أو توانى فى الإصلاح استحثته من ورائه القوى التقدمية؛ فإن العالم الحديث بعلومه واكتشافاته وتجاريبه فى حركة دائمة دائبة يحس بها الناس جميعاً سواء منهم السابقون فى المدنية والمتأخرون. ولقد أثبت المتأخرون فى أوائل القرن العشرين تفوقهم فى امتحان القوة الحربية والبحرية أمام أضخم دولة حربية فى أوربا إذ ذاك وهى روسيا؛ إذ انتصر اليابانيون على الروس برًّا وبحراً فى سنة ١٩٠٥.

وخرجت اليابان الآسيوية من الحرب فى الصف الأول بين الدول العظمى

وتهافتت عليها الدول الغربية تخطب ودها ، على حين نزلت سمعة روسيا الأوربية إلى الحد الذى عجل بتغلغل عناصر الثورة فى داخلها .

وكان انتصار اليابان على روسيا بمثابة ناقوس عظيم دق وجلجلت دقاته وسط هضاب آسيا وسهولها ، وترددت أصداؤه فى جنبات الشرق كله ، فأيقظت الشعوب المغلوبة الراقدة ، وملأت قلوب القوم ثقة بأنفسهم وأملا فى مستقبلهم وعزيمة ماضية فى العمل لتخليص بلادهم من ذل الاستعمار ووصمة الحكم



الأجنبى . ففى أوائل القرن العشرين قامت الثورة فى إيران وفى تركيا ، وقويت فى مصر الحركة الوطنية أثر حادث دنشواى ، فتألفت فيها الأحزاب الوطنية ونحى عن العمل لورد كرومر المعتمد البريطانى الذى سيطر على البلاد بقوة الاحتلال قرابة أربعة وعشرين عاما .

أما فى الهند فقد نشطت فى أوائل هذا القرن حركة المؤتمر الهندى الوطنى ، وقام الوطنيون ينقمون على الحكومة المستعمرة سياستها فى إغفال آلاف من

الوطنيين الذين تخرجوا فى المدارس والجامعات ، وتركهم متعطلين بلا عمل فى إدارات الحكومة أو الشركات ، حتى تضاعفت أعدادهم وعلت صيحاتهم ، وأصبحوا أداة صالحة طيعة للانخراط فى سلك الجمعيات السرية التى تألفت للفتك بالمستعمرين والانتقاض على قوانين الحكومة .

وأولى الهيئات التى لها فضل إيقاظ الشعور الوطنى فى الهند المؤتمر الهندى الوطنى الذى تألف فى سنة ١٨٨٥ ، وكان الداعى له موظف إنجليزى متقاعد آثر البقاء فى الهند وأسس جريدة أسماها « صديق الشعب » ، وأصدر فى سنة ١٨٨٣ دعوة إلى الهنود يطلب فيها خمسين رجلا وطنيا صادقا يؤلفون حزبا سياسيا يبحث فى كل ما يرقى بالهند إلى مصاف الدول المتمتعة بالاستقلال الذاتى . وكان غرضه من تأليف الحزب ، كما أوضح ذلك للحاكم العام ، أن توجد فى البلاد هيئة تعبر عن مطالب المثقفين من الهنود ، وتتيح للوطنيين مجالا حرا ينفسون فيه عما يجيش فى صدورهم من آلام وآمال . وكان أول اجتماع للمؤتمر فى بمباى سنة ١٨٨٥ ، وتألف الحزب إذ ذاك من نحو سبعين عضوا كانوا النواة لتلك المؤسسة الوطنية الهائلة التى حملت رسالة الهند ورفعت علم الوطنية الهندية عاليا بين الشعوب . وها هم أولاء أعضاء حزب المؤتمر يضطلعون اليوم بعد كفاح دام ستين عاما بمصاير الهند ويمسكون بزمام الحكومة فيها .

وإزاء هذا التيار الوطنى الجارف اضطرت الحكومة البريطانية إلى أن تجيب الهنود إلى بعض مطالبهم ، فعينت فى سنة ١٩٠٧ عضوين هنديين بمجلس الهند الذى كان يساعد الوزير الإنجليزى المسئول عن شؤون الهند ، وكان أحدهما هندوكيا والآخر مسلما . وفى سنة ١٩٠٩ صدر قانون بزيادة عدد الأعضاء غير المعينين بالمجالس التشريعية فى الأقاليم ، وأصبح من اختصاص هذه المجالس بحث الميزانيات وإصدار قرارات بشأنها دون أن يكون لها حق إقرار الميزانيات أو رفضها . وكذلك زيد عدد أعضاء المجلس التنفيذى الذى يعاون الحاكم العام وعين به عضوان هنديان .

ومع ذلك ظل الشعور الهندى ناقما وثائرا على المستعمرين . وكان الهنود كلما ازدادت ثقافتهم وارتفع مستواهم ازدادوا شعورا بعار الاستعمار ، ونفرت نفوسهم من الإنجليز الذين ترفعوا عن الاختلاط بهم وأنزلوهم منزلة دنيا فى نظر الأجانب المقيمين فى الهند وفى نظر الناس جميعا . وقد أثار سخط

الهنود بصفة خاصة ما كان العمال الهنود يلقونه من عنت وإجحاف فى جنوب إفريقية . وكان من مظاهر هذا العنت الذى يلقونه صدور قرار فى سنة ١٩١١ بمنع هجرة الهنود إلى ناتال . وقد رأى الهنود فى كل ذلك استبداداً بهم وخنقاً لحريتهم وحطا من كرامتهم ، فنشطت الجمعيات السرية ، وانتقل من أوربا إلى الهند سلاح القنابل ، فأخذ الطلاب يصنعونها ويتدربون على استعمالها ؛ واختاروا يوم الاحتفال بدخول الحاكم العام عاصمته الجديدة فى دهلى بدل كلكتا فى ديسمبر سنة ١٩١٢ ، فألقوا على الهودج الذى كان به الحاكم وقرينته فوق ظهر أحد الفيلة ، قنبلة أصابت الحاكم بجرحته ، وأصابت حارسه فأردته .

ثم جاءت الحرب الكبرى فوقف الوطنيون كفاحهم مؤقتاً ، وانحاز الأ ء الهنود إلى جانب بريطانيا بحماسة تجلت فيما قدمته الهند للحرب من جهود ومال ورجال طوال مدة الحرب ، حتى بلغ مجموع ما أرسلته من الجيوش ٨٠٠ر٠٠٠ رجل محارب و ٤٠٠ر٠٠٠ غير محارب فضلا عن مائة مليون جنيه تبرعت بها حكومة الهند ، وعما قدمته البلاد من مؤن وذخائر وأغذية .

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى ظهر عاملان جديدان كان من شأنهما أن يمهدا الطريق لحركة الهند الوطنية الأخيرة . أما العامل الأول فهو إعلان فكرة الاستقلال الذاتى أو Home Rule وهو اصطلاح اشتقه الهنود من الحركة الارلندية . وكانت الجهود قبل ذلك متجهة إلى طلب زيادة اشتراك الهنود فى المجالس والإدارات ، فأصبحت ترمى إلى الاستقلال الذاتى وتنادى به . وقد سارت فى طليعة هذه الحركة مسز بيزانت Mrs. Besant وهى سيدة انجليزية غريبة الأطوار ، استخدمت استعدادها فى الخطابة وقدرتها على تنظيم الأعمال فى قيادة حركة هندية صرفة ، فرأست رابطة «الهوم رول» ، واختيرت فى سنة ١٩١٧ رئيسة للمؤتمر الوطنى . وكانت هذه الحركة هى التى مهدت لظهور غاندى ودعوته إلى استقلال الهند أو « سواراج » الذى صار فيما بعد «پرنا سواراج» أو الاستقلال التام .

أما العامل الثانى فهو ظهور الحركة الإسلامية واندماجها مؤقتاً فى الحركة الوطنية . وذلك أنه لما دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ظن الهنود المسلمون فى أول الأمر أن الحلفاء يتربصون بالخلافة الإسلامية الدوائر ،

ويبيِّتون لها أسوأ العواقب . ومع أن الحلفاء نجحوا إلى درجة ما فى تهدئة مخاوف المسلمين فى أثناء الحرب ، فان هؤلاء ما لبثوا أن رأوا بعد الحرب كيف قسا الحلفاء على تركيا فى فرض شروط معاهدة سيفر ، وكيف مزقوا أوصال الإمبراطورية العثمانية ، حتى احتلوا إسطنبول عاصمة الدولة حينذاك ، وأذنوا لليونان باحتلال منطقة المضايق ، واقتطاع جزء كبير مع فرنسا وإيطاليا من الأناضول . فثارت ثائرة المسلمين فى الهند وقاموا بزعامة الأخوين شوكت ومحمد على يؤيدون الحركة الوطنية فى الاستقلال ، وكانوا قد دعموا هذا التأييد باتفاق المؤتمر الوطنى والرابطة الإسلامية فى مدينة لكنو فى ديسمبر سنة ١٩١٦ على توحيد أهدافهم ؛ وأعدوا مشروعا للدستور حددوا فيه عدد المقاعد التى تخصص للمسلمين فى هيئته التشريعية . وكانت تلك الحرب قد دخلت فى مرحلتها الحاسمة الأخيرة ، فرأت الحكومة الإنجليزية أن تطمئن الرأى العام الهندى ، فصرحت رسميا بأنها تعتزم أن تشرك الهنود بكثرة فى جميع أعمال الإدارة ، وأن تهيئ البلاد تدريجا للحكم الذاتى ، ثم تؤلف حكومة هندية مسئولة داخل نطاق الإمبراطورية البريطانية .

ثم أعلنت الهدنة فى سنة ١٩١٨ وأصاب الهند ما أصاب كافة البلاد المغلوبة على أمرها عقب الحرب الكبرى وإعلان مبادئ الرئيس ولسون الأربعة عشر ؛ فقد اكتسحت البلاد موجة غضب وسخط شملت جميع الطبقات ، وقد ازدادت العاصفة عتوًّا على أثر صدور قوانين جديدة سنتها الحكومة لتخويل رجال الإدارة سلطات استثنائيــة للقضاء على أنصار حركة الاستقلال الوطنية . فساء الهنود أن تكون مكافأتهم بعد إحراز النصر أن يشدَّد عليهم الخناق وتوءد حرياتهم بمثل هذه القسوة .

وفى وسط هذه العاصفة الجامحة ظهر غاندى يدعو الناس إلى الإيمان بقوتهم الروحية ، وإلى تطهير نفوسهم بتحمل الآلام والحرمان فى سبيل بلادهم . وبذلك مزج غاندى عقيدة روحية قريبة إلى متناول العقلية الهندية بمذهب سياسى يلائم هذه العقيدة ، وهو خدمة البلاد من طريق العصيان المدنى وعدم التعاون مع المستعمرين . وهذه الخطة وإن كانت جديدة مبتكرة فى اعتبار السياسة قد كانت معروفة فى إنجيل الثائرين فى دوائر الصناع والعمال ؛ فهى فى حقيقة الأمر إضراب عن العمل ترجمه غاندى إلى السياسة الوطنية ، وقد عرفت

الاضرابات فى عالم الصناعة فى أوربا وأمريكا منذ أواخر القرن التاسع عشر. وقد ساعد على نجاح هذه الحركة فى الهند أنها لا تدعو إلى استخدام العنف. والهندوكيون بخلاف المسلمين فى الهند أقوام سلبيون منطوون على أنفسهم لا يميلون بطبيعتهم إلى العنف. وقد تدرجت فكرة العصيان المدنى من تمرد على القوانين الظالمة إلى عصيان عام، حتى إذا وصلت الدعوة إلى عامة الناس خرجوا عن أطوارهم ولم يكبحوا جماح نفوسهم، فقامت ثورة فى البنجاب شبيهة بثورة مصر سنة ١٩١٩ إذ هاجم الثوار السكك الحديدية وعطلوا خطوطها كما قطعوا أسلاك البرق والتلفون. وبلغت الثورة أسوأ مراحلها فى مدينة أمرتسار حيث اقترف رجال الحكومة جريمة سودت صحيفة الاستعمار فى الهند، إذ انقض القائد العسكرى للمنطقة على اجتماع للوطنيين كانوا قد عقدوه من غير ترخيص، فأوجس القائد خيفة وأمر رجاله بمهاجمتهم فقتلوا من الوطنيين ٤٠٠ نفس وجرحوا ثلاثة أمثال هذا العدد. وكان هذا الحادث أول تدشين بالدم لسياسة عدم التعاون التى أعلنها غاندى، وقد أصبح فى سنة ١٩٢٠ رئيساً للمؤتمر الهندى وأسبغ عليه الشعب من القداسة ما أهله للقب « الماهتما » أو الروح الأعظم.

ولما استفحل أمر الاضطرابات فى مختلف أنحاء الهند قبض على غاندى أول ما قبض عليه فى مارس سنة ١٩٢٢ وحكموا عليه بالسجن ست سنوات، ولكنهم أفرجوا عنه فى سنة ١٩٢٤ وعاد رئيساً للمؤتمر، ثم ترك العمل لإخوانه فى المؤتمر واكتفى هو بالإرشاد والإيحاء. وفى هذه الأثناء كانت البلاد تسير قدماً نحو أهدافها الوطنية؛ فالمجالس التشريعية قد أتاحت الفرص لعدد من الوطنيين يشتركون فى التشريع لبلادهم. وفى هذه الأثناء أيضاً نشطت حركة تحرير النساء الهنديات؛ فبعد أن كن يفتخرن ببقائهن محجبات فى بيوتهن ظهرت أولى زعيمات الهنديات السيدة نايدو الشاعرة وقد اختارها الهنود رئيسة للمؤتمر الوطنى سنة ١٩٢٦، وأخذ الرجال يصحبون زوجاتهم فى مقابلاتهم ومجتمعاتهم، وبدأت المرأة الهندية تقوم إلى جانب زوجها أو أخيها بنصيبها الفعال فى النهضة والأخذ بيد المرأة الهندية التعسة.

وفى هذه الأثناء ظهر عامل قومى آخر على جانب عظيم من الأهمية؛ ذلك أن فى الهند عدداً كبيراً من الطبقات المنبوذة يحسبون من الهندوكيين وإن كانت اعتقادات الهنود الدينية والاجتماعية تحرم اختلاط الطبقات بالزواج أو بالمصاهرة

أو بالمخالطة فى الطعام أو بالتحول من دين إلى آخر أو من مستوى اجتماعى إلى مستوى آخر . ويبلغ عدد هذه الطبقات خُمس عدد الهندوكيين أو سبع مجموع سكان الهند . وأفراد هذه الطبقات لا يسمح لهم بالاجتماع مع الآخرين حتى فى معـابدهم كأنما فرض عليهم أن يبقوا مطرودين خارج النطاق الاجتماعى لذلك تحول كثير منهم إلى الإسلام أو المسيحية لـكى يخرجوا من جحيمهم المقيم . وقام غاندى يدعو أتباعه إلى العطف على هذه الطبقات والتخفيف من القيود التى يرزحون تحتها منذ قرون . وقد جاء الدستور الأخير وفيه اعتراف بحق تمثيلهم فى المجالس التشريعية ، وقد اختير واحد منهم فى أثناء الحرب الأخيرة فى المجلس التنفيذى للحاكم العام .

وفى سنة ١٩٢٩ كانت اللجنة التى ألفتها الحـكومة الإنجليزية برياسة سير جون سيمون لبحث دستور الهند تعمل جاهدة لدرس أحوال الهند واستطلاع آراء الزعماء وكبار الموظفين والمشتغلين بشؤون الهند، بقصد الوصول إلى دستور صالح للبلاد . وكان الهنود قد قاطعوا اللجنة فى أول حضورها إلى الهند، ولـكن اللجنة ثابرت وذأبت على العمل مدة ست سنوات . وفى أثنـاء ذلك عقد مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ لدراسة موضوع الدستور، واستدعى غاندى لحضور بعض جلساته ، ولـكن المؤتمر لم ينته إلى نتيجة يرضاها ، فلما عاد إلى الهند تجددت الاضطرابات ، فاعتقل غاندى سنة ١٩٣٣ وأفرج عنه فى السنة التالية ، وقد أعلن بعد ذلك اعتزاله للسياسة ، ولـكنه بقى الملهم والمحرك لجهود المؤتمر الوطنى إلى النهاية .

وأخيراً أعلن الدستور الحديث ، وهو أداة الحـكم فى الهند إلى الآن . وهاك موجزاً لهذا النظام :

بالهند نوعان من الولايات : ولايات تحكمها بريطانيا وعددها إحدى عشرة ولاية مجموع عدد سكانها ٣٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس من مجموع سكان الهند الذين يبلغون ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس ، وإمارات يحكمها أمراؤها الهنود من مسلمين وهندوكيين وعددها يبلغ نحو ستمائة . والولايات يحكمها حكام عامون تعين منهم حكومة جلالة الملك ثلاثة لأكبر هذه الولايات وهى البنغال وبمباى ومدراس . أما الولايات الثمان الباقية فيعين فيها من كبار موظفى حكومة الهند ، ومدة توليتهم خمس سنين . ولـكل إمارة إدارة مستقلة لها جيشها ونظامها الخاص ماعدا الشؤون

المالية والبوليس والعملة فهى متناسقة فى أنحاء الهند جميعها ، وكذلك فى القضاء العالى . وإلى جانب كل أمير مستشار ، أو مقيم عام فى الإمارات الكبرى، وضابط اتصال بريطانى فى الإمارات الصغرى . وعلى الأمراء أن يستشيروهم ويعملوا بنصائحهم فى العظيم من الأمور . والسيادة فى هذه الإمارات جميعها للملك الإمبراطور . والحاكم العام للهند ، أو نائب الملك ، هو الواسطة التى تربط بين الولايات والإمارات ، وبين الأمراء والتاج البريطانى . وللأمراء جمعية تعقد سنويًّا فى دهلى عاصمة الهند برياسة الحاكم العام للتداول فى الشؤون المشتركة بينهم . ولكن كبار الأمراء مثل سلطان حيدر أباد المسلم ، وهى أكبر إمارة فى الهند ، وسلطان ميسور ، وحاكم بارودا ، لا يحضرون هذه الاجتماعات والأمراء لا يلتزمون تنفيذ ما يصدر فى هذه الاجتماعات من قرارات .

ولكل ولاية بريطانية هيئة تشريعية يعين بعض أعضائها بحكم وظائفهم ، وينتخب الآخرون وفقاً لقانون يحدد عدد الذين لهم حق التصويت . ومن الهيئات التشريعية الإقليمية يختار الحكام العامون وزراءهم . وللحكام حق الاعتراض أو الفيتو ، أى لهم أن يقفوا تنفيذ القوانين التى تقرها الهيئات التشريعية والتنفيذية إذا كان فى تنفيذها ضرر للصالح العام بحسب مايراه الحكام . والولايات حرة فى أنظمتها ، وفى تعيين موظفيها ، فيما عدا الوظائف الكبرى .

والحاكم العام للهند أو نائب الملك هو الملاذ الأعلى للبلاد ، فإليه يرجع الحكام العامون عند اختلافهم مع وزرائهم ، وبيده وحده التصرف فى شؤون الدفاع والخارجية والدين .

ويساعد الحاكم العام هيئة تنفيذية كانت مكونة فى أثناء الحرب من ١٢ وزيراً منهم ثمانية من الهنود ، فأصبحوا فى نهاية الحرب ١٤ منهم ٦ من الهندوكيين و ٥ من المسلمين و ٣ من الطوائف الأخرى . ورئيس هذه الهيئة التنفيذية نائب الملك ، ووكيله الآن هو الرئيس الهندى جواهر لال نهرو . وهناك جمعية تشريعية مركزية تتألف من ١٠٢ عضو منتخب و ٢٦ عضواً يعينون بحكم وظائفهم و ١٣ يختارهم الحاكم العام لتمثيل الطوائف الأخرى .

وينص النظام على أن تكون فى البلاد هيئة تشريعية اتحادية تمثل جميع الهند . ولكن هذا النظام الاتحادى لم ينفذ لخوف الهنود من فقد سلطانهم

من جهة ، ولاختلاف مصالح الطوائف الهندية فى الأقاليم المختلفة من جهة أخرى .

وليست الإمارات ملزمة باتباع النظام الدستورى الذى تسير عليه الولايات البريطانية ، ولكن بعضها ينفذه ، وتعتبر حكوماتهم نماذج طيبة للحكم الصالح . ولكن الوطنيين الهنود يكرهون نظام الأمراء بصفة عامة ويعتبرون حكوماتهم مناقضة للمبادئ الديمقراطيــة الاشتراكية التى يودون السير على منهاجها متى تسلموا زمام الأمور .

ولما بدئ بتنفيذ النظام الدستورى الجديد فى سـنة ١٩٣٥ اكتسح رجال المؤتمر الهندى الانتخابات فى ست ولايات من الولايات الإحدى عشرة ، ثم انضمت إلى المؤتمر ولايتان فصار له ثمانى ولايات وللمسلمين ثلاث ، وكان أعضاء المؤتمر فى أول الأمر قد قاطعوا الحكم ورفضوا الاضطلاع بأعباء الوزارات فى الولايات التى فازوا فيها ، فتألفت فيها حكومات ائتلافية من عناصر الأقليات . وكانت حجتهم فى المقاطعة عدم رضاهم عن تمتع الحكام العامين بحق الاعتراض ، فأصبح وجودهم بالمجالس التشريعية بمثابة احتجاج صارخ على النظام الدستورى القائم ، وخلقوا بموقفهم السلبى من الحكومات مشاكل ومتاعب لم تنته إلا فى سنة ١٩٣٧ حين رأى المعتدلون من أعضاء المؤتمر ضرورة الاضطلاع بالحكم فى الولايات التى لهم فيها الكثرة . وبقى المتطرفون من أعضاء المؤتمر خارج الحكم ممسكين بزمام الأمور من كثب فى اللجنة التنفيذية للمؤتمر ، وهى التى يطلقون عليها « القيادة العليا » ، وتضم عادة عناصر عرفت بشدة المراس والاستبداد فى الرأى ، وكلمتها هى القانون عند الجميع . وعلى ذلك سنحت لرجال المؤتمر الوطنى فرص لإدخال إصلاحات شعبية كثيرة فى الأقاليم ، ولو أن المسلمين والبارسيين وغيرهم من طوائف الأقليات قد أخذوا عليهم أنهم فى الولايات التى تفوقوا فيها حابوا الهندوكيين وأقصوا المسلمين وغيرهم عن كثير من المناصب والمجالس ، وراعوا الثقافة الهنـدوكية فى المدارس ، وصبغوا بعض تشريعاتهم باللون الاشتراكى الأحمر .

ولما أعلنت الحرب الأخيرة فى سنة ١٩٣٩ تنحى رجال المؤتمر عن الحكم فى الأقاليم احتجاجا على أن الحكومة لم تستطلع رأيهم فى إعلان الحرب ، كما أنها لم تعلن صراحة عن أغراضها من الحرب ، ولم تفصح عما تعتزمه بشأن استقلال

الهند . وفى الحال أعلن نائب الملك وقف دستور سنة ١٩٣٥ وعاد الحكام يضطلعون بجميع السلطات فى الأقاليم .

ثم تحرجت الحال فى الشرق الأقصى عقب دخول اليابان فى الحرب فى ديسمبر سنة ١٩٤١ وانقضاضها على سنغافورة وجزر الهند الشرقية وبورما . وقد كان اليابانيون على مقربة من حدود الهند من الشمال الشرقى ، وكانت بيدهم جزر أندمان فى خليج بنغال على بعد مائتى ميل من ساحل بورما ، وكانت سفنهم الحربية تجوب مياه ذلك الخليج ؛ ومع ذلك ظلت حكومة الهند وسط هذه العواصف راسخة كالطود . وأرسلت الحكومة الإنجليزية فى مارس سنة ١٩٤٢ الوزير الإنجليزى سير ستافورد كربس Stafford Cripps ليطمئن الهنود على مستقبلهم ، ويعلن عزم إنجلترا على منح الهند نظام الدومنيون أو الحكم الذاتى الكامل التى تتمتع به ممتلكات التاج البريطانى الحرة ، على أن يترك للهنود أنفسهم أن يصوغوا الدستور الذى يوافق حاجات بلادهم بضمانات معينة . فرحب الأمراء بالعرض البريطانى ، وأبى الوطنيون إلا أن يتولوا مقاليد الحكم فى البلاد بدون إبطاء . أما الرابطة الإسلامية فأعلن زعيمها السيد محمد على جناح رفضه لأى نظام اتحادى للهند ، وصرح أن الرابطة ترمى إلى تأليف وحدة إسلامية باسم « پاكستان » من الولايات التى كثرتها من المسلمين . ومن ذلك الوقت اتسعت هوة الخلف بين المؤتمر الهندى الوطنى والرابطة الإسلامية .

وكان اليابانيون فى أثناء تفوقهم فى شرقى آسيا قد أثاروا الشعور الوطنى أينما حلوا أو حل صنائعهم ضد الأوربيين والجنس الأبيض عامة ، ونادوا بأن آسيا لن تكون فى المستقبل إلا لأهل آسيا . وترددت أصداء هذه الدعاية فى الهند ، فوجدت آذانا صاغية ، وقامت فى يوليه ١٩٤٢ حركة جهاد وطنية بزعامة بوز الهندى ، وكان على اتفاق مع اليابان والألمان على إعلان استقلال الهند وضم الهنود إلى صفوف المحور . وقد سار وراء هذا الزعيم نحو خمسة وعشرين ألفا من الهنود والأسرى الذين كانوا تحت أيدى اليابانيين ولكن الحكومة ما لبثت أن قمعت الحركة بشدة ، فقبضت على الزعماء الهنود وأعلنت عدم شرعية الهيئات الوطنية التى ينتسبون إليها ، وقتل فى هذه الحركة نحو ٦٠٠ نفس وزج فى السجون نحو عشرين ألفا من الهنود . أما زعيم الحركة فقد استطاع الفرار على متن إحدى الطائرات المعادية .

ثم لم تلبث أن لاحت فى الأفق بشائر النصر لقوات الحلفاء ، فهدأت الحال فى الهند ، وأعلنت الحكومة الإنجليزية بقاء الباب مفتوحا للمفاوضة مع الهنود بشأن قضية الاستقلال والدستور . واستمرت الهند تعاون الحلفاء حتى انتهت الحرب ، وبلغت خسائر الهند أكثر من ١٧٧٠٠٠ نفس منهم أكثر من ٢٣٠٠٠ قتلى . ولما تولت وزارة العمال الحكم فى انجلترا أرسلت بعثة إلى الهند مؤلفة من ثلاثة وزراء ، منهم سير ستافورد كربس ، لبحث مشكلة الهند مع نائب الملك والزعماء . واستقر الرأى فى النهاية على دعوة جمعية تأسيسية تمثل جميع الهند لوضع دستور اتحادى للبلاد ، بشرط ضمان الحريات العامة للجميع وحقوق الأقليات . وتألفت بعد لأى وزارة انتقال ائتلافية ، يتولى فيها وكالة الرياسة الزعيم جواهر لال نهرو ، وقد قبلت الرابطة الإسلامية أخيرا الاشتراك فيها ، ولكنها رفضت أن تشترك فى الجمعية التأسيسية .

وقد حاول مستر أتلى رئيس الحكومة الإنجليزية التوفيق بين نهرو والسيد جناح زعيم الرابطة الاسلامية ، فدعاهما فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ لزيارته بلندن ولكن ذلك لم يُجْدِ شيئاً . وإذا انتهت الجمعية التأسيسية من وضع دستور اتحادى للهند فأكبر الظن أن الحكومة الإنجليزية ستدعو الحكومة الهندية المنتظرة إلى عقد معاهدة معها توضح الروابط التى سترتبط بين الدولتين فى المستقبل .

وأوجه الخلاف القائمة الآن بين المعسكرين الهندوكى والمسلم أن رجال المؤتمر الهندى يدَّعون أنهم يمثلون كافة طوائف الهند بما فيهم المسلمون ، وأن بالمؤتمر أعضاء مسلمين ، وكان رئيس المؤتمر إلى وقت قريب زعيما مسلما هو مولانا أبو الكلام أزاد ، ويقولون إن انفصال أكثر من تسعين مليونا من الهنود المسلمين سيشل حركة الهند المستقلة فى المستقبل ، وخاصة لأن بالولايات المسلمة أكثر المشروعات الصناعية الكبرى الناجحة ، وبها أيضاً القبائل المشهورة بقوتها واستعدادها الحربى ، فضلا عما فى هذه الولايات من المدن العامرة ومشروعات الرى الكبرى والإنتاج الزراعى الوفير .

أما المسلمون فيقولون إنهم من جنس مخالف للهندوكيين ، وإنهم أمة قائمة بذاتها ، فلهم تاريخهم وتقاليدهم وسابق مجدهم وتفوقهم فى بلاد الهند عدة قرون وإنهم جربوا حكم الهندوكيين فى الولايات التى تألفت وزاراتها من أعضاء المؤتمر

فنال المسلمين منهم عنت واضطهاد عظيمان ؛ فهم لذلك لا يستطيعون أن يضحوا بمصالح أكثر من تسعين مليونا أو أن ينزلوا عن مصالحهم للهندوكيين بدلا من الانجليز .

والحقيقة أن المسلمين والهندوكيين فى الأقاليم الهندية جميعها يتغلغل بعضهم فى بعض ، وقد تأثروا جميعاً بالبيئة التى عاشوا فيها قرونا طويلة ، ومن المتعذر بل يكاد يكون مستحيلا فصل الأقاليم المسلمة عن الأقاليم الأخرى ؛ فللمسلمين الكثرة فى الشمال الغربى وفى الشمال الشرقى ، وبين الجهتين أقاليم شاسعة كثرتها من الهندوكيين ؛ وعلى ذلك يتعذر إيجاد وحدة أو صلة بين الأقاليم الإسلامية .

ولا سبيل البتة إلى تبادل الأقليات كما فعلت تركيا واليونان ؛ فاليونانيون الذين انتقلوا من تركيا إلى بلاد اليونان لم يزيدوا على مليون نفس ، أما المسلمون فى الهند فعددهم تسعون مليونا من الأنفس .

وهناك ، عدا الخلاف الطائفى ، مشكلات على جانب عظيم من التعقيد ، منها حال طبقات المنبوذين ووجود نحو ستة ملايين من المسيحيين الهنود والأوربيين ، فضلا عن الفقر المدقع الذى يطحن عشرات الملايين ، وعن الجهل والمرض والمجاعات التى تهدد البلاد من آن إلى آخر .

يضاف إلى ذلك مشكلة اللغات وفى الهند منها مئات . واللغة الشائعة نوعاً هى الهندوستانية أو الأوردو ، وهى التى يستعملها المسلمون والهندوكيون ويكتبونها بالحروف العربية ومن اليمين إلى اليسار ، ويأبى الهندكيون تداولها رسميا اللهم إلا إذا كتبت بالحروف اللاتينية ومن اليسار إلى اليمين وهو أمر يعترض عليه المسلمون أشد الاعتراض . وحينئذ لا تبقى إلا اللغة الإنجليزية وهى اللغة التى يتقنها المتعلمون من الهنود كافة سواء منهم المسلمون والهندوكيون وهى اللغة التى يتفاهمون بها فى اجتماعاتهم ومكاتباتهم . فهل يتفق مع الروح الوطنية أن تكون لغة المستعمرين هى اللسان القومى للحكومة الهندية الوطنية ؟

ولا ننس أن العالم كله متجه نحو الوحدة أو الاشتراك الاتحادى ، وقد جاهر كثير من السياسيين أخيرا بضرورة تأليف اتحاد أوربى من مختلف دول أوربا على ما بينها من خلافات فكيف يستساغ أن تنفصل طائفة كبيرة عن جسم الهند ، وأن تنشق الأمة الواحدة إلى شعبين مستقلين !

ومع أنه ليس من عمل كاتب التاريخ أن يتكهن فإن له أن يقيس الأمور

باشبا هها فى التاريخ . ويبدو لى أن الحال فى الهند لا تدعو إلى التفاؤل ؛ لأن الانقسام السياسى الواقع الآن يقوم مع الأسف على الخلافات الدينية ، وهى شر ما تنقسم على أساسه الشعوب . وستتطور الأمور فى الهند إلى شىء يشبه ما هو واقع فى إرلندة فكثرة السكان فيها تابعون لجمهورية إرلندة الكاثوليكية وهناك فى الشمال ولاية الستر البروتستنتية التابعة للتاج البريطانى . وتحاول الجمهورية الارلندية الآن أن تضم إليها إقليم الستر فلا تستطيع ذلك للخلاف الطائفى المستحكم بين القسمين . ويبدو أن الحال ستكون كذلك فى الهند ولكن بمقياس أكبر كثيرا .

فالولايات الهندية ستؤلف اتحاداً بينها ينضم إليه كثير من الإمارات الهندية . وقد اقترح الزعيم نهرو أخيراً أن تقرر الجمعية التأسيسية إعلان الجمهورية تشبهاً بما فعلته إرلندة ، وهى دائماً المثال الذى يحتذيه الوطنيون الهنود فى سياستهم نحو بريطانيا ، وتبقى الولايات المسلمة ؛ فقد تحدث المعجزة كما حدثت فى الماضى وتشترك فى الاتحاد بضمانات يتفق عليها . وقد تتشبث الرابطة بسياسة الباكستان كما يتضح من تصريحات الزعيم السيد محمد على جناح . ويصعب أن تنفذ هذه السياسة بغير موافقة الحكومة الإنجليزية سرًّا أو علانية . فإذا تم ذلك أصبح الباكستان شوكة فى عنق الدولة الهندية المرتقبة ورأس الرمح الذى تصيب به إنجلترا قلب الهند إذا ما استشرى الخطر .

محمد رفعت

يوم فى نيويورك . . .

[فى إبريل الماضى رحل الكاتب إلى أمريكا ، تقله إحدى الطائرات . وهو فى هذا المقال يصور مشاهداته ويسجل خواطره فى اليوم الأول ، يوم هبطت به الطائرة فى نيويورك . . .]

. . . تركنا الطائرة مهرولين .

واجتزنا ممشى مظللا كأنه عريش بستان ، ثم بلغنا مبنى المطار : حجر وممرات تمتاز بالطابع الأمريكى ، ساذجة فى جمالها وحسن تنسيقها . . . وحللنا حجرة ليست بالفسيحة ننتظر ، وتفرق فى جوانبها الرفاق جماعات شغلت كل منها بشأنها ، ولبثنا ننتظر ، وطال علينا الأمد ، فلذنا بسلاحنا الماضى الكريم : الثرثرة ننفى بها عن نفوسنا ملل الانتظار .

وكان يمر من بيننا أمريكى قمئ من موظفى المطار ، يخطو بين الجماعات خطاً متزنة ، غير موجه نظره إلى أحد ، ولا يكاد يطويه الباب حتى يعود ثانية يذرع الحجرة ويجوس خلالها لا يعنيه من أمرنا شىء . وكان كلما ظهر تعلقت به أنظارنا تستنجده . وظل بين جيئة وذهاب على نحو أثار السخط والعجب . أفى شغل عنا هو حقا ؟ إن بين هؤلاء الموظفين من يشبع بمثل تلك المظاهر الكاذبة رغبات نفسه الطموح !

وأخيراً تعالى صوت ينادى أسماءنا . . .

ومثلنا لحظات قصيرة أمام الطبيب ، ذلك الفتى الفارع ، المشرق الوجه ، يؤنسنا بابتسامة ترحيب ، ويعفينا من مضايقات الفحص والسؤال . . .

وتجمعنا فى مقصف على الأسلوب الأمريكى أنيق رشيق ، تبلغنا فيه بأشتات من الشطائر والفطائر ، واحتسينا أقداح القهوة . . .

وتمت إجراءات « الجمرك » على أيسر وجه ، حتى إنى راجعت نفسى فى أمر هذه المؤسسة ، وبدا لى أنها مؤسسة عظيمة جليلة الفائدة والنفع !

وانصرفنا عن «الجمرك» خلفنا الزنوج يحملون حقائب المتاع ، وركبنا سيارة أجرة ذكرتنا بفخامتها وأناقتها عربة الخيل التى طافت بنا أحياء باريس . . .

« وبضدها تتميز الأشياء » !

وأحسست مشاعرى تهتز وتهتاج اهتياج مشاعر الطفل أمام جديد مستور بدأ يتكشف له .

وثارت بى ثورة تطلع وفضول ، فكنت أبعثر النظرات حولى فى تعجل أخشى أن يفلت منى شئ ، فإذا بى ينبد عن نظرى أعظم شئ . . . إنها رقعة من الأرض شاسعة ، خططت فيها طرق ممدودة معبدة تنتهبها السيارات انتهابا ، وإنها جسور عظيمة تعلو بنا وتهبط ، تتقاذفنا جسراً بعد جسر . ولكن أية جسور هذه ؟ أعلى الماء هى أم على أديم الأرض ؟ لا أكاد أتبين الأمر !

وبدأنا ندخل منطقة المبانى ، فكلما أوغلنا فيها تكاثفت وتعالت . . . ورأينا الطرق تزدحم بالسابلة ، فأخذت سيارتنا تهدئ من سيرها ، حتى ألفينا أنفسنا بين نواطح السحاب . وخيل إلى أننا فى سفينة بدأت تجتاز خليجاً تقوم على جانبيه شوامخ الجبال !

إنه حقًّا لشعور غريب ، ذلك الذى يستولى على المرء حين يشرئب بعنقه وهو يمر بين هذه الصروح الشاهقة . . . إن المرء ليحس نفسه قد تصاغر وتكمش أمام تلك المدنية الماردة العاتية . . . فى لحظة واحدة تتجلى لنفسك عظمة أمريكا الجبارة . . . هذه الآطام العالية تركز لك فى مظهرها حقيقة « أمريكا » بمدنيتها ، ثروتها ، عقليتها ، نشاطها ، جاهها ، طموحها ، ماظهر من ذلك كله وما بطن . . . هذه الآطام كأهرام مصر تختزل لك فى مظهرها الرائع مدنية مصر الغابرة . . . إنها لتصور لك فى لحظة دقائق تلك المدنية وأسرارها ، فتعلم جليًّا أن القبر كان كل شئ فى مصر السحيقة ، فهو مستودع العلم والفن ونظام الحكم : الحى يعمل جاهداً فى إعداده دار قرار ، والميت ينعم به مثوى حتى تحين ساعة البعث والخلاص . . .

ما أروع الحجارة الصامتة فى الإبانة والإفصاح !

إنها باقيه على الدهر ؛ إذا استلهمنا منها معالم الماضى فقد أمنّا الزلل والعثار فى تمثّل حياة الأقدمين . إنها لتكشف أدق خوالج النفس البشرية ظاهرها الواضح وباطنها الدفين !

هذه نواطح السحاب بقوامها الفارع تستعلى ولا تنى تستعلى ؛ فهى تفصح لك عن مركّب النقص فى النفس الأمريكية تكمن فيها نزعة تلك الأمة الفتيّة الناهضة التى أصابت ثروة واقتداراً ومكانة لاتزاحمها فيها أمة أخرى على بساط المعمور . . . نزعة كأنها تريد أن تصرخ قائلة للملأ :

— لستُ إلا أمة عظيمة زعيمة !

إنها لتحس أنظار البريطانيين مازالت ترمقها بنظرة إشفاق لا تخلو من حسد ، نظرة الوصىّ الذى نفض يده من الوصاية على قاصره الذى بلغ سن الرشد ، ذلك القاصر الذى ما فتىء يذكر لوصيّه ضروبا من القسوة والحرمان يعلو بهامته اليوم متحديا ، يريد أن يمد قامته ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ليثبت أنه أصبح ندّا قويًّا لوصيّه فى الزمن السالف !

على أن الأمريكى والإنجليزىّ على الرغم مما بينهما من تنافس وتسابق ، تصل بينهما وشائج وثيقة من لغة وعقلية وجنس ؛ فهما فى المحنة يتساندان ويتآزران ، ينسى كل منهما عهد الوصاية وما يدور حول تركتها من حزازات وأضغان !

وأثارنى عن تأملاتى وقفة السيارة . . .

لقد بلغنا باب الفندق .

ودلفنا إلى الردهة الكبرى . وكان علينا أن نلبث حتى نتبيّن أمر الحجرة التى أعدت لنزولنا . ووقفت أتأمل الردهة المضاءة بالكهرباء ومن يختلف إليها من الناس .

وراعتنى المصاعد لا تهدأ لها حركة ؛ فهى دائبة الصعود والهبوط ، لاتكاد تفرغ حمولتها حتى تغص بحمولة أخرى من تلك البضاعة البشرية الرائجة السوق فى هذا المكان . . .

وأخذت عينى ركناً رشيقاً ينيره ضوء جذّاب ، تمثّل لى مسرحاً يستهوى أعين النظارة ، فتدانيت منه ، فتبيّن لى أنه حانوت حوى طرفاً من كل شىء . . . إنه سوق مصغّرة تسعف كل طالب بما يطلب : فمن لفائف تبغ ، إلى كتب وصحف ، إلى حلوى أفانين ، إلى لُعَب وتحف وطرائف . فقصدت إلى معرض

الكتب أقلب فيه البصر . وما هى إلا أن بدا لى رجل فى مقتبل العمر ، باش المحيا ، وديع النظرات . فبادرنى بقوله :

— طاب يومك يا سيدى . . . يلوح لى أنكم من نزلاء الفندق الجدد .

— قَدِمْنا الساعة .

— أأول زَوْرَة هى لنيويورك ؟

— إنها أول زَوْرة لأمريكا كلها . . .

— من أى المواطن أنتم قادمون ؟

— من القاهرة .

— حقاً إنها لشقة بعيدة قطعتموها . . .

— لم تستغرق رحلتنا أكثر من ثمان وأربعين ساعة .

فأخذ الرجل يحملق فينا دهشا ، ثم مالبث أن ابتسم قائلا :

— إنها لإحدى معجزات الطيران . . . أرجو لكم إقامة طيبة .

— نشكر لك .

— لقد أحسنتم اختيار الفندق حقا .

— إنه اختيار صديق كريم ، حجز لنا أما كننا فيه .

— لقد كفاكم مؤنة البحث ومشاعب الاختيار . يتعذر أن يجد القادم سعة فى فنادق نيويورك على كثرتها . . .

وتلفتُّ أردّد البصر حولى فى الردهة ، فعاجلنى الرجل بقوله :

— إنه فندق مُريح على صغره . . . ست عشرة طبقة تحوى أربعمائة حجرة .

— أصغير هذا ؟

— إذا قيس بكبريات الفنادق . . . ولكن موقعه يجعله ممتازاً ؛ إنكم فى الشارع الخامس والأربعين ، قلب المدينة الخفّاق . . . خطوتان إلى الأمام تسلمانكم إلى الشارع الخامس ، أعظم شوارع نيويورك بل سيد شوارع العالم كله . . . خطوتان إلى الوراء تسلمانكم إلى برودواى أكبر ملتقى للملاهى وأفتن معرض للأنوار فى العالم أجمع . . . مُوَفَّقٌ حظكم ، إن القنصلية المصرية منكم عن كثب ، وكذلك دار البريد ، و . . .

وكانت يدى أثناء الحديث تعبث بالصحف والكتب ، وتعلقت أناملى ببعض المصورات الخاصة بمعالم المدينة وطرقها ووسائل مواصلاتها . . .

فانثنى الرجل يقول :

— حسن اختيـار . . . هذه المصورات ستفتح لك أبواب نيويورك على مصاريعها ، فتجوس خلالها على هدى . . .

وما كدت أنقده الثمن ، حتى سمعت غلام الفندق يقول :

— تفضلوا بالصعود إلى الحجرة .

فحييت صاحب الحانوت ، فودعنى بقوله :

— إنى فى خدمتك كلما دعت الحاجة .

ودخلنا المصعد فى حشد من الناس ، فإذا عاملة المصعد زنجية فى لبوسهـا الرسمى ، تولينا ظهرها ، واقفة دائماً وقفتها الجامدة ، لا تعيرنا أى التفات . . . إنهـا ليست أكثر من أذن تصغى لمطالب الركاب ، ويد تتحرك إلى باب المصعد فتحا وإغلاقا . . .

وخطونا إلى حجرتنا . . .

هرُوعٌ إلى الحمام ، لأطيح بتلك اللحية التى بدأت تطلع مع النهار ، وتعيث فى الوجه فساداً . . .

وجعلت أعمل الموسى فى ملل وفتـور ، وأنا أهمهم :

ربِّ لِمَ أنبَتَّ فى وجوهنا نحن الرجال هذه اللحى ؟ أو لِمَ تركتنا نهتدى إلى حَلْقها ؟

وما كدت اتمّ حـديث نفسى الضائقة بهذه الدقائق ، حتى أحسست أريج الطيب يفغم أنفى ، فرحت أخالس النظر ، فوجدت الحقيبة النسوية قد تثاءبت ، فأطلّت منها حِقَاق الأدهان والمساحيق ، وقوارير الطيوب والعطور ، تتلوها مناشف الوجه والمناديل والأمشاط ومشابك الشعر وشَبا كه . . .

فرَغْت ببصرى ، وعدت أتابع الحلق فى همة ورضا ، وأنا أغمغم :

— حَمْدَك اللهم على ما قسمتَ لنا . . . إنك بنا نحن الرجال رءوف رحيم !

ولم تمض غير لحظات ، حتى كنت قد فرغت من مهمتى ، وبدأت أنتظر إقفال حقيبة العطور والمساحيق ، إعلاناً لانتهاء مهمتها . . . ولـكن بضع نظرات خاطفة أفهمتنى أن الأمر ما يزال يتطلب مديداً من الوقت . . .

إذن فلأشغل وقتى بشىء . . .

لم لا أبدأ ارتياد المـكان الذى حللت فيه !

وقمت أجول فى الحجرتين الرشيقتين اللتين أعدتا لنزولنا ... كل شىء أراه حولى يشعر بتوفير الراحة فى سذاجة وبساطة وبيسر، راحة ترتفع عن كلفة التنميق والزخرف.

وأخذت يدى تتحسس الأثاث، ففتحت أول درج صادفنى فى الخوان المجاور للسرير، فطالعنى فيه كتاب ضخم فخم أسود الجلد تعينه ... وقدرت بادئ الرأى أنى أمام مجموعة من روائع شكسبير، إنه يماثل طبعات تلك المجموعات ... وجذبت المجلد، وفتحته اغتباطاً، فقرأت :

« جلس يسوع تجاه الخزانة، ونظر كيف يلقى الجمع نحاساً فيها، وكان أغنياء كثيرون يلقون كثيراً، فجاءت أرملة فقيرة، وألقت فلسين، فدعا يسوع تلاميذه، وقال لهم : الحق أقول لكم، إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا فى الخزانة؛ لأن الجميع من فضلهم ألقوا، وأما هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها، كل معيشتها ! ... »

ليس حديث شكسبير هذا ... إنه حديث من وحى السماء ! ... إن فلسفة شكسبير على حكمتها وعمقها وروعتها لتتضاءل أمام هذه الكلمات الساذجة التى يستمد منها الصغير والكبير نقاء السريرة ويقظة الضمير وطمأنينة الوجدان ... ما زال حديث السماء على تطاول الزمن وترادف الحقب وتطور العقول هو صاحب السلطان الأول على المشاعر والنفوس ... لطالما سمعنا فلاسفة الفكر ينادون بأن العقيدة الدينية على وشك الانهيار، بل إنها لم يعد لها من سطوة وجاه، ولكننا لا نلبث أن تواجهنا حقائق تسخر من هذا الزعم الموهوم ... إن العقيدة مثلها كمثل كرة المطاط إذا قذفتَ بها ورأيتها جادة فى هُوِيِّها إلى الأرض لم تحسب لها من رجوع، ولكنك لا تعتم أن تراها قد وثبت إليك فى عنفوانها أقوى مما كانت قبل ... لو مُنِيتْ مدنيَّتنا بالزوال، وهلكت بهلاكها روائع الشعراء وحكم الفلاسفة وعبقريات العلماء، لألفيت العقيدة الدينية تكمن فى النفس البشرية كمون الحياة فى الحَبِّ النابت !

كفى ثرثرة أيها الإنسان المتعالى بمادِّيته، المغرور بعلمه ... ألا فاشدد لسانك إلى حلقك، وأقصر عن التشدق والمباهاة ... إنك أنت أنت، ولن تتغير أيد الدهر، سواء أخفتك المغاور والكهوف أم سمت بك نواطح السحاب تظن أنك مزاحم بشعافها قوائم عرش الله فى ملئه الأعلى ! ... ما زلتَ

في حاجة إلى كلمة ساذجة تزخر فيها عناصر الأمل والطمأنينة والرضا لتردّ عنك العواصف من حيرة العقل وجفاف النفس وظلمة الحياة ! . . .

وأعدتُ الإنجيل إلى مستقره ، وعدت أتابع جولتي ، فرأيت لافتة من الورق المقوّى خصصت لتعلق على أبواب الحجر عند الضرورة . وقرأت فيها بحروف واضحة : « من فضلك لا تقلق راحتي » .

ومثلت خاشعاً أمام هذه الرقعة الغالية . . . إنها لتنيلك ما تنشد من راحة وهدوء في ركنك الصغير . . . إذا حرستك هذه اللافتة على باب حجرتك ، فلن يجرؤ على أن يطرق بابك احد ، وإنك لآمن في مستقرك تنعم بما تريد من خلوة وسكون .

هذه آية صغيرة تكشف لك جانباً كبيراً من عقلية الأمريكيّ الدقيق . تكشف لك ما يعانيه المرء في هذا البلد من جهد وكدّ وحمْلٍ على الأعصاب ، فهو في حاجة إلى الراحة يتشبث بها ما وسعه التشبث ، ويلتمس إليها كل السبل ، ويحيطها بالتقدير والإعزاز . . .

لَشدّ ما نحن مفتقرون إلى مثل هذه « اللوافت » . . . نعلقها على أبواب المنازل في مصر ، أولا أقلّ من أن نعلقها على أبواب « التلفونات » لو كان لها أبواب !

وتناولت اللافتة بيدي ، وأودعتها في رعاية وعناية مكاناً كريما لأستخرجها منه حين أريد . . .

ورجعت إلى الحمام ، أستطلع أنباء حقيبة العطور والمساحيق . . . أما آن لتلك القوارير والحقاق أن تعود إلى قواعدها ؟

ووقع بصري بغتة على رقعة صغيرة تحتل الركن المخصص لمواسي الحلاقة ، فقرأت في الرقعة :

« نرجو أن تقوم بنصيبك في الإقلال من أخطار المواسي المستعملة . . . لا تقذف بها حيثما اتفق . »

أين ترمي بموساك القديمة ؟ إنها حقا لمشكلة خطيرة على الرغم من مظهرها التافه ، إنه لينجم عنها أعظم الأخطار . . .

وتذكرت بابت ، وهو شخصية خلقهـا الكاتب الأمريكي سنكلر لويس في أحـد مؤلفاته . . . فقد كان بابت يقف كل صباح أمام المرآة وقفة حيرة

ممضة بعد أن يتم حلق لحيته ، وقفة مُسائل : أين يرمى الموسى ؟ أفى سلة المهملات حيث لا يؤمن شرها ؟ أم فى ركن واحدة بعد الأخرى ؛ فتتجمع لديه طائفة كريمة من المواسى الصدئة المثلّمة ! إنه ليقف هذه الوقفة الحيرى مرة كل يوم ، ولا يجد له مخلصا إلا بأن يقذف بالموسى فوق الخزانة ، وليكن من أمرها ما يكون !

وفى هذه الأثناء وضعت الحقيبة أوزارها ، فتهيأنا للانصراف . . . ولم أنس أن أتزوّد بالمصورات أحشو بها جيبى لأستعين بها على ارتياد الطريق . . .

ودخلنا المصعد نسأله الهبوط . . . الزنجية على حالها تستدبرنا ، وهى فى حلّتها الرسمية : دمية ماثلة ليست أكثر من أذن تصغى ويد تمتد . . . أتراها تمثالا آليًّا يتحرك ؟ أم هى حقًّا مخلوق من طينة البشر ؟

وغادرنا الفندق نقصد عيادة الطبيب . . . ولكن فى الوقت سعة ، إذن فلا بأس بجولة نلتمس بها متعة وسلوى .

وخطونا إلى الشارع السادس ، فألفينا أنفسنا فى عباب زخّار : الناس فى حركة موصولة ، كلٌّ فى شغل بنفسه ، والسيارات تذهب وتجىء ، مارقة مروق السهام . . .

ومررنا بحانوت يعرض « الفشار » . . . تلك الذُّرَة التى تقْلَى على النار فيخرج قلبها ناصع البياض ، كأنه الزهرة تتفتح لاستقبال الحياة . . . لقد كان هذا الحانوت يعرض « الفشار » عرضاً لطيفاً يجتذب العيون ، فعرجنا عليه كما يعرج الطفل إذا تعلقت عينه بشىء ، وأخذنا منه نصيبنا ، وانصرفنا مشغولة أيدينا ، ووالينا السير نأكل « الفشار » كما يفعل غيرنا لا نشعر بغضاضة ولا استنكاف !

وبعد قليل مررنا بحانوت عظيم ، يفد عليه الناس فوجاً بعد فوج ، ويصدرون عنه فى زحمة تبعث على العجب . أى حانوت هذا ؟ ماعلة ذلك الازدحام عليه ؟ ولكن ما لنا نسأل ؟ إن الناس يدخلون فلنكن معهم من الداخلين ، وإن الناس يخرجون فلنكن وراءهم فى الخارجين !

إن روح الطفولة تتحرك بين جوانحنا بما فيها من خفة وتطلع وابتهاج بكل شىء وعدم مبالاة بأى شىء . . . كنت أحس الطفل يستيقظ فى قرارة نفسى ويطل بنزواته وبوادره ، فيبدو أثر ذلك فى نظراتى وخطواتى ، وفى إحساسى بما يدور حولى من مشاهد وأحداث !

وما هى إلا أن خجلت من نفسى : كيف أعود طفلا ؟ وبدأت أراجع النفس وأناقشها الحساب . ولـكن نظرة واحدة حولى ، نظرة عاجلة إلى الناس يتدافعون فى غير اكتراث ، كَشَفَتْ لى أنى أحيا بين أطفال . . . أطفال يمرحون ويعابث بعضهم بعضاً !

إن الطفل ليكمن بين نفوسنا سجينا مهما ينضج العقل وتكتمل الرجولة ، وإن هذا السجين ليظل متربصاً خلف أسوار سجنه يرصد الفرصة ويلتمس المنفذ ، حتى إذا واتاه التوفيق حيناً لم تلبث الأسوار أن تنهار فى طرفة عين ، ولم يلبث السجين أن ينطلق من قيوده وعقاله ظافراً شروداً يلهو ويعبث ذات اليمين وذات الشمال !

ووجدنا أنفسنا ندخل الحانوت خلف شخص اخترته رائداً لنا دون إذْن منه ، وجعلنا نتفقد ما حولنا : موائد حافلة ، وأخْونة ممتدّة ، وصحاف عامرة تغدو وتروح ، روائح الأطعمة تداعب الأنوف ، الناس بين جلوس ووقوف لا مشغلة لهم إلا أن يأكلوا ويشربوا . ليس هناك للكلام مجال ، إنما هى أضراس تطحن ، وألسنة تلوك ، وحلوق تزدرد . . . أنكون قد طرقنا وليمة على الأسلوب الأمريكى ؟ أنكون قد دسسنا أنفسنا بين المدعوين تطفلا وفضولا ؟

أين ذلك الذى اخترناه يرود لنا الطريق ، علنا نستبين منه ما غمض ؟ . . . ووقعت عينى عليه وهو يشق لجثمانه مسلكا بين الجموع ، فاستقر أمام خوان رُصّتْ عليه أدوات الطعام ، ولا طعام . . . ورأيته يتناول صينية ويعمرها بما يلزم من أشواك وسكاكين ، فما هى إلا أن وجدتنى أحذو حذوه . . . وقَفَوْنا أَثَرَه ، فقادنا إلى خوان مستطيل تزدحم عليه ألوان الأطعمة والأشربة ، بين لحوم وخُضَر وفطائر وحَلْوَيات . . . وخلف الخوان خَدَم يعينون الطالبين على الظفر بما يشتهون .

حقا إنها لوليمة فاخرة . ولـكن أية وليمة هذه ؟ وما خَطْبها ؟ . . . ورأينا الرجل ينتقى ما راقه مما هو معروض ، يرّصه على الصينية ويسارع إلى الانصراف ، فلم نعتم أن نفعل كما فعل ، وأن ننتقى لأنفسنا ما انتقى لنفسه من الألوان ، لا ننقص منها ولا نزيد عنها دون إرادة أو تفكير !

وهرعنا فى أثره بصينيتنا نجلس منه على مقربة ، فإذا هو ماض مجدٌّ فى

التهام طعامه ، كأن وراءه من يتعجَّله ، أو كأنه يخشى فوات شئ ، فمضينا نلتهم حظنا من الطعام كشأنه سواء بسواء !

ونهض الرجل فنهضنا ، وخطا إلى الباب فخطونا . . . وهناك فى ركن خاص انثنى الرجل يُلقى بضع قطع من النقود ، فانثنينا نلقى مثلها ، ودفع الباب يفتحه ليخرج فكنا وراءه تابعين !

وهنا وقفنا . . . لقد انتهت مهمتك أيها الرائد الكريم ، صَحِبَتْكَ السلامة ، وشكراً لك على أن أرحتنا من متاعب الحيرة والارتباك فى سُوق البطون !

وسَمَوْتُ بعينى إلى جبين الحانوت ، فقرأت : « كافيتريا » .

أنكون قد دخلنا دون أن ندرى أحد تلك المطاعم الشعبية المشهورة التى لا يخلو منها رجاً من أرجاء نيويورك ؟ تلك التى يطرقها الآلاف من الآهلين فى كل ساعة من نهار ليصيبوا طعاماً طيباً بثمن مقبول لا يزعج الجيوب ؟

لقد أنْسَتنا سُوقُ البطون موعد الطبيب ، فلنعجَلْ إليه . . .

وحثثنا الخطا ، مخترقين الشارع السادس إلى الخامس ، نساير ذلك الخِضَمَّ العظيم ، ذلك الطوفان العميم ، تلك الجموع المتدفقة من الناس ، فسرعان ما وجدنا أنفسنا تلفّنا أمواجه ، وتقذف بنا إلى الأمام . . . ليس لنا طاقة بمناوأة هذا التيار الجارف ، لقد أصبحنا قطرة ضئيلة فى عُباب متلاطم ، فلا حيلة لنا إلا أن نندمج فيه ، وأن نترك أشخاصنا تفنى فى مُزْدَحَمِه . . .

كنت وأنا أتحرك فى مسيرى حركاتى الآلية أتطلع فيما يحيط بى من بشر وجماد ، فكأنما اختلط الجماد بالبشر ، ليس إلى التمييز بينهما من سبيل !

إنها قوالب ، قوالب تتحرك فى الطريق بلا روح ولا حس ، وقوالب أخرى قائم بعضها فوق بعض . . . حجارة تتوالى متحركة ، وأخرى تتراصّ متعالية !

يا لله من أمر هذه القوالب ! . . .

وويل للإنسانية من طابع تلك الحضارة التى تقوم على أساس من المادة كله صلابة وجفاف ! . . .

إنى لأخشى أن تكون القلوب البشرية قد غدَتْ هى الأخرى قوالب لا تنطوى على عاطفة ولا يصدر عنها نبض ولا خفوق !

وتنبهت إلى أننا نتابع السير ، لا ندرى إلى أية وِجْهَةٍ نحن ماضون .

والطبيب ؟ . . .

واجتهدنا أن ننتزع أنفسنا من بين تلك القوالب المرصوصة ، ثم انتحينا ناحية من الطريق ، واستخرجت ماحواه جيبي من المصورات والرسوم ، أستهديها وسيلة الوصول إلى دار الطبيب . . . إن المصورات لتتحدث حديثاً مستفيضاً عن مركبات الترام والسيارات الحافلة ، وعن القطارات التى تسرب فى باطن الأرض أو تجرى على معابر الجوّ . . . ووقفت أفاضل وامايز : ماذا أركب ؟ وطالت بى المفاضلة ، وإذا بعينيّ تزيغان ، وتتراقص أمامهما الخطوط والكلمات . . . ولكنى ما لبثت أن أحسست بنفسى أندفع داخل سيارة أجرة ، فما إن ثُبْتُ إلى وعيي ، حتى ارتفع صوتى بعنوان الطبيب اعلم به السائق . . . وتسللت المصورات إلى جيبى واحدة إثر الأخرى تخفى عن الضوء خزيها وخيبة أملها فى أن يكون لمشورتها مَقام !

ودلفنا بالسيارة إلى بارك أفنيو . . .

إن العظمة والروعة لتتجليان بحق فى ذلك الشارع العجيب . إنه لخليق بأن يحمل ذلك الاسم الذى أطلقوه عليه : « شارع الأرستقراطيين » لو كان للأرستقراطية معنى فى معاجم الأمريكيين . . . شقة فسيحة طويلة لايحدها الطرف ، تنبسط فى تنسيق وتنميق ، وتمتاز بالدقة فى الهندسة والرسم ، كأنما قيست فيها الأبعاد والمسافات بالسنتى والملى . . . يشقها مايسمونه « الحديقة » وما هى إلا بساط من سندس طرزت حواشيه بأشتات من شجيرات . . . أما شواهق هذا الشارع العظيم فإنك حين تنظر إليها تحس بأنها وإن كانت تماثل نواطح السحاب فهى تبدو هنا أجل مظهراً وآنق زخرفا وأبهى . . . إن السماء فى هذا الشارع الوسيع لتجد فرجة رحيبة تطل منها علينا وتبادلنا التحية فى غير ضيق . . . وهذه الأسراب المتكاتفة من السيارات يلاحق بعضها بعضاً كأنها حلبة سباق . . . وهذه المصابيح الملوّنة المتكاثرة على مَدّ البصر ، هى حرَسُ الطريق وشرطة المرور ، يتغير لونها تارة فيتحرك الشارع طولا ويسكن عرضاً ، ويتغير لونها تارة أخرى ، فإذا السكون حركة وإذا الحركة سكون . . . إنه لمهرجان رائع من النور والحركة يسوده نظام دقيق فريد يأخذ بمجامع القلوب !

وعرّجنا على شوارع أخرى نقطعها خطفا ، وما هى إلا بضع لحظات حتى

كنا أمام دار الطبيب . فهرع إلينا البوّاب فى حلته الرسمية الأنيقة يعيننا على النزول ، أو بالأحرى يوهمنا أنه يفعل من أجلنا شيئاً قيناً بالتكريم من التقدير . . . وكان على الرغم من شيبته واستبانة الشيخوخة فى تجاعيد بشرته صلب القامة أمرد الوجه خفيف الحركة مشرق القسمات . . . وتقدمنا إلى البهو حيث يقوم فى ركن منه مكتب « السكرتيرة » . . . فاستقبلتنا بابتسامة تقليدية ، وكانت سمحة المحيا فى لبوس أبيض ناصع ، معنية بأناقتها أتم عناية ، حتى إنها لتحرص على أن تزيّن جانب صدرها الأيسر بمنديل يزهو فى حواشيه وَشْيُ الربيع . . . فكأنما المنديل يستمد من نبع قلبها الدفاق نضارة الحياة !

وتبادلنا كلمات فهمتْ هى منها ماذا نريد ، وفهمنا نحن منها أنها من أمر قدومنا على بينة .

أخذنا مقاعدنا بين الزوار : بهو أنيق بهرتنى منه تلك الصور الزيتية التى تزدحم بها الجدران ، وتلك الأنوار الكهربية المسلطة على تلك الصور فى مسائرة ولباقة .

أفى عيادة طبيب نحن أم فى متحف فنى ؟

وانصرم الوقت وأنا فى شغل بهذه الروائع أتملاّها فى نشوة واستمتاع .

ثم طُلِبْنا لنصعد ، فواجهتنا بباب الطبقة الأولى « سكرتيرة » فى لبوس أبيض ناصع ، يطل من صدرها ذلك المنديل يوَشّيه زهر الربيع ، إنها نسخة من « السكرتيرة » الأولى فى كل دقيق من مظهرها وجليل . . . وتراءت لنا فتيات اخَر فى لبوسهن الأبيض ومناديلهن المُزْهِرة يغدون ويرحن قائمات بما بين أيديهن من الأعمال . إنهن نسخ متشابهة ، كأنهن جميعا فتاة واحدة يتكرر ظهورها أمام ناظريك . . .

أثمة قوالب أخرى تواجهنا فى تلك الدار الوادعة ؟

تلك هى الظاهرة الواضحة فى الحياة الأمريكية : تشابه وتماثل فيما تراه العيون من صغير وكبير ، صور متكررة لشئ واحد لا تغيير فيه ولا تبديل !

ودخلنا حجرة صغيرة ، وحُشرنا بين زمرة من الناس ، إنها إحدى تلك الحجر الزاخرة بطلاب الصحة . . . وما كدت أقتعد مقعدى ، حتى طالعتنى صورة كبيرة تزحم حائط الحجرة ، وقد سلطت عليها الأنوار تجلوها أروع

جلاء . . . إنها صورة بروميثيوس طريح صخرة عاتية تثقله الأغلال ، وهو يرنو ملتاع النفس جزعاً إلى النسر الجاثم على مقربة منه بمنقاره المعقوف الحاد ، يتوضح فيه سعار الجوع وتلهّب الظمأ ، وعيناه تتألّقى فيهما شهوة الفتك والشرّ . . . وهذا النسر يتأهب للانقضاض على ذلك الإله المنكود لينهش كبده ، شأنه معه فى كل يوم !

إن روعة الأسطورة اليونانية وما يتدفق فيها من حيوية وجلال ، ليتمثل فى فن هذه الصورة قوىّ الأداء ، صادق التعبير !

لله أنت من فنان أيها الطبيب !

إن المرء ليطمئن إلى مبضعك المتألق دون وجل أو تهيّب . . . لن تكون إلا فنانا فى طبك كما أنت فى ذوقك فنان !

إن المريض الذى يحيا فى عيادة هذا الطبيب وقتاً لينسى أنه فى مثابة علاج ودار استشفاء ، إنه ليتخيل نفسه فى معرض عامر بألوان التحف الفنية التى تَقَرّ بها العيون وتنشرح لها الصدور . . . إن الساعات لتتلو الساعات دون أن يحس المريض للوقت طولا !

أحيلة هى التمستها يا صديقى الطبيب ليغفل المريض عن مرضه ، ويوقظ فى نفسه الأمل وراحة البال ؟ أنت بهذا تضرب المثل الصالح ، وتعطى القدوة الحسنة . . . ألا يفكر غيرك من الأطباء فى ابتكار وسائل أخرى تحيل ذلك الجو القاتم المملوء بالفزع والرهبة جوًّا رخيًّا تشيع فيه نسمات الطمأنينة والثقة بالحياة ؟

وانتقلنا إلى حجرة ثانية : متحف آخر يتألق بما فيه من روائع الصور وباهر الأضواء !

وأخيراً طرقنا محراب الطبيب : حجرة صغيرة أنيقة ، ولكنها على صغرها حوت كل جديد فى فن العلاج الحديث . وبدا أمامنا الطبيب ، صديقنا المنشود : قامة ضئيلة ، ووجه ضامر بعينين تائهتين تشرد نظراتهما هنا وهنالك دون مبالاة ، وظلّ ابتسامة ترفّ على شفتيه ، أكبر الظن أنها كل ما فى جعبته من تحية واحتفاء !

وحوّمت فى الرأس خواطر خاطفة . . . أذلك حقًّا هو بيت القصيد فى رحلتنا إلى العالم الجديد ؟ أهذا هو مناط الرجاء ومَجزْ التمنى ؟ أهذا هو الذى من أجله طوينا بساط الريح على جناح العُقاب ، لا نبالى صعاب الرحلة ووحشة الاغتراب ؟

وسرعان ما بدأ الطبيب عمله . . . إنه لشحيح بالوقت ، ضنين بالكلام ، مقتصد فى الحركة والإشارة ، يحيط به سرب من فتيات متشابهات ، كل منهن مَنُوطٌ بها عمل خاصٌ لا تَعدُوه ، وإنهن ليَحْزِرْنَ ما يريد الطبيب من وحى نظراته ، فيؤدين عملهن صامتات . . .

وانقضت الزيارة فى هذا الجو الساكن ، حيث لا كلمة تقال إلا بمقدار ، ولا حركة تؤدَّى إلا بميزان !

وأحيل أمرنا إلى كبيرة « السكرتيرات » : رداء ناصع ، ومنديل يزهو على الصدر ، وابتسامة تتخايل على الثغر . . . وفى بضع لحظات عرفنا كل شىء ، العلاج : موعده ، مدته ، نفقاته ، سائر ما يتعلق به . . .

وغادرنا مكتب « السكرتيرة » الكبرى ، هابطين إلى ردهة الدار . . .

وبينما نحن ندير الحديث فى شأن العلاج ، تدانَى منّا شخص يطارحنا الكلام بلغة الوطن . . . هذا مصرى آخر رمت به النوى مراميها لمثل ما قدمنا من أجله ، وقد أوشك علاجه أن ينتهى . وفى لمح البصر زالت بيننا الكلفة ، وكأن الود يربطنا به منذ أعوام . . . ألسنا مصريين غريبين ها هنا ؟

« وكل غريب للغريب نسيب » !

واستطرد بنا الحديث إلى نفقات العلاج ، فتبين لنا أن الطبيب لا يسوِّى فى النفقات بين مَرْضَاه ، وإن كان العلاج على نحو سواء . . . وعلمنا أن هذه سنّة جديدة يتبعها كثير من أعلام الطب الأمريكيين . . . إن الطبيب هنالك ليقدر النفقة وفقاً لاعتبارات خاصة بالمريض كما يقول . . .

نظرية أمريكية حقًّا . إنها لنظرية طريفة تبدو عادلة راجحة ، ولكنها فى حقيقتها وجوهرها مرتع خصيب للمداورة والتلاعب من جانب المريض تارة والطبيب تارة أخرى . . . إن توحيد الثمن فى العمل الواحد والسلعة الواحدة ركن من أركان الاقتصاد القانونى ودقة المعاملة فى حضارتنا الحديثة . ولطالما عِيبَ علينا نحن الشرقيين أسلوب المساومة والتفاوت فى ثمن السلعة الواحدة ، وما يحيط بذلك من الألاعيب وضروب الاستغلال والانتهاز للفرص ، حتى لقد كانت السوق الشرقية مضرب المثل عند الغربيين فى فوضى الأثمان ، والتغابن فى البيع والشراء . . . إنى لأخشى على كُبْرىَ المدائن المتحضرة أن تنقلب بعد حين سوقاً شرقية تسودها فوضى المعاملات تحت ستار بهرج

من النظريات الاجتماعية الطريفة ، ظاهرها فيه العدل والرحمة ، وباطنها من قِبَله الجور والاعتساف ! . . .

إن حضارة اليوم القائمة على مبادئ إنسانية رفيعة جديرة بالتقدير نراها قد رقّت من بعض جوانبها فإذا بها عرضة للتمزق . ولو استمر الحال على ذلك لأصبح غزوها مطلباً ليس بالعسير ، ولأصبح انهيارها أمراً ليس بالبعيد . . .

زايلنا دار الطبيب . . .

لم نستمتع بعدُ ببهجة الشارع فى نيويورك . . .

إذن بنا إلى الشارع الخامس نجوب أرجاءه ، نروّح عن النفس ، وننأى عن حديث المرض والعلاج . . .

الناس أجمعون فى هذا الشارع يبين عليهم سيماء اليسر والرخاء : أناقة فى الزى وترف فى الملبس ، ورفاهية تفصح عنها المظاهر . . . النساء فى معاطف الفرو الثمان ، السيقان تكسوها غلائل الجوارب الفاخرة . ليس ثمة من ساق عارية . ولكن أى فرق بين الساق العارية والساق المصبوبة فى جورب رقيق النسج نمّام عن دقائق الفتنة والجمال ؟ . . . لا وحدة فى الزى ، ولا مراعاة لمألوف من التقاليد والعادات . إن بعض النساء لا يبالين أن يظهرن فى لبوس الرجال ، متخذات تلك السراويل الشائعة ، كأنهن فى البيوت متنقلات ، أو على الشواطىء متنزهات . . . ثمة طالبات يتخذن هذه السراويل تيسيراً للحركة ومسايرة للنشاط ، وثمة عجائز يتخذنها اجتذابا للأنظار إلى أطلال نضارة عفّت عليها السنون ، أو ستراً لسيقان ألح عليها الضمور والهزال !

وهذه وجهات المتاجر والمخازن . . . إن العبقرية الأمريكية فى الأناقة والتنسيق والتألق لتبدو فى هذه الوجهات بالغة الإبداع . . . إن الكماليات لتنافس الضروريات فى معارض تلك المتاجر ، فتغدو هى ضروريات ليس عنها غنى . . . ولم لا يكون الأمر كذلك ونحن فى عاصمة النعيم والثراء ؟

واسترعت نظرنا وجهة تزهو فى تألقها ، فوقفنا لحظة نتأمل فيما تعرض من ضروب الأحذية ، وما هى إلا أن وجدنا أنفسنا فى داخل المتجر نطلب حذاء راقنا شكله . وبدا حيالنا رجل أنيق حيّانا فى أدب تحية خاطفة ، وسألنا :

— فيم نرغب ؟

إشارة منه إلى ذلك المصعد ، ليبلغنا القسم الذى نجد فيه طلبتنا .

وصعدنا . . .

رجل آخر أنيق يحيينا تحيته الخاطفة ، ويدلنا فى عجلة على المكان المنشود ...

واتجهنا حيث أشار .

أنيق ثالث يرحب بنا على ذلك النحو المعهود .

يا لله من هؤلاء الأنيقين الوجهاء ! . . . كأننا فى قصر سيد غطريف تستقبلنا حاشيته !

وأشار الرجل بيده إلى ناحية قائلا :

ــ المشترى يتجه يميناً ، والمرافق يتجه إلى اليسار . . .

فخطوت يسرة ، فوجدت نفسى فى زمرة من الرجال يقتعدون مقاعد الانتظار . . . فى ذلك الركن يروض المرء نفسه على فضيلة الصبر والاحتمال !

وجلست أبادل الرفاق نظرات الاستسلام ، والتفت يمنة ، فإذا بالمشترين طابور كلٌّ ينتظر دوره . . .

وامتد بنا الانتظار ، فنهضت من ركن المرافقين أحاول أن أقتحم منطقة الشراة ، فما أسرع أن بدا الأنيق يعترض طريقى ، ويعيدنى إلى حيث كنت . . . ياعجبا ! . . . ها نحن أولاء فى هذا البلد الذى يوزن فيه الوقت بميزان الذهب ، نرانا أكثر الناس إضاعة لأوقاتهم وأشدهم تفريطاً فيها . . . ولكن ما الحيلة ، ونحن فى متجر عظيم لا تستقيم فيه الأمور وتدق المعاملات إلا بنظام مفروض له مزاياه وله مساوئه الجسام ؟ ... إن هذا النظام قد جعل شراء زوج من الأحذية يبلغ من التعقيد مبلغاً يزهد مثلى فى احتمال تبعاته ! . . . إنى لأوثر الحفاء على أن أبقى رهينة حزب اليسار ، أشقى بموصول الانتظار ! . . .

وبعد لأى خرجنا من المتجر ، بخفى حنين . . .

وأحسست بأعصابى تتهافت . . .

ولم نكد نمشى خطوات حتى شعرنا بوطأة الجوع ، فطرقنا مطعماً خلبتنا وجهته : صبغة وردية بهية تزهو تحت الأضواء الألاقة ، فتكسب المكان جواً سحرياً . . . ووجدنا أنفسنا قد انتظمنا فى صف طويل . . . وهذا طابور آخر . . . نحن فى بلد القوالب والطوابير ! . . . ذلك البلد الذى يروضنا على فضيلة الصبر والاحتمال . . .

وكنا نتحرك كالآلات ، نخطو إلى الأمام كلما خلا من أول الصف مكان .

وحانت منى التفاتة إلى الخلف ، فإذا بى أشهد طابوراً آخر سرعان ما ائتلف . . . فابتسمت ابتسامة امتزج فيها الإشفاق بالارتياح : إنى لمشفق على أولئك اللاحقين الجياع الذين ينتظرون دورهم البعيد ، وإنى لمرتاح على أية حال لما أصبته من سبق يعفينى من مضّ الانتظار . . .

وظهر أنيق يلقانا بوجهه الطلق ، ويولينا نظرته العَجُول ، وأصدر أمراً فى شأننا ، فتحركنا طوع أمره إلى المائدة التى فرضت علينا لا تفضيل ولا اختيار . . . وبدا سرب من فتيات المطعم يتنقلن بالصحاف بين الموائد خفاف الحركة رشيقات كأنهن ظباء بين الخمائل تنساب . . . وكن فى حلل وردية ومياذع ناصعة البياض قصار ، يشهد الله أنها لم تتخذ لتصون ما تحتها من ملبس ، وإنما اتخذت للزينة واختلاب العيون ! . . . إن هذه الظباء ليمثلن فى هذا المطعم فاتحة ألوانه الكريمة . . .

أية حاجة إلى المشهّيات بعد لقائهن ؟

وأقبلنا على الطعام . . . وكانت القاعة على ما فيها من حركة دائبة ، واكتظاظ بالرُّوَّاد ، لا تزعج أحداً بصوت ينكره السمع . كل شئ يسير على نظام دقيق ، إنه نظام الآلة الصمّاء ، حتى إن الأكل نفسه ليجرى على أسلوب آلىّ . . . يجب أن تأكل نشيطا ، وأن تخص جلستك للأكل وحده ، حتى تخلى لغيرك المكان . . . إنك لتحس صوت الطابور يهتف بك مُستحثًّا !

وزايلنا المطعم ، فواجهنا الشارع ، وقد اكتسى حلة من مختلف الأنوار ، وتبدّت وِجْهات المخازن والمتاجر فى زخرفها الفتّان . ولكن الوقت مساء ، والأبواب موصدة ، فليس إلا أن نتبادل النظرات قانعين ! . . .

والآن . . . إلى أين ؟

سؤال ألقيناه على أنفسنا ، فكانت الأجوبة شتى متباينة ، ولكننا لم نجد بينها جواباً يُزَيِّن لنا أن نعود إلى الفندق ! أنزُجّ أنفسنا فى حجرة الفندق تاركين مباهج الليل ويقظة الحياة ؟

وألفينا أقدامنا تدفع بنا إلى برودواى . . .

ورحنا نمخر عبابه المتلاطم : مواكب من الناس تسبح فى فيض زاخر من الأضواء . . . إن برودواى علم من أعلام النور ، بل إنه اسم من أسمائه ومعنى من معانيه . . . إنه الحىّ الذى يجد فيه كل امرئ ما تصبو إليه نفسه

من ضروب الملاهى وألوان التسليات ... هذه دور اللهو والطرب ، تتخللها مطاعم ومشارب رشيقة فاخرة ...

لا أثر هنالك لماندعوه « بالقهوات» ... إن الناس لايجدون وقتاً ينفقونه فى الثرثرة ولغو الحديث ، وإنما يحلون تلك الأماكن ليطفئوا الظمأ ويردّوا الجوع !

وطرقنا مشربا ، أو سمه مطعما ؛ فالمطاعم هى المشارب ، وهذه هى تلك على حدٍّ سواء ...

رجعة إلى نظام الطوابير ... حتى للحصول على قدح من شراب !

واحتللنا مائدة ، فجلست أدور بعينى ، فرأيت صفًّا من الروّاد على منضدة الحانِ قد جلسوا أزواجاً ، كل امرئ وصاحبته ، وهما يمزجان المدام ، بمناجاة حب وهيام ... وخلف هذا الصفّ صفّ آخر من رُوّادٍ ينتظرون دورهم فى الجلوس ، ونصيبهم فى تناول الصهباء ونجوى الغرام ، وهم ينظرون إلى صف الجالسين أمامهم نظرات التعجُّل والاستحثاث ! ...

إن الحب هنا محدود يقاس ويوزن ... باب الغرام يطرق دون مداورات ومقدمات ... إن المحب ليقتحمه اقتحاما فيحظى بلبابه ميسور المنال ، خالصاً من هموم الدلال والمطال !

قل لحبيبتك كلمة خاطفة ، وبادلها بسمة خاطفة ، واقتطف من وجنتها قبلة خاطفة ، وأخلِ مكانك لمن خلفك قد أضناه الهوى وضاق بالانتظار !

أين أنت ياعمر ؟ يابن أبى ربيعة ؟ ... ماذا يكون موقفك من هذا الحان الأمريكى ، مثابة ذلك الحب الخاطف ؟ أكنت ترضى بمثل تلك الجلسة العجلى ، وقد تعودنا أن نسمع منك فى صبوتك آهات كل آهة منها تتطلب ليلة كاملة ؟

عفا الله عن ذلك الحب الكسول فى دنياك القديمة ، وحيا الله ذلك الغرام الأمريكى العجلان !

حسبنا ذلك الآن من برودواى ...

وإن لنا إليه لرجعة بل رجعات ...

محمود تيمور

تراث الأندلس

إن بلداً كأسبانيا لن يستطيع أن يستكين لحظ تافه . فهذا المضلع الشاسع القائم عند طرف أوروبا الغربى ، ذو التضاريس المتعرجة المتعددة والآفاق المتباينة ، يؤلف مجموعة جغرافية هى أقل المجموعات تناسقاً . فالحياة تختلف فيه بين إقليم وآخر ؛ فهى سهلة ناعمة هنا ، وخشنة قاسية هناك . ويتفاوت أهلها تفاوتاً عميقاً تبعاً لجنسهم وأرومتهم ؛ وقد لا توجد بقعة على وجه الأرض مثلها تتباين فيها خصائص أهلها ، حتى لقد تؤدى إلى الاصطدام أحيانا بطريقة مروعة . وقد كان حظها — حتى نهاية العصر المتوسط على الأقل — خاضعا لمركزها الجغرافى ولظرف تاريخى غير عادى عظيم المدى : هو وجود الإسلام على جزء كبير من أرضها ، فكان ذلك يتطلب من الفريق الآخر بذل مجهود أشبه بمجهود الحروب الصليبية ، واستذكاء هذا المجهود عدة أجيال متعاقبة .

إن لأسبانيا واجهتين بحريتين ، تشرف إحداهما على البحر الأبيض المتوسط ، وهو طريق المدنية القديمة ، وتطل الأخرى على المحيط الأطلنطى الذى بقى أمداً طويلا محيط الظلمات ومقر المجهول المخيف . وتتصل ببقية أوروبا بحاجز مؤلف من سلسلة جبال وعرة عسيرة الاجتياز هى جبال البرانس . أما إلى الجنوب ، فانها على العكس ، تكاد تلمس أفريقيا ، ولا يفصلها عنها إلا مضيق جبل طارق . إنها فى الواقع جزيرة ، وهى جزيرة بغير ما شك هائلة ، ولكنها جزيرة مشاغة — بفضل تكوينها الطبيعى — بين أوربا وأفريقيا . فهى بمثابة المزلاج ؛ لأنها توصد باب البحر الأبيض المتوسط فى الغرب ، وهى بمثابة الجسر لأنها على الرغم من العوائق الطبيعية التى تعزلها عن بقية أوربا وأفريقيا ، بمثابة الطريق الأرضى الوحيد الذى يصل بين هذين الجزأين من العالم ، والحضارات التى تستطيعان تمثيلها .

لقد أدرك العرب تمام الإدراك صبغة أسبانيا الجزائرية إذا أطلقوا عليها اسم « جزيرة الأندلس » . ويخال أنهم أدركوا بسرعة أن هذه الولاية الشاذة عن إمبراطوريتهم والتى ضمت إليها بفضل مغامرة فجائية جريئة غير منتظرة ، كأنها ، فى تلك الإمبراطورية ، بمثابة «زحف» حقيقى إلى جوار الغرب المسيحى مباشرة ، وإلى أبواب أوربا التى كانوا يجهلونها ويقتصرون على تسميتها ، بغير تحديد ، باسم « الأرض الكبيرة » . وعند ما انشقت الأندلس سياسيا عن تلك الإمبراطورية ، بعد بضع عشرة سنة ، لتصبح دولة لأحد الأمراء المهاجرين من الأسرة الأموية التى حكمت فى سوريا ، وجدت هوة زادت مع الأجيال عمقاً واتساعا ، فلم تلبث أن انفصلت عن الشرق العربى فزاد صبغتها الجزائرية ، وفى نفس الوقت ، زادت خصائصها .

على أن خصائص أسبانيا الإسلامية لم تنشأ فقط عن عزلتها عن بقية العالم العربى والبون الشاسع الذى يفصلها عن الشرق ، بل كانت هناك شتى الأسباب الداخلية : اختلاط الأجناس فى شعب قليل التجانس مؤلف من أقلية من العرب ، ومن البربر الذين جاءوا من أفريقيا الشمالية ، ومن الفرنج ، ومن السلاف ، ولكن بصفة خاصة من جمهور الأهالى الذين اعتنقوا الإسلام ، والمولدين ؛ ثم وجود جماعات هامة من سكان المدن والريف الذى ظلوا على مسيحيتهم دون أن يضطهدوا بفضل التقليد الحر فى النظام السياسى الأندلسى ؛ ثم اختلاط طوائف يهودية نشيطة فى وسط المجتمعات ، أيًّا كانت أهميتها ، تحت حماية السلطة المركزية الإسلامية . وهى خصائص ترجع أيضاً إلى استعمال اللغة الرومانية المشتقة من اللاتينية ، إلى جانب اللغة العربية ، وأحياناً لغة البربر ؛ وهى خصائص ترجع فى النهاية — وهذا هو العامل الجوهرى بغير شك — إلى الإطار الجغرافى الذى يختلف جدًّا ويمتاز كثيراً فى مجموعه عن إطار جميع الجهات الأخرى من دار الإسلام . وإنه لمن المؤكد أن سكان المدن ، والقرويين ، وسكان الجبال ، والفلاحين المقيدين بأعمال الأرض ، كل هذه المجموعة التى كانت تؤلف الشعب الأندلسى فى جنوب شبه الجزيرة ، فى العصر الإسلامى ، كانوا أقل شبها منهم اليوم بمواطنيهم فى أودية أسبانيا الوسطى المرتفعة ، وأقل ذلك طبعاً ، بأعدائهم الألدّ فى مملكة ليون وقشتاله المسيحيتين . على أن أندلسى السهول والجبال والمناطق الساحلية الخصبة أو أعالى الجبال الوعرة القاحلة ، كانوا مع ذلك متقاربى

الشبه إلى حد أنه قد رسخ فى أذهانهم ، رويداً رويداً وبغير ما إدراك ، شعور بأنهم ووطنهم يؤلفون شيئاً فذًّا فى عالم الإسلام .

على أنه يجب الاعتراف مع ذلك بأن الأدب العربى فى أسبانيا لم يعبر صراحة عن هذا الشعور إلا نادراً . وإنه لخليق أن نذكر بإكبار محافظة الأندلس — إبان تاريخها بأكمله — على تمسكها ببقية العالم العربى وعبقرية حضارته تمسكاً يملؤه الإجلال القريب من الشعور البنوى . ولقد تجلى هذا التمسك ، أول ما تجلى ، فى الدين . فما أن اعتنقت أسبانيا الإسلام حتى جاهرت بحزم بأنها محافظة ، وظلت بعد ذلك مرتبطة ، من ناحية السنّة والشرع ، بتقاليد العصور الأولى . وشاع المذهب المالكى فى جميع أنحاء الأندلس حتى النهاية . واهتم بنشاط لا يعتوره وهن بقمع كل محاولة ترمى إلى نشر التيارات الجديدة . واضطهد الزندقة . واحتفظ للبلاد بتعلقها الوثيق بأهداب الدين . وحارب بقسوة المفكرين الذين كانوا يسعون إلى التحرر من قيوده كابن مسرة وابن حزم دون أن نذكر غيرهما . وتخف تلك الشدة ردحاً من الزمن خلال حكم المرابطين ؛ إلى أن جاء الموحدون وفرضوا على الأندلس سنّة للتوحيد أشد صرامة وقسوة .

على أن هـذا الاتجاه المحافظ يتجلى كذلك فى أسبانيا فى عدة نواح غير الدين . أما من ناحية الحياة الاجتماعية بصفة خاصة ، فاننا لو نظرنا إلى تلك البلاد عن كثب فإننا نجد أنها تظهر — حتى القرن الثانى عشر على الأقل — بمظهر عتيق جدًّا هو نفس الذى ظلت تحافظ عليه مراكش الوريثة الفعلية للحضارة الأسبانية الإسلامية وعقائدها إلى عهد قريب جدًّا ، وظلت مدنها الكبيرة ، فاس ، ورباط ، وططوان بصفة خاصة ، تحافظ على مظهرها الوفى للمدن الأندلسية . ففى هـذه المدن ، وفى خلال العصر المتوسط من أوله إلى نهايته ، ظلت إحدى طبقات المجتمع ، وهى طبقة الفقهاء ، تتمتع بمكانة ممتازة . ولم تكن هذه التسمية تشمل علماء الشرع فقط ، ولكنها تتجاوزهم إلى جميع ممثلى العلوم العربية الدينية كما كانت تزدهر ، فى نفس الوقت ، فى الشرق ؛ أما فى أسبانيا ، فيجدر القول بأن عدد الفقهاء من أصل بربرى أو المولدين كان يزيد على من كانوا من أصل عربى .

وهذا الاتجاه المحافظ الذى يقوم على احترام التقاليد الشرقية ، يفسر أيضاً

لماذا ظل عدد كبير من المعاهد الإسلامية القديمة قائماً فى أسبانيا فى حين أنها كانت ، فى بقية العالم العربى ، تنهار شيئاً فشيئاً وتتلاشى . إننا نعلم إلى أى حد من الغيرة استطاعت أسبانيا أن تصون التراث الذى نقلته إليها خلافة دمشق وتحتفظ به كاملا ، وإن مجرد بقاء « تقليد سورى » قائماً واستمراره أمداً طويلا ، لهو من الصفات البارزة للحضارة الأندلسية ، حتى فى الوقت الذى اضطرت فيه تلك الحضارة إلى قبول ما دخل عليها ، وبصفة خاصة ، فى الوقت الذى تركت فيه بعض تيارات حضارة بغداد — المتشبعة بدورها بالحضارة الفارسية — تطغى عليها .

وقد كان من نتائج هذا الاتجاه — فى عالم الأدب — أن كف إلى الأبد عن الإنتاج الممثل للعبقرية الأندلسية على حقيقتها ، وظل الأدب العربى الأسبانى ، حقبة طويلة ، لايؤلف إلا جزءاً من مجموع الأدب العربى وإن كان بالفعل مشرفاً فهو عار عن كل شخصية . وكان يخال أن أغلب الكتاب فى أسبانيا الإسلامية ، وفى جميع العصور ، قد أجمعوا على عدم الاهتمام — إلا فى بعض مؤلفاتهم المتناثرة فى النثر الفنى والنظم العامى — بالوسط الجغرافى والمركب الجنسى المميزين لهم واللذين يتألف منهما إطار حياتهم اليومية . فقد كانوا يؤثرون الانتقال بالفكر إلى شرق كان أكثرهم لايلمون عنه بمعلومات أكثر مما هو مدون فى الكتب ليستلهموا منه نفثات وحيهم . لقد ازدروا الموارد التى تنطوى عليها تربتهم الخصبة العذراء ، ومالوا إلى سبر غور غيرها مما نفد استغلاله منذ عهد بعيد ونضب معينه . وكان اللغويون وكتاب النحو والعروض ، ومصنفو المعاجم ، وشراح الغرر الأدبية ، يكتبون فى أسبانيا وهم ينتقلون بشخصيتهم إلى بلاد العرب أو العراق . فكاتبٌ مثل ابن عبد ربه يهتم بوضع ديوان من الشعر الشرقى ، ولغوى مثل ابن سيده يضع موسوعته دون أن تجد فيه اللغة العربية الأندلسية ، وهى لغته الشخصية ، أدنى مجال . بل الشعراء أنفسهم ، فقد كان أكثرهم يرتاح إلى الوضع الذى جرى عليه أسلافهم الشرقيون ، وكان لابد لهم من وقت طويل ليدركوا فى النهاية ، أنه توجد ، تحت أنظارهم ، طبيعة منسجمة جميلة جديرة بأن توصف هى أيضاً دون أن تفقد من قيمتها . بل إنهم ، عندما أدركوا ذلك ، كانوا لايحسنون التخلص دائماً من تأثير التقاليد الشرقية المستبد والذى كان يتجلى فى شكل استعارات أدبية ، وذكريات ،

واستشهادات . وكثيراً مايرى الإنسان نفسه أمام متتبسات أو كتابات أحسن فيها التلاميذ تقليد أساتذتهم .

ولن تكون مقاومة هذا الاتجاه دائما إلا مجرد محاولات فردية . فبعض النقاد ، وبعض كتاب المختارات الشعرية ، أمثال الفتح بن خاقان وابن بسام ، يشيرون أحياناً إلى المحاولات المتواضعة التي يقوم بها بعض الأدباء الذين يفكرون في التخلص من قيود أدب كلاسيكي لا تناله يد ووصل إلى حد الاتقان . على أن مسألة ابن حزم ، الذي يقرر في مقدمة « طوق الحمامة » بأنه أندلسي ، وأنه لا شأن له باستلهام الوحي بذكر صحراء العرب والبدو الذين يخترقونها ، ستظل مسألة فردية للغاية ، وستظل أكثر البحوث الملهمة مقترنة بالعالم العربي الشرقي .

وكان لابد أن تزدهر أنواع جديدة من الأدب ذات صبغة شعبية وموجهة إلى جمهور أكثر انتشاراً لا إلى فئة مختارة ذات ثقافة كلاسيكية ، ليتم التوازن إلى حد ما ، مع ذلك التمسك بالمدارك التقليدية البحتة . وإنني أقصد بصفة خاصة ، وبدون إفاضة هنا ، أنواع النظم المعروفة بالموشحات والزجل التي زانها كثير من الأندلسيين ، وبصفة خاصة ، أبو بكر بن قزمان . لقد يتسنى قريباً ، متى عرفت مؤلفات هذا الشاعر معرفة تامة ، أن تعرض بوضوح تلك المسألة المركبة التي طالما نوقشت ، وهي احتمال تأثير شعر الزجالين الأندلسيين في المداحين البروفانسيين ، وتأثير الشعر العربي بلهجته الأسبانية في الشعر الروماني في الغزل الرقيق . ويجدر بالذكر هنا أن هذه الأنواع الجديدة ، بمرورها السريع من أسبانيا إلى الشرق ، بتيار معكوس ، إذا صح هذا التعبير ، وانتشارها العظيم في الحال ، قد توجد تعليلا قيما يجعلنا نفرض أن هنالك تأثيرات أندلسية كان يمكن أن تسيطر على العالم العربي لو أن أسبانيا — بعد أن تكون قد جددت نفسها — أرادت أن تعنى بذلك .

على أن دورها الحقيقي حيال الحضارة العربية كان غير ذلك ، بل ربما كانت قد فهمت هذا الأمر في شيء من الغموض . إن دورها الحقيقي ، الذي كان يجب أن تؤديه كاملا ، هو أن تشرق بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، على غرب أوروبا ، وأن تنقل إليه على الأقل جزءاً من التراث الذي ورثته بدورها عن الشرق واحتفظت به بشغف في أرضها ، سواء أكانت قد طبعته بطابعها الخاص أو لم تطبعه .

ففي أسبانيا بالطبع ، وبعد مرور مايقرب من نصف الألف من السنوات منذ نهاية استرداد أسبانيا نهائيا ، يظل تراث الأندلس خالداً وأقرب منالا ، فأثره العميق مازال واضحا في جميع أنحاء شبه جزيرة إيبريا ، ولكن ، كما هو طبيعي ، في المقاطعات القبلية والشرقية التي ظلت تدين بالإسلام طويلا . وهناك نكهة من العربية تضوع في جو كثير من المدن ، كبيرة وصغيرة ، لم يتغير في الغالب تركيبها منذ العصر الإسلامي . إن طابع أسبانيا العربية يتجلى في الفن الشعبي والاصطلاحات الصناعية ، وطرق استغلال الأرض ، وطرق الزراعة والري . لقد أثر هذا الطابع تأثيراً عميقاً في الخرافات الشعبية ، وموسيقاه ، بل في طريقة المعيشة والتصرف والتفكير عند جماعات هامة من الشعب . إن اللغة العربية الأندلسية ، باصطلاحاتها اللفظية الخاصة ومقاييسها الخطابية ، قد ساعدت كثيراً على تكوين مفردات لغة قشتاله ، وهي كما هو معلوم ، لغة أسبانيا الوطنية ؛ على أن الكلام الدارج في بلنسية ومرسية وغرناطة يشتمل على نسبة أكبر من الألفاظ العربية . هذه الاستعارات المباشرة تؤلف معجماً متنوعاً جداً ؛ إذ يتضمن الاصطلاحات الفنية الزراعية ، وأسماء الأعشاب والنباتات ، والأشجار ، والفاكهة ، والأقمشة ، والأثاث ، والألوان ، بل تسمية مئات من المعاهد العامة ، مع معاهد الموظفين التابعين . إن جزءاً كبيراً من الكلمات والاصطلاحات لأسماء الأثاث الفاخر والزينة ما زالت إلى اليوم من مصدر عربي . وإنه ليس من الجرأة في شيء أن نستنبط أن الأسماء قد مرت إلى أسبانيا المسيحية في نفس الوقت الذي مرت فيه المسميات ، وأنه اعتباراً من القرن العاشر على الأقل ، دخلت أزياء قرطبة ، وأشبيلية ، وطليطلة ، وسرقسطه الإسلامية في دور الأمراء المسيحيين في شمال البلاد ، حيث حملت للمرة الأولى ، إلى أرستوقراطية تملؤها الفضائل الحربية ولكنها غير مثقفة ، معنى البذخ والترف ، أو ما هو أبسط ، معنى الرفاهية والراحة . وبعد قليل من تحرير ولايات أسبانيا الوسطى وعودتها إلى أحضان المسيحية ، لعبت التأثيرات كذلك بقوة أشد ، خصوصاً عن طريق المستعربين الذين ، مع إنكارهم للإسلام ، لم يتخلوا إطلاقاً عن ثقافته ولغته . إن في استمرار استعمال اللغة العربية في جميع الاتفاقات ، وفي جميع عقود البيع في طليطلة زهاء جيلين أو ثلاثة أجيال بعد فتحها التاريخي بمعرفة ألفونس السادس عام ١٠٨٥ ، لدليل واضح على الطابع

الذى خلفته هذه الحضارة . وبعد ذلك العهد أيضاً ، حين تلاشى استعمال العربية أمام الأسبانية عند طوائف الموريسك الذين ظلوا على إسلامهم ، فإن الكتابة بالعربية ، لا باللاتينيــة ، هى التى كانت تستعمل لتحديد النطق ؛ وبالحروف العربية أيضاً كانت تدون كتب التعاليم المسيحية ، ومختارات الصلوات ، بل كذلك بعض المؤلفات أو المستندات ذات الصبغة العلمانية .

ففى نقل هذا التراث الإسلامى الأندلسى ، يجب أن يراعى ، إلى جانب الدور الذى لعبه المستعربون ، الدور الذى لعبه الوسطاء اليهود بين الثقافتين . كان يهود أسبانيا الذين يتكلمون لغتين (خلاف العبرية لغتهم الدينية) كثيرى التنقل ، بحجة الأعمال ، من الولايات الإسلامية إلى الولايات المسيحية ؛ وكانوا كثيراً ما يتجاوزونهـا إلى فرنسا حيث كان يجذبهم وجود طوائف يهودية كبيرة فى مقاطعتى اللانجدوك والبروفانس .

إنه لابد من صفحات كثيرة لكى نحلل تماماً الأسباب المتعددة التى سهلت بل فرضت أيضاً ، بصفة عامة وبطريقة غير مباشرة وبمساعدة المراحل المتعاقبة ، الحصص التى قدمتها الحضارة الإسلامية لأوربا الغربية التى لم تفكر إطلاقاً فى نبذها بسبب موردها . إن ما يهم هو أن نحاول ، فى مقال بسيط ، أن نستخلص الدرس الذى تتضمنه هذه الحصص وتنطوى عليه .

إن المؤرخين يدركون اليوم — وتلك نغمة جديدة — أن أوربا ، اعتباراً من القرن الثانى عشر ، لم تحصل من انتصاراتها الحربية على الإسلام ، سواء فى غرب البحر الأبيض المتوسط أو فى شرقه ، على أرباح مادية فقط ، ولكنها حصلت أيضاً على أرباح لاتقل شأناً ، إذ هيأت لها الفرصة لتفتح عينيها على عالم آخر وتوسع ، بطريقة عجيبة ، أفق مداركها العقلية . لقد استطاعوا أن يقولوا ، وليس ما قالوه اغتباطاً ، إنه وإن كان من غير الحكمة أن يسند إلى علماء الإسلام الفضل الوحيد فى كثير من الاستكشافات المنسوبة إليهم بحكم التقاليد ، سواء فى عالم الفلسفة أو العلوم الصحيحة ، إلا أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأنهم ، فى الشرق وبصفة خاصة فى أسبانيا ، قد أذكوا بنشاطهم الذى لم يعتوره كلل أو ملل ، شعلة لولاهم لأوشكت أن تنطفىء : وهى النظر إلى الأمور نظرة علمية . ومن ثم ، هدوا أوربا إلى الطريق ، ووضعوا فى متناول يدها مجموعة من المؤلفات الرئيسية ، وقطعوا شوطاً بعيداً فى طريقة معرفة اللغات والآداب القديمة وفى طريق النهضة العلمية .

ففى القرن الثانى عشر إذن ، وبينما كانت الممتلكات الإسلامية فى الأندلس قد تضاءلت تماماً ، بدأ يتجلى تعاون الثقافتين ، العربية واللاتينية ، تعاوناً وثيقاً مثمراً . لن تكفى الإشارة مطلقا إلى أهمية مدرسة المترجمين التى أسسها أمير أسبانى مثقف هو الفونس العاشر العالم ، وأدارها تحت رعايته فى طليطلة ابتداء من عام ١١٣٠ . فقد صدرت عن هذا المجمع المنقب الذى تعاون فيه المسلمون واليهود والمسيحيون ، عدة مؤلفات علمية كانت إلى ذلك العهد مجهولة فى أوربا ، ونقلت إلى الغرب : كمؤلفات أقليدس ، وبطليموس الإسكندرى ، والخوارزمى ومسلمة الأندلسى .

إن يكن دور أسبانيا الإسلامية ، بحسب الحوادث والأزمنة ، دور ملهمة للمبادئ التى تجلت عنها عبقريتها بالذات ، أو ، مع التواضع ، إن تكن قد اتخذت مرحلة للعلوم العربية والثقافة الشرقية ، فإن فضلها فى ذلك لن يكون أقل أثراً أو شهرة ، وإنه ليكفى تماماً ليسوغ ذلك الحب الرقيق الطاهر الذى يبديه نحوها جميع ممثلى الثقافة العربية العصرية ، والفلاسفة ، والعلماء ، ونقاد الأدب ، وكذلك الشعراء والروائيون ، وكتّاب المسرح . ففى اليوم الذى تقوم فيه مصر بصفة خاصة ، بالمهمة التى تهيأت لها بكرم ونبل لتنشر المؤلفات الرئيسية العديدة التى لم تنشر بعدُ عن الأدب الأندلسى والتى تتضمن لمحة من الحضارة الهسبانية ، فى ذلك اليوم يتجلى تراث الأندلس الروحى أكثر مما هو عليه ، ويسترد مكانته الكاملة ، ويصبح خط اتصال أوجدته العناية بين الشرق والغرب عند حدود الأزمنة العصرية .

ا . ليفى - بروفنسال

نقلها إلى العربية سليم سعده

المصريون والمحافظة على القديم

يقال عن المصريين إنهم من أشد الأمم محافظة على القديم . فالمدنية المستقرة نشأت فى بلادهم منذ أقدم العصور ، بل هى قد تكون فى مصر أقدم منها فى أى بلد آخر ؛ ومع ذلك فقد سارت الحياة على وتيرة واحدة أو وتائر متقاربة متشابهة من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر ، قد توارث الناس مقومات الحياة وأسس الحضارة والمدنية ، واحتفظوا بتقاليدهم وعاداتهم ، بل حافظوا عليها ودافعوا عن قديمها ، فلم يستهوهم التغيير ولم تغرهم النزعة إلى التجديد. وكثيراً ما يكتب الكاتبون ويقرأ القارئون أن الفلاح اليوم يعيش ويفلح الأرض كما كان أجداده يفعلون أيام الفراعنة ، بل قبل أن يطلع فجر التاريخ ؛ فالحاضر فى مصر صورة منعكسة من الماضى ؛ والأيام تمر فى مصر ولكن الحياة لا تسير ، وإنما هى ثابتة على أصولها لا تتحول ولا تتبدل ؛ والسنون بل القرون يتداعى بعضها إثر بعض فى وادى النيل ، ولكن الحضارة الزراعية المصرية لا تتحور ولا تتطور . فاليوم أمس متكرر ، والغد لا يعدو أن يكون يوما من أيام الحاضر ، فهو أمس ينشر قبل أن يموت !

على أن هذا الكلام إن كان صحيحاً فى بعض نواحيه ، فإنه مع ذلك لا يكاد يثبت للبحث العلمى الصادق ؛ لأنه لا يمثل غير صورة منقوصة من الحقيقة . وقد يكون من المفيد أن نحاول فى هذا المقال أن نلم بطرف أو أطراف قليلة ندلل بها على أن استمرار الحياة والحضارة فى مصر لم يكن معناه الجمود ، ولم يكن مرده فى كل الحالات ، بل ولا فى غالبها ، إلى نزوع المصريين إلى المحافظة على القديم . فنحن إن سلمنا بهذا القول على عِلاّته وجب أن نسلم بأن البيئة المصرية بيئة عقيمة ، ولدت مرة ثم أصابها العقم والإجداب بعد ذلك ؛ بل وجب أن نسلم بأن روح مصر وإن بقى حياً لم يمت ، فإنه روح خامل ، قد قنع أصحابه من الحياة بما نفخ الله فيهم أول مرة ، فهم لم يتعدوا فى آخر مراحل تاريخهم

ما بلغوه فى أولى مراحله ، بل هم لن يجاوزوا فى آخر الدهر ما كانوا عليه فى فجر التاريخ . . . وهم إن استطاعوا ذلك فلن يكون تجاوزهم إلا على قدر معلوم !

الواقع أن البيئة فى مصر من ذلك النوع الذى يكرر نفسه فى نظام فعلى عجيب . فالنيل يرتفع وينحسر فى كل خريف ، والفيضان يجدد ثروة الأرض فى كل عام ، والعمل الزراعى يتطلب نشاطاً معيناً لا يخرج عن نطاقه المرسوم متى قسمت الأرض إلى حياض ترويها الترع وتحدها الجسور ، وحياة الجماعات فى قرى الوادى ينظمها عرف عريق فى القدم ، قد وضعت اسسه ونواميسه الأولى عند ما تحول السكان من الحالة القَبَلية ، أى التى كانت فيها القبيلة وحدة المجتمع ، إلى الحالة القروية أى التى صارت فيها القرية نواة المجتمع . كذلك الاتصالات بين الجماعات فى جنوب الوادى وشماله حدثت كلها أو جلها عن طريق النهر وجسوره ؛ إذ مهدت الطبيعة لأن يتم التعارف بين الشمال والجنوب ، بل لأن تمتاز الحياة فى الوادى ودلتاه عنها فى غير مصر مما يقع فيما وراء الصحراء أو ماوراء البحار... واستمتعت مصر خلال تاريخها الطويل بنوع من العزلة النسبية وراء دروع الصحراء ، فاستطاعت أن تحتفظ بطابعها الخاص بين الشرق والغرب ؛ وحفظ ذلك على مصر شخصيتها الحضارية المميزة ، وإن كان قد أظهرها فى أعين الباحثين بمظهر الجمود والثبات على القديم فى عالم كثر فيه الاتصال ، وصار من الصعب على أمة من الأمم أن تحتفظ بطابعها المميز فى الحياة والمدنية لأكثر من أجل معلوم . . . أما مصر فقد عاشت وعاش طابعها على الزمن ، على حين تتابعت ودالت من حولها أمم كثيرة فى أرض سومر وأرض بابل والجزيرة العليا وهضبة الحيثيين وأرض سوريا وفلسطين وجزائر أقريطش وإيجة وأرض اليونان والرومان . . . كل هذه مناطق نشأت فيها مدنيات قديمة ، ولكنها ماتت أو جرى عليها الزمن فطغت عليها معالم جديدة من المدنية المحلية أو الخارجية ، بخلاف مدنية مصر التى جمعت إلى القدم والعراقة دوام الاتصال والاستمرار... ولعل هذا أول ماحدا بفريق من الباحثين إلى أن ينسبوا إلى أهلها شدة التمسك بالقديم والثبات عليه .

على أن خير ما يعيننا على أن نحقق أكان المصريون محافظين على القديم أم مجددين ، أم آخذين من كل المحافظة والتجديد بطرف ، إنما هو أن نستعرض معالم حضارتهم التاريخية ؛ متتبعين عناصر الدوام والثبات من جهة ، وعناصر

التطور والتجديد من جهة أخرى ، مقسمين الحياة والحضارة المصرية إلى جانبيها الأساسيين : الجانب المدنى المادى ، وهو الذى يتصل على الخصوص بالزراعة ، والحياة الزراعية ، وما يرتبط بهما من نشاط واقتصاد قومى عام ؛ ثم الجانب الفكرى والروحى ، وهو الذى يتصل بالثقافة المصرية ، وما امتازت به من طابع أو طوابع معينة خلال أعصر التاريخ .

فأما عن الجانب الأول فمعروف أن الزراعة كانت عماد الحياة والمدنية فى مصر منذ البداءة ، وقد بقيت كذلك حتى يومنا هذا ؛ وأغلب الظن أنها ستبقى كذلك فى قابل الأيام ، رغم ماينتظر من ازدهار بعض الصناعات فى التعدين أو الإنتاج الصناعى الحديث . على أن الشىء المهم والذى ينبغى أن نلحظه ونسجله هو أن الزراعة فى مصر لم تكن فى يوم من الأيام زراعة فطرية من ذلك النوع الذى نلحظه فى بعض جهات إفريقية الداخلية مثلا ، والذى يعتمد على المطر ، فيحفر الزارع حفرة صغيرة يضع فيها الحب ثم يتركه للأمطار تغذيه حتى موسم الحصاد . وإنما الزراعة فى مصر كانت منذ الألف الرابعة قبل الميلاد على الأقل معتمدة على فلاحة الأرض التى يغمرها الفيضان ؛ وقد اتصلت من أجل ذلك بأعمال هندسية تمثلت فى إقامة الجسور ، وحفر الترع ، وتنظيم جريان الماء إلى الحياض وانصرافه عنها إلى النهر بعد أن يرسب غرينه ؛ وتلك كلها عمليات كبرى تحتاج إلى هندسة وتعاون وتنظيم . لذلك لم يكن ممكناً للزارع المصرى أن يعمل بمفرده ، ولا أن يفلح أرضه مستقلاً عن جاره ؛ وإنما كان عليه أن يعمل كفرد فى مجموعة من الزارعين الذين يتعاونون فى عمل زراعى هندسى ، هو الأساس الذى قامت عليه مدنية مصر الزراعية ، وامتازت به على غيرها من المدنيات الزراعية الفطرية التى لم ينته بها الأمر إلى قيام مجتمع زراعى معقد النظام ، كما حدث فى وادى النيل الأدنى . ولذلك كله نشأت المدنية الزراعية فى مصر معقدة منذ فجر التاريخ ، وربما كانت قبل ذلك . بل إن من الجائز أن نقول إن ظهور الوحدة السياسية وبروز الأسرات الحاكمة إنما قام فى الأصل على أساس من المصلحة المادية المشتركة لسكان الوادى ومزارعيه ؛ فكان فرعون ورجال حكومته الإقليمية هم القوامين على مشروعات الرى ، وتنظيم الجهود الاجماعية المتصلة بالزراعة ؛ بل كان فرعون مهندس الرى والزراعة الأول فى ذلك العصر ، إن جاز لنا أن نستعير مثل هذا التصوير . وبذلك كله اكتملت لمصر

عناصر الحياة المادية التى يتداخل فيها الاقتصاد القومى بالإدارة الحكومية ؛ وهو أقصى درجات التقدم والتعقيد فى نظام المجتمع ، بل هو ماتأخرت فى تحقيقه عن مصر أمم كثيرة ، ننظر إليها الآن على أنها تمثل أرقى الأمم وأبعدها أخذاً بوسائل التجديد ! وقد يبدو عجيباً أن تكون مصر قد احتفظت باقتصادها القومى الموجه خلال أعصر التاريخ ، وأنها لم تحد عن كثير من نظمها الزراعية فى الرى والإنتاج وما يتصل بهما من تنسيق جهود الفرد والجماعة منذ اكتملت وحدتها الحكومية فى أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد . ولكن هذا العجب لا يلبث أن يزول إذ نلحظ أن البيئة فى مصر هى من ذلك النوع الذى يقضى بالوحدة والتنظيم والتنسيق الدقيق ، والذى يغلب جهود الأفراد بل الجماعات البشرية متفرقة ولا يخضع لها إلا مجتمعة . وقد يكون هذا هو السر فى أننا كنا خلال تاريخنا كله شعباً يسلس تنظيمه وتنسيق جهوده بل قيادته متى وجد الحكم الصالح . . . فقد تعلمنا ذلك فى ميدان الزراعة ، ومن صلتنا بنهر النيل أول الأمر ؛ ثم انطبع ذلك فى نفوسنا ، فهو يتمثل فى عمل المجموعات الصغيرة من الأفراد والعمال حين يجتمعون فيعملون معاً ، ويحتاج الأمر إلى رئيس أو «خولى» لا يساهم فى العمل الفعلى ، ولكن وجوده وقيادته ضروريان لإنجاز العمل ؛ كما يتمثل أيضاً فى الإدارات القروية والحكومات المحلية ، ثم الحكومة المركزية العامة . ولعل احتفاظ المصريين بهذه الخاصة التى جبلتهم عليها طبيعة بلادهم ونوع الزراعة المعقد الذى مارسوه من أول الأمر ، هو الذى أظهرهم فى أعين الباحثين ممن لا يتعمقون الأمور بمظهر المحافظين على القديم ، المستكينين للعرف والتقاليد ، مع أن كل ماحدث هو أن مجموعة من النظم الاجتماعية والاقتصادية نشأت فى البيئة المصرية وكانت صالحة للبقاء ، بل ضرورية لحياة المجتمع وتنظيم نشاطه ، فبقيت وعمّرت ، بل أصبحت مقياساً لازدهار الحياة فى مصر ؛ ففى الأوقات التى استمسكت فيها مصر بنظمها الحكومية التى تستند إلى الوحدة المحلية فالوحدة الإقليمية فالوحدة القومية الشاملة ، ازدهرت الحياة فى وادى النيل ، وبلغت هذه الأمة شأو قوتها ؛ وفى الأوقات التى انصرف فيها الناس عن النظام والتضامن التقليديين انحلت عرى المجتمع ، ودخلت مصر فى عهد من عهود الإقطاع المظلمة ، وبقيت كذلك حتى يبعث الله الوحدة ، فيعاود المجتمع سيرته الأولى ، وتعود إليه الحياة والقوة من جديد .

ومع ذلك ففى ميدان الزراعة والنشاط الزراعى فى ريف مصر نستطيع أن نميز بين ثلاثة أشياء : أولها وسائل الزراعة والرى ؛ وثانيها أنواع النباتات والمحاصيل الزراعية ؛ وثالثها الحيوانات المستأنسة والمستخدمة فى الزراعة. وفى كل من هذه الأشياء الثلاثة نستطيع أن نتبين مبلغ تمسك المصريين بالقديم أو سعيهم إلى التجديد . وقد كان المصريون أول الأمر يفلحون الأرض بوساطة فؤوس حجرية ينقرون بها الثرى بعد انحسار الفيضان مباشرة ، ثم اكتشفوا استعمال المحراث فى أواخر الدولة القديمة (الأسرة الخامسة على الأقل) ، وكان فى أول الأمر يشبه الفأس الحجرية القديمة ، ثم تطور فى شكله حتى صار له سلاحه المعدنى المعروف . ومع ذلك فمن الطريف أن نلحظ أن ظهور المحراث لم يؤد إلى اختفاء الفأس ، وإنما سار الاثنان جنباً إلى جنب ؛ حتى فى عهدنا الحديث نرى الفلاح يستخدم الفأس والمحراث القديم ، وبعض المحاريث الآلية الحديثة فى المزارع الكبيرة ؛ وكثيراً ما يستخدم آلتين أو أكثر من هذه الآلات فى الزرعة الواحدة ، فيحرث أرض القطن مثلا حرثتها الأولى بمحراث آلى ، ثم يعيد حرثها بمحراث قديم ، ثم ينقر الأرض للزراعة ووضع البذور بوساطة الفأس . وفى هذا كله يتجلى كيف أن ظهور آلة جديدة لم يقض على ما سبقها من آلات ؛ وإنما كانت الوسائل والآلات يضاف بعضها إلى بعض ؛ وفى هذا معنى للاحتفاظ بالقديم احتفاظاً لا يمنع من التجديد . وقد تمثل هذا بعينه فى آلات الرى وأدواته ؛ فهناك الشادوف ، ولا بد أنه من أقدم الآلات ، ثم هناك الساقية وهى شادوف آلى معقد يدار بالقوة الحيوانية ، ثم هناك آلة أرشميد أو « الطنبور » وقد ظهرت فى العهد الإغريقى الرومانى ، ثم أخيراً هناك الآلات الرافعة الحديثة ؛ ومع ذلك نلحظ فى مصر استمرار هذه الآلات والأدوات جميعاً ؛ لأن الجديد فى مصر لا يمحو القديم ولا ينسخه ، خصوصاً إذا كان القديم ملائماً لنوع معين من الزراعة ، كما هى الحال فى الشادوف ، فهو آلة مناسبة جداً لرى المساحات الصغيرة والجسور الضيقة على حافات الترع وجنبات النيل ، حيث لا يجدى غيره من الآلات .

ومثل هذه الظاهرة نلحظها أيضاً فى المزروعات والمحاصيل . فقد زرع المصريون أول ما زرعوا الشعير والقمح ، وهما محصولان شتويان مناسبان جد المناسبة للبيئة المصرية ؛ إذ يزرعان فى الخريف ، أى عقب انحسار الفيضان

مباشرة ، ويستمران في الأرض خلال أشهر الشتاء أي في موسم الأمطار الشتوية ، وينضجان في أواخر الربيع . ويقال إن الشعير البرى ينمو بطبيعته في شمال إفريقية الشرقي وشرقها ؛ فلا بد انه استنبت فيذلك الإقليم لأول مرة . أما القمح فمن الجائز أن يكون استنباته بدأ في جهة أو أكثر من جهات الشرق الأدنى والأوسط ثم أدخل إلى مصر . وسـواء أصحت هذه الآراء أم لم تصح ، فإن مصر عرفت الشعير والقمح منذ العصر الحجرى الحديث ، أى منذ أواخر الألف السادسة قبل الميلاد . وبعـد ذلك استنبتت نباتات أخرى من بقول الشتاء وأفواله ، وكذلك الكرم والزيتون وغـيرهما من مزروعات حوض البحر المتوسط . كما أن مصر كانت تضيف باستمرار إلى ثروتها النباتية والزراعية خـلال تاريخها الطويل ، فدخلتها على الخصوص محاصيل الجهات الدفيئة والحارة من الشرق الآسيوى (جنوب آسيا وجنوبها الشرقى) ، ومنها قصب السكر والقطن ، اللذين لم يتوسع في زراعتهما إلا في القرن الأخير ! وكذلك الأرز والبرسيم ، وقد اتسعت زراعة الأول عقب إدخال الرى الصيفى ، أما الثانى فقد عرف منذ بضعة قرون ، وكان لإدخاله أثر كبير في ثروة مصر الحيوانية من جهة ، وفى تغذية التربة وتجديد قوتها من جهة أخرى . كذلك أدخلت إلى مصر محاصيل أخرى من العالم الجديد بعد استكشافه، أهمها من غير شك الذرة البيضاء ، التى لم تعرفها مصر قبل قرن ونصف قرن من الزمان ؛ ومع ذلك فقد صارت الآن ، وبفضل الرى الدائم ، الغذاء الأساسى للفـلاح ؛ وربما كان هذا من شر ماجرته علينا الثورة الزراعية الحديثة . فقبل إدخال هذه الذرة كان القمح هو الغذاء الأصلى للفلاح ، وهو بالطبع غذاء أصلح وأوفى . بل قد لانـكون مغالين إذا ما نحن قررنا أن الفلاح المصرى في العهد الفرعونى وخلال القرون الوسطى كان يحصل على غذاء أفضل مما يحصل عليه الآن . . . ومن يدرينا ! فقد يكون اختلاف التغـذية وضعفها في العهد الحديث من أسباب ما نلحظ من اضمحلال في حيوية الفلاح وضعف في قواه الإنتاجية، في وقت تعرّض فيـه أيضاً لـكثير من الأمراض الطفيلية الناتجة عن إدخال نظام الرى الدائم .

المهم من كل هذا أن الريف المصرى قد تطور في مظهره تطوراً شاملا خلال أعصر التاريخ ، فتواردت المحاصيل ، وبعضها من إفريقية وبعضها من

آسيا ، وبعضها الآخر من العالم الجديد ؛ وهى محاصيل كثيرة لا سبيل إلى حصرها فى مثل هذا المقال [1] . وقد زاد من مقـدرة مصر على إنتاج هذه الأنواع جميعاً اعتدال مناخها وإدخال نظام الرى فى أشهر الربيع والصيف ، مما يسّر نمو المزروعات على طول العام . ولو أن فلاحاً مصريًّا من عهد الفراعنة بعث اليوم فى الريف المصرى فى أشهر الصيف لهاله ما يرى من اختلاف مظاهر البيئة فى كل شئ . فالحقل المصرى من هـذه الناحية قد أصابه من التطور والتغيير ما غير معالمه الأولى تغييراً كاملا شاملا ، لاسيما فى أراضى الدلتا الفسيحة ، حيث لامجال إطلاقا لأن يتحدث متحدث عما يمكن أن نسميه محافظة على القديم ؛ اللهم إلا إذا اعتبرنا احتفاظ مصر بأنواع صالحة من محاصيلها القديمة كالشعير والقمح محافظة على القديم .

ومثل هذا تكرر فى حالة الحيوانات المستأنسة والزراعية . فقد كانت الثروة الحيوانية فى تجدد دائم ، وأضيفت إليها أنواع جديدة دخلت أو أُدخلت من الجنوب أو من الشرق أو من الغرب فى أعصر متتابعة . فعرف المصريون الأولون البقر الإفريقى ذا القرون الكبيرة المقوسة ، عرفوه فى الألف السادسة قبل الميلاد ، واستمر فى مصر حتى قل ثم انقرض فى أواخر العهد الفرعونى أو فى أعقابه على مايظهر ، ولو أنه لا يزال سائداً فى السودان . ثم عرف المصريون البقر الآسيوى ذا القرون الصغيرة المستقيمة فى آخر الدولة القديمة وحل بالتدريج محل البقر الإفريقى ، وصار الآن هو السلالة السائدة فى البلاد . أما الجاموس فحيوان حديث جدًّا فى البيئة المصرية ؛ ذلك أن السلالة الإفريقية منه لم تستأنس على الإطلاق ، ولا تزال تعيش وحشية فى أعالى النيل ؛ أما السلالة المستأنسة فآسيوية وصلت إلى مصر من الهند عن طريق إيران والشرق الأوسط فى أواخر القرون الوسطى اى حوالى القرن السادس عشر على مايظهر . فالجاموس المستأنس لم يكن معروفاً فى مصر الفرعونية ولا مصر العربيـة الأولى ؛ رغم ما قد يبدو فى ظاهر هذا القول من غرابة ، ولا يزال عـدد الجاموس إلى اليوم أقل قليلا فى ثروة مصر الحيوانية من عدد البقر . أما

---

(١) هنـاك أنواع مختلفة من الخضر كالطماطم والبطاطس وغيرها وكذلك من الفواكه الدفيئة كالبرتقال والموالح والموز والمانجو وغيرها ؛ وكلها أدخلت إلى مصر فى أوقات مختلفة .

الأغنام والماعز فقد عرف المصريون الأقدمون منها سلالات مختلفة ، يقال إن بعضها إفريقي شمالي وبعضها الآخر آسيوي . كما عرفوا الخنازير ، ومنها سلالة إفريقية شمالية ، ربما كانت بداية استئناسها في مستنقعات الدلتا في الألف السادسة قبل الميلاد أيضاً ؛ ثم سلالة أسيوية هندية أُدخلت في عهد الإغريق والرومان . . . ثم قلّت تربية الخنازير حتى كادت تنقرض في العهد الاسلامي .

ومن دواب الحمل عرف المصريون الحمار في الألف الخامسة أو الرابعة قبل الميلاد ؛ ويقال إن موطنه الأصلي شرق إفريقية أو غرب أسيا أو الاثنين معاً وما جاورهما من داخلية أسيا . والمهم أن هذا الحيوان الخدوم عاصر الحضارة المصرية في أدوار تكوينها الأولى ، واستمر حتى يومنا هذا ، وكان له دور خطير في النشاط الزراعي في الحقل والقرية على حد سواء ، ولم يزد تقدم الزراعة وتنوع المزروعات ثم ظهور الثورة الزراعية الحديثة ، أهمية هذا الحيوان ونصيبه من الكدح والجهاد إلا تأكيداً ؛ فهو حيوان نافع في حمل الأثقال كما هو نافع في الانتقال الريفي . ويظهر أن المصريين الأقدمين استخدموه في الغرض الأول دون الركوب ، ثم تعلموا بعد ذلك أن يمتطوه ، وكان طيّعا في الحالتين ! حتى إذا ما جاء العهد الحديث والري الدائم ، وظهرت حاجة التربة المصرية إلى التسميد ونقل الأتربة بين الحقل والقرية وبين القرية والحقل ، نهض الحمار بهذا الحمل الذي لولاه ما احتفظت التربة بخصبها وقوتها . والحق أن واجب الاعتراف يقتضينا أن نذكر لهذا الحيوان فضله ومكانته في البيئة المصرية . وليس بمستكثر أن يضيف الباحث أنه لولا وجود هذا الحيوان في بيئتنا لنقص تلك البيئة شيء كثير . ولو قد أتيح لهذا الأخرس أن ينطق لأفصح عن معاونته الخطيرة فيما بنته يد الإنسان ، ولتحدث عن غير قليل مما سبق إليه من فضل على الناس ! أما الحصان فجاء متأخراً ، ولم يعرفه المصريون إلا أيام الهكسوس ثم في الدولة الحديثة . وهو حيوان أسيوي ، موطنه وسط أسيا . استؤنس في الألف الثالثة قبل الميلاد ، ودخل مصر حوالي عام ١٧٠٠ ق . م . ، ثم ظهرت فصيلته العربية قبل الإسلام بقرون ؛ وادخلت إلى مصر مع سائر البلدان المجاورة للبادية العربية . وقد كان للحصان فضل مشهور في حروب مصر وفتوحاتها القديمة . أما الجمل فيقال إنه كان معروفاً في الصحاري المجاورة لمصر في العهد الفرعوني ؛ ولكنه على كل حال لم

يستخدم فى مصر ذاتها إلا فى العهد الرومانى ، بل فى أواخره . ويقال إن الجمل لم يستخدم فى طرق إفريقية الصحراوية إلا فى القرن الرابع الميلادى وما بعده . وعلى كل حال فالجمل لايزال حيواناً غريباً بعض الشئ فى البيئة المصرية ، ولا تزال مصر بحاجة إلى أن تجدد ثروتها منه فى كل عام بما تجلبه من جمال الصحراء ، حتى يحتفظ النوع بقوته وحيويته .

وغير هـذه الحيوانات التى ذكرنا كثير . ولـكن فيما أتينا به ما يكفى لأن يدلل على أن الريف المصرى قد تغيرت ثروته الحيوانية تغيراً ظاهراً فى أعصر التاريخ ، فاحتفظ ببعض حيواناته القديمة وأهمها الحمار ؛ ولـكنه جدد ونوّع ؛ واختفت منه بعض الأنواع والسلالات على حين دخل بعضها الآخر إلى هذا المسرح الذى تداولت من فوقه أمم الحيوان .

كل هذا من مقومات الحياة والمدنية المادية فى الزراعة المصرية وما يتصل بها من نشاط فى استنبات النبات وتربية الحيوان ؛ وهو الجانب الذى تعمدنا تفصيله بعض الشئ فى هذا المقال نظراً لقلة ما هو معروف عنه بصفة عامة. ولا يتسع المجال الآن لأن نتتبع بعض الحرف والصناعات الأخرى التى قامت إلى جانب الزراعة أو تفرعت عنها . ومع ذلك فان ما ذكرناه عن الزراعة ينصرف إلى تلك الحرف الـكثيرة من حيث المحافظة على القديم وإضافة الجديد إليه .

فأما الجانب الآخر من حياة المصريين وحضارتهم ، وهو الجانب الثقافى ، فمعروف عنه الـكثير ؛ وقد سبق أن عالجناه فى مقال سابق[1] ، فيكفى أن نجتزئ الآن بما له صلة مباشرة بالموضوع . وقد يكفى أن نذكر أن هذا الجانب من حياة المصريين وحضارتهم لم يختلف عن الجانب المادى فى كثير ، من حيث إن المصريين احتفظوا ببعض عناصر ثقافتهم القديمة ، ولـكنهم أخذوا عن غيرهم من الأمم بمثل ما أعطوا وقدّموا للعالم الخارجى فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب . فقد تطورت لغة المصريين مثلا وكتابتهم أيام الفراعنة ، فظهرت الـكتابة الهيراتيقية والديموتيقية ثم القبطية ، واستخدمت الإغريقية فى بعض مدائن مصر لا سيما الإسكندرية ؛ حتى إذا ما جاء العـرب أخذ المصريون عنهم لغتهم التى يتكلمون ويكتبون . وكان المصريون الأقدمون

---

(١) الـكاتب المصرى عدد ٣ (ديسمبر ١٩٤٥) .

قبل ذلك قد أثروا بكتابتهم الهروغليفية أو ببعض عناصرها فى كتابة الفينيقيين عن طريق شبه جزيرة سينا ، وبذلك ساهموا فى نشأة الكتابات والأبجديات اللاحقة فى الشرق ثم الغرب .

وفى ميدان الدين كانت للمصريين الأقدمين معتقداتهم وعباداتهم القديمة التى نشأت كلها تقريباً فى أرض النيل ، وتأثرت بظروف البيئة المحلية . ولكنهم مع ذلك احتكوا بغيرهم فى مدرسة عين شمس أول الأمر ثم فى الإسكندرية فى عصر لاحق ، وأثر الفكر الدينى المصرى فى الفكر الإغريقى ثم المسيحى ؛ حتى إنه ليقال إن قصة مريم العذراء والمسيح عليه السلام كما تصورها المسيحية لتشبه من بعض الوجوه قصة إيزيس وابنها الإله حورس فى مصر القديمة ، وإن خروج المسيحية عن التوحيد الخالص وأخذها بفكرة الثالوث إلى جانب فكرة التوحيد ليذكرنا بما كان فى مصر القديمة من ثواليث بين الآلهة ، رغم سيادة إله معين على غيره من الآلهة . ولكن الشئ المهم على كل حال أن اتصال مصر بالفكر الدينى الشرقى فى العهد المسيحى مهد السبيل لأن تتقبل مصر أفكار الشرق الموحد ، وتزاوج بينها وبين أفكارها هى ، على نحو أدعى إلى الاستقرار والدوام مما حدث أيام أخناتون فيلسوف مصر الموحد فى العهد الفرعونى ؛ فقد تأثر ذلك الفيلسوف — فيما يرى بعض الباحثين على الأقل — بلون من ألوان الفكر الدينى الموحد ، وحاول أن يفرضه على الفكر الدينى المصرى ، ولكنه لم يوفق ؛ لأن الأفكار الدينية التى نشأت فى مصر وفى البيئة المصرية كانت أقوى من أن تزعزعها استعارة من الخارج أو وحى جديد لا يمت إلى الفكر المصرى الأصيل بسبب قوى . أما المسيحية فكانت فى ثوبها الذى ظهرت به فى القرنين الثانى والثالث وما بعدها خليطاً من الفكر الشرقى الصارم فى توحيده والفكر المصرى الإغريقى الذى يأخذ من الآراء والمعتقدات القديمة بطرف أو أطراف . لذلك كان يسيراً على الفكر المصرى أن يتقبل الديانة الجديدة ، بل أن يتعصب لها ويدافع عنها ضد اضطهاد الرومان . . . وقد لا نغالى إذا قلنا إن توغل المسيحية فى مصر يمثل مرحلة انتقال ضرورية مهدت السبيل لما جاء بعدها ، وأنه لولا هذه المرحلة ما استطاع الإسلام ، وهو دين شرقى جديد صارم فى توحيده ، أن ينتشر فى مصر . ومع ذلك كله فان الإسلام لم ينتشر فى أرض النيل دفعة واحدة ، وإنما دخل الناس فيه تدريجيا . ويبدو

أن الكنيسة القبطية بقيت قوية متماسكة حتى القرن الثالث عشر ، عندما اضمحلت وكثرت فيها المشاحنات الداخلية ، فدخل كثير ممن بقى من أتباعها فى الدين الجديد أفواجاً . وفضلاً عن ذلك كله فإن الإسلام عندما شمل مصر لم ينسخ كل ما قبله من عقائد وتقاليد تتصل بالعادات والعبادات ؛ وإنما استمر كثير مما تعارف عليه المصريون منذ أيام الفراعنة كالعادات الجنائزية وصلات الأحياء بالأموات ، ثم العادات الاجتماعية فى الموالد والأفراح ، والصلات الشعبية والروابط القروية والأسرية وغير ذلك مما ينظم العرف والتقليد أحياناً كثيرة ، وينظم القانون فى بعض الأحايين .

وهكذا انتهى الأمر إلى ما نراه فى العهد الإسلامى من جمع بين الفكر القديم والفكر الحديث فى رباط ظاهره التناقض والمتناقضات ، ولكن باطنه ينطوى مع ذلك على كثير من التوافق والتكافل . ذلك أن الانتقال فى الفكر الدينى المصرى لم يكن مفاجئاً كما ذكرنا ، ولم يأت عن طريق الثورة الجامحة على القديم ؛ وإنما جاء عن طريق المزاوجة والتكافل بطريقة آلية بين هذا الجديد الذى أخذناه عن الخارج وذلك القديم الذى احتفظنا به عن تراثنا الخالد . وواضح أنه لا يجوز ولا يمكن ان يعتبر من الإنصاف العلمى فى كثير أو قليل أن نلتفت إلى القديم الذى احتفظنا به فنقول إن المصريين جامدون محافظون ، وأن نُعرض فى الوقت نفسه عن الجديد فلا نقول إنهم متطورون مجددون . فنحن أمة قد جمعنا بين القديم والجديد . وليس هذا التناقض الظاهر فى حياتنا الفكرية والروحية غير مظهر لا يمس الجوهر ؛ لأن جوهر الروح المصرى قادر على أن يجمع بين القديم والجديد فى غير حرج ؛ بل قادر على أن يجد غذاءه ويستمد لبانه من الاثنين . وترجع مقدرته هذه إلى أنه روح طويل العمر ، قد عاصر التاريخ كله ، فكانت له من تجاريبه التى توارثتها الأجيال ، تلك المقدرة النادرة التى امتازت بها مصر على كثير غيرها من أمم الأرض التى لم تتصل حياتها ولم يحفل تاريخها بدروس العِبَر وأحداث السنين .

ونستطيع أن نستطرد إلى جوانب أخرى من حياة المصريين فى غير اللغة والدين والعادات والتقاليد ، فنلاحظ احتفاظ مصر ببعض قديمها ، ونزعتها إلى التجديد فى الوقت نفسه ؛ وهو أمر ماثل فى كثير من مظاهر حياتها الحديثة بعد أن اتصلت بالغرب فى العصر الحديث . ولكن أمر هذا الاتصال معروف

مما لا يدع حاجة إلى إطالة . ويكفى أن نذكر أن مصر رغم ما أصابته فى نهضتها الحديثة من تغيير شمل كثيراً من جوانب الحياة مادية وثقافية ، فإن التغيير والتجديد فيها اتخذ صورة التطور المتئد والتحول الهادئ تارة ، واتخذ صورة الثورة العنيفة والتبدل السريع تارة أخرى . ولعلنا إن دققنا النظر وأنعمناه واجدين أن مصر كانت دائماً تعمد إلى الطريقة الأولى ، فتتهادى ولا تنفض القديم كله ، إذا مس التغيير عنصراً من عناصر المدنية والحضارة الأصيلة ، أى التى نشأت فى البيئة المصرية ، كتغيير وسائل الزراعة فى الحقل المصرى الصغير ، أو تغيير التقاليد والعادات الاجتماعية والروحية وغيرها من تراث مصر القديم ؛ فكل ما حدث فى هذا الميدان إنما كان إضافة من الجديد إلى القديم ، أو تهذيباً للقديم بما يزاوج بينه وبين الجديد فى صورة تحفظ من القديم روحه حيناً ومظهره حيناً آخر ، وتلائم بين الجديد وبين ما تقتضيه البيئة وظروف الحياة فى مصر . أما إذا مس التغيير والتجديد عنصراً من عناصر الحضارة أو الثقافة التى استعارتها مصر من الخارج فى فترة من فترات تاريخها الطويل ، فإن المصريين لا يجدون حرجاً فى أن يندفعوا فى طريق التغيير والاستبدال السريع . ومن آيات ذلك ، إن أردنا التمثيل ، ما أصاب المجتمع الحضرى فى مصر إبان عهد الأتراك من عادات كثيرة تتصل بالأسرة والحجاب بين النساء ، والقطيعة بين المرأة وبين أن تساهم فى الحياة والثقافة العامة ؛ فإننا ما لبثنا أن خرجنا على ذلك كله ونفضناه فى العهد الحديث . وكان خروج المرأة إلى الحياة العامة فى المدن المصرية ومساهمتها فى النهضة الحديثة ثورة ، أو هو أدنى إلى الثورة منه إلى التطور البطئ ؛ لأن الأمر لم يَعْدُ أن يكون استبدالا لعادة أجنبية بعادة أخرى دخيلة . كذلك الحال فيما أخذنا بسبيله من التجديد فى التعليم والتشريع على نسق أمم الغرب ؛ فإننا فى التعليم لم نبن على النظام الأزهرى الشرقى القديم ؛ وإنما أخذنا فى شئ من العنف بلون جديد من التعليم المدنى ؛ وترتبت على ذلك ثنائية غريبة فى تعليمنا القومى . وحتى الأزهر نفسه لم يأنف أن يأخذ بالأسلوب الجديد ، فداخله التجديد وغزته العلوم الحديثة فى عقر داره . أما فى التشريع فإننا لم نجد حرجاً فى أن نضيف إلى الشريعة التى أخذناها عن الإسلام قوانيننا الحديثة التى أخذناها عن الغرب ، فحلت هذه القوانين محل الشريعة فى أمورنا المدنية والجنائية ، وأخذنا بذلك كله فى يسر .

وسلكنا طريق الثنائية التشريعية فى غير ضيق ولا حرج . بل كذلك الحال أيضاً — إن أردنا مثالا ملموساً من الحياة العملية — فى لباس المصريين ؛ فمنذ عهد الاغريق والرومان خلع المصريون تدريجيا لباسهم المصرى التقليدى والذى يلائم بيئتهم ، واستبدلوا به ألوانا مختلفة من اللباس الفضفاض الذى تغير من عصر إلى عصر خلال العهد العربى والتركى ثم العهد الحديث . وما مرجع هذه الفوضى وتلك الثورات العنيفة فى لباس فئات الأمة المختلفة ، وانتقالها من زى معين إلى آخر فى ثورة وتبرم ، أو فيما يشبه ذلك ، إلا لأن هذه الأزياء جميعاً مستعارة ؛ فلا يجد المصرى حرجاً فى أن يثور ويبدل زيًّا بزى ، فى غير ما ضابط يجمع بين طبقات الأمة ويوحد المظهر بين فئاتها المتباينة . وليس أدل على أننا فى مصر لا نستنكف التغيير والاستعارة المتجددة فى هذه الأمور ، أو لا ننظر إليها نظرة الجد والاهتمام ، من أننا أمة تتباين بين أفرادها الأزياء وتختلط بصورة لافتة إلى أبعد الحدود ، ومع ذلك كله لا نكاد نهتم لما قد يترتب على هذا التباين أحيانا من مساس غير مباشر بمقومات وحدتنا القومية .

إلى هنا ونخرج بأننا إذا تحدثنا عن المصريين وطابعهم القومى والحضارى العام فإننا لا نستطيع فى يسر أن نقول عنهم إنهم أمة محافظة على القديم ؛ فمثل هذا الحكم لا يجوز أن يطلقه على علاته غير من لا يتعمقون الأمور ؛ وهو إلى جانب ذلك حكم لا يشمل غير جانب من الحقيقة ؛ فاذا كان المصريون قد حافظوا على بعض تراثهم القديم ، فإنهم لم يقفوا جامدين من نزعات التجديد ، وإنما حفل تاريخهم الطويل بكثير من عناصر التقدم والتطور والابتكار والاستعارة ، وشمل ذلك حياتهم المادية والروحية جميعاً ، وحضارتهم المدنية والثقافية سواء بسواء . والذين يدرسون الأمم الحديثة ويتصدون لاستشفاف مصايرها والتعرف على أقدارها المستقبلة يشبهون الأمم بالأفراد ، فلكل أمة شخصية ذاتية ، وصفة قومية ، يعبر عنها الباحثون الآن بما يسمونه national character . ولن يكون من الإنصاف فى حق هذه الأمة العريقة أن نرميها بالجمود ، وما بها من جمود ؛ ولا أن نقول إنها محافظة إلى حد يقطع بينها وبين أن تساير سنة التطور والتقدم والاجتهاد والتجديد . ولو أن مصر كانت جامدة فى تاريخها الحافل الطويل ماعاشت على الزمن ، بل لسبقتها الأيام واندثرت حياتها

ودالت أمتها كما دال غيرها من الأمم . ولئن كانت مصر قد عاشت كل هذه القرون الكثيرة ما ذلك إلا لأنها لم تتقاعد عن أن تأخذ باسباب التجديد . وغاية ما هناك أن هذا التجديد فى مصر لم يؤد دائماً إلى محو كل قديم . وما كان من الخير أن يمحق قديم صالح لمجرد قدمه ، ولا أن يستبدل به جديد غير صالح لمجرد أنه جديد . ولو أخذ المصريون بكل جديد صادفهم فى تاريخهم الطويل لتغيرت معالم حياتهم بما لا يدع مجالا للتعرف على شخصيتهم القومية ، تلك التى بقيت على الزمن وغالبت الأيام . وقد يكون من الخير لأبناء مصر ، وهم يترسمون خطاهم ويرسمون خططهم للمستقبل ، أن يعودوا إلى تاريخهم فيدرسوا فيه شخصية أمتهم المميزة ؛ وعندئذ يعلمون أنهم محافظون يجيدون المحافظة ، ومجددون يحسنون التجديد ؛ بل عندئذ يعلمون أن لشخصيتهم القومية مقومات أساسية نشأت فى مصر وتغذت بلبان بيئتها ؛ فلا سبيل إلى أن تنفضها فى عنف ، ولا إلى أن تثور عليها ثورة مصيرها إلى الإخفاق ؛ لأنها تغاير طبيعة الأشياء ؛ كما أن لتلك الشخصية مظاهر أخرى كثيرة جلها مستعار ، ويمكن أن نستبدل به غيره متى كان فى الاستبدال ما يفيد وينفع . ولا خوف من أن يندفع الشعب إلى مثل هذا التجديد اندفاعاً ، فهو آخذ به فى غير حرج ؛ لأنه شعب عرف فى تاريخه كيف يساير الزمن ، وكيف يجدد حياته ويغذى حضارته بما يبتكر أو بما يقتبس عن حضارات الآخرين فى الشرق أو فى الغرب .

وبعد ، فليس يضيرنا فى شىء أن يجمع شعبنا بين القديم والجديد ، وأن يجنح فى نهضته الحديثة إلى أن يتئد ويستمسك بالماضى فى أشياء ، وإلى أن يندفع ويجدد ويقتبس فى أشياء أخرى . فمن يدرى ! لعل هذه الخاصية العجيبة فى شعب مصر أن تكون هى سر الحياة ؛ أو لعلها أن تكون فى القليل دليل الحيوية واليقظة التى لا يلهيها غد عن أمس . بل من يدرينا ! فقد يجد أولئك الذين يقودون نهضتنا القومية فى دراسة هذه الخاصية العجيبة وتفهمها على وجهها الصحيح مفتاح النجاح لما يرسمون من خطط فى المستقبل .

سليمان حزين

اللغز الأكبر

تأملتُها ـ زوجى ـ فمنظرُها الغضُّ ... ومعقولها الراسى ومخبرُها المحضُ
بدائع خَلقٍ قد تألّف نظمُها ... فما إنْ يُوَفِيهنّ نثرٌ ولا قرضُ
لقد دِنتُ بالحبّ الذى انتظم الدُّنى ... فلاقت كمالاتٌ به بعضَها البعضُ

إلى أن دعا داعى المنون بزوجتى ... وصار إلى مُعقم الفلا ذلك الفيضُ
وعُفّى على هذى الكمالات كلها ... وهيلَ عليها التربُ واستوت الأرضُ
توَلّيتُ كالمجنون اعولُ منكراً ... إلى أىّ حدّ راح بالقدر البغضُ

مضى العامُ لا أقضى التعجب مذ قضت ... كأنّ البرايا منذ آدمَ لم يقضوا!
تُساور عقلى فى الحياة وفى الردى ... هواجسُ عقلٍ لا يقوم له نهضُ
يُقِضّ علىّ الحدسُ بالليل مضجعى ... ولا فرضَ إلا بات ينقضه فرضُ
أقابل بين الحالتَيْن ، وأنثنى ... أُوَثّق إيمانى مخافةَ ينقضّ
فيعصمنى أنى إذا هاج لاعجى ... وجار علىّ الفكرُ واستفحل المضّ
يراجع قلبى هاتفٌ من تصوفٍ ... ينادى أنِ اخشع ، ذلك البسط والقبض

عبد الرحمن صدقى

رسائل الزهاوى [1]

حضرة الأستاذ

بعد التحية والاحترام أشكر لك حسن ظنك بى أما ميلادى من حيث الزمان والمكان فتراه فى ترجمة حياتى، وكان عدد سكان بغداد فى العهد الذى ولدت فيه مائتى ألف نسمة تقريباً وحالتها الاجتماعية يومئذ منحطة ولا غاية لأكثر رجالها إلا التزلف إلى الحكام الأتراك وولاتهم ولا منافسة إلا فى الرتب والألقاب .

واليوم قد بلغ عدد سكانها ٣٥٠٠٠٠ الفاً على وجه التقريب والأخلاق بعد الاحتلال آخذة فى التقهقر والأزمة الحالية شديدة وقد منعنى الكبر والمرض أن أبسط لك المقال فى عادات القوم وتقاليدهم وآمالهم وآلامهم وما تستحقه من إصلاح وتجديد .

واما حالة العراق العامة أيام مولدى فكان فى رخاء على الأكثر غير أن الجهل كان يسود أكثر أهله ولم تكن فيه يومئذ مدارس للذكور ولا للإناث إلا الكتاتيب وإلا المدارس القديمة الدينية وكان التعصب شديدا .

وقد بنيت الأدب على أنقاض عبد الباقى العمرى والأخرس وكلاهما من الشعراء الوزانين المقلدين فلا جزالة فى ألفاظهما ولا ابتكار فى معانيهما واذكر أن شاعريتى بدأت وأنا ابن ١٥ سنة ومن أوائل شعرى .

أما آن أن نأبى على الوطن العارا ... فنركب أخطارا ونقضى أوطارا

ولك أن تنشر ترجمتى فيما تشاء من الصحف على أن تهدى إلى نسخة منها وعليك لسلامى .

فى ٨ أيلول سنة ١٩٣٢ ... جميل صدقى الزهاوى

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٥ (ديسمبر ١٩٤٦) .

ترجمة حيـــاتى ملخصة

ولدت فى بغداد من أبوين كرديين فى يوم الأربعاء ١٨ حزيران سنة ١٨٦٣ أما أبى فهو مفتى العراق محمد فيضى الزهاوى الكبير ويرجع نسبه إلى امراء السليمانية (البابان) وهؤلاء ينتمون فى نسبهم إلى خالد بن الوليد . وشهرة والدى بالزهاوى هى لأن أباه (جـدى) احمد بك هاجر إلى « زهاو » (بلدة ملحقة فى يومنا هذا بايران) وسكنها سنين وتزوج فيهـا بسيدة زهاوية فولدت له أبى فلما رجع إلى السليمانية مع نجله (أبى) اشتهر أبى بالزهاوى .

وأما أمى فاسمها « بيروز » وهى سيدة عصبية المزاج من أسرة كردية وجيهة (ولعلى ورثت العصبية منها) وكنت فى صباى أدعى بالمجنون لحركاتى غير المألوفة وفى شبابى بالطائش لخفتى وإيغالى فى اللهو وفى كهولتى بالجرىء لمقاومتى الاستبداد وفى شيخوختى بالزنديق لمجاهرتى بآرائى الحرة الفلسفية المخالفة لآراء الجمهور .

تعلمت كثيراً من علوم الأولين فلم تشبع عقلى وكثيرا من علوم الغربيين فيما ترجم إلى التركية والعربية على اساتذة خصوصيين فولعت بها ودأبت على المطالعة وتوسعت فيهـا وكان أول نظمى بالفارسية ثم بالعربية ونشرت لى المجلات والصحف فى مصر وبيروت والشام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة وأنا أول من دافع عن المرأة فى العراق وأول من قاوم الاستبداد فى عهد السلطان عبد الحميد وأول من نظم القصائد القصصية وأول من تمرد على القديم وعنى بالتجديد وقاوم التعصب .

ولم أتعلم لسوء الحظ لغة غربية وقد تزوجت فى سن الثلاثين بالآنسة زكية هانم وعمرها يومئذ ١٦ سنة وهى من بيت تركى شريف ولم يولد لنا ولد وقد خدمتنى فى شيخوختى باخلاص وأمانة .

وعينتنى الحـكومة التركية فى أول شبابى عضوا فى مجلس المعارف ببغداد ثم مديرا لمطبعة الولاية ومحررا للقسم العربى من جريدتها الرسمية (الزوراء) ثم عضوا فى محكمة الإستئناف وسافرت بعد سنوات إلى مصر فمكثت فيها أسبوعا ثم أبحرت إلى اسلامبول عاصمة البلاد العثمانية يومئذ .

وبعد سنة أرسلتنى الحـكومة بارادة سلطانية إلى اليمن واعظاً عاماً وعضوا

فی الجمعية الاصلاحية وبقيت فيها ٩ أشهر ثم دعيت إلى العاصمة بارادة سنية واجتمعت فی هذه المرة بالترك الأحرار وجاهرت بالسخط على نظام الحكم يومئذ ونظمت فی ذلك عدة قصائد نشرت فی جرائد مصر بتوقيع مستعار وأصبحت معقبا بالجواسيس وكانت النهاية أن أبعدنی السلطان إلى بلادی براتب شهری قدره ١٥ جنيه .

وأكثر شعری الذی كنت نظمته قبل الدستور العثمانی نشر فی ديوانی الأول « الكلم المنظوم » ولما أعلن الدستور العثمانی عدت إلى العاصمة فعينتنی الحكومة الدستورية أستاذاً للفلسفة الإسلامية وأستاذاً للآداب العربية فی جامعتها وقد نشرت دروسی التی كنت القيها فی الفلسفة بمجموعة دار الفنون باللغة التركية . ثم اشتد بی المرض فألجأنی إلى الرجوع إلى بغداد أستاذاً للقانون المدنی فی كلية الحقوق .

وفی ولاية ناظم باشا كانت جريدة « المؤيد » فی مصر قد نشرت لی مقالة أدافع فيهـا عن حقوق المرأة فقامت حول هذه المقالة ضجة كبيرة وأخذ المتعصبون يرغون ويزبدون ويقذفوننی بالسب واللعن .

والمهذبون من الـكتاب فی مصر وسورية يناصروننی ولـكن التعصب فی بغـداد كان يومئذ ذا صولة فلم يسع الوالی غير عزلی من وظيفتی إرضاء للرأی العام ثم جاء جمال باشا والياً عوضاً عن ناظم باشا فارجعنی إلى وظيفتی .

ثم انتخبت نائبا عن لواء المنتفق فی البرلمان العثمانی فحضرت جلساته فی اسلامبول ثم انفسخ المجلس فعدت إلى بغداد وانتخبتُ من بغداد نائبا عنها فذهبت إليها ثانية وألقيت الخطب أدافع عن حقوق العراق وعن الحق وقامت حولی الضجات فلم أبال ثم بعد سنتين أو ثلاثة وقعت الواقعة وأعلنت الحرب العظمى واحتلت الجنود الانكليزية بغداد وأرادت أن تأخذنی إلى الهند أسيرا ولـكننی أبرزت ورقة فيها صراحة بأنی مكاتب لجريدة المقطم المصرية (وكانت هذه الجريدة موالية للانكليز) فأفرجوا عنی .

وعينتُ فی عهد الاحتلال عضواً فی اللجنة التی تدير أمور المعارف ثم رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية فعربت ١٧ قانونا بين صغير وكبير ثم ألغيت اللجنة وجاء جلالة الملك فيصل الأول المعظم وتوج ملـكاً على العراق واحتفل به فی بغداد احتفالات باهرة كنت المغرد فيها .

ثم هاجرتُ إلى سورية فمصر وأقيمت لى فى الشـام وبيروت ومصر عدة حفلات ونشرت لى فى الشام وبيروت ست قصائد وفى مصر أكثر من ثلاثين قصيدة وبعد أن أعلن الدستور فى العراق رجعت إليه فعينى جلالة الملك عضواً فى مجلس الشيوخ ثم بعد ٤ سنوات خرجت من المجلس بالاقتراع الذى كان قد نص عليه الدستور العراقى .

ثم تمت المعاهدة بين الحكومة العراقية وبريطانيا العظمى وكانت يومئذ تنشر لى « السياسة الأسبوعية » (مجلة كانت تنشر فى مصر) كل أسبوع قصيدةً فعطلتها حكومة مصر وقد بلغتُ السبعين من عمرى وبان على الهرم وشُلت أصابع قدمى اليسرى منذ أكثر من عشرين سنة وما زالت الأوجاع العصبية تنتابنى وتبرح بى .

وأما مؤلفاتى فأولها رسالة باسم « الكائنات » فى الفلسفة أبديت فيها آرائى الحرة فى المكان والزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية وقد طبعت فى مطبعة المقتطف بمصر ونفدت نسخها . والثانى رسالة فى سباق الخيل أودعتها تجاربى الخاصة فى ركض الخيل وقد طبعت فى مجلة الهلال بمصر . والثالث رسالة فى « الخط الجديد » نشرها المقتطف بمصر ثم فى شكل رسالة وقد نفدت نسخها وهذا الخط لايشبه الخط العربى ولا الحروف اللاتينية ويقدر أن يتعلمه التلميذ فى أسبوع وهو جميل ويكتب متصلا من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ويطبع مقطعاً وفيه تسهيل للطباعة فإن كل حرف منه إذا قلب كان حرفاً آخر من الحروف الأبجدية فقام كل حرف بوظيفة حرفين وتعلم ما فى ذلك من الاقتصاد ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خطاً عاما لجميع اللغات . والرابع هو دروسى الفلسفية التى كنت ألقيها على تلاميذى فى جامعة الآستانة . والخامس ديوانى « الكلِمُ المنظوم » وقد نشر فى بيروت بأول سنة للدستور العثمانى ونفدت نسخه . والسادس هو « الفجر الصادق » فى الرد على الوهابية وقد طبع فى مصر قبل الدستور العثمانى ونفدت نسخه . والسابع رسالة « الجاذبية وتعليلها » وقد طبعت فى بغداد بعد رجوعى إليها أستاذاً فى كلية الحقوق . والثامن هو ديوانى الذى طبع بمصر باسم « ديوان الزهاوى » . والتاسع هو « المجمل مما أرى » رسالة فلسفية أودعتها آرائى التى خالفت فيها علماء عصرى وبسطت فيها الناموس الدورى العام وعللت الجاذبية العامة بالدفع العام للأثير

الجارى إلى المادة طلباً للموازنة وقد طبعت بمصر قبل ثمانى سنوات . والعاشر رسالة فى لعبة الداما تحتوى على ١٥٠٠ لعبة ٥٠٠ منها لأصحابها و١٠٠٠ من مستنبطاتى وهذه لم تطبع بعد . والحادى عشر ديوان رباعياتى وقد طبع فى بيروت قبل ثمانى سنوات طبعاً رديئاً مغلوطاً فيه . والثانى عشر ديوانى الذى طبع ببغداد قبل ٤ سنوات باسم « اللباب » وأضفت إليه ١٨٠٠ رباعية من رباعياتى منقحة صحيحة وكثيراً من قصائدى المنشورة فى « ديوان الزهاوى » منقحة وما نظمته من القصائد بعده . والثالث عشر « ترجمة رباعيات الخيام » وقد ترجمتها رأساً من الفارسية نثراً ونظماً بعد إثبات الأصل الفارسى فى الصدر وهى ١٣٠ رباعية . والرابع عشر رواية تمثيلية باسم « ليلى وسمير » طبعت فى بغداد قبل سنتين ونفدت نسخها . والخامس عشر رسالة فى تسهيل القواعد العربية لم تنشر بعد . والسادس عشر هو مانظمته بعد قصائد « اللباب » باسم « الأوشال » وقد نشرت قصائده فى مجلات مصر وصحفها والشام وبيروت وبغداد ولم تنشر بعد فى شكل ديوان .

والسابع عشر هو « نزغات الشيطان » وقصائد هذا الديوان لم تنشر بعد فى المجلات والجرائد وسوف تنشر بعد موتى لأنها تصادم آراء المتعصبين وتثيرهم علىّ إثارة لا أحمد عقباها ، والثامن عشر هى قصيدتى «ثورة فى الجحيم» وعدد أبياتها ٤٣٣ وقد نشرت فى العام الماضى فى مجلة الدهور وكانت يومئذ تصدر فى بيروت . وقد قامت حولها ضجة كبيرة ، وقد سبنى بسببها بعض المتعصبين على المنابر فى خطبة صلاة الجمعة ونفدت بعد قليل من الزمن نسخها ، وفيما يلى فهرس مندرجاتها :

١ — منكر ونكير فى قبر الميت ووصف دقيق لهما .
٢ — حوار بين أحد الملكين والميت يحتوى على أسئلة كثيرة ، والميت يجامل فى أجوبته .
٣ — مصارحة الميت .
٤ — وصف الصراط .
٥ — السؤال عن الملائكة والشياطين والجن وأجوبة الميت .
٦ — السؤال عن السفور والحجاب وجواب الميت .

٧ — السؤال عن الله وجواب الميت .
٨ — إلقاء الحجة .
٩ — الله هو الأثير والاختلاف فى الإسم .
١٠— امتناع الميت عن الإفاضة فى الجواب .
١١— أتركانى ولا تزعجانى .
١٢— تقريع الميت للملكين .
١٣— الإلحاف فى السؤال .
١٤— الحوار الأخير .
١٥— عذاب القبر .
١٦— أخذ الميت إلى الجنة ليرى ما حرمه ثم وصف دقيق لها .
١٧— قذف الميت فى الجحيم ووصف مافيها من العذاب .
١٨— حوار بين الميت وليلى فى الجحيم (ليلى فتاة فرقوا فى الجحيم بينها وبين حبيبها) .
١٩— الشعراء فى الجحيم .
٢٠— عمر الخيام يتغنى فى الجحيم بالخمرة .
٢١— سقراط يلقى محاضرة على الحكماء فى الجحيم .
٢٢— منصور الحلاج فى الجحيم يعاتب الله .
٢٣— اختراع أحد أهل الجحيم آلة تطفىء السعير .
٢٤— خطبة أحد شباب الجحيم يحدث بها ثورة عامة .
٢٥— المعرى ينشد نشيد الثورة ويردد له الجمهور .
٢٦— الحرب بين الزبانية (حفظة الجحيم) وأهل الجحيم .
٢٧— انجاد الشياطين فى قيادة إبليس لأهل الجحيم وانتصار الملائكة فى قيادة عزرائيل للزبانية والحرب الهائلة بينهما ، ووصف هذه الحرب وانهزام جيش الملائكة وإطفاء الجحيم .
٢٨— احتلال أهل الجحيم للجنة طائرين إليها على ظهور الشياطين .
٢٩— طرد أهل الجحيم بعد احتلال الجنة البله منها .
٣٠— الخاتمة .

بغداد فى ٨ ايلول سنة ٩٣٢ — جميل صدقى الزهاوى

صديقي الأستاذ الجليل

وصل إلى كتابك الكريم وقد كلفتم فيه شيخا همّا مثلي قد نهكته السنون وشلت رجله الأمراض مالا طاقة له به فهو مشغول بآلامه عن مثل هذه المطالب .

وقد أرسلت إليك عددا من « الأوشال » وعددا من ترجمة رباعيات الخيام وعددا من رباعياتي على أن هذا الديوان مملوء بالأغلاط فلا تعتمد عليه واكتف من رباعياتي بما في اللباب والأوشال أما « الكلم المنظوم » و « الفجر الصادق » و « الكائنات » فقد نفدت نسخها ولعلك واجد كتاب الكائنات في القاهرة فإنه طبع في وقته بمطبعة المقتطف . وأما محاضراتي الفلسفية التي كنت ألقيها بالتركية على تلامذتي في جامعة الآستانة فقد كانت تطبع في مجموعة دار الفنون تباعاً فمن أين أجدها اليوم لك وقد انقطعت صلتي بها منذ سنين طويلة . وأما ديوان العمري والأخرس فأنا عاجز عن الحصول عليهما وأما النزاع بيني وبين الأستاذ الرصافي فليس اليوم كما يكبره المرجفون فكثيرا ما نتلاقى كصديقين .

أما ما كتبه المستشرقون عن الأوشال فكثير غير أني لا أحفظ العبارات وقد كتب إليّ أمين مكتبة الفاتيكان الكبرى قائلا ما خلاصته « إن ما يحتوى عليه الأوشال هو أروع ما قرأناه من الشعر العربي العصري » وقال لي أحد أصحابي إن مجلة من أهم مجلات لندن الإنكليزية نشرت مقالة مفصلة في تقريظ الأوشال غير أني لم أحصل عليه .

وأما كتاب المستشرق الكبير الدكتور ودمر الألماني في ترجمة حياتي فهو تحت الطبع على حساب أديب ألماني آخر وقد ترجم الدكتور ودمر في كتابه هذا قصيدة « ثورة في الجحيم » وخمسين قصيدة من « اللباب » و ٥٣ رباعية إلى الألمانية وعدد صفحات كتابه أكثر من ٣٠٠ وسيتم طبعه في الخريف الآتي .

وقد جاءتني قصاصة من برلين تحتوي على مقالة لأحد دكاترة الألمان يذكر فيها مقابلته لي في بغداد ويكبرني إلى درجة لا أستحقها وجاءت مجلة ألمانية تصدر في برلين فيها مقالة في ٨ صفحات تشرح المواضيع التي يحتوي عليها كتاب « ودمر » فيّ .

هذا وإذا أردت الحصول على ديوانى العمرى والأخرس وغيرهما فلك أن تراجع رأساً صاحب المكتبة العصرية ببغداد الكتبى الشهير محمود حلمى فهو قد يستطيع أن يجدهما لك ويرسلهما إليك بسعرهما الحقيقى وعليك سلامى.

جميل صدقى الزهاوى

بغداد فى ٧ تموز سنة ١٩٣٥

وصل إلى الآن الجزء الأول من كتاب الدكتور ودمن فى والظاهر أنه ترجم قصيدة « ثورة فى الجحيم » بالشعر الألمانى وقد طبع الكتاب على نفقة مستشرق روسى كبير وسيأتينى الجزء الثانى.

الزهاوى

كفاحي الثقافي واختباراتي الصحفية

الثقافة إما أن تكون راكدة وإما مكافحة . وهي تركد حين تعالج موضوعات لا تثير المناقشة . وقد يرجع هذا إلى أن المجتمع نفسه مستقر يعيش في بيئة زراعية مثلا ، أو أن حق الحكم منفصل منه إذ يتولى شؤونه مستعمرون مثلا . وقد بقينا نحن على هذه الحال نحو أربعين سنة فيما بين ١٨٨٢ و ١٩٢٢ حين تقررت لنا حقوق بالدستور كان مجتمعنا فيها منفصلا من الإدارة الحكومية . وكان المتولون من الإنجليز الذين لا تجدي المناقشة الصحفية معهم عن موضوع تعليمي أو صحي أو اقتصادي . وأذكر أن المرحوم عوض واصف حين أنشأ مجلة «المحيط» في ١٩٠٣ قال في العدد الأول إن مجلته ستعالج الشؤون السياسية والحكومية . فردت عليه «المقتطف» بأنه ليست هناك جدوى ؛ لأن المتولين لهذه الشئون إنجليز لا يقرأون العربية .

ولكن مجتمعنا أثار المناقشة وجعل الثقافة الدينية ، عن طريق محمد عبده ، ثم الثقافة الاجتماعية ، عن طريق قاسم أمين ، موضوعا للمناقشة الحية . وكانت حالنا في تلك السنين أشبه بحال روسيا أيام القيصر ؛ فقد كان المفكرون الروس ممنوعين من نقد السياسة ، فاتجهوا إلى الأدب . وكان علينا في مصر حظر عام بشأن السياسة وانتقاد الحكومة ، فاتجه النقد نحو المجتمع .

وفي أيامي الأولى ، في بداية وجداني الأدبي ، وجدت مجلات «المقتطف» و «الهلال» و «الجامعة» ، من الحركات الذهنية ، بل أكسبتني هذه المجلات توجيها تجديديا في العلم والأدب . وكنت قانعاً بهذه الثقافة . ولولا حادثة دنشواي لما التفتُّ إلى السياسة أدرس أصولها وأعنى بتفاصيلها في السنين العشر الأولى من هذا القرن .

وكانت نظرية التطور التي فهمت مغزاها من «المقتطف» البذرة الخصبة في ثقافتي . فقد أكسبتني معرفة وأسلوباً ، وعينت لي أصدقائي وخصومي من

المؤلفين والمفكرين، وغرست فى مزاج الكفاح لأنها تصدت للعقائد والتقاليد . وقد تشجع الكفاح من هذه البؤرة إلى موضوعات أخرى؛ ولذلك لم أسعد قط بالبرج العاجى . كما أن مغزاها الخطير فى التفكير العلمى والاجتماعى جعلنى دائم الشك كبير الاستطلاع والمساءلة، وتغيرت الأوزان والقيم عندى، وأخذت بقيم وأوزان جديدة ترى على لجاجتها فى « مقدمة السبرمان » .

ففى هذه الرسالة أجدنى أقول بالاشتراكية واليوجنية والتطور وتنظيم الدولة والمجتمع لا بيجاد السبرمان أى الانسان الأعلى الذى نكون نحن منه بمكان الغوريلا أو الشمبنزى منا . وقد كان التفكير عندى فى هذه الشؤون أقرب الأشياء إلى ما يمكن وصفه بأنه « غيبيات » علمية، أخذت مكان الغيبيات الدينية وقتئذ . وفى السنة التى ألفت فيها هذه الرسالة (١٩٠٩) نشرت مقالا فى «المقتطف» بعنوان «نيتشه وابن الانسان» وفى«الهلال» مقالا عن الاشتراكية التى أسميتها وقتئذ «الاجتماعية»؛ وهذا الاسم الثانى أقرب إلى الكلمة الأوربية من كلمتنا الشائعة الآن « الاشتراكية » . وألفت رسالة فى هذه الموضوعات بعثت بها إلى مطبعة المقتطف كى تطبع . فردتها إلىّ المطبعة مع نحو ثمانى صفحات مجموعة . وكنت فى لندن، واعتذرت عن التوقف عن الطبع لأن القانون فى مصر يعاقب على نشر هذه الآراء، ونزلت عن أجر الطبع للصفحات الثمانى .

وقد كان هربرت سبنسر يقول إنه يستطيع أن يعرف المستوى الذهنى لأى إنسان بعد مدة قصيرة من التحدث معه . وهو يعنى بهذا أن لكل منا كلمات أو عبارات تتكرر أو يلتفت إليها الذهن كثيراً، وهى تدل على اهتمامات المتكلم أى تدل على ثقافته مادة واتجاهاً . وحين أرجع إلى نفسى أبحث عن الكلمات التى تتكرر فى مؤلفاتى ومقالاتى أجد أن أكثرها تكراراً : التطور، العالمية، حرية المرأة، العلوم، الحضارة الصناعية، الرجعية، المستقبل أى إنها كلمات تدعو إلى تغييرنا .

وأجد أن تفكيرى فى السياسة والثقافة كان على الدوام يساريًّا، وفى الأغلب ارتياديا . ومما يلاحظ أن جميع الكتاب فى مصر بدأوا حياتهم الأدبية مذهبيين ارتياديين، ثم انتهى كثير منهم إلى ملاذ التقاليد يدعون إلى الفعل الماضى بدلا من اقتحام المستقبل . كما أنى أجد أن لى استعراضاً ديمقراطيًّا فى جميع ما أكتب يحملنى على مكافحة الظلمات التى لا تزال حية فى الشرق العربى : فى الاجتماع

والاقتصاد والعقائد . ولذلك لم يتغير موقفى من حيث إنى كاتب مذهبى يسارى أكافح الرجعيين الذين يجدون الحكمة خلفنا لا أمامنا ، كما أكافح أيضاً الإقطاعيين الذين يعارضون الاتجاهات الديمقراطية فى الأمم العربية .

وقد كانت حياتى الصحفية فى مصر ثقافية إلى أبعد حد . فقد أخرجت « المستقبل » فى ١٩١٤ وجعلته للكفاح الفكرى ، ولم ألتفت فيه إلى السياسة ، وأخرجت ١٦ عدداً ، وكان شبلى شميل من محرريه ومؤيديه . ثم اشتغلت بالهلال ثم بالبلاغ . وفى هذه الجريدة الأخيرة اشتبكت بالسياسة . ولكن همى الأول واهتمامى الأكبر كانا بالصفحة الأدبية . وهنا ك ثلاثة كتب هى « نظرية التطور وأصل الإنسان » و « مصر أصل الحضارة » و « التجديد فى الأدب الانجليزى الحديث » نشرتها كلها فصولا متتابعة فى «البلاغ» قبل أن تجمع فى كتب . ووجدت من عبد القادر حمزة ليس الصدر الرحب فقط بل التشجيع أيضاً على أن أمضى فى هذه البحوث .

أما «الهلال» فقد حررته من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٩ وكان من شروط عملى فيه أن أؤلف كل عام لقرائه كتابا جديداً يقوم مقام العطلة حين كان ينقطع شهرين . وكان بعض هذه الكتب للتسلية مثل « أشهر قصص الحب التاريخية » وكنت أؤديها على سبيل الواجب الحرفى . ولم تكن تكلفنى مجهوداً . ولكن كان بعضها الآخر يحملنى على البحث والدراسة ؛ فكنت أؤلف وأنا أتعلم ، مثل « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » و « العقل الباطن » . والحق أن هذه المؤلفات التى ألفتها وأنا بالهلال ثم بالبلاغ كان كل منها بمثابة المدرسة التى علمتنى وأمدتنى بالغذاء الذهنى سنوات . بل حتى المقالات التى كنت أنشرها فى «الهلال» و «البلاغ» وجدت من الناشرين اهتماما ، فطبع بعض منها مع تنوع موضوعاتها باسم « مختارات سلامة موسى » و « اليوم والغد » و « فى الحياة والأدب » .

وقد سعدت بهذه المؤلفات على قلة بل تفاهة ما كسبت منها ماليًّا . وذلك أنى كسبت تربيتى ، كما كسبت هذا التغير الذى وجدته فيمن قرأوها ، وهو تغير كان أحيانا يصل إلى التطور والانقلاب ، وفيما بين ١٩٢٣ و ١٩٣٠ أثير غبار فى القاهرة بشأن التجديد فى الأدب ، وكان كل أديب يفهم من معنى هذا التجديد غير ما يفهمه الآخرون ، كل تبعاً لمزاجه واتجاهه وثقافته . وأستطيع أن أعين الاتجاهات التجديدية لتلك المناقشات الحامية كما أذكرها الآن فيما يلى :

١ — أن يكون لنا أدب مصرى عصرى لا يرتكن إلى الأدب العربى القديم .
٢ — أن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره ، مع مداعبة مستحيية للغة العامية . . . وهى مداعبة لم تثمر .
٣ — أن نأخذ بالأوزان والقيم الأوروبيــة فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجانى أو ابن الاثير أو ابن رشيق .
٤ — أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج شؤونه ويندغم فى مشكلاته .
٥ — أن نوجد القصة والدرامة المصريتين .
٦ — أن نجعل الأدب إنسانى الغاية عالمى المشكلات .

والمؤلف بالمقارنة إلى الصحفى يعدُّ ناسكا . فإن المؤلف ينزوى فى غرفتــه باحثاً منقباً ، ولــكن الصحفى يخرج ويختلط بالمجتمع . ومع أن أكثر مجهودى فى الصحافة كان ثقافيًّا فى بحث العلوم والآداب فإنى قد مسست السياسة أيضاً ، وأحيانا اقتحمت غبارها حتى عصفت بى فى كثير من الأوقات . ولــكن أعظم ما يعزينى أن ما عصف بى كان أيضا يعصف بالأمة ، وأنى فى كفاحى الصحفى كنت أكافح للديمقراطية التى حاول المستبدون أن يحرمونا منها .

وأول اختبارى للصحافة كان فى «اللواء» فى ١٩٠٩ ؛ فقد قضيت فيه نحو أربعة أشهر مع فرح أنطون ، وكان يرأسنا رجل مهذب كان يدعى عثمان صبرى وكان صهر مصطفى كامل ، وكان قد تولى الرياسة بعد المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان قد أغضب الأقباط بكلمات نابية . وكنا نكتب فى المطالبة بالجلاء ، ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء . وهذه عبارة كان يستنكرها بعض الساسة فى مصر ؛ أما الآن فلا تستنكر ، وقد عمل بها الهنود حين أصروا مدة الحرب الكبرى الثانية على شعار « اتركوا الهنــد » . وقد بقى فرح طيلة عملى معه باللواء وهو يظن أنى مسلم ، لاشتباه اسمى ، ولأنه لم يكن فى كل ما أكتب ما يدل على وجهة خاصة . أما عثمان صبرى فكان يعرف أنى قبطى ، وكان كثيراً ما يذكر مقالات الشيخ عبد العزيز جاويش بالاستنكار أمامى ويتفادى من نشر أى مقال يوهم الشقاق بين المسلمين والأقباط . وقد كسبت من «اللواء» مرانة صحفية حسنة ، وكنت أكتب الخبر والمقال فى السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . ولم يكن للخبر فى تلك الأيام قيمة كبيرة . وكانت الجرائد «مقاليــة» أكثر مما كانت

خيبية . وذلك لأن الكفاح من أجل الاستقلال كان يستغرق كل اهتمامها تقريباً ، فكان جميع كتّاب الجريدة محررين .

ولما تركت «اللواء» وعدت إلى أوربا بقيت الصحافة خيالا ساحرا فى ذهنى . ورجعت إلى مصر واستطعت فى ١٩١٤ أن أحقق هذا الخيال بأن أصدرت مجلة «المستقبل» الأسبوعية . ولكن لم أصل إلى العدد الرابع عشر حتى كانت الحرب الكبرى الأولى قد شبت ، وارتفع سعر الورق نحو عشرة أضعاف سعره السابق ، وكان لابد أن أعطلها ، ولكن التعطيل جاءنى بطريق آخر . ففى ذات يوم وأنا افكر فى مشكلة الورق طلبتنى إدارة المطبوعات . فقصدت إليها غير عابئ بما يحدث ، وكانت الإشاعات كثيرة بشأن تعطيل المجلات والجرائد . وهناك قعدت أمام أحد الموظفين السوريين الذى حيانى وطلب لى القهوة ؛ وجعل يلاطفنى بكلمات عذبة ، ويسألنى عن المجلة وهل هى رائجة أم أنى أخسر فيها ؛ ثم بعث فى طلب رجل انجليزى . جاء وقعد هذا قبالتى يستمع دون أن يتكلم . ثم شرح لى هذا الموظف حرج الموقف وضرورة وقف (أى تعطيل) بعض المجلات . ومع أنى لم أكن أبالى التعطيل ، كما قلت ، فانى وجدت فتنة سيكلوجية فى متابعة البحث والمناقشة وخاصة أمام هذا الإنجليزى ، فأبديت أنى قادر على إصدار « المستقبل » مهما كانت الصعوبات . فتلاحظ الاثنان وأنا مفتون بالموقف . وأصررت على أنى سأصدرها إلى آخر الحرب ، وأنى سأدعو فيها إلى الاشتراكية . وعاد الموظف السورى يخاطبنى فى ملاطفة مسرفة ويقول إنى أستاذ وعاقل . . . الخ . وأصررت أنا على العناد .

وأخيراً صرح ، فى غير ملاطفة ، بأن إدارة المطبوعات تستطيع التعطيل ، وأن المناوئين للحكم فى الظروف الحاضرة الشاذة يمكن نفيهم أو اعتقالهم . وكان هذا ما أردت أن أسمعه ، فنهضت وقلت إنى سأعطل المجلة ، وخرجت .

وأرسلت إلىّ « مى » عقب التعطيل خطاباً تطلب منى أن أحرر «المحروسة» وكانت جريدة يومية قليلة الانتشار يصدرها والدها ، فقبلت ، وبقيت أحررها جملة أشهر سئمت بعدها الكتابة مع المراقبة الصارمة التى كانت تفرضها إدارة المطبوعات على الصحف . ولم يكن يخفف من هذا السأم سوى زيارات مى ومؤانستها لنا من وقت لآخر ؛ فقد كانت حلاوتها تمتزج بظرف ورقة .

وبقيت طيلة الحرب الكبرى الأولى وأنا معطل . وقد قضيت معظم سنى

هذه الحرب فى الريف فى عزبتنا بالقرب من الزقازيق . وكانت تلك الأيام بمثابة الحضانة . فقد أكببت على القراءة الجدية فى الآداب والعلوم واستوعبت منها كثيراً . وكنت من وقت لآخر أقصد إلى مأمور المركز فى الزقازيق كى أرجوه فى الإفراج عن أحد الذين قبض عليهم من الفلاحين . وكانت الحكومة تنفذ شرطتها إلى الأسواق الريفية العامة فتقبض على من تستطيع من هؤلاء المساكين وتربطهم بالحبال الغليظة كما لو كانوا أسرى حرب ، ثم يبعثهم الإنجليز إلى فلسطين وكانوا يموتون بالمئات والألوف . ولم أكن أنجح فى تخليصهم إلا بالرشوة .

وسئمت الركود الريفى ، فاشتغلت بالتعليم فترة . ثم هبت الثورة فى ١٩١٩ ورأيت أن أقصد إلى القاهرة حتى أكون على صلة بالحوادث ، وحتى أجد منفذاً جديداً إلى الصحافة . وتحقق لى ذلك ؛ فإنى بعد أن اشتغلت بالتعليم فى مدرسة التوفيق قليلا اشتركت فى تحرير «الهلال» ، واشتركت أيضاً فى تحرير «البلاغ» .

وانغمست فى السياسة مع المرحوم عبد القادر حمزة ، وكنت أزور معه سعداً . وكان عبد القادر حمزة من الكتّاب الأفذاذ إذا نشب فى موضوع لم يترك الجدل فيه حتى يستقصيه ويخرج منه منتصراً . وكان نزيها فى حكمه حتى حين كان يختلف . فإنه بعد أن ترك الوفد فى ١٩٣١ بقى على صداقته السابقة مع كثير من الوفديين .

وأصدرت « المجلة الجديدة » فى أواخر ١٩٢٩ . وأصدرت « المصرى » فى السنة التالية . وكانت الأولى شهرية والثانى أسبوعيا . وكانت الدعوة فى كليهما تحريرية فى الثقافة والسياسة . وعصفت بنا فى ١٩٣٠ عاصفة سياسية فى وزارة إسماعيل صدقى باشا ، فألغى الدستور واستبدل به آخر بعيداً عن الديمقراطية ، وألغيت مجلتاى . وكان قد شُرط فى قانون النشر الجديد أن من يطلب امتيازاً لجريدة أو مجلة جديدة يجب أن يؤدى تأميناً قدره ١٥٠ جنيها . فأديت التأمين نقداً . ولكنه رفض . وبعد ثلاث سنوات أى فى ١٩٣٤ جاءت وزارة عبد الفتاح يحيي باشا ، فاستطعت أن أعيد إصدار «المجلة الجديدة» بضمان عامل فى المطبعة عندى . . . وهذه هى حالنا فى مصر : فى وزارة ما يرفض التأمين النقدى ، وفى وزارة أخرى يقبل ضمان العامل الذى لا يملك شيئاً .

وفى بداية الحرب الكبرى الثانية أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية ، فاستدعتنى كى أحرر مجلاتها . وقبلت لأنى وجدت أن الفرصة تتيح لى الإرشاد

العصرى والتوجيه الاجتماعى . وبقيت أكتب فى هذه المجلة نحو سنتين . وكانت مقالاتى يوقع عليها بامضائى أو تنشر بلا إمضاء . فإذا راقت المشرفين على المجلة وضع لها إمضاء غيرى ولو لم تكن له علاقة بالوزارة . وقد كان هذا العمل مثاراً للسخرية أحيانا وللأسف أحيانا .

وكنت أتناول عشرين جنيها راتباً شهريا على التحرير دون أى اشتراط على القدر الذى أكتب أو على مواظبة الحضور . فكان يمضى الشهر دون أن أحضر للوزارة ، وكنت أكتب أى قدر شئت من الصفحات . ولكن الوزارة ضنت علىّ بهذه الحرية مع صغر الراتب . فألغته وعينت أربعين قرشاً للصفحة الواحدة . ورأيت آخر الشهر بعد هذا النظام أن كل ماحصلت عليه هو جنيهان فقط ، فتركت التحرير .

وكنت طيلة عملى بالوزارة أصدر « المجلة الجديدة » أيضاً . وبقيت على ذلك إلى ١٩٤٢ حين سلمتها لبعض الإخوان الأصدقاء كى يقوموا بنشرها وكى أختص أنا فى التحرير السياسى . ولكنهم نزعوا نزعة ديمقراطية مسرفة لم ترض الاستعمار ، فألغيت فى تلك السنة بأمر عسكرى .

وفى السنة التالية اشتريت امتياز جريدة يومية . وقبلت إدارة المطبوعات نقل الامتياز الذى أثبت فيه أنها « يومية » وذكر فيه الضمان بأنه ٣٠٠ جنيه أى ضمان جريدة يومية . وبعد أن قبل كل هذا وبعد أن استعددت لإصدار هذه الجريدة اليومية أقيلت وزارة الوفد . وفى اليوم التالى للإقالة فى أكتوبر من ١٩٤٤ أبلغتنى إدارة المطبوعات أن الجريدة شهرية وأنه لايجوز لى أن أصدرها يومية .

وعندما أقارن بين صحافة الجيل الماضى (من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٠) وصحافة الجيل الحاضر ، أجد أننا قد تقدمنا وتأخرنا . أجل ! تقدمنا فى فن الطبع والإخراج تقدما عظيما جداً ، فإن جرائدنا ومجلاتنا تدل على رقى فنى يضارع أعلى المستويات الصحفية فى أوربا . ولكننا من حيث التحرير تأخرنا ؛ إذ ليس عندنا الآن من المحررين من يضارعون مصطفى كامل أو على يوسف أو لطفى السيد . وقد مات عبد القادر حمزة وهو آخر هذا الجيل المنقرض .

ولكن هناك مع ذلك علامة حسنة فى الصحافة الحديثة ، هى عنايتها الكبيرة بالأخبار الخارجية ؛ فإن هذه العناية ، التى كان منبعثها الحربين الأخيرتين ،

تنير القراء وتربيهم على النظر العالمى وبحث سياستنا من الزاوية السياسية العالمية الكبرى . وهذا حسن .

وقد دلتنى اختباراتى فى السياسة والثقافة أن مقالين فى السياسة أحيانا يعودان بمثل الربح المالى الذى يعود من تأليف كتاب كامل قد احتاج إلى دراسة السنين . ولذلك فان التأليف فى مصر تضحية كبيرة لا يرضاها إلا المهوسون بالثقافة . ولذلك أيضاً أصبح كثير من الأدباء الذين افتتحوا حياتهم بالتأليف صحفيين .

وذات مساء فى ١٢ يوليه من هذا العام ١٩٤٦ كنت نائماً على الأسفلت فى غرفة مظلمة فى سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والقتل واحتياز المخدرات وغير ذلك . وكانت تهمتى أنى أفكر وأكتب عن الاشتراكية أو الشيوعية . وكانت خشونة الأسفلت تمنعنى من النوم وتؤلمنى فأرقت . وأخذت ذاكرتى تعرض فلم حياتى الماضية ، فذكرت الحرية التى كنت أتمتع بها فى ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات فى « المستقبل » لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن . وذكرت العناء الذى لقيته فى الدراسة والتأليف ، وعددت نحو عشرين كتابا ألفتها لأبناء وطنى أخلصت فيها النية وبذلت المجهود كى أنير وأعلم ، وكى أسمو بالشباب إلى مثليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية . ثم تأملت حالى على الأسفلت الخشن ، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التى يستحقها من يخدم ويخلص فى الخدمة . وكان إلى جنبى نصف رغيف هو عشائى الذى قررته لى الحكومة المصرية جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر . وأخذت أفكر وأجد التفكير وعقلى يتضور من الألم ، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل بقفة بها خبز ، فناولنى رغيفاً للفطور وضعته فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق . وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتحالفان .

سلامه موسى

الحقل والبحر

كان بالأمس زاهياً سندسيّا ... فغدا ساطع السنا عسجديا
هو كالبحر فى اتساع مداه ... وهو كالبحر طيِّعاً وعصيّا
فإذا مسه النسيم رفيقاً ... مال كالمنتشى زهته الحميا
وإذا ثارت الرياح ترامى ... مثل هوج الأمواج تهوى هويا
عصفرته شمس الأصيل فأمسى ... يابس الأرض سائلا ذهبيا
يا له خضرماً حوى بدل المر ... جان والدر بُرَّه اللؤلؤيا

وشبيه الخضمّ أذكرنى ملهى ... خضمٍ رتعت فيه صبيا
شاطىء مائج الرمال ويمٌّ ... يتهادى إليه طلقاً حفيا
كنت أقفو تلك الرمال صعودا ... وهبوطاً ولا أملّ مضيا
وإذا ما لحت فى الأفق النا ... ئى شراعا يكاد يخفى قصيا
شاقنى سرّ ذلك العابر المج ... هول يطوى عوالم الغيب طيا
وتملّيت متعة الأزرق الرج ... راج أجلو بحسنه مقلتيا
فله روعةٌ على حالتيه ... إن سجا أو طغى ودوّى دويا
يتوالى الزمان يوما فيوما ... فى نواحيه مستطابا هنيا
حيثما الدفء فى الشتاء وفى الصي ... ف يهب النسيم رطباً نديا
تنسخ السحب لونه كلما طا ... فت وتضفى عليه لوناً سنيا
فإذا الأزرق السماوى يخضوْ ... ضر حينا . . . وينثنى فضيا
وإذا باللجين يشهبّ آنا ... ثم يرتد داكناً طحلبيا
خلعت فتنة السماء على البح ... ر جمالاً من ذخرها علويا
أى طرس هذا الذى رسم الل ... ه عليه فتونه الأزليا
هل إليه من رجعة تبعث الما ... ضى كما كان شائقاً عبقريا

محمد منير الشوباشي

جان دوتور و « مركّب قيصر »

[سيختص الأستاذ إيتيامبل أستاذ الأدب الفرنسى بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول قراء هذه المجلة بين حين وحين بفصل نقدى يعرض فيه كتاباً من الكتب الفرنسية المعاصرة .]

عند مامنحت جائزة ستندال لأول مرة سنة ١٩٤٦ قسمت بين رنيه ماسون عن قصته « إلى الشرطة وإلى اللصوص » وبين جان دوتور عن مجموعة مقالاته المعنونة : « مركّب قيصر » . وقد تحدثت عنها باريس كثيراً .

ولا نعرف عن المؤلف إلا القليل ، اللهم إلا أنه حارب وهو ما زال حديث السن فى سنة ١٩٤٠ ، واشترك فى المقاومة السرية ، وقبض عليه الجستابو وحكم عليه بالإعدام . وفى اليوم السابق لتنفيذ الحكم نجح فى الهرب . وها هو ذا كتابه الأول الذى امتدح فيه روچيه كايوا كتابا من أمهات الكتب .

ونحن إذا كنا لا ندرى فى الواقع إلا القليل عن حياة المؤلف ، فإننا على العكس نعرف ما تهمنا معرفته عنه . نعرف مزاجه ، ونعرف ما يعشقه ، نعرف نقائصه وآراءه . فهذا الكاتب الذى يحتقر إبداء العواطف وإظهارها ، وهذا القاضى الصارم الذى لا يرحم كتّاب اليوميات المزدهرة فى عصرنا ، ماذا يعطينا هو غير وثيقة عن نفسه فى كتابه « مركّب قيصر » ؟ وهذه المجموعة من المقالات قسمان : أحدهما أكثر إبرازا لشخصية الكاتب ، وعنوانه « تعريف » . والثانى وعنوانه « منشور » يعرض آراء الكاتب عن المجد ، وعن الكلمات التى لا تقع موقعاً حسنا فى الآذان ، وعن العبقرية ، وعن الحب باعتباره أحد الفنون الجميلة ، وعن الأسلوب ، وعن المساواة فى السمو الخ . . .

فهى فى مجموعها إذن وثيقة عن عقل وقلب رجل يريد أن يكون عظيما ،

ويؤمن أنه كذلك . ولو قلنا : يحسب نفسه كذلك لأخطأنا في الكشف عن نفسية دوتور . وهذا الرجل المتجرد من كل حياء زائف ، ينبئنا بذلك من أول كلمة في الكتاب : مركّب قيصر . ثم إنه لا يخفى علينا بعدئذ أنه يسخط بل يرثى منذ عهد بعيد لأولئك المساكين الذين كانوا يتشككون في عبقريته . وسيقول المتواضعون الزائفون: ياله من وقح ، وسيردد حكماء البورچوازيين : « لا يقول الرجل الذكي حقاً عن نفسه إنه كذلك . . . » ولو ردّ دوتور على هذا لقال إن ديدرو لم يكن ليحلل قط العبقرية بتلك الدقة وذلك الاقتناع ، اللذين نعهدهما فيه ، لو لم يكن شاعراً وواثقاً أن له منهما النصيب الوافر . أو لعاد بنا إلى جريكو وقد كان لا يدع أحداً من زبائنه ، الذين يساومونه فيما يطلبه من ثمن ، يجهل عبقريته . ولنتفق على أن دوتور يسخطنا أحياناً بكبريائه الساذجة . أنصت إليه يقول : « مجد رجل مثل جوجان أو پسارو ، ذلك المجد الذي كنت أستطيع بلوغه بسهولة . . . »

آفّ له . . . ! ولربما قال أيضاً : مجد رافايل أو پوسان ! وما أيسر ما يعزّي نفسه لشعوره بأن بعض مزايا ستندال تنقصه ، فإنه عندئذ يفكر فيما يدعوه « المقدرات الأخرى » التي لم يكن لستندال منها نصيب فهو بالتأكيد « ناقص أشد النقص » ، ولكن چان دوتور يمتاز بتوافرها فيه . ثم إنه يصدر أحكامه سريعاً ، ويشير أكثر من اللازم إلى المغفلين الذين يقولون كذا ، وإلى الحمقى الذين يدّعون كذا ، وإلى البسطاء الذين يؤكدون كذا . . .

ورغم ذلك ، وبعد رحلة عجيبة ، يعود دوتور إلى التواضع (وهو حين يمتزج بالكبرياء يأتي بأعظم ما تنتجه العبقرية) . وذلك الذي يريد أن يكتب مثل ديدرو ، وأن يصور مثل پوسان ، وأن يحكم مثل فردريك الثاني ، كيف يستطيع هذا الرجل ألا ينتهي بالظهور بقيمته الحقة ، وبالوصول في النهاية إلى التواضع ؟ ثم إنه من الخير أن يظهر في هذا العالم الذي لا يقدر إلا أصحاب المواهب العادية من العامة والتجار ، رجل سبق له أن خاطر بحياته من أجل حريات يجب تسميتها من ناحية ما الحريات الديمقراطية ، فيدعونا إلى احترام العظماء من الرجال . ثم إنه ليسرنا أن نجد في هذا العالم الذي ألقى بزمامه إلى الأحزاب و « الموضات » والإعلانات ، فرداً مستقلا ، لا هو مع اليمين ولا مع اليسار ، ولا هو من الأحرار ولا من الفاشيين ، رجلا متجرداً من كل شيء

حتى من المخاطر التى تعرّض لها والتي نادراً مايذكرها لدرجة أن أراد البعض أن يلوموا فيه رجلا من الهواة ، من نوع مونترلان . وأخيراً يلذ لنا فى هذا العالم الذى يتجه فيه الكتّاب إلى تملق الأميين أن نقرأ كتابا لا ارتجال فيه . يقول دوتور : « إنى أبغض قراءة ما أكتبه أو تصحيحه . » كلا ! إن دوتور هنا يخدعنا ؛ فهو يعلم تماما أنه يصحح ما يكتبه ، وحسناً مايفعل .

وفى هذا الكتاب شئ أكثر من وثيقة عن أولئك الذين يخضعون لمركّب قيصر أو يتعهدونه . ذلك أنه سيبقى كإحدى العلائم الأولى لهذا التحول البطئ الذى يسيِّر ، منذ عشرين عاما ورغم ما يبدو من مظاهر ، كل القوى الحيوية فى فرنسة الأدبية نحو نوع من الكلاسية . فها هو ذا أخيرا أثر جهود أندريه جيد و « المجلة الفرنسية الجديدة *La Nouvelle Revue Française* » وبعد مقالات روجيه كايوا ، وقصص جاك لومارشان ، يأتى كتاب دوتور ببعض القيم التى تعترف بها كل العهود الكلاسية . ويقول دوتور : يجب تمرين الفكر بطريقة عسكرية خشنة . يجب أن نستبعد اللطف والظرف والطراءة . . . وإذن فعلينا أن نعمل طويلا . . . فالعمل الفنى والتصميم على الخلق يجعلان الفكر ثابتا متينا . . . والعمل الذى لا يتلوه نجاح لا قيمة له . ولا أريد أن أقول إن ذلك العمل لم يُفِد اللاشعور أو الصنعة الفنية ، وإنما أريد فقط ألا نقيم وزنا لمثل ذلك العمل ؛ لأن النتيجة وحدها هى التى يحسب لها حساب فى الفن ، كما هو الحال فى السياسة وفى جميع المظاهر العقلية السامية . ولكن احترامه للعقل لا يبلغ به حد العبادة للمذهب العقلى حيث لا تجد العواطف الفياضة محلا لها . وهو يقول : « إذا كان موضوع الفلسفة رائعا نبيلا ، وإذا كان كبار الفلاسفة من عظماء المؤلفين ، فليس هناك من هم أشد حمقا من مدرسى الفلسفة الذين ليسوا بفلاسفة إلا مدرسى الأدب الذين يعلّمون فنا لا يمارسونه . » وعلينا بالعقل ودائما العقل (وكل ما ليس بمحسوس يجب أن يمر أولاً بالعقل لتكون له قيمة) . ولكنه يريد العقل الذى يبنى على أساس من المادة : « يجب أن نكون واقعيين وألاّ نبعد لحظة واحدة عن الأثر المباشر البسيط لما تؤديه عيوننا وأيدينا وآذاننا وألسنتنا ونوعنا . فستندال يطبق أسلوبه الواقعى على موضوعات واقعية . ولكن علينا أيضا أن نعبر عن المعنوى بكلمات واقعية . »

وطريقة دوتور توضح هذه القواعد السليمة . وإذا كانت مقالاته تذكرنا بمقالات مونتيني أو تعود لها ، فإن لغته الذاتية هي لغة رجل يقدر بنوع خاص ستندال وديدرو وريفارول . وهو يكتب دون استعمال الصفات والظروف ، ويستخدم كلمات ملموسة وتعبيرات عادية بتلك السهولة وذلك الطابع اللذين ينتجهما عمل شاق مضن ، ويبني لنفسه من ذلك أسلوبا ذاتيا هو أسلوب الجميع ولكنه ليس أسلوب أي شخص . والتشدد لديه لا يمنع قط قفزات الفكر ، ولكنه على العكس يساعدها ويقويها . ولا يعمل العقل إلا بين أشد الأحاسيس وأقواها .

يقولون إن عصفوراً واحداً من عصافير الربيع لا يأتي بالربيع . ونحن لا نجهل أن بعض الفنانين احتفظوا بآرائهم الخاصة ، في كل زمان وفي كل مكان ، وفي شر أوقات المبالغات والتصنع . ولكن كتب ألبير كامو وروچيه كايوا هي طيور الربيع . وكذلك كتب چاك لومارشان وخاصة كتب چان پولان . ولقد رأينا إلى أي درك تهبط الأمم ، التي تقول باحتقار العقل ، هبوطا كأن لا مفر منه . فكيف لا ننتظر أن يبعث الفن ، وأن تنمو حضارة يجد فيها العقل كل حقوقه ؟ لنا أن نرجو ذلك في فرنسا ، وأن ننتظر ذلك العهد الكلاسي الجديد في مستقبل قريب لو تأكدنا أن قوى البربرية المتصاعدة ستدع لنا الوقت . وإن كتباً مثل كتاب چان دوتور ، هي في نفس الوقت دفاع وتأييد لذلك . ولكن لكي تأتي بالربيع ، كم يلزمنا من طيوره ؟

إيتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

الفن من أجل الفن

كان من الواجب أن أقرأ هذا الكتاب [1] منذ زمن مديد ، ولكنى وضعته جانباً ونسيته ، ثم جاء يوم فإذا بى أجده ، وكان يوما ملائماً لقراءته ؛ فقد كنت فى حاجة إلى كتاب يجمع بين اللذة والتسلية ، يستفيد منه العقل وترتاح إليه النفس . فوجدت ضالتى فى هذا الكتاب ؛ فهو يتكلم عن حركة من أهم الحركات الأدبية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وهو يقص قصتها فى إسهاب وبيان بديع . هذه الحركة هى التى عرفت بالفن من أجل الفن ، أى معالجة الأمور الفنية لمجرد الفكرة التى توحيها هذه الأمور .

وهى حركة نشأت فى إنجلترا نتيجة لتأثر بعض الأدباء والفنانين بأدباء القارة ، وكان فيها دليل على اتصال الثقافة الإنجليزية والأمريكية بثقافة القارة الأوربية .

فلقد تركت حروب نابليون حالة فى أوربا أشبه بما نشاهده الآن « قارة مريضة ترتعد فى أسمال ملابسها القديمة الزاهية بين بقايا معاهد مدمرة تنظر بعين مظلمة إلى مستقبلها . »

سادت فى مبدأ الأمر روح التشاؤم فى أوربا ، ولا سيما فرنسا التى قاست وطأة هذه الحروب ، ونتج من هذا اليأس روح مقابل هو روح التحدى ، واندفع الأدباء والمفكرون نحو العبث بالقيم المعروفة فى الأخلاق ؛ ولذلك نجد حوالى سنة ١٨٣٥ قصة كقصة « مدموازيل دى موپان » يكتبها شاب صغير هو تيوفيل جوتييه . وهكذا صار ما عرف بالحياة البوهيمية علماً على الأدب فى ذلك العصر ، وظهرت عدة كتب وعدة صور ، وتأثر الشعراء ورجال الفن بهذا الروح .

وجاءت الإمبراطورية الثانية ، فإذا فرنسا تعود سيدة على الثقافة فى العالم ،

---

(١) *The Aesthetic Adventure*, by William Gaunt (Jonathan Cape, London).

وتصير باريس عاصمة أوربا فى الأدب والفن يقصدها الزائرون من كل ناحية حيث يستطيع الأديب أو الفنان أن يحيا من أجل الفن وحده .

وكانت بريطانيا بالرغم مما اكتسبته من قوة وثروة ، لاتزال فى عقليتها أشبه بالكاهن المنقطع فى صومعته، ترى المستقبل فى الصناعة الميكانيكية . فلقد بلغت الصناعة فيها مبلغاً عظيما ، حتى صارت وليس لها مثيل بين دول العالم فى ذلك الاتجاه ؛ فلم تكن مثل فرنسا مشغولة بالهزيمة والتدهور بل كانت مشغولة بمشاكل النجاح ومتاعبه .

وكان من نتيجة ذلك أن نظرت بريطانيا إلى القارة نظرة الرجل المتعالى ؛ فقد أدت واقعتا الطرف الأغر ووترلو إلى الاعتقاد بأن الإنجليزى بمقام ستة من أبناء أى بلد أوربى آخر ، وأن الفرنسى رجل قزم مهذار تأخر فى سباق الحياة . وكان الإنجليز فى ذلك العهد لا يحترمون إلا الألمان ، ووجد بينهم كتاب مثل توماس كارليل يمجدون ما فى الجنس الألمانى من مزايا الشجاعة والدأب على العمل . لذلك كانت حركة الفن من أجل الفن ، وهى التى استقت معينها من فرنسا ، حركة غريبة غير مستحبة لدى الإنجليزى فى عهد ڤيكتوريا ، واعتبرت حركة خطرة يجب محاربتها والقضاء عليها ؛ لأنها مستقاة من بلاد الهزيمة والتدهور .

لنأخذ إذن فى ذكر دعاة هذه الحركة ، ولنبدأ بمصور أمريكى كان يعيش فى باريس فى سنة ١٨٥٦ ، هو چيمس أبوت ماكنيل هويسلر ، جمع حوله نخبة من أبناء الجزيرة عشقوا الفن وعرفوا أن موطنه باريس وعاشوا عيشة بوهيمية مطلقة من كل قيد ، وما أكثر القيود فى ذلك الوقت ! واتصلوا بالأدباء والمصورين من الفرنسيين .

ظل هذا المصور ردحاً من الزمن يتثقف فى فرنسا ، ثم انتقل إلى إنجلترا ليعمل ويكسب أموالا ؛ فالانجليز أغنياء وأسخياء ، وإن كانوا بعيدين عن الذوق الفنى . وقد جاء معه بصاحبين من الفرنسيين لأنهما يعيشان عليه ، وهو يعتمد على أقرباء له فى العاصمة الانجليزية ، أهمهم فى نظره زوج أخته الذى كان طبيباً موسراً ، وفى الوقت نفسه محباً للتصوير .

وقد عرف الصاحبان فى داره كيف تكون لذة الحياة ، وعلى قول أحدهما لذة احتساء زجاجة من الكونياك دون أن يدفع لها ثمناً . ولكن الطبيب على

تحبه للفن الجميل كان رجلا وقوراً لا يحب الفن المقترن بمسلك البوهيميين ؛ فلم تلبث علاقة المصور بزوج أخته أن تحولت إلى فتور ثم إلى عداء مقيم .

وكان من رجال هذه الحركة الشاعر الإنجليزى ألجرنون تشارلس سوينبرن وكان فى ذلك الوقت فتى عجيب المنظر ذو شعر أحمر طويل وعينين خضراوين ووجه ممتقع ، وكان فى مثل سن المصور هويسلر ، عاش فى باريس وعرفه المصور ، وكان يجل الفرنسيين حتى ادعى أنه من سلالتهم ، ويحب فيكتور هوجو ، ويحب شعر بودلير ، وكتب إلى هذا الأخير رسالة طويلة تدل على الحماسة والإجلال بعد أن قرأ ديوانه « زهور الشر » ، فرد عليه الشاعر الفرنسى بعد سكوت طويل برسالة ذكر فيها أنه لم يكن يتوقع قط أن يرى أديباً إنجليزيًّا يستطيع أن يخترق سر الجمال الفرنسى ، وأغراض الشعر الفرنسى . وقد اعتنق سوينبرن فكرة الفن للفن ، فكان يقول : « إذا استخلص القارئ من أية قصيدة دواء روحيًّا وإذا ابتلع القصيدة كأنها وصفة أخلاقية ، فإن الشاعر الذى يقدم هذه الأدوية العقلية لا يمكن أن يكون فنانا . »

وكان الفضل لسوينبرن فى أن عرف هويسلر الشاعر المصور دانتى جبرييل روزيتى فى داره بلندن . كان روزيتى فى ذلك الوقت حزيناً لوفاة زوجته ، وهو ضخم الجثة فى الثلاثين من عمره ، يمضى أوقات عمله بين قرض الشعر والتصوير ولا سيما صور النساء الجميلات كما يتخيلهن ، ويمضى أوقات فراغه فى جمع غرائب الحيوان والمصنوعات والناس . وله جاذبية خاصة فتجده محاطاً دائماً بجمع من الأصدقاء والمعجبين والمتطفلين ، وظل هويسلر على علاقة حسنة به مدة عشر سنوات ، وكان يراه كل يوم تقريباً .

ومن هؤلاء الجماعة أو من ضحاياها شخص عجيب هو مصور يهودى اسمه سيميون سلمون ، كان مثالا لأولئك الشبان الذين تأثروا بشعر بودلير إلى درجة أنهم أبوا على أنفسهم السعادة التى قد يحصلون عليها فى حياتهم ، وانحدروا فى تيار الشقاء عن رغبة فى تقليد الشاعر فى شقائه . وكان سلمون فى بعض اتجاهاته شبيهاً بالشاعر بول فيرلين إلا أنه لم يكن شبيهاً به فى عبقريته . وقد تعرف إلى سوينبرن فوجد فيه جمالا أشبه بالجمال الذى يتخيله الإغريقيون مختلطاً برواء شرقى . ورأى فى حديثه نزعة تجمع بين أسرار المسيحية وعقلية الوثنية ، كما وجد الشاعر فى هذا المصور اليهودى الصغير ، مثالا من شباب الإغريق فى

عصرهم الذهبي ، لا سيما إذ رآه مرة يقف أمام زميل مصور في ثوب إغريقي قديم ، فكأنه أبلّون نفسه نزل إلى هذه الأرض ، ليطلع أهلها على سر الجمال . ولقد صارا رفيقين لا يفترقان ، وكانا يقضيان أوقاتهما في دار روزيتي . ورآهما صاحب الدار ذات مرة وقد خلعا ملابسهما وأخذا يجريان عاريين في حديقته ، كما كانا يتخيلان فعل آلهة الإغريق في غابات الأولمب .

هناك رجل آخر اتصل بسلمون المصور اليهودي الصغير ، ذلك هو والتر هوارشيو باتر ؛ فقد اعجب بصورة رسمها هذا المصور لإله الخمر ، رسمها بعد أن صاحب أوسكار براوننج إلى إيطاليا . ورأى باتر في هذه الصورة فنا عظيما ، وفي وجه إله الخمر جمالا مقرونا بالخبث مما يتناسب مع الموضوع كل التناسب . وقد نشأت بين الأديب والمصور صداقة متينة ، فصار هذا الشاب المصور في نظر ولتر باتر ممثلا للفن من أجل الفن ، وهي عقيدته التي يدين بها .

وكان باتر رجلا غريب الأطوار ، مات أبوه الطبيب وهو لا يزال طفلا ، وتركه لعناية أمه وجدته وخالته . وكان باتر طفلا خجولا لا يحب الألعاب العنيفة ، فلم يكن معروفا بين زملائه في المدرسة ، وأخذ منذ صباه يأوي إلى العزلة فيجد لذة في زيارة الكنائس القديمة والتأمل في أبنيتها ، واشتدت نزعته الدينية وعكف على طقوس الدين ، حتى خشي بعض أقربائه أن يتحول إلى الكاثوليكية ، ولكنه عندما التحق بجامعة أكسفورد فقد كل إيمان بالدين ، وأخذ يسخر من أصدقائه الذين يقومون بواجباتهم الدينية . وكانت المذاهب الدينية في أكسفورد في ذلك الوقت تشغل أذهان الطلاب والأساتذة ، ولكن هذا الشاب الذي كان منذ قليل شديد التدين صار شديد الحملة على هذه النزعة ، ولم يعد أصدقاؤه يعرفون إلى أي مذهب ينتمي . ولعل الحقيقة أنه صار ممن يستقون عقيدتهم من هرقليوس وأفلاطون وپيتاغورس والألمانيين هيجل وشلنج .

أقبل باتر على قراءة الآداب الأوربية ، وأخذ في ترجمة بعض الكتب الخالدة من آثار أفلاطون وأرسطو ، وحرق سائر ما نظمه من شعره في طفولته الأولى لما فيه من عاطفة مسيحية ، وأخذ يدرس كتب فلوبير وبودلير ، وصار رأيه في الفن متأثرا بالقدماء من الإغريق ، وبالمحدثين من الألمان والفرنسيين .

وازداد باتر رغبة فى الابتعاد عن الناس وفى حب العزلة . وكان يحب الجمال المثالى ، فيكره مخالطة ذوى الصورة السخيفة القبيحة ، وكان لا يألف من الأصدقاء إلا من لهم مسحة من جمال ، ولكنه لم يكن متحمسا فى صداقته ، كان يبتعد عن الألفة والمخالطة ، ويكره كل الإحساسات العنيفة . وقد حاول فى وقت ما أن يكون قساً بالرغم من ابتعاده عن الدين ، فحاول صديقان أن يثنياه عن عزمه وأصر هو عنادا منه ، فكتبا إلى الأسقف يخبرانه بعقيدته الحقيقية ، فعدل الأسقف عن رسامته .

ومع ذلك كان باتر على إلحاده يعيش عيشة الراهب ، عيشة بسيطة لا يتمتع فيها بلذائذ الحياة إلا قليلا ، وكان كل ما يهتم له هو ذلك الجمال المثالى فى كل شئ ؛ فكان فى كتاباته يعمل على صقل العبارة حتى تصل الغاية ، ولا يهمه مطلقا أن يكتب شيئاً يكون ذا مقصد أخلاقى أو أدبى ، بل كل غرضه ان يبلغ إلى تصوير الجمال لذاته ، كما نرى فى دراساته عن الفن والشعر فى عهد النهضة . وصارت الحياة فى نظره إن هى إلا نظام لفن الجمال . وقد قيل إن طالبا سأله ذات يوم لماذا يجب علينا أن نعمل الخير يا مستر باتر ؟ فأجاب : لأن الخير جميل .

ما مضت ثمانون سنة من القرن التاسع عشر حتى أخذت مجهودات هويسلر وسوينبرن وباتر فى تفسيرهم للفن من أجل الفن تؤثر بعض الشئ فى الجمهور الإنجليزى ، وأخذت الصحافة الهزلية تسخر منهم وتتناولهم بالنكات اللاذعة ، وهم ماضون فى آرائهم لا يهتمون إلا بالأصدقاء من الأدباء الناهضين الذين كانوا على اتصال بهم فى فرنسا .

كان تأثيرهم عميقا ولكن فى عدد قليل من رجال الفكر بين الإنجليز ، أما السواد الأعظم من الجمهور الإنجليزى فكانوا واقعين تحت تأثير نبىّ ذى صوت مسموع وشهرة كبيرة هو جون راسكن الذى ينادى بمبادئ تخالف مبادئ هؤلاء كل المخالفة ؛ فهو يلقى محاضراته ويكتب كتاباته عن الفن فى كل مكان من إنجلترا فتسمع له الجماهير . وكان فى كلامه وفى قلبه حماسة نارية وبريق يخلب الألباب ، ولكن السر الأساسى فى شهرته هو نزعته الإنسانية . فالفن لديه ليس مجرد سحر غريب وسر من الأسرار ، بل هو مسألة معاصرة ومشكلة قائمة يجب علاجها ، وله غرض خلقى لا بد من تحقيقه . وقد اتخذ راسكن مركز النبى وظل غارقا فى فضائل مصورى القرون الوسطى والمتقدمين من أساتذة

الفن الإيطالى ، حتى إنه لم يفطن لما قد طرأ من تغيير على الفن ، وكان يعتقد أنه لن يحدث تغيير بغير موافقته وبركته .

ففى ذات يوم من سنة ١٨٧٧ ذهب لزيارة معرض جروفنر وهو الذى جمعه سير كوتس ليندسى ، وهنالك شاهد صورة فظيعة فى رأيه هى إحدى صور هويسلر التى سماها الليالى ، فلم يتمالك أن أمسك بقلمه وكتب فى المجلة التى كان ينشر فيها نقداً لاذعاً قال فيه : إن غرور الفنان الذى يدل على سوء تربيته يكاد يبلغ مبلغ الغش المقصود .

وهكذا رمى راسكن بقفازه ، ولكن خصمه لم يتردد فى تناول هذا القفاز .

لقد أخرج هويسلر فى تلك الأيام خير صوره ، فقد وضع تلك المناظر الطبيعية لنهر التاميز فى غسق الليل ، وهى التى أطلق عليها اسم الليالى على سبيل الذكرى لقطع شوبان الموسيقية المسماة بهذا الاسم ، وصور الصورتين الشهيرتين لوالدته ولتوماس كارليل ، ولكن هذه الشهرة لم تكن إلا لتزيد علاقاته بمعاصريه من المصورين الإنجليز سوءا ، وجاء نقد راسكن اللاذع فطفحت الكأس ، ولم ير إلا أن يرفع أمره إلى القضاء . على أن عواطف الجمهور كانت مع جون راسكن ذلك الذى ينادى بأن الفن للجميع وللعمال قبل أن يكون للسادة ، وللشارع قبل أن يكون للقصر على حين كان هويسلر يقف موقفه الذى يرى فيه أن يكون الفن من أجل الفن الخالص دون أن يقصد به غرض نافع .

وبدأت القضية ، وكان على هويسلر أن يقدم الإثبات بشهود مختصين ، فمن يشهد له ؟ أهو هولمان هانت الذى يرى أن الصور التى عرضها إنما تدل على تكاسل فى العمل بحيث يجب ألا تؤخذ جديا ؟ أهو ميلر الذى ينظر إليه نظرة الأستاذ ويرى أنه لم يقع تحت يد الممتحنين ؟ أهو أدوارد بوينتر الذى كان يعارضه ولا يرى فيه خيرا ؟

لقد وجد هويسلر مشقة فى الحصول على شهود ، فالرسام كين مصور جريدة « پنش » اعتذر إليه . والمصور فريدريك ليتون وافق ، ولكنه عاد فاعتذر فى يوم القضية إذ كان عليه أن يشهد حفل الإنعام الملكى وتلقى وسام الفروسية فى ذلك اليوم . ودانتى جبرييل روزيتى مريض لا يقوى على الخروج . ولم يجد هويسلر فى آخر الأمر غير مصورين قليلى الشهرة ، أحدهما البرت مور ، والآخر جورمان ويلز ، وكان له صديق مصور

ذو شهرة هو بيرن جونس ولكنه للأسف جاء فى صف خصمه .

وابتدأ نظر القضية . ولأمر ما غصت المحكمة بالناس وتجمهروا حتى فى الطرقات ، وكان حادثاً فريداً فى تاريخ القضاء . وأخذ القضاة يتناولون فى وقار تلك القضية التى هى أعقد من قضية طلاق أو قتل . وكان محامى هويسلر يتكلم فى لهجة عجيبة كأنه يعتذر عن موقفه للخصم . ثم دُعى هويسلر لأخذ أقواله ، وكان بادى الثقة بنفسه يتكلم بلهجة أمريكية ظاهرة ، ويبدى فى كلامه حيوية وسخرية كبيرة . فبدأ بقوله : إنه ولد فى بطرسبرج ، ولم يكن الأمر كذلك ، ثم درس الفن فى باريس ، وأن تلك الصورة التى نقدها راسكن قد عجز عن بيعها بسبب هذا النقد . ووقف نائب الأحكام ليسائله : ما معنى ليلية ؟ فأجاب بأنها إحدى الصور التى تمثل مناظر الليل . وحينئذ أمر القاضى بإحضار الصورة فأدخلت ، ولكن الذين حملوها أتوا بها مقلوبة ، فضحك الجمهور . وسأله نائب الأحكام بعض أسئلة سخيفة ، ثم سأله عن الثمن الذى يبيع به صوره عادة ، فأجاب بأنه مائتان من الجنيهات . فسأله فى كم من وقت ألقيتها ؟ يقصد كم استغرق بيعها . فأجاب ساخراً ألقيتها فى يومين ، يقصد أنه انتهى من تصويرها فى يومين . وحينئذ سأله : أتطلب مائتى جنيه بمجهود يومين ! فقال : إنه تجربة عمر . وهكذا ظهرت المحكمة متحيزة لغير هويسلر . وإن كان القاضى فى تلخيصه القضية للمحلفين قد أبدى أن راسكن تجاوز حدود النقد المباح ، وصرح بما يمكن أن يعتبر قذفا . واختلى المختلفون ساعة من الزمن ، ثم حكموا بأن هويسلر له عذره ، ولكنه شغل المحاكم بموضوع تافه ، ولذلك لا يستحق من التعويض إلا مليما .

هكذا كانت هذه القضية الأولى فاتحة لقضايا أخرى من نوعها . والواقع أن هذه القضية قد أثرت فى راسكن بقدر ما أثرت فى هويسلر ؛ فقد ذهب من راسكن سلطانه وسيطرته على النقد الفنى ، فترك منصبه أستاذاً للفن فى جامعة أكسفورد ، وقصد إلى ضيعته فى برنتوود حيث قضى السنوات الباقية من حياته فى هدوء وسكينة .

ولقد انتصر عليه الأمريكى ، ولكن خسارته المالية كانت فادحة ، فنفقات القضية كانت ثقيلة الوطأة عليه ، وهكذا أخذ فى وسط هذا الجمهور الإنجليزى الذى لا يعطف عليه يضع كتابه « الفن الجميل فى تأليب الخصوم » .

ولكن هل تأليب الخصوم فن ، أم هو طبيعة فى بعض الأشخاص لايستطيعون معها إلا أن يوجدوا خصوماً ؟ لقد كان فى هذه الفترة يعيش شاب آخر مستهتر عرف كيف يؤلب خصومة الجمهور الإنجليزى عليه ؛ ذلك هو الأديب والشاعر أوسكار وايلد الإيرلندى الأصل ، وهو ابن السير وليم وايلد الطبيب ، والايدى وايلد التى كانت تقرض الشعر .

درس هذا الشاب الإيرلندى فى أكسفورد حيث أستمع لمحاضرات راسكن وعرف ولتر پاتر ، وقابل سميون سلمون فتأثر بآرائه عن الفن من أجل الفن وحده . وكان الشاب لايعرف كثيراً عن الفن ، لذلك تأثر تأثراً قويًّا بنظرية پاتر الذى يرى أن الفن سر من الأسرار ، وأنه الشئ الوحيد الذى له قيمة فى الحياة . فأخذ الشاب يقلد أستاذه ، فيعمل على أن يحيط نفسه بالأسرار وعلى أن يبدو كثير التأمل شارد الفكر ، وكان يحرق البخور فى غرفته لا حبًّا فى الكنيسة ، بل تقليداً لپاتر الذى يرى فى الدخان المتصاعد أثراً لدين قديم . ولم يكن وايلد ممن يقبلون على الألعاب الرياضية ؛ لذلك صار موضع سخرية من زملائه .

ومع ذلك كان وايلد ينظم الشعر ويكسب فيه الجوائز ، ومات والده فكان عليه أن يجد طريقاً لكسب قوته ، فقصد لندن ليتعرف إلى الكبراء . فكان من أوائل من عرفهم هويسلر فى تلك السنة التى نُظرت فيها قضيته ، وكان يغشى مجالسه ، فتعرف إلى كثير من المشهورين الذين كانوا ينجذبون إليه لطلاقة لسانه وعذوبة حديثه وغرابة زيه وتأنقه مع رشاقة قوامه . وفى تلك الأيام كتب رواية هزلية بالشعر ، تحنت ومثّلت ، وفيها حاول أن يسخر من معايب بعض كبراء عصره فاشتهرت هذه الرواية وأقبل عليها الجمهور . فدعى إلى زيارة أمريكا لإلقاء محاضرات فى عدد كبير من مدنها ، وقد ذهب إليها فى زيه العجيب المتأنق . وسأله رجال الجمارك : ألديه شئ يريد إعلانه ؟ فأجاب أعلن عبقريتى . فمنذ تلك اللحظة كان يقابل بعاصفة من الهتاف والتقدير حتى من أقل الجماهير تحضراً وقبولا لسماع حديثه . وكان فى مواقف حرجة لا يعوزه الكلام ولا يخونه ذكاؤه . ، وقد أعجب الناس برجولته فى أكثر من موقف بالرغم مما كان يعرف به بين أقرانه فى لندن من التخنث . وعاد من أمريكا ملئ الجيب ذائع الشهرة .

لم يكن هذا ليروق صديقه الأمريكي الذي إتخذ لندن مقاما ؛ فقدظهرت على هويسلر بوادر الغيرة وأخذ ينتقد الآراء التي أذاعها وايلد في محاضراته . فكيف يجسر الشاب على النصح بأن على الناس أن يغيروا من طريقة زينة دورهم . ففي رأي المصور أن ذلك أمر لايهم مطلقا ولا يتفق مع القول بأن الفنان يجب أن يعمل للفن وحده وصار في مجالسه الخاصة يسخر من آراء الشاب وصار هويسلر في محاضراته يهزأ بنقاد الفن الذين لايعرفون شيئاً . وكان أوسكار وايلد يحضر هذه المحاضرات . ففي ذات مرة رفع الصوت معلنا أنه يختلف كل الاختلاف مع مستر هويسلر ؛ فليس الفنان رجلا منفرداً بنفسه ، وقال إن إدجار ألن پو وبودلير هما من سادة الحياة لا بنيامين رست وپول رى لاروش . فلما أراد هويسلر أن يسخر منه لاختياره هذين الاسمين غير المعروفين للفن أجاب وايلد في هدوء إنني وجدتهما في إحدى الموسوعات ، وقد ذكر أنهما كانا يحاضران في الفن ولم يخلفا شيئاً من صورهما ، لذلك أنصحك أن تكون حذراً ياجيمس . وكانت هذه السخرية مما أدت بهويسلر إلى حب الانتقام ، فكتب ذات مرة يسائل أي علاقة لأوسكار بالفن إلا أنه يتعشى على موائدنا ويلتقط من فتاتنا بعض الفواكه التي يبيعها في الريف .

وهكذا أخذ هويسلر يبتعد عن أصدقائه ويجد نفسه وحيداً . وكانت خصوماته تزداد بتقدمه في السن وتتخذ أوضاعاً تافهة . ولقد صدق ديجا المصور الفرنسي حين قال عنه إنه لمن المتعب حقًا أن يتخذ الإنسان دور الفراشة بدل أن يكون ثوراً هرماً مثلي .

وهكذا أخذ المصور الأمريكي يشعر بالمرارة نحو جمهوره الإنجليزي . وكان هنالك شخص آخر أخذ يشاطره هذا الشعور هو جورج مور الايرلندي الأصل الذي نشر في سنة ١٨٨٧ كتابه « اعترافات شاب » . فقد جاء مور إلى لندن بعد أن عاش دهراً في باريس وتعرف إلى رجال الفن وارتاد مشارب القهوة ، وتركت هذه السنوات فيه أثراً لا تمحوه الأيام . فلما أن جاء إلى لندن شعر بفراغ عظيم ، ولم يجد في رفقائه في مشارب الخمر مايعوضه عن عشرة مانيه ، وديجا ، ورينوار ، وڤيلييه دي ليل آدم ، وكاتول مندس ، على أنه لم يلبث في لندن أن تحول من التصوير إلى الأدب ، حيث أخرج تلك الاعترافات التي تأثر فيها بكتابات ويسمانس الفرنسي وبكتابات ولتر پاتر الانجليزي .

وفى هذه الأثناء كان أوسكار وايلد قد زار باريس لأول مرة وقد ملأ جيبه بالدنانير الأمريكية ، فلقى جمعاً من الشعراء والأدباء أمثال جونكور ، ودوديه ، وملارميه ، وأعجب بفن سارا برنارد . وقد استكشف فى هذه الزيارة أن الآراء التى اعتنقها هويسلر وبشر بها لم تكن بالجديدة ، وقد أثرت فيه باريس بقدر ما أثرت فى جورج مور ، فأخذت رواية فلوبير عن هيروديس توحى إليه فكرة سالوميه ، ورواية ويسمانس إلى العودة توحى إليه فكرة صورة دوريان جراى . وعاد إلى لندن بعد أن تغيرت طباعه ، فعدل عن تلك الملابس الفنية التى كان يرتديها ليدل بها على نفس نزعته إلى ملابس عادية بادية التأنق ذات ذوق باريسى ، وأخذ يعيش عيشة اللهو واللذة .

سئل وايلد ذات مرة عن مرمى حياته فقال : إنى لا أبحث عن السعادة ، بل أنا أبحث عن اللذة وهى أشد ألماً .

وكانت اللذة حينئذ مؤلمة حقا . ولعل رجلا آخر فرنسيًّا كان يعيش وقتئذ فى لندن يبحث أيضاً مثل هذا البحث هو الشاعر بول فيرلين الذى بدأ سحره ينتشر على جانبى مضيق المانش ، والذى كان اسمه يذكر دائماً مقروناً بالشاعر الشاب رامبو .

أجل ! البحث عن اللذة هو الذى قاد أوسكار وايلد إلى تلك المأساة التى قضت على حياته وهو لما يتجاوز ربيع الشباب ، فإن اللذة إذا كانت حقًّا للأديب فإنها لابد أن تزيد من خصومات الناس حوله ، ولابد أن تمد منافسيه فى عالم الأدب بما يستطيعون أن يتخذوه موضوعا للحديث عنه واللغط حوله . ولقد اجتمعت حول وايلد جماعة من الشبان المعجبين به حتى انتاب أصدقاءه الخوف عليه . فرجال مثل فرانك هاريس وكلايد فنش لم يكونوا أنبياء ولكنهم مع ذلك بدأوا يتعدون اللغط الذى أثاره وايلد . وحاولوا أن يحذروه فلم يرتدع ، ولقد انتهز بعض الناشئين من الأدباء فرصة للهجوم على هذا الأديب الذى هو أكبر منهم سنًّا وأكثر شهرة . فعلى سبيل المثال وضع الكاتب روبرت هيتشنز الذى عرف بعض أصدقاء وايلد فى مصر قصة اسمها « الباقة الخضراء » ، شهر فيها بوايلد وجماعته . وكان أشد خصومه مركيز كوينزبرى المعروف وقتئذ فى حلقات الملاكمة .

فقد كان المركيز لا يقر الصداقة الأدبية التى نشأت بين وايلد وبين ابنه لورد

الفريد دوجلاس ، وبدأ الأب يعمل فى عنف على فصم هذه العلاقة . وفى ذات يوم زار وايلد فى بيته وأخذ معه رجلا ليكون شاهداً ، وأخذ يكيل لوايلد اللعنات والتهديد ، فما كان من وايلد إلا أن دق الجرس فجاء خادمه فقال له أمام الزائر الغاضب : أترى هذا الرجل ! إنه مركيز كوينزبرى أقبح وحش فى لندن ، فعليك أن لا تسمح بدخوله إلى هذه الدار مرة أخرى .

على أن كوينزبرى لم يكتف بذلك ، بل ذهب فى الليلة الأولى لتمثيل إحدى روايات وايلد ومعه مقدار من البقول والخضراوات ليقذف بها المؤلف . وأخيراً أرسل إليه رسالة فيها قذف قبيح . فرأى وايلد أنه لا يحسن السكوت على ذلك ، والتجأ كما التجأ هويسلر من قبل إلى القضاء لينصفه غير حاسب حسابا لتأثر القانون بالمجتمع .

استمر الفصل الأول من هذه القضية بل هذه المأساة ثلاثة أيام ، وقد دافع عن المركيز محام اسمه كارسن كان يعرف وايلد من أيام اكسفورد ، وكان الدفاع يرمى إلى إثبات أن كتابات وايلد ذات نزعة معيبة منافية للآداب ، فأخذ يلقى على وايلد أسئلة عن بعض قصصه على أن المحامى لم يكن قوياً فى هذا الباب ، ولكن قوته ظهرت فى اليوم الثانى من نظر القضية حين اتجه المحامى إلى الكشف عن حياة وايلد الشخصية . وكانت إجابات وايلد الذى يبحث عن البريق الأدبى مما يزيد التهمة التى يريد أن يثبتها المحامى فى هذا الوسط القضائى الذى لا يفهم إلا أن الكلمات تعبر عما قصد بها لا أكثر ولا أقل .

سأله المحامى هل أظهر الحب لخادم فى اكسفورد ؟ فأجاب وايلد على سبيل الاستخفاف : كلا ! فقد كان الخادم عادياً بل قبيح الصورة . فسأله المحامى : وما دخل قبح الصورة فى الموضوع ؟ فأجاب وايلد : لا أقصد شيئاً وإنما تأثرت لسؤالك العجيب .

ولقد ظهر فى هذه الأيام الثلاثة أن وايلد خسر القضية ، والقضاء الانجليزى حينئذ يفتح الباب واسعاً أمام المركيز لكى يقتص من التهمة التى اتهم بها . ولم يبطئ المركيز فى تقديم أوراقه عن طريق محاميه إلى المحكمة ، وصدر الأمر بالقبض على وايلد ، وابتدأ الفصل الثانى من هذه المأساة ، وكانت الصحافة فى ذلك الوقت أشد شماتة وثلباً للناس منها الآن ، وكان الناس أكثر رياء ، فتعالت الصيحات من كل جانب بما عبرت عنه إحدى الصحف حين قالت فى اليوم الذى

قبض فيه على أوسكار وايلد : إن خير مايفعله الناس هو أن ينسوا أوسكار وايلد بتصنعاته الدائمة ، وتعاليمه العجيبة ، ومنتجاته المسرحية . فإذا لم يحا كم فلندعه فى عالم السكون ولا نسمع عنه فيما بعد .

وكان من المستطاع لو أراد وايلد أن يذهب إلى عالم السكون بأن يسافر فى الباخرة إلى الجانب الآخر من المانش ويتفادى القبض عليه ، ولكنه لم يفعل ، وكأنه كان ينتظر هذا الاعتقال فى شيء من الراحة ، وكأنه كان يرى فى نفسه شهيداً من شهداء المذهب الذى ينادى به .

وبدأت المحاكمة ، وقد أطلق سراح وايلد بضمان شخصى فى فترتها ، ولكنه وجد أبواب الأصدقاء مغلقة دونه والفنادق لا تقبله ، وتقابله جماعة من المأجورين بالسخرية ، ولم يستطع أن يجد مأوى إلا فى غرفة أخيه . وقد نصحه بعض الأصدقاء بالفرار إلى فرنسا حيث ينساه الجمهور ويلقى على الحادث ستار ، فلم ينتصح وكأنما القدر يجره إلى مقدور لا مرد منه .

واستغرقت هذه القضية شهرين ، وكان بعض الخلصاء ، ولا سيما فرانك هاريس الكاتب الأمريكى ، يلحون عليه فى الفرار ، وقد أحضر له هاريس قارباً خاصاً وقف ينتظره فى ميناء إريث ، ولكنه لم يفعل بل ظل يتردد على المحكمة حيث صدر الحكم عليه وخرج منها إلى السجن .

ولم يأل الجمهور الإنجليزى جهداً فى إظهار سروره بهذا الحكم ، فكان العامة يصيحون ليسقط الأرستقراط يتخذونه مثالا لقبائح تلك الطبقة الممتازة مع أنه لم يكن منهم ، إذ لا يمتلك غير ما يربحه من كتبه ، وقد حجزها الناشرون عن الجمهور بمجرد الحكم عليه ، كما سحبت مسرحياته من المسارح . وهكذا كان عقاب الذى أتى بجديد لم يألفه الجمهور شاملا ، واضطر إلى أن يحتمل فضلا عن السجن حكم الإفلاس وبيع أثاث بيته ومجموعاته والتحف التى كان يحبها بثمن زهيد وهكذا نزل ضيفاً على سجن ريدنج حيث كتب تلك القصيدة الشهيرة ، ووضع تلك الاعترافات .

أشرف القرن التاسع عشر على الزوال وقد منيت فكرة الفن من أجل الفن بما يشبه الهزيمة بعد أن تعرض أقطابها لسخط الجمهور الذى حاولوا أن يخرجوه من كهفه الفكرى . ومع ذلك ظل لهذه الفكرة تلاميذ لا يذهبون مذهب الأقطاب فى مغالاتهم وإن كانوا يعملون لهذه الفكرة . وكان المصور

الشاب أوبسبرى بيردسلى لا يزال حياً ، ذلك الذى كان يرسم صوره فيتخذ لباس القرن الثامن عشر فى جميع الصور حتى ما كان منها قديماً ، وقد اقترن اسمه بما رسمه من صور لرواية « سلوميه » المشهورة لأوسكار وايلد ، ومع أن الشاب المصور لم يكن على وفاق كبير مع أستاذه ؛ فقد كان وايلد يعتقد أنه خلق بيردسلى إذ أتاح له تزيين كتابه بالصور فى حين كان بيردسلى يعتقد أنه خلق وايلد إذ صور كتابه . وكان وايلد كثيراً ما يتهكم على بيردسلى ، وقال ذات مرة : «إن بيردسلى العزيز يعرف فرنسا حق المعرفة ؛ فقد سافر ذات مرة إلى دييب» . ولا شك فى أن المصور تألم من هذا القول، فهو فى قرارة نفسه ، كان يعتقد أن معرفته للأدب الفرنسى لا تقل عن معرفة وايلد به . ولم يكن بيردسلى ممن يعطفون على وايلد فى ضعفه الجنسى ، وهو بالرغم مما فى صوره من ميول شاذة كان يكره أن تتخذ هذه الصور دليلا على شذوذ فيه .

وكان من شبان هذه الحركة فى ذلك الوقت شاب من أهل ويلز اسمه آرثر سيموندز ، تلقى فلسفة الجمال من پاتر ، وقضى أوقات طويلة فى فرنسا ، فصارت النظرة الفرنسية إلى الجمهور عادة له ، وكان يحترم ڤيرلين وملارميه ، وهو زعيم الجماعة التى ظلت تلح على ڤيرلين حتى رضى بالخروج من المستشفى ليلقى محاضرات فى أكسفورد ولندن حيث نزل الشاعر الفرنسى العبقرى ضيفاً عليه ، وكان يشرب كميات كبيرة من شراب «الجن» ثم يصب على حلقة المعجبين حوله سيلا من الذكريات .

وقبل نهاية القرن بسنتين فتحت أبواب سجن ريدنج ليخرج منهـا وايلد إلى عالم لا يجد فيه صديقاً . ولم يكن من السهل على وايلد أن يعود إلى مجال الحياة كما فعل ڤيرلين ؛ فلقد استطاع ڤيرلين ألا يهتم بالمجتمع الذى كان فيه وأن يؤلف لنفسـه تلاميذ ومريدين بالرغم من كل شىء ، وصارت رذائله أساساً لوجهة فلسفية جعلت منه شخصية يمكن مقارنتها بسقراط . ولـكن وايلد لم يكن يستطيع شيئاً من ذلك ، فهو رجل مجتمع لا يستطيع أن يعيش بدون وسائل الترف والنجـاح ، وهذا مما زاد فى تعاسته . والواقع أن وايلد لم يكن واسع الأفق ، وفى كتاباته بريق لا يتفق مع وقار مركزه الذى وجد نفسه فيه . وقد سأله كاتب فرنسى من المهتمين به هو أندريه جيد : « لماذا لا تضع مسرحية جديدة ؟ » فأجاب فى حزن أنه عاجز عن ذلك .

ولم يكن ليستطيع أن يتحول تحولا جديداً في الأدب ؛ فلقد ظهرت بوادر تيارات جديدة فى الأدب الأوربى بعيدة عن فرنسا ، وهى تيارات لا تقوم على الفن وإنما تقوم على الآراء والمشاكل ، هـذه هى مسرحيات النرويجى إبسن وروايات الروس . وقد قال وايلد فى ذلك إن الفكر فى تلك الفترة قد تقهقر إلى النرويج وروسيا حيث لا تشرق الشمس وهو يفضل ضوءها .

ولقد قال : « لو طالت بى الحياة إلى القرن العشرين لكان ذلك فوق مايحتمله الشعب الانجليزى » . وكان فى قوله شىء من النبوءة ؛ إذ لم يكد يبزغ القرن العشرون حتى كان وايلد قد أسلم الروح .

ومع ذلك كانت حياة وايلد رمزاً لتضحية غريبة . ولقد قال عن نفسه إنه وضع عبقريته فى حيـاته على حين أنه وضع ذكاءه فى كتبه . وقد يكون هذا القول صادقا فى جوانب كثيرة منه .

حسن محمود

حول مشروع بحيرة طانا

تضاربت البيانات وأقوال الصحف فى الأيام الأخيرة حول هذا المشروع ؛ فلا تكاد تقرأ فى الصحف أن هناك محادثات بين وزير التجارة فى مصر ووزير أشغال أتيوبيا بشأن هذا المشروع حتى يبادر وزير الأشغال الأتيوبى بتكذيب الخبر . ولا يكاد رئيس الوزراء أو وزير الأشغال فى شهر يوليـه الماضى يصرح بأن بحث مسألة إنشاء خزان طانا يبدأ من جديد فى شهر اكتوبر ، ولا يكاد يقول إن الوزارة ستوفد إلى أديس أبابا بعض رجالها لمفاوضة حكومة أتيوبيا ، حتى تقرأ فى جريدة « الأثيوبيان هرالد » التى تصدر فى أديس أبابا نفياً رسمياً من الحـكومة الأتيوبية ، فحواه أن شيئاً من هذا لم يكن .

وأنت إذا ذهبت إلى وزارة الأشغال أو وزارة الخارجية للاطلاع على الأوراق الخاصة بهذا المشروع قيل لك إن كل ما يتعلق بالمشروع سحب وأودع الخزانة السرية تمهيداً لإعادة النظر . والواقع أن فيضان هذا العام كان باعثاً على إحياء التفكير فى المشروعات المختلفة التى من شأنها أن تنظم توزيع مياه النيل من جهة ، وتزيد من مساحة الأرض المزروعة من جهة أخرى . ونال مشروع بحيرة طانا — على ما يظهر — نصيباً من الاهتمام . إلا أن هذا المشروع يختلف فى طبيعته عن غيره من المشروعات المقترح تنفيذها فى السودان ؛ لأنه يقع فى بلاد الحبشة ، ويحتاج تنفيذه إلى موافقة الحـكومة الأتيوبية .

فالمسألة إذن ليست مقصورة على الدراسات والبحوث الفنية من جانب رجال وزارة الأشغال فحسب ، بل تخضع أيضاً لسياسة وزارة الخارجية .

اسم البحيرة

تسمى باللغة الأمهرية طانا (بالطاء لا بالتاء) ، واسمها فى اللغـة الحبشية القديمة تصانا (بإسكان التاء) ، واللغة الأمهرية تبدل الصوت « تص » فى

الحبشية القديمة بـ «طاء» . وقد أطلق عليها رجال البرتغال في القرن السادس عشر الميلادى بحيرة دامبيا باسم المقاطعة التى تتاخمها من الشمال .

ارتيادها

إن دخول المرسلين اليسوعيين إلى الحبشة فى القرن السادس عشر أتاح لهم ارتياد بعض مناطق البحيرة . وقد وصل القسيس پايز إلى المناطق المحيطة بالبحيرة ، فتوصل إلى معرفة منبع النيل الأزرق . ثم توجه الرحالة الأسكتلندى چيمس بروس بين سنة ١٧٦٨ وسنة ١٧٧٣ من اللحيّة على ساحل اليمن إلى مصوع فبلاد الحبشة للكشف عن منابع النيل . وقد استصحبه الإمبراطور تكلا هيمانوت (١٧٦٩ — ١٧٧٧) فى بعض حملاته التأديبية حول بحيرة طانا . وبذلك سنحت لبروس فرصة لم يكن يتوقعها ، إذ رأى منبع النيل الأزرق . وإليه يرجع الفضل فى تحديد مكان البحيرة بالضبط ووصفها وصفاً مفصلاً .

وفى سنة ١٨٣٩ أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة علمية وصلت إلى المناطق المحيطة ببحيرة طانا ، كما قام القنصل الفرنسى فى أتيوبيا انطوان دابادى برحلة حول البحيرة سنة ١٨٤٢ .

وفى سنة ١٨٨٠ سافر الألمانى انطون شتيكر فى مهمة سياسية لدى الإمبراطور يوحنس ، فزار البحيرة وحدد مركزها ورسمها على الخريطة .

ثم أرسلت الجمعية الجغرافية الإيطالية سنة ١٩١١ أحد علمائها لدراسة البحيرة بعد أن رأت اهتمام فرنسا وبريطانيا بإرسال عدة بعثات بين سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٠٨ ثم توالى إرسال البعثات من الحكومتين المصرية والسودانية توطئة لدراسة مشروع الخزان .

وقد كلفت الأكاديمية الملكية بروما العالم الإيطالى داينيلى سنة ١٩٣٧ أى أيام الاحتلال الإيطالى للحبشة بدراسة البحيرة من الناحية العلمية والاقتصادية .

وصفها

إذا اتخذ المسافر أحسن الطرق الموصلة إلى بحيرة طانا ماراً بمدينة جوندار فانه لا يكاد يبتعد عنها مسافة أربعين كيلو متراً حتى يصل إلى البحيرة . ومع وجود الرحلات المختلفة إلى البحيرة فإن النتائج التى وصلت إلينا وخاصة عن الارتفاعات والمساحات فيها لا تخلو من فروق . ولكن الطليان أيام احتلالهم الحبشة أمكنهم أن يحققوا الكثير منها : فالبحيرة تقع على ارتفاع ١٨٤٠ متر فوق سطح البحر ، على شكل قلب طوله ٨٥ كيلو متراً من الشمال إلى الجنوب وعرضه ٦٥ كيلو متراً من الشرق إلى الغرب . ومساحة سطح الماء فى البحيرة حوالى ٣٦٣٠ متر مربع . وتبلغ مساحة حوضها حوالى سبعة عشر ألفاً من الكيلو مترات المربعة وهو صغير نوعاً . ومنطقة البحيرة غزيرة بأمطارها . ويصب فيها من المرتفعات المحيطة بها نحو ستين جدولا ونهيراً ، اهمها أباى الصغير . وهى تحمل معها طبقة من الغرين تتركها على جوانب البحيرة بعد انقضاء موسم الأمطار . وأما منطقتها فبركانية ، بها بعض عيون معدنية ، وقد وجد الفحم فى جنوبها الشرقى وشمالها كما عثر على الحديد فى شرقها .

وعلى مقربة من قرية بحر دار جيورجيس فى الجنوب الشرقى من البحيرة حيث تكثر أعشاب البردى ينبع النيل الأزرق أو كما يسمونه أباى ومعناه الأب . وهذا يدل على منزلة النهر عندهم . وتذكرنا هذه التسمية باسم النيل عند قدماء المصريين . ويبلغ طول النيل الأزرق من منبعه إلى مصبه ١٤٠٠ كيلو متر . وتصب فيه روافد عديدة تحمل إليه المياه من مقاطعات الأمهرا وولو وشوا . وتغذى بحيرة طانا النيل فى مصر بمتوسط ٦ فى المائة من المياه . ويمر النيل الأزرق بطائفة من السدود بقدر خروجه من البحيرة . وأشهر هذه السدود يبعد ٢٦ كيلو متر من منبعه ، وبه مساقط المياه طيس وها ومعناها الماء المدخن ، أو كما يسمونها أيضاً طيسيسات أى الدخان الكثيف . وهذه المساقط من أروع وأجمل المناظر الطبيعية فى العالم ؛ إذ تهبط المياه من ارتفاع ٤٥ متراً وسط حقول مزدهرة ، فيها خاصة زهر الاركيديه (الزراوند) . ومما ينشأ من سقوط المياه من هذا الارتفاع أنها تتحول إلى ذرات تشبه الدخان ، ومن هنا كان اسم المكان .

الجزر

يرتبط تاريخ الحبشة وأساطيرها ارتباطاً وثيقاً بجزر بحيرة طانا التى تبلغ ٣٧ جزيرة . وقد كانت منذ أقدم العصور موطناً للقبائل المنتشرة فى تلك الجهات ، تلجأ إليها طلباً للأمن من الوحوش أو الأعداء . ولبحيرة طانا أهمية دينية ازدادت منذ انتشار المسيحية فى الحبشة فى القرن الخامس الميلادى . وقد أخذ رجال الدين فى إقامة الديارات والكنائس ليكونوا فى نجوة من الغارات المختلفة ، كما فعل أسلافهم من قبل .

ويذكر القصص الحبشى القديم أن العذراء مريم عند هربها إلى مصر مع طفلها يسوع المسيح من وجه هيرودس الملك التجأت إلى جزيرة طانا قيرقوس وهى جزيرة صغيرة من جزر البحيرة . وقد اختبأت العذراء بها ثلاثة أشهر وعشرة أيام . ويؤمن الأحباش إيماناً بهذه القصة وأمثالها ؛ لذلك يحجون إلى الجزر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وفى كل جزيرة على وجه التقريب كنيسة أو أكثر ، لكل منها قصة يتناقلها الناس ويحرص رجال الدين على الاحتفاظ بها ونشرها حتى يبقى الناس على حجهم وزياراتهم .

ومما يروى عن جزيرة طانا قيرقوس فوق ذلك أن تابوت العهد حفظ فى الهيكل الذى كان قائماً فى الجزيرة ، والذى حوله ملكا أكسوم — وهما ألا أصبح وألا أبره — إلى كنيسة موسومة باسم القديس قيرقوس . وكان تابوت العهد قد سرق من بيت المقدس وحمل إلى الحبشة . ويقال إن أول كاهن لهذا المكان هو عزاريا بن صادوق رئيس الكهنة فى أيام سليمان الحكيم . وهو الذى صحب إلى بلاد الحبشة منيليك الأول ابن ملكة سبأ التى أنجبته من سليمان . وتذكر القصة أن التابوت ظل هناك ستة قرون قبل نقله إلى مدينة أكسوم .

ثم وجدت فى هذه الجزيرة كأس من المعدن عليها نقوش سبئية . ووجدت أيضاً إلى جانب الكنيسة ثلاثة أعمدة حجرية بها تجويف مستدير يدل على أنها كانت تستعمل فى العبادة قبل دخول المسيحية . وعلى أحد الأعمدة صليب يقال إن القديس فرومنتيوس الذى أدخل الدين المسيحى إلى الحبشة فى القرن الرابع نقشه بيده إشارة بذلك إلى انتصار النصرانية .

أما جزيرة ميطراها فهى جزيرة صغـيرة ، بها كنيسة شيدها منيليك الثانى فوق قبر أم الملك يوحانس . وبهـا أيضاً قبر الإمبراطور إياسو الأول (١٦٨٢ — ١٧٠٦) . وترى هناك آثار كنيسة كان قد بناها الإمبراطور داود الأول (١٣٨٢ — ١٤١١) وأحرقها محمد بن ابراهيم الغازى المعروف بجرانيا (أى الأشول) فى القرن السادس عشر ، ثم أعاد بناءها الإمبراطور يوحانس الأول (١٦٦٧ — ١٦٨٢) ثم أحرقها الدراويش .

وقد هاجم الإمبراطور تيودور (١٨٥٥ — ١٨٦٨) هـذه الجزيرة بالمدافع وأحرق مساكنها .

وعلى جزيرة دبرا مريم المستطيلة الشكل الواقعة عند منبع النيل الأزرق أقام الإمبراطور تيودور كنيسة على أنقاض الكنيسة التى بنيت فى عصر الإمبراطور عمداصيون (١٣١٤ — ١٣٤٤) . ومما يذكر عن الإمبراطور عمداصيون هذا أنه اشتهر فى أوائل حكمه بأعمال الفسق والفجور ، فحرمه الأنباهونوريوس من الكنيسة ، فاغتاظ الإمبراطور لهذا فأمر بالأنبا ان يجلد حتى يسيل دمه على مرأى من أهل المدينة . وفى مساء اليوم نفسه احترقت المدينة ، فقال رجال الدين إن دماء هونوريوس استحالت لهباً . ولكن الإمبراطور اعتقد أن رجال الدين هم الذين أشعلوا النار فى المدينة ، فأخذ فى اضطهادهم ، حتى هرب الكثير منهم إلى جزر بحيرة طانا معتصمين بها .

وهذا الإمبراطور هو الذى بعث سنة ١٣٢٥ ميلادية برسالة إلى السلطان الناصر يحتج فيها على اضطهاده للأقباط ويهدده باضطهاد العرب الساكنين فى أتيوبيا ، كما هدده بمنع الماء عن مصر وتحويل مجرى النيل إلى الصحراء .

وفى جنوب البحيرة تقع جزيرة كبران المستطيلة الشكل ، وهى مكونة من صخور بركانية تراكمت طبقات بعضها فوق بعض . وترى فى أبرز مكان من الجزيرة كنيسة جبريل التى أعاد بناءها الإمبراطور إياسو الأول على أنقاض كنيسة كان قد بناها الإمبراطور عمداصيون ، وقد استعان فى بنائها بصناع من الأجانب . والكنيسة مستديرة الشكل على مثال كنائس جوندار . وقد جلبت حجارتها الجيرية من منطقة دنسا ، وأقيم فى الهيكل اثنا عشر عموداً من الحجر الأحمر .

وذفن فى هذه الجزيرة الإمبراطور تكلا هيمانوت الأول (١٧٠٦ — ١٧٠٨)

وإليه أنفذ لويس الرابع عشر لونوار دو رول الذى كان يتولى أعمال القنصلية الفرنسية فى دمياط . ولكن لونوار قتل فى طريقه إلى الحبشة فى سنار بأمر ملكها . فغضبت الجالية الفرنسية فى مصر لذلك الحادث وطردت جميع النوبيين الذين كانوا فى خدمتها . هذا ومما يؤثر عن الإمبراطور تكلا هيمانوت أنه كتب إلى والى مصر يهدده بمنع ماء النيل عن مصر إن هو عاد إلى التنكيل برسله ، وخاصة ماحدث لرسوله مراد السورى الذى أوفده إلى لويس الرابع عشر بصحبة المسيو بونسيه .

ويرى الناظر أمام مصب نهر أبّاى الصغير جزيرة داق وهى أكبر جزر البحيرة ، وهى مستديرة بعض الشئ ، يبلغ قطرها نحو خمسة كيلومترات ، وأرضها خصبة مزروعة حبوبا وقطنا وبنًّا ، وهى ترتفع عن مستوى سطح الماء فى البحيرة عشرة أمتار تقريباً ، بها خمس كنائس بدياراتها ، وأجملها موقعاً كنيسة قوتا مريم المنعزلة القائمة وسط حقول مغطاة بخضرة كثيفة .

وفى هذه الجزيرة القرية الوحيدة التى يؤذن للنساء بالإقامة فيها . وربما رجع هذا التساهل إلى ان الكنائس الخمس الموجودة بالجزيرة ليست على الشهرة التاريخية أو القصصية التى لغيرها . فإن الجزر التى بها ديارات يحرم على النساء دخولها . وقد سرى هذا التحريم أيضاً على الإناث من الحيوان (كما هو معروف عن جبل آتوس فى بلاد اليونان الآن) .

وفى جنوب داق الشرقى على مسافة كيلو متر واحد تقع جزيرة داجا ، وهى مستديرة يبلغ قطرها ١٢٠٠ متر تقريباً ، وهى صخرية بركانية ، ترتفع نحو ٩٠ متراً فوق سطح الماء . وتطل منها كنيسة اسطفانوس المستطيلة ، وقد تم ترميمها بعد أن دمرتها الصاعقة سنة ١٨٨٠ . وإلى جانب الكنيسة دير نجا من الصاعقة ، يحفظ عدداً من رفات براطرة الحبشة ، أو بالحرى صناديق تحوى جماجمهم .

ومن بين البراطرة يكونو أملاك (١٢٧٠ — ١٢٨٥) وهو رأس الأسرة السليمانية الذى نقل عاصمة الملك من أكسوم العاصمة القديمة إلى تجولات . وكانت بينه وبين العرب حروب دارت عليه . وهو الذى راسل الظاهر بيبرس وراسل الإمبراطور ميخائيل الثامن فى القسطنطنية .

وفى الدير نفسه رفات الإمبراطور داود الأول (١٣٨٢ — ١٤١١) ،

وهو الذى اشتدت فى أيامه الحرب بين العرب والأحباش . وقد ذكر المقريزى أن هذا الإمبراطور أرسل إلى السلطان برقوق ٢٢ جملا محملة بالهدايا . وكان مغرماً بركوب الخيل ، وقد لقى حتفه تحت حوافر فرس جموح

وفى هذا الدير ايضاً رفات الإمبراطور زرأ يعقوب (١٤٣٣ — ١٤٦٨) وكان عصره عصر إحياء العلوم فى الحبشة ، وهو أول من استعان بالأجانب فى كثير من الأعمال الإنشائية . ومما يذكر أن أحد الرهبان من طليان البندقية صور له العذراء تحمل الطفل يسوع المسيح على يدها اليسرى كما جرت العادة بذلك فى البلاد الغربية ، فثار الأحباش لذلك وأرادوا تحطيم الصورة ؛ لأن العادة جرت فى الحبشة على عكس ذلك أى أن يصور الطفل محمولا على اليد اليمنى ؛ لأن اليد اليسرى تكون للتحقير ، واليمنى للتشريف .

وفى هـذا الدير الإمبراطور زادنجل (١٦٠٣ — ١٦٠٤) وهو الذى راسل البابا كليمنسيوس الثامن ، ثم راسل الملك فيليب الثالث ملك أسبانيا إذ اقترح عليه أن يزوج ابنته من ابنه ، وكذلك رغب إليه أن يوجه إليه عدداً من الأسبان ليقيموا فى الحبشة حتى يمتزج الشعبان .

وفى الدير مومياء الإمبراطور فاسيلادس أعظم براطرة الحبشة ، وهو الذى بنى مدينة جوندار واتخذها عاصمة لملكه وشيد فيها الحصون التى تعتبر من أعظم آثار الحبشة . وقد استعان فى بنائها بصناع مهرة من مصر والهند كانوا يعملون تحت إشراف فنيين من البرتغال . وهو الذى طرد المرسلين اليسوعيين من بلاده ، وأعاد بناء كنيسة أكسوم بعد أن خربها محمد جرانيا . وهنا يقول الرحالة بروس الاسكتلندى : إن بعض التحف القديمة أعيدت إلى الكنيسة بعد أن كان خبأها الرهبان زمنا فى جزر بحيرة طانا .

أما الجزر الواقعة شمال البحيرة فتجد فيها آثاراً كثيرة لقصور وكنائس وديارات خربها محمد جرانيا ، ثم رمم بعضها . وعاد الدراويش أيام ثورة المهدى إلى تخريبها وإحراقها ، فلم ينج منها إلا القليل مثل دير مندابا فى جنوب شبه جزيرة جورجورا حيث يقيم الآن مائة وخمسون من النساك الذين اشتهروا بزهدهم وتقشفهم .

وفى الكنائس والديارات القائمة على جزر بحريرة طانا ثروة من المخطوطات المكتوبة على الرق باللغة الحبشية القديمة (الجعز) التى لا تزال لغة الكنيسة

فى الحبشة . وعرفت إحدى جزرها وهى كبران بأنها أصلح الأمكنة لحفظ المخطوطات وإخفائها ؛ فإليها يرجع الفضل فى إنقاذ عدد كبير من المخطوطات أيام الاحتلال الايطالى ، كما أخبرنى بذلك رئيس ديرها .

ويحس المتجول فى أى ناحية من نواحى الجزر أو فى المناطق المحيطة بالبحيرة بأنها كلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الحبشة فى ناحية الدين والسياسة .

حالة السكان

تعتبر منطقة بحيرة طانا بالإضافة إلى الحبشة من المناطق المكتظة . وسكانها خليط من عناصر كوشية وسامية من الأجو ومن الأمهرا وهم يدينون بالمسيحية . ويقطن فى المناطق الغربية منها بقايا قبائل لا يزال أفرادها على وثنيتهم وعاداتهم الفطرية . ومع أن جزر البحيرة آهلة برجال الدين الذين وقفوا حياتهم على العبادة والتنسك ، فإن سكان شواطئ البحيرة على جانب كبير من النشاط التجارى .

فهناك مركزان تجاريان ، يقع أولهما على شاطئ البحيرة الجنوبى الشرقى فى قرية قوراطا التى اشتهرت منطقتها بزراعة البن والموالح ، وهى ميناء تجارية لقبائل مقاطعة البيجامدر .

أما المركز الثانى فهو قرية تصجى على الشاطئ الجنوبى الغربى من البحيرة ، ويزرع البن بجوارها ، وهى الميناء التجارية التى تتجمع فيها تجارة السودان بهذا الجزء من الحبشة .

وبالقرب من البحيرة عدة مدن اشتهرت بتاريخها . ففى شرقها دبرا تابور التى ترتفع ٣٠٠٠ متر تقريباً فوق سطح البحر ، وهى ملتقى الطرق بين مقاطعة الجوجام والتيجرى ، وبين جوندار وولو ، وهى تقع فى منطقة صخرية وسط غابة من أشجار الكافور . وقد اعتبرت فى تاريخ الحبشة من الحصون المنيعة حتى إن بعض البراطرة اتخذها فى القرن الماضى عاصمة للمملكة . وهى الآن مركز مقاطعة البيجامدر .

وإلى جانب البحيرة الشرقى قرية إيفاج الواقعة فى وسط غنى بكرومه ، وقد عدها الطليان من الأوساط الصالحة لسكناهم ومحط استعمارهم . وهى

لا تزال إلى الآن سوقاً تجارية تتجمع فيها حاصلات الجهات الخصبة التى تحيط بها .

وتقع مدينة جوندار شمالى البحيرة على ارتفاع ثلاثة آلاف متر ، وقد كانت عاصمة أتيوبيا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . بها أربع وأربعون كنيسة قديمة ، وهى وسط تجارى تجتمع فيه الطرق التى تربط مصوع ببحيرة طانا .

أما المنطقة الغربية والشمالية الغربية من البحيرة فمرتبطة منذ أقدم الأزمنة بالسودان . وكانت من أولى المناطق التى استهدفت لغارات الدراويش وتخريبهم ، كما يشهد بذلك آثار الكنائس والهيا كل هناك . وقد حفظ لنا التاريخ أيضاً أنها استهدفت لجيوش قدماء المصريين فى الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة من قبل .

ويصيد سكان البحيرة السمك ، وبذلك عرفت قبيلة الويطو التى تسكن شاطئ البحيرة الشرقى ، كما عرفت بالقنص وصيد فرس البحر الذى يكثر فى البحيرة . وهى من بقايا القبائل الوثنية القديمة التى لا نعرف منشأها على وجه التحقيق ، ولا يزيد عددهم على ألف . وهم من بقايا السكان الأصليين ، وقد اشتهروا بغبائهم الذى يعتبر مضرب الأمثال عند الأحباش ، وهم يعدونهم من الجنس المنحط الذى كان سترة مثل الشنقلا (بنى شنقول) والولجا . ويتنقل الويطو بين هذه الجزر وشواطئ البحيرة على عوامات مصنوعة من القصب أو البردى يسيرونها بمجاذيف من قصب البمبوس يضربون بها الماء ؛ إذ أن المجداف العريض لم يعرف عندهم .

هذا وصف مجمل للبحيرة وجزرها وشواطئها وأهلها ، قصدنا إلى عرضه قبل أن نتحدث عن المشروع وتاريخه وفوائده .

وهذا يبين لنا ما سيقابل تنفيذ المشروع من عقبات أو اعتراضات أو ما سيقابله من استعداد وتسهيلات . كما يساعدنا على تفهم الأسباب التى تعطل من أجلها تنفيذ المشروع إلى اليوم .

مراد كامل

[يتبع]

أقصوصتان

[كتب الأديب الفرنسي مارسيل أرلان هاتين
الأقصوصتين خاصة للمجلة .]

الصاروخ

فى الخامسة والستين من عمره اشترى أوجست بليزو ، زوج فوزين ووالد إميل ، دراجة جديدة ذات لون أزرق صاف من طراز إيجلون . وقال القوم : « فى الخامسة والستين ، إنه لمجنون ! » وتأهبوا للضحك ولكنهم لم يضحكوا . ولا أدرى أين تعلّم الركوب . ربما كان ذلك فى الغابة ، وربما كان فى الليل . لقد بدا ذات مساء ممتطيا دراجته وعبر القرية وهو مشدود الأعصاب ، من غير شك ، وثابت النظرات ، ولكنه لم يقع قط . ومنذ تلك الليلة ، كان يذهب كل مساء على دراجته الزرقاء حاملا لامرأة الكاتب لتراً من اللبن كانت تحب أن تشربه ولمّا يزل دافئا من ضرع البقرة . وكانت النسوة يخرجن إلى عتبة أبوابهن فيرفعن أيديهن قائلات : « أتتصابى يا أوجست ؟ » فيحييهن برأسه دون أن يلتفت إليهن . وتبقى فوزين نصف مختبئة بالمخزن تتابع رجلها بنظرها ما وسعتها المتابعة . ويقول لها النساء : « زوجك يا فوزين ، إنه يستطيع أن يعلم الشباب » فتنق غضباً ورضا . لقد تغير شىء ما بالمنزل منذ شراء هذه الدراجة ؛ إذ قل صراخ فوزين وغلا صوت أوجست .

لم يضحك القوم ولكنهم بدءوا يبسمون . وترى أوجست ساعة وصوله منزل الكاتب يدع الدراجة أمام الباب . وهكذا بقيت أول الأمر خمس دقائق ، ثم عشر فى يوم آخر ، ثم ربع ساعة . وأخيرا كان أوجست بليزو يُدخل الدراجة معه . فالكاتب فى الصيد ولا يعود إلا مع الليل . ويردد الناس : « يا لك من لعين يا أوجست ! » حتى سمعوا ذات يوم عواء فوزين يعلو ويشتد كما لم يسمعوه

قط من قبل . ونحن بالمدرسة ، نتدافع بالمناكب كلما تطلعنا إلى إميل .

فى ذلك العام ، كان إميل يحتفل بالمناولة الأولى ، فتغدى كالعادة المتبعة عند زميله فى المناولة (والزمالة فى المناولة تربط بين الزملاء مدى الحياة) وأتى الزميل بدوره ليتعشى عند إميل . وحضرت تلك الوليمة بصفتى جاراً لهم كما حضرتها ابنة عمهم وقد هرعت من المدينة لتشهد ذلك الحفل . وقال الأب وهو يعلق إناء اللبن بدراجته : « اجلسوا لن ألبث أن أذهب حتى أعود » . ورأينا لون إميل المصفر يزداد امتقاعا على حين اقتربت الأم من رجلها وهى تهمس له بكلمات وعليها مظهر التهديد : « ولمية المناولة ؛ يجب ان تسلك سلوكا مناسباً » ولم يبد على أوجست أنه سمعها ، بل امتطى دراجته وهو يبتسم ؛ وكان حليق اللحية ناضرها ، قد وخط الشيب شاربه ولكنه رقيق مهذب ، وكان مشمر الساعدين وطرفا سراويله مثبتان بالمشابك ، وتعرج فى سيره ثم ابتعد وهو معتدل القامة ، مرتفع الرأس ، ومنكباه إلى جانبيه .

كانت فوزين تردد دائماً : « ليس هناك من هم أفقر منا . » ولكنها رغم بخلها صممت على الاحتفال بذلك اليوم ، فسيتكلم الناس عن الوليمة وعن الحساء ، وعن الأرنب وعن المحار وعن النبيذ العتيق الذى أعقب الجديد . وكانت تقول : « أليس هذا عظيما ! كلوا . كل يا هنرى . كل يا مارسيل . كلى يابنة عمى . إن ولمية المناولة لا تقام كل يوم . » ولما رأى إميل أمه بهذا اللطف ، أخذ تزمُّته يزايله وهو المتوتر دائماً ، الجاد دائماً ، الخجول أبداً ، فأفرغ كأسه ، وقالت له أمه : « ضع شيئاً من الماء » . « نعم يا أماه ، لا تشغلى نفسك بى . »

ولم يستغرق ذلك إلا قليلا ، وانقضت الساعة وأتى الغسق ، وكنا نمد آذاننا لنتسمع أقل حركة فى الطريق . وأوقد المصباح الصغير . وكانت الأم قد صمتت ، وأظهر ضوء المصباح المرتجف عظام وجهها وثقوبه ، وأنفها الضخم البارز العظام ، وشفتيها الرقيقتين المزمومتين ، وجبهتها بغضونها العميقة تحت متديلها المسترخى . وكانت تبدو منطوية على نفسها ، ثابتة النظرات ، ولكنها غائبة عن المكان . وبدأ يظهر على ملامحها التى عذبها التعب والشراهة امتعاض أعمق منهما ، هو امتعاض الغيرة : غيرة العجوز الممتلئة بغضاً . وكنا قد انتهينا من الأكل . ولم نكن نجرؤ على الحركة . وفى فترات متباعدة كان زميل إميل يرشقنى بنظرات أقرأ فيها : «آه ! لوعرفت ! » ومضى وقت جاهدت بعده ابنة

العم لتتكلم ، وكنا نشعر أنها تقاوم همًّا جاثما لا تدرى له من سبب ، وتساءل فى قلق وفى فزع غامض . وأخيراً صمتت ، وكان سكون مطبق لم نعد نسمع فيه إلا دقات خرساء صادرة من ساعة الحائط .

وكنت قد حفظت تحت مقعدى صاروخاً صغيراً أزمعنا إطلاقه عقب الطعام . وكنت أربت عليه وأعبث بذباله وسط ذلك السكون المطبق الذى أوشكنا أن نصرخ من وطأته . . . وصاح فىّ إميل « يا مارسيل ! » وهو يشير بأصبعه ، وعليه مسحة العتاب ، إلى الصاروخ الذى كنت قد أدنيته من المصباح دون أن أشعر . ورأينا برقاً وسمعنا صفيراً : كان الصاروخ قد قفز من أصابعى وانفجر عند السقف .

رنّت عندئذ ضحكة طويلة مفاجئة عجيبة ، حتى لقد نسى خطئى نفسه من جرّائها . كانت أم إميل قد نهضت وفى عينيها وحشية ، رافعةً ذراعيها ، وأخذ ينبعث من فمها الأسود الأدرم تلك الضحكة العصبية المصحوبة بفُواق وإغماء . وأخيراً ، صمتت ولكنه كان صمت ادهى : فهاهى ذى المرأة تتطلع إلينا وكأنها تنكرنا . ثم تغنّى ، تغنّى وهى التى ربما لم تفتح فمها بالغناء منذ طفولتها . كانت أغنية لا حياة فيها ، تجرى على وتيرة واحدة ، ولم نفهم شيئا من كلماتها . وقد ذكرتنى بتمتمة رجل أبله كنا نسير وراءه أحيانا فى الطريق حين عودتنا من المدرسة فى المساء .

ووقفنا جميعاً مذهولين . وكانَ إميل يصيح والدمع ملء مآقيه : « أماه ! أماه ! » وبنت العم تقول : « يابنت عمى ! ما دهاك ؟ ماذا حدث ؟ » ولكن فوزين كانت تدفعنا بذراعيها مواصلةً الغناء بصوت جنونى مرتجف تقطعه أحيانا تنهدات ، أو ضحكات السكر ، أو صمت الذهول . وأخيراً استطاع إميل وابنة عمه أن يقوداها إلى غرفة مجاورة ، وكانت تهتز اهتزازاً جنونياً وتصيح وتصرّ على أسنانها . ثم هبطت واستطاعا أن يحملاها إلى فراشها .

وبعد ذلك بقليل ، قالت بنت العم وهى ترفع الأطباق عن المائدة : « لن يحدث شىء ، ربما كان ذلك سوء هضم . لقد استردت قواها ونامت . » وكان إميل منحنياً على بالوعة المطبخ ، يحاول عبثاً أن يقف نزيفاً من أنفه ، وكان عرضة لذلك لأتفه الأسباب ، كشجار أو موضوع إنشاء أو تأنيب فى المدرسة ،

وعندئذ كان يسيل على ذقنه خيط من الدم . وكان المدرس يقول له : « عليك بتناول شيء من الحديد . »

ولم يعد أبو إميل إلى المنزل إلا بعد ساعة أو ساعتين حين كان الليل قد اكتمل . وكنتُ جالساً على أريكة منزلنا أتطلع إلى ظلال القصر والقمر العظيم يلقى نوره عليه ، أتطلع إلى الظلال وهى تغير على الطريق وتجرى إلى موطىء قدمىّ . ثم برزت من ناحية النافورة عربة يد يدفعها رجلان ويتبعها صبية ونسوة يتهامسون ، فلما مروا أمامى رأيت على العربة جسداً لا حراك به ، كان الكاتب قد عاد من الصيد قبل موعده العادى بقليل .

معجزة الأحد

يخيل إلىّ أنى قد عشقت بنوع خاص بعض أنواع الصمت ، كانت الدنيا تنفتح لى بأجمعها فيها فأبسط نفسى أخيرا وليس بى شىءٌ من الهم . أكانت حياتى أم حياتها تحرك مشاعرى وعواطفى حتى تسيل منى الدموع ؟ وما كنا إلا حياة واحدة .

إنى أفكر فى أصابيح الآحاد أيام طفولتى . أصابيح منتظرة ولو أنها تأتينى بمعجزة دائمة الجدّة . وإنى لأخشى قليلا تذكرها . ولم تكن تبدأ قط فى خبور . حتى ليمكن القول إن يوم الأحد الذى يأتى للآخرين بالراحة، لم يكن بالقياس إلىّ إلا يوم حزن عظيم . ففى بدء اليوم كانت أمنا تعتكف فى الغرفة لتعاود رؤية آثار فقيدنا : بعض الكتب ، ومزمارا ، وخصلة من الشعر ؛ وكنا نسمعها تبكى كأنها أمام قبر لم يُغلق إلا منذ قليل، وهى تنادى :« ڤكتور ! » وعندما تعود إلى المطبخ ، مقطّعة الأنفاس من الحزن والصياح ، لم يكن لنا هم أنا وأخى إلا أن نجعلها لا تحس لنا وجودا . ورغم ذلك فقد كان الأحد يوم تغيير ملابسنا ، ويوم تنظيف المطبخ ، ويوم يطهى حساء اللحم على الموقد المتنقل فيسمع له نشيش عظيم . وكان كل ذلك للأسف من أسباب المصاعب والأخطاء والمنازعات . ولقد استطعنا رغم ذلك أن نلبس نفوسنا لباس الأحد ولو أنها لا تذكر يوم أحد واحد مرّ بلا صراخ أو ألم أو تهديد باللحاق بهما قريب بفقيدنا .

ولكن لحظة الهدوء كانت تأتي دائما ، وذلك بعد أن نكون قد يئسنا من إتيانها ، وذلك حوالى آخر الصباح . وكانت أمى بعد أن تغسل وجهها وعنقها تقف أمام المرآة المعلقة فى الحائط وتنزع المشابك من شعرها . وكنت أرقب من مكمن قرب المدفأة ، شعرها الأسود الطويل وهو يسترسل على كتفيها . ويا له عندئذ من صمت مفاجئ ! لم يعد هناك شجار ولا غضب . هدنة مباركة وفضل من السماء . وكان ورق الجدران الضارب إلى الصفرة ، والسقف المنخفض ، والأرض ، والأثاث بنوع خاص ، الأثاث اللامع المهتز ، كان كل ذلك يفيض بالحب ويقول : « إنى أحيا » ، ويقول : « إنا نحيا معا ، وليس فى ذلك بأس عظيم . » وكنت أنصت وأنا مسحور لصوت المشط فى شعرها وكأنه صوت الحرير . وكان الريف والأحد الجميل ينتظران حولنا ، والأب هناك خلف القرية وتحت الأرض الرملية يبدو أقل منا مطالب . ويا له من صمت ! وهذه السعادة الشاملة التى تجعلنى أضغط أسنانى وأضم يدىّ خشية ألا أستطيع السيطرة على نفسى . وكان القوم فى الخارج يرجعون من القداس . وفى المطبخ أريج الحساء يعطّره ؛ وفى الحظيرة تتقلب البقرة على فراشها الجديد . وعندئذ وفى ذلك الصمت المطبق كنت أفاجئ أحيانا بلغط تعقبه سعلة خفيفة جدا ، ثم تبدأ أمى ، دون أن تشعر ، تردد أغنية لا أدرى أهى من أيام طفولتها أم من أيام خطوبتها . نعم نحن أيضا ، هذه المرأة الطويلة الواقفة أمام مرآتها ، أمى ، وأخى الذى لا بد أنه يجوب الحديقة ، وأنا بالتأكيد ، أنا الثابت النظرات القابض بشدة على قضبان مقعدى الصغير — نحن أيضاً قد واتانا حظنا وأتتنا هبات السماء .

ثم يستغلق صوت أمى وتتلوح جبهتها فجأة وتلقى إلىّ من أعلى كتفها بصوت مؤنب : « فيم تضيع وقتك هنا ؟ » تلك خاتمة الساعة وخاتمة المعجزة : معجزة متواضعة ؛ ولكن يخيل إلىّ أنّ كلّ ما أتانى منذ ذلك الحين قد وجدته فى تلك المعجزة .

مارسيل أرلاند

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

نجم من المشرق غرّب

لا أدرى إلى أىّ حد نستطيع أن نشارك صاعداً البغدادى فى محنته بين أدباء قرطبة وعلمائها ؛ فهو قد رحل إلى الأندلس سنة ٣٨٠ هـ بعد أن زوّد نفسه بأشياء كان يجب أن يزود بها نفسه : زوّد نفسه باللغة والأخبار وعلم الشعر ، وكان حاضر البديهة إلى حد مدهش جدًّا ، وكان إلى هذا حسن العشرة . فإذا اجتمع له هذا وطّدَ العزم على أن يرحل من بغداد إلى الأندلس ، وهى رحلة طويلة لا يفكر فيها إلا من أعدّ عدته ووثق من نفسه. إنها رحلة أديب مشرقىّ إلى بلاد فيها بيئة أدبية ممتازة ، وفيها أفراد كثيرون يقدرون الأدب ويجزلون العطاء . إنه آت من المشرق فلا بدّ أنه سيكون موضع حفاوة وتقدير . أليس المشرق هو الذى يبعث للأندلس ببضاعته الممتازة من النحو واللغة والأخبار والأشعار ؟ أليس للمشرق فى الأندلس هذا المركز الممتاز مركز الأستاذ من التلميذ ؟ وكم من العلماء الشرقيين ذهبوا إلى الأندلس قاصدين ما قصد إليه صاعد فى رحلته تلك فلاقوا نجاحاً أظهرهم فى حياتهم نخلدهم بعد موتهم ! هذا أبو على القالى قام بمثل تلك الرحلة التى يقوم بها صاعد فقوبل هناك بالترحيب ، وتهافت عليه الأمراء والأدباء ، وترك بسبب هذه الرحلة أثراً أدبيًّا عظيما . على أن صاعداً كان يحسّ من نفسه قدرة فى ناحية يمتاز بها عن القالى وغير القالى ؛ فهو ذكىٌّ لبق ، وهو حاضر البديهة بحيث يستطيع أن يُعد جواباً سريعاً لكل مسألة فى النحو أو اللغة أو الشعر أو الأخبار . وهل هناك مايمنعه من الكذب والادعاء فى بعض الأحيان إذا لزم الأمر ! فسيجوز كذبه واختلاقه لا شك على أدباء الأندلس هؤلاء إذا عرضت مسئلة من اللغة أو خبر أو شعر . . . إن المشارقة أصحاب هذه اللغة ، والمشارقة رواة الشعر العربى وعلماؤه الذين يتحدثون به للناس ، وعلم الأخبار علمهم لأنه فى أساطير البلاد العربية ووقائعها وأيامها . وأين بلاد الأندلس من هذا ! ليرحل صاعد إذن إلى تلك البلاد ،

وليملأ حياتهم الأدبية : هناك بمثل ما ملأ بها القالى وغيره من المشارقة ، وليزدهم هو أشياء من عنده مادام له هذا الذكاء النافذ وهذه البديهة المواتية وهذا الضمير العلمي العريض الذى يجوّز له الاختلاق فى اللغة والادعاء فى المعرفة !

وعلى كل حال فهى رحلة جريئة يقوم بها صاعد البغدادى بعد أبى على القالى ، فيصل إلى تلك البلاد مزوّداً بهذا الذكاء النادر وهذا الضمير العلميّ وهذا العلم المشرقيّ . سيكتب هناك رسائل منمقة عظيمة الحظ من الأداء الفنيّ لهؤلاء الأمراء الأندلسيين الذين سيستكتبونه ، وسيتصل هناك بالمنصور بن أبى عامر ذلك الحاجب القوى الشكيمة الكريم العطاء ، الذى يجمع أدباء قرطبة جميعاً حوله ويعقد لهم المجالس ويشجعهم بالمال والمناصب . وليس للمنصور بن أبى عامر هذا قدم راسخة فى العلم ، ولكنه يجلس دائماً إلى هؤلاء الأدباء القرطبيين ، فيصغى الى مدائحهم أو بعض أشعارهم وأوصافهم ، وقد يشاركهم فى بعض الحديث فى نقد شعر أو لغة أو خبر . لكنه مع هذا محدود الأفق ، وربما كان الباعث على حبه للأدب والأدباء منافسة ملك عظيم كانت له شهرة حربية وأخرى علمية ، فأراد المنصور أن يَبُذَّه فى كلتيهما ، ذلك هو الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى استقدم أبا عليّ القالى . ولم تحدثنا المصادر القديمة أن الحاجب المنصور استقدم صاعداً اللغوى البغدادى إلى بلاده ، ولكنا نلحظ هذا حين نقرأ حديث ابن بَسّام صاحب كتاب الذخيرة وهو يترجم لصاعد ويتحدث عن حياته مع المنصور فيقول: إن المنصور كان يطمع فى أن يُعَفِّيَ به على أبى عليّ القالى . وسواء استقدم المنصور صاعداً أو لم يطلب إليه القدوم وإنما رحل صاعد من تلقاء نفسه بهذه الآمال وبهذه البضاعة ، فالذى حدث هو أنه بعد وصوله اتصل بالمنصور بن أبى عامر ، ووجد المنصور فيه ضالته ليكون فى مجلسه نجماً مشرقيًّا لألاء ربما فاق هذا النجم الذى كان قبله . واستطاع صاعد أن يصل إلى ما كان يطمع فيه ، وهاهو ذا قد اتصل بهذا الرجل العظيم ، وهذه خطوة موفقة ، فلا عليه بعد ذلك إلا أن يظهر على أدباء قرطبة وعلمائها ليكون فى المكان اللائق به وهو ذلك الأديب المشرقيّ الكبير الذى جاء إلى بلادهم لينقل إليهم آداب الشرق وعلومه . فأما المنصور فقد قرّبه إليه وهو غير واثق من علمه ؛ لأن المنصور لم تكن له هذه المكانة التى تتيح له أن يحكم عليه ، وهو يريد أن يعرف مكانة هذا الأديب بين أدباء قومه : فليجمع إذن بينه وبينهم ،

وليحرّشهم به ويحرشه بهم ، ليرى هل يظهروا عليـه او يظهر عليهم ، ثم إذا وجد صاعداً عند حسن الظن به اتخذه لنفسه واصطفاه ، وكلّفه أن يضع كتاباً مثل الذى وضعه القالى للخليفة الناصر ؛ فإن أعجزوه وظهروا عليه فقد أرضى المنصور بذلك كبرياءه وكبرياء هؤلاء الأدباء الأندلسيين الذين بدأوا ينظرون إلى هؤلاء المشارقة نظرة خاصة فيها كثير من الغيظ والتحدى ...

ويدعو المنصور بمجلس حَفْل جمع فيه بعض العلماء والأدباء ، وقدّم إليهم صاعداً تقدمةً يُعرف منها أن الأمر جدّ . يقول لهم : هذا الرجل الوافد علينا صاعد يزعم أنه متقدم فى هذه الآداب التى أنتم سُرُجها الضاحية ، وأهلتهـا السارية ، وأُحبّ أن يُمتحن ماعنده . ثم يوجّه إليه فيدخل صاعد والمجلس قد احتفل ، فيأخذه شىء من الخجل ، لـكن المنصور يرفع من مجلسه ويؤانسه ، ويسأله عن أبى سعيد السيرافى فيقول صاعد إنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه . وكأن هؤلاء الأدباء القرطبيين المجتمعين فى هذا المجلس كانوا متلقفين لأول كلمة ينطق بهـا هذا الأديب المشرقىّ ، فما كاد يقول هذا حتى بادره العاصمىّ ، أحد هؤلاء الأدباء ، بالسؤال عن مسئلة من الـكتاب فيرتج على صاعد ولا يعرف الجواب ، فيعتذر ويقول إن النحو ليس رأس صناعته ولا هو جُلّ بضاعته . ولا ندرى وقع هذا الإخفاق الأول فى نفس المنصور ، فربمـا حزن لخيبة ظنه بصاحبه ، وربما فرح لظهور أحد هؤلاء النجوم القرطبيين الذين فاقوا المشارقة . وانتظر المنصور ما سيكون بين أدبائه وبين صاعد بعد أن يحدّد لهم صاعد اختصاصه كما نقول نحن فى هذه الأيام . والأدباء القرطبيون متعجلون هم أيضاً معرفة اختصاص هذا الرجل ، فيسرع الزُّبيدىّ ويقول له :

— فما تحسن أيها الشيخ ؟

— حفظ الغريب

— ماوزن أولق ؟

فيضحك صاعد ، وربما تكلف هذا الضحك ويقول :

— أمثلى يُسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صبيان المـكتب ؛

— فقد سألناك ولا نشك أنك تجهله .

وهنا يتغير لون صاعد قليلا ، لـكنه لا يجد مندوحة عن جواب حاضر سريع لعله الصواب فيقول :

— أفعَل

فيهتف الزبيدى فى أصدقائه ساخراً شامتاً ويقول :

— صاحبكم ممخرق !

— إخال الشيخ صناعته الأبنية ؟

— أجل

— وصناعتى أنا حفظ الأشعار ورواية الأخبار وفك المعمّى وعلم الموسيقى.

هذه إذن صناعات صاعد حدّدها لهم تحديداً بعد أن أخفق أول أمره معهم فى هذه المسئلة من كتاب سيبويه ، وبعد أن أخفق فى معرفة وزن أولق ، وفى هذه المرة ينبرى له ابن العريف بعد صاحبيه الزُّبيدى والعاصمى فيسأل صاعداً بدوره فى عدة مسائل من هذه العلوم التى اختص بها صاعد ، فيظهر عليه صاعد حتى جعل لا تجرى فى المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعراً شاهداً وأتى بحكاية تجانسها ، وينتصر صاعد فى هذه الجولة انتصاراً باهراً ، فيظهر المنصور له إعجابه به ويريه كتاب النوادر لأبى على القالى . ولم تخف هذه الإشارة على ذكاء صاعد فهو لا يكاد يلقى على الكتاب نظرة سريعة حتى يقول للمنصور : إن أراد المنصور أمليتُ على مقيّدى خدمته وكتّاب دولته كتاباً أرفع منه قدراً وأجل خطراً ، أدخل فيه خيراً مما أدخل أبو على . ويطمئن المنصور لهذا ويعلم ن بغيته من صاعد توشك أن تتحقق ، فسيضع له كتاباً خيراً من هذا الكتاب العظيم الذى وضعه القالى للناصر ، وسيكون عنده نجماً مشرقيًّا لامعاً يحدّث أدباء قرطبة فى مجلسه ! ينصرف المنصور مطمئنا إلى هذا ، وينصرف أدباؤه القرطبيون وقد عرفوا مواضع القوة ومواضع الضعف عند صاحبهم ، وينصرف كذلك صاعد وقد عرف أن مكانته من هؤلاء القرطبيين ليست هذه المكانة التى كان يظنها ، فقد لاقوه خصوماً قبل أن يلقوه أصدقاء ، وقد اضطروه إلى الحرج والإخفاق عند أول لقائه بهم وتعرّفه عليهم . ويجيل صاعد فى نفسه أشياء كثيرة حين يذكر أنه توقف فى تلك المسئلة من كتاب سيبويه ، وأنه لم يعرف وزن أولق — ترى هل كان يجوز له أن يعترف بعجزه أمام المنصور ؟ لقد كان يجب أن يبدههم كما بدهوه ، حتى لو أدّاه هذا إلى الاختلاق والتلفيق . ماذا لو أختلق وماذا لو لفّق فى اللغة وهو من أصحابها ، وفى الشعر وله القدرة الفائقة على الارتجال ، وعنده خزانة من الحفظ يستطيع أن يعتمد عليها ؟

ومهما يكن من أمر فهؤلاء أندلسيون قبل كل شيء ! إنه أتى هذه البلاد ليتألق نجمه ، وهاهو ذا قد اتصل بالمنصور ، وهاهو ذا قد نيط به هذا العمل الجليل وكل مثله إلى أبى على ! لقد وعد أنه سيضع كتاباً يدخل فيه أشياء لم يدخل مثلها أبو على . غداً سأكون بالمجلس الجامع بقرطبة أملى كتابى ! فلا يعنينى بعدُ هؤلاء القرطبيون الماكرون ! والحقيقة أن صاعداً رغم منطقه هذا مع نفسه توقع أن حياته لن تكون هادئة مع المنصور وحوله هؤلاء القوم ، إلا انه اعتمد قبل كل شيء على بديهته وذكائه وحسن عشرته وجميل حيلته ، وهذه عدة المتصلين بالملوك والأمراء . . .

وأخذ المنصور وأصدقاؤه من الأدباء القرطبيين يفكرون فى أمر صاعد هذا وما مقدار ماعنده ، وينتهى المنصور يوماً إلى نوع من الامتحان جديد ، فهذا أديب مشرقىّ يدّعى أنه حاضر البديهة ذكىّ الخاطر ، فهل إذا رأى منظراً وصفه على البديهة مثل شعرائنا الأندلسيين ؟ إنى لأحبُّ أن أبدهه بمنظر لم يره فى مشرقه هذا الذى جاء منه ، وهل للشرق هذا الترف الذى نحن فيه ! إن صاعداً لن يقوى على وصف ماتراه عيناه عندنا بداهة وارتجالا . ويُعِدُّ المنصور طبقاً فيه سفائف من ضروب النواوير ، ويضع فوق السفائف جوارى ياسمين ، وتحت السفائف بركة ماء حصاها اللؤلؤ ، وكان فى البركة حية تسبح . ويدخل صاعد فيمثل هذا المنظر على ذلك الطبق بين يديه ويقول له المنصور : إن هذا يوم إمّا أن تسعد فيه معنا ، وإما بالضد عندنا ؛ لأنه قد زعم قوم أن كل ماتأتى به دعوى ، وقد وقعتُ من ذلك على حقيقة ؛ وهذا طبق ما توهمت أنه مثل بين يدىّ ملك قبلى شكله ، فصفه بجميع مافيه . وتمضى برهة وجيزة جمع فيها صاعد كل خاطر ، ثم أخذ يرتجل الشعر القوى العذب فى وصف هذا المنظر بجماله ودقائقه . ويرى المنصور وأدباؤه القرطبيون أن صاعداً المشرقىّ لم يقلّ عنهم إن لم يزد فى وصف هذه المناظر المترفة الدقيقة التى ظنوا أنهم امتازوا بها عن الشرقيين ، ولم يفت صاعداً كذلك أن يمزج هذا الوصف بمدح المنصور كعادة القوم هنالك ، فبدأ شعره بالخطاب إلى المنصور :

أبا عامرٍ هل غيرُ جدواكَ واكفُ ... وهل غيرُ من عاداكَ فى الأرض خائفُ؟
يسوق إليك الدهرُ كلَّ عجيبةٍ ... وأعجبُ ما يلقاه عندك واصفُ

والمنصور وإن ارتاح إلى هذا الاستهلال الجميل إلا أنه متعجل ما سيأتى به صاعد من الوصف ، وصاعد يحقق هذه الرغبة فى نفس المنصور وفى نفس أصحابه سريعاً ، فهو لم يزد على هذين البيتين فى مــدح المنصور ، ثم أسرع إلى الوصف فى شجاعة باهرة وقدرة عجيبة : وصف هذه الوشائع من النَّوْر فادعى أنها قد صاغها الحيــا فمنها عبقر ورفارف ! وزعم أن تلك الجوارى بين ضروب النواوير هن ظِباء كُنَّس مستكنة قد ظلاتها سفائف من الياسمين ... إلى آخر هذا الشعر اللطيف الذى ارتجله صاعد فى وصف هذا المنظر . واستغربت الجماعة هذا الشعر الذى جاء بديهة ، وبلغ إعجاب المنصور به أن كتبه بخطه . ثم ينظر المنصور فيقول : أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية ، فيقول صاعد فى وصف البركة والحية شعراً جميلا هو الآخر من نفس الوزن والروى . وبعد أن ينتهى من هذا الشعر ويشعر بنشوة الظفر ، يخاطب المنصور قائلا :

إذا قلتُ قولا أو بدهتُ بديهةً   فكِلْنى لها إنى لمجدك واصفُ

ويأمر المنصور له بألف دينار ومائة ثوب ما بين غلائل وطيقان وعمــائم ، ثم أجرى عليه ثلاثين ديناراً ، وأُلحق فى ديوان الندماء مع زيادة الله بن مضر الطبنى وابن العريف وابن التيَّانى وغيرهم ، وكان هذا أجمل ردّ من المنصور على هؤلاء الأدباء القرطبيين الذين ما فتئوا يذكرون له أن صاعداً لص كبير ، وأن كل ما يأتى به أشياء تنحلها من عند غيره ؛ فها قد رأى منظراً عجباً ومع ذلك استطاع أن يصفه أجمل وصف حتى استغربوا له هذه البديهة !

ويجلس المنصور يوماً ومعه صاعد وابن العريف ، فتدخل عليه وردة عذراء لم تستتم فتح كمامها ، فيبسم وينظر لصاعد ، ويعرف صاعد معنى هذه النظرة فيرتجل بيتين على البديهة :

أتتك أبا عامرٍ وردةٌ   يذكِّرك المسكُ أنفاسها
كعذراءَ أبصرها مبصر   فغطتْ بأكمامها رأسَها

إنه حقًّا شاعر خصب ذكى ! إنهـا صورة جميلة تلك التى شبَّه بها التفاف أوراق هذا البرعم . فهذه الوردة فتاةٌ عذراء رآها مبصر فخجلت منه فكفَّت وجهها بكميها ! أليست هذه صورة فنية مترفة كهذه الصورة المترفة الأندلسية ؟

إن صاعداً حقـًا باهر جمع إلى أصالة المشرقيين ترف الأندلسيين ! ويسمع ابن العريف هذا من المنصور أو يقرؤه فى عينه ، فيعمد إلى حيلة أخرى لعلها ترجع هذا المنصور عن صاحبه الذى فتن به، وهو واثق أن صاعداً هذا دجـَّال ، أتراه كان عرف ما أعده المنصـور له من مناظر هذا الطبق فاحتال حتى صنع هذا الشعر وادعى أنهـا بداهة ؟ وهل ترى كان يعرف أن المنصور سيدخل عليه بوردة الآن ؟ وإذا كان صاعد على هذه المـكانة من العلم والبداهة فلا بد أن يوهن من هذه الثقة ؛ فلقد استفحل خطرها ولم يعد لها إلا أمر ُيبيـَّت وكيد يكاد . . . وفى هذه الغمرة من نشوة المنصور ونشوة صاعد بوصف تلك الوردة هذا الوصف الجميل البداهى ينهض ابن العريف ويدّعى للمنصور أن هذين البيتين ليسا لصاعد وإنما هما لغيره ، ويذكر أن بعض البغداديين بمصر أنشدها إياه لنفسه ، ثم يقول إن البيتين مكتوبان على ظهر كتاب عنده ، فيعجب المنصور لهذا ويطلب منه أن يريه هذا الـكتاب ، ولا بد أن ابن العريف كان قد أعدّ ُعدّته ، فأسرع بالخروج ليعود إلى المنصور بهذا الشعر بأقرب فرصة ، وجرى راكباً حتى أتى مجلس ابن بدر ، وكان أحسن أهل وقته بديهة ، ووصف له ما جرى ، فصنع ابن بدر له هذه الأبيات الرقيقة مشتملةً على بيتى صاعد ليثبت أنهما ليسا له وأنما هما ضمن أشعارٍ لغيره :

َعشوتُ إلى قصر َعـبّاسـةٍ ... وقد َجدَّلَ النومُ ُحرّاسَـهـا
فألفيتُها وهى فى ِخـدرها ... وقدْ صدّع السكرُ انّـاسَها
فقالتْ : أسارٍ على هجعـةٍ ... فقلت َبـلى فرمتْ كاسَـها
وَمدّتْ يديهـا إلى وردةٍ ... ُيحاكى لك الطيبُ أنفاسَها
وقالت خف الله لا تفضحنْ ... فى ابنةِ عمّك عبّاسَـها
فولـّيتُ عنهـا على ِعـفّةٍ ... وما خنتُ ناسى ولا ناسَها

فطار بها ابن العريف ، وعلـّقها على ظهر كتابه بخط مصرى ، وورَّى وتحيل ، واصطنع مداداً أشقر ليظهر الخط قديماً ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآهـا اشتد غيظاً وأيقن أن صاعداً َدجـّال منافق !

وإذن فهؤلاء القرطبيون يستعملون سلاحاً دنيئاً كهذا السـلاح الذى استعمله ابن العريف ! إنه فى الحقيقة سلاح خطر ! لقد استطاع ابن العريف إذن

أن يوهم المنصور أن صاحبه لص سارق ، وما من شك فى أن صاعداً أخذ يميز بين بيته وهذه الأبيات التى التفت فيها . لقد تأمل صاعد هذه الأبيات التى اخترعوها وكتبوها بخط قديم وضمنها بيتاه ـ فوجدها تافهة بالقياس إلى بيتيه الجميلين .

ماذا قال هذا القرطبى الأحمق ؟ لقد عشا إلى قصر عباسته حين نام حراسها . تماماً مثلما فعل الفرزدق وعمر ! ثم ألفاها فى خدرها وألفى أهلها نياماً ، فحين رأته أشفقت عليه أو أشفقت على نفسها ، لا أدرى : وسألته هل وصل إليها وهم هاجعون — تعنى حرّاسها — فيقول لها نعم . أى شئ فى هذا ؟ دعوا أيها القرطبيون هذه المخاطرات الفرزدقية والربعية لنا . وهل كان يجمل بالفرزدق أو عمر بن أبى ربيعة أن يظهر لها هذا الرفق المخنث حين تسأله ألا يفضح عمه العباس فيها ؟ ما أثقل هذه العفة من ذلك القرطبى المخنث ! وكذلك أخذ صاعد يخيل مثل هذه الفكر حتى أرضى نفسه من هذه الناحية الفنية الخالصة .

وتكثر هذه المجالس وتتصل والمنصور تارة سعيد بصاحبه لهجٌ بالثناء عليه ، وتارة ضيق الصدر منه قليل الثقة فيه ، لكنه على كل حال يحتال عليه ويداريه حتى ينتهى من كتابه هذا الذى يكتبه ليقدمه إليه . . . يثبت للمنصور أن صاعداً يكذب ، لكنه مع ذلك يستبقيه ، فهو على كل حال ذكى أريب ، خفيف الظل حسن العشرة ، له مايروع فى بعض الأحيان . لكن صاعداً لا يقف فى كذبه عند حد . فقد دخل صاعد على المنصور يوماً وبيده كتاب ورد عليه من عامل له اسمه ميدمان بن يزيد من أهل يابرة يذكر فيه القلب والتربيل وما عندهم من معاناة الأرض قبل زرعها . فينظر المنصور إلى صاعد ويقول له : يا أبا العلاء ، وقع إلى من الكتب كتاب القوالب والزوالب لميدمان ابن يزيد . فقال صاعد : نعم رايته فى نسخة أبى بكر بن دريد بخط كأكرع النمل ، فى جوانبها علامات الوضّاع . فقال له المنصور : أما تستحى من هذا الكذب ؟ هذا كتاب عاملنا ببلدة يابرة يعلم بالذى تقدم من صفة الأرض ، وإنما صغت هذا تجربة لك ، فجعل صاعد يحلف أنه ما كذب وأنه أمر وافق .

وقال له المنصور يوما : ما الخنبشار فى اللغة ؟ فقال له صاعد : حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقدت محبتها بقلبي ... كما عقد الحليبُ بخنبشار

أى بديهة مواتية وأى جرأة على الاختلاق والـكذب ! وقال له يوماً وقد قدّم طبق فيه تمر : ما التمركل فى كلام العرب ؟ فقال صاعد : يقال تمركل الرجل تمركلاً إذا التفّ فى كسائه . ويحتار المنصور فى أمر هذا الرجل الذى يصوغ الـكذب هذا الصوغ العلمىّ الغريب ، ويجهد صاعد نفسه ليملأ حياة المنصور من كل ناحية ، فيقدم له كثيراً من أدب الشرق وأخباره ، ويضع له كتباً فى القصص ويختار لها عناوين غريبة ، من ذلك كتاب صنّفه له بعنوان الجوّاس ابن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء . ويقول ياقوت صاحب معجم الأدباء « وهو كتاب لطيف جدًّا انخرم فى الفتن التى كانت بالأندلس فسقطت منه أوراق لم توجد بعد » . وكان المنصور كثير الشغف بهذا الـكتاب حتى رتب من يقرؤه بحضرته كل ليلة ، كما صنف له أيضاً كتاب الهجَنْفَجَ ف بن غَيْدقان بن يثربىّ مع الخنَّوْت بنت مَخرمة بن أنيف !

وينتصر صاعد على خصومه من أدباء قرطبة بهذا ؛ فهو وإن كان يكذب فى اللغة ويكذب فى الشعر ويكذب فى هذا القصص الذى يصنعه لـكنه كذب أشبه بالصدق . وهل استطاع هؤلاء الأدباء أن يدفعوا قوله إن الخنبشار حشيشة يعقـد بها اللبن ببادية الأعراب ! ومن أين له هذا الشاهد الحاضر ! وهو قول قائلهم : « لقد عقدت محبتها (البيت) » وكذلك اخبار الجواس هذا مع ابنة عمه عفراء إنه قصص البادية ، وليس المهم فيه أن يكون صدقاً أو كذباً ، ولـكن الغرض منه أن ينقل القوم إلى حياة الأعراب ، فيرون حبهم العذرى وحياتهم البدوية ، وقد استطاع صاعد أن يصور هذا لهم أجمل تصوير . وملك صـاعد على صاحبه أمره بما كان يصطنع من حسن العشرة ولطف الحيلة . دخل عليه المنصور يوم أُنس وكان صاعد قد اتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التى وصلت إليه فيها صلات المنصور ولبسه تحت ثيابه ، فلما حضر المجلس ورأى فرصة لما أراد تجرد من ثوبه وبقى فى القميص المخيط من الخرائط ، فقال له المنصور : ما هذا ؟ قال هذه رقاع صلات مولانا اتخذتها شعاراً ، وبكى ! فأعجب به المنصور وقال له : عندى مزيد !

ويصحب المنصور فى بعض نزهه برياض الزاهرة ، فيمد المنصور يده إلى بعض الترنجان يعبث به ثم يرميه إليـه معرّضاً أن يصفه ، فيقول صاعد شعراً لطيفا على البديهة فى وصف الترنجان وقد ضمنه مدح المنصور :

كأنما الحاجب المنصور علمه فعل الجميل فطابت منه أخلاق

وهكذا أصبح صاعد فى نفس المنصور . ويساعده الحظ يوماً فيهدى للمنصور أيلا وقد سمى هـذا الأيل غرسية ، وهو اسم غرسية بن شانجة صاحب قشتيلة وأعدى أعداء المنصور ، ويبعث معه بشعر يقول فيه :

سميتـه غرسية وبعثته فى حبله ليتاح فيه تفاؤلى

فيشاء حظ صاعد أن كان أسر غرسية بن شانجة فى نفس اليوم الذى وصل الأيل فيه مربوطاً ومعه هذا الشعر ، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلثمائة . وهكذا يكون الجدّ للصاحب والمصحوب .

ويكمل صاعد كتابه « النصوص » وهو ذلك الكتاب الذى وعد المنصور أنه سيكون أجلّ قدراً من كتاب أبى على ، ويتتبعه أدباء قرطبة بالنقد والتجريح ، حتى زعموا أنه لم تمرّ فيه كلمة لها وجه من الصحة ولا خبر ثابت لديهم ، ثم جاءوا للمنصور وقالوا له : رجل مقتدر على تأليف الكذب من عيون الأدب يسندها إلى شيوخ لم يرهم ولا أخذ عنهم . ويتفقون على حيلة من هذه الحيل التى افتنوا فيها ، فيأمر المنصور بتصفير كاغد أبيض وتغيير بهجته ليدل على القدم ، ويترجم على ظهر ذلك السفر بكتاب النكت تأليف أبى الغوث الصنعانى . ويُدعى صاعد ، فحين يرى هذا الكتاب يترامى عليه ثم أخذ يقلبه وقال : إنى والله قرأته بالبلد الفلانى على الشيخ أبى فلان وهذا خطه . فأخذه المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه وقال له : إن كنت رأيته كما تزعم فعلام يحتوى ؟ قال : ورأسك لقد بعد عهدى به ولا أنصّ منه شيئاً ، ولكنه يحتوى على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر . فقال له المنصور : أبعد الله مثلك . فما رأيت الذى هو أكذب منك ! ثم أمر بإخراجه ، وأن يقذف بكتاب النصوص فى النهر . ويفرح الشعراء القرطبيون ويشمتون فى صاعد ويسخرون منه . فهذا الكتاب الكبير القدر الذى جلس صاعد لتأليفه فى جامع الزاهرة والذى كان بغيـة المنصور منه قد ظهر كذبه فيه وادعاؤه ، وها قد أمر المنصور فألقى به فى النهر ، فأى ظفر بصاحبهم أحسن من هذا الظفر ! ويبعث إليه بعضهم بهذا البيت الساخر :

قد غاص فى البحر كتاب النصوص وهكذا كل ثقيـل يغوص

فيجيبه صاعد :

عاد إلى معـــــدنه إنما توجد فى قعر البحار الفصوص

وليس من المعقول أن يجىء هذا الـكتاب كله كذب وإدعاءاً . والحق أنه كان عملا قاسياً غريباً من المنصـور حين أمر بأن يلقى الـكتاب فى النهر ، لـكن المنصور فيما يظهر تسرع بتأثير هؤلاء الأدباء وبما ظهر من كذب صاعد . وفى ذلك يقول ابن بسام : « وما أحسب أن أحداً يجترئ على إخراج تصنيف وإبداء تأليف يضيق عنه التعديل ، ويدفع فى صدره النقد والتحصيل ، لاسيما وصاعد علم أن قرطبة — حسب ماذكرنا — ميدان جياد، وبلد جدال وجلاد . لـكنه اشترط غير المشهور ، فلم يظفروا منه بكثير ، وأعانهم هو على نفسه بما كان يتنفق من تنحله وكذبه ، ولم يكن عنـد ابن أبى عامر تحرير ولا بصر بالنقد مشهور ، وإلا فليس يخلو كتاب النصوص من غريبة مسموعة ، ولا من فائدة رائعة بديعة.. »

ويتتابع المـكروه على صاعد بعد ذلك باشتعال الفتنة وتفرق بعض الأمراء الذين اتصل بهم وكتب لهم ، حتى اختل صاعد وعجز عن ستر ولده وأهله . ويموت المنصور بن أبى عامر فيطلب صاعد إلى الخليفة الصغير هشام أن يأمر بتسريحه فلا يأذن له بالانطلاق عن الأندلس خوفاً من خبث لسانه ، فخرج صاعد مستخفياً ، وجاز ببلدة شلطيش وكان ذلك عام ٤٠٣ هـ ، ثم يتصل صاعد بصاحب صقلية ، فيقربه إليه ويفارق البؤس ويراجع النعمة . ويتغلب البرابرة أخيراً على قرطبة فيرجع صاعد إليها ليعود بمن تركهم من أهله وولده ، ويحاول أن يتصل ببعض هؤلاء الأمراء من البرابرة فلا يفلح ، فيعجل الانكفاء إلى صقلية ويموت بها سنة ٤١٠ هـ .

هذه قصة صاعد الأندلسى ذلك النجم المشرق الذى غرّب ليكون له حظ أبى على القالى ، فجاهد ماجاهد ، ولقى من الـكيد ما لقى ، وأخيراً ألقى بكتابه فى نهر قرطبة ، ومات وهو على أسوأ حال فى صقلية !

محمد عبده عزام

ليلى ودوحتى الموعودة ...

لمْلِمْ ، سوادك ، يا بهيم ، وخلِّنى   سربلتنى دهراً ، وإنك ما تَنى
ناءت بحملك مهجتى ، واحلولكت   بك مقلتاى ، ألا بربك أعفنى
أطلع نجومى ، أنت قد غوّرتها   يا مُطلع الظلمات ، حسبك ، ضِمتنى
يا ليلُ ، يا ليلى ، جناُحك ناشرى   فى كل وادٍ ، فاطو جنحك واطونى
واغبُبْ خضمَّك ، قد غَببتُ عبابه   زمناً ، ألا يكفيك ، إن لم يكفنى
أوحشت ، يا لون الغراب ، مضاجعى   فارحلْ ، أظنك ضقت بى وسئمتنى
أنا لا أراك مطيـــة لرغائبى   ما الليلُ مُضطربى ، ولاهو مسكنى

يا ليلُ ، هل سرحتْ ، بساحك ، جِنَّةٌ   لعزيفها ، نَفر الهوى ، لا ينثنى
أم ساورتك أراقم ، فحسَّتْ فلم   يكُ سامر ، من كيدهن ، بمأمن
سقطت رجومك ، فى حماى ، فأحرقت   بشواظها ، زرعى الذى لم أجتنِ
والنسلَّ بومُك ، بين زُغبى ، فشعها   والبوم ، إن تنصُل مُسوحُك يُجبُن
أوليتنى ، يا ليل ، كل بليـــة   هذا صـــنيعك ؟ بئس ما أوليتنى
دنياك مرعبـــة ، كدنيا مجرم   لم أهوها يوماً ، ولم تستهونى
حَكمَ الضلالُ بها وساد لجاجَهـا   عَدَمٌ يلفّ ، بصمته ، ما لفنى
عقمت ، فلم تنجب شهاباً كاسفاً   حلواً ، أُشبّ بهـــاءه ويشبنى

يا ليـــل ، يا ملك القطوب ، تنحّ عن   سُرُرى ، فما أنا ، للظلام ، بمُذعن
غمر الرجاء سواد قلبى ، فاعتسف   ما شئت بى ، وإذا قدرت فهُدَّنى
هذا حطامى ، سوف أبعث مجده   متمكناً ، من جوفك المتمكن
أو ما ترانى ، الآن ، فيك مهنداً   فى قبضة الفجر القريب ، يهزنى

أعشو إلى نار الضلوع ، كأنني
متحنن يعشو إلى متحنن
قلبي ، على شفتي ، قُربانُ الضحى
مَرِحى ، لهذا القلب ، ليس يعقني

يا لهفتا : ليلى غشوم أرعن
ويسوط أحلامي ، بنوء أرعنٍ
أغرى ، بمصباحي ، الخطوبَ ، فزيته
دام ، وأضوائي وإن لم يطفني
توجتُ آمالي بغار الشوك من
فَلَوَاته ، وزهوت زهو المحسن
ونضوت أسمالي وسرت مظفراً
وأبيت أن أعنو له أو أنحني
أمشي ، أميرَ الليل ، أسحب معطفي
جذلانَ ، لا أبكي لجنبي المثخن
ياليتني اسطعت النجاة لدوحتي
أُفضي إليها بالأسى ، فتضمني
إن أبك ، من نصب ، تهدهدْ دمعتي
أو أشكُ رمضاء الحياة ، تظلّني
أو يبلَ ثوبي ، تكسني أوراقها
وترد ، عن عُرْيِي ، شمات الأعين
إن يؤذني قُرُّ الشتاء ، تضيء لي
من قلبها ، الدفء الحنون ، فأغتني
مهما نفضت بها غباري ، لن ترى
تعبا بأشجاني ، وليس تملني

ويحي ، أأبلغ دوحتي ، يا ليل ، أم
أنزلتني ، دوحَ الدجى ، فظلمتني
يا ليل ، يا لجيّ ، إن تلك دوحتي
تحت الدجى ضاعت ، فقد ضيعتني
خذ مزهري ، واذهب بأقداحي ، ورح
بدمي ، وأذن خطاي منها ، تحيني
فيها خلودي ، فانفرج ، يا قاتلي
إن تنفطر ، عن صبحها ، خلّدتني
هي نُصْب حلمي فيك ، وهي تشير لي
من خلف أحزان الدجى ، وتحثني
هي دوحتي ، طابت جنى ، وترعرعت
فيها بلابل جنّة ، لم تشدُني
ما خنتُ ذكراها ، وكم حوّلتني
وبعُدتَ ، بي ، عنها ، وما أيأستني
يا ليل ، لا تغدر ، يخدنك ، وارعه
إني صحبتك حقبة ، وصحبتني

[حمص] نذير الحسامي

قصة سلامان وأبسال

للشيخ الرئيس أبي على الحسين بن عبد الله بن سينا

(٣٧٥ هـ — ٤٢٨ هـ)

لم تصل إلينا هذه القصة كما وضعها الشيخ الرئيس ، وإنما وصلنا شرح الطوسى لها ، المثبت على هامش كتاب « الإشارات والتنبيهات » ونوّه عنها ابن سينا فى غير كتابه هذا ، فى رسالة « القدر » الموجودة ضمن رسائل ابن سينا التى جمعها الأستاذ ميرن Mehren تحت عنوان « فى أسرار الحكمة المشرقية » طبعة ليدن سنة ١٨٨٩ . وكذلك أثبتها الجوزجانى ، فى ثبت مؤلفات ابن سينا .

والقصة تكاد تكون مجهولة . أضف إلى ذلك مايكتنفها من غموض ويشيع فيها من اضطراب ، سببه الأول أن النص الأصلى لم يصل إلينا . وسببه الثانى أن القصة تلخيص مركز جداً لمذهب ابن سينا فى النفس ولمذهبه فى السعادة . وسببه الثالث أنها كتبت على الطريقة الرمزية ، بل يخيل إلينا أن ابن سينا قد وضعها فى شكل لغز علينا أن نعنى بحله ؛ فإنه يقول :« وإذا قرع سمعك فيما يقرعه ، وسرد عليك فيما تسمعه ، قصة لسلامان وأبسال ، فاعلم أن سلامان مثل ضرب لك ، وأن أبسالا مثل ضرب لدرجتك فى العرفان إن كنت من أهله ، ثم حل الرمز إن أطقت . تنبيه من مقامات العارفين . » والقصة فوق ذلك كله ، مجهولة التاريخ ، ولا يعلم عن مصادرها شىء ما ، ولعلها أيضاً أن تكون غير محددة الموقف من تراث ابن سينا نفسه ، وبالنسبة إلى قصص أخرى كثيرة بهذا العنوان « سلامان وأبسال » .

والقصة تنقسم كأى قصة أخرى إلى الشخصية والحركة . وكل شخصية فيها تعبر عن قوة من قوى النفس ، وكل حركة فيها ترمز عن النزوع الطبيعى

لهذه القوة . وهنا لابد أن ينشأ صراع هائل بين قوى النفس جميعاً ؛ فهى ليست كلها موجهة إلى هدف واحد ، بل بعضها طامح إلى السماء ، وبعضها نازع إلى الأرض ، والإنسان فى كل ذلك هو المسرح الذى تتصارع فى ساحته هذه القوى . ولكن ابن سينا كان قد وضع الخطة التى من شأنها أن تؤدى بهذا الإنسان إلى الله . فالقصة تحكى حركة طموح الإنسان وصراعه فى سبيل الوصول إلى الحق أو المجهول ؛ وعلى ذلك لا بد أن نحلل كل شخصية من شخصيات القصة ، ونرى ما يقابلها من قوى نفسية ، وبدون ذلك لن يتسنى لنا أبداً أن نفهم القصة فى أعماقها . والحق أننا فى القصص العادية يمكن أن نفهم الشخصية من خلال الحركة التى تقوم بها ، ولكن فى قصة ابن سينا لابد أن نفعل العكس ، أعنى أن نفهم الشخصية أولا ، من حيث هى شخصية ، وذلك هو الذى سيفسر لنا حركة هذه الشخصية .

لذلك كله ، نرى أن الخوض المباشر فى القصة غير مجد ، وعليه تحتم علينا قبل ذلك (١) أن نمهد لها بتمهيد تاريخى (٢) ثم يعقب ذلك تحليل شخصيات القصة (٣) وأخيراً نشرع فى عرضها .

١ — التحقيق التاريخى فى قصة سلامان وأبسال

الأصل اللغوى لقصة سلامان وأبسال — الرمزية فيها — قصص أخرى بعنوان سلامان وأبسال — تاريخ القصة ومصادرها — موضع القصة من تراث ابن سينا .

لم ترد لفظة « سلامان » فى الزمخشرى أو تاج العروس ، وأوردها لسان العرب ، ومعناها ضرب من الشجر السهلى ، وواحدته «سلامانة» اسم رجل ، واسم جبل . ولفظة « أبسال » لم ترد فى تلك المعاجم الثلاثة ، ولكن ورد المصدر من « أبسل » بمعنى أسلمه للهلكة ، وهو « إبسال » بكسر الألف . وليس هل فى كل ذلك ما يمكن أن يكون ابن سينا قد قصد إليه فى المعنى اللغوى للألفاظ .

وقال نصير الدين الطوسى + ١٢٧٣ م . أن هذين الاسمين يسيران فى أمثال

العرب ، ويردان فى قصص لهم قديمة ، ويذكر فى هذا الصدد كتابا لابن الأعرابى بعنوان « النوادر » رويت فيه قصص كان أبطالها سلامان وأبسال . وكتاب النوادر لم يصل إلينا ، كما أنه لم يصل إلى الطوسى أيضاً . وليس فيما أوردته تلك المعاجم من نوادر لابن الأعرابى ، ما يمكن أن يكون ابن سينا قد استفاد منه فى وضعه لهذه القصة . وعلى الرغم من أن الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » قد أورد لابن الأعرابى كثيراً من المقتطفات ، فإنه لم يذكر لفظتى سلامان وأبسال ، أو قصة شبيهة من قريب أو بعيد بقصة سلامان وأبسال . ولقد كان سلامان على حسب قول الطوسى ، يمثل فى تلك القصص القديمة المتداولة ، الرجل الخير الذى يفوز وينتصر ، على حين يمثل أبسال الرجل الشرير ، الذى تنتهى حياته بأن يقع فى أسر الأعداء ، فأصبح من ذلك مثلا يتداوله العرب .

ويتضح من ذلك ، أن لفظتى « سلامان » و « أبسال » ليستا اسمين عربيين صميمين ، ويتضح كذلك أن هذه القصص التى تحاك حولهما عند العرب ، لا يمكن أن تكون قد أوحت إلى ابن سينا قصته ، التى هى فى آخر الأمر تصوير لطموح الإنسان المشبوب لاعتناق المجهول . إن سلامان رمز للإنسان ، وأبسال هو رمز لقوته الناطقة ، التى هو بها ما هو ؛ فليس هما رمزين للخير والشر ، حتى نقول إن ابن سينا قدساير الأمثال المتداولة عند العرب عن سلامان وأبسال .

ولكن لماذا كتب ابن سينا قصته هذه على الطريقة الرمزية ؟ إن النزعة الرمزية عند ابن سينا لم تكن عابرة ولا سطحية ، بل كانت تملك عليه جانبا كبيراً من روحه العميق ، ذلك الروح الذى أسلمه عمقه — والحق يقال — إلى غموض الأسطورة . وهنا يودّع ابن سينا العقل اليونانى البكر ، يودع ذلك العقل الحسى ؛ فإن ذلك العقل لم يكن بعدُ قد عرف هذه التفرقة بين المرئى واللامرئى . ومنذ تلك التفرقة ، التى أرهص بها على الرغم من ذلك زينو الأيلى حينما أنكر حركة السهم — أقول منذ تلك التفرقة بين المرئى واللامرئى ، يمكن أن يقوم التفكير الأسطورى أو الدينى . وهنا أيضاً ، لا بد من السعى لاكتشاف هذا الجانب اللامرئى ، وحينئذ نضفى لغتنا الحسية ، على موضوعات ذلك الجانب ، فيكون الرمز .

لقد وضع ابن سينا جزءا كبيراً من تراثه الفلسفى الضخم على أساس هذه

الطريقة الرمزية . كتب بها غير قصة سلامان وأبسال ، قصة « حى بن يقظان » وهى غير « حى بن يقظان » لأبى بكر محمد بن عبد الله بن محمد طفيل العتيسى ، ويسمى الأندلسى القرطبي أو الأشبيلى + ٥٨١ هـ . وكتب ابن سينا بهـذه الطريقة أيضاً قصة الطير ، وقصيدته فى « النفس » ، ورسالته فى « القدر » التى أوردها الأستاذ ميرن Mehren أو كما يحب أن يسمى نفسه : الفقير إلى الله ميكائيل بن يحيي المهرنى ضمن مجموعة ابن سينا التى سماها الأستاذ ميرن « فى أسرار الحكمة المشرقية ليدن سنة ١٨٨٩ » . بل إن النزعة الرمزية قد تجاوزت القصص التى كتبها ، فظهرت بوضوح فى وضعه لدرجات العارفين ، وتبيينه لدرجات الترقى من « الرياضة » إلى « النيل » إلى « الوصول » . النزعة الرمزية عند ابن سينا تمثل خاصية هامة من خواص روح ابن سينا . فلماذا لجأ إلى هذه الطريقة ؟ ولم يذهب مباشرة ، وعن طريق اللغـة الفلسفية الواقعية للإدلاء بما يريد ؟

نجد السبب الأول لذلك — فوق المقدمات الحضارية العامة — فى مجموعة رسائل ابن سينا طبعة حيدر أباد ، فى رسالة « سر القدر » وهى غير رسالة « القدر » التى ذكرناها الآن — حيث نجد: « سأل بعض الناس الشيخ الرئيس أبا على بن سينا عن معنى قول الصوفية : من عرف سر القدر فقد ألحد ، فقال فى جوابه : إن هذه المسألة فيها غموض ، وهى من المسائل الذى لا تدوّن إلا مرموزة ، لما فى إظهارها من إفساد العامة . والأصل فيه ما روى عن النبى : القدر سر الله ، ولا تظهروا سر الله . » (ص ٢) . وإذن فالسبب الذى حدا بابن سينا أن يكتب قصته على الطريقة الرمزية ، هو أن طبيعة موضوعها ، من حيث إنه معاينة الله ، يقتضى أن يوضع فى هذا الثوب الرمزى ، لما يكتنف ذلك الموضوع من غموض ، ولما يكون من أثر إذاعته وإظهاره من إفساد للعامة الذين يأخذون الأمور على علاتها .

أما السبب الثانى ، فقد ورد فى قصة حى بن يقظان لابن طفيل ص ٦ طبعة مصر — وهو يكاد يكون معـبراً عن آراء ابن سينا ، حيث يقول رداً على جواب السائل الذى يريد أن يبث أسرار الحكمة المشرقية « والغرض الثانى من الغرضين اللذين قلنا إن سؤالك لن يتعدى أحدهما ، هو أن تبتغى التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر . وهذا ، أكرمك الله بولايته ، شىء يحتمل أن

يوضع فى الكتب . وتتصرف فيه العبارات ، ولكنه أعدم من الكبريت الأحمر ، ولا سيما فى هذا الصقع الذى نحن فيه ؛ لأنه من الغرابة فى حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد ، ومن ظفر بشيء منه ، لم يكلم الناس به إلا رمزاً ؛ فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه» .

فلعل ابن سينا إذن قد ظفر بشيء من هذه الحكمة ، ولما كانت الملة الحنيفية والشريعة المحمدية ، منعت وحذرت من الخوض فيه ، فهو لا يكلم الناس به إلا رمزاً .

فثمة إذن سبب داخلى متصل بطبيعة الموضوع ، من حيث إنه غامض ولطيف ، بحيث لا تدركه إلا لغة غامضة لطيفة ، يكون من شأنها ألا تحيط به ، إحاطة السوار بالمعصم ، بل تدعه يجول فيها ، وتدع له نوعا من الحرية فى الانكماش والتمدد ، والظهور والاختفاء . وثمة سبب خارجى ، هو أمر الدين ونهى الشرع . إن موضوع سلامان وأبسال ، من أسرار الله ، ومن خاض فى سر الله وحاول الكشف عنه ، فقد ألحد .

قصة سلامان وأبسال قصة رمزية يمكن إرجاع الرمزية فيها إلى سبب حضارى عام ، هو أن الفكر العربى كان يتوزعه تياران : التيار الغيبى اللامرئى ، والتيار الواقعى المرئى . وهو مضطر حينما يخوض فى الأول ، أن يلجأ إلى وسائل الثانى ، وهنا يكون الرمز . أضف إلى ذلك السببين الموضوعيين الآنفين ، وأسباب أخرى فرعية ، مثل نزعة ابن سينا الفنية ، واستعداده الشخصى لمثل هذا النوع من الكتابة ودراسته للأدب .

ولم يكن ابن سينا وحده هو أول من ألف قصة بهذا العنوان وعلى هذه الطريقة ؛ فهناك القصة المنسوبة إلى حنين بن اسحاق + ٢٦٠ هـ . وقد أوردها نصير الدين الطوسى فى شرحه ، وذُيِّل بها كتاب « تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات » لابن سينا ، وهناك فرق طفيف بين إيراد الطوسى لها ، وبينها مثبتة فى ذيل تسع الرسائل إذ أن الطوسى قد عمل على اختزالها فى كثير من المواضع . ولكن هذا لا يمس شيئاً جوهريا فى القصة ، فما زالت أبسال المرأة الفاجرة تغرى سلامان ابن الملك هرمانوس الذى لم تكن له زوجة ؛ وإنما ركب ابنه هذا تركيباً ، وصنعه صناعة ، وأقامه على الأرض من غير الطريق الذى نسلكه جميعاً إليها : تأخذ أبسال فى إغراء سلامان وتكشف له عن

مفاتنها ، وتظهر له ما بين أحضانها من لذة شهية . ويكاد سلامان ينقاد ، لولا أن يستعين أبوه هرمانوس بالحكيم أقليقولاس على إهلاك أبسال الفاجرة ، فتنتهى هذه بالغرق ، وينقذ سلامان من براثن المرأة .

ولقد قالت الرواية أن حُنَيْنًا قد ترجم هذه القصة عن اليونانية ؛ ولكن القفطى + ٦٤٦ هـ . ص ١١٦ طبعة الخانجى ، لم يورد ترجمة لحنين بهذا العنوان . ولقد لاحظنا أنه أورد لحنين كتاباً بعنوان « رسالة الحمام » لعلها أن تكون الأساس فى رسالة « الطير » لابن سينا ، أما سلامان وأبسال ، فلم يرد لهما ذكر عند القفطى . وقد تخلص الطوسى من هذه القصة بأنها من خلق بعض العوام ؛ على أنها مازالت فى حاجة إلى البحث والتحقيق .

وثمة شبه بين القصة المنسوبة إلى حنين وقصة ابن سينا ؛ فموضوع كليهما العام ، هو الصراع بين العقل والشهوة ، أو بين الروح والجسد ، كل يريد أن يجذب الآخر ويفنيه فى نفسه ، وسينتهى هذا الصراع فى كليهما إلى انتصار العقل ، وسيادة الروح . والسبب الذى يجعلنا نرفض القصة المنسوبة إلى حنين من حيث إنها كانت مصدرا لقصة ابن سينا ، أن أبسال تمثل فى القصة الأولى القوة الشهوية ، على حين تمثل عند ابن سينا القوة الناطقة . أضف إلى ذلك أن الاختلاف واقع فى كل تفاصيل الصراع ، والاتفاق فى الموضوع العام والخاتمة ، لا يعنى أن قصة ابن سينا قد نسجت على منوال القصة المنسوبة إلى حنين .

أما القصة الثانية التى يلعب فيها سلامان وأبسال دورا كبيرا ، فهى قصة حى بن يقظان لابن طفيل . فبعد أن نيف حى بن يقظان على سبعة أسابيع من منشئه ، وذلك خمسون عاما ، هبط إليه من جزيرة مجاورة أسال ، وزير الملك سلامان ، وتعرف كل واحد منهما على الآخر بسهولة ؛ فقد وصل حى ابن يقظان — وهو يشبه فى جزيرته النائية روبنصن كروزو إلى حد بعيد — إلى الحقيقة عن طريق النظر المجرد الصرف ، ووصل إليها أسال عن طريق الشرع ، فما لبث كل منهما أن تعلق بالآخر ، وذهبا معاً لهداية الملك سلامان وقومه ، ثم يعودان من هذه المحاولة بالإخفاق ؛ فقد اتفقت الفلسفة مع الدين ، ولكن كليهما لم يتفق مع المصالح الدنيوية التى يمثلها سلامان . لقد كانت مصادفة عجيبة أن يعبر ابن طفيل بالقصة عن ذات ما عبر عنه ابن رشد فى كتابه « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » . ولكنها على كل حال

ليست مصادفة عجيبة جداً ، فقد كان التوفيق بين الشريعة والحكمة هو الشاغل الأول للفلسفة الإسلامية .

لقد لاحظنا أن سلامان وأسال عند ابن طفيل ملك ووزيره ، أما عند ابن سينا فهما أخ وأخوه . والدور الذى يلعبانه فى قصة الأول يختلف اختلافاً كبيراً عن الدور الذى يلعبانه فى قصة الثانى .

ولقد ظن بعض المترجمين والباحثين لقصة ابن طفيل ، أنها من تأليف ابن سينا ، ولم يزد ابن طفيل على أن جمع بين قصتى ابن سينا « سلامان وأبسال » و « حى ابن يقظان » ، فى صعيد واحد ، عنونه بحى بن يقظان . أنظر : إننا فى طبعة القسطنطينية لقصة حى بن يقظان نقرأ العنوان التالى : « قصة حى بن يقظان فى الفلسفة الشرقية للإمام أبى جعفر بن طفيل : وهى مستخلصة من المؤلفات القيمة فى الحكمة الشرقية لأبى على الحسين بن عبد الله بن سينا . . . »

والحق أن من الممكن ملاحظة أن ابن طفيل كان يعتمد فى وضع قصته على قصتى حى بن يقظان وسلامان وأبسال لابن سينا ، وأنه قد جمع بين هذه القوى الثلاث فى قصة واحدة . ولكنه ، والحق يقال ، كان قد أخرج بهذا الجمع قصة جديدة ، تختلف اختلافا بينا عن قصتى ابن سينا . فهو لم يجمع بينهما فقط ، وإنما ألف بينهما أيضا . واقتضى هذا التأليف بعض الزيادات وبعض الحذف وبعض العناصر المبتكرة الجديدة . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ L. Gauthier جوتيه فى بحثه فى ابن طفيل .

وفى مادة « ابن طفيل » فى دائرة المعارف الإسلامية ، يزعم المعقب على المقالة ، أن الشاعر الفارسى جامى Jami قد اتخذ قصة ابن سينا « سلامان وأبسال » أساسا لمقطوعاته الشعرية المشهورة « سلامان وأبسال » التى ترجمت إلى الإنجليزية وترجمت أيضاً إلى الفرنسية بوساطة Auguste Brieteau أوجست بريتو . والواقع أن هذا الزعم غير صحيح ؛ لأن مقطوعات جامى أقرب إلى القصة المنسوبة إلى حنين منها إلى قصة ابن سينا . فسلامان فى أشعار جامى أمير شاب ، وأبسال ظئره ، التى تصبح معشوقته فيما بعد . ومن هنا يظهر أن جامى ، كان يعتمد فى لا شعوره ، على القصة المنسوبة إلى حنين ، والتى يخلط بينها كثيراً وبين قصة ابن سينا .

ويحتمل أن هذه القصص جمعاً ترجع فى مصادرها الأولى ، الى العصر

الإسكندرى . فنحن نعلم أن قصة حى بن يقظان لابن سينا ، والتى قلده فيها ابن عزرا ، تشبه فى جوهرها كتاب « بيمندريس » أو « راعى الناس » المنسوب إلى «هرمس» ، وهو محاورة امتزج فيها المذهب الأفلاطونى المحدث باعتقادات قدماء المصريين ، وتمثلت فى صورة شيخ بهى المنظر ، هو عند ابن سينا حى ابن يقظان ، وبين تلميذه هرمس إله الحكمة . وتناولت هذه المحاورة فى الوقت نفسه كيفية الخلق ، والإشراق ، أى إفاضة العقل الفعال الذى هو نهاية العقول السماوية ، على العقل المستفاد الذى هو أرقى القوى الإنسانية — أقول إفاضة العقل الفعال على العقل المستفاد المعقولات المحضة . وقد عرف الإسلاميون كتاب بيمندريس ، وأشار إليه القفطى فى « تاريخ الحكماء » .

هذا كله فيما يتصل بقصة حى بن يقظان لابن سينا . وقصة سلامان وأبسال تعالج نفس الموضوع ، فلا يبعد أن تكون قد تأثرت بنفس المؤثرات ، وخضعت لنفس الجو الروحى المعبق بغموض التصوف . ولكن ابن سينا على كل حال لم يكن خالصاً إلى التصوف ؛ فالحق أنه أكبر من عانى الأزمة التى خلقت الحضارة الإسلامية برمتها . أجل إنه عاش طوال حياته ، يريد أن يرق على الغيبية من جهة ، والواقعية من جهة أخرى ، ليخرج بمركب جديد ؛ ولذلك نجد فى ذات قصته الإشراقية الفيضية ، عناية بالواقع ورأفة بالأرض . إنه إنسان يعيش فى الحضارة الإسلامية التى لم تثر على النزعة العملية الأصيلة فيها ، إلا عند ما ثارت على نفسها ، وأرادت أن تخرج من ذاتها . فبجانب هذه المؤثرات الأفلاطونية المحدثة العزوفية ، نجد المؤثرات الإسلامية من حيث الحض على الفضيلة العملية ، وإباحة العمل فى الحياة ، وتدبير شؤون المنزل ، وتنظيم مرافق المدينة .

بل من يدرى ، إن خطأنا غير محتمل أبداً ، إذا قلنا إن ابن سينا كان ينسج فى قصته « سلامان وأبسال » على منوال قصة يوسف التى وردت فى القرآن . فالشبه بينهما قوى لدرجة عجيبة حقا . بل لماذا نذهب بعيداً ، وقد كان ابن سينا نفسه يشعر شعوراً قويًّا بهذا الشبه . أنظره إليه يقول فى رسالته « القدر » التى نشرها الأستاذ ميرن ، على لسان حى بن يقظان ، وهو يهدئ من صخب مجادله : « وما كل يعصم عصمة يوسف حين رأى برهان ربه ، وكانت همت به وهم بها ، ولا عصمة أبسال حين انباج برق فأراه وجهها » .

لقد تأثر ابن سينا قصة يوسف سواء كان واعياً بذلك أو غير واع . فما يوسف فى الحقيقة إلا أبسال ، وما الحاكم أو عزيز مصر إلا سلامان ، وزوجة العزيز هى النفس الأمارة أو زوجة سلامان ، وهى تهيم بأبسال ، كما هامت زوجة العزيز بيوسف ، فيرتد عنها على أثر انبلاج برق إلـهى فى خاطره ، كما انباج برهان الرب فى خاطر يوسف ، وإخـوة يوسف الذين قاوموه ، هم فى قصة ابن سينا الجيش (أى الحواس) الذى تخلى عن أبســال وتركه عرضة للموت . وكما انتهى يوسف من هذا الصراع بالنصر والفوز ، انتهى أبسال أيضاً إلى نفس النتيجة المتفائلة ؛ فالخير ينتصر على الشر ، ويكون السلام على الأرض ، والمجد لله فى الأعالى .

ونلتهى من هذا كله ، بأن قصة ابن سينا متأثرة فى وضعها الفنى بقصة يوسف ، ولاسيما أن ابن سينا قد حفظ القرآن ووعاه ، وشب متأثراً بمعانيه وقصصه منذ بلغ العاشرة ؛ كما أنها متأثرة فى أفكارها ، بل صدرت فى أفكارها عن الأفكار الأفلاطونية المحدثة الإشراقية .

ولسنا نستطيع أن نعين بالضبط تاريخ تأليف تلك القصة ، ولـكننا نعلم أن قصة حى بن يقظان لابن سينا ، قد كتبت فى الفترة الواقعة مابين سنة ٤١١ هـ ـ سنة ٤١٤ هـ . وهى فترة مضطربة جداً من حياة ابن سينا ؛ فلقد أسره الأمير تاج الملك ، وزج به فى السجن ، فى قلعـة تسمى « فردحان » ، وبين جدران تلك القلعـة كتب ابن سينا حى بن يقظان . ولا يبعد أن تكون قصة سلامان وأبسال ، قد كتبت أيضاً فى هذه الفترة المضطربة ؛ فهى فى الحقيقة ومن الناحية الفنية تعد الحلقة الثانية لقصة حى بن يقظان ، فهى تتدفق فى نفس المحيط المجهول ، وتستشرف نفس الآفاق النائيـة . وليس من الغريب أن يشرع ابن سينا السجين ، فى رسم طريق الحرية ، بقصته سلامان وأبسال . تلك هى نزعة الإنسان الواعى الذى يجد الأغلال حول جسده وروحه ؛ تراه ينفجر فى ثورة روحية هائلة ، فيتحرر من ربقة الحواس ، بل من ربقـة العقل ذاته ، وحينئذ يشعر بأزمة الحرية فى أقصى درجة من درجاتها . وهنا تراه يخاف الحرية الموفورة أمامه . أجل ! يخافها ، فإذا به يتحرر من الحرية ذاتها ، ويسلم نفسه لله . هكذا فعل سلامان ، إنســان ابن سينا ، ولعل ذلك مايفعله الوجودى المسيحى أيضاً .

إن تلك القصة تعبير عن حالة لابن سينا ، لانكاد نجدها فى تاريخ حياته إلا فى تلك الفترة الواقعة بين سنتى ٤١١ هـ — ٤١٤ هـ . ولما كان من الممكن النظر إليها على أنها تمضى فى نفس الفكرة التى ابتدأت فى قصة حى بن يقظان ، المؤلفة فى تلك الفترة ، فلعل قصة سلامان وأبسال ، قد وضعت أيضاً إبان تلك السنوات .

والآن يجب علينا أن نعرف : ما موضع هذه القصة من التراث الروحى لابن سينا ؟ لقد رأينا موضعها التاريخى من حياة ابن سينا . أما موضعها العضوى فى فكره ، فهو فى الحكمة المشرقية ، على الرغم من أن ميرن Mehren لم يوردها فيما أورده من رسائل الشيخ الرئيس تحت هذا العنوان . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن نص القصة مفقود ، وكان ميرن يعنى بجمع نصوص ابن سينا الإشراقية ، لا الشروح على تلك النصوص . نحن نعلم أن الشيخ كان خاضعاً لتيارين رئيسين : التيار المشائى الأرسططالى ، والتيار الأفلاطونى المحدث ، وإلى هذا الأخير تعزى الحكمة المشرقية لابن سينا ، ومن هذه الحكمة قصة سلامان وأبسال .

ولابن سينا كتاب مفقود ، بعنوان «الحكمة المشرقية» . وكان يظن دائما أنه يعالج — كما نتبين ذلك من حديث ابن طفيل فى قصته حى بن يقظان عن تلك الحكمة — المسائل المستورة ، من إشراق واتحاد ونيل ووصول . هو كتاب ، كان يظن أنه نسجت على غراره قصة حى بن يقظان لابن طفيل ؛ فهو إذن يحتوى على أسرار الإشراق ، التى يمكن أن تعتبر بدءا لمذهب السهروردى المقتول + سنة ٥٨٧ هـ ، أعنى أن كتاب الحكمة المشرقية هذا ، يجب أن يوضع فى مذهب التصوف السرى الذى نادى به السهروردى المقتول وتلاميذه . وقد سلّم بذلك البارون كارادیفو وبوزى وكيورتن وهورتن وجولدتسيهر وديبور . . . بل معظم المستشرقين الذين سبقوا الأستاذ كارلو الفونسو نللينو + ١٩٣٨م . فقد جاء المستشرق ببحث نشره سنة ١٩٢٥ فى مجلة « الدراسات الشرقية » ، وترجمه إلى العربية الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه « التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية » (من ص ٢٤٥ — ص ٢٩٦) . وهذا البحث أثبت بطريقة تكاد تكون نهائية أن كتاب الحكمة المشرقية ، هو كتاب على غرار كتب ابن سينا فى الفلسفة المشائية ، يتكون من ثلاثة أجزاء : المنطق والطبيعة والإلهيات

وأن كتاب منطق المشرقيين المنشور فى القاهرة هو جزء من هذا الكتاب « الحكمة المشرقية » .

وقد اعتمد الأستاذ نللينو فى ذلك على نصوص كثيرة ، كانت موسومة بعنوان الحكمة المشرقية ، وهى ليست فى مضمونها إلا تعبيراً عن الحكمة المشائية .

وإذن فماذا كان يعنى ابن طفيل ، حين أخذ يبث صديقه أسرار الحكمة المشرقية التى قال بها ابن سينا ؟ قال الأستاذ نللينو بعد أن شرح بإيجاز قصتى ابن سينا : حى ابن يقظان ، وسلامان وأبسال : « وليس من شك فى أن ابن طفيل أشار إلى هاتين القصتين الرمزيتين ، ذواتى الطابع الفلسفى الصوفى اللتين ألفهما ابن سينا ، واللتين لا تفهمان بدون شرح ، حين قدم قصته هو على أنها إجابة على سؤال صديق ، طلب منه أن يبث إليه أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها . . . ابن سينا . ومن المحتمل كثيراً أن تكون نسخة قصة سلامان وأبسال ، التى كانت بين يدى ابن طفيل ، كانت تحمل العنوان التالى : « فى أسرار الحكمة المشرقية » ، وهو العنوان الذى أضافته بعض المخطوطات والطبعات الشرقية ، إلى عنوان قصة حى بن يقظان لابن طفيل . (ص ٢٩٢ — ٢٩٣ التراث اليونانى) .

فكأن الحكمة المشرقية يحتمل كثيراً أنها هى قصة سلامان وأبسال .

وعليه فليس ابن سينا هو المبشر الأول بمذهب الإشراق ؛ إنما ابن سينا مشائى من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . وإذا كان ابن سينا قد تكلم فى التصوف ، فهو كلام عابر ، لا يدخل فى صلب مذهبه ولا يكون دعامة من دعائمه — هو كلام يتوج مذهبه كما يقول ديبور .

إن هذه النتائج التى وصل إليها نللينو ليست حاسمة ولا جازمة ، للأسباب الآتية :

أولا — أن نلليو قد وضع فرضاً لا يزال فى حاجة كبيرة إلى التحقيق والإثبات ، وهو أن قصة سلامان وأبسال ، التى وقعت لابن طفيل ، يحتمل كثيراً أن تكون قد أضيف إليها العنوان التالى : فى أسرار الحكمة المشرقية . وهذا الاحتمال ، لا يقوى افتراض أن كتاب الحكمة المشرقية كتاب مشائى .

ثانياً — أن نللينو لم يبين الصلة التى كان يمكن أن تقوم بين كتاب

الحكمة المشرقية وبين كتاب آخر لابن سينا مفقود، ولكن أثبته الجوزجاني وهو «كتاب المشرقيين». ومجرد ذكر هذا الكتاب، يثير أمامنا هذه المشكلة: لماذا لا يكون كتاب منطق المشرقيين، والنصوص التى اطلع عليها نللينو، المسماة باسم الحكمة المشرقية، مع أن مضمونها مشائى صرف — أقول لماذا لا يكون كتاب المشرقيين وتلك النصوص جزءا من «كتاب المشرقيين» ويظل كتاب الحكمة المشرقية كتاباً فى الحكمة الإشراقية، كما كان يفهمها ابن طفيل، ومعظم المستشرقين السابقين على نللينو؟

ثالثاً — أن الغض من الجانب الإشراقى فى روح ابن سينا ليس له أساس من الصحة. فهب كتاب الحكمة المشرقية كتابا مشائيا، فإن ابن سينا على الرغم من ذلك إشراقى فى أعماق روحه. إنه إشراقى حتى فى صميم كتبه المشائية، هذا زيادة على تراثه الإشراقى الخالص. بل لماذا نذهب بعيداً، ونظرية ابن سينا فى الوجود تقوم على الفيض والإشراق؛ فإن الواجب بذاته يتعقل ذاته، فيفيض عنه العقل الثانى الواجب بالأول الممكن بذاته. وهذا يتعقل الأول، فيحدث أن تعقله للأول يفيض عليه الخير، فينشأ العقل الثالث، وهكذا دواليك إلى العقل العاشر. ونظرية المعرفة عند ابن سينا نظرية إشراقية؛ فالعقل الهيولانى فى درجات ترقيه، يتطور ويسمو، فيصير عقلا بالملكة، ثم عقلا بالفعل، ثم عقلا مستفاداً. والعقل المستفاد هو العقل الذى يتلاءم لإشراق العقل الفعال عليه بالمعقولات المحضة. ونظرية السعادة عند ابن سينا تبدأ من اللذة الأرسططالية، ولكنها تمضى بعد ذلك فى معارج الفيض؛ لأن خير لذة هى لذة القوة الناطقة، ولذتها هى كمالها، وكمالها هو ابتهاجها بعشق جناب الحق، والفناء فيه، والوصول إلى درجة الغائب الحاضر.

يجب إذن أن نفسح مكانا لأفلاطون فى الفكر الإسلامى، حتى نفهم هذا الفكر على حقيقته. ويجب أن نعلم أيضا، أن قصة سلامان وأبسال، من حيث إنها تلخيص لإشراقية ابن سينا، تفسر جانبا ضخما جدا من جوانب الفكر الإسلامى.

عباس احمد

[تتمة البحث فى عدد قادم]

من هنا وهنالك

الأستاذ طه الراوي

صنعة الرواية

يحار المتصدي لسيرة فقيد الأدب السيد طه الراوي أي الجوانب يتناول وأيها يذر ؛ فإن مواحيه متعددة الجوانب ، ومزاياه فياضة بالفضائل ذاخرة بالجلائل ، وحياته حافلة بالإمجاد من الأعمال والعظائم من الامور ، يحسن بأبناء الجيل احتذاؤها والاهتداء بنبراسها ؛ فهي بمجموعها أقباس من المكرمات وأنفاس من الصالحات وأمثلة حية تحفز النشء على مكابدة المشاق في سبيل التحصيل ومتابعة الدرس والصبر على معاناته . فطالما حفزت سير العصاميين ودفعت بالكثيرين من ذوي النفوس الخاملة إلى أن ينفضوا عنهم غبار الكسل فيعملوا بياض أيامهم وسواد لياليهم حتى ينالوا مبتغاهم . ومن أجل هذا عني الأقدمون بكتب السير ولا سيما تراجم العصاميين منهم ؛ فهي خليقة أن تدرس وأن تحتذى . كان رحمه الله يمتاز بخلال كريمة بمقدور المتحدث أن يقصر بحثه على خلة منها فهي كفيلة أن تغنيه من أن يتصدى لخلال أخرى ، وسوف تشبع رغبته الفنية ما واتته موهبته الكتابية . أقول بمقدور الكاتب أن يتحدث عنه مؤلفاً ضليعاً أو كاتباً اجتماعياً أو عالماً غزير المادة واسع الاطلاع حجة فيما يرجح ، ولغوياً يذكرنا بالسلف الصالح من أمثال الخليل بن احمد الفراهيدي وابن الأعرابي ، أو مفسرا يحاكي الرازي وصاحب الكشاف ، كل هذه الجوانب التي إذا امتاز امرؤ بواحدة منها فهو خليق أن يعد بها من عظماء الرجال ، فكيف وقد تفوق أستاذنا بها جميعاً ؟

برع الراحل الفقيد بالفنون اللسانية والعلوم الاسلامية حتى غدا من فطاحل علماء عصره غير المنازع . وكنت أسمع من شيوخ زمانه أثناء الحرب الكونية الاولى بأنه قد أكمل علوم الجادة وأصبح علماً بها لدرجة لم يبق بين أساتذة عصره آنذاك من يفتقر إلى الأخذ عنه ، ولم تخرج المطبعة العربية كتابا قيما في مصر أو الهند أو العراق والشام إلا وقد اشتملت عليه مكتبته العامرة ، فكانت تسعفه بما يحتاج إليه من بحث . أما أخلاقه فقد صفيت من كل عيب ، فليس له شانئ أو قال ولا عدو لا في السر ولا في العلانية ؛ فذهب مبكيا عليه من جميع طرفيه . هذه النواحي الخصبة من سيرته قد تصدى للكتابة عنها كتاب كثيرون في العراق وغير العراق ؛ لأن المعجبين بأدبه لا حصر لهم وكلهم من ذوي الزكانة والفضل ؛ ولذلك فأني قصرت بحثي على صفة فذة انفرد بها من بين أقرانه وله فيها فضل السبق على جميع أبناء المدرسة القديمة والحديثة في بغداد ، تلك الصفة هي الرواية فالشهرة التي عرف بها المرحوم كانت منطبقة على الحقيقة وواقع الحال . ونحن إذ ننعت المرحوم بالراوي فلسنا نقصد مبنى الكلمة من وجهة نسبتها إلى مسقط رأسه ، وانما نريد معناها الاصطلاحي اللغوي . إن الذين حصلوا على المعارف واتسعت آفاق معلوماتهم كثيرون ، ولكن ندر بينهم

من كانت له براعة فقيدنا بالرواية أوله قدرته على عرضها وإفادة الناس بما حصل من دراسات منظمة أو قراءات عابرة . سل أى طالب جلس إليه وهو يلقى درسه من منبره يخبرك خبرا اليقين كيف كان يحقق بحثه ويفصل موضوعه ويدعمه بالشواهد ويؤيده بالأمثلة ، ويحدثك عن مقدار ماغرس فى نفوس تلامذته من فائدة وبث فيهم من ميل إلى الدراسة والآداب ، وكيف أنهم كانوا ينصرفون من درسه ونفوسهم مفعمة بالغبطة والرضا منشرحة لما يقتطفون من فوائد علمية وأدبية . ولست أراني مبالغاً إذا قلت بأن تذوق الأدب وشيوع دراسته فى ربوعنا كان مصدره الفقيد الزاوى إما بالذات وإما بالواسطة ، وأصدقاؤه الذين كانوا يسمرون فى ناديه العامر فى أمسيات السبت ـ حياها الله وأحياها ـ يقدرون طول باع أستاذنا وتفوقه فى هذه الخصلة ؛ فهو محدث بارع يأخذ بمجامع القلوب ويأسر الألباب ، ويبعث فى طلابه ورواد ندوته ماشاء الله من أريحية ومسرة ، ويمتع أذواقهم ويرهف شعورهم ، فقد كانوا ينهلون من نميره العذب ويغرفون من فيض معارفه الزاخرة ، فمن طرفة أدبية إلى ملحة مستظرفة ، ومن فكاهة مستعذبة إلى كلمة شاردة ، ومن أمثال سائرة إلى أبيات من الشعر هى السحر الحلال . إسمع إليه يروى منخل الشعر ومصفى النثر ومهذب الأخبار تعرف بين برديه الأصمعى أو حماد أو ابن قتيبة وأضرابهم ممن حفظت لنا بطون الأسفار سيرهم ونوهت لنا بنبوغهم فى الرواية وسعة الدراية . نعم للمغفور له فى عنق أبناء هذا الجيل دين أى دين فى توجيههم الأدبى ؛ فهو والحق أقول الذى غرس فى نفوسنا الميل إلى آداب اللغة وتذوق المصطفى من نثرها والمصفى من شعرها ؛ فما كان أرواه وأكثر حفظه للعذب من منظوم اللغة ومنثورها . هو الذى عرف أبناء هذا الجيل ببشار والبحترى وابن الرومى والمتنبى وأبى العلاء والشريف الرضى وابن معتوق ، وهو الذى حبب الى الكثيرين دراسة زهير والنابغة وطرفة بن العبد وامرئ القيس . وهو الذى وجه طلاب الآداب إلى دراسة الجاحظ وعمرو بن مسعدة ، وهرون بن سهل ، وابن رشيق ، وابن خلدون ، وابن بسام ، وابن حيان . لقد أوتى غفر الله له حافظة واعية وذاكرة مواتية ، فاذا أفاض فى حديث تلقاه يحسن الاستشهاد بالحكاية المؤيدة ، والمثل المناسب والحكاية المشابهة . وذاكرته من أعجب العجائب تواتيه بالشواهد ، وحافظته قلما خانته فى رواية ما استوعبته من روائع الشعر أو بدائع النثر ، فكأنه كان يغرف من بحر ، او كأن كتابا مسطوراً يقرؤه .

كان نادرة من نوادر الدهر ، وتحفة من تحفه التى قلما يجود بها ، براعة لسن ، واتقاد ذهن ، وسرعة بديهة ، واتساع معارف ورجاحة مدارك ؛ فهو الأديب على غرار ما عرضه ابن خلدون . تصفو النفس لمجالسته ويشيع فيها المرح لحديثه . وأما حضور بديهته فى ايراد المثل من مأثور الآداب منظوما ومنثوراً فهو ما لا يتفق لأحد من أقرانه ولا يشق له غبار فى هذا المضمار . ومجلسه والاستماع لما يروى فى شتى العلوم وضروب الآداب فكان متاعاً دونه متع الحياة ولذائذها ، ولا سيما الساعة الأولى التى كنا نقضيها فى مكتبته العامرة أنا والصديق المحزون على فقده الأستاذ مصطفى على الذى كان الفقيد يعزه ويؤثره على سائر أصحابه ويستأنس برأيه ، وكثيراً ما كان يكلفه قراءة فصل من ديوان أو كتاب إلى أن يتقاطر علينا رواده الكثيرون ، وهم يختلفون ذوقاً وسناً ومدارك ، فنضطر إلى ترك مجلسنا والانقطاع عما كنا فيه من نشوة ممتعة ننسى فيها هموم الحياة وأتعابها .

كان الراوي رحمه الله مسرفاً في القراءة إن صح أن في القراءة إسرافاً؟ فما زرناه مرة إلا وجدناه يقرأ أو يسمع لمن يقرأ له. وهذه نتيجة طبيعية لنشأته العصامية الأولى؟ فقد نشأ عصامياً بما حصل من العلم والآداب. ومن زامله في الدراسة أو عاشره في صباه يوم كان يأخذ العلم عرف شدة ما كان يحمل نفسه من تعب وما كان به يرهقها من عنـاء مما لا يطيقه إلا العصاميون الأفذاذ.

وخصلة ثانية جديرة بالتنويه عرف بها الراوي، هي سعة اطلاعه، فما خاض سماره في حديث إلا شارك فيه بل أفاض في موضوعه وأفاد السامعين بتعليقاته، وفطن إلى دقائق في الموضوع حتى يبلغ غاية المدى. وأجود ما كنت تسمع منه الآداب العربية والعـلوم الاسلامية وخاصة تعليقاته في التفسـير. أما اطلاعه على التاريخ العربي بفروعه كلها جاهلية أو إسلامية، أموية أو عباسية أندلسية أو الخانية، فكان فيها حجة وترجيحه عليـه المعول. وليس بين شيوخ الادب وعلماء العربية في العراق قاطبة من يدانيه في الضبط، فاللحن تفشى عند الخاصة بله العامة. وعلة ذلك عدم الركون إلى التحقيق وإجهـاد النفس بمراجعة المعاجم، فنلفظ الكلمة كيفما اتفق دون أن نكلف أنفسنا الاخذ عن القاموس أو ضبطها من المعاجم، ومرجعنا السماع الملفوظ. وقد كان من أماني الأستاذ المرحوم فرض رقيب يثق به على الاذاعة تعرض عليه خطب المتحدثين عن منبرها، واعراب صعاب الكلمات بالشكل، وتنبيههم إلى الأخطاء الشائعة؛ لأن جمهور السامعين يحسبون صحة كل ما يلقى، وهنا البلوى، فيشيع التقليـد ويكثر الخطأ، ويساء إلى العربية عن طريق الجهات التي تقصد خدمتها. وكم كان رحمه الله يغتم لالقاء بعض أولئك المتفاصحين الذين يكلفون بتقليد الممثلين المصريين، وفاتهم أن البون شاسـع بين حوار الممثلين وقراءة المواضيع آدبية أو علمية، فتراهم يعطون بالحرف وحقه القصر مثلا، ويقفون على ما لا يصح الوقوف عليه كاسم الموصول قبل الاتيان بصلته، أو على الموصوف قبل إكمال صفته، وكم سمعنا خطباء يقفون على حرف الجر وأكثر ما كان يسوءه أولئك الذين يتقعرون ويتفيقهون بنطق الكلمات فـيزدردون الحروف بحيث لا يتضح حرف عن آخر. وكم نعى على الاذاعة إهمالها هذه الناحية أوفسحها المجـال لبعض الناشئين ممن لا يتوافر فيهم النضوج؛ لأنه يعدها أخلق أداة وأنفع وسيلة لتهذيب الجماهير.

وبعد فخسارتنا بفقد الراحل لا تعوض، وفراغه لا يسد. آجزل الله لنا الأجر، وألهم آله وذويه الصبر وتغمده بعفوه ورضاه.

جمال الألوسي

التحليل النفسي والأحلام

استرعى نظري عنوان «حلم ليلة من ليالي الصيف». وما قرأته إلا اعتقاداً مني بأني قد أجد فيه شيئاً من التسلية أو أعثر فيه على مادة أعالج فيها شيئاً مما أعرفه عن تأويل الاحلام. فاذا بي أجد فيه صورة ناطقة حيـة سريعة الحركة تفيض بكل ألوان الفن للأستاذ عبدالرحمن صدقي. وإذا بي أجد فيه مع هذا كله إحياء لذكرى زوجته المحبوبة بصورة لم تسبق له ولا لغـيره من قبل. فقـد سبق له أن خـلد ذكرى حبـه لزوجته بقطعه

الفنية ومنظوماته الشعرية الملتهبة الفياضة .

وللأحلام في نظر المشتغلين بالتحليل النفسي تأويلات كل مايسوغ الأخذ بها أنها ساعدتنا فعلا في كشف مجاهل الحياة العقلية اللاشعورية كشفا أدى إلى نتائج قاطعة في شفاء الحالات العقلية وفي تفسير كثير من الظواهر الانسانية .

وفي حلم عبد الرحمن : مرآة ، وكسوة جديدة أعجبه منظرها ، ثم زوجته ، ثم خوف من الجنون . وفي الحلم موكب عرس بالشموع وسيدة محتشمة، أشاحت بوجهها مجفلة مما رأت .

ويقال إن للأحلام عادة ما يسمى محتوياتها الظاهرة وهي أول وصف الحلم ؛ وله كذلك محتوياته الباطنة . . ومما يوضح هذا أني كنت نائما في حجرتي بانجلترا وكان المطر شديداً جداً ، فكانت قطراته الكبيرة تضرب زجاج النافذة من الخارج ضربا سريعا متواليا ، فكان أن رأيت نفسي في ساحة القتال أسير في أحد الخنادق وصوت المدفع الرشاش «المترليوز» خارج الخندق مستمر لا ينقطع . وكان قاع الخندق من الطين المبلول ، وكنت عاري القدمين أغوص بهما في هذا الطين . وكان كما يرى القارئ حلما مزعجا قمت منه منزعجا حقا ، فأدركت أن صوت الرصاص تأويل نفسي حسي لصوت قطرات المطر ، وأدركت أن إحساس الغوص في الطين تأويل نفسي حسي لاحساس العرق في أرجلي إذ لبست في تلك الليلة جوربا سميكا من الصوف كانت قد صنعته لي صاحبة المنزل الذي كنت أسكن فيه .

فلو أني أخذت الحلم بالصورة التي سردتها مع ربط أهم عناصره بأهم عناصر المؤثرات الحسية المحيطة في لحظة وقوع الحلم لبدا ذلك كافيا . ولكن ما العلة في أن صوت قطرات الماء تحول إلى صوت طلقات الرصاص ولم يتحول إلى صوت موسيقى للرقص ، وكان فيه من حسن الايقاع وجماله ما يكفي لذلك ؟ العلة في هذا أن لدي خوفاً من العذاب لذنوب اقترفتها في صغري . فهناك الاحساس اللاشعوري بالذنوب ، والاحساس اللاشعوري بالتهديد بالعذاب .

ولعل حلما آخر يوضح ما أقصد ، وهو حلم لشاب على درجة بالغة من الذكاء والتعمق في التفكير الفلسفي . قرأ في الفلسفة وفي الالهيات وفكر فيهما كثيراً جداً . وفي يوم من الأيام أبلغني أنه رأى في الحلم ربه يجلس على عرش كبير ويمر عليه المؤمنون فيعطيهم شرابا أبيض اللون حلو المذاق يتقبلونه باسمين شاكرين ، ثم يمر عليه غير المؤمنين فيقذفهم بسائل ملتهب أحمر اللون يؤلمهم ويشويهم . ثم يقول لهم إنه عفا عنهم أجمعين .

وقد نظن لأول وهلة أن الحلم كما ذكرناه يفسر نفسه . ولكن الشاب قص حلمه وانتهى منه ثم استرخى في جلسة وتأوه تأوها عميقا ثم قال : «ولم لا يكون الوالد مثل هذا الاله ؟»

وكان للشاب والد يقابل خطأ ابنه مقابلة قاسية ، فهو لا يعذر ولا يغفر ولا يرحم . وللشاب مع والده قصة طويلة تمتد بنا إلى طفولته الأولى ، وفي القصة نجد مزيجا من الاعجاب والسخط والحب والكراهية .

ويمكننا أن نذهب في الحلم إلى أبعد من هذا في كشف المحتويات الباطنة . فالسائل الأبيض رمزيته والسائل الأحمر رمزيته . . . وهكذا .

وإذا أردت أن أتوغل في حلم عبد الرحمن فلا بد من أن أتوغل في حياته ، وفي طفولته ، وفي ظروفه الحالية . . . إلى غير ذلك . ولكن يمكنني مع ذلك أن أتفق معه في تأويله الذي نشره ، على أن السيدة المحترمة المحتشمة هي والدته التي يطمئن إليها ، ويسكن إلى حنانها ، وقد سكن إليه منذ ولادته . فالعقل انما ابتدعها في الحلم لحماية النائم من حالة عقلية حادة شاذة . فبظهورها وصراحتها اختفى الموكب واختفى الحلم كله . ولكن يلاحظ أنها

صرخت كأنها لا توافق على هذا الذى كان على وشك الحدوث ، وكان من مقدماته الموكب والسترة الجديدة . ففى الحلم فى رأيى رغبة ملحة فى اللاشعور للعودة إلى الحياة الزوجية . ولكن يعوق العقل أزاءها أمران كلاهما على جانب كبير من الأهمية : أحدهما أن زوجة عبد الرحمن ما زالت حية فى نفسه ، فهو إما أن يعيش معها وهذا محال ، وإما أن يعيش مع غيرها وهذا محال قطعا . والأمر الثانى ما للأم عبد الرحمن من مكانة قوية فى نفسه بلغت من نفسها درجة لا يحتمل مع عيشها معه أى حل آخر ، خصوصاً وقد ضمته إلى صدرها وأعادته إليها عند ما أدبرت عنه الزوجية الهنيئة .

هذا ما يفسر فى رأيى ما بالحلم من خوف وانزعاج واضطراب . فالعودة إلى زوجة يعتقد الحالم أنها ماتت لا يكفى لظهور هذه الانفعالات العنيفة .

هذا تفسير قد لا يقبله عقل الحالم لأول وهلة ؛ إذ قد يتناول مكنونات اللاشعور . وهذه المكنونات لا سبيل للبلوغ إليها بالعقل الواعى ، عقل المنطق والحياة اليومية .

والله أعلم .

عبد العزيز القوصى

شهريات

شهرية السياسة الدولية

يقال إن السياسة العالمية في هذا الشهر، قد أتيح لها شيء من الدعة والاسماح، وإن العالم سيستقبل العام الجديد هادئاً مطمئناً إلى حد ما. ومصدر ذلك فيما يقال هو أن الاجتماع الأخير لهيئة الأمم المتحدة قد انتهى إلى نتائج رضى عنها واطمأن إليها الساسة المنتصرون؛ فقد خفت حدة الخلاف بين الكتلتين المختصمتين: كتلة السكسونيين من ناحية، والروسيين من ناحية أخرى. فلم يكن بين الخطباء في هيئة الأمم المتحدة ولجانها ذلك الصراع العنيف، الذي كان ملحوظاً حين اجتمعت هيئة الأمم المتحدة في لندن، أو حين اجتمع مؤتمر الصلح في باريس، بل كان الخلاف يشتد ويحتد أحياناً حتى ينذر بالخطر، ثم ينتهي آخر الأمر إلى نوع من التراضي يرتاح إليه المختصمون جميعاً وهذا كله حق ليس فيه شك. وهناك حق آخر ليس فيه شك وهو أن اجتماع هيئة الأمم المتحدة الأخير قد انتهى إلى الاتفاق على طائفة من المسائل كان يظن أن ليس إلى الاتفاق عليها من سبيل. فقد تم الاتفاق مثلا على شيء من التقدم نحو تخفيض التسلح، والاشراف على القنبلة الذرية وما يشبهها، أو يقاربها من الأسلحة الفتاكة، وعلى أن يكون هذا الاشراف غير خاضع لحق الاعتراض الذي تستمسك به الدول الكبرى. بل أتيح للهيئة التي ستشرف على تخفيض التسلح حق التفتيش والتثبت داخل حدود الدول مهما تكن. وما من شك في أن هذا الاتفاق خطوة قيمة في سبيل التراضي والتعاون بين الدول الكبرى. ولكن الاندفاع في التشاؤم شر، كما أن الاندفاع في التفاؤل ليس أقل منه خطراً. فليسجل هذا الاتفاق الذي تم في شيء من الرضا. ولكن في كثير من الاحتياط. فاتفاق المختلفين في قاعة الاجتماع بهيئة الأمم المتحدة شيء. وتنظيم الاجراءات العملية لتنفيذ هذا الاتفاق، ثم تنفيذ هذا الاتفاق بالفعل في أمانة وصدق واخلاص شيء آخر. وكل ما يمكن أن نقرره هو أن ساسة المنتصرين قد افترقوا على شيء من تقارب وجهات النظر؛ فهم سيستقبلون العام الجديد في شيء من الأمن الموقوت. ولكن للمسائل الكبرى التي هي مثار الخلاف بين المنتصرين ما زالت قائمة لم تمس إلى الآن. فأمريكا مستأثرة بالقنبلة الذرية لم تفض بأسرارها بعد، ولم تبح إعدام ما أنشئ منها ولم تسلم بوقف المضي في إنتاجها. كل ذلك مرهون بتمام الاتفاق، وتمام إنفاذه في دقة وأمانة وإخلاص.

وكذلك تقاربت وجهات النظر في قضيتين خطيرتين: إحداهما القضية الأسبانية، فقد كانت روسيا وفرنسا تطالبان بقطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع أسبانيا، وكانت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة تأبيان هذا كل الاباء، فتم الاتفاق على أن تستدعى الدول سفراءها ووزراءها المفوضين من مدريد، وتبقى السفارات والمفوضيات يشرف عليها القائمون بالأعمال، ويراقب مجلس الأمن

تطور الأمور فى أسبانيا . وقد يكون لهذا الاجراء أثره فى إنقاذ الشعب الأسبانى من نظام الجنرال فرانكو ، وقد لا يكون . ولكن المهم هو أن الدول قد استطاعت أن تصل إلى صيغة يمكن الاتفاق عليها .

أما القضية الثانية ، فهى قضية الخلاف بين الدولة اليونانية وجاراتها الموالية لروسيا . وقد انتهى مجلس الأمن فيها إلى اتفاق قد يجدى وقد لايجدى ، ولكنه اتفاق على كل حال . وخلاصته أن تنشأ لجنة دولية للتحقيق ، تزور البلاد المختصة ، وترفع تقريرها إلى مجلس الأمن . وواضح أن كل هذه الألوان من الاتفاق تقوم على التراضى الذى ينزل فيه كل من المختصين عن بعض مايريد ؛ فهى اتفاقات ليست حاسمة ولا ملغية للمشكلات القائمة . فكما أن مشكلة القنبلة الذرية لاتزال قائمة ، فنظام فرانكو لايزال قائماً فى أسبانيا والاحتلال البريطانى لايزال مستقراً فى اليونان والحرب الأهلية لاتزال مضطرمة فى اليونان أيضاً . وهنــاك مشكلة شغلت العالم عاماً وأكثر من عام ، وقد أخذت تنحل فى هــذه الأيام ، دون تدخل من مجلس الأمن ولا من هيئة الأمم المتحدة ، وهى مشكلة إيران . فقد اقتحمت جيوش السلطة المركزية أذربيجان ، وقضت على استقلالها الذاتى ، واستقرت على الحدود الروسية الايرانية ، واستردت سلطان الحكومة المركزية على الأرض الايرانية كلها ، لم تعترض على ذلك روسيا ، ولم تؤيده بريطانيا العظمى تأييداً ظاهراً . ولكن من سبق الحوادث أن نقرر انتهاء المشكلة الايرانية إلى غايتها ؛ فالدول المنتصرة تنظر صامتة فى ظاهر الأمر إلى تطور هــذه المشكلة على هــذا النحو ، ولكننا سنرى بعــد انتهاء الانتخابات الايرانية ، وقيام الحكومة الجديدة كيف تلائم هــذه الدول المنتصرة ذات المصالح المعقدة ، والمطامع التى ليست أقل تعقيداً من مصالحها ، بين مواقفها وبين النظام الجديد .

والحقيقة الواقعة التى لايختلف فيها اثنان هو أن كل هذا الاسماح الذى طرأ على السياسة العالمية فى هذه الايام ، مصدره تغيير فى الخطة الروسية . فقد عمدت روسيا من غير شك إلى شئ من اللين والاعتدال ، ونزلت عن كثير من تشددها فى كثير من المسائل . فما مصدر هذا التغيير ؟ يقول المتعجلون إن مصدره الحزم الانجليزى الأمريكى الذى أشعر روسيا بأن تشددها منته إلى الكارثة . ونعتقد نحن أن مصدره دهاء السياسة الروسية ، فمن الخطل أن نظن أن روسيا كانت مصممة كل التصميم فى تشددها ، وإصرارها على العنف ، وإنما كانت تتشدد وتسرف فى التشدد ، وهى تعلم حق العلم أن خصومها لن يسلموا لها بكل ماتريد ؛ فهى تدافع عن وجهة نظرها ما وسعها الدفاع وتطلب الكثير لتظفر بالقليل . ومن أخطأ الخطأ أن يظن أن السياسة الروسية قد انهزمت أمام السياسة السكسونية ؛ فالبلقان مازال خالصاً لروسيا ، لايستثنى منه إلا اليونان ، ومطالب روسيا مازالت قائمة فيما يتصل بالمضايق ، وقد وافقت روسيا آخر الأمر على معاهدات الصلح المختلفة ، بعد أن ظفرت بأقصى ما كان ينتظر أن تظفر به . ويمكن أن يقال إن المشكلات التى كانت تواجه المنتصرين لم تحل إلى الآن حلا حاسماً ، وإنما موعد هذا الحل الحاسم هو اجتماع وزراء الدول الكبرى فى موسكو بعــد شهرين .

هنالك . وهنالك ليس غير ، نستطيع أن نتبين أيمضى العالم حقاً إلى التعاون والاتفاق ، أم إلى التنــابذ والاختلاف . ففى الاجتماع المقبل ستتضح المشكلة الكبرى التى تدفع أوربا إلى سلم مستقرة ، أو تهيئها لحرب العــالمية

الثالثة ، وهى مشكلة الصلح الذى يراد أن يفرض على ألمانيا .

وبينما تجرى السياسة العالمية العامة على هذا النحو من التقارب الذى يدعو إلى الاطمئنان ولا يعفى من القلق ، تحدث فى غرب أوربا أحداث لها ما بعدها ، ولعلها أن تكون أبعد أثراً فى المستقبل العالمى القريب من كل هذا اللغط الذى امتلأ العالم به أثناء اجتماع هيئة الأمم المتحدة . ففى بريطانيا العظمى لا يكاد ينتهى الخلاف الذى شجر فى حزب العمال ، واضطر الحكومة البريطانية إلى عرض الثقة ، حتى يثار خلاف آخر بين العمال دائماً ، وحول السياسة الخارجية البريطانية دائماً كذلك .

والخلاف فى هذه المرة خطير ؛ فالمتطرفون من العمال يرون أن حكومتهم لم تبر بوعدها ، ولم تيسر للديمقراطية سبلها فى الخارج ، ويرون أن حكومتهم اشتراكية فى بريطانيا العظمى مؤيدة للرجعية خارج بريطانيا العظمى . وضغطهم هذا يضطر الحكومة إلى ظاهر من التساهل ، ولكنها لا تكاد تقدم على هذا التساهل الشكلى حتى يسخط المعارضون من المحافظين ، ويصيح المستر تشرشل فى مجلس العموم بأن حكومة العمال تدفع الامبراطورية إلى الانحلال .

وكذلك تجد الحكومة البريطانية الاشتراكية نفسها بين نارين : نار تأتيها من اليسار من أتباعها المتطرفين ، ونار أخرى تأتيها من اليمين من خصومها المحافظين . وقد يكون من الحق أن نهمل نيراناً أخرى تواجهها من خارج بريطانيا العظمى ، وتأتيها من هذه المشكلات الكثيرة التى تتعقد فى كل يوم ، وتزداد تعقداً من يوم إلى يوم فى أكثر أرجاء الامبراطورية : فى الهند ، وفى بورما ، ثم فى مناطق النفوذ كالشرق الأدنى ، والشرق الأوسط مثلا .

فالذين يؤمنون بقوة الامبراطورية البريطانية وقدرتها على مواجهة المشكلات وقهر الصعاب ، كما كانت تفعل من قبل ، فى حاجة إلى أن يعيدوا النظرة فيما كونوا لأنفسهم من رأى ؛ فقد خرجت الامبراطورية البريطانية من الحرب منتصرة ، ما فى ذلك شك ، ولكنها لم تنتصر وحدها ، وإنما انتصر معها قوم آخرون ، لعلهم أن يكونوا أعظم منها قوة ، وأشد منها بأساً ، وأكثر منها ثراء ، وأقدر منها على مواجهة الصعاب . وقد بذلت الامبراطورية البريطانية أثناء الحرب ، وعوداً أسرفت فى بذلها ، وآن أوان الوفاء بها ، وكانت تظن أنها تستطيع أن تعد اليوم لتخلف غداً ، ولكن الشعوب التى تلقت هذه الوعود لم تكن عابثة ، ولا هازلة ، وإنما كانت جادة كل الجد ، وهى الآن تطالب بتحقيق ما بذل لها من الوعود .

وفى فرنسا تم الانتخاب للجمعية الوطنية ، على النحو الذى عرفه القراء ، والذى لم يظفر فيه حزب بالكثرة المطلقة ، وجرت انتخابات مجلس الجمهورية ، وانتهت على النحو نفسه . فأصبح أمر الحكم فى فرنسا من أشد الأمور عسراً ، لا يستطيع حزب أن يستقل بالحكم إلا أن تؤيده الأحزاب الأخرى . وقد طالب الشيوعيون ، وحزبهم أعظم الأحزاب ، برياسة الوزارة ، فأبتها عليهم الأحزاب الأخرى . ثم طالب بها حزب الجمهوريين الشعبيين فرد عنها ، واضطرت فرنسا إلى أن تلجأ إلى الحزب الاشتراكى ، وهو من أحزاب الأقلية ليعطيها رئيساً للوزارة ، فأعطاها زعيمها العظيم المسيو ليون بلوم . ولكن هذا الزعيم لم يستطع أن يؤلف بين المختلفين ، فاضطر إلى تأليف وزارة من حزبه الاشتراكى ، وظهر فى فرنسا هذا المظهر الغريب ، حزب من أحزاب القلة يؤلف الوزارة وتؤيده الجمعية الوطنيه تأييداً إجماعياً ؛

لأنها لا ترى مخرجاً غير هذا من الحرج .

وهذه الوزارة موقوتة بالطبع ، ستستقيل حين ينتخب رئيس الجمهورية . وسنرى كيف تستقبل فرنسا أمرها ، وكيف تتكون فيها الكثرة التي تلي الحكم : أتكون كثرة تميل إلى الشمال ، أم تكون كثرة معتدلة متوسطة .

ولكل هذا أثره في توجيه أوربا الغربية ؛ فالأمر ليس إلا صراعا بين اليساريين الذين يريدون أن يأخذوا من رأس المال أكثر ما يستطيعون ، وأصحاب اليمين الذين يريدون أن يحتفظوا من نظام رأس المال ، بأكثر ما يستطيعون أن يحتفظوا به .

طه حسين

شهرية المسرح

واصلت الفرقة الفرنسية للأوبريت تمثيلها طيلة شهر نوفمبر على مسرحى حديقة الأزبكية ودار الأوبرا الملكية . فقدمت روايتين أخريين هما « الأميرة تشارداس » و « مامزيل نيتوش » . وبهاتين التمثيليتين انتهى موسم تلك الفرقة . وقد جاءت إلى مصر فرقة فرنسية أخرى لتمثيل الملهاة الخفيفة ، وهى تواصل حفلاتها فى المسرحين المذكورين آنفا .

أميرة القشارداس (١)

وليست تلك الأميرة إلا الراقصة سيلفيا فارسكو التى يريد الأمير إدوين أن يتزوج بها . ولكن أسرته وهى من الأسر العريقة الأصل تمانع فى أمر هذا الزواج وتعمل على انفصال الشابين ، وعلى زواج الأمير بابنة عمه ستازى . ولكن حب الأمير لسيلفيا يحمله على التعهد لها بالزواج منها متى وجد إلى ذلك سبيلا . وما يكاد الأمير يفارق سيلفيا حتى تعلم بأمر خطبته لستازى فتهرب مع صديقها نيكو .

وفى الفصل الثانى نجد الأمير فى أسرته تلاحقه ستازى بحبها وهو ينفر منها ويبتعد عنها . ويدخل فجأة نيكو وسيلفيا التى يعتقد الجميع أنها من النبلاء . غير أن الأمير يتعرف بها ويتودد إليها ويطلب إليها أن تتزوج منه ما دامت أسرته تعتقد أنها نبيلة . ولكن هذا العرض يقع وقعاً سيئاً من نفس سيلفيا التى تعلن شخصيتها و تترك القصر غاضبة على الأمير .

وفى الفصل الثالث يتضح للأمير الأب أن امرأته ليست إلا راقصة كانت تعمل فى المراقص قبل أن يتزوج منها . فأمام هـذه الحقيقة يضطر أن يأذن لابنه فى الزواج من سيلفيا .

وقد جاء إخراج الرواية مرضيا ، فالمناظر جميلة أنيقة ، والرقص لا يخلو من رشاقة وجمال ، وخاصة استعراضات الأختين شاسينى فى الفصل الثانى . كما أن أداء الممثلين لأدوارهم لم يكن سيئاً . قامت سوزى ريفى بدور ستازى فبدت فتاة بلهاء . ومثل ليون فيرلى دور الأمير العاشق وقد أحسن فى الأداء فقط لا فى الغناء . أما نادية دوتى ، فقامت بدور سيلفيا فارسكو الراقصة ، ولعل الجمهور لم يصفق إلا مجاملة لها ، وخاصة بعد أن فاجأته بأغنية ثم بقصيدة من بول جيرالدى لا صلة لهما بالمسرحية مطلقا

---

(١) *La Princesse Czardas.*

مامزيل نيتوشه[1] تأليف هـ . ميلهاك و ا. ميلو

اختتمت الفرقة حفلاتها بملهاة « مامزيل نيتوش » من تأليف هـ. ميلهاك و ا. ميلو

ومامزيل نيتوش هى دنيز فلافينى التلميذة فى أحد أديار فرنسا تتلقن فن الموسيقى على يد المسيو سلستان لاعب الارغن . ولكن المسيو سلستان اسم آخر هو فلوريدور وقع به على أوبريت من وضعه وتسمى به فى الاوساط المسرحية . ولا يعلم أحد من شأن صلة سلستان الوقور بالأوساط المسرحية سوى تلميذته تلك . وقد انكبت على دراسة أدوار المسرحية وألحانها حتى أتقنتها تماما . وفى ليلة أول عرض لتلك المسرحية تطلب رئيسة الدير إلى سلستان أن يعود بدينيز إلى منزل أسرتها فى باريس . ولكن سلستان يريد أن يشهد تمثيل المسرحية ، فترك دينيز فى أحد الفنادق تنتظره حتى يعود من المسرح .

وتجرى حوادث الفصل الثانى فى المسرح حيث تلحق دينيز بسلستان . وقد وصلت فى الوقت المناسب ، لأن الممثلة الأولى تشاجرت مع سلستان حينما علمت أنه جاء إلى المدينة مع فتاة جميلة وغادرت المسرح بعد الفصل الأول . ويقع المدير فى حيرة شديدة ، فالجمهور يطلب استئناف التمثيل ، ولا توجد للممثلة الاولى بديل . ولكن ها هى ذى دينيز تتقن الغناء وقد أحاط بها جمع من شباب ضباط المدينة يستمعون إلى أغانيها ، فيطلب إليها أن تقوم بالدور الخالى ، فتقبل أمام رجاء الجميع وتنجح فى أدائها ، حتى إن أحد الضباط يقع فى شرك حبها ويولع بها ولعا لا مثيل له . وهذا الضابط نفسه كان يريد خطبة دنيز تلميذة الدير . فيقلع عن هذه الخطبة وهو لا يعلم أن تلك التلميذة التى كان يريد الزواج منها هى الممثلة نفسها التى يكلف بها كلفا شديدا .

وتقضى دنيز تلك الليلة مع عشيقها الجديد وجمع من أصدقائه وتعود فى الصباح المبكر إلى الدير . وهنا يحضر الضابط العشيق إلى الدير ليعلن خطيبته التى لم يرها قط أنه أقلع عن الزواج منها لأنه يبادل الممثلة حبا بحب . غير أن الحوادث تتيح له أن يتحقق من أن ممثلة البارحة ما هى إلا خطيبته الاولى ، وهكذا تنتهى المسرحية بزواجهما .

وأحسن فى أداء دور سلستان مسيو ليون فيرلى وقد أثبت لنا أنه يتقن فن الكوميديا . فقد أخرج لنا شخصية سلستان إخراجا هزليا طريفا أعجب به النظارة أيما إعجاب . ولكن لم تشاركه فى نجاحه نادية دوتى التى كانت تقوم بدور دنيز . فهى لم تفرق فى تمثيلها بين تلميذة الدير الخبيثة التى تدعى الطهر وبين الفتاة المستهترة اللعوب التى تصبحها حين تترك الدير وتذهب إلى المسرح . غير أن غناءها قد أنسانا خطأها فى الاداء .

وما كادت تنتهى فرقة الاوبريت من موسمها التمثيلى فى القاهرة حتى استأنفت التمثيل فرقة فرنسية أخرى تعتزم عرض خمس مسرحيات مرحة .

---

(١) H. Mielhac et A. Millaud, *Mam'zelle Nitouche.*

جورج ومرجاريت لمارك چيلبير سوفاچون وچان وول . مقتبسة عن مسرحية لجيرالد سافورى. (١)

ومسرحية « چورج ومرجاريت » تعرض علينا حياة أسرة انكليزية تحيا حياة هادئة متصلة الهدوء لا يعكر صفوها أى حادث غريب ، فالأيام تتلاحق متشابهة .. الأب غارق فى مطالعة الجرائد وحل مسائل الكلمات المتقاطعة ، لا يبالى بما يجرى فى منزله من حوادث ألفها واعتاد خدوثها . والأم لا هم لها إلا إعداد الطعام والاستعداد لاستقبال الأصدقاء ومضايقة أبنائها أو بناتها بملاحظات صائبة حينا وخاطئة أحيانا . أما أبناؤها فثلاثة : فتيان وفتاة . أولهم شاب وقور رغم حداثة سنه . والثانى يميل إلى التهكم المرح وعدم المبالاة بالقوانين العائلية التى تحاول الأم أن تطبقها فى غير طائل على أفراد الأسرة. والثالث فتاة تنعم بالحياة ما استطاعت إلى التنعم سبيلا . ويدوم هذا الهدوء العائلى حتى يعلن الابن الأكبر أنه يرغب فى الزواج من الخادم ، والفتاة حبها لصديق من أصدقاء أخيها الصغير . يزول هذا الهدوء وتصبح حياة الأم جحيما ؛ فزواج ابنها بالخادمة يسيئها أولا لأنه يحرمها خادمتها النشيطة ، ويسيئها أيضاً لأنها تخور بابنها رغم بلاهته ، وتريد أن تزوجه فتاة من طبقته . أما الأب فلا يعكر هذان الحادثان صفاء حياته لأن حل مسائل الكلمات المتقاطعة يشغل كل وقته ، ولا يترك له فرصة لحل مشكلات أسرته . ولكنه أخيرا يرضى أن يهتم بشئون ابنته حتى تصل إلى مرامها وهو الزواج من الشاب التى تحبه . أما الأم فتصر على عدم الموافقة على زواج ابنها وتصب على الخادم اللعنات . ويحدث أن يهيئ لها ابنها مقابلة مع عشيقته تخرج منها راضية كل الرضا على الزواج .

وقد تكون المسرحية صورة صادقة من حياة أسرة انجليزية ، إلا أنها تصلح أيضا أن تكون صورة مطابقة لحياة أسرة مصرية أو فرنسية . فالأسرة البرجوازية عامة تتصف بعقلية خاصة وتحيا حياة خاصة . وهذه العقلية وهذه الحياة لا يختلفان فى مظهرهما العام مهما اختلفت البيئة أو البلد التى تعيش فيها تلك الأسر . فكل منا كان يرى على المسرح حادثا أو حوادث تجرى كل يوم فى منزله وبين أفراد أسرته ، بما يثبت أن الكاتب قد صدق فى تصويره ولم يغال رغم الأسلوب التهكمى الذى اصطنعه فى كتابة المسرحية .

ولم تكن القصة جيدة فحسب بل جاء أداء الممثلين لشخصيات المسرحية جيداً أيضا . حتى إن المشاهد نسى أنه يشاهد تمثيلية تجرى حوادثها على مسرح وفى حجرة جدارها من الورق المقوى ، وشعر أنه يشاهد خلسة حياة واقعية لأسرة برجوازية . لقد نجح الممثلون فى خلق الجو الذى تحيا فيه هذه الأسرة بأدائهم المتقن . فدام كريستيان ديلين فى دور الوالدة ، ومسيو جاستون روليه فى دور الوالد ، قد أثبتا أنهما فى فن الكوميديا بارعان . أما المسيو جى لوريكيه فأرى أنه جدير باشارة خاصة لتمثيله ؛ فقد ملأ المسرحية حياة ومرحا بادائه الطبيعى وتعبيراته التى تبعد كل البعد عن التصنع والمغالاة .

---

(١) Marc Gilbert Sauvajon et Jean Wool, *George et Margaret,* d'après la pièce de Gerald Savory.

القطار الى البندقية للويس فيرنوى(١)

« القطار إلى البنـدقية » هذا عنوان المسرحية الثانية التى قدمتها الفرقة . وهى إن لم تكن تضارع الأولى إتقانا فى الحوار فهى ملهاة مسلية متقنة الحبكة . تجرى حوادث الفصلين الأولين فى نيس حيث يقيم المسيو داردون مع ابنته مدام كارولين أنسلو . أما زوجها فانها لم تره منذ أكثر من شهرين ، فهو ناشر من كبار رجال النشر فى باريس ، تضطره اعماله إلى أن يمكث فى العاصمة بعيداً عن زوجه . ولكن هناك اتيين دى بواروبير وهو شاب صغير السن مولع بالزوجة ، وهى تبادله هذه العاطفة وتريد الزواج منـه ومغادرة أنسلو زوجها الاول . ويصل الزوج فجأة من باريس . وعبثا تحاول أن تفاتحه فى أمر غرامها ، إذ كانت الظروف لاتساعدها على ذلك ، فزوجها عاشق مولع بها يهيء لها سعادة قادمة تغريها كل الاغراء . ولما لم تجد سبيلا إلى اطلاع زوجها على حبها تتفق مع اتيين الصغير على الهرب إلى البندقية فى قطار الليل .

نحن فى الفصل الثانى فى منزل إتيين عشيق مدام أنسلو . كل شيء معد للسفر الذى يأزف موعده . وفجأة نرى أنسلو يدخل الحـجرة ويمكث مع اتيين يتحادثان عن ذكريات طفولتهما ، ثم ينتقلان بالحديث عن فن النحت الذى يتقنه العاشق الصغـير . ولا ينصرف أنسلو إلا بعد موعد القطـار . وتأتى مدام أنسلو غاضبة أشد الغضب لغدر عشيقها فتجده يائسا أشد اليأس . ولـكن سرعان ما يصبح هذا الغضب رضا وهذا اليأس سرورا ، فقد اتفق الاثنان على أن يعيدا الكرة فى الصباح وبينـا هما يضعان خطتهما يحضر أنسلو مرة أخرى وقد أعياه القلق على زوجته . فتهرب الزوجة من منزل عشيقهـا وتعود إلى منزل زوجها ، وتتحدث إليه بالتليفون لتطمئنه على مصيرها . ولـكن أنسلو لا يترك العشيق الصغير إلا بعد أن يقنعه بالسفر معه فى اليوم التالى إلى باريس ليعرض التماثيل التى نحتها .

وتجرى حوادث الفصل الثالث فى باريس حيث يقوم إتيين بنحت تمثال نصفى لانسلو . لقد مضى عليهما خمسة عشر يوما فى هذا العمل لم يكتب أحدهما إلى كارولين . وتدخل فجأة الزوجة وقد أغضبها غياب عشيقها وزوجها . وما تكاد تعلم أنهما يلتقيان كل يوم ويمضيان وقتهما معا حتى تثار من عشيقها وتوجه اللوم إلى أنسلو الذى أهملها كل الاهمال والزوج صـامت لا يدافع عن نفسه حتى غادر إتيين المنزل . ثم يعرض على زوجته أن تسافر معه ومع اتيين إلى البندقية . ولـكن الزوجة ترفض السفر وفى صحبتهما هذا الشاب الذى يحول بينها وبين زوجها . وهنا يبوح أنسلو بحيلته ، وهى أنه لم يهتم باتيين إلا ليحمل زوجه على أن تبغض هذا الشاب . ثم يعرض عليهـا السفر إلى البندقية فتقبل عن طيب خاطر .

ولم يحسن فى أداء دوره إلا مـدام كريستيان ديلين التى مثلت شخصية كارولين . والمسيو جاستون روليبه الذى أخرج شخصية الاب فى أسلوب هزلى رفيع . والمسيو جى لوريكيه وقد قام بدور العشيق . أما المسيو جاك فرومان وكان يمثل دور أنسلو فقد أبدى جموداً فى تمثيله أفقده السبيل إلى النجاح .

(١) Louis Verneuil, *Le train pour Venise.*

سعادة خمس وعشرين سنة لمدام جرمين لوفران (١)

وهذه مسرحية أيضاً تصور حياة الأسرة البرجوازية في فرنسا بتهكم وسخرية لا يخلوان من القسوة . فهذه والدة لها مبادئ أخلاقية شديدة لا تقبل أن يحيد عنها ابنها . فهي بمظهرها الخشن تنفر من حولها وتوحي بالاستقامة . وهذا والد كانت له مغامرة مع إحدى الغانيات قبل زواجه فأنجب منها طفلة خصص لها إيراداً لمدى حياتها ، واعتقد أنه بذلك تجنب عاقبة نزوته . ولكنه لم يكن ليعتقد في يوم أن ابنه سيقع في عشق الفتاة التي أنجبها من تلك الغانية ، فها هي ذي حياته تزداد تعقيدا وسعادته يهددها هذا الغرام بالانهيار . ولا بد من مخرج لهذا المأزق وخاصة أن الوالدة تحبذ زواج ابنها من عشيقته بعد أن عارضت بشدة في أمر هذا الزواج . وفجأة تتطور الحوادث في صالح الشابين المتحابين ، فان الوالد يشك في ان تلك الفتاة ابنته . فيذهب للقاء أمها ويسألها عن والد الفتاة فتجيبه بما يزيل شكه في أنه ذلك الوالد ثم تردف قائلة ولكن ابنك ليس هو ابنك . لقد خانته امرأته وها هي ذي خطابات منها لعشيقها تثبت ما تقول تلك الغانية . لقد خانت زوجها تلك المرأة البرجوازية المتحفظة ذات المبادئ الاخلاقية والاجتماعية القوية . ولكن ليس أمام الزوج إلا أن ينقذ سعادة دامت خمس وعشرين سنة بالصمت .

إن القصة في نفسها لا تدعو إلى الضحك أو إلى الهزل ، ولكن المؤلف عالجها بأسلوب ساخر ، وقد نجح في إبراز الناحية الهزلية من تلك الصورة المؤلمة لأسرة ريفية متحفظة غير أنه لم يكن دقيقا في تصويره بل كان مغاليا أحيانا في هذا التصوير .

وقد عهدت الفرقة في هذه التمثيلية إلى ممثلين جدد لم نرهم قبل الآن إلا في أدوار تافهة في المسرحيات السابقة ، وقد أثبت هؤلاء أنهم بالفن المسرحي ملمون ، فقد أدهشتنا مدام فابيين دارلاى بدقتها في التعبير في دور الوالدة ، كما أثبت لنا المسيو جوزيف لينار الذى مثل دور الموثق أنه ممثل هزلي قدير . ولا داعي إلى الكلام عن مسيو جاستون روليبه والمسيو جي لوريكيه ومدام كريستيان ديلين فالجمهور يعرف تماما قيمتهم الفنية في الملهاة وإتقانهم للأدوار التي تعهد إليهم . وقامت مدام ماريا ريجيس بدور الفتاة العاشقة ، فياليتها ما عشقت إذ ليس لها بالحب دراية ولا بالحزن أو بالسعادة إدراك .

رشدى كامل

---

(١) Germaine Lefrancq, *Vingt-cinq ans de bonheur.*

شهرية السينما

مغامرة سراتوجا (إخوان وارنر) (١)

وهو فيلم ، كما يدل اسمه على ذلك ، ملىء بالحركة والمغامرات . تجرى حوادثه فى عهد إنشاء السكك الحديدية فى أمريكا . وقد قيل عنه إنه إنتاج ضخم اختارته شركة ورنر للاحتفال بمرور عشرين سنة على تأسيسها . وقد يكون هذا الفيلم ضخما بالقياس إلى طوله والمدة اللازمة لعرضه ؛ وقد يكون ضخما أيضا بالقياس إلى تمثيله . أما بالقياس إلى قيمته من حيث القصة والاخراج فيمكن أن يعد إنتاجا عاديا لم يرتفع إلى ذروة الفن ؛ فليس فى قصته شىء من الطرافة أو الابتكار لأنها كثيراً ما تذكرنا بقصة « ذهب مع الريح » فثمة شبه كبير بين المغامرتين كليو دولين وسكارلت أوهارا : فكلتاهما تبحث عن زوج ثرى وتسلك الطريق نفسها للعثور على هذا الزوج المنشود . غير أن الثانية منهما كانت ترمى إلى شىء سام من وراء هذا الزوج وهو شراء الأرض الزراعية التى امتلكتها أسرتها ثم فقدتها من جراء الحرب الأهلية . أما الاولى فكانت ترمى إلى الانتقام من الرجال ، لأن أباها عذب أمها ولم يطب العيش لها معه . فاختلاف الدوافع عند البطلتين فى القصتين لم يغير شيئاً من هاتين القصتين ولا من حوادثهما إلا قليلا .

فكليو دولين أو مغامرة سراتوجا فتاة ولدت من أم مولدة وأب أبيض . قضت طفولتها فى باريس ولم تعد إلى أمريكا إلا لتنتقم لأمها التى لم تستطع أن تتزوج من أبيها ، على حين غدر هذا الأب بمحبوبته وتزوج من امرأة أخرى ، وترك لها ولأطفالها ثروة طائلة . وتنجح كليو أولا فى حمل أسرة أبيها على بناء مقبرة لأمها ووضع اسم دولين إلى جانب اسمها ، ولكنها تقبل مبلغا من المال لتترك البلد ولتكف عن مضايقة تلك الأسرة . وتنزح كليو عن نيو أورليانس إلى سراتوجا لتلحق بعشيقها كلنت مارون الذى يعرف تماما أن عشيقته تبحث عن زوج ثرى . فيدفعها ، فى أحضان بارت ڤون ستيد ، وهو شاب موفور الثروة يملك أسهما فى شركة للسكك الحديدية . يولع بارت بكليو التى تلقب نفسها فى هذا البلد الغريب بالكونتس ، ولكن هذا اللقب لا يغر بارت فهو يعلم تاريخ حياة كليو ويريد الزواج منها . غير أن الحظ يخونه : فكليو تشغف بكلنت مع فقره ، ولا تميل إلى بارت إلا لثروته ، وثروته مهددة لأن هناك قوماً يهاجمون سكته الحديديه لينزلوا من قيمة أسهمها . ويتدخل كلنت فى الأمر لأنه يملك بعض هذه الأسهم ، فيهاجم أعداء بارت وينقذ سكته الحديدية . ولكنه يعود من المعركة مصاباً باصابات ليست بخطيرة . وهنا ترى كليو أنه لن يطيب لها العيش إلا مع عشيقها القديم كلنت مارون . فكأن الحب قد تغلب على مطامع هذه المغامرة فجعلها تزدرى المال وتستسلم له نهائياً .

---

(١) Saratoga Trunk *(Warner Bros)*.

كان تمثيل إنجريد برجمان لدور كليو دو لين المغامرة تمثيلا رائعاً جديراً بالتقدير . وإن لم يكن من الأدوار التي تلائمها فقد جاء أداؤها لهذا الدور متنوعا مختلفا . فلم تقم به على وتيرة واحدة . وبهذا دلت على تفهم عميق للشخصية المزدوجة التي كانت تمثلها : فهي أولا مغامرة ، فكانت لعوبا ترسل ضحكة لها رنين يجذب الرجال ، تمشي فتتهادى في مشيتها حتى تسترعى الأنظار . وهي ثانياً أمام بارت تمثل دور الكونتس الفرنسية المتأنقة ذات العادات النبيلة ؛ لحديثها وضحكاتها وحركاتها ومشيتها تختلف عما كان لها من قبل حتى إنها تصل إلى اقناع من حولها بأنها من نبيلات فرنسا . ومن مميزات انجريد برجمان في تمثيلها التجاوزها إلى الاعتدال في التعبير حتى في المواقف المثيرة ، مما يدل على أنها ذات مواهب عالية رفيعة .

أما جارى كوبر فقد وجد في دور كانت الشخصية التي اعتاد أن يمثلها في أول عهده بالتمثيل ، وهي شخصية المغامر المستهتر وقد أتقنها بلا شك ونجح في إظهار مميزاتها : فنظراته تدل على الخبث والدهاء ، وحركاته على الخسة .

ومجمل الكلام عن فيلم «مغامرة سراتوجا» أنه إنتاج ناجح إخراجا وتمثيلا ، ولو أن قصته عادية ينقصها الابتكار والطرافة .

بشرى كامل

من كتب الشرق والغرب

هز القحوف

هذا كتاب طريف ألف فى العصر العثمانى لغرض التقليس والتندير على أهل ريف مصر وبيان ما هم عليه من فقر وبؤس وجهل ، ألفه شخص يسمى يوسف الشربينى ، وكان — على ما يظهر من كتابه — عالما واعظا ، وقد نظر من حوله ، فرأى السواد الذى كان يغطى أودية مصر فى العصر العثمانى ، ورأى معه تعاسة أهل الريف ، فنظم قصيدة سماها قصيدة أبى شادوف يصور فيها الشقاء المحيط بهم . والشادوف آلة معروفة فى مصر يسقى بها الزرع ، وقد يسمى أهل الريف شخصاً باسم أبى شادوف لغرض الضحك عليه والسخرية منه . ومن ثم سمى يوسف الشربينى قصيدته باسم قصيدة أبى شادوف . وهى قصيدة من بحر الطويل ، ولكن لا تظن أنها ألفت باللغة العربية فهى عامية خالصة ، وقد وصف فيها حياة رجل الريف فى عصره بجميع صورها وألوانها ، من أكله ، إلى عمله فى حقله ، إلى صلته بالحكومة فى عهده ، وهو يسوق ذلك فى فنون طريفة من الهزل والسخرية والفكاهة .

ولم يكتف يوسف الشربينى فى وصف حال رجل الريف بهذه القصيدة ، بل ذهب يشرحها على طريقة معاصريه فى شرح القصائد الجدية ، وهو شرح طويل اختار له هذا الاسم الغريب « هز القحوف » . وهو يتقدم هذا الشرح بقوله : « إن ممن على من نظم شعر الأرياف ، الموصوف بكثافة اللفظ بلا خلاف ، قصيد أبى شادوف ، فوجدته قصيداً ياله من قصيد ، كأنه عمل من حديد ، أو رص من قحوف الجريد . فالتمس منى من لا تسعنى مخالفته ، ولا يمكننى إلا طاعته ، أن أضع عليه شرحاً يحل ألفاظه السخيمة ، ويبين معانيه الذميمة ، وأن أتحفه بشرح لغات الأرياف ، وذكر فقهائهم الجهال وفقرائهم الأجلاف . فياله من شرح لو وضع على الجبل لتدكدك . ولو نقش على عمود الصوارى لتحرك . وهو شرح عديم النظير فى الكثافة ، لكونه فى معنى أوصاف الريافة ؛ وليس له شبيه فى الثقالة ، لكونه فى وصف ذوى الرذالة . واعلم أن كل شرح لا بد له من اسم يناسبه ، وعلم عليه يقاربه ، وقد سميت هذا الشرح « هز القحوف بشرح قصيد أبى شادوف » . وأطلب من القريحة الفاسدة ، والفكرة الكاسدة ، الاعانة على كلام أعرفه من بنات الأفكار يحاكى كلام ابن سودون ؛ فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة ؛ لأن النفوس الآن متشوقة إلى شىء يسليها من الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم » .

وأكبر الظن أن هذه الهموم والغموم التى يشير إليها الشربينى ، إنما هى ما كان يصبه العثمانيون وأحلافهم من المماليك على رءوس المصريين من أسواط العذاب . ودائماً نجد مصر حينما يجثم على أنفاسها كابوس دولة غاشمة تنفس عن همها وغمها بالفكاهة الساخرة على نمط ما صنع ابن مماتى بقراقوش فى كتابه «الفاشوش» وعلى نمط ما يصنع الآن يوسف الشربينى . وهو لا يتخذ من شخصية بعض

الحكام العثمانيين أو المماليك ما يريد من هزل وسخرية ، فقد كان الحكم العثماني قاسيا ، وكان الناس لا يستطيعون أن يعرضوا فيه لحاكم بالتشهير فضلا عن الفكاهة والتندير . ومن أجل ذلك ارتد الشربيني إلى الشعب يصور ما هو عليه من فقر وجهل ، في أسلوب لاذع من السخرية والتهكم ، وقد صور أثناء ذلك ظلم الكشاف والملتزمين ومن يجمعون الأموال والضرائب ، كما صور نظام السخرة أو ما كانوا يسمونه « العونة » وكيف كان يسخر الملتزمون أهل الريف في «الوسايا» بدون أجر ولا ما يشبه الأجر . ولو أن الشربيني أفاض في تصوير هذه الجوانب لكان كتابه طرفة تاريخية حقا ، ومع ذلك فقد ألم بها إلماما وألمع إليها إلماعا ، وإن كان لم يتسع فيها فانه اتسع في وصف النواحي الاجتماعية للناس في عصره . وكتابه من اجل ذلك يعتبر وثيقة هامة في تاريخ هذا العهد وتاريخ مصر فيه .

وقد قسم الشربيني شرحه «هز القحوف» إلى جزأين كبيرين : جزء خصصه بالتندر على أهل الريف وتصوير ما هم فيه من جهل وفقر ، وجزء خصصه لشرح قصيدة أبي شادوف وبيان ما خفي من ألفاظها وغمض من معانيها . وإذا رجعنا نستعرض الجزء الاول وجدناه يقول في مفتتحه إن أهل الريف « ليس لهم انضباط . وأحوالهم شياط وعياط ، ووزدهم عند الأسحار ، التفكر في الغنم والأبقار ، وتسبيحهم في الظلام ، هات النبوت والحزام ، وحط العلف ، وهات الكلف ، قال الشاعر :

لا تسكن الأرياف إن رمت العلا | إن المذلة في القرى ميراث
نسبيحهم هات العلف ، حط الكلف | علق لثورك جاءك الحراث

الحق عندهم مضاع ، والباطل عندهم مذاع

ويترك الشربيني ذلك إلى بيان أسماء أهل الريف وكناهم وألقابهم حتى يدل على قبح ذوقهم ، وهو يطيل في ذلك إطالة كبيرة . ثم يصف عرسا من أعراسهم ليتندر على أفعالهم ، وليضع تحت عين القارئ جانبا من معيشتهم ، وقد تظرف فروى عن بعض شعرائهم :

يا عروسه يا ام غالى | إنجلى ولا تبالى
إنجلى يا وجه بومه | زاعقه وسط الليالى
وجهك بالنقش يشبه | وجه ضبعه في الرمال

وينتقل الشربيني بعد ذلك إلى بيان ما كان عليه أهل الريف من غفلة وبله وفقر . فمن ذلك أن شخصاً منهم رأى في مصر سمك (البساريا) فظنه الكنافة التي يتحدث الناس عنها . ويرميهم الشربيني دائما بقلة الذوق ، فمن ذلك أن شخصاً منهم لقي صديقاً له وقد اشترى بردة من الصوف ، فقال له : « دي ردتك ، فقال له : عبدك وجاريتك ، فقال له: بكم اشتريتها ، فقال له : بداهية كبيرة ، فقال له : تلفك وتلف (وليداتك) في الشتاء . » ومن ذلك أن رجلا منهم اشتكى شخصاً إلى القاضي قائلا إنه نزل حقله بدون إذنه وأخذ منه برسيما لدابته . فأحضر القاضي المدعى عليه وسأله فاعترف إلا أنه اتهم المدعى بأنه ضربه ضربا مبرحا . فسأل القاضي المدعي كيف تضربه ، فرد عليه قائلا : « أتاييك يا قاضي

تور ، وأنت إذا نزلت غيطى ، يا هل ترى أضربك ، أكسر قرنك ، ولا أخليك تطلع سالم ! » . ويقص الشربينى بعد ذلك نوادر تدل على الجهل الذى كان سائداً حينذاك ؟ فمن ذلك أن رجلا منهم سأل آخر : «إيش هجاك بربق ؟ فقال له : به ، ره ، به ، قاف ، واو ، فقال له : إيش عرفك أن فيها واو ؟ فقال له : دلتنى عليها النقطة التى فوق الواو ! فقال له : إن عشت تبقى فصيح لاخوالك . » وصلى رجل منهم ، فلما قرا الفاتحة وبلغ قوله تعالى : « إهدنا الصراط المستقيم » أبدل النون ميا ، وقال : إهدموا الصراط المستقيم . ومن الطرف التى يقصها الشربينى فى هذا الباب ان امرأة شكت ابنها المعلم الذى يعلمه وقالت إنه يؤذينى أثناء الصلاة . فلما سأله لماذا تفعل ذلك ؟ قال : لأن صلاتها «لافيش ولاعليش» سلها كيف تصلى . فطلب منها المعلم أن تقرأ الفاتحة ، فقالت توا : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . إذا جاك الحاج نصر الدين افتح له الباب ولو كان طواب » فقال لها المعلم : قاتلك الله ماهذا قرآن ماعدا البسملة والحمدلة وزجرها وطردها . ويترك الشربينى عوام أهل الريف إلى فقهائهم ، فيتسع فى التندير على جهلهم اتساعا شديداً . فمن ذلك أن شخصا سأل أحدهم عن تفسير قوله تعالى : « يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » ما معنى أقلعى فقال هذا الجاهل : أى سيرى مثل المراكب المقلعة . ومن ذلك أن فقيها منهم ذهب إلى أحد العلماء فى مصر وطلب منه أن يقرأ عليه أجرومية النحو على مذهب الشافعى ، وهو مذهب معروف فى الفقه الاسلامى . وسعى رجل من الأعيان عند قاضى القضاة بمصر كى يعين فقيها منهم ببعض المحاكم ، فلما حضر عنده سأله هل تحفظ القرآن قال : نعم ، ايد الله مولانا القاضى ، وعندى مصحف مليح بخط المؤلف . فتحقق القاضى جهله وطرده . ويروى الشربينى أن فقيها منهم دخل على الشيخ الحميدى شيخ القرائين فى عصره فقال له : هل عندك مختصر القرآن ؟ فقال له : اجلس . ثم تصادف أن شخصا دخل عنده وطلب منه مختصر مسلم المعروف فى الحديث ، فلما قال له أريد مختصر مسلم هل هو عندك ؟ قال له : نعم خذ هذا ، وأشار إلى فقيه الريف . ولما سئل لماذا يريد هذا المختصر قال لأن الأولاد يحفظونه بسرعة عن القرآن فهو طويل ، وحينئذ ضحك عليه الحاضرون . ويعرض الشربينى بعد ذلك طرفا من خطبهم يوم الجمعة عرضا لا يلم به القارئ حتى يغرق فى الضحك . واستمع إلى هذه الخطبة :

« اعلموا يا أهل بلدنا أن عندكم قمح كتير وتبن وشعير ، وأنتم فى خير من رب العالمين فأنتم تفيقوا لزرع الوسية ، وإلا صبحكم الكاشف بداهية وبلية ، وغداً تسرحوا للعونة والسخرة ، وفيقوا للغنم والبقر ، واختوا أبياركم ، وفيقوا لدوركم وجداركم ، واكرموا الخطار ، بالعدس والبيسار ، تنجوا من عذاب النار . على إيش ياحبايب تهجرونا بلا سبب ، الله ، الله ، قولوا لا إله إلا الله ، من وحد الله ما خيبه الله ، آمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والخطبة عامية خالصة ، وفيها ما يدل على بؤس القوم وأن طعامهم «العدس والبيسار» كما أن فيها ما يدل على بطش الكاشف ، وما عرف به هذا العصر من «العونة» أو السخرة . ونحن لا نصل إلى قوله : على إيش ياحبايب ، حتى نفزع إلى الضحك على هذا الخلط فى خطبة يوم الجمعة التى أريد بها إلى الوعظ الدينى فاذا هى تخرج إلى هذا الهزل . ولعل أطرف ما رواه الشربينى فى هذا الصدد أن عالماً دخل إحدى قرى الريف ، فتوجه إلى المسجد ليصلى صلاة الجمعة ، وهناك رأى أهل القرية جميعاً داخلين فى المسجد « وكل واحد منهم معه

قفـة من خوص وفيها مغرفة وخشبة وسكين من حديد وفأر ميت معلق فى عنقه » فتعجب من فعلهم ومكث ينظر ، وإذا خطيبهم جاء فى نفس صورتهم ، فتقـدم منه وسأله عن هذه الحال ، فقـال له : أنا الذى أمرت بها . فقال له : هذا الأمر باطل والصلاة باطلة ، وما الذى دفعك إلى ذلك ؟ قال : حديث قرأته فى كتاب عندى يسـمى كتاب التيه . ولفظه حدثنى بخق بن تحق عن شعبان النـورى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لاتصح جمعـة أحدكم إلا بقفةومغرفة وخشبة وسكينة وفار . فطلب منه الـكتاب وإذا هو كتاب التنبيـه صحفه بالتيه ، وإذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تصح جمعة أحدكم إلا بعفة ، فصحفها بقفة ، وسكينة صحفها بسكينة ، وخشية صحفها بخشبة ، ومعرفةصحفها بمغرفة، ووقار صحفها بفار . وأما سند الحديث فهو حدثنى يحيى بن يحيى عن سفيان الثورى وقد صحفه على النحو السابق مما يدل على جهله وسوء فهمه .

ولعل القارئ قد لاحظ أن أساس هذه الفكاهات هو المفارقة فى المنطق ، فان الحقائق تنقلب صورها أمامنا ، وتبدو فى أشكال ممكوسة . وقد كان ابن سودون على ما مر بنا فى عددين سابقين يقيم فكاهته على هذا الأصل . ويظهر أن الشربينى كان يتأثر به فى هذا الجانب تأثرا واسعا، وقد ذكره فى مقدمة شرحه ، وأشاد به غير مرة فى كلامه ، وقد رآه يكتب خطابا على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبويه فى القاهرة ، وقد أخرجه فى صورة مضحكة ، فنقله عنه ، وأضاف إليه مكتوبا أرسله بعض فقهاء الريف سنة سبع وأربعين وألف كما يقول وهو يجرى على هذا النمط :

« السلام من النقى أبو على اللى اسمه محمد ، على حضرة صاحبنا اللى يطالع فى القرآن زى ما يطلع الزرع فى الغيطان ، ويتكلم بالفهامة ، ويا ما له علينـا شهامة ، اللى يبيع الـكتب المنظومة من الـكلام زى قصة الجارية تودد ، والورد فى الأكمام ، حاوى الـكتابة فى السطور ومن يعرف كتاب الفخ والعصفور . وانا فى شوق واشتياق لا يحمله جمل ولا ناقة ولا حمار ولا حمارين ولا بغل ولا بغلين ولا زرافة . وأنا كنت أريد أجيك وحياة راسك ما عوقنى إلا سر موجبى متقطعة . وأنا أقولك: شوف لى كتاب اكنت شفته من زمان ، وسمعت به ، آه عليه ، ويا ما قالوا لى عليه الناس ، وهو قصة مدينة النحاس ، وما جرى فيها من العجايب والغرايب . وأنا امبارح كنت رايح أشيع لك كلام افتكرته وعاود نسيته ، الله يسامحك ويسامحنى ، الله ، الله ، لا غالب إلا الله ، والسلام عليكم وعلى من كانوا جيرانك على اليمين والشمال . وكتب هذا الـكتاب أبو على واسمه محمد وكتب عنوانه : توصل دى الورقة مع أبو عمارة اللى يبيع فى بلدنا الفول الأخضر والمش والزيت الحار يوصلها لبولاق وواحد يبقى يوصلها لسوق الـكتب اللى يقولوا فيه حراج حراج . »

وفى هذا الـكتاب غفلة وتباله واضح ، وفيه أيضا هذا الجهل الذى يجعلنا نضحك لأنه يخالف مألوفنا فى العبارة والتفكير والمعرفة . وما يزال الشربينى يعرض علينا صورا مضحكة عن أهل الريف ومازجا لها ببعض النوادر القديمة التى قصها الرواة عن أبى نواس أو عن غيره . وإنه ليقف عند شخص ماجن حكم الاسكندرية ، وكان يسمى مرجان الحبشى ، وقد نسج نظما عارض همزية الابوصيرى ، وزاد تخميسه ، كما نسج نظما آخر عارض به خمرية لابن الفارض ، وكلا النظمين فى غاية الركاكة ، ولـكنهما بنيا على الهزل والخلاعة . ويقص الشربينى بعـد ذلك عن عالم يسمى الشيخ محمد السلسيلى أن طبعه كان يميل للاناث حتى إنه كان لا يأكل إلا من الزبدية ، ولا يشرب إلا من القلة ، ولا يركب من الدواب

إلا الأنثى ، ولا يقبل المذكر قط . ويستمر الشربينى على هذا المنوال يقص عن عصره ، حتى إذا وصل إلى آخر هذا الجزء الأول من كتابه نظم أرجوزة طويلة تتضمن أحوال أهل الريف وأوصافهم .

ويخرج الشربينى من هذا الجزء الذى اعتبره كالمقدمة لقصيدته إلى الجزء الثانى الذى عنى فيه بشرح القصيدة نفسها . وهناك يقف أولا عند نسب الناظم وهو أبو شادوف فيذكر الآراء المختلفة التى قيلت فى هذا النسب على نحو ما يصنع شراح القصائد الجدية ، ثم يتحدث عن قريته واختلاف الرواة فى اسمها ، ويستدل لكل رأى بشعر يؤيده ، وأخيرا يوفق بين هذه الآراء المتضاربة ، ثم يتركها إلى الحديث عن أسرته وخاصة أباه الذى كان يملك — كما يقول الشارح — حمارا أعرج وعنزتين وحصة فى ثور الساقية ونصف بقرة وعشر فرخات وديكا وأربع كيلات نخال من شعير . وما زال يتكلم عن أبى شادوف وعن والده وحياته ووفاته ، حتى إذا تم له كل ما يريد من التعريف بالشاعر وأسرته انتقل إلى الكلام عن القصيدة نفسها ، وإنه ليقف عند كل بيت من أبياتها فيشرحه شرحا مفصلا ، وهو يعتمد فى هذا الشرح على مرجع لغوى دقيق هو — كما يقول مرارا — القاموس الأزرق والناموس الأبلق :

والقصيدة نفسها ليست خفيفة الروح ، وإنما الخفيف الروح حقا شرحه لها ، وما ساقه أثناء هذا الشرح من تقاليد أهل الريف وعاداتهم فى مآكلهم ومشاربهم ، وسنتهم فى مجتمعاتهم ومجالسهم وكل ما يتصل بهم . وربما كان أطرف ما جاء فى هذا الجزء الثانى من كتابه خطبتين صاغهما على نسق خطب الجمعة ، وقد بناهما على ذكر المأكولات والدعوة لأصنافها وألوانها الممتازة ، وهو يستهل أولاهما على هذا النمط :

« الحمد لله مستحق الحمد على التحقيق ، الذى وفق بين الفرج والضيق ، وأمر بالحج إلى بيته العتيق ، وجعل السمن البقرى للعسل النحل رفيق . أحمده حمد من عنده من الجوع دسيسة ، وأغاثه الله بقصعة من البسيسة : بالفطير الرقيق . فملأ منها بطنه ، وأحسن بالله ظنه ، ونام على راحة من الله وتوفيق . وأشكره شكر عبد تقلع عن الحوامض والمش العتيق ، وأشهد ان سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله الناطق بالصدق والموصوف بالحق والتحقيق ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أهل الكشف والتحقيق وسلم تسليما كثيراً . أيها الناس ! مالى أراكم عن الزردة بالعسل النحل غافلون ، وعن الأرز المفلفل باللحم الضانى تاركون ، وعن البقلاوة فى الصوانى معرضون ، وعن الاوز السمين والدجاج المحمر لاهون ، فما هذا يا إخوانى إلا حال المفلسون ، وأفعال الفقراء المقلون . فجدوا رحمكم الله فى تحصيل الدراهم لتغتنموا المآكل النفيسة والمطاعم اللذيذة ... واغتنموا رحمكم الله تعالى هذه الموعظة ، ودعوا أكل المفلطة ، كالعدس والبيسار ، والمدمس والفول الحار . . . وعليكم بالأطعمة الفاخرة كاللحم الضانى ، فانه سيد طعام الدنيا والآخرة ، وعليكم بالشراب البارد ، ففيه حديث وارد » وما يزال فى هذا النحو المضحك حتى يختم الخطبة الأولى ويتركها إلى الخطبة الثانية فيقول :

« الحمد لله منزل الخبز ، ومربى الأرز باللبن ، وأشهد أن اللحم الضانى سيد الأطعمة ومصلح للبدن . واعلموا أن القشطة لا تترك ، وأن المهلبية أحسن وأبرك ، فتهيأوا لأكلكم وشربكم ، واعلموا أنكم غداً بين يدى الله موقوفون ، وبأعمالكم محاسبون ، وعلى رب العزة تعرضون ، وسيعلم الذين جاعوا أى منقلب ينقلبون . اللهم وارض عن الأربعة الأعيان

ـــين والزيتون والخوخ والرمان ، وارض اللهم من الستة الباقية من العشرة ، الأطعمة المفتخرة ، الماوردية والمهلبية ، والشعرية بالزغاليل المربية ، والأرز للفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر ، والكنافة المتبلة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر ، والقطايف الغارقة فى السمن والعسل ، والقرع المحشى باللحم والبصل ، والبقلاوة الموصوفة ، وخرفان القممة الملوفة ، واليخنى السمين ، والقرمزية متعنا الله وإياكم بهم أجمعين. اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات ، واجمع الشمل بعد الشتات ببقاء السلطان السكر النبات ، ابن القنانى ، من أصله من القصب اللوانى ، اللهم وأيده بأرماح القصب ، وبسبايط الرطب ، وبعناقيد العنب ، واجمعنا عليه من اول النهار وفى وسطه وآخره ، وانصره وانصر عساكره . اللهم وأهلك الثلاثة الفجار ، العدس والبسلة والبيسار . عباد الله من أراد خلع القبول أن تفاض عليه ، فليأكل اللوز بالسكر بين والديه ، وتفكهوا قبل الطعام ، واقتدوا بسنة خير الأنام ، ولا تتضاربوا ولا تتخابطوا وكونوا عباد الله إخوانا . »

وأظن القارئ يغرق الآن فى الضحك ، فقد تناول الشربينى هذا الموضوع الجاد الحازم موضوع خطبة الجمعة وما يكون فيها من وعظ وإرشاد ونهى بهذه الطريقة الهزلية . وإن أكثر ما يضحكنا منها أنه استعان فى الخطبتين بمصطلحات الخطباء يوم الجمعة ، فاستخدمها ، وقد تعمد ألا يترك صيغة من الصيغ التى تعود الخطباء أن يذكروها فى هذه المناسبة دون أن يحشدها فى خطبتيه وخاصة الخطبة الثانية ، إذ يقول فيها مثلا : « وسيعلم الذين جاعوا أى منقلب ينقلبون » : أو يقول : « اللهم وارض عن الأربعة الأعيان » أو يقول : « وارض اللهم عن الستة الباقية من العشرة » أو يقول : « اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات » أو يقول : « عباد الله » وما من ريب فى أن هذا كله هزل ، ولكنه كان — ولا يزال — هزلا مضحكا لما يبدو فيه من مفارقة المنطق والمألوف والعادة . والحق أن الشربينى كان نادرة زمانه فى التسخر والخلاعة ، والتدليس والفكاهة .

شوقى ضيف

من وراء البحار

الأدب فى إيطاليا

ما حال الأدب فى إيطاليا الآن ؟ لقد أجابت مجلة «هورايزن» (عدد نوفبر) على هذا السؤال فى مقالين وافيين : أحدهما لكاتب إنجليزى اسمه برنارد وول عاد من إيطاليا منذ شهور . وفى رأيه أنه قد يمكن أن يقال إن المؤلفين فى إيطاليا لم ينزل بهم من الضرر مثل ما نزل بأمثالهم فى إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية . فإذا كانت الفاشية قد تدخلت فى الأدب فى السنوات الأخيرة من حياتها ، لاسيما فى سنوات تعاونها تعاوناً وثيقاً مع ألمانيا ، فان الايطاليين فى الحقيقة لم يبذلوا عند اشتراكهم فى الحرب مجهوداً يشبه الحرب الاجماعية . فالتجنيد الحربى عندهم لم ينفذ تنفيذاً دقيقاً ، ولم يجند الناس للأعمال المدنية . وبعد أن عزل مسولينى ثم أعيد واحتل الألمان إيطاليا صارت الأمور إلى حال أسوأ ، وصار تسعة أعشار المؤلفين يكرهون الفاشية ويتمنون وصول الحلفاء . وأدى التجنيد للعمل وتدخل الجستابو إلى أن عمد الكتاب إلى الاختفاء . وكان يتبع وصول الحلفاء إلى مدينة بعد أخرى ظهور النشاط الأدبى والسياسى ، إذ صار من المستطاع نشر آراء كانت مختزنة منذ عشرين سنة إلى عالم الوجود . ومن بين ما كان يعترض الأدباء والمؤلفين الصعوبة الاقتصادية ؛ فان الجمهور القارىء محدود دائماً . ومن الصعب جداً على الأديب أن يعيش بقلمه إلا إذا ترجمت مؤلفاته إلى لغة أخرى . وهو ينهك قواه فى الصحافة ، ولكن هذه الصعوبة مألوفة لدى الايطاليين .

ولعل أسوأ صعوبة تقابلهم هى عزلتهم عن سائر العالم ، وصعوبة الحصول على الكتب الأجنبية والصحف الأجنبية ، ومعرفة ما يقال فى الخارج .

ومما لا ريب فيه أن نهاية الفاشية هى نقطة تحول فى حياة إيطاليا وليس من اليسير التكهن بما ينتظر أن تتحول إليه الأمور فى السنوات القليلة المقبلة ، إذ العوامل فى ذلك متشعبة .

ولعل أبرز شخصية بين الأدباء الفاشيين كان جبرييل دانتزيو مخترع الاسلوب الفاشى والعامل على نشره ، وقد توفى فى منتصف العشرة الثالثة من القرن العشرين ، ولكنه كان قد فقد نفوذه على الجيل الجديد قبل ذلك بمدة طويلة . وهو يلتمى فى الكثير من صفاته إلى الأدباء الذين عرفوا بأدباء الانحطاط فى انجلترا فى العشر السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، لاهتمامه بالعبارة أكثر من المعانى وبالنزعة الجنسية المريضة . ورواياته بعباراتها الخطابية وأبطالها الذين لا حياة فيهم لا تقرأ اليوم وإن أعجب بعض الناقدين الايطاليين ومنهم اميليو تشكى بقصائده النثرية مثل « ليدا سنزا سنيو » و « نوترنو » وهما بلا شك أصفى وأخلص من رواياته . أما شعره ففيه الجيد والردىء غير أن مجموعة شعره « الكيونى » ستظل

على الغالب أثراً من الآثار البارزة للأدب الايطالى فى الخمسين سنة الماضية .

ومن كتاب الفاشية جيوفانى پاپينى الذى اختفى الآن من الحياة العامة وفقد تأثيره . ولا ريب فى أن خير مؤلفاته هو كتاب «الرجل المنتهى» *Uomo Finito* الذى سبق اعتناقه الكاثوليكية . أما كتاباه اللذان ألفهما بعد ذلك عن حياة المسيح والقديس أوغسطان ففيهما من روح الأنانية ما يثير القلق فى نفوس القراء المتمسكين بالدين . ولعله وفق فى كتابه عن دانتى *Dante vivo* الذى قد يعاب باعتباره دراسة ، ولكنه فى المسائل الجدليــة استطاع أن يصف أخلاق مواطنه من أهل فلورنسة ، إذ وجد فيه شيئاً من أخلاقه .

وهنالك أردنجو سوفتشى وهو أيضاً من مقاطعة توسكانيا ، وقد تحول أخيراً إلى الاشادة بالنظام الرومانى والتغنى بالأزمنة القديمة كى يقاوم تأثير موسكو . وهو يكاد يدانى نيتشه فى صوغ العبارات القصيرة التى تعبر عن آرائه .

ومن المعاصرين الذين ورثوا الكثير من دانتزيو كورزيو ملاپرتى وقد سجنه الفاشيون بعض الزمن ثم عاد إلى مسالمتهم ، وساح فى أوربا أثناء الحرب مراسلا للصحف الفاشية . ونشر بعد تحرير روما كتابا يعتبر من أكثر الكتب الحديثة انتشاراً ، هو كتاب « كاپوت » وهو كتاب خفيف الظل لا يمل قارئه ، وفيه وصف لسياحاته فى بلاد السويد ومعاشرته لشيانو وأصدقائه ، ووصف للسهول الروسية والقرى تحت احتلال المحور . ومن مزايا هذا الكتاب رغبة المؤلف فى التمتع بالحياة ، غير أن القارئ يشعر بأنه تنقصه المبادئ ، وأنه ينظر إلى السياسة على أنها وسيلة للظهور ، وهو فى هذا يتأثر دانتزيو .

على أنه ظهر مؤلف آخر نافس كتاب ملاپرتى فى انتشاره ، ذلك هو كتاب «روما سنة ٤٣» لمؤلفه پاولو مونللى ، وهو كتاب ذو قيمة تاريخية وجدية حقيقية ، وهو صورة مفصلة لمدينة روما فى حكم الارهاب الألمانى .

وأشد خصوم دانتزيو ومؤلفاته هو بندتو كروتشى ، وهو أقوى شخصية مثقفة فى إيطاليا وإن كان قد تعرض لنقد جيوڤانى جنتيلى الذى يرى تناقضاً فى فلسفته . ويعتبر جنتيلى من كبار المفكرين . على أن كروتشى لم يجد بعد نداً له وإن وجد من يدانيه فى نقده الأدبى وهو مواطنه دى سنكتس De Sanctis من أهل نابولى .

ويظن الاجانب من الأمريكيين والانجليز عند ذكر الكتاب الناشئين أن خيرهم هو اجنازيو سيلونى مؤلف «فونتمارا» و«الخبز والنبيذ» ولكن الناقدين الايطاليين لا يعدونه من الكتاب الممتازين ويعيبون عليه أسلوبه ، ويرون صوره عن بلاد ابروزى خاطئة . ولعل تفسير ذلك أنه عاش طويلا فى الخارج . ولعل الاختلاف فيه بين الايطاليين والاجانب يرجع إلى أنه من رجال الحياة أكثر منه من رجال الفكر وأنه أقرب إلى الأنبياء منه إلى الفلاسفة ، وأنه إلى الحاسة الدينية والأخلاقية أكثر منه ميلا إلى العقليين والمتشككين . وهذا لا يلائم نزعة الأدباء الايطاليين الآن .

ومن رجال الأدب الناشئين فى إيطاليا الذين يقدرهم الناقدون البرتو موراڤيا وهو لا يزال فى الثامنة والثلاثين من عمره ، وقد بدأ التأليف مبكراً حين أخرج كتابه « الذين لا يبالون » فلقى نجاحا سريعاً لما فيه من روح تشاؤم فهو ينظر بعينيه إلى عالم متعب سقيم لا خير فيه . ولقد نحا موراڤيا فى بعض مؤلفاته نحو كفكا ، ولكن كفكا لا يلائم العقل الايطالى . ولعل خير مؤلفاته

بعد روايته الأولى هى رواية « المطامع الخاطئة » التى ألفها سنة ١٩٣٥ ثم قصته الأخيرة « اجوستينو » .

ولقد كتب أخيراً كتابا سماه « الأمل » وفيه قارن الشيوعية بالمسيحية فى القرنين الثالث والرابع ، فالجماهير الآن كما كانت وقتئذ عديمة الأمل ، وقد تجد شيئاً من الأمل الذى يجعل للحياة قيمة فى الشيوعية ، كما وجدها الجماهير فى المسيحية يومئذ . ولا يعتنق موزاڤيا مذهب الشيوعية ، وإنما هو على الأكثر يرى أن الحضارة الأوربية الآن فى مركز الحضارة الرومانية الوثنية يومئذ حين كانت تنظر إلى انتشار الثورة المسيحية فى ذعر . وقد يقال رداً على ذلك إن الشيوعية تحمل جميع علامات أمراض الحضارة القائمة ولا تفترق عنها افتراقا يبعث على الأمل . على أن هذا الكتاب يدل دلالة صريحة على أن العالم الايطالى الذى يصفه موراڤيا لايتفق بحال مع وصف سيلونى له ، وأن موراڤيا أقرب إلى الاديب الانجليزى ألدس هكسلى فى كتاب « عالم جديد جرئ » وفيه شئ من الكاتب پترونيو الايطالى القديم مؤلف كتاب «ساتيريكون» . ولا ريب فى أن مثل هذا الكاتب القديم لايزال يؤثر فى الأدب الايطالى . ذلك لأن بذور القديم لاتزال باقيــة فى إيطاليــا . ولا يستطيع الذى يعرف تلك البلاد أن ينكر مظاهر التراث الماضى العظيم البارزة بين أنقاض الحضارة القديمة التى عاشت على جوانب البحر المتوسط . وليس بين المؤلفين المعاصرين من يمثل اختلاط تلك الحضارة الماضية بالحضارة الأوربية القائمة مثل البرتو سڤينيو . وهو رجل يتحكم فيه العقــل ينزع إلى الشك . وقد درس الآداب اليونانية واللاتينية والفرنسية والألمانية دراســة واسعة ، وتأثر بأپولنير وستندال ونيتشه ، وقد قضى زمن الصبا فى أثينا فتأثر بها ، فكتاباته مليئة بالاشارات إلى الأساطير اليونانية .

ولقــد كان الشعراء أكثر الأدباء الايطاليين ثورة على دانتزيو وطريقته فى التعبير بألفاظه الفخمة وعباراته المتألقة . ووجد مارينتى وأنجارينى تشجيعاً فى هذا السبيل من الحكومة الفاشية . وقد وصف الأخير بأنه شبيه بيول ڤاليرى . ولكن أوجنيو مونتالى هو أقرب شبهاً . وقد يذكر إلى جانبهم يهودى من أهل تريستا هو أومبرتو سابا ، على أنه فى منحاه أقرب إلى الألمان منه إلى الفرنسيين .

هؤلاء هم الأدباء الذين أخذوا يظهرون وإلى جانبهم جماعة ظهروا واحتلوا مكانا ثابتاً . منهم امليو تشكى وماسيمو بونتمپلى وألدو پلازكى وڤيتورينى الذى ألف قصة تسمى « محادثات فى صقلية » يقول النقاد إنها خير ما أخرج فى العشرين سنة الأخيرة ، وألفارو مؤلف قصة « الانسان قوى » وهى قصة ألفت فى عهد الفاشية ، وظن أنها حملة على النظام الشيوعى ، على أن كثيرين من القراء يرون أنه أراد الحملة على النظام الفاشى . ويعتبر ماريو پراز من أكبر النقاد الذين يعرفون الأدب الانجليزى معرفة عميقة .

ويرى كاتب المقال الانجليزى أن الجمهور القارئ فى إيطاليا أكثر دراية وحضارة من مثيله بين الانجليز والأمريكيين ، على أنه جمهور لم يعرف بعد مساوئ الحياة الصناعية بأكملها . أما المجلات الادبية التى تظهر الآن فكثيرة ، منها مجلة « مركوريو » وتظهر فى روما ومجلة «الموندو» ، وتظهر فى فلورنسا .

صندوق وطني للأدب

ذكرت نشرة الانباء الفرنسية فى شهر ديسمبر أن الحكومة الفرنسية أصدرت بعد مناقشة فى الجمعية التأسيسية قانونا قضى بانشاء صندوق وطني للأدب، الغرض منه أولا تأييد النشاط الادبي للمؤلفين الفرنسيين وتشجيعه باعطاء مساعدات للعمل والدراسة، وقروض شرف وإعانات، ثم شراء الكتب وجميع الطرق الأخرى التى تكافئ أو تسهل وضع عمل أدبي مكتوب. وثانياً يساعد بالاعانات والقروض أو غير ذلك من الطرق، على أن يقوم الناشرون الفرنسيون بنشر أو إعادة نشر المؤلفات الأدبية التى يهم نشرها.

ويدير هذا الصندوق الوطني لجنة مؤلفة من تسعة أعضاء منتخبين لأربع سنوات، منهم ستة من المعهد الفرنسي، وثلاثة يمثلون النقابات الخاصة بالمؤلفين. وقد ضم إليهم سبعة أعضاء بحكم القانون، وهم المدير العام للعلوم والآداب ومستشار الآداب بوزارة المعارف الفرنسية، ومدير المكتبات، ومدير كوليج دى فرانس، ومدير الميزانية بوزارة المالية، وعميد كلية الآداب بجامعة باريس، ورئيس نقابة الناشرين.

ويعين بقرار من وزير المعارف سكرتير عام لهذا الصندوق الوطني.

وتقوم إيرادات هذا الصندوق على حصة يدفعها دور النشر والمؤلفون وإعانات إضافية سنوية من الدولة والتبرعات والوصايا وغير ذلك من الاموال التى يقرر وزيرا المعارف والمالية تحويلها إلى الصندوق.

ويرى مسيو دوهامل أن إنشاء هذا الصندوق لايقل شأنا عن صندوق المباحث العلمية الذى يعتبر من مفاخر الجمهورية الثالثة، وكتب يقول إن العاملين فى المباحث الأدبية والناشرين والشعراء كانوا يعتمدون فى الأزمان الماضية على معونة الأمير «وقد بذلت الهيئات الأدبية وبذل الأفراد أقصى جهد فى القرن التاسع لتشجيع الآداب. أما اليوم فالمجهود الفردى فى الاحتضار، والهيئات الأدبية حاق بها الخراب. إذن لقد جاء صندوق الآداب فى وقته.»

ومن أغراض الصندوق، فضلا عن تشجيع الآداب، إمكان نشر بعض المؤلفات التى لا تجد سوقاً تجارية لعدم انتشارها الكافى، وإن كانت هذه المؤلفات تعتبر فخراً للعقل الفرنسي. فنرى من ذلك أن عمل هذه المنشأة نافع جداً من الوجهتين الثقافية والوطنية.

اليابان ودستورها الجديد

يتطلع الناس دائما إلى أنباء الدول التى حاقت بها الهزيمة فى الحرب الأخيرة، ولكن هذه الأنباء شحيحة، وقد ألقت الدول المحتلة ستارا على امورها. ولعل أغمض الانباء وأقلها ما يأتى عن اليابان التى كانت أمة شرقية عظيمة، وكادت تنفرد أمريكا باحتلالها. غير أن مجلة «العالم اليوم» الانجليزية نشرت فى عدد نوفمبر مقالا طريفا كان مما جاء فيه:

أبلغت السياسة التى يجب أن يسير عليها جنرال ماك أرثر إليه لأول مرة فى برقية

أرسلت فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤٥ والقسم الاول من هذه البرقية يكرر تصريحات بوتسدام والقاهرة ، بأن تقصر اليابان على جزرها، وأن يشجع الشعب اليابانى على الرغبة فى الحرية وايجاد نظم ديمقراطية . وجاء فى فى القسم الثانى أن سلطة الامبراطور والحكومة اليابانية تكون خاضعة للقائد الأعلى ،وان يجرى على سياسة استعمال نظام الحكومة القائم دون تأييده . والقسم الثالث يقضى بتصفية القوات المسلحة والقضاء على آراء الحزب الوطنى ومحاكمة مجرمى الحرب . والقسم الرابع يحرم الانتاج النافع فى الحرب . وفى البرقية تأييد للآراء التى ترمى إلى توزيع الدخل وملكية وسائل الانتاج والتجارة ، وحل الشركات الكبرى . وهى خطوة أرادها الامريكيون ، والغالب أنها تنطبق على رغبة الحلفاء . وتعتبر آراء الجنرال ماك آرثر فى هذه السياسة قاطعة .ويعاونه فى طوكيو مجلس مؤلف من أربعة أعضاء ،كما يضع السياسة فى وشنطن لجنة مؤلفة من أحد عشر عضوا يمثلون الدول ذات المصالح فى الشرق الاقصى.

والفرق الواضح فى السياسة المتبعة نحو اليابان ومعاملة المانيا بعد تسليمها أن اليابان احتفظت بحكومتها ولو أن هذه الحكومة خاضعة للحلفاء عن طريق القائد الأعلى . فكان هذا النظام مما جعل ادارة اليابان أسهل مما لو غير النظام ، ولا سيما مع صعوبة اللغة . وكانت الحكومة عند تسليم اليابان فى يد المحافظين وقد استمروا فى تسلطهم على الحكومة وإن كان عليهم ان يحسبوا حسابا للآراء الحرة ، وكان سلوكهم مع القائد الأعلى لا غبار عليه .

كانت هنالك ناحيتان لمشكلة إعادة تنظيم اليابان : اولاهما القرارات السياسية ، وهذه قد أخذ فى تنفيذها فى الحال مثل تسريح القوات الحربية وإطلاق سراح المسجونين السياسيين والقبض على مجرمى الحرب ، ووضع دستور جديد ، ومنح الناس حق الانتخاب ، والقيام بانتخابات حرة ،وتوزيع الثروة وخاصة الأرض توزيعا عادلا

أما المشكلة الثانية وهى أعقد من الأولى فهى إعادة تربية الشعب بحيث تشرف السلطة على تعويده الحرية، فان العادات السيئة التى يراد أن يقلع الشعب عنها مرتبطة بحياته العامة أشد الارتباط . ولذلك أخذ أولو الأمر فى تدبير المئات من الأشرطة السينمائية وتحريم تمثيل المئات من المسرحيات الوطنية ، ومنع لوقت قصير تعليم الجغرافيا والتاريخ والأخلاق فى جميع المدارس وأخذ فى ابدال المؤلفات الخاصة بهذه المواد ، بل حرمت المدارس لوقت ما من تعليم جوانب من الحساب ، كما حرمت المصارعة واللعب بالسلاح . وعمل على أن تكون الجرائد حرة ، على ألا تنقد الحلفاء ، كما أبيح لها أن تخوض دون تردد فى موضوعات مثل مركز الامبراطور وجرائم الحرب .

وتعرضت السلطات للعقائد ، فهوجمت عقيدة ألوهية الامبراطور والاعتقاد فى روح القبيلة أما غير ذلك من العقائد البسيطة فلم يمس .

وكانت هناك مسألة تعرض لها أولو الأمر فى حذر وهى مسألة الكتابة اليابانية، فقد أخذت إدارة الجنرال ماك آرثر تشير باتباع الاحرف اللاتينية،وكان الغرض الذى ترمى إليه القضاء على ارتباط اليابان بماضيها ، وكان اليابانيون أنفسهم يبحثون فى هذه المسألة منذ سنوات .

وجاءت اليابان فى شهر مارس الماضى بعثة من المربين الامريكيين تدخلت فى هذا الامر ونصحت باتباع الحروف اللاتينية. ولكن يظهر أن هذه المسألة تركت الآن لليابانيين أنفسهم . وأخذ الامريكان فى إدخال الاشرطة السينمائية الامريكية ونشر المجلات الامريكية ، وأنشئت فى طوكيو عاصمة اليابان مكتبة أمريكية .

ومن المشاكل التى استرعت الأنظار مركز الامبراطور فى الدولة، فقد أذاع الامبراطور خطاب التسليم فى صباح ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ وكان يحمل خطابه أن اليابان خاضت حربا عادلة لتحرير آسيا ولكنها أخفقت فى مقصدها. وجاء فى عبارته قوله إنه يبدى «غاية الأسف لدول آسيا الشرقية المحالفة لنا والتى تعاونت باخلاص مع الامبراطورية فى العمل على تحرير شرق آسيا». وهذا الخطاب كان آخر ما أعلنه الامبراطور بملء حريته، وقد يكون له فى المستقبل شأن عظيم لدى اليابانيين. على أن الامبراطور تعاون باستمرار وفى صبر مع الحلفاء، وكانت سلطته هى التى أنقذت اليابان من كوارث فظيعة لو استمرت فى القتال. وقد أدى التسليم أيضاً إلى حقن دماء آلاف من رجال الحلفاء وتوفير أموال عظيمة وكان من أول أغراض الزعماء المحافظين الابقاء على العرش، وهم فى هذا مؤيدون من أكثر طبقات الشعب اليابانى. ولقد أرادوا الاتفاق على أى شئ حتى نزول الامبراطور عن عرشه بشرط أن يبقى العرش مصونا. وقد زار الامبراطور مركز الجنرال ماك آرثر فى هذا الخريف، كما أنه استقبل رجال الصحافة من الأمريكيين.

ومن الأمثلة على نفوذ الامبراطور وعمله على الاحتفاظ بشئ من الروح القديمة فى اليابان إقامة مسابقة إمبراطورية فى الشعر فالعادة أن يعلن الامبراطور عن موضوع قصيدة يتسابق فى نظمها الشعراء ويكون الموضوع وطنيا، وينظم الامبراطور نفسه قصيدة فى موضوع المسابقة، وفى أول السنة تقرأ خير القصائد مع قصيدة الامبراطور. وقد اختار الامبراطور فى هذه السنة موضوع الثلج فوق أشجار الصنوبر، وفكرة الثلج وفكرة أشجار الصنوبر لها فى نفس اليابانيين ذكرى خاصة، فان هاتين الفكرتين توحيان إليهم أن يفكروا كيف أن شجرة الصنوبر الصلبة العود التى لا تنقطع عنها الخضرة تنحنى تحت حمل الثلوج دون أن تنكسر. وقدمت فى هذه المسابقة خمس عشرة ألف قصيدة. ونصح الامبراطور شعبه فى قصيدته بأن يقلدوا شجرة الصنوبر التى لا تتغير أبدا وهى تنحنى تحت ثقل الثلوج. وفى نهاية هذه السنة اذاع الامبراطور حديثا أوضح فيه بعبارة حذرة بأنه نزل عن قداسته، ثم أخذ يقوم بعدة سياحات بين شعبه وهو فى ملابس بسيطة، وكان يوجه إلى العمال والموظفين عبارات خجلة، والعجيب أن هذا الأمر لم ينزل بالامبراطور من مكانته، بل زاد حب الناس له، وقد ظهر هذا الحب بارزا، حتى إن الشيوعيين الذين هم الحزب الوحيد الذى يعارض الملكية احتجوا على هذه السياحات لأنها تؤثر فى الانتخابات لغير صالحهم.

ووجه الجنرال ماك آرثر اهتماما خاصا للدستور اليابانى، فأمر بمراجعة الدستور القديم الذى ساعد الاستبداد الحربى، وطلب إلى بعض اليابانيين أن يراجعوه، ولكنهم أظهروا تمنعا ولم يقترحوا غير تعديلات قليلة الشأن فاصدر أمرا لمساعديه بأن يشتركوا فى هذا العمل، فكانت النتيجة وضع دستور جديد فى كل جوانبه، والراجح أن بعض اليابانيين كانت لهم يد فى تعديلاته وبذلك استطاع ماك آرثر أن يعلن أن مشروع الحكومة هو وثيقة يابانية وأنكر وزير الخارجية الأمريكية بيرنز أنه وثيقة أمريكية وقد جاء فى مطلع هذه الوثيقة :

« نحن الشعب اليابانى نعلن بلسان ممثلينا الذى انتخبناهم فى المجلس الوطنى أن إرادة الشعب هى صاحبة السيادة. »

وجاء فى المادة الأولى :

«الامبراطور هو رمز الدولة ورمز اتحاد

الشعب، وهو يستمد مركزه من سيادة إرادة الشعب.»

وهذا المشروع يجمع بين صفتين: أنه دستور، وأنه بيان؛ فقد جاء على سبيل المثال فى إحدى مواده:

«يحترم أبناء الشعب كأفراد وسيكون حقهم فى الحياة والحرية والسعى وراء السعادة فى حدود الصالح العام هو الهدف الأكبر فى التشريع وفى الأعمال الحكومية.»

وفى هذا الدستور ما يدل على عدم التفرقة فيما يتعلق بالجنس والعقيدة، والرجولة والأنوثة، والمركز الاجتماعى أو الأصل العائلى، كما ينص على أن الزواج يكون بموافقة الطرفين، وأن لهما حقوقا متساوية. ومن نصوصه أيضاً أن للناس جميعا حق العمل.

ويختار النواب بأصوات البالغين ومدة النيابة أربع سنوات. ويوجد مجلس مستشارين ينتخب نصف أعضائه لمدة ثلاث سنوات.

وفى الدستور نصوص تتعلق بحماية حقوق الفرد، وإنشاء محكمة عليا لها حق النظر فى دستورية القوانين. ولعل أغرب ما فى هذا الدستور هو النص على أن اليابان تنزل عن حق الحرب إلى الأبد.

قد يقال إن واضعى هذه الوثيقة اتجهوا اتجاها صحيحا، ولكن الزعماء المسئولين كانوا حذرين فى تعليقاتهم؛ فالدكتور مينوبى الحجة فى المسائل الدستورية والذى اضطهد من العسكريين لرأيه القائل بأن الامبراطور حاكم دستورى، يرى أن هذه الوثيقة ذهبت إلى أبعد من رأيه حين وصفت الامبراطور بأنه رمز الدولة، وأن عدم وجود قيود على سلطة مجلس النواب قد تؤدى إلى تشريعات مثيرة. أما المحافظون فمن رأيهم أن الدستور القديم لم يكن بعيداً عن الديمقراطية إذا نفذ بالطريق الصحيح. ويرى الشيوعيون أن هذا المشروع لا يمثل الارادة الحقيقية للشعب؛ إذ من رأيهم أن المشرعين أضاعوا وقتهم فى رسم هذا المشروع بدلا من العناية بمسائل الطعام والكساء والمأوى.

وقد أقر مجلس النواب هذا المشروع فى ٢٤ أغسطس الماضى بكثرة ٤٢١ صوتا أمام ٨ أصوات من المعارضين منهم ستة من الشيوعيين. وكذلك أقره مجلس الأعيان مع تعديلات بسيطة. والمنظور أن يوضع المشروع موضع التنفيذ فى مايو القادم. فاذا سحب لأمر ما ظل الدستور القديم قائما.

رأى فى الأدب المكشوف

أراد هنرى ميلر الكاتب الأمريكى الذى عاش طويلا فى فرنسا أن يدافع عن جنوحه إلى الاقذاع والفحش فى كتاباته، فكتب مقالا طويلا فى ذلك نشرت «فونتين» المجلة الفرنسية ترجمته. ويجمل آرائه فى هذا المقال، أن تعريف طبيعة الفحش، ومدلول هذه الكلمة لمن أصعب الأمور. فأرنست وسيجل فى كتابهما «إلى الأطهار» يقولان: إنك لا تجد شخصين يتفقان على معنى هذه الكلمة وما يشبهها من كلمات، ويقول د. ه. لورنس: إنه لا أحد يعرف مدلولها ويقول تيودور شرويدر الذى وقف حياته على الدفاع عن حرية القول: إننا لا نجد الفحش فى أى كتاب أو أية صورة، وإنما هو دائماً صفة فى عقل الذى يقرأ أو يشاهد الصورة. ولا يذكر فى سبيل القضاء على الأدب المفضوح غير السبب الذى يلتمس دائماً فى القضاء على حرية الفكر.

وإن ذكر الكتب الشهيرة التى يمكن وصفها

بأنها تحتوى على أدب مفضوح ليمدنا بفهرس طويل . وإذا أغفلنا الكلام على التوراة فان أكثر عظماء الكتاب من أفلاطون إلى هاقلوك إليس ومن أرسطفان إلى شو ومن كاتيل وأوفيد إلى شاكسبير وشللى وسوينبرن ، كل هؤلاء كانوا هدفا للاتهامات بتنكب الآداب العامة والأخلاق . وفى رأى هنتنجتن كيرتز وهو ناقد واسع الأفق أنه من الواجب تربية أولئك الموظفين الذين يشرفون على القوانين الموضوعة للكتب المباحة بحيث يكونون لائقين للعمل الذى يقومون به . ويعرف كيرتز الكتب ذات القيمة الأدبية والعلمية المعترف بها بأنها هى التى يؤيدها جمهور قوى من الرأى الناقد الأمريكى ويتفق على قيمتها . على أن هذا الرأى ليس صحيحاً فى إطلاقه ؛ فلقد ظلت أناشيد الشاعر أريتينو أربعمائة سنة قبل أن ينزع عنها الناس لعنة المعاصرين . وإذ من الكتب المعاصرة ما قد ينتظر مثل هذا الوقت قبل أن يعترف به . ويقول تيودور شرينجر فى شأن الكتب التى تشتمل على أدب مفضوح إنها ليست تستمد ذلك الوصف من مشتملاتها وإنما من تأثيرها المفروض فى شخص خيالى فى وقت مخصوص ربما تقع فى يده مرة ما .

أما هاقلوك إليس ، فيرى أن الفحش فى القول هو عنصر دائم من عناصر الحياة الاجتماعية وهو يمثل حاجة ثابتة للعقل . وفى رأيه أن البالغين فى حاجة إلى الأدب المكشوف بقدر حاجة الأطفال إلى قصص العفاريت ، ففيها راحة من ضغط مصطلحات الحياة ، وهذه الآراء شائعة لدى شعوب البحر المتوسط . ولكن إليس رجل إنجليزى ؛ ولذلك اضطهد من أجل آرائه وأفكاره فيما يتعلق بالأمور الجنسية . ومنذ القرن التاسع عشر لا يجرؤ كاتب انجليزى على التكلم فى هذه الموضوعات بإخلاص حتى لا يضطهد ويهاجم .

وقال ميلر : « لقـد اتهمت باستعمال لغـة مفضوحة أكثر من أى كاتب انجليزى من الأحياء . » ولذلك كانت آراؤه فى هذا الموضوع جديرة بالاهتمام . ويذكر أنه منذ نشر كتابه ؛ فى « مدار السرطان » فى باريس سنة ١٩٣٤ وصلته مئات من الرسائل من القراء من جميع الطبقات ، وهى فى مجموعها رسائل تهنئة وأكثر الذين عتبوا عليه للغته المكشوفة مدحوا الكتاب من جهة أخرى ، وقليل جداً الذين رأوا أن الكتاب ممل أو أنه لم يكتب بعناية . وظل كتابه هذا يباع بانتظام . ولا يزال النقاد يتكلمون عنه مع أنه قد مضى على نشره ما يزيد على عشر سنوات وبالرغم من انه حرم فى جميع البلاد الانجلوسكسونية . وكان الأثر الوحيد لهذا الحرمان أنه صار يباع سراً فتحدد لذلك عدد المبيع منه ، ولكنه حصل على خير طريقة للاعلان وهو تناقل ذكره بالكلام . وهو يوجد فى جميع المكتبات الهامة بالكليات ، وكثيراً ما يشير الأساتذة على تلاميذهم بقراءته وقد أخذ يحتل مكانه إلى جانب المؤلفات الأدبية الشهيرة التى كانت محرمة من قبل وصارت الآن من الكتب الثمينة . ولقد أثر هذا الكتاب بصفة خاصة فى الشباب على أنه لم يضلهم فى حياتهم بل أنمى فيهم الروح الأخلاقية .

وقد نسائل هل الكاتب الذى يلجأ إلى الوصف المفضوح مرغم على اتباع هذه اللغة ؟ وفى رأى ميلر أنه لم يعمد إلى هذه الطريقة إلا لأنه لم يجد خيراً منها للتعبير عن آرائه ، وهذا ما قد يعسر فهمه على غير الأديب . ولقد قيل إن الأديب الفنان بعد أن يصل إلى الفهم ينقل هذا الفهم إلى قرائه . وهذا الفهم سواء أكان يمس الشعور الجنسى أم أية علاقة أخرى ، لا بد أن يعارض عددا من المعتقدات العامة والمخاوف والمحرمات القائمة فى الغالب على الخطأ . ومهما كانت الأعذار التى تنتحل للأخطاء الشائعة فى العامة

مثل عدم التعليم أو معرفة الفنون معرفة سطحية أو غير ذلك من الأسباب ، فسيكون هنالك دائما هوة واسعة بين الأديب الخالق و بين جمهوره ؛ إذ أن هذا الجمهور بعيد عن سر هذه القوة الخالقة . والنضال الشعورى أو غير الشعورى الذى يقوم بين الأديب وجمهوره يكون مركزه الموضوع الذى اختاره الأديب عن ضرورة ، وهذه الضرورة ناشئة عن روح العصر التى هى منبع القوى السرية من قوى الحياة التى تريد لها مخرجا وتعبيراً . وهذا التعبير يكون عن طريق أولئك الماهرين فى اجتلاء الأسرار .

ومن العجيب أن المصورين لا يتعرضون إذا كانت منتجات ريشتهم غير ميسرة لدى الجمهور لمثل التدخل الذى يتعرض له الأديب ؛ لأن اللغة وهى طريقة الأديب للتعبير تكون عرضة للخلط العجيب . فقد يبدى حتى المثقفون قلة إدراك فى تذوق الآثار الفنية ، ولكنهم لا يجرءون على الإعراب عن رأيهم فى كيف يصلح الفنان خطأه . أما فى حالة الكتب ، فإن اقل الناس ثقافة ، لا يتورع عن إبداء رأيه فيها جهاراً .

ظهر حديثا

فى قفص الاتهام للأستاذ خالد الدرة (مطبعة الرشيد — بغداد)

كتيب صغير الحجم فى عشرين ومائة صفحة من القطع الصغير، ألفه مؤلفه « البغدادى » ليصف طائفة من رجالات العراق المعاصرين فى بعض ما يدور على ألسنة الناس من أحاديثهم، بأسلوب ساخر مؤلم مسرف فى السخرية والايلام، كأن له عند كل منهم ثأراً لا يجد سبيلا إلى أن يناله إلا « بلسانه » !

على أن المؤلف لم يغفل فى مقدمته عن التنبيه على الدافع الذى حمله على كتابة تلك الفصول بذلك الأسلوب الصريح اللاذع؛ فيقول: « والغريب من أمرى أنى لم أفطن إلى هذه الظاهرة الغريبة فى نفسى التى تدعونى إلى كل هذه السخرية من رجال عصرى، ولكنى أدرك بأنى أسوق هذه الفكاهات بروح مترعة بالألم، مليئة بالرغبة فى إصلاح مافسد، جياشة بالتوق إلى الحرية والانعتاق. فما فوضاى إذن إلا من الفوضى المتفشية فى عصرى . . . الخ » ثم ينفى أن يكون بينه وبين أحد ممن تناولهم بقلمه خصومة أو ثأر، بل إنه ليزعم أن ليس بينه وبين بعضهم « معرفة » !

ولقد يخيل لبعض من يقرءون هذه الفصول أن الصور المنكرة التى رسمها المؤلف لبعض من تناولهم فى كتابه هى صورهم الحقيقية على ما هم فى أنفسهم أو على ماهم فى أعين مواطنيهم، ولكن المؤلف ينفى هذه أيضاً، فيقول: « ولا يخال القارئ أن ما ورد فى هذا الكتاب من تهجمات مستندة إلى الوثائق الصحيحة، بل هى فى الغالب مقتبسة من أفواه الناس، ولعل بعضها منحوش من الأساس، غير أنى لا أشك بأنها تمثل أحاسيس الجماهير نحو رجالهم . . . »

إذن فلأى غاية أنشأ المؤلف كتابه هذا مادام لا يقصد إلى تصوير حقيقة، ولا إصلاح فاسد، ولا نيل ثأر؟ أهى السخرية فحسب؟

والمؤلف فيما يصف نفسه — بكل تواضع — محام « فاشل »، وفيما يصفه بعض أصدقائه — فى مقام المداعبة — محاق فاشل؛ وفيما يصفه البغداديون — فى مقام الاعتراف بمكانته — رئيس « ندوة الزبانية »؛ وهى ندوة أصدقاء كل « زبش » منهم له قلم ولسان ولا يعرف لأحد وقاراً، وكان لهم صحيفة تصدر فى بغداد اسمها « الوادى » كتبوا فى صدرها أنها لسان حال ندوة الزبانية! فهو إذن مذهب جديد فى النقد يقوم به الأستاذ خالد الدرة والزبانية من أصحابه!

والكتاب بضعة فصول، كل فصل منها يصور جلسة محكمة قد انعقدت لتحقيق دعوى تتناول رجلا من رجالات العراق، ويقوم بالدفاع عن المتهم فى كل جلسة منها الأستاذ خالد الدرة نفسه، ثم تنتهى القضية باطلاق المتهم؛ ولكن بأى لسان يدافع هذا المحامى عن موكليه؟

هذا نموذج من دفاعه فى قضية كان المتهم فيها مدير الأوقاف العام بالعراق:

المدعى العام: كيف جاز للمتهم أن يبيع عرصات الأوقاف لانسبائه بمقدار كبير بأحسن المواقع فى الشوارع الرئيسية وبأثمان زهيدة؟

المحامى : يروم من وراء ذلك تجميل العاصمة وجعلها على نسق موحد . والأقربون أولى بالمعروف !

المدعى العام : ولكن هؤلاء الأنسباء قد باعوا العرصات بأثمان باهظة إلى غيرهم ، فأى تناسق حدث لبنايات العاصمة وأى تجميل زين قصورها ؟

المحامى [رئيس المحكمة] : أرى أن المدعى العام قد خرج عن الصدد ، وكان الواجب عليه فى هذه الحالة أن يقيم الدعوى على الأنسباء لا على موكلى .

وهكذا يدور الحوار ويقوم أساس الدفاع ثم تحكم المحكمة بالبراءة !

وفى الكتاب إلى ذلك عرض طريف لبعض المذاهب السياسية والآراء التى تصطرع اليوم فى رءوس العراقيين ، يتضمنه ذلك الحوار الذى دار فى الجلسة التى انعقدت لمحاكمة جون بول وكان رئيس المحكمة فى تلك الجلسه هو العم سام وللمدعى العام ستالين ، وقام المؤلف بدور محامى الدفاع بأسلوبه وعلى طريقتــه وشبع مما يشتهى هزؤا وسخرية !

وينتهى المؤلف من كتابه فلا ينسى أن يكتب على الغلاف ثبتا بمؤلفاته ، وهى :

١ — المشعوذ (صودر)

٢ — لقتل الضجر (صودر)

٣ — حول المنهج القومى (صودر)

ثم هذا الكتاب ، وأظنه (تحت المصادرة) وكتاب آخــر « تحت الطبع » عنوانه « الهاربون من جهنم » .

١٠٠ يوم فوق الأنقاض للأستاذ محمد على العريان (مطبعة جلبي بدمنهور)

مؤلف هذا الكتاب شاب مصرى أتم دراسته العالية فى الجامعات الانجليزية ، ثم عاد إلى مصر فاستقر بها بضع سنين ، ثم اختارته وزارة المعارف عضوا فى بعثتها العلميــة إلى انجلترا فى العام الماضى ، فذهب إليها ، وهى — فيما يصف — أنقاض وخرائب ، فى الأبنية وفى النفوس ؛ فلم يقض على أرض بريطانيا فى هذه المرة غير مائة يوم ، ثم عاد مريضا مهزولا قد نهكته العلة فى جسده وفى أعصابه ، بما لقى من الجوع والحرمان المادى ، وما لقى من خراب النفوس وفساد الخلق من أثر الحرب المبيدة التى أشرفت ببريطانيا — فيما يرى — على هاوية الدمار واقتربت بهـا من النهاية المحتومة ، وإن كانت — فيما يعلم الناس — قد انتصرت فى الحرب وظفرت بعدوها فى المعركة الأخيرة !

وهو يصور فى هذا الكتاب الذى بين يدى بعض ما تهيأ له أن يراه — بين الأنقاض — فى أثناء إقامته هذه القصيرة فى بلاد الانجليز .

أول ملاحظة يلاحظها القــارئ لهــذا الكتاب ، أن مؤلفه شاب مصرى قد امتلأت نفسه مرارة وحقداً على بريطانيا التى تغصب بلاده حقها فى السيادة والحرية ؛ فهو لا يكاد ينظر إلى بريطانيا إلا من هــذه الزاوية ، ولا يكاد يعرف فيها إلا العدو الغاصب الذى يريد أن يستذل أعرق أمة فى تاريخ البشرية ليتخذ أبناءها عبيدا وخولا . وماذا يمكن أن يرى الناظر من هذه الزاوية إلا أمة من وحوش الناس ليس لها مثل عليا ولا فضائل إنسانية !

قد يكون كل ما وصفه المؤلف فى كتابه من أحوال الانجليز صدقا لا شك فيه ، وقد يكون فيه مبالغة ما ، وقد يكون فيه الصدق والتخييل ، وقد يكون كله مما خيل الهوى

والعصبية لشاب يؤمن بمصريته ، فكان هواه وعصبيته منظار عينيه ، فلم يصف ما هو فى الواقع بل وصف ما أراه منظاره الملون — قد يكون ذلك كله أو بعضه ، ولكنه على أى أحواله كتاب شاب مصرى عربى مسلم ألفه عن بريطانيا فى سنة ١٩٤٦ ، فهو على أى أحواله صادق فيما وصف عن رأى ورؤية ؛ إن لم يكن فى مرأى العين ففى مرآة النفس . والنفس أصدق خبراً من العينين !

ليس هذا الكتاب إذن من الكتب التى تلتمس فيها الجغرافيا أو التاريخ الاجتماعى لبلد من البلاد أو شعب من الناس فى زمن من الأزمان ؛ ولكنه كتاب فريد فى بابه لمن يلتمس العلم بأسباب اليقظة العقلية فى شعب مغلوب على أمره يجاهد للخلاص بروحه ومقوماته النفسية وكيانه الانسانى ، فى أزمة من أزماته السياسية الخانقة !

وليس هو قصة يرويها أو مشاهدات متسلسلة يصفها من حيث ابتدأت إلى حيث انتهت؛ ولكنها صور متباعدة فى الزمان والمكان والحادثة ، قد ضمها إطار واحد لتوحى جميعاً إلى ناظرها معنى واحداً هو المعنى الذى أراد المؤلف أن يجعله حقيقة ماثلة فى نفس كل قارئ عربى يريد أن يعرف بريطانيا ، أو هو مقدمات متساوقة جعل المؤلف كل مقدمة منها تمهيداً للمقدمة التى تليها لتؤدى المقدمات جميعها فى الخاتمة إلى النتيجة التى يستيقنها ويؤمن بها عن حقيقة بريطانيا .

والكتاب اثنان وعشرون فصلا فى أكثر من مائتين وستين صفحة . يتحدث المؤلف فى كل فصل منها عن يوم من أيامه أو حادثة من حوادثه منذ اختارته وزارة المعارف المصرية لبعثتها العلمية إلى يوم عودته — فى أسلوب تصويرى بديع فيه عذوبة ورقة ، وفيه جد وفكاهة ، وفيه رأى وقصص ، وفيه طرائف من خير ما يثبته الرحالون فى مذكراتهم عن بعض ما يقع تحت أعينهم من الصور الجديدة أو تنفعل به أنفسهم من المشاهدات والحوادث .

قد يعيب بعض الناقدين على الكاتب أنه لم يتجرد حين أخذ أهبته لكتابة هذه الفصول ليكون فيما يكتبه أقرب إلى الحقيقة الخالصة ؛ ولكن أكبر قيمة لهذا الكتاب فيما يبدو لى هو أن كاتبه لم يتجرد فكان فيه صادق التعبير عن نفسه وعن رأيه وعن الحقيقة التى ينبغى أن يؤمن بها كل مصرى يؤمن بمصريته ويعتز بنسبه فى أهله !

وددت لو حرص كل مبعوث عربى إلى أوربا أو إلى أمريكا على أن تكون فى يده نسخة من هذا الكتاب ، فلعله خير له من كثير مما يحمل من أمتعة السفر وأسباب الرحلة !

رجالات الحجاز للأستاذ إبراهيم هاشم الفلالى (مطبعة دار إحياء الكتب العربية القاهرة)

متى كان الحجاز لأهله من دون سائر الناس ؟

سؤال سألته نفسى وقد وقع بين يدى هذا الكتاب . من ذا يزعم أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أبا بكر وعمر وعليا ومعاوية ومن إليهم — من رجالات الحجاز ؟

إنهم كذلك بحكم المولد والمنشأ والمقام ، ولكن كم مسلماً ، أو كم عربياً ، اليوم وقبل اليوم ومنذ بضعة عشر قرنا قد خطر بباله حين تحضره هذه الأسماء الكريمة أن يسأل نفسه أو يسأل غيره عن وطن واحد من

هؤلاء فينسبه إلى الحجاز أو غير الحجاز من بلاد الله ؟

إنهم لأكبر مقاما وإن وطنهم لأوسع أفقا وأرحب جانبا من أن يذكر أو يذكر واحد منهم منسوبا إلى بلد . ولكن الأديب الحجازى ابراهيم الفلالى يأبى إلا أن يضيق الحلقة ، فيحاول كتابا يتحدث فيه عن رجالات الحجاز ، فيذكر منهم محمد بن عبد الله وأبا بكر وعمر وعثمان وعليا والحسن ومعاوية ومن شاء أن يذكر من الأسماء . . .

عاطفة الوطن المحلى أوحت إليه أن يكاثر كما يكاثر كل وطنى فى كل وطن بالأبطال من أهل بلده ؛ ولكن الحجاز وطن لكل مسلم ، ومحمد بن عبد الله والصفوة من أصحابه مواطنون لكل مسلم ولكل عربى فى بلده ، بل هم السادة فى كل بلد عربى وبكل أرض يذكر فيها اسم الله . فهل أصاب الأديب الحجازى هدفاً حين حجر الواسع وضيق الرقعة الفسيحة أم تراه لم يبلغ غرضاً ؟

إن الحجاز منذ قرون كيانه السياسى المتميز بحدوده ، فلماذا لم يخطر على بال أحد من أهل الحجاز منذ قرون أن يحاول فخراً محلياً بمثل ذلك ؟ أرأيت لو أن كورسيكا أرادت أن تباهى سائر فرنسا بأن منها نابليون بونابرت وأنه رجلها ، أتكون قد مجدت البطل الفرنسى العظيم حين أرادت أن يكون لها دون غيرها مجده !

ولكنها عاطفة مشكورة على كل حال ؛ لأنها من دلائل اليقظة القومية التى تلتمس المجد بأسبابه وبغير أسبابه !

وأدع هذه ، فلعل الخطأ كله فى عنوان الكتاب ، أو فى إطار الصورة لا فى الصورة نفسها ؛ فانه فى مجموعه كتاب يستحق أن يقرأ وأن يجد فيه قارئه تاريخاً وفناً وأسلوبا من أساليب التعريف بالخالدين فى تاريخ الأمة العربية حقيقاً بالتنويه والاشادة .

وهو إذن كتاب أدب وفن وتاريخ ، يتناول طائفة من رجالات العرب ، يؤلفه شاب عربى حجازى له اطلاع وبيان وفكر ، وبين جنبيه قلب يخفق بحب بلاده . وقد غاص المؤلف فى بطون الكتب التاريخية باحثاً منقباً يتتبع أبطال العرب ممن نشأوا فى الحجاز ، فجلا صورهم جلاء يستحق الاعجاب . ولم يلتزم فيمن جلا صورهم من هؤلاء الأبطال ترتيب التاريخ ولا خصائص الرجال ؛ إذ كان كل ما يعنيه أن يعرض صوراً حجازية مشرقة يحاول بها أن يثبت أن فى الحجاز رجالا ، وهى حقيقة قطعية الثبوت لم ينكرها أحد قط ولا ينكرها أحد اليوم ؛ وآيتها هذا الدين وهذه اللغة وذلك التاريخ الذى يتغنى بأمجاده اليوم أربعمائة مليون مسلم بين شرق الأرض وغربها ؛ ثم هذه النهضة الأدبية النشيطة بين شباب الحجاز والتى تبشر بالخير القريب إن شاء الله !

محمد سعيد العريان

في مجلات الشرق

أرستقراطية الأدب

مجلة « اليتيم العربي » حمص – العدد ٥ ، ٦ يعيب المحرر على الأدب العربي أرستقراطيته التي تنأى به عن تأدية الرسالة التي تقوم الآداب بتأديتها ، فيقول :

« إن الأدب هو صورة الحياة وظلها ، يسايرها أنى مشت ويقيها العثار كلما انحرفت عن جادة الاستقامة المرسومة لها ؛ فإن تقاصر الأدب عن تأدية هذه الرسالة أو انحرفت ظلاله وخطوطه عن مقارها الثابتة استحال الأدب عن غايته وصار ضربا من ضروب اللهو ووسيلة للعبث وتزجية الفراغ .

« وأدبنا العربي — ماخلا القليل منه — مصاب بهذه الآفة ، والشعراء المتفوقون عندنا لم يستطيعوا في جميع ما خلفوه من تراث أن ينطلقوا من إسارة القوى . ولهذا لن تجد سوى خوالج شخصية لا يشترك في الاحساس بها أبناء الحياة ، ولن تجد لها صدى إلا في نفوس الذين يشعرون بها ؛ وإلا فقل ما عسى أن يشعر الجمهور المتعطش إلى التعبير عن خوالجه وأحاسيسه بما طفح به ديوان البحتري من أماديح للمتوكل تجعله شخصا هبط من القمر وعاش في السحاب . وقل أي قلب يصهره الحزن يشعر بالعزاء عند ما يرثي المتنبي أخت سيف الدولة أو أمه وبينها وبين نساء العرب ما بين هذا الرثاء وبين الحزن الحقيقي في البعد ؟ . . . »

الطرافة والابتذال في الأدب العربي

مجلة « المجمع العربي » (دمشق الجزء ٩ ، ١٠) . يحاول الأستاذ إدوار مرقص نهجاً جديداً في الحديث عن الأدب العربي ، فيتحدث عن الطرافة والابتذال فيما يخرجه الكتاب والشعراء من فنون الأدب ، فيقول :

« ليس كل ماكان جديداً في الأدب يستحق أن يحسب طرفة أو تحفة ؛ فقد يكون الجديد قبيحاً ، إما لخطأ فيه ، وإما لنبو الطبع والذوق عنه ، وإما لمخالفته الطابع العربي في كيفية الأداء والترتيب .

« ثم ليس كل ما كان مطروقا في الأدب يستحق أن يحسب مبتذلا مستهجنا ؛ فقد يكون المطروق ضروريا لايضاح ما اكتنفه من الكلام ، وقد يكون مقبولا محتملا مماشاة لسياق الحديث في سذاجته وصراحته . »

وينتهي الكاتب من مقدمته هذه في معنى الطرافة والابتذال – إلى مايسميه « التوليد » وما يسميه « التنزه » . ويعني بالتوليد تناول المعنى التافه وتزيينه من بعض نواحيه ، أو تناول الفكرة المجملة وتفصيل شيء من زواياها ، أو الخاطر الناقص وتكميل نقصه . ويريد بالتنزه الارتفاع بالمعنى المبتذل إلى مستوى أعلى يضفي عليه نوعا من الطرافة والجدة .

ثم يمضى بعد هذا التحديد لمعنى التوليد والتنزه فى إيراد الشواهد من شعر القدماء على ما يسميه « تنزها » أدبياً فى المحسوسات العلوية كالشمس والقمر والنجوم وما يسبح أفلاكها . . . وفى المحسوسات الأرضية كالتراب والبحر والوحش وما يجرى فى واديها .

هو بحث طيب ! إن حق لى أن أصفه بأسلوب كاتبه ؛ فانه فيما أراه ضرب من «التنزه» : موضوع قديم فى أسلوب طريف !

المدارس العلمانية

مجلة «المسرة» بطريركية الروم الكاثوليك (لبنان — الجزء ١٠) . يوالى الأب أثناسيوس فرح البولسى بحوثه عن معضلة المدارس ، ويخص هذا العدد بحديث عن « حقوق الدولة وواجباتها فى شأن التربية بنوع الاجمال » .

وهو يرى أن للدولة حقاً غير مباشر على تربية الأولاد — أى حق الاشراف العام — فلها أن تمنع كل ما ينال الأولاد من سوء تصرف أهليهم وكل مخالفة صريحة لقوانين العدل العامة . ولها أيضاً أن تجعل أساليب التربية بنجوة من كل ما يضر بنمو الناشئة الجسدى أو بتهذيبها الادبى أو بتربيتها الوطنية الحقة . فمن حقها — أو من واجبها — تحريم بعض الكتب والمبادىء المفسدة للحقائق الدينية أو التعاليم الفلسفية الراهنة أو للآداب العامة أو الروح الوطنية الصادقة . . .

وحقوق الدولة — فيما يرى الكاتب — مقصورة على الوجهة المدنية من التربية ، وخاضعة لحقوق الأهل ، وهى إلى ذلك حقوق غير مباشرة ؛ إذ أن الحق الأول فى التربية لأولياء أمور الطلاب من أهل وأوصياء ومهذبين . والغاية من التربية عنده فردية قبل أن تكون اجتماعية ؛ إذ كان المقصود منها هو « تكوين الرجل الكامل » . وهى غاية تهم الامة والوطن ، ولكنها تهم الأفراد بالأكثر إذ يتوقف عليها أمر حفظهم ونموهم فى حياتهم .

وينتهى الأب أثناسيوس من بحثه ليدع للأستاذ قبلان الرياشى الحديث عن مستقبل المدارس فى لبنان بين التعليم الدينى والتعليم اللاديني ، ليقرر أن التعليم المدنى الحديث الذى أقرته حكومات العالم واستنبطه فكر العلماء الاحرار فى المدارس العلمانية هو تعليم مضر بالأحداث وبالحكومة والشعب ولا يصح اعتماد الحكومات عليه !

الطب والأدب

مجلة «الأديب» (لبنان ـ الجزء ١٢ـ٥) فى هذا العدد من مجلة « الأديب » يعالج الدكتور نقولا فياض عضو المجمع العلمى العربى بدمشق موضوعاً طريفاً من موضوعات الأدب ، أو من موضوعات النقد ، بالحديث عن العلاقة بين ما ينتجه الأدباء من آثار وبين « نفسياتهم » أو تشخيصهم السيكولوجى ، على ضوء الطب النفسى الحديث . وأحسبه يريد أن يخضع موازين النقد الادبى — إن كان للنقد الأدبى موازين مضبوطة — لما يقرره

الاطباء عن نفسية الأديب الذى يهم النقاد أن يتناولوا آثاره بالنقد والتشريح ؛ فان ثمة علاقة لا يمكن تجاهلها فى النقد — بين حالة الأديب النفسية ، أو العضوية ، وبين ماينتج من آثاره الفنية . وهو فى سبيل بسط هذا الرأى يتحدث عن التدخين والأدباء ، وعن الذكاء والجنون ، ويورد طائفة من الشواهد فى حياة طائفة من الأدباء المعروفين فى شتى أنحاء الأرض ، ويقص آراء طائفة من الباحثين فى حقائق النفس الانسانية ، ثم يتحدث عن النقد الأدبى والطبيب ، وعن الروية والبداهة .

وهو موضوع يحق للدكتور فياض بما اجتمع له من علم الطبيب وإدراك الأديب وتنوع الثقافات أن يعالجه وأن يبلغ فيه مبلغاً ، ولا أريد أن أقول كما يقول فى صدر بحثه :

« وهذا باب آخر ينفتح أمام الطبيب ليفسح له مجال العمل فى ميدان الخدمة العامة . لقد تدخل فى التاريخ فخلع عليه نوراً جديداً بما كشف من أسرار السحر والشيطنة وقراءة الغيب ، وتدخل فى القضاء فغير وجه النظر فى « المسئولية » ، فلم لا يدخل فى الادب والفن ؟ »

لا أريد أن أقول هذا الذى يقوله ؛ فانه يعالج فى مقاله ذاك نوعاً من الرأى لعله أخطر من أن يكون القصد منه « توسيع اختصاص الأطباء ! »

على أن فى المقال إلى ذلك اتجاها إلى فكرة ما لعل من حق الأدباء وأهل الفن أن يحسبوا حسابها ؛ لأنها تتصل بذواتهم وحرية اختيارهم لأسلوب العيش الذى يستريحون إليه ؛ فقد خيل إلى أن الكاتب الطبيب يؤيد رأى بعض الذين يقولون إن من حق الجماعة أن تعرض على الأدباء وأهل الفن أسلوبا خاصاً من أساليب الحياة تتحقق به مصلحة الجماعة فيما ينتج الأدباء وأهل الفن من آثار ! فهو يقول :

« والقصد من ذلك التدخل فى حياة الكاتب الصحية والعناية بدماغ الأديب أو الفن بحجة أن أكثر العاملين فى حقل الأدب والفن هم ملك الأطباء لأنهم من المرضى ، مرضى الارادة والأعصاب ، والذى يؤيد هذه النظرية ما يبدو من آثار التقهقر البدنى والعقلى فى السواد الأعظم منهم ، بما يشكون من سوء الهضم والصداع وتهيج الأعصاب المستمر ، إلى عدم الاستقرار الناتج من السهر والاجهاد وقلة المبالاة والافراط فى شرب المسكرات وفى التدخين وضيق ذات اليد أحيانا . . . »

من لى بأن يعرف أصحاب هذا الرأى قصة القروى والدجاجة التى كانت تبيض الذهب !

أعمدة التلغراف !

ويقص الأستاذ عبد الله المشنوق فى هذا العدد من مجلة « الأديب » قصة « البؤس المكتوم » فيصف حادثة رآها منذ عشرين عاما ، يوم كان مديراً لكلية المقاصد فى بيروت ، حادثة أب مصدور لا يكاد يجد ما يقوم بحاجات أطفاله الخمسة ولا مايقوم بحاجة نفسه وهو فى الدور الأخير من أدوار دائه المهلك . وعلم الكاتب من امره ما علم ، فسعى باسمه إلى أهل الخير ، أو من توسم فيهم الخير ، فما منهم إلا من اعتذر بلطف أو بغير لطف ، إلا رجلا واحداً لم يكن من أهل اليسار ، فانه معلم محدود الرزق ، ولكن الحادثة مست وجدانه فنزل عن نصف مايملكه للأب وأولاده الخمسة. ولا يقدر البؤس إلا البائسون !

ويصف الاستاذ المشنوق الحادثة كما رآها وكما سمع حوارها منذ عشرين سنة ، ثم يقول :

« لست أدرى لماذا انتقل فكرى — ساعتئذ — إلى التلغراف . . . لست أدرى ، ولكنى أعلم حق العلم أنى ربطت فى ذهنى هذا الحادث بما يجرى عادة عند ما يرسل إلى أحدنا برقية ؛ فهناك محطة مرسلة ترسل النبأ ، وهناك أسلاك مركزة على أعمدة تنقل النبأ ، وهناك محطة لاقطة تتلقى النبأ . هذا هو التلغراف : المحطة المرسلة هنا هى هذا البائس المصدور وأطفاله الخمسة ، والمحطة اللاقطة هى هذا البائس المعلم ، وأما أنا ، وأما صديقى التاجر المعتبر ، وصديقى الصناعى الكبير ، والطبيب المثرى الكبير — أولئك المعتذرون جميعاً — فقد كنا كلنا أعمدة التلغراف ! »

الوعى العلمى فى الشرق !

ويتحدث الأستاذ « قدامة » فى باب « مكتبة الأديب » بالعدد نفسه عن كتاب ظهر حديثاً فيصفه بما رآه ويعرضه لقرائه على الوجه الذى أراد ، ثم يقول :

« وأحسب أن لو قد نشر هذا الكتاب فى دنيا العرب والاسلام قبل ثلاثين سنة أو قبل عشرين سنة ، إذن لحظى بما هو خليق به من إحداث رجة فكرية تزلزل وتبنى فى وقت واحد . ولكن الكتب على ما يظهر ، ما عادت تجد صداها فى نفوس الناس ، هذه الأيام كما كانت قبل . وهو شىء محزن على كل حال ، ودليل جديد على هذه اللامبالاة التى تطبع حياتنا العصرية ! » .

وهى ملاحظة صادقة ليس فيها مبالغة فيما أراه ؛ فانى وإن غيرى من قراء هذه اللغة وكتابها ليشهدون ما تلقاه المؤلفات الحديثة فى العربية هذه السنين من عدم الاحتفال وقلة المبالاة ، على ما تبلغ من التجويد والأناقة فى الفكر والبيان والاخراج . لست أعنى قلة الاقبال على القراءة ، فلعل قراء العربية اليوم أكثر مما كانوا منذ عشرين سنة أو ثلاثين ، ولعل ما تتداوله الأيدى من المطبوعات الحديثة فى هذه السنين يبلغ أضعاف ما كان منذ سنين ، وإنما أعنى الاحتفال بالموضوع وحسن الاصغاء للرأى الجديد والفكر الجديد والانتاج البكر .

ليت شعرى أمن ضعف الوعى العلمى فى هذا المشرق هذه السنين ، أم من ضعف الانتاج ، أم هو رد الفعل للأحداث القريبة التى تناولت حياة أهل المشرق أفراداً وجماعات فأحملت فيهم ملكات وأيقظت ملكات ؟

لست أدرى ! ولكن الذى أدريه أن أية نهضة لا يؤازرها وعى علمى ناضج إنما هى نهضة حالم لا يلبث ان يرتد بعد اليقظة الخاطفة إلى نوم عميق !

الرواية حول العالم

« المكشوف » (بيروت — العدد ٤٤١)

« إليك بعض تحديدات الرواية فى مختلف أقطار العالم :

« الرواية الألمانية : هى كتاب تجد فيه البطلين يحب أحدهما الآخر منذ الفصل الأول ولكنهما لا يستسلم أحدهما للآخر .

« أما الرواية الفرنسية فتجد فيها البطلة قد استسلمت للبطل منذ الفصل الأول ، ثم يحاولان حتى الفصل الأخير أن يتجاهل كل منهما الآخر .

« وأما الرواية الروسية فبطلان لا يحب أحدهما الآخر ، ولا يصل أحدهما إلى الآخر ،

وترى الكاتب يحبر ١٤٥٠ صفحة فى هذا الموضوع مشحونة كآبة وغماً ! »

ترى ماذا يمكن أن يقولوا عن «الرواية» المصرية أو الرواية العربية ، إن قدر للرواية المصرية أو الرواية العربية أن يكون لها مكان بين الآداب العالمية ؟

الأدب العربى الحديث

قرأت فى العدد السابع من مجلة «الغرى» التى تصدر فى النجف إعلانا نشره أديب من لبنان يقول فيه إنه بسبيل إعداد ونشر كتاب عنوانه « الأدب العربى الحديث » يجمع الأصول والمصادر الهامة التى يصح الركون إليها لدراسة الأدب العربى الحديث : خصائصه وفنونه ؛ وأعلامه فى البلدان العربية وفى المهجر ، ويضم دراسات عن الحركة الاستشراقية فى الغرب وأعلام المستشرقين وآثارهم فى أوربا وامريكا . وهو لذلك يطلب إلى كل أديب من أدباء العربية أو من علماء المشرقيات أن يكتب إليه لمحة وجيزة عن تاريخه ، ومؤلفاته ، وما قد يكون كتبه من بحوث بإمضاء غير صحيح ، والمراجع التى يمكن الرجوع إليها لدراسة أدبه . . . الخ

وقلت لنفسى وقد قرأت هذا الاعلان : وماذا بقى من الكتاب لمؤلفه إذا كتب إليه كل أديب عربى وكل مستشرق بما يريد من هذه البيانات ؟ هل يبقى له غير عنوان الكتاب وتقسيم الفصول والحذف أو الزيادة !

ولكنه على كل حال مؤلف يريد أن يستند إلى أساس . وما أكثر المؤلفين الذين لا يستندون — فيما يؤلفون — إلى أساس !

فى مجلات الغرب

من القاهرة

تصدر فى مصر مجلتان باللغة الفرنسية : « مجلة القاهرة » La Revue du Caire التى تصدر فى القاهرة و « قيم » Valeurs التى تصدر فى الاسكندرية إلى الآن ، وتريد أن تصدر فى باريس فى المستقبل . (العدد الأخير المصرى منها يظهر فى شهر يناير سنة ١٩٤٧) .

فلنبدأ بـ « مجلة القاهرة » نوفمبر ١٩٤٦ . نلاحظ فى فهرس هذا العدد العنوانات الآتية :

« شجرة البؤس » لطه حسين ، ترجمة جاستون فييت . ومقال للشاعر الفرنسى المعروف ليون — بول فارج عن الكاتبة القصصية الفرنسية ذات الصوت البعيد ، كوليت عنوانه : « كوليت والحساسية النسوية فى فرنسا »(١) . وفى هذا المقال القصير البديع يحاول الكاتب فى نجاح وتوفيق أن يشرح لنا فن كوليت وحسن تلك الشخصية الأدبية التى يعتبرها كثير من النقاد أكبر الكتاب المعاصرين ، أو على الأقل ، فنانة مشوقة جداً . ويكفى أن أنقل بعض أسطر من هذه الصفحات المنيرة لتفهم غرض ليون — بول فارج وعنوان مقاله ، فهو يقول :

« إن الفرنسيات يشعرن بأن روح كوليت قريب جداً من روحهن ، يشاركهن فى أصله وجوهره ، وينبئ عن دخائلهن كما تنبئ العرافة الدقيقة الكريمة بأسرار الغيب دون أن تخطئ . »

أما المقال الذى يلى مقال ليون — بول فارج ، فيختلف عنه كل الاختلاف (٢) : يعرض لنا صاحبه كتاباً ألفه ثلاثة أطباء سويسريين عن التجارب الطبية التى أجراها أساتذة وأطباء ألمانيون فى بعض معسكرات الاعتقال ، ويقول ا . بالاشوفسكى (صاحب هذا النقد وهو رئيس معمل كيميائى فى معهد باستور فى باريس وكان أسيراً فى معسكر بوخنفالد — دورا Büchenwald-Dora إن هذا الكتاب ليس دعاية ضد النازية بل هو : « نص نزيه سجل فيه ثلاثة من الأطباء السويسريين نتائج البحوث العميقة التى قاموا بها فى داخاو Dachau وشتروتهولف Strutholf وهو أول شهادة تصدر عن أطباء من دولة غير محاربة ، فحكمهم إذاً له قيمته الخاصة . »

قرأت أيضاً فى « مجلة القاهرة » بحثاً طويلاً جداً (٣٠ صفحة) بالنسبة إلى الجو الأدبى الذى هو جو المجلة ، لأنه بحث قد يكون دقيقاً ، ولكن كان أجدر أن ينشر فى مجلة مخصصة لشؤون التربية والتعليم . فى هذا المقال(٣) يعرض المؤلف طرقاً جديدة فى التعليم قد ابتكرها بعض علماء النفس من الأمريكيين

---

(١) Léon-Paul Fargue, *Colette et la sensibilité féminine française.*

(٢) A. Balachowsky, *Cobayes humains.*

(٣) Jean Dupertuis, *John Dewey et l'école active.*

وقد نقبل القاعدة الآتية «المدرسة الفاعلة» (كما يسميها جون ديوى)، أى: «يجب ألا تكون المدرسة بيئة متكافئة تعد الطفل لحياة الرجل بل بيئة طبيعية، تشتق من الحياة نفسها؛ لأن أطفالنا يمضون فيها العصر الذهبى من حياتهم.» ولكننا نشعر بشىء من الخوف إذا قرأنا هذه القاعدة الاخرى: «مهما يكن موضوع الدرس يهتم الأساتذة فوق كل شىء باستخلاص العناصر الاقتصادية والاجتماعية وتأثير الوسط الطبيعى وجو الانسان فى النظم والعادات.»

مقال قصير عن الشاعر الفرنسى جيرار دى نيرڤال(١) وشهرية الكتب يختمان هذا العدد الاخير من «مجلة القاهرة».

مجلة «قيم» رئيس تحريرها الاستاذ ريتيه إيتيامبل René Etiemble أستاذ الأدب الفرنسى فى جامعة فاروق الاول. ويظهر من هذه المجلة أربعة أعداد فى كل سنة. وفى العدد الاخير لسنة ١٩٤٦ مقال قيم جداً أمضاه روبير ليڤيك وعنوانه «مفتاح الاسكندرية»(٢). يجب أولا أن نقول شيئاً عن صاحب المقال. لم ينس القراء أن الكاتب العظيم أندريه جيد قد زار مصر السنة الماضية وجاء معه روبير ليڤيك: وهو أستاذ فرنسى فى أثينا مخصص فى الأدب اليونانى الحديث.

ولما ذهب مؤلف «الباب الضيق» إلى الاسكندرية ليلقى فيها محاضرته، ذهب معه روبير ليڤيك. والصفحات التى نقرؤها فى مجلة «قيم» تعرض لنا تأثير عاصمتنا الثانية فى نفس هذا الاستاذ الفرنسى؛ وفى الوقت نفسه سنحت له الفرصة ليصور لنا حياة شاعر من أكبر شعراء اليونان المعاصرين، وهو كاڤافيس Kavafis. والواقع أن هذا المقال سيظهر مقدمة لترجمة قصائد كاڤافيس. والشاعر اليونانى — كما يعلم القراء — أمضى حياته فى الاسكندرية وتوفى فيها سنة ١٩٣٣. والذى يروق القارئ المصرى فى هذا المقال، هى الأسطر التى كتبها روبير ليڤيك فى وصف مدينة الاسكندر. والشىء الذى أثر فيه هو أن القديم اليونانى ما زال باقيا فى المدينة. ويكفى أن أنقل هذه الأسطر لترى إلى أى حد وصل روبير ليڤيك فى فهم الضمير الاسكندرى: «إن القديم اليونانى لحى يخفق فى الاسكندرية. هذا الحمال إنما هو غلام العهد القديم؛ وهذا السماك الثرثار بين الصور التى تزين جدران حانوته، إنما هو خطيب السوق فى العهد القديم. والصيادون فى حى الانفوشى الذين يضيئون البحر فى ظلمة الليل بعصابيحهم، إنما يرفعون، دون أن يعلموا، مشاعل عمرت آلاف السنين.»

من باريس

مجلة «فونتين» *Fontaine*، أكتوبر سنة ١٩٤٦. نقرأ فى هذا العدد مقالا غريبا للكاتب الأمريكى هنرى ميلر المشهور بقصص واقعية مسرفة فى الاقذاع. والاقذاع او بعبارة أصح دفاع عن الاقذاع، هو موضوع مقاله فى «فونتين». وقد اختار هنرى ميلر

(١) Henri Gerbert, *Gérard de Nerval, occultiste et chrétien.*

(٢) Robert Levesque, *La clef d'Alexandrie*

لمذهبه الجرىء العنوان الآتى : « الافـذاع وناموس الانعكاس »(1) وهو يشهد بأن الافحاش لا يوجد فى نفس الكاتب ولا فى الموضوع الذى يوصف به ، وإنما يوجد فى نفس القارئ الذى يستكشفه ثم ينكره . ويكفى أن يقرأ هذا البيان ، فى أكبر الظن ، ليعطى فكرة واضحة عن قصد مؤلف « الربيع الأسود » فى مقاله وفى كتبه أيضا .

ويستطيع القراء أن يرفهوا على أنفسهم بقراءة مقال آخر من نفس هذه المجلة ، وهو مقال عنوانه « الموسيقى وتعبيرها »(2) لبوريس دى شلوزير . يريد الكاتب أولا أن يمحص معنى كلمة « تعبير » ويريد ثانيا أن يجيب عن هذا السؤال : « هل تعبر الموسيقى عن شىء ؟ » ويعتقد بوريس دى شلوزير ، بإيجاز ، أن التأليف الموسيقى ينقل العواطف من المؤلف إلى المستمع ؛ وعلى الموقع أن يستخلص ما فى الموسيقى ، كما يستخلص عصير الليمون . ويختم الناقد الموسيقى قائلا : « إن الشخص الذى يخاطب المستمع بلا واسطة ، ليس هو المؤلف ؛ إن صاحب هذه المغامرة هو شخص آخر ، هو شخص ليس له كون إلا فى الأثر وبالأثر ، شخص خيالى ، صنعه المؤلف دون أن يعلم ، خلقا آليا ؛ والسبب الوحيد لهذا أن مادة إنتاجه هى الأصوات . »

مجلة « لانيف » *La Nef* نوفمبر سنة ١٩٤٦ . هذا العدد مخصص لمؤتمر الفكر الاوربى الذى أقيم فى جنيف من يوم ٢ إلى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤٦ . ومدينة جنيف هى التى اقترحت هذا الاجتماع الدولى لأسباب عرضها مسيو ا . بيكو **A. Picot** (نائب رئيس مجلس الدولة فى جنيف) حين يقول فى خطابه الافتتاحى للمؤتمر : « إن مدينة جنيف لم تستطع أن تنسى أنها أثرت تأثيرا أساسيا فى تاريخ الفكر الاوربى أربع مرات فى خمسة قرون . وهى تريد إذا أن تبقى مدينة حية لخير حضارتنا . » والأربع مرات التى أشار إليها مسيو بيكو هى :

١ — إصلاح كالفان **Calvin** .

٢ — فى القرن الثامن عشر عاش جان جاك روسو « مؤلف « العقد الاجتماعى » الذى يعارض آراء ڤولتير ودالامبير **D'Alembert** المترفة فى الحرية بآرائه الصارمة ، المطلقة ، المسرفة فى الديمقراطية . »

٣ — جنيف ، مدينة مدام دى ستال **Madame de Staël** التى أنشأت حب الأدب الأجنبى ودراسته .

٤ — جنيف التى أنشأت فى ١٨٤٤ جمعية الصليب الأحمر .

ولنرجع إلى المؤتمر . فقد قسمت أعماله إلى قسمين :

أولا : محاضرات ألقاها نواب الأمم الاوربية .

ثانياً : محاورات حول بعض الآراء التى عرضت فى هذه المحاضرات . وتنشر مجلة « لانيف » نبذاً لا بأس بها من محاضرات أشهر النواب الذين حضروا المؤتمر ، وتنشر أيضا بعض ما قيل فى المحاورات . فلنقف عند آراء بعض النواب فى موضوع المؤتمر ، وهو الفكر الاوربى كما قدمنا .

قال جوليان بندا فى خطابه وعنوانه « يجب أن ينشأ ضمير أوربى »(3) :

(1) Henry Miller, *L'obscénité et la loi de réflexion.*

(2) Boris de Schloezer, *L'expression musicale.*

(3) Julien Benda, *Une conscience européenne est une chose à créer.*

« لم يكن عند الأوربيين ضمير أوروبى قط كما يوجد عند الأمريكيين ضمير أمريكى . »

وخالف هذا الرأى الكاتب الفرنسى جان جيهينو (١) فى محاضراته حين قال : « نعم ، وجد عقل أوروبى وما زال يوجد الآن . لقد كاد يخلق وطنا جديدا فى السنين ١٩١٠ إلى ١٩٣٠ . لقد كاد يخلق أوربا . »

ويرى دينيس دى روچمون ، وعنوان حديثه هو : « أمراض أوربا » (٢) إنه « لا يمكن تصور تحالف أوربى إلا لأجل تحالف عالمى . »

ولعل بعض القراء يدهشون لتصريح الشاعر الانجليزى المشهور ستيفن سپندر (٣) الذى يعتقد بأن من واجب قادة الرأى والمقليين فى أوربا أن يطلبوا وأن يشجعوا زملاءهم الألمانيين ، لأن « هناك موضوعات كثيرة يجب أن نناقشها مع الألمان ، ولاسبيل إلى ذلك إلا فى جو من الثقة والمساواة . »

هذه الثقة لا تنال (وهذا ما يراه النائب الألمانى كارل ياسپرس (٤) وهو عالم من علماء الوجودية) إلا بإرضاء هذه المقتضيات الثلاثة :

ا) الاحتفاظ بتواصل شامل بين الناس.

ب) يجب أن تكون سادة آرائنا وألا نخضعها لأى مذهب مقرر مهما يكن .

ج) يجب أن نعترف بأن الحب فى آخر الأمر هو المرشد لنا ، ولكن مع شىء من القدرة على البغض إن لم يكن منه بد .

ولننتقل الآن إلى شهريات مجلة « لانيف » ففى شهرية الكتب قرأت لجى . س. لى كليش Guy. S. Le Clech نقداً قصيراً لكتاب لفه بول أرشامبو عنوانه : « إنسانية أندريه جيد » (٥) ويقول الناقد إن مسيو أرشامبو « لم يخف أنه يتجه بنوع خاص إلى المسيحيين . ويتخذ فى كتابه كله موقفا كاثوليكيا متسامحا كل التسامح . »

من لندن

مجلة « هورِزن » *Horizon* أكتوبر سنة ١٩٤٦ . فى هذا العدد مقال مترجم من الفرنسية عن كاتب عظيم من كتاب القرن التاسع عشر ، جوستاف فلوبير . صاحب هذا المقال رينيه دوميليل وعنوانه « لم يكن بد للأدب من فلوبير » (٦) . والذى نلاحظه أولا فى هذا المقال ، هو كثرة ما يرويه رينيه دوميليل من نصوص فلوبير التى قد لا يعرفها إلا القليل ؛ أى نبذ من رسائل مؤلف « سالامبو » Salammbô ويعتقد صاحب المقال أن « هذه الرسائل من أعجب النصوص التى أبقاها لنا القرن التاسع عشر لأن فلوبير شارك بنشاط فى الحركة العقلية لعصره ولم يكن شاهداً فقط ، يلاحظ ثم

---

(١) Jean Guehenno, *U.S.A. et U.R.S.S. face à l'Europe.*

(٢) Denis de Rougemont, *Les maladies de l'Europe.*

(٣) Stephen Spender, *Mission des intellectuels européens.*

(٤) Karl Jaspers, *L'homme et son destin.*

(٥) Paul Archambault, *Humanité d'André Gide.*

(٦) *The Inevitability of Flaubert,* by René Dumesnil.

يفكر ثم يكتب ، وإنما كان قائداً من قادة جيله والجيل اللاحق . فى تلك الأعوام التى ظل فيها كتاب آخرون يتعلمون ، كان فلوبير يظهر فى طور الأستاذ . » ونجد فى قراءة هذه النصوص المفيدة شيئاً آخر وهو أن فلوبير كان « نموذجاً للأمانة الفنية والجد والمثابرة على عمله اليومى ولصنعته بأرق معانى الكلمة . » كتب لصديقه ماكسيم دى كامب Maxime du Camp فى أوائل حياته الأدبية : « إذا أتيح للأثر الفنى أن يكون حسناً ، صادق الحسن ، فأى بأس عليه إذا انتظر الشهرة ستة أشهر أو ستة أعوام أو إلى ما بعد وفاة صاحبه ؟ » بل نجد أكثر من هذا كله فى رسائل فلوبير ، فذلك الرجل العجيب ، ذلك الفنان البارع كان فوق هذا كله متنبئاً إذ كتب فى أوائل حرب ١٨٧٠ « جائز أن تستأنف الحروب لأجل الوطنية من جديد . وقبل أن ينتهى قرن واحد ، سنشهد قتل مليون من الرجال فى موقعة واحدة . ومن يدرى ! لعل الشرق كله يكون ضد أوربا . لعل العالم القديم يسلح ضد العالم الجديد . ومشروعات كقناة السويس لعلها تكون نوعاً من التجربة أو المقدمة لمواقع منظمة لا نكاد نتصورها . »

ويجب أخيراً أن نقول إن مترجم هذا المقال الذى يملؤه الحب ، والاعجاب ، والجلال ، هو الكاتب الانجليزى المعروف ادوارد ساكفيل ويست Edward Sackville-West .

ويستطيع القراء الفنانون الذين يعنون بالفن المعاصر أن يقرأوا مقالا خصباً عن المثال الفرنسى جان أرب Jean Arp . وهذا المقال هو الفصل الرابع من دراسة موضوعها العام « المثالون المعاصرون » .

من موسكو

« مجلة الأدب السوفيتى » . وصلت هذه المجلة متأخرة جداً ، شأنها فى ذلك شأن كل ما يصل من روسيا . فعلى مكتبى منها ثلاثة أعداد : مارس ، أبريل — مايو ، ويونيو سنة ١٩٤٦ .

فاقرأ فى عدد مارس سنة ١٩٤٦ مقالا عن كتاب جديد صدر فى بريطانيا العظمى عن الكاتب الروسى الكبير تولستوى Tolstoy . وتلاحظ تامارا موتيليفا Tamara Motyleva صاحبة هذا النقد ، أن قصة تولستوى المشهورة « حرب وسلم » التى يقص فيها الكاتب العظيم حوادث الحرب التى سماها المؤرخون « حرب روسيا » بين نابليون والقيصر ، قد لقيت نجاحا مجدداً منذ الحرب العالمية الثانية . ولكن نجد الناقدة فى هذا الكتاب الأخير عن تولستوى لدريك ليون Derrick Leon شيئاً من خيبة الأمل بالنظر إلى القارئ الروسى . وربما كان أقوى ما يوجه إلى الكتاب من نقد أن المؤلف كما تقول الناقدة ، يردد فى تفصيل شديد أشياء يعرفها القارئ الروسى والانجليزى على السواء .

فى هذا العدد نقد لكتاب انجليزى عن كاتب روسى ؛ وعلى عكس ذلك نجد فى عدد أبريل — مايو نقداً لكتاب روسى عن الشاعر الانجليزى العظيم شيكسبير . وقد ألف هذا الكتاب ك . س . ستانيسلافسكى C. S. Stanislavsky ، وهو كتاب من نوع خاص ؛ لأن وجهته هى وجهة الممثل والمخرج بحيث يجد القارئ فيه أن « على الصفحة اليسرى نص « عطيل » وعلى الصفحة

اليمنى بإزاء كل دور تفسير ستانيسلافسكى » .
ولا ينبغى أن ننسى تنبيه القارىء إلى مقال خطير حقا فى العدد نفسه عنوانه « التحيز فى الأدب »(١) وخطورته تأتى عن أهمية موضوعه وهو الأدب والحرية . وصاحب المقال يعرض فى أول مرافعته دفاعا عن مذهبه ما يراه تيوفيل جوتيه Théophile Gautier وبودلير Baudelaire من أن « الفن يجب أن يكون له استقلاله التام . » وقد نقل بلزاك Balzac عن الفيلسوف الفرنسى دى بونالد de Bonald قوله : « يجب أن تكون للكاتب آراؤه البينة فى الأخلاق والسياسة وأن يعتبر نفسه مربيا . »

والمشكلة معروفة الأهمية، فيكفى أن أنقل جملة أو جملتين من هذا المقال الخطير لأعطى فكرة ولو تقريبية عن موقف صاحبه ، وهو فيما أعتقد الموقف الرسمى فى روسيا السوفيتية :

« لا يوجد أدب غير متحيز — إن الأدب المعاصر إنما هو كله متحيز — ليست المسألة أن تثبت أن كاتبا من الكتاب متحيز أولا ، وإنما هى أن نعرف لأى شىء يتحيز . »

امينة طه حسين

---

(١) *On the Tendentious in Literature*, by Evgeni Almazov.

فهرس المجلد الرابع

أكتوبر ١٩٤٦ — يناير ١٩٤٧

دراسات أدبية

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين.

(١) A. Lévy-Provençal, *L'héritage d'al Andalous.*

(٢) Alexandre Koyré, *Writers and their Critics, A Study in misunderstanding,* by Henri Peyre.

(٣) Etiemble, *Jean Dutour et «Le complexe de César».*

فهرس المجلد الرابع

دراسات فلسفية

دراسات اجتماعية واقتصادية

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

---

(١) Didier Anzieu, *L'existentialisme.*

(٢) Albert Camus, *Le Minotaure ou La halte d'Oran.*

دراسات فنية

قصص

شعر

من هنا وهناك

(١) Marcel Arland, *La fusée, Le miracle du dimanche.*

(١) René Sudre, *La renaissance de la science française.*

من وراء البحار

ظهر حديثاً

فى مجلات الشرق

فى مجلات الغرب